البداية والنهاية

تأليف

أبي الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي

المتوفى سنة ٧٧٤ هـ

وثقه وقابل مخطوطاته

الشيخ علي محمد معوض — الشيخ عادل أحمد عبد الموجود

وضع حواشيه

دكتور أحمد أبو ملحم — دكتور علي نجيب عطوي

الأستاذ فؤاد السيد — الأستاذ مهدي ناصر الدين

الأستاذ علي عبد الساتر

المجلد السابع

١٣ - ١٤

السنوات ٥٨٩ - ٧٦٧ من الهجرة النبوية

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

البداية والنهاية

تأليف

أبي الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي
المتوفى سنة ٧٧٤ هـ

وثقه وقابل مخطوطاته

الشيخ علي محمد معوض | الشيخ عادل أحمد عبد الموجود

وضع حواشيه

دكتور أحمد أبو ملحم | دكتور علي نجيب عطوي
الأستاذ فؤاد السيد | الأستاذ مهدي ناصر الدين
الأستاذ علي عبد الساتر

الجزء الثالث عشر

المحتوى:
السنوات ٥٨٩ - ٦٩٧ من الهجرة النبوية

منشورات
محمد علي بيضون
لنشر كتب السنة والجماعة
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان



الطبعة الأولى
١٤٢١ هـ ـ ٢٠٠١ م

دار الكتب العلمية
بيروت ـ لبنان
رمل الظريف، شـارع البحتري، بنايـة ملكـارت
هاتف وفاكس : ٣٦٤٣٩٨ ـ ٣٦٦١٣٥ ـ ٣٧٨٥٤٢ (١ ٩٦١)
صندوق بريد : ٩٤٢٤ ـ ١١ بيروت ـ لبنـان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Ramel Al-Zarif, Bohtory St., Melkart Bldg., 1st Floor
Tel. & Fax : 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98
P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Ramel Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1ére Etage
Tel. & Fax : 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98
B.P. : 11 - 9424 Beyrouth - Liban



ISBN 2-7451-2781-0

http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ثم دخلت سنة تسع وثمانين وخمسمائة [من الهجرة النبوية][1]

فيها كانت وفاة السلطان الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله تعالى.

استهلت هذه السنة وهو في غاية الصحة والسلامة، وخرج هو وأخوه العادل إلى الصيد شرقي دمشق، وقد اتفق الحال بينه وبين أخيه أنه بعد ما يفرغ من أمر الفرنج يسير هو إلى بلاد الروم، ويبعث أخاه إلى بغداد، فإذا فرغا من شأنهما سارا جميعاً إلى بلاد آذربيجان، بلاد العجم، فإنه ليس دونها أحد يمانع عنها[2]، فلما قدم الحجيج في يوم الاثنين حادي عشر صفر خرج السلطان لتلقيهم، وكان معه ابن أخيه سيف الإسلام، صاحب اليمن، فأكرمه والتزمه، وعاد إلى القلعة فدخلها من باب الحديد، فكان ذلك آخر ما ركب في هذه الدنيا، ثم إنه اعتراه حمى صفراوية ليلة السبت سادس عشر صفر، فلما أصبح دخل عليه القاضي الفاضل وابن شداد وابنه الأفضل، فأخذ يشكو إليهم كثرة قلقه البارحة، وطاب له الحديث، وطال مجلسهم عنده، ثم تزايد به المرض واستمر، وقصده الأطباء في اليوم الرابع، ثم اعتراه يبس حصل له عرق شديد بحيث نفذ إلى الأرض، ثم قوي اليبس فأحضر الأمراء الأكابر فبويع لولده الأفضل نور الدين علي، وكان نائباً على دمشق، وذلك عندما ظهرت مخايل الضعف الشديد، وغيبوبة الذهن في بعض الأوقات، وكان الذين يدخلون عليه في هذه الحال الفاضل وابن شداد وقاضي البلد ابن الزكي، ثم اشتد به الحال ليلة الأربعاء السابع والعشرين من صفر، واستدعى الشيخ أبا جعفر إمام الكلاسة ليبيت عنده يقرأ القرآن ويلقنه الشهادة إذا جد به الأمر، فذكر أنه كان يقرأ عنده وهو في الغمرات فقرأ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [الحشر: ٢٢] فقال: وهو كذلك صحيح. فلما أذن الصبح جاء القاضي الفاضل فدخل عليه وهو في آخر رمق، فلما قرأ القارىء: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [التوبة: ١٢٩، والرعد: ٣٠] تبسم وتهلل وجهه وأسلم روحه إلى ربه سبحانه، ومات رحمه الله، وأكرم مثواه، وجعل جنات الفردوس مأواه، وكان له من العمر سبع وخمسون سنة، لأنه ولد بتكريت في شهور سنة ثنتين وثلاثين وخمسمائة، رحمه الله، فقد كان ردءاً للإسلام وحرزاً وكهفاً من كيد الكفرة اللئام، وذلك بتوفيق الله له، وكان أهل دمشق لم يصابوا بمثل مصابه، وود كل منهم لوفداه بأولاده وأحبابه وأصحابه، وقد غلقت الأسواق واحتفظ على الحواصل، ثم أخذوا في تجهيزه، وحضر جميع أولاده وأهله، وكان الذي تولى غسله خطيب البلد الفقيه الدولعي، وكان الذي أحضر الكفن

---

(١) سقط في ط.

(٢) يمانع عنها: يدافع عنها.

ومؤنة التجهيز القاضي الفاضل من صلب ماله الحلال، هذا وأولاده الكبار والصغار يتباكون وينادون، وأخذ الناس في العويل والانتحاب والدعاء له والابتهال، ثم أبرز جسمه في نعشه في تابوت بعد صلاة الظهر، وأم الناس عليه القاضي ابن الزكي ثم دفن في داره بالقلعة المنصورة، ثم شرع ابنه في بناء تربة له ومدرسة للشافعية بالقرب من مسجد القدم، لوصيته بذلك قديماً، فلم يكمل بناؤها، وذلك حين قدم ولده العزيز وكان محاصراً لأخيه الأفضل كما سيأتي بيانه، في سنة تسعين وخمسمائة، ثم اشترى له الأفضل داراً شمالي الكلاسة في وزان ما زاده القاضي الفاضل في الكلاسة، فجعلها تربة، هطلت سحائب الرحمة عليها، ووصلت ألطاف[1] الرأفة إليها. وكان نقله إليها في يوم عاشوراء سنة اثنتين وتسعين، وصلى عليه تحت النسر قاضي القضاة محمد بن علي القرشي بن الزكي، عن إذن الأفضل، ودخل في لحده ولده الأفضل فدفنه بنفسه، وهو يومئذٍ سلطان الشام، ويقال إنه دفن معه سيفه الذي كان يحضر به الجهاد والجلاد، وذلك عن أمر القاضي الفاضل، وتفاءلوا بأن يكون معه يوم القيامة يتوكأ عليه، حتى يدخل الجنة إن شاء الله. ثم عمل عزاؤه بالجامع الأموي ثلاثة أيام، يحضره الخاص والعام، والرعية والحكام، وقد عمل الشعراء فيه مراثي كثيرة من أحسنها ما عمله العماد الكاتب في آخر كتابه البرق السامي، وهي مائتا بيت واثنان، وقد سردها الشيخ شهاب الدين أبو شامة في الروضتين، منها قوله:

شَمِلَ الهُدَى وَالمُلْكُ عَمَّ شَتَاتُهُ ... وَالدَّهْرُ سَاءَ وَأَقْلَعَتْ حَسَنَاتُهُ
أَيْنَ الَّذِي مُذْ لَمْ يَزَلْ مَخْشِيَّةً ... مَرْجُوَّةً رَهَبَاتُهُ وهِبَاتُهُ؟
أَيْنَ الَّذِي كَانَتْ لَهُ طَاعَاتُنَا ... مَبْذُولَةً وَلِرَبِّهِ طَاعَاتُهُ؟
بِاللهِ أَيْنَ النَّاصِرُ المَلِكُ الَّذِي ... للهِ خَالِصَةً صَفَتْ نِيَّاتُهُ؟
أَيْنَ الَّذِي مَا زَالَ سُلْطَاناً لَنَا ... يُرْجَى نَدَاهُ وَتُتَّقَى سَطَوَاتُهُ؟
أَيْنَ الَّذِي شَرُفَ الزَّمَانُ بِفَضْلِهِ ... وَسَمَتْ عَلَى الفُضَلاءِ تَشْرِيفَاتُهُ؟
أَيْنَ الَّذِي عَنَتِ[2] الفِرنجُ لِبَأْسِهِ ... ذُلاً، وَمِنْهَا أُدْرِكَتْ ثَارَاتُهُ؟
أَغْلالُ أَعْنَاقِ العِدَا أَسْيَافُهُ ... أَطْوَاقُ أَجْيَادِ الوَرَى مِنَّاتُهُ[3]

وله:

مَنْ لِلْعُلَى مَنْ لِلذُّرَى مَنْ لِلْهُدَى ... يَحْمِيهِ؟ مَنْ لِلْبَأْسِ مَنْ لِلنَّائِلِ؟
طَلَبَ البَقَاءَ لِمُلْكِهِ فِي آجِلٍ ... إِذْ لَمْ يَثِقْ بِبَقَاءِ مُلْكٍ عَاجِلِ
بَحْرٌ أَعَادَ البَرَّ بَحْراً بِرُّهُ ... وَبِسَيْفِهِ فُتِحَتْ بِلادُ السَّاحِلِ
مَنْ كَانَ أَهْلُ الحَقِّ فِي أَيَّامِهِ ... وَبِعِزِّهِ يُرْدُونَ أَهْلَ البَاطِلِ

(١) ألطاف: هدايا.
(٢) عنت الفرنج: خضعت وذلت.
(٣) مناته: جمع مِنّة، وهي النعمة.

وَفُتُوحُهُ وَالقُدْسُ مِنْ أَبْكَارِهَا أَبْقَتْ لَهُ فَضْلاً بِغَيْرِ مُسَاجِلِ(١)
مَا كُنْتُ أَسْتَسْقِي لِقَبْرِكَ وَابِلاً وَرَأَيْتُ جُودَكَ مُخْجِلاً لِلْوَابِلِ
فَسَقَاكَ رضوانُ الإِلٰهِ لِأَنَّنِي لا أَرْتَضِي سُقْيَا الغَمَامِ الهَاطِلِ

تركته وشيء من ترجمته

قال العماد وغيره: لم يترك في خزانته من الذهب سوى جرم واحد ـ أي دينار واحد ـ صورياً وستة وثلاثين درهماً. وقال غيره: سبعة وأربعين درهماً، ولم يترك داراً ولا عقاراً ولا مزرعة ولا سقفاً، ولا شيئاً من أنواع الأملاك. هذا وله من الأولاد سبعة عشر ذكراً وابنة واحدة، وتوفي له في حياته غيرهم، والذين تأخروا بعده ستة عشر ذكراً أكبرهم الملك الأفضل نور الدين علي، ولد بمصر سنة خمس وستين ليلة عيد الفطر، ثم العزيز عماد الدين أبو الفتح عثمان ولد بمصر أيضاً في جمادى الأولى سنة سبع وستين، ثم الظافر مظفر الدين أبو العباس الخضر، ولد بمصر في شعبان سنة ثمان وستين، وهو شقيق الأفضل، ثم الظاهر غياث الدين أبو منصور غازي، ولد بمصر في نصف رمضان سنة ثمان وستين، ثم العزيز فتح الدين أبو يعقوب إسحاق، ولد بدمشق في ربيع الأول سنة سبعين. ثم نجم الدين أبو الفتح مسعود، ولد بدمشق سنة إحدى وسبعين وهو شقيق العزيز، ثم الأغر شرف الدين أبو يوسف يعقوب، ولد بمصر سنة ثنتين وسبعين، وهو شقيق العزيز أيضاً، ثم الزاهر مجير الدين أبو سليمان داود، ولد بمصر سنة ثلاث وسبعين وهو شقيق الظاهر، ثم أبو الفضل قطب الدين موسى، وهو شقيق الأفضل، ولد بمصر سنة ثلاث وسبعين أيضاً، ثم لقب بالمظفر أيضاً، ثم الأشرف معز الدين.أبو عبد الله محمد، ولد بالشام سنة خمس وسبعين، ثم المحسن ظهير الدين أبو العباس أحمد ولد بمصر سنة سبع وسبعين، وهو شقيق الذي قبله، ثم المعظم فخر الدين أبو منصور تورانشاه ولد بمصر في ربيع الأول سنة سبع وسبعين، وتأخرت وفاته إلى سنة ثمان وخمسين وستمائة، ثم الجواد ركن الدين أبو سعيد أيوب ولد سنة ثمان وسبعين، وهو شقيق المعز، ثم الغالب نصير الدين أبو الفتح ملكشاه، ولد في رجب سنة ثمان وسبعين وهو شقيق المعظم، ثم المنصور أبو بكر أخو المعظم لأبويه، ولد بحران بعد وفاة السلطان، ثم عماد الدين شادي لأم ولد، ونصير الدين مروان لأم ولد أيضاً. وأما البنت فهي مؤنسة خاتون تزوجها ابن عمها الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب رحمهم الله تعالى.

وإنما لم يخلف أموالاً ولا أملاكاً في لكثرة عطاياه وهباته وصدقاته وإحسانه إلى أمرائه ووزرائه وأوليائه، حتى إلى أعدائه، وقد تقدم من ذلك ما يكفي، وقد كان متقللاً في ملبسه، ومأكله ومشربه ومركبه، وكان لا يلبس إلا القطن والكتان والصوف، ولا يعرف أنه تخطى إلى

(١) مساجل: مبارٍ ومفاخر.

مكروه، ولا سيما بعد أن أنعم الله عليه بالملك، بل كان همه الأكبر ومقصده الأعظم نصرة الإسلام، وكسر أعدائه اللئام، وكان يعمل رأيه في ذلك وحده، ومع من يثق به ليلاً ونهاراً، وهذا مع ما لديه من الفضائل والفواضل، والفوائد الفرائد، في اللغة والأدب وأيام الناس، حتى قيل إنه كان يحفظ الحماسة بتمامها، وكان مواظباً على الصلوات في أوقاتها في الجماعة، يقال إنه لم تفته الجماعة في صلاة قبل وفاته بدهر طويل، حتى ولا في مرض موته، كان يدخل الإمام فيصلّي به، فكان يتجشم القيام مع ضعفه، وكان يفهم ما يقال بين يديه من البحث والمناظرة، ويشارك في ذلك مشاركة قريبة حسنة، وإن لم يكن بالعبارة المصطلح عليها، وكان قد جمع له القطب النيسابوري عقيدة فكان يحفظها ويحفظها من عقل من أولاده، وكان يحب سماع القرآن والحديث والعلم، ويواظب على سماع الحديث، حتى أنه يسمع في بعض مصافه جزء وهو بين الصفين فكان يتبجبح بذلك ويقول هذا موقف لم يسمع أحد في مثله حديثاً، وكان ذلك بإشارة العماد الكاتب. وكان رقيق القلب سريع الدمعة عند سماع الحديث، وكان كثير التعظيم لشرائع الدين. كان قد صحب ولده الظاهر وهو بحلب شاب يقال له الشهاب السهروردي، وكان يعرف الكيميا وشيئاً من الشعبذة والأبواب النيرنجيات، فافتتن به ولد السلطان الظاهر، وقرّبه وأحبه، وخالف فيه حملة الشرع، فكتب إليه أن يقتله لا محالة، فصلبه عن أمر والده وشهره، ويقال بل حبسه بين حيطين حتى مات كمداً، وذلك في سنة ست وثمانين وخمسمائة، وكان السلطان صلاح الدين من أشجع الناس، وأقواهم بدناً وقلباً، مع ما كان يعتري جسمه من الأمراض والأسقام، ولا سيما في حصار عكا، فإنه كان مع كثرة جموعهم وأمدادهم لا يزيده ذلك إلا قوة وشجاعة، وقد بلغت جموعهم خمسمائة ألف مقاتل، ويقال ستمائة ألف، فقتل منهم مائة ألف مقاتل.

ولما انفصل الحرب وتسلموا عكا وقتلوا من كان بها من المسلمين وساروا برمتهم إلى القدس جعل يسايرهم منزلة منزلة ومرحلة مرحلة. وجيوشهم أضعاف أضعاف من معه، ومع هذا نصره الله وخذلهم، وسبقهم إلى القدس فصانه وحماه منهم، ولم يزل بجيشه مقيماً به يرهبهم ويرعبهم ويغلبهم ويسلبهم حتى تضرعوا إليه وخضعوا لديه، ودخلوا عليه في الصلح، وأن تضع الحرب أوزارها بينهم وبينه، فأجابهم إلى ما سألوا على الوجه الذي أراده، لا على ما يريدونه، وكان ذلك من جملة الرحمة التي رحم الله بها المؤمنين، فإنه ما انقضت تلك السنون حتى ملك البلاد أخوه العادل فعز به المسلمون وذل به الكافرون، وكان سخياً جبياً ضحوك الوجه كثير البشر، لا يتضجر من خير يفعله، شديد المصابرة على الخيرات والطاعات، فرحمه الله وقد ذكر الشيخ شهاب الدين أبو شامة طرفاً صالحاً من سيرته وأيامه، وعدله في سريرته وعلانيته، وأحكامه.

فصل

وكان قد قسم البلاد بين أولاده، فالديار المصرية لولده العزيز عماد الدين أبي الفتح، وبلاد دمشق وما حولها لولده الأفضل نور الدين علي، وهو أكبر أولاده، والمملكة الحلبية لولده الظاهر غازي غياث الدين، ولأخيه العادل الكرك والشوبك وبلاد جعبر وبلدان كثيرة قاطع

الفرات، وحماه ومعاملة أخرى معها للملك المنصور محمد بن تقي الدين عمر ابن أخي السلطان، وحمص والرِحبة وغيرها لأسد الدين بن شيركوه بن ناصر الدين بن محمد بن أسد الدين شيركوه الكبير، نجم الدين أخي أبيه نجم الدين أيوب رحمهم الله. واليمن بمعاقله ومخاليفه جميعه في قبضة السلطان ظهير الدين سيف الإِسلام طغتكين بن أيوب، أخي السلطان صلاح الدين، وبعلبك وأعمالها للأمجد بهرام شاه بن فروخ شاه، وبصرى وأعمالها للظافر بن الناصر. ثم شرعت الأمور بعد موت صلاح الدين تضطرب وتختلف وتتفاقم في جميع هذه الأحوال، حتى آل الأمر واستقرت الممالك واجتمعت الكلمة على الملك العادل أبي بكر صلاح الدين، وصارت المملكة في أولاده كما سيأتي قريباً إن شاء الله تعالى.

وفيها جدد الخليفة الناصر لدين الله خزانة كتب المدرسة النظامية ببغداد، ونقل إليها ألوفاً من الكتب الحسنة المثمنة وفي المحرم منها جرت ببغداد كائنة غريبة وهي أن ابنة لرجل من التجار في الطحين عشقت غلام أبيها فلما علم أبوها بأمرها طرد الغلام من داره فواعدته البنت ذات ليلة أن يأتيها فجاء إليها مختفياً فتركته في بعض الدار، فلما جاء أبوها في أثناء الليل أمرته فنزل فقتله، وأمرته بقتل أمها وهي حبلى، وأعطته الجارية حلياً بقيمة ألفي دينار، فأصبح أمره عند الشرطة فمسك وقتل قبّحه الله، وقد كان سيده من خيار الناس وأكثرهم صدقة وبراً، وكان شاباً وضيء الوجه رحمه الله.

وفيها درس بالمدرسة الجديدة عند قبر معروف الكرخي الشيخ أبو علي اليوناني وحضر عنده القضاة والأعيان، وعمل بها دعوة حافلة.

وممن توفي فيها من الأعيان:

السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب

ابن شاذي، وقد تقدمت وفاته مبسوطة.

الأمير بكتمر صاحب خلاط

قتل في هذه السنة، وكان من خيار الملوك وأشجعهم وأحسنهم سيرة رحمه الله.

الأتابك عز الدين مسعود

ابن مودود بن زنكي، صاحب الموصل نحواً من ثلاث عشرة سنة، من خيار الملوك، كان يشبه نور الدين الشهيد عمه رحمه الله، ودفن بتربته عند مدرسة أنشأها بالموصل أثابه الله تعالى.

جعفر بن محمد بن فطيرا

أبو الحسن أحد الكتاب بالعراق، كان ينسب إلى التشيع، وهذا كثير في أهل تلك البلاد لا أكثر الله منهم، جاءه رجل ذات يوم فقال له رأيت البارحة أمير المؤمنين علياً في المنام، فقال لي: اذهب إلى ابن فطيرا فقل له يعطيك عشرة دنانير، فقال له ابن فطيرا. متى رأيته؟ قال: أول

الليل، فقال ابن فطيرا وأنا رأيته آخر الليل فقال لي: إذا جاءك رجل من صفته كذا وكذا فطلب منك شيئاً فلا تعطه، فأدبر الرجل مولياً فاستدعاه ووهبه شيئاً، ومن شعره فيما أورده ابن الساعي وقد تقدم ذلك لغيره:

وَلَمَّا سَبَرْتُ النَّاسَ أَطْلُبُ مِنْهُمُ ... أَخَا ثِقَةٍ عِنْدَ اعْتِرَاضِ الشَّدَائِدِ
وَفَكَّرْتُ فِي يَوْمَيْ سُرُورِي وَشِدَّتِي ... وَنَادَيْتُ فِي الأَحْيَاءِ هَلْ مِنْ مُسَاعِدِ؟
فَلَمْ أَرَ فِيمَا سَاءَنِي غَيْرَ شَامِتٍ ... وَلَمْ أَرَ فِيمَا سَرَّنِي غَيْرَ حَاسِدِ

يحيى بن سعيد بن غازي

أبو العباس البصري النجراني صاحب المقامات، كان شاعراً أديباً فاضلاً بليغاً، له اليد الطولى في اللغة والنظم، ومن شعره قوله:

غِنَاءُ خَوْدٍ يَنْسَابُ لُطْفاً ... بِلا عَنَاءٍ فِي كُلِّ أُذْنِ
مَا رَدَّهُ قَطُّ بَابُ سَمْعٍ ... وَلا أَتَى زَائِراً بِإِذْنِ

السيدة زبيدة

بنت الإمام المقتفي لأمر الله، أخت المستنجد وعمة المستضيء، كانت قد عمرت طويلاً ولها صدقات كثيرة دارَّة، وقد تزوجها في وقت السلطان مسعود على صداق مائة ألف دينار، فتوفي قبل أن يدخل بها، وقد كانت كارهة لذلك، فحصل مقصودها وطلبتها.

الشيخة الصالحة فاطمة خاتون

بنت محمد بن الحسن العميد، كانت عابدة زاهدة، عمرت مائة سنة وست سنين، كان قد تزوجها في وقت أمير الجيوش مطر وهي بكر، فبقيت عنده إلى أن توفي ولم تتزوج بعده، بل اشتغلت بذكر الله عز وجل والعبادة، رحمها الله.

الخليفة يطلب من ابن الجوزي زيادة على أبيات عدي: وفي هذه السنة أنفذ الخليفة الناصر لدين الله العباسي إلى الشيخ أبي الفرج بن الجوزي يطلب منه أن يزيد على أبيات عدي بن زيد المشهورة ما يناسبها من الشعر، ولو بلغ ذلك عشرة مجلدات، وهي هذه الأبيات:

أَيُّهَا الشَّامِتُ الْمُعَيِّرُ بِالدَّهْـ ... ـرِ أَأَنْتَ الْمُبَرَّأُ الْمَوْفُورُ
أَمْ لَدَيْكَ الْعَهْدُ الْوَثِيقُ مِنَ الـ ... أَيَّامِ، بَلْ أَنْتَ جَاهِلٌ مَغْرُورُ
مَنْ رَأَيْتَ الْمَنُونَ خَلَّدْنَ أَمْ مَنْ ... ذا عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يُضَامُ خَفِيرُ
أَيْنَ كِسْرَى كِسْرَى الْمُلُوكِ أَبُو ... سَاسَانَ أَمْ أَيْنَ قَبْلَهُ سَابُورُ؟
وَبَنُو الأَصْفَرِ الْمُلُوكُ مُلُوكُ الرُّ ... ومِ لَمْ يَبْقَ مِنْهُمُ مَذْكُورُ
وَأَخُو الْحَضْرِ إِذْ بَنَاهُ وَإِذْ ... دِجْلَةُ تُجْبَى إِلَيْهِ وَالْخَابُورُ

شَـادَهُ مَـرْمَـراً وَجَـلَّـلَـهُ كِـلْـسـاً فَـلِـلـطَّـيْـرِ فِـي ذُرَاهُ وَكُـورُ
لَـمْ يَـهَـبْـهُ رَيْـبُ الـمَـنُـونِ فَـزَا لَ الـمُـلْـكُ عَـنْـهُ فَـبَـابُـهُ مَـهْـجُـورُ
وَتَـذَكَّـرْ رَبَّ الـخَـوَرْنَـقِ إِذْ أَشْـرَفَ يَـوْمـاً وَلِـلْـهُـدَى تَـفْـكِـيـرُ
سَـرَّهُ حَـالُـهُ وَكَـثْـرَةُ مَـا يَـمْـلِـكُ وَالـبَـحْـرُ مُـعْـرِضـاً وَالـسَّـدِيـرُ
فَـارْعَـوَى قَـلْـبُـهُ وَقَـالَ وَمَـا غِـبْـطَـةُ حَـيٍّ إِلَـى الـمَـمَـاتِ يَـصِـيـرُ
ثُـمَّ بَـعْـدَ الـنَّـعِـيـمِ وَالـمُـلْـكِ وَالـنَّـهْـي وَالـأَمْـرِ وَارَتْـهُـمْ هُـنَـاكَ قُـبُـورُ
ثُـمَّ أَضْـحَـوْا كَـأَنَّـهُـم أورقٌ جَـفَّـتْ فَـأَلْـوَتْ بِـهَـا الـصَّـبَـا[١] وَالـدَّبُـورُ[٢]
غَـيْـرَ أَنَّ الأَيَّـامَ يَـلْـعَـبْـنَ بِـالـمَـرْءِ وَفِـيـهَـا لَـعَـمْـرِي الـعِـظَـاتُ وَالـتَّـفْـكِـيـرُ

ثم دخلت سنة تسعين وخمسمائة

لما استقر الملك الأفضل بن صلاح الدين مكان أبيه بدمشق، بعث بهدايا سنية إلى باب الخليفة الناصر، من ذلك سلاح أبيه وحصانه الذي كان يحضر عليه الغزوات، ومنها صليب الصلبوت الذي استلبه أبوه من الفرنج يوم حطين، وفيه من الذهب ما ينيف على عشرين رطلاً مرصعاً بالجواهر النفيسة، وأربع جواري من بنات ملوك الفرنج، وأنشأ له العماد الكاتب كتاباً حافلاً يذكر فيه التعزية بأبيه، والسؤال من الخليفة أن يكون في الملك من بعده، فأجيب إلى ذلك.

ولما كان شهر جمادى الأولى قدم العزيز صاحب مصر إلى دمشق ليأخذها من أخيه الأفضل فخيم على الكسوة يوم السبت سادس جمادى، وحاصر البلد، فمانعه أخوه ودافعه عنها، فقطع الأنهار ونهبت الثمار، واشتد الحال، ولم يزل الأمر كذلك حتى قدم العادل عمهما فأصلح بينهما، ورد الأمر للألفة بعد اليمين على أن يكون للعزيز القدس وما جاور فلسطين من ناحيته أيضاً، وعلى أن يكون جبلة واللاذقية للظاهر صاحب حلب، وأن يكون لعمهما العادل أقطاعه الأول ببلاد مصر مضافاً إلى ما بيده من الشام والجزيرة كحران والرها وجعبر وما جاور ذلك، فاتفقوا على ذلك، وتزوج العزيز بابنة عمه العادل، ومرض ثم عوفي وهو مخيم بمرج الصفر، وخرجت الملوك لتهنئته بالعافية والتزويج والصلح، ثم كر راجعاً إلى مصر لطول شوقه إلى أهله وأولاده، وكان الأفضل بعد موت أبيه قد أساء التدبير فأبعد أمراء أبيه وخواصه، وقرّب الأجانب وأقبل على شرب المسكر واللهو واللعب، واستحوذ عليه وزيره ضياء الدين ابن الأثير الجزري، وهو الذي كان يحدوه إلى ذلك، فتلف وأتلفه، وضل وأضله، وزالت النعمة عنهما كما سيأتي.

وفيها كانت وقعة عظيمة بين شهاب الدين ملك غزنة وبين كفار الهند، أقبلوا إليه في ألف ألف مقاتل، ومعهم سبعمائة فيل منها فيل أبيض لم ير مثله، فالتقوا فاقتتلوا قتالاً شديداً لم ير مثله، فهزمهم شهاب الدين عند نهر عظيم يقال له الملاحون، وقتل ملكهم واستحوذ على

---

(١) الصبا: ريح مهبها من مطلع الشمس. (٢) الدبور: ريح تقابل الصبا.

حواصله وحواصل بلاده وغنم فيلتهم ودخل بلد الملك الكبرى، فحمل من خزانته ذهباً وغيره على ألف وأربعمائة جمل، ثم عاد إلى بلاده سالماً منصوراً.

وفيها ملك السلطان خوارزم شاه تكش ـ ويقال له ابن الأصباعي ـ بلاد الري وغيرها، واصطلح مع السلطان طغرل بك السلجوقي وكان قد تسلم بلاد الري وسائر مملكة أخيه سلطان شاه وخزائنه، وعظم شأنه، ثم التقى هو والسلطان طغرل بك في ربيع الأول من هذه السنة. فقتل السطان طغرل بك، وأرسل رأسه إلى الخليفة، فنصب على باب النوبة عدة أيام، وأرسل الخليفة الخلع والتقاليد إلى السلطان خوارزم شاه، وملك همدان وغيرها من البلاد المتسعة.

وفيها نقم الخليفة على الشيخ أبي الفرج بن الجوزي وغضب عليه، ونفاه إلى واسط، فمكث بها خمسة أيام لم يأكل طعاماً، وأقام بها خمسة أعوام يخدم نفسه ويستقي لنفسه الماء، وكان شيخاً كبيراً قد بلغ ثمانين سنة، وكان يتلو في كل يوم وليلة ختمة. قال: ولم أقرأ سورة يوسف لوجدي على ولدي يوسف، إلى أن فرج الله كما سيأتي إن شاء الله تعالىٰ.

وفيها توفي من الأعيان:

أحمد بن إسماعيل بن يوسف

أبو الخير القزويني الشافعي المفسر، قدم بغداد ووعظ بالنظامية، وكان يذهب إلى قول الأشعري في الأصول، وجلس في يوم عاشوراء فقيل له: العن يزيد بن معاوية، فقال: ذاك إمام مجتهد، فرماه الناس بالآجر فاختفى ثم هرب إلى قزوين.

ابن الشاطبي ناظم الشاطبية

أبو القاسم بن قسيرة(١) بن أبي القاسم خلف بن أحمد الرعيني الشاطبي الضرير، مصنف الشاطبية في القراءات السبع، فلم يسبق إليها ولا يلحق فيها، وفيها من الرموز كنوز لا يهتدي إليها إلا كل ناقد بصير، هذا مع أنه ضرير ولد سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة، وبلده شاطبة ـ قرية شرقي الأندلس ـ كان فقيراً، وقد أريد علىٰ أن يلي خطابة بلده فامتنع من ذلك لأجل مبالغة الخطباء على المنابر في وصف الملوك، خرج الشاطبي إلى الحج فقدم الإسكندرية سنة ثنتين وسبعين وخمسمائة، وسمع على السلفي وولاه القاضي الفاضل مشيخة الإقراء بمدرسته، وزار القدس وصام به شهر رمضان، ثم رجع إلى القاهرة، فكانت وفاته بها في جمادى الآخرة من هذه السنة، ودفن بالقرافة بالقرب من التربة الفاضلية، وكان ديناً خاشعاً ناسكاً كثير الوقار، لا يتكلم فيما لا يعنيه، وكان يتمثل كثيراً بهذه الأبيات، وهي لغز في النعش، وهي لغيره:

أَتَعْرِفُ شَيْئاً فِي السَّمَاءِ يَطِيرُ ... إذا سَارَ هَاجَ النَّاسُ حَيْثُ يَسِيرُ
فَتَلْقَاهُ مَرْكُوباً وَتَلْقَاهُ رَاكِباً ... وَكُلُّ أَمِيرٍ يَعْتَلِيهِ أَسِيرُ
يَحُثُّ عَلَى التَّقْوَى وَيُكْرَهُ قُرْبُهُ ... وَتَنْفِرُ مِنْهُ النَّفْسُ وَهْوَ نَذِيرُ
وَلَمْ يُسْتَزَرْ عَنْ رَغْبَةٍ فِي زِيَارَةٍ ... وَلٰكِنْ عَلَى رَغْمِ المَزُورِ يَزُورُ

(١) كذا بالأصل قسيرة ولعله: فيرة.

ثم دخلت سنة إحدى وتسعين وخمسمائة

فيها كانت وقعة الزلاقة ببلاد الأندلس شمالي قرطبة، بمرج الحديد، كانت وقعة عظيمة نصر الله فيها الإسلام وخذل فيها عبدة الصلبان، وذلك أن القيش ملك الفرنج ببلاد الأندلس، ومقر ملكه بمدينة طليطلة، كتب إلى الأمير يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ملك الغرب يستنخيه ويستدعيه ويستحثه إليه، ليكون من بعض من يخضع له في مثالبه وفي قتاله، في كلام طويل فيه تأنيب وتهديد ووعيد شديد، فكتب السلطان يعقوب بن يوسف في رأس كتابه فوق خطه ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [النمل: ٣٧]. ثم نهض من فوره في جنوده وعساكره، حتى قطع الزقاق إلى الأندلس، فالتقوا في المكان المذكور، فكانت الدائرة أولاً على المسلمين، فقتل منهم عشرون ألفاً، ثم كانت أخيراً على الكافرين فهزمهم الله وكسرهم وخذلهم أقبح كسرة، وشر هزيمة وأشنعها، فقتل منهم مائة ألف وثلاثة وأربعون ألفاً، وأسر منهم ثلاثة عشر ألفاً، وغنم المسلمون منهم شيئاً كثيراً، من ذلك مائة ألف خيمة وثلاثة وأربعون خيمة، ومن الخيل ستة وأربعون ألف فرس؛ ومن البغال مائة ألف بغل، ومن الحمر مثلها، ومن السلاح التام سبعون ألفاً، ومن العدد شيء كثير، وملك عليهم من حصونهم شيئاً كثيراً، وحاصر مدينتهم طليطلة مدة، ثم لم يفتحها فانفصل عنها راجعاً إلى بلاده. لما حصل للقيش ما حصل حلق لحيته ورأسه ونكس صليبه وركب حماراً وحلف لا يركب فرساً ولا يتلذذ بطعام ولا ينام مع امرأة حتى تنصره النصرانية، ثم طاف على ملوك الفرنج فجمع من الجنود ما لا يعلمه إلا الله عز وجل، فاستعد له السلطان يعقوب فالتقيا فاقتتلا قتالاً عظيماً لم يسمع بمثله، فانهزم الفرنج أقبح من هزيمتهم الأولى، وغنموا منهم نظير ما تقدم أو أكثر، واستحوذ السلطان على كثير من معاقلهم وقلاعهم، ولله الحمد والمنة، حتى قيل إنه بيع الأسير بدرهم، والحصان بخمسة دراهم، والخيمة بدرهم، والسيف بدون ذلك ثم قسم السلطان هذه الغنائم على الوجه الشرعي، فاستغنى المجاهدون إلى الأبد، ثم طلبت الفرنج من السلطان الأمان فهادنهم على وضع الحرب خمس سنين، إنما حمله على ذلك أن رجلاً يقال له علي بن إسحاق التوزي الذي يقال له المكلثم، ظهر ببلاد إفريقية فأحدث أموراً فظيعة في غيبة السلطان واشتغاله بقتال الفرنج مدة ثلاث سنين، فأحدث هذا المارق التوزي بالبادية حوادث، وعاث في الأرض فساداً، وقتل خلقاً كثيراً، وتملك بلاداً.

وفي هذه السنة والتي قبلها استحوذ جيش الخليفة على كثير من بلاد الري وأصبهان وهمدان وخوزستان وغيرها من البلاد، وقوي جانب الخلافة على الملوك والممالك. وفيها خرج العزيز من مصر قاصداً دمشق ليأخذها من يد أخيه الأفضل، وكان الأفضل قد تاب وأناب وأقلع عما كان فيه من الشراب واللهو واللعب، وأقبل على الصيام والصلاة، وشرع بكتابة مصحف بيده، وحسنت طريقته، غير أن وزيره الضيا الجزري يفسد عليه دولته، ويكدر عليه صفوته، فلما بلغ الأفضل إقبال أخيه نحوه سار سريعاً على عمه العادل وهو بجعبر فاستنجده فسار معه وسبقه إلى

دمشق، وراح الأفضل أيضاً إلى أخيه الظاهر بحلب، فسارا جميعاً نحو دمشق، فلما سمع الوزير بذلك وقد اقترب من دمشق، كر راجعاً سريعاً إلى مصر، وركب وراءه العادل والأفضل ليأخذا منه مصر، وقد اتفقا على أن يكون ثلث مصر للعادل وثلثاها للأفضل، ثم بدا للعادل في ذلك فأرسل للعزيز يثبته، وأقبل على الأفضل يثبطه، وأقاما على بلبيس أياماً حتى خرج إليهما القاضي الفاضل من جهة العزيز، فوقع الصلح على أن يرجع القدس ومعاملتها للأفضل، ويستقر العادل مقيماً بمصر على أقطاعه القديمة، فأقام العادل بها طمعاً فيها ورجع الأفضل إلى دمشق بعدما خرج العزيز لتوديعه، وهي هدنة على قذا، وصلح على دخن. وفيها توفي من الأعيان.

علي بن حسان بن سافر

أبو الحسن الكاتب البغدادي، كان أديباً شاعراً. من شعره قوله:

نَفَى رُقَادِي وَمَضَى ... بَرْقٌ بِسَلْعٍ وَمَضَا
لاحَ كَمَا سَلَّتْ يَدُ الـ ... ـأَسْوَدِ عَضْباً أَبْيَضَا[1]
كَأَنَّهُ الأَشْهَبُ فِي الـ ... ـنَّقْعِ إذا مَا رَكَضَا[2]
يَبْدُو كَمَا تَخْتَلِفُ الرِّ ... يحُ عَلَى جَمْرِ الغَضَا
فَتَحْسَبُ الرِّيحَ أَبْـ ... ـدَى نَظَراً وَغَمَّضَا[3]
أَوْ شُعْلَةَ النَّارِ عَلا ... لَهِيبُهَا وَانْخَفَضَا
آهٍ لَهُ مِنْ بَارِقٍ ... ضَاءَ عَلَى ذَاتِ الأَضَا
أَذْكَرَنِي عَهْداً مَضَى ... عَلَى الغُوَيْرِ وَانْقَضَى
فَقَالَ لِي قَلْبِي أَتُو ... صِي حَاجَةً وَأَعْرَضَا
يَطْلُبُ مَنْ أَمْرَضَهُ ... فَدَيْتُ ذاك المُمْرَضَا
يا غَرَضَ القَلْبِ لَقَدْ ... غَادَرْتَ قَلْبِي غَرَضَا
لِأَسْهُمٍ كَأَنَّمَا ... يُرْسِلُهَا صَرْفُ القَضَا
فَبِتُّ لا أَرْتَابُ فِي ... أَنَّ رُقَادِي قَدْ قَضَى
حَتَّى قَفَا اللَّيْلُ وَكَادَ ... اللَّيْلُ أَنْ يَنْقَرِضَا
وَأَقْبَلَ الصُّبْحُ لِأَطْـ ... ـرَافِ الدُّجَى[4] مُبَيِّضَا
وَسَلَّ فِي الشَّرْقِ عَلَى الغَـ ... ـرْبِ ضِيَاءً وَانْقَضَى

(١) المعضب: السيف الصارم القوي. والأبيض السيف.

(٢) الغضا: شجر.

(٣) كذا بالأصل، والبيت مضطرب.

(٤) الدجى: الليل.

ثم دخلت سنة ثنتين وتسعين وخمسمائة

في رجب منها أقبل العزيز من مصر صحبة عمه العادل في العساكر، ودخلا دمشق قهراً، وأخرجا منها الأفضل ووزيره الذي أساء تدبيره، وصلّى العزيز عند تربة والده صلاح الدين، وخطب له بدمشق، ودخل إلى القلعة المنصورة في يومه وجلس في دار العدل للحكم والفصل، وكل هذا وأخوه الأفضل حاضر عنده في الخدمة، وأمر القاضي محيي الدين بن الزكي بتأسيس المدرسة العزيزية إلى جانب تربة أبيه وكانت داراً للأمير عز الدين شامة، ثم استناب على دمشق عمه الملك العادل ورجع إلى مصر يوم الاثنين تاسع شوال، والسكة والخطبة بدمشق له، وصولح الأفضل على صرخد، وهرب وزيره ابن الأثير الجزري إلى جزيرته، وقد أتلف نفسه وملكه، وملكه بجريرته، وانتقل الأفضل إلى صرخد بأهله وأولاده، وأخيه قطب الدين.

وفي هذه السنة هبت ريح شديدة سوداء مدلهمة بأرض العراق ومعها رمل أحمر، حتى احتاج الناس إلى السرج بالنهار. وفيها ولّي قوام الدين أبو طالب يحيى بن سعد بن زيادة كتاب الإنشاء ببغداد، وكان بليغاً، وليس هو كالفاضل. وفيها درس مجير الدين أبو القاسم محمود بن المبارك بالنظامية، وكان فاضلاً مناظراً.

وفيها قتل رئيس الشافعية بأصبهان محمود بن عبد اللطيف بن محمد بن ثابت الخجندي قتله ملك الدين سنقر الطويل، وكان ذلك سبب زوال ملك أصبهان عن الديوان.

وفيها مات الوزير وزير الخلافة.

مؤيد الدين أبو الفضل

محمد بن علي بن القصاب، وكان أبوه يبيع اللحم في بعض أسواق بغداد، فتقدم ابنه وساد أهل زمانه. توفي بهمدان وقد أعاد رساتيق كثيرة من بلاد العراق وخراسان وغيرها، إلى ديوان الخلافة، وكان ناهضاً ذا همة وله صرامة وشعر جيد. وفيها توفي:

الفخر محمود بن علي

التوقاني الشافي، عائداً من الحج. والشاعر:

أبو الغنائم محمد بن علي

ابن المعلم الهرثي من قرى واسط، عن إحدى وتسعين سنة، وكان شاعراً فصيحاً، وكان ابن الجوزي في مجالسه يستشهد بشيء من لطائف أشعاره، وقد أورد ابن الساعي قطعة جيدة من شعره الحسن المليح.

وفيها توفي:

الفقيه أبو الحسن علي بن سعيد

ابن الحسن البغدادي المعروف بابن العريف، ويلقب بالبيع الفاسد، كان حنبلياً ثم اشتغل شافعياً على أبي القاسم بن فضلان، وهو الذي لقّبه بذلك لكثرة تكراره على هذه المسألة بين

الشافعية والحنفية، ويقال إنه صار بعد هذا كله إلى مذهب الإمامية فالله أعلم. وفيها توفي:

الشيخ أبو شجاع

محمد بن علي بن مغيث بن الدهان الفرضي الحاسب المؤرخ البغدادي قدم دمشق وامتدح الكندي أبو اليمن زيد بن الحسن فقال:

يَـا زَيْـدُ زَادَكَ رَبِّـي مِـنْ مَـواهِـبِـهِ ... نِـعَـمـاً يُـقَـصِّـرُ عَـنْ إدْرَاكِـهَـا الأَمَـلُ
لا بَـدَّلَ الله حَـالاً قَـدْ حَـبَـاكَ بِـهَـا ... مـا دَارَ بَـيْـنَ الـنُّـحَـاةِ الـحَـالُ وَالـبَـدَلُ
الـنَّـحْـوُ أَنْـتَ أَحَـقُّ الـعَـالَـمِـيـنَ بِـهِ ... أَلَـيْـسَ بِـاسْـمِـكَ فِـيـهِ يُـضْـرَبُ الـمَـثَـلُ

ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة

فيها ورد كتاب من القاضي الفاضل إلى ابن الزكي يخبره في «أن في ليلة الجمعة التاسع من جمادى الآخرة أتى عارض فيه ظلمات متكاثفة، وبروق خاطفة، ورياح عاصفة، فوقي الجو بها واشتدّ هبوبها قد أثبت لها أعنة مطلقات، وارتفعت لها صفقات، فرجفت لها الجدران واصطفقت، وتلاقت على بعدها واعتنقت، وثار السماء والأرض عجاجاً، حتى قيل إن هذه على هذه قد انطبقت، ولا يحسب إلا أن جهنم قد سال منها واد، وعدا منها عاد، وزاد عصف الريح إلى أن أطفأ سرج النجوم، ومزقت أديم السماء، ومحت ما فوقه من الرقوم، فكنا كما قال تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ﴾ [البقرة: ١٩] ويردون أيديهم على أعينهم من البوارق، لا عاصم لخطف الأبصار، ولا ملجأ من الخطب إلا معاقل الاستغفار. وفر الناس نساء ورجالاً وأطفالاً، ونفروا من دورهم خفافاً وثقالاً، لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً، فاعتصموا بالمساجد الجامعة، وأذعنوا للنازلة بأعناق خاضعة، بوجوه عانية، ونفوس عن الأهل والمال سالية، ينظرون من طرف خفي، ويتوقعون أي خطب جلي، قد انقطعت من الحياة علقهم، وعميت عن النجاة طرقهم، ووقعت الفكرة فيما هم عليه قادمون، وقاموا على صلاتهم وودوا لو كانوا من الذين عليها دائمون، إلاّ أن أذن بالركود، وأسعف الهاجدون بالهجود، فأصبح كل مسلم على رفيقه، ويهنيه بسلامة طريقه، ويرى أنه قد بعث بعد النفخة، وأفاق بعد الصحية والصرخة، وأن الله قد رد له الكرة، وأحياه بعد أن كاد يأخذ على غرة، ووردت الأخبار بأنها قد كسرت المراكب في البحار، والأشجار في القفار، وأتلفت خلقاً كثيراً من السفار، ومنهم من فر فلم ينفعه الفرار. إلى أن قال: «ولا يحسب المجلس أني أرسلت العلم محرفاً والقلم مجوفاً، فالأمر أعظم، ولكن الله سلم، ونرجو أن الله قد أيقظنا بما به وعظنا، ونبهنا بما فيه ولهنا، فما من عباده إلا من رأى القيامة عياناً، ولم يلتمس عليها من بعد ذلك برهاناً، إلا أهل بلدنا فما قص الأولون مثلها في المثلات، ولا سبقت لها سابقة في المعضلات، والحمد لله الذي من فضله قد جعلنا نخبر عنها، ولا يخبر عنا، ونسأل الله أن يصرف عنا عارض الحرص والغرور، ولا يجعلنا من أهل الهلاك والثبور».

وفيها كتب القاضي الفاضل من مصر إلى الملك العادل بدمشق يحثه على قتال الفرنج، ويشكره على ما هو بصدده من محاربتهم، وحفظ حوزة الإسلام، فمن ذلك قوله في بعض تلك الكتب «هذه الأوقات التي أنتم فيها عرائس الأعمار، وهذه النفقات التي تجري على أيديكم مهور الحور في دار القرار، وما أسعد من أودع يد الله ما في يديه، فتلك نعم الله عليه، وتوفيقه الذي ما كل من طلبه وصل إليه، وسواد العجاج في هذه المواقف بباطن ما سودته الذنوب من الصحائف، فما أسعد تلك الوقفات وما أعود بالطمأنينة تلك الرجعات». وكتب إليه أيضاً «أدام الله ذلك الاسم تاجاً على مفارق المنابر والطروس، وحياه للدنيا وما فيها من الأجساد والنفوس، وعرف المملوك من الأمر الذي اقتضه المشاهدة، وجرت به العافية في سرور، ولا يزيد على سيبه الحال بقوله:

أَلَـمْ تَـرَ أَنَّ الـمَـرْءَ تَـدوي[1] يَـمِـيـنُـه ... فَـيَـقْـطَـعُـهَـا عَـمْـداً لِـيَـسْـلَـمَ سَـائِـرُهُ

ولو كان فيها تدبير لكان مولانا سبق إليه، ومن قلم من الأصبع ظفراً فقد جلب إلى السجد بفعله نفعاً، ودفع عنه ضرراً، وتجشم المكروه ليس بضائر إذا كان ما جلبه سبباً إلى المحمود، وآخر سنوه أول كل غزوة، فلا يسألم مولانا نية الرباط وفعلها، وتجشم الكلف وحملها، فهو إذا صرف وجهه إلى وجه واحد وهو وجه الله، صرف الوجوه إليه كلها ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وفي هذه السنة انقضت مدة الهدنة التي كان عقدها الملك صلاح الدين للفرنج فأقبلوا بحدهم وحديدهم، فتلقاهم الملك العادل بمرج عكا فكسرهم وغنمهم، وفتح يافا عنوة ولله الحمد والمنة. وقد كانوا كتبوا إلى ملك الألمان يستنهضونه لفتح بيت المقدس فقدر الله هلاكه سريعاً، وأخذت الفرنج في هذه السنة بيروت من نائبها عز الدين شامة من غير قتال ولا نزال، ولهذا قال بعض الشعراء في الأمير شامة:

سَـلِّـمِ الـحِـصْـنَ مَـا عَـلَـيْـكَ مَـلامَـةْ ... مَـا يُـلامُ الَّـذِي يَـرُومُ الـسَّـلامَـةْ

فَـعَـطَـاءُ الـحُـصُـونَ مِـنْ غَـيْـرِ حَـرْبٍ ... سُـنَّـةٌ سَـنَّـهَـا بِـبَـيْـرُوتَ شَـامَـةْ

ومات فيها ملك الفرنج كندهري، سقط من شاهق فمات، فبقيت الفرنج كالغنم بلا راعي، حتى ملكوا عليهم صاحب قبرص وزوجوه بالملكة امرأة كندهري، وجرت خطوب كثيرة بينهم وبين العادل، ففي كلها يستظهر عليهم ويكسرهم، ويقتل خلقاً من مقاتلتهم، ولم يزالوا كذلك معه حتى طلبوا الصلح والمهادنة، فعاقدهم على ذلك في السنة الآتية.

وفيها توفي ملك اليمن:

سيف الإسلام طغتكين

أخو السلطان صلاح الدين، وكان قد جمع أموالاً جزيلة جداً، وكان يسبك الذهب مثل الطواحين ويدخره كذلك، وقام في الملك بعده ولده إسماعيل، وكان أهوج قليل التدبير،

(١) تدوي: تمرض.

فحمله جلهه على أن ادعى أنه قرشي أموي، وتلقب بالهادي، فكتب إليه عمه العادل ينهاه عن ذلك ويتهدده بسبب ذلك، فلم يقبل منه ولا التفت إليه، بل تمادى وأساء التدبير إلى الأمراء والرعية، فقتل وتولى بعده مملوك من مماليك أبيه. وفيها توفي:

الأمير الكبير أبو الهيجاء السمين الكردي

كان من أكابر أمراء صلاح الدين، وهو الذي كان نائباً على عكا، وخرج منها قبل أخذ الفرنج، ثم دخلها بعد المشطوب، فأخذت منه، واستنابه صلاح الدين على القدس، ثم لما أخذها العزيز عزل عنها فطلب إلى بغداد فأكرم إكراماً زائداً، وأرسله الخليفة مقدماً على العساكر إلى همدان، فمات هناك. وفيها توفي:

قاضي بغداد أبو طالب علي بن علي بن هبة الله بن محمد

البخاري، سمع الحديث على أبي الوقت وغيره. وتفقه على أبي القاسم بن فضلان، وتولى نيابة الحكم ببغداد، ثم استقل بالمنصب وأضيف إليه في وقت نيابة الوزارة، ثم عزل عن القضاء ثم أعيد ومات وهو حاكم، نسأل الله العافية، وكان فضالاً بارعاً من بيت فقه وعدالة وله شعر:

تَنَحَّ عَنِ القَبِيحِ وَلا تُرِدْهُ ... وَمَنْ أَوْلَيْتَهُ حَسَناً فَزِدْهُ
كَفَى بِكَ مِنْ عَدُوِّكَ كُلَّ كَيْدٍ ... إذا كَادَ العَدُوُّ وَلَمْ تَكِدْهُ

وفيها توفي:

السيد الشريف نقيب الطالبيين ببغداد

أبو محمد الحسن بن علي بن حمزة بن محمد بن الحسن بن محمد بن الحسن بن محمد بن علي بن يحيى بن الحسين بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب العلوي الحسيني المعروف بابن الاقساسي، الكوفي مولداً ومنشأ، كان شاعراً مطلقاً، امتدح الخلفاء والوزراء، وهو من بيت مشهور بالأدب والرياسة والمروءة، قدم بغداد فامتدح المقتفي والمستنجد وابنه المستضيء وابنه الناصر، فولاه النقابة كان شيخاً مهيباً، جاوز الثمانين، وقد أورد له ابن الساعي قصائد كثيرة منها:

اصْبِرْ عَلَى كَيْدِ الزَّمَا ... نِ فَمَا يَدُومُ عَلَى طَرِيقَهْ
سَبَقَ القَضَاءُ فَكُنْ بِهِ ... رَاضٍ وَلا تَطْلُبْ حَقِيقَهْ
كَمْ قَدْ تَغَلَّبَ مَرَّةً ... وَأَرَاكَ مِنْ سَعَةٍ وَضِيقَهْ
مَا زَالَ فِي أَوْلادِهِ ... يَجْرِي عَلَى هٰذِي الطَّرِيقَهْ

وفيها توفيت.

الست عذراء بنت شاهنشاه

ابن أيوب، ودفنت بمدرستها داخل باب النصر، والست خاتون والدة الملك العادل، ودفنت بدارها بدمشق المجاورة لدار أسد الدين شيركوه.

ثم دخلت سنة أربع وتسعين وخمسمائة [من الهجرة النبوية][١]

فيها جمعت الفرنج جموعها وأقبلوا فحاصروا تبنين، فاستدعى العادل بني أخيه لقتالهم، فجاءه العزيز من مصر، والأفضل من صرخند، فاقلعت الفرنج عن الحصن وبلغهم موت ملك الألمان فطلبوا من العادل الهدنة والأمان، فهادنهم ورجعت الملوك إلى أماكنها، وقد عظم المعظم عيسى بن العادل في هذه المرة، واستنابه أبوه على دمشق، وسار إلى ملكه بالجزيرة، فأحسن فيهم السيرة، وكان قد توفي في هذه السنة السلطان صاحب سنجار وغيرها من المدائن الكبار، وهو عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي الأتابكي، كان من خيار الملوك وأحسنهم شكلاً وسيرة، وأجودهم طوية وسريرة، غير أنه كان يبخل، وكان شديد المحبة للعلماء، ولا سيما الحنفية، وقد ابتنى لهم مدرسة بسنجار، وشرط لهم طعاماً يطبخ لكل واحد منهم في كل يوم، وهذا نظر حسن، والفقيه أولى بهذه الحسنة من الفقير، لاشتغال الفقيه بتكراره ومطالعته عن الفكر فيما يقيته، فعدى على أولاده ابن عمه صاحب الموصل، فأخذ الملك منهم، فاستغاث بنوه بالملك العادل، فرد فيهم الملك ودرأ[٢] عنهم الضيم، واستقرت بالمملكة لولده قطب الدين محمد، ثم سار العادل إلى ماردين فحاصرها في شهر رمضان، فاستولى على ربضها ومعاملتها، وأعجزته قلعتها، فطاف عليها ومشى، وما ظن أحد أنه تملكها، لأن ذلك لم يكن مثبوتاً ولا مقداراً.

وفيها ملكت الخزر مدينة لخ وكسروا الخطا وقهروهم، وأرسل الخليفة إليهم أن يمنعوا خوارزم شاه من دخول العراق، فإنه كان يروم أن يخطب له ببغداد. وفيها حاصر خوارزم شاه مدينة بخاري ففتحها بعد مدة، وقد كانت امتنعت عليه دهراً ونصرهم الخطا، فقهرهم جميعاً وأخذها عنوة، وعفا عن أهلها وصفح، وقد كانوا ألبسوا كلباً أعور قباء وسموه خوارزم شاه، ورموه في المنجنيق إلى الخوارزمية، وقالوا هذا ملككم، وكان خوارزم شاه أعور، فلما قدر عليهم عفا عنهم، جزاه الله خيراً. وفيها توفي من الأعيان.

العوام بن زيادة

كاتب الإنشاء بباب الخلافة، هو أبو طالب يحيى بن سعيد بن هبة الله بن زيادة قوام الدين، انتهت إليه رياسة الرسائل والإنشاء والبلاغة والفصاحة في زمانه بالعراق، وله علوم كثيرة غير ذلك من الفقه على مذهب الشافعي، أخذه عن ابن فضلان، وله معرفة جيدة بالأصلين الحساب واللغة، وله شعر جيد وقد ولي عدة مناصب كان مشكوراً في جميعها، ومن مستجاد شعره قوله:

لا تَحْقِرَنَّ عَدُوّاً تَزْدَرِيهِ فَكَمْ ... قَدْ أَتْعَسَ الدَّهْرُ جَدُّ الجِدِّ بِاللَّعِبِ
فَهٰذِهِ الشَّمْسُ يَعْرُوهَا الكُسُوفُ لَهَا ... عَلَى جَلالَتِهَا بِالرَّأسِ وَالذَّنَبِ

---

(١) سقط في ط.
(٢) درأ عنه الضيم: دفعه.

وله :

بِـاضْـطِـرَابِ الـزَّمَـانِ تَـرْتَـفِـعُ الأَنْـ ـذَالُ فِـيـهِ حَـتَّـى يَـعُـمَّ الـبَـلاءُ
وَكَـذَا الـسَّـمَـاءُ رَاكِـدٌ فَـإِذَا حُـرِّكَ ثَـارَتْ مِـنْ قَـعْـرِهِ الأَقْـذَاءُ

وله أيضاً :

قَـدْ سَـلَـوْتُ الـدُّنْـيَـا وَلَـمْ يَـسْـلُـهَـا مَـنْ عَـلِـقَـتْ فِـي آمَـالِـهِ والأَرَاجِـي
فَـإِذَا مَـا صَـرَفْـتُ وَجْـهِـي عَـنْـهَـا قَـذَفَـتْـنِـي فِـي بَـحْـرِهَـا الـعَـجَّـاجِ[١]
يَـسْـتَـضِـيـئُـونَ بِـي وَأَهْـلِـكُ وَحْـدِي فَـكَـأَنِّـي ذُبَـالَـةٌ فِـي سِـرَاجِ[٢]

توفي في هذه السنة من الحجة وله اثنتان وسبعون سنة، وحضر جنازته خلق كثير، ودفن عند موسى بن جعفر.

القاضي أبو الحسن علي بن رجاء بن زهير

ابن علي البطائحي، قدم بغداد فتفقه بها وسمع الحديث وأقام برحبة مالك بن طوق مدة يشتغل على أبي عبد الله بن النبيه الفرضي، ثم وليّ قضاء العراق مدة، وكان فقيهاً أديباً، وقد سمع من شيخه أبي عبد الله بن النبيه ينشد لنفسه معارضاً للحريري في بيتيه اللّذين زعم أنهما لا يعزوان ثالثاً لهما، وهما قوله:

سِـمْ سِـمَـةً يُـحْـمَـدُ آثَـارُهَـا وَاشْـكُـرْ لِـمَـنْ أَعْـطَـى وَلَـوْ سِـمْـسِـمَـهْ
وَالـمَـكْـرُ مَـهْـمَـا اسْـطَـعْـتَ لاتَـأْتِـهِ لِـتَـقْـتَـنِـي الـسُّـؤْدَدَ وَالـمَـكْـرُمَـهْ

فقال ابن النبيه:

مَـا الأَمَـةُ الـوَكْـسَـاءُ[٣] بَـيْـنَ الـوَرَى أَحْـسَـنُ مِـنْ حُـرٍّ أَتَـى مَـلامَـهْ
فَـمَـهْ[٤] إذا اسْـتُـجْـدِيـتَ عَـنْ قَـوْلٍ لا فَـالـحُـرُّ لا يَـمْـلأُ مِـنْـهَـا فَـمَـهْ

الأمير عز الدين جرديك

كان من أكابر الأمراء في زمان نور الدين، وكان ممن شرك في قتل شاور، وحظي عند الملك صلاح الدين، وقد استنابه على القدس حين افتتحها، وكان يستند به للمهمات الكبار فيسدها بنفسه وشجاعته، ولما ولّي الأفضل عزله عن بيت المقدس فترك بلاد الشام وانتقل إلى الموصل، فمات بها في هذه السنة رحمه الله.

(١) بحرها العجاج: البحر المتلاطم الأمواج.
(٢) الذبالة: الفتيلة. والسراج: المصباح.
(٣) الأمة الوكساء: الجارية الناقصة.
(٤) مه: اكفف.

ثم دخلت سنة خمس وتسعين وخمسمائة [من الهجرة النبوية][(١)]

فيها كانت وفاة العزيز صاحب مصر

وذلك أنه خرج إلى الصيد ولما كان ليلة الأحد العشرين من المحرم، ساق خلف ذئب فكبا به فرسه فسقط عنه فمات بعد أيام، ودفن بداره، ثم حوّل إلى عند تربة الشافعي، وله سبع أو ثمان وعشرون سنة، ويقال: إنه كان قد عزم في هذه السنة على إخراج الحنابلة من بلده، ويكتب إلى بقية إخوته بإخراجهم من البلاد، وشاع ذلك عنه وذاع، وسمع ذلك منه وصرح به، وكل ذلك من معلميه وخلطائه وعشرائه من الجهمية، وقلة علمه بالحديث، فلما وقع منه هذا ونوى هذه النية القبيحة الفاسدة أهلكه الله ودمّره سريعاً، وعظم قدر الحنابلة بين الخلق بمصر والشام، عند الخاص والعام. وقيل: إن بعض صالحهم دعا عليه، فما هو إلا أن خرج إلى الصيد فكان هلاكه سريعاً، وكتب القاضي الفاضل كتاب التعزية بالعزيز لعمه العادل، وهو محاصر ماردين ومعه العساكر، وولده محمد الكامل، وهو نائبه على بلاد الجزيرة المقاربة لبلاد الحيرة، وصورة الكتاب «أدام الله سلطان مولانا الملك العادل، وبارك في عمره وأعلاه أمره بأمره، وأعز نصر الإسلام بنصره، وفدت الأنفس نفسه الكريمة وأصغر الله العظائم بنعمة فيه العظيمة، وأحياه الله حياة طيبة هو والإسلام في مواقيت الفتوح الجسيمة وينقلب عنها بالأمور المسلمة والعواقب السليمة، ولا نقص له رجالاً ولا أعدمه نفساً ولا ولداً، ولا قصر له ذيلاً ولا يداً، ولا أسخن له عيناً ولا كبداً، ولا كدر له خاطراً ولا مورداً، ولما قدر الله ما قدر من موت الملك العزيز كانت حياته مكدرة عليه منغصة مهملة، فلما حضر أجله كانت بديهة المصاب عظيمة، وطالعة المكروه أليمة، وإذا محاسن الوجه بليت تعفى الثرى عن وجهه الحسن، وكانت مدة مرضه بعد عوده من الفيوم أسبوعين، وكانت في الساعة السابعة من ليلة الأحد والعشرين من المحرم، والمملوك في حال تسطيرها مجموع بين مرض القلب والجسد، ووجع أطراف وعلة كبد، وقد فجع بهذا المولى والعهد بوالده غير بعيد؛ والأسى عليه في كل يوم جديد».

ولما توفي العزيز خلف من الولد عشرة ذكور، فعمد أمراؤه فملكوا عليهم ولده محمداً، ولقبوه بالمنصور، وجمهور الأمراء في الباطن مائلون إلى تمليك العادل، ولكنهم يستبعدون مكانه، فأرسلوا إلى الأفضل وهو بصرخد فأحضروه على البريد سريعاً، فلما حضر عندهم منع رفدهم ووجدوا الكلمة مختلفة عليه، ولم يتم له ما صار إليه، وخامر[(٢)] عليه أكابر الأمراء الناصرية، وخرجوا من مصر فأقاموا ببيت المقدس وأرسلوا يستحثون الجيوش العادلية، فأقر ابن أخيه على السلطنة ونوه باسمه على السكة والخطبة في سائر بلاد مصر، لكن استفاد الأفضل في سفرته هذه أن أخذ جيشاً كثيفاً من المصريين، وأقبل لهم ليسترد دمشق في غيبة عمه. وذلك بإشارة أخيه صاحب حلب، وملك حمص أسد الدين، فلما انتهى إليها ونزل حواليها قطع أنهارها وعقر أشجارها، وأكل ثمارها، ونزل بمخيمه على مسجد القدم، وجاء إليه أخوه

---

(١) سقط في ط.

(٢) خامر: خالط وكتم.

الظاهر ابن عمه الأسد الكاسر وجيش حماه، فكثر جيشه وقوى بأسه، وقد دخل جيشه إلى البلد، ونادوا بشعاره فلم يتابعهم من العامة أحد، وأقبل العادل من ماردين بعساكره وقد التف عليه أمراء أخيه وطائفة بني أخيه، وأمده كل مصر بأكابره، وسبق الأفضل إلى دمشق بيومين فحصنها وحفظها، وقد استناب على ماردين ولده محمداً الكامل. ولما دخل دمشق خامر إليه أكثر الأمراء من المصريين وغيرهم، وضعف أمرِ الأفضل ويئس من برهم وخيرهم، فأقام محاصر البلد بمن معه حتى انسلخ الحول ثم انفصل الحال في أول السنة الآتية على ما سيأتي.

وفيها شرع في بناء سور بغداد بالآجر والكلس، وفرق على الأمراء وكملت عمارته بعد هذه السنة، فأمنت بغداد من الغرق والحصار، ولم يكن لها سور قبل ذلك.

وفي هذه السنة توفي:

السلطان أبو محمد يعقوب بن يوسف

ابن عبد المؤمن، صاحب بلاد المغرب والأندلس بمدينته، وكان قد بنى عندها مدينة مليحة سماها المهدية، وقد كان دَيناً حسن السيرة صحيح السريرة، وكان مالكي المذهب، ثم صار ظاهرياً حزمياً ثم مال إلى مذهب الشافعي، واستقضى في بعض بلاده منهم قضاة، وكانت مدة ملكه خمس عشرة سنة، وكان كثير الجهاد رحمه الله، وكان يؤم الناس في الصلوات الخمس، وكان قريباً إلى المرأة والضعيف رحمه الله. وهو الذي كتب إليه صلاح الدين يستنجده على الفرنج فلما لم يخاطبه بأمير المؤمنين غضب من ذلك ولم يجبه إلى ما طلب منه، وقام بالملك بعده ولده محمد فسار كسيرة والده، ورجع إليه كثير من البلدان التي كانت قد عصت على أبيه، ثم من بعد ذلك تفرقت بهم الأهواء وباد هذا البيت بعد الملك يعقوب رحمه الله.

وفيها ادعى رجل أعجمي بدمشق أنه عيسى ابن مريم، فأمر الأمير صارم الدين برغش نائب القلعة، بصلبه عند حمام العماد الكاتب، خارج باب الفرج مقابل الطاحون التي بين البابين، وقد باد هذا الحمام قديماً، وبعد صلبه بيومين ثارت العامة على الروافض وعمدوا إلى قبر رجل منهم بباب الصغير يقال له وثاب فنبشوه وصلبوه مع كلبين، وذلك في ربيع الآخر منها.

وفيها وقعت فتنة كبيرة ببلاد خراسان، وكان سببها أن فخر الدين محمد بن عمر الرازي أستاذ المتكلمين في زمانه وفد إلى الملك غياث الدين الغوري صاحب غزنة، فأكرمه واحترمه وبنى له مدرسة بهراة، وكان أكثر الغورية كرامية فأبغضوا الفخر الرازي وأحبوا إبعاده عن الملك، فجمعوا له جماعة من الفقهاء الحنفية والكرامية، وخلقاً من الشافعية، وحضر ابن القدوة وكان شيخاً معظماً في الناس، وهو على مذهب ابن كرام وابن الهيصم فتناظر هو والرازي، وخرجا من المناظرة إلى السب والشتم، فلما كان من الغد اجتمع الناس في المسجد الجامع، وقام واعظ فتكلم فقال في خطبته: أيها الناس، إنا لا نقول إلا ما صح عندنا عن

رسول الله ﷺ، وأما علم ارسطاطاليس وكفريات ابن سينا وفلسفة الفارابي وما تلبس به الرازي فإنا لا نعلمها ولا نقول بها، وإنما هو كتاب الله وسنة رسوله، ولأي شيء يشتم بالأمس شيخ من شيوخ الإسلام يذب عن دين الله وسنة رسوله، على لسان متكلم ليس معه على ما يقول دليل قال فبكى الناس وضجوا وبكت الكرامية واستغاثوا، وأعانهم على ذلك قوم آخرون من الخاصة وأنهوا إلى الملك صورة ما وقع، فأمر بإخراج فخر الدين من البلد وعاد إلى هراة، فلهذا أشرب قلب الرازي بغض الكرامية، وصار يلهج في كلامه في كل موطن ومكان.

وفي هذه السنة رضي الخليفة عن أبي الفرج بن الجوزي شيخ الوعاظ، وقد كان أخرج من بغداد إلى واسط فأقام بها خمس سنين، فانتفع به أهلها واشتغلوا عليه واستفادوا منه، فلما عاد إلى بغداد خلع عليه الخليفة وأذن له في الوعظ على عادته عند التربة الشريفة المجاورة لقبر معروف الكرخي، فكثر الجمع جداً وحضر الخليفة وأنشد يومئذٍ فيما يخاطب به الخليفة:

لا تُعْطِشَ الرَّوْضَ الَّذِي بَنَيْتَهُ ... بِصَوْبِ إِنْعَامِكَ قَدْ رُوِّضَا

لا تَبْرِ عُوداً أَنْتَ قد رِشْتَهُ[1] ... حَاشَى لِبَانِي المَجْدِ أَنْ يَنْقُضَا

إِنْ كَانَ لِي ذَنْبٌ قَدْ جَنَيْتُهُ ... فَاسْتَأْنِفِ العَفْوَ وَهَبْ لِي ما مَضَى

قَدْ كُنْتُ أَرْجُوكَ لِنَيْلِ المُنَى ... فَالْيَوْمَ لا أَطْلُبُ إِلاّ الرِّضَا

ومما أنشده يومئذٍ:

شَقِينَا بِالنَّوَى زَمَناً فَلَمَّا ... تَلاَقَيْنَا كَأَنَّا مَا شَقِينَا

سَخِطْنَا عِنْدَ ما جَنَتِ اللَّيَالِي ... وَمَا زَالَتْ بِنَا حَتَّى رَضِينَا

وَمَنْ لَمْ يَحْيَ بَعْدَ المَوْتِ يَوْماً ... فَإِنَّا بَعْدَ ما مِتْنَا حَيِينَا

وفي هذه السنة استدعى الخليفة الناصر قاضي الموصل ضياء الدين بن الشهرزوري فولاّه قضاء قضاة بغداد. وفي هذه السنة وقعت فتنة بدمشق بسبب الحافظ عبد الغني المقدسي، وذلك أنه كان يتكلم في مقصورة الحنابلة بالجامع الأموي، فذكر يوماً شيئاً من العقائد، فاجتمع القاضي محيي الدين بن الزكي وضياء الدين الخطيب الدولعي بالسلطان المعظم، والأمير صارم الدين برغش، فعقد له مجلساً فيما يتعلق بمسألة الاستواء على العرش والنزول والحرف والصوت، فوافق النجم الحنبلي بقية الفقهاء واستمر الحافظ على ما يقوله لم يرجع عنه، واجتمع بقية الفقهاء عليه، وألزموه بإلزامات شنيعة لم يلتزمها، حتى قال له الأمير برغش كل هؤلاء على الضلالة وأنت وحدك على الحق؟ قال: نعم، فغضب الأمير وأمر بنفيه من البلد؛ فاستنظره ثلاثة أيام فأنظره، وأرسل برغش الأسارى من القلعة فكسروا منبر الحنابلة وتعطلت يومئذٍ صلاة الظهر في محراب الحنابلة، وأخرجت الخزائن والصناديق التي كانت هناك، وجرت خبطة شديدة، نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن، وكان عقد المجلس يوم الاثنين الرابع

(١) رشته: من راش السهم. إذا ألصق به ريشاً، وراش فلاناً: أصلح حاله.

والعشرين من ذي الحجة، فارتحل الحافظ عبد الغني إلى بعلبك ثم سار إلى مصر فآواه المحدثون[١]، فحنوا عليه وأكرموه.

وممن توفي في هذه السنة من الأعيان:

الأمير مجاهد الدين قيماز الرومي

نائب الموصل المستولي على مملكتها أيام ابن أستاذه نور الدين أرسلان، وكان عاقلاً ذكياً فقيهاً حنفياً، وقيل شافعياً، يحفظ كثيراً من التواريخ والحكايات، وقد ابتنى عدة جوامع ومدارس وربط وخانات، وله صدقات كثيرة دارة، قال ابن الأثير: وقد كان من محاسن الدنيا.

أبو الحسن محمد بن جعفر

ابن أحمد بن محمد بن عبد العزيز العباسي الهاشمي، قاضي القضاة ببغداد، بعد ابن النجاري، كان شافعياً على أبي الحسن بن الخل وغيره، وقد ولي القضاء والخطابة بمكة، وأصله منها، ولكن ارتحل إلى بغداد فنال منها ما نال من الدنيا، وآل به الأمر إلى ما آل، ثم إنه عزل عن القضاء بسبب محضر رقم خطه عليه، وكان فيما قيل مزوراً عليه. فالله أعلم، فجلس في منزله حتى مات.

الشيخ جمال الدين أبو القاسم

يحيى بن علي بن الفضل بن بركة بن فضلان، شيخ الشافعية ببغداد، تفقه أولاً على سعيد بن محمد الزار مدرس النظامية، ثم ارتحل إلى خراسان فأخذ عن الشيخ محمد الزبيدي تلميذ الغزالي وعاد إلى بغداد وقد أتقن علم المناظرة والأصلين، وساد أهل بغداد وانتفع به الطلبة والفقهاء، وبنيت له مدرسة فدرس بها وبعد صيته، وكثرت تلاميذه، وكان كثير التلاوة، وسماع الحديث، وكان شيخاً حسناً لطيفاً ظريفاً، ومن شعره:

وَإِذا أَرَدْتَ مَنَازِلَ الأَشْرَافِ ... فَعَلَيْكَ بِالإِسْعَافِ وَالإِنْصَافِ

وَإِذا بَغى[٢] بَاغٍ عَلَيْكَ فَخَلِّهِ ... وَالدَّهْرَ فَهُوَ لَهُ مُكَافٍ كَافِ

ثم دخلت سنة ست وتسعين وخمسمائة [من الهجرة النبوية][٣]

استهلت هذه السنة والملك الأفضل بالجيش المصري محاصر دمشق لعمه العادل، وقد قطع عنها الأنهار والميرة، فلا خبز ولا ماء إلا قليلاً، وقد تطاول الحال، وقد خندقوا من أرض اللوان إلى اللد خندقاً لئلا يصل إليهم جيش دمشق، وجاء فصل الشتاء وكثرت الأمطار

(١) في ط: الطحانون. (٢) بغى: ظلم.
(٣) سقط في ط.

والأوحال. فلما دخل شهر صفر قدم الملك الكامل محمد بن العادل على أبيه بخلق من التركمان، وعساكر من بلاد الجزيرة والرها وحران، فعند ذلك انصرف العساكر المصرية وتفرقوا أيادي سبا، فرجع الظاهر إلى حلب والأسد إلى حمص، والأفضل إلى مصر، وسلم العادل من كيد الأعادي، بعدما كان قد عزم على تسليم البلد. وسارت الأمراء الناصرية خلف الأفضل ليمنعوه من الدخول إلى القاهرة، وكاتبوا العادل أن يسرع السير إليهم، فنهض إليهم سريعاً فدخل الأفضل مصر وتحصن بقلعة الجبل، وقد اعتراه الضعف والفشل، ونزل العادل على البركة وأخذ ملك مصر ونزل إليه ابن أخيه الأفضل خاضعاً ذليلاً، فأقطعه بلاداً من الجزيرة، ونفاه من الشام لسوء السيرة، ودخل العادل إلى دار السلطان بالقاهرة وأعاد القضاء إلى صدر الدين عبد الملك بن درباس الماراني الكردي، وأبقى الخطبة والسكة باسم ابن أخيه المنصور، والعادل مستقل بالأمور، واستوزر الصاحب صفي الدين بن شكر لصرامته وشهامته، وسيادته وديانته، وكتب العادل إلى ولده الكامل يستدعيه من بلاد الجزيرة ليملكه على مصر، فقدم عليه فأكرمه واحترمه وعانقه والتزمه، وأحضر الملك الفقهاء واستفتاهم في صحة مملكه ابن أخيه المنصور بن العزيز، وكان ابن عشر سنين، فأفتوا بأن ولايته لا تصح لأنه متولى عليه، فعند ذلك طلب الأمراء ودعاهم إلى مبايعته فامتنعوا فأرغبهم وأرهبهم، وقال فيما قال: قد سمعتم ما أفتى به العلماء والأئمة والفقهاء، وقد علمتم أن ثغور المسلمين لا يحفظها الأطفال الصغار، وإنما يحرسها الملوك الكبار، فأذعنوا عند ذلك وبايعوه، ثم من بعده لولده الكامل، فخطب الخطباء بذلك بعد الخليفة لهما، وضربت السكة باسميهما، واستقرت دمشق باسم المعظم عيسى بن العادل، ومصر باسم الكامل.

وفي شوال رجع إلى دمشق الأمير ملك الدين أبو منصور سليمان بن مسرور بن خلدك، وهو أخو الملك العادل لأمه، وهو واقف الفلكية داخل باب الفراديس، وبها قبره، فأقام بها محترماً معظماً إلى أن توفي في هذه السنة. وفيها وفي التي بعدها كان بديار مصر غلاء شديد، فهلك بسببه الغني والفقير، وهرب الناس منها نحو الشام فلم يصل إليها إلا القليل، وتخطفهم الفرنج من الطرقات وغروهم من أنفسهم واغتالوهم بالقليل من الأقوات، وأما بلاد العراق فإنه كان مرخصاً. قال ابن الساعي: وفي هذه السنة باض ديك ببغداد فسألت جماعة عن ذلك فأخبروني به.

وممن توفي فيها من الأعيان:

السلطان علاء الدين خوارزم شاه

تكش بن ألب رسلان من ولد طاهر بن الحسين، وهو صاحب خوارزم وبعض بلاد خراسان والري وغيرها من الأقاليم المتسعة، وهو الذي قطع دولة السلاجقة، كان عادلاً حسن السيرة له معرفة جيدة بالموسيقى، حسن المعاشرة، فقيهاً على مذهب أبي حنيفة، ويعرف الأصول، وبنى للحنفية مدرسة عظيمة، ودفن بتربة بناها بخوارزم، وقام في الملك من بعده ولده علاء الدين محمد، وكان قبل ذلك يلقب بقطب الدين. وفيها قتل وزير السلطان خوارزم شاه المذكور.

نظام الدين مسعود بن علي

وكان حسن السيرة، شافعيّ المذهب، له مدرسة عظيمة بخوارزم، وجامع هائل، وبنى بمرو جامعاً عظيماً للشافعية، فحسدتهم الحنابلة وشيخهم بها يقال له شيخ الإسلام، فيقال إنهم أحرقوه وهذا إنما يحمل عليه قلة الدين والعقل، فأغرمهم السلطان خوارزم شاه على ما غرم الوزير على بنائه. وفيها توفي الشيخ المسند المعمر رحلة الوقت:

أبو الفرج بن عبد المنعم بن عبد الوهاب

ابن صدقة بن الخضر بن كليب الحراني الأصل البغدادي المولد والدار والوفاة، عن ست وتسعين سنة، سمع الكثير وأسمع، وتفرد بالرواية عن جماعة من المشايخ، وكان من أعيان التجار وذوي الثروة رحمه الله.

الفقيه مجد الدين

أبو محمد بن طاهر بن نصر الله بن جميل، مدرس القدس أول من درس بالصلاحية، وهو والد الفقهاء بني جميل الدين، كانوا بالمدرسة الجاروخية، ثم صاروا إلى العمادية والدماعية في أيامنا هذه، ثم ماتوا ولم يبق إلا شرحهم.

الأمير صارم الدين قايماز

ابن عبد الله النجي، كان من أكابر الدولة الصلاحية، كان عند الملك صلاح الدين بمنزلة الأستاذ، وهو الذي تسلم القصر حين مات العاضد. فحصل له أموال جزيلة جداً، وكان كثير الصدقات والأوقاف، وقد تصدق في يوم بسبعة آلاف دينار عيناً، وهو واقف المدرسة القيمازية، شرقي القلعة المنصورة، وقد كانت دار الحديث الأشرفية داراً لهذا الأمير، وله بها حمام، فاشترى ذلك الملك الأشرف فيما بعد موسىٰ بن العادل وبناها دار حديث، وأخرب الحمام وبناها مسكناً للشيخ المدرس بها. ولما توفي قيماز ودفن في قبره نبشت دوره وحواصله، وكان متهماً بمال جزيل، فتحصل ما جمع من ذلك مائة ألف دينار وكان يظن أن عنده أكثر من ذلك، وكان يدفن أمواله في الخراب من أراضي ضياعه وقراياه. سامحه الله.

الأمير لؤلؤ

أحد الحجاب بالديار المصرية، كان من أكابر الأمراء في أيام الدولة الصلاحية، وهو الذي كان متسلم الأسطول في البحر فكم من شجاع قد أسر، وكم من مركب قد كسر، وقد كان مع كثرة جهاده دار الصدقات، كثير النفقات في كل يوم، وقع غلاء بمصر فتصدق باثني عشر ألف رغيف، لاثني عشر ألف نفس.

الشيخ شهاب الدين الطوسي

أحد مشايخ الشافعية بديار مصر، شيخ المدرسة المنسوبة إلى تقي الدين شاهنشاه بن أيوب، التي يقال لها منازل العز، وهو من أصحاب محمد بن يحيى تلميذ الغزالي، كان له قدر

ومنزلة عند ملوك مصر، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، توفي في هذه السنة، فازدحم الناس على جنازته، وتأسفوا عليه.

الشيخ ظهير الدين عبد السلام الفارسي

شيخ الشافعية بحلب، أخذ الفقه عن محمد بن يحيى تلميذ الغزالي، وتتلمذ للفخر الرازي، ورحل إلى مصر وعرض عليه أن يدرس بتربة الشافعي فلم يقبل، فصار إلى حلب فأقام بها إلى أن توفي في هذه السنة.

الشيخ العلامة بدر الدين ابن عسكر

رئيس الحنفية بدمشق، قال أبو شامة: ويعرف بابن العقادة.

الشاعر أبو الحسن علي

ابن نصر بن عقيل بن أحمد وهو بغدادي، قدم دمشق في سنة خمس وتسعين وخمسمائة، ومعه ديوان شعر له فيه درر حسان، وقد تصدى لمدح الملك الأمجد صاحب بعلبك وله:

وَمَا النَّاسُ إلاَّ كَامِلُ الحَظِّ نَاقِصٌ وَآخَرُ مِنْهُمْ نَاقِصُ الحَظِّ كَامِلُ
وَإنِّي لَمُثْرٍ مِنْ خِيَارِ أَعِفَّةٍ وَإنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدِي مِنَ المَالِ كَامِلُ

وفيها توفي القاضي الفاضل، الإمام العلامة شيخ الفصحاء والبلغاء:

أبو علي عبد الرحيم ابن القاضي الأشرف

أبي المجد علي بن الحسن بن البيساني المولى الأجل القاضي الفاضل، كان أبوه قاضياً بعسقلان فأرسل ولده في الدولة الفاطمية إلى الديار المصرية، فاشتغل بها بكتابة الإنشاء على الشيخ أبي الفتح قادوس وغيره، فساد أهل البلاد حتى بغداد، ولم يكن له في زمانه نظير، ولا فيما بعده إلى وقتنا هذا مثيل، ولما استقر الملك صلاح الدين بالديار المصرية جعله كاتبه وصاحبه ووزيره ومشيره وجليسه وأنيسه، وكان أعز عليه من أهله وأولاده، وتساعدا حتى فتح الأقاليم والبلاد، هذا بحسامه وسنانه، وهذا بقلمه ولسانه وبيانه وقد كان القاضي الفاضل من كثرة أمواله كثير الصدقات والصلات والصيام والصلاة، وكان يواظب كل يوم وليلة على ختمة كاملة، مع ما يزيد عليها من نافلة، رحيم القلب حسن السيرة، طاهر القلب والسريرة له مدرسة بديار مصر على الشافعية والمالكية، وأوقاف على تخليص الأسارى من يدي النصارى، وقد اقتنى من الكتب نحواً من مائة ألف كتاب، وهذا شيء لم يفرح به أحد من الوزراء ولا للعلماء ولا الملوك، ولد في سنة ثنتين وثلاثين وخمسمائة، توفي يوم دخل العادل إلى قصر مصر بمدرسته فجأة يوم الثلاثاء سادس ربيع الآخر واحتفل الناس بجنازته، وزار قبره في اليوم الثاني الملك العادل، وتأسف عليه، ثم استوزر العادل صفي الدين بن شكر، فلما سمع الفاضل بذلك دعا الله أن لا يحييه إلى هذه الدولة لما بينهما من المنافسة، فمات ولم ينله أحد بضيم ولا أذى،

ولا رأي في الدولة من هو أكبر منه، وقد رثاه الشعراء بأشعار حسنة، منها قول القاضي هبة الله بن سناء الملك:

عَبْدُ الرَّحِيمِ عَلَى البَرِيَّةِ رَحْمَةٌ أَمِنَتْ بِصُحْبَتِهَا حُلُولَ عِقَابِهَا
يَا سَائِلِي عَنْهُ وَعَنْ أَسْبَابِهِ نَالَ السَّمَاءَ فَسَلْهُ عَنْ أَسْبَابِهَا
وَأَتَتْهُ خَاطِبَةً إِلَيْ وَزَارَةٌ وَلَطَالَ مَا أَعْيَتْ عَلَى خُطَّابِهَا
وَأَتَتْ سَعَادَتُهُ إِلَى أَبْوَابِهِ لا كَالَّذِي يَسْعَى إِلَى أَبْوَابِهَا
تَعْنُو المُلُوكُ لِوَجْهِهِ بِوُجُوهِهَا لا بَلْ تُسَاقُ لِبَابِهِ بِرِقَابِهَا
شَغَلَ المُلُوكَ بِمَا يَقُولُ وَنَفْسُهُ مَشْغُولَةٌ بِالذِّكْرِ فِي مِحْرَابِهَا
فِي الصَّوْمِ وَالصَّلَوَاتِ أَتْعَبَ نَفْسَهُ وَضَمَانُ رَاحَتِهِ عَلَى إِتْعَابِهَا
وَتَعَجَّلَ الإِقْلاعَ عَنْ لَذَّاتِهِ ثِقَةً بِحُسْنِ مَآلِهَا وَمَآبِهَا
فَلْتَفْخَرِ الدُّنْيَا بِسَائِسِ مُلْكِهَا مِنْهُ وَدَارِسِ عِلْمِهَا وَكِتَابِهَا
صَوَّامُهَا قَوَّامُهَا عَلاَّمُهَا عَمَّالُهَا بَذَّالُهَا وَهَّابُهَا

والعجب أن الفاضل مع براعته ليس له قصيدة طويلة وإنما له ما بين البيت والبيتين في أثناء رسائله وغيرها شيء كثير جداً، فمن ذلك قوله:

سَبَقْتُمْ بَإِسْدَاءِ الجَمِيلِ تَكَرُّماً وَمَا مِثْلُكُمْ فِيمَنْ يُحَدِّثُ أَوْ يُحْكَى
وَكَانَ ظَنِّي أَنْ أُسَابِقَكُمْ بِهِ وَلٰكِنْ بَلَتْ قَبْلِي فَهِيجَ لِي البُكَا

ومن ذلك قوله:

وَلِي صَاحِبٌ ما خِفْتُ مِنْ جَوْرِ حَادِثٍ مِنَ الدَّهْرِ إِلاَّ كَانَ لِي مِنْ وَرَائِهِ
إِذَا عَضَّنِي صَرْفُ الزَّمَانِ فَإِنَّنِي بِرَايَاتِهِ أَسْطُو عَلَيْهِ وَرَائِهِ

وله في بدو أمره:

أَرَى الكُتَّابَ كُلَّهُمُ جَمِيعاً بِأَرْزَاقٍ تَعُمُّهُمُ سِنِينَا
وَمَا لِي بَيْنَهُمْ رِزْقٌ كَأَنِّي خُلِقْتُ مِنَ الكِرَامِ الكَاتِبِينَا

وله في النحلة والزلقطة:

وَمُغَرِّدَيْنِ تَجَاوَبَا فِي مَجْلِسٍ مَنَعَاهُمَا لأَذَاهُمَا الأَقْوَامُ
هٰذا يَجُودُ بِعَكْسِ مَا يَأْتِي بِهِ هٰذا فَيُحْمَدُ ذَا وَذَاكَ يُلامُ

وله:

بِتْنَا عَلَى حَالٍ تَسُرُّ الهَوَى لٰكِنَّهُ لا يُمْكِنُ الشَّرْحُ
بَوَّابُنَا اللَّيْلُ وَقُلْنَا لَهُ إِنْ غِبْتَ عَنَّا هَجَمَ الصُّبْحُ

وأرسلت جارية من جواري الملك العزيز إلى الملك العزيز زرّاً من ذهب مغلف بعنبر

أسود، فسأل الملك الفاضل عن معنى ما أرادت بإرساله فأنشأ يقول:

أَهْدَتْ لَكَ العَنْبَرَ فِي وَسْطِهِ زِرٌّ مِنَ التِّبْرِ رَقِيقُ اللِّحَامْ
فَالزِّرُّ فِي العَنْبَرِ مَعْنَاهُمَا زُرْ هٰكَذا مُخْتَفِياً فِي الظَّلامْ

قال ابن خلكان: وقد اختلف في لقبه محيي الدين وقيل مجير الدين، وحكي عن عمارة اليمني أنه كان يذكر بالجميل وأن العادل بل الصالح هو الذي استقدمه من الإسكندرية واستخدمه، وقد كان معدوداً في حسناته. وقد بسط ابن خلكان ترجمته بنحو ما ذكرنا، وفي هذه زيادة كثيرة والله أعلم.

ثم دخلت سنة سبع وتسعين وخمسمائة [من الهجرة النبوية][1]

فيها اشتد الغلاء بأرض مصر جداً، فهلك خلق كثير جداً من الفقراء والأغنياء، ثم أعقبه فناء عظيم، حتى حكى الشيخ أبو شامة في الذيل أن العادل كفن من ماله في مدة شهر من هذه السنة نحواً من مائتي ألف، وعشرين ألف ميت، وأكلت الكلاب والميتات فيها بمصر، وأكل من الصغار والأطفال خلق كثير، يشوي الصغير والداه ويأكلانه، وكثر هذا في الناس جداً حتى صار لا ينكر بينهم، فلما فرغت الأطفال والميتات غلب القوي الضعيف فذبحه وأكله، وكان الرجل يحتال على الفقير فيأتي به ليطعمه أو ليعطيه شيئاً، ثم يذبحه ويأكله، وكان أحدهم يذبح امرأته ويأكلها وشاع هذا بينهم بلا إنكار ولا شكوى، بل يعذر بعضهم بعضاً، ووجد عند بعضهم أربعمائة رأس وهلك كثير من الأطباء الذين يستدعون إلى المرضى، فكانوا يذبحون ويؤكلون، كان الرجل يستدعي الطبيب ثم يذبحه ويأكله، وقد استدعى رجل طبيباً حاذقاً وكان الرجل موسراً من أهل المال، فذهب الطبيب معه على وجل وخوف، فجعل الرجل يتصدق على من لقيه في الطريق ويذكر الله ويسبّحه، ويكثر من ذلك، فارتاب به الطبيب وتخيل منه، ومع هذا حمله الطمع على الاستمرار معه حتى دخل داره، فإذا هي خربة فارتاب الطبيب أيضاً فخرج صاحبه فقال له: ومع هذا البطء جئت لنا بصيد، فلما سمعها الطبيب هرب فخرجا خلفه سراعاً فما خلص إلا بعد جهد وشر.

وفيها وقع وباء شديد ببلاد عنزة بين الحجاز واليمن، وكانوا عشرين قرية، فبادت منها ثماني عشرة لم يبق فيها ديار ولا نافخ نار، وبقيت أنعامهم وأموالهم لا قاني لها، ولا يستطيع أحد أن يسكن تلك القرى ولا يدخلها، بل كان من اقترب إلى شيء من هذه القرى هلك من ساعته، نعوذ بالله من بأس الله وعذابه، وغضبه وعقابه، أما القريتان الباقيتان فإنهما لم يمت منهما أحد ولا عندهم شعور بما جرى على من حولهم، بل هم على حالهم لم يفقد منهم أحد فسبحان الحكيم العليم.

واتفق باليمن في هذه السنة كائنة غريبة جداً، وهي أن رجلاً يقال له عبد الله بن حمزة

---

(١) سقط في ط.

العلوي كان قد تغلب على كثير من بلاد اليمن، وجمع نحواً من اثني عشر ألف فارس، ومن الرجالة جمعاً كثيراً، وخافه ملك اليمن إسماعيل بن طغتكين بن أيوب، وغلب على ظنه زوال ملكه على يدي هذا الرجل، وأيقن بالهلكة لضعفه عن مقاومته، واختلاف أمرائه معه في المشورة، فأرسل الله صاعقة فنزلت عليهم فلم يبق منهم أحد سوى طائفة من الخيالة والرجالة، فاختلف جيشه فيما بينهم فغشيهم المعز فقتل منهم ستة آلاف، واستقر في ملكه آمناً.

وفيها تكاتب الأخوان الأفضل من صرخد والظاهر من حلب على أن يجتمعا على حصار دمشق وينزعاها من المعظم بن العادل، وتكون للأفضل، ثم يسيرا إلى مصر فيأخذاها من العادل وابنه الكامل اللذين نقضا العهد وأبطلا خطبة المنصور بن العزيز، ونكثا المواثيق، فإذا استقر لهما ملك مصر كانت للأفضل وتصير دمشق مضافة إلى الظاهر مع حلب، فلما بلغ العادل ما تمالآ عليه أرسل جيشاً مدداً لابنه المعظم عيسى إلى دمشق، فوصلوا إليها قبل وصول الظاهر وأخيه إليها، وكان وصولهما إليها في ذي القعدة من ناحية بعلبك، فنزلا بجيشهما على مسجد القدم واشتد الحصار للبلد، وتسلق كثير من الجيش من ناحية خان القدم، ولم يبق إلا فتح البلد، لولا هجوم الليل، ثم إن الظاهر بدا له في كون دمشق للأفضل فرأى أن تكون له أولاً، ثم إذا فتحت مصر تسلمها الأفضل، فأرسل إليه في ذلك فلم يقبل الأفضل، فاختلفا وتفرقت كلمتهما، وتنازعا الملك بدمشق، فتفرقت الأمراء عنهما، وكوتب العادل في الصلح فأرسل يجيب إلى ما سألا وزاد في إقطاعهما شيئاً من بلاد الجزيرة، وبعض معاملة المعرة. وتفرقت العساكر عن دمشق في محرم سنة ثمان وتسعين، وسار كل منهما إلى ما تسلم من البلاد التي أقطعها، وجرت خطوب يطول شرحها، وقد كان الظاهر وأخوه كتبا إلى صاحب الموصل نور الدين أرسلان الأتابكي أن يحاصر مدن الجزيرة التي مع عمهما العادل، فركب في جيشه وأرسل إلى ابن عمه قطب الدين صاحب سنجار، واجتمع معهما صاحب ماردين الذي كان العادل قد حاصره وضيق عليه مدة طويلة، فقصدت العساكر حران، وبها الفائز بن العادل، فحاصروه مدة، ثم لما بلغهم وقوع الصلح بين العادل وابني أخيه الظاهر والأفضل عدلوا إلى المصالحة، وذلك بعد طلب الفائز ذلك منهم، وتمهدت الأمور واستقرت على ما كانت عليه والله الحمد والمنة.

وفيها(١) ملك غياث الدين وأخوه شهاب الدين الغوريان جميع ما كان يملك خوارزم شاه من البلدان والحواصل والأموال، وجرت لهم خطوب طويلة جداً. وفيها كانت زلزلة عظيمة ابتدأت من بلاد الشام إلى الجزيرة وبلاد الروم والعراق، وكان جمهورها وعظمها بالشام تهدمت منها دور كثيرة، وتخربت محال كثيرة، وخسف بقرية من أرض بصرى، وأما سواحل الشام وغيرها فهلك فيها شيء كثير، وأخربت محال كثيرة من طرابلس وصور وعكا ونابلس، ولم يبق بنابلس سوى حارة السامرة ومات بها وبقراها ثلاثون ألفاً تحت الردم، وسقط طائفة كثيرة من المنارة الشرقية بدمشق بجامعها، وأربع عشر شرافة منه، وغالب الكلاسة البيمارستان النوري،

(١) في ط: وفي هذه السنة.

وخرج الناس إلى الميادين يستغيثون وسقط غالب قلعة بعلبك مع وثاقة بنيانها، وانفرق البحر إلى قبرص وقد حذف بالمراكب منه إلى ساحله، وتعدى إلى ناحية الشرق فسقط بسبب ذلك دور كثيرة، ومات أمم لا يحصون ولا يعدون حتى قال صاحب مرآة الزمان: إنه مات في هذه السنة بسبب الزلزلة نحو من ألف ألف ومائة ألف إنسان قتلاً تحتها، وقيل إن أحداً لم يحص من مات فيها والله سبحانه أعلم.

وفي هذه السنة توفي من الأعيان والمشاهير:

الشيخ أبو الفرج بن الجوزي عبد الرحمن بن علي

ابن محمد بن علي بن عبد الله بن حمادي بن أحمد بن محمد بن جعفر الجوزي ـ نسبة إلى فرضة نهر البصرة ـ ابن عبد الله بن القاسم بن النضر بن القاسم بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، الشيخ الحافظ الواعظ جمال الدين أبو الفرج المشهور بابن الجوزي، القرشي التيمي البغدادي الحنبلي، أحد أفراد العلماء، برز في علوم كثيرة، وانفرد بها عن غيره، وجمع المصنفات الكبار والصغار نحواً من ثلاثمائة مصنف، وكتب بيده نحواً من مائتي مجلدة، وتفرد بفن الوعظ الذي لم يسبق إليه ولا يلحق شأوه فيه وفي طريقته وشكله، وفي فصاحته وبلاغته وعذوبة كلامه وحلاوة ترصيعه ونفوذ وعظه وغوصه على المعاني البديعة، وتقريبه الأشياء الغريبة فيما يشاهد من الأمور الحسية، بعبارة وجيزة سريعة الفهم والإدارك، بحيث يجمع المعاني الكثيرة في الكلمة اليسيرة، هذا وله في العلوم كلها اليد الطولى، والمشاركات في سائر أنواعها من التفسير والحديث والتاريخ والحساب والنظر في النجوم والطب والفقه وغير ذلك من اللغة والنحو، وله من المصنفات في ذلك ما يضيق هذا المقام عن تعدادها، وحصر أفرادها، منها كتابه في التفسير المشهور بزاد المسير، وله تفسير أبسط منه ولكنه ليس بمشهور، وله جامع المسانيد استوعب به غالب مسند الإمام أحمد وصحيحي البخاري ومسلم وجامع الترمذي، وله كتاب المنتظم في تواريخ الأمم من العرب والعجم في عشرين مجلداً، قد أوردنا في كتابنا هذا كثيراً منه من حوادثه وتراجمه، ولم يزل يؤرخ أخبار العالم حتى صار تاريخاً، وما أحقه بقول الشاعر:

مـا زِلـتَ تَـدْأَبُ فـي الـتَّـارِيـخِ مُـجْـتَـهِـداً ... حَـتَّـى رَأَيْـتُـكَ فِـي الـتَّـارِيـخِ مَـكْـتُـوبـا

وله مقامات وخطب، وله الأحاديث الموضوعة، وله العلل المتناهية في الأحاديث الواهية، وغير ذلك. ولد سنة عشر وخمسمائة، ومات أبوه وعمره ثلاث سنين، وكان أهله تجاراً في النحاس، فلما ترعرع جاءت به عمته إلى مسجد محمد بن ناصر الحافظ، فلزم الشيخ وقرأ عليه وسمع عليه الحديث وتفقه بابن الزاغوني، وحفظ الوعظ ووعظ وهو ابن عشرين سنة أو دونها، وأخذ اللغة عن أبي منصور الجواليقي، وكان وهو صبي ديناً مجموعاً على نفسه لا يخالط أحداً ولا يأكل ما فيه شبهة، ولا يخرج من بيته إلا للجمعة، وكان لا يلعب مع الصبيان، وقد حضر مجلس وعظه الخلفاء والوزراء والملوك والأمراء والعلماء والفقراء، ومن سائر

صنوف بني آدم، وأقل ما كان يجتمع في مجلس وعظه عشرة آلاف، وربما اجتمع فيه مائة ألف أو يزيدون، وربما تكلم من خاطره على البديهة نظماً ونثراً، وبالجملة كان أستاذاً فرداً في الوعظ وغيره، وقد كان فيه بهاء وترفع في نفسه وإعجاب وسمو بنفسه أكثر من مقامه، وذلك ظاهر في كلامه في نثره ونظمه، فمن ذلك قوله:

مَـازِ لْـتُ أُدْرِكُ مـا غَـلا بَـلْ مـا عَـلاَ وَأُكَـابِـدُ الـنَّـهْـجَ الـعَـسِـيـرَ الأَطْـوَلا
تَـجْـرِي بِـيَ الآمَـالُ فِـي حَـلَـبَـاتِـهِ جَـرْيَ الـسَّـعِـيـدِ مَـدَى مَـا أَمَّـلا
أَفْـضَـى بِـي الـتَّـوْفِـيـقُ فِـيـهِ إِلَـى الَّـذِي أَعْـيَـا سِـوَايَ تَـوَصُّـلاً وَتَـغَـلْـغُـلاَ
لَـوْ كَـانَ هٰـذا الـعِـلْـمُ شَـخْـصـاً نَـاطِـقـاً وَسَـأَلْـتُـهُ هَـلْ زَارَ مِـثْـلِـيَ؟ قَـالَ: لا

ومن شعره وقيل هو لغيره:

إِذَا قَـنِـعْـتَ بِـمَـيْـسُـورٍ مِـنَ الـقُـوتِ أَصْبَحْتَ في النَّاسِ حُرّاً غَيْرَ مَمْقُوتِ
يـا قُـوتَ يَـوْمِـي إذا مَـا دَرَّ حَـلْـقُـكَ لِـي فَـلَـسْـتُ آسَـى عَـلَـى دُرٍ وَيَـاقُـوتِ

وله من النظم والنثر شيء كثير جداً، وله كتاب سمّاه لقط الجمان في كان وكان، ومن لطائف كلامه قوله في الحديث «أَعْمَارُ أُمَّتِي مَا بَيْنَ السَّتِّينِ إلى السَّبْعِين»[1] إنما طالت أعمار من قبلنا لطول البادية، فلما شارف الركب بلد الإقامة قيل لهم حثوا المطي، وقال له رجل أيهما أفضل؟ أجلس أسبح أو أستغفر؟ فقال الثوب الوسخ أحوج إلى الصابون من البخور. وسئل عمن أوصى وهو في السياق فقال: هذا طين سطحه في كانون. والتفت إلى ناحية الخليفة المستضيء وهو في الوعظ فقال: يا أمير المؤمنين إن تكلمت خفت منك، وإن سكت خفت عليك، وإن قول القائل لك اتق الله خير لك من قوله لكم إنكم أهل بيت مغفور لكم، كان عمر بن الخطاب يقول: إذا بلغني عن عامل لي أنه ظلم فلم أغيره فأنا الظالم، يا أمير المؤمنين. وكان يوسف لا يشبع في زمن القحط حتى لا ينسى الجائع، وكان عمر يضرب بطنه عام الرمادة ويقول قرقرا ولا تقرقرا، والله لا ذاق عمر سمناً ولا سميناً حتى يخصب الناس. قال فبكى المستضيء وتصدق بمال جزيل، وأطلق المحابيس وكسى خلقاً من الفقراء. ولد ابن الجوزي في حدود سنة عشر وخمسمائة كما تقدم، وكانت وفاته ليلة الجمعة بين العشاءين الثاني عشر من رمضان من هذه السنة، وله من العمر سبع وثمانون سنة، وحملت جنازته على رؤوس الناس، وكان الجمع كثيراً جداً، ودفن بباب حرب عند أبيه بالقرب من الإمام أحمد، وكان يوماً مشهوداً، حتى قيل: إنه أفطر جماعة من الناس من كثرة الزحام وشدة الحر رحمه الله، وقد أوصى أن يكتب على قبره هذه الأبيات:

يـا كَـثِـيـرَ الـعَـفْـوِ يـا مَـنْ كَـثُـرَتْ ذَنْـبِـي لَـدَيْـهِ
جَـاءَكَ الـمُـذْنِـبُ يَـرْجُـو الـصَّـفْـحَ عَـنْ جُـرْمِ يَـدَيْـهِ

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات باب ١٠١، وابن ماجه في الزهد باب ٢٧.

أَنَــا ضَيْـفٌ وَجَـزَاءُ الـــ ـضَيْـفِ إِحْسَـانٌ إِلَـيْـهِ

وقد كان له من الأولاد الذكور ثلاثة: عبد العزيز - وهو أكبرهم - مات شاباً في حياة والده في سنة أربع وخمسين، ثم أبو القاسم علي، وقد كان عاقاً لوالده إلباً عليه في زمن المحنة وغيرها، وقد تسلط على كتبه في غيبته بواسط فباعها بأبخس الثمن، ثم محيي الدين يوسف، وكان أنجب أولاده وأصغرهم ولد سنة ثمانين ووعظ بعد أبيه، واشتغل وحرر وأتقن وساد أقرانه، ثم باشر حسبة بغداد، ثم صار رسول الخلفاء إلى الملوك بأطراف البلاد، ولا سيما بني أيوب بالشام، وقد حصل منهم من الأموال والكرامات ما ابتنى به المدرسة الجوزية بالنشابين بدمشق، وما أوقف عليها، ثم حصل له من سائر الملوك أموالاً جزيلة، ثم صار أستاذ دار الخليفة المستعصم في سنة أربعين وستمائة، واستمر مباشرها إلى أن قتل مع الخليفة عام هارون تركي بن جنكيزخان، وكان لأبي الفرج عدة بنات منهن رابعة أم سبطه أبي المظفر بن قرا علي صاحب مرآة الزمان، وهي من أجمع التواريخ وأكثرها فائدة، وقد ذكره ابن خلكان في الوفيات فأثنى عليه وشكر تصانيفه وعلومه.

العماد الكاتب الأصبهاني

محمد بن محمد بن حامد بن محمد بن عبد الله بن علي بن محمود بن هبة الله بن أله - بتشديد اللام وضمها -، المعروف بالعماد الكاتب الأصبهاني، صاحب المصنفات والرسائل والشعر، وهو قرين القاضي الفاضل، واشتهر في زمنه، ومن اشتهر في زمن الفاضل فهو فاضل، ولد بأصبهان في سنة تسع عشر وخمسمائة، وقدم بغداد فاشتغل بها على الشيخ أبي منصور سعيد بن الرزاز مدرس النظامية، وسمع الحديث ثم رحل إلى الشام فحظي عند الملك نور الدين محمود بن زنكي، وكتب بين يديه وولاه المدرسة التي أنشأها داخل باب الفرج التي يقال لها العمادية، نسبة إلى سكناه بها وإقامته فيها، وتدريسه بها، لا أنه أنشأها وإنما أنشأها نور الدين محمود، ولم يكن هو أول من درس بها، بل قد سبقه إلى تدريسها غير واحد، كما تقدم في ترجمة نور الدين، ثم صار العماد كاتباً في الدولة الصلاحية وكان الفاضل يثني عليه ويشكره، قالوا: وكان منطوقه يعتريه جمود وفترة، وقريحته في غاية الجودة والحدة، وقد قال القاضي الفاضل لأصحابه يوماً: قولوا فتكلموا وشبهوه في هذه الصفة بصفات فلم يقبلها القاضي، وقال: هو كالزناد ظاهره بارد وداخله نار، وله من المصنفات الجريدة جريدة القصر في شعراء العصر، والفتح القدسي، والبرق السامي وغير ذلك من المصنفات المسجعة، والعبارات المتنوعة والقصائد المطولة. توفي في مستهل رمضان من هذه السنة عن ثمان وسبعين سنة رحمه الله، ودفن بمقابر الصوفية.

الأمير بهاء الدين قراقوش

الفحل الخصي، أحد كبار كتاب أمراء الدولة الصلاحية، كان شهماً شجاعاً فاتكاً، تسلم

القصر لما مات العاضد وعمر سور القاهرة محيطاً على مصر أيضاً، وانتهى إلى المقسم وهو المكان الذي اقتسمت فيه الصحابة ما غنموا من الديار المصرية، وبنى قلعة الجبل، وكان صلاح الدين سلمه عكا ليعمر فيها أماكن كثيرة فوقع الحصار وهو بها، فلما خرج البدل منها كان هو من جملة من خرج، ثم دخلها ابن المشطوب. وقد ذكر أنه أسر فافتدى نفسه بعشرة آلاف دينار، وعاد إلى صلاح الدين ففرح به فرحاً شديداً، ولما توفي في هذه السنة احتاط العادل على تركته وصارت أقطاعه وأملاكه للملك الكامل محمد بن العادل. قال ابن خلكان: وقد نسب إليه أحكام عجيبة، حتى صنف بعضهم جزءاً لطيفاً سماه كتاب الفاشوش في أحكام قراقوش، فذكر أشياء كثيرة جداً، وأظنها موضوعة عليه، فإن الملك صلاح الدين كان يعتمد عليه، فكيف يعتمد على من بهذه المثابة والله أعلم.

مكلبة بن عبد الله المستنجدي

كان تركياً عابداً زاهداً، سمع المؤذن وقت السحر وهو ينشد على المنارة:

يـــا رِجَـــالَ الـــلَّـــيْـــلِ جِـــدُّوا ‏ رُبَّ صَـــــــوْتٍ لا يُـــــــرَدُّ
مَـــا يَـــقُـــومُ الـــلَّـــيْـــلَ إلاَّ ‏ مَـــــنْ لَـــــهُ عَـــــزْمٌ وَجِـــــدُّ

فبكى مكلبة وقال للمؤذن يا مؤذن زدني، فقال المؤذن:

قَـــدْ مَـــضَـــى الـــلَّـــيْـــلُ وَوَلَّـــى ‏ وَحَـــبِـــيـــبِـــي قَـــدْ تَـــخَـــلَّـــى

فصرخ مكلبة صرخة كان فيها حتفه، فأصبح أهل البلد قد اجتمعوا على بابه فالسعيد منهم من وصل إلى نعشه رحمه الله تعالى وأكرم مثواه.

أبو منصور بن أبي بكر بن شجاع

المركلسي ببغداد، ويعرف بابن نقطة، كان يدور في أسواق بغداد بالنهار ينشد كان وكان والمواليا، ويسحر الناس في ليالي رمضان، وكان مطبوعاً ظريفاً خَليعاً، وكان أخوه الشيخ عبد الغني الزاهد من أكابر الصالحين، له زاوية ببغداد يزار فيها، وكان له أتباع ومريدون، ولا يدخر شيئاً يحصل له من الفتوح، تصدق في ليلة بألف دينار وأصحابه صيام لم يدخر منها شيئاً ولا عشاء، وزوجته أم الخليفة بجارية من خواصها وجهزتها بعشرة آلاف دينار إليه فما حال الحول[1] وعندهم من ذلك شيء بل يؤثر به ويتصدق به حتى لم يبق عندهم سوى هاون، فوقف سائر ببابه فألح في الطلب فأخرج إليه الهاون فقال: خذ هذا وكل به ثلاثين يوماً، ولا تسأل الناس ولا تشنع على الله عز وجل. هذا الرجل من خيار الصالحين، والمقصود أنه قال لأخيه أبي منصور: ويحك أنت تدور في الأسواق وتنشد الأشعار وأخوك من قد عرفت؟ فأنشأ يقول في جواب ذلك بيتين مواليا من شعره على البديهة:

(١) حال الحول: مضت السنة.

قَـدْ خَـابَ مَـنْ شَبَّـهَ الـجَـزْعَـة (١) إِلَـى دُرَّةٍ ... وَقَـاسَ قَـحْـبَـةً إِلَـى مُـسْـتَـحْـيِـيَـةٍ حُـرَّهْ

أَنَـا مُـغَـنِّـي وَأَخِـي زَاهِـدٌ إِلَـى مَـرَّة ... فِـي الـدَّر بِـبَـري ذِي حُـلْـوَة وَذِي مُـرَّهْ

وقد جرى عنده مرة ذكر قتل عثمان وعلي حاضر بالمدينة، فأنشأ يقول كان وكان، ومن قتل في جواره مثل ابن عفان فاعتذر، يجب عليه أن يقبل في الشام عذر يزيد، فأرادت الروافض قتله فاتفق أنه بعض الليالي يسحر الناس في رمضان إذ مر بدار الخليفة فعطس الخليفة في الطارقة فشمّته (٢) أبو منصور هذا من الطريق، فأرسل إليه مائة دينار، ورسم بحمايته من الروافض، إلى أن مات في هذه السنة سامحه الله. وفيها توفي مسند الشام.

أبو طاهر بركات بن إبراهيم بن طاهر

الخشوعي، شارك ابن عساكر في كثير من مشيخته، وطالت حياته بعد وفاته بسبع وعشرين سنة فألحق فيها الأحفاد بالأجداد.

ثم دخلت سنة ثمان وتسعين وخمسمائة

فيها شرع الشيخ أبو عمر محمد بن أحمد بن قدامة باني المدرسة بسفح قاسيون، في بناء المسجد الجامع بالسفح، فاتفق عليه رجل يقال له الشيخ أبو داود محاسن الغامي، حتى بلغ البناء مقدار قامة فنفد ما عنده، وما كان معه من المال، فأرسل الملك المظفر كوكري بن زين الدين صاحب إربل مالاً جزيلاً ليتمه به، فكمل وأرسل ألف دينار ليساق بها إليه الماء من بردى، فلم يمكن من ذلك الملك المعظم صاحب دمشق، واعتذر بأن هذا فرش قبور كثيرة للمسلمين، فصنع له بئر وبغل يدور، ووقف عليه وقفاً لذلك. وفيها كانت حروب كثيرة وخطوب طويلة بين الخوارزمية والغورية ببلاد المشرق بسطها ابن الأثير واختصرها ابن كثير. وفيها درس بالنظامية مجد الدين يحيى بن الربيع وخلع عليه خلعة سنية سوداء وطرحة كحلي، وحضر عنده العلماء والأعيان. وفيها تولى القضاء ببغداد أبو الحسن علي بن سليمان الجيلي وخلع عليه أيضاً.

وفيها توفي من الأعيان:

القاضي ابن الزكي

محمد بن علي بن محمد بن يحيى بن عبد العزيز أبو المعالي القرشي، محيي الدين قاضي قضاة دمشق وكل منهما كان قاضياً أبوه وجده وأبو جده يحيى بن علي، وهو أول من ولي الحكم بدمشق منهم، وكان هو جد الحافظ أبي القاسم بن عساكر لأمه، وقد ترجمه ابن عساكر في التاريخ ولم يزد على القرشي. قال الشيخ أبو شامة: ولو كان أموياً عثمانياً كما يزعمون لذكر ذلك ابن عساكر، إذ كان فيه شرف لجده وخاليه محمد وسلطان،

---

(١) الجزعة: واحدة الجزع، وهو خرز يماني فيه بياض وسواد.

(٢) شمته: دعا له بخير.

فلو كان ذلك صحيحاً لما خفي على ابن عساكر، اشتغل ابن الزكي على القاضي شرف الدين أبي سعد عبد الله بن محمد بن أبي عصرون، وناب عنه في الحكم، وهو أول من ترك النيابة، وهو أول من خطب بالقدس لما فتح كما تقدم، ثم تولى قضاء دمشق وأضيف إليه قضاء حلب أيضاً، وكان ناظر أوقاف الجامع، وعزل عنها قبل وفاته بشهور، ووليها شمس الدين بن الليثي ضماناً، وقد كان ابن الزكي ينهى الطلبة عن الاشتغال بالمنطق وعلم الكلام، ويمزق كتب من كان عنده شيء من ذلك بالمدرسة النورية، وكان يحفظ العقيدة المسماة بالمصباح للغزالي، ويحفظها أولاده أيضاً، وكان له درس في التفسير يذكره بالكلاسة، تجاه تربة الملك الناصر صلاح الدين، وكان قد وقع بينه وبين الإسماعيلية فأرادوا قتله فاتخذ له باباً من داره إلى الجامع ليخرج منه إلى الصلاة، ثم إنه خولط في عقله، فكان يعتريه شبه الصرع إلى أن توفي في شعبان من هذه السنة، ودفن بتربته بسفح قاسيون ويقال إن الحافظ عبد الغني دعا عليه فحصل له هذا الداء العضال، ومات، وكذلك الخطيب الدولعي توفي فيها وهما اللذان قاما على الحافظ عبد الغني فماتا في هذه السنة، فكانا عبرة لغيرهما.

الخطيب الدولعي

ضياء الدين أبو القاسم عبد الملك بن زيد بن ياسين الثعلبي الدولعي، نسبة إلى قرية بالموصل، يقال لها الدولعية، ولد بها في سنة ثمان عشرة وخمسمائة، وتفقه ببغداد على مذهب الشافعي وسمع الحديث فسمع الترمذي على أبي الفتح الكروجي، والنسائي على أبي الحسن علي بن أحمد البردي ثم قدم دمشق فولّي بها الخطابة وتدريس الغزالية، وكان زاهداً متورعاً حسن الطريقة مهيباً في الحق، وكانت وفاته يوم الثلاثاء تاسع عشر ربيع الأول، ودفن بمقبرة باب الصغير عند قبور الشهداء، وكان يوم جنازته يوماً مشهوداً، وتولى بعده الخطابة ولد أخيه محمد بن أبي الفضل بن زيد سبعاً وثلاثين سنة، وقيل ولده جمال الدين محمد. وقد كان ابن الزكي ولى ولده الزكي فصلى صلاة واحدة فتشفع جمال الدين بالأمير علم الدين أخي العادل، فولاه إياها فبقي فيها إلى أن توفي سنة خمس وثلاثين وستمائة.

الشيخ علي بن علي بن عليش

اليمني العابد الزاهد، كان مقيماً شرقي الكلاسة، وكانت له أحوال ومقامات، نقلها الشيخ علم الدين السخاوي عنه، ساقها أبو شامة عنه في الذيل.

الصدر أبو الثناء حماد بن هبة الله

ابن حماد الحراني، التاجر، ولد سنة إحدى عشرة عام ولد نور الدين بن زنكي، وسمع الحديث ببغداد ومصر وغيرها من البلاد، وتوفي في ذي الحجة، ومن شعره قوله:

تَـنَـقُّـلُ الـمَـرْءِ فِـي الآفَـاقِ يُـكْـسِـبُـهُ ... مَـحَـاسِـناً لَـمْ يَـكُـنْ مِـنْـهَـا بِـبَـلْـدَتِـهِ

أَمَـا تَـرَى الـبَـيْـدَقَ الـشِّـطْـرَنْـجَ أَكْـسَـبَـهُ ... حُـسْـنُ الـتَّـنَـقُّـلِ حُـسْـنـاً فَـوْقَ زِيـنَـتِـهِ

الستّ الجليلة ينفشا بنت عبد الله

عتيقة المستضيء، كانت من أكبر حظاياه، ثم صارت بعده من أكثر النساء صدقة وبراً وإحساناً إلى العلماء والفقراء، لها عند تربتها ببغداد عند تربة معروف الكرخي صدقات وبر.

ابن المحتسب الشاعر أبو السكر

محمود بن سليمان بن سعيد الموصلي يعرف بابن المحتسب، تفقه ببغداد ثم سافر إلى البلاد وصحب ابن الشهرزوري وقدم معه، فلما وليّ قضاء بغداد ولاّه نظر أوقاف النظامية، وكان يقول الشعر، وله أشعار في الخمر لا خير فيها تركتها تنزهاً عن ذلك، وتقذراً لها.

ثم دخلت سنة تسع وتسعين وخمسمائة [من الهجرة النبوية](١)

قال سبط ابن الجوزي في مرآته: في ليلة السبت سلخ المحرم هاجت النجوم في السماء وماجت شرقاً وغرباً، وتطايرت كالجراد المنتشر يميناً وشمالاً، قال: ولم ير مثل هذا إلا في عام المبعث، وفي سنة إحدى وأربعين ومائتين. وفي هذه السنة شرع بعمارة سور قلعة دمشق وابتدىء ببرج الزاوية الغربية القبلية المجاور لباب النصر. وفيها أرسل الخليفة الناصر الخلع وسراويلات الفتوة إلى الملك العادل وبنيه. وفيها بعث العادل ولده موسى الأشرف لمحاصرة ماردين، وساعده جيش سنجار والموصل ثم وقع الصلح على يدي الظاهر، على أن يحمل صاحب ماردين في كل سنة مائة ألف وخمسين ألف دينار، وأن تكون السكة والخطبة للعادل، وأنه متى طلبه بجيشه يحضر إليه. وفيها كمل بناء رباط المورريانية، ووليه الشيخ شهاب الدين عمر بن محمد الشهرزوري، ومعه جماعة من الصوفية، ورتب لهم من المعلوم والجراية ما ينبغي لمثلهم. وفيها احتجر الملك العادل على محمد بن الملك العزيز وإخوته وسيرهم إلى الرها خوفاً من آفاتهم بالديار المصرية. وفيها استحوذت الكرج على مدينة دوين فقتلوا أهلها ونهبوها، وهي من بلاد آذربيجان، لاشتغال ملكها بالفسق وشرب الخمر قبّحه الله، فتحكمت الكفرة في رقاب المسلمين بسببه، وذلك كله غل في عنقه يوم القيامة.

الملك غياث الدين الغوري أخو شهاب الدين

فقام بالملك بعده ولده محمود، وتلقّب بلقب أبيه، وكان غياث الدين عاقلاً حازماً شجاعاً، لم تكسر له راية مع كثرة حروبه، وكان شافعي المذهب، ابتنى مدرسة هائلة للشافعية، وكانت سيرته حسنة في غاية الجودة. وفيها توفي من الأعيان:

الأمير علم الدين أبو منصور

سليمان بن شيروة بن جندر(٢) أخو الملك العادل لأمه، وكانت وفاته في التاسع

---

(١) سقط في ط.

(٢) في النجوم الزاهرة: سليمان بن جندر.

والعشرين من المحرم، ودفن بداره التي جعلها مدرسة في داخل باب الفراديس في محلة الافتراس، ووقف عليها الحمام بكمالها تقبّل الله منه.

القاضي الضياء الشهرزوري

أبو الفضائل القاسم بن يحيى بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري الموصلي، قاضي قضاة بغداد، وهو ابن أخي قاضي قضاة دمشق كمال الدين الشهرزوري، أيام نور الدين. ولما توفي سنة ست وسبعين في أيام الدولة الصلاحية أوصى لولد أخيه هذا بالقضاء فوليه، ثم عزل عنه بابن أبي عصرون، وعوض بالسفارة إلى الملوك، ثم تولى قضاء بلدة الموصل، ثم استدعى إلى بغداد فوليها سنتين وأربعة أشهر، ثم استقال الخليفة فلم يقله لحظوته عنده، فاستشفع في زوجته ست الملوك على أم الخليفة، وكان لها مكانة عندها، فأجيب إلى ذلك فصار إلى قضاء حماه لمحبته إياها، وكان يعاب عليه ذلك، وكانت لديه فضائل وله أشعار رائقة، وكانت وفاته في حماه في نصف رجب منها[1].

عبيد الله بن علي بن نصر بن حمزه

أبو بكر البغدادي المعروف بابن المرستانية، أحد الفضلاء المشهورين. سمع الحديث وجمعه، وكان طبيباً منجماً يعرف علوم الأوائل وأيام الناس، وصنف ديوان الإسلام في تاريخ دار السلام، ورتبه على ثلاثمائة وستين كتاباً إلا أنه لم يشتهر، وجمع سيرة ابن هبيرة، وقد كان يزعم أنه من سلالة الصديق فتكلموا فيه بسبب ذلك. وأنشد بعضهم:

دَعِ الأَنْسَابَ لا تَعْرِضْ لِتَيْمِ ... فَإِنَّ الهُجْنَ مِنْ وَلَدِ الصَّمِيمِ
لَقَدْ أَصْبَحْتَ مِنْ تَيْمٍ دَعِيّاً ... كَدَعْوَى حَيْصَ بَيْصَ إِلَى تَمِيمِ

ابن النجا الواعظ

علي بن إبراهيم بن نجا زين الدين أبو الحسن الدمشقي، الواعظ الحنبلي، قدم بغداد فتفقه بها وسمع الحديث ثم رجع إلى بلده دمشق، ثم عاد إليها رسولاً من جهة نور الدين في سنة أربع وستين، وحدث بها، ثم كانت له حظوة عند الملك الناصر صلاح الدين، وهو الذي نم على عمارة اليمني وذويه فصلبوا، وكانت له مكانة بمصر، وقد تكلم يوم الجمعة التي خطب فيها بالقدس الشريف بعد الفراغ من الجمعة، وكان وقتاً مشهوداً، وكان يعيش عيشاً أطيب من عيش الملوك في الأطعمة والملابس، وكان عنده أكثر من عشرين سرية من أحسن النساء، كل واحدة بألف دينار، فكان يطوف عليهن ويغشاهن وبعد هذا كله مات فقيراً لم يخلف كفناً، وقد أنشد وهو على منبره للوزير طلائع بن زريك:

---

(١) في ط: رحمه الله.

مَشِيبُكَ قَدْ قَضَى شَرْخَ الشَّبَابِ وَحَلَّ البَازُ فِي وَكْرِ الغُرَابِ
تَنَامُ وَمُقْلَةُ الحَدَثَانِ يَقْظَى وَمَا نَابُ النَّوَائِبِ عَنْكَ نَابِ
فَكَيْفَ بَقَاءُ عُمْرِكَ وَهْوَ كَنْزٌ وَقَدْ أَنْفَقْتَ مِنْهُ بِلاَ حِسَابِ؟

الشيخ أبو البركات (محمد بن أحمد بن سعيد التكريتي)

يعرف بالمؤيد، كان أديباً شاعراً، ومما نظمه في الوجيه النحوي حين كان حنبلياً فانتقل حنفياً، ثم صار شافعياً، نظم ذلك في حلقة النحو بالنظامية فقال:

أَلاَ مُبْلِغاً عَنِّي الوَجِيهَ رِسَالَةً وَإِنْ كَانَ لا تُجْدِي لَدَيْهِ الرَّسَائِلُ
تَمَذْهَبْتَ لِلنُّعْمَانِ بَعْدَ ابْنِ حَنْبَلٍ وَذٰلِكَ لَمَّا أَعْوَزَتْكَ المَآكِلُ
وَمَا اخْتَرْتَ قَوْلَ الشَّافِعِيِّ دِيَانَةً وَلٰكِنَّمَا تَهْوَى الَّذِي هُوَ حَاصِلُ
وَعَمَّا قَلِيلٍ أَنْتَ لا شَكَّ صَائِرٌ إِلَى مَالِكٍ فَانْظُرْ إِلَى مَا أَنْتَ قَائِلُ؟

الست الجليلة زمرد خاتون

أم الخليفة الناصر لدين الله بن المستضيء، كانت صالحة عابدة كثيرة البر والإحسان والصلات والأوقاف وقد بنت لها تربة إلى جانب قبر معروف، وكانت جنازتها مشهورة جداً، واستمر العزاء بسببها شهراً، عاشت في خلافة ولدها أربعاً وعشرين سنة نافذة الكلمة مطاعة الأوامر.

وفيها[1] كان مولد الشيخ شهاب الدين أبي شامة، وقد ترجم نفسه عند ذكر مولده في هذه السنة في الذيل ترجمة مطولة، فينقل إلى سنة وفاته رحمه الله، وذكر بدو أمره، واشتغاله ومصنفاته وشيئاً كثيراً من شعاره، وما رئي له من المنامات المبشرة. في هذه السنة كان ابتداء ملك جنكيز خان ملك التتار، عليه من الله ما يستحقه، وهو صاحب الباسق وضعها ليتحاكموا إليها ـ يعني التتار ومن معهم من أمراء الترك ـ ممن يبتغي حكم الجاهلية ـ وهو والد تولي، وجد هولاكو بن تولي ـ الذي قتل الخليفة المستعصم وأهل بغداد في سنة ست وخمسين وستمائة كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى في موضعه. والله سبحانه وتعالى أعلم.

سنة ستمائة من الهجرة

في هذه السنة كانت الفرنج قد جمعوا خلقاً منهم ليستعيدوا بيت المقدس من أيدي المسلمين، فأشغلهم الله عن ذلك بقتال الروم، وذلك أنهم اجتازوا في طريقهم بالقسطنطينية فوجدوا ملوكهم قد اختلفوا فيما بينهم، فحاصروها حتى فتحوها قسراً، وأباحوها ثلاثة أيام قتلاً وأسراً، وأحرقوا أكثر من ربعها، وما أصبح أحد من الروم في هذه الأيام الثلاثة إلا قتيلاً أو فقيراً

(١) في ط: وفي هذه السنة.

أو مكبولاً أو أسيراً، ولجأ عامة من بقي منها إلى كنيستها العظمى المسماة بآياصوفيا، فقصدهم الفرنج فخرج إليهم القسيسون بالأناجيل ليتوسلوا إليهم ويتلوا ما فيها عليهم، فما التفتوا إلى شيء من ذلك، بل قتلوهم أجمعين أكتعين أبصعين[١]. وأخذوا ما كان في الكنيسة من الحلي والأذهاب والأموال التي لا تحصى ولا تعد، وأخذوا ما كان على الصلبان والحيطان، والحمد لله الرحيم الرحمن، الذي ما شاء كان، ثم اقترع ملوك الفرنج وكانوا ثلاثة وهم دوق البنادقة، وكان شيخاً أعمى يقاد فرسه، ومركيس الافرنسيس وكندا بلند، وكان أكثرهم عدداً وعدداً. فخرجت القرعة له ثلاث مرات، فولّوه ملك القسطنطينية وأخذ الملكان الآخران بعض البلاط، وتحول الملك من الروم إلى الفرنج بالقسطنطينية في هذه السنة ولم يزل مالكاً لتلك النحية حتى توفي. ثم إن الفرنج قصدوا بلاد الشام وقد تقووا بملكهم القسطنطينية فنزلوا عكا وأغاروا على كثير من بلاد الإسلام من ناحية الغور وتلك الأراضي، فقتلوا وسبوا، فنهض إليهم العادل وكان بدمشق، واستدعى الجيوش المصرية والشرقية ونازلهم بالقرب من عكا، فكان بينهم قتال شديد وحصار عظيم[٢]، ثم وقع الصلح بينهم والهدنة وأطلق لهم شيئاً من البلاد فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفي هذه السنة جرت حروب كثيرة بين الخوارزمية والغورية بالمشرق يطول ذكرها. وفيها تحارب صاحب الموصل نور الدين وصاحب سنجار قطب الدين الزنكي وساعد الأشرف بن العادل القطب، ثم اصطلحوا وتزوج الأشرف أخت نور الدين، وهي الأتابكية بنت عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي، واقفة الأتابكية التي بالسفح، وبها تربتها. وفيها كات زلزلة عظيمة بمصر والشام والجزيرة وقبرص وغيرها من البلاد. قاله ابن الأثير في كامله. وفيها تغلب رجل من التجار يقال له محمود بن محمد الحميري على بعض بلاد حضرموت ظفار وغيرها، واستمرت أيامه إلى سنة تسع عشرة وستمائة وما بعدها.

وفي جمادى الأولى منها عقد مجلس لقاضي القضاة ببغداد وهو أبو الحسن علي بن عبد الله بن سليمان الجيلي بدار الوزير، وثبت عليه محضر بأنه يتناول الرشا فعزل في ذلك المجلس وفسق ونزعت الطرحة عن رأسه، وكانت مدة ولايته سنتين وثلاثة أشهر.

وفيها كانت وفاة الملك ركن الدين بن قلج أرسلان، كان ينسب إلى اعتقاد الفلاسفة، وكان كهفاً لمن ينسب إلى ذلك، وملجأ لهم، وظهر منه قبل موته تجهرم عظيم، وذلك أنه حاصر أخاه شقيقه ـ وكان صاحب أنكورية، وتسمى أيضاً أنقرة ـ مدة سنين حتى ضيق عليه الأقوات بها فسلمها إليه قسراً، على أن يعطيه بعض البلاد. فلما تمكن منه ومن أولاده أرسل إليهم من قتلهم غدراً وخديعة ومكراً فلم ينظر بعد ذلك إلا خمسة أيام فضربه الله تعالى بالقولنج سبعة أيام ومات ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الدخان: ٢٩] وقام بالملك من بعده ولده أفلح أرسلان، وكان صغيراً فبقي سنة واحدة، ثم نزع منه الملك وصار إلى عمه

(١) أبصعين: تأتي أبصع للتوكيد بعد أجمع. (٢) في ط: ومصابرة عظيمة.

كيخسرو. وفيها قتل خلق كثير من الباطنية بواسط. قال ابن الأثير: في رجب منها اجتمع جماعة من الصوفية برباط ببغداد في سماع فأنشدهم، وهو الجمال الحلي:

أَعَاذِلَتِي أَقْصِرِي ... كَفَى بِمَشِيبِي عَذَلْ[1]
شَبَابٌ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ ... وَشَيْبٌ كَأَنْ لَمْ يَزَلْ
وَبَثِّي لَيَالِ الوِصَا ... لِ أَوَاخِرُهَا وَالأُوَلْ
وَصُفْرَةُ لَوْنِ المُحِبْـ ... ـبِ عِنْدَ اسْتِمَاعِ الغَزَلْ
لَئِنْ عَادَ عَتْبِي لَكُمْ ... حَلالِيَ العَيْشُ وَاتَّصَلْ
فَلَسْتُ أُبَالِي بِمَا نَالَنِي ... وَلَسْتُ أُبَالِي بِأَهْلٍ وَمَلْ[2]

قال فتحرك الصوفية على العادة فتواجد من بينهم رجل يقال له أحمد الرازي فخر مغشياً عليه، فحركوه فإذا هو ميت. قال: وكان رجلاً صالحاً، وقال ابن الساعي كان شيخاً صالحاً صحب الصدر عبد الرحيم شيخ الشيوخ فشهد الناس جنازته، ودفن بباب إبرز.

وفيها توفي من الأعيان:

أبو القاسم بهاء الدين

الحافظ ابن الحافظ أبو القاسم علي بن هبة الله بن عساكر، كان مولده في سنة سبع وعشرين وخمسمائة، أسمعه أبوه الكثير، وشارك أباه في أكثر مشايخه، وكتب تاريخ أبيه مرتين بخطه، وكتب الكثير وأسمع وصنّف كتباً عدة، وخلف أباه في إسماع الحديث بالجامع الأموي، ودار الحديث النورية. وكانت وفاته يوم الخميس ثامن صفر ودفن بعد العصر على أبيه بمقابر باب الصغير شرقي قبور الصحابة خارج الحظيرة.

الحافظ عبد الغني المقدسي

ابن عبد الواحد بن علي بن سرور الحافظ أبو محمد المقدسي، صاحب التصانيف المشهورة، من ذلك الكمال في أسماء الرجال، والأحكام الكبرى والصغرى وغير ذلك، ولد بجماعيل في ربيع الآخر سنة إحدى وأربعين وخمسمائة، وهو أسن من عميه الإمام موفق الدين عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي، والشيخ أبي عمر، بأربعة أشهر، وكان قدومهما مع أهلهما من بيت المقدس إلى مسجد أبي صالح، خارج باب شرقي أولاً، ثم انتقلوا إلى السفح فعرفت محلة الصالحية بهم، فقيل لها الصالحية، فسكنوا الدير، وقرأ الحافظ عبد الغني القرآن وسمع الحديث وارتحل هو والموفق إلى بغداد سنة ستين وخمسمائة، فأنزلهما الشيخ عبد القادر عنده في المدرسة، وكان لا يترك أحداً ينزل عنده، ولكن توسم فيهما الخير والنجابة والصلاح فأكرمهما وأسمعهما، ثم توفي بعد مقدمهما بخمسين ليلة رحمه الله؛ وكان ميل

(١) العذل: الملامة. (٢) ومل: أي: ومال.

عبد الغني إلى الحديث وأسماء الرجال، وميل الموفق إلى الفقه واشتغلا على الشيخ أبي الفرج بن الجوزي، وعلى الشيخ أبي الفتح بن المنى، ثم قدما دمشق بعد أربع سنين فدخل عبد الغني إلى مصر وإسكندرية، ثم عاد إلى دمشق، ثم ارتحل إلى الجزيرة وبغداد، ثم رحل إلى أصبهان فسمع بها الكثير، ووقف على مصنف للحافظ أبي نعيم في أسماء الصحابة، قلت: وهو عندي بخط أبي نعيم. فأخذ في مناقشته في أماكن من الكتاب في مائة وتسعين موضعاً، فغضب بنو الخجندي من ذلك، فبغضوه وأخرجوه منها مختفياً في إزار. ولما دخل في طريقه إلى الموصل سمع كتاب العقيلي في الجرح والتعديل، فثار عليه الحنفية بسبب أبي حنيفة، فخرج منها أيضاً خائفاً يترقب، فلما ورد دمشق كان يقرأ الحديث بعد صلاة الجمعة برواق الحنابلة من جامع دمشق، فاجتمع الناس عليه وإليه، وكان دقيق القلب سريع الدمعة، فحصل له قبول من الناس جداً، فحسده بنو الزكي والدولعي وكبار الدماشقة من الشافعية وبعض الحنابلة، وجهزوا الناصح الحنبلي، فتكلم تحت قبة النسر، وأمروه أن يجهر بصوته مهما أمكنه، حتى يشوش عليه، فحول عبد الغني ميعاده إلى بعد العصر فذكر يوماً عقيدته على الكرسي فثار عليه القاضي ابن الزكي، والخطيب وضياء الدين الدولعي، وعقدوا له مجلساً في القلعة يوم الاثنين الرابع والعشرين من ذي القعدة سنة خمس وتسعين وتكلموا معه في مسألة العلو ومسألة النزول، ومسألة الحرف والصوت، وطال الكلام وظهر عليهم بالحجة، فقال له برغش نائب القلعة: كل هؤلاء على الضلالة وأنت على الحق؟ قال: نعم، فغضب برغش من ذلك وأمره بالخروج من البلد، فارتحل بعد ثلاث إلى بعلبك، ثم إلى الديار المصرية، فآواه الطحانيون فكان يقرأ الحديث بها فثار عليه الفقهاء بمصر أيضاً وكتبوا إلى الوزير صفي الدين بن شكر فأقر بنفيه إلى المغرب فمات قبل وصول الكتاب يوم الاثنين الثالث والعشرين من ربيع الأول من هذه السنة، وله تسع وخمسون سنة، ودفن بالقرافة عند قبر الشيخ أبي عمرو بن مرزوق رحمهما الله. قال السبط: كان عبد الغني ورعاً زاهداً عابداً، يصلي كل يوم ثلاثمائة ركعة كورد الإمام أحمد، ويقوم الليل ويصوم عامة السنة، وكان كريماً جواداً لا يدخر شيئاً، ويتصدق على الأرامل والأيتام حيث لا يراه أحد، وكان يرقع ثوبه ويؤثر بثمن الجديد، وكان قد ضعف بصره من كثرة المطالعة والبكاء وكان أوحد زمانه في عالم الحديث والحفظ. قلت: وقد هذب شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزي برحمته كتابه الكمال في أسماء الرجال ـ رجال الكتب الستة ـ بتهذيبه الذي استدرك عليه فيه أماكن كثيرة، نحواً من ألف موضع، وذلك الإمام المزي الذي لا يمارى ولا يجارى، وكتابه التهذيب لم يسبق إلى مثله، ولا يلحق في شكله فرحم الله صاحبي التهذيب، فلقد كانا نادرين في زمانهما في أسماء الرجال حفظاً وإتقاناً وسماعاً وإسماعاً وسرداً للمتون وأسماء الرجال، والحاسد لا يفلح ولا ينال منالاً طائلاً.

قال ابن الأثير: وفيها توفي:

أبو الفتوح أسعد بن محمود العجلي

صاحب تتمة التتمة أسعد بن أبي الفضل بن محمود بن خلف العجلي الفقيه الشافعي

الأصبهاني الواعظ منتخب الدين، سمع الحديث وتفقه وبرع وصنف تتمة التتمة لأبي سعد الهروي، كان زاهداً عابداً، وله شرح مشكلات الوسيط والوجيز، قال ابن خلكان: توفي في صفر سنة ستمائة.

البناني الشاعر

أبو عبد الله محمد بن المهنا الشاعر المعروف بالبناني، مدح الخلفاء والوزراء والأمراء وغيرهم، ومدح وكبر وعلت سنه، وكان رقيق الشعر ظريفه قال:

ظُلْماً تَرَى مُغْرَماً فِي الحُبِّ تَزْجُرُهُ[1] وَغَيْرُهُ بِالهَوَى أَمْسَيْتَ تُنْكِرُهُ
يا عَاذِلَ الصَّبِّ[2] لَوْ عَايَنْتَ قَاتِلَهُ لِوَجْنَةٍ وَعِذَارٍ كُنْتَ تَعْذُرُهُ
أَفَذِي الَّذِي بِسِحْرِ عَيْنَيْهِ يَعْلَمُنِي إذا تَصَدَّى لِقَتْلِي كَيْفَ أَسْحَرُهُ
يَسْتَمْتِعُ اللَّيْلَ فِي نَوْمٍ وَأَسْهَرُهُ إِلَى الصَّبَاحِ وَيَنْسَانِي وَأَذْكُرُهُ

أبو سعيد الحسن بن خلد

ابن المبارك النصراني المارداني الملقب بالوحيد، اشتغل في حداثته بعلم الأوائل وأتقنه وبرز فيه وكانت له يد طولى في الشعر الرائق، فمن ذلك قوله قاتله الله:

أَتَانِي كِتَابٌ أَنْشَأَتْهُ أَنَامِلٌ حَوَتْ أَبْحُراً مِنْ فَيْضِهَا يَغْرَقُ البَحْرُ
فَوَا عَجَبَا أَنَّى الْتَوَتْ فَوْقَ طِرسِهِ وَمَا عُوِّدَتْ بِالقَبْضِ أَنْمُلُهُ العَشْرُ[3]

وله أيضاً:

لَقَدْ أَثَّرَتْ صُدْغَاهُ فِي لَوْنِ خَدِّهِ وَلاَحَا كَفَيْءٍ مِنْ وَرَاءِ زُجَاجِ
تَرَى عَسْكَراً لِلرُّومِ في الزِّيحِ مُذْ بَدَتْ كَطَائِفَةٍ تَسْعَى لِيَوْمِ هِيَاجِ
أَمِ الصُّبْحُ بِاللَّيْلِ البَهِيمِ مُوَشَّحٌ حَكَى أَبْنُوساً فِي صَحِيفَةِ عَاجِ
لَقَدْ غَارَ صُدْغَاهُ عَلَى وَرْدُ خَدِّهِ فَسَبَّحَهُ مِنْ شَعْرِهِ بِسِيَاجِ

الطاوسي صاحب الطريقة العراقي محمد بن العراقي

ركن الدين أبو الفضل القزويني، ثم الهمداني، المعروف بالطاوسي، كان بارعاً في علم الخلاف والجدل والمناظرة، أخذ هذا الشأن عن الشيخ رضي الدين النيسابوري الحنفي، وصنّف في ذلك ثلاث تعاليق قال ابن خلكان: أحسنهن الوسطى، وكانت إليه الرحلة بهمدان، وقد بنى له بعض الأمراء بها مدرسة تعرف بالحاجبية وكانت وفاته في هذه السنة، ويقال إنه منسوب إلى طاوس بن كيسان التابعي فالله أعلم.

---

(١) تزجره: تنهره وتنهاه بقسوة. (٢) الصبّ: المحب الذي يعاني الصبابة.
(٣) الطرس: الصحيفة. والأنمل: جمع أنملة. وهي الأصبع.

ثم دخلت سنة إحدى وستمائة [من الهجرة النبوية][(١)]

فيها عزل الخليفة الناصر ولده محمد الملقب بالظاهر عن ولاية العهد بعدما خطب له سبع عشرة سنة، وولى العهد ولده الآخر علياً، فمات علي عن قريب فعاد الأمر إلى الظاهر، فبويع له بالخلافة بعد أبيه الناصر كما سيأتي في سنة ثلاث وعشرين وستمائة.

وفيها وقع حريق عظيم بدار الخلافة في خزائن السلاح، فاحترق من ذلك شيء كثير من السلاح والأمتعة والمساكن ما يقارب قيمته أربعة آلاف ألف دينار، وشاع خبر هذا الحريق في الناس، فأرسلت الملوك من سائر الأقطار هدايا أسلحة إلى الخليفة عوضاً عن ذلك وفوقه من ذلك شيئاً كثيراً.

وفيها عاثت الكرج ببلاد المسلمين فقتلوا خلقاً، وأسروا آخرين. وفيها وقعت الحرب بين أمير مكة قتادة الحسيني، وبين أمير المدينة سالم بن قاسم الحسيني، وكان قتادة قد قصد المدينة فحصر سالماً فيها، فركب إليه سالم بعد ما صلى عند الحجرة النبوية فاستنصر الله عليه، ثم برز إليه فكسره وساق وراءه إلى مكة فحصره بها، ثم إن قتادة أرسل إلى أمراء سالم فأفسدهم عليه فكر سالم راجعاً إلى المدينة سالماً.

وفيها ملك غياث الدين كيخسرو بن قلج أرسلان بن مسعود بن قلج بلاد الروم واستلبها من ابن أخيه، واستقر هو بها وعظم شأنه وقويت شوكته، وكثرت عساكره وأطاعه الأمراء وأصحاب الأطراف، وخطب له الأفضل بن صلاح الدين بسميساط، وسار إلى خدمته، واتفق في هذه السنة أن رجلاً ببغداد نزل إلى دجلة يسبح فيها وأعطى ثيابه لغلامه فغرق في الماء فوجد في ورقة بعمامته هذه الأبيات:

يَـا أَيُّـهَـا الـنَّـاسُ كَـانَ لِـي أَمَـلٌ ... قَـصَّـرَ بِـي عَـنْ بُـلُـوغِـهِ الأَجَـلُ
فَـلْـيَـتَّـقِ اللهَ رَبَّـهُ رَجُـلٌ ... أَمْـكَـنَـهُ فِـي زَمَـانِـهِ الـعَـمَـلُ
مَـا أَنَـا وَحْـدِي بِـفِـنَـاءِ بَـيْـتٍ ... يَـرَى كُـلٌّ إِلَـى مِـثْـلِـهِ سَـيَـنْـتَـقِـلُ

وفيها توفي من الأعيان:

أبو الحسن علي بن عنتر بن ثابت الحلي

المعروف بشميم، كان شيخاً أديباً لغوياً شاعراً جمع من شعره حماسة كان يفضلها على حماسة أبي تمام، وله خمريات يزعم أنها أفحل من التي لأبي نواس.

قال أبو شامة في الذيل: كان قليل الدين ذا حماقة ورقاعة وخلاعة، وله حماسة ورسائل.

قال ابن الساعي: قدم بغداد فأخذ النحو عن ابن الخشاب، حصل منه طرفاً صالحاً، ومن اللغة وأشعار العرب، ثم أقام بالموصل حتى توفي بها. ومن شعره:

---

(١) سقط في ط.

لا تُسْرِحَنَّ الطَّرْفَ فِي مُقَلِ المَهَا فَمَصَارِعُ الآجَالِ فِي الآمَالِ
كَمْ نَظْرَةٍ أَرْدَتْ وَمَا أَخْرَتْ وَكَمْ يَدٍ قُبِّلَتْ أَوَانَ قِتَالِ
سَنَحَتْ وَمَا سَمَحَتْ بِسَلِيمَةٍ وَأَغْلالُ التَّحِيَّةِ فِعْلَةُ المُخْتَالِ

وله في التجنيس:

لَيْتَ مِنْ طُولِ بِالشَّـ ـأم ثَوَاهُ وَثَوَابِهِ
جَعَلَ العَوْدَ إِلَى الزَّوْ رَاءِ مِنْ بَعْضِ ثَوَابِهْ
أَتُرَى يُوطِئُنِي الدَّهْـ ـرُ ثَرَى مِسْكِ تُرَابِهْ
وَأَرَانِي نُورَ عَيْنِي مُوطِئاً لِي وَثَرَى بِهْ

وله أيضاً في الخمر وغيره:

أبو نصر محمد بن سعد الله(١)

ابن نصر بن سعيد الأرتاحي، كان سخياً بهياً واعظاً حنبلياً فاضلاً شاعراً فمن قوله:

نَفْسُ الفَتَى إِنْ أُصْلِحَتْ أَحْوَالُهَا كَانَ إِلَى نَيْلِ المُنَى أَحْوَى لَهَا
وَإِنْ تَرَاهَا سَدَّدَتْ أَقْوَالَهَا كَانَ عَلَى حَمْلِ العُلَى أَقْوَى لَهَا
فَإِنْ تَبَدَّتْ حَالُ مَنْ لَهَا لَهَا فِي قَبْرِهِ عِنْدَ البِلَى لَهَا لَهَا

أبو العباس أحمد بن مسعود

ابن محمد القرطبي الخزرجي، كان إماماً في التفسير والفقه والحساب والفرائض والنحو واللغة والعروض والطب، وله تصانيف حسان، وشعر رائق منه قوله:

وَفِي الوَجَنَاتِ ما فِي الرَّوْضِ لَكِنْ لِرَوْنَقِ زَهْرِهَا مَعْنَى عَجِيبُ
وَأَعْجَبُ مَا التَّعَجُّبُ مِنْهُ أَتَى لِتَيَّارٍ تَحَمَّلُهُ عَصِيبُ(٢)

أبو الفداء إسماعيل بن برتعس السنجاري

مولى صاحبها عماد الدين زنكي بن مودود، وكان جندياً حسن الصورة مليح النظم كثير الأدب ومن شعره ما كتب له إلى الأشرف موسى بن العادل يعزيه في أخ له اسمه يوسف:

دُمُوعُ المَعَالِي وَالمَكَارِمِ أُذْرِفَتْ وَرَبْعُ العُلَى قَاعٌ لِفَقْدِكَ صَفْصَفُ
غَدَا الجُودُ وَالمَعْرُوفُ في اللَّحْدِ ثَاوِياً غَدَاةَ ثَوَى فِي ذَلِكَ اللَّحْدِ يُوسُفُ
مَتَى خَطَفَتْ يَدُ المَنِيَّةِ رُوحَهُ وَقَدْ كَانَ لِلأَرْوَاحِ بِالبِيضِ يَخْطَفُ

---

(١) في النجوم الزاهرة: محمد بن أحمد بن حامد أبو عبد الله.
(٢) كذا في الأصول، والبيت مضطرب.

سَقَتْهُ لَيَالِي الدَّهرِ كَأسَ حِمَامِهَا وَكَانَ بِسَقْيِ المَوْتِ فِي الحَرْبِ يُعْرَفُ
فَوَا حَسْرَتَا لَوْ تَنْفَعُ المَوْتَ حَسْرَةٌ وَوَاأسَفَا لَوْ كَانَ يُجْدِي التَّأَسُّفُ
وَكَانَتْ عَلَى الأرْزَاءِ نَفْسِي قَوِيَّةً وَلٰكِنَّهَا عَنْ حَمْلِ ذا الرُّزْءِ تَضْعُفُ

أبو الفضل بن إلياس بن جامع الأربلي

تفقه بالنظامية وسمع الحديث، وصنّف التاريخ وغيره، وتفرّد بحسن كتابة الشروط، وله فضل ونظم، فمن شعره:

أمُمْرِضَ قَلْبِي، مَا لِهَجْرِكَ آخِرُ؟ وَمُسْهِرَ طَرْفِي، هَلْ خَيَالُكَ زَائِرُ؟
وَمُسْتَعْذِبَ التَّعْذِيبِ جَوْراً بِصَدِّهِ أمَا لَكَ فِي شَرْعِ المَحَبَّةِ زَاجِرُ؟
هَنِيئاً لَكَ القَلْبُ الَّذِي قَدْ وَقَفْتَهُ عَلَى ذِكْرِ أيَّامِي وَأنْتَ مُسَافِرُ
فَلا فَارَقَ الحُزْنُ المُبَرِّحُ خَاطِرِي لِبُعْدِكَ حَتَّى يَجْمَعَ الشَّمْلَ قَادِرُ
فَإنْ مِتُّ فَالتَّسْلِيمُ مِنِّي عَلَيْكُمُ يُعَاوِدُكُمْ مَا كَبَّرَ الله ذَاكِرُ

أبو السعادات الحلّي

التاجر البغدادي الرافضي، كان في كل جمعة يلبس لأمة الحرب ويقف خلف باب داره، والباب مجاف[1] عليه، والناس في صلاة الجمعة، وهو ينتظر أن يخرج صاحب الزمان من سرداب سامرا ـ يعني محمد بن الحسن العسكري ـ ليميل بسيفه في الناس نصرة للمهدي.

أبو غالب بن كمنونة اليهودي

الكاتب، كان يزور على خط ابن مقلة من قوة خطه، توفي لعنه الله بمطمورة واسط، ذكره ابن الساعي: في تاريخه.

ثم دخلت سنة ثنتين وستمائة [من الهجرة النبوية][2]

فيها وقعت حرب عظيمة بين شهاب الدين محمد بن سام الغوري، صاحب غزنة، وبين بني بوكر أصحاب الجبل الجودي، وكانوا قد ارتدوا عن الإسلام فقاتلهم وكسرهم وغنم منهم شيئاً كثيراً لا يعد ولا يوصف، فاتبعه بعضهم حتى قتله غيلة في ليلة مستهل شعبان منها بعد العشاء، وكان رحمه الله من أجود الملوك سيرة وأعقلهم وأثبتهم في الحرب، ولما قتل كان في صحبته فخر الدين الرازي، وكان يجلس للوعظ بحضرة الملك ويعظه، وكان السلطان يبكي حين يقول في آخر مجلسه يا سلطان سلطانك لا يبقى، ولا يبقى الرازي أيضاً وإن مردنا جميعاً إلى الله، وحين قتل السلطان اتهم الرازي بعض الخاصكية بقتله، فخاف من ذلك والتجأ إلى

(١) مجاف: مغلق.
(٢) سقط في ط.

الوزير مؤيد الملك بن خواجا، فسيره إلى حيث يأمن وتملك غزنة بعده أحد مماليكه تاج الدر، وجرت بعد ذلك خطوب يطول ذكرها، قد استقصاها ابن الأثير وابن الساعي.

وفيها أغارت الكرج على بلاد المسلمين فوصلوا إلى أخلاط فقتلوا وسبوا وقاتلهم المقاتلة والعامة. وفيها سار صاحب إربل مظفر الدين كوكري وصحبته صاحب مراغة لقتال ملك أذربيجان، وهو أبو بكر بن البهلول، وذلك لنكوله[1] عن قتال الكرج وإقباله على السكر ليلاً ونهاراً، فلم يقدروا عليه، ثم إنه تزوج في هذه السنة بنت ملك الكرج، فانكف شرهم عنه.

قال ابن الأثير: وكان كما يقال أغمد سيفه وسل أيره. وفيها استوزر الخليفة نصير الدين ناصر بن مهدي ناصر العلوي الحسني وخلع عليه بالوزارة وضربت الطبول بين يديه وعلى بابه في أوقات الصلوات. وفيها أغار صاحب بلاد الأرمن وهو ابن لاون على بلاد حلب فقتل وسبى ونهب، فخرج إليه الملك الظاهر غازي بن الناصر فهرب ابن لاون بين يديه، فهدم الظاهر قلعة كان قد بناها ودكها إلى الأرض. وفي شعبان منها هدمت القنطرة الرومانية عند الباب الشرقي، ونشرت حجارتها ليبلط بها الجامع الأموي بسفارة الوزير صفي الدين بن شكر، وزير العادل، وكمل تبليطه في سنة أربع وستمائة.

وفيها توفي من الأعيان:

شرف الدين أبو الحسن

علي بن محمد بن علي جمال الإسلام الشهرزوري، بمدينة حمص، وقد كان أخرج إليها من دمشق، وكان قبل ذلك مدرساً بالأمينية والحلقة بالجامع تجاه البرادة، وكان لديه علم جيد بالمذهب والخلاف.

التقي عيسى بن يوسف

ابن أحمد العراقي الضرير، مدرس الأمينية أيضاً، كان يسكن المنارة الغربية، وكان عنده شاب يخدمه ويقود به فعدم للشيخ دراهم فاتهم هذا الشاب بها فلم يثبت له عنده شيئاً، واتهم الشيخ عيسى هذا بأنه يلوط به، ولم يكن يظن الناس أن عنده من المال شيء، فضاع المال واتهم عرضه، فأصبح يوم الجمعة السابع من ذي القعدة مشنوقاً ببيته بالمئذنة الغربية، فامتنع الناس من الصلاة عليه لكونه قتل نفسه، فتقدم الشيخ فخر الدين عبد الرحمن بن عساكر فصلى عليه، فائتم به بعض الناس قال أبو شامة: وإنما حمله على ما فعله ذهاب ماله والوقوع في عرضه، قال وقد جرى لي أخت هذه القضية فعصمني الله سبحانه بفضله، قال وقد درس بعده في الأمينية الجمال المصري وكيل بيت المال.

أبو الغنائم المركسهلار البغدادي

كان يخدم مع عز الدين نجاح السراي، وحصل أموالاً جزيلة، كان كلما تهيأ له مال

---

(١) نكل: جبن وتراجع.

اشترى به ملكاً وكتبه باسم صاحب له يعتمد عليه، فلما حضرته الوفاة أوصى ذلك الرجل أن يتولى أولاده وينفق عليهم من ميراثه مما تركه لهم، فمرض الموصى إليه بعد قليل فاستدعى الشهود ليشهدهم على نفسه أن ما في يدهِ لورثة أبي الغنائم، فتمادى ورثته بإحضار الشهود وطولوا عليه وأخذته سكتة فمات فاستولى ورثته على تلك الأموال والأملاك ولم يقضوا أولاد أبي الغنائم منها شيئاً مما تركه أبوهم.

أبو الحسن علي بن سعاد الفارسي

تفقه ببغداد وأعاد بالنظامية وناب في تدريسها واستقل بتدريس المدرسة التي أنشأتها أم الخليفة وأريد على نيابة القضاء عن أبي طالب البخاري فامتنع فألزم به فباشره قليلاً، ثم دخل يوماً إلى مسجد فلبس على رأسه مئزر صوف، وأمر الوكلاء والجلاوذة أن ينصرفوا عنه. وأشهد على نفسه بعزلها عن نيابة القضاء، واستمر على الإعادة والتدريس رحمه الله. وفي يوم الجمعة العشرين من ربيع الأول توفيت.

الخاتون

أم السلطان الملك المعظم عيسى بن العادل، فدفنت بالقبة بالمدرسة المعظمية بسفح قاسيون.

الأمير مجير الدين طاشتكين المستنجدي

أمير الحاج وزعيم بلاد خوزستان، كان شيخاً خيراً حسن السيرة كثير العبادة، غالياً في التشيع، توفي بتستر ثاني جمادى الآخرة سنة ثنتين وستمائة وحمل تابوته إلى الكوفة فدفن بمشهد علي لوصيته بذلك، هكذا ترجمه ابن الساعي في تاريخه، وذكر أبو شامة في الذيل أنه طاشتكين بن عبد الله المقتفوي أمير الحاج، حج بالناس ستاً وعشرين سنة، كان يكون في الحجاز كأنه ملك، وقد رماه الوزير ابن يونس بأنه يكاتب صلاح الدين فحبسه الخليفة، ثم تبين له بطلان ما ذكر عنه فأطلقه وأعطاه خوزستان ثم أعاده إلى إمرة الحج، وكانت الحلة الشيعية إقطاعه، وكان شجاعاً جواداً سمحاً قليل الكلام، يمضي عليه الأسبوع لا يتكلم فيه بكلمة، وكان فيه حلم واحتمال، استغاث به رجل على بعض نوابه فلم يرد عليه، فقال له الرجل المستغيث: أحمار أنت؟ فقال: لا. وفيه يقول ابن التعاويذي:

وَأَمِيرٌ عَلَى البِلادِ مُوَلَّى ... لا يُجِيبُ الشَّاكِي بِغَيْرِ السُّكُوتِ
كُلَّمَا زَادَ رِفْعَةً حَطَّنَا اللَّـ ... ـهُ بِتَفْيِلِهِ إلى البَهَمُوت

وقد سرق فراشه حياصة له فأرادوا أن يستقروه عليها، وكان قد رآه الأمير طاشتكين حين أخذها فقال: لا تعاقبوا أحداً، قد أخذها من لا يردها، ورآه حين أخذها من لا ينم عليه، وقد كان بلغ من العمر تسعين سنة، واتفق أنه استأجر أرضاً مدة ثلاثمائة سنة للوقف، فقال فيه بعض المضحكين: هذا لا يوقن بالموت، عمره تسعون سنة واستأجر أرضاً ثلاثمائة سنة، فاستضحك القوم والله سبحانه وتعالى أعلم.

ثم دخلت سنة ثلاث وستمائة [من الهجرة النبوية][١]

فيها جرت أمور طويلة ببلاد المشرق بين الغورية والخوارزمية، وملكهم خوارزم شاه بن تكش ببلاد الطالقان. وفيها ولي الخليفة الناصر القضاء ببغداد لعبد الله بن الدامغاني. وفيها قبض الخليفة على عبد السلام بن عبد الوهاب ابن الشيخ عبد القادر الجيلاني، بسبب فسقه وفجوره، وأحرقت كتبه وأمواله قبل ذلك لما فيها من كتب الفلاسفة، وعلوم الأوائل، وأصبح يستعطي بين الناس، وهذا بخطيئة قيامه على أبي الفرج ابن الجوزي، فإنه هو الذي كان وشى به إلى الوزير ابن القصاب حتى أحرقت بعض كتب ابن الجوزي، وختم على بقيتها، ونفي إلى واسط خمس سنين، والناس يقولون: في الله كفاية وفي القرآن، وجزاء سيئة سيئة مثلها، والصوفية يقولون: الطريق يأخذ. والأطباء يقولون الطبيعة مكافئة. وفيها نازلت الفرنج حمص فقاتلهم ملكها أسد الدين شيركوه، وأعانه بالمدد الملك الظاهر صاحب حلب فكف الله شرهم ولله الحمد والمنة. وفيها اجتمع شابان[٢] ببغداد على الخمر فضرب أحدهما الآخر بسكين فقتله وهرب، فأخذ فقتل فوجد معه رقعة فيها بيتان من نظمه أمر أن تجعل بين أكفانه:

قَدِمْتُ عَلَى الكَرِيمِ بِغَيْرِ زَادٍ ... مِنَ الأَعْمَالِ بِالقَلْبِ السَّلِيمِ
وَسُوءُ الظَّنِّ أَنْ تَعْتَدَّ زَاداً ... إِذَا كَانَ القُدُومُ عَلَى كَرِيمِ

وفيها توفي من الأعيان:

الفقيه العالم أبو منصور

عبد الرحمن بن الحسين بن النعمان النبلي، الملقب بالقاضي شريح لذكائه وفضله وبراعته وعقله وكمال أخلاقه، ولي قضاء بلده ثم قدم بغداد فندب إلى المناصب الكبار فأباها، فحلف عليه الأمير طاشتكين أن يعمل عنده في الكتابة فخدمه عشرين سنة، ثم وشى به الوزير ابن مهدي إلى المهدي فحبسه في دار طاشتكين إلى أن مات في هذه السنة، ثم إن الوزير الواشي عما قريب حبس بها أيضاً، وهذا من العجيب.

عبد الرزاق ابن الشيخ عبد القادر

كان ثقة عابداً زاهداً ورعاً، لم يكن في أولاد الشيخ عبد القادر الجيلاني خير منه، لم يدخل فيما دخلوا فيه من المناصب والولايات، بل كان متقللاً من الدنيا مقبلاً على أمر الآخرة، وقد سمع الكثير وسمع عليه أيضاً.

---

(١) سقط في ط.
(٢) الرواية في النجوم الزاهرة ٦/ ١٩٢: أحدهما أبو القاسم أحمد ابن المقرىء صاحب ديوان الخليفة داعب ابن الأمير أصبة، وكان شاباً جميلاً فرماه بسكين فقتله فسلمه الخليفة إلى أولاد ابن أصبة فقتلوه.

أبو الحزم مكي بن زيان

ابن شبة بن صالح الماكسيني، من أعمال سنجار، ثم الموصلي النحوي، قدم بغداد وأخذ على ابن الخشاب وابن القصار، والكمال الأنباري، وقدم الشام فانتفع به خلق كثير منهم الشيخ علم الدين السخاوي وغيره وكان ضريراً، وكان يتعصب لأبي العلاء المعري لما بينهما من القدر المشترك في الأدب والعمى، ومن شعره:

إذا احْتَاجَ النَّوَالُ إلَى شَفِيعِ ... فَلا تَقْبَلْهُ تُضْبِحْ قَرِيرَ عَيْنِ
إذا عِيفَ النَّوَالُ لِفَرْدِ مَنٍّ ... فَأَوْلَى أَنْ يُعَافَ لِمِنَّتَيْنِ

ومن شعره أيضاً:

نَفْسِي فِدَاءُ لأَغْيَدٍ غَنِجٍ ... قَالَ لَنَا الحَقَّ حِينَ وَدَّعَنَا
مَنْ وَدَّ شَيْئاً مِنْ حِبِّهِ طَمَعاً ... فِي قَتْلِهِ لِلْوَدَاعِ وَدَّعَنَا

إقبال الخادم

جمال الدين أحد خدام الملك صلاح الدين، واقف الاقباليتين الشافعية والحنفية، وكانتا دارين فجعلهما مدرستين، ووقف عليهما وقفاً الكبيرة للشافعية والصغيرة للحنفية، وعليها ثلث الوقف. وكانت وفاته بالقدس الشريف رحمه الله.

ثم دخلت سنة أربع وستمائة [من الهجرة النبوية](١)

فيها رجع الحجاج إلى العراق وهم يدعون الله ويشكون إليه ما لقوا من صدر جهان البخاري الحنفي، الذي كان قدم بغداد في رسالة فاحتفل به الخليفة، وخرج إلى الحج في هذه السنة، فضيق على الناس في المياه والميرة، فمات بسبب ذلك ستة آلاف من حجيج العراق، وكان فيما ذكروا يأمر غلمانه فتسبق إلى المناهل فيحجزون على المياه ويأخذون الماء فيرشونه حول خيمته في قيظ الحجاز ويسقونه للبقولات التي كانت تحمل معه في ترابها، ويمنعون منه الناس وابن السبيل، الآمّين البيت الحرام يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً، فلما رجع مع الناس لعنته العامة ولم تحتفل به الخاصة ولا أكرمه الخليفة ولا أرسل إليه أحداً، وخرج من بغداد والعامة من ورائه يرجمونه ويلعنونه، وسماه الحجاج هذه السنة صدر جهنم، نعوذ بالله من الخذلان، ونسأله أن يزيدنا شفقة ورحمة لعباده، فإنه إنما يرحم من عباده الرحماء. وفيها قبض الخليفة على وزيره ابن مهدي العلوي، وذلك أنه نسب إليه أنه يروم الخلافة، وقيل غير ذلك من الأسباب، والمقصود أنه حبس بدار طاشتكين حتى مات بها، وكان جباراً عنيداً، حتى قال بعضهم فيه:

---

(١) سقط في ط.

خَلِيلَيَّ قُولا لِلْخَلِيفَةِ وَانْصَحَا ... تَوَقَّ وُقِيتَ السُّوءَ ما أَنْتَ صَانِعُ
وَزِيرُكَ هٰذا بَيْنَ أَمْرَيْنِ فِيهِمَا ... صَنِيعُكَ يا خَيْرَ البَرِيَّةِ ضَائِعُ
فَإِنْ كَانَ حَقاً مِنْ سُلالَةِ حَيْدَرٍ ... فَهٰذا وَزِيرٌ فِي الخِلافَةِ طَامِعُ
وَإِنْ كَانَ فِيمَا يَدَّعِي غَيْرَ صَادِقٍ ... فَأَضْيَعُ ما كَانَتْ لَدَيْهِ الصَّنَائِعُ

وقيل: إنه كان عفيفاً عن الأموال حسن السيرة جيد المباشرة فالله أعلم بحاله. وفي رمضان منها رتب الخليفة ببغداد عشرين داراً للضيافة يفطر فيها الصائمون من الفقراء، يطبخ لهم في كل يوم فيها طعام كثير ويحمل إليها أيضاً من الخبز النقي والحلواء شيء كثير، وهذا الصنيع يشبه ما كانت قريش تفعله من الرفادة في زمن الحج، وكان يتولى ذلك عمه أبو طالب، كما كان العباس يتولى السقاية، وقد كانت فيهم السفارة واللواء والندوة له، كما تقدم بيان ذلك في مواضعه، وقد صارت هذه المناصب كلها على أتم الأحوال في الخلفاء العباسيين. وفيها أرسل الخليفة الشيخ شهاب الدين الشهرزوري وفي صحبته سنقر السلحدار إلى الملك العادل بالخلعة السنية، وفيها الطوق والسواران، وإلى جميع أولاده بالخلع أيضاً. وفيها ملك الأوحد بن العادل صاحب ميافاراقين مدينة خلاط بعد قتل صاحبها شرف الدين بكتمر، وكان شاباً جميل الصورة جداً، قتله بعض مماليكهم[1] ثم قتل القاتل أيضاً، فخلا البلد عن ملك فأخذها الأوحد بن العادل كما ذكرنا.

وفيها ملك خوارزم شاه محمد بن تكش بلاد ما وراء النهر بعد حروب طويلة. اتفق له في بعض المواقف أمر عجيب، وهو أن المسلمين انهزموا عن السلطان خوارزم شاه في بعض المواقف وبقي معه عصابة قليلة من أصحابه، فقتل منهم كفار الخطا من قتلوا، وأسروا خلقاً منهم، وكان السلطان خوارزم شاه في جملة من أسروا، أسره رجل وهو لا يشعر به ولا يدري أنه الملك، وأسر معه أميراً يقال له مسعود، فلما وقع ذلك وتراجعت العساكر الإسلامية إلى مقرها فقدوا السلطان فاختبطوا فيما بينهم واختلفوا اختلافاً كثيراً وانزعجت خراسان بكمالها، ومن الناس من ظن أن السلطان قد قتل، وأما ما كان من أمر السلطان وذاك الأمير فقال الأمير للسلطان: إني أرىٰ من المصلحة أن تترك اسم الملك عنك في هذه الحالة، وتظهر أنك غلام لي، فقبل منه ما قال وأشار به، ثم جعل الملك يخدم ذلك الأمير يلبسه ثيابه ويسقيه الماء ويصنع له الطعام ويضعه بين يديه، ولا يألو جهداً في خدمته، فقال الذي أسرهما: إني أرى هذا يخدمك فمن أنت؟ فقال: أنا مسعود الأمير، وهذا غلامي، فقال: والله لو علم الأمراء أني قد أسرت أميراً وأطلقته لأطلقتك، فقال له: إني إنما أخشى على أهلي، فإنهم يظنون أني قد قتلت ويقيمون المأتم، فإن رأيت أن تفاديني على مال وترسل من يقبضه منهم فعلت خيراً، فقال: نعم، فعين رجلاً من أصحابه فقال له الأمير مسعود: إن أهلي لا يعرفون هذا ولكن إن رأيت أن أرسل معه غلامي هذا فعلت ليبشرهم بحياتي فإنهم يعرفونه، ثم يسعى في تحصيل المال،

(١) في النجوم الزاهرة ١٨٨/٦: اسمه: الهزاردينا ري.

فقال: نعم، فجهز معهما من يحفظهما إلى مدينة خوارزم شاه. فلما دنوا من مدينة خوارزم سبق الملك إليها. فلما رآه الناس فرحوا به فرحاً شديداً، ودقت البشائر في سائر بلاده، وعاد الملك إلى نصابه، واستقر السرور بإيابه، وأصلح ما كان وهي من مملكته بسبب ما اشتهر من قتله، وحاصر هراة وأخذها عنوة.

وأما الذي كان قد أسره فإنه قال يوماً للأمير مسعود الذي يتوجه لي وينوهون به أن خوارزم شاه قد قتل، فقال: لا، هو الذي كان في أسرك، فقال له: فهلا أعلمتني به حتى كنت أرده موقراً معظماً؟ فقال: خفتك عليه، فقال: سر بنا إليه، فسارا إليه فأكرمهما إكراماً زائداً، وأحسن إليهما.

وأما غدر صاحب سمرقند فإنه قتل كل من كان في أسره من الخوارزمية، حتى كان الرجل يقطع قطعتين ويعلق في السوق كما تعلق الأغنام، وعزم على قتل زوجته بنت خوارزم شاه ثم رجع عن قتلها وحبسها في قلعة وضيق عليها، فلما بلغ الخبر إلى الملك خوارزم شاه سار إليه في الجنود فنازله وحاصر سمرقند فأخذها قهراً وقتل من أهلها نحواً من مائتي ألف، وأنزل الملك من القلعة وقتله صبراً بين يديه، ولم يترك له نسلاً ولا عقباً، واستحوذ خوارزم شاه على تلك الممالك التي هنالك.

وفيها تحارب الخطا وملك التتار كشلي خان المتاخم لمملكة الصين، فكتب ملك الخطا لخوارزم شاه يستنجده على التتار ويقول: متى غلبونا خلصوا إلى بلادك، وكذا وكذا. وكتب التتار إليه أيضاً يستنصرونه على الخطا ويقولون: هؤلاء أعداؤنا وأعداؤك، فكن معنا عليهم، فكتب خوارزم شاه إلى كل من الفريقين يطيب قلبه، وحضر الوقعة بينهم وهو متحيز عن الفريقين، وكانت الدائرة على الخطا، فهلكوا إلا القليل منهم، وغدر التتار ما كانوا عاهدوا عليه الملك خوارزم شاه، فوقعت بينهم الوحشة الأكيدة، وتوافدوا للقتال، وخاف منهم خوارزم شاه وخرب بلاداً كثيرة متاخمة لبلاد كشلي خان خوفاً عليها أن يملكها، ثم إن جنكيز خان خرج على كشلى خان، فاشتغل بمحاربته عن محاربة خوارزم شاه، ثم إنه وقع من الأمور الغريبة ما سنذكره إن شاء الله تعالى.

وفيها كثرت غارات الفرنج من طرابلس على نواحي حمص، فضعف صاحبها أسد الدين شيركوه عن مقاومتهم، فبعث إليه الظاهر صاحب حلب عسكراً قواه بهم على الفرنج، وخرج الملك العادل من الديار المصرية في العساكر الإسلامية، وأرسل إلى جيوش الجزيرة فوافوه على عكا فحاصرها، لأن القبارصة أخذوا من أسطول المسلمين قطعاً فيها جماعة من المسلمين، فطلب صاحب عكا الأمان والصلح على أن يرد الأسارى، فأجابه إلى ذلك، وسار العادل فنزل على بحيرة قدس قريباً من حمص، ثم سار إلى بلاد طرابلس، فأقام اثني عشر يوماً يقتل ويأسر ويغنم، حتى جنح الفرنج إلى المهادنة، ثم عاد إلى دمشق.

وفيها ملك صاحب آذربيجان الأمير نصير الدين أبو بكر بن البهلول مدينة مراغة وذلك لخلوها عن ملك قاهر، لأن ملكها مات وقام بالملك بعده ولد له صغير، فدبر أمره خادم له.

وفي غرة ذي القعدة شهد محيي الدين أبو محمد يوسف ابن الشيخ أبي الفرج بن الجوزي عند قاضي القضاة أبي القاسم بن الدامغاني، فقبله وولاه حسبة جانبي بغداد، وخلع عليه خلعة سنية سوداء بطرحة كحلية، وبعد عشرة أيام جلس للوعظ مكان أبيه أبي الفرج بباب درب الشريف، وحضر عنده خلق كثير. وبعد أربعة أيام من يومئذٍ درس بمشهد أبي حنيفة ضياء الدين أحمد بن مسعود الركساني الحنفي، وحضر عنده الأعيان والأكابر وفي رمضان منها وصلت الرسل من الخليفة إلى العادل بالخلع، فلبس هو وولداه المعظم والأشرف ووزيره صفي الدين بن شكر، وغير واحد من الأمراء السنية الخليفية، ودخلوا القلعة وقت صلاة الظهر من باب الحديد، وقرأ التقليد الوزير وهو قائم، وكان يوماً مشهوداً. وفيها درس الشيخ شرف الدين عبد الله ابن زين القضاة عبد الرحمن بالمدرسة الرواحية بدمشق. وفيها انتقل الشيخ الخير ابن البغدادي من الحنبلية إلى مذهب الشافعية، ودرس بمدرسة أم الخليفة، وحضر عنده الأكابر من سائر المذاهب. وفيها توفي من الأعيان.

الأمير بنيامين بن عبد الله

أحد أمراء الخليفة الناصر، كان من سادات الأمراء عقلاً وعفة ونزاهة وشرفاً، سقاه بعض الكتاب من النصارى سمّاً فمات رحمه الله. وكان اسم الذي سقاه ابن ساوا، فسلّمه الخليفة إلى غلمان بنيامين فشفع فيه ابن مهدي الوزير وقال: إن النصارى قد بذلوا فيه خمسين ألف دينار، فكتب الخليفة على رأس الورقة:

إنَّ الأُسُـودَ أُسَـودَ الـغَـابِ هِـمَّـتُـهَـا يَوْمَ الكَرِيهَةِ فِي المَسْلُوبِ لا السَّلَبِ

فتسلمه غلمان بنيامين فقتلوه وحرقوه، وقبض الخليفة بعد ذلك على الوزير ابن مهدي كما تقدم.

حنبل بن عبد الله

ابن الفرج بن سعادة الرصافي الحنبلي، المكبر بجامع المهدي، راوي مسند الإمام أحمد عن ابن الحصين عن ابن المذهب عن أبي مالك عن عبد الله عن أبيه، عمر تسعين سنة وخرج من بغداد فأسمعه بإربل. واستقدمه ملوك دمشق إليها فسمع الناس بها عليه المسند، وكان المعظم يكرمه ويأكل عنده على السماط من الطيبات، فتصيبه التخمة كثيراً، لأنه كان فقيراً ضيق الأمعاء من قلة الأكل، خشن العيش ببغداد، وكان الكندي إذا دخل على المعظم يسأل عن حنبل فيقول المعظم هو متخوم، فيقول أطعمه العدس فيضحك المعظم، ثم أعطاه المعظم مالاً جزيلاً ورده إلى بغداد فتوفي بها في هذه السنة، وكان مولده سنة عشر وخمسمائة، وكان معه ابن طبرزد، فتأخرت وفاته عنه إلى سنة سبع وستمائة.

عبد الرحمن بن عيسى

ابن أبي الحسن المروزي الواعظ البغدادي، سمع من ابن أبي الوقت وغيره، واشتغل على

ابن الجوزي بالوعظ، ثم حدثته نفسه بمضاهاته وشمخت نفسه، واجتمع عليه طائفة من أهل باب النصيرة ثم تزوج في آخر عمره وقد قارب السبعين، فاغتسل في يوم بارد فانتفخ ذكره فمات في هذه السنة.

الأمير زين الدين قراجا الصلاحي

صاحب صرخد، كانت له دار عند باب الصغير عند قناة الزلاقة، وتربته بالسفح في قبة على جادة الطريق عند تربة ابن تميرك، وأقر العادل ولده يعقوب على صرخد.

عبد العزيز الطبيب

توفي فجأة، وهو والد سعد الدين الطبيب الأشرفي، وفيه يقول ابن عنين:

فراري ولا خلف الخطيب جماعة ... وموت ولا عبد العزيز طبيب

وفيها توفي:

العفيف بن الدرجي

إمام مقصورة الحنفية الغربية بجامع دمشق.

أبو محمد جعفر بن محمد

ابن محمود بن هبة الله بن أحمد بن يوسف الأربلي، كان فاضلاً في علوم كثيرة في الفقه على مذهب الشافعي، والحساب والفرائض والهندسة والأدب والنحو، وما يتعلق بعلوم القرآن العزيز وغير ذلك. ومن شعره

لا يَدْفَعُ المَرْءُ مَا يَأْتِي بِهِ القَدَرُ ... وَفِي الخُطُوبِ إذا فَكَّرْتَ مُعْتَبَرُ
فَلَيْسَ يُنْجِي مِنَ الأَقْدَارِ إنْ نَزَلَتْ ... رَأْيٌ وَحَزْمٌ وَلا خَوْفٌ وَلا حَذَرُ
فَاسْتَعْمِلِ الصَّبْرَ فِي كُلِّ الأُمُورِ وَلا ... تَجْزَعْ لِشَيْءٍ فَعُقْبَى صَبْرِكَ الظَّفَرُ
كَمْ مَسَّنَا عُسْرٌ فَصَرَّفَهُ الـ ... ـآلَهُ عَنَّا وَوَلَّى بَعْدَهُ يُسُرُ
لا يَيْأَسِ المَرْءُ مِنْ رَوْحِ الإِلٰهِ فَمَا ... يَيْأَسُ مِنْهُ إلاّ عُصْبَةٌ كَفَرُوا
إنِّي لأَعْلَمُ أنَّ الدَّهْرَ ذُو دُوَلٍ ... وَأَنَّ يَوْمَيْهِ ذا أَمْنٌ وَذَا خَطَرُ

ثم دخلت سنة خمس وستمائة [من الهجرة النبوية][1]

في المحرم كمل بناء دار الضيافة ببغداد التي أنشأها الناصر لدين الله بالجانب الغربي منها للحجاج والمارة لهم الضيافة ما داموا نازلين بها، فإذا أراد أحدهم السفر منها زود وكسي وأعطي بعد ذلك ديناراً، جزاه الله خيراً. وفيها عاد أبو الخطاب بن دحية الكلبي من رحلته العراقية

(١) سقط في ط.

فاجتاز بالشام فاجتمع في مجلس الوزير صفي الدين بن شكر هو والشيخ تاج الدين أبو اليمن زيد بن الحسن بن زيد الكندي شيخ اللغة والحديث، فأورد ابن دحية في كلامه حديث الشفاعة حتى انتهى إلى (قول) إبراهيم عليه السلام «إنما كنت خليلاً من وراءَ وراءَ» بفتح اللفظتين، فقال الكندي من وراء وراء بضمهما، فقال ابن دحية للوزير ابن شكر: من هذا؟ فقال: هذا الشيخ أبو اليمن الكندي، فنال منه ابن دحية، وكان جريئاً، فقال الكندي: هو من كلب ينبح كما ينبح الكلب. قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة: وكلتا اللفظتين محكية، وحكى فيهما الجر أيضاً. وفيها عاد فخر الدين بن تيمية خطيب من حران من الحج إلى بغداد وجلس بباب بدر للوعظ، مكان محيي الدين يوسف ابن الشيخ أبي الفرج، فقال في كلامه ذلك:

وَابْـنُ الـلَّـبُـونِ إذَا مـا لُـزَّ فِـي قَـرَنٍ لَـمْ يَسْتَطِعْ صَوْلَةَ البُزْلِ القَنَاعِيسِ (١)

كأنه يعرض بابن الجوزي يوسف، لكونه شاباً ابن خمس وعشرين سنة والله أعلم.

وفي يوم الجمعة تاسع محرم دخل مملوك افرنجي من باب مقصورة جامع دمشق وهو سكران وفي يده سيف مسلول، والناس جلوس ينتظرون صلاة الفجر، فمال على الناس يضربهم بسيفه فقتل اثنين أو ثلاثة، وضرب المنبر بسيفه فانكسر سيفه فأخذ وأودع المارستان، وشنق في يومه ذلك على جسر اللبادين.

وفيها عاد الشيخ شهاب الدين السهروردي من دمشق بهدايا الملك العادل فتلقاه الجيش ومعه أموال كثيرة أيضاً لنفسه، وكان قبل ذلك فقيراً زاهداً، فلما عاد منع من الوعظ وأخذت منه الربط التي كان يباشرها، ووكل إلى ما بيده من الأموال، فشرع في تفريقها على الفقراء والمساكين، فاستغنى منه خلق كثير، فقال المحيي ابن الجوزي في مجلس وعظه: لا حاجة بالرجل يأخذ أموالاً من غير حقها ويصرفها إلى من يستحقها، ولو ترك على ما كان تركها أولى به من تناولها، وإنما أراد أن ترتفع منزلته ببذلها. ويعود على حاله كما كان مباشره لما بذلها، فليحذر العبد الدنيا فإنها خداعة غرارة تسترق فحول العلماء والعباد، وقد وقع ابن الجوزي فيما بعد فيما وقع فيه السهروردي وأعظم. وفيها قصدت الفرنج حمص وعبروا على العاصي بجسر عدوة، فلما عرف بهم العساكر ركبوا في آثارهم فهربوا منهم فقتلوا خلقاً كثيراً منهم وغنم المسلمون منهم غنيمة جيدة ولله الحمد.

وفيها قتل صاحب الجزيرة، وكان من أسوأ الناس سيرة وأخبثهم سريرة وهو الملك سنجر شاه بن غازي بن مودود بن زنكي بن آقسنقر الأتابكي، ابن عم نور الدين صاحب الموصل، وكان الذي تولى قتله ولده غازي، توصل إليه حتى دخل عليه وهو في الخلاء سكران، فضربه بسكين أربع عشر ضربة، ثم ذبحه، وذلك كله ليأخذ الملك من بعده فحرمه الله إياه، فبويع بالملك لأخيه محمود وأخذ غازي القاتل فقتله من يومه، فسلبه الله الملك والحياة، ولكن أراح الله المسلمين من ظلم أبيه وغشمه وفسقه.

---

(١) لزَّ في قَرَن: قُرِن وشدَّ بحبل. والبزل: القوية الشديدة. والقناعيس مثلها.

وفيها توفي من الأعيان:

أبو الفتح محمد بن أحمد بن بختيار

ابن علي الواسطي المعروف بابن السنداي، آخر من روى المسند عن الإمام أحمد بن الحصين، وكان من بيت فقه وقضاء وديانة، وكان ثقة عدلاً متورعاً في النقل، ومما أنشده من حفظه:

وَلَوْ أَنَّ لَيْلَى مَطْلِعُ الشَّمْسِ دُونَهَا وَكَانَتْ مِنْ وَرَاءِ الشَّمْسِ حِينَ تَغِيبُ
لَحَدَّثْتُ نَفْسِي بِانْتِظَارِ نَوَالِهَا وَقَالَ الْمُنَى لِي: إِنَّهَا لَقَرِيبُ

قاضي قضاة لمصر

صدر الدين عبد الملك بن درباس المارداني الكردي والله أعلم.

ثم دخلت سنة ست وستمائة [من الهجرة النبوية](١)

في المحرم وصل نجم الدين خليل شيخ الحنفية من دمشق إلى بغداد في الرسلية عن العادل، ومعه هدايا كثيرة، وتناظر هو وشيخ النظامية مجد الدين يحيى بن الربيع في مسألة وجوب الزكاة في مال اليتيم، والمجنون، وأخذ الحنفي يستدل على عدم وجوبها، فاعترض عليه الشافعي فأجاد كل منهما في الذي أورده، ثم خلع على الحنفي وأصحابه بسبب الرسالة، وكانت المناظرة بحضرة نائب الوزير ابن شكر. وفي يوم السبت خامس جمادى الآخرة وصل الجمال يونس بن بدران المصري رئيس الشافعية بدمشق إلى بغداد في الرسلية عن العادل، فتلقاه الجيش مع حاجب الحجاب، ودخل معه ابن أخي صاحب إربل مظفر الدين كوكري، والرسالة تتضمن الاعتذار عن صاحب إربل والسؤال في الرضا عنه، فأجيب إلى ذلك. وفيها ملك العادل الخابور ونصيبين وحاصر مدينة سنجار مدة فلم يتمكن منها ثم صالح صاحبها ورجع عنها.

وفيها توفي من الأعيان:

القاضي الأسعد ابن مماتي

أبو المكارم أسعد بن الخطير أبي سعيد مهذب بن مينا بن زكريا الأسعد بن مماتي بن أبي قدامة بن أبي مليح المصري الكاتب الشاعر، أسلم في الدولة الصلاحية وتولى نظر الدواوين بمصر مدة قال ابن خلكان: وله فضائل عديدة، ومصنفات كثيرة، ونظم سيرة صلاح الدين وكليلة ودمنة، وله ديوان شعر. ولما تولى الوزير ابن شكر هرب منه إلى حلب فمات بها في هذه السنة وله ثنتان وستون سنة. فمن شعره في ثقيل زاره بدمشق:

حَكَى نَهْرَيْنِ وَمَا فِي الأرْ ضِ مَنْ يَحْكِيهِمَا أَبَدَا

---

(١) سقط في ط.

حَكَى فِي خَلْقِهِ ثَوْراً أَرَادَ وَفِي أَخْلاَقِهِ بَرَدَى[(١)]

أبو يعقوب يوسف بن إسماعيل

ابن عبد الرحمن بن عبد السلام اللمعاني، أحد الأعيان من الحنفية ببغداد، سمع الحديث ودرس بجامع السلطان، وكان معتزلياً في الأصول، بارعاً في الفروع، اشتغل على أبيه وعمه، وأتقن الخلاف وعلم المناظرة، وقارب التسعين رحمه الله.

أبو عبد الله محمد بن الحسن

المعروف بابن الخراساني، المحدث الناسخ، كتب كثيراً من الحديث وجمع خطباً له ولغيره وخطه جيد مشهور رحمه الله.

أبو المواهب معتوق بن منيع

ابن مواهب الخطيب البغدادي، قرأ النحو واللغة على ابن الخشاب، وجمع خطباً كان يخطب منها، وكان شيخاً فاضلاً أديباً له ديوان شعر، فمنه قوله:

وَلاَ تَرْجُ الصَّدَاقَةَ مِنْ عَدُوٍّ يُعَادِي نَفْسَهُ سِرّاً وَجَهْرَا
فَلَوْ أَجْدَتْ مَوَدَّتُهُ انْتِفَاعاً لَكَانَ النَّفْعُ مِنْهُ إِلَيْهِ أَجْرَا

ابن خروف

شارح سيبويه، علي بن محمد بن يوسف أبو الحسن بن خروف الأندلسي النحوي شرح سيبويه، وقدمه إلى صاحب المغرب فأعطاه ألف دينار، وشرح جمل الزجاجي، وكان يتنقل في البلاد ولا يسكن إلا في الخانات، ولم يتزوج ولا تسرى، ولذلك علة تغلب على طباع الأراذل، وقد تغير عقله في آخر عمره، فكان يمشي في الأسواق مكشوف الرأس، وكانت وفاته في هذه السنة عن خمس وثمانين سنة.

أبو علي يحيى بن الربيع

ابن سليمان بن حرار الواسطي البغدادي، اشتغل بالنظامية على ابن فضلان وأعاد عنه، وسافر إلى محمد بن يحيى فأخذ عنه طريقته في الخلاف، ثم عاد إلى بغداد ثم صار مدرساً بالنظامية وناظراً على أوقافها، وقد سمع الحديث وكان لديه علوم كثيرة، ومعرفة حسنة بالمذهب، وله تفسير في أربعة مجلدات كان يدرس منه، واختصر تاريخ الخطيب والذيل عليه لابن السمعاني وقارب الثمانين رحمه الله.

ابن الأثير صاحب جامع الأصول والنهاية

المبارك بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد مجد الدين أبو السعادات

(١) نهر بردى: نهر يمر بمدينة دمشق. ونهر ثورا فرع من فروعه.

الشيباني الجزري الشافعي، المعروف بابن الأثير، وهو أخو الوزير وزير الأفضل ضياء الدين نصر الله، وأخو الحافظ عز الدين أبي الحسن علي صاحب الكامل في التاريخ، ولد أبو السعادات هذا في إحدى الربيعين سنة أربع وأربعين وخمسمائة، وسمع الحديث الكثير وقرأ القرآن وأتقن علومه وحررها، وكان مقامه بالموصل، وقد جمع في سائر العلوم كتباً مفيدة، منها جامع الأصول الستة الموطأ والصحيحين وسنن أبي داود والنسائي والترمذي، ولم يذكر ابن ماجه فيه، وله كتاب النهاية في غريب الحديث وله شرح مسند الشافعي والتفسير في أربعة مجلدات، وغير ذلك في فنون شتى، وكان رحمه الله مسعود معظماً عند ملوك الموصل، فلما آل الملك إلى نور الدين أرسلان شاه، أرسل إليه مملوكه لؤلؤ يستوزره فأبى فركب السلطان إليه بنفسه فامتنع أيضاً وقال له: قد كبرت سني واشتهرت بنشر العلم، ولا يصلح هذا الأمر إلا بشيء من العسف والظلم، ولا يليق بي ذلك، فأعفاه. قال أبو السعادات: كنت أقرأ علم العربية على سعيد بن الدهان، وكان يأمرني بصنعة الشعر فكنت لا أقدر عليه، فلما توفي الشيخ رأيته في بعض الليالي، فأمرني بذلك، فقلت له: ضع لي مثالاً أعمل عليه فقال:

حبَّ العُلا مُدْمِناً إنْ فَاتَكَ الظَّفَرُ

فَقُلْتُ أَنَا:

وَخِدَّ خَدَّ الثَّرَى وَاللَّيْلُ مُعْتَكِرُ

فَالعِزُّ فِي صَهَوَاتِ اللَّيْلِ مَرْكِزُهُ ... وَالمَجْدُ يُنْتِجُهُ الإسْرَاءُ وَالسَّهَرُ

فقال: أحسنت، ثم استيقظت فأتممت عليها نحواً من عشرين بيتاً. كانت وفاته في سلخ ذي الحجة عن ثنتين وستين سنة، وقد ترجمه أخوه في الذيل فقال: كان عالماً في عدّة علوم منها الفقه وعلم الأصول والنحو والحديث واللغة، وتصانيفه مشهورة في التفسير والحديث والفقه والحساب وغريب الحديث، وله رسائل مدونة، وكان مغلقاً يضرب به المثل ذا دين متين، ولزم طريقة مستقيمة رحمه الله، فلقد كان من محاسن الزمان. قال ابن الأثير وفيها توفي.

المجلد المطرزي النحوي الخوارزمي

كان إماماً في النحو له فيه تصانيف حسنة.

قال أبو شامة. وفيها توفي:

الملك المغيث

فتح الدين عمر بن الملك العادل، ودفن في تربة أخيه الملك المعظم بسفح قاسيون.

والملك المؤيد.

مسعود بن صلاح الدين

بمدرسة رأس العين فحمل إلى حلب فدفن بها.

وفيها توفي:

الفخر الرازي

المتكلم صاحب التيسير والتصانيف، يعرف بابن خطيب الريّ، واسمه محمد بن عمر بن الحسين بن علي القرشي التيمي البكري، أبو المعالي وأبو عبد الله المعروف بالفخر الرازي، ويقال له ابن خطيب الري، أحد الفقهاء الشافعية المشاهير بالتصانيف الكبار والصغار نحو من مائتي مصنف، فمن ذلك التفسير الحافل والمطالب العالية، والمباحث الشرقية، والأربعين، وله أصول الفقه والمحصول وغيره، وصنف ترجمة الشافعي في مجلد مفيد، وفيه غرائب لا يوافق عليها، وينسب إليه أشياء عجيبة، وقد استقصيت ترجمته في طبقات الشافعية، وقد كان معظماً عند ملوك خوارزم وغيرهم، وبنيت له مدارس كثيرة في بلدان شتى، وملك من الذهب العين ثمانين ألف دينار، وغير ذلك من الأمتعة والمراكب والأثاث والملابس، وكان له خمسون مملوكاً من الترك، وكان يحضر في مجلس وعظه الملوك والوزراء والعلماء والأمراء والفقراء والعامة، وكانت له عبادات وأوراد، وقد وقع بينه وبين الكرامية في أوقات وكان يبغضهم ويبغضونه ويبالغون في الحط عليه، ويبالغ هو أيضاً في ذمهم. وقد ذكرنا طرفاً من ذلك فيما تقدم، وكان مع غزارة علمه في فن الكلام يقول: من لزم مذهب العجائز كان هو الفائز، وقد ذكرت وصيته عند موته وأنه رجع عن مذهب الكلام فيها إلى طريقة السلف وتسليم ما ورد على وجه المراد اللائق بجلال الله سبحانه. وقال الشيخ شهاب الدين أبو شامة في الذيل في ترجمته: كان يعظ وينال من الكرامية وينالون منه سباً وتكفيراً بالكبائر، وقيل إنهم وضعوا عليه من سقاه سماً فمات ففرحوا بموته وكانوا يرمونه بالمعاصي مع المماليك وغيرهم، قال: وكانت وفاته في ذي الحجة، ولا كلام في فضله ولا فيما كان يتعاطاه، وقد كان يصحب السلطان ويحب الدنيا ويتسع فيها اتساعاً زائداً، وليس ذلك من صفة العلماء، ولهذا وأمثاله كثرت الشناعات عليه، وقامت عليه شناعات عظيمة بسبب كلمات كان يقولها مثل قوله: قال محمد البادي، يعني العربي يريد به النبي ﷺ، نسبة إلى البادية. وقال محمد الرازي يعني نفسه، ومنها أنه كان يقرر الشبهة من جهة الخصوم بعبارات كثيرة ويجيب عن ذلك بأدنى إشارة وغير ذلك، قال وبلغني أنه خلف من الذهب العين مائتي ألف دينار غير ما كان يملكه من الدواب والثياب والعقار والآلات، وخلف ولدين أخذ كل واحد منهما أربعين ألف دينار، وكان ابنه الأكبر قد تجند وخدم السلطان محمد بن تكش. وقال ابن الأثير في الكامل: وفيها توفي فخر الدين الرازي محمد بن عمر بن خطيب الري الفقيه الشافعي صاحب التصانيف المشهورة والفقه والأصول، كان إمام الدنيا في عصره، بلغني أن مولده سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ومن شعره قوله:

إِلَيْكَ إِلَهَ الخَلْقِ وَجْهِي وَوِجْهَتِي ... وَأَنْتَ الَّذِي أَدْعُوهُ فِي السِّرِّ وَالجَهْرِ

وَأَنْتَ غِيَاثِي عِنْدَ كُلِّ مُلِمَّةٍ ... وَأَنْتَ مَلاذِي فِي حَيَاتِي وَفِي قَبْرِي

ذكره ابن الساعي عن ياقوت الحموي عن ابن لفخر الدين عنه وبه قال:

تَـتِـمَّـةُ أَبْـوَابِ الـسَّـعَـادَةِ لِـلْـخَـلْـقِ ... بِـذِكْـرِ جَـلالِ الـوَاحِـدِ الأَحَـدِ الـحَـقِّ
مُـدَبِّـرِ كُـلِّ الـمُـمْـكِـنَـاتِ بِـأَسْـرِهَـا ... وَمُـبْـدِعِـهَـا بِـالْـعَـدْلِ وَالـقَـصْـدِ وَالـصِّـدْقِ
أُجِـلُّ جَـلالَ الله عَـنْ شِـبْـهِ خَـلْـقِـهِ ... وَأَنْـصُـرُ هٰذا الـدِّيـنَ فِي الـغَـرْبِ وَالـشَّـرْقِ
إِلَـهٌ عَـظِـيـمُ الـفَـضْـلِ وَالـعَـدْلِ وَالـعُـلَـى ... هُوَ المُرْشِدُ المُغْوِي هُوَ المُسْعِدُ المُشْقِي

ومما كان ينشده:

وأرواحُـنـا فِـي وَحْـشَـةٍ مِـنْ جُـسُـومِـنَـا ... وَحَـاصِـلُ دُنْـيَـانَـا أَذًى وَوَبَـالُ
وَلَـمْ نَـسْـتَـفِـدْ مِـنْ بَـحْـثِـنَـا طُـولَ عُـمْـرِنَـا ... سِـوَى أَنْ جَـمَـعْـنَـا فِـيـهِ قِـيـلَ وَقَـالُـوا

ثم يقول: لقد اختبرت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فلم أجدها تروي غليلاً ولا تشفي عليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، أقرأ في الإثبات ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠] وفي النفي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ۝٦٥﴾ [مريم: ٦٥].

ثم دخلت سنة سبع وستمائة

ذكر الشيخ أبو شامة أن في هذه السنة تمالأت ملوك الجزيرة: صاحب الموصل وصاحب سنجار وصاحب إربل والظاهر صاحب حلب وملك الروم، على مخالفة العادل ومنابذته ومقاتلته واصطلام الملك من يده، وأن تكون الخطبة في بلادهم للملك كنجر بن قلج أرسلان صاحب الروم، وأرسلوا إلى الكرج ليقدموا لحصار خلاط، وفيها الملك الأوحد نجم الدين بن العادل، ووعدهم النصر والمعاونة عليه. قلت: وهذا بغي وعدوان ينهى الله عنه، فأقبلت الكرج بملكهم إيواني فحاصروا خلاط فضاق بهم الأوحد ذرعاً وقال: هذا يوم عصيب، فقدّر الله تعالى أن في يوم الاثنين تاسع عشر ربيع الآخر اشتهر حصارهم للبلد وأقبل ملكهم إيواني وهو راكب على جواده وهو سكران فسقط به جواده في بعض الحفر التي قد أعدت مكيدة حول البلد، فبادر إليه رجال فأخذوه أسيراً حقيراً، فأسقط في أيدي الكرج، فلما أوقف بين يدي الأوحد أطلقه ومنّ عليه وأكرمه وأحسن إليه، وفاداه على مائتي ألف دينار وألفي أسير من المسلمين، وتسليم إحدى وعشرين قلعة متاخمة لبلاد الأوحد، وأن يزوج ابنته من أخيه الملك الأشرف موسى، وأن يكون عوناً له على من يحاربه، فأجابه إلى ذلك كله فأخذت منه الايمان بذلك وبعث الأوحد إلى أبيه يستأذنه في ذلك كله والعادل نازل بظاهر حران في أشد حدة مما قد داهمه من هذا الأمر الفظيع، فبينما هو كذلك إذ أتاه هذا الخبر والأمر الهائل من الله العزيز الحكيم، لا من حولهم ولا من قوتهم، ولا كان في بالهم، فكاد يذهل من شدة الفرح والسرور، ثم أجاز جميع ما شرطه ولده، وطارت الأخبار بما وقع بين الملوك فخضعوا وذلوا عند ذلك، وأرسل كل منهم يعتذر مما نسب إليه ويحيل على غيره، فقبل منهم اعتذاراتهم وصالحهم صلحاً أكيداً واستقبل الملك عصراً جديداً، ووفى ملك الكرج الأوحد بجميع ما شرطه عليه، وتزوج الأشرف بابنته.

ومن غريب ما ذكره الشيخ أبو شامة في هذه الكائنة أن قسيس الملك كان ينظر في النجوم فقال للملك قبل ذلك بيوم: اعلم أنك تدخل غداً إلى قلعة خلاط ولكن بزي غير ذلك أذان العصر، فوافق دخوله إليها أسيراً أذان العصر.

ذكر وفاة صاحب الموصل نور الدين

أرسل الملك نور الدين شاه ابن عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود بن زنكي صاحب الموصل يخطب ابنة السلطان الملك العادل، وأرسل وكيله لقبول العقد على ثلاثين ألف دينار، فاتفق موت نور الدين ووكيله سائر في أثناء الطريق، فعقد العقد بعد وفاته رحمه الله، وقد أثنى عليه ابن الأثير في كامله كثيراً وشكر منه ومن عدله وشهامته وهو أعلم به من غيره، وذكر أن مدة ملكه سبع عشرة سنة وأحد عشر شهراً، وأما أبو المظفر السبط فإنه قال كان جباراً ظالماً بخيلاً سفاكاً للدماء فالله أعلم به. وقام بالملك من بعده ولده القاهر عز الدين مسعود، وجعل تدبير مملكته إلى غلامه بدر الدين لؤلؤ الذي صار الملك إليه فيما بعد.

قال أبو شامة: وفي سابع شوال شرع في عمارة المصلى، وبنى له أربعة جدر مشرفة، وجعل له أبواباً صوناً لمكانه من الميار ونزول القوافل، وجعل في قبلته محراباً من حجارة ومنبراً من حجارة وعقدت فوق ذلك قبة. ثم في سنة ثلاث عشرة عمل في قبلته رواقان وعمل له منبر من خشب ورتب له خطيب وإمام راتبان، ومات العادل ولم يتم الرواق الثاني منه، وذلك كله على يد الوزير صفي الدين بن شكر. قال: وفي ثاني شوال من هذه السنة جددت أبواب الجامع الأموي من ناحية باب البريد بالنحاس الأصفر، وركبت في أماكنها. وفي شوال أيضاً شرع في إصلاح الفوارة والشاذروان والبركة وعمل عندها مسجد، وجعل له إمام راتب، وأول من تولاه رجل يقال له النفيس المصري، وكان يقال له بوق الجامع لطيب صوته إذا قرأ على الشيخ أبي منصور الضرير المصدر فيجتمع عليه الناس الكثيرون. وفي ذي الحجة في هذه السنة توجهت مراكب من عكا إلى البحر إلى ثغر دمياط وفيها ملك قبرص المسمى إليان فدخل الثغر ليلاً فأغار على بعض البلاد فقتل وسبى وغنم وكر راجعاً فركب مراكبه ولم يدركه الطلب، وقد تقدمت له مثلها قبل هذه، وهذا شيء لم يتفق لغيره لعنه الله.

وفي هذه السنة عاثت الفرنج بنواحي القدس فبرز إليهم الملك المعظم في عساكره، وجلس الشيخ شمس الدين أبو المظفر بن قزأوغلي الحنفي وهو سبط ابن الجوزي ابن ابنته رابعة، وهو صاحب مرآة الزمان، وكان فاضلاً في فنون كثيرة، حسن الشكل طيب الصوت، وكان يتكلم في الوعظ جيداً وتحبه العامة على صيت جده، وقد رحل من بغداد فنزل دمشق وأكرمه ملوكها، وولي التدريس بها، وكان يجلس كل يوم سبت عند باب مشهد علي بن الحسين زين العابدين إلى السارية التي يجلس عندها الوعاظ في زماننا هذا، فكان يكثر الجمع عنده حتى يكونوا من باب الناطفانيين إلى باب المشهد إلى باب الساعات، الجلوس غير الوقوف، فحزر جمعه في بعض الأيام ثلاثين ألفاً من الرجال والنساء، وكان الناس يبيتون ليلة

السبت في الجامع ويدعون البساتين، يبيتون في قراءة ختمات وأذكار ليحصل لهم أماكن من شدة الزحام، فإذا فرغ من وعظه خرجوا إلى أماكنهم وليس لهم كلام إلا فيما قال يومهم ذلك أجمع، يقولون قال الشيخ وسمعنا من الشيخ فيحثهم ذلك على العمل الصالح والكف عن المساوىء، وكان يحضر عنده الأكابر، حتى الشيخ تاج الدين أبو اليمن الكندي، كان يجلس في القبة التي عند باب المشهد هو ووالي البلد المعتمد ووالي البر ابن تميرك وغيرهم. والمقصود أنه لما جلس يوم السبت خامس ربيع الأول كما ذكرنا حث الناس على الجهاد وأمر بإحضار ما كان تحصل عنده من شعور التائبين، وقد عمل منه شكالات يحملها الرجال، فلما رآها الناس ضجوا ضجة واحدة وبكوا بكاء كثيراً وقطعوا من شعورهم نحوها، فلما انقضى المجلس ونزل عن المنبر فتلقاه الوالي مبادر الدين المعتمد بن إبراهيم، وكان من خيار الناس، فمشى بين يديه إلى باب الناطفيين يعضده حتى ركب فرسه والناس من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله، فخرج من باب الفرج وبات بالمصلى ثم ركب من الغد في الناس إلى الكسوة ومعه خلائق كثيرون خرجوا بنية الجهاد إلى بلاد القدس، وكان من جملة من معه ثلاثمائة من أهل زملكا بالعدد الكثيرة التامة، قال: فجئنا عقبة أفيق والطير لا يتجاسر أن يطير من خوف الفرنج، فلما وصلنا نابلس تلقانا المعظم، قال ولم أكن اجتمعت به قبل ذلك، فلما رأى الشكالات من شعور التائبين جعل يقبلها ويمرغها على عينيه ووجهه ويبكي، وعمل أبو المظفر ميعاداً بنابلس وحث على الجهاد وكان يوماً مشهوداً، ثم سار هو ومن معه وصحبته المعظم نحو الفرنج فقتلوا خلقاً وخربوا أماكن كثيرة، وغنموا وعادوا سالمين، وشرع المعظم في تحصين جبل الطور وبنى قلعة فيه ليكون إلباً على الفرنج، فغرم أموالاً كثيرة في ذلك، فبعث الفرنج إلى العادل يطلبون منه الأمان والمصالحة، فهادنهم وبطلت تلك العمارة وضاع ما كان المعظم غرم عليها والله أعلم.

وفيها توفي من الأعيان:

الشيخ أبو عمر

باني المدرسة بسفح قاسيون للفقراء المشتغلين في القرآن رحمه الله، محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة الشيخ الصالح أبو عمر المقدسي، باني المدرسة التي بالسفح يقرأ بها القرآن العزيز، وهو أخو الإمام العلامة موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة، وكان الشيخ أبو عمر أسن منه، لأنه ولد سنة ثمان وعشرين وخمسمائة بقرية الساويا، وقيل بجماعيل، والشيخ أبو عمر ربى الشيخ موفق الدين وأحسن إليه وزوجه، وكان يقوم بمصالحه، فلما قدموا من الأرض المقدسة نزلوا بمسجد أبي صالح خارج باب شرقي ثم انتقلوا منه إلى السفح، وليس به من العمارة شيء سوى دير الحوراني، قال فقيل لنا الصالحيين نسبة إلى مسجد أبي صالح لا أنا صالحون، وسميت هذه البقعة من ذلك الحين بالصالحية نسبة إلينا، فقرأ الشيخ أبو عمر القرآن على رواية أبي عمرو، وحفظ مختصر الخرقي في الفقه، ثم إن أخاه الموفق شرحه فيما بعد فكتب شرحه بيده، وكتب تفسير البغوي والحلية لأبي نعيم والإبانة لابن بطة، وكتب مصاحف كثيرة بيده للناس ولأهله بلا أجرة، وكان كثير العبادة والزهادة والتهجد، ويصوم الدهر

وكان لا يزال متبسماً، وكان يقرأ كل يوم سبعاً بين الظهر والعصر ويصلي الضحى ثماني ركعات يقرأ فيهن ألف مرة قل هو الله أحد، وكان يزور مغارة الدم في كل يوم اثنين وخمسين، ويجمع في طريقه الشيح فيعطيه الأرامل والمساكين، ومهما تهيأ له من فتوح وغيره يؤثر به أهله والمساكين، وكان متقللاً في الملبس وربما مضت عليه مدة لا يلبس فيها سراويل ولا قميصاً، وكان يقطع من عمامته قطعاً يتصدق بها أو في تكميل كفن ميت، وكان هو وأخوه وابن خالهم الحافظ عبد الغني وأخوه الشيخ العماد لا ينقطعون عن غزاة يخرج فيها الملك صلاح الدين إلى بلاد الفرنج، وقد حضروا معه فتح القدس والسواحل وغيرها، وجاء الملك العادل يوماً إلى ختمهم أي خصهم لزيارة أبي عمر وهو قائم يصلي، فما قطع صلاته ولا أوجز فيها، فجلس السلطان واستمر أبو عمر في صلاته ولم يلتفت إليه حتى قضى صلاته رحمه الله والشيخ أبو عمر هو الذي شرع في بناء المسجد الجامع أولاً بمال رجل من الناس، فنفد ما عنده وقد ارتفع البناء قامة فبعث صاحب إربل الملك المظفر كوكري مالاً فكمل به، وولّى خطابته الشيخ أبو عمر، فكان يخطب به وعليه لباسه الضعيف وعليه أنوار الخشية والتقوى والخوف من الله عز وجل، والمسك كيف خبأته ظهر عليك وبان، وكان المنبر الذي فيه يومئذٍ ثلاث مراقي والرابعة للجلوس، كما كان المنبر النبوي، وقد حكى أبو المظفر أنه حضر يوماً عنده الجمعة وكان الشيخ عبد الله البوتاني حاضراً الجمعة أيضاً عنده، فلما انتهى في خطبته إلى الدعاء للسلطان قال: اللهم أصلح عبدك الملك العادل سيف الدين أبا بكر بن أيوب، فلما قال ذلك نهض الشيخ عبد الله البوتاني وأخذ نعليه وخرج من الجامع وترك صلاة الجمعة، فلما فرغنا ذهبت إلى البوتاني فقلت له: ماذا نقمت عليه في قوله؟ فقال يقول لهذا الظالم العادل؟ لا صليت معه، قال فبينما نحن في الحديث إذ أقبل الشيخ أبو عمر ومعه رغيف وخيارتان فكسر ذلك الرغيف وقال الصلاة، ثم قال قال النبي ﷺ: «بعثت في زمن الملك العادل كسرى» فتبسم الشيخ عبد الله البوتاني ومد يده فأكل فلما فرغوا قام الشيخ أبو عمر فذهب فلما ذهب قال لي البوتاني يا سيدنا ما ذا إلا رجل صالح.

قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة: كان البوتاني من الصالحين الكبار، وقد رأيته وكانت وفاته بعد أبي عمر بعشر سنين فلم يسامح الشيخ أبا عمر في تساهله مع ورعه، ولعله كان مسافراً والمسافر لا جمعة عليه، وعذر الشيخ أبي عمر أن هذا قد جرى مجرى الأعلام العادل الكامل الأشرف ونحوه، كما يقال سالم وغانم ومسعود ومحمود، وقد يكون ذلك على الضد والعكس في هذه الأسماء، فلا يكون سالماً ولا غانماً ولا مسعوداً ولا محموداً، وكذلك اسم العادل ونحوه من أسماء الملوك وألقابهم، والتجار وغيرهم، كما يقال شمس الدين وبدر الدين وعز الدين وتاج الدين ونحو ذلك قد يكون معكوساً على الضد والانقلاب ومثله الشافعي والحنبلي وغيرهم، وقد تكون أعماله ضد ما كان عليه إمامه الأول من الزهد والعبادة ونحو ذلك، وكذلك العادل يدخل إطلاقه على المشترك والله أعلم. قلت: هذا الحديث الذي احتج به الشيخ أبو عمر لا أصل له، وليس هو في شيء من الكتب المشهورة، وعجباً له ولأبي المظفر ثم لأبي شامة في قبول مثل هذا وأخذه منه مسلماً إليه فيه والله أعلم.

ثم شرع أبو المظفر في ذكر مناقب الشيخ أبي عمر ومناقبه وكراماته وما رآه هو وغيره من أحواله الصالحة. قال: وكان على مذهب السلف الصالح سمتاً وهدياً، وكان حسن العقيدة متمسكاً بالكتاب والسنة والآثار المروية يمرها كما جاءت من غير طعن على أئمة الدين وعلماء المسلمين، وكان ينهى عن صحبة المبتدعين ويأمر بصحبة الصالحين الذين هم على سنة سيد المرسلين وخاتم النبيين، وربما أنشدني لنفسه في ذلك:

أُوصِيكُمُ بِالقَوْلِ فِي القُرْآنِ ... بِقَوْلِ أَهْلِ الحَقِّ وَالإتْقَانِ
لَيْسَ بِمَخْلُوقٍ وَلاَ بِفَانِ ... لَكِنْ كَلامُ المَلِكِ الدَّيَّانِ
آيَاتُهُ مُشْرِقَةُ المَعَانِي ... مَتْلُوَّةٌ لله بِاللِّسَانِ
مَحْفُوظَةٌ فِي الصَّدْرِ وَالجَنَانِ ... مَكْتُوبَةٌ فِي الصُّحْفِ بِالبَنَانِ
وَالقَوْلُ فِي الصِّفَاتِ يا إخْوَانِي ... كَالذَّاتِ وَالعِلْمُ مَعَ البَيَانِ
إمْرَارُهَا مِنْ غَيْرِ ما كُفْرَانِ ... مِنْ غَيْرِ تَشْبِيهٍ وَلا عطلانِ

قال وأنشدني لنفسه:

أَلَمْ يَكُ مَلْهَاةٌ عَنِ اللَّهْوِ أَنَّنِي ... بَدَا لِيَ شَيْبُ الرَّأْسِ وَالضَّعْفُ وَالأَلَمْ
أَلَمَّ بِيَ الخَطْبُ الَّذِي لَوْ بَكَيْتُهُ ... حَيَاتِيَ حَتَّى يَذْهَبَ الدَّمْعُ لَمْ أُلَمْ

قال: ومرض أياماً فلم يترك شيئاً مما كان يعمله من الأوراد، حتى كانت وفاته وقت السحر في ليلة الثلاثاء التاسع والعشرين من ربيع الأول فغسل في الدير وحمل إلى مقبرته في خلق كثير لا يعلمهم إلا الله عز وجل، ولم يبق أحد من الدول والأمراء والعلماء والقضاة وغيرهم إلا حضر جنازته، وكان يوماً مشهوداً، وكان الحر شديداً فأظلت الناس سحابة من الحر، كان يسمع منها كدوي النحل، وكان الناس ينتهبون أكفانه وبيعت ثيابه بالغالي الغالي، ورثاه الشعراء بمراثي حسنة، ورئيت له منامات صالحة رحمه الله. وترك من الأولاد ثلاثة ذكور: عمر، وبه كان يكنى، والشرف عبد الله وهو الذي ولي الخطابة بعد أبيه، وهو والد العز أحمد، وعبد الرحمن. ولما توفي الشرف عبد الله صارت الخطابة لأخيه شمس الدين عبد الرحمن بن أبي عمر، وكان من أولاد أبيه الذكور، فهؤلاء أولاده الذكور، وترك من الإناث بنات كما قال الله تعالى: ﴿مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ۝٥﴾ [التحريم: ٥] قال وقبره في طريق مغارة الجوع في الزقاق المقابل لدبر الحوراني رحمه الله وإيانا.

ابن طبرزد شيخ الحديث

عمر بن محمد بن معمر بن يحيى المعروف بأبي حفص بن طبرزد البغدادي الدارقزّي، ولد سنة خمس عشرة وخمسمائة، سمع الكثير وأسمع، وكان خليعاً ظريفاً ماجناً، وكان يؤدب الصبيان بدار القز قدم مع حنبل بن عبد الله المكبر إلى دمشق فسمع أهلها عليهما، وحصل لهما أموال وعادا إلى بغداد فمات حنبل سنة ثلاث وتأخر هو إلى هذه السنة [في تاسع شهر رجب]

فمات وله سبع وتسعون سنة، وترك مالاً جيداً ولـم يكن له وارث إلا بيت المال، ودفن بباب حرب.

السلطان الملك العادل أرسلان شاه

نور الدين صاحب الموصل، وهو ابن أخي نور الدين الشهيد، وقد ذكرنا بعض سيرته في الحوادث، كان شافعي المذهب، ولـم يكن بينهم شافعي سواه، وبنى للشافعية مدرسة عظيمة بالموصل وبها تربته، قال ابن خلكان: كانت وفاته في صفر ليلة الأحد التاسع والعشرين من هذه السنة.

ابن سكينة عبد الوهاب بن علي

ضياء الدين المعروف بابن سكينة الصوفي، كان يعد من الأبدال، سمع الحديث الكثير وأسمعه ببلاد شتى، ولد في سنة تسع عشرة وخمسمائة، وكان صاحباً لأبي الفرج بن الجوزي، ملازماً لمجلسه وكان يوم جنازته يوماً مشهوداً لكثرة الخلق ولكثرة ما كان فيه من الخاصة والعامة رحمه الله.

مظفر بن ساسير

الواعظ الصوفي البغدادي، ولد سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة، وسمع الحديث، وكان يعظ في الأعزية والمساجد والقرى، وكان ظريفاً مطبوعاً قام إليه إنسان فقال له فيما بينه وبينه: أنا مريض جائع، فقال: أحمد ربك فقد عوفيت. واجتاز مرة على قصاب يبيع لحماً ضعيفاً وهو يقول أين من حلب لا يغبن، فقال له حتى تحتثه. قال: وعملت مرة مجلساً بيعقوبا فجعل هذا يقول عندي للشيخ نصفية وهذا يقول عندي للشيخ نصفية وهذا يقول مثله حتى عدوا نحواً من خمسين نصفية، فقلت في نفسي: استغنيت الليلة فأرجع إلى البلد تاجراً، فلما أصبحتُ إذا صبرة من شعير في المسجد فقيل لي هذه النصافي التي ذكر الجماعة، وإذا هي بكيلة يسمونها نصفية مثل الزبدية، وعملت مرة مجلساً بباصرا فجمعوا لي شيئاً لا أدري ما هو، كلما أصبحنا إذا شيء من صوف الجواميس وقرونها، فقام رجل ينادي عليكم عندكم في قرون الشيخ وصوفه، فقلت لا حاجة لي بهذا وأنتم في حل منه. ذكره أبو شامة.

ثم دخلت سنة ثمان وستمائة [من الهجرة النبوية][1]

استهلت والعادل مقيم على الطور لعمارة حصنه، وجاءت الأخبار من بلاد المغرب بأن عبد المؤمن قد كسر الفرنج بطليطلة كسرة عظيمة، وربما فتح البلد عنوة وقتل منهم خلقاً كثيراً. وفيها كانت زلزلة عظيمة شديدة بمصر والقاهرة، هدمت منها دوراً كثيرة، وكذلك بالكرك

(١) سقط في ط.

والشوبك هدمت من قلعتها أبراجاً، ومات خلق كثير من الصبيان والنسوان تحت الهدم، ورئي دخان نازل من السماء إلى الأرض فيما بين المغرب والعشاء عند قبر عاتكة غربي دمشق. وفيها أظهرت الباطنية الإسلام وأقامت الحدود على من تعاطى الحرام، وبنوا الجوامع والمساجد، وكتبوا إلى إخوانهم بالشام بمضات وأمثالها بذلك، وكتب زعيمهم جلال الدين إلى الخليفة يعلمه بذلك، وقدمت أمة منهم إلى بغداد لأجل الحج فأكرموا وعظموا بسبب ذلك، ولكن لما كان الناس بعرفات ظفر واحد منهم على قريب لأمير مكة قتادة الحسيني فقتله ظاناً أنه قتادة فثارت فتنة بين سودان مكة وركب العراق، ونهب الركب وقتل منهم خلق كثير وفيها ابتاع الملك الأشرف جوسق الريس من النيرب من ابن عم الظاهر حضر بن صلاح الدين وبناه بناء حسناً، وهو المسمّى بزماننا بالدهشة.

وفيها توفي من الأعيان:

الشيخ عماد الدين

محمد بن يونس الفقيه الشافعي الموصلي صاحب التصانيف والفنون الكثيرة، كان رئيس الشافعية بالموصل، وبعث رسولاً إلى بغداد بعد موت نور الدين أرسلان، وكان عنده وسوسة كثيرة في الطهارة، ويقال أنه كان يعامل في الأموال بمسألة العينة كما قيل تصفون البعوض من شرابكم وتستر بطون الجمال بأحمالها، ولو عكس الأمر لكان خيراً له، فلقيه يوماً قضيب البان الموكه فقال له: يا شيخ بلغني عنك أنك تغسل العضو من أعضائك بإبريق من الماء فلم لا تغسل اللقمة التي تأكلها لتستنظف قلبك وباطنك؟ ففهم الشيخ ما أراد فترك ذلك. توفي بالموصل في رجب عن ثلاث وسبعين سنة.

ابن حمدون تاج الدين

أبو سعد الحسن بن محمد بن حمدون، صاحب التذكرة الحمدونية، كان فاضلاً بارعاً، اعتنى بجمع الكتب المنسوبة وغيرها، وولاّه الخليفة المارستان العضدي، وكانت وفاته بالمدائن وحمل إلى مقابر قريش فدفن بها.

صاحب الروم خسروشاه

ابن قلج أرسلان، مات فيها وقام بالملك بعده ولده كيكايرس، فلما توفي في سنة خمس عشرة ملك أخوه كيقياذ صارم الدين برغش العادلي نائب القلعة بدمشق، مات في صفر ودفن بتربته غربي الجامع المظفري، وهذا الرجل هو الذي نفى الحافظ عبد الغني المقدسي إلى مصر وبين يديه كان عقد المجلس، وكان في جملة من قام عليه ابن الزكي والخطيب الدولعي، وقد توفوا أربعتهم وغيرهم ممن قام عليه واجتمعوا عند ربهم الحكم العدل سبحانه.

الأمير فخر الدين سركس

ويقال له جهاركس أحد أمراء الدولة الصلاحية وإليه تنسب قباب سركس بالسفح تجاه تربة خاتون وبها قبره. قال القاضي ابن خلكان: هذا هو الذي بنى القيسارية الكبرى بالقاهرة المنسوبة

إليه وبنى في أعلاها مسجداً معلقاً وربعاً، وقد ذكر جماعة من التجار أنهم لم يروا لها نظيراً في البلدان في حسنها وعظمها وإحكام بنائها. قال: وجهاركس بمعنى أربعة أنفس. قلت: وقد كان نائباً للعادل على بانياس والشقيف وتبنين وهونين، فلما توفي ترك ولداً صغيراً فأقره العادل على ما كان يليه أبوه وجعل له مدبراً وهو الأمير صارم الدين قطلبا التنيسي، ثم استقل بها بعد موت الصبي إلى سنة خمس عشرة.

الشيخ الكبير المعمر الرحلة أبو القاسم أبو بكر أبو الفتح

منصور بن عبد المنعم بن عبد الله بن محمد بن الفضل الفراوي النيسابوري، سمع أباه وجد أبيه وغيرهما، وعنه ابن الصلاح وغيره، وكانت وفاته بنيسابور في شعبان في هذه السنة عن خمس وثمانين سنة.

قاسم الدين التركماني

العقيبي والد والي البلد، كانت وفاته في شوال منها والله أعلم.

ثم دخلت سنة تسع وستمائة [من الهجرة النبوية](١)

فيها اجتمع العادل وأولاده الكامل والمعظم والفائز بدمياط من بلاد مصر في مقاتلة الفرنج فاغتنم غفلتهم سامة الجبلي أحد أكابر الأمراء، وكانت بيده قلعة عجلون وكوكب فسار مسرعاً إلى دمشق ليستلم البلدين، فأرسل العادل في إثره ولده المعظم صاحب دمشق فسبقه إلى القدس وحمل عليه فرسم عليه في كنيسة صهيون، وكان شيخاً كبيراً قد أصابه النقرس، فشرع يرده إلى الطاعة بالملاطفة فلم ينفع فيه فاستولى على حواصله وأملاكه وأمواله وأرسله إلى قلعة الكرك فاعتقله بها، وكان قيمة ما أخذه منه قريباً من ألف ألف دينار، من ذلك داره وحمامه داخل باب السلامة، وداره هي التي جعلها البادرائي مدرسة للشافعية، وخرب حصن كوكب ونقلت حواصله إلى حصن الطور الذي استجده العادل وولده المعظم. وفيها عزل الوزير صفي الدين بن شكر واحتيط على أمواله ونفي إلى الشرق، وهو الذي كان قد كتب إلى الديار المصرية بنفي الحافظ عبد الغني منها بعد نفيه من الشام، فكتب أن ينفى إلى المغرب، فتوفي الحافظ عبد الغني رحمه الله قبل أن يصل الكتاب، وكتب الله عز وجل بنفي الوزير إلى الشرق محل الزلازل والفتن والشر، ونفاه عن الأرض المقدسة جزاء وفاقاً. ولما استولى صاحب قبرص لعنه الله على مدينة أنطاكية حصل بسببه شر عظيم وتمكن من الغارات على بلاد المسلمين، لا سيما على التراكمين الذين حول أنطاكية، قتل منهم خلقاً كثيراً وغنم من أغنامهم شيئاً كثيراً، فقدر الله عز وجل أن أمكنهم منه في بعض الأودية فقتلوه وطافوا برأسه في تلك البلاد، ثم أرسلوا رأسه إلى الملك العادل إلى مصر فطيف به هنالك، وهو الذي أغار على بلاد

---

(١) سقط في ط.

مصر من ثغر دمياط مرتين فقتل وسبى وعجز عنه الملوك.

وفي ربيع الأول منها توفي الملك الأوحد.

نجم الدين أيوب

ابن العادل صاحب خلاط، يقال إنه كان قد سفك الدماء وأساء السيرة فقصف الله عمره، ووليها بعده أخوه الملك الأشرف موسى بن العادل، وكان محمود السيرة جيد السريرة فأحسن إلى أهلها فأحبوه كثيراً. وفيها توفي من الأعيان.

فقيه الحرم الشريف بمكة

محمد بن إسماعيل بن أبي الصيف اليمني، وأبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن أبي بكر القفصي المقري المحدث، كتب كثيراً وسمع الكثير ودفن بمقابر الصوفية رحمه الله.

أبو الفتح محمد بن سعد بن محمد الديباجي

من أهل مرو، له كتاب المحصل في شرح المفصل للزمخشري في النحو. كان ثقة عالماً سمع الحديث توفي في هذه السنة عن ثنتين وتسعين سنة.

الشيخ الصالح الزاهد العابد

أبو البقاء محمود بن عثمان بن مكارم النعالي الحنبلي، كان له عبادات ومجاهدات وسياحات، وبنى رباطاً بباب الأزج يأوي إليه أهل العلم من المقادسة وغيرهم، وكان يؤثرهم ويحسن إليهم، وقد سمع الحديث وقرأ القرآن، وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. وكانت وفاته في هذه السنة وقد جاوز الثمانين.

ثم دخلت سنة عشر وستمائة

فيها أمر العادل أيام الجمع بوضع سلاسل على أفواه الطرق إلى الجامع لئلا تصل الخيول إلى قريب الجامع صيانة للمسلمين عن الأذى بهم، ولئلا يضيقوا على المارين إلى الصلاة. وفيها ولد الملك العزيز للظاهر غازي صاحب حلب، وهو والد الملك الناصر صاحب دمشق واقف الناصريتين داخل دمشق، إحداهما داخل باب الفراديس، والأخرى بالسفح ذات الحائط الهائل والعمارة المتينة، التي قيل إنه لا يوجد مثلها إلا قليلاً، وهو الذي أسره التتار الذين مع هلاكو ملك التتار وفيها قدم بالفيل من مصر فحمل هدية إلى صاحب الكرج فتعجب الناس منه جداً، ومن بديع خلقه. وفيها قدم الملك الظافر خضر ابن السلطان صلاح الدين من حلب قاصداً الحج، فتلقاه الناس وأكرمه ابن عمه المعظم صاحب دمشق، فلما لم يبق بينه وبين مكة إلا مراحل يسيرة تلقته حاشية الكامل صاحب مصر وصدوه عن دخول مكة، وقالوا إنما جئت لأخذ اليمن، فقال لهم قيدوني وذروني أقضي المناسك، فقالوا: ليس معنا مرسوم وإنما أمرنا بردك وصدك، فهمّ طائفة من الناس بقتالهم فخاف من وقوع فتنة فتحلل من حجه ورجع إلى

الشام، وتأسف الناس على ما فعل به وتباكوا لما ودعهم، تقبل الله منه. وفيها وصل كتاب من بعض فقهاء الحنفية بخراسان إلى الشيخ تاج الدين أبو اليمن الكندي يخبر به أن السلطان خوارزم شاه محمد بن تكش تنكر في ثلاثة نفر من أصحابه، ودخل بلاد التتر ليكشف أخبارهم بنفسه، فأنكروهم فقبضوا عليهم فضربوا منهم اثنين حتى ماتا ولم يقرا بما جاؤوا فيه واستوثقوا من الملك وصاحبه الآخر أسراً، فلما كان في بعض الليالي هربا ورجع السلطان إلى ملكه وهذه المرة غير نوبة أسره في المعركة مع:

مسعود الأمير: وفيها ظهرت بلاطة وهم يحفرون في خندق حلب فوجد تحتها من الذهب خمسة وسبعون رطلاً، ومن الفضة خمسة وعشرون بالرطل الحلبي.

وفيها توفي من الأعيان:

شيخ الحنفية

مدرس مشهد أبي حنيفة ببغداد، الشيخ أبو الفضل أحمد بن مسعود بن علي الرساني، وكان إليه المظالم، ودفن بالمشهد المذكور.

والشيخ أبو الفضل بن اسماعيل[1]

ابن علي بن الحسين فخر الدين الحنبلي، يعرف بابن الماشطة، ويقال له الفخر غلام ابن المنى، له تعليقة في الخلاف وله حلقة بجامع الخليفة، وكان يلي النظر في قرايا الخليفة، ثم عزله فلزم بيته فقيراً لا شيء له إلى أن مات رحمه الله، وكان ولده محمد مدبراً شيطاناً مريداً كثير الهجاء والسعاية بالناس إلى أولياء الأمر بالباطل، فقطع لسانه وحبس إلى أن مات.

والوزير معز الدين أبو المعالي

سعيد بن علي بن أحمد بن حديدة، من سلالة الصحابي قطبة بن عامر بن حديدة الأنصاري، ولي الوزارة للناصر في سنة أربع وثمانين، ثم عزله عن سفارة ابن مهدي فهرب إلى مراغة، ثم عاد بعد موت ابن مهدي فأقام ببغداد معظماً محترماً، وكانَ كثير الصدقات والإحسان إلى الناس إلى أن مات رحمه الله.

وسنجر بن عبد الله الناصري

الخليفتي، كانت له أموال كثيرة وأملاك وإقطاعات متسعة، وكان مع ذلك بخيلاً ذليلاً ساقط النفس، اتفق أنه خرج أمير الحاج في سنة تسع وثمانين وخمسمائة، فاعترضه بعض الأعراب في نفر يسير، وكان مع سنجر خمسمائة فارس، فدخله الذل من الأعرابي، فطلب منه الأعرابي خمسين ألف دينار فجباها سنجر من الحجيج ودفعها إليه، فلما عاد إلى بغداد أخذ الخليفة منه خمسين ألف دينار ودفعها إلى أصحابها وعزله وولى طاشتكين مكانه.

---

(١) في ط: والشيخ أبو محمد إسماعيل.

قاضي السلامية

ظهير الدين أبو إسحاق إبراهيم بن نصر بن عسكر، الفقيه الشافعي الأديب، ذكره العماد في الخريدة وابن خلكان في الوفيات، وأثنى عليه وأنشد من شعره، في شيخ له زاوية، وفي أصحابه يقال له مكي:

أَلاَ قُلْ لِمَكِّيٍّ قَوْلَ النَّصُوحِ ... وَحَقُّ النَّصِيحَةِ أَنْ تُسْتَمَعْ
مَتَى سَمِعَ النَّاسُ فِي دِينِهِمْ ... بِأَنَّ الغِنَا سُنَّةٌ تُتَّبَعْ
وَأَنْ يَأْكُلَ المَرْءُ أَكْلَ البَعِيرِ ... وَيَرْقُصَ فِي الجَمْعِ حَتَّى يَقَعْ
وَلَوْ كَانَ طَاوِي الحَشَا جَائِعاً ... لَمَا دَارَ مِنْ طَرَبٍ وَاسْتَمَعْ
وَقَالُوا: سَكِرْنا بِحُبِّ الإِلٰهِ ... وَمَا أَسْكَرَ القَوْمَ إلاَّ القِصَعْ
كَذَاكَ الحَمِيرُ إذا أَخْصَبَتْ ... يُهَيِّجُهَا رِيُّهَا وَالشِّبَعْ
تَرَاهُمْ يَهُزُّوا لِحَاهُمْ إذَا ... تَرَنَّمَ حَادِيهِمُ بِالبِدَعْ
فَيَصْرُخُ هٰذا وَهٰذا يَئِنُّ ... وَيَبسٌ لو تليَّن ما انْصَدَعْ

وتاج الأمناء

أبو الفضل أحمد بن محمد بن الحسن بن هبة الله بن عساكر من بيت الحديث والرواية، وهو أكبر من إخوته زين الأمناء والفخر عبد الرحمن، سمع عميه الحافظ أبي القاسم والصائن، وكان صديقاً للكندي وكانت وفاته يوم الأحد ثاني رجب ودفن قبلي محراب مسجد القدم رحمه الله.

والنسابة الكلبي

كان يقال له تاج العلى الحسيني، اجتمع بآمد بابن دحية، وكان ينسب إلى دحية الكلبي، ودحية الكلبي لم يعقب، فرماه ابن دحية بالكذب في مسائله الموصلية. قال ابن الأثير في الكامل: وفي المحرم منها توفي.

المهذب الطبيب المشهور

وهو علي بن أحمد بن مقبل الموصلي، سمع الحديث وكان أعلم أهل زمانه بالطب، وله فيه تصنيف حسن، وكان كثير الصدقة حسن الأخلاق.

الجزولي صاحب المقدمة المسماة بالقانون

وهو أبو موسى عيسى بن عبد العزيز الجزولي ـ بطن من البربر ـ ثم البردكيني النحوي المصري، مصنف المقدمة المشهورة البديعة، شرحها هو وتلامذته، وكلهم يعترفون بتقصيرهم عن فهم مراده في أماكن كثيرة منها، قدم مصر وأخذ عن ابن بري، ثم عاد إلى بلاده وولي خطابة مراكش، وكانت وفاته في هذه السنة وقيل قبلها فالله أعلم.

ثم دخلت سنة إحدى عشرة وستمائة

فيها أرسل الملك خوارزم شاه أميراً من أخصاء أمرائه عنده، وكان قبل ذلك سيروانياً فصار أميراً خاصاً، فبعثه في جيش ففتح له كرمان ومكران وإلى حدود بلاد السند، وخطب له بتلك النواحي، وكان خوارزم شاه لا يصيف إلا بنواحي سمرقند خوفاً من التتار وكشلي خان أن يثبوا على أطراف تلك البلاد التي تتاخمهم. قال أبو شامة: وفيها شرع في تبليط داخل الجامع الأموي وبدؤوا من ناحية السبع الكبير، وكانت أرض الجامع قبل ذلك حفراً وجوراً، فاستراح الناس في تبليطه. وفيها وسع الخندق مما يلي القيمازية فأخربت دور كثيرة وحمام قايماز وفرن كان هناك وقفاً على دار الحديث النورية وغير ذلك. وفيها بنى المعظم الفندق المنسوب إليه بناحية قبر عاتكة ظاهر باب الجابية. وفيها أخذ المعظم قلعة صرخد من ابن قراجا وعوضه عنها وسلمها إلى مملوكه عز الدين أيبك المعظمي، فثبتت في يده إلى أن انتزعها منه نجم الدين أيوب سنة أربع وأربعين. وفيها حج الملك المعظم ابن العادل ركب من الكرك على الهجن في حادي عشر ذي القعدة ومعه ابن موسك ومملوك أبيه وعز الدين أستاذ داره وخلق، فسار على طريق تبوك والعلاء. وبنى البركة المنسوبة إليه، ومصانع أخر. فلما قدم المدينة النبوية تلقاه صاحبها سالم وسلم إليه مفاتيحها وخدمه خدمة تامة، وأما صاحب مكة قتادة فلم يرفع به رأساً، ولهذا لما قضى نسكه، وكان قارناً، وأنفق في المجاورين ما حمله إليهم من الصدقات وكرّ راجعاً استصحب معه سالماً صاحب المدينة وتشكى إلى أبيه عند رأس الماء ما لقيه من صاحب مكة، فأرسل العادل، مع سالم جيشاً يطردون صاحب مكة، فلما انتهوا إليها هرب منهم في الأودية والجبال والبراري، وقد أثر المعظم في حجته هذه آثاراً حسنة بطريق الحجاز أثابه الله.

وفيها تعامل أهل دمشق في القراطيس السود العادلية ثم بطلت بعد ذلك ودفنت. وفيها مات صاحب اليمن وتلاها سليمان بن شاهنشاه بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب باتفاق الأمراء عليه، فأرسل العادل إلى ابنه الكامل أن يرسل إليها ولده أضسيس، فأرسله فتملكها فظلم بها وفتك وغشم، وقتل من الأشراف نحواً من ثمانمائة، وأما من عداهم فكثير، وكان من أفجر الملوك وأكثرهم فسقاً وأقلهم حياء وديناً، وقد ذكروا عنه ما تقشعر منه الأبدان وتنكره القلوب، نسأل الله العافية.

وفيها توفي من الأعيان:

إبراهيم بن علي

ابن محمد بن بكروس الفقيه الحنبلي، أفتى وناظر وعدل عند الحكام، ثم انسلخ من هذا كله وصار شرطياً بباب النوى يضرب الناس ويؤذيهم غاية الأذى، ثم بعد ذلك ضرب إلى أن مات وألقي في دجلة وفرح الناس بموته، وقد كان أبوه رجلاً صالحاً.

الركن عبد السلام بن عبد الوهاب

ابن الشيخ عبد القادر، كان أبوه صالحاً وكان هو متهماً بالفلسفة ومخاطبة النجوم، ووجد عنده كتب في ذلك، وقد ولي عدة ولايات، وفيه وفي أمثاله يقال: نعم الجدود ولكن بئس ما نسلوا. ورأى عليه أبوه يوماً ثوباً بخارياً فقال: سمعنا بالبخاري ومسلم، وأما بخاري وكافر فهذا شيء عجيب، وقد كان مصاحباً لأبي القاسم ابن الشيخ أبي الفرج بن الجوزي، وكان الآخر مدبراً فاسقاً، وكانا يجتمعان على الشراب والمردان[1] قبّحهما الله.

أبو محمد عبد العزيز بن محمود بن المبارك

البزار المعروف بابن الأخضر البغدادي المحدث المكثر الحافظ المصنف المحرر، له كتب مفيدة متقنة، وكان من الصالحين، وكان يوم جنازته يوماً مشهوداً رحمه الله.

الحافظ أبو الحسن علي بن الأنجب

أبي المكارم بن المفضل بن أبي الحسن علي بن أبي الغيث مفرج بن حاتم بن الحسن بن جعفر بن إبراهيم بن الحسن اللخمي المقدسي، ثم الإسكندراني المالكي، سمع السلفي وعبد الرحيم المنذري وكان مدرساً للمالكية بالإسكندرية، ونائب الحكم بها. ومن شعره قوله:

أَيَا نَفْسُ بِالمَأْثُورِ عَنْ خَيْرِ مُرْسَلِ ... وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ تَمَسَّكِي
عَسَاكِ إذا بَالَغْتِ في نَشْرِ دِينِهِ ... بِمَا طَابَ مِنْ عُرْفٍ لَهُ أَنْ تَمَسَّكِي
وَخَافِي غَداً يَوْمَ الحِسَابِ جَهَنَّماً ... إذا لَفَحَتْ نِيرَانُهَا أَنْ تَمَسَّكِي

وكانت وفاته بالقاهرة في هذه السنة قاله ابن خلكان.

ثم دخلت سنة اثنتي عشرة وستمائة [من الهجرة النبوية][2]

فيما شرع في بناء المدرسة العادلية الكبيرة بدمشق، وفيها عزل القاضي ابن الزكي وفوض الحكم إلى القاضي جمال الدين بن الحرستاني، وهو ابن ثمانين أو تسعين سنة، فحكم بالعدل وقضى بالحق، ويقال إنه كان يحكم بالمدرسة المجاهدية قريباً من النورية عند باب القواسين. وفيها أبطل العادل ضمان الخمر والقيان جزاه الله خيراً، فزال بزوال ذلك عن الناس ومنهم شر كثير. وفيها حاصر الأمير قتادة أمير مكة المدينة النبوية وقطع نخلاً كثيراً، فقاتله أهلها فكر خائباً خاسراً حسيراً، وكان صاحب المدينة بالشام فطلب من العادل نجدة على أمير مكة، فأرسل معه جيشاً فأسرع في الأوبة فمات في أثناء الطريق، فاجتمع الجيش على ابن أخيه جماز فقصد مكة فالتقاه أميرها بالصفراء فاقتتلوا قتالاً شديداً، فهرب المكيون وغنم منهم جماز شيئاً كثيراً، وهرب

(١) المردان: جمع أمرد، وهو الذي لم تنبت لحيته بعد.
(٢) سقط في ط.

قتادة إلى الينبع فساروا إليه فحاصروه بها وضيقوا عليه. وفيها أغارت الفرنج على بلاد الإسماعيلية فقتلوا ونهبوا. وفيها أخذ ملك الروم كيكارس مدينة أنطاكية من أيدي الفرنج ثم أخذها منه ابن لاون ملك الأرمن، ثم أخذها منه إبريس طرابلس. وفيها ملك خوارزم شاه محمد بن تكش مدينة غزنة بغير قتال.

وفيها كانت وفاة الملك المعظم أبي الحسن علي ابن أمير المؤمنين الناصر لدين الله، ولما توفي حزن الخليفة عليه حزناً عظيماً، وكذلك الخاصة والعامة لكثرة صدقاته وإحسانه إلى الناس، حتى قيل إنه لم يبق بيت ببغداد إلا حزنوا عليه، وكان يوم جنازته يوماً مشهوداً وناح أهل البلد عليه ليلاً ونهاراً، ودفن عند جدته بالقرب من قبر معروف، توفي يوم الجمعة العشرين من ذي القعدة وصليّ عليه بعد صلاة العصر، وفي هذا اليوم قدم بغداد برأس منكلي الذي كان قد عصى على الخليفة وعلى أستاذه، فطيف به ولم يتم فرحه ذلك اليوم لموت ولده وولي عهده، والدنيا لا تسر بقدر ما تضر، وترك ولدين أحدهما المؤيد أبو عبد الله الحسين، والموفق أبو الفضل يحيى.

وفيها توفي من الأعيان.

الحافظ عبد القادر الرهاوي

عبد القادر بن عبد الله بن عبد الرحمن أبو محمد الحافظ الكبير المحدث المخرج المفيد المحرر المتقن البارع المصنف، كان مولى لبعض المواصلة، وقيل لبعض الجوابين، اشتغل بدار الحديث بالموصل، ثم انتقل إلى حران، وقد رحل إلى بلدان شتى، وسمع الكثير من المشايخ شرقاً وغرباً، وأقام بحران إلى أن توفي بها في هذه السنة، وكان مولده في سنة ست وثلاثين وخمسمائة، كان ديّناً خيِّراً رحمه الله.

الوجيه الأعمى

أبو بكر المبارك بن سعيد بن الدهان النحوي الواسطي الملقب بالوجيه، ولد بواسط وقدم بغداد فاشتغل بعلم العربية والنحو، فأتقن ذلك وحفظ شيئاً كثيراً من أشعار العرب، وسمع الحديث وكان حنبلياً ثم انتقل إلى مذهب أبي حنيفة، ثم صار شافعياً، وولي تدريس النحو بالنظامية، وفيه يقول الشاعر:

فَمَنْ مُبْلِغٌ عَنِّي الوَجِيهَ رِسَالَةً ... وَإِنْ كَانَ لا تُجْدِي لَدَيْهِ الرَّسَائِلُ
تَمَذْهَبْتَ لِلنُّعْمَان بَعْدَ ابْنِ حَنْبَلٍ ... وَذٰلِكَ لَمَّا أَعْوَزَتْكَ المَآكِلُ
وَمَا اخْتَرْتَ رَأْيَ الشَّافِعِيِّ دِيَانَةً ... وَلٰكِنَّمَا تَهْوَى الَّذِي هُوَ حَاصِلُ
وَعَمَّا قَلِيلٍ أَنْتَ لا شَكَّ صَائِرٌ ... إِلَى مَالِكٍ فَانْظُرْ إِلَى مَا أَنْتَ قَائِلُ

وكان يحفظ شيئاً كثيراً من الحكايات والأمثال والملح، ويعرف العربية والتركية والعجمية والرومية والحبشية والزنجية، وكانت له يد طولى في نظم الشعر. فمن ذلك قوله:

وَلَـوْ وَقَـعَـتْ فِـي لُـجَّـةِ الـبَـحْـرِ قَـطْـرَةٌ مِـنَ الـمُـزْنِ يَـوْمـاً ثُـمَّ شَـاءَ لَـمَـازَهَـا[1]
وَلَـوْ مَـلَـكَ الـدُّنْـيَـا فَـأَضْـحَـى مُـلُـوكُـهَـا عَـبِـيـداً لَـهُ فِـي الـشَّـرْقِ وَالـغَـرْبِ مَـا زَهَـا

وله في التجنيس:

أَطَلْتَ مَلامِي في اجْتِنَابِي لِمَعْشَرٍ طَغَامٍ[2] لِئَامٍ جُودُهُمْ غَيْرُ مُرْتَجَى
حَمَوْا مَا لَهُمْ وَالدِّينُ والعِرْضُ مِنْهُمُ مُبَاحٌ، فَمَا يَخْشَوْنَ مَنْ عَابَ أَوْ هَجَا
إذا شَرَعَ الأَجْوَادُ فِي الجُودِ مَنْهَجاً لَهُمْ شَرعُوا فِي البُخْلِ سَبْعِينَ مَنْهَجَا

وله مدائح حسنة وأشعار رائقة ومعاني فائقة، وربما عارض شعر البحتري بما يقاربه ويدانيه، قالوا وكان الوجيه لا يغضب قط، فتراهن جماعة مع واحد أنه إن أغضبه كان له كذا وكذا، فجاء إليه فسأله عن مسألة في العربية فأجابه فيها بالجواب، فقال له السائل: أخطأت أيها الشيخ، فأعاد عليه الجواب بعبارة أخرى فقال له أخطأت أيضاً فأعاد ثالثة بعبارة أخرىٰ، فقال: كذبت وما أراك إلا قد نسيت النحو، فقال الوجيه: أيها الرجل فلعلك لم تفهم ما أقول لك، فقال بلى ولكنك تخطىء في الجواب، فقال له فقل أنت ما عندك لنستفيد منك، فأغلظ له السائل في القول فتبسم ضاحكاً وقال له: إن كنت راهنت فقد غلبت، وإنما مثلك مثل البعوضة ـ يعني الناموسة ـ سقطت على ظهر الفيل، فلما أرادت أن الطيران قالت له استمسك فإني أحب أن أطير، فقال لها الفيل: ما أحسست بك حين سقطت، فما أحتاج أن استمسك إذا طرت، كانت وفاته رحمه الله في شعبان منها ودفن بالوردية.

أبو محمد عبد العزيز بن أبي المعالي

ابن غنيمة المعروف بابن منينا، ولد سنة خمس عشرة وخمسمائة وسمع الكثير وأسمعه، كانت وفاته في ذي الحجة منها عن سبع وتسعين سنة.

الشيخ الفقيه كمال الدين مودود

ابن الشاغوري الشافعي كان يقرىء بالجامع الأموي الفقه وشرح التنبيه للطلبة، ويتأنى عليهم حتى يفهموا احتساباً تجاه المقصورة. ودفن بمقابر باب الصغير شمالي قبور الشهداء وعلى قبره شعر ذكره أبو شامة والله سبحانه أعلم.

ثم دخلت سنة ثلاث عشرة وستمائة [من الهجرة النبوية][3]

قال أبو شامة: فيها أحضرت الأوتاد الخشب الأربعة لأجل قبة نسر الجامع، طول كل واحد اثنان وثلاثون ذراعاً بالنجار. وفيها شرع في تجديد خندق باب السر المقابل لدار الطعم

---

(١) لمازها: لميزها وفصلها. (٢) الطغام: الأوغاد.
(٣) سقط في ط.

العتيقة إلى جانب بانياس. قلت: هي التي يقال لها اليوم اصطبل السلطان، وقد نقل السلطان بنفسه التراب ومماليكه تحمل بين يديه على قربوس السروج القفاف من التراب فيفرغونها في الميدان الأخضر، وكذلك أخوه الصالح إسماعيل ومماليكه يعمل هذا يوماً وهذا يوماً. وفيها وقعت فتنة بين أهل الشاغور وأهل العقيبة فاقتتلوا بالرحبة والصيارف، فركب الجيش إليهم ملبسين وجاء السلطان المعظم بنفسه فمسك رؤوسهم وحبسهم. وفيها رتب بالمصلى خطيب مستقل، وأول من باشره الصدر معيد الفلكية، ثم خطب به بعد بهاء الدين بن أبي اليسر، ثم بنو حسان وإلى الآن.

وفيها توفي من الأعيان:

صاحب حلب الملك الظاهر

غازي ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، وكان من خيار الملوك وأسدهم سيرة، ولكن كان فيه عسف ويعاقب على الذنب شديداً، وكان يكرم العلماء والشعراء والفقراء، أقام في الملك ثلاثين سنة وحضر كثيراً من الغزوات مع أبيه، وكان ذكياً له رأي جيد وعبارة سديدة وفطنة حسنة، عمر أربعاً وأربعين سنة ولما حضرته الوفاة جعل الملك من بعده لولده العزيز غياث الدين محمد، وكان حينئذٍ ابن ثلاث سنين، وكان له أولاد كبار ولكن ابنه هذا الصغير الذي عهد إليه كان من بنت عمه العادل وأخواله الأشرف والمعظم والكامل، وجده وأخواله لا ينازعونه، ولو عهد لغيره من أولاده لأخذوا الملك منه، وهكذا وقع سواء، بايع له جده العادل وأخواله، وهم المعظم بنقض ذلك وبأخذ الملك منه فلم يتفق له ذلك، وقام بتدبير ملكه الطواشي شهاب الدين طغر بك الرومي الأبيض، وكان ديناً عاقلاً.

وفيها توفي من الأعيان:

زيد بن الحسن

ابن زيد بن الحسن بن سعيد بن عصمة الشيخ الإمام وحيد عصره تاج الدين أبو اليمن الكندي، ولد ببغداد ونشأ بها واشتغل وحصل، ثم قدم دمشق فأقام بها وفاق أهل زمانه شرقاً وغرباً في اللغة والنحو وغير ذلك من فنون العلم، وعلو الإسناد وحسن الطريقة والسيرة وحسن العقيدة، وانتفع به علماء زمانه وأثنوا عليه وخضعوا له. وكان حنبلياً ثم صار حنفياً. ولد في الخامس والعشرين من شعبان سنة عشرين وخمسمائة، فقرأ القرآن بالروايات وعمره عشر سنين، وسمع الكثير من الحديث العالي على الشيوخ الثقات، وعنى به وتعلم العربية واللغة واشتهر بذلك، ثم دخل الشام في سنة ثلاث وستين وخمسمائة، ثم سكن مصر واجتمع بالقاضي الفاضل، ثم انتقل إلى دمشق فسكن بدار العجم منها وحظي عند الملوك والوزراء والأمراء، وتردد إليه العلماء والملوك وأبناؤهم، كان الأفضل بن صلاح الدين وهو صاحب دمشق يتردد إليه إلى منزله، وكذلك أخوه المحسن والمعظم ملك دمشق، كان ينزل إليه إلى درب العجم يقرأ عليه في المفصل للزمخشري، وكان المعظم يعطي لمن حفظ المفصل ثلاثين

ديناراً جائزة، وكان يحضر مجلسه بدرب العجم جميع المصدرين بالجامع، كالشيخ علم الدين السخاوي ويحيى بن معطي الوجيه اللغوي، والفخر التركي وغيرهم، وكان القاضي الفاضل يثني عليه. قال السخاوي: كان عنده من العلوم ما لا يوجد عند غيره. ومن العجب أن سيبويه قد شرح عليه كتابه وكان اسمه عمرو، واسمه زيد. فقلت في ذلك:

لَمْ يَكُنْ فِي عَهْدِ عَمْرٍو مِثْلَهُ ... وَكَذَا الكِنْدِيُّ فِي آخِرِ عَصْرِ

فَهُمَا زَيْدٌ وَعَمْرٌو وَإِنَّمَا ... بُنِيَ النَّحْو عَلَى زَيْدٍ وعَمْرِو

قال أبو شامة: وهذا كما قال فيه ابن الدهان المذكور في سنة ثنتين وتسعين وخمسمائة:

يا زَيْدَ زَادَكَ رَبِّي مِنْ مَوَاهِبِهِ ... نِعَماً يُقَصِّرُ عَنْ إدْرَاكِهَا الأَمَلُ

النَّحْوُ أَنْتَ أَحَقُّ العَالَمِينَ بِهِ ... أَلَيْسَ بِاسْمِكَ فِيهِ يُضْرَبُ المَثَلُ

وقد مدحه السخاوي بقصيدة حسنة، وأثنى عليه أبو المظفر سبط ابن الجوزي، فقال قرأت عليه وكان حسن العقيدة ظريف الخلق لا يسأم الإنسان من مجالسته، وله النوادر العجيبة والخط المليح والشعر الرائق، وله ديوان شعر كبير، وكانت وفاته يوم الاثنين سادس شوال من هذه السنة وله ثلاث وتسعون سنة وشهر وستة عشر يوماً، وصليّ عليه بجامع دمشق ثم حمل إلى الصالحية فدفن بها رحمه الله، وكان قد وقف كتبه - وكانت نفيسة - وهي سبعمائة وأحد وستون مجلداً، على معتقه نجيب الدين ياقوت، ثم على ولده من بعد ثم على العلماء في الحديث والفقه واللغة وغير ذلك، وجعلت في خزانة كبيرة في مقصورة ابن سنان الحلبية المجاورة لمشهد علي بن زين العابدين، ثم إن هذه الكتب تفرقت وبيع كثير منها ولم يبق بالخزانة المشار إليها إلا القليل الرث، وهي بمقصورة الحلبية، وكانت قديماً يقال لها مقصورة ابن سنان، وقد ترك الشيخ شهاب الدين رحمه الله نعمة وافرة وأموالاً جزيلة، ومماليك متعددة من الترك الحسان، وقد كان رقيق الحاشية حسن الأخلاق يعامل الطلبة معاملة حسنة من القيام والتعظيم، فلما كبر ترك القيام لهم وأنشأ يقول:

تَرَكْتُ قِيامِي لِلصَّدِيقِ يَزُورُنِي ... وَلا ذَنْبَ لِي إلاّ الإطَالَةَ فِي عُمْرِي

فَإنْ بَلَغُوا مِنْ عشرِ تسعينَ نِصْفَهَا ... تَبَيَّنَ فِي تَرْكِ القِيامِ لَهُمْ عُذْرِي

ومما مدح فيه الملك المظفر تقي الدين عمر شاهنشاه ما ذكره ابن الساعي في تاريخه:

وَصَالُ الغَوَانِي كَانَ أَوْرَى وَأَرْجَا[1] ... وَعَصْرُ التَّدَانِي كَانَ أَبْهَى وَأَبْهَجَا

لَيالِيَ كَانَ العُمْرُ أَحْسَنَ شَافِعٍ ... تَوَلَّى وَكَانَ اللَّهْوُ أَوْضَحَ مَنْهَجَا[2]

بَدَا الشَّيْبُ فَانْجَابَتْ طَمَاعِيَةُ الصِّبَا ... وَقَبَّحَ لي ما كانَ يَسْتَحْسِنُ الحِجَا[3]

بُلَهْنِيَةٌ وَلَّتْ كَأَنْ لَمْ أَكُنْ بِهَا ... أُجَلِّي بِهَا وَجْهَ النَّعِيمِ مُسَرَّجَا

(١) أروى: أشد رياً، وأرجا: أكثر روجاناً. (٢) المنهج: الطريق.
(٣) الحجا: العقل.

وَلا اخْتَلْتُ فِي بُرْدِ الشَّبَابِ مُجَرِّراً ذُيُولِيَ إعْجَاباً بِهِ وَتَبَرُّجَا
أعَارَكَ غَيْدَاءَ المَعَاطِفِ طَفْلَةً وَأغْيَدَ مَعْسُولَ المَرَاشِفِ أدْعَجَا[١]
نَقَضْتُ لَيَالِيهَا بِطِيبٍ كَأنَّهُ لِتَقْصِيرِهِ مِنْهُنَّ يَخْتَطِفُ الدُّجَى[٢]
فَإنْ أُمْسِ مَكْرُوبَ الفُؤَادِ حَزِينَهُ أُعَاقِرُ مِنْ دُرِّ الصَّبَابَةِ مَنْهَجَا
وَحِيداً عَلَى أنِّي بِفَضْلِي مُتَيَّمٌ[٣] مَزوعاً بِأعْدَاءِ الفَضَائِلِ مُزْعَجَا
فَيَا رُبَّ دِينِي قَدْ سَرَرْتُ وَسَرَّنِي وَأبْهَجْتُهُ بِالصَّالِحَاتِ وَأبْهَجَا
وَيَا رُبَّ نَادٍ قَدْ شَهِدْتُ ومَاجِدٍ شهدت وَخَصْمٍ رُعْتُهُ فتلجلجا[٤]
صَدَعْتُ بِفَضْلِي نَقْصَهُ فَتَرَكْتُهُ وَفِي قَلْبِهِ شَجْوٌ وَفِي حَلْقِهِ شَجَا
كَأنَّ ثَنَائِي فِي مَسَامِعِ حُسَّدِي وَقَدْ ضَمَّ أبْكَارَ المَعَانِي وَأدْرَجَا
حُسَامٌ تَقِيُّ الدِّينِ فِي كُلِّ مَارِقٍ[٥] يَقُدُّ إلَى الأرْضِ الكَمِيَّ المُدَجَّجَا[٦]

وقال يمدح أخاه معز الدين فروخشاه بن شاهنشاه بن أيوب:

هَلْ أنْتَ رَاحِمُ عَبْرَةٍ وَمُدَلَّهِ وَمُجِيرُ صَبٍّ عِنْدَ مَا مِنْهُ وَهَى[٧]
هَيْهَاتَ يَرْحَمُ قَاتِلٌ مَقْتُولَهُ وَسِنَانُهُ فِي القَلْبِ غَيْرُ مُنَهْنَهِ
مذْ بَلَّ مِنْ ذَاكَ الغَرَامِ فَإنَّنِي مُذْ حَلَّ بِي مَرَضُ الهَوَى لَمْ أنْقَهِ[٨]
إنِّي بُلِيتُ بِحُبِّ أغْيَدَ سَاحِرٍ بِلِحَاظِهِ رَخْصِ البَنَانِ بِزَهْوِهِ
أبْغِي شِفَاءَ تَدَلُّهِي مِن وَالِهٍ وَمَتَى يَرِقُّ مُدَلَّلٌ لِمُدَلَّهِ
كَمْ آهَةٍ لِي فِي هَوَاهُ وَأنَّةٍ لَوْ كَانَ يَنْفَعُنِي عَلَيْهِ تَأوُّهِي
وَمَآرِبٍ فِي وَصْلِهِ لَوْ أنَّهَا تُقْضَى لَكَانَتْ عِنْدَ مَبْسِمِهِ الشَّهِي
يَا مُفْرَداً بِالحُسْنِ إنَّكَ مُنْتَهٍ فِيهِ كَمَا أنَا فِي الصَّبَابَةِ مُنْتَهِي
قَدْ لامَ فِيكَ مَعَاشِرٌ كَيْ أنْتَهِي بِاللَّوْمِ عَنْ حُبِّ الحَيَاةِ وَأنْتَ هِي
أبْكِي لَدَيْهِ فَإنْ أحَسَّ بِلَوْعَةٍ وَتَشَهُّقٍ أزْرَى بِطَرْفٍ مُقَهْقِهِ

(١) الغيداء: الناعمة. والأدعج: من كانت عينه شديدة السواد واسعة.
(٢) الدُّجى: الظلام.
(٣) متيم: عاشق، ولهان.
(٤) رعته: أخفته، أفزعته، وتلجلج: تلعثم وتردد في كلامه فلم يبيِّنه.
(٥) المارق: الخارج.
(٦) الكمي المدجج: البطل الشاك السلاح.
(٧) المدله: الذي تحير فؤاده وذهب لبه من الحب. والصبّ: المحب.
(٨) لم أنقه: لم أشفَ.

يَا مَنْ مَحَاسِنُهُ وَحَالِي عِنْدَهُ حَيْرَانُ بَيْنَ تَفَكُّرٍ وَتَكَفُّهِ
ضِدَّانِ قَدْ جُمِعَا بِلَفْظٍ وَاحِدٍ لِي فِي هَوَاهُ بِمَعْنَيَيْنِ مُوَجَّهِ
أَوَ لَسْتُ رَبَّ فَضَائِلٍ لَوْ حَازَ أَدْ نَاهَا وَمَا أَزْهَى بِهَا غَيْرِي زُهِي

والذي أنشده تاج الدين الكندي في قتل عمارة اليمني حين كان مالأ الكفرة والملحدين على قتل الملك صلاح الدين وأرادوا عودة دولة الفاطميين فظهر على أمره فصلب مع من صلب في سنة تسع وتسعين وخمسمائة.

عِمَارَةُ فِي الإِسْلامِ أَبْدَى خِيَانَةً وَحَالَفَ فِيهَا بِيعَةً وَصَلِيبَا
فَأَمْسَى شَرِيكَ الشِّرْكِ فِي بَغضِ أَحْمَدٍ وَأَصْبَحَ فِي حُبِّ الصَّلِيبِ صَلِيبَا
وَكَانَ طَبِيبَ المُلْتَقَى إنْ عَجَمْتَهُ تَجِدْ مِنْهُ عُوداً فِي النِّفَاقِ صَلِيبَا[1]

وله:

صَحِبْنَا الدَّهْرَ أَيَّاماً حِسَاناً نَعُومُ بِهِنَّ فِي اللَّذَاتِ عَوْمَا
وَكَانَتْ بَعْدَ مَا وَلَّتْ كَأَنِّي لَدَى نُقْصَانِهَا حُلْماً وَنَوْمَا
أَنَاخَ بِيَ المَشِيبُ فَلا بَرَاحٌ وَإنْ أَوْسَعْتُهُ عَتْباً وَلَوْمَا
نَزِيلٌ لا يَزَالُ عَلَى التَّنَائِي يَسُوقُ إلَى الرَّدَى يَوْماً فَيَوْمَا
وَكُنْتُ أَعُدُّ لِي عَاماً فَعَاماً فَصِرْتُ أَعُدُّ لِي يَوْماً فَيَوْمَا

العز محمد ابن الحافظ عبد الغني المقدسي

ولد سنة ست وستين وخمسمائة وأسمعه والده الكثير ورحل بنفسه إلى بغداد وقرأ بها مسند أحمد وكانت له حلقة بجامع دمشق، وكان من أصحاب المعظم، وكان صالحاً ديناً ورعاً حافظاً رحمه الله ورحم أباه.

أبو الفتوح محمد بن علي بن المبارك

الخلاخلي البغدادي، سمع الكثير، وكان يتردد في الرسلية بين الخليفة والملك الأشرف بن العادل وكان عاقلاً ديناً ثقة صدوقاً.

الشريف أبو جعفر

يحيى بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن علي العلوي الحسيني، نقيب الطالبيين بالبصرة بعد أبيه، كان شيخاً أديباً فاضلاً عالماً بفنون كثيرة لا سيما علم الأنساب وأيام العرب وأشعارها، يحفظ كثيراً منها، وكان من جلساء الخليفة الناصر ومن لطيف شعره قوله:

لِيَهْنِكَ سَمْعٌ لا يُلائِمُهُ العَذْلُ وَقَلْبٌ قَرِيحٌ[2] لا يَمَلُّ وَلاَ يَسْلُو

(١) الصليب: القوي.

(٢) القريح: الجريح والعليل.

كَأَنَّ عَلَيَّ الحُبَّ أَضْحَى فَرِيضَةً   فَلَيْسَ لِقَلْبِي غَيْرَهُ أَبَداً شُغْلُ
وَإِنِّي لأَهْوَى الهَجْرَ مَا كَانَ أَصْلُهُ   دَلالاً وَلَوْلا الهَجْرُ مَا عَذُبَ الوَصْلُ
وَأَمَّا إِذَا كَانَ الصُّدُودُ مَلالَةً   فَأَيْسَرُ مَا هَمَّ الحَبِيبُ بِهِ القَتْلُ

أبو علي مزيد بن علي

ابن مزيد المعروف بابن الخشكري الشاعر المشهور، من أهل النعمانية جمع لنفسه ديواناً أورد له ابن الساعي قطعة من شعره فمن ذلك قوله:

سَأَلْتُكِ يَوْمَ النَّوَى نَظْرَةً   فَلَمْ تَسْمَحِي خَفَراً لا سَلَمْ[1]
فَأَعْجَبُ كَيْفَ تَقُولِينَ لاَ   وَوَجْهُكِ قَدْ خُطَّ فِيهِ نَعَمْ
أَمَا النُّونُ يا هٰذِهِ حَاجِبٌ   أَمَا العَيْنُ عَيْنٌ أَمَا المِيمُ فَمْ

أبو الفضل رشوان بن منصور

ابن رشوان الكردي المعروف بالنقف ولد باربل وخدم جندياً وكان أديباً شاعراً خدم مع الملك العادل، ومن شعره قوله:

سَلِي عَنِّي الصَّوَارِمَ وَالرِّمَاحَا   وَخَيْلاً تَسْبِقُ الهُوجَ الرِّيَاحَا
وَأُسْداً جَيْشُهَا سُمْرُ العَوَالِي   إذا مَا الأُسْدُ حَاوَلَتِ الكِفَاحَا
فَإِنِّي ثَابِتٌ عَقْلاً وَلُبّاً   إذا مَا طَائِحٌ فِي الحَرْبِ صَاحَا
وَأُورِدُ مُهْجَتِي لُجَجَ المَنَايَا   إذا مَاجَتْ وَلَمْ أَخْفِ الجِرَاحَا
وَكَمْ لَيْلٍ سَهِرْتُ وَبِتُّ فِيهِ   أُرَاعِي النَّجْمَ أَرْتَقِبُ الصَّبَاحَا
وَكَمْ فِي فَدْفَدٍ فَرَسِي وَنِضْوِي   بِقَائِلَةِ الهَجِيرِ غَدَا وَرَاحَا[2]
لِعَيْنِكِ فِي العَجَاجَةِ مَا أُلاقِي   وَأَثْبُتُ فِي الكَرِيهَةِ لا بَرَاحَا[3]

محمد بن يحيى

ابن هبة الله أبو نصر النحاس الواسطي كتب إلى السبط من شعره:

وَقَائِلَةٍ لَمَّا عَمَرْتُ وَصَارَ لِي   ثَمَانُونَ عَاماً عِشْ كَذَا وَابْقَ وَاسْلَمِ
وَدُمْ وَانْتَشِقْ رُوحَ الحَيَاةِ فَإِنَّهُ   لأَطْيَبُ مِنْ بَيْتٍ بِصَعْدَةَ مُظْلِمِ
فَقُلْتُ لَهَا عُذْرِي لَدَيْكِ مُمَهَّدٌ   بِبَيْتِ زُهَيْرٍ فَاعْلَمِي وَتَعَلَّمِي
سَئِمْتُ تَكَالِيفَ الحَيَاةِ وَمَنْ يَعِشْ   ثَمَانِينَ حَوْلاً لا مَحَالَةَ يَسْأَمِ

(١) النوى: الفراق، البعد. وخفراً: خجلاً. (٢) الفدفد: الفلاة. والنضو: الهزيل.
(٣) العجاجة: الغبار. والمقصود الغبار المتطاير في سماء المعركة. والكريهة: الحرب.

ثم دخلت سنة أربع عشرة وستمائة [من الهجرة النبوية](١)

في ثالث المحرم منها كمل تبليط داخل الجامع الأموي وجاء المعتمد مبارز الدين إبراهيم المتولي بدمشق، فوضع آخر بلاطة منه بيده عند باب الزيارة فرحاً بذلك. وفيها زادت دجلة ببغداد زيادة عظيمة وارتفع الماء حتى ساوى القبور إلا مقدار أصبعين، ثم طفح الماء من فوقه وأيقن الناس بالهلكة واستمر ذلك سبع ليال وثمانية أيام حسوماً، ثم منَّ الله فتناقص الماء وذهبت الزيادة، وقد بقيت بغداد تلولاً وتهدمت أكثر البنايات. وفيها درس بالنظامية محمد بن يحيى بن فضلان وحضر عنده القضاة والأعيان. وفيها سار الصدر بن حمويه رسولاً من العادل إلى الخليفة. وفيها قدم ولده الفخر بن الكامل إلى المعظم يخطب منه ابنته على ابنه أقسيس صاحب اليمن، فعقد العقد بدمشق على صداق هائل. وفيها قدم السلطان علاء الدين خوارزم شاه محمد بن تكش من همدان قاصداً إلى بغداد في أربعمائة ألف مقاتل. وقيل في ستمائة ألف، فاستعد له الخليفة واستخدم الجيوش وأرسل إلى الخليفة يطلب منه أن يكون بين يديه على قاعدة من تقدمه من الملوك السلاجقة، وأن يخطب له ببغداد، فلم يجبه الخليفة إلى ذلك، وأرسل إليه الشيخ شهاب الدين السهروردي، فلما وصل شاهد عنده من العظمة وكثرة الملوك بين يديه وهو جالس في حركاة من ذهب على سرير ساج، وعليه قباء بخارى ما يساوي خمسة دراهم، وعلى رأسه جلدة ما تساوي درهماً، فسلم عليه فلم يرد عليه من الكبر ولم يأذن له في الجلوس، فقام إلى جانب السرير وأخذ في خطبة هائلة فذكر فيها فضل بني العباس وشرفهم، وأورد حديثاً في النهي عن أذاهم والترجمان يعيد على الملك، فقال الملك أما ما ذكرت من فضل الخليفة فإنه ليس كذلك، ولكني إذا قدمت بغداد أقمت من يكون بهذه الصفة، وأما ما ذكرت من النهي عن أذاهم فإني لم أوذ منهم أحداً ولكن الخليفة في سجونه منهم طائفة كثيرة يتناسلون في السجون، فهو الذي آذى بني العباس، ثم تركه ولم يرد عليه جواباً بعد ذلك، وانصرف السهروردي راجعاً، وأرسل الله تعالى على الملك وجنده ثلجاً عظيماً ثلاثة أيام حتى طم الحزاكي والخيام، ووصل إلى قريب رؤوس الأعلام، وتقطعت أيدي رجال وأرجلهم، وعمهم من البلاء العظيم ما لا يحد ولا يوصف، فردهم الله خائبين والحمد لله رب العالمين.

وفيها انقضت الهدنة التي كانت بين العادل والفرنج واتفق قدوم العادل من مصر فاجتمع هو وابنه المعظم ببيسان، فركبت الفرنج من عكار وصحبتهم ملوك السواحل كلهم وساقوا كلهم قاصدين معافصة العادل، فلما أحس بهم فر منهم لكثرة جيوشهم وقلة من معه، فقال ابنه المعظم إلى أين يا أبة؟ فشتمه بالعجمية وقال له أقطعت الشام مماليك وتركت أبناء الناس، ثم توجه العادل إلى دمشق وكتب إلى واليها المعتمد ليحصنها من الفرنج وينقل إليها من الغلات من داريا إلى القلعة، ويرسل الماء على أراضي داريا وقصر

(١) سقط في ط.

حجاج والشاغور، ففزع الناس من ذلك وابتهلوا إلى الله بالدعاء وكثر الضجيج بالجامع، وأقبل السلطان فنزل مرج الصفر وأرسل إلى ملوك الشرق ليقدموا لقتال الفرنج، فكان أول من قدم صاحب حمص أسد الدين شيركوه، فتلقاه الناس فدخل من باب الفرج وجاء فسلم على ست الشام بدارها عند المارستان، ثم عاد إلى داره، ولما قدم أسد الدين سُرِّي عن الناس، فلما أصبح توجه نحو العادل إلى مرج الصفر. وأما الفرنج فإنهم قدموا بيسان فنبهوا ما كان بها من الغلات والدواب، وقتلوا وأسروا شيئاً كثيراً، ثم عاثوا في الأرض فساداً يقتلون وينهبون ويأسرون ما بين بيسان إلى بانياس، وخرجوا إلى أراضي الجولان إلى نوى وغيرها، وسار الملك المعظم فنزل على عقبة اللبن بين القدس ونابلس خوفاً على القدس الشريف منهم، فإنه هو الأهم الأكبر، ثم حاصر الفرنج حصن الطور حصاراً هائلاً ومانع عنه الذين به من الأبطال ممانعة هائلة، ثم كر الفرنج راجعين إلى عكا ومعهم الأسارى من المسلمين، وجاء الملك المعظم إلى الطور فخلع على الأمراء الذين به وطيب نفوسهم، ثم اتفق هو وأبوه على هدمه كما سيأتي.

وفيها توفي من الأعيان.

الشيخ الإمام العلامة الشيخ العماد

أخو الحافظ عبد الغني، أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الواحد بن علي بن سرور الشيخ عماد الدين المقدسي، أصغر من أخيه الحافظ عبد الغني بسنتين، وقدم مع الجماعة إلى دمشق سنة إحدى وخمسين وخمسمائة، ودخل بغداد مرتين وسمع الحديث وكان عابداً زاهداً ورعاً كثير الصلاة كثير الصيام، يصوم يوماً ويفطر يوماً، وكان فقيهاً مفتياً، وله كتاب الفروع وصنف أحكاماً ولم يتمه، وكان يؤم بمحراب الحنابلة مع الشيخ الموفق، وإنما كانوا يصلون بغير محراب، ثم وضع المحراب في سنة سبع عشرة وستمائة، وكان أيضاً يؤم بالناس لقضاء الفوائت، وهو أول من فعل ذلك. صلى المغرب ذات ليلة وكان صائماً ثم رجع إلى بيته بدمشق فأفطر ثم مات فجأة، فصلي عليه بالجامع الأموي، صلى عليه الشيخ الموفق عند مصلاهم، ثم صعدوا به إلى السفح، وكان يوم موته يوماً مشهوداً من كثرة الناس. قال سبط ابن الجوزي: كان الخلق من الكهف إلى مغارة الدم إلى المنطور لو بذر السمسم ما وقع إلا على رؤوس الناس، قال فلما رجعت تلك الليلة فكرت فيه وفي جنازته وكثرة من شهدها وقلت: هذا كان رجلاً صالحاً ولعله أن يكون نظر إلى ربه حين وضع في قبره، ومر بذهني أبيات الثوري التي أنشدها بعد موته في المنام:

نَظَرْتُ إلَى رَبِّي كِفاحاً فَقَالَ لِي ... هَنِيئاً رِضَائِي عَنْكَ يا بْنَ سَعِيدِ
لَقَدْ كُنْتَ قَوَّاماً إذَا أَظْلَمَ الدُّجَى ... بِعَبْرَةِ مُشْتَاقٍ وَقَلْبِ عَمِيدِ
فَدُونَكَ فَاخْتَرْ أَيَّ قَصْرٍ أَرَدْتَهُ ... وَزُرْنِي فَإِنِّي عَنْكَ غَيْرُ بَعِيدِ

ثم قلت أرجو أن يكون العماد رأى ربه كما رآه سفيان الثوري، فنمت فرأيت الشيخ العماد

في المنام وعليه حلة خضراء وعمامة خضراء، وهو في مكان متسع كأنه روضة، وهو يرقى في درج متسعة، فقلت يا عماد الدين كيف بت فإني والله مفكر فيك؟ فنظر إليّ وتبسم على عادته التي كنت أعرفه فيها في الدنيا ثم قال:

رَأَيتُ إلٰهِي حِينَ أُنزِلتُ حُفرَتِي ... وَفَارَقتُ أَصحَابِي وَأَهلِي وَجِيرَتِي
وَقَالَ جُزِيتَ الخَيرَ عَنِّي فَإِنَّنِي ... رَضِيتُ فَهَا عَفوِي لَدَيكَ وَرَحمَتِي
دَأَبتَ زَمَاناً تَأمُلُ العَفوَ وَالرِّضَا ... فَوُقِّيتَ نِيرَانِي وَلُقِّيتُ جَنَّتِي

قال فانتبهت وأنا مذعور وكتبت الأبيات والله أعلم.

القاضي جمال الدين بن الحرستاني

عبد الصمد بن محمد بن أبي الفضل أبو القاسم الأنصاري ابن الحرستاني قاضي القضاة بدمشق ولد سنة عشرين وخمسمائة، وكان أبوه من أهل حرستان، فنزل داخل باب توما وأم بمسجد الزينبي ونشأ ولده هذا نشأة حسنة سمع الحديث الكثير وشارك الحافظ ابن عساكر في كثير من شيوخه، وكان يجلس للإسماع بمقصورة الخضر، وعندها كان يصلي دائماً لا تفوته الجماعة بالجامع، وكان منزله بالحورية ودرس بالمجاهدية وعمر دهراً طويلاً على هذا القدم الصالح والله أعلم. وناب في الحكم عن ابن أبي عصورن، ثم ترك ذلك ولزم بيته وصلاته بالجامع، ثم عزل العادل القاضي ابن الزكي وألزم هذا بالقضاء وله ثنتان وتسعون سنة وأعطاه تدريس العزيزية. وأخذ التقوية أيضاً من ابن الزكي وولاّها فخر الدين بن عساكر. قال ابن عبد السلام ما رأيت أحداً أفقه من ابن الحرستاني، كان يحفظ الوسيط للغزالي. وذكر غير واحد أنه كان من أعدل القضاة وأقومهم بالحق، لا تأخذه في الله لومة لائم، وكان ابنه عماد الدين يخطب بجامع دمشق، وولى مشيخة الأشرفية ينوب عنه، وكان القاضي جمال الدين يجلس للحكم بمدرسته المجاهدية، وأرسل إليه طراحة ومسندة لأجل أنه شيخ كبير، وكان ابنه يجلس بين يديه، فإذا قام أبوه جلس في مكانه، ثم إنه عزل ابنه عن نيابته لشيء بلغه عنه، واستناب شمس الدين بن الشيرازي، وكان يجلس تجاهه في شرقي الأيوان، واستناب معه شمس الدين بن سنا الدولة، واستناب شرف الدين بن الموصلي الحنفي، فكان يجلس في محراب المدرسة، واستمر حاكماً سنتين وأربعة أشهر، ثم كانت وفاته يوم السبت رابع ذي الحجة وله من العمر خمس وتسعون سنة، وصلّى عليه بجامع دمشق ثم دفن بسفح قاسيون.

الأمير بدر الدين محمد بن أبي القاسم

الهكاري باني المدرسة التي بالقدس، كان من خيار الأمراء، وكان يتمنى الشهادة دائماً فقتله الفرنج بحصن الطور، ونقل إلى القدس الشريف ودفن بتربة عاملها وهو يزار إلى الآن رحمه الله.

الشجاع محمود المعروف بابن الدماع

كان من أصدقاء العادل يضحكه، فحصل أموالاً جزيلة منهم، كانت داره داخل باب الفرج

فجعلتها زوجته عائشة مدرسة للشافعية والحنفية، ووقفت عليها أوقافاً دارة.

الشيخة الصالحة العابدة الزاهدة

شيخة العالمات بدمشق، تلقب بدهن اللوز، بنت نورنجان، وهي آخر بناته وفاة وجعلت أموالها وقفاً على تربة أختها بنت العصبة المشهورة.

ثم دخلت سنة خمس عشرة وستمائة

استهلت والعادل [نازل][1] بمرج الصفر لمحاصرة[2] الفرنج وأمر ولده المعظم بتخريب حصن الطور فأخربه ونقل ما فيه من آلات الحرب وغيرها إلى البلدان خوفاً من الفرنج. وفي ربيع الأول نزلت الفرنج على دمياط وأخذوا برج السلسلة في جمادى الأولى، وكان حصناً منيعاً، وهو قفل بلاد مصر. وفيها التقى المعظم والفرنج على القيمون فكسرهم وقتل منهم خلقاً وأسر من الداوية مائة فأدخلهم إلى القدس منكسة أعلامهم. وفيها جرت خطوب كثيرة ببلد الموصل بسبب موت ملوكها أولاد قرا أرسلان واحداً بعد واحد، وتغلب مملوك أبيهم بدر الدين لؤلؤ على الأمور والله أعلم. وفيها أقبل ملك الروم كيكاريس بن سنجر يريد أخذ مملكة حلب، وساعده على ذلك الأفضل بن صلاح الدين صاحب سميساط، فصده عن ذلك الملك الأشرف موسى بن العادل وقهر ملك الروم وكسر جيشه ورده خائباً. وفيها تملك الأشرف مدينة سنجار مضافاً إلى ما بيده من الممالك.

وفيها توفي السلطان الملك العادل أبو بكر بن أيوب، فأخذت الفرنج دمياط ثم ركبوا وقصدوا بلاد مصر من ثغر دمياط فحاصروه مدة أربعة شهور، والملك الكامل يقاتلهم ويمانعم، فتملكوا برج السلسلة وهو كالقفل على ديار مصر، وصفته في وسط جزيرة في النيل عند انتهائه إلى البحر، ومنه إلى دمياط، وهو على شاطىء البحر وحافة سلسلة منه إلى الجانب الآخر، وعليه الجسر وسلسلة أخرى لتمنع دخول المراكب من البحر إلى النيل، فلا يمكن الدخول، فلما ملكت الفرنج هذا البرج شق ذلك على المسلمين، وحين وصل الخبر إلى الملك العادل وهو بمرج الصفر تأوه لذلك تأوهاً شديداً ودق بيده على صدره أسفاً وحزناً على المسلمين وبلادها، ومرض من ساعته مرض الموت لأمر يريده الله عز وجل، فلما كان يوم الجمعة سابع جمادى الآخرة توفي بقرية غالقين، فجاءه ولده المعظم مسرعاً فجمع حواصله وأرسله في محفة ومعه خادم بصفة أن السلطان مريض، وكلما جاء أحد من الأمراء ليسلم عليه بلغهم الطواشي عنه، أي أنه ضعيف، عن الرد عليهم، فلما انتهى به إلى القلعة دفن بها مدة ثم حول إلى تربته بالعادلية الكبيرة، وقد كان الملك سيف الدين أبو بكر بن أيوب بن شادي من خيار الملوك وأجودهم سيرة، ديناً عاقلاً صبوراً وقوراً، أبطل المحرمات والخمور والمعازف من مملكته كلها وقد كانت ممتدة من أقصى بلاد مصر واليمن والشام والجزيرة إلى همدان كلها، أخذها بعد أخيه

(١) سقط في ط.

(٢) في ط: لمناجزة.

صلاح الدين سوى حلب فإنه أقرها بيد ابن أخيه الظاهر غازي لأنه زوج ابنته صفية الست خاتون. وكان العادل حليماً صفوحاً صبوراً على الأذى كثير الجهاد بنفسه ومع أخيه حضر معه مواقفه كلها أو أكثرها في مقاتلة الفرنج، وكانت له في ذلك اليد البيضاء، وكان ماسك اليد وقد أنفق في عام الغلاء بمصر أموالاً كثيرة على الفقراء وتصدق على أهل الحاجة من أبناء الناس وغيرهم شيئاً كثيراً جداً، ثم إنه كفن في العام الثاني من بعد عام الغلاء في الفناء ثلاثمائة ألف إنسان من الغرباء والفقراء، وكان كثير الصدقة في أيام مرضه حتى كان يخلع جميع ما عليه ويتصدقِ به وبمركوبه، وكان كثير الأكل ممتعاً بصحة وعافية مع كثرة صيامه، كان يأكل في اليوم الواحد أكلات جيدة، ثم بعد هذا يأكل عند النوم رطلاً بالدمشقي من الحلوى السكرية اليابسة، وكان يعتريه مرض في أنفه في زمن الورد وكان لا يقدر على الإقامة بدمشق حتى يفرغ زمن الورد، فكان يضرب له الوطاق بمرج الصفر ثم يدخل البلد بعد ذلك. توفي عن خمس وسبعين سنة، وكان له من الأولاد جماعة: محمد الكامل صاحب مصر، وعيسى المعظم صاحب دمشق، وموسى الأشرف صاحب الجزيرة، وخلاط وحران وغير ذلك، والأوحد أيوب مات قبله، والفائز إبراهيم، والمظفر غازي صاحب الرها، والعزيز عثمان والأمجد حسن وهما شقيقا المعظم، والمغيث محمود، والحافظ أرسلان صاحب جعبر، والصالح إسماعيل، والقاهر إسحاق، ومجير الدين يعقوب، وقطب الدين أحمد، وخليل وكان أصغرهم، وتقي الدين عباس وكان آخرهم وفاة، بقي إلى سنة ستين وستمائة، وكان له بنات أشهرهن الست صفية خاتون زوجة الظاهر غازي صاحب حلب وأم الملك العزيز والد الناصر يوسف الذي ملك دمشق، وإليه تنسب الناصريتان إحداهما بدمشق والأخرى بالجبل وهو الذي قتله هولاكو كما سيأتي [بيانه][(١)].

صفة أخذ الفرنج دمياط

لما انتهى الخبر بموت العادل ووصل إلى ابنه الكامل وهو بثغر دمياط مرابط الفرنج، أضعف ذلك أعضاء المسلمين وفشلوا[(٢)]، ثم بلغ الكامل خبر آخر أن الأمير ابن المشطوب وكان أكبر أمير بمصر، قد أراد أن يبايع للفائز عوضاً عن الكامل، فساق وحده جريدة من دمياط مصر ليستدرك هذا الخطب الجسيم، فلما فقده الجيش من بينهم انحل نظامهم واعتقدوا أنه قد حدث أمر أكبر من موت العادل، فركبوا وراءه فدخلت الفرنج بآمان إلى الديار المصرية، واستحوذوا على معسكر الكامل وأثقاله، فوقع خبط عظيم جداً، وذلك تقدير العزيز العليم، فلما دخل الكامل مصر لم يقع مما ظنه شيء، وإنما هي خديعة من الفرنج، وهرب منه ابن المشطوب إلى الشام، ثم ركب من فوره في الجيش إلى الفرنج فإذا الأمر قد تزايد، وتمكنوا من البلدان وقتلوا خلقاً وغنموا كثيراً، وعاثت الأعراب التي هنالك على أموال الناس ببلاد دمياط،

(١) سقط في ط.
(٢) في ط: وضعفوا.

فكانوا أضر على المسلمين من الفرنج، فنزل الكامل تجاه الفرنج يمانعهم عن دخولهم إلى القاهرة ومصر بعد أن كان يمانعهم عن دخول الثغر، وكتب إلى إخوانه يستحثهم ويستنجدهم ويقول الوحا الوحا العجل العجل، أدركوا المسلمين قبل تملك الفرنج جميع الديار المصريّ. فأقبلت العساكر الإسلامية إليه من كل مكان، وكان أول من قدم عليه أخوه الأشرف موسراً صاحب الجزيرة بيض الله وجهه، ثم المعظم وكان من أمرهم مع الفرنج ما سنذكره بعد هذه السنة.

وفيها ولي حسبة بغداد الصاحب محيي الدين يوسف بن أبي الفرج ابن الجوزي، وهو مع ذلك يعمل ميعاد الوعظ على قاعدة أبيه، وشكر في مباشرته للحسبة. وفيها فوض الملك المعظم النظر في التربة البدرية تجاه مدرسة الشبلية عند الجسر الذي على ثور، ويقال له جسر كحيل، وهي منسوبة إلى [بدر الدين][١] حسن بن الداية، كان هو وإخوته من أكابر أمراء نور الدين محمود بن زنكي، وقد جعلت في حدود الأربعين وستمائة جامعاً يخطب فيه يوم الجمعة. وفيها أرسل السلطان علاء الدين محمد بن تكش إلى الملك العادل وهو مخيم بمرج الصفر رسولاً، فرد إليه مع الرسول خطيب دمشق جمال الدين محمد بن عبد الملك الدولعي، واستنيب عنه في الخطابة الشيخ الموفق عمر بن يوسف خطيب بيت الأبار، فأقام بالعزيزية يباشر عنه، حتى قدم وقد مات العادل.

وفيها توفي الملك القاهر صاحب الموصل. فأقيم ابنه الصغير مكانه. ثم قتل وتشتت شمل البيت الأتابكي، وتغلب على الأمور بدر الدين لؤلؤ غلام أبيه. وفيها كان عود الوزير صفي الدين عبد الله بن علي بن شكر من بلاد الشرق بعد موت العادل، فعمل فيه الشيخ علم الدين [السخاوي][٢] مقامة بالغ في مدحه فيها، وقد ذكروا أنه كان متواضعاً يحب الفقراء والفقهاء، ويسلم على الناس إذا اجتاز بهم وهو راكب في كتب إلى أخيه المعظم فيه، فاحتاط على أمواله وحواصله، وعزل ابنه عن النظر من الدواوين وقد كان ينوب عن أبيه في مدة غيبته. وفي رجب منها أعاد المعظم ضمان القيان والخمور والمغنيات وغير ذلك من الفواحش والمنكرات التي كان أبوه قد أبطلها، بحيث إنه لم يكن أحد يتجاسر أن ينقل ملء كف خمر إلى دمشق إلا بالحيلة الخفية، فجزى الله العادل خيراً، ولا جزى المعظم خيراً على ما فعل، واعتذر المعظم في ذلك بأنه إنما صنع هذا المنكر لقلة الأموال على الجند، واحتياجهم إلى النفقات في قتال الفرنج، وهذا من جهله وقلة دينه وعدم معرفته بالأمور، فإن هذا الصنيع يديل عليهم الأعداء وينصرهم عليهم، ويتمكن منهم الداء ويثبط الجند عن القتال، فيولون بسببه الأدبار، وهذا مما يدمر ويخرب الديار ويديل الدول، كما في الأثر «إذا عصاني من يعرفني سلطت عليه من لا يعرفني». وهذا ظاهر لا يخفى على فطن.

وممن توفي فيها من الأعيان: [السلطان العادل أبو بكر بن أيوب كما تقدم][٣]

(١) سقط في ط.
(٢) سقط في ط.
(٣) ما بين معقوفين سقط في ط.

القاضي شرف الدين

أبو طالب عبد الله بن زين القضاة عبد الرحمن بن سلطان بن يحيى اللخمي الضرير البغدادي، كان ينسب إلى علم الأوائل، ولكنه كان يتستر بمذهب الظاهرية، قال فيه ابن الساعي: الداودي المذهب، المعري أدباً واعتقاداً، ومن شعره:

إِلَى الرَّحْمٰنِ أَشْكُو مَا أُلاَقِي ... غَدَاةَ غَدَوْا عَلَى هُوجِ النِّيَاقِ
سَأَلْتُكُمْ بِمَنْ زَمَّ المَطَايَا ... أَمَرٌّ بِكُمْ أَمَرُّ مِنَ الفِرَاقِ؟
وَهَلْ ذلٌّ أَشَدُّ مِنَ التَّنَائِي ... وَهَلْ عَيْشٌ أَلَذُّ مِنَ التَّلاقِي؟

قاضي قضاة بغداد عماد الدين أبو القاسم

عبد الله بن الحسين بن الدامغاني الحنفي، سمع الحديث وتفقه على مذهب أبي حنيفة، وولي القضاء ببغداد مرتين نحواً من أربع عشرة سنة، وكان مشكور السيرة عارفاً بالحساب والفرائض وقسمة التركات.

أبو اليمن نجاح بن عبد الله الحبشي

السوداني نجم الدين مولى الخليفة الناصر، كان يسمى سلمان دار الخلافة، وكان لا يفارق الخليفة، فلما مات وجد عليه الخليفة وجداً كثيراً، وكان يوم جنازته يوماً مشهوداً، وكان بين يدي نعشه مائة بقرة وألف شاة وأحمل من التمر والخبز والماورد، وقد صلى عليه الخليفة بنفسه تحت التاج، وتصدق عنه بعشرة آلاف دينار على المشاهد، ومثلها على المجاورين بالحرمين، وأعتق مماليكه ووقف عنه خمسمائة مجلد.

أبو المظفر محمد بن علوان

ابن مهاجر بن علي بن مهاجر الموصلي، تفقه بالنظامية وسمع الحديث، ثم عاد إلى الموصل فساد أهل زمانه بها، وتقدم في الفتوى والتدريس بمدرسة بدر الدين لؤلؤ وغيرها، وكان صالحاً ديناً.

أبو الطيب رزق الله بن يحيى

ابن رزق الله بن يحيى بن خليفة بن سليمان بن رزق الله بن غانم بن غنام التأخدري المحدث الجوال الرحال الثقة الحافظ الأديب الشاعر، أبو العباس أحمد بن برتكشُ بن عبد الله العمادي، كان من أمراء سنجار، وكان أبوه من موالي الملك عماد الدين زنكي صاحبها، وكان أحمد هذا أديباً شاعراً ذا مال جزيل، وأملاك كثيرة، وقد احتاط على أمواله قطب الدين محمد بن عماد الدين زنكي وأودعه سجناً فنسيَ فيه ومات كمداً، ومن شعره:

تَقُولُ وَقَدْ وَدَّعْتُهَا وَدُمُوعُهَا ... عَلَى خَدِّهَا مِنْ خَشْيَةِ البَيْنِ تَلْتَقِي
مَضَى أَكْثَرُ العُمْرِ الَّذِي كَانَ نَافِعاً ... رُوَيْدَكَ فَاعْمَلْ صَالِحاً فِي الَّذِي بَقِي

ثم دخلت سنة ست عشرة وستمائة

فيها أمر الشيخ محيي الدين بن الجوزي محتسب بغداد بإزالة المنكر وكسر الملاهي عكس ما أمر به المعظم، وكان أمره في ذلك في أول هذه السنة ولله الحمد والمنة.

ظهور جنكيزخان وعبور التتار نهر جيحون

وفيها عبرت التتار نهر جيحون صحبة ملكهم جنكزخان من بلادهم، وكانوا يسكنون جبال طمغاج من أرض الصين ولغتهم مخالفة للغة سائر التتار، وهم من أشجعهم وأصبرهم على القتال، وسبب دخولهم نهر جيحون أن جنكزخان بعث تجاراً له ومعهم أموال كثيرة إلى بلاد خوارزم شاه يبتضعون له ثياباً للكسوة، فكتب نائبها إلى السلطان خوارزم شاه يذكر له ما معهم من كثرة الأموال، فأرسل إليه بأن يقتلهم ويأخذ ما معهم، ففعل ذلك، فلما بلغ جنكزخان خبرهم أرسل يتهدد خوارزم شاه، ولم يكن ما فعله خوارزم شاه فعلاً جيداً، فلما تهدده أشار من أشار على خوارزم شاه بالمسير إليهم، فسار إليهم وهم في شغل شاغل بقتال كشلي خان، فنهب خوارزم شاه أموالهم وسبى ذراريهم وأطفالهم، فأقبلوا إليه محروبين فاقتتلوا معه أربعة أيام قتالاً لم يسمع بمثله، أولئك يقاتلون عن حريمهم والمسلمون عن أنفسهم، يعلمون أنهم متى ولّوا استأصلوهم، فقتل من الفريقين خلق كثير، حتى أن الخيول كانت تزلق في الدماء، وكان جملة من قتل من المسلمين نحواً من عشرين ألفا، ومن التتار أضعاف ذلك، ثم تحاجز الفريقان وولّى كل منهم إلى بلاده ولجأ خوارزم شاه وأصحابه إلى بخارى وسمرقند فحصّنها وبالغ في كثرة من ترك فيها من المقاتلة، ورجع خوارزم شاه إلى بلاده ليجهز الجيوش الكثيرة، فقصدت التتار بخارى وبها عشرون ألف مقاتل فحاصرها جنكزخان ثلاثة أيام، فطلب منه أهلها الأمان فأمنهم ودخلها فأحسن السيرة فيهم مكراً وخديعة، وامتنعت عليه القلعة فحاصرها واستعمل أهل البلد في طم خندقها وكانت التتار يأتون بالمنابر والربعات فيطرحونها في الخندق يطمونه بها ففتحوها قسراً في عشرة أيام، فقتل من كان بها. ثم عاد إلى البلد فاصطفى أموال تجارها وأحلها لجنده فقتلوا من أهلها خلقاً لا يعلمهم إلا الله عز وجل، وأسروا الذرية والنساء، وفعلوا معهن الفواحش بحضرة أهليهن، فمن الناس من قاتل دون حريمه حتى قتل، ومنهم من أسر فعذب بأنواع العذاب، وكثر البكاء والضجيج بالبلد من النساء والأطفال والرجال، ثم ألقت التتار في دور بخارى ومدارسها ومساجدها فاحترقت حتى صارت بلاقع خاوية على عروشها، ثم كروا راجعين عنها قاصدين سمرقند، وكان من أمرهم ما سنذكره في السنة الآتية.

وفي مستهل هذه السنة خرب سور بيت المقدس عمّره الله بذكره، أمر بذلك المعظم خوفاً من استيلاء الفرنج عليه بعد مشورة من أشار بذلك، فإن الفرنج إذا تمكنوا من ذلك جعلوه وسيلة إلى أخذ الشام جميعه، فشرع في تخريب السور في أول يوم المحرم فهرب منه أهله خوفاً من الفرنج أن يهجموا عليهم ليلاً أو نهاراً، وتركوا أموالهم وأثاثهم وتمزقوا في البلاد كل ممزق،

حتى قيل إنه بيع القنطار الزيت بعشرة دراهم والرطل النحاس بنصف درهم. وضج الناس وابتهلوا إلى الله عز وجل عند الصخرة وفي الأقصى، وهي أيضاً فعلة شنعاء من المعظم، مع ما أظهر من الفواحش في العام الماضي، فقال بعضهم يهجو المعظم بذلك.

فِـي رَجَـبٍ حَـلَّـلَ الـحُـمَـيَّـا وَأَخْـرَبَ الـقُـدْسَ فـي الـمُـحَـرَّمِ

وفيها استحوذت الفرنج على مدينة دمياط ودخلوها بالأمان فغدروا بأهلها وقتلوا رجالها وسبوا نساءها وأطفالها، وفجروا بالنساء وبعثوا بمنبر الجامع، والربعات ورؤوس القتلى إلى الجزائر، وجعلوا الجامع كنيسة. وفيها غضب المعظم على القاضي زكي الدين بن الزكي، وسببه أن عمته ست الشام بنت أيوب مرضت في دارها التي جعلتها بعدها مدرسة فأرسلت إلى القاضي لتوصي إليه، فذهب إليها بشهود معه فكتب الوصية كما قالت، فقال المعظم يذهب إلى عمتي بدون إذني، ويسمع هو والشهود كلامها؟ واتفق أن القاضي طلب من جابي العزيزية حسابها وضربه بين يديه بالمقارع، وكان المعظم يبغض هذا القاضي من أيام أبيه، فعند ذلك أرسل المعظم إلى القاضي ببقجة فيها قباء وكلوتة، القباء أبيض والكلوتة صفراء. وقيل بل كانا حمراوين مدرنين، وحلف الرسول عن السلطان ليلبسنهما ويحكم بين الخصوم فيهما. وكان من لطف الله أن جاءته الرسالة بهذا وهو في دهليز داره التي بباب البريد، وهو منتصب للحكم، فلم يستطع إلا أن يلبسهما وحكم فيهما، ثم دخل داره واستقبل مرض موته، وكانت وفاته في صفر من السنة الآتية بعدها، وكان الشرف بن عنين الزرعي الشاعر قد أظهر النسك والتعبد، ويقال: إنه اعتكف بالجامع أيضاً فأرسل إليه المعظم بخمر ونرد ليشتغل بهما. فكتب إليه ابن عنين:

يـا أَيُّـهَـا الـمَـلِـكُ الـمُـعَـظَّـمُ سُـنَّـةً أَحْـدَثْـتَـهَـا تَـبْـقَـى عَـلَـى الآبَـادِ
تَجْرِي المُلُوكُ عَلَى طَرِيقِكَ بَعْدَهَا خَـلْـعَ الـقُـضَـاةِ وَتُـحْـفَـةَ الـزُّهَّـادِ

وهذا من أقبح ما يكون أيضاً، وقد كان نواب ابن الزكي أربعة: شمس الدين الشيرازي إمام مشهد علي، كان يحكم بالمشهد بالشباك، وربما برز إلى طرف الرواق تجاه البلاطة السوداء. وشمس الدين ابن سني الدولة، كان يحكم في الشباك الذي في الكلاسة تجاه تربة صلاح الدين عند باب الغزالية، وجمال الدين المصري، وكيل بيت المال كان يحكم في الشباك الكمالي بمشهد عثمان، وشرف الدين الموصلي الحنفي كان يحكم بالمدرسة الطرخانية يجبرون والله تعالى أعلم.

وممن توفي فيها من الأعيان:

ست الشام

واقفة المدرستين البرانية والجوانية الست الجليلة المصونة خاتون ست الشام بنت أيوب بن شادي، أخت الملوك وعمة أولادهم، وأم الملوك، كان لها من الملوك المحارم خمسة وثلاثون ملكاً، منهم شقيقها الملك المعظم توران شاه بن أيوب صاحب اليمن، وهو مدفون عندها في القبر القبلي من الثلاثة، وفي الأوسط منها زوجها وابن عمها ناصر الدين

محمد بن أسد الدين شيركوه بن شادي صاحب حمص، وكانت قد تزوجته بعد أبي ابنها حسام الدين عمر بن لاجين، وهي وابنها حسام الدين عمر في القبر الثالث، وهو الذي يلي مكان الدرس، ويقال للتربة والمدرسة الحسامية نسبة إلى ابنها هذا حسام الدين عمر بن لاجين، وكان من أكابر العلماء عند خاله صلاح الدين، وكانت ست الشام من أكثر النساء صدقة وإحساناً إلى الفقراء والمحاويج، وكانت تعمل في كل سنة في دارها بألوف من الذهب أشربة وأدوية وعقاقير وغير ذلك وتفرقه على الناس، وكانت وفاتها يوم الجمعة آخر النهار السادس عشر من ذي القعدة من هذه السنة في دارها التي جعلتها مدرسة، وهي عند المارستان وهي الشامية الجوانية، ونقلت منها إلى تربتها بالشامية البرانية، وكانت جنازتها حافلة رحمها الله.

أبو البقاء صاحب الإعراب واللباب

عبد الله بن الحسين بن عبد الله، الشيخ أبو البقاء العكبري الضرير النحوي الحنبلي صاحب إعراب القرآن العزيز وكتاب اللباب في النحو، وله حواش على المقامات ومفصل الزمخشري وديوان المتنبي وغير ذلك، وله في الحساب وغيره، وكان صالحاً ديناً، مات وقد قارب الثمانين رحمه الله، وكان إماماً في اللغة والحساب والنحو فقيهاً مناظراً عارفاً بالأصلين والفقه، وحكى القاضي ابن خلكان عنه أنه ذكر في شرح المقامات أن عنقاء مغرب كانت تأتي إلى جبل شاهق عند أصحاب الرس، فربما اختطفت بعض أولادهم فشكوها إلى نبيهم حنظلة بن صفوان فدعا عليهم فهلكت. قال: وكان وجهها كوجه الإنسان وفيها شبه من كل طائر، وذكر الزمخشري في كتابه ربيع الأبرار أنها كانت في زمن موسى لها أربعة أجنحة من كل جانب، ووجه كوجه الإنسان، وفيها شبه كثير من سائر الحيوان، وأنها تأخرت إلى زمن خالد بن سنان العبسي الذي كان في الفترة فدعا عليها فهلكت والله أعلم. وذكر ابن خلكان أن المعز الفاطمي جيء إليه بطائر غريب الشكل من الصعيد يقال له عنقاء مغرب. قلت: وكل واحد من خالد بن سنان وحنظلة بن صفوان كان في زمن الفترة، وكان صالحاً ولم يكن نبياً لقول رسول الله ﷺ: «أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ لأَنَّهُ لَيسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ»[1] رواه مسلم، وقد تقدم ذلك.

الحافظ عماد الدين أبو القاسم

علي ابن الحافظ بهاء الدين أبي محمد القاسم بن الحافظ الكبير أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله ابن عساكر الدمشقي، سمع الكثير ورحل فمات ببغداد في هذه السنة، ومن لطيف شعره قوله في المروحة.

وَمَـــرْوَحَـــةٍ تُـــرَوِّحُ كُـــلَّ هَـــمٍّ   ثَـــلاثَـــةُ أَشْـــهُـــرٍ لا بُـــدَّ مِـــنْـــهَـــا

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٤٨، ومسلم في الفضائل حديث ١٤٣، ١٤٤، وأبو داود في السنة باب ١٣، وأحمد في المسند ٢/٣١٩، ٤٣٧، ٤٦٣، ٤٨٢، ٤٥١.

حَــــزِيــــرانٌ وَتَــــمُّــــوزٌ وَآبٌ ‏ ‏ ‏ ‏ وَفِـي أَيْـلُـولَ يُـغْـنِـي اللهُ عَـنْـهَـا

ابن الدواي الشاعر

وقد أورد له ابن الساعي جملة صالحة من شعره وأبو سعيد بن الوزان الدواي وكان أحد المعدلين ببغداد وسمع البخاري من أبي الوقت وأبو سعيد محمد بن محمود بن عبد الرحمن المروزي الأصل الهمداني المولد البغدادي المنشأ والوفاة، كان حسن الشكل كامل الأوصاف له خط حسن ويعرف فنوناً كثيرة من العلوم، شافعي المذهب، يتكلم في مسائل الخلاف حسن الأخلاق ومن شعره قوله:

أَرَى قِسَمَ الأَرْزَاقِ أَعْجَبَ قِسْمَةٍ ‏ ‏ ‏ ‏ لِذِي دَعَةٍ وَمُكْدِيَةٍ لِذِي كَدّ

وَأَحْمَقُ ذُو مَالٍ وَأَحْمَقُ مُعْدِمٌ ‏ ‏ ‏ ‏ وَعَقْلٌ بِلا حَظٌّ وَعَقْلٌ لَهُ جَدّ

يعمّ الغنى والفقرُ ذا الجهلِ والحجا ‏ ‏ ‏ ‏ ولله من قبلِ الأمورِ ومن بعدُ

أبو زكريا يحيى بن القاسم

ابن الفرج بن درع بن الخضر الشافعي شيخ تاج الدين التكريتي قاضيها، ثم درس بنظامية بغداد، وكان متقناً لعلوم كثيرة منها التفسير والفقه والأدب، والنحو واللغة، وله المصنفات في ذلك كله وجمع لنفسه تاريخاً حسناً، ومن شعره قوله:

لا بُدَّ لِلْمَرْءِ مِنْ ضِيقٍ وَمِنْ سَعَةٍ ‏ ‏ ‏ ‏ وَمِنْ سُرُورٍ يُوَافِيهِ وَمِنْ حَزَنِ

وَاللهُ يَطْلُبُ مِنْهُ شُكْرَ نِعْمَتِهِ ‏ ‏ ‏ ‏ مَا دَامَ فِيهَا وَيَبْغِي الصَّبْرِ فِي المِحَنِ

فَكُنْ مَعَ اللهِ فِي الحَالَيْنِ مُعْتَنِقاً ‏ ‏ ‏ ‏ فَرَضَيْكَ هٰذِينِ فِي سِرٍّ وَفِي عَلَنِ

فَمَا عَلَى شِدَّةٍ يَبْقَى الزَّمَانُ يَكُنْ ‏ ‏ ‏ ‏ وَلا عَلَى نِعْمَةٍ تَبْقَى عَلَى الزَّمَنِ

ومن ذلك قوله:

إِنْ كَانَ قَاضِي الهَوَى عَلَيَّ وَلِي ‏ ‏ ‏ ‏ مَا جَازَ فِي الحُكْمِ مَنْ عَلَيَّ وَلِي

يَا يُوسُفِيَّ الجَمَالِ عِنْدَكَ لَمْ ‏ ‏ ‏ ‏ تَبْقَ لِي حِيلَةٌ مِنَ الحِيَلِ

إِنْ كَانَ قُدَّ القَمِيصُ مِنْ دُبُرٍ ‏ ‏ ‏ ‏ فَفِيكَ قُدَّ الفُؤَادُ مِنْ قُبُلِ

صاحب الجواهر

الشيخ الإمام جمال الدين أبو محمد عبد الله بن نجم بن ساس بن نزار بن عشائر بن عبد الله بن محمد بن سلس الجذامي المالكي الفقيه، مصنف كتاب الجواهر الثمينة في مذهب عالم المدينة، وهو من أكثر الكتب فوائد في الفروع، رتبه على طريقة الوجيز للغزالي. قال ابن خلكان: وفيه دلالة على غزارة علمه وفضله والطائفة المالكية بمصر عاكفة عليه لحسنه وكثرة فوائده، وكان مدرساً بمصر ومات بدمياط رحمه الله، والله سبحانه أعلم.

ثم دخلت سنة سبع عشرة وستمائة

في هذه السنة عم البلاء وعظم العزاء بجنكز خان المسمى بتموجين لعنه الله تعالى، ومن معه من التتار قبحهم الله أجمعين واستفحل أمرهم واشتد إفسادهم من أقصى بلاد الصين إلى أن وصلوا بلاد العراق وما حولها حتى انتهوا إلى إربل وأعمالها، فملكوا في سنة واحدة وهي هذه السنة سائر الممالك إلا العراق والجزيرة والشام ومصر، وقهروا جميع الطوائف التي بتلك النواحي الخوارزمية والقفجاق والكرج واللان والخزر وغيرهم، وقتلوا في هذه السنة من طوائف المسلمين وغيرهم في بلدان متعددة كبار ما لا يحد ولا يوصف، وبالجملة فلم يدخلوا بلداً إلا قتلوا جميع من فيه من المقاتلة والرجال، وكثيراً من النساء والأطفال، وأتلفوا ما فيه بالنهب إن احتاجوا إليه، وبالحريق إن لم يحتاجوا إليه، حتى أنهم كانوا يجمعون الحرير الكثير الذي يعجزون عن حمله فيطلقون فيه النار وهم ينظرون إليه، ويخربون المنازل وما عجزوا عن تخريبه يحرقوه، وأكثر ما يحرقون المساجد والجوامع، وكانوا يأخذون الأسارى من المسلمين فيقاتلون بهم ويحاصرون بهم، وإن لم ينصحوا في القتال قتلوهم. وقد بسط ابن الأثير في كامله خبرهم في هذه السنة بسطاً حسناً مفصلاً، وقدم على ذلك كلاماً هائلاً في تعظيم هذا الخطب العجيب، قال فنقول: هذا فصل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عقمت الليالي والأيام عن مثلها، عمت الخلائق وخصت المسلمين، فلو قال قائل إن العالم منذ خلق الله آدم وإلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقاً، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا يدانيها، ومن أعظم ما يذكرون من الحوادث ما فعل بخت نصر ببني إسرائيل من القتل وتخريب بيت المقدس، وما البيت المقدس بالنسبة إلى ما خرب هؤلاء الملاعين من البلاد التي كل مدينة منها أضعاف البيت المقدس، وما بنو إسرائيل بالنسبة لما قتلوا، فإن أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من بني إسرائيل، ولعل الخلائق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا إلا يأجوج ومأجوج، وأما الدجال فإنه يبقى على من اتبعه ويهلك من خالفه؛ وهؤلاء لم يبقوا على أحد، بل قتلوا الرجال والنساء والأطفال، وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنة. فإنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، لهذه الحادثة التي استطار شررها وعظم ضررها، وسارت في البلاد كالسحاب استدبرته الريح، فإن قوماً خرجوا من أطراف الصين فقصدوا بلاد تركستان مثل كاشغر وبلاساغون، ثم منها إلى بلاد ما وراء النهر مثل سمرقند وبخارى وغيرهما، فيملكونها ويفعلون بأهلها ما نذكره، ثم تعبر طائفة منهم إلى خراسان فيفرغون منها ملكاً وتخريباً وقتلاً ونهباً، ثم يجاوزونها إلى الري وهمذان وبلد الجبل وما فيه من البلاد إلى حد العراق، ثم يقصدون بلاد أذربيجان وأرانية ويخربونه ويقتلون أكثر أهلها ولم ينج منهم إلا الشريد النادر في أقل من سنة، هذا ما لم يسمع بمثله، ثم ساروا إلى دربند شروان فملكوا مدنه ولم يسلم غير قلعته التي بها ملكهم، وعبروا عندها إلى بلد اللان اللكز ومن في ذلك الصقع من الأمم المختلفة، فأوسعوهم قتلاً ونهباً وتخريباً، ثم قصدو بلاد قفجاق وهم من أكثر الترك عدداً فقتلوا كل من وقف لهم وهرب الباقون إلى الغياض وملكوا عليهم بلادهم،

وسارت طائفة أخرى إلى غزنة وأعمالها وما يجاورها من بلاد الهند وسجستان وكرمان ففعلوا فيها مثل أفعال هؤلاء وأشد، هذا ما لم يطرق الأسماع مثله، فإن الاسكندر الذي اتفق المؤرخون على أنه ملك الدنيا لم يملكها في سنة واحدة، إنما ملكها في نحو عشر سنين، ولم يقتل أحداً بل رضي من الناس بالطاعة وهؤلاء قد ملكوا أكثر المعمور من الأرض وأطيبه وأحسنه عمارة وأكثره أهلاً وأعدلهم أخلاقاً وسيرة في نحو سنة، ولم يتفق لأحد من أهل البلاد التي لم يطرقوها بقاء إلا وهو خائف مترقب وصولهم، وهم مع ذلك يسجدون للشمس إذا طلعت، ولا يحرمون شيئاً، ويأكلون ما وجدوه من الحيوانات والميتات لعنهم الله تعالى. قال: وإنما استقام لهم هذا الأمر لعدم المانع لأن السلطان خوارزم شاه كان قد قتل الملوك من سائر الممالك واستقر في الأمور، فلما انهزم منهم في العام الماضي وضعف عنهم وساقوا وراءه فهرب فلا يدري أين ذهب، وهلك في بعض جزائر البحر، خلت البلاد ولم يبق لها من يحميها ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، وإلى الله ترجع الأمور.

ثم شرع في تفصيل ما ذكره مجملاً، فذكر أولاً ما قدمنا ذكره في العام الماضي من بعث جنكز خان أولئك التجار بمال له ليأتونه بثمنه كسوة ولباساً، وأخذ خوارزم شاه تلك الأموال فحنق عليه جنكز خان وأرسل يهدده فسار إليه خوارزم شاه بنفسه وجنوده فوجد التتار مشغولين بقتال كشلي خان، فنهب أثقالهم ونساءهم وأطفالهم فرجعوا وقد انتصروا على عدوهم، وازدادوا حنقاً وغيظاً، فتواقعوا هم وإياه وابن جنكز خان ثلاثة أيام فقتل من الفريقين خلق كثير، ثم تحاجزوا ورجع خوارزم شاه إلى أطراف بلاده فحصنها ثم كر راجعاً إلى مقره ومملكته بمدينة خوارزم شاه، فأقبل جنكزخان فحصر بخارى كما ذكرنا فافتتحها صلحاً وغدر بأهلها حتى افتتح قلعتها قهراً وقتل الجميع، وأخذ الأموال وسبى النساء والأطفال وخرب الدور والمحال، وقد كان بها عشرون ألف مقاتل، فلم يغن عنهم شيئاً، ثم سار إلى سمرقند فحاصرها في أول المحرم من هذه السنة وبها خمسون ألف مقاتل من الجند فنكلوا وبرز إليهم سبعون ألفاً من العامة فقتل الجميع في ساعة واحدة وألقى إليه الخمسون ألف السلم فسلبهم سلاحهم وما يمتنعون به، وقتلهم في ذلك اليوم واستباح البلد فقتل الجميع وأخذ الأموال وسبى الذرية وحرقه وتركه بلاقع، فإنا لله وإنا إليه راجعون، وأقام لعنه الله هنالك وأرسل السرايا إلى البلدان فبعث سرية إلى بلاد خراسان وتسميها التتار المغربة، وأرسل أخرى وراء خوارزم شاه، وكانوا عشرين ألفاً قال اطلبوه فأدركوه ولو تعلق بالسماء فساروا وراءه فأدركوه بينهم وبينه نهر جيحون، وهو آمن بسببه، فلم يجدوا سفناً فعملوا لهم أحواضاً يحملون عليها الأسلحة ويرسل أحدهم فرسه ويأخذ بذنبها فتجره الفرس بالماء وهو يجر الحوض الذي فيه سلاحه، حتى صاروا كلهم في الجانب الآخر، فلم يشعر بهم خوارزم شاه إلا وقد خالطوه، فهرب منهم إلى نيسابور ثم منها إلى غيرها وهم في أثره لا يمهلونه يجمع لهم فصار كلما أتى بلداً ليجتمع فيه عساكره له يدركونه فيهرب منهم، حتى ركب في بحر طبرستان وسار إلى قلعة في جزيرة فيه فكانت فيها وفاته، وقيل إنه لا يعرف بعد ركوبه في البحر ما كان من أمره بل ذهب فلا يدري أين ذهب كيف سلك، ولا إلى

أي مفر هرب، وملكت التتار حواصله فوجدوا في خزانته عشرة آلاف ألف دينار، وألف حمل من الأطلس وغيره وعشرون ألف فرس وبغل، ومن الغلمان والجواري والخيام شيئاً كثيراً، وكان له عشرة آلاف مملوك كل واحد مثل ملك، فتمزق ذلك كله في أقل من سنة.

وقد كان خوارزم شاه فقيهاً حنفياً فاضلاً له مشاركات في فنون من العلم، يفهم جيداً، وملك بلاداً متسعة وممالك متعددة إحدى وعشرين سنة وشهوراً، ولم يكن بعد ملوك بني سلجوق أكثر حرمة منه ولا أعظم ملكاً منه، لأنه إنما كانت همته في الملك لا في اللذات والشهوات، ولذلك قهر الملوك بتلك الأراضي وأحل بالخطا بأساً شديداً، حتى لم يبق ببلاد خراسان وما وراء النهر وعراق العجم وغيرها من الممالك سلطان سواه، وجميع البلاد تحت أيدي نوابه. ثم ساروا إلى مازندران وقلاعها من أمنع القلاع، بحيث إن المسلمين لم يفتحوها إلا في سنة تسعين من أيام سليمان بن عبد الملك، ففتحها هؤلاء في أيسر مدة ونهبوا ما فيها وقتلوا أهاليها كلهم وسبوا وأحرقوا، ثم ترحلوا عنها نحو الري فوجدوا في الطريق أم خوارزم شاه ومعها أموال عظيمة جداً، فأخذوها وفيها كل غريب ونفيس مما لم يشاهد مثله من الجواهر وغيرها، ثم قصدوا الري فدخلوها على حين غفلة من أهلها فقتلوهم وسبوا وأسروا، ثم ساروا إلى همذان فملكوها ثم إلى زنجان فقتلوا وسبوا، ثم قصدوا قزوين فنهبوها وقتلوا من أهلها نحواً من أربعين ألفاً، ثم تيمموا بلاد أذربيجان فصالحهم ملكها أزبك بن البهلوان على مال حمله إليهم لشغله بما هو فيه من السكر وارتكاب السيئات والانهماك على الشهوات، فتركوه وساروا إلى موقان فقاتلهم الكرج في عشرة آلاف مقاتل فلم يقفوا بين أيديهم طرفة عين حتى انهزمت الكرج فأقبلوا إليهم بحدهم وحديدهم، فكسرتهم التتار وقعة ثانية أقبح هزيمة وأشنعها. وههنا قال ابن الأثير: ولقد جرى لهؤلاء التتر ما لم يسمع بمثله من قديم الزمان وحديثه: طائفة تخرج من حدود الصين لا تنقضي عليهم سنة حتى يصل بعضهم إلى حدود بلاد أرمينية من هذه الناحية ويجاوزون العراق من ناحية همذان وتالله لا أشك أن من يجيء بعدنا إذا بعد العهد ويرى هذه الحادثة مسطورة ينكرها ويستبعدها، والحق بيده، فمتى استبعد ذلك فلينظر أننا سطرنا نحن وكل من جمع التاريخ في أزماننا هذه في وقت كل من فيه يعلم هذه الحادثة، قد استوى في معرفتها العالم والجاهل لشهرتها، يسر الله للمسلمين والإسلام من يحفظهم ويحوطهم، فلقد دفعوا من العدو إلى أمر عظيم، ومن الملوك المسلمين إلى من لا تتعدى همته بطنه وفرجه، وقد عدم سلطان المسلمين خوارزم شاه، قال: وانقضت هذه السنة وهم في بلاد الكرج، فلما رأوا منهم ممانعة ومقاتلة يطول عليهم بها المطال عدلوا إلى غيرهم، وكذلك كانت عادتهم فساروا إلى تبريز فصالحهم أهلها بمال. ثم ساروا إلى مراغة فحصروها ونصبوا عليها المجانيق وتترسوا بالأسارى من المسلمين، وعلى البلد امرأة - ولن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة - ففتحوا البلد بعد أيام وقتلوا من أهله خلقاً لا يعلم عدتهم إلا الله عز وجل، وغنموا منه شيئاً كثيراً، وسبوا وأسروا على عادتهم لعنهم الله لعنة تدخلهم نار جهنم، وقد كان الناس يخافون منهم خوفاً عظيماً جداً حتى إنه دخل رجل منهم إلى درب من هذه البلد وبه مائة رجل لم يستطع واحد منهم أن يتقدم إليه، وما زال يقتلهم واحداً بعد واحد حتى قتل الجميع ولم يرفع منهم أحد يده إليه، ونهب

ذلك الدرب وحده. ودخلت امرأة منهم في زي رجل (بيتاً) فقتلت كل من في ذلك البيت وحدها ثم استشعر أسير معها أنها امرأة فقتلها لعنها الله، ثم قصدوا مدينة إربل فضاق المسلمون لذلك ذرعاً وقال أهل تلك النواحي هذا أمر عصيب، وكتب الخليفة إلى أهل الموصل والملك الأشرف صاحب الجزيرة يقول إني قد جهزت عسكراً فكونوا معه لقتال هؤلاء التتار، فأرسل الأشرف يعتذر إلى الخليفة بأنه متوجه نحو أخيه الكامل إلى الديار المصرية بسبب ما قد دهم المسلمين هناك من الفرنج، وأخذهم دمياط الذي قد أشرفوا بأخذهم لها على أخذ الديار المصرية قاطبة، وكان أخوه المعظم قد قدم على والي حران يستنجده لأخيهما الكامل ليحاجزوا الفرنج بدمياط وهو على أهبة المسير إلى الديار المصرية، فكتب الخليفة إلى مظفر الدين صاحب إربل ليكون هو المقدم على العساكر التي يبعثها الخليفة وهي عشرة آلاف مقاتل، فلم يقدم عليه منهم ثمانمائة فارس تفرقوا قبل أن يجتمعوا، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ولكن الله سلم بأن صرف همة التتار إلى ناحية همذان فصالحهم أهلها وترك عندهم التتار شحنة، ثم اتفقوا على قتل شحنتهم فرجعوا إليهم فحاصرهم حتى فتحوها قسراً وقتلوا أهلها عن آخرهم، ثم ساروا إلى أذربيجان ففتحوا أردبيل ثم تبريز ثم إلى بيلقان فقتلوا من أهلها خلقاً كثيراً وجماً غفيراً، وحرقوها وكانوا يفجرون بالنساء ثم يقتلونهن ويشقون بطونهن عن الأجنة ثم عادوا إلى بلاد الكرج وقد استعدت لهم الكرج فاقتتلوا معهم فكسروهم أيضاً كسرة فظيعة، ثم فتحوا بلداناً كثيرة يقتلون أهلها ويسبون نساءها ويأسرون من الرجال ما يقاتلون بهم الحصون، يجعلونهم بين أيديهم ترساً يتقون بهم الرمي وغيره، ومن سلم منهم قتلوه بعد انقضاء الحرب، ثم ساروا إلى بلاد اللان، والقبجاق فاقتتلوا معهم قتالاً عظيماً فكسروهم وقصدوا أكبر مدائن القبجاق وهي مدينة قفجاق وفيها من الأمتعة والثياب والتجائر من البرطاسي والقندر والسنجاب شيء كثير جداً، ولجأت القبجاق إلى بلاد الروس وكانوا نصارى فاتفقوا معهم على قتال التتار فالتقوا معهم فكسرتهم التتار كسرة فظيعة جداً، ثم ساروا نحو بلقار في حدود العشرين وستمائة ففرغوا من ذلك كله ورجعوا نحو ملكهم جنكز خان لعنه الله وإياهم. هذا ما فعلته هذه السرية المغرّبة، وكان جنكز خان قد أرسل سرية في هذه السنة إلى كلانة وأخرى إلى فرغانة فملكوها، وجهز جيشاً آخر نحو خراسان فحاصروا بلخ فصالحهم أهلها، وكذلك صالحوا مدناً كثيرة أخرى، حتى انتهوا إلى الطالقان فأعجزتهم قلعتها وكانت حصينة فحاصروها ستة أشهر حتى عجزوا فكتبوا إلى جنكز خان فقدم بنفسه فحاصرها أربعة أشهر أخرى حتى فتحها قهراً، ثم قتل كل من فيها وكل من في البلد بكماله من الخاصة والعامة، ثم قصدوا مدينة مرو مع جنكز خان فقد عسكر بظاهرها نحو من مائتي ألف مقاتل من العرب وغيرهم فاقتتلوا معه قتالاً عظيماً حتى انكسر المسلمون فإنا لله وإنا إليه راجعون، ثم حصروا البلد خمسة أيام واستنزلوا نائبها خديعة ثم غدروا به وبأهل البلد فقتلوهم وغنموهم وسلبوهم وعاقبوهم بأنواع المثلات، حتى إنهم قتلوا في يوم واحد سبعمائة ألف إنسان، ثم ساروا إلى نيسابور ففعلوا فيها ما فعلوا بأهل مرو، ثم إلى طوس فقتلوا وخربوا مشهد علي بن موسى الرضى سلام الله عليه وعلى

آبائه، وخربوا تربة الرشيد الخليفة فتركوه خراباً، ثم ساروا إلى غزنة فقاتلهم جلال الدين بن خوارزم شاه فكسرهم ثم عادوا إلى ملكهم جنكز خان لعنه الله وإياهم، وأرسل جنكز خان طائفة أخرى إلى مدينة خوارزم فحاصروها حتى فتحوا البلد قهراً فقتلوا من فيها قتلاً ذريعاً، ونهبوها وسبوا أهلها وأرسلوا الجسر الذي يمنع ماء جيحون منها فغرقت دورها وهلك جميع أهلها ثم عادوا إلى جنكز خان وهو مخيم على الطالقان فجهز منهم طائفة إلى غزنة فاقتتل معهم جلال الدين بن خوارزم شاه فكسرهم جلال الدين كسرة عظيمة، واستنقذ منهم خلقاً من أسارى المسلمين، ثم كتب إلى جنكزخان يطلب منه أن يبرز بنفسه لقتاله، فقصده جنكز خان فتواجها وقد تفرق على جلال الدين بعض جيشه ولم يبق بد من القتال، فاقتتلوا ثلاثة أيام لم يعهد قبلها مثلها من قتالهم، ثم ضعفت أصحاب جلال الدين بن خوارزم شاه فذهبوا فركبوا بحر الهند فسارت التتار إلى غزنة فأخذوها بلا كلفة ولا ممانعة، كل هذا أو أكثره وقع في هذه السنة.

وفيها[1] أيضاً ترك الأشرف موسى بن العادل لأخيه شهاب الدين غازي ملك خلاط وميافارقين وبلاد أرمينية واعتاض عن ذلك بالرها وسروج، وذلك لاشتغاله عن حفظ تلك النواحي بمساعدة أخيه الكامل ونصرته على الفرنج لعنهم الله تعالى.

وفي المحرم منها هبت رياح ببغداد وجاءت بروق وسمعت رعود شديدة وسقطت صاعقة بالجانب الغربي على المنارة المجاورة لعون ومعين فثلمتها، ثم أصلحت، وغارت الصاعقة في الأرض.

وفي هذه السنة نصب محراب الحنابلة في الرواق الثالث الغربي من جامع دمشق بعد ممانعة من بعض الناس لهم، ولكن ساعدهم بعض الأمراء في نصبه لهم، وهو الأمير ركن الدين المعظمي، وصلى فيه الشيخ موفق الدين بن قدامة.

قلت: ثم رفع في حدود سنة ثلاثين وسبعمائة وعوضوا عنه بالمحراب الغربي عند باب الزيارة، كما عوض الحنفية عن محرابهم الذي كان في الجانب الغربي من الجامع بالمحراب المجدد لهم شرقي باب الزيارة، حين جدد الحائط الذي هو فيه في الأيام التنكزية، على يدي ناظر الجامع تقي الدين ابن مراجل أثابه الله تعالى كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله تعالى.

وفيها قتل صاحب سنجار أخاه فملكها مستقلاً بها الملك الأشرف بن العادل. وفيها نافق الأمير عماد الدين بن المشطوب على الملك الأشرف وكان قد آواه وحفظه من أذى أخيه الكامل حين أراد أن يبايع للفائز، ثم إنه سعى في الأرض فساداً في بلاد الجزيرة فسجنه الأشرف حتى مات كمداً وذلاً وعذاباً. وفيها أوقع الكامل بالفرنج الذين على دمياط بأساً شديداً فقتل منهم عشرة آلاف، وأخذ منهم خيولهم وأموالهم ولله الحمد.

وفيها عزل المعظم المعتمد مفاخر الدين إبراهيم عن ولاية دمشق وولاّها للعزيز خليل،

---

(١) في ط: وفي هذه السنة.

ولما خرج الحاج إلى مكة شرفها الله تعالى كان أميرهم المعتمد فحصل به خير كثير، وذلك أنه كف عبيد مكة عن نهب الحجاج بعد قتلهم أمير حاج العراقيين أقباس الناصري، وكان من أكبر الأمراء عند الخليفة الناصر وأخصهم عنده، وذلك لأنه قدم معه بخلع للأمير حسين بن أبي عزيز قتادة بن إدريس بن مطاعن بن عبد الكريم العلوي الحسني الزيدي بولايته لإمرة مكة بعد أبيه، وكانت وفاته في جمادى الأولى من هذه السنة، فنازع في ذلك راجح وهو أكبر أولاد قتادة، وقال لا يتأمر عليها غيري، فوقعت فتنة أفضى الحال إلى قتل أقباس غلطاً، وقد كان قتادة من أكابر الأشراف الحسنيين الزيديين وكان عادلاً منصفاً منعماً، نقمة على عبيد مكة والمفسدين بها، ثم عكس هذا السير فظلم وجدد المكوس ونهب الحاج غير مرة فسلط الله عليه ولده حسناً فقتله وقتل عمه وأخاه أيضاً، فلهذا لم يمهل الله حسناً أيضاً، بل سلبه الملك وشرده في البلاد، وقيل بل قتل كما ذكرنا، وكان قتادة شيخاً طويلاً مهيباً لا يخاف من أحد من الخلفاء والملوك، ويرى أنه أحق بالأمر من كل أحد، وكان الخليفة يود لو حضر عنده ليكرمه، وكان يأبى من ذلك ويمتنع عنه أشد الامتناع، ولم يفد إلى أحد قط ولا ذل لخليفة ولا ملك، وكتب إليه الخليفة مرة يستدعيه فكتب إليه.

وَلِـي كَـفُّ ضـرغـام أُذِلُّ بِـبَـطْـشِـهَـا ... وَأَشْـرِي بِـهَـا بَـيْـنَ الـوَرَى وَأَبِـيـعُ
تَـظَـلُّ مُـلُـوكُ الأَرْضِ تَـلْـثُـمُ ظَـهْـرَهَـا ... وَفِـي بَـطْـنِـهَـا لِـلْـمُـجْـدِبِـيـنَ رَبِـيـعُ
أَأَجْـعَـلُـهَـا تَـحْـتَ الـرَّحَـى ثُـمَّ أَبْـتَـغِـي ... خَـلاصـاً لَـهَـا إِنِّـي إذاً لَـرَقِـيـعُ[1]
وَمَـا أَنَـا إلاَّ الـمِـسْـكُ فِـي كُـلِّ بُـقْـعَـةٍ ... يَـضُـوعُ[2] وَأَمَّـا عِـنْـدَكُـمْ فَـيَـضِـيـعُ

وقد بلغ قتادة من السنين سبعين سنة، وقد ذكر ابن الأثير وفاته في سنة ثماني عشرة فالله أعلم.

وفيها توفي من الأعيان:

الملك الفائز

غياث الدين إبراهيم بن العادل، كان قد انتظم له الأمر في الملك بعد أبيه على الديار المصرية على يدي الأمير عماد الدين بن المشطوب، لولا أن الكامل تدارك ذلك سريعاً، ثم أرسله أخوه في هذه السنة إلى أخيهما الأشرف موسى يستحثه في سرعة المسير إليهم بسبب الفرنج، فمات بين سنجاب والموصل. وقد ذكر أنه سم فرد إلى سنجاب فدفن بها رحمه الله تعالى.

شيخ الشيوخ صدر الدين

أبو الحسن محمد بن شيخ الشيوخ عماد الدين محمود بن حمويه الجويني، من بيت رياسة وإمرة عند بني أيوب، وقد كان صدر الدين هذا فقيهاً فاضلاً، درس بتربة الشافعي بمصر،

---

(١) رقيع: أحمق. (٢) يضوع: تفوح منه الرائحة العطرة.

وبمشهد الحسين وولي مشيخة سعيد السعداء والنظر فيها، وكانت له حرمة وافرة عند الملوك، أرسله الكامل إلى الخليفة يستنصره على الفرنج فمات بالموصل بالاسهال، ودفن بها عند قضيب البان عن ثلاث وسبعين سنة.

صاحب حماه

الملك المنصور محمد بن الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، وكان فاضلاً له تاريخ في عشرة مجلدات سماه المضمار، وكان شجاعاً فارساً، فقام بالملك بعده ولده الناصر قلج أرسلان، ثم عزله عنها الكامل وحبسه حتى مات رحمه الله تعالى وولي أخاه المظفر بن المنصور.

صاحب آمد

الملك الصالح ناصر الدين محمود بن محمد بن قرا أرسلان بن أيوب، وكان شجاعاً محباً للعلماء، وكان مصاحباً للأشرف موسى بن العادل يجيء إلى خدمته مراراً، وملك بعده ولده المسعود الملك السعيد، وكان بخيلاً فاسقاً، فأخذه معه الكامل وحبسه بمصر ثم أطلقه فأخذ أمواله وسار إلى التتار، فأخذته منه.

الشيخ عبد الله اليونيني

الملقب أسد الشام رحمه الله ورضي عنه من قرية ببعلبك يقال لها يونين، وكانت له زاوية يقصد فيها للزيارة، وكان من الصالحين الكبار المشهورين بالعبادة والرياضة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، له همة عالية في الزهد والورع، بحيث إنه كان لا يقتني شيئاً ولا يملك مالاً ولا ثياباً، بل يلبس عارية ولا يتجاوز قميصاً في الصيف وفروة فوقه في الشتاء، وعلى رأسه قبعاً من جلود المعز، شعره إلى ظاهر، وكان لا ينقطع عن غزاة من الغزوات، ويرمي عن قوس زنته ثمانون رطلاً، وكان يجاور في بعض الأحيان بجبل لبنان، ويأتي في الشتاء إلى عيون العاسريا في سفح الجبل المطل على قرية دومة شرقي دمشق، لأجل سخونة الماء، فيقصده الناس للزيارة هناك، ويجيء تارة إلى دمشق فينزل بسفح قاسيون عند المقادسة وكانت له أحوال ومكاشفات صالحة، وكان يقال له أسد الشام.

حكى الشيخ أبو المظفر سبط ابن الجوزي عن القاضي جمال الدين يعقوب الحاكم بكرك البقاع أنه شاهد مرة الشيخ عبد الله وهو يتوضأ من نور عند الجسر الأبيض إذ مر نصراني ومعه حمل بغل خمراً فعثرت الدابة عند الجسر فسقط الحمل فرأى الشيخ وقد فرغ من وضوئه ولا يعرفه، واستعان به على رفع الحمل فاستدعاني الشيخ فقال: تعال يا فقيه، فتساعدنا على تحميل ذلك الحمل على الدابة وذهب النصراني فتعجبت من ذلك وتبعت الحمل وأنا ذاهب إلى المدينة، فانتهى به إلى العقبة فأورده إلى الخمار بها فإذا خلّ فقال له الخمار: ويحك هذا خلّ، فقال النصراني أنا والله أعرف من أين أُتيت، ثم ربط الدابة في خان ورجع إلى الصالحية فسأل

عن الشيخ فعرفه فجاء إليه فأسلم على يديه، وله أحوال وكرامات كثيرة جداً، وكان لا يقوم لأحد دخل عليه ويقول: إنما يقوم الناس لربّ العالمين.

وكان الأمجد إذا دخل عليه جلس بين يديه فيقول له: يا أمجد فعلت كذا وكذا ويأمره بما يأمره، وينهاه عما ينهاه عنه، وهو يمتثل جميع ما يقوله له، وما ذاك إلا لصدقه في زهده وورعه وطريقه، وكان يقبل الفتوح، وكان لا يدخر منه شيئاً لغد، وإذا اشتد جوعه أخذ من ورق اللوز ففركه واستفه ويشرب فوقه الماء البارد رحمه الله تعالى وأكرم مثواه.

وذكروا أنه كان يحج في بعض السنين في الهواء[1]، وقد وقع هذا لطائفة كبيرة من الزهاد وصالحي العباد، ولم يبلغنا هذا عن أحد من أكابر العلماء، وأول من يذكر عنه هذا حبيب العجمي، وكان من أصحاب الحسن البصري، ثم من بعده من الصالحين رحمهم الله أجمعين. فلما كان يوم جمعة من عشر ذي الحجة من هذه السنة صلى الشيخ عبد الله اليونيني صلاة الجمعة بجامع بعلبك، وكان قد دخل الحمام يومئذٍ قبل الصلاة وهو صحيح، فلما انصرف من الجمعة قال للشيخ داود المؤذن، وكان يغسل الموتى، انظر كيف تكون غداً، ثم صعد الشيخ إلى زاويته فبات يذكر الله تعالى تلك الليلة ويتذكر أصحابه، ومن أحسن إليه ولو بأدنى شيء ويدعو لهم، فلما دخل وقت الصبح صلى بأصحابه ثم استند يذكر الله وفي يده سبحته، فمات وهو كذلك جالس لم يسقط، ولم تسقط السبحة من يده، فلما انتهى الخبر إلى الملك الأمجد صاحب بعلبك فجاء إليه فعاينه كذلك فقال لو بنينا عليه بنيانا هكذا يشاهد الناس منه آية، فقيل له: ليس هذا من السنة، فنحي وكفن وصلى عليه ودفن تحت اللوزة التي كان يجلس تحتها يذكر الله تعالى، رحمه الله ونور ضريحه وكانت وفاته يوم السبت وقد جاوز ثمانين رحمه الله وأكرم مثواه، وكان الشيخ محمد الفقيه اليونيني من جملة تلاميذه، وممن يلوذ به وهو جد هؤلاء المشايخ بمدينة بعلبك.

أبو عبد الله الحسين بن محمد بن أبي بكر

المجلي الموصلي، ويعرف بابن الجهني، شاب فاضل ولي كتابة الإنشاء لبدر الدين لؤلؤ زعيم الموصل، ومن شعره:

نَفْسِي فِدَاءُ الَّذِي فَكَّرْتُ فِيهِ وَقَدْ ... غَدَوْتُ أَغْرَقُ فِي بَحْرٍ مِنَ الْعَجَبِ
يَبْدُو بِلَيْلٍ عَلَى صُبْحٍ عَلَى قَمَرٍ ... عَلَى قَضِيبٍ عَلَى وَهْمٍ عَلَى كَثَبِ

ثم دخلت سنة ثمان عشرة وستمائة

فيها استولت التتار على كثير من البلدان بكلادة وهمذان وأردبيل وتبريز وكنجة، وقتلوا أهاليها ونهبوا ما فيها، واستأسروا ذراريها، واقتربوا من بغداد فانزعج الخليفة لذلك وحصن

(١) في ط: الهوء.

بغداد واستخدم الأجناد، وقنت الناس في الصلوات والأوراد. وفيها قهروا الكرج واللان، ثم قاتلوا القبجاق فكسروهم، وكذلك الروس، وينهبون ما قدروا عليه، ثم قاتلوهم وسبوا نساءهم وذراريهم، وفيها سار المعظم إلى أخيه الأشرف فاستعطفه على أخيه الكامل وكان في نفسه موجدة عليه فأزالها وسارا جميعاً نحو الديار المصرية لمعاونة الكامل على الفرنج الذين قد أخذوا ثغر دمياط واستحكم أمرهم هنالك من سنة أربع عشرة، وعرض عليهم في بعض الأوقات أن يرد إليهم بيت المقدس وجميع ما كان صلاح الدين فتحه من بلاد الساحل ويتركوا دمياط، فامتنعوا من ذلك ولم يفعلوا، فقدر الله تعالى أنهم ضاقت عليهم الأقوات فقدم عليهم مراكب فيها ميرة لهم فأخذها الأسطول البحري وأرسلت المياه على أراضي دمياط من كل ناحية فلم يمكنهم بعد ذلك أن يتصرفوا في نفسهم، وحصرهم المسلمون من الجهة الأخرى حتى اضطروهم إلى أضيق الأماكن، فعند ذلك أنابوا إلى المصالحة بلا معاوضة، فجاء مقدموهم إليه وعنده أخواه المعظم عيسى وموسى الأشرف، وكانا قائمين بين يديه، وكان يوماً مشهوداً، فوقع الصلح على ما أراد الكامل محمد بيّض الله وجهه، وملوك الفرنج والعساكر كلها واقفة بين يديه، ومد سماطاً عظيماً، فاجتمع عليه المؤمن والكافر والبر والفاجر، وقام راجح الحلي الشاعر فأنشد:

هَنِيئاً فَإنَّ السَّعْدَ رَاحَ مُخَلَّداً ... وَقَدْ أَنْجَزَ الرَّحْمٰنُ بِالنَّصْرِ مَوْعِدَا
حَبَانَا إلٰهُ الخَلْقِ فَتْحاً بَدَا لَنَا ... مُبِيناً وَإِنْعَاماً وَعِزّاً مُؤيَّدا
تَهَلَّلَ وَجْهُ الدَّهْرِ بَعْدَ قُطُوبِهِ ... وَأَصْبَحَ وَجْهُ الشِّرْكِ بِالظُّلْمِ أَسْوَدَا
وَلَمَّا طَغَى البَحْرُ الخِضَمُّ بِأَهْلِهِ الطُّـ ... ـغَاةِ وَأَضْحَى بِالمَرَاكِبِ مُزبِدَا
أَقَامَ لِهٰذا الدِّينِ مَنْ سَلَّ عَزْمَهُ ... صَقِيلاً كَمَا سُلَّ الحُسَامُ مُجَرَّدَا
فَلَمْ يَنْجُ إلاَّ كُلُّ شِلْوٍ مُجَدَّلٍ[1] ... ثَوَى مِنْهُمُ أَوْ مَنْ تَرَاهُ مُقَيَّدَا
وَنَادَى لِسَانُ الكَوْنِ فِي الأَرْضِ رَافِعاً ... عَقِيرَتَهُ[2] فِي الخَافِقَيْنَ وَمُنْشِدَا
أَعُبَّادَ عِيسَى إنَّ عِيسَى وَحِزْبَهُ ... وَمُوسَى جَمِيعاً يَخْدِمُونَ مُحَمَّدا

قال أبو شامة: وبلغني أنه أشار عند ذلك إلى المعظم عيسى والأشرف موسى والكامل محمد، قال: وهذا من أحسن شيء اتفق، وكان ذلك يوم الأربعاء التاسع عشر رجب من هذه السنة، وتراجعت الفرنج إلى عكا وغيرها من البلدان، ورجع المعظم إلى الشام واصطلح الأشرف والكامل على أخيهما المعظم. وفيها ولى الملك المعظم قضاء دمشق كمال الدين المصري الذي كان وكيل بيت المال بها، وكان فاضلاً بارعاً يجلس في كل يوم جمعة قبل الصلاة بالعادلية بعد فراغها لإثبات المحاضر، ويحضر عنده في المدرسة جميع الشهود من كل المراكز حتى يتيسر على الناس إثبات كتبهم في الساعة الواحدة، جزاه الله خيراً.

(١) شلو مجدّل: عضو ملقى على الأرض. (٢) رفع عقيرته: رفع صوته.

وممن توفي فيها من الأعيان:

ياقوت الكاتب الموصلي

أمين الدين المشهور بطريقة ابن البواب. قال ابن الأثير: لم يكن في زمانه من يقاربه، وكانت لديه فضائل جمة والناس متفقون على الثناء عليه، وكان نعم الرجل. وقد قال فيه نجيب الدين الواسطي قصيدة يمدحه بها:

جَامِعٌ شَارِدَ العُلُومِ وَلَوْلا ... هُ لَكَانَتْ أُمُّ الفَضَائِلِ ثَكْلَى
ذُو يَرَاعٍ تَخَافُ رِيقَتَهُ الأُسْـ ... ـدُ، وَتَعْنُو لَهُ الكَتَائِبُ ذُلاً[1]
وَإِذَا افْتَرَّ ثَغْرُهُ عَنْ بَيَاضٍ ... فِي سَوَادٍ فَالسُّمْرُ وَالبِيضُ خَجْلَى
أَنْتَ بَدْرٌ وَالكَاتِبُ ابْنُ هِلالٍ ... كَأَبِيهِ لا فَخْرَ فِيمَنْ تَوَلَّى
إِنْ يَكُنْ أَوَّلَى فَإِنَّكَ بِالتَّفْضِـ ... ـيلِ أَوْلَى فَقَدْ سَبَقْتَ وَصَلَّى

جلال الدين الحسن

من أولاد الحسن بن الصباح مقدم الإسماعيلية، وكان قد أظهر في قومه شعائر الإسلام، وحفظ الحدود والمحرمات والقيام فيها بالزواجر الشرعية.

الشيخ الصالح شهاب الدين

محمد بن خلف بن راجح المقدسي الحنبلي الزاهد العابد الناسك، كان يقرأ على الناس يوم الجمعة الحديث النبوي وهو جالس على أسفل منبر الخطابة بالجامع المظفري، وقد سمع الحديث الكثير، ورحل وحفظ مقامات الحريري في خمسين ليلة، وكانت له فنون كثيرة، وكان ظريفاً مطبوعاً رحمه الله.

والخطيب موفق الدين

أبو عبد الله عمر بن يوسف بن يحيى بن عمر بن كامل المقدسي، خطيب بيت الأبار، وقد ناب في دمشق عن الخطيب جمال الدين الدولعي حين سار في الرسلية إلى خوارزم شاه، حتى عاد.

المحدث [البارع][2] تقي الدين أبو طاهر

إسماعيل بن عبد الله بن عبد المحسن بن الأنماطي، قرأ الحديث ورحل وكتبه، وكان حسن الخط متقناً في علوم الحديث، حافظاً له، وكان الشيخ تقي الدين ابن الصلاح يثني عليه ويمدحه، وكانت له كتب بالبيت الغربي من الكلاسة الذي كان للملك المحسن بن صلاح الدين، ثم أخذ من ابن الأنماطي وسلم إلى الشيخ عبد الصمد الدكائي، واستمر بيد أصحابه بعد ذلك، وكانت وفاته بدمشق ودفن بمقابر الصوفية وصلى عليه بالجامع الشيخ موفق الدين،

---

(١) تعنو: تخضع. والريقة: هنا: الحبر. (٢) سقط في ط.

وبباب النصر الشيخ فخر الدين بن عساكر، وبالمقبرة قاضي القضاة جمال الدين المصري رحمه الله تعالى.

أبو الغيث شعيب بن أبي طاهر بن كليب

ابن مقبل الضرير الفقيه الشافعي، أقام ببغداد إلى أن توفي، وكانت لديه فضائل وله رسائل، ومن شعره قوله:

إذا كُنْتُمْ لِلنَّاسِ أَهْلَ سِيَاسَةٍ   فَسُوسُوا كِرَامَ النَّاسِ بِالجُودِ وَالبَذْلِ
وَسُوسُوا لِئَامَ النَّاسِ بِالذُّلِّ يَصْلُحُوا   عَلَيْهِ، فَإِنَّ الذُّلَّ أَصْلَحُ لِلنَّذْلِ

أبو العز شرف بن علي

ابن أبي جعفر بن كامل الخالصي المقري الضرير الفقيه الشافعي، تفقه بالنظامية وسمع الحديث ورواه وأنشد عن الحسن بن عمرو الحلبي:

تَمَثَّلْتُمُ لِي وَالدِّيَارُ بَعِيدَةٌ   فَخُيِّلَ لِي أَنَّ الفُؤَادَ لَكُمْ مَغْنَى
وَنَاجَاكُمُ قَلْبِي عَلَى البُعْدِ بَيْنَنَا   فَأَوْحَشْتُمُ لَفْظاً وَآنَسْتُمُ مَعْنَى

أبو سليمان داود بن إبراهيم

ابن مندار الجيلي، أحد المعيدين بالمدرسة النظامية، ومما أنشده.

أيا جَامِعاً أَمْسِكْ عِنَانَكَ مُقْصِراً   فَإِنَّ مَطَايَا الدَّهْرِ تَكْبُو وَتَقْصُرُ
سَتَقْرَعُ سِنّاً أَوْ تَعَضُّ نَدَامَةً   إذا خَانَ الزَّمَانُ واقصر[1]
وَيَلْقَاكَ رُشْدٌ بَعْدَ غَيِّكَ وَاعِظٌ   وَلَكِنَّهُ يَلْقَاكَ وَالأَمْرُ مُدْبِرُ

أبو المظفر عبد الودود بن محمود بن المبارك

ابن علي بن المبارك بن الحسن الواسطي الأصيل، البغدادي الدار والمولد، كمال الدين المعروف والده بالمجيد، تفقه على أبيه وقرأ عليه علم الكلام، ودرس بمدرسته عند باب الأزج، ووكله الخليفة الناصر واشتهر بالديانة والأمانة، وباشر مناصب كباراً، وحج مراراً عديدة، وكان متواضعاً حسن الأخلاق وكان يقول:

وَمَا تَرَكَتْ سِتٌّ وَسِتُّونَ حِجَّةً   لَنَا حُجَّةً أَنْ نَرْكَبَ اللَّهْوَ مَرْكَبَا

وكان ينشد:

العِلْمُ يَأْتِي كُلَّ ذِي خَفْـ   ـضٍ وَيَأْبَى عَلَى كُلِّ آبِي
كَالمَاءِ يَنْزِلُ فِي الوِهَا   دِ وَلَيْسَ يَصْعَدُ فِي الرَّوَابِي

(١) كذا في الأصل، والبيت غير مستقيم الوزن، وفي ط: وتبصرُ.

ثم دخلت سنة تسع عشرة وستمائة

فيها نقل تابوت العادل من القلعة إلى تربته العادلية الكبيرة، فصلي عليه أولاً تحت النسر بالجامع الأموي، ثم جاؤوا به إلى التربة المذكورة فدفن فيها، ولم تكن المدرسة كملت بعد، وقد تكامل بناؤها في هذه السنة أيضاً، وذكر الدرس بها القاضي جمال الدين المصري، وحضر عنده السلطان المعظم فجلس في الصدر وعن شماله القاضي وعن يمينه صدر الدين الحصيري شيخ الحنفية، وكان في المجلس الشيخ تقي الدين بن الصلاح إمام السلطان، والشيخ سيف الدين الآمدي إلى جانب المدرس، وإلى جانبه شمس الدين بن سناء الدولة، ويليه النجم خليل قاضي العسكر، وتحت الحصيري شمس الدين بن الشيرازي، وتحته محيي الدين التركي(١)، وفيه خلق من الأعيان والأكابر، وفيهم فخر الدين بن عساكر. وفيها أرسل الملك المعظم الصدر الكشهني(٢) محتسب دمشق إلى جلال الدين بن خوارزم شاه يستعينه على أخويه الكامل والأشرف اللذين قد تمالآ عليه، فأجابه إلى ذلك بالسمع والطاعة، ولما عاد الصدر المذكور أضاف إليه مشيخة الشيوخ. وحج في هذه السنة الملك مسعود بن أقسيس بن الكامل صاحب اليمن فبدت منه أفعال ناقصة بالحرم الشريف من سكر ورشق حمام المسجد بالبندق من أعلا قبة زمزم، وكان إذا نام في دار الإمارة يضرب الطائفون بالمسعى بأطراف السيوف لئلا يشوشوا عليه وهو نوم سكر قبحه الله، ولكن كان مع هذا كله مهيباً محترماً والبلاد به آمنة مطمئنة، وقد كاد يرفع سنجق أبيه يوم عرفة على سنجق الخليفة فيجري بسبب ذلك فتنة عظيمة، وما مكن من طلوعه وصعوده إلى الجبل إلا في آخر النهار بعد جهد جهيد. وفيها كان بالشام جراد كثير أكل الزرع والثمار والأشجار. وفيها وقعت حروب كثيرة بين القبجاق والكرج، وقتال كثير بسبب ضيق بلاد القبجاق عليهم. وفيها ولي قضاء القضاة ببغداد أبو عبد الله محمد بن فلان. ولبس الخلعة في باب دار نائب الوزارة مؤيد الدين محمد بن محمد القيمق بحضرة الأعيان والكبراء، وقرىء تقليده بحضرتهم وساقه ابن الساعي بحروفه.

وممن توفي فيها من الأعيان:

عبد القادر بن داود

أبو محمد الواسطي الفقيه الشافعي الملقب بالمحب، استقل بالنظامية دهراً [طويلاً](٣)، واشتغل بها، وكان فاضلاً ديناً صالحاً، ومما أنشده من الشعر:

الـفَـرْقَـدَان كِـلاهُـمَـا شَـهِـدَا لَـهُ وَالـبَـدْرُ لَـيْـلَـةَ تِـمِّـهِ بِـسُـهَـادِهِ(٤)

---

(١) في ط: ابن الزكي.

(٢) هو صدر الدين أبو الحسن محمد بن أبي الفتح.

(٣) سقط في ط.

(٤) الفرقدان: نجمان في السماء قرب القطب. وليلة تمه: ليلة تمامه.

دَنِـف إذا اغـتَـبَـق الـظَّـلامَ تَـضَـرَّمَـتْ نَـارُ الـجَـوَى فِـي صَـدْرِهِ وَفُـؤَادِهِ(١)
فَـجَـرَتْ مَـدَامِـعُ جَـفْـنِـهِ فِـي خَـدِّهِ مِـثْـلَ الـمَـسِـيـلِ يَـسِـيـلُ فـي أَطْـوَارِهِ(٢)
شَـوْقـاً إِلَـى مُـضْـنِـيـهِ لَـمْ أَرَ هٰـكَـذَا مُـشْـتَـاقَ مُـضْـنَـى جِـسْـمِـهِ بِـبُـعَـادِهِ
لَـيْـتَ الَّـذِي أَضْـنَـاهُ سِـحْـرُ جُـفُـونِـهِ قَـبْـلَ الـمَـمَـاتِ يَـكُـونُ مِـنْ عُـوَّادِهِ

أبو طالب يحيى بن علي

اليعقوبي الفقيه الشافعي أحد المعيدين ببغداد، كان شيخاً مليح الشيبة جميل الوجه، كان يلي بعض الأوقاف، ومما أنشده لبعض الفضلاء:

لَـحَـمْـلُ تِـهَـامَـةٍ وَجِـبَـالِ أُحْـدِ وَمَـاءُ الـبَـحْـرِ يُـنْـقَـلُ بِـالـزَّبِـيـلِ
وَنَـقْـلُ الـصَّـخْـرِ فَـوْقَ الـظَّـهْـرِ عُـرْيـاً لأَهْـوَنُ مِـنْ مُـجَـالَـسَـةِ الـثَّـقِـيـلِ

ولبعضهم أيضاً، وهو مما أنشده المذكور:

وَإِذَا مَـضَـى لِـلْـمَـرْءِ مِـنْ أَعْـوَامِـهِ خَـمْـسُـونَ وَهْـوَ إِلَـى الـتُّـقَـى لا يَـجْـنَـحُ
عَـكَـفَـتْ عَـلَـيْـهِ الـمُـخْـزِيَـاتُ فَـقَـوْلُـهَـا حَـالَـفْـتَـنَـا، فَـأَقِـمْ كَـذَا لا تَـبْـرَحُ
وَإِذَا رَأَى الـشَّـيْـطَـانُ غُـرَّةَ وَجْـهِـهِ حَـيَّـا، وَقَـالَ فَـدَيْـتُ مَـنْ لا يُـفْـلِـحُ

اتفق أنه طولب بشيء من المال فلم يقدر عليه فاستعمل شيئاً من الأفيون المصري فمات من يومه ودفن بالوردية. وفيها توفي.

قطب الدين العادل

بالفيوم ونقل إلى القاهرة. وفيها توفي إمام الحنابلة بمكة.

الشيخ نصر بن أبي الفرج

المعروف بابن الحصري، جاور بمكة مدة لم يسافر، ثم ساقته المنية إلى اليمن، فمات بها في هذه السنة. وقد سمع الحديث من جماعة من المشايخ.

وفيها في ربيع الأول توفي بدمشق

الشهاب عبد الكريم بن نجم النيلي

أخو البهاء والناصح، وكان فقيهاً مناظراً بصيراً بالمحاكمات. وهو الذي أخرج مسجد الوزير من يد الشيخ علم الدين السخاوي رحمه الله تعالى بمنه وكرمه.

---

(١) الدنف: الذي اشتد مرضه واعتبق الظلام: اشتدّ. والجوى: حرقة الشوق.
(٢) كذا في الأصل، والبيت فيه إقواء.

ثم دخلت سنة عشرين وستمائة

فيها عاد الأشرف موسى بن العادل من عند أخيه الكامل صاحب مصر إلى الشام. فتلقاه أخوه المعظم وقد فهم أنهما تمالآ عليه. فبات ليلة بدمشق وسار من آخر الليل ولم يشعر أخوه بذلك، فسار إلى بلاده فوجد أخاه الشهاب غازي الذي استنابه على خلاط وميافارقين وقد قووا رأسه وكاتبه المعظم صاحب إربل وحسنوا له مخالفة الأشرف، فكتب إليه الأشرف ينهاه عن ذلك فلم يقبل، فجمع له العساكر ليقاتله. وفيها سار أقسيس الملك المسعود صاحب اليمن ابن الكامل من اليمن إلى مكة شرفها الله تعالى فقاتله ابن قتادة ببطن مكة بين الصفا والمروة، فهزمه أقسيس وشرده، واستقل بملك مكة مع اليمن، وجرت أمور فظيعة وتشرد حسن بن قتادة قاتل أبيه وعمه وأخيه في تلك الشعاب والأودية.

وممن توفي فيها من الأعيان الشيخ الإمام.

موفق الدين عبد الله بن أحمد

ابن محمد بن قدامة المقدسي شيخ الإسلام، مصنف المغني في الفقه، أبو محمد المقدسي إمام عالم بارع. لم يكن في عصره، بل ولا قبل دهره بمدة أفقه منه، ولد بجماعيل في شعبان سنة إحدى وأربعين وخمسمائة، وقدم مع أهله إلى دمشق في سنة إحدى وخمسن، وقرأ القرآن وسمع الحديث الكثير، ورحل مرتين إلى العراق إحداهما في سنة إحدى وستين مع ابن عمه الحافظ عبد الغني، والأخرى سنة سبع وستين، وحج في سنة ثلاث وسبعين، تفقه ببغداد على مذهب الإمام أحمد، وبرع وأفتى وناظر وتبحر في فنون كثيرة، مع زهد وعبادة وورع وتواضع وحسن أخلاق وجود وحياء وحسن سمت ونور وبهاء وكثرة تلاوة وصلاة وصيام وقيام وطريقة حسنة واتباع للسلف الصالح، وكانت له أحوال ومكاشفات، وقد قال الشافعي رحمه الله تعالى: إن لم تكن العلماء العاقلون أولياء الله فلا أعلم لله ولياً، وكان يؤم الناس للصلاة في محراب الحنابلة هو والشيخ العماد، فلما توفي العماد استقل هو بالوظيفة، فإن غاب صلّى عنه أبو سليمان ابن الحافظ عبد الرحمن ابن الحافظ عبد الغني، وكان يتنقل بين العشاءين بالقرب من محرابه، فإذا صلّى العشاء انصرف إلى منزله بدرب الدولعي بالرصيف وأخذ معه من الفقراء من تيسر يأكلون معه من طعامه، وكان منزله الأصلي بقاسيون فينصرف بعض الليالي بعد العشاء إلى الجبل، فاتفق في بعض الليالي إن خطف رجل عمامته وكان فيها كاغد فيه رمل، فقال له الشيخ: خذ الكاغد وألق العمامة، فظن الرجل أن ذلك نفقة فأخذه وألقى العمامة. وهذا يدل على ذكاء مفرط واستخصار حسن في الساعة الراهنة، حتى خلص عمامته من يده بتلطف. وله مصنفات عديدة مشهورة، منها المغني في شرح مختصر الخرقي في عشرة مجلدات، والشافي في مجلدين والمقنع للحفظ، والروضة في أصول الفقه، وغير ذلك من التصانيف المفيدة، وكانت وفاته في يوم عيد الفطر في هذه السنة، وقد بلغ الثمانين، وكان يوم سبت وحضر جنازته خلق كثير، ودفن بتربته المشهورة، ورئيت له منامات صالحة رحمه الله تعالى، وكان له أولاد

ذكور وإناث، فلما كان حياً ماتوا في حياته. ولم يعقب منهم سوى ابنه عيسى ولدين ثم ماتا وانقطع نسله، قال أبو المظفر سبط ابن الجوزي: نقلت من خط الشيخ موفق الدين رحمه الله تعالى:

لا تَجْلِسَنَّ بِبَابِ مَنْ ... يَأْبَى عَلَيْكَ دُخُولَ دَارِهْ
وَتَقُولُ حَاجَاتِي إِلَيْـ ... ـهِ يَعُوقُهَا إنْ لَمْ أُدَارِهْ
وَاتْرُكْهُ وَاقْصِدْ رَبَّهَا ... تُقْضَى وَرَبُّ الدَّارِ كَارِهْ

ومما أنشده الشيخ موفق الدين لنفسه رحمه الله تعالى ورضي عنه قوله:

أَبَعْدَ بَيَاضِ الشَّعْرِ أَعْمُرُ مَسْكَناً ... سِوَى القَبْرِ، إنِّي إنْ فَعَلْتُ لأَحْمَقُ
يُخَبِّرُنِي شَيْبِي بِأَنِّيَ مَيِّتٌ ... وَشِيكاً، فَيَنْعَانِي إلَيَّ وَيَصْدُقُ
يُخَرِّقُ عُمْرِي كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ... فَهَلْ مُسْتَطَاعٌ رَقْعُ مَا يَتَخَرَّقُ
كَأَنِّي بِجِسْمِي فَوْقَ نَعْشِي مُمَدَّداً ... فَمِنْ سَاكِتٍ أَوْ مُعْوِلٍ يَتَحَرَّقُ
إذا سُئِلُوا عَنِّي أَجَابُوا وَعَوَّلُوا ... وأَدْمُعُهُمْ تَنْهَلُّ هٰذَا المُوَفَّقُ
وَغُيِّبْتُ فِي صَدْعٍ مِنَ الأَرْضِ ضَيِّقٍ ... وَأُودِعْتُ لَحْداً فَوْقَهُ الصَّخْرُ مُطْبِقُ
وَيَحْثُو[1] عَلَيَّ التُّرْبَ أَوْثَقُ صَاحِبٍ ... وَيُسْلِمُنِي لِلْقَبْرِ مَنْ هُوَ مُشْفِقُ
فَيَا رَبِّ كُنْ لِي مُؤْنِساً يَوْمَ وَحْشَتِي ... فَإِنِّي بِمَا أَنْزَلْتَهُ لَمُصَدِّقُ
وَمَا ضَرَّنِي أَنِّي إلَى الله صَائِرٌ ... وَمَنْ هُوَ مِنْ أَهْلِي أَبَرُّ وَأَرْفَقُ

فخر الدين ابن عساكر عبد الرحمن بن الحسن بن هبة الله بن عساكر

أبو منصور الدمشقي شيخ الشافعية بها، وأمه اسمها أسماء بنت محمد بن الحسن بن طاهر القدسية المعروف والدها بأبي البركات ابن المران، وهو الذي جدد مسجد القدم في سنة سبع عشرة وخمسمائة وبه قبره وقبرها، ودفن هناك طائفة كبيرة من العلماء، وهي أخت آمنة والدة القاضي محيي الدين محمد بن علي بن الزكي، اشتغل الشيخ فخر الدين من صغره بالعلم الشريف على شيخه قطب الدين مسعود النيسابوري، فتزوج بابنته ودرس مكانه بالحاروجية، وبها كان يسكن في إحدى القاعتين اللتين أنشأهما وبها توفي غربي الإيوان، ثم تولى تدريس الصلاحية الناصرية بالقدس الشريف، ثم ولاه العادل تدريس التقوية، وكان عنده أعيان الفضلاء، ثم تفرغ فلزم المجاورة في الجامع في البيت الصغير إلى جانب محراب الصحابة يخلو فيه للعبادة والمطالعة والفتاوى، وكانت تفد إليه من الأقطار، وكان كثير الذكر حسن السمت، وكان يجلس تحت النسر في كل اثنين وخمسين مكانه عمه لإسماع الحديث بعد العصر، فيقرأ عليه دلائل النبوة وغيره، وكان يحضر مشيخة دار الحديث النورية، ومشهد ابن

---

(١) يحثو: يرمي ويهيل.

عروة أول ما فتح، وقد استدعاه الملك العادل بعد ما عزل قاضيه ابن الزكي فأجلسه إلى جانبه وقت السماط، وسأل منه أن يلي القضاء بدمشق، فقال حتى أستخير الله تعالى، ثم امتنع من ذلك فشق على السلطان امتناعه، وهم أن يؤذيه فقيل له أحمد الله الذي فيه مثل هذا. ولما توفي العادل وأعاد ابنه المعظم الخمور أنكر عليه الشيخ فخر الدين، فبقي في نفسه منه، فانتزع منه تدريس [التقوية وتدريس الناصرية التي بالقدس الشريف][1]، ولم يبق معه سوى الحاروجية ودار الحديث النورية ومشهد ابن عروة، وكانت وفاته يوم الأربعاء بعد العصر عاشر رجب من هذه السنة وله خمس وستون سنة، وصلي عليه بالجامع وكان يوماً مشهوداً، وحملت جنازته إلى مقابر الصوفية فدفن في أولها قريباً من قبر شيخه قطب الدين مسعود بن عروة.

سيف الدين محمد بن عروة الموصلي

المنسوب إليه مشهد ابن عروة ويقول الناس مشهد عروة بالجامع الأموي، لأنه أول من فتحه، وقد كان مشحوناً بالحواصل الجامعية وبنى فيه البركة ووقف فيه على الحديث درساً، ووقف خزائن كتب فيه، وكان مقيماً بالقدس الشريف ولكنه كان من خواص أصحاب الملك المعظم، فانتقل إلى دمشق حين خرب سور بيت المقدس إلى أن توفي بها، وقبره عند قباب أتابك طغتكين قبلي المصلى رحمه الله تعالى.

الشيخ أبو الحسن الروزبهاري

دفن بالمكان المنسوب إليه بين السورين عند باب الفراديس.

الشيخ عبد الرحمن اليمني

كان مقيماً بالمنارة الشرقية، كان صالحاً زاهداً ورعاً وفيه مكارم أخلاق، ودفن بمقابر الصوفية.

الرئيس عز الدين المظفر بن أسعد

ابن حمزة التميمي بن القلانسي، أحد رؤساء دمشق وكبرائها، وجده أبو يعلى حمزة له تاريخ ذيل به على ابن عساكر، وقد سمع عز الدين هذا الحديث من الحافظ أبي القاسم ابن عساكر وغيره، ولزم مجالسة الكندي وانتفع به.

الأمير الكبير أحد حجاب الخليفة

محمد بن سليمان بن قتلمش بن تركانشاه بن منصور السمرقندي، وكان من أولاده الأمراء، وولي حاجب الحجاب بالديوان العزيز الخليفتي، وكان يكتب جيداً وله معرفة حسنة بعلوم كثيرة، منها الأدب وعلوم الرياضة، وعمر دهراً، وله حظ من نظم الشعر الحسن ومن شعره قوله:

---

(١) ما بين معقوفين سقط في ط.

سَئِمْتُ تَكَالِيفَ هٰذِي الحَيَاةِ وَكَدَّ الصَّبَاحِ بِهَا وَالمَسَاءْ
وَقَدْ كُنْتُ كَالطِّفْلِ فِي عَقْلِهِ قَلِيلَ الصَّوَابِ كَثِيرَ الهُرَاءْ(١)
أَنَامُ إذا كُنْتُ فِي مَجْلِسٍ وَأَسْهَرُ عِنْدَ دُخُولِ الغِنَاءْ
وَقَصَّرَ خَطْوِيَ قَيْدُ المَشِيبِ وَطَالَ عَلَيَّ مَا عَنَانِي عَنَاءْ
وَغُودِرْتُ كَالفَرْخِ فِي عُشِّهِ وَخَلَّفْتُ حِلْمِي وَرَاءَ وَرَاءْ
وَمَا جَرَّ ذٰلِكَ غَيْرُ البَقَاءِ فَكَيْفَ بَدَا سُوءُ فِعْلِ البَقَاءْ

وله أيضاً، وهو من شعره الحسن رحمه الله:

إلٰهِي يَا كَثِيرَ العَفْوِ عَفْواً لِمَا أَسْلَفْتُ فِي زَمَنِ الشَّبَابِ
فَقَدْ سَوَّدْتُ فِي الآثَامِ وَجْهاً ذَلِيلاً خَاضِعاً لَكَ فِي التُّرَابِ
فَبَيِّضْهُ بِحُسْنِ العَفْوِ عَنِّي وَسَامِحْنِي وَخَفِّفْ مِنْ عَذَابِي

ولما توفي صلّي عليه بالنظامية ودفن بالشونيزية ورآه بعضهم في المنام فقال ما فعل بك ربك؟ فقال:

تَحَاشَيْتُ اللِّقَاءَ لِسُوءِ فِعْلِي وَخَوْفاً فِي المَعَادِ مِنَ النَّدَامَهْ
فَلَمَّا أَنْ قَدِمْتُ عَلَى إلٰهِي وَحَاقَقَ فِي الحِسَابِ عَلَى قُلامَهْ(٢)
وَكَانَ العَدْلُ أَنْ أُصْلَى جَحِيماً تَعَطَّفَ بِالمَكَارِمِ وَالكَرَامَهْ
وَنَادَانِي لِسَانُ العَفْوِ مِنْهُ أَلاَ يَا عَبْدُ يَهْنِيكَ السَّلامَهْ

أبو علي الحسن بن أبي المحاسن

زهرة بن علي بن زهرة العلوي الحسيني الحلبي، نقيب الأشراف بها، كان لديه فضل وأدب وعلم بأخبار الناس والتواريخ والسير والحديث، ضابطاً حافظاً للقرآن المجيد، وله شعر جيد فمنه قوله:

لَقَدْ رَأَيْتُ المَعْشُوقَ وَهْوَ مِنَ الـ ـهَجْرِ تَنْبُو النَّوَاظِرُ عَنْهُ
أَثَّرَ الدَّهْرُ فِيهِ آثَارَ سُوءٍ وَأَدَالَتْ يَدُ الحَوَادِثِ مِنْهُ
عَادَ مُسْتَبْدَلاً وَمُسْتَبْدَلاً عِزّاً بِذُلٍّ كَأَنْ لَمْ يَصُنْهُ

أبو علي يحيى بن المبارك

ابن الخلاخلي من أبناء التجار، سمع الحديث وكان جميل الهيئة يسكن بدار الخلافة وكان

(١) الهراء: الكلام الفاسد الكثير الذي لا نظام له، الهذيان.
(٢) حاقق: حقق وسأل ووضع الحق في نصابه. والقلامة: القليل من كل شيء، وقلامة الظفر: ما تعط من طرفه.

عنده علم وله شعر حسن، فمنه قوله:

خَيْرُ إِخْوانِكَ المُشَارِكَ فِي المُرِّ وَأَيْنَ الشَّرِيكُ فِي المُرِّ أَيْنَا

الَّذِي إِنْ شَهِدْتَ سَرَّكَ فِي القَوْمِ وَإِنْ غِبْتَ كَانَ أُذْناً وَعَيْنَا

مِثْلُ العَقِيقِ إِنْ مَسَّهُ النَّارُ جَلاهُ الجَلاَ فَازْدَادَ زَيْنَا

وَأَخُو السُّوءِ إِنْ يَغِبْ عَنْكَ يَشْنَأْكَ[1] وَإِنْ يَحْضُرْ يَكُنْ ذَاكَ شَيْنَا

جَيْبُهُ غَيْرُ نَاصِحٍ وَمُنَاهُ أَنْ يَصُبَّ الخَلِيلَ إِفْكاً وَمَيْنَا[2]

فَاخْشَ مِنْهُ وَلا تَلَهَّفْ عَلَيْهِ إِنَّ غُرْماً لَهُ كَنَقْدِكَ دَيْنَا

ثم دخلت سنة إحدى وعشرين وستمائة

فيها وصلت سرية من جهة جنكزخان غير الأولتين إلى الري، وكانت قد عمرت قليلاً فقتلوا أهلها أيضاً، ثم ساروا إلى ساوة، ثم إلى قم وقاسان، ولم تكونا طرقتا إلا هذه المرة، ففعلوا بها مثل ما تقدم من القتل والسبي، ثم ساروا إلى همذان فقتلوا أيضاً وسبوا، ثم ساروا إلى خلف الخوارزمية إلى أذربيجان فكسروهم وقتلوا منهم خلقاً كثيراً، فهربوا منهم إلى تبريز فلحقوهم وكتبوا إلى ابن البهلوان: إن كنت مصالحاً لنا فابعث لنا بالخوارزمية وإلا فأنت مثلهم، فقتل منهم خلقاً وأرسل برؤوسهم إليهم، مع تحف وهدايا كثيرة، هذا كله وإنما كانت هذه السرية ثلاثة آلاف والخوارزمية وأصحاب البهلوان أضعاف أضعافهم، ولكن الله تعالى ألقى عليهم الخذلان والفشل، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفيها ملك غياث الدين بن خوارزم شاه بلاد فارس مع ما في يده من مملكة أصفهان وهمذان وفيها استعاد الملك الأشرف مدينة خلاط من أخيه شهاب الدين غازي، وكان قد جعلها إليه مع جميع بلاد أرمينية وميافارقين وجاي وجبل حور، وجعله ولي عهده من بعده، فلما عصى عليه وتشغب دماغه بما كتب إليه المعظم من تحسينه له مخالفته، فركب إليه وحاصره بخلاط فسلمت إليه وامتنع أخوه في القلعة، فلما كان الليل نزل إلى أخيه متعذراً فقبل عذره ولم يعاقبه بل أقره على ميافارقين وحدها، وكان صاحب إربل والمعظم متفقين مع الشهاب غازي على الأشرف، فكتب الكامل إلى أخيه المعظم يتهدده لئن ساعد على الأشرف ليأخذنه وبلاده، وكان بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل مع الأشرف، فركب إليه صاحب إربل فحاصره بسبب قلة جنده لأنه أرسلهم إلى الأشرف حين نازل خلاط، فلما انفصلت الأمور على ما ذكرنا ندم صاحب إربل، والمعظم بدمشق أيضاً.

وفيها أرسل المعظم ولده الناصر داود إلى صاحب إربل يقويه على مخالفة الأشرف، وأرسل صوفياً من الشميساطية يقال له الملق إلى جلال الدين بن خوارزم شاه ـ وكان قد أخذ

(١) يشنأك: يبغضك. (٢) الإفك والمين: الكذب.

أذربيجان في هذه السنة وقوي جأشه ـ يتفق معه على أخيه الأشرف، فوعده النصر والرفادة. وفيها قدم الملك مسعود أقسيس ملك اليمن على أبيه الكامل بالديار المصرية ومعه شيء كثير من الهدايا والتحف، من ذلك مائتا خادم وثلاثة أفيلة هائلة، وأحمال عود وند ومسك وعنبر، وخرج أبوه الكامل لتلقيه ومن نية أقسيس أن ينزع الشام من يد عمه المعظم. وفيها كمل عمارة دار الحديث الكاملية بمصر، وولي مشيختها الحافظ أبو الخطاب ابن دحية الكلبي، وكان مكثاراً كثير الفنون، وعنده فوائد وغرائب وعجائب رحمه الله.

وممن توفي فيها من الأعيان:

أحمد بن محمد

ابن علي القادسي الضرير الحنبلي، والد صاحب الذيل على تاريخ ابن الجوزي، وكان القادسي هذا يلازم حضور مجلس الشيخ أبي الفرج ابن الجوزي، ويزهر، لما يسمعه من الغرائب، ويقول والله إن ذا مليح. فاستقرض منه الشيخ مرة عشرة دنانير فلم يعطه، وصار يحضر ولا يتكلم، فقال الشيخ مرة: هذا القادسي لا يقرضنا شيئاً ولا يقول والله إن ذا مليح؟ رحمهم الله تعالى، وقد طلب القادسي مرة إلى دار المستضيء ليصلي بالخليفة التراويح فقيل له والخليفة يسمع: ما مذهبك؟ فقال حنبلي، فقال له لا تصلّ بدار الخلافة وأنت حنبلي، فقال أنا حنبلي ولا أصلي بكم، فقال الخليفة اتركوه لا يصلي بنا إلا هو فصلى بهم.

أبو الكرم المظفر بن المبارك

ابن أحمد بن محمد البغدادي الحنفي شيخ مشهد أبي حنيفة وغيره، وولي الحسبة بالجانب الغربي من بغداد، وكان فاضلاً ديناً شاعراً ومن شعره:

فَصُنْ بِجَمِيلِ الصَّبْرِ نَفْسَكَ وَاغْتَنِمْ ... شَرِيفَ المَزَايَا لا يَفُتْكَ ثَوَابُهَا
وعِشْ سَالِماً وَالقَوْلُ فِيكَ مُهَذَّبٌ ... كَرِيماً وَقَدْ هَانَتْ عَلَيْكَ صِعَابُهَا
وَتَنْدَرِجُ الأَيَّامُ وَالكُلُّ ذَاهِبٌ ... قَلِيلٌ وَيَفْنَى عَذْبُهَا وَعَذَابُهَا
فَمَا الدَّهْرُ إلاّ مُرُّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ... وَمَا العُمْرُ إلاّ طَيُّهَا وَذَهَابُهَا
وَمَا الحَزْمِ إلاّ فِي دُخَانِ عَزِيمَةٍ ... وَفِيكَ المَعَالِي صَفْوُهَا وَلُبَابُهَا
وَدَعْ عَنْكَ أَحْلامَ الأَمَانِي فَإِنَّهُ ... سَيُسْفِرُ يَوْماً غَيُّهَا وَصَوَابُهَا

محمد بن أبي الفرج بن بركة

الشيخ فخر الدين أبو المعالي الموصلي، قدم بغداد واشتغل بالنظامية وأعاد بها، وكانت له معرفة بالقراءات، وصنّف كتاباً في مخارج الحروف، وأسند الحديث وله شعر لطيف.

أبو بكر بن حلبة الموازيني البغدادي

كان فرداً في علم الهندسة وصناعة الموازين يخترع أشياء غريبة عجيبة، من ذلك أنه ثقب

حبة خشخاش سبعة ثقوب وجعل في كل ثقب شعرة، وكان له حظوة عند الدولة.

أحمد بن جعفر بن أحمد

ابن محمد أبو العباس الدبيبي البيع الواسطي، شيخ أديب فاضل له نظم ونثر، عارف بالأخبار والسير، وعنده كتب جيدة كثيرة، وله شرح قصيدة لأبي العلاء المعري في ثلاثة مجلدات، وقد أورد له ابن الساعي شعراً حسناً فصيحاً حلواً لذيذاً في السمع لطيفاً في القلب.

ثم دخلت سنة اثنتين وعشرين وستمائة

فيها عاثت الخوارزمية حين قدموا مع جلال الدين بن خوارزم شاه من بلاد غزنة مقهورين من التتار إلى بلاد خوزستان ونواحي العراق، فأفسدوا فيه وحاصروا مدنه ونهبوا قراه. وفيها استحوذ جلال الدين بن خوارزم شاه على بلاد أذربيجان وكثيراً من بلاد الكرج، وكسر الكرج وهم في سبعين ألف مقاتل، فقتل منهم عشرينِ ألفاً من المقاتلة واستفحل أمره جداً وعظم شأنه، وفتح تفليس فقتل منها ثلاثين ألفاً. وزعم أبو شامة أنه قتل من الكرج سبعين ألفاً في المعركة، وقتل من تفليس تمام المائة ألف، وقد اشتغل بهذه الغزوة عن قصد بغداد، وذلك أنه لما حاصر دقوقا سبه أهلها ففتحها قهراً وقتل من أهلها خلقاً كثيراً، وخرب سورها وعزم على قصد الخليفة ببغداد لأنه فيما زعم عمل على أبيه حتى هلك، واستولت التتار على البلاد، وكتب إلى المعظم بن العادل يستدعيه لقتال الخليفة ويحرضه على ذلك، فامتنع المعظم من ذلك، ولما علم الخليفة بقصد جلال الدين بن خوارزم شاه بغداد انزعج لذلك وحصن بغداد واستخدم الجيوش والأجناد، وأنفق في الناس ألف ألف دينار، وكان جلال الدين قد بعث جيشاً إلى الكرج فبعثوا إليه أن أدركنا قبل أن نهلك عن آخرنا، وبغداد ما تفوت. فسار إليهم وكان من أمره ما ذكرنا.

وفيها كان غلاء شديد بالعراق والشام بسبب قلة الأمطار وانتشار الجراد، ثم أعقب ذلك فناء كثير بالعراق والشام أيضاً، فمات بسببه خلق كثير في البلدان، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفاة الخليفة الناصر لدين الله وخلافة ابنه الظاهر

لما كان يوم الأحد آخر يوم من شهر رمضان المعظم من هذه السنة توفي الخليفة الناصر لدين الله أبو العباس أحمد بن المستضيء بأمر الله أبي المظفر يوسف بن المقتفي لأمر الله، أبي عبد الله محمد بن المستظهر بالله، أبي عبد الله أحمد بن المقتدي بأمر الله، أبي القاسم عبد الله بن الذخيرة محمد بن القائم بأمر الله، أبي جعفر عبد الله بن القادر بالله، أبي العباس أحمد بن الموفق أبي أحمد بن محمد المتوكل أبي جعفر عبد الله بن القادر بالله أبي العباس أحمد بن إسحاق بن المقتدر بالله أبي الفضل جعفر بن المعتضد بالله أبي العباس أحمد بن الموفق، أبي أحمد بن محمد المتوكل على الله جعفر بن المعتصم بالله أبي إسحاق محمد بن

هارون الرشيد بن المهدي محمد بن عبد الله أبي جعفر المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب الهاشمي العباسي، أمير المؤمنين، ولد ببغداد عاشر رجب سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة، وبويع له بالخلافة بعد موت أبيه سنة خمس وسبعين [وخمسمائة] وتوفي في هذه السنة وله من العمر تسع وستون سنة وشهران وعشرون يوماً، وكانت مدة خلافته سبعاً وأربعين سنة إلا شهراً، ولم يقم أحد من الخلفاء العباسيين قبله في الخلافة هذه المدة الطويلة، ولم تطل مدة أحد من الخلفاء مطلقاً أكثر من المستنصر العبيدي، أقام بمصر حاكماً ستين سنة، وقد انتظم في نسبه أربعة عشر خليفة، وولي عهد على ما رأيت، وبقية الخلفاء العباسيين كلهم من أعمامه وبني عمه. وكان مرضه قد طال به وجمهوره من عسار البول، مع أنه كان يجلب له الماء من مراحل عن بغداد ليكون أصفى، وشق ذكره مرات بسبب ذلك، ولم يغن عنه هذا الحذر شيئاً، وكان الذي ولي غسله محيي الدين ابن الشيخ أبي الفرج ابن الجوزي، وصلى عليه ودفن في دار الخلافة، ثم نقل إلى الترب من الرصافة في ثاني ذي الحجة من هذه السنة، وكان يوماً مشهوداً، قال ابن الساعي: أما سيرته فقد تقدمت في الحوادث، وأما ابن الأثير في كامله فإنه قال: وبقي الناصر لِدين الله ثلاث سنين عاطلاً من الحركة بالكلية، وقد ذهبت إحدى عينيه والأخرى يبصر بها إبصاراً ضعيفاً، وآخر الأمر أصابه دوسنطارية عشرين يوماً ومات، وزر له عدة وزراء، وقد تقدم ذكرهم، ولم يطلق في أيام مرضه ما كان أحدثه من الرسوم الجائرة، وكان قبيح السيرة في رعيته ظالماً لهم فخرب في أيامه العراق وتفرق أهله في البلاد، وأخذ أموالهم وأملاكهم، وكان يفعل الشيء وضده، فمن ذلك أنه عمل دوراً للإفطار في رمضان ودوراً لضيافة الحجاج، ثم أبطل ذلك، وكان قد أسقط مكوساً ثم أعادها وجعل جل همه في رمي البندق والطيور المناسيب وسراويلات الفتوة. قال ابن الأثير: وإن كان ما ينسبه العجم إليه صحيحاً من أنه هو الذي أطمع التتار في البلاد وراسلهم فهو الطامة الكبرى التي يصغر عندها كل ذنب عظيم. قلت، وقد ذكر عنه أشياء غريبة، من ذلك أنه كان يقول للرسل الوافدين عليه فعلتم في مكان كذا وكذا، وفعلتم في الموضع الفلاني كذا، حتى ظن بعض الناس أو أكثرهم أنه كان يكاشف أو أن جنياً يأتيه بذلك، والله أعلم.

خلافة الظاهر بن الناصر

لما توفي الخليفة الناصر لدين الله كان قد عهد إلى ابنه أبي نصر محمد هذا ولقبه بالظاهر، وخطب له على المنابر، ثم عزله عن ذلك بأخيه علي، فتوفي في حياة أبيه سنة ثنتي عشرة، فاحتاج إلى إعادة هذا لولاية العهد فخطب له ثانياً، فحين توفي بويع له بالخلافة، وعمره يومئذٍ ثنتان وخمسون سنة، فلم يل الخلافة من بني العباس أسن منه، وكان عاقلاً وقوراً ديناً عادلاً محسناً، رد مظالم كثيرة وأسقط مكوساً كان قد أحدثها أبوه، وسار في الناس سيرة حسنة، حتى قيل: إنه لم يكن بعد عمر بن عبد العزيز أعدل منه لو طالت مدته، لكنه لم يحل إلى الحول، بل كانت مدته تسعة أشهر أسقط الخراج الماضي عن الأراضي التي قد تعطلت، ووضع عن أهل بلدة واحدة وهي يعقوبا سبعين ألف دينار كان أبوه قد زادها عليهم في الخراج، وكانت صنجة

المخزن تزيد على صنجة البلد نصف دينار في كل مائة إذا قبضوا وإذا أقبضوا دفعوا بصنجة البلد، فكتب إلى الديون ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المطففون: ١ ـ ٦] فكتب إليه بعض الكتاب يقول: يا أمير المؤمنين إن تفاوت هذا عن العام الماضي خمسة وثلاثون ألفاً، فأرسل ينكر عليه ويقول: هذا يترك وإن كان تفاوته ثلاثمائة ألف وخمسين ألفاً، رحمه الله. وأمر للقاضي أن كل من ثبت له حق بطريق شرعي يوصل إليه بلا مراجعة، وأقام في النظر على الأموال الحشرية رجلاً صالحاً واستخلف على القضاء الشيخ العلامة عماد الدين أبا صالح نصر ابن عبد الرزاق ابن الشيخ عبد القادر الجيلي في يوم الأربعاء ثامن ذي الحجة، فكان من خيار المسلمين ومن القضاة العادلين، رحمهم الله أجمعين. ولما عرض عليه القضاء لم يقبله إلا بشرط أن يورث ذوي الأرحام، فقال: أعط كل ذي حق حقه واتق الله ولا تتق سواه، وكان من عادة أبيه أن يرفع إليه حراس الدروب في كل صباح بما كان عندهم في المحال من الاجتماعات الصالحة والطالحة، فلما ولي الظاهر أمر بتبطيل ذلك كله وقال: أي فائدة في كشف أحوال الناس وهتك أستارهم، فقيل له: إن ترك ذلك يفسد الرعية، فقال نحن ندعو الله لهم أن يصلحهم، وأطلق من كان في السجون معتقلاً على الأموال الديوانية، ورد عليهم ما كان استخرج منهم قبل ذلك من المظالم وأرسل إلى القاضي بعشرة آلاف دينار يوفي بها ديون من في سجونه من المدينين الذين لا يجدون وفاء، وفرق في العلماء بقية المائة ألف، وقد لامه بعض الناس في هذه التصرفات فقال: إنما فتحت الدكان بعد العصر، فذروني أعمل صالحاً وأفعل الخير، فكم مقدار ما بقيت أعيش؟ ولم تزل هذه سيرته حتى توفي في العام الآتي كما سيأتي. ورخصت الأسعار في أيام وقد كانت قبل ذلك في غاية الغلاء حتى أنه فيما حكى ابن الأثير أكلت الكلاب والسنانير والميّات ببلاد الجزيرة والموصل فزال ذلك والحمد لله. وكان هذا الخليفة الظاهر حسن الشكل مليح الوجه أبيض مشرباً حلو الشمائل شديد القوى. وممن توفي فيها من الأعيان:

أبو الحسن علي الملقب بالملك الأفضل

نور الدين ابن السلطان صلاح الدين بن يوسف بن أيوب، كان ولي عهد أبيه، وقد ملك دمشق بعده مدة سنتين ثم أخذها منه عمه العادل، ثم كاد أن يملك الديار المصرية بعد أخيه العزيز عثمان فأخذها منه عمه العادل أبو بكر، ثم اقتصر على ملك صرخد فأخذها منه أيضاً عمه العادل، ثم آل به الحال أن ملك سميساط وبها توفي في هذه السنة، وكان فاضلاً شاعراً جيد الكتابة، ونقل إلى مدينة حلب فدفن بها بظاهرها رحمه الله تعالى. وقد ذكر ابن خلكان أنه كتب إلى الخليفة الناصر لدين الله يشكو إليه عمه أبا بكر وأخاه عثمان وكان الناصر شيعياً مثله فقال:

مَـوْلاَيَ إِنَّ أَبَـا بَـكْـرٍ وَصَـاحِـبَـهُ ... عُثْمَانَ قَدْ غَصَبَا بِالسَّيْفِ حَقَّ عَلِي

وَهْـوَ الَّـذِي كَـانَ قَـدْ ولاَّهُ وَالِـدُهُ ... عَلَيْهِمَا فَاسْتَقَامَ الأَمْرُ حِينَ وَلِي

فَخَالَفَاهُ وَحَلاَّ عِقْدَ بَيْعَتِهِ وَالأَمْرُ بَيْنَهُمَا وَالنَّصُّ فِيهِ جَلِي
فَانْظُرْ إلى حَظِّ هٰذا الاسْمِ كَيْفَ لَقِي مِنَ الأَوَاخِرِ مَا لاَقَى مِنَ الأُوَلِ

الأمير سيف الدين علي

ابن الأمير علم الدين بن سليمان بن جندر، كان من أكابر الأمراء بحلب، وله الصدقات الكثيرة ووقف بها مدرستين إحداهما على الشافعية والأخرى على الحنفية، وبنى الخانات والقناطر وغير ذلك من سبل الخيرات والغزوات رحمه الله.

الشيخ علي الكردي

الموله المقيم بظاهر باب الجابية، قال الشيخ أبو شامة: وقد اختلفوا فيه فبعض الدماشقة يزعم أنه كان صاحب كرامات، وأنكر ذلك آخرون، وقالوا ما رآه أحد يصلي ولا يصوم ولا لبس مداساً، بل كان يدوس النجاسات ويبول على ثيابه، وقال آخرون كان له تابع من الجن يتحدث على لسانه حكى السبط عن امرأة قالت جاء خبر بموت أمي باللاذقية أنها ماتت وقال لي بعضهم إنها لم تمت، قالت فمررت به وهو قاعد عند المقابر فوقفت عنده فرفع رأسه وقال لي ماتت ماتت إيش تعملين؟ فكان كما قال. وحكى لي عبد الله صاحبي قال جعت يوماً وما كان معي شيء فاجتزت به فدفع إلي نصف درهم وقال: يكفي هذا للخبز والفت بدبس، وقال مر يوماً على الخطيب كمال الدين الدولعي فقال له يا شيخ علي أكلت اليوم كسيرات يابسة وشربت عليها الماء فكفتني، فقال له الشيخ علي الكردي وما تطلب نفسك شيئاً آخر غير هذا؟ قال لا، فقال يا مسلمين من يقنع بكسرة يابسة يحبس نفسه في هذه المقصورة ولا يقضي ما فرضه الله عليه من الحج.

الفخر ابن تيمية

محمد بن أبي القاسم بن محمد الشيخ فخر الدين أبو عبد الله بن تيمية الحراني، عالمها وخطيبها وواعظها، اشتغل على مذهب الإمام أحمد وبرع فيه وبرز وحصل وجمع تفسيراً حافلاً في مجلدات كثيرة وله الخطب المشهورة المنسوبة إليه، وهم عم الشيخ مجد الدين صاحب المنتقى في الأحكام، قال أبو المظفر سبط ابن الجوزي: سمعته يوم جمعة بعد الصلاة وهو يعظ الناس ينشد:

أَحْبَابَنَا قَدْ نَذَرَتْ مُقْلَتِي مَا تَلْتَقِي بِالنَّوْمِ أَوْ نَلْتَقِي
رِفْقاً بِقَلْبٍ مُغْرَمٍ وَاعْطِفُوا عَلَى سِقَامِ الجَسَدِ المُحْرَقِ
كَمْ تَمْطُلُونِي بِلَيَالِي اللِّقَا قَدْ ذَهَبَ العُمْرُ وَلَمْ نَلْتَقِي

وقد ذكرنا أنه قدم بغداد حاجاً بعد وفاة شيخه أبي الفرج ابن الجوزي ووعظ بها في مكان وعظه.

الوزير ابن شكر

صفي الدين أبو محمد عبد الله بن علي بن عبد الخالق بن شكر، ولد بالديار المصرية بدميرة بين مصر واسكندرية سنة أربعين وخمسمائة، ودفن بتربته عند مدرسته بمصر، وقد وزر للملك العادل وعمل أشياء في أيامه منها تلبيط جامع دمشق وأحاط سور المصلى عليه، وعمل الفوارة ومسجدها وعمارة جامع المزة، وقد نكب وعزل سنة خمس عشرة وستمائة وبقي معزولاً إلى هذه السنة فكانت فيها وفاته، ومنهم من يقول وقد كان مشكور السيرة ومنهم من يقول كان ظالماً فالله أعلم.

أبو إسحاق إبراهيم بن المظفر

ابن إبراهيم بن علي المعروف بابن البذي الواعظ البغدادي، أخذ الفن عن شيخه أبي الفرج بن الجوزي وسمع الحديث الكثير، ومن شعره قوله في الزهد:

مَا هٰذِهِ الدُّنْيَا بِدَارِ مَسَرَّةٍ فَتَخَوَّفِي مَكْراً لَهَا وَخِدَاعَا
بَيْنَا الفَتَى فِيهَا يُسَرُّ بِنَفْسِهِ وَبِمَالِهِ يَسْتَمْتِعُ اسْتِمْتَاعَا
حَتَّى سَقَتْهُ مِنَ المَنِيَّةِ شَرْبَةً وَحَمَتْهُ فِيهِ بَعْدَ ذَاكَ رَضَاعَا
فَغَدَا بِمَا كَسَبَتْ يَدَاهُ رَهِينَةً لا يَسْتَطِيعُ لِمَا عَرَتْهُ دِفَاعَا
لَوْ كَانَ يَنْطِقُ قَالَ مِنْ تَحْتِ الثَّرَى فَلْيُحْسِنِ العَمَلَ الفَتَى ما اسْطَاعَا

أبو الحسن علي بن الحسن

الرازي ثم البغدادي الواعظ، عنده فضائل وله شعر حسن، فمنه قوله في الزهد:

اسْتَعِدِّي يا نَفْسُ لِلْمَوتِ وَاسْعَيْ لِنَجَاةٍ فَالحَازِمُ المُسْتَعِدُّ
قَدْ تَبَيَّنْتُ أَنَّهُ لَيْسَ لِلْحَيِّ خُلُودٌ وَلا مِنَ المَوْتِ بُدُّ
إِنَّمَا أَنْتِ مُسْتَعِيرَةُ مَا سَوْ فَ تَرُدِّينَ وَالعَوَارِي تُرَدُّ
أَنْتِ تَسْهَيْنَ وَالحَوَادِثُ لا تَسْهُو وَتَلْهِينَ وَالمَنَايَا تَجِدُّ
لا تُرَجِّي البَقَاءَ في مَعْدِنِ المَوْ تِ وَلا أَرْضاً بِهَا لَكِ وِرْدُ
أَيُّ مُلْكٍ فِي الأَرْضِ أَمْ أَيُّ حَظٍّ لامْرِئٍ حَظُّهُ مِنَ الأَرْضِ لَحْدُ؟
كَيْفَ يَهْوَى امْرُؤٌ لَذَاذَةَ أَيَّا مٍ عَلَيْهِ الأَنْفَاسُ فِيهَا تُعَدُّ

البهاء السنجاري

أبو السعادات أسعد بن محمد [بن يحيى بن][1] موسى الفقيه الشافعي الشاعر، قال

(١) سقط في ط.

ابن خلكان: كان فقيهاً وتكلم في الخلاف إلا أنه غلب عليه الشعر، فأجاد فيه واشتهر بنظمه وخدم به الملوك، وأخذ منهم الجوائز وطاف البلاد، وله ديوان بالتربة الأشرفية بدمشق، ومن رقيق شعره ورائقه قوله:

وَهَوَاكِ مَا خَطَرَ السُّلُوُّ بِبَالِهِ ... وَلأَنْتِ أَعْلَمُ فِي الغَرَامِ بِحَالِهِ
وَمَتَى وَشَى وَاشٍ إِلَيْكِ بِأَنَّهُ ... سَالٍ هَوَاكِ فَذَاكَ مِنْ عُذَّالِهِ
أَوَلَيْسَ لِلْكَلِفِ المُعَنَّى شَاهِدٌ ... مِنْ حَالِهِ يُغْنِيكِ عَنْ تَسْآلِهِ
جَدَّدْتِ ثَوْبَ سقامِهِ وَهَتَكْتِ[1] سِتْـ ... ـرَ غَرَامِهِ وَصَرَمْتِ[2] حَبْلَ وِصَالِهِ

وهي قصيدة طويلة امتدح فيها القاضي كمال الدين الشهرزوري وله:

للهِ أَيَّامِي عَلَى رَامَةٍ ... وَطِيبِ أَوْقَاتِي عَلَى حَاجِرِ
تَكَادُ لِلسُّرْعَةِ فِي مَرِّهَا ... أَوَّلُهَا يَعْثُرُ بِالآخِرِ

وكانت وفاته في هذه السنة عن تسعين سنة رحمه الله بمنه وفضله.

عثمان بن عيسى

ابن درباس بن قسر بن جهم بن عبدوس الهدباني الماراني ضياء الدين أخو القاضي صدر الدين عبد الملك حاكم الديار المصرية في الدولة الصلاحية، وضياء الدين هذا هو شارح المهذب وصل فيه إلى كتاب الشهادات في نحو من عشرين مجلداً، وشرح اللمع في أصول الفقه والتنبيه للشيرازي، وكان بارعاً عالماً بالمذهب رحمه الله تعالى.

أبو محمد عبد الله بن أحمد البربري[3]

البواريجي ثم البغدادي، شيخ فاضل له رواية، ومما أنشده:

ضَيَّقَ العُذْرَ فِي الضَّرَاعَةِ أَنَّا ... لَوْ قَنِعْنَا بِقَسْمِنَا لَكَفَانَا
مَا لَنَا نَعْبُدُ العِبَادَ إذا كَانَ ... إِلَى اللهِ فَقْرُنَا وَغِنَانَا

أبو الفضل عبد الرحيم بن نصر الله

ابن علي بن منصور بن الكيال الواسطي من بيت الفقه والقضاء، وكان أحد المعدلين ببغداد ومن شعره:

فَتَبّاً لِدُنْيا لا يَدُومُ نَعِيمُهَا ... تَسُرُّ يَسِيراً ثُمَّ تُبْدِي المَسَاوِيَا
تُرِيكَ رواءً[4] فِي النِّقَابِ وَزُخْرُفاً ... وَتُسْفِرُ عَنْ شَوْهَاءَ[5] طَخْيَاءَ[6] عَامِيا[7]

---

(١) هتك: مزق. (٢) صرم: قطع. (٣) في ط: ابن السرسوي.
(٤) رواء: منظر. (٥) شوهاء: قبيحة، وفرس شوهاء صفة محمودة فيها لسعة أشداقها.
(٦) طخياء: مبسوطة. (٧) عاميا: عمياء.

ومن ذلك قوله:

إنْ كُنتُ بَعْدَ الطَّاعَتَيْنِ تَسَامَحَتْ بِالفَحْصِ أجْفَانِي فَمَا أجْفَانِي
أوْ كُنتُ مِنْ بَعْدِ الأحِبَّةِ نَاظِراً حَسَناً بِإنْسَانِي[١] فَمَا أنْسَانِي
الدَّهْرُ مَغْفُورٌ لَهُ زَلاَّتُهُ إنْ عَادَ أوْطَانِي عَلَى أوْطَانِي

أبو علي الحسن بن علي

ابن الحسن بن علي بن الحسن بن علي بن عمار بن فهر بن وقاح الياسري نسبة إلى عمار بن ياسر، شيخ بغدادي فاضل، له مصنفات في التفسير والفرائض، وله خطب ورسائل وأشعار حسنة وكان مقبول الشهادة عند الحكام.

أبو بكر محمد بن يوسف بن الطباخ

الواسطي البغدادي الصوفي، باشر بعض الولايات ببغداد، ومما أنشده:

مَا وَهَبَ الله لا مْرِىءٍ هِبَةً أحْسَنَ مِنْ عَقْلِهِ وَمِنْ أدبِهْ
نِعْمَا جَمَالُ الفَتَى فَإنْ فُقِدَا فَفَقْدُهُ لِلْحَيَاةِ أجْمَلُ بِهْ

ابن يونس شارح التنبيه

أبو الفضل أحمد ابن الشيخ العلامة كمال الدين أبي الفتح موسى بن يونس بن محمد بن منعة بن مالك بن محمد بن سعد بن سعيد بن عاصم بن عابد بن كعب بن قيس بن إبراهيم الأربلي الأصل ثم الموصلي من بيت العلم والرياسة، اشتغل على أبيه في فنونه وعلومه فبرع وتقدم. وقد درس وشرح كتاب التنبيه واختصر إحياء علوم الدين للغزالي مرتين صغيراً وكبيراً، وكان يدرس منه. قال ابن خلكان: وقد ولي بإربل مدرسة الملك المظفر بعد موت والدي في سنة عشر وستمائة، وكنت أحضر عنده وأنا صغير ولم أر أحداً يدرس مثله، ثم صار إلى بلده سنة سبع عشرة، ومات في يوم الاثنين الرابع والعشرين من ربيع الآخر من هذه السنة عن سبع وأربعين سنة رحمه الله تعالى.

ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين وستمائة

فيها التقى الملك جلال الدين بن خوارزم شاه الخوارزمي مع الكرج فكسرهم كسرة عظيمة، وصمد إلى أكبر معاقلتهم تفليس ففتحها عنوة وقتل من فيها من الكفرة وسبى ذراريهم ولم يتعرض لأحد من المسلمين الذين كانوا بها، واستقر ملكه عليها، وقد كان الكرج أخذوها من المسلمين في سنة خمس عشرة وخمسمائة، وهي بأيديهم إلى الآن حتى استنقذها منهم جلال الدين هذا، فكان فتحاً عظيماً ولله الحمد المنة. وفيها سار إلى خلاط ليأخذها من نائب

(١) إنساني: أي إنسان العين وهو ناظرها.

الملك الأشرف فلم يتمكن من أخذها وقاتله أهلها قتالاً عظيماً فرجع عنهم بسبب اشتغاله بعصيان نائبه بمدينة كرمان وخلافه له، فسار إليهم وتركهم. وفيها اصطلح الملك الأشرف مع أخيه المعظم وسار إليه إلى دمشق، وقد كان المعظم ممالئاً عليه مع جلال الدين وصاحب إربل وصاحب ماردين وصاحب الروم، وكان مع الأشرف أخوه الكامل وصاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ، ثم استمال أخاه المعظم إلى ناحيته يقوي جانبه، وفيها كان قتال كسبير بين إبرنش أنطاكية وبين الأرمن، وجرت خطوب كثيرة بينهم وفيها أوقع الملك جلال الدين بالتركمان الإيوانية بأساً شديداً، وكانوا يقطعون الطرق على المسلمين.

وفيها قدم محيي الدين يوسف بن الشيخ جمال الدين بن الجوزي من بغداد في الرسلية إلى الملك المعظم بدمشق، ومعه الخلع والتشاريف لأولاد العادل من الخليفة الظاهر بأمر الله ومضمون الرسالة نهيه عن موالاة جلال الدين بن خوارزم شاه، فإنه خارجي من عزمه قتال الخليفة وأخذ بغداد منهم، فأجابه إلى ذلك وركب القاضي محيي الدين بن الجوزي إلى الملك الكامل بالديار المصرية، وكان ذلك أول قدومه إلى الشام ومصر، وحصل له جوائز كثيرة من الملوك، منها كان بناء مدرسته الجوزية بالنشابين بدمشق. وفيها ولي تدريس الشبلية بالسفح شمس الدين محمد بن قزأوغلي سبط ابن الجوزي بمرسوم الملك المعظم، وحضر عنده أول يوم القضاة والأعيان.

وفاة الخليفة الظاهر وخلافة ابنه المستنصر

كان وفاة الخليفة رحمه الله يوم الجمعة ضحى [اليوم][1] الثالث عشر من رجب من هذه السنة، أعني سنة ثلاث وعشرين وستمائة، ولم يعلم الناس بموته إلا بعد الصلاة، فدعا له الخطباء يومئذٍ على المنابر على عادتهم فكانت خلافته تسعة أشهر وأربعة عشر يوماً، وعمره اثنتان وخمسون سنة، وكان من أجود بني العباس وأحسنهم سيرة وسريرة، وأكثرهم عطاء وأحسنهم منظراً ورواء، ولو طالت مدته لصلحت الأمة صلاحاً كثيراً على يديه، ولكن أحب الله تقريبه وإزلافه لديه، فاختار له ما عنده وأجزل له إحساناً ورفده، وقد ذكرنا ما اعتمده في أول ولايته من إطلاق الأموال الديوانية ورد المظالم وإسقاط المكوس، وتخفيف الخراج عن الناس، وأداء الديون عمن عجز عن أدائها، والإحسان إلى العلماء والفقراء وتولية ذوي الديانة والأمانة، وقد كان كتب كتاباً لولاة الرعية فيه «بسم الله الرحمن الرحيم، اعلموا أنه ليس إمهالنا إهمالاً، ولا إغضاؤنا احتمالاً، ولكن لنبلوكم أيكم أحسن عملاً، وقد غفرنا لكم ما سلف من إخراب البلاد وتشريد الرعايا وتقبيح الشريعة، وإظهار الباطل الجلي في صورة الحق الخفي، حيلة ومكيدة وتسمية الاستئصال والاجتياح استيفاء واستدراكاً لأغراض انتهزتم فرصها مختلسة من براثن ليث باسل، وأنياب أسد مهيب، تنفقون بألفاظ مختلفة على معنى واحد، وأنتم أمناؤه وثقاته فتميلون رأيه إلى هواكم، وتمزحون باطلكم بحقه، فيطيعكم وأنتم له عاصون، ويوافقكم

(١) سقط في ط.

وأنتم له مخالفون والآن قد بدل الله سبحانه بخوفكم أمناً، وبفقركم غنى، وبباطلكم حقاً، ورزقكم سلطاناً يقيل العثرة، ولا يؤاخذ إلا من أصر، ولا ينتقم إلا ممن استمر، يأمركم بالعدل وهو يريده منكم، وينهاكم عن الجور وهو يكرهه لكم، يخاف الله تعالى فيخوفكم مكره، ويرجو الله تعالى ويرغبكم في طاعته فإن سلكتم مسالك خلفاء الله في أرضه وأمنائه على خلقه، وإلا هلكتم والسلام». ووجد في داره رقاع كثيرة مختومة لم يفتحها ستراً للناس ودرءاً عن أعراضهم رحمه الله، وقد خلف من الأولاد عشرة ذكوراً وإناثاً منهم ابنه الأكبر الذي بويع له بالخلافة من بعده أبو جعفر المنصور، ولقب بالمستنصر بالله، وغسله الشيخ محمد الخياط الواعظ، ودفن في دار الخلافة، ثم نقل إلى الترب من الرصافة رحمه الله تعالى.

خلافة المستنصر بالله العباسي

أمير المؤمنين أبي جعفر منصور بن الظاهر محمد بن الناصر أحمد، بويع بالخلافة يوم مات أبوه يوم جمعة ثالث عشر رجب من هذه السنة، سنة ثلاث وعشرين وستمائة، استدعوا به من التاج فبايعه الخاصة والعامة من أهل العقد والحل، وكان يوماً مشهوداً، وكان عمره يومئذٍ خمساً وثلاثين سنة وخمسة أشهر وأحد عشر يوماً، وكان من أحسن الناس شكلاً وأبهاهم منظراً، وهو كما قال القائل:

كَأَنَّ الثُّرَيَّا عُلِّقَتْ فِي جَبِينِهِ … وَفِي خَدِّهِ الشِّعْرَى وَفِي وَجْهِهِ القَمَرْ

وفي نسبه الشريف خمسة عشر خليفة، منهم خمسة من آبائه ولوا نسقاً، وتلقى هو الخلافة عنهم وراثة كابراً عن كابر، وهذا شيء لم يتفق لأحد من الخلفاء قبله، وسار في الناس كسيرة أبيه الظاهر في الجود وحسن السيرة والإحسان إلى الرعية، وبنى المدرسة الكبيرة المستنصرية التي لم تبن مدرسة في الدنيا مثلها، وسيأتي بيان ذلك في موضعه إن شاء الله، واستمر أرباب الولايات الذين كانوا في عهد أبيه على ما كانوا عليه، ولما كان يوم الجمعة المقبلة خطب للإمام المستنصر بالله على المنابر ونثر الذهب والفضة عند ذكر اسمه، وكان يوماً مشهوداً، وأنشد الشعراء المدائح والمراثي، وأطلقت لهم الخلع والجوائز، وقدم رسول من صاحب الموصل يوم غرة شعبان من الوزير ضياء الدين أبي الفتح نصر الله بن الأثير، فيها التهنئة والتعزية بعبارة فصيحة بليغة.

ثم إن المستنصر بالله كان يواظب على حضور الجمعة راكباً ظاهراً للناس، وإنما معه خادمان وراكب دار، وخرج مرة وهو راكب فسمع ضجة عظيمة فقال: ما هذا؟ فقيل له التأذين، فترجل عن فرسه وسعى ماشياً، ثم صار يدمن المشي إلى الجمعة رغبة في التواضع والخشوع، ويجلس قريباً من الإمام ويستمع الخطبة، ثم أصلح له المطبق فكان يمشي فيه إلى الجمعة، وركب في الثاني والعشرين من شعبان ركوباً ظاهراً للناس عامة، ولما كانت أول ليلة من رمضان تصدق بصدقات كثيرة من الدقيق والغنم والنفقات على العلماء والفقراء والمحاويج، إعانة لهم على الصيام، وتقوية لهم على القيام. وفي يوم السابع والعشرين من رمضان نقل تابوت الظاهر

من دار الخلافة إلى التربة من الرصافة، وكان يوماً مشهوداً، وبعث الخليفة المستنصر يوم العيد صدقات كثيرة وإنعاماً جزيلاً إلى الفقهاء والصوفية وأئمة المساجد، على يدي محيي الدين بن الجوزي. وذكر ابن الأثير أنه كانت زلزلة عظيمة في هذه السنة، هدمت شيئاً كثيراً من القرى والقلاع ببلادهم، وذكر أنه ذبح شاة ببلدهم فوجد لحمها مرّاً حتى رأسها وأكارعها ومعاليقها وجميع أجزائها.

وممن توفي فيها من الأعيان بعد الخليفة الظاهر كما تقدم:

الجمال المصري

يونس بن بدران بن فيروز جمال الدين المصري، قاضي القضاة بدمشق في هذا الحين، اشتغل وحصل وبرع واختصر كتاب الأم للإمام الشافعي، وله كتاب مطول في الفرائض، وولي تدريس الأمينية بعد التقي صالح الضرير، الذي قتل نفسه، ولاه إياه الوزير صفي الدين بن شكر، وكان معتنياً بأمره ثم ولي وكالة بين المال بدمشق، وترسل إلى الملوك والخلفاء عن صاحب دمشق، ثم ولاه المعظم قضاء القضاة بدمشق بعد عزله الزكي ابن الزكي، وولاه تدريس العادلية الكبيرة، حين كمل بناؤه فكان أول من درس بها وحضره الأعيان كما ذكرنا. وكان يقول أولاً درساً في التفسير حتى أكمل التفسير إلى آخره ثم توفي عقب ذلك. ويقول درس الفقه بعد التفسير، وكان يعتمد في أمر إثبات السجلات اعتماداً حسناً، وهو أنه كان يجلس في كل جمعة بكرة ويوم الثلاثاء ويستحضر عنده في إيوان العادلية جميع شهود البلد، ومن كان له كتاب يثبته حضر واستدعى شهوده فأدوا على الحاكم وثبت ذلك سريعاً، وكان يجلس كل يوم جمعة بعد العصر إلى الشباك الكمالي بمشهد عثمان فيحكم حتى يصلي المغرب، وربما مكث حتى يصلي العشاء أيضاً، وكان كثير المذاكرة للعلم كثير الاشتغال حسن الطريقة، لم ينقم عليه أنه أخذ شيئاً لأحد. قال أبو شامة: وإنما كان ينقم عليه أنه كان يشير على بعض الورثة بمصالحة بيت المال، وأنه استناب ولده التاج محمداً ولم يكن مرضي الطريقة، وأما هو فكان عفيفاً في نفسه نزهاً مهيباً. قال أبو شامة: وكان يدَّعي أنه قرشي شيبي فتكلم الناس فيه بسبب ذلك، وتولى القضاء بعده شمس الدين أحمد بن الخليلي الجويني. قلت: وكانت وفاته في ربيع الأول من هذه السنة، ودفن بداره التي في رأس درب الريحان من ناحية الجامع، ولتربته شباك شرق المدرسة الصدرية اليوم، وقد قال فيه ابن عنين وكان هجاء.

مـا أَقْـصَـرَ الـمَـصْـرِيُّ فِـي فِـعْـلِـهِ ... إذْ جَـعَـلَ الـتُّـرْبَـةَ فِـي دَارِهِ
أَرَاحَ لِـلأَحْـيَـاءِ مِـنْ رَجْـمِـهِ ... وَأَبْـعَـدَ الأَمْـوَاتَ مِـنْ نَـارِهِ

المعتمد والي دمشق

المبارز إبراهيم المعروف بالمعتمد والي دمشق، من خيار الولاة وأعفهم وأحسنهم سيرة وأجودهم سريرة، أصله من الموصل، وقدم الشام فخدم فروخشاه بن شاهنشاه بن أيوب، ثم استنابه البدر مودود أخو فروخشاه، وكان شحنة دمشق، فحمدت سيرته في ذلك، ثم صار هو

شحنة دمشق أربعين سنة، فجرت في أيامه عجائب وغرائب، وكان كثير الستر على ذوي الهيئات، ولا سيما من كان من أبناء الناس وأهل البيوتات، واتفق في أيامه أن رجلاً حائكاً كان له ولد صغير في آذانه حلق فعدا عليه رجل من جيرانهم فقتله غيلة وأخذ ما عليه من الحلى ودفنه في بعض المقابر، فاشتكوا عليه فلم يقر، فبكت والدته من ذلك وسألت زوجها أن يطلقها، فطلقها فذهبت إلى ذلك الرجل وسألته أن يتزوجها وأظهرت له أنها أحبته فتزوجها، ومكثت عنده حيناً، ثم سألته في بعض الأوقات عن ولدها الذي اشتكوا عليه بسببه فقال: نعم أنا قتلته. فقالت أشتهي أن تريني قبره حتى أنظر إليه، فذهب بها إلى قبر خشنكاشة ففتحه فنظرت إلى ولدها فاستعبرت وقد أخذت معها سكيناً أعدتها لهذا اليوم، فضربته حتى قتلته ودفنته مع ولدها في ذلك القبر، فجاء أهل المقبرة فحملوها إلى الوالي المعتمد هذا فسألها فذكرت له خبرها، فاستحسن ذلك منها وأطلقها وأحسن إليها، وحكى عنه السبط قال بينما أنا يوماً خارج من باب الفرج وإذا برجل يحمل طبلاً وهو سكران فأمرت به فضرب الحد، وأمرتهم فكسروا الطبل، وإذا ذكرة كبيرة جداً فشقوها [فإذا فيها خمر] وكان العادل قد منع أن يعصر خمر ويحمل إلى دمشق شيء منه بالكلية، فكان الناس يتحيلون بأنواع الحيل ولطائف المكر، قال السبط فسألته من أين علمت أن في الطبل شيئاً. قال رأيته يمشي ترجف سيقانه فعرفت أنه يحمل شيئاً ثقيلاً في الطبل. وله من هذا الجنس غرائب، وقد عزله المعظم وكان في نفسه منه وسجنه في القلعة نحواً من خمس سنين، ونادى عليه في البلد فلم يجيء أحد ذكر أنه أخذ منه حبة خردل، ولما مات رحمه الله دفن بتربته المجاورة لمدرسة أبي عمر من شامها قبلي السوق، وله عند تربته مسجد يعرف به رحمه الله.

واقف الشبلية التي بطريق الصالحية

شبل الدولة كافور الحسامي نسبة إلى حسام الدين محمد بن لاجين، ولد ست الشام، وهو الذي كان مستحثاً على عمارة الشامية البرانية لمولاته ست الشام، وهو الذي بنى الشبلية للحنفية والخانقاه على الصوفية إلى جانبها، وكانت منزله، ووقف القناة والمصنع والساباط، وفتح للناس طريقاً من عند المقبرة غربي الشامية البرانية إلى طريق عين الكرش، ولم يكن الناس لهم طريق إلى الجبل من هناك، إنما كانوا يسلكون من عند مسجد الصفي بالعقبية، وكانت وفاته في رجب ودفن إلى جانب مدرسته، وقد سمع الحديث على الكندي وغيره رحمه الله تعالى.

واقف الرواحية بدمشق [وحلب](١)

أبو القاسم هبة الله بن محمد المعروف بابن رواحة، كان أحد التجار، وذوي الثروة والمقدار ومن المعدلين بدمشق، وكان في غاية الطول والعرض ولا لحية له، وقد ابتنى المدرسة الرواحية داخل باب الفراديس ووقفها على الشافعية، وفوض نظرها وتدريسها إلى الشيخ تقي

(١) سقط في ط.

الدين بن الصلاح الشهرزوري، وله بحلب مدرسة أخرى مثلها، وقد انقطع في آخر عمره في المدرسة التي بدمشق وكان يسكن البيت الذي في إيوانها من الشرق، ورغب فيما بعد أن يدفن فيه إذا مات فلم يمكن من ذلك، بل دفن بمقابر الصوفية، وبعد وفاته شهد محيي الدين بن عربي الطائي الصوفي، وتقي الدين خزعل النحوي المصري ثم المقدسي ثم الدمشقي إمام مشهد علي شهدا على ابن رواحة بأنه عزل الشيخ تقي الدين عن هذه المدرسة، فجرت خطوب طويلة ولم ينتظم ما رماه من الأمر، ومات خزعل في هذه السنة أيضاً فبطل ما سلكوه.

أبو محمد محمود بن مودود بن محمود

البلدجي الحنفي الموصلي، وله بها مدرسة تعرف به، وكان من أبناء الترك، وصار من مشايخ العلماء وله دين متين وشعر حسن جيد، فمنه قوله:

مَنِ ادَّعَى أَنَّ لَهُ حَالَةً ... تُخْرِجُهُ عَنْ مَنْهَجِ الشَّرْعِ

فَلاَ تَكُونَنَّ لَهُ صَاحِباً ... فَإِنَّهُ خُرْءٌ بِلا نَفْعِ

كانت وفاته بالموصل في السادس والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة، وله نحو من ثمانين سنة رحمه الله تعالى.

ياقوت ويقال له يعقوب بن عبد الله

نجيب الدين مولى الشيخ تاج الدين الكندي، وقد وقف عليه الشيخ الكتب التي بالخزانة بالزاوية الشرقية الشمالية من جامع دمشق، وكانت سبعمائة وأحد وستين مجلداً، ثم على ولده من بعده ثم على العلماء فتمحقت هذه الكتب وبيع أكثرها، وقد كان ياقوت هذا لديه فضيلة وأدب وشعر جيد، وكانت وفاته ببغداد في مستهل رجب، ودفن بمقبرة الخيزران بالقرب من مشهد أبي حنيفة.

ثم دخلت سنة أربع وعشرين وستمائة

فيها كانت عامة أهل تفليس الكرج فجاؤوا إليهم فدخلوها فقتلوا العامة والخاصة، ونهبوا وسبوا وخربوا وأحرقوا، وخرجوا على حمية، وبلغ ذلك جلال الدين فسار سريعاً ليدركهم فلم يدركهم. وفيها قتلت الإسماعيلية أميراً كبيراً من نواب جلال الدين بن خوارزم شاه، فسار إلى بلادهم فقتل منهم خلقاً كثيراً، وخرب مدينتهم وسبى ذراريهم ونهب أموالهم، وقد كانوا قبحهم الله من أكبر العون على المسلمين، لما قدم التتار إلى الناس، وكانوا أضر على الناس منهم.

وفيها تواقع جلال الدين وطائفة كبيرة من التتار فهزمهم وأتبعهم قتلاً وأسراً، وساق وراءهم أياماً فقتلهم حتى وصل إلى الري فبلغه أن طائفة قد جاؤوا لقصده فأقام يثبطهم، وكان من أمره وأمرهم ما سيأتي في سنة خمس وعشرين وفيها دخلت عساكر الملك الأشرف ابن العادل إلى أذربيجان فملكوا منها مدناً كثيرة وغنموا أموالاً جزيلة، وخرجوا معهم بزوجة جلال

الدين بنت طغرل، وكانت تبغضه وتعاديه، فأنزلوها مدينة خلاط وسيأتي ما كان من خبرهم في السنة الآتية إن شاء الله تعالى. وفيها قدم رسول الانبور ملك الفرنج في البحر إلى الملك المعظم يطلب منه ما كان فتحه عمه السلطان الملك الناصر صلاح الدين من بلاد السواحل، فأغلظ لهم المعظم في الجواب وقال له: قل لصاحبك ما عندي إلا السيف والله أعلم. وفيها جهز الأشرف أخاه شهاب الدين غازي إلى الحج في محمل عظيم يحمل ثقله ستمائة جمل، ومعه خمسون هجيناً، على كل هجين مملوك، فسار من ناحية العراق وجاءته هدايا من الخليفة إلى أثناء الطريق، وعاد على طريقه التي حج منها. وفيها ولي قضاء القضاة ببغداد نجم الدين أبو المعالي عبد الرحمن بن مقبل الواسطي، وخلع عليه كما هي عادة الحكام، وكان يوماً مشهوداً، وفيها كان غلاء شديد ببلاد الجزيرة وقل اللحم حتى حكى ابن الأثير أنه لم يذبح بمدينة الموصل في بعض الأيام سوى خروف واحد في زمن الربيع، قال: وسقط فيها عاشر آذار ثلج كثير بالجزيرة والعراق مرتين فأهلك الأزهار وغيرها، قال: وهذا شيء لم يعهد مثله، والعجب كل العجب من العراق مع كثرة حره كيف وقع فيه مثل هذا.

وممن توفي فيها من الأعيان:

جنكيز خان

السلطان الأعظم عند التتار والد ملوكهم اليوم، ينتسبون إليه ومن عظم القان إنما يريد هذا الملك وهو الذي وضع لهم السياسا[1] التي يتحاكمون إليها، ويحكمون بها، وأكثرها مخالف لشرائع الله تعالى وكتبه، وهو شيء اقترحه من عند نفسه، وتبعوه في ذلك، وكانت تزعم أمه أنها حملته من شعاع الشمس، فلهذا لا يعرف له أب، والظاهر أنه مجهول النسب.

وقد رأيت مجلداً جمعه الوزير ببغداد علاء الدين الجويني في ترجمته فذكر فيه سيرته، وما كان يشتمل عليه من العقل السياسي والكرم والشجاعة والتدبير الجيد للملك والرعايا، والحروب.

فذكر أنه كان في ابتداء أمره خصيصاً عند الملك أزبك خان، وكان إذ ذاك شاباً حسناً وكان اسمه أولاً نمرجي، ثم لما عظم سمى نفسه جنكيز خان، وكان هذا الملك قد قرّبه وأدناه، فحسده عظماء الملك ووشوا به إليه حتى أخرجوه عليه، ولم يقتله ولم يجد له طريقاً في ذنب يتسلط عليه به، فهو في ذلك إذ تغضب الملك على مملوكين صغيرين فهربا منه ولجآ إلى جنيكز خان فأكرمهما وأحسن إليهما فأخبراه بما يضمره الملك أزبك خان من قتله، فأخذ حذره وتحيز بدولة واتبعه طوائف من التتار وصار كثير من أصحاب أزبك خان ينفرون إليه ويفدون عليه فيكرمهم ويعطيهم حتى قويت شوكته وكثرت جيوشه، ثم حارب بعد ذلك أزبك خان فظفر به وقتله واستحوز على مملكته وملكه، وانضاف إليه عدده وعدده، وعظم أمره وبعد صيته وخضعت له قبائل الترك ببلاد طمعاج كلها حتى صار يركب في نحو ثمانمائة ألف مقاتل، وأكثر القبائل قبيلته التي هو من أصلها يقال لهم قيان، ثم أقرب إليه بعدهم قبيلتان كثيرتا العدد وهما

(١) السياسا: مركبة من سي بمعنى ثلاثة. ويسا بمعنى الترتيب، ثم حرفها العرب فقالوا: سياسة.

أرات وقنقورات وكان يصطاد من السنة ثلاثة أشهر والباقي للحرب والحكم. قال الجويني: وكان يضرب الحلقة يكون ما بين طرفيها ثلاثة أشهر ثم تتضايق فيجتمع فيها من أنواع الحيوانات شيء كثير لا يحد كثرة، ثم نشبت الحرب بينه وبين الملك جلال الدين خوارزم شاه صاحب بلاد خراسان والعراق وأذربيجان وغير ذلك والأقاليم والممالك، فقهره جنكيز خان وكسره وغلبه وسلبه، واستحوذ على سائر بلاده بنفسه وبأولاده في أيسر مدة كما ذكرنا ذلك في الحوادث، وكان ابتداء ملك جنكيز خان سنة تسع وتسعين وخمسمائة، وكان قتاله لخوارزم شاه في حدود سنة ست عشرة وستمائة، ومات خوارزم شاه في سنة سبع عشرة كما ذكرنا، فاستحوذ حينئذٍ على الممالك بلا منازع ولا ممانع.

وكانت وفاته في سنة أربع وعشرين وستمائة فجعلوه في تابوت من حديد وربطوه بسلاسل وعلقوه بين جبلين هنلك وأما كتابه السياسا فإنه يكتب في مجلدين بخط غليظ، ويحمل على بعير عندهم، وقد ذكر بعضهم أنه كان يصعد جبلاً ثم ينزل ثم يصعد ثم ينزل مراراً حتى يعيى ويقع مغشياً عليه، ويأمر من عنده أن يكتب ما يلقى على لسانه حينئذٍ، فإن كان هذا هكذا فالظاهر أن الشيطان كان ينطق على لسانه بما فيها.

وذكر الجويني أن بعض عبادهم كان يصعد الجبال في البرد الشديد للعبادة فسمع قائلاً يقول له إنا قد ملكنا جنكيز خان وذريته وجه الأرض قال الجويني فمشايخ المغول يصدقون بهذا ويأخذونه مسلماً.

ثم ذكر الجويني نتفاً من الياسا من ذلك: أنه من زنى قتل، محصناً كان أو غير محصن، وكذلك من لاط قتل، ومن تعمد الكذب قتل، ومن سحر قتل، ومن تجسس قتل، ومن دخل بين اثنين يختصمان فأعان أحدهما قتل، ومن بال في الماء الواقف قتل، ومن انغمس فيه قتل، ومن أطعم أسيراً أو سقاه أو كساه بغير إذن أهله قتل، ومن وجد هارباً ولم يرده قتل، ومن أطعم أسيراً أو رمى إلى أحد شيئاً من المأكول قتل، بل يناوله من يده إلى يده، ومن أطعم أحداً شيئاً فليأكل منه أولاً ولو كان المطعوم أميراً لا أسيراً، ومن أكل ولم يطعم من عنده قتل، ومن ذبح حيواناً ذبح مثله بل يشق جوفه ويتناول قلبه بيده يستخرجه من جوفه أولاً. وفي ذلك كله مخالفة لشرائع الله المنزلة على عباده الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فمن ترك الشرع المحكم المنزل على محمد بن عبد الله، خاتم الأنبياء وتحاكم إلى غيره من الشرائع المنسوخة كفر، فكيف بمن تحاكم إلى الياسا وقدمها عليه؟ من فعل ذلك كفر بإجماع المسلمين. قال الله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾ [المائدة: ٥٠] وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ۝٦٥﴾ [النساء: ٦٥] صدق الله العظيم.

ومن آدابهم: الطاعة للسلطان غاية الاستطاعة، وأن يعرضوا عليه أبكارهم الحسان ليختار لنفسه ومن شاء من حاشيته ما شاء منهن، ومن شأنهم أن يخاطبوا الملك باسمه، ومن مر بقوم يأكلون فله أن يأكل معهم من غير استئذان ولا يتخطى موقد النار ولا طبق الطعام، ولا يقف على

أسكفة الخركاه ولا يغسلون ثيابهم حتى يبدو وسخها، ولا يكلفون العلماء من كل ما ذكر شيئاً من الجنايات، ولا يتعرضون لمال ميت، وقد ذكر علاء الدين الجويني طرفاً كبيراً من أخبار جنكيز خان ومكارم كان يفعلها لسجيته وما أداه إليه عقله وإن كان مشركاً بالله كان يعبد معه غيره، وقد قتل من الخلائق ما لا يعلم عددهم إلا الذي خلقهم، ولكن كان البداءة من خوارزم شاه، فإنه لما أرسل جنكيز خان تجاراً من جهته معهم بضائع كثيرة من بلاده فانتهوا إلى إيران فقتلهم نائبها من جهة خوارزم شاه، وهو والد زوجة كشلي خان، وأخذ جميع ما كان معهم، فأرسل جنكيز خان إلى خوارزم شاه يستعمله هل وقع هذا الأمر عن رضى منه أو أنه لا يعلم به، فأنكره وقال له فيما أرسل إليه: من المعهود من الملوك أن التجار لا يقتلون لأنهم عمارة الأقاليم، وهم الذين يحملون إلى الملوك ما فيه التحف والأشياء النفيسة، ثم إن هؤلاء التجار كانوا على دينك فقتلهم نائبك، فإن كان أمراً أمرت به طلبنا بدمائهم، وإلا فأنت تنكره وتقتص من نائبك. فلما سمع خوارزم شاه ذلك من رسول جنكيز خان لم يكن له جواب سوى أنه أمر بضرب عنقه فأساء التدبير، وقد كان خرق وكبرت سنه، وقد ورد الحديث «اتركوا الترك ما تركوكم»[(١)] فلما بلغ ذلك جنكيز خان تجهز لقتاله وأخذ بلاده، فكان بقدر الله تعالى ما كان من الأمور التي لم يسمع بأغرب منها ولا أبشع، فمما ذكره الجويني أنه قدم له بعض الفلاحين بالصيد ثلاث بطيخات فلم يتفق أن عند جنكيز خان أحد من الخزندارية، فقال لزوجته خاتون أعطيه هذين القرطين اللذين في أذنيك، وكان فيهما جوهرتان نفيستان جداً، فشحت المرأة بهما وقالت: أنظره إلى غد، فقال إنه يبيت هذه الليلة مقلقل الخاطر، وربما لا يجعل له شيء بعد هذا، وإن هذين لا يمكن أحد إذا اشتراهما إلا جاء بهما إليك، فانتزعتهما فدفعتهما إلى الفلاح فطار عقله بهما وذهب بهما فباعهما لأحد التجار بألف دينار، ولم يعرف قيمتهما، فحملهما التاجر إلى الملك فردهما على زوجته، ثم أنشد الجويني عند ذلك:

وَمَنْ قَالَ إِنَّ البَحْرَ وَالقَطْرَ أَشْبَهَا ... نَدَاهُ فَقَدْ أَثْنَى عَلَى البَحْرِ وَالقَطْرِ

قالوا: واجتاز يوماً في سوق فرأى عند بقال عنّاباً فأعجبه لونه ومالت نفسه إليه فأمر الحاجب أن يشتري منه ببالس، فاشترى الحاجب بربع بالس، فلما وضعه بين يديه أعجبه وقال: هذا كله ببالس؟ قال وبقي منه هذا ـ وأشار إلى ما بقي معه من المال ـ فغضب وقال: من يجد من يشتري منه مثلي تمموا له عشرة بوالس.

قالوا: وأهدى له رجل جام زجاج لا قيمة له، فقال: أليس قد حمله من بلاد بعيدة حتى وصل إلينا سالماً؟ أعطوه مائتي بالس. قال: وقيل له إنّ في هذا المكان كنزاً عظيماً إن فتحته أخذت منه مالاً كثيراً، فقال الذي في أيدينا يكفينا، ودع هذا يفتحه الناس ويأكلونه فهم أحق به منا، ولم يتعرض له قال[(٢)] واشتهر عن رجل في بلاده يقول أنا أعرف موضع كنز ولا أقول إلا

(١) أخرجه أبو داود في الملاحم باب ٨.

(٢) وجد بهامش التركية ما نصه: «هذا منقول عن ابنه قان الذي قام مقامه، ولعله هو الصحيح لأن قان هذا =

للقان، وألح عليه الأمراء أن يعلمهم فلم يفعل، فذكروا ذلك للقان فأحضره على خيل الأولاق - يعني البريد - سريعاً فلما حضر إلى بين يديه سأله عن الكنز فقال: إنما كنت أقول ذلك حيلة لأرى وجهك. فلما رأى تغير كلامه غضب وقال له: قد حصل لك ما قلت، ورده إلى موضعه سالماً ولم يعطه شيئاً. قال: وأهدى له إنسان رمانة فكسرها وفرق حبها على الحاضرين وأمر له بعدد حبها بوالس ثم أنشد:

فَـلِـذَاكَ تَـزْدَحِـمُ الـوُفُـودُ بِـبَـابِـهِ مِـثْـلَ ازْدِحَـامِ الـحَـبِّ فِـي الـرُّمَّـانِ

قال: وقدم عليه رجل كافر يقول رأيت في النوم جنكيز خان يقول قل لابني يقتل المسلمين، فقال له هذا كذب، وأمر بقتله[1]. قال وأمر بقتل ثلاثة قد قضت السياسا بقتلهم، فإذا امرأة تبكي وتلطم. فقال: ما هذه؟ أحضروها، فقالت: هذا ابني، وهذا أخي، وهذا زوجي، فقال اختاري واحداً منهم حتى أطلقه لك، فقالت: الزوج يجيء مثله، والابن كذلك، والأخ لا عوض له، فاستحسن ذلك منها وأطلق الثلاثة لها. قال: وكان يحب المصارعين وأهل الشطارة، وقد اجتمع عنده منهم جماعة، فذكر له إنسان بخراسان فأحضره فصرع جميع من عنده، فأكرمه وأعطاه وأطلق له بنتاً من بنات المغول حسناء. فمكثت عنده مدة لا يتعرض لها، فاتفق مجيئها إلى الاردوا فجعل السلطان يمازحها ويقول: كيف رأيت المستعرب؟ فذكرت له أنه لم يقربها، فتعجب من ذلك وأحضره فسأله عن ذلك فقال: يا خوند أنا إنما حظيت عندك بالشطارة ومتى قربتها نقصت منزلتي عندك، فقال لا بأس عليك وأحضر ابن عم له وكان مثله فأراد أن يصارع الأول فقال السلطان: أنتما قرابة ولا يليق هذا بينكما وأمر به بمال جزيل.

قال: ولما احتضر أوصى أولاده بالاتفاق وعدم الافتراق، وضرب لهم في ذلك الأمثال، وأحضر بين يديه نشاباً وأخذ سهماً أعطاه لواحد منهم فكسره، ثم أحضر حزمة ودفعها إليهم مجموعة فلم يطيقوا كسرها، فقال: هذا مثلكم إذا اجتمعتم واتفقتم، وذلك مثلكم إذا انفردتم واختلفتم، قال: وكان له عدة أولاد ذكور وإناث منهم أربعة هم عظماء أولاده وأكبرهم يوسى وهريبول وباتوا وبركة وتركجار، وكان كل منهم له وظيفة عنده. ثم تكلم الجويني على ملك ذريته إلى زمان هولاكوخان، وهو يقول في اسمه ياذشاه زاره هولاكو، وذكر ما وقع في زمانه من الأوابد والأمور المعروفة المزعجة كما بسطناه في الحوادث والله أعلم.

السلطان الملك المعظم

عيسى ابن العادل أبي بكر بن أيوب ملك دمشق والشام، كانت وفاته يوم الجمعة سلخ ذي

= المنسوب إلى الكرم الجبلي العظيم والسخاء المفرط، ويحكى عنه حكايات عظيمة في هذا الشأن. وأما أبوه جنكيزخان فإنه متوسط في الجود بل وفي سائر سجاياه وأخلاقه وأفعاله في أمر سفك الدماء قبحه الله تعالى.

(١) فيه تخليط والصحيح أن أعرابياً جاء إلى قان وقال له: رأيت في النوم أباك جنكيزخان فقال لي: قل لابني قان يقتل المسلمين، وكان قان يميل إلى المسلمين، مخالفاً لأهل بيته، فسأل الرجل: هل تعرف اللغة المغولية؟ فقال: لا فقال الملك له: أنت كاذب لأن أبي ما كان يعرف من اللغات ولم يدرس غير المغولية فأمر بضرب عنقه وأراح المسلمين من كيده.

القعدة من هذه السنة، وكان استقلاله بملك دمشق لما توفي أبوه سنة خمس عشرة وكان شجاعاً باسلاً عالماً فاضلاً اشتغل في الفقه على مذهب أبي حنيفة على الحصيري مدرس النورية[١] وفي اللغة والنحو على تاج الدين الكندي، وكان محفوظه مفصل الزمخشري، وكان يصل من حفظه بثلاثين ديناراً وكان قد أمر أن يجمع له كتاب في اللغة يشمل صحاح الجوهري والجمهرة لابن دريد والتهذيب للأزهري وغير ذلك، وأمر أن يرتب له مسند الإمام أحمد، وكان يحب العلماء ويكرمهم، ويجتهد في متابعة الخير ويقول أنا على عقيدة الطحاوي، وأوصى عند وفاته أن لا يكفن إلا في البياض، وأن يلحد له ويدفن في الصحراء ولا يبنى عليه، وكان يقول؛ واقعة دمياط أدخرها عند الله تعالى وأرجو أن يرحمني بها ـ يعني أنه أبلى بلاء حسناً ـ رحمه الله تعالى، وقد جمع له بين الشجاعة والسماحة والبراعة والعلم ومحبة أهله، وكان يجيء في كل جمعة إلى تربة والده فيجلس قليلاً ثم إذا ذكر المؤذنون ينطلق إلى تربة عمه صلاح الدين فيصلي فيها الجمعة، وكان قليل التعاظم، يركب في بعض الأحيان وحده ثم يلحقه بعض غلمانه سوقاً.

وقال فيه بعض أصحابه وهو محب الدين بن أبي السعود البغدادي.

لَئِنْ غُودِرَتْ تِلْكَ المَحَاسِنُ فِي الثَّرَى ... بَـوَالٍ فَـمَـا وَجْـدِي عَـلَـيْـكَ بِـبَـالِ

وَمُذْ غِبْتَ عَنِّي ما ظَفِرْتُ بِصَاحِبٍ ... أَخِـي ثِـقَـةٍ إلاّ خَـطَـرْتَ بِـبَـالِـي

وملك بعده دمشق ولده الناصر داود بن المعظم، وبايعه الأمراء.

أبو المعالي أسعد بن يحيـى

ابن موسى بن منصور بن عبد العزيز بن وهب الفقيه الشافعي البخاري، شيخ أديب فاضل خير، له نظم ونثر ظريف، وله نوادر حسنة وجاوز التسعين. قد استوزره صاحب حماة في وقت وله شعر رائق أورد منه ابن الساعي قطعة جيدة. فمن ذلك قوله:

وَهَـوَاكَ مَـا خَـطَـرَ الـسُّـلُـوُّ بِـبَـالِـهِ ... وَلأَنْـتَ أَعْـلَـمُ فِـي الـغَـرَامِ بِـحَـالِـهِ

فَـمَـتَـى وَشَـى وَاشٍ إلَـيْـكَ بِـشَـأْنِـهِ ... سَـائِـلْ هَـوَاكَ فَـذَاكَ مِـنْ أَعْـدَالِـهِ

أَوَ لَيْسَ لِلدَّنِفِ[٢] المُعَنَّى[٣] شَاهِدٌ ... مِـنْ حَـالِـهِ يُـغْـنِـيـكَ عَـنْ تَـسْـآلِـهِ

جَدَّدْتَ ثَوْبَ سِقَامِهِ وَهَتَكْتَ سِتْـ ... ـرَ غَـرَامِـهِ، وَصَـرَمْـتَ حَـبْـلَ وِصَـالِـهِ

يَـا لِـلْـعَـجَـائِـبِ مِـنْ أَسِـيـرٍ دَأْبُـهُ ... يَـفْـدِي الـطَّـلِـيـقَ بِـنَـفْـسِـهِ وَبِـمَـالِـهِ

وله أيضاً:

لاَمَ الـعَـوَاذِلُ فِـي هَـوَاكِ فَـأَكْـثَـرُوا ... هَـيْـهَـاتَ مِـيـعَـادُ الـسُّـلُـوِّ الـمَـحْـشَـرُ

جَـهِـلُـوا مَـكَـانَـكِ فِي الـقُـلُـوبِ وَحَـاوَلُـوا ... لَـوْ أَنَّـهُـمْ وَجَـدُوا كَـوَجْـدِي أَقْـصَـرُوا

---

(١) وهو مؤلف كتاب «السهم المصيب في الردّ على الخطيب» فيما ذكره في تاريخ بغداد في ترجمة الإمام أبي حنيفة رحمه الله.

(٢) الدَّنِف: المريض الذي لازمه المرض. (٣) المعنى: المغرب.

صَبْراً عَلَى عَذْبِ الهَوَى وَعَذَابِهِ وَأَخُو الهَوَى أَبَداً يُلامُ وَيُعْذَرُ

أبو القاسم عبد الرحمن

ابن محمد بن أحمد بن حمدان الطيبي المعروف بالصائن، أحد المعيدين بالنظامية، ودرس بالثقفية، وكان عارفاً بالمذهب والفرائض والحساب، صنف شرحاً للتنبيه، ذكره ابن الساعي.

أبو النجم محمد بن القاسم بن هبة الله التكريتي

الفقيه الشافعي، تفقه ببغداد على أبي القاسم بن فضلان ثم أعاد بالنظامية ودرس بغيرها، وكان يشتغل كل يوم أكثر من عشرين درساً، ليس له دأب إلا الاشتغال وتلاوة القرآن ليلاً ونهاراً، وكان بارعاً كثير العلوم، قد أتقن المذهب والخلاف، وكان يفتي في مسألة الطلاق الثلاث بواحدة فتغيظ عليه قاضي القضاة أبو القاسم عبد الله بن الحسين الدامغاني، فلم يسمع منه، ثم أخرج إلى تكريت فأقام بها، ثم استدعي إلى بغداد، فعاد إلى الاشتغال وأعاده قاضي القضاة نصر بن عبد الرزاق إلى إعادته بالنظامية، وعاد إلى ما كان عليه من الاشتغال والفتوى والوجاهة إلى أن توفي في هذه السنة رحمه الله تعالى. وهذا ذكره ابن الساعي.

ثم دخلت سنة خمس وعشرين وستمائة

فيها كانت حروب كثيرة بين جلال الدين والتتار، كسروه غير مرة، ثم بعد ذلك كله كسرهم كسرة عظيمة، وقتل منهم خلقاً وأمماً لا يحصون، وكان هؤلاء التتار قد انفردوا وعصوا على جنكيزخان فكتب جنكيزخان إلى جلال الدين يقول له: إن هؤلاء ليسوا منا ونحن أبعدناهم، ولكن سترى [هناك][1] لا قبل لك به. وفيها قدمت طائفة كبيرة من الفرنج من ناحية صقلية فنزلوا عكا وصور وحملوا على مدينة صيدا فانتزعوها من أيدي المسلمين، وعبروها وقويت شوكتهم، وجاء الانبرور ملك الجزيرة القبرصية ثم سار فنزل عكا فخاف المسلمون من شره وبالله المستعان. وركب الملك الكامل محمد بن العادل صاحب مصر إلى بيت المقدس الشريف فدخله، ثم سار إلى نابلس فخاف الناصر داود بن المعظم من عمه الكامل، فكتب إلى عمه الأشرف فقدم عليه جريدة، وكتب إلى أخيه الكامل يستعطفه ويكفه عن ابن أخيه، فأجابه الكامل بأني إنما جئت لحفظ بيت المقدس وصونه عن الفرنج الذين يريدون أخذه، وحاشى لله أن أحاصر أخي أو ابن أخي، وبعد أن جئت أنت إلى الشام فأنت تحفظها وأنا راجع إلى الديار المصرية، فخشي الأشرف وأهل دمشق إن رجع الكامل أن تمتد أطماع الفرنج إلى بيت المقدس، فركب الأشرف إلى أخيه الكامل فثبطه عن الرجوع، وأقاما جميعاً هنالك جزاهما الله خيراً، يحوطان جناب بيت المقدس عن الفرنج لعنهم الله. واجتمع إلى الملك جماعة من ملوكهم، كأخيه الأشرف وأخيهما الشهاب غازي بن العادل وأخيهم الصالح إسماعيل بن العادل، وصاحب حمص أسد الدين شيركوه بن ناصر الدين ومحمد بن شيركوه، وغيرهم،

---

(١) سقط في ط.

واتفقوا كلهم على نزع الناصر داود عن ملك دمشق وتسليمها إلى الأشرف موسى. وفيها عزل الصدر التكريتي عن حسبة دمشق ومشيخة الشيوخ وولي فيها اثنان غيره.

قال أبو شامة: وفي أوائل رجب توفي الشيخ الصالح الفقيه أبو الحسن علي بن المراكشي المقيم بالمدرسة المالكية، ودفن بالمقبرة التي وقفها الزين خليل بن زويزان قبلي مقابر الصوفية، وكان أول من دفن بها رحمه الله تعالى.

ثم دخلت سنة ست وعشرين وستمائة

استهلت هذه السنة وملوك بني أيوب مفترقون مختلفون، قد صاروا أحزاباً وفرقاً، وقد اجتمع ملكوهم إلى الكامل محمد صاحب مصر، وهو مقيم بنواحي القدس الشريف، فقويت نفوس الفرنج لعنهم الله بكثرتهم بمن وفد إليهم من البحر، وبموت المعظم واختلاف من بعده من الملوك، فطلبوا من المسلمين أن يردوا إليهم ما كان الناصر صلاح الدين أخذ منهم، فوقعت المصالحة بينهم وبين الملوك أن يردوا لهم بيت المقدس وحده، وتبقى بأيديهم بقية البلاد، فتسلموا القدس الشريف، وكان المعظم قد هدم أسواره، فعظم ذلك على المسلمين جداً وحصل وهن شديد وإرجاف عظيم، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ثم قدم الملك الكامل فحاصر دمشق وضيق على أهلها فقطع الأنهار ونهبت الحواصل وغلت الأسعار، ولم يزل الجنود حولها حتى أخرج منها ابن أخيه صلاح الدين الملك الناصر داود بن المعظم، على أن يقيم ملكاً بمدينة الكرك والشوبك ونابلس وبرا ما بين الغور والبلقاء ويكون الأمير عز الدين أيبك أستاذ دار المعظم صاحب صرخد، ثم تقايض الأشرف وأخاه الكامل فأخذ الأشرف دمشق وأعطى أخاه حران والرها والرقة ورأس العين وسروج، ثم سار الكامل فحاصر حماة وكان صاحبها الملك المنصور بن تقي الدين عمر قد توفي وعهد بالأمر من بعده إلى أكبر ولده المظفر محمد، وهو زوج بنت الكامل، فاستحوذ على حماة أخوه صلاح الدين قلج أرسلان فحاصره الكامل حتى أنزله من قلعتها وسلمها إلى أخيه المظفر محمد، ثم سار فتسلم البلاد التي قايض بها عن دمشق من أخيه الملك الأشرف كما ذكرنا، وكان الناس بدمشق قد اشتغلوا بعلم الأوائل في أيام الملك الناصر داود، وكان يعاني ذلك وقديماً نسبه بعضهم إلى نوع من الانحلال فالله أعلم، فنادى الملك الأشرف بالبلدان أن لا يشتغل الناس بذلك وأن يشتغلوا بعلم التفسير والحديث والفقه، وكان سيف الدين الآمدي مدرساً بالعزيزية فعزله عنها وبقي ملازماً منزله حتى مات في سنة إحدى وثلاثين كما سيأتي.

وفيها كان الناصر داود قد أضاف إلى قاضي القضاة شمس الدين بن الخولي القاضي محيي الدين يحيى بن محمد بن علي بن الزكي، فحكم أياماً بالشباك، شرقي باب الكلاسة، ثم صار الحكم بداره، مشاركاً لابن الخولي.

وممن توفي فيها من الأعيان:

الملك المسعود أقسيس بن الكامل

صاحب اليمن، وقد ملك مكة سنة تسع عشرة فأحسن بها المعدلة، ونفى الزيدية منها،

وأمنت الطرقات والحجاج، ولكنه كان مسرفاً على نفسه، فيه عسف وظلم أيضاً. وكانت وفاته بمكة ودفن بباب المعلى.

محمد السبتي النجار

كان يعده بعضهم من الأبدال[١]، قال أبو شامة: وهو الذي بنى المسجد غربي دار الزكاة عن يسار المار في الشارع من ماله، ودفن بالجبل. وكان جنازته مشهودة رحمه الله تعالى.

[العبادي الشاعر][٢] أبو الحسن علي بن سالم

ابن يزبك بن محمد بن مقلد العبادي الشاعر من الحديثة، قدم بغداد مراراً وامتدح المستظهر وغيره، وكان فاضلاً شاعراً يكثر التغزل.

أبو يوسف يعقوب بن صابر الحراني

ثم البغدادي المنجنيقي، كان فاضلاً في فنه، وشاعراً مطبقاً لطيف الشعر حسن المعاني، قد أورد له ابن الساعي قطعة صالحة، ومن أحسن ما أورد له قصيدة فيها تعزية عظيمة لجميع الناس وهي:

هَلْ لِمَنْ يَرْتَجِي البَقَاءَ خُلُودُ ... وَسِوَى الله كُلُّ شَيْءٍ يَبِيدُ
وَالَّذِي كَانَ مِنْ تُرَابٍ وَإِنْ ... عَاشَ طَوِيلاً لِلتُّرَابِ يَعُودُ
فَمَصِيرُ الأَنَامِ طُرّاً إِلَى مَا ... صَارَ فِيهِ آبَاؤُهُمْ وَالجُدُودُ
أَيْنَ حَوَّاءُ أَيْنَ آدَمُ إِذْ فَا ... تَهُمُ الخُلْدُ وَالثَّوَى وَالخُلُودُ؟
أَيْنَ هَابِيلُ أَيْنَ قَابِيلُ إِذْ هـ ... ـذا لِهٰذا مُعَانِدٌ وَحَسُودُ؟
أَيْنَ نُوحٌ وَمَنْ نَجَا مَعَهُ بِالفُلْـ ... ـكِ وَالعَالَمُونَ طُرّاً فَقِيدُ
أَسْلَمَتْهُ الأَيَّامُ كَالطِّفْلِ لِلْمَوْ ... تِ وَلَمْ يُغْنِ عُمْرُهُ المَمْدُودُ
أَيْنَ عَادٌ، بَلْ أَيْنَ جَنَّةُ عَادٍ ... أَمْ تُرَى أَيْنَ صَالِحٌ وَثَمُودُ؟
أَيْنَ إِبْرَاهِيمُ الَّذِي شَادَ بَيْـ ... ـتَ الله فَهُوَ المُعَظَّمُ المَقْصُودُ
حَسَدُوا يُوسُفاً أَخَاهُمْ فَكَادُو ... هُ وَمَاتَ الحَاسِدُ وَالمَحْسُودُ
وَسُلَيْمَانُ فِي النُّبُوَّةِ وَالمُلْكِ ... قَضَى مِثْلَ مَا قَضَى دَاوُدُ
فَغَدُوا بَعْدَ مَا أُطِيعَ لِذَا الخَلْـ ... ـقُ وَهٰذا لَهُ أُلِينَ الحَدِيدُ
وَابْنُ عِمْرَانَ بَعْدَ آيَاتِهِ التِّسْـ ... ـعِ وَشَقِّ الخِضَمِّ فَهُوَ صَعِيدُ
وَالمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَهُوَ رُوحُ اللَّـ ... ـهِ كَادَتْ تَقْضِي عَلَيْهِ اليَهُودُ

---

(١) الأبدال جمع بديل وهم قوم من الصالحين لا تخلو الدنيا منهم إذا مات واحد منهم أبدل الله تعالى مكانه بآخر.
(٢) سقط في ط.

وَقَضَى سَيِّدُ النَّبِيِّينَ وَالهَا ... دِي إِلَى الحَقِّ أَحْمَدُ المَحْمُودُ
وَبَنُوهُ وَآلُهُ الطَّاهِرُو ... نَ الزُّهْرُ صَلَّى عَلَيْهِمُ المَعْبُودُ
وَنُجُومُ السَّمَاءِ مُنْتَثِرَاتٌ ... بَعْدَ حِينٍ وَلِلْهَوَاءِ رُكُودُ
وَلِنَارِ الدُّنْيَا الَّتِي تُوقِدُ الصَّخْـ ... ـرَ خُمُودٌ وَلِلْمَاءِ جُمُودُ
وَكَذَا لِلثَّرَى غَدَاةَ يَؤُمُّ النَّـ ... ـاسَ مِنْهَا تَزَلْزُلٌ وَهُمُودُ
هٰذِهِ الأُمَّهَاتُ نَارٌ وَتُرْبٌ ... وَهَوَاءٌ رَطْبٌ وَمَاءٌ بَرُودُ
سَوْفَ يَفْنَى كَمَا فَنِينَا فَلا ... يَبْقَى مِنَ الخَلْقِ وَالِدٌ وَوَلِيدُ
لا الشَّقِيُّ الغَوِيُّ مِنْ نُوَبِ الأَيَّا ... مِ(١) يَنْجُو وَلا السَّعِيدُ الرَّشِيدُ
وَمَتَى سَلَّتِ المَنَايَا سُيُوفاً ... فَالمَوَالِي حَصِيدُها وَالعَبِيدُ

وممن توفي فيها:

أبو الفتوح نصر بن علي البغدادي

الفقيه الشافعي ويلقب بثعلب، اشتغل في المذهب والخلاف ومن شعره قوله:

جِسْمِي مَعِي غَيْرَ أَنَّ الرُّوحَ عِنْدَكُمُ ... فَالجِسْمُ فِي غُرْبَةٍ وَالرُّوحُ فِي وَطَنِ
فَلْيَعْجَبِ النَّاسُ مِنِّي أَنْ لِي بَدَناً ... لا رُوحَ فِيهِ وَلِي رُوحٌ بِلا بَدَنِ

أبو الفضل جبرائيل بن منصور

ابن هبة الله بن جبريل بن الحسن بن غالب بن يحيى بن موسى بن يحيى بن الحسن بن غالب بن الحسن بن عمرو بن الحسن بن النعمان بن المنذر المعروف بابن زطينا البغدادي كاتب الديوان بها، أسلم ـ وكان نصرانياً ـ فحسن إسلامه، وكان من أفصح الناس وأبلغهم موعظة، ومن ذلك قوله: «خير أوقاتك ساعة صفت لله، وخلصت من الفكرة لغيره والرجاء لسواه، وما دمت في خدمة السلطان فلا تغتر بالزمان، أكفف كفك واصرف طرفك وأكثر صومك وأقلل نومك يؤمنك، واشكر ربك يحمد أمرك». وقال: «زاد المسافر يقدم على رحيله، فأعد الزاد تبلغ بالمعاد المراد» وقال: «إلى متى تتمادى في الغفلة كأنك قد أمنت عواقب المهلة، عمر اللهو مضى وعمر الشبيبة انقضى، وما حصلت من ربك على ثقة بالرضا، وقد انتهى بك الأمر إلى سن التخاذل وزمن التكاسل، وما حظيت بطائل». وقال: «روحك لا تخضع وعينك لا تدمع، وقلبك لا يخشع ونفسك تجشع، وتظلم نفسك وأنت لها تتوجع، وتظهر الزهد في الدنيا وفي الحال تطمع، وتطلب ما ليس لك بحق وما وجب عليك من الحق لا تدفع، وتروم فضل ربك وللماعون تمنع، وتعيب نفسك الأمارة وهي عن اللهو لا ترجع، وتوقظ الغافلين بإنذارك وتتناوم عن سهمك وتهجع، وتخص غيرك بخيرك ونفسك الفقيرة لا

(١) نوب الأيام: نائباتها ومصائبها.

تنفع، وتحوم على الحق وأنت بالباطل مولع، وتتعثر في المضايق وطرق النجاة مهيع، وتتهجم على الذنوب وفي المجرمين تشفع وتظهر القناعة بالقليل وبالكثير لا تشبع، وتعمر الدار الفانية ودارك الباقية خراب بلقع، وتستوطن في منزل رحيل كأنك إلى ربك لا ترجع، وتظن أنك بلا رقيب وأعمالك إلى المراقب ترفع، تقدم على الكبائر وعن الصغائر تتورع، وتؤمل الغفران وأنت عن الذنوب لا تقلع، وترى الأهوال محيطة بك وأنت في ميدان اللهو ترتع، وتستقبح أفعال الجهال وباب الجهل تقرع، وقد آن لك أن تأنف من التعسف وعن الدنايا تترفع، وقد سار المخفون وتخلفت فماذا تتوقع».

وقد أورد ابن الساعي له شعراً حسناً فمنه:

إنْ سَهِرَتْ عَيْنَاكَ فِي طَاعَةٍ فَذَاكَ خَيْرٌ لَكَ مِنْ نَوْمِ
أَمْسُكَ قَدْ فَاتَ بِعِلاَّتِهِ فَاسْتَدْرِكِ الفَائِتَ فِي اليَوْمِ

وله:

إنَّ رَبّاً هَدَاكَ بَعْدَ ضَلالٍ سُبُلَ الرُّشْدِ مُسْتَحِقٌّ لِلْعِبَادَهْ
فَتَعَبَّدْ لَهُ تَجِدْ مِنْهُ عِتْقاً وَاسْتَدِمْ فَضْلَهُ بِطُولِ الزَّهَادَهْ

وله:

إذا تَعَفَّفْتَ عَنْ حَرَامِ عُوِّضْتَ بِالطَّيِّبِ الحَلالِ
فَاقْنَعْ تَجِدْ فِي الحَرَامِ حِلاًّ فَضْلاً مِنَ اللهِ ذِي الجَلالِ

ثم دخلت سنة سبع وعشرين وستمائة

فيها كانت وقعة عظيمة بين الأشرف موسى بن العادل وبين جلال الدين بن خوارزم شاه، وكان سببها أن جلال الدين كان قد أخذ مدينة خلاط في الماضي وخربها وشرد أهلها، وحاربه علاء الدين كيقباد ملك الروم وأرسل إلى الأشرف يستحثه على القدوم عليه ولو جريدة وحده، فقدم الأشرف في طائفة كبيرة من عسكر دمشق، وانضاف إليهم عسكر بلاد الجزيرة ومن تبقى من عسكر خلاط، فكانوا خمسة آلاف مقاتل، معهم العدة الكاملة، والخيول الهائلة، فالتقوا مع جلال الدين بأذربيجان وهو في عشرين ألف مقاتل، فلم يقم لهم ساعة واحدة، ولا صبر فتقهقر وانهزم واتبعوه على الأثر، ولم يزالوا في طلبهم إلى مدينة خوى وعاد الأشرف إلى مدينة خلاط فوجدها خاوية عل عروشها، فمهدها [وأطدها، ثم تصالح وجلال الدين وعاد إلى مستقر ملكه حرسها الله][1] وفيها تسلم الأشرف قلعة بعلبك من الملك الأمجد بهرام شاه بعد حصار طويل، ثم استخلف على دمشق أخاه الصالح إسماعيل، ثم سار إلى الأشرف بسبب أن جلال الدين الخوارزمي استحوذ على بلاد خلاط وقتل من أهلها خلقاً كثيراً ونهب أموالاً كثيرة، فالتقى

(١) ما بين معقوفين زيادة من النسخة المصرية وفي التركية بياض.

معه الأشرف واقتتلوا قتالاً عظيماً فهزمه الأشرف هزيمة منكرة، وهلك من الخوارزمية خلق كثير، ودقت البشائر في البلاد فرحاً بنصرة الأشرف على الخوارزمية، فإنهم كانوا لا يفتحون بلداً إلا قتلوا من فيه ونهبوا أموالهم، فكسرهم الله تعالى. وقد كان الأشرف رأى النبي ﷺ في المنام قبل الوقعة وهو يقول له: يا موسى أنت منصور عليهم ولما فرغ من كسرتهم عاد إلى بلاد خلاط فرمم شعثها وأصلح ما كان فسد منها. ولم يحج أحد من أهل الشام في هذه السنة ولا في التي قبلها، وكذا فيما قبلها أيضاً، فهذه ثلاث سنين لم يسر من الشام أحد إلى الحج. وفيها أخذت الفرنج جزيرة سورقة وقتلوا بها خلقاً وأسروا آخرين، فقدموا بهم إلى الساحل فاستقبلهم المسلمون فأخبروا بما جرى عليهم من الفرنج.

وممن توفي فيها من الأعيان:

زين الأمناء الشيخ الصالح

أبو البركات بن الحسن بن محمد بن الحسن بن هبة الله بن زين الأمناء بن عساكر الدمشقي الشافعي، سمع على عميه الحافظ أبي القاسم والصائن وغير واحد، وعمر وتفرد بالرواية وجاوز الثمانين بنحو من ثلاث سنين، وأقعد في آخر عمره فكان يحمل في محفة إلى الجامع وإلى دار الحديث النورية لإسماع الحديث، وانتفع به الناس مدة طويلة، ولما توفي حضر الناس جنازته ودفن عند أخيه الشيخ فخر الدين بن عساكر بمقابر الصوفية رحمه الله تعالى.

الشيخ بيرم المارديني

كان صالحاً منقطعاً محباً للعزلة عن الناس، وكان مقيماً بالزاوية الغربية من الجامع، وهي التي يقال لها الغزالية، وتعرف بزاوية الدولعي وبزاوية القطب النيسابوري، وبزاوية الشيخ أبي نصر المقدسي، قاله الشيخ شهاب الدين أبو شامة، وكان يوم جنازته يوماً مشهوداً، ودفن بسفح قاسيون رحمه الله تعالى وعفا عنه بمنه وكرمه.

ثم دخلت سنة ثمان وعشرين وستمائة

استهلت هذه السنة والملك الأشرف موسى بن العادل ببلاد بالجزيرة مشغول فيها بإصلاح ما كان جلال الدين الخوارزمي قد أفسده من بلاده، وقد قدمت التتار في هذه السنة إلى الجزيرة وديار بكر فعاثوا بالفساد يميناً وشمالاً، فقتلوا ونهبوا وسبوا على عادتهم خذلهم الله تعالى. وفيها رتب إمام بمشهد أبي بكر من جامع دمشق وصليت فيه الصلوات الخمس. وفيها درس الشيخ تقي الدين بن الصلاح الشهرزوري الشافعي في المدرسة الجوانية في جوار المارستان في جمادى الأولى منها. وفيها درس الناصر بن الحنبلي بالصالحية بسفح قاسيون التي أنشأتها الخاتون ربيعة خاتون بنت أيوب أخت ست الشام.

وفيها حبس الملك الأشرف الشيخ علي الحريري بقلعة عَزّتا. وفيها كان غلاء شديد بديار مصر وبلاد الشام وحلب والجزيرة بسبب قلة المياه السماوية والأرضية، فكانت هذه السنة

كما قال الله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٦] وذكر ابن الأثير كلاماً طويلاً مضمونه خروج طائفة من التتار مرة أخرى من بلاد ما وراء النهر، وكان سبب قدومهم هذه السنة أن الإسماعيلية كتبوا إليهم يخبرونهم بضعف أمر جلال الدين بن خوارزم شاه وأنه قد عادى جميع الملوك حوله حتى الخليفة، وأنه قد كسره الأشرف بن العادل مرتين، وكان جلال الدين قد ظهرت منه أفعال ناقصة تدل على قلة عقله، وذلك أنه توفي له غلام خصي يقال له قلج، وكان يحبه، فوجد عليه وجداً عظيماً بحيث إنه أمر الأمراء أن يمشوا بجنازته فمشوا فراسخ إلى تربته، وأمر أهل البلد أن يخرجوا بحزن وتعداد عليه فتوانى بعضهم في ذلك فهم بقتلهم حتى تشفع فيهم بعض الأمراء ثم لم يسمح بدفن قلج فكان يحمل معه بمحفة، وكلما أحضر بين يديه طعام يقول احملوا هذا إلى قلج فقال له بعضهم: أيها الملك إن قلج قد مات، فأمر بضرب عنقه فقتل، فكانوا بعد ذلك يقولون: قبله وهو يقبل الأرض، ويقول هو الآن أصلح مما كان ـ يعني أنه مريض وليس بميت ـ فيجد الملك بذلك راحة من قلة عقله ودينه قبحه الله. فلما جاءت التتار اشتغل بهم وأمر بدفن قلج وهرب من بين أيديهم وامتلأ قلبه خوفاً منهم، وكان كلما سار من قطر لحقوه إليه وخربوا ما اجتازوا به من الأقاليم والبلدان حتى انتهوا إلى الجزيرة وجاوزوها إلى سنجار وماردين وآمد، يفسدون ما قدروا عليه قتلاً ونهباً وأسراً، وتمزق شمل جلال الدين وتفرق عنه جيشه، فصاروا شذر مذر، وبدلوا بالأمن خوفاً، وبالعز ذلاً، وبالاجتماع تفريقاً، فسبحان من بيده الملك لا إله إلا هو. وانقطع خبر جلال الدين فلا يدري أين سلك، ولا أين ذهب، وتمكنت التتار من الناس في سائر البلاد لا يجدون من يمنعهم ولا من يردعهم، وألقى الله تعالى الوهن والضعف في قلوب الناس منهم، كانوا كثيراً يقتلون الناس فيقول المسلم: لا بالله، لا بالله، فكانوا يلعبون على الخيل ويغنون ويحاكون الناس لا بالله لا بالله، وهذه طامة عظمى وداهية كبرى، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وحج الناس في هذه السنة من الشام وكان ممن حج فيها الشيخ تقي الدين أبو عمرو بن الصلاح، ثم لم يحج الناس بعد هذه السنة أيضاً لكثرة الحروب والخوف من التتار والفرنج، فإنا لله وإنا إليه راجعون. وفيها تكامل بناء المدرسة التي بسوق العجم ببغداد المنسوبة إلى إقبال الشرابي، وحضر الدرس بها، وكان يوماً مشهوداً، اجتمع فيه جميع المدرسين والمفتيين ببغداد، وعمل بصحنها قباب الحلوى فحمل منها إلى جميع المدارس والربط، ورتب فيها خمسة وعشرين فقيهاً لهم الجوامك الدارّة في كل شهر، والحلوى في أوقات المواسم، والفواكه في زمانها، وخلع على المدرس والمعيدين والفقهاء في ذلك اليوم، وكان وقتاً حسناً تقبل الله تعالى منه. وفيها سار كل يوم الأشرف أبو العباس أحمد بن القاضي الفاضل في الرسلية عن الكامل محمد صاحب مصر إلى الخليفة المستنصر بالله ببغداد، فأكرم وأعيد معظماً. وفيها دخل الملك المظفر أبو سعيد كوكبري بن زين الدين صاحب إربل إلى بغداد ولم يكن دخلها قط، فتلقاه الموكب وشافهه الخليفة بالسلام مرتين في وقتين، وكان ذلك شرفاً له غبطه به سائر ملوك

الآفاق وسألوا أن يهاجروا ليحصل لهم مثل ذلك، فلم يمكنوا لحفظ الثغور، ورجع إلى مملكته معظماً مكرماً. وممن توفي فيها من الأعيان:

يحيى بن معطي بن عبد النور

النحوي صاحب الألفية وغيرها من المصنفات النحوية المفيدة، ويلقب زين الدين، أخذ عن الكندي وغيره، ثم سافر إلى مصر فكانت وفاته بالقاهرة في مستهل ذي الحجة من هذه السنة، وشهد جنازته الشيخ شهاب الدين أبو شامة، وكان قد رحل إلى مصر في هذه السنة، وحكي أن الملك الكامل شهد جنازته أيضاً، وأنه دفن قريباً من قبر المزني بالقرافة في طريق الشافعي عن يسرة المار رحمه الله.

الدخوار الطبيب

مهذب الدين عبد الرحيم بن علي بن حامد، المعروف بالدخوار شيخ الأطباء بدمشق، وقد وقف داره بدرب العميد بالقرب من الصاغة العتيقة على الأطباء بدمشق مدرسة لهم، وكانت وفاته بصفر من هذه السنة، ودفن بسفح قاسيون، وعلى قبره قبة على أعمدة في أصل الجبل شرقي الركتية، وقد ابتلى بستة أمراض متعاكسة، منها ريح اللقوة، وكان مولده سنة خمس وستين وخمسمائة وكان عمره ثلاثاً وستين سنة. قال ابن الأثير: وفيها توفي:

القاضي أبو غانم بن العديم

الشيخ الصالح، وكان من المجتهدين في العبادة والرياضة، من العاملين بعلمهم، ولو قال قائل إنه لم يكن في زمانه أعبد منه لكان صادقاً، فرضي الله تعالى عنه وأرضاه، فإنه من جماعة شيوخنا، سمعنا عليه الحديث وانتفعنا برؤيته وكلامه، قال: وفيها أيضاً في الثاني عشر من ربيع الأول توفي صديقنا.

أبو القاسم عبد المجيد بن العجمي الحلبي

وهو وأهل بيته مقدمو السنة بحلب، وكان رجلاً ذا مروءة غزيرة، وخلق حسن، وحلم وافر ورياسة كثيرة، يحب إطعام الطعام، وأحب الناس إليه من أكل من طعامه ويقبل يده، وكان يلقى أضيافه بوجه منبسط، ولا يقعد عن إيصال راحة وقضاء حاجة، فرحمه الله تعالى رحمة واسعة. قلت وهذا آخر ما وجد من الكامل في التاريخ للحافظ عز الدين أبي الحسن علي بن محمد بن الأثير رحمه الله تعالى.

أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الكريم

ابن أبي السعادات بن كريم الموصلي، أحد الفقهاء الحنفيين، شرح قطعة كبيرة من القدوري، وكتب الإنشاء لصاحبها بدر الدين لؤلؤ، ثم استقال من ذلك، وكان فاضلاً شاعراً، من شعره:

دَعُوهُ كَمَا شَاءَ الغَرامُ يكونُ ... فَلَسْتُ وَإِنْ خَانَ العُهُودَ أَخُونُ
وَلِينُوا لَهُ فِي قَوْلِكُمْ ما اسْتَطَعْتُمُ ... عَسَى قَلْبُهُ القَاسِي عَلَيَّ يَلِينُ
وَبُثُّوا صَبَابَاتِي إِلَيْهِ وَكَرِّرُوا ... حَدِيثِي عَلَيْه فَالحَدِيثُ شُجُونُ
بِنَفْسِي الأُولَى بَانُوا عَنِ العَيْنِ خفيةً ... وَحُبُّهُمُ فِي القَلْبِ لَيْسَ يَبِينُ [1]
وَسَلُّوا عَلَى العُشَّاقِ يَوْمَ تَحَمَّلُوا ... سُيُوفاً لَهَا وَطَفُ [2] الجُفُونِ جُفُونُ [3]

المجد البهنسي

وزير الملك الأشرف ثم عزله وصادره، ولما توفي دفن بتربته التي أنشأها بسفح قاسيون وجعل كتبه بها وقفاً، وأجرى عليها أوقافاً جيدة دارة رحمه الله تعالى.

جمال الدولة خليل بن زويزان

رئيس قصر حجاج، كان كيساً ذا مروءة، له صدقات كثيرة، وله زيارة في مقابر الصوفية من ناحية القبلة، ودفن بتربته عند مسجد قلوس رحمه الله تعالى.

الملك الأمجد

واقف المدرسة الأمجدية. وفيها كانت وفاة.

بهرام شاه بن فروخشاه بن شاهنشاه

ابن أيوب صاحب بعلبك، لم يزل بها حتى قدم الأشرف موسى بن العادل إلى دمشق فملكها في سنة ست وعشرين، فانتزع من يده بعلبك في سنة سبع وعشرين، وأسكنه عنده بدمشق بدار أبيه، فلما كان شهر شوال من هذه السنة عدا عليه مملوك من مماليكه تركي فقتله ليلاً، وكان قد اتهمه في صاحبة له وحبسه، فتغلب عليه في بعض الليالي فقتله وقتل المملوك بعده، ودفن الأمجد في تربته التي إلى جانب تربة أبيه في الشرق الشمالي رحمه الله تعالى، وقد كان شاعراً فاضلاً له ديوان شعر، وقد أورد له ابن الساعي قطعة جيدة من شعره الرائق الفائق، وترجمته في طبقات الشافعية، ولم يذكره أبو شامة في الذيل، وهذا عجيب منه، ومما أورد له ابن الساعي قوله في شاب رآه يقطع قضبان بان فأنشأ على البديهة يقول:

مَنْ لِي بِأَهْيَفَ [4] قَالَ حِينَ عَتِبْتُهُ ... فِي قَطْعِ كُلِّ قَضِيبِ بَانٍ رَائِقِ
تَحْكِي شَمَائِلُهُ الرشاء [5] إِذَا انْثَنَى ... رَيَّانَ بَيْنَ جَدَاوِلٍ وَحَدَائِقِ
سَرَقَتْ غُصُونُ البَانِ لِينَ شَمَائِلِي ... فَقَطَعْتُهَا وَالقَطْعُ حَدُّ السَّارِقِ

---

(١) بان: بعد.
(٢) الوطف: كثرة شعر العينين والحاجبين.
(٣) الجفون الأولى: جفون العينين. والجفون الثانية: جمع جفن، وهو غمد السيف.
(٤) أهيف: ضامر البطن والخصر.
(٥) الرشاء: الحبل.

ومن شعره أيضاً رحمه الله تعالى قوله:

يُــؤَرِّقُــنِــي حَــنِــيــنٌ وَادِّكَــارُ وَقَـدْ خَـلَـتِ الـمَـرَابِـعُ(١) وَالـدِّيَـارُ
تَـنَـاءَى الـظَّـاعِـنُـونَ وَلِـي فُـؤَادٌ يَـسِـيـرُ مَـعَ الـهَـوَادِجِ حَـيْـثُ سَـارُوا(٢)
حَـنِـيـنٌ مِـثْـلَـمَـا شَـاءَ الـتَّـنَـائِـي وَشَـوْقٌ كُـلَّـمَـا بَـعُـدَ الـمَـزَارُ
وَلَـيْـلٌ بَـعْـدَ بَـيْـنِـهِـمُ طَـوِيـلٌ فَـأَيْـنَ مَـضَـتْ لَـيَـالِـيَّ الـقِـصَـارُ؟
وَقَـدْ حَـكَـمَ الـسُّـهَـادُ(٣) عَـلَـى جُـفُـونِـي تَـسَـاوَى الـلَّـيْـلُ عِـنْـدِي وَالـنَّـهَـارُ
سُـهَـادِي بَـعْـدَ نَـأْيِـهِـمُ كَـثِـيـرٌ وَنَـوْمِـي بَـعْـدَ مـا رَحَـلُـوا غِـرَارُ(٤)
فَـمَـنْ ذَا يَـسْـتَـعِـيـرُ لَـنَـا عُـيُـونـاً تَـنَـامُ وَهَـلْ تَـرَى عَـيْـنـاً تُـعَـارُ
فَـلا لَـيْـلِـي لَـهُ صُـبْـحٌ مُـنِـيـرٌ وَلا وَجْـدِي يُـقَـالُ لَـهُ عِـثَـارُ(٥)
وَكَـمْ مِـنْ قَـائِـلٍ وَالـحَـيُّ غَـادٍ يُـحَـجِّـبُ ظَـعْـنَـهُ الـنَّـقْـعُ(٦) الـمُـثَـارُ
وُقُـوفُـكَ فِـي الـدِّيَـارِ وَأَنْـتَ حَـيٌّ وَقَـدْ رَحَـلَ الـخَـلِـيـطُ(٧) عَـلَـيْـكَ عَـارُ

وله دوبيت:

كَمْ يَذْهَبُ هٰذا العُمْرُ فِي الْخسْرَانِ ما أَغْفَلَنِي فِيهِ وَمَا أَنْسَانِي
ضَيَّعْتُ زَمَانِي كُلَّهُ فِي لَعِبٍ يا عُمْرُ هَلْ بَعْدَكَ عُمْرٌ ثَانِي؟

وقد رآه بعضهم في المنام فقال له: ما فعل الله تعالى بك؟ فقال:

كُـنْـتُ مِـنْ دِيـنِـي عَـلَـى وَجَـلٍ زَالَ عَـنِّـي ذٰلِـكَ الـوَجَـلُ(٨)
أَمِـنَـتْ نَـفْـسِـي بَـوَائِـقَـهَـا(٩) عِـشْـتَ لَـمَّـا مِـتَّ يَـا رَجُـلُ

رحمه الله وعفا عنه.

جلال الدين [بن](١٠) تكش

وقيل محمود بن علاء الدين خوارزم شاه محمد بن تكش الخوارزمي، وهم من سلالة طاهر بن الحسين، وتكش جدهم هو الذي أزال دولة السلجوقية. كانت التتار قهروا أباه حتى شردوه في البلاد فمات في بعض جزائر البحر، ثم ساقوا وراء جلال الدين هذا حتى مزقوا عساكره شذر مذر وتفرقوا عنه أيدي سبا، وانفرد هو وحده فلقيه فلاح من قرية بأرض ميافارقين

---

(١) المرابع: منازل القوم في الربيع.
(٢) الظاعنون: المبتعدون. والهوادج: محامل النساء فوق الجمال.
(٣) السُّهاد: الأرق.
(٤) النأي: البعد. الغرار: القليل من النوم.
(٥) العثار: الزَّلل.
(٦) النقع: الغبار.
(٧) الخليط: العشير، وهنا المحبوب.
(٨) الوجل: الخوف.
(٩) البوائق: الآثام.
(١٠) سقط في ط.

فأنكره لما عليه من الجواهر الذهب، وعلى فرسه، فقال له: من أنت؟ فقال: أنا ملك الخوارزمية - وكانوا قد قتلوا للفلاح أخاً - فأنزله وأظهر إكرامه، فلما نام قتله بفأس كانت عنده، وأخذ ما عليه، فبلغ الخبر إلى شهاب الدين غازي بن العادل صاحب ميافارقين فاستدعى بالفلاح فأخذ ما كان عليه من الجواهر والحلي، وأخذ الفرس أيضاً، وكان الملك الأشرف يقول هو سد ما بيننا وبين التتار، كما أن السد بيننا وبين يأجوج ومأجوج.

ثم دخلت سنة تسع وعشرين وستمائة [من الهجرة النبوية](1)

فيها عزل القاضيان بدمشق: شمس الخوي وشمس الدين بن سني الدولة، وولي قضاء القضاة عماد الدين بن الحرستاني، ثم عزل في سنة إحدى وثلاثين وأعيد شمس الدين بن سني الدولة كما سيأتي. وفيها سابع عشر شوالها عزل الخليفة المستنصر وزيره مؤيد الدين محمد بن محمد بن عبد الكريم القمي، وقبض عليه وعلى أخيه حسن وابنه فخر الدين أحمد بن محمد القمي وأصحابهم وحبسوا، واستوزر الخليفة مكانه أستاذ الدار شمس الدين أبا الأزهر، أحمد بن محمد بن الناقد، وخلع عليه خلعة سنية وفرح الناس بذلك. وفيه أقبلت طائفة من التتار فوصلوا إلى شهزور فندب الخليفة صاحب إربل مظفر الدين كوكبري بن زين الدين، وأضاف إليه عساكر من عنده، فساروا نحوهم فهربت منهم التتار وأقاموا في مقابلتهم مدة شهور، ثم تمرض مظفر الدين وعاد إلى بلده إربل، وتراجعت التتار إلى بلادها.

وممن توفي فيها من الأعيان:

الحافظ محمد بن عبد الغني:

ابن أبي بكر البغدادي، أبو بكر بن نقطة الحافظ المحدث الفاضل، صاحب الكتاب النافع المسمى بالتقييد في تراجم رواة الكتب والمشاهير من المحدثين، وكان أبوه فقيهاً فقيراً منقطعاً في بعض مساجد بغداد، يؤثر أصحابه بما يحصل له، ونشأ ولده هذا مغنياً بعلم الحديث وسماعه والرحلة فيه إلى الآفاق شرقاً وغرباً، حتى برز فيه على الأقران، وفاق أهل ذلك الزمان، ولد سنة سبع وسبعين وخمسمائة، وتوفي يوم الجمعة الثاني والعشرين من صفر من هذه السنة، رحمهم الله تعالى.

الجمال عبد الله ابن الحافظ عبد الغني المقدسي

كان فاضلاً كريماً حيياً، سمع الكثير، ثم خالط الملوك وأبناء الدنيا، فتغيرت أحواله ومات ببستان ابن شكر عند الصالح إسماعيل بن العادل، وهو الذي كفنه ودفن بسفح قاسيون رحمه الله تعالى.

أبو علي الحسين بن أبي بكر المبارك

ابن أبي عبد الله محمد بن يحيى بن مسلم الزبيدي ثم البغدادي، كان شيخاً صالحاً حنفياً

(١) سقط في ط.

فاضلاً ذا فنون كثيرة، ومن ذلك علم الفرائض والعروض، وله فيه أرجوزة حسنة، انتخب منها ابن الساعي من كل بحر بيتين، وسرد ذلك في تاريخه.

أبو الفتح مسعود بن إسماعيل

ابن علي بن موسى السلماسي، فقيه أديب شاعر، له تصانيف، وقد شرح المقامات والجمل في النحو، وله خطب وأشعار حسنة رحمه الله تعالى.

أبو بكر محمد بن عبد الوهاب

ابن عبد الله الأنصاري فخر الدين بن الشيرجي الدمشقي، أحد المعدلين بها، ولد سنة تسع وأربعين وخمسمائة، سمع الحديث وكان يلي ديوان الخاتون ست الشام بنت أيوب، وفوضت إليه أمر أوقافها. قال السبط: وكان ثقة أميناً كيساً متواضعاً. قال وقد وزر ولده شرف الدين للناصر داود مدة يسيرة، وكانت وفاة فخر الدين في يوم عيد الأضحى ودفن بمقابر باب الصغير رحمه الله تعالى وعفا عنه.

[العماد المحلي الشاعر][1] حسام بن غزي

ابن يونس عماد الدين أبو المناقب المحلي المصري، ثم الدمشقي، كان شيخاً صالحاً فاضلاً فقيهاً شافعياً حسن المحاضرة وله أشعار حسنة، قال أبو شامة: وله في معجم القوصي ترجمة حسنة، وذكر أنه توفي عاشر ربيع الآخر ودفن بمقابر الصوفية. قال السبط: وكان مقيماً بالمدرسة الأمينية، وكان لا يأكل لأحد شيئاً ولا للسلطان، بل إذا حضر طعاماً كان معه في كمه شيء يأكله، وكان لا يزال معه ألف دينار على وسطه، وحكي عنه قال: خلع عليّ الملك العادل ليلة طيلساناً فلما خرجت مشى بين يدي تعاط يحسبني القاضي، فلما وصلت باب البريد عند باب سيف خلعت الطيلسان وجعلته في كمي وتباطأت في المشي، فالتفت فلم ير وراءه أحداً، فقال لي: أين القاضي؟ فأشرت إلى ناحية النورية وقلت: ذهب إلى داره، فلما أسرع إلى ناحية النورية هرولت إلى المدرسة الأمينية واسترحت منه. قال ابن الساعي كان مولده سنة ستين وخمسمائة، وخلف أموالاً كثيرة ورثتها عصبته، قال: وكانت له معرفة حسنة بالأخبار والتواريخ وأيام الناس، مع دين وصلاح وورع، وأورد له ابن الساعي قطعاً من شعره فمن ذلك قوله:

قِيلَ لِي مَنْ هَوِيتَ قَدْ عَبَثَ الشَّـ ... ـعْرُ فِي خَدَّيْهِ. قُلْتُ ما ذَاكَ عَارَهْ
حُمْرَةُ الخَدِّ أَحْرَقَتْ عَنْبَرَ الخَا ... لِ فَمِنْ ذَاكَ الدُّخَانُ عِذَارُهْ

وله:

شَوْقِي إِلَيْكُمْ دُونَ أَشْوَاقِكُمْ ... لَكِنْ لا بُدَّ أَنْ تَشْرَحُوا
لأَنَّنِي عَنْ قَلْبِكُمْ غَائِبٌ ... وَأَنْتُمُ فِي القَلْبِ لَنْ تَبْرَحُوا

---

(١) سقط في ط.

أبو عبد الله محمد بن علي

ابن محمد بن الجارود الماراني الفقيه الشافعي، أحد الفضلاء، ولي القضاء بإربل وكان ظريفاً وخليعاً، وكان من محاسن الأيام، وله أشعار رائقة ومعان فائقة فمن شعره قوله:

مَشِيبٌ أَتَى وَشَبَابٌ رَحَلْ ... أَحَلَّ العِنَايَةَ حَيْثُ حَلْ
وَذَنْبُكِ جَمٌّ، أَلاَ فَارْجِعِي ... وَعُودِي فَقَدْ حَانَ وَقْتُ الأَجَلْ
وَدِينِي الإِلَهَ وَلا تُقْصِرِي ... وَلا يَخْدَعَنْكِ طُولُ الأَمَلْ
[فَمَالَكِ عِنْدِي غَيْرُ التُّقَى ... وَلا صَاحِبٌ غَيْرُ حُسْنِ العَمَلْ] (١)

أبو الثناء محمود بن رالي (٢)

ابن علي بن يحيى الطائي الرقي نزيل إربل، وولي النظر بها للملك مظفر الدين، وكان شيخاً أديباً فاضلاً، ومن شعره قوله:

وَأَهْيَفَ مَا الخَطِّيُّ إلاّ قَوَامُهُ ... وَمَا الغُصْنُ إلاّ مَا يُثَنّيهِ لِينُهُ
وَما الدِّعْصُ إلا مَا تَحَمَّل خَصْرُهُ ... وَمَا النَّبْلُ إلاّ ما تَرِيشُ جُفُونُهُ
وَمَا الخَمْرُ إلاّ ما يُرَوِّقُ ثَغْرُهُ ... وَمَا السِّحْرُ إلاّ مَا تُكِنُّ عُيُونُهُ
وَمَا الحُسْنُ إلاّ كُلُّهُ فَمَنِ الَّذي ... إذا مَا رَآهُ لا يَزِيدُ جُنُونُهُ

ابن معطي النحوي يحيى

ترجمه أبو شامة في السنة الماضية، وهو أضبط لأنه شهد جنازته بمصر، وأما ابن الساعي فإنه ذكره في هذه السنة، وقال إنه كان حظياً عند الكامل محمد صاحب مصر، وإنه كان قد نظم أرجوزة في القراءات السبع، ونظم ألفاظ الجمهرة، وكان قد عزم على نظم صحاح الجوهري.

ثم دخلت سنة ثلاثين وستمائة [من الهجرة النبوية](٣)

فيها باشر خطابة بغداد ونقابة العباسيين العدل مجد الدين أبو القاسم هبة الله بن المنصوري. وخلع عليه خلعة سنية، وكان فاضلاً قد صحب الفقراء والصوفية وتزهد برهة من الزمان، فلما دعي إلى هذا الأمر أجاب سريعاً وأقبلت عليه الدنيا بزهرتها، وخدمه الغلمان الأتراك، ولبس لباس المترفين وقد عاتبه بعض تلامذته بقصيدة طويلة، وعنفه على ما صار إليه، وسردها ابن الساعي بطولها في تاريخه. وفيها سار القاضي محيي الدين يوسف بن الشيخ جمال الدين أبي الفرج بن الجوزي في الرسلية من الخليفة إلى الكامل صاحب مصر، ومعه

(١) ما بين معقوفين سقط في ط.
(٢) في ط: زاكي.
(٣) سقط في ط.

كتاب هائل فيه تقليده الملك، وفيه أوامر كثيرة مليحة من إنشاء الوزير نصر الدين أحمد بن الناقد، سرده ابن الساعي أيضاً بكماله، وقد كان الكامل مخيماً بظاهر آمد من أعمال الجزيرة، قد افتتحها بعد حصار طويل وهو مسرور بما نال من ملكها. وفيها فتحت دار الضيافة ببغداد للحجيج حين قدموا من حجهم، وأجريت عليهم النفقات والكساوي والصلاة ولله الحمد والمنة وفيها سارت العساكر المستنصرية صحبة الأمير سيف الدين أبي الفضائل إقبال الخاص المستنصري إلى مدينة إربل وأعمالها، وذلك لمرض مالكها مظفر الدين كوكبري بن زين الدين، وأنه ليس له من بعده من يملك البلاد، فحين وصلها الجيش منعه أهل البلد فحاصروه حتى افتتحوه عنوة في السابع عشر من شوال في هذه السنة، وجاءت البشائر بذلك فضربت الطبول ببغداد بسبب ذلك، وفرح أهلها، وكتب التقليد عليها لإقبال المذكور، فرتب فيها المناصب وسار فيها سيرة جيدة، وامتدح الشعراء هذا الفتح من حيث هو، وكذلك مدحوا فاتحها إقبالاً، ومن أحسن ما قال بعضهم في ذلك.

يَا يَوْمَ سَابِعَ عَشْرَ شَوَّالَ الَّذي رُزِقَ السَّعَادَةَ أَوَّلاً وَأَخِيرَا
هُنِّيتَ فِيهِ بِفَتْحِ إِرْبِلَ مِثْلَمَا هُنِّيتَ فِيهِ وَقَدْ جَلَسْتَ وَزِيرَا

يعني أن الوزير نصير الدين بن العلقمي، قد كان وزر في مثل هذا اليوم من العام الماضي، وفي مستهل رمضان من هذه السنة شرع في عمارة دار الحديث الأشرفية بدمشق، وكانت قبل ذلك داراً للأمير قايماز وبها حمام فهدمت وبنيت عوضها. وقد ذكر السبط في هذه السنة أن في ليلة النصف من شعبان فتحت دار الحديث الأشرفية المجاورة لقلعة دمشق، وأملى بها الشيخ تقي الدين بن الصلاح الحديث، ووقف عليها الأشرف الأوقاف، وجعل بها نعل النبي ﷺ. قال وسمع الأشرف صحيح البخاري في هذه السنة على الزبيدي، قلت: وكذا سمعوا عليه بالدار وبالصالحية. قال: وفيها فتح الكامل آمد وحصن كيفا ووجد عند صاحبها خمسمائة حرة للفراش فعذبه الأشرف عذاباً أليماً. وفيها قصد صاحب ماردين وجيش بلاد الروم والجزيرة فقتلوا وسبوا وفعلوا ما لم يفعله التتار بالمسلمين.

وممن توفي فيها من الأعيان المشاهير:

أبو القاسم علي بن الشيخ أبي الفرج بن الجوزي

كان شيخاً لطيفاً ظريفاً، سمع الكثير وعمل صناعة الوعظ مدة، ثم ترك ذلك، وكان يحفظ شيئاً كثيراً من الأخبار والنوادر والأشعار، ولد سنة إحدى وخمسين وخمسمائة، وكانت وفاته في هذه السنة وله تسع وسبعون سنة. وقد ذكر السبط وفاة.

الوزير صفي الدين بن شكر

في هذه السنة، وأثنى عليه وعلى محبته للعلم وأهله، وأن له مصنفاً سمّاه البصائر، وأنه تغضب عليه العادل ثم ترضاه الكامل وأعاده إلى وزارته وحرمته، ودفن بمدرسته المشهورة بمصر، وذكر أن أصله من قرية يقال لها دميرة بمصر.

الملك ناصر الدين محمود

ابن عز الدين مسعود بن نور الدين أرسلان شاه بن قطب الدين مودود بن عماد الدين بن زنكي بن آقسنقر صاحب الموصل، كان مولده في سنة ثلاث عشرة وستمائة، وقد أقامه بدر الدين لؤلؤ صورة حتى تمكن أمره وقويت شوكته، ثم حجر عليه فكان لا يصل إلى أحد من الجواري ولا شيء من السراري، حتى لا يعقب، وضيق عليه في الطعام والشراب، فلما توفي جده لأمه مظفر الدين كوكبري صاحب إربل منعه حينئذٍ من الطعام والشراب ثلاثة عشر يوماً حتى مات كمداً وجوعاً وعطشاً رحمه الله، وكان من أحسن الناس صورة، وهو آخر ملوك الموصل من بيت الأتابكي.

القاضي شرف الدين إسماعيل بن إبراهيم

أحد مشايخ الحنفية، وله مصنفات في الفرائض وغيرها، وهو ابن خالة القاضي شمس الدين بن الشيرازي الشافعي وكلاهما كان ينوب عن ابن الزكي وابن الحرستاني، وكان يدرس بالطرخانية. وفيها سكنه، فلما أرسل إليه المعظم أن يفتي بإباحة نبيذ التمر وماء الرمان امتنع من ذلك وقال أنا على مذهب محمد بن الحسن في ذلك، والرواية عن أبي حنيفة شاذة، ولا يصح حديث ابن مسعود في ذلك، ولا الأثر عن عمر أيضاً. فغضب عليه المعظم وعزله عن التدريس وولاه لتلميذه الزين ابن العتال، وأقام الشيخ بمنزله حتى مات.

قال أبو شامة: ومات في هذه السنة جماعة من السلاطين منهم المغيث بن المغيث بن العادل، والعزيز عثمان بن العادل، ومظفر الدين صاحب إربل، **قلت**: أما صاحب إربل فهو.

الملك المظفر أبو سعيد كوكبري

ابن زين الدين علي بن تبكتكين أحد الأجواد والسادات الكبراء والملوك الأمجاد، له آثار حسنة وقد عمر الجامع المظفري بسفح قاسيون، وكان قد هم بسياقة الماء إليه من ماء برزة فمنعه المعظم من ذلك، واعتل بأنه قد يمر على مقابر المسلمين بالسفوح، وكان يعمل المولد الشريف في ربيع الأول ويحتفل به احتفالاً هائلاً، وكان مع ذلك شهماً شجاعاً فاتكاً بطلاً عاقلاً عالماً عادلاً رحمه الله وأكرم مثواه، وقد صنف الشيخ أبو الخطاب بن دحية له مجلداً في المولد النبوي سماه التنوير في مولد البشير النذير، فأجازه على ذلك بألف دينار، وقد طالت مدته في الملك في زمان الدولة الصلاحية، وقد كان محاصراً عكا وإلى هذه السنة محمود السيرة والسريرة، قال السبط: حكى بعض من حضر سماط المظفر في بعض الموالد كان يمد في ذلك السماط خمسة آلاف رأس مشوي. وعشرة آلاف دجاجة، ومائة ألف زبدية، وثلاثين ألف صحن حلوى، قال: وكان يحضر عنده في المولد أعيان العلماء والصوفية فيخلع عليهم ويطلق لهم ويعمل للصوفية سماعاً من الظهر إلى الفجر، ويرقص بنفسه معهم، وكانت له دار ضيافة للوافدين من أي جهة على أي صفة. وكانت صدقاته في جميع القرب والطاعات على الحرمين

وغيرهما، ويستفك[١] من الفرنج في كل سنة خلقاً من الأساري، حتى قيل إن جملة من استفكه من أيديهم ستون ألف أسير، قالت زوجته ربيعة خاتون بنت أيوب ـ وكان قد زوجه إياها أخوها صلاح الدين، لما كان معه على عكا ـ قالت: كان قميصه لا يساوي خمسة دراهم فعاتبته بذلك فقال: لبسي ثوباً بخمسة وأتصدق بالباقي خير من أن ألبس ثوباً مثمناً وأدع الفقير المسكين، وكان يصرف على المولد في كل سنة ثلاثمائة ألف دينار، وعلى دار الضيافة في كل سنة مائة ألف دينار. وعلى الحرمين والمياه بدرب الحجاز ثلاثين ألف دينار سوى صدقات السر، رحمه الله تعالى، وكانت وفاته بقلعة إربل، وأوصى أن يحمل إلى مكة فلم يتفق فدفن بمشهد علي.

الملك العزيز بن عثمان بن العادل

وهو شقيق المعظم، كان صاحب بانياس وتملك الحصون التي هنالك، وهو الذي بنى المعظمية. وكان عاقلاً قليل الكلام مطيعاً لأخيه المعظم، ودفن عنده وكانت وفاته يوم الاثنين عاشر رمضان ببستانه الناعمة من لهيا رحمه الله وعفا عنه.

[ابن عنين الشاعر][٢] أبو المحاسن محمد بن نصر الدين بن نصر

ابن الحسين بن علي بن محمد بن غالب الأنصاري[٣]، المعروف بابن عنين الشاعر. قال ابن الساعي أصله من الكوفة وولد بدمشق ونشأ بها، وسافر عنها سنين، فجاب الأقطار والبلاد شرقاً وغرباً ودخل الجزيرة وبلاد الروم والعراق وخراسان وما وراء النهر والهند واليمن والحجاز وبغداد، ومدح أكثر أهل هذه البلاد، وحصل أموالاً جزيلة، وكان ظريفاً شاعراً مطيقاً مشهوراً، حسن الأخلاق جميل المعاشرة، وقد رجع إلى بلده دمشق فكان بها حتى مات هذه السنة في قول ابن الساعي، وأما السبط وغيره فأرخوا وفاته في سنة ثلاث وثلاثين، وقد قيل إنه مات في سنة إحدى وثلاثين والله أعلم. والمشهور أن أصله من حوران مدينة زرع، وكانت إقامته بدمشق في الجزيرة قبلى الجامع، وكان هجاء له قدرة على ذلك، وصنف كتاباً سماه مقراض الأغراض، مشتمل على نحو من خمسمائة بيت، قل من سلم من الدماشقة من شره، ولا الملك صلاح الدين ولا أخوه العادل، وقد كان يُزَنّ[٤] بترك الصلاة المكتوبة فالله أعلم. وقد نفاه الملك الناصر صلاح الدين إلى الهند فامتدح ملوكها وحصل أموالاً جزيلة، وصار إلى اليمن فيقال إنه وزر لبعض ملوكها، ثم عاد في أيام العادل إلى دمشق ولما ملك المعظم استوزره فأساء السيرة واستقال هو من تلقاء نفسه فعزله، وكان قد كتب إلى الدماشقة من بلاد الهند:

فَعَلامَ أَبْعَدْتُمْ أَخَا ثِقَةٍ ... لَمْ يَقْتَرِفْ ذَنْباً وَلا سَرَقَا
انْفُوا الْمُؤَذِّنَ مِنْ بِلادِكُمْ ... إنْ كَانَ يُنْفَى كُلُّ مَنْ صَدَقَا

---

(١) في ط: ويتفك.
(٢) سقط في ط.
(٣) في ط: أبو المحاسن محمد بن نصر الله بن مكارم بن الحسن بن علي بن محمد بن غالب الأنصاري.
(٤) يُزَنّ: يرمى: يتهم.

ومما هجا به الملك الناصر صلاح الدين رحمه الله تعالى:

سُلْطَانُنَا أَعْرَجٌ وَكَاتِبُهُ ذُو عَمَشٍ وَوَزِيرُهُ أَحدبُ
وَالدُّوْلَعِيُّ الخَطِيبُ مُعْتَكِفٌ وَهُوَ عَلَى قِشْرِ بَيْضَةٍ يَثِبُ
وَلابْنِ بَاقَا وَعْظٌ يَغُشُّ بِهِ النَّـ ـاسَ وَعَبْدُ اللَّطِيفِ مُحْتَسِبُ
وَصَاحِبُ الأَمْرِ خُلْقُهُ شَرِسٌ وَعَارِضُ الجَيْشِ دَاؤُهُ عَجَبُ

وقال في السلطان الملك العادل سيف الدين رحمه الله تعالى وعفا عنه:

إنَّ سُلْطَانَنَا الَّذِي نَرْتَجِيهِ وَاسِعُ المَالِ ضَيِّقُ الإِنْفَاقِ
هُوَ سَيْفٌ كَمَا يُقَالُ وَلٰكِنْ قَاطِعٌ لِلرُّسُومِ وَالأَرْزَاقِ

وقد حضر مرة مجلس الفخر الرازي بخراسان وهو على المنبر يعظ الناس، فجاءت حمامة خلفها جارح فألقت نفسها على الفخر الرازي كالمستجيرة به، فأنشأ ابن عنين يقول:

جَاءَتْ سُلَيْمَانَ الزَّمَانِ حَمَامَةٌ وَالمَوْتُ يَلْمَعُ مِنْ جَنَاحَيْ خَاطِفِ
قَرِمٌ لَوَاهُ الجُوعُ حَتَّى ظِلُّهُ بِإِزَائِهِ وَبِكُلِّ قَلْبٍ وَاجِفِ
مَنْ أَعْلَمَ الوَرْقَاءَ(١) أَنَّ مَحَلَّكُمْ حَرَمٌ وَأَنَّكَ مَلْجَأٌ لِلْخَائِفِ

الشيخ شهاب الدين السهروردي

صاحب عوارف المعارف، عمر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن محمد بن حمويه، واسمه عبد الله البكري البغدادي، الشيخ شهاب الدين أبو حفص السهروردي، شيخ الصوفية ببغداد، كان من كبار الصالحين وسادات المسلمين، وتردد في الرسلية بين الخلفاء والملوك مراراً، وحصلت له أموال جزيلة ففرقها بين الفقراء والمحتاجين، وقد حج مرة في صحبته خلق من الفقراء لا يعلمهم إلا الله عز وجل، وكانت فيه مروءة وإغاثة للملهوفين وإعانة، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وكان يعظ الناس وعليه ثياب البذلة، قال مرة في ميعاده هذا البيت وكرره:

ما فِي الصِّحَابِ أَخُو وَجْدٍ تُطَارِحُهُ إلاَّ مُحِبٌّ لَهُ فِي الرَّكْبِ مَحْبُوبُ

فقام شاب وكان في المجلس فأنشده:

كَأَنَّمَا يُوسُفٌ فِي كُلِّ رَاحِلَةٍ وَلِهٌ وَفِي كُلِّ بَيْتٍ مِنْهُ يَعْقُوبُ

فصاح الشيخ ونزل عن المنبر وقصد الشاب ليعتذر إليهم فلم يجده ووجد مكانه حفرة فيها دم كثير من كثرة ما كان يفحص برجليه عند إنشاد الشيخ البيت. وذكر له ابن خلكان أشياء كثيرة من أناشيده وأثنى عليه خيراً، وأنه توفي في هذه السنة وله ثلاث وتسعون سنة رحمه الله تعالى.

---

(١) الورقاء: الحمامة.

ابن الأثير مصنف أسد الغابة والكامل

هو الإمام العلامة عز الدين أبو الحسن علي بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري الموصلي المعروف بابن الأثير مصنف كتاب أسد الغابة في أسماء الصحابة، وكتاب الكامل في التاريخ وهو من أحسنها حوادث، ابتدأه من المبتدأ إلى سنة ثمان وعشرين وستمائة، وقد كان يتردد إلى بغداد خصيصاً عند ملوك الموصل، ووزر لبعضهم كما تقدم بيانه، وأقام بها في آخر عمره موقراً معظماً إلى أن توفي بها في شعبان في هذه السنة، عن خمس وسبعين سنة رحمه الله. وأما أخوه [مجد الدين][1] أبو السعادات المبارك فهو مصنف كتاب جامع الأصول وغيره، وأخوهما الوزير ضياء الدين أبو الفتح نصر الله كان وزيراً للملك الأفضل علي بن الناصر فاتح بيت المقدس، صاحب دمشق كما تقدم، وجزيرة ابن عمر، قيل إنها منسوبة إلى رجل يقال له عبد العزيز بن عمر، من أهل برقعيد، وقيل بل هي منسوبة إلى ابني عمر، وهما أوس وكامل ابنا عمر بن أوس.

ابن المستوفي الإربلي

مبارك بن أحمد بن مبارك بن موهوب بن غنيمة بن غالب العلامة شرف الدين أبو البركات اللخمي الإربلي، كان إماماً في علوم كثيرة كالحديث وأسماء الرجال والأدب والحساب، وله مصنفات كثيرة وفضائل غزيرة، وقد بسط ترجمته القاضي شمس الدين بن خلكان في الوفيات، فأجاد وأفاد رحمهم الله.

ثم دخلت سنة إحدى وثلاثين وستمائة

فيها كمل بناء المدرسة المستنصرية ببغداد ولم يُبن مدرسة قبلها مثلها، ووقفت على المذاهب الأربعة من كل طائفة اثنان وستون فقيهاً، وأربعة معيدين، ومدرس لكل مذهب، وشيخ حديث وقارئان وعشرة مستمعين، وشيخ طب، وعشرة من المسلمين يشتغلون بعلم الطب، ومكتب للأيتام وقدر للجميع من الخبز واللحم والحلوى والنفقة ما فيه كفاية وافرة لكل واحد. ولما كان يوم الخميس خامس رجب حضرت الدروس بها وحَضر الخليفة المستنصر بالله بنفسه الكريمة وأهل دولته من الأمراء والوزراء والقضاة والفقهاء والصوفية والشعراء، ولم يتخلف أحد من هؤلاء، وعمل سماط عظيم بها أكل منه الحاضرون، وحمل منه إلى سائر دروب بغداد من بيوتات الخواص والعوام، وخلع على جميع المدرسين بها والحاضرين فيها، وعلى جميع الدولة والفقهاء والمعيدين، وكان يوماً مشهوداً، وأنشدت الشعراء الخليفة لمدائح الرائقة والقصائد الفائقة، وقد ذكر ذلك ابن الساعي في تاريخه مطولاً مبسوطاً شافياً كافياً، وقدر لتدريس الشافعية بها الإمام محيي الدين أبو عبد الله بن فضلان، وللحنفية الإمام العلامة رشيد الدين أبو حفص عمر بن محمد الفرغاني، وللحنابلة الإمام العالم محيي الدين يوسف بن الشيخ

(١) سقط في ط.

أبي الفرج بن الجوزي، ودرس عنه يومئذٍ ابنه عبد الرحمن نيابة لغيبته في بعض الرسالات إلى الملوك، ودرس للمالكية يومئذٍ الشيخ الصالح العالم أبو الحسن المغربي المالكي نيابة أيضاً، حتى يعين شيخ غيره، ووقفت خزائن كتب لم يسمع بمثلها في كثرتها وحسن نسخها وجودة الكتب الموقوفة بها. وكان المتولي لعمارة هذه المدرسة مؤيد الدين أبو طالب محمد بن العلقمي الذي وزر بعد ذلك، وقد كان إذ ذاك أستاذ دار الخلافة، وخلع عليه يومئذٍ وعلى الوزير نصير الدين. ثم عزل مدرس الشافعية في رابع عشر ذي القعدة بقاضي القضاة أبي المعالي عبد الرحمن بن مقبل، مضافاً إلى ما بيده من القضاء، وذلك بعد وفاة محيي الدين بن فضلان، وقد ولي القضاء مدة ودرس بالنظامية وغيرها، ثم عزل ثم رضي عنه ثم درس آخر وقت بالمستنصرية كما ذكرنا، فلما توفي وليها بعده ابن مقبل رحمهم الله تعالى.

وفيها عمر الأشرف مسجد جراح ظاهر باب الصغير. وفيها قدم رسول الأنبرور ملك الفرنج إلى الأشرف ومعه هدايا منها دبٌّ أبيض شعره مثل شعر الأسد، وذكروا أنه ينزل إلى البحر فيخرج السمك فيأكله. وفيها طاووس أبيض أيضاً. وفيها كملت عمارة القيسارية التي هي قبل النحاسين، وحول إليها سوق الصاغة وشغر سوق اللؤلؤ الذي كان فيه الصاغة العتيقة عند الحدادين. وفيها جددت الدكاكين التي بالزيادة. قلت وقد جددت شرقي هذه الصاغة الجديدة قيساريتان في زماننا، وسكنها الصياغ وتجار الذهب، وهما حسنتان وجميعهما وقف الجامع المعمور.

وممن توفي في هذه السنة من الأعيان:

[السيف الآمدي][1] أبو الحسن علي

ابن أبي علي بن محمد بن سالم الثعلبي، الشيخ سيف الدين الآمدي، ثم الحموي ثم الدمشقي، صاحب المصنفات في الأصلين وغير ذلك، من ذلك أبكار الأفكار في الكلام، ودقائق الحقائق في الحكمة، وأحكام الأحكام في أصول الفقه، وكان حنبلي المذهب فصار شافعياً أصولياً منطقياً جدلياً خلافياً، وكان حسن الأخلاق سليم الصدر كثير البكاء رقيق القلب، وقد تكلموا فيه بأشياء الله أعلم بصحتها، والذي يغلب على الظن أنه ليس لغالبها صحة، وقد كانت ملوك بني أيوب كالمعظم والكامل يكرمونه وإن كانوا لا يحبونه كثيراً، وقد فوض إليه المعظم تدريس العزيزية، فلما ولي الأشرف دمشق عزله عنها ونادى بالمدارس أن لا يشتغل أحد بغير التفسير والحديث والفقه، ومن اشتغل بعلوم الأوائل نفيته، فأقام الشيخ سيف الدين بمنزله إلى أن توفي بدمشق في هذه السنة في صفر، ودفن بتربته بسفح قاسيون. وذكر القاضي ابن خلكان أنه اشتغل ببغداد على أبي الفتح نصر بن فتيان بن المنى الحنبلي، ثم انتقل إلى مذهب الشافعي فأخذ عن ابن فضلان وغيره، وحفظ طريقة الخلاف للشريف وزوائد طريقة أسعد الميهني، ثم انتقل إلى الشام واشتغل بعلوم المعقول، ثم إلى الديار المصرية فأعاد بمدرسة

(١) سقط في ط.

الشافعية بالقرافة الصغرى، وتصدر بالجامع الظافري، واشتهر فضله وانتشرت فضائله، فحسده أقوام فسعوا فيه وكتبوا خطوطهم باتهامه بمذهب الأوائل والتعطيل والانحلال، فطلبوا من بعضهم أن يوافقهم فكتب:

حَسَدُوا الفَتَى إذْ لَمْ يَنَالُوا سَعْيَهُ فالنَّاسُ أَعْدَاءٌ لَهُ وَخُصُومُ

فانتقل سيف الدين إلى حماه ثم تحول إلى دمشق فدرس بالعزيزية، ثم عزل عنها ولزم بيته إلى أن مات في هذه السنة، وله ثمانون عاماً رحمه الله تعالى وعفا عنه.

واقف الركنية الأمير ركن الدين منكورس الفلكي

غلام فلك الدين أخي الملك العادل، لأنه وقف الفلكية كما تقدم، وكان هذا الرجل من خيار الأمراء، ينزل في كل ليلة وقت السحر إلى الجامع وحده بطوافه ويواظب على حضور الصلوات فيه مع الجماعة، وكان قليل الكلام كثير الصدقات، وقد بنى المدرسة الركنية بسفح قاسيون، ووقف عليها أوقافاً كثيرة وعمل عندها تربة، وحين توفي بقرية حدود حمل إليها رحمه الله تعالى.

الشيخ الإمام العالم رضي الدين

أبو سليمان بن المظفر بن غنائم الجيلي الشافعي، أحد فقهاء بغداد والمفتيين بها والمشغلين للطلبة مدة طويلة، له كتاب في المذهب نحو من خمسة عشر مجلداً، يحكي فيه الوجوه الغريبة والأقوال المستغربة وكان لطيفاً ظريفاً، توفي رحمه الله يوم الأربعاء ثالث ربيع الأول من هذه السنة ببغداد.

الشيخ طي المصري

أقام مدة بالشام في زاوية له بدمشق، وكان لطيفاً كيساً زاهداً، يتردد إليه الأكابر ودفن بزاويته المذكورة رحمه الله تعالى.

الشيخ عبد الله الأرمني

أحد العباد الزهاد الذين جابوا البلاد وسكنوا البراري والجبال والوهاد، واجتمعوا بالأقطاب والأبدال والأوتاد، وممن كانت له الأحوال والمكاشفات والمجاهدات والسياحات في سائر النواحي والجهات، وقد قرأ القرآن في بدايته وحفظ كتاب القدوري على مذهب أبي حنيفة، ثم اشتغل بالمعاملات والرياضات، ثم أقام آخر عمره بدمشق حتى مات بها ودفن بسفح قاسيون، وقد حكى عنه أشياء حسنة منها أنه قال اجتزت مرة في السياحة ببلدة فطالبتني نفسي بدخولها فآليت أن لا أستطعم منها بطعام، ودخلتها فمررت برجل غسال فنظر إليّ شزراً فخفت منه وخرجت من البلد هارباً، فلحقني ومعه طعام فقال: كل فقد خرجت من البلد، فقلت له وأنت في هذا المقام وتغسل الثياب في الأسواق؟ فقال: لا ترفع رأسك ولا تنظر إلى شيء من عملك، وكن عبداً لله فإن استعملك في الحش فارض به، ثم قال رحمه الله:

وَلَوْ قِيلَ لِي مُتْ قُلْتُ سَمْعاً وَطَاعَةً وَقُلْتُ لِدَاعِي المَوْتِ أَهْلاً وَمَرْحَبَا

وقال اجتزت مرة في سياحتي براهب في صومعة فقال لي: يا مسلم ما أقرب الطرق عندكم إلى الله عز وجل؟ قلت: مخالفة النفس، قال فرد رأسه إلى صومعته، فلما كنت بمكة زمن الحج إذا رجل يسلم علي عند الكعبة فقلت من أنت؟ فقال أنا الراهب، قلت: بم وصلت إلى هاهنا؟ قال بالذي قلت. وفي رواية عرضت الإسلام على نفسي فأبت، فعلمت أنه حق فأسلمت وخالفتها، فأفلح وأنجح. وقال بينا أنا ذات يوم بجبل لبنان إذا حرامية الفرنج فأخذوني فقيدوني وشدوا وثاقي فكنت عندهم في أضيق حال، فلما كان النهار شربوا وناموا، فبينا أنا موثوق إذا حرامية المسلمين قد أقبلوا نحوهم فأنبهتهم فلجؤوا إلى مغارة هنالك فسلموا من أولئك المسلمين، فقالوا: كيف فعلت هذا وقد كان خلاصك على أيديهم؟ فقلت إنكم أطعمتموني فكان من حق الصحبة أن لا أغشكم، فعرضوا علي شيئاً من متاع الدنيا فأبيت وأطلقوني. وحكى السبط قال: زرته مرة ببيت المقدس وكنت قد أكلت سمكاً مالحاً، فلما جلست عنده أخذني عطش جداً وإلى جانبه إبريق فيه ماء بارد فجعلت أستحيي منه، فمد يده إلى الإبريق وقد احمر وجهه وناولني وقال خذ، كم تكاسر، فشربت، وذكر أنه لما ارتحل من بيت المقدس كان سورها بعد قائماً جديداً على عمارة الملك صلاح الدين قبل أن يخربه المعظم، فوقف لأصحابه يودعهم ونظر إلى السور، وقال: كأني بالمعاول وهي تعمل في هذا السور عما قريب، فقيل له معاول المسلمين أو الفرنج؟ فقال بل معاول المسلمين، فكان كما قال. وقد ذكرت له أحوال كثيرة حسنة، ويقال إن أصله أرمني وإنه أسلم على يدي الشيخ عبد الله اليونيني، وقيل بل أصله رومي من قونية، وأنه قدم على الشيخ عبد الله اليونيني وعليه برنس كبرانس الرهبان، فقال له أسلم فقال أسلمت لرب العالمين. وقد كانت أمه داية امرأة الخليفة، وقد جرت له كائنة غريبة فسلمه الله بسبب ذلك وعرفه الخليفة فأطلقه.

ثم دخلت سنة اثنتين وثلاثين وستمائة

فيها خرب الملك الأشرف موسىٰ بن العادل خان الزنجاري الذي كان بالعقبية فيه خواطيء وخمور ومنكرات متعددة، فهدمه وأمر بعمارة جامع مكانه سمي جامع التوبة، تقبل الله تعالى منه.

وفيها توفي القاضي بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم بن شداد الحلبي، أحد رؤسائها من بيت العلم والسيادة، له علم بالتواريخ وأيام الناس وغير ذلك، وقد سمع الكثير وحدث، والشيخ شهاب الدين عبد السلام بن المطهر بن عبد الله بن محمد بن عصرون الحلبي أيضاً، كان فقيهاً زاهداً عابداً كانت له نحو من عشرين سرية، وكان شيخاً يكثر من الجماع، فاعترته أمراض مختلفة فأتلفته ومات بدمشق ودفن بقاسيون، وهو والد قطب الدين وتاج الدين، والشيخ الإمام العالم صائن الدين أبو محمد عبد العزيز الجيلي الشافعي أحد الفقهاء المفتيين المشتغلين بالمدرسة النظامية ببغداد، وله شرح على التنبيه للشيخ أبي إسحاق، توفي في ربيع الأول رحمه

الله تعالى. والشيخ الإمام العالم الخطيب الأديب أبو محمد حمد بن حميد بن محمود بن حميد بن أبي الحسن بن أبي الفرج بن مفتاح التميمي الدينوري، الخطيب بها والمفتي لأهلها، الفقيه الشافعي، تفقه ببغداد بالنظامية، ثم عاد إلى بلده المشار إليها، وقد صنف كتباً. وأنشد عنه ابن الساعي سماعاً منه:

رَوَتْ لِي أَحَادِيثَ الغَرَامِ صَبَابَتِي ... بِإِسْنَادِهَا عَنْ بَانَةِ العَلَمِ الفَرْدِ
وَحَدَّثَنِي مَرُّ النَّسِيمِ عَنِ الحِمَى ... عَنِ الدَّوْحِ عَنْ وَادِي الغَضَا عَنْ رُبَا نَجْدِ
بَأَنَّ غَرَامِي وَالأَسَى قَدْ تَلازَمَا ... فَلَنْ يَبْرَحَا حَتَّى أُوَسَّدَ فِي لَحْدِي

وقد أرخ الشيخ شهاب الدين أبو شامة في الذيل وفاة الشيخ شهاب الدين السهروردي صاحب عوارف المعارف في هذه السنة، وذكر أن مولده في سنة تسع وثلاثين وخمسمائة، وأنه جاوز التسعين. وأما السبط فإنما أرخ وفاته في سنة ثلاثين كما تقدم.

قاضي القضاة بحلب

أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم بن عتبة بن محمد الأسدي الموصلي الشافعي، كان رجلاً فاضلاً أديباً مقرئاً ذا وجاهة عند الملوك، أقام بحلب وولي القضاء بها ونظر الأوقاف، وله تصانيف وشعر، توفي في هذه السنة رحمه الله تعالى.

ابن الفارض

ناظم التائية في السلوك على طريقة المتصوفة المنسوبين إلى الاتحاد، هو أبو حفص عمر بن أبي الحسن علي بن المرشد بن علي، الحموي الأصل، المصري المولد والدار والوفاة، وكان أبوه يكتب فروض النساء والرجال، وقد تكلم فيه غير واحد من مشايخنا بسبب قصيدته المشار إليها، وقد ذكره شيخنا أبو عبد الله الذهبي في ميزانه وحط عليه. مات في هذه السنة وقد قارب السبعين.

ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين وستمائة [من الهجرة النبوية][١]

فيها قطع الكامل وأخوه الأشرف الفرات وأصلحا ما كان أفسده جيش الروم من بلادهما، وخرب الكامل قلعة الرها وأحل بدنيسر بأساً شديداً، وجاء كتاب بدر الدين صاحب الموصل بأن الروم أقبلوا بمائة طلب كل طلب بخمسمائة فارس، فرجع الملكان إلى دمشق سريعاً وعاد جيش الروم إلى بلادهما بالجزيرة وأعادوا الحصار كما كان، ورجعت التتار عامهم ذلك إلى بلادهم والله تعالى أعلم.

وممن توفي فيها من الأعيان والمشاهير ابن عنين الشاعر وقد تقدمت ترجمته في سنة ثلاثين.

---

(١) سقط في ط.

الحاجري الشاعر

صاحب الديوان المشهور، وهو عيسى بن سنجر بن بهرام بن جبريل بن خمارتكين بن طاشتكين الإربلي شاعر مطبق، ترجمه ابن خلكان وذكر أشياء من شعره كثيرة، وذكر أنه كان صاحبهم وأنه كتب إلى أخيه ضياء الدين عيسى يستوحش منه:

اللهُ يَعْلَمُ مَا أَبْقَى سِوَى رَمَقٍ ... مِنِّي فِرَاقُكَ يَا مَنْ قُرْبُهُ الأَمَلُ
فَابْعَثْ كِتَابَكَ وَاسْتَوْدِعْهُ تَعْزِيَةً ... فَرُبَّمَا مِتُّ شَوْقاً قَبْلَ مَا يَصِلُ

وذكر له في الخال رحمه الله تعالى:

وَمُهَفْهَفٍ مِنْ شَعْرِهِ وَجَبِينِهِ ... أَمْسَى الوَرَى فِي ظُلْمَةٍ وَضِيَاءِ
لا تُنْكِرُوا الخَالَ الَّذِي فِي خَدِّهِ ... كُلُّ الشَّقِيقِ بِنُقْطَةٍ سَوْدَاءِ

ابن دحية

أبو الخطاب عمر بن الحسن بن علي بن محمد بن فرج بن خلف بن قومس بن مزلال بن بلال بن بدر بن أحمد بن دحية بن خليفة الكلبي الحافظ، شيخ الديار المصرية في الحديث، وهو أول من باشر مشيخة دار الحديث الكاملية بها، قال السبط: وقد كان كابن عنين في ثلب المسلمين والوقيعة فيهم، ويتزيد في كلامه فترك الناس الرواية عنه وكذبوه، وقد كان الكامل مقبلاً عليه، فلما انكشف له حاله أخذ منه دار الحديث وأهانه، توفي في ربيع الأول بالقاهرة ودفن بقرافة مصر، وقد قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة: وللشيخ السخاوي فيه أبيات حسنة. وقال القاضي ابن خلكان بعد سياق نسبه كما تقدم، وذكر أنه كتبه من خطه، قال وذكر أن أمه أمة الرحمن بنت أبي عبد الله بن البسام موسى بن عبد الله بن الحسين بن جعفر بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، فلهذا كان يكتب بخطه ذو النسبين ابن دحية بن الحسن والحسين قال ابن خلكان: وكان من أعيان العلماء ومشاهير الفضلاء متقناً لعلم الحديث وما يتعلق به، عارفاً بالنحو واللغة وأيام العرب وأشعارها، اشتغل ببلاد المغرب ثم رحل إلى الشام ثم إلى العراق واجتاز بإربل سنة أربع وستمائة، فوجد ملكها المعظم مظفر الدين بن زين الدين يعتني بالمولد النبوي، فعمل له كتاب التنوير في مولد السراج المنير وقرأه عليه بنفسه، فأجازه بألف دينار، قال وقد سمعناه على الملك المعظم في ستة مجالس في سنة خمس وعشرين وستمائة. قلت وقد وقفت على هذا الكتاب وكتبت منه أشياء حسنة مفيدة. قال ابن خلكان: وكان مولده في سنة أربع وأربعين وخمسمائة، وقيل ست أو تسع وأربعين وخمسمائة، وتوفي في هذه السنة، وكان أخوه أبو عمرو عثمان قد باشر بعده دار الحديث الكاملية بمصر، وتوفي بعده بسنة. قلت: وقد تكلم الناس فيه بأنواع من الكلام، ونسبه بعضهم إلى وضع حديث في قصر صلاة المغرب، وكنت أود أن أقف على إسناده لنعلم كيف رجاله، وقد أجمع العلماء كما ذكره ابن المنذر وغيره على أن المغرب لا يقصر، والله سبحانه وتعالى يتجاوز عنا وعنه بمنه وكرمه.

ثم دخلت سنة أربع وثلاثين وستمائة

فيها حاصرت التتار إربل بالمجانيق ونقبوا الأسوار حتى فتحوها عنوة فقتلوا أهلها وسبوا ذراريهم، وامتنعت عليهم القلعة مدة، وفيها النائب من جهة الخليفة، فدخل فصل الشتاء فأقلعوا عنها وانشمروا إلى بلادهم، وقيل إن الخليفة جهز لهم جيشاً فانهزم التتار. وفيها استخدم الصالح أيوب بن الكامل صاحب حصن كيفا الخوارزمية الذين تبقوا من جيش جلال الدين وانفصلوا عن الرومي، فقوي جأش الصالح أيوب. وفيها طلب الأشرف موسى بن العادل من أخيه الكامل الرقة لتكون قوة له وعلفاً لدوابه إذا جاز الفرات مع أخيه في البواكير، فقال الكامل: أما يكفيه أن معه دمشق مملكة بني أمية؟ فأرسل الأشرف الأمير فلك الدين بن المسيري إلى الكامل في ذلك، فأغلظ له الجواب، وقال: إيش يعمل بالملك؟ يكفيه عشرته للمغاني وتعلمه لصناعتهم. فغضب الأشرف عند ذلك وبدت الوحشة بينهما، وأرسل الأشرف إلى حماه وحلب وبلاد الشرق فحالف أولئك الملوك على أخيه الكامل، فلو طال عمر الأشرف لأفسد الملك على أخيه، وذلك لكثرة ميل الملوك إليه لكرمه وشجاعته وشح أخيه الكامل، ولكنه أدركته منيته في أول السنة الداخلة رحمه الله تعالى.

وممن توفي فيها من الأعيان:

الملك العزيز الظاهر

صاحب حلب محمد ابن السلطان الملك الظاهر غياث الدين غازي ابن الملك الناصر صلاح الدين فاتح القدس الشريف، وهو وأبوه وابنه الناصر أصحاب ملك حلب من أيام الناصر، وكانت أم العزيز الخاتون بنت الملك العادل أبي بكر بن أيوب، وكان حسن الصورة كريماً عفيفاً، توفي وله من العمر أربع وعشرون سنة، وكان مدبر دولته الطواشي شهاب الدين، وكان من أعدل الأمراء رحمه الله تعالى. وقام في الملك بعده ولده الناصر صلاح الدين يوسف، والله سبحانه وتعالى أعلم.

صاحب الروم

كيقباد الملك علاء الدين صاحب بلاد الروم، كان من أكابر الملوك وأحسنهم سيرة، وقد زوجه العادل ابنته وأولدها، وقد استولى على بلاد الجزيرة في وقت وأخذ أكثرها من يد الكامل محمد، وكسر الخوارزمية مع الأشرف موسى رحمهما الله.

الناصح الحنبلي

في ثالث المحرم توفي الشيخ ناصح الدين عبد الرحمن بن نجم بن عبد الوهاب ابن الشيخ أبي الفرج الشيرازي، وهم ينتسبون إلى سعد بن عبادة رضي الله عنه، ولد الناصح سنة أربع وخمسين وخمسمائة، وقرأ القرآن وسمع الحديث، وكان يعظ في بعض الأحيان. وقد ذكرنا قبل أنه وعظ في حياة الشيخ الحافظ عبد الغني، وهو أول من درس بالصالحية التي

بالجبل، وله بنيت، وله تصانيف. وقد اشتغل على ابن المنى ببغداد، وكان فاضلاً صالحاً، وكانت وفاته بالصالحية ودفن هناك رحمه الله.

الكمال بن المهاجر

التاجر كان كثير الصدقات والإحسان إلى الناس، مات فجأة في جمادى الأولى بدمشق فدفن بقاسيون، واستحوذ الأشرف على أمواله، فبلغت التركة قريباً من ثلاثمائة ألف دينار من ذلك سبحة فيها مائة حبة لؤلؤ، كل واحدة مثل بيضة الحمامة.

الشيخ الحافظ أبو عمرو عثمان بن دحية

أخو الحافظ أبي الخطاب بن دحية، كان قد ولي دار الحديث الكاملية حين عزل أخوه عنها، حتى توفي في عامه هذا، وكان ندر في صناعة الحديث أيضاً رحمه الله تعالى.

القاضي عبد الرحمن التكريتي

الحاكم بالكرك، ومدرس مدرسة الزبداني، فلما أخذت أوقافها سار إلى القدس ثم إلى دمشق، فكان ينوب بها عن القضاة، وكان فاضلاً نزهاً عفيفاً ديناً رحمه الله تعالى ورضي عنه.

ثم دخلت سنة خمس وثلاثين وستمائة

فيها كانت وفاة الأشرف ثم أخوه الكامل، أما الأشرف موسى بن العادل باني دار الحديث الأشرفية وجامع التوبة وجامع جراح، فإنه توفي في يوم الخميس رابع المحرم من هذه السنة، بالقلعة المنصورة، ودفن بها حتى نجزت تربته التي بنيت له شمالي الكلاسة، ثم حول إليها رحمه الله تعالى، في جمادى الأولى، وقد كان ابتداء مرضه في رجب من السنة الماضية، واختلفت عليه الأدواء حتى كان الجرائحي يخرج العظام من رأسه وهو يسبح الله عز وجل، فلما كان آخر السنة تزايد به المرض واعتراه إسهال مفرط فخارت قوته فشرع في التهيؤ للقاء الله عز وجل، فأعتق مائتي غلام وجارية، ووقف دار فروخشاه التي يقال لها دار السعادة، وبستانه بالنيرب على ابنيه، وتصدق بأموال جزيلة، وأحضر له كفناً كان قد أعده من ملابس الفقراء والمشايخ الذين لقيهم من الصالحين. وقد كان رحمه الله تعالى شهماً شجاعاً كريماً جواداً محباً للعم وأهله، لا سيما أهل الحديث، ومقار بيته الصالحة، وقد بنى لهم دار حديث بالسفح وبالمدينة للشافعية أخرى، وجعل فيها نعل النبي ﷺ الذي ما زال حريصاً على طلبه من النظام ابن أبي الحديد التاجر، وقد كان النظام ضنيناً به فعزم الأشرف أن يأخذ منه قطعة، ثم ترك ذلك خوفاً من أن يذهب بالكلية، فقدر الله موت ابن أبي الحديد بدمشق فأوصى للملك الأشرف به، فجعله الأشرف بدار الحديث، ونقل إليها كتباً سنية نفيسة، وبنى جامع التوبة بالعقيبة، وقد كان خاناً للزنجاري فيه من المنكرات شيء كثير، وبنى مسجد القصب وجامع جراح ومسجد دار السعادة، وقد كان مولده في سنة ست وسبعين وخمسمائة، ونشأ بالقدس الشريف بكفالة الأمير فخر الدين عثمان الزنجاري، وكان أبوه يحبه، وكذلك أخوه المعظم ثم استنابه أبوه على مدن

كثيرة بالجزيرة منها الرها وحران، ثم اتسعت مملكته حين ملك خلاط، وكان من أعف الناس وأحسنهم سيرة وسريرة، لا يعرف غير نسائه وجواريه، مع أنه قد كان يعاني الشراب، وهذا من أعجب الأمور. حكى السبط عنه قال: كنت يوماً بهذه المنظرة من خلاط إذ دخل الخادم فقال: بالباب امرأة تستأذن، فدخلت فإذا صورة لم أر أحسن منها، وإذا هي ابنة الملك الذي كان بخلاط قبلي، فذكرت أن الحاجب عليّ قد استحوذ على قرية لها، وأنها قد احتاجت إلى بيوت الكرى، وأنها إنما تتقوت من عمل النقوش للنساء، فأمرت برد ضيعتها إليها وأمرت لها بدار تسكنها، وقد كنت قمت لها حين دخلت وأجلستها بين يدي وأمرتها بستر وجهها حين أسفرت عنه، ومعها عجوز، فحين قضت شغلها قلت لها انهضي على اسم الله تعالى، فقالت العجوز: يا خوند إنما جاءت لتحظى بخدمتك هذه الليلة، فقلت: معاذ الله لا يكون هذا، واستحضرت في ذهني ابنتي ربما يصيبها نظير ما أصاب هذه، فقامت وهي تقول بالأرمني: سترك الله مثل ما سترتني، وقلت لها: مهما كان من حاجة فانهيها إلي أقضها لك، فدعت لي وانصرفت، فقالت لي نفسي: في الحلال مندوحة عن الحرام، فتزوجها، فقلت: لا والله لا كان هذا أبداً، أين الحياء والكرم والمروءة؟ قال: ومات مملوك من مماليكي وترك ولداً ليس يكون في الناس بتلك البلاد أحسن شباباً، ولا أحلى شكلاً منه، فأحببته وقربته، وكان من لا يفهم أمري يتهمني به، فاتفق أنه عدا على إنسان فضربه حتى قتله، فاشتكى عليه إلى أولياء المقتول، فقلت اثبتوا أنه قتله، فأثبتوا ذلك فحاجفت عنه مماليكي وأرادوا إرضاءهم بعشر ديات فلم يقبلوا، ووقفوا لي في الطريق وقالوا قد أثبتنا أنه قتله، فقلت خذوه فتسلموه فقتلوه، ولو طلبوا مني ملكي فداء له لدفعته إليهم، ولكن استحيت من الله أن أعارض شرعه بحظ نفسي رحمه الله تعالى وعفا عنه.

ولما ملك دمشق في سنة ست وعشرين وستمائة نادى مناديه فيها أن لا يشتغل أحد من الفقهاء بشيء من العلوم سوى التفسير والحديث والفقه، ومن اشتغل بالمنطق وعلوم الأوائل نفي من البلد. وكان البلد به في غاية الأمن والعدل، وكثرة الصدقات والخيرات، كانت القلعة لا تغلق في ليالي رمضان كلها، وصحون الحلاوات خارجة منها إلى الجامع والخوانق والربط، والصالحية وإلى الصالحين والفقراء والرؤساء وغيرهم، وكان أكثر جلوسه بمسجد أبي الدرداء الذي جدده وزخرفه بالقلعة، وكان ميمون النقيبة ما كسرت له راية قط، وقد استدعى الزبيدي من بغداد حتى سمع هو والناس عليه صحيح البخاري وغيره، وكان له ميل إلى الحديث وأهله، ولما توفي رحمه الله رآه بعض الناس وعليه ثياب خضر وهو يطير مع جماعة من الصالحين، فقال: ما هذا وقد كنت تعاني الشراب في الدنيا؟ فقال ذاك البدن الذي كنا نفعل به ذاك عندكم، وهذه الروح التي كنا نحب بها هؤلاء فهي معهم، ولقد صدق رحمه الله، قال رسول الله ﷺ: «المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ»[1] وقد كان أوصى بالملك من بعده لأخيه الصالح

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب باب ٩٦، ومسلم في البر حديث ١٦٥، والترمذي في الزهد باب ٥٠، والدعوات باب ٩٨، والدارمي في الرقاق باب ٧١، وأحمد في المسند ١/ ٣٩٢، ٣/ ١٠٤، ١١٠، ٤/ ١٠٧، ١٦٠.

إسماعيل، فلما توفي أخوه ركب في أبهة الملك ومشى الناس بين يديه، وركب إلى جانبه صاحب حمص وعز الدين أيبك المعظمي حامل الغاشية على رأسه، ثم إنه صادر جماعة من الدماشقة الذين قيل عنهم إنهم مع الكامل، منهم العالم تعاسيف وأولاد ابن مزهر وحبسهم ببصرى، وأطلق الحريري من قلعة عزاز، وشرط عليه أن لا يدخل دمشق، ثم قدم الكامل من مصر وانضاف إليه الناصر داود صاحب الكرك ونابلس والقدس، فحاصروا دمشق حصاراً شديداً، وقد حصنها الصالح إسماعيل، وقطع المياه ورد الكامل ماء بردى إلى ثورا، وأحرقت العقيبة وقصر حجاج، فافتقر خلق كثير واحترق آخرون، وجرت خطوب طويلة، ثم آل الحال في آخر جمادى الأولى إلى أن سلم الصالح إسماعيل دمشق إلى أخيه الكامل، على أن له بعلبك وبصرى، وسكن الأمر، وكان الصلح بينهما على يدي القاضي محيي الدين يوسف ابن الشيخ أبي الفرج بن الجوزي، اتفق أنه كان بدمشق قد قدم في رسلية من جهة الخليفة إلى دمشق فجزاه الله تعالى خيراً. ودخل الكامل دمشق وأطلق الفلك بن المسيري من سجن الحيات بالقلعة الذي كان أودعه فيه الأشرف، ونقل الأشرف إلى تربته، وأمر الكامل في يوم الاثنين سادس جمادى الآخرة أئمة الجامع أن لا يصلي أحد منهم المغرب سوى الإمام الكبير، لما كان يقع من التشويش والاختلاف بسبب اجتماعهم في وقت واحد، ولنعم ما فعل رحمه الله. وقد فعل هذا في زماننا في صلاة التراويح، اجتمع الناس على قارىء واحد وهو الإمام الكبير في المحراب المقدم عند المنبر، ولم يبق به إمام يومئذٍ سوى الذي بالحلبية عند مشهد علي ولو ترك لكان حسناً والله أعلم.

ثم وفاة الملك الكامل

محمد بن العادل رحمه الله تعالى. تملك الكامل مدة شهرين ثم أخذه أمراض مختلفة، من ذلك سعال وإسهال ونزلة في حلقه، ونقرس في رجليه، فاتفق موته في بيت صغير من دار القصبة، وهو البيت الذي توفي فيه عمه الملك الناصر صلاح الدين، ولم يكن عند الكامل أحد عند موته من شدة هيبته، بل دخلوا فوجدوه ميتاً رحمه الله تعالى وقد كان مولده في سنة ست وسبعين وخمسمائة، وكان أكبر أولاد العادل بعد مودود، وإليه أوصى العادل لعلمه بشأنه وكمال عقله، ووفور معرفته وقد كان جيد الفهم يحب العلماء، ويسألهم أسئلة مشكلة، وله كلام جيد على صحيح مسلم، وكان ذكياً مهيباً ذا بأس شديد، عادل منصف له حرمة وافرة، وسطوة قوية، ملك مصر ثلاثين سنة كاملة، وكانت الطرقات في زمانه آمنة، والرعايا متناصفة، لا يتجاسر أحد أن يظلم أحداً، شنق جماعة من الأجناد أخذوا شعيراً لبعض الفلاحين بأرض آمد، واشتكى إليه بعض الركبدارية أن أستاذه استعمله ستة أشهر بلا أجرة، فأحضر الجندي وألبسه ثياب الركبدارية، وألبس الركبداري ثياب الجندي، وأمر الجندي أن يخدم الركبدار ستة أشهر على هذه الهيئة، ويحضر الركبدار الموكب والخدمة حتى ينقضي الأجل فتأدب الناس بذلك غاية الأدب رحمه الله تعالى. وكانت له اليد البيضاء في رد ثغر دمياط إلى المسلمين بعد أن استحوذ عليه الفرنج لعنهم الله، فرابطهم أربع سنين حتى استنقذه منهم، وكان يوم أخذه له واسترجاعه

إياه يوماً مشهوداً، كما ذكرنا مفصلاً رحمه الله تعالى. وكانت وفاته في ليلة الخميس الثاني والعشرين من رجب من هذه السنة، ودفن بالقلعة حتى كملت تربته التي بالحائط الشمالي من الجامع ذات الشباك الذي هناك قريباً من مقصورة ابن سنان، وهي الكندية التي عند الحلبية، نقل إليها ليلة الجمعة الحادي والعشرين من رمضان من هذه السنة رحمه الله تعالى، ومن شعره يستحث أخاه الأشرف من بلاد الجزيرة حين كان محاصراً بدمياط:

يا مُسْعِفِي إنْ كُنْتَ حَقّاً مُسْعِفِي ... فَارْحَلْ بِغَيْرِ تَقَيُّدٍ وَتَوَقُّفِ
وَاطْوِ المَنَازِلَ وَالدِّيَار وَلاَ تُنِخْ ... إلاّ عَلَى بَابِ المَلِيكِ الأَشْرَفِ
قَبِّلْ يَدَيْهِ لا عُدِمْتَ وَقُلْ لَهُ ... عَنِّي بِحُسْنِ تَعَطُّفٍ وَتَلَطُّفِ
إنْ مَاتَ صِنْوُكَ عَنْ قَرِيبٍ تَلْقَهُ ... مَا بَيْنَ حَدِّ مُهَنَّدٍ وَمُثَقَّفِ (١)
أَوْ تُبْطِ عَنْ إنْجَادِهِ فَلِقَاؤُهُ ... يَوْمَ القِيَامَةِ فِي عِرَاصِ المَوْقِفِ (٢)

ذكر ما جرى بعده

كان قد عهد لولده العادل وكان صغيراً بالديار المصرية، وبالبلاد الشامية، ولولده الصالح أيوب ببلاد الجزيرة، فأمضى الأمراء ذلك، فأما دمشق فاختلف الأمراء بها في الملك الناصر داود بن المعظم، والملك الجواد مظفر الدين يونس بن مودود بن الملك العادل، فكان ميل عماد الدين ابن الشيخ إلى الجواد، وآخرون إلى الناصر، وكان نازلاً بدار أسامة، فانتظم أمر الجواد وجاءت الرسالة إلى الناصر أن اخرج من البلد، فركب من دار أسامة والعامة وراءه إلى القلعة لا يشكون في ولايته الملك، فسلك نحو القلعة فلما جاوز العمادية عطف برأس فرسه نحو باب الفرج، فصرخت العامة: لا لا لا، فسار حتى نزل القابون عند وطأة برزة. فعزم بعض الأمراء الأشرفية على مسكه، فساق فبات بقصر أم حكيم، وساقوا وراءه فتقدم إلى عجلون فتحصن بها وأمن.

وأما الجواد

فإنه ركب في أبهة الملك وأنفق الأموال والخلع على الأمراء قال السبط: فرق ستة آلاف ألف دينار وخمسة آلاف خلعة، وأبطل المكوس والخمور، ونفى الخواطيء واستقر ملكه بدمشق، واجتمع عليه الأمراء الشاميون والمصريون، ورحل الناصر داود من عجلون نحو غزة وبلاد الساحل فاستحوذ عليها، فركب الجواد في طلبه ومعه العساكر الشامية والمصرية، وقال للأشرفية كاتبوه وأطمعوه، فلما وصلت إليه كتبهم طمع في موافقتهم، فرجع في سبعمائة راكب إلى نابلس، فقصده الجواد وهو نازل على جيتين، والناصر على سبسطية، فهرب منه الناصر فاستحوذوا على حواصله وأثقاله. فاستغنوا بها وافتقر بسببها فقراً مدقعاً، ورجع الناصر إلى

(١) المثقف: الرمح.
(٢) العراص: جمع عرصة، وهي الساحة.

الكرك جريدة قد سلب أمواله وأثقاله، وعاد الجواد إلى دمشق مؤيداً منصوراً.

وفيها اختلفت الخوارزمية على الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل صاحب حصن كيفا، وتلك النواحي، وعزموا على القبض عليه، فهرب منهم ونهبوا أمواله وأثقاله، ولجأ إلى سنجار فقصده بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ليحاصره ويأخذه في قفص إلى الخليفة، وكان أهل تلك الناحية يكرهون مجاورته لتكبره وقوة سطوته، فلم يبق إلى أخذه إلا القليل، فكاتب الخوارزمية واستنجد بهم ووعدهم بأشياء كثيرة، فقدموا إليه جرائد ليمنعوه من البدر لؤلؤ، فلما أحس بهم لؤلؤ هرب منهم فاستحوذوا على أمواله وأثقاله، فوجدوا فيها شيئاً كثيراً لا يحد ولا يوصف، ورجع إلى بلده الموصل جريدة خائباً، وسلم الصالح أيوب مما كان فيه من الشدة.

وممن توفي فيها من الأعيان:

[الخطيب الدولعي][1] محمد بن زيد

ابن ياسين الخطيب جمال الدين الدولعي، نسبة إلى قرية بأصل الموصل، وقد ذكرنا ذلك عند ترجمة عمه عبد الملك بن ياسين الخطيب بدمشق أيضاً، وكان مدرساً بالغزالية مع الخطابة، وقد منعه المعظم في وقت عن الإفتاء، فعاتبه السبط في ذلك، فاعتذر بأن شيوخ بلده هم الذين أشاروا عليه بذلك، لكثرة أخطائه في فتاويه، وقد كان شديد المواظبة على الوظيفة حتى كاد أن لا يفارق بيت الخطابة، ولم يحج قط مع أنه كانت له أموال جزيلة، وقف مدرسة بجيرون وسبعاً في الجامع. ولما توفي ودفن بمدرسته التي بجيرون ولي الخطابة بعده أخ له وكان جاهلاً، ولم يستقر فيها وتولاها الكمال بن عمر بن أحمد بن هبة الله بن طلحة النصيبي، وولي تدريس الغزالية الشيخ عبد العزيز بن عبد السلام.

[القاضي شمس الدين الشيرازي][2] محمد بن هبة الله بن جميل

الشيخ أبو نصر بن الشيرازي، ولد سنة تسع وأربعين وخمسمائة، وسمع الكثير على الحافظ ابن عساكر وغيره، واشتغل في الفقه وأفتى ودرس بالشامية البرانية، وناب في الحكم عدة سنين، وكان فقيهاً عالماً فاضلاً ذكياً حسن الأخلاق عارفاً بالأخبار وأيام العرب والأشعار، كريم الطباع حميد الآثار، وكانت وفاته ليلة الخميس الثالث من جمادى الآخرة، ودفن بقاسيون رحمه الله تعالى.

القاضي شمس الدين يحيى بن بركات

ابن الحسن الدمشقي قاضيها ابن سنا الدولة[3]، كان عالماً عفيفاً فاضلاً عادلاً منصفاً نزهاً كان الملك الأشرف يقول: ما ولي دمشق مثله، وقد ولي الحكم ببيت المقدس وناب بدمشق عن القضاة، ثم استقل بالحكم، وكانت وفاته ليلة الأحد السادس ذي القعدة، وصلي عليه

---

(١) سقط في ط. (٢) سقط في ط.

(٣) في ط: القاضي شمس الدين بن سني الدولة أبو البركات بن يحيى بن هبة الله بن الحسن الدمشقي قاضيها.

بالجامع ودفن بقاسيون، وتأسف الناس عليه رحمه الله تعالى. وتوفي بعده.

الشيخ شمس الدين بن الحوبي

القاضي زين الدين عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله بن علوان الأسدي، عرف بابن الأستاذ الحلبي قاضيها بعد بهاء الدين بن شداد، وكان رئيساً عالماً عارفاً فاضلاً، حسن الخلق والسمت، وكان أبوه من الصالحين الكبار رحمهم الله تعالى.

الشيخ الصالح المعمر

أبو بكر محمد بن مسعود بن بهروز البغدادي، ظهر سماعه من أبي الوقت من سنة خمس عشرة وستمائة فانثال الناس عليه يسمعون منه، وتفرد بالرواية عنه في الدنيا بعد الزبيدي وغيره، توفي ليلة السبت التاسع والعشرين من شعبان رحمه الله تعالى.

الأمير الكبير المجاهد المرابط:

صارم الدين

خطلبا بن عبد الله مملوك شركس ونائبه بعده مع ولده على تبنين وتلك الحصون، وكان كثير الصدقات والإحسان، ودفن مع أستاذه بقباب شركس، وهو الذي بناها بعد أستاذه، وكان خيراً قليل الكلام كثير الغزو مرابطاً مدة سنين رحمه الله تعالى وعفا عنه بمنّه وكرمه.

ثم دخلت سنة ست وثلاثين وستمائة

فيها قبض الملك الجواد على الصفي بن مرزوق وصادره بأربعمائة ألف دينار، وحبسه بقلعة حمص، فمكث ثلاث سنين لا يرى الضوء. وكان ابن مرزوق محسناً إلى الجواد قبل ذلك إحساناً كثيراً. وسلط الجواد خادماً لزوجته يقال له الناصح فصادر الدماشقة وأخذ منهم نحواً من ستمائة ألف دينار، ومسك الأمير عماد الدين ابن الشيخ الذي كان سبب تمليكه دمشق، ثم خاف من أخيه فخر الدين ابن الشيخ الذي بديار مصر، وقلق من ملك دمشق، وقال إيش أعمل بالملك؟ باز وكلب أحب إلي من هذا. ثم خرج إلى الصيد وكاتب الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل، فتقايضا من حصن كيفا وسنجار وما تبع ذلك إلى دمشق، فملك [الملك][1] الصالح دمشق ودخلها في مستهل جمادى الأولى من هذه السنة، والجواد بين يديه بالغاشية، وندم على ما كان منه، فأراد أن يستدرك الفائت فلم يتفق له، وخرج من دمشق والناس يلعنونه بوجهه، بسبب ما أسداه إليهم من المصادرات، وأرسل إليه الصالح أيوب ليرد إلى الناس أموالهم فلم يلتفت إليه، وسار وبقيت في ذمته. ولما استقر الصالح أيوب في ملك مصر كما سيأتي حبس الناصح الخادم، فمات في أسوإ حالة، من القلة والقمل، جزاء وفاقاً ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت: ٤٦].

---

(١) سقط في ط.

وفيها ركب الصالح أيوب من دمشق في رمضان قاصداً الديار المصرية ليأخذها من أخيه العادل لصغره، فنزل بنابلس واستولى عليها وأخرجها من يد الناصر داود، وأرسل إلى عمه الصالح إسماعيل صاحب بعلبك ليقدم عليه ليكون في صحبته إلى الديار المصرية، وكان قد جاء إليه إلى دمشق ليبايعه فجعل يسوف به ويعمل عليه ويحالف الأمراء بدمشق ليكون ملكهم، ولا يتجاسر أحد من الصالح أيوب لجبروته أن يخبره بذلك، وانقضت السنة وهو مقيم بنابلس يستدعي إليه وهو يماطله. وممن توفي فيها من الأعيان:

جمال الدين الحصيري الحنفي

محمود بن أحمد العلامة شيخ الحنفية بدمشق، ومدرس النورية، أصله من قرية يقال لها حصير من معاملة بخارى، تفقه بها وسمع الحديث الكثير، وصار إلى دمشق فانتهت إليه رياسة الحنفية بها، لا سيما في أيام المعظم، كان يقرأ عليه الجامع الكبير، وله عليه شرح، وكان يحترمه ويعظمه ويكرمه، وكان رحمه الله غزير الدمعة كثير الصدقات، عاقلاً نزهاً عفيفاً، توفي يوم الأحد ثامن صفر ودفن بمقابر الصوفية تغمده الله برحمته. توفي وله تسعون سنة، وأول درسه بالنورية في سنة إحدى عشرة وستمائة، بعد الشرف داود الذي تولاها بعد البرهان مسعود، وأول مدرسيها رحمهم الله تعالى الأمير عماد الدين عمر ابن شيخ الشيوخ صدر الدين علي بن حمويه، كان سبباً في ولاية الجواد دمشق ثم سار إلى مصر فلامه صاحبها العادل بن الكامل بن العادل، فقال الآن أرجع إلى دمشق وآمر الجواد بالمسير إليك، على أن تكون له اسكندرية عوض دمشق، فإن امتنع عزلته عنها وكنت أنا نائبك فيها، فنهاه أخوه فخر الدين بن الشيخ عن تعاطي ذلك فلم يقبل، ورجع إلى دمشق فتلقاه الجواد إلى المصلى وأنزله عنده بالقلعة بدار المسرة، وخادعه عن نفسه ثم دس إليه من قتله جهرة في صورة مستغيث به، واستحوذ على أمواله وحواصله، وكانت له جنازة حافلة، ودفن بقاسيون.

الوزير جمال الدين علي بن حديد

وزر للأشرف واستوزره الصالح أيوب أياماً، ثم مات عقب ذلك، كان أصله من الرقة، وكان له أملاك يسيرة يعيش منها، ثم آل أمره أن وزر للأشرف بدمشق، وقد هجاه بعضهم، وكانت وفاته بالجواليق في جمادى الآخرة، ودفن بمقابر الصوفية.

جعفر بن علي

ابن أبي البركات بن جعفر بن يحيى الهمداني، راوية السلفي، قدم إلى دمشق صحبة الناصر داود، وسمع عليه أهلها، وكانت وفاته بها ودفن بمقابر الصوفية رحمه الله تعالى، وله تسعون سنة.

الحافظ الكبير زكي الدين

أبو عبد الله بن محمد بن يوسف بن محمد البرزالي الإشبيلي، أحد من اعتنى بصناعة الحديث وبرز فيه، وأفاد الطلبة، وكان شيخ الحديث بمشهد ابن عروة، ثم سافر إلى حلب،

فتوفي بحماه في رابع عشر رمضان من هذه السنة، وهو جد شيخنا الحافظ علم الدين بن القاسم بن محمد البرزالي، مؤرخ دمشق الذي ذيّل على الشيخ شهاب الدين أبي شامة، وقد ذيلت أنا على تاريخه بعون الله تعالى وقدرته.

ثم دخلت سنة سبع وثلاثين وستمائة

استهلت هذه السنة وسلطان دمشق نجم الدين الصالح أيوب بن الكامل مخيم عند نابلس، يستدعي عمه الصالح إسماعيل ليسير إلى الديار المصرية، بسبب أخذها من صاحبها العادل بن الكامل، وقد أرسل الصالح إسماعيل ولده وابن يغمور إلى صحبة الصالح أيوب بنابلس، فهما ينفقان الأموال في الأمراء ويحلفانهم على الصالح أيوب للصالح إسماعيل، فلما تم الأمر وتمكن الصالح إسماعيل من مراده أرسل إلى الصالح أيوب يطلب منه ولده ليكون عوضه ببعلبك، ويسير هو إلى خدمته، فأرسله إليه وهو لا يشعر بشيء مما وقع، وكل ذلك عن ترتيب أبي الحسن غزال المتطبب وزير الصالح ـ وهو الأمين واقف أمينية بعلبك ـ فلما كان يوم الثلاثاء السابع والعشرين من صفر هجم الملك الصالح إسماعيل وفي صحبته أسد الدين شيركوه صاحب حمص إلى دمشق، فدخلاها بغتة من باب الفراديس، فنزل الصالح إسماعيل بداره من درب الشعارين، ونزل صاحب حمص بداره، وجاء نجم الدين بن سلامة فهنأ الصالح إسماعيل ورقص بين يديه وهو يقول: إلى بيتك جئت. وأصبحوا فحاصروا القلعة وبها المغيث عمر بن الصالح نجم الدين أيوب، ونقبوا القلعة من ناحية باب الفرج، وهتكوا حرمتها ودخلوها وتسلموها واعتقلوا المغيث في برج هنالك. قال أبو شامة: واحترقت دار الحديث وما هنالك من الحوانيت والدور حول القلعة. ولما وصل الخبر بما وقع إلى الصالح أيوب تفرق عنه أصحابه والأمراء خوفاً على أهاليهم من الصالح إسماعيل، وبقي الصالح أيوب وحده بمماليكه وجاريته أم ولده خليل، وطمع فيه الفلاحون والفوارنة، وأرسل الناصر داود صاحب الكرك إليه من أخذه من نابلس مهاناً على بغلة بلا مهماز ولا مقدمة، فاعتقله عنده سبعة أشهر، وأرسل العادل من مصر إلى الناصر يطلب منه أخاه الصالح أيوب ويعطيه مائة ألف دينار، فما أجابه إلى ذلك، بل عكس ما طلب منه بإخراج الصالح من سجنه والإفراج عنه وإطلاقه من الحبس يركب وينزل، فعند ذلك حاربت الملوك من دمشق ومصر وغيرهما الناصر داود، وبرز العادل من الديار المصرية إلى بلبيس قاصداً قتال الناصر داود، فاضطرب الجيش عليه واختلفت الأمراء، وقيدوا العادل واعتقلوه في خركاه، وأرسلوا إلى الصالح أيوب يستدعونه إليهم. فامتنع الناصر داود من إرساله حتى اشترط عليه أن يأخذ له دمشق وحمص وحلب بلاد الجزيرة وبلاد ديار بكر ونصف مملكة مصر، ونصف ما في الخزائن من الحواصل والأموال والجواهر. قال الصالح أيوب: فأجبت إلى ذلك مكرهاً، ولا تقدر على ما اشترط جميع ملوك الأرض، وسرنا فأخذته معي خائفاً أن تكون هذه الكائنة من المصريين مكيدة، ولم يكن لي به حاجة، وذكر أنه كان يسكر ويخبط في الأمور ويخالف في الآراء السديدة. فلما وصل الصالح إلى المصريين ملكوه

عليهم ودخل الديار المصرية سالماً مؤيداً منصوراً مظفراً محبوراً مسروراً، فأرسل إلى الناصر داود عشرين ألف دينار فردها عليه ولم يقبلها منه. واستقر ملكه بمصر. وأما الملك الجواد فإنه أساء السيرة في سنجار وصادر أهلها وعسفهم، فكاتبوا بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل فقصدهم - وقد خرج الجواد للصيد - فأخذ البلد بغير شيء وصار الجواد إلى غانة، ثم باعها من الخليفة بعد ذلك.

وفي ربيع الأول درس القاضي الرفيع عبد العزيز بن عبد الواحد الجيلي بالشامية البرانية. وفي يوم الأربعاء ثالث ربيع الآخر ولي الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم السلمي خطابة جامع دمشق، وخطب الصالح إسماعيل لصاحب الروم ببلد دمشق وغيرها، لأنه حالفه على الصالح أيوب. قال أبو شامة: وفي حزيران أيام المشمش جاء مطر عظيم هدم كثيراً من الحيطان وغيرها، وكنت يومئذٍ بالمزة.

وممن توفي فيها من الأعيان:

صاحب حمص

الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه بن شادي، ولاّه إياها الملك الناصر صلاح الدين بعد موت أبيه سنة إحدى وثمانين وخمسمائة، فمكث فيها سبعاً وخمسين سنة، وكان من أحسن الملوك سيرة، طهر بلاده من الخمور والمكوس والمنكرات، وهي في غاية الأمن والعدل، لا يتجاسر أحد من الفرنج ولا العرب يدخل بلاده إلا أهانه غاية الإهانة، وكانت ملوك بني أيوب يتقونه لأنه يرى أنه أحق بالأمر منهم، لأن جده هو الذي فتح مصر، وأول من ملك منهم، وكانت وفاته رحمه الله بحمص، وعمل عزاءه بجامع دمشق عفا الله عنه بمنه.

القاضي الحوبي شمس الدين أحمد بن خليل

ابن سعادة بن جعفر الحوبي قاضي القضاة بدمشق يومئذٍ، وكان عالماً بفنون كثيرة من الأصول والفروع وغير ذلك، وكانت وفاته يوم السبت بعد الظهر السابع من شعبان، وله خمس وخمسون سنة بالمدرسة العادلية، وكان حسن الأخلاق جميل المعاشرة، وكان يقول لا أقدر على إيصال المناصب إلى مستحقيها، له مصنفات منها عروض قال فيه أبو شامة:

أَحْمَدُ بْنُ الخَلِيلِ أَرْشَدَهُ الـ ... لَّهُ لَمَا أَرْشَدَ الخَلِيلَ بْنَ أَحْمَدْ

ذَاكَ مُسْتَخْرِجُ العَرُوضِ وَهـ ... ـذَا مُظْهِرُ السِّرِّ مِنْهُ وَالعَوْدُ أَحْمَدْ

وقد ولي القضاء بعد رفيع الدين عبد العزيز بن عبد الواحد بن إسماعيل بن عبد الهادي الحنبلي مع تدريس العادلية، وكان قاضياً ببعلبك. فأحضره إلى دمشق الوزير أمين الدين الذي كان سامرياً فأسلم، وزر للصالح إسماعيل، واتفق هو وهذا القاضي على أكل أموال الناس بالباطل، قال أبو شامة: ظهر منه سوء سيرة وعسف وفسق وجور ومصادرة في الأموال. قلت: وقد ذكر غيره عنه أنه ربما حضر يوم الجمعة في المشهد الكمالي بالشباك وهو سكران، وأن

قناني الخمر كانت تكون على بركة العادلية يوم السبت، وكان يعتمد في التركات اعتماداً سيئاً جداً، وقد عامله الله تعالى بنقيض مقصوده، وأهلكه الله على يدي من كان سبب سعادته، كما سيأتي بيانه قريباً إن شاء الله تعالى.

ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين وستمائة

فيها سلم الصالح إسماعيل صاحب دمشق حصن شقيف أرنون لصاحب صيدا الفرنجي، فاشتد الإنكار عليه بسبب ذلك من الشيخ عز الدين بن عبد السلام خطيب البلد، والشيخ أبي عمرو بن الحاجب شيخ المالكية، فاعتقلهما مدة ثم أطلقهما وألزمهما منازلهما، وولي الخطابة وتدريس الغزالية لعماد الدين داود بن عمر بن يوسف المقدسي خطيب بيت الآبار، ثم خرج الشيخان من دمشق فقصد أبو عمرو الناصر داود بالكرك، ودخل الشيخ عز الدين الديار المصرية، فتلقاه صاحبها الصالح أيوب بالاحترام والإكرام، وولاه خطابة القاهرة وقضاء مصر، واشتغل عليه أهلها فكان ممن أخذ عنه الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد رحمهما الله تعالى.

وفيها قدم رسول من ملك التتار تولي بن جنكز خان إلى ملوك الإسلام يدعوهم إلى طاعته ويأمرهم بتخريب أسوار بلدانهم. وعنوان الكتاب: من نائب رب السماء ماسح وجه الأرض ملك الشرق والغرب قازان. وكان الكتاب مع رجل مسلم من أهل أصبهان لطيف الأخلاق، فأول ما ورد على شهاب الدين غازي بن العادل بميافارقين، وقد أخبر بعجائب في أرضهم غريبة، منها أن في البلاد المتاخمة للسد أناساً أعينهم في مناكبهم، وأفواههم في صدورهم، يأكلون السمك وإذا رأوا أحداً من الناس هربوا. وذكر أن عندهم بزراً ينبت الغنم يعيش الخروف منها شهرين وثلاثة، ولا يتناسل. ومن ذلك أن بمازندران عيناً يطلع فيها كل ثلاثين سنة خشبة عظيمة مثل المنارة، فتقيم طول النهار فإذا غابت الشمس غابت في العين فلا ترى إلى مثل ذلك الوقت، وأن بعض الملوك احتال ليمسكوها بسلاسل ربطت فيها فغارت وقطعت تلك السلاسل، ثم كانت إذا طلعت ترى فيها تلك السلاسل وهي إلى الآن كذلك. قال أبو شامة: وفيها قلّت المياه من السماء والأرض، وفسد كثير من الزرع والثمار والله أعلم.

وممن توفي فيها من الأعيان والمشاهير:

محيي الدين بن عربي

صاحب الفصوص وغيره، محمد بن علي بن محمد بن عربي أبو عبد الله الطائي [الحاتمي][1] الأندلسي، طاف البلاد وأقام بمكة مدة، وصنف فيها كتابه المسمى بالفتوحات المكية في نحو عشرين مجلداً، فيها ما يعقل وما لا يعقل، وما ينكر وما لا ينكر، وما يعرف وما لا يعرف، وله كتابه المسمى بفصوص الحكم فيه أشياء كثيرة ظاهرها كفر صريح، وله كتاب العبادلة وديوان شعر رائق، وله مصنفات أخر كثيرة جداً، وأقام بدمشق مدة طويلة قبل وفاته،

(١) سقط في ط.

وكان بنو الزكي لهم عليه اشتمال وبه احتفال ولجميع ما يقوله احتمال. قال أبو شامة: وله تصانيف كثيرة وعليه التصنيف سهل، وله شعر حسن وكلام طويل على طريق التصوف، وكانت له جنازة حسنة، ودفن بمقبرة القاضي محيي الدين بن الزكي بقاسيون، وكانت جنازته في الثاني والعشرين من ربيع الآخر من هذه السنة. وقال ابن السبط كان يقول إنه يحفظ الاسم الأعظم ويقول إنه يعرف الكيمياء بطريق المنازلة لا بطريق الكسب، وكان فاضلاً في علم التصوف، وله تصانيف كثيرة.

القاضي نجم الدين أبو العباس

أحمد بن محمد بن خلف بن راجح المقدسي الحنبلي الشافعي، المعروف بابن الحنبلي، كان شيخاً فاضلاً ديناً بارعاً في علم الخلاف، ويحفظ الجمع بين الصحيحين للحميدي، وكان متواضعاً حسن الأخلاق، قد طاف البلدان يطلب العلم ثم استقر بدمشق ودرس بالفداوية والصارمية والشامية الجوانية أيام[1] الصالح، وناب في الحكم عن جماعة من القضاة إلى أن توفي بها، وهو نائب الرفيع الجيلي، وكانت وفاته يوم الجمعة سادس شوال ودفن بقاسيون.

ياقوت بن عبد الله أمين الدين الرولي

منسوب إلى بيت أتابك، قدم بغداد مع رسول صاحب الموصل لؤلؤ. قال ابن الساعي، اجتمعت به وهو شاب أديب فاضل، يكتب خطاً حسناً في غاية الجودة، وينظم شعراً جيداً، ثم روى عنه شيئاً من شعره، قال وتوفي في جمادى الآخرة محبوساً.

ثم دخلت سنة تسع وثلاثين وستمائة

فيها قصد الملك الجواد أن يدخل مصر ليكون في خدمة الصالح أيوب، فلما وصل إلى الرملة توهم منه الصالح أيوب وأرسل إليه كمال الدين ابن الشيخ ليقبض عليه، فرجع الجواد فاستجار بالناصر داود، وكان إذ ذاك بالقدس الشريف، وبعث منه جيشاً فالتقوا مع ابن الشيخ فكسروه وأسروه فوبخه الناصر داود ثم أطلقه، وأقام الجواد في خدمة الناصر حتى توهم منه فقيده وأرسله تحت الحوطة إلى بغداد، فأطلقه بطن من العرب عن قوة فلجأ إلى صاحب دمشق مدة، ثم انتقل إلى الفرنج، ثم عاد إلى دمشق فحبسه الصالح إسماعيل بعزتا إلى أن مات في سنة إحدى وأربعين كما سيأتي.

وفيها شرع الصالح أيوب في بناء المدارس بمصر، وبنى قلعة بالجزيرة غرم عليها شيئاً كثيراً من بيت المال، وأخذ أملاك الناس وخرب نيفاً وثلاثين مسجداً، وقطع ألف نخلة. ثم أخربها الترك في سنة إحدى وخمسين كما سيأتي بيانه. وفيها ركب الملك المنصور بن

(١) في ط: وأم.

إبراهيم ابن الملك المجاهد صاحب حمص ومعه الحلبيون، فاقتتلوا مع الخوارزمية بأرض حران، فكسروهم ومزقوهم كل ممزق، وعادوا منصورين إلى بلادهم، فاصطلح شهاب الدين غازي صاحب ميافارقين مع الخوارزمية وآواهم إلى بلده ليكونوا من حزبه. قال أبو شامة: وفيها كان دخول الشيخ عز الدين إلى الديار المصرية فأكرمه صاحبها وولاه الخطابة بالقاهرة وقضاء القضاة بمصر، بعد وفاة القاضي شرف الدين بن المرقع ثم عزل نفسه مرتين وانقطع في بيته رحمه الله تعالى وقدس روحه.

قال: وفيها توفي بالموصل الشمس بن الخباز النحوي الضرير في سابع رجب. والكمال بن يونس الفقيه في النصف من شعبان، وكانا فاضلي بلدهما في فنهما. قلت. أما:

الشمس بن الخباز

فهو أبو عبد الله أحمد بن الحسين بن أحمد بن معالي بن منصور بن علي، الضرير النحوي الموصلي المعروف بابن الخباز، اشتغل بعلم العربية وحفظ المفصل والإيضاح والتكملة والعروض والحساب، وكان يحفظ المجمل في اللغة وغير ذلك، وكان شافعي المذهب كثير النوادر والملح، وله أشعار جيدة، وكانت وفاته عاشر رجب وله من العمر خمسون سنة رحمه الله تعالى. وأما:

الكمال بن يونس

فهو موسى بن يونس بن محمد بن منعة بن مالك العقيلي، أبو الفتح الموصلي شيخ الشافعية بها، ومدرس بعدة مدارس فيها، وكانت له معرفة تامة بالأصول والفروع والمعقولات والمنطق والحكمة، ورحل إليه الطلبة من البلدان، وبلغ ثمانية وثمانين عاماً، وله شعر حسن. فمن ذلك ما امتدح به البدر لؤلؤ صاحب الموصل وهو قوله:

لَئِنْ زينَتِ الدُّنْيَا لَكِ أَمْرُهَا ... فَمَمْلَكَةُ الدُّنْيَا بِكُمْ تَتَشَرَّفُ
بَقِيتَ بَقَاءَ الدَّهْرِ أَمْرُكَ نَافِذٌ ... وَسَعْيُكَ مَشْكُورٌ وَحُكْمُكَ مُنْصِفُ

كان مولده سنة إحدى وخمسين وخمسمائة، وتوفي للنصف من شعبان هذه السنة، رحمه الله تعالى قال أبو شامة: وفيها توفي بدمشق:

عبد الواحد الصوفي

الذي كان قسّاً راهباً في كنيسة مريم سبعين سنة، أسلم قبل موته بأيام، ثم توفي شيخاً كبيراً بعد أن أقام بخانقاه السميساطية أياماً، ودفن بمقابر الصوفية، وكانت له جنازة حافلة، حضرت دفنه والصلاة عليه رحمه الله تعالى.

أبو الفضل أحمد بن اسفنديار

ابن الموفق بن أبي علي البوسنجي الواعظ، شيخ رباط الأرجوانية. قال ابن الساعي: كان جميل الصورة حسن الأخلاق كثير التودد والتواضع، متكلماً متفوهاً منطقياً حسن العبارة جيد

الوعظ طيب الإنشاد عذب الإيراد، له نظم حسن، ثم ساق عنه قصيدة يمدح بها الخليفة المستنصر.

أبو بكر محمد بن يحيى

ابن المظفر بن علم بن نعيم المعروف بابن الحسر(١) السلامي، شيخ صالح عالم فاضل، كان حنبلياً ثم صار شافعياً، ودرس بعدة مدارس ببغداد للشافعية، وكان أحد المعدلين بها، تولى مباشرات كثيرة، وكان فقيهاً أصولياً عالماً بالخلاف، وتقدم ببلده وعظم كثيراً، ثم استنابه ابن فضلان بدار الحريم، ثم صار من أمره أن درس بالنظامية وخلع عليه ببغلة، وحضر عنده الأعيان، وما زال بها حتى توفي عن ثمانين سنة، ودفن بباب حرب.

قاضي القضاة ببغداد

أبو المعالي عبد الرحمن بن مقبل بن علي الواسطي الشافعي، اشتغل ببغداد وحصل وأعاد في بعض المدارس، ثم استنابه قاضي القضاة عماد الدين أبو صالح نصر بن عبد الرزاق بن عبد القادر في أيام الخليفة الظاهر بن الناصر، ثم ولي قضاء القضاة مستقلاً، ثم ولي تدريس المستنصرية بعد موت أول من درّس بها محيي الدين محمد بن فضلان، ثم عزل عن ذلك كله وعن مشيخة بعض الربط. ثم كانت وفاته في هذا العام، وكان فاضلاً ديّناً متواضعاً رحمه الله تعالى وعفا عنه.

ثم دخلت سنة أربعين وستمائة

فيها توفي الخليفة المستنصر بالله وخلافة ولده المستعصم بالله، فكانت وفاة الخليفة أمير المؤمنين بكرة يوم الجمعة عاشر جمادى الآخرة، وله من العمر إحدى وخمسون سنة، وأربعة أشهر وسبعة أيام، وكتم موته حتى كان الدعاء له على المنابر ذلك اليوم، وكانت مدة ولايته ست عشرة سنة وعشرة أشهر وسبعة وعشرين يوماً، ودفن بدار الخلافة، ثم نقل إلى الترب من الرصافة، وكان جميل الصورة حسن السريرة، جيد السيرة كثير الصدقات والبر والصلات، محسناً إلى الرعية بكل ما يقدر عليه، كان جده الناصر قد جمع ما يتحصل من الذهب في بركة في دار الخلافة، فكان يقف على حافتها ويقول: أترى أعيش حتى أملأها، وكان المستنصر يقف على حافتها ويقول أترى أعيش حتى أنفقها كلها. فكان يبني الربط والخانات والقناطر في الطرقات من سائر الجهات، وقد عمل بكل محلة من محال بغداد دار ضيافة للفقراء، لا سيما في شهر رمضان، وكان يتقصد الجواري اللائي قد بلغن الأربعين فيشترين له فيعتقهن ويجهزهن ويزوجهن، وفي كل وقت يبرز بصلاته ألوف متعددة من الذهب، تفرق في المحال ببغداد على ذوي الحاجات والأرامل والأيتام وغيرهم، تقبّل الله تعالى منه وجزاه خيراً، وقد وضع ببغداد

---

(١) في ط: بابن الجبير.

المدرسة المستنصرية للمذاهب الأربعة، وجعل فيها دار حديث وحماماً ودار طب، وجعل لمستحقيها من الجوامك والأطعمة والحلاوات والفاكهة ما يحتاجون إليه من أوقاته، ووقف عليها أوقافاً عظيمة حتى قيل إن ثمن التبن من غلات ريعها يكفي المدرسة وأهلها. ووقف فيها كتباً نفيسة ليس في الدنيا لها نظير، فكانت هذه المدرسة جمالاً لبغداد وسائر البلاد، وقد احترق في أول هذه السنة المشهد الذي بسامرا المنسوب إلى علي الهادي والحسن العسكري، وقد كان بناه أرسلان البساسيري في أيام تغلبه على تلك النواحي، في حدود سنة خمسين وأربعمائة، فأمر الخليفة المستنصر بإعادته إلى ما كان عليه، وقد تكلمت الروافض في الاعتذار عن حريق هذا المشهد بكلام طويل بارد لا حاصل له، وصنفوا فيه أخباراً وأنشدوا أشعاراً كثيرة لا معنى لها، وهو المشهد الذي يزعمون أنه يخرج منه المنتظر الذي لا حقيقة له، فلا عين ولا أثر، ولو لم يبن لكان أجدر، وهو الحسن بن علي بن محمد الجواد بن علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين الشهيد بكربلاء ابن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين، وقبح من يغلو فيهم ويبغض بسببهم من هو أفضل منهم.

وكان المستنصر رحمه الله كريماً حليماً رئيساً متودداً إلى الناس، وكان جميل الصورة حسن الأخلاق بهي المنظر، عليه نور بيت النبوة رضي الله عنه وأرضاه. وحكي أنه اجتاز راكباً في بعض أزقة بغداد قبل غروب الشمس، من رمضان، فرأى شيخاً كبيراً ومعه إناء فيه طعام قد حمله من محلة إلى محلة أخرى، فقال: أيها الشيخ لم لا أخذت الطعام من محلتك؟ أو أنت محتاج تأخذ من المحلتين؟ فقال لا والله يا سيدي ـ ولم يعرف أنه الخليفة ـ ولكني شيخ كبير، وقد نزل بي الوقت وأنا أستحي من أهل محلتي أن أزاحمهم وقت الطعام، فيشمت بي من كان يبغضني، فأنا أذهب إلى غير محلتي فآخذ الطعام وأتحين وقت كون الناس في صلاة المغرب فأدخل بالطعام إلى منزلي بحيث لا يراني أحد. فبكى الخليفة رحمه الله وأمر له بألف دينار، فلما دفعت إليه فرح الشيخ فرحاً شديداً حتى قيل إنه انشق قلبه من شدة الفرح، ولم يعش بعد ذلك إلا عشرين يوماً، ثم مات فخلف الألف دينار إلى الخليفة، لأنه لم يترك وارثاً. وقد أنفق منها ديناراً واحداً، فتعجب الخليفة من ذلك وقال: شيء قد خرجنا عنه لا يعود إلينا، تصدقوا بها على فقراء محلته، فرحمه الله تعالى.

وقد خلف من الأولاد ثلاثة، اثنان شقيقان وهما أمير المؤمنين المستعصم بالله الذي ولي الخلافة بعده وأبو أحمد عبد الله، والأمير أبو القاسم عبد العزيز وأختهما من أم أخرى كريمة صان الله حجابها. وقد رثاه الناس بأشعار كثيرة أورد منها ابن الساعي قطعة صالحة، ولم يستوزر أحداً بل أقر أبا الحسن محمد بن محمد القمي على نيابة الوزارة، ثم كان بعده نصر الدين أبو الأزهر أحمد بن محمد الناقد الذي كان أستاذ دار الخلافة، والله تعالى أعلم بالصواب.

خلافة المستعصم بالله

أمير المؤمنين وهو آخر خلفاء بني العباس ببغداد، وهو الخليفة الشهيد الذي قتله التتار بأمر هلاكو ابن تولي ملك التتار بن جنكيز خان لعنهم الله، في سنة ست وخمسين وستمائة كما

سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى، وهو أمير المؤمنين المستعصم بالله أبو أحمد عبد الله ابن أمير المؤمنين المستنصر بالله أبي جعفر المنصور ابن أمير المؤمنين الظاهر بالله أبي نصر محمد ابن أمير المؤمنين الناصر لدين الله أبي العباس أحمد ابن أمير المؤمنين المستضيء بالله أبي محمد الحسن ابن أمير المؤمنين المستنجد بالله أبي المظفر يوسف ابن أمير المؤمنين المقتفي لأمر الله أبي عبد الله محمد ابن أمير المؤمنين المستظهر بالله أبي العباس أحمد ابن الخليفة المقتدي بأمر الله أبي القاسم عبد الله وبقية نسبه إلى العباس في ترجمة جده الناصر، وهؤلاء الذين ذكرناهم كلهم ولي الخلافة يتلو بعضهم بعضاً، ولم يتفق هذا لأحد قبل المستعصم، أن في نسبه ثمانية نسقاً ولوا الخلافة لم يتخللهم أحد، وهو التاسع رحمه الله تعالى بمنه.

لما توفي أبوه بكرة الجمعة عاشر جمادى الآخرة من سنة أربعين وستمائة استدعي هو من التاج يومئذٍ بعد الصلاة فبويع بالخلافة، ولقب بالمستعصم، وله من العمر يومئذٍ ثلاثون سنة وشهور، وقد أتقن في شبيبته تلاوة القرآن حفظاً وتجويداً، وأتقن العربية والخط الحسن وغير ذلك من الفضائل على الشيخ شمس الدين أبي المظفر علي بن محمد بن النيار أحد أئمة الشافعية في زمانه، وقد أكرمه وأحسن إليه في خلافته، وكان المستعصم على ما ذكر كثير التلاوة حسن الأداء طيب الصوت، يظهر عليه خشوع وإنابة، وقد نظر في شيء من التفاسير وحل المشكلات، وكان مشهوراً بالخير مشكوراً مقتدياً بأبيه المستنصر جهده وطاقته، وقد مشت الأمور في أيامه على السداد والاستقامة بحمد الله، وكان القائم بهذه البيعة المستعصمية شرف الدين أبو الفضائل إقبال المستنصري، فبايعه أولاً بنو عمه وأهله من بني العباس، ثم أعيان الدولة من الأمراء والوزراء والقضاة والعلماء والفقهاء ومن بعدهم من أولي الحل والعقد والعامة وغيرهم، وكان يوماً مشهوداً ومجمعاً محموداً ورأياً سعيداً، وأمراً حميداً، وجاءت البيعة من سائر الجهات والأقطار والبلدان والأمصار، وخطب له في سائر البلدان، والأقاليم والرساتيق، وعلى سائر المنابر شرقاً وغرباً، بعداً وقرباً، كما كان أبوه وأجداده، رحمهم الله أجمعين.

وفيها وقع من الحوادث في هذه السنة أنه كان بالعراق وباء شديد في آخر أيام المستنصر وغلا السكر والأدوية فتصدق الخليفة المستنصر بالله رحمه الله بسكر كثير على المرضى، تقبل الله منه. وفي يوم الجمعة رابع عشر شعبان أذن الخليفة المستعصم بالله أمير المؤمنين لأبي الفرج عبد الرحمن بن محيي الدين يوسف ابن الشيخ أبي الفرج بن الجوزي ـ وكان شاباً ظريفاً فاضلاً ـ في الوعظ بباب البدرية، فتكلم وأجاد وأفاد وامتدح الخليفة المستعصم بقصيدة طويلة جليلة فصيحة، سردها ابن الساعي بكمالها، ومن يشابه أباه فما ظلم، والشبل في المخبر مثل الأسد. وفيها كانت وقعة عظيمة بين الحلبيين وبين الخوارزمية، ومع الخوارزمية شهاب الدين غازي صاحب ميافارقين، فكسرهم الحلبيون كسرة عظيمة منكرة، وغنموا من أموالهم شيئاً كثيراً جداً، ونهبت نصيبين مرة أخرى، وهذه سابع عشر مرة نهبت في هذه السنين، فإنا لله وإنا إليه راجعون. وعاد الغازي إلى ميافارقين وتفرقت الخوارزمية يفسدون في الأرض صحبة مقدمهم بركات خان، لا بارك الله فيه، وقدم على الشهاب غازي منشور بمدينة خلاط فتسلمها وما فيها

من الحواصل. وفيها عزم الصالح أيوب صاحب مصر على دخول الشام فقيل له إن العساكر مختلفة فجهز عسكراً إليها وأقام هو بمصر يدير مملكتها.

وممن توفي فيها من الأعيان.

المستنصر بالله

أمير المؤمنين كما تقدم. والحرمة المصونة الجليلة.

خاتون بنت عز الدين مسعود

ابن مودود بن زنكي بن آقسنقر الأتابكية واقفة المدرسة الأتابكية بالصالحية، وكانت زوجة السلطان الملك الأشرف رحمه الله وفي ليلة وفاتها كانت وقفت مدرستها وتربتها بالجبل قاله أبو شامة: ودفنت بها رحمها الله تعالى وتقبل منها.

ثم دخلت سنة إحدى وأربعين وستمائة

فيها ترددت الرسل بين الصالح أيوب صاحب مصر وبين عمه الصالح إسماعيل صاحب دمشق، على أن يرد إليه ولده المغيث عمر بن الصالح أيوب المعتقل في قلعة دمشق، وتستقر دمشق في يد الصالح إسماعيل، فوقع الصلح على ذلك، وخطب للصالح أيوب بدمشق، فخاف الوزير أمين الدولة أبو الحسن غزال المسلماني، وزير الصالح إسماعيل من غائلة هذا الأمر، فقال لمخدومه: لا ترد هذا الغلام لأبيه تخرج البلاد من يدك، هذا خاتم سليمان بيدك للبلاد، فعند ذلك أبطل ما كان وقع من الصلح ورد الغلام إلى القلعة، وقطعت الخطبة للصالح أيوب، ووقعت الوحشة بين الملكين، وأرسل الصالح أيوب إلى الخوارزمية يستحضرهم لحصار دمشق فإنا لله وإنا إليه راجعون. وكانت الخوارزمية قد فتحوا في هذه السنة بلاد الروم وأخذوها من أيدي ملكها ابن علاء الدين، وكان قليل العقل يلعب بالكلاب والسباع، ويسلطها على الناس، فاتفق أنه عضه سبع فمات فتغلبوا على البلاد حينئذٍ. وفيها احتيط على أعوان القاضي الرفيع الجيلي، وضرب بعضهم بالمقارع، وصودروا ورسم على القاضي الرفيع بالمدرسة المقدمية داخل باب الفراديس، ثم أخرج ليلاً وذهب به فسجن بمغارة أفقة من نواحي البقاع، ثم انقطع خبره. وذكر أبو شامة أنه توفي، ومنهم من قال إنه ألقي من شاهق، ومنهم من قال خنق، وذلك كله بذي الحجة من هذه السنة. وفي يوم الجمعة الخامس والعشرين منه قرىء منشور ولاية القضاء بدمشق لمحيي الدين بن يحيى بن محمد بن علي بن محمد بن يحيى القرشي، بالشباك الكمالي من الجامع، كذا قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة. وزعم السبط أن عزله إنما كان في السنة الآتية، وذكر أن سبب هلاكه أنه كتب إلى الملك الصالح يقول له: إنه قد أورد إلى خزانته من الأموال ألف ألف دينار من أموال الناس. فأنكر الصالح ذلك، ورد عليه الجواب أنه لم يرد سوى ألف ألف درهم، فأرسل القاضي يقول فأنا أحاقق الوزير، وكان الصالح لا يخالف الوزير، فأشار حينئذٍ على الصالح فعزله لتبرأ ساحة السلطان من شناعات الناس، فعزله

وكان من أمره ما كان. وفوض أمر مدارسه إلى الشيخ تقي الدين بن الصلاح فعين العادلية للكمال التفليسي، والعذراوية لمحيي الدين بن الزكي الذي ولي القضاء بعده، والأمينية لابن عبد الكافي، والشامية البرانية للتقي الحموي، وعيب القاضي الرفيع وأسقط عدالة شهوده، قال السبط: أرسله الأمين مع جماعة على بغل بإكاف لبعض النصارى إلى مغارة أفقة في جبل لبنان من ناحية الساحل، فأقام بها أياماً ثم أرسل إليه عدلين من بعلبك ليشهدوا عليه ببيع أملاكه من أمين الدولة، فذكرا أنهما شاهداه وعليه بخفيفة وقندورة، وأنه استطعمهما شيئاً من الزاد وذكر أن له ثلاثة أيام لم يأكل شيئاً، فأطعماه من زوادتهما وشهدا عليه وانصرفا، ثم جاءه داود النصراني فقال له قم فقد أمرنا بحملك إلى بعلبك، فأيقن بالهلاك حينئذٍ، فقال دعوني أصلي ركعتين، فقال له قم، فقام يصلي فأطال الصلاة فرفسه النصراني فألقاه من رأس الجبل إلى أسفل الوادي الذي هناك، فما وصل حتى تقطع، وحكى أنه تعلق ذيله بسن الجبل فما زال داود يرميه بالحجارة حتى ألقاه إلى أسفل الوادي، وذلك عند الشقيف المطل على نهر إبراهيم. قال السبط: وقد كان فاسد العقيدة دهرياً مستهزئاً بأمور الشرع، يخرج إلى المجلس سكراناً ويحضر إلى الجمعة كذلك، وكانت داره كالحانات، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، قال: وأخذ الموفق الواسطي أحد أمنائه ـ وكان من أكبر البلايا ـ أخذ لنفسه من أموال الناس ستمائة ألف درهم، فعوقب عقوبة عظيمة حتى أخذت منه، وقد كسرت ساقاه ومات تحت الضرب، فألقي في مقابر اليهود والنصارى، وأكلته الكلاب.

وممن توفي فيها من الأعيان:

الشيخ شمس الدين أبو الفتوح

عمر بن سعد بن المنجا التنوخي المعري الحنبلي، قاضي حران قديماً، ثم قدم دمشق ودرس بالمسمارية وتولى خدماً في الدولة المعظمية، وكانت له رواية عن ابن صابر والقاضيين الشهزوري وابن أبي عصرون، وكانت وفاته في سابع ربيع الأول من هذه السنة رحمه الله تعالى [وتوفي أخوه العز بعده في ذي الحجة ودفن بمدرسته التي بالجبل رحمه الله تعالى](١).

الشيخ الحافظ الصالح

تقي الدين أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن الأزهر الصريفيني، كان يدري الحديث وله به معرفة جيدة، أثنى عليه أبو شامة وصلى عليه بجامع دمشق ودفن بقاسيون رحمه الله.

واقف الكروسية

محمد بن عقيل بن كروس، جمال الدين محتسب دمشق، كان كيساً متواضعاً، توفي بدمشق في شوال ودفن بداره التي جعلها مدرسة، وله دار حديث رحمه الله تعالى وعفا عنه.

---

(١) ما بين معقوفين سقط في ط.

الملك الجواد يونس [بن محمد بن محمود][١] بن ممدود

ابن العادل أبي بكر بن أيوب الملك الجواد، وكان أبوه أكبر أولاد العادل، تقلبت به الأحوال وملك دمشق بعد عمه الكامل محمد بن العادل، وكان في نفسه جيداً محباً للصالحين، ولكن كان في بابه من يظلم الناس وينسب ذلك إليه، فأبغضته العامة وسبُّوه وألجؤوه إلى أن قايض بدمشق الملك الصالح أيوب بن الكامل إلى سنجار وحصن كيفا، ثم لم يحفظهما بل خرجتا عن يده، ثم آل به الحال إلى أن سجنه الصالح إسماعيل بحصن عزتا، حتى كانت وفاته في هذه السنة، ونقل في شوال إلى تربة المعظم بسفح قاسيون، وكان عنده ابن يغمور معتقلاً فحوله الصالح إسماعيل إلى قلعة دمشق، فلما ملكها الصالح أيوب نقله إلى الديار المصرية وشنقه مع الأمين غزال وزير الصالح إسماعيل، على قلعة القاهرة، جزاء على صنعهما في حق الصالح أيوب رحمه الله تعالى. أما ابن يغمور فإنه عمل عليه حتى حول ملك دمشق إلى الصالح إسماعيل، وأما أمين الدولة فإنه منع الصالح من تسليم ولده عمر إلى أبيه فانتقم منهما بهذا، وهو معذور بذلك.

مسعود بن أحمد بن مسعود

ابن مازه المحاربي أحد الفقهاء الحنفية الفضلاء، وله علم بالتفسير وعلم الحديث، ولديه فضل غزير قدم بغداد صحبة رسول التتار للحج، فحبس مدة سنين ثم أفرج عنه، فحج ثم عاد، فمات ببغداد في هذه السنة، رحمه الله تعالى.

أبو الحسن علي بن يحيى بن الحسن

ابن الحسين بن علي بن محمد البطريق بن نصر بن حمدون بن ثابت الأسدي الحلي، ثم الواسطي، ثم البغدادي، الكاتب الشاعر الشيعي، فقيه الشيعة، أقام بدمشق مدة وامتدح كثيراً من الأمراء والملوك، منهم الكامل صاحب مصر وغيره، ثم عاد إلى بغداد فكان يشغل الشيعة في مذهبهم، وكان فاضلاً ذكياً جيد النظم والنثر، لكنه مخذول محجوب عن الحق. وقد أورد ابن الساعي قطعة جيدة من أشعاره الدالة على غزارة مادته في العلم والذكاء رحمه الله وعفا عنه.

ثم دخلت سنة اثنتين وأربعين وستمائة

فيها استوزر الخليفة المستعصم بالله مؤيد الدين أبا طالب محمد بن أحمد بن علي بن محمد العلقمي المشؤوم على نفسه، وعلى أهل بغداد، الذي لم يعصم المستعصم في وزارته، فإنه لم يكن وزير صدق ولا مرضي الطريقة، فإنه هو الذي أعان على المسلمين في قضية هولاكو وجنوده قبّحه الله وإياهم، وقد كان ابن العلقمي قبل هذه الوزارة أستاذ دار الخلافة، فلما مات نصر الدين محمد بن الناقد استوزر ابن العلقمي وجعل مكانه في الاستاذارية الشيخ

(١) سقط في ط.

محيي الدين يوسف بن أبي الفرج بن الجوزي، وكان من خيار الناس رحمه الله، وهو واقف الجوزية التي بالنشابين بدمشق تقبل الله منه. وفيها جعل الشيخ شمس الدين علي بن محمد بن الحسين بن النيار مؤدب الخليفة شيخ الشيوخ ببغداد، وخلع عليه، ووكل الخليفة بهاء الدين عبد الوهاب بن المطهر وكالة مطلقة، وخلع عليه. وفيها كانت وقعة عظيمة بين الخوارزمية الذين كان الصالح أيوب صاحب مصر استقدمهم ليستنجد بهم على الصالح إسماعيل أبي الحسن صاحب دمشق، فنزلوا على غزة وأرسل إليهم الصالح أيوب الخلع والأموال والأقمشة والعساكر، فاتفق الصالح إسماعيل والناصر داود صاحب الكرك، والمنصور صاحب حمص، مع الفرنج واقتتلوا مع الخوارزمية قتالاً شديداً، فهزمتهم الخوارزمية كسرة منكرة فظيعة، هزمت الفرنج بصلبانها وراياتها العالية، على رؤوس أطلاب المسلمين، وكانت كؤوس الخمر دائرة بين الجيوش فنابت كؤوس المنون عن كؤوس الخمور، فقتل من الفرنج في يوم واحد زيادة عن ثلاثين ألف، وأسروا جماعة من ملوكهم وقسوسهم وأساقفتهم، وخلقاً من أمراء المسلمين، وبعثوا بالأسارى إلى الصالح أيوب بمصر، وكان يومئذٍ يوماً مشهوداً وأمراً محموداً، ولله الحمد. وقد قال بعض أمراء المسلمين قد علمت أنا لما وقفنا تحت صلبان الفرنج أنا لا نفلح. وغنمت الخوارزمية من الفرنج ومن كان معهم شيئاً كثيراً، وأرسل الصالح أيوب إلى دمشق ليحاصرها، فحصنها الصالح إسماعيل وخرب من حولها رباعاً كثيرة، وكسر جسر باب توما فسار النهر فتراجع الماء حتى صار بحيرة من باب توما وباب السلامة، فغرق جميع ما كان بينهما من العمران، وافتقر كثير من الناس، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وممن توفي فيها من الأعيان:

الملك المغيث عمر ابن الصالح أيوب

كان الصالح إسماعيل قد أسره وسجنه في برج قلعة دمشق، حين أخذها في غيبة الصالح أيوب. فاجتهد أبوه بكل ممكن في خلاصه فلم يقدر، وعارضه فيه أمين الدولة غزال المسلماني، واقف المدرسة الأمينية التي ببعلبك، فلم يزل الشاب محبوساً في القلعة من سنة ثمان وثلاثين إلى ليلة الجمعة ثاني عشر ربيع الآخر من هذه السنة، فأصبح ميتاً في محبسه غماً وحزناً، ويقال إنه قتل فالله أعلم. وكان من خيار أبناء الملوك، وأحسنهم شكلاً، وأكملهم عقلاً. ودفن عند جده الكامل في تربته شمالي الجامع، فاشتد حنق أبيه الصالح أيوب على صاحب دمشق. وممن توفي فيها شيخ الشيوخ بدمشق:

تاج الدين [أيوب](١) أبو عبد الله بن عمر بن حمويه(٢)

أحد الفضلاء المؤرخين المصنفين، له كتاب في ثمانية مجلدات، ذكر فيه أصول، وله السياسة الملوكية صنفها للكامل محمد وغير ذلك، وسمع الحديث وحفظ القرآن، وكان قد بلغ

---

(١) سقط في ط.
(٢) في ط: تاج الدين أبو محمد عبد الله بن عمر بن حموية.

الثمانين، وقيل إنه لم يبلغها، وقد سافر إلى بلاد المغرب في سنة ثلاث وتسعين، واتصل بمراكش عند ملكها المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن، فأقام هناك إلى سنة ستمائة، فقدم إلى ديار مصر وولي مشيخة الشيوخ بعد أخيه صدر الدين بن حمويه رحمه الله تعالى.

الوزير نصر الدين أبو الأزهر

أحمد بن محمد بن علي بن أحمد الناقد البغدادي وزير المستنصر ثم ابنه المستعصم، كان من أبناء التجار، ثم توصل إلى أن وزر لهذين الخليفتين، وكان فاضلاً بارعاً حافظاً للقرآن كثير التلاوة، نشأ في حشمة باذخة، ثم كان في وجاهة هائلة، وقد أقعد في آخر أمره، وهو مع هذا في غاية الاحترام والإكرام، وله أشعار حسنة كثيرة أورد منها ابن الساعي قطعة صالحة، توفي في هذه السنة وقد جاوز الخمسين رحمه الله تعالى.

نقيب النقباء خطيب الخطباء

وكيل الخلفاء أبو طالب الحسين بن أحمد بن علي بن أحمد بن معين بن هبة الله بن محمد بن علي ابن الخليفة المهتدي بالله العباسي، كان من سادات العباسيين وأئمة المسلمين، وخطباء المؤمنين، استمرت أحواله على السداد والصلاح، لم ينقطع قط عن الخطابة ولم يمرض قط حتى كانت ليلة السبت الثامن والعشرين من رجب من هذه السنة، قام في أثناء الليل لبعض حاجاته فسقط على أم رأسه، فسقط من فمه دم كثير وسكت فلم ينطق كلمة واحدة يومه ذلك إلى الليل، فمات وكانت له جنازة حافلة رحمه الله تعالى وعفا عنه بمنه وكرمه.

ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين وستمائة

وهي سنة الخوارزمية، وذلك أن الصالح أيوب بن الكامل صاحب مصر بعث الخوارزمية ومعهم ملكهم بركات خان في صحبة معين الدين ابن الشيخ، فأحاطوا بدمشق يحاصرون عمه الصالح إسماعيل أبا الجيش صاحب دمشق، وحرق قصر حجاج، وحكر السماق، وجامع جراح خارج باب الصغير، ومساجد كثيرة، ونصب المنجنيق عند باب الصغير وعند باب الجابية، ونصب من داخل البلد منجنيقان أيضاً، وتراءى الفريقان وأرسل الصالح إسماعيل إلى الأمير معين الدين بن الشيخ بسجادة وعكاز وإبريق وأرسل يقول: اشتغالك بهذا أولى من اشتغالك بمحاصرة الملوك، فأرسل إليه المعين بزمر وجنك وغلالة حرير أحمر وأصفر، وأرسل يقول له: أما السجادة فإنها تصلح لي، وأما أنت فهذا أولى بك. ثم أصبح ابن الشيخ فاشتد الحصار بدمشق، وأرسل الصالح إسماعيل فأحرق جوسق قصر والده العادل، وامتد الحريق في زقاق الرمان إلى العقيبة فأحرقت بأسرها، وقطعت الأنهار وغلت الأسعار، وأخيفت الطرق وجرى بدمشق أمور بشعة جداً، لم يتم عليها قط، وامتد الحصار شهوراً من هذه السنة إلى جمادى الأولى، فأرسل أمين الدولة يطلب من ابن معين الدين ابن الشيخ شيئاً من ملابسه، فأرسل إليه بفرجية وعمامة وقميص ومنديل، فلبس ذلك الأمين وخرج إلى معين الدين، فاجتمع

به بعد العشاء طويلاً، ثم عاد ثم خرج مرة أخرى فاتفق الحال على أن يخرج الصالح إسماعيل إلى بعلبك ويسلم دمشق إلى الصالح أيوب، فاستبشر الناس بذلك وأصبح الصالح إسماعيل خارجاً إلى بعلبك ودخل معين الدين ابن الشيخ فنزل في دار أسامة، فولى وعزل وقطع ووصل، وفوض قضاء القضاة إلى صدر الدين بن سني الدولة، وعزل القاضي محيي الدين بن الزكي، واستناب ابن سني الدولة التفليسي الذي ناب لابن الزكي والفرز السنجاري، وأرسل معين الدين بن الشيخ أمين الدولة غزال بن المسلماني وزير الصالح إسماعيل تحت الحوطة إلى الديار المصرية.

وأما الخوارزمية فإنهم لم يكونوا حاضرين وقت الصلح، فلما علموا بوقوع الصلح غضبوا وساروا نحو داريا فنهبوها وساقوا نحو بلاد الشرق، وكاتبوا الصالح إسماعيل فحالفوه على الصالح أيوب، ففرح بذلك ونقض الصلح الذي كان وقع منه، وعادت الخوارزمية فحاصروا دمشق، وجاء إليهم الصالح إسماعيل من بعلبك فضاق الحال على الدماشقة، فعدمت الأقوات وغلت الأسعار جداً، حتى أنه بلغ ثمن الغرارة ألف وستمائة، وقنطار الدقيق بسبعمائة، والخبز كل وقيتين إلا ربع بدرهم، ورطل اللحم بسبعة وبيعت الأملاك بالدقيق، وأكلت القطاط والكلاب والميتات والجيفات، وتماوت الناس في الطرقات وعجزوا عن التغسيل والتكفين والإقبار، فكانوا يلقون موتاهم في الآبار، حتى أنتنت المدينة وضجر الناس، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفي هذه الأيام توفي الشيخ تقي الدين بن الصلاح، شيخ دار الحديث وغيرها من المدارس، فما أخرج من باب الفرج إلا بعد جهد جهيد، ودفن بالصوفية رحمه الله.

قال ابن السبط: ومع هذا كانت الخمور دائرة والفسق ظاهراً، والمكوس بحالها وذكر الشيخ شهاب الدين أن الأسعار غلت في هذه السنة جداً، وهلك الصعاليك بالطرقات، كانوا يسألون لقمة ثم صاروا يسألون لبابة ثم تنازلوا إلى فلس يشترون به نخالة يبلونها ويأكلونها، كالدجاج. قال: وأنا شاهدت ذلك. وذكر تفاصيل الأسعار وغلاءها في الأطعمة وغيرها، ثم زال هذا كله في آخر السنة بعد عيد الأضحى ولله الحمد.

ولما بلغ الصالح أيوب أن الخوارزمية قد مالؤوا عليه وصالحوا عمه الصالح إسماعيل، كاتب الملك المنصور إبراهيم بن أسد الدين شيركوه صاحب حمص، فاستماله إليه وقوي جانب نائب دمشق معين الدين حسين بن الشيخ، ولكنه توفي في رمضان من هذه السنة كما سيأتي في الوفيات. ولما رجع المنصور صاحب حمص عن موالاة الصالح إسماعيل شرع في جمع الجيوش من الحلبيين والتركمان والأعراب لاستنقاذ دمشق من الخوارزمية، وحصارهم إياها، فبلغ ذلك الخوارزمية فخافوا من غائلة ذلك، وقالوا دمشق ما تفوت، والمصلحة قتاله عند بلده، فساروا إلى بحيرة حمص، وأرسل الناصر داود جيشه إلى الصالح إسماعيل مع الخوارزمية، وساق جيش دمشق فانضافوا إلى صاحب حمص، والتقوا مع الخوارزمية عند بحيرة حمص، وكان يوماً مشهوداً، قتل فيه عامة الخوارزمية، وقتل ملكهم بركات خان، وجيء برأسه

على رمح، فتفرق شملهم وتمزقوا شذر مذر، وساق المنصور صاحب حمص إلى بعلبك فتسلمها الصالح أيوب، وجاء إلى دمشق فنزل ببستان سامة خدمة للصالح أيوب، ثم حدثته نفسه بأخذها فاتفق مرضه، فمات رحمه الله في السنة الآتية، ونقل إلى حمص، فكانت مدة ملكه بعد أبيه عشر سنين، وقام من بعده فيها ابنه الملك الأشرف مدة سنتين، ثم أخذت منه على ما سيأتي وتسلم نواب الصالح أيوب بعلبك وبصرى، ولم يبق بيد الصالح إسماعيل بلد يأوي إليه ولا أهل ولا ولد ولا مال، بل أخذت جميع أمواله ونقلت عياله تحت الحوطة إلى الديار المصرية، وسار هو فاستجار بالملك الناصر بن العزيز بن الظاهر غازي صاحب حلب، فآواه وأكرمه واحترمه، وقال الأتابك لؤلؤ الحلبي لابن أستاذه الناصر، وكان شاباً صغيراً: انظر إلى عاقبة الظلم. وأما الخوارزمية فإنهم ساروا إلى ناحية الكرك فأكرمهم الناصر داود صاحبها، وأحسن إليهم وصاهرهم وأنزلهم بالصلت فأخذوا معها نابلس، فأرسل إليهم الملك الصالح أيوب جيشاً مع فخر الدين بن الشيخ فكسرهم على الصلت وأجلاهم عن تلك البلاد، وحاصر الناصر بالكرك وأهانه غاية الإهانة، وقدم الملك الصالح نجم الدين أيوب من الديار المصرية فدخل دمشق في أبهة عظيمة، وأحسن إلى أهلها، وتصدق على الفقراء والمساكين، وسار إلى بعلبك وإلى بصرى وإلى صرخد، فتسلمها من صاحبها عز الدين أيبك المعظمي، وعوضه عنها ثم عاد إلى مصر مؤيداً منصوراً مسروراً. وهذا كله في السنة الآتية ولله الحمد والمنّة.

وفي هذه السنة كانت وقعة عظيمة بين جيش الخليفة وبين التتار لعنهم الله، فكسرهم المسلمون كسرة عظيمة وفرقوا شملهم، وهزموا من بين أيديهم، فلم يلحقوهم ولم يتبعوهم، خوفاً من غائلة مكرهم وعملاً بقوله ﷺ: «اتْرُكُوا التُّرْكَ مَا تَرَكُوكُمْ». وفي هذه السنة ظهر ببلاد خوزستان على شق جبل داخله من الأبنية الغريبة العجيبة ما يحار فيه الناظر، وقد قيل إن ذلك من بناء الجن، وأورد صفته ابن الساعي في تاريخه.

وممن توفي في هذه السنة من الأعيان:

الشيخ تقي الدين أبو الصلاح

عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان الإمام العلاّمة، مفتي الشام ومحدثها، الشهرزوري ثم الدمشقي، سمع الحديث ببلاد الشرق وتفقه هنالك بالموصل وحلب وغيرها، وكان أبوه مدرساً بالأسدية التي بحلب، وواقفها أسد الدين شيركوه بن شاذي، وقدم هو الشام وهو في عداد الفضلاء الكبار. وأقام بالقدس الشريف مدة ودرس بالصلاحية، ثم تحول منه إلى دمشق، ودرس بالرواحية ثم بدار الحديث الأشرفية، وهو أول من وليها من شيوخ الحديث، وهو الذي صنف كتاب وقفها، ثم بالشامية الجوانية، وقد صنف كتباً كثيرة مفيدة في علوم الحديث والفقه [وله] تعاليق حسنة على الوسيط وغيره من الفوائد التي يرحل إليها. وكان ديناً زاهداً ورعاً ناسكاً، على طريق السلف الصالح، كما هو طريقة متأخري أكثر المحدثين، مع الفضيلة التامة في فنون كثيرة، ولم يزل على طريقة جيدة حتى كانت وفاته بمنزله في دار الحديث الأشرفية ليلة الأربعاء الخامس والعشرين من ربيع الآخر من سنة ثلاث وأربعين وستمائة، وصلّي عليه بجامع

دمشق وشيعه الناس إلى داخل باب الفرج، ولم يمكنهم البروز لظاهره لحصار الخوارزمية، وما صحبه إلى جبانة الصوفية إلا نحو العشرة رحمه الله تعالى وتغمده برضوانه. وقد أثنى عليه القاضي شمس الدين بن خلكان، وكان من شيوخه. قال السبط: أنشدني الشيخ تقي الدين من لفظه رحمه الله:

احْذَرْ مِنَ الوَاوَاتِ أَرْبَعَةً ... فَهُنَّ مِنَ الحُتُوفِ(١)

وَاوِ الوَصِيَّةِ وَالوَدِيعَةِ ... وَالوَكَالَةِ وَالوُقُوفِ

وحكى ابن خلكان عنه أنه قال: ألهمت في المنام هؤلاء الكلمات: ادفع المسألة ما وجدت التحمل يمكنك فإن لكل يوم رزقاً جديداً، والإلحاح في الطلب يذهب البهاء، وما أقرب الصنيع من الملهوف، وربما كان العسر نوعاً من آداب الله، والحظوظ مراتب فلا تعجل على ثمرة قبل أن تدرك فإنك ستنالها في أوقاتها، ولا تعجل في حوائجك فتضيق بها ذرعاً، ويغشاك القنوط.

ابن النجار الحافظ صاحب التاريخ

محمد بن محمود بن الحسن بن هبة الله بن محاسن بن النجار، أبو عبد الله البغدادي الحافظ الكبير، سمع الكثير ورحل شرقاً وغرباً، وولد سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة، وشرع في كتابة التاريخ وعمره خمس عشرة سنة، والقراءات وقرأ بنفسه على المشايخ كثيراً حتى حصل نحواً من ثلاثة آلاف شيخ، من ذلك نحو من أربعمائة امرأة، وتغرب ثمانياً وعشرين سنة، ثم جاء إلى بغداد وقد جمع أشياء كثيرة، من ذلك القمر المنير في المسند الكبير، يذكر لكل صحابي ما روى. وكنز الأيام في معرفة السنن والأحكام، والمختلف والمؤتلف، والسابق واللاحق، والمتفق والمفترق، وكتاب الألقاب، ونهج الإصابة في معرفة الصحابة، والكافي في أسماء الرجال، وغير ذلك مما لم يتم أكثره وله كتاب الذيل على تاريخ مدينة السلام، في ستة عشر مجلداً كاملاً، وله أخبار مكة والمدينة وبيت المقدس، وغرر الفوائد في خمسة مجلدات، وأشياء كثيرة جداً سردها ابن الساعي في ترجمته، وذكر أنه لما عاد إلى بغداد عرض عليه الإقامة في المدارس فأبى وقال: معي ما أستغني به عن ذلك فاشترى جارية وأولدها وأقام برهة ينفق مدة على نفسه من كيسه، ثم احتاج إلى أن نزل محدثاً في جماعة المحدثين بالمدرسة المستنصرية حين وضعت، ثم مرض شهرين وأوصى إلى ابن الساعي في أمر تركته وكانت وفاته يوم الثلاثاء الخامس من شعبان من هذه السنة، وله من العمر خمس وسبعون سنة وصلّي عليه بالمدرسة النظامية، وشهد جنازته خلق كثير، وكان ينادي حول جنازته هذا حافظ حديث رسول الله ﷺ، الذي كان ينفي الكذب عنه. ولم يترك وارثاً، وكانت تركته عشرين ديناراً وثياب بدنه، وأوصى أن يتصدق بها، ووقف خزانتين من الكتب بالنظامية تساوي ألف دينار، فأمضى ذلك الخليفة المستعصم، وقد أثنى عليه الناس ورثوه بمراث كثيرة، سردها ابن الساعي

---

(١) حتوف: جمع حتف: وهو الموت.

في آخر ترجمته.

الحافظ ضياء الدين المقدسي

ابن الحافظ محمد بن عبد الواحد(١) سمع الحديث الكثير وكتب كثيراً وطوف وجمع وصنف وألف كتباً مفيدة حسنة كثيرة الفوائد، من ذلك كتاب الأحكام ولم يتمه، وكتاب المختارة وفيه علوم حسنة حديثية، وهي أجود من مستدرك الحاكم لو كمل، وله فضائل الأعمال وغير ذلك من الكتب الحسنة الدالة على حفظه واطلاعه وتضلعه من علوم الحديث متناً وإسناداً. وكان رحمه الله في غاية العبادة والزهادة والورع والخير، وقد وقف كتباً كثيرة عظيمة لخزانة المدرسة الضيائية التي وقفها على أصحابهم من أهل الحديث والفقهاء، وقد وقفت عليها أوقاف أخر كثيرة بعد ذلك.

الشيخ علم الدين أبو الحسن السخاوي

علي بن محمد بن عبد الصمد بن عبد الواحد بن عبد الغالب الهمذاني المصري، ثم الدمشقي الشيخ علم الدين أبو الحسن السخاوي شيخ القراء بدمشق، ختم عليه ألوف من الناس، وكان قد قرأ على الشاطبي وشرح قصيدته، وله شرح المفصل وله تفاسير وتصانيف كثيرة، ومدائح في رسول الله ﷺ، وكانت له حلقة بجامع دمشق، وولي مشيخة الإقراء بتربة أم الصالح، وبها كان مسكنه وبه توفي ليلة الأحد ثاني عشر جمادى الآخرة، ودفن بقاسيون. وذكر القاضي ابن خلكان أن مولده سنة ثمان وخمسين وخمسمائة وذكر من شعره قوله:

قَالُوا غَداً نَأْتِي دِيارَ الحِمَى ... وَيَنْزِلُ الرَّكْبُ بِمَغْنَاهُمُ
وَكُلُّ مَنْ كَانَ مُطِيعاً لَهُمْ ... أَصْبَحَ مَسْرُوراً بِلُقْيَاهُمُ
قُلْتُ فَلِي ذَنْبٌ فَمَا حِيلَتِي ... بِأَيِّ وَجْهٍ أَتَلَقَّاهُمُ
قَالُوا أَلَيْسَ العَفْوُ مِنْ شَأْنِهِمْ ... لا سِيَّمَا عَمَّنْ تَرَجَّاهُمُ

ربيعة خاتون بنت أيوب

أخت السلطان صلاح الدين، زوجها أخوها أولاً بالأمير سعد الدين مسعود بن معين الدين وتزوج هو بأخته عصمة الدين خاتون، التي كانت زوجة الملك نور الدين واقفة الخاتونية الجوانية، والخانقاه البرانية، ثم لما مات الأمير سعد الدين زوجها من الملك مظفر الدين صاحب إربل، فأقامت عنده بإربل أزيد من أربعين سنة حتى مات، ثم قدمت دمشق فسكنت بدار العقيقي حتى كانت وفاتها في هذه السنة وقد جاوزت الثمانين، ودفنت بقاسيون، وكانت في خدمتها الشيخة الصالحة العالمة أمة اللطيف بنت الناصح الحنبلي، وكانت فاضلة، ولها تصانيف، وهي التي أرشدتها إلى وقف المدرسة بسفح قاسيون على الحنابلة، ووقفت أمة

---

(١) هنا بياض في جميع الأصول.

اللطيف على الحنابلة مدرسة أخرى وهي الآن شرقي الرباط الناصري، ثم لما ماتت الخاتون وقعت العالمة بالمصادرات وحبست مدة ثم أفرج عنها وتزوجها الأشرف صاحب حمص، وسافرت معه إلى الرحبة وتل راشد، ثم توفيت في سنة ثلاث وخمسين، ووجد لها بدمشق ذخائر كثيرة وجواهر ثمينة، تقارب ستمائة ألف درهم، غير الأملاك والأوقاف رحمها الله تعالى.

معين الدين الحسن ابن شيخ الشيوخ

وزير الصالح نجم الدين أيوب، أرسله إلى دمشق فحاصرها مع الخوارزمية أول مرة حتى أخذها من يد الصالح إسماعيل، وأقام بها نائباً من جهة الصالح أيوب، ثم مالأ الخوارزمية مع الصالح إسماعيل عليه فحصروه بدمشق، ثم كانت وفاته في العشر الأخر من رمضان هذه السنة، عن ست وخمسين سنة، فكانت مدة ولايته بدمشق أربعة أشهر ونصف. وصلّي عليه بجامع دمشق، ودفن بقاسيون إلى جانب أخيه عماد الدين. وفيها كانت وفاة واقف القليجية للحنفية. وهو الأمير:

سيف الدين بن قلج

ودفن بتربته التي بمدرسته المذكورة، التي كانت سكنه بدار فلوس تقبل الله تعالى منه. وخطيب الجبل شرف الدين عبد الله ابن الشيخ أبي عمر رحمه الله. والسيف أحمد بن عيسى ابن الإمام موفق الدين بن قدامة. وفيها توفي إمام الكلاسة الشيخ تاج الدين أبو الحسن محمد بن أبي جعفر مسند وقته، وشيخ الحديث في زمانه رواية وصلاحاً رحمه الله تعالى. والمحدثان الكبيران الحافظان المفيدان شرف الدين أحمد بن الجوهري وتاج الدين عبد الجليل الأبهري.

ثم دخلت سنة أربع وأربعين وستمائة

فيها كسر المنصور الخوارزمية عند بحيرة حمص واستقرت يد نواب الصالح أيوب على دمشق وبعلبك وبصرى، ثم في جمادى الآخرة كسر فخر الدين بن الشيخ الخوارزمية على الصلت كسرة فرق بقية شملهم، ثم حاصر الناصر بالكرك ورجع عنه إلى دمشق، وقدم الصالح أيوب إلى دمشق في ذي القعدة فأحسن إلى أهلها وتسلم هذه المدن المذكورة، وانتزع صرخد من يد عز الدين أيبك، وعوضه عنها، وأخذ الصلت من الناصر داود بن المعظم وأخذ حصن الصبية من السعيد بن العزيز بن العادل، وعظم شأنه جداً، وزار في رجوعه بيت المقدس وتفقد أحواله وأمر بإعادة أسواره أن تعمر كما كانت في الدولة الناصرية، فاتح القدس، وأن يصرف الخراج وما يتحصل من غلات بيت المقدس في ذلك، وإن عاز شيئاً صرفه من عنده. وفيها قدمت الرسل من عند البابا الذي للنصارى تخبر بأنه قد أباح دم الأبدور ملك الفرنج لتهاونه في قتال المسلمين، وأرسل طائفة من عنده ليقتلوه، فلما انتهوا إليه كان استعد لهم وأجلس مملوكاً

له على السرير فاعتقدوه الملك فقتلوه، فعند ذلك أخذهم الأبدور فصلبهم على باب قصره بعد ما ذبحهم وسلخهم وحشى جلودهم تبناً، فلما بلغ ذلك البابا أرسل إليه جيشاً كثيفاً لقتاله فأوقع الله الخلف بينهم بسبب ذلك، وله الحمد والمنة.

وفيها هبت رياح عاصفة شديدة بمكة في يوم الثلاثاء من عشر ربيع الآخر، فألقت ستارة الكعبة المشرفة، وكانت قد عتقت، فإنها من سنة أربعين لم تجدد لعدم الحج في تلك السنين من ناحية الخليفة، فما سكنت الريح إلا والكعبة عريانة قد زال عنها شعار السواد، وكان هذا فألاً على زوال دولة بني العباس، ومنذراً بما سيقع بعد هذا من كائنة التتار لعنهم الله تعالى. فاستأذن نائب اليمن عمر بن سول شيخ الحرم العفيف بن منعة في أن يكسو الكعبة، فقال لا يكون هذا إلا من مال الخليفة، ولم يكن عنده مال فاقترض ثلاثمائة دينار واشترى ثياب قطن وصبغها سواداً وركب عليها طرازاتها العتيقة وكسى بها الكعبة ومكثت الكعبة ليس عليها كسوة إحدى وعشرين ليلة. وفيها فتحت دار الكتب التي أنشأها الوزير مؤيد الدين محمد بن أحمد العلقمي بدار الوزارة، وكانت في نهاية الحسن، ووضع فيها من الكتب النفيسة والنافعة شيء كثير، وامتدحها الشعر بأبيات وقصائد حساناً وفي أواخر ذي الحجة ظهر الخليفة المستعصم بالله أمير المؤمنين ولديه الأميرين أبا العباس أحمد، وأبا الفضائل عبد الرحمن، وعملت ولائم فيها كل أفراح ومسرة، لا يسمع بمثلها من أزمان متطاولة، وكان ذلك وداعاً لمسرات بغداد وأهلها في ذلك الزمان.

وفيها احتاط الناصر داود صاحب الكرك على الأمير عماد الدين داود بن موسك بن حسكو، وكان من خيار الأمراء الأجواد الأمجاد، واصطفى أمواله كلها وسجنه عنده في الكرك، فشفع فيه فخر الدين بن الشيخ لما كان محاصره في الكرك فأطلقه، فخرجت في حلقة جراحة فبطَّها[1] فمات ودفن عند قبر جعفر والشهداء بمؤتة رحمه الله تعالى.

وفيها توفي ملك الخوارزمية قبلاً بركات خان لما كسرت أصحابه عند بحيرة حمص كما تقدم ذكره وفيها توفي.

الملك المنصور

ناصر الدين إبراهيم ابن الملك المجاهد أسد الدين شيركوه صاحب حمص بدمشق، بعد أن سلم بعلبك للصالح أيوب، ونقل إلى حمص، وكان نزوله أولاً ببستان سامة، فلما مرض حمل إلى الدهشة بستان الأشرف بالنيرب فمات فيه. وفيها توفي.

الصائن محمد بن حسان

ابن رافع العامري الخطيب، وكان كثير السماع مسنداً، وكانت وفاته بقصر حجاج رحمه الله تعالى. وفيها توفي.

---

(١) بطَّها: شقَّها.

الفقيه العلاّمة محمد بن محمود بن عبد المنعم

المرامي الحنبلي وكان فاضلاً ذا فنون، أثنى عليه أبو شامة. قال: صحبته قديماً ولم يترك بعده بدمشق مثله في الحنابلة، وصلّي عليه بجامع دمشق ودفن بسفح قاسيون رحمه الله.

والضياء عبد الرحمن الغماري

المالكي الذي ولي وظائف الشيخ أبي عمرو بن الحاجب حين خرج من دمشق سنة ثمان وثلاثين وجلس في حلقته ودرس مكانه بزاوية المالكية والفقيه تاج الدين إسماعيل بن جميل بحلب، وكان فاضلاً ديناً سليم الصدر رحمه الله.

ثم دخلت سنة خمس وأربعين وستمائة

فيها كان عود السلطان نجم الدين أيوب بن الكامل من الشام إلى الديار المصرية، وزار في طريقه بيت المقدس وفرق في أهله أموالاً كثيرة، وأمر بإعادة سوره كما كان في أيام عم أبيه الملك الناصر فاتح القدس. ونزل الجيوش لحصار الفرنج ففتحت طبرية في عاشر صفر وفتحت عسقلان في أواخر جمادى الآخرة، وفي رجب عزل [الخليفة][(١)] الخطيب عماد الدين داود بن خطيب بيت الأبار عن الخطابة بجامع الأموي، وتدريس الغزالية، وولي ذلك للقاضي عماد الدين بن عبد الكريم بن الحرستاني شيخ دار الحديث بعد ابن الصلاح. وفيها أرسل الصالح أيوب يطلب جماعة من أعيان الدماشقة اتهموا بممالأة الصالح إسماعيل، منهم القاضي محيى الدين بن الزكي، وبنو صصري وابن العماد الكاتب، والحليمي مملوك الصالح إسماعيل، والشهاب غازي والي بصرى، فلما وصلوا إلى مصر لم يكن إليهم من العقوبات والإهانة، بل خلع على بعضهم وتركوا باختيارهم مكرمين.

وممن توفي فيها من الأعيان:

الحسين بن الحسين بن علي

ابن حمزة العلوي الحسيني، أبو عبد الله الأقساسي النقيب قطب الدين، أصله من الكوفة وأقام ببغداد، وولي النقابة، ثم اعتقل بالكوفة، وكان فاضلاً أديباً شاعراً مطبقاً، أورد له ابن الساعي أشعاراً كثيرة رحمه الله.

الشلوبين النحوي

هو عمر بن محمد بن عبد الله الأزدي، أبو علي الأندلسي الإشبيلي، المعروف بالشلوبين، وهو بلغة الأندلسيين الأبيض الأشقر، قال ابن خلكان: ختم به أئمة النحو، وكان فيه تغفل، وذكر له شعراً ومصنفات، منها شرح الجزولية وكتاب التوطئة. وأرخ وفاته بهذه السنة. وقد جاوز الثمانين رحمه الله تعالى وعفا عنه.

---

(١) سقط في ط.

الشيخ علي المعروف بالحريري

أصله من قرية بسر شرقي ذرع، وأقام بدمشق مدّة يعمل صنعة الحرير، ثم ترك ذلك وأقبل يعمل الفقيري على يد الشيخ علي المغربل، وابتنى له زاوية على الشرف القبلي، وبدرت منه أفعال أنكرها عليه الفقهاء، كالشيخ عز الدين بن عبد السلام، والشيخ تقي الدين بن الصلاح، والشيخ أبي عمرو بن الحاجب شيخ المالكية وغيرهم، فلما كانت الدولة الأشرفية حبس في قلعة عزتا مدة سنين ثم أطلقه الصالح إسماعيل واشترط عليه أن لا يقيم بدمشق، فلزم بلده بسر مدة حتى كانت وفاته في هذه السنة، قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة في الذيل: وفي رمضان أيضاً توفي الشيخ علي المعروف بالحريري المقيم بقرْية بسر في زاويته، وكان يتردد إلى دمشق، وتبعه طائفة من الفقراء وهم المعروفون بأصحاب الحريري أصحاب المنافي للشريعة، وباطنهم شر من ظاهرهم، إلا من رجع إلى الله منهم، وكان عند هذا الحريري من الاستهزاء بأمور الشريعة والتهاون فيها من إظهار شعائر أهل الفسوق والعصيان شيء كثير، وانفسد بسببه جماعة كبيرة من أولاد كبراء دمشق وصاروا على زي أصحابه، وتبعوه بسبب أنه كان خليع العذار، يجمع مجلسه الغناء الدائم والرقص والمردان، وترك الإنكار على أحد فيما يفعله، وترك الصلوات وكثرت النفقات، فأضل خلقاً كثيراً وأفسد جماً غفيراً، ولقد أفتى في قتله مراراً جماعة من علماء الشريعة، ثم أراح الله تعالى منه. هذا لفظه بحروفه.

واقف العزية الأمير عز الدين أيبك

أستاذ دار المعظم، كان من العقلاء الأجواد الأمجاد، استنابه المعظم على صرخد وظهرت منه نهضة وكفاية وسداد، ووقف العزّيتين الجوانية والبرانية، ولما أخذ منه الصالح أيوب صرخد عوضه عنها وأقام بدمشق ثم وشى عليه بأنه يكاتب الصالح إسماعيل فاحتيط عليه وعلى أمواله وحواصله فمرض وسقط إلى الأرض، وقال: هذا آخر عهدي. ولم يتكلم حتى مات ودفن بباب النصر بمصر رحمه الله تعالى، ثم نقل إلى تربته التي فوق الوراقة. وإنما أرخ السبط وفاته في سنة سبع وأربعين فالله أعلم.

الشهاب غازي بن العادل

صاحب ميافارقين وخلاط وغيرهما من البلدان، كان من عقلاء بني أيوب وفضلائهم، وأهل الديانة منهم، ومما أنشد قوله:

وَمِنْ عَجَبِ الأَيَّامِ أَنَّكَ جَالِسٌ ... عَلَى الأَرْضِ فِي الدُّنْيَا وَأَنْتَ تَسِيرُ
فَسَيْرُكَ يَا هٰذا كَسَيْرِ سَفِينَةٍ ... بِقَوْمٍ جُلُوسٍ وَالقُلُوعُ تَطِيرُ

ثم دخلت سنة ست وأربعين وستمائة

فيها قدم السلطان الصالح نجم الدين أيوب من الديار المصرية إلى دمشق وجهز الجيوش والمجانيق إلى حمص، لأنه كان صاحبها الملك الأشرف بن موسى بن المنصور بن أسد الدين

شيركوه قد قايض بها إلى تل باشر لصاحب حلب الناصر يوسف بن العزيز، ولما علمت الحلبيون بخروج الدماشقة برزوا أيضاً في جحفل عظيم ليمنعوا حمص منهم، واتفق الشيخ نجم الدين عبد الله البادزاي مدرس النظامية ببغداد في رسالة فأصلح بين الفريقين، ورد كلاًّ من الفئتين إلى مستقرها ولله الحمد. وفيها قتل مملوك تركي شاب صبي لسيده على دفعه عنه لما أراد به من الفاحشة، فصلب الغلام مسمراً، وكان شاباً حسناً جداً فتأسف الناس له لكونه صغيراً ومظلوماً وحسناً، ونظموا فيه قصائد، وممن نظم فيه الشيخ شهاب الدين أبو شامة في الذيل، وقد أطال قصته جداً. وفيها سقطت قنطرة رومية قديمة البناء بسوق الدقيق من دمشق، عند قصر أم حكيم، فتهدم بسببها شيء كثير من الدور والدكاكين، وكان سقوطها نهاراً. وفي ليلة الأحد الخامس والعشرين من رجب وقع حريق بالمنارة الشرقية فأحرق جميع حشوها، وكانت سلالمها سقالات من خشب، وهلك للناس ودائع كثيرة كانت فيها، وسلم الله الجامع وله الحمد. وقدم السلطان بعد أيام إلى دمشق فأمر بإعادتها كما كانت، قلت: ثم احترقت وسقطت بالكلية بعد سنة أربعين وسبعمائة وأعيدت عمارتها أحسن مما كانت ولله الحمد. وبقيت حينئذٍ المنارة البيضاء الشرقية بدمشق كما نطق به الحديث في نزول عيسى ابن مريم عليه السلام عليها، كما سيأتي بيانه وتقريره في موضعه إن شاء الله تعالى. ثم عاد السلطان الصالح أيوب مريضاً في محفة إلى الديار المصرية وهو ثقيل مدنف، شغله ما هو فيه عن أمره بقتل أخيه العادل أبي بكر بن الكامل الذي كان صاحب الديار المصرية بعد أبيه، وقد كان سجنه سنة استحوذ على مصر، فلما كان في هذه السنة في شوالها أمر بخنقه فخنق ودفن بتربة شمس الدولة، فما عمر بعده إلا إلى النصف من شعبان في العام القابل في أسوأ حال، وأشد مرض، فسبحان من له الخلق والأمر.

وفيها كانت وفاة قاضي القضاة بالديار المصرية.

فضل الدين الخونجي

الحكيم المنطقي البارع في ذلك، وكان مع ذلك جيد السيرةِ في أحكامه قال أبو شامة: أثنى عليه. غير واحد.

علي بن يحيى جمال الدين أبو الحسن المحرمي

كان شاباً فاضلاً أديباً شاعراً ماهراً، صنّف كتاباً مختصراً وجيزاً جامعاً لفنون كثيرة في الرياضة والعقل وذم الهوى، وسماه نتائج الأفكار. قال فيه من الكلم المستفادة الحكمية: السلطان إمام متبوع، ودين مشروع، فإن ظلم جارت الحكام لظلمه، وإن عدل لم يجر أحد في حكمه، من مكنه الله في أرضه، وبلاده وائتمنه على خلقه وعباده، وبسط يده وسلطانه، ورفع محله ومكانه، فحقيق عليه أن يؤدي الأمانة، ويخلص الديانة، ويجمل السريرة، ويحسن السيرة، ويجعل العدل دأبه المعهود، والأجر غرضه المقصود، فالظلم يزل القدم، ويزيل النعم، ويجلب الفقر، ويهلك الأمم. وقال أيضاً: معارضة الطبيب توجب التعذيب، رب حيلة أنفع من قبيلة، سمين الغضب مهزول، ووالي الغدر معزول، قلوب الحكماء تستشف الأسرار

من لمحات الأبصار، ارض من أخيك في ولايته بعشر ما كنت تعهده في مودته، التواضع من مصائد الشرف، ما أحسن حسن الظن لولا أن فيه العجز. ما أقبح سوء الظن لولا أن فيه الحزم. وذكر في غضون كلامه أن خادماً لعبد الله بن عمر أذنب فأراد ابن عمر أن يعاقبه على ذنبه فقال: يا سيدي أما لك ذنب تخاف من الله فيه؟ قال بلى، قال بالذي أمهلك لما أمهلتني، ثم أذنب العبد ثانياً فأراد عقوبته فقال له مثل ذلك فعفا عنه، ثم أذنب الثالثة فعاقبه وهو لا يتكلم فقال له ابن عمر: ما لك لم تقل مثل ما قلت في الأولتين؟ فقال: يا سيدي حياء من حلمك مع تكرار جرمي. فبكى ابن عمر وقال: أنا أحق بالحياء من ربي، أنت حر لوجه الله تعالى. ومن شعره يمدح الخليفة.

يـا مَـنْ إذَا بَـخِـلَ الـسَّـحَـابُ بِـمَـائِـهِ هَـطَـلَـتْ يَـدَاهُ عَـلَـى الـبَـرِيَّـةِ عَـسْـجَـدَا[1]

جَـوَّرْتَ كِـسْـرَى يـا مُـبَـخِّـلَ حَـاتِـمٍ فَـغَـدَتْ بَـنُـو الآمَـالِ نَـحْـوَكَ سُـجَّـدا[2]

وقد أورد له ابن الساعي أشعاراً كثيرة حسنة رحمه الله تعالى.

الشيخ أبو عمرو بن الحاجب

المالكي عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس الرويني ثم المصري، العلاّمة أبو عمرو بن الحاجب شيخ المالكية كان أبوه صاحباً للأمير عز الدين موسك الصلاحي، واشتغل هو بالعلم فقرأ القراءات وحرر النحو تحريراً بليغاً، وتفقه وساد أهل عصره، ثم كان رأساً في علوم كثيرة، منها الأصول والفروع والعربية والنحو والتصريف والعروض والتفسير وغير ذلك. وقد كان استوطن دمشق في سنة سبع عشرة وستمائة، ودرس بها للمالكية بالجامع حتى كان خروجه بصحبة الشيخ عز الدين بن عبد السلام في سنة ثمان وثلاثين، فصارا إلى الديار المصرية حتى كانت وفاة الشيخ أبي عمرو في هذه السنة بالإسكندرية، ودفن بالمقبرة التي بين المنارة والبلد. قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة: وكان من أذكى الأئمة قريحة، وكان ثقة حجة متواضعاً عفيفاً كثير الحياء منصفاً محباً للعلم وأهله، ناشراً له محتملاً للأذى صبوراً على البلوى، قدم دمشق مراراً آخرها سنة سبع عشرة، فأقام بها مدرساً للمالكية وشيخاً للمستفيدين عليه في علمي القراءات والعربية، وكان ركناً من أركان الدين في العلم والعمل، بارعاً في العلوم متقناً لمذهب مالك بن أنس رحمه الله تعالى. وقد أثنى عليه ابن خلكان ثناء كثيراً، وذكر أنه جاء إليه في أداء شهادة حين كان نائباً في الحكم بمصر وسأله عن مسألة اعتراض الشرط على الشرط، إذا قال إن أكلت إن شربت فأنت طالق، لم كان يقع الطلاق حين شربت أولاً؟ وذكر أنه أجاب عن ذلك في تؤدة وسكون. قلت ومختصره في الفقه من أحسن المختصرات، انتظم فيه فوائد ابن شاش، ومختصره في أصول الفقه، استوعب فيه عامة فوائد الأحكام لسيف الدين الآمدي، وقد منّ الله تعالى عليّ بحفظه وجمعت كراريس في الكلام على ما أودعه فيه من الأحاديث النبوية، ولله الحمد. وله شرح المفصل والأمالي في العربيّة والمقدمة المشهورة في النحو، اختصر فيها

(١) العسجد: الذهب.

(٢) يعني أنه أعدل من كسرى وأكرم من حاتم الطائي.

مفصل الزمخشري وشرحها، وقد شرحها غيره أيضاً، وله التصريف وشرحه، وله عروض على وزن الشاطبية رحمه الله ورضي عنه.

ثم دخلت سنة سبع وأربعين وستمائة

فيها كانت وفاة الملك الصالح أيوب، وقتل ابنه توران شاه وتولية المعز عز الدين أيبك التركماني. وفي رابع المحرم يوم الاثنين توجه السلطان الملك الصالح من دمشق إلى الديار المصرية في محفة[1]. قاله ابن السبط. وكان قد نادى في دمشق: من له عندنا شيء فليأت، فاجتمع خلق كثير بالقلعة، فدفعت إليهم أموالهم وفي عاشر صفر دخل إلى دمشق نائبها الأمير جمال الدين بن يغمور من جهة الصالح أيوب فنزل بدرب الشعارين داخل باب الجابية، وفي جمادى الآخرة أمر النائب بتخريب الدكاكين المحدثة وسط باب البريد، وأمر أن لا يبقى فيها دكان سوى ما في جانبيه إلى جانب الخياطين القبلي والشمالي، وما في الوسط يهدم. قال أبو شامة: وقد كان العادل هدم ذلك ثم أعيد ثم هدمه ابن يغمور، والمرجو استمراره على هذه الصفة. وفيها توجه الناصر داود من الكرك إلى حلب فأرسل الصالح أيوب إلى نائبه بدمشق جمال الدين بن يغمور بخراب دار أسامة المنسوبة إلى الناصر بدمشق، وبستانه الذي بالقابون، وهو بستان القصر، وأن تقلع أشجاره ويخرب القصر، وتسلم الصالح أيوب الكرك من الأمجد حسن بن الناصر، وأخرج من كان بها من بيت المعظم، واستحوذ على حواصلها وأموالها، فكان فيها من الذهب ألف ألف دينار، وأقطع الصالح الأمجد هذا إقطاعاً جيداً. وفيها طغى الماء ببغداد حتى أتلف شيئاً كثيراً من المحال والدور الشهيرة، وتعذرت الجمع في أكثر الجوامع بسبب ذلك سوى ثلاثة جوامع، ونقلت توابيت جماعة من الخلفاء إلى الترب من الرصافة خوفاً عليهم من أن تغرق محالهم، منهم المعتضد ابن الأمير أبي أحمد بن المتوكل، وذلك بعد دفنه بنيف وخمسين سنة وثلاثمائة سنة، وكذا نقل ولده المكتفي وكذا المقتفي بن المقتدر بالله رحمهم الله تعالى. وفيها هجمت الفرنج على دمياط فهرب من كان فيها من الجند والعامة واستحوذ الفرنج على الثغر وقتلوا خلقاً كثيراً من المسلمين، وذلك في ربيع الأول منها، فنصب السلطان المخيم تجاه العدو بجميع الجيش، وشنق خلقاً ممن هرب من الفرنج، ولامهم على ترك المصابرة قليلاً ليرهبوا عدو الله وعدوهم، وقوي المرض وتزايد بالسلطان جداً، فلما كانت ليلة النصف من شعبان توفي إلى رحمة الله تعالى بالمنصورة، فأخفت جاريته أم ولده خليل المدعوة شجرة الدر موته، وأظهرت أنه مريض مدنف لا يوصل إليه، وبقيت تعلم عنه بعلامته سواء. وأعلمت إلى أعيان الأمراء فأرسلوا إلى ابنه الملك المعظم تورانشاه وهو بحصن كيفا، فأقدموه إليهم سريعاً، وذلك بإشارة أكابر الأمراء منهم فخر الدين ابن الشيخ، فلما قدم عليهم ملكوه عليهم وبايعوه أجمعين، فركب في عصائب الملك وقاتل الفرنج فكسرهم وقتل منهم ثلاثين ألفاً ولله الحمد. وذلك في أول السنة الداخلة. ثم قتلوه بعد شهرين من ملكه، ضربه

---

(١) المحفة: مركب من مراكب النساء، كالهودج إلا أنها لا تقبب كما تقبب الهوادج.

بعض الأمراء وهو عز الدين أيبك التركماني، فضربه في يده فقطع بعض أصابعه فهرب إلى قصر من خشب في المخيم فحاصروه فيه وأحرقوه عليه، فخرج من بابه مستجيراً برسول الخليفة فلم يقبلوا منه، فهرب إلى النيل فانغمر فيه ثم خرج فقتل سريعاً شر قتلة وداسوه بأرجلهم ودفن كالجيفة، فإنا لله وإنا إليه راجعون. وكان فيمن ضربه البندقداري على كتفه فخرج السيف من تحت إبطه الآخر وهو يستغيث فلا يغاث.

وممن قتل في هذه السنة:

فخر الدين يوسف ابن الشيخ بن حمويه

وكان فاضلاً ديناً مهيباً وقوراً خليقاً بالملك، كانت الأمراء تعظمه جداً، ولو دعاهم إلى مبايعته بعد الصالح أيوب لما اختلف عليه اثنان، ولكنه كان لا يرى ذلك حماية لجانب بني أيوب، قتلته الداوية من الفرنج شهيداً قبل قدوم المعظم توران شاه إلى مصر، في ذي القعدة، ونهبت أمواله وحواصله وخيوله، وخربت داره ولم يتركوا شيئاً من الأفعال الشنيعة البشعة إلا صنعوه به، مع أن الذين تعاطوا ذلك من الأمراء كانوا معظمين له غاية التعظيم. ومن شعره:

عَصَيْتُ هَوَى نَفْسِي صَغِيراً فَعِنْدَمَا ... رَمَتْنِي اللَّيَالِي بِالمَشِيبِ وَبِالكِبَرْ
أَطَعْتُ الهَوَى عَكْسَ القَضِيَّةِ لَيْتَنِي ... خُلِقْتُ كَبِيراً ثُمَّ عُدْتُ إلى الصِّغَرْ

ثم دخلت سنة ثمان وأربعين وستمائة

في ثالث المحرم يوم الأربعاء كان كسر المعظم توران شاه للفرنج على ثغر دمياط، فقتل منهم ثلاثين ألفاً وقيل مائة ألف، وغنموا شيئاً كثيراً ولله الحمد. ثم قتل جماعة من الأمراء الذين أسروا، وكان فيمن أسر ملك الفرنسيس وأخوه، وأرسلت غفارة ملك الافرنسيس إلى دمشق فلبسها نائبها في يوم الموكب، وكانت من سقر لاط تحتها فرو سنجاب، فأنشد في ذلك جماعة من الشعراء فرحاً بما وقع، ودخل الفقراء كنيسة مريم فأقاموا بها فرحاً لما نصر الله تعالى على النصارى، وكادوا أن يخربوها وكانت النصارى ببعلبك فرحوا حين أخذت النصارى دمياط، فلما كانت هذه الكسرة عليهم سخموا وجوه الصور، فأرسل نائب البلد فجناهم وأمر اليهود فصفعوهم، ثم لم يخرج شهر المحرم حتى قتل الأمراء ابن أستاذهم توران شاه، ودفنوه إلى جانب النيل من الناحية الأخرى رحمه الله تعالى ورحم أسلافه بمنّه وكرمه.

المعز عز الدين أيبك التركماني يملك مصر بعد بني أيوب

لما قتل الأمراء البحرية وغيرهم من الصالحية ابن أستاذهم المعظم غياث الدين توران شاه بن الصالح أيوب بن الكامل بن العادل أبي بكر بن نجم الدين أيوب، وكان ملكه بعد أبيه بشهرين كما تقدم بيانه، ولما انفصل أمره بالقتل نادوا فيما بينهم لا بأس لا بأس، واستدعوا من بينهم الأمير عز الدين أيبك التركماني. فملكوه عليهم وبايعوه ولقبوه بالملك المعز، وركبوا

إلى القاهرة، ثم بعد خمسة أيام أقاموا لهم صبياً من بني أيوب ابن عشر سنين وهو الملك الأشرف مظفر الدين موسى بن الناصر يوسف بن المسعود إقسيس بن الكامل وجعلوا المعز أتابكه فكانت السكة والخطبة بينهما، وكاتبوا أمراء الشام بذلك، فما تم لهم الأمر بالشام، بل خرج عن أيديهم ولم تستقر لهم المملكة إلا على الديار المصرية، وكل ذلك عن أمر الخاتون شجرة الدر أم خليل حظية الصالح أيوب، فتزوجت بالمعز، وكانت الخطبة والسكة لها، يدعى لها على المنابر أيام الجمع بمصر وأعمالها، وكذا تضرب السكة باسمها أم خليل، والعلامة على المناشير والتواقيع بخطها واسمها، مدة ثلاثة أشهر قبل المعز، ثم آل أمرها إلى ما سنذكره من الهوان والقتل.

الملك الناصر بن العزيز بن الظاهر صاحب حلب يملك دمشق

لما وقع بالديار المصرية من قتل الأمراء للمعظم توران شاه بن الصالح أيوب ركب الحلبيون معهم ابن أستاذهم الناصر يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازي بن الناصر يوسف فاتح بيت المقدس، ومن كان عندهم من ملوك بني أيوب منهم الصالح إسماعيل بن العادل، وكان أحق الموجودين بالملك، من حيث السن والتعدد والحرمة والرياسة، ومنهم الناصر داود بن المعظم بن العادل، والأشرف موسى بن المنصور إبراهيم بن أسد الدين شيركوه، الذي كان صاحب حمص وغيرهم، فجاؤوا إلى دمشق فحاصروها فملكوها سريعاً، ونهبت دار ابن يغمور وحبس في القلعة وتسلموا ما حولها كبعلبك وبصرى والصلت وعجلون وصرخد، وامتنعت عليهم الكرك والشوبك بالملك المغيث عمر بن العادل بن الكامل، كان قد تغلب عليهما في هذه السنة حين قتل المعظم توران شاه، فطلبه المصريون ليملكوه عليهم فخاف مما حل بابني عمه، فلم يذهب إليهم ولما استقرت يد الحلبيين على دمشق وما حولها جلس الناصر في القلعة وطيب قلوب الناس، ثم ركبوا إلى غزة ليتسلموا الديار المصرية، فبرز إليهم الجيش المصري فاقتتلوا معهم أشد القتال، فكسر المصريون أولاً بحيث إنه خطب للناصر في ذلك بها، ثم كانت الدائرة على الشاميين فانهزموا وأسروا من أعيانهم خلقاً كثيراً، وعدم من الجيش الصالح إسماعيل رحمه الله تعالى، وقد أنشد هنا الشيخ أبو شامة لبعضهم:

ضَيَّعَ إسْماعِيلُ أَمْوَالَنَا ... وَخَرَّبَ المَغْنَى بِلاَ مَغْنَى
وَرَاحَ مِنْ جِلَّقٍ هٰذا جَزَاءُ ... مَنْ أَفْقَرَ النَّاسَ وَمَا اسْتَغْنَى

[ولنذكر][1] شيئاً من ترجمة الصالح إسماعيل واقف تربة الصالح

وقد كان الصالح رحمه الله تعالى ملكاً عاقلاً حازماً تتقلب به الأحوال أطواراً كثيرة، وقد كان الأشرف موسى أوصى له بدمشق من بعده، فملكها شهوراً ثم انتزعها منه أخوه الكامل، ثم

(١) سقط في ط.

ملكها من يد الصالح أيوب خديعة ومكراً، فاستمر فيها أزيد من أربع سنين، ثم استعادها منه الصالح أيوب عام الخوارزمية سنة ثلاث وأربعين، واستقرت بيده بلداه بعلبك وبصرى، ثم أخذتا منه كما ذكرنا، ولم يبق له بلد يأوي إليه، فلجأ إلى المملكة الحلبية في جوار الناصر يوسف صاحب حلب، فلما كان في هذه السنة ما ذكرنا عدم بالديار المصرية في المعركة فلا يدرى ما فعل به والله تعالى أعلم. وهو واقف التربة والمدرسة ودار الحديث والإقراء بدمشق رحمه الله تعالى.

وممن توفي في هذه السنة من الأعيان والمشاهير:

الملك المعظم توران شاه بن الصالح أيوب

ابن الكامل بن العادل، كان أولاً صاحب حصن كيفا في حياة أبيه، وكان أبوه يستدعيه في أيامه فلا يجيبه، فلما توفي أبوه كما ذكرنا استدعاه الأمراء فأجابهم وجاء إليهم فملكوه عليهم، ثم قتلوه كما ذكرنا، وذلك يوم الاثنين السابع والعشرين من المحرم، وقد قيل إنه كان متخلفاً لا يصلح للملك، وقد رئي أبوه في المنام بعد قتل ابنه وهو يقول:

قَتَلُوهُ شَرَّ قِتْلَهْ صَارَ لِلْعَالَمِ مُثْلَهْ
لَمْ يُرَاعُوا فِيهِ إلاً[1] لا ولا مَنْ كَانَ قَبْلَهْ
سَتَرَاهُمْ عَنْ قَرِيبِ لأقَلِّ النَّاسِ أكْلَهْ

فكان كما ذكرنا من اقتتال المصريين والشاميين وممن عدم فيما بين الصفين من أعيان الأمراء والمسلمين فمنهم الشمس لؤلؤ مدبر ممالك الحلبيين، وكان من خيار عباد الله الصالحين الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر وفيها كانت وفاة:

الخاتون أرغوانية

الحافظية سميت الحافظية لخدمتها وتربيتها الحافظ، صاحب قلعة جعبر، وكانت امرأة عاقلة مدبرة عمرت دهراً ولها أموال جزيلة عظيمة، وهي التي كانت تصلح الأطعمة للمغيث عمر بن الصالح أيوب، فصادرها الصالح إسماعيل فأخذ منها أربعمائة صندوق من المال، وقد وقفت دارها بدمشق على خدامها، واشترت بستان النجيب ياقوت الذي كان خادم الشيخ تاج الدين الكندي، وجعلت فيه تربة ومسجداً، ووقفت فيه عليها أوقافاً كثيرة جيدة رحمها الله.

واقف الأمينية التي ببعلبك.

أمين الدولة أبو الحسن غزال المتطبب

وزير الصالح إسماعيل أبي الجيش الذي كان مشؤوماً على نفسه، وعلى سلطانه، وسبباً في زوال النعمة عنه وعن مخدومه، وهذا هو وزير السوء، وقد اتهمه السبط بأنه كان مستهتراً

---

(١) الإلّ: العهد والحلف.

بالدين، وأنه لم يكن له في الحقيقة دين، فأراح الله تعالى منه عامة المسلمين، وكان قتله في هذه السنة لما عدم الصالح إسماعيل بديار مصر، عمد من عمد من الأمراء إليه وإلى ابن يغمور فشنقوهما وصلبوهما على القلعة بمصر متناوحين. وقد وجد لأمين الدولة غزال هذا من الأموال والتحف والجواهر والأثاث ما يساوي ثلاثة آلاف ألف دينار، وعشرة آلاف مجلد بخط منسوب وغير ذلك من الخطوط النفيسة الفائقة.

ثم دخلت سنة تسع وأربعين وستمائة [من الهجرة النبوية][1]

فيها عاد الملك الناصر صاحب حلب إلى دمشق وقدمت عساكر المصريين فحكموا على بلاد السواحل إلى حد الشريعة، فجهز لهم الملك الناصر جيشاً فطردوهم حتى ردوهم إلى الديار المصرية، وقصروهم عليها، وتزوجت في هذه السنة أم خليل شجرة الدر بالملك المعز عز الدين أيبك التركماني، مملوك زوجها الصالح أيوب. وفيها نقل تابوت الصالح أيوب إلى تربته بمدرسته، ولبست الأتراك ثياب العزاء، وتصدقت أم خليل عنه بأموال جزيلة. وفيها خربت الترك دمياط ونقلوا الأهالي إلى مصر وأخلوا الجزيرة أيضاً خوفاً من عود الفرنج. وفيها أكمل شرح الكتاب المسمى بنهج البلاغة في عشرين مجلداً مما ألفه عبد الحميد بن داود بن هبة الله بن أبي الحديد المدائني، الكاتب للوزير مؤيد الدين بن العلقمي، فأطلق له الوزير مائة دينار وخلعة وفرساً، وامتدحه عبد الحميد بقصيدة، لأنه كان شيعياً معتزلياً. وفي رمضان استدعى الشيخ سراج الدين عمر بن بركة النهرقلي مدرس النظامية ببغداد فولي قضاء القضاة ببغداد مع التدريس المذكور، وخلع عليه. وفي شوال ولي تاج الدين عبد الكريم ابن الشيخ محيي الدين يوسف ابن الشيخ أبي الفرج بن الجوزي حسبة بغداد بعد أخيه عبد الله الذي تركها تزهداً عنها، وخلع عليه بطرحة، ووضع على رأسه غاشية، وركب الحجاب في خدمته. وفي هذه السنة صليت صلاة العيد يوم الفطر بعد العصر، وهذا اتفاق غريب. وفيها وصل إلى الخليفة كتاب من صاحب اليمن صلاح الدين بن يوسف بن عمر بن رسول يذكر فيه أن رجلاً باليمن خرج فادعى الخلافة، وأنه أنفذ إليه جيشاً فكسروه، وقتلوا خلقاً من أصحابه وأخذ منهم صنعاء وهرب هو بنفسه في شرذمة ممن بقي من أصحابه. وفيها أرسل الخليفة إليه بالخلع والتقليد وفيها كانت وفاة:

بهاء الدين علي بن هبة الله بن سلامة الحميري

خطيب القاهرة، رحل في صغره إلى العراق فسمع بها وغيرها، وكان فاضلاً قد أتقن معرفة مذهب الشافعي رحمه الله تعالى، وكان ديناً حسن الأخلاق واسع الصدر كثير البر، قل أن يقدم عليه أحد إلا أطعمه شيئاً، وقد سمع الكثير على السلفي وغيره، وأسمع الناس شيئاً كثيراً من مروياته، وكانت وفاته في ذي الحجة من هذه السنة، وله تسعون سنة، ودفن بالقرافة رحمه الله تعالى.

---

(١) سقط في ط.

وممن توفي فيها

قاضي القضاة أبو الفضل عبد الرحمن بن عبد السلام

ابن إسماعيل بن عبد الرحمن بن إبراهيم اللمعاني الحنفي من بيت العلم والقضاء، درس بمشهد أبي حنيفة وناب عن قاضي القضاة ابن فضلان الشافعي، ثم عن قاضي القضاة أبي صالح نصر بن عبد الرزاق الحنبلي، ثم عن قاضي القضاء عبد الرحمن بن مقبل الواسطي، ثم بعد وفاته في سنة ثلاث وثلاثين استقل القاضي عبد الرحمن اللمعاني بولاية الحكم ببغداد، ولقب أقضى القضاة ولم يخاطب بقاضي القضاة، ودرس للحنفية بالمستنصرية في سنة خمس وثلاثين، وكان مشكور السيرة في أحكامه ونقضه وإبرامه. ولما توفي تولى بعده قضاء القضاة ببغداد شيخ النظامية سراج الدين النهرقلي رحمهما الله تعالى وتجاوز عنهما بمنّه وكرمه آمين.

ثم دخلت سنة خمسين وستمائة هجرية

فيها وصلت التتار إلى الجزيرة وسروج ورأس العين وما والى هذه البلاد، فقتلوا وسبوا ونهبوا وخربوا فإنا لله وإنا إليه راجعون. ووقعوا بسنجار يسيرون بين حران ورأس العين، فأخذوا منهم ستمائة حمل سكر ومعمول من الديار المصرية، وستمائة ألف دينار، وكان عدة من قتلوا في هذه السنة من أهل الجزيرة نحواً من عشرة آلاف قتيل، وأسروا من الولدان والنساء ما يقارب ذلك، فإنا لله وإنا إليه راجعون. قال السبط: وفيها حج الناس من بغداد، وكان لهم عشر سنين لم يحجوا من زمن المستنصر. وفيها وقع حريق بحلب احترق بسببه ستمائة دار، ويقال إن الفرنج لعنهم الله ألقوه فيه قصداً. وفيها أعاد قاضي القضاة عمر بن علي النهرقلي أمر المدرسة التاجية التي كان قد استحوذ عليها طائفة من العوام، وجعلوها كالقيسارية يبتاعون فيها مدة طويلة، وهي مدرسة جيدة حسنة قريبة الشبه من النظامية، وقد كان بانيها يقال له تاج الدين، وزير ملك شاه السلجوقي، وأول من درس بها الشيخ أبو بكر الشاشي.

وفيها كانت وفاة:

جمال الدين بن مطروح

وقد كان فاضلاً رئيساً كيساً شاعراً من كبار المتعممين، ثم استنابه الملك الصالح أيوب في وقت على دمشق فلبس لبس الجند. قال السبط: وكان لا يليق في ذلك. ومن شعره في الناصر داود صاحب الكرك لما استعاد القدس من الفرنج حين سلمت إليهم في سنة ست وثلاثين في الدولة الكاملية فقال هذا الشاعر، وهو ابن مطروح رحمه الله:

الْمَسْجِدُ الأَقْصَى لَهُ عَادَةٌ ... سَارَتْ فَصَارَتْ مَثَلاً سَائِرا
إِذَا غَدَا لِلْكُفْرِ مُسْتَوْطِناً ... أَنْ يَبْعَثَ اللهُ لَهُ نَاصِرا
فَنَاصِرٌ طَهَّرَهُ أَوَّلاً ... وَنَاصِرٌ طَهَّرَهُ آخِرا

ولما عزله الصالح من النيابة أقام خاملاً وكان كثير البر بالفقراء والمساكين، وكانت وفاته بمصر وفيها توفي:

شمس الدين محمد بن سعد المقدسي

الكاتب الحسن الخط، كان كثير الأدب، وسمع الحديث كثيراً، وخدم السلطان الصالح إسماعيل والناصر داود، وكان ديناً فاضلاً شاعراً له قصيدة ينصح فيها السلطان الصالح إسماعيل وما يلقاه الناس من وزيره وقاضيه وغيرهما، من حواشيه وكانت وفاته بدمشق ودفن بقاسيون.

وممن توفي فيها من الأعيان:

عبد العزيز بن علي

ابن عبد الجبار المغربي، أبوه ولد ببغداد، وسمع بها الحديث، وعني بطلب العلم وصنف كتاباً في مجلدات على حروف المعجم في الحديث، وحرر فيه حكاية مذهب الإمام مالك رحمه الله تعالى.

الشيخ أبو عبد الله محمد بن غانم بن كريم

الأصبهاني، قدم بغداد وكان شاباً فاضلاً، فتتلمذ للشيخ شهاب الدين السهروردي، [فانتفع به وتكلم بعده وفتح عليه في الوعظ وفاق أهل زمانه][1] وكان حسن الطريقة، له يد في التفسير، وله تفسير على طريقة التصوف، وفيه لطافة، ومن كلامه في الوعظ: العالم كالذرة في فضاء عظمته، والذرة كالعالم في كتاب حكمته، الأصول فروع إذا تجلى جمال أوليته، والفروع أصول إذا طلعت من مغرب نفي الوسائط شمس أخريته، أستار الليل مسدولة، وشموع الكواكب مشعولة، وأعين الرقباء عن المشتاقين مشغولة وحجاب الحجب عن أبوابِ الوصل معزولة ما هذه الوقعة والحبيب قد فتح الباب؟ ما هذه الفترة والمولى قد خرق حاجب الحجاب؟

وُقُوفي بِأَكْنَافِ العَقِيقِ عُقُوقُ ... إذَا لَمْ أَرِدْ وَالدَّمْعُ فِيهِ عَقِيقُ[2]
وَإِذَا لَمْ أَمُتْ شَوْقاً إِلَى سَاكِنِ الحِمَى ... فَمَا أَنَا فِيمَا أَدَّعِيهِ صَدُوقُ
أَيَا رَبْعَ لَيْلَى مَا المُحِبُّونَ فِي الهَوَى ... سَوَاءٌ وَلا كُلُّ الشَّرَابِ رَحِيقُ[3]
وَلا كُلّ مَنْ تَلْقَاهُ يَلْقَاكَ قَلْبُهُ ... وَلا كُلُّ مَنْ يَحْنُو إِلَيْكَ مَشُوقُ
تَكَاثَرَتِ الدَّعْوَى عَلَى الحُبِّ فَاسْتَوَى ... أَسِيرُ صَبَابَاتِ الهَوَى وَطَلِيقُ

أيها الآمنون، هل فيكم من يصعد إلى السماء؟ أيها المحبوسون في مطامير مسمياتهم، هل فيكم سليم في الفهم يفهم رموز الوحوش والأطيار؟ هل فيكم موسوي الشوق يقول بلسان شوقه

---

(١) ما بين معقوفين سقط في ط.
(٢) العقيق: اسم وادٍ. والعقيق: ضرب من الأحجار الكريمة.
(٣) الرحيق: صفوة الخمر.

أرني أنظر إليك، فقد طال الانتظار؟ ولما استسقى الناس قال بعد الاستسقاء: لما صعدت إلى الله عز وجل نفس المشتاق بكت آماق الآفاق، وجادت بالدر مرضعة السحاب، وامتص لبن الرحمة رضيع التراب وخرج من أخلاف الغمام نطاف الماء النمير (١)، فاهتزت به الهامدة، وقرت عيون المدر (٢) وتزينت الرياض بالسندس (٣) الأخضر، فحبر الصبغ حبرها أحسن تحبير، وانفلق بأنملة الصبا أكمام الأنوار، وانشقت بنفحات أنفاسه جيوب الأزهار، ونطقت أجزاء الكائنات بلغات صفاتها، وعادات عبرها: أيها النائمون تيقظوا، أيها المبعدون تعرضوا ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الروم: ٥٠].

أبو الفتح نصر الله بن هبة الله

ابن عبد الباقي بن هبة الله بن الحسين بن يحيى بن براقة الغفاري الكناني المصري ثم الدمشقي كان من أخصاء الملك المعظم، وولده الناصر داود، وقد سافر معه إلى بغداد في سنة ثلاث وثلاثين وستمائة، وكان أديباً مليح المحاضرة رحمه الله تعالى. ومن شعره قوله:

وَلَمَّا أَبَيْتُمْ سَادَتِي عَنْ زِيَارَتِي ... وَعَوَّضْتُمُونِي بِالبِعَادِ عَنِ القُرْبِ
وَلَمْ تَسْمَحُوا بِالوَصْلِ فِي حَالِ يَقْظَتِي ... وَلَمْ يَصْطَبِرْ عَنْكُمْ لِرِقَّتِهِ قَلْبِي
نَصَبْتُ لِصَيْدِ الطَّيْفِ جَفْنِي حبالَةً ... فَأَدْرَكْتُ خَفْضَ العَيْشِ بِالنَّوْمِ وَالنَّصْبِ

ثم دخلت سنة إحدى وخمسين وستمائة [من الهجرة النبوية](٤)

فيها دخل الشيخ نجم الدين البادرائي رسول الخليفة بين صاحب مصر وصاحب الشام. وأصلح بين الجيشين، وكانوا قد اشتد الحرب بينهم ونشبت، وقد مالأ الجيش المصري الفرنج ووعدهم أن يسلموا إليهم بيت المقدس إن نصروهم على الشاميين، وجرت خطوب كثيرة، فأصلح بينهم وخلص جماعة من بيوت الملوك من الديار المصرية، منهم أولاد الصالح إسماعيل، وبنت الأشرف وغيرهم من أولاد صاحب حمص وغيرهم، جزاه الله خيراً. وفيها فيما ذكر ابن الساعي كان رجل ببغداد على رأسه زبادي قاشاني فزلق فتكسرت ووقف يبكي، فتألم الناس له لفقره وحاجته، وأنه لم يكن يملك غيرها، فأعطاه رجل من الحاضرين ديناراً، فلما أخذه نظر فيه طويلاً ثم قال: والله هذا الدينار أعرفه، وقد ذهب مني في جملة دنانير عام أول، فشتمه بعض الحاضرين فقال له ذلك الرجل: فما علامة ما قلت؟ قال زنة هذا كذا وكذا، وكان معه ثلاثة وعشرون ديناراً، فوزنوه فوجدوه كما ذكر، فأخرج له الرجل ثلاثة وعشرين ديناراً، وكان قد وجدها كما قال حين سقطت منه، فتعجب الناس لذلك. قال: ويقرب من هذا أن رجلاً بمكة نزع ثيابه ليغتسل من ماء زمزم وأخرج من عضده دملجاً زنته خمسون مثقالاً فوضعه مع ثيابه، فلما فرغ من اغتساله لبس ثيابه ونسي الدملج ومضى، وصار إلى بغداد وبقي

---

(١) النمير: الصافي.
(٢) المدر: القرى، الريف، الحضر.
(٣) السندس: نوع من رقيق الحرير.
(٤) سقط في ط.

مدة سنتين بعد ذلك وأيس منه، ولم يبق معه شيء إلا يسير فاشترى به زجاجاً وقوارير ليبيعها ويتكسب بها، فبينما هو يطوف بها إذ زلق فسقطت القوارير فتكسرت فوقف يبكي واجتمع الناس عليه يتألمون له، فقال في جملة كلامه والله يا جماعة لقد ذهب مني من مدة سنتين دملج من ذهب زنته خمسون ديناراً، ما باليت لفقده كما باليت لتكسير هذه القوارير، وما ذاك إلا لأن هذه كانت جميع ما أملك، فقال له رجل من الجماعة: فأنا والله لقيت ذلك الدملج، وأخرجه من عضده فتعجب الناس والحاضرون. والله أعلم بالصواب.

وممن توفي فيها من الأعيان:(١)

ثم دخلت سنة اثنتين وخمسين وستمائة [من الهجرة النبوية](٢)

قال سبط ابن الجوزي في كتابه مرآة الزمان: فيها وردت الأخبار من مكة شرفها الله تعالى بأن ناراً ظهرت في أرض عدن في بعض جبالها بحيث إنه يطير شررها إلى البحر في الليل، ويصعد منها دخان عظيم في أثناء النهار، فما شكوا أنها النار التي ذكر النبي ﷺ أنها تظهر في آخر الزمان، فتاب الناس وأقلعوا عما كانوا عليه من المظالم والفساد، وشرعوا في أفعال الخير والصدقات. وفيها قدم الفارس أقطاي من الصعيد ونهب أموال المسلمين وأسر بعضهم، ومعه جماعة من البحرية المفسدين في الأرض، وقد بغوا وطغوا وتجبروا، ولا يلتفتون إلى الملك المعز أيبك التركماني، ولا إلى زوجته شجرة الدر. فشاور المعز زوجته شجرة الدر في قتل أقطاي، فأذنت له، فعمل عليه حتى قتله في هذه السنة بالقلعة المنصورة بمصر، فاستراح المسلمون من شره. وفيها درس الشيخ عز الدين بن عبد السلام بمدرسة الصالح أيوب بين القصرين. وفيها قدمت بنت ملك الروم في تجمل عظيم وإقامات هائلة إلى دمشق زوجة لصاحبها الناصر بن العزيز بن الظاهر بن الناصر، وجرت أوقات حافلة بدمشق بسببها.

وممن توفي فيها من المشاهير:

[الخسروشاهي المتكلم](٣)عبد الحميد بن عيسى

الشيخ شمس الدين بن الخسروشاهي، أحد مشاهير المتكلمين، وممن اشتغل على الفخر الرازي في الأصول وغيرها، ثم قدم الشام فلزم الملك الناصر داود بن المعظم وحظي عنده، قال أبو شامة: وكان شيخاً مهيباً فاضلاً متواضعاً حسن الظاهر رحمه الله تعالى. قال السبط: وكان متواضعاً كيساً محضر خير، لم ينقل عنه أنه آذى أحداً فإن قدر على نفع وإلا سكت، توفي بدمشق ودفن بقاسيون على باب تربة الملك المعظم رحمه الله تعالى.

---

(١) بياض في جميع الأصول، وقال الذهبي: وفيها توفي أبو البقاء صالح بن شجاع بن محمد بن سيدهم المدلجي الخياط في المحرم، وسبط السلفي أبو القاسم عبد الرحمن بن أبي الحرم الملكي بن عبد الرحمن الطرابلسي الإسكندراني في شوال عن إحدى وثمانين سنة، وأبو محمد بن خليل البندنيجي البواب آخر من روى عن عبد الحق اليوسفي.

(٢) سقط في ط.

(٣) سقط في ط.

الشيخ مجد الدين بن تيمية

صاحب الأحكام عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم الخضر بن محمد بن علي بن تيمية الحراني الحنبلي، جد الشيخ تقي الدين بن تيمية، ولد في حدود سنة تسعين وخمسمائة وتفقه في صغره على عمه الخطيب فخر الدين، وسمع الكثير ورحل إلى البلاد وبرع في الحديث والفقه وغيره، ودرس وأفتى وانتفع به الطلبة ومات يوم الفطر بحران(١).

الشيخ كمال الدين بن طلحة

الذي ولّي الخطابة بدمشق بعد الدولعي، ثم عزل وصار إلى الجزيرة فولي قضاء نصيبين، ثم صار إلى حلب فتوفي بها في هذه السنة. قال أبو شامة: وكان فاضلاً عالماً طلب أن يلي الوزارة فامتنع من ذلك، وكان هذا من التأييد رحمه الله تعالى.

السيد بن علان

آخر من روى عن الحافظ ابن عساكر سماعاً بدمشق.

الناصح فرج بن عبد الله الحبشي

كان كثير السماع مسنداً خيراً صالحاً مواظباً على سماع الحديث وإسماعه إلى أن مات بدار الحديث النورية بدمشق رحمه الله.

النصرة ابن [الملك](٢) صلاح الدين يوسف بن أيوب: توفي بحلب في هذه السنة وآخرون رحمهم الله أجمعين.

ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين وستمائة

قال السبط فيها عاد الناصر داود من الأنبار إلى دمشق، ثم عاد وحج من العراق وأصلح بين العراقيين، وأهل مكة، ثم عاد معهم إلى الحلة. قال أبو شامة: وفيها في ليلة الاثنين ثامن عشر صفر توفي بحلب الشيخ الفقيه:

ضياء الدين صقر بن يحيى بن سالم

وكان فاضلاً ديّناً، ومن شعره قوله رحمه الله تعالى:

مَـنِ ادَّعَـى أنَّ لَـهُ حَـالَـةً ... تُـخْـرِجُـهُ عَـنْ مَـنْـهَـجِ الـشَّـرْعِ
فَـلا تَـكُـونَـنَّ لَـهُ صَـاحِـبـاً ... فَـإنَّـهُ ضُـرٌ بِـلا نَـفْـعِ

وهو واقف القوصية.

أبو العز(٣) إسماعيل بن حامد

ابن عبد الرحمن الأنصاري القوصي، واقف داره بالقرب من الرحبة على أهل الحديث

(١) بياض في الأصول التركية والمصرية وكملت الترجمة من النجوم الزاهرة.
(٢) سقط في ط. (٣) في نسخة: أبو المعز.

وبها قبره، وكان مدرساً بحلقة كمال الإسلام تجاه البدارة[١]، فعرفت به، وكان ظريفاً مطبوعاً حسن المحاضرة، وقد جمع له معجماً حكى فيه عن مشايخه أشياء كثيرة مفيدة. قال أبو شامة: وقد طالعته بخطه فرأيت فيه أغاليط وأوهاماً في أسماء الرجال وغيرها، فمن ذلك أنه انتسب إلى سعد بن عبادة بن دلم فقال سعد بن عبادة بن الصامت وهذا غلط فاحش، وقال في شدة خرقة التصوف فغلط وصحف حبياً أبا محمد حسيناً، قال أبو شامة: رأيت ذلك بخطه، توفي يوم الاثنين سابع عشر ربيع الأول من هذه السنة رحمه الله. وقد توفي الشريف المرتضى نقيب الأشراف بحلب، وكانت وفاته بها، رحمه الله تعالى.

ثم دخلت سنة أربع وخمسين وستمائة

فيها كان ظهور النار من أرض الحجاز التي أضاءت لها أعناق الإبل ببصرى، كما نطق بذلك الحديث المتفق عليه، وقد بسط القول في ذلك الشيخ الإمام العلاّمة الحافظ شهاب الدين أبو شامة المقدسي في كتابه الذيل وشرحه، واستحضره من كتب كثيرة وردت متواترة إلى دمشق من الحجاز بصفة أمر هذه النار التي شوهدت معاينة، وكيفية خروجها وأمرها، وهذا محرر في كتاب: دلائل النبوة من السيرة النبوية، في أوائل هذا الكتاب ولله الحمد والمنّة. وملخص ما أورده أبو شامة أنه قال: وجاء إلى دمشق كتب من المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، بخروج نار عندهم في خامس جمادى الآخرة من هذه السنة، وكتبت الكتب في خامس رجب، والنار بحالها، ووصلت الكتب إلينا في عاشر شعبان ثم قال:

«بسم الله الرحمن الرحيم، ورد إلى مدينة دمشق حرسها الله تعالى في أوائل شعبان من سنة أربع وخمسين وستمائة كتب من مدينة رسول الله ﷺ، فيها شرح أمر عظيم حدث بها فيه تصديق لما في الصحيحين من حديث أبي هريرة. قال قال رسول الله ﷺ: «لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَخْرُجَ نَارٌ مِنْ أَرْضِ الحِجَازِ تُضِيءُ لَهَا أَعْنَاقُ الإِبِلِ بِبُصْرَى»[٢] فأخبرني من أثق به ممن شاهدها أنه بلغه أنه كتب بتيماء على ضوئها الكتب. قال وكنا في بيوتنا تلك الليالي، وكان في دار كل واحد منا سراج، ولم يكن لها حر ولفح على عظمها، إنما كانت آية من آيات الله عز وجل». قال أبو شامة: وهذه صورة ما وقفت عليه من الكتب الواردة فيها.

«لما كانت ليلة الأربعاء ثالث جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستمائة ظهر بالمدينة النبوية دوي عظيم، ثم زلزلة عظيمة رجفت منها الأرض والحيطان والسقوف والأخشاب والأبواب، ساعة بعد ساعة إلى يوم الجمعة الخامس من الشهر المذكور، ثم ظهرت نار عظيمة في الحرة قريبة من قريظة نبصرها من دورنا من داخل المدينة كأنها عندنا، وهي نار عظيمة إشعالها أكثر من ثلاث منارات، وقد سالت أودية بالنار إلى وادي شظا مسيل الماء، وقد مدت

(١) في نسخة: البرادة.
(٢) أخرجه البخاري في الفتن باب ٢٤، ومسلم في الفتن حديث ٤٢، وأحمد في المسند ٥/ ١٤٤.

مسيل شظا وما عاد يسيل، والله لقد طلعنا جماعة نبصرها فإذا الجبال تسيل نيراناً، وقد سدت الحرة طريق الحاج العراقي، فسارت إلى أن وصلت إلى الحرة فوقفت بعد ما أشفقنا أن تجيء إلينا، ورجعت تسيل في الشرق فخرج من وسطها سهود وجبال نيران تأكل الحجارة، فيها أنموذج عما أخبر الله تعالى في كتابه: ﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [المرسلات: ٣٢ ـ ٣٣] وقد أكلت الأرض، وقد كتبت هذا الكتاب يوم خامس رجب سنة أربع وخمسين وستمائة والنار في زيادة ما تغيرت، وقد عادت إلى الحرار في قريظة طريق المعبر للحاج العراقي إلى الحرة كلها نيران تشتعل نبصرها في الليل من المدينة كأنها مشاعل الحاج. وأما أم النار الكبيرة فهي جبال نيران حمر، والأم الكبيرة التي سالت النيران منها من عند قريظة، وقد زادت وما عاد الناس يدرون أي شيء يتم بعد ذلك، والله يجعل العاقبة إلى خير، فما أقدر أصف هذه النار».

قال أبو شامة: «وفي كتاب آخر ظهر في أول جمعة من جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستمائة ووقع في شرقي المدينة المشرفة نار عظيمة بينها وبين المدينة نصف يوم: انفجرت من الأرض وسال منها واد من نار حتى حاذى جبل أحد، ثم وقفت وعادت إلى الساعة، ولا ندري ماذا نفعل، ووقت ما ظهرت دخل أهل المدينة إلى نبيهم عليه الصلاة والسلام مستغفرين تائبين إلى ربهم تعالى، وهذه دلائل القيامة».

قال «وفي كتاب آخر: لما كان يوم الاثنين مستهل جمادى الآخرة، سنة أربع وخمسين وستمائة وقع بالمدينة صوت يشبه صوت الرعد البعيد تارة وتارة، أقام على هذه الحالة يومين، فلما كانت ليلة الأربعاء ثالث الشهر المذكور تعقب الصوت الذي كنا نسمعه زلازل فلما كان يوم الجمعة خامس الشهر المذكور انبجست الحرة بنار عظيمة يكون قدرها مثل مسجد رسول الله ﷺ، وهي برأي العين من المدينة، نشاهدها وهي ترمي بشرر كالقصر، كما قال الله تعالى، وهي بموضع يقال له أجيلين[1] وقد سال من هذه النار واد يكون مقداره أربعة فراسخ، وعرضه أربعة أميال، وعمقه قامة ونصف، وهي تجري على وجه الأرض ويخرج منها أمهاد وجبال صغار، وتسير على وجه الأرض وهو صخر يذوب حتى يبقى مثل الآنك. فإذا جمد صار أسود، وقبل الجمود لونه أحمر، وقد حصل بسبب هذه النار إقلاع عن المعاصي، والتقرب إلى الله تعالى بالطاعات، وخرج أمير المدينة عن مظالم كثيرة إلى أهلها».

قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة، «ومن كتاب الشيخ شمس الدين بن سنان بن عبد الوهاب بن نميلة الحسيني قاضي المدينة إلى بعض أصحابه: لما كانت ليلة الأربعاء ثالث جمادى الآخرة حدث بالمدينة بالثلث الأخير من الليل زلزلة عظيمة أشفقنا منها، وباتت باقي تلك الليلة تزلزل كل يوم وليلة قدر عشر نوبات، والله لقد زلزلت مرة ونحن حول الحجرة النبوية اضطرب لها المنبر إلى أن أوجسنا منه إذ سمعنا صوتاً للحديد الذي فيه، واضطربت قناديل

(١) في النسخة المصرية: «الراجلين». وفي النجوم الزاهرة: «أحيلين»، وبهامشه: في تاريخ مكة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة: «أخيلين».

الحرم الشريف، وتمت الزلزلة إلى يوم الجمعة ضحى، ولها دوي مثل دوي الرعد القاصف، ثم طلع يوم الجمعة في طريق الحرة في رأس أجيلين نار عظيمة مثل المدينة العظيمة، وما بانت لنا إلا ليلة السبت وأشفقنا منها وخفنا خوفاً عظيماً، وطلعت إلى الأمير كلّمته وقلت له: قد أحاط بنا العذاب، ارجع إلى الله تعالى، فأعتق كل مماليكه ورد على جماعة أموالهم، فلما فعل ذلك قلت اهبط الساعة معنا إلى النبي ﷺ، فهبط وبتنا ليلة السبت والناس جميعهم والنساء والصبيان وأولادهم، وما بقي أحد لا في النخيل ولا في المدينة إلا عند النبي ﷺ، ثم سال منها نهر من نار، وأخذ في وادي أجيلين وسد الطريق ثم طلع إلى بحرة الحاج وهو بحر نار يجري، وفوقه جمر يسير إلى أن قطعت الوادي وادي الشظا، وما عاد يجيء في الوادي سيل قط لأنها حضرته نحو قامتين وثلث علوها، والله يا أخي إن عيشتنا اليوم مكدرة والمدينة قد تاب جميع أهلها، ولا بقي يسمع فيها رباب ولا دف ولا شرب، وتمت النار تسير إلى أن سدت بعض طريق الحاج وبعض بحرة الحاج، وجاء في الوادي إلينا منها يسير[1] وخفنا أنه يجيئنا فاجتمع الناس ودخلوا على النبي ﷺ وتابوا عنده جميعهم ليلة الجمعة، وأما قتيرها الذي مما يلينا فقد طفيء بقدرة الله وأنها إلى الساعة وما نقصت إلا ترى مثل الجمال حجارة ولها دوي ما يدعنا نرقد ولا نأكل ولا نشرب، وما أقدر أصف لك عظمها ولا ما فيها من الأهوال، وأبصرها أهل ينبع وندبوا قاضيهم ابن أسعد وجاء وعدا إليها، وما صبح يقدر يصفها من عظمها، وكتب الكتاب يوم خامس رجب، وهي على حالها، والناس منها خائفون، والشمس والقمر من يوم ما طلعت ما يطلعان إلا كاسفين، فنسأل الله العافية».

قال أبو شامة: وبان عندنا بدمشق أثر الكسوف من ضعف نورها على الحيطان، وكنا حيارى من ذلك إيش هو؟ إلى أن جاءنا هذا الخبر عن هذه النار.

قلت: وكان أبو شامة قد أرخ قبل مجيء الكتب بأمر هذه النار، فقال: وفيها في ليلة الاثنين السادس عشر من جمادى الآخرة خسف القمر أول الليل، وكان شديد الحمرة ثم انجلى، وكسفت الشمس، وفي غده احمرت وقت طلوعها وغروبها وبقيت كذلك أياماً متغيرة اللون ضعيفة النور، والله على كل شيء قدير، ثم قال: واتضح بذلك ما صوره الشافعي من اجتماع الكسوف والعيد، واستبعده أهل النجامة.

ثم قال أبو شامة: «ومن كتاب آخر من بعض بني الفاشاني بالمدينة يقول فيه: وصل إلينا في جمادى الآخرة نجابة من العراق وأخبروا عن بغداد أنه أصابها غرق عظيم حتى طفح الماء من أعلى أسوار بغداد إليها، وغرق كثير منها، ودخل الماء دار الخلافة وسط البلد، وانهدمت دار الوزير وثلاثمائة وثمانون داراً، وانهدم مخزن الخليفة، وهلك من خزانة السلاح شيء كثير، وأشرف الناس على الهلاك وعادت السفن تدخل إلى وسط البلدة، وتخترق أزقة بغداد. قال وأما نحن فإنه جرى عندنا أمر عظيم: لما كان بتاريخ ليلة الأربعاء الثالث من جمادى الآخرة

(١) في النسخة المصرية: قتير.

ومن قبلها بيومين، عاد الناس يسمعون صوتاً مثل صوت الرعد. [ساعة بعد ساعة وباقي السماء عتم أنه منه يومين إلى ليلة الأربعاء، ثم ظهر صوت سمعته الناس وزلزلت ورجفت رجفة لها صوت كدوي الرعد][1] فانزعج لها الناس كلهم، وانتبهوا من مراقدهم وضج الناس بالاستغفار إلى الله تعالى، وفزعوا إلى المسجد وصلوا فيه، وتمت ترجف بالناس ساعة بعد ساعة إلى الصبح، وذلك اليوم كله يوم الأربعاء وليلة الخميس كلها وليلة الجمعة، وصبح يوم الجمعة ارتجت الأرض رجة قوية إلى أن اضطرب منار المسجد بعضه ببعض، وسمع لسقف المسجد صرير عظيم، وأشفق الناس من ذنوبهم، وسكنت الزلزلة بعد صبح يوم الجمعة إلى قبل الظهر، ثم ظهرت عندنا بالحرة وراء قريظة على طريق السوارقية بالمقاعد مسيرة من الصبح إلى الظهر نار عظيمة تنفجر من الأرض، فارتاع لها الناس روعة عظيمة، ثم ظهر لها دخان عظيم في السماء ينعقد حتى يبقى كالسحاب الأبيض، فيصل إلى قبل غروب الشمس من يوم الجمعة، ثم ظهرت النار لها ألسن تصعد في الهواء إلى السماء حمراء كأنها القلعة، وعظمت وفزع الناس إلى المسجد النبوي وإلى الحجرة الشريفة، واستجار الناس بها وأحاطوا بالحجرة وكشفوا رؤوسهم وأقروا بذنوبهم وابتهلوا إلى الله تعالى واستجاروا بنبيه عليه الصلاة والسلام، وأتى الناس إلى المسجد من كل فج ومن النخل، وخرج النساء من البيوت والصبيان، واجتمعوا كلهم وأخلصوا إلى الله، وغطت حمرة النار السماء كلها حتى بقي الناس في مثل ضوء القمر، وبقيت السماء كالعلقة، وأيقن الناس بالهلاك أو العذاب، وبات الناس تلك الليلة بين مصلٍّ وتالٍ للقرآن وراكع وساجد، وداعٍ إلى الله عز وجل، ومنتصلٍ من ذنوبه ومستغفر وتائب، ولزمت النار مكانها وتناقص تضاعفُها ذلك ولهيبها، وصعد الفقيه والقاضي إلى الأمير يعظونه، فطرح المكس وأعتق مماليكه كلهم وعبيده، ورد علينا كل ما لنا تحت يده، وعلى غيرنا، وبقيت تلك النار على حالها تلتهب التهاباً، وهي كالجبل العظيم ارتفاعاً وكالمدينة عرضاً، يخرج منها حصى يصعد في السماء ويهوي فيها ويخرج منها كالجبل العظيم نار ترمي كالرعد. وبقيت كذلك أياماً ثم سالت سيلاناً إلى وادي أجيلين تنحدر مع الوادي إلى الشظا، حتى لحق سيلانها بالبحرة بحرة الحاج، والحجارة معها تتحرك وتسير حتى كادت تقارب حرة العريض، ثم سكنت ووقفت أياماً، ثم عادت ترمي بحجارة خلفها وأمامها، حتى بنت لها جبلين وما بقي يخرج منها من بين الجبلين لسان لها أياماً، ثم إنها عظمت وسناءها إلى الآن، وهي تتقد كأعظم ما يكون، ولها كل يوم صوت عظيم في آخر الليل إلى ضحوة، ولها عجائب ما أقدر أن أشرحها لك على الكمال، وإنما هذا طرف [كثير][2] يكفي. والشمس والقمر كأنهما منكسفان إلى الآن. وكتب هذا الكتاب ولها شهر وهي في مكانه ما تتقدم ولا تتأخر». وقد قال فيها بعضهم أبياتاً:

يا كَاشِفَ الضُرِّ[3] صَفْحاً عَنْ جَرَائِمِنَا لَـقَـدْ أَحَـاطَـتْ بِـنَـا يـا رَبُّ بَـأْسَـاءُ[4]

(١) ما بين معقوفين سقط في ط.
(٢) سقط في ط.
(٣) الضرّ: الضرر.
(٤) البأساء: الشدة.

نَشْكُو إلَيْكَ خُطُوباً لا نُطِيقُ لَهَا حَمْلاً وَنَحْنُ بِهَا حَقّاً أحِقَّاءُ
زَلازِلٌ تَخْشَعُ الصُّمُّ الصِّلابُ لَهَا وَكَيْفَ يَقْوَى عَلَى الزِّلْزَالِ صمّاءُ[1]
أقَامَ سَبْعاً يَرُجُّ الأرْضَ فَانْصَدَعَتْ عَنْ مَنْظَرٍ مِنْهُ عَيْنُ الشَّمْسِ عَشْوَاءُ
بَحْرٌ مِنَ النَّارِ تَجْرِي فَوْقَهُ سُفُنٌ مِنَ الهِضَابِ لَهَا فِي الأرْضِ إرْسَاءُ
كَأنَّمَا فَوْقَهُ الأجْبَالُ طَافِيَةٌ مَوْجٌ عَلَيْهِ لِفَرْطِ البَهْجِ وَغْثَاءُ
تَرْمِي لَهَا شَرَراً كَالقَصْرِ طَائِشَةً كَأنَّهَا دِيمَةٌ[2] تَنْصَبُّ هَطْلاءُ
تَنْشَقُّ مِنْهَا قُلُوبُ الصَّخْرِ إنْ زَفَرَتْ رُعْباً وَتُرْعِدُ مِثْلَ السُّعْفِ أضْوَاءُ
مِنْهَا تَكَاثَفَ فِي الجَوِّ الدُّخَانُ إلى أنْ عَادَتِ الشَّمْسُ مِنْهُ وَهْيَ دَهْمَاءُ[3]
قَدْ أثَّرَتْ سُفْعَةً فِي البَدْرِ لَفْحَتُهَا فَلَيْلَةُ التِّمِّ بَعْدَ النُّورِ لَيْلاءُ
تُحَدِّثُ النَّيِّرَاتِ السَّبْعَ ألْسُنُهَا بِمَا يُلاقِي بِهَا تَحْتَ الثَّرَى المَاءُ
وَقَدْ أحَاطَ لَظَاهَا بِالبُرُوجِ إلَى أنْ كَادَ يَلْحَقُهَا بِالأرْضِ أهْوَاءُ
فَيَا لَهَا آيَةً مِنْ مُعْجِزَاتِ رَسُو لِ الله يَعْقِلُهَا القَوْمُ الألِبَّاءُ
فَبِاسْمِكَ الأعْظَمِ المَكْنُونِ إنْ عَظُمَتْ مِنَّا الذُّنُوبُ وَسَاءَ القَلْبُ أسْوَاءُ
فَاسْمَحْ وَهَبْ وَتَفَضَّلْ وَامْحُ وَاعْفُ وَجُدْ وَاصْفَحْ فَكُلٌّ لِفَرْطِ الجَهْلِ خَطَّاءُ
فَقَوْمُ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كُشِفَ الـ ـعَذَابُ عَنْهُمْ وَعَمَّ القَوْمَ نَعْمَاءُ
وَنَحْنُ أُمَّةُ هٰذا المُصْطَفَى وَلَنَا مِنْهُ إلَى عَفْوِكَ المَرْجُوِّ دَعَّاءُ
هٰذا الرَّسُولُ الَّذِي لَوْلاهُ ما سُلِكَتْ مَحَجَّةٌ فِي سَبِيلِ الله بَيْضَاءُ
فَارْحَمْ وَصَلِّ عَلَى المُخْتَارِ ما خَطَبَتْ عَلَى عُلا مِنْبَرِ الأوْرَاقِ وَرْقَاءُ[4]

قلت: والحديث الوارد في أمر هذه النار مخرج في الصحيحين من طريق الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تَقُومُ السَّاعةُ حَتَّى تَخْرُجَ نَارٌ مِنْ أَرْضِ الحِجَازِ تُضِيءُ أَعْنَاقَ الإِبِلِ بِبُصْرَى»[5] وهذا لفظ البخاري.

وقد وقع هذا في هذه السنة ـ أعني سنة أربع وخمسين وستمائة ـ كما ذكرنا، وقد أخبرني قاضي القضاة صدر الدين علي بن أبي القاسم التميمي الحنفي الحاكم بدمشق في بعض الأيام في المذاكرة، وجرى ذكر هذا الحديث وما كان من أمر هذه النار في هذه السنة فقال: سمعت رجلاً من الأعراب يخبر والدي ببصرى في تلك الليالي أنهم رأوا أعناق الإبل في ضوء هذه النار التي ظهرت في أرض الحجاز.

(١) في ط: شماء.
(٢) ديمة: غيمة معطاء.
(٣) الدهماء: المظلمة.
(٤) ورقاء: حمامة.
(٥) أخرجه البخاري في الفتن باب ٢٤، ومسلم في الفتن حديث ٤٢، وأحمد في المسند ٥/ ١٤٤.

قلت: وكان مولده في سنة ثنتين وأربعين وستمائة، وكان والده مدرساً للحنفية ببصرى وكذلك كان جده، وهو قد درس بها أيضاً ثم انتقل إلى دمشق فدرس بالصادرية وبالمعدمية، ثم ولي قضاء القضاة الحنفية، وكان مشكور السيرة في الأحكام، وقد كان عمره حين وقعت هذه النار بالحجاز ثنتا عشرة سنة، ومثله ممن يضبط ما يسمع من الخبر أن الأعرابي أخبر والده في تلك الليالي، وصلوات الله وسلامه على نبيه سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

ومما نظمه بعض الشعراء في هذه النار الحجازية وغرق بغداد قوله:

سُبْحَان مَنْ أَصْبَحَتْ مَشِيئَتُهُ ... جَارِيَةً فِي الوَرَى بِمِقْدَارِ
أَغْرَقَ بَغْدَادَ بِالمِيَاهِ كَمَا ... أَحْرَقَ أَرْضَ الحِجَازِ بِالنَّارِ

قال أبو شامة: والصواب أن يقال:

فِي سَنَةٍ أَغْرَقَ العِرَاقَ وَقَدْ ... أَحْرَقَ أَرْضَ الحِجَازِ بِالنَّارِ

وقال ابن الساعي في تاريخ سنة أربع وخمسين وستمائة: في يوم الجمعة ثامن عشر رجب - يعني من هذه السنة - كنت جالساً بين يدي الوزير فورد عليه كتاب من مدينة الرسول ﷺ صحبة قاصد يعرف بقيماز العلوي الحسني المدني، فناوله الكتاب فقرأه وهو يتضمن أن مدينة الرسول ﷺ زلزلت يوم الثلاثاء ثاني جمادى الآخرة حتى ارتج القبر الشريف النبوي، وسمع صرير الحديد، وتحركت السلاسل، وظهرت نار على مسيرة أربعة فراسخ من المدينة، وكانت ترمي بزبد كأنه رؤوس الجبال، ودامت خمسة عشر يوماً. قال القاصد: وجئت ولم تنقطع بعد، بل كانت على حالها، وسأله إلى أي الجهات ترمي؟ فقال: إلى جهة الشرق، واجتزت عليها أنا ونجابة اليمن ورمينا فيها سعفة فلم تحرقها، بل كانت تحرق الحجارة وتذيبها. وأخرج قيماز المذكور شيئاً من الصخر المحترق وهو كالفحم لوناً وخفة. قال وذكر في الكتاب وكان بخط قاضي المدينة أنهم لما زلزلوا دخلوا الحرم وكشفوا رؤوسهم واستغفروا وأن نائب المدينة أعتق جميع مماليكه، وخرج من جميع المظالم، ولم يزالوا مستغفرين متضرعين حتى سكنت الزلزلة، إلا أن النار التي ظهرت لم تنقطع. وجاء القاصد المذكور ولها خمسة عشر يوماً وإلى الآن. قال ابن الساعي: وقرأت بخط العدل محمود بن يوسف بن الامعاني شيخ حرم المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، يقول: إن هذه النار التي ظهرت بالحجاز آية عظيمة، وإشارة صحيحة دالة على اقتراب الساعة، فالسعيد من انتهز الفرصة قبل الفوت، وتدارك أمره بإصلاح حاله مع الله عز وجل قبل الموت. وهذه النار في أرض ذات حجر لا شجر فيها ولا نبت، وهي تأكل بعضها بعضاً إن لم تجد ما تأكله، وهي تحرق الحجارة وتذيبها، حتى تعود كالطين المبلول، ثم يضربه الهواء حتى يعود كخبث الحديد الذي يخرج من الكير، فالله يجعلها عبرة للمسلمين ورحمة للعالمين، بمحمد وآله الطاهرين.

قال أبو شامة: وفي ليلة الجمعة مستهل رمضان من هذه السنة احترق مسجد المدينة على ساكنه أفضل الصلاة والسلام، ابتدأ حريقه من زاويته الغربية من الشمال، وكان دخل أحد القومة إلى خزانة ثم ومعه نار فعلقت في الأبواب ثم، واتصلت بالسقف بسرعة، ثم دبت في

السقوف، وأخذت قبلة فأعجلت الناس عن قطعها، فما كان إلا ساعة حتى احترقت سقوف المسجد أجمع، ووقعت بعض أساطينه وذاب رصاصها، وكل ذلك قبل أن ينام الناس، واحترق سقف الحجرة النبوية ووقع ما وقع منه في الحجرة، وبقي على حاله حتى شرع في عمارة سقفه وسقف المسجد النبوي على صاحبه أفضل الصلاة والسلام، وأصبح الناس فعزلوا موضعاً للصلاة، وعد ما وقع من تلك النار الخارجة وحريق المسجد من جملة الآيات، وكأنها كانت منذرة بما يعقبها في السنة الآتية من الكائنات على ما سنذكره. هذا كلام الشيخ شهاب الدين أبي شامة وقد قال أبو شامة: في الذي وقع في هذه السنة وما بعدها شعراً وهو قوله:

بَعْدَ سِتٍّ مِنَ المِئِينَ وَالخَمْسِـ ـينَ لَدَى أَرْبَعٍ جَرَى فِي العَامِ
نَارُ أَرْضِ الحِجَازِ مَعَ حَرْقِ المَسْـ ـجِدِ مَعَهُ تَغْرِيقُ دَارِ السَّلامِ
ثُمَّ أَخْذُ التَّتَارِ بَغْدَادَ فِي أَوَّ لِ عَامٍ، مِنْ بَعْدِ ذَاكَ وَعَامِ
لَمْ يُعَنْ أَهْلُهَا وَلِلْكُفْرِ أَعْوَا نٌ عَلَيْهِمْ، يَا ضَيْعَةَ الإِسْلامِ
وَانْقَضَتْ دَوْلَةُ الخِلافَةِ مِنْهَا صَارَ مُسْتَعْصِمٌ بِغَيْرِ اعْتِصَامِ
فَحَنَاناً عَلَى الحِجَازِ وَمِصْرِ وَسَلاماً عَلَى بِلادِ الشَّامِ
رَبِّ سَلِّمْ وَصُنْ وَعَافِ بَقَايَا المُدْنِ، يَا ذَا الجَلالِ وَالإِكْرَامِ

وفي هذه السنة كملت المدرسة الناصرية الجوانية داخل باب الفراديس، وحضر فيها الدرس واقفها الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن الملك العزيز محمد ابن الملك الظاهر غياث الدين غازي بن الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادي فاتح بيت المقدس، ودرس فيها قاضي البلد صدر الدين ابن سناء الدولة، وحضر عنده الأمراء والدولة والعلماء وجمهور أهل الحل والعقد بدمشق. وفيها أمر بعمارة الرباط الناصري بسفح قاسيون.

وممن توفي في هذه السنة من الأعيان:

الشيخ عماد الدين عبد الله بن الحسن بن النحاس

ترك الخلائق وأقبل على الزهادة والتلاوة والعبادة والصيام المتتابع والانقطاع بمسجده بسفح قاسيون نحواً من ثلاثين سنة، وكان من خيار الناس. ولما توفي دفن عند مسجده بتربة مشهورة به، وحمام ينسب إليه في مشاريق الصالحية، وقد أثنى عليه السبط، وأرخوا وفاته كما ذكرت.

يوسف ابن الأمير حسام الدين

قزأوغلي بن عبد الله عتيق الوزير عون الدين يحيى بن هبيرة الحنبلي رحمه الله تعالى. الشيخ شمس الدين.

أبو المظفر الحنفي البغدادي ثم الدمشقي، سبط ابن الجوزي، أمه رابعة بنت الشيخ جمال الدين أبي الفرج بن الجوزي الواعظ، وقد كان حسن الصورة طيب الصوت حسن الوعظ كثير الفضائل والمصنفات، وله مرآة الزمان في عشرين مجلداً من أحسن التواريخ، نظم فيه المنتظم

لجده وزاد عليه وذيل إلى زمانه، وهو من أبهج التواريخ وأبهاها، قدم دمشق في حدود الستمائة وحظي عند ملوك بني أيوب، وقدموه وأحسنوا إليه. وكان له مجلس وعظ كل يوم سبت بكرة النهار عند السارية التي تقوم عند الوعاظ اليوم عند باب مشهد علي بن الحسين زين العابدين، وقد كان الناس يبيتون ليلة السبت بالجامع ويتركوْن البساتين في الصيف حتى يسمعوا ميعاده، ثم يسرعون إلى بساتينهم فيتذاكرون ما قاله من الفوائد والكلام الحسن، على طريقة جده. وقد كان الشيخ تاج الدين الكندي، وغيره من المشايخ، يحضرون عنده تحت قبة يزيد، التي عند باب البريد ويستحسنون ما يقول. ودرس بالعزية البرانية التي بناها الأمير عز الدين أيبك المعظمي، أستاذ دار المعظم، وهو واقف العزية الجوانية التي بالكشك أيضاً، وكانت قديماً تعرف بدور ابن منقذ. ودرس السبط أيضاً بالشبلية التي بالجبل عند جسر كحيل، وفوض إليه البدرية التي قبالتها، فكانت سكنه، وبها توفي ليلة الثلاثاء الحادي والعشرين من ذي الحجة من هذه السنة، وحضر جنازته سلطان البلد الملك الناصر بن العزيز فمن دونه. وقد أثنى عليه الشيخ شهاب الدين أبو شامة في علومه وفضائله ورياسته وحسن وعظه وطيب صوته ونضارة وجهه، وتواضعه وزهده وتودده، لكنه قال: وقد كنت مريضاً ليلة وفاته فرأيت وفاته في المنام قبل اليقظة، ورأيته في حالة منكرة، ورآه غيري أيضاً، فنسأل الله العافية. ولم أقدر على حضور جنازته، وكانت جنازته حافلة حضره السلطان والناس، ودفن هناك. وقد كان فاضلاً عالماً ظريفاً منقطعاً منكراً على أرباب الدول ما هم عليه من المنكرات، وقد كان مقتصداً في لباسه مواظباً على المطالعة والاشتغال والجمع والتصنيف، منصفاً لأهل العلم والفضل، مبايناً لأولي الجهل، وتأتي الملوك وأرباب المناصب إليه زائرين وقاصدين، وربي في طول زمانه في حياة طيبة وجاه عريض عند الملوك والعوام نحو خمسين سنة، وكان مجلس وعظه مطرباً، وصوته فيما يورده حسناً طيباً، رحمه الله تعالى ورضي عنه، وقد سئل في يوم عاشوراء زمن الملك الناصر صاحب حلب أن يذكر للناس شيئاً من مقتل الحسين فصعد المنبر وجلس طويلاً لا يتكلم، ثم وضع المنديل على وجهه وبكى شديداً ثم أنشأ يقول وهو يبكي:

وَيلٌ لِمَنْ شُفَعَاؤهُ خُصَمَاؤهُ ... وَالصُّورُ فِي نَشْرِ الخَلائِقِ يُنْفَخُ
لا بُدَّ أَنْ تَرِدَ القِيَامَةَ فَاطِمٌ ... وَقَمِيصُهَا بِدَمِ الحُسَيْنِ مُلَطَّخُ

ثم نزل على المنبر وهو يبكي وصعد إلى الصالحية وهو كذلك رحمه الله.

واقف مرستان الصالحية

الأمير الكبير سيف الدين أبو الحسن يوسف بن أبي الفوارس بن موسك القيمري الكردي أكبر أمراء القيمرية، كانوا يقفون بين يديه كما تعامل الملوك، ومن أكبر حسناته وقفه المارستان الذي بسفح قاسيون، وكانت وفاته ودفنه بالسفح في القبة التي تجاه المارستان المذكور، وكان ذا مال كثير وثروة رحمه الله تعالى.

مجير الدين يعقوب ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب

دفن عند والده بتربة العادلية.

الأمير مظفر الدين إبراهيم

ابن صاحب صرخد عز الدين أيبك أستاذ دار المعظم واقف المعزيتين [البرانية والجوانية] على الحنفية، ودفن عند والده بالتربة تحت القبة عند الوراقة رحمهما الله تعالى.

الشيخ شمس الدين عبد الرحمن بن نوح

المقدسي الفقيه الشافعي مدرس الرواحية بعد شيخه تقي الدين ابن الصلاح، ودفن بالصوفية أيضاً، وكانت له جنازة حافلة رحمه الله.

قال أبو شامة: وكثر في هذه السنة موت الفجأة: فمات خلق كثير بسبب ذلك، وممن توفي فيها زكي الدين أبو الغورية[1] أحد المعدلين بدمشق. وبدر الدين بن السني أحد رؤسائها. وعز الدين عبد العزيز بن أبي طالب بن عبد الغفار الثعلبي أبي الحسين، وهو سبط القاضي جمال الدين بن الحرستاني، رحمهم الله تعالى وعفا عنهم أجمعين.

ثم دخلت سنة خمس وخمسين وستمائة

فيها أصبح الملك المعظم صاحب مصر عز الدين أيبك بداره ميتاً وقد ولّي الملك بعد أستاذه الصالح نجم الدين أيوب بشهور. كان فيها ملك توران شاه المعظم بن الصالح، ثم خلفته شجرة الدرّ أم خليل مدة ثلاثة أشهر ثم أقيم هو في الملك، ومعه الملك الأشرف موسى بن الناصر يوسف بن أقسيس بن الكامل مدة، ثم استقل بالملك بلا منازعة، وكسر الناصر لما أراد أخذ الديار المصرية وقتل الفارس أقطاي في سنة اثنتين وخمسين، وخلع بعده الأشرف واستقل بالملك وحده، ثم تزوج بشجرة الدر أم خليل. وكان كريماً شجاعاً حيياً ديناً، ثم كان موته في يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من ربيع الأول، وهو واقف المدرسة المعزية بمصر ومجازها من أحسن الأشياء، وهي من داخل ليست بتلك الفائقة. وقد قال بعضهم: هذه مجاز لا حقيقة له. ولما قتل رحمه الله فاتهم مماليكه زوجته أم خليل شجرة الدر به، وقد كان عزم على تزوج ابنة صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ، فأمرت جواريها أن يمسكنه لها فما زالت تضربه بقباقيبها والجواري يعركن في معاربه حتى مات وهو كذلك، ولما سمعوا مماليكه أقبلوا بصحبة مملوكه الأكبر سيف الدين قطز، فقتلوها وألقوها على مزبلة غير مستورة العورة، بعد الحجاب المنيع والمقام الرفيع، وقد علمت على المناشير والتواقيع، وخطب الخطباء باسمها، وضربت السكة برسمها، فذهبت فلا تعرف بعد ذلك بعينها ولا رسمها ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ

(١) في بعض النسخ: ابن القويرة.

قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ [آل عمران: ٢٦] وأقامت الأتراك بعد أستاذهم عز الدين أيبك التركماني، بإشارة أكبر مماليكه الأمير سيف الدين قطز، ولده نور الدين علياً ولقبوه الملك المنصور، وخطب له على المنابر وضربت السكة باسمه وجرت الأمور على ما يختاره برأيه ورسمه.

وفيها كانت فتنة عظيمة ببغداد بين الرافضة وأهل السنة، فنهب الكرخ ودور الرافضة حتى دور قرابات الوزير ابن العلقمي، وكان ذلك من أقوى الأسباب في ممالأته للتتار. وفيها دخلت الفقراء الحيدرية الشام، ومن شعارهم لبس الراحي والطراطير ويقصون لحاهم ويتركون شواربهم، وهو خلاف السنة، تركوها لمتابعة شيخهم حيدر حين أسره الملاحدة فقصوا لحيته وتركوا شواربه فاقتدوا به في ذلك، وهو معذور مأجور. وقد نهى رسول الله ﷺ عن ذلك، وليس لهم في شيخهم قدوة. وقد بنيت لهم زاوية بظاهر دمشق قريباً من العونية. وفي يوم الأربعاء ثامن عشر ذي الحجة من هذه السنة المباركة عمل عزاء واقف البادرائية بها الشيخ نجم الدين عبد الله بن محمد البادرائي البغدادي مدرس النظامية، ورسول الخلافة إلى ملوك الآفاق في الأمور المهمة، وإصلاح الأحوال المدلهمة، وقد كان فاضلاً بارعاً رئيساً وقوراً متواضعاً، وقد ابتنى بدمشق مدرسة حسنة مكان دار الأمير أسامة، وشرط على المقيم بها العزوبة وأن لا يكون الفقيه في غيرها من المدارس، وإنما أراد بذلك توفر خاطر الفقيه وجمعه على طلب العلم، ولكن حصل بذلك خلل كثير وشر لبعضهم كبير وقد كان شيخنا الإمام العلاّمة شيخ الشافعية بالشام وغيرها برهان الدين أبو إسحاق إبراهيم ابن الشيخ تاج الدين الفزاري مدرس هذه المدرسة وابن مدرسها، يذكر أنه لما حضر الواقف في أول يوم درس بها وحضر عنده السلطان الناصري، قرأ كتاب الوقف وفيه ولا تدخلها امرأة. فقال السلطان ولا صبي؟ فقال الواقف: يا مولانا السلطان ربنا ما يضرب بعصاتين. فإذا ذكر هذه الحكاية تبسم عندها رحمه الله تعالى. وكان هو أول من درس بها ثم ولده كمال الدين من بعده، وجعل نظرها إلى وجيه الدين بن سويد، ثم صار في ذريته إلى الآن. وقد نظر فيه بعض الأوقات القاضي شمس الدين بن الصائغ ثم انتزع منه حيث أثبت لهم النظر، وقد أوقف البادرائي على هذه المدرسة أوقافاً حسنة دارة، وجعل فيها خزانة كتب حسنة نافعة، وقد عاد إلى بغداد في هذه السنة فولي بها قضاء القضاة كرهاً منه، فأقام فيه سبعة عشر يوماً ثم توفي إلى رحمة الله تعالى في مستهل ذي الحجة من هذه السنة. ودفن بالشونيزية رحمه الله تعالى.

وفي ذي الحجة من هذه السنة بعد موت البادرائي بأيام قلائل نزلت التتار على بغداد مقدمة لملكهم هولاكو بن تولي بن جنكيز خان عليهم لعائن الرحمن، وكان افتتاحهم لها وجنايتهم عليها في أول السنة الآتية على ما سيأتي بيانه وتفصيله ـ وبالله المستعان.

وممن توفي في هذه السنة من الأعيان البادرائي واقف البادرائية التي بدمشق كما تقدم بيانه رحمه الله تعالى.

والشيخ تقي الدين عبد الرحمن بن أبي الفهم

اليلداني بها في ثامن ربيع الأول ودفن فيها، وكان شيخاً صالحاً مشتغلاً بالحديث سماعاً

وكتابة وإسماعاً، إلى أن توفي وله نحو مائة سنة. قلت: وأكثر كتبه ومجاميعه التي بخطه موقوفة بخزانة الفاضلية من الكلاسة، وقد رأى في المنام رسول الله ﷺ فقال له: يا رسول الله ما أنا رجل جيد؟ قال: بلى أنت رجل جيد، رحمه الله وأكرم مثواه.

الشيخ شرف الدين

محمد بن أبي الفضل المرسي، وكان شيخاً فاضلاً متقناً محققاً للبحث كثير الحج، له مكانة عند الأكابر، وقد اقتنى كتباً كثيرة، وكان أكثر مقامه بالحجاز، وحيث حل عظمه رؤساء تلك البلدة وكان مقتصداً في أموره، وكانت وفاته رحمه الله بالذعقة بين العريش والداروم في منتصف ربيع الأول من هذه السنة رحمه الله تعالى.

المنشد[1] الشاعر الأمير سيف الدين

علي بن عمر بن قزل منشد[2] الديوان بدمشق، وكان شاعراً مطبقاً له ديوان مشهور، وقد رآه بعضهم بعد موته فسأله عن حاله فأنشده:

نُقِلْتُ إِلَى رَمْسِ القُبُورِ وَضِيقِهَا ... وَخَوْفِي ذُنُوبِي أَنَّهَا بِيَ تَعْثُرُ
فَصَادَفْتُ رَحْمَاناً رَؤُوفاً وَأَنْعُماً ... حَبَانِي بِهَا سَقْياً لِمَا كُنْتُ أَحْذَرُ
وَمَنْ كَانَ حُسْنُ الظَّنِّ فِي حَالِ مَوْتِهِ ... جَمِيلاً بِعَفْوِ الله فَالعَفْوُ أَجْدَرُ

بشارة بن عبد الله

الأرمني الأصل بدر الدين الكاتب مولى شبل الدولة المعظمي، سمع الكندي وغيره، وكان يكتب خطاً جيداً، وأسند إليه مولاه النظر في أوقافه وجعله في ذريته، فهم إلى الآن ينظرون في الشبليتين، وكانت وفاته في النصف من رمضان من هذه السنة.

القاضي تاج الدين

أبو عبد الله محمد ابن قاضي القضاة جمال الدين المصري ناب عن أبيه ودرس بالشامية، وله شعر فمنه قوله:

صَيَّرْتُ فَمِي لِفِيهِ بِاللَّثْمِ لِثَامْ ... عَمْداً وَرَشَفْتُ مِنْ ثَنَايَاهُ مُدَامْ
فَازْوَرَّ وَقَال أَنْتَ فِي الفِقْهِ إِمَامْ ... رِيقِي خَمْرٌ وَعِنْدَكَ الخَمْرُ حَرَامْ

الملك الناصر

داود بن المعظم عيسى بن العادل، ملك دمشق بعد أبيه، ثم انتزعت من يده وأخذها عمه الأشرف واقتصر على الكرك ونابلس، ثم تنقلت به الأحوال وجرت له خطوب طوال حتى لم يبق معه شيء من المحال، وأودع وديعة تقارب مائة ألف دينار عند الخليفة المستنصر فأنكره

(١) في ط: المشد. (٢) في ط: مشد.

إياها ولم يردها عليه، وقد كان له فصاحة وشعر جيد، ولديه فضائل جمة، واشتغل في علم الكلام على الشمس الخسروشاهي تلميذ الفخر الرازي، وكان يعرف علوم الأوائل جداً، وحكوا عنه أشياء تدل إن صحت على سوء عقيدته فالله أعلم. وذكر أنه حضر أول درس ذكر بالمستنصرية في سنة اثنتين وثلاثين وستمائة، وأن الشعراء أنشدوا المستنصر مدائح كثيرة، فقال بعضهم في جملة قصيدة له:

لَوْ كُنْتَ فِي يَوْمِ السَّقِيفَةِ شَاهِداً كُنْتَ المُقَدَّمَ وَالإِمَامَ الأَعْظَمَا

فقال الناصر داود للشاعر: اسكت فقد أخطأت، قد كان جد أمير المؤمنين العباس شاهداً يومئذٍ، ولم يكن المقدم، وما الإمام الأعظم إلا أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فقال الخليفة: صدقت فكان هذا من أحسن ما نقل عنه رحمه الله تعالى، وقد تقاصر أمره إلى أن رسم عليه الناصر بن العزيز بقرية البويضا التي لعمه مجير الدين يعقوب حتى توفي بها في هذه السنة، فاجتمع الناس بجنازته، وحمل منها فصلّي عليه ودفن عند والده بسفح قاسيون.

الملك المعز

عز الدين أيبك التركماني، أول ملوك الأتراك، كان من أكبر مماليك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل، وكان ديناً صيناً عفيفاً كريماً، مكث في الملك نحواً من سبع سنين ثم قتلته زوجته شجرة الدر أم خليل، وقام في الملك من بعده ولده نور الدين علي، ولقب بالملك المنصور، وكان مدبر مملكته مملوك أبيه سيف الدين قطز، ثم عزله واستقل بالملك بعده نحواً من سنة وتلقب بالمظفر، فقدّر الله كسرة التتار على يديه بعين جالوت. وقد بسطنا هذا كله في الحوادث فيما تقدم وما سيأتي ولله الحمد.

شجرة الدّرّ بنت عبد الله

أم خليل التركية، كانت من حظايا الملك الصالح نجم الدين أيوب، وكان ولدها منه خليل من أحسن الصور، فمات صغيراً، وكانت تكون في خدمته لا تفارقه حضراً ولا سفراً من شدة محبته لها وقد ملكت الديار المصرية بعد مقتل ابن زوجها المعظم توران شاه، فكان يخطب لها وتضرب السكة باسمها وعلمت على المناشير مدة ثلاثة أشهر، ثم تملك المعز كما ذكرنا، ثم تزوجها بعد تملكه الديار المصرية بسنوات، ثم غارت عليه لما بلغها أنه يريد أن يتزوج بنت صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ فعملت عليه حتى قتلته كما تقدم ذكره، فتمالأ عليها مماليكه المعزية فقتلوها وألقوها على مزبلة ثلاثة أيام، ثم نقلت إلى تربة لها بالقرب من قبر السيدة نفيسة رحمها الله تعالى، وكانت قوية النفس، لما علمت أنه قد أحيط بها أتلفت شيئاً كثيراً من الجواهر النفيسة واللآلىء المثمنة، كسرته في الهاون لا لها ولا لغيرها، وكان وزيرها في دولتها الصاحب بهاء الدين علي بن محمد بن سليمان المعروف بابن حنا وهو أول مناصبه.

الشيخ الأسعد هبة الله بن صاعد

ابن شرف الدين الفائزي لخدمته قديماً الملك الفائز سابق الدين إبراهيم ابن الملك

العادل، وكان نصرانياً فأسلم، وكان كثير الصدقات والبر والصلات، استوزره المعز وكان حظياً عنده جداً، لا يفعل شيئاً إلا بعد مراجعته ومشاورته، وكان قبله في الوزارة القاضي تاج الدين ابن بنت الأعز، وقبله القاضي بدر الدين السنجاري، ثم صارت بعد ذلك كله إلى هذا الشيخ الأسعد المسلماني، وقد كان الفائزي يكاتبه المعز بالمملوك، ثم لما قتل المعز أهين الأسعد حتى صار شقياً، وأخذ الأمير سيف الدين قطز خطه بمائة ألف دينار، وقد هجاه بهاء الدين زهير بن علي، فقال:

لَعَنَ اللهُ صَاعِدا وَأَبَاهُ فَصَاعِدا
وَبَنِيهِ فَنَازلاً وَاحِداً ثُمَّ وَاحِدَا

ثم قتل بعد ذلك كله ودفن بالقرافة، وقد رثاه القاضي ناصر الدين ابن المنير، وله فيه مدائح وأشعار حسنة فصيحة رائقة.

ابن أبي الحديد الشاعر العراقي

عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن محمد بن الحسين أبو حامد بن أبي الحديد عز الدين المدائني، الكاتب الشاعر المطبق الشيعي الغالي، له شرح نهج البلاغة في عشرين مجلداً، ولد بالمدائن سنة ست وثمانين وخمسمائة، ثم صار إلى بغداد فكان أحد الكتاب والشعراء بالديوان الخليفتي، وكان حظياً عند الوزير ابن العلقمي، لما بينهما من المناسبة والمقاربة والمشابهة في التشيع والأدب والفضيلة، وقد أورد له ابن الساعي أشياء كثيرة من مدائحه وأشعاره الفائقة الرائقة، وكان أكثر فضيلة وأدباً من أخيه أبي المعالي موفق الدين بن هبة الله، وإن كان الآخر فاضلاً بارعاً أيضاً، وقد ماتا في هذه السنة رحمهما الله تعالى.

ثم دخلت سنة ست وخمسين وستمائة

[فيها أخذت التتار بغداد وقتلوا أكثر أهلها حتى الخليفة، وانقضت دولة بني العباس منها][1].

استهلت هذه السنة وجنود التتار قد نازلت بغداد صحبة الأميرين اللذين على مقدمة عساكر سلطان التتار، هولاكو خان، وجاءت إليهم أمداد صاحب الموصل يساعدونهم على البغاددة وميرته وهداياه وتحفه، وكل ذلك خوفاً على نفسه من التتار، ومصانعة لهم قبّحهم الله تعالى، وقد سترت بغداد ونصبت فيها المجانيق والعرادات وغيرها من آلات الممانعة التي لا ترد من قدر الله سبحانه وتعالى شيئاً، كما ورد في الأثر «لن يغني حذر عن قدر»[2] وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ [نوح:٤] وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ

---

(١) ما بين معقوفين زيادة من النسخة التركية.
(٢) أخرجه أحمد في المسند ٥/ ٢٣٤، بلفظ: لن ينفع حذر من قدر.

﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ۝١١﴾ [الرعد: ١١] وأحاطت التتار بدار الخلافة يرشقونها بالنبال من كل جانب حتى أصيبت جارية كانت تلعب بين يدي الخليفة وتضحكه، وكانت من جملة حظاياه، وكانت مولدة تسمى عرفة، جاءها سهم من بعض الشبابيك فقتلها وهي ترقص بين يدي الخليفة، فانزعج الخليفة من ذلك وفزع فزعاً شديداً، وأحضر السهم الذي أصابها بين يديه فإذا عليه مكتوب إذا أراد الله إنفاذ قضائه وقدره سلب من ذوي العقول عقولهم، فأمر الخليفة عند ذلك بزيادة الاحتراز، وكثرت الستائر على دار الخلافة - وكان قدوم هولاكو خان بجنوده كلها، وكانوا نحو مائتي ألف مقاتل - إلى بغداد في ثاني عشر المحرم من هذه السنة، وهو شديد الحنق على الخليفة بسبب ما كان تقدم من الأمر الذي قدَّره الله وقضاه وأنفذه وأمضاه، وهو أن هولاكو لما كان أول بروزه من همدان متوجهاً إلى العراق أشار الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمي على الخليفة بأن يبعث إليه بهدايا سنية ليكون ذلك مداراة له عما يريده من قصد بلادهم فخذل الخليفة عن ذلك دويداره الصغير أيبك وغيره، وقالوا إن الوزير إنما يريد بهذا مصانعة ملك التتار بما يبعثه إليه من الأموال، وأشاروا بأن يبعث بشيء يسير، فأرسل شيئاً من الهدايا فاحتقرها هولاكو خان وأرسل إلى الخليفة يطلب منه دويداره المذكور، وسليمان شاه، فلم يبعثهما إليه ولا بالا به حتى أزف قدومه، ووصل بغداد بجنوده الكثيرة الكافرة الفاجرة الظالمة الغاشمة، ممن لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، فأحاطوا ببغداد من ناحيتها الغربية والشرقية، وجيوش بغداد في غاية القلة ونهاية الذلة، لا يبلغون عشرة آلاف فارس، وهم في غاية الضعف وبقية الجيش كلهم قد صرفوا عن إقطاعاتهم حتى استعطى كثير منهم في الأسواق وأبواب المساجد، وأنشد فيهم الشعراء قصائد يرثون لهم ويحزنون على الإسلام وأهله، وذلك كله عن آراء الوزير ابن العلقمي الرافضي، وذلك أنه لما كان في السنة الماضية كان بين أهل السنة والرافضة حرب شديدة نهبت فيها الكرخ ومحلة الرافضة حتى نهبت دور قرابات الوزير، فاشتد حنقه على ذلك، فكان هذا مما أهاجه على أن دبَّر على الإسلام وأهله ما وقع من الأمر الفظيع الذي لم يؤرخ أبشع منه منذ بنيت بغداد، وإلى هذه الأوقات، ولهذا كان أول من برز إلى التتار هو، فخرج بأهله وأصحابه وخدمه وحشمه، فاجتمع بالسلطان هولاكو خان لعنه الله، ثم عاد فأشار على الخليفة بالخروج إليه والمثول بين يديه لتقع المصالحة على أن يكون نصف خراج العراق لهم ونصفه للخليفة، فاحتاج الخليفة إلى أن خرج في سبعمائة راكب من القضاة والفقهاء والصوفية ورؤوس الأمراء والدولة والأعيان، فلما اقتربوا من منزل السلطان هولاكو خان حجبوا عن الخليفة إلا سبعة عشر نفساً، فخلص الخليفة بهؤلاء المذكورين، وأنزل الباقون عن مراكبهم ونهبت وقتلوا عن آخرهم، وأحضر الخليفة بين يدي هولاكو فسأله عن أشياء كثيرة فيقال إنه اضطرب كلام الخليفة من هول ما رأى من الإهانة والجبروت، ثم عاد إلى بغداد وفي صحبته خوجه نصير الدين الطوسي، والوزير ابن العلقمي وغيرهما، والخليفة تحت الحوطة والمصادرة، فأحضر من دار الخلافة شيئاً كثيراً من الذهب والحلي والمصاغ والجواهر والأشياء النفيسة، وقد أشار أولئك الملأ من الرافضة وغيرهم من

المنافقين على هولاكو أن لا يصالح الخليفة، وقال الوزير متى وقع الصلح على المناصفة لا يستمر هذا إلا عاماً أو عامين ثم يعود الأمر إلى ما كان عليه قبل ذلك، وحسَّنوا له قتل الخليفة، فلما عاد الخليفة إلى السلطان هولاكو أمر بقتله، ويقال إن الذي أشار بقتله الوزير ابن العلقمي، والمولى نصير الدين الطوسي، وكان النصير عند هولاكو قد استصحبه في خدمته لما فتح قلاع الألموت، وانتزعها من أيدي الإسماعيلية، وكان النصير وزيراً لشمس الشموس ولأبيه من قبله علاء الدين بن جلال الدين، وكانوا ينسبون إلى نزار بن المستنصر العبيدي. وانتخب هولاكو النصير ليكون في خدمته كالوزير المشير، فلما قدم هولاكو وتهيب من قتل الخليفة هوَّن عليه الوزير ذلك فقتلوه رفساً، وهو في جوالق لئلا يقع على الأرض شيء من دمه، خافوا أن يؤخذ بثأره فيما قيل لهم، وقيل بل خنق، ويقال بل أغرق فالله أعلم، فباؤوا بإثمه وإثم من كان معه من سادات العلماء والقضاة والأكابر والرؤساء والأمراء وأولي الحل والعقد ببلاده ـ وستأتي ترجمة الخليفة في الوفيات ـ ومالوا على البلد فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان ودخل كثير من الناس في الآبار وأماكن الحشوش، وقنى الوسخ، وكمنوا كذلك أياماً لا يظهرون، وكان الجماعة من الناس يجتمعون إلى الخانات ويغلقون عليهم الأبواب فتفتحها التتار إما بالكسر وإما بالنار، ثم يدخلون عليهم فيهربون منهم إلى أعالي الأمكنة فيقتلونهم بالأسطحة، حتى تجري الميازيب من الدماء في الأزقة، فإنا لله وإنا إليه راجعون. وكذلك في المساجد والجوامع والربط، ولم ينج منهم أحد سوى أهل الذمة من اليهود والنصارى ومن التجأ إليهم وإلى دار الوزير ابن العلقمي الرافضي وطائفة من التجار أخذوا لهم أماناً، بذلوا عليه أموالاً جزيلة حتى سلموا وسلمت أموالهم. وعادت بغداد بعد ما كانت آنس المدن كلها كأنها خراب ليس فيها إلا القليل من الناس، وهم في خوف وجوع وذلة وقلة، وكان الوزير ابن العلقمي قبل هذه الحادثة يجتهد في صرف الجيوش وإسقاط اسمهم من الديوان، فكانت العساكر في آخر أيام المستنصر قريباً من مائة ألف مقاتل، منهم من الأمراء من هو كالملوك الأكابر الأكاسر، فلم يزل يجتهد في تقليلهم إلى أن لم يبق سوى عشرة آلاف، ثم كاتب التتار وأطمعهم في أخذ البلاد. وسهل عليهم ذلك، وحكى لهم حقيقة الحال، وكشف لهم ضعف الرجال، وذلك كله طمعاً منه أن يزيل السنة بالكلية، وأن يظهر البدعة الرافضة وأن يقيم خليفة من الفاطميين، وأن يبيد العلماء والمفتيين، والله غالب على أمره، وقد رد كيده في نحره، وأذله بعد العزة القعساء، وجعله حوشكاشاً للتتار بعدما كان وزيراً للخلفاء، واكتسب إثم من قتل ببغداد من الرجال والنساء والأطفال، فالحكم لله العلي الكبير رب الأرض والسماء.

وقد جرى على بني إسرائيل ببيت المقدس قريب مما جرى على أهل بغداد كما قص الله تعالى علينا ذلك في كتابه العزيز، حيث يقول: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾﴾ [الإسراء: ٤ ـ ٥] الآيات. وقد قتل من بني إسرائيل خلق من الصلحاء وأسر جماعة من أولاد الأنبياء، وخرب بيت المقدس بعدما كان معموراً بالعباد والزهاد

والأحبار والأنبياء، فصار خاوياً على عروشه واهي البناء.

وقد اختلف الناس في كمية من قتل ببغداد من المسلمين في هذه الوقعة. فقيل ثمانمائة ألف، وقيل ألف ألف وثمانمائة ألف، وقيل بلغت القتلى ألفي ألف نفس، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وكان دخولهم إلى بغداد في أواخر المحرم، وما زال السيف يقتل أهلها أربعين يوماً، وكان قتل الخليفة المستعصم بالله أمير المؤمنين يوم الأربعاء رابع عشر صفر وعفي قبره، وكان عمره يومئذٍ ستاً وأربعين سنة وأربعة أشهر، ومدة خلافته خمس عشرة سنة وثمانية أشهر وأيام وقتل معه ولده الأكبر أبو العباس أحمد، وله خمس وعشرون سنة، ثم قتل ولده الأوسط أبو الفضل عبد الرحمن وله ثلاث وعشرون سنة، وأسر ولده الأصغر مبارك وأسرت أخواته الثلاث فاطمة وخديجة ومريم، وأسر من دار الخلافة من الأبكار ما يقارب ألف بكر فيما قيل والله أعلم، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وقتل أستاذ دار الخلافة الشيخ محيي الدين يوسف ابن الشيخ أبي الفرج بن الجوزي، وكان عدو الوزير، وقتل أولاده الثلاثة: عبد الله، وعبد الرحمن، وعبد الكريم، وأكابر الدولة واحداً بعد واحد، منهم الديودار الصغير مجاهد الدين أيبك، وشهاب الدين سليمان شاه، وجماعة من أمراء السنة وأكابر البلد. وكان الرجل يستدعى به من دار الخلافة من بني العباس فيخرج بأولاده ونسائه وجواريه فيذهب به إلى مقبرة الخلال، تجاه المنظرة فيذبح كما يذبح الشاة، ويؤسر من يختارون من بناته وجواريه. وقتل شيخ الشيوخ مؤدب الخليفة صدر الدين علي بن النيار، وقتل الخطباء والأئمة، وحملة القرآن، وتعطلت المساجد والجماعات والجمعات مدة شهور ببغداد، وأراد الوزير ابن العلقمي قبحه الله ولعنه أن يعطل المساجد والمدارس والربط ببغداد ويستمر بالمشاهد ومحال الرفض، وأن يبني للرافضة مدرسة هائلة ينشرون علمهم وعَلَمهم بها وعليها، فلم يقدره الله تعالى على ذلك بل أزال نعمته عنه وقصف عمره بعد شهور يسيرة من هذه الحادثة، وأتبعه بولده فاجتمعا والله أعلم بالدرك الأسفل من النار.

ولما انقضى الأمر المقدر وانقضت الأربعون يوماً بقيت بغداد خاوية على عروشها ليس بها أحد إلا الشاذ من الناس، والقتلى في الطرقات كأنها التلول، وقد سقط عليهم المطر فتغيرت صورهم وأنتنت من جيفهم البلد، وتغير الهواء فحصل بسببه الوباء الشديد حتى تعدى وسرى في الهواء إلى بلاد الشام، فمات خلق كثير من تغير الجو وفساد الريح، فاجتمع على الناس الغلاء والوباء والفناء والطعن والطاعون، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ولما نودي ببغداد بالأمان خرج من تحت الأرض من كان بالمطامير والقنى والمقابر كأنهم الموتى إذا نبشوا من قبورهم، وقد أنكر بعضهم بعضاً فلا يعرف الوالد ولده ولا الأخ أخاه، وأخذهم الوباء الشديد فتفانوا وتلاحقوا بمن سبقهم من القتلى، واجتمعوا تحت الثرى بأمر الذي يعلم السر وأخفى، الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى، وكان رحيل السلطان المسلط هولاكو خان عن بغداد في جمادى الأولى من هذه السنة إلى مقر ملكه، وفوض أمر بغداد إلى الأمير علي بهادر، فوض إليه الشحنكية بها وإلى الوزير ابن العلقمي فلم يمهله الله ولا أهمله، بل أخذه

أخذ عزيز مقتدر، في مستهل جمادى الآخرة عن ثلاث وستين سنة، وكان عنده فضيلة في الإنشاء ولديه فضيلة في الأدب، ولكنه كان شيعياً جلداً رافضياً خبيثاً، فمات جهداً وغماً وحزناً وندماً، إلى حيث ألقت رحلها أم قشعم، فولي بعده الوزارة ولده عز الدين بن الفضل محمد، فألحقه الله بأبيه في بقية هذا العام، ولله الحمد والمنة.

وذكر أبو شامة وشيخنا أبو عبد الله الذهبي وقطب الدين اليونيني أنه أصاب الناس في هذه السنة بالشام وباء شديد وذكروا أن سبب ذلك من فساد الهواء في الجو، فسد من كثرة القتلى ببلاد العراق وانتشر حتى تعدى إلى بلاد الشام فالله أعلم.

وفي هذه السنة اقتتل المصريون مع صاحب الكرك الملك المغيث عمر بن العادل بن أبي بكر بن العادل الكبير، وكان في حبسه جماعة من أمراء البحرية، منهم ركن الدين بيبرس البندقداري، فكسرهم المصريون ونهبوا ما كان معهم من الأثقال والأموال، وأسروا جماعة من رؤوس الأمراء فقتلوا صبراً، وعادوا إلى الكرك في أسوإ حال وأشنعه، وجعلوا يفسدون في الأرض ويعيثون في البلاد، فأرسل الله الناصر صاحب دمشق فبعث جيشاً ليكفهم عن ذلك، فكسرهم البحرية واستنصروا فبرز إليهم الناصر بنفسه فلم يلتفتوا إليه وقطعوا أطناب خيمته التي هو فيها بإشارة ركن الدين بيبرس المذكور، وجرت حروب وخطوب يطول بسطها وبالله المستعان.

وممن توفي في هذه السنة من المشاهير والأعيان:

خليفة الوقت المستعصم بالله

أمير المؤمنين آخر خلفاء بني العباس بالعراق رحمه الله، وهو أبو أحمد عبد الله ابن أمير المؤمنين المستنصر بالله أبي جعفر منصور بن الظاهر بأمر الله أبي نصر محمد بن الناصر لدين الله أبي العباس أحمد بن المستضيء بأمر الله أبي محمد الحسن ابن أمير المؤمنين المستنجد بالله أبي المظفر يوسف ابن أمير المؤمنين المقتفي لأمر الله أبي عبد الله محمد ابن أمير المؤمنين المستظهر بالله أبي العباس أحمد بن المقتدي بالله أبي القاسم عبد الله بن الذخيرة أبي العباس محمد بن القائم بأمر الله أبو جعفر عبد الله بن القادر بالله أبي العباس أحمد ابن الأمير إسحاق بن المقتدر بالله أبي الفضل جعفر بن المعتضد بالله أبي العباس أحمد ابن الأمير الموفق أبي أحمد طلحة بن المتوكل على الله أبي الفضل جعفر بن المعتصم بالله أبي إسحاق محمد بن الرشيد أبي محمد هارون بن المهدي أبي عبد الله محمد بن المنصور أبي جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم الهاشمي العباسي، ولد سنة تسع وستمائة، وبويع له بالخلافة في العشرين من جمادى الأولى سنة أربعين، وكان مقتله في يوم الأربعاء الرابع عشر من صفر سنة ست وخمسين وستمائة، فيكون عمره يوم قتل سبعاً وأربعين سنة رحمه الله تعالى. وقد كان رحمه الله تعالى حسن الصورة جيد السريرة، صحيح السريرة مقتدياً بأبيه المستنصر في المعدلة وكثرة الصدقات وإكرام العلماء والعباد، وقد استجاز له الحافظ ابن النجار من جماعة من مشايخ خراسان منهم المؤيد الطوسي، وأبو روح

عبد العزيز بن محمد الهروي وأبو بكر القاسم بن عبد الله بن الصفار وغيرهم، وحدث عنه جماعة منهم مؤدبه شيخ الشيوخ صدر الدين أبو الحسن علي بن محمد بن النيار، وأجاز هو للإمام محيي الدين بن الجوزي، وللشيخ نجم الدين البادرائي، وحدثا عنه بهذه الإجازة. وقد كان رحمه الله تعالىٰ سنياً على طريقة السلف واعتقاد الجماعة كما كان أبوه وجده، ولكن كان فيه لين وعدم تيقظ ومحبة للمال وجمعه، ومن جملة ذلك أنه استحل الوديعة التي استودعه إياها الناصر داود بن المعظم وكانت قيمتها نحواً من مائة ألف دينار فاستقبح هذا من مثل الخليفة، وهو مستقبح ممن هو دونه بكثير، بل من أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك، كما قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ [آل عمران: ٧٥].

قتلته التتار مظلوماً مضطهداً في يوم الأربعاء رابع عشر صفر من هذه السنة، وله من العمر ست وأربعون سنة وأربعة أشهر. وكانت مدة خلافته خمس عشرة سنة وثمانية أشهر وأياماً، فرحمه الله وأكرم مثواه، وبلَّ بالرحمة ثراه. وقد قتل بعده ولداه وأسر ابنه الثالث مع بنات ثلاث من صلبه، وشغر منصب الخلافة بعده، ولم يبق في بني العباس من سد مسده، فكان آخر الخلفاء من بني العباس الحاكمين بالعدل بين الناس، ومن يرتجى منهم النوال ويخشى الباس، وختموا بعبد الله المستعصم كما فتحوا بعبد الله السفاح، بويع له بالخلافة وظهر ملكه وأمره في سنة ثنتين وثلاثين ومائة، بعد انقضاء دولة بني أمية كما تقدم بيانه، وآخرهم عبد الله المستعصم وقد زال ملكه وانقضت خلافته في هذا العام، فجملة أيامهم خمسمائة سنة وأربع وعشرون سنة، وزال ملكهم عن العراق والحكم بالكلية مدة سنة وشهور في أيام البساسيري بعد الخمسين وأربعمائة، ثم عادت كما كانت. وقد بسطنا ذلك في موضعه في أيام القائم بأمر الله ولله الحمد.

ولم تكن أيدي بني العباس حاكمة على جميع البلاد كما كانت بنو أمية قاهرة لجميع البلاد والأقطار والأمصار، فإنه خرج عن بني العباس بلاد المغرب، ملكها في أوائل الأمر بعض بني أمية ممن بقي منهم من ذرية عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك، ثم تغلب عليه الملوك بعد دهور متطاولة كما ذكرنا، وقارن بني العباس دولة المدعين أنهم من الفاطميين ببلاد مصر وبعض بلاد المغرب، وما هنالك، وبلاد الشام في بعض الأحيان والحرمين في أزمان طويلة [وكذلك أخذت من أيديهم بلاد خراسان وما وراء النهر، وتداولتها الملوك دولاً بعد دول، حتى لم يبق مع الخليفة منهم إلا بغداد وبعض بلاد العراق، وذلك لضعف خلافتهم واشتغالهم بالشهوات وجمع الأموال في أكثر الأوقات، كما ذكر ذلك مبسوطاً في الحوادث والوفيات][(١)].

واستمرت دولة الفاطميين قريباً من ثلاثمائة سنة حتى كان آخرهم العاضد الذي مات بعد الستين وخمسمائة في الدولة الصلاحية الناصرية القدسية كما ذكرنا، وكانت عدة ملوك الفاطميين أربعة عشر ملكاً متخلفاً، ومدة ملكهم تحريراً من سنة سبع وتسعين ومائتين إلى أن

(١) ما بين معقوفين زيادة من نسخة الأستانة.

توفي العاضد سنة بضع وستين وخمسمائة، والعجب أنّ خلافة النبوة التالية لزمان رسول الله ﷺ كانت ثلاثين سنة كما نطق بها الحديث الصحيح، فكان فيها أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي ثم ابنه الحسن بن علي ستة شهور حتى كملت الثلاثون كما قررنا ذلك في دلائل النبوة، ثم كانت ملكاً فكان أول ملوك الإسلام من بني أبي سفيان معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية، ثم ابنه يزيد، ثم ابن ابنه معاوية بن يزيد بن معاوية، وانقرض هذا البطن المفتتح بمعاوية المختتم بمعاوية، ثم ملك مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي، ثم ابنه عبد الملك، ثم الوليد بن عبد الملك؛ ثم أخوه سليمان ثم ابن عمه عمر بن عبد العزيز، ثم يزيد بن عبد الملك، ثم هشام بن عبد الملك، ثم الوليد بن يزيد ثم يزيد بن الوليد، ثم أخوه إبراهيم الناقص وهو ابن الوليد أيضاً، ثم مروان بن محمد بن مروان الملقب بالحمار، وكان آخرهم، فكان أولهم اسمه مروان وآخرهم اسمه مروان، ثم انقرضوا من أولهم إلى خاتمهم. وكان أول خلفاء بني العباس عبد الله السفاح، وآخرهم عبد الله المستعصم. وكذلك أول خلفاء الفاطميين فالأول اسمه عبد الله العاضد، وآخرهم عبد الله العاضد، وهذا اتفاق غريب جداً قلّ من يتنبه له، والله سبحانه أعلم.

وهذه أرجوزة لبعض الفضلاء ذكر فيها جميع الخلفاء:

الحَمْدُ لله العَظِيمِ عَرْشُهُ ... القَاهِرِ الفَرْدِ القَوِيِّ بَطْشُهُ
مُقَلِّبِ الأَيَّامِ وَالدُّهُورِ ... وَجَامِعِ الأَنَامِ لِلنُّشُورِ
ثُمَّ الصَّلاةُ بِدَوَامِ الأَبَدِ ... عَلَى النَّبِيِّ المُصْطَفَى مُحَمَّدِ
وَآلِهِ وَصَحْبِهِ الكِرَامِ ... السَّادَةِ الأَئِمَّةِ الأَعْلامِ
وَبَعْدُ فَإِنَّ هٰذِهِ أُرْجُوزَهْ ... نَظَمْتُهَا لَطِيفَةً وَجِيزَهْ
نَظَمْتُ فِيهَا الرَّاشِدِينَ الخُلَفَا ... مَنْ قَامَ بَعْدَ النَّبِيِّ المُصْطَفَى
وَمَنْ تَلاهُمْ وَهَلُمَّ جَرَّا ... جَعَلْتُهَا تَبْصِرَةً وَذِكْرَى
لِيَعْلَمَ العَاقِلُ ذُو التَّصْوِيرِ ... كَيْفَ جَرَتْ حَوَادِثُ الأُمُورِ
وَكُلُّ ذِي مَقْدِرَةٍ وَمُلْكِ ... مُعْرِضُونَ لِلْفَنَا وَالهُلْكِ
وَفِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ... تَبْصِرَةٌ لِكُلِّ ذِي اعْتِبَارِ
وَالمَلِكُ الجَبَّارُ فِي بِلادِهِ ... يُورِثُهُ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ
وَكُلُّ مَخْلُوقٍ فَلِلْفَنَاءِ ... وَكُلُّ مُلْكٍ فَإِلَى انْتِهَاءِ
وَلاَ يَدُومُ غَيْرُ مُلْكِ البَارِي ... سُبْحَانَهُ مِنْ مَلِكٍ قَهَّارِ
مُنْفَرِدٌ بِالعِزِّ وَالبَقَاءِ ... وَمَا سِوَاهُ فَإِلَى انْقِضَاءِ
أَوَّلُ مَنْ بُويِعَ بِالخِلافَهْ ... بَعْدَ النَّبِيِّ ابْنُ أَبِي قُحَافَهْ
أَعْنِي الإِمَامَ الهَادِيَ الصِّدِّيقَا ... ثُمَّ ارْتَضَى مِنْ بَعْدِهِ الفَارُوقَا

فَفَتَحَ البِلادَ وَالأَمْصَارَا ... وَاسْتَأْصَلَتْ سُيُوفُهُ الكُفَّارَا
وَقَامَ بِالعَدْلِ قِيَاماً يُرْضِي ... بِذَاكَ جَبَّارَ السَّمَا وَالأَرْضِ
وَرَضِيَ النَّاسُ بِذِي النُّورَيْنِ ... ثُمَّ عَلِيٍّ وَالِدِ السِّبْطَيْنِ
ثُمَّ أَتَتْ كَتَائِبٌ مَعَ الحَسَنْ ... كَادُوا بِأَنْ يُجَدِّدُوا بِهَا الفِتَنْ
فَأَصْلَحَ اللهُ عَلَى يَدَيْهِ ... كَمَا عَزَا نَبِيُّنَا إِلَيْهِ
وَجُمِعَ النَّاسُ عَلَى مُعَاوِيَهْ ... وَنَقَلَ القِصَّةَ كُلُّ رَاوِيَهْ
فَمَهَّدَ المُلْكَ كَمَا يُرِيدُ ... وَقَامَ فِيهِ بَعْدَهُ يَزِيدُ
ثُمَّ ابْنُهُ وَكَانَ بَرّاً رَاشِدَا ... أَعْنِي أَبَا لَيْلَى وَكَانَ زَاهِدَا
فَتَرَكَ الإِمْرَةَ لا عَنْ غَلَبَهْ ... وَلَمْ يَكُنْ إِلَيْهَا مِنْهُ طَلِبَهْ
وَابْنُ الزُّبَيْرِ بِالحِجَازِ يَدْأَبُ ... فِي طَلَبِ المُلْكِ وَفِيهِ يَنْصَبُ
وَبِالشَّامِ بَايَعُوا مَرْوَانَا ... بِحُكْمِ مَنْ يَقُولُ كُنْ فَكَانَا
وَلَمْ يَدُمْ فِي المُلْكِ غَيْرَ عَامِ ... وَعَاقَصَتْهُ أَسْهُمُ الحِمَامِ
وَاسْتَوْثَقَ المُلْكُ لِعَبْدِ المَلِكِ ... وَنَارُ نَجْمِ سَعْدِهِ فِي الفَلَكِ
وَكُلُّ مَنْ نَازَعَهُ فِي المُلْكِ ... خَرَّ صَرِيعاً بِسُيُوفِ الهُلْكِ
وَقَتَلَ المُصْعَبَ بِالعِرَاقِ ... وَسَيَّرَ الحَجَّاجَ ذَا الشِّقَاقِ
إِلَى الحِجَازِ بِسُيُوفِ النِّقَمِ ... وَابْنُ الزبيرِ لائِذٌ بِالحَرَمِ
فَجَارَ بَعْدَ قَتْلِهِ بِصَلْبِهِ ... وَلَمْ يَخَفْ فِي أَمْرِهِ مِنْ رَبِّهِ
وَعِنْدَمَا صَفَتْ لَهُ الأُمُورُ ... تَقَلَّبَتْ بِجِسْمِهِ الدُّهُورُ
ثُمَّ أَتَى مِنْ بَعْده الوَلِيدُ ... ثُمَّ سُلَيْمَانُ الفَتَى الرَّشِيدُ
ثُمَّ اسْتَفَاضَ فِي الوَرَى عَدْلُ عُمَرْ ... تَابَعَ أَمْرَ رَبِّهِ كَمَا أَمَرْ
وَكَانَ يُدْعَى بِأَشَجِّ القَوْمِ ... وَذِي الصَّلاةِ وَالتُّقَى وَالصَّوْمِ
فَجَاءَ بِالعَدْلِ وَالإِحْسَانِ ... وَكَفَّ أَهْلَ الظُّلْمِ وَالطُّغْيَانِ
مُقْتَدِياً بِسُنَّةِ الرَّسُولِ ... وَالرَّاشِدِينَ مِنْ ذَوِي العُقُولِ
فَجُرِّعَ الإِسْلامُ كَأْسَ فَقْدِهِ ... وَلَمْ يَرَوْا مِثْلاً لَهُ مِنْ بَعْدِهِ
ثُمَّ يَزِيدُ بَعْدَهُ هِشَامُ ... ثُمَّ الوَلِيدُ فُتَّ مِنْهُ الهَامُ
ثُمَّ يَزِيدُ وَهْوَ يُدْعَى النَّاقِصَا ... فَجَاءَهُ حِمَامُهُ مُعَافِصَا
وَلَمْ تَطُلْ مُدَّةُ إِبْرَاهِيمَا ... وَكَانَ كُلُّ أَمْرِهِ سَقِيمَا
وَأَسْنَدَ المُلْكَ إِلَى مَرْوَانَا ... فَكَانَ مِنْ أُمُورِهِ مَا كَانَا

وَانْقَرَضَ الْمُلْكُ عَلَى يَدَيْهِ ... وَحَادِثُ الدَّهْرِ سَطَا عَلَيْهِ
وَقَتْلُهُ قَدْ كَانَ بِالصَّعِيدِ ... وَلَمْ تُفِدْهُ كَثْرَةُ الْعَدِيدِ
وَكَانَ فِيهِ حَتْفُ آلِ الْحَكَمِ ... وَاسْتُنْزِعَتْ عَنْهُمْ ضُرُوبُ النِّعَمِ
ثُمَّ أَتَى مُلْكُ بَنِي الْعَبَّاسِ ... لا زَالَ فِينَا ثَابِتَ الأَسَاسِ
وَجَاءَتِ الْبَيْعَةُ مِنْ أَرْضِ الْعَجَمْ ... وَقَلَّدَتْ بَيْعَتَهُمْ كُلُّ الأُمَمْ
وَكُلُّ مَنْ نَازَعَهُمْ مِنْ أُمَمِ ... خَرَّ صَرِيعاً لِلْيَدَيْنِ وَالْفَمِ
وَقَدْ ذَكَرْتُ مَنْ تَوَلَّى مِنْهُمُ ... حِينَ تَوَلَّى الْقَائِمُ الْمُسْتَعْصِمُ
أَوَّلُهُمْ يُنْعَتُ بِالسَّفَّاحِ ... وَبَعْدَهُ الْمَنْصُورُ ذُو النَّجَاحِ
ثُمَّ أَتَى مِنْ بَعْدِهِ الْمَهْدِيُّ ... يَتْلُوهُ مُوسَى الْهَادِي الصَّفِيُّ
وَجَاءَ هَارُونُ الرَّشِيدُ بَعْدَهُ ... ثُمَّ الأَمِينُ حِينَ ذَاقَ فَقْدَهُ
وَقَامَ بَعْدَ قَتْلِهِ الْمَأْمُونُ ... وَبَعْدَهُ الْمُعْتَصِمُ الْمَكِينُ
وَاسْتَخْلَفَ الْوَاثِقُ بَعْدَ الْمُعْتَصِمْ ... ثُمَّ أَخُوهُ جَعْفَرٌ مُوفِي الذِّمَمْ
وَأَخْلَصَ النِّيَّةَ فِي الْمُتَوَكِّلِ ... للهِ ذِي الْعَرْشِ الْقَدِيمِ الأَوَّلِ
فَأَدْحَضَ الْبِدْعَةَ فِي زَمَانِهِ ... وَقَامَتِ السُّنَّةُ فِي أَوَانِهِ
وَلَمْ يُبْقِ فِيهَا بِدْعَةً مُضِلَّهْ ... وَأَلْبَسَ الْمُعْتَزِلِيَّ ثَوْبَ ذِلَّهْ
فَرَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ أَبَدَا ... مَا غَارَ نَجْمٌ فِي السَّمَاءِ أَوْ بَدَا
وَبَعْدَهُ اسْتَوْلَى وَقَامَ الْمُعْتَمِدْ ... وَمَهَّدَ الْمُلْكَ وَسَاسَ الْمُقْتَصِدْ
وَعِنْدَمَا اسْتُشْهِدَ قَامَ الْمُنْتَصِرْ ... وَالْمُسْتَعِينُ بَعْدَهُ كَمَا ذُكِرْ
وَجَاءَ بَعْدَ مَوْتِهِ الْمُعْتَزُّ ... وَالْمُهْتَدِي الْمُلْتَزِمُ الأَعَزُّ
وَالْمُكْتَفِي فِي صُحُفِ الْعُلا أَسْطُرُ ... وَبَعْدَهُ سَاسَ الأُمُورَ الْمُقْتَدِرُ
وَاسْتَوْثَقَ الْمُلْكُ بِعِزِّ الْقَاهِرِ ... وَبَعْدَهُ الرَّاضِي أَخُو الْمُفَاخِرِ
وَالْمُتَّقِي مِنْ بَعْدِ ذَا الْمُسْتَكْفِي ... ثُمَّ الْمُطِيعُ مَا بِهِ مِنْ خُلْفِ
وَالطَّائِعُ الطَّائِعُ ثُمَّ الْقَادِرُ ... وَالْقَائِمُ الزَّاهِدُ وَهْوَ الشَّاكِرُ
وَالْمُقْتَدِي مِنْ بَعْدِهِ الْمُسْتَظْهِرُ ... ثُمَّ أَتَى الْمُسْتَرْشِدُ الْمُوَقَّرُ
وَبَعْدَهُ الرَّاشِدُ ثُمَّ الْمُقْتَفِي ... وَحِينَ مَاتَ اسْتَنْجَدُوا بِيُوسُفِ
الْمُسْتَضِيءُ الْعَادِلُ فِي أَفْعَالِهِ ... الصَّادِقُ الصَّدُوقُ فِي أَقْوَالِهِ
وَالنَّاصِرُ الشَّهْمُ الشَّدِيدُ الْبَاسِ ... وَدَامَ طُولَ مُكْثِهِ فِي النَّاسِ
ثُمَّ تَلاهُ الظَّاهِرُ الْكَرِيمُ ... وَعَدْلُهُ كُلٌّ بِهِ عَلِيمُ

وَلَمْ تَطُلْ أَيَّامُهُ فِي المَمْلَكَهْ غَيْرَ شُهُورٍ وَاعْتَرَتْهُ الهَلَكَهْ
وَعَهْدُهُ كَانَ إِلَى المُسْتَنْصِرِ العَادِلِ البَرِّ الكَرِيمِ العُنْصُرِ
دَامَ يَسُوسُ النَّاسَ سَبْعَ عَشْرَهْ وَأَشْهُراً بِعَزَمَاتٍ بَرَّهْ
ثُمَّ تُوفِّي عَامَ أَرْبَعِينَا وَفِي جُمَادَى صَادَفَ المَنُونَا
وَبَايَعَ الخَلائِقُ المُسْتَعْصِمَا صَلَّى عَلَيْهِ رَبُّنَا وَسَلَّمَا
فَأَرْسَلَ الرُّسْلَ إِلَى الآفَاقِ يَقْضُونَ بِالبَيْعَةِ وَالوِفَاقِ
وَشَرَّفُوا بِذِكْرِهِ المَنَابِرَا وَنَشَرُوا فِي جُودِهِ المَفَاخِرَا
وَسَارَ فِي الآفَاقِ حُسْنُ سِيرَتِهْ وَعَدْلُهُ الزَّائِدُ فِي رَعِيَّتِهْ

قال شيخ الإسلام عماد الدين ابن كثير رحمه الله تعالى: ثم قلت أنا بعد ذلك أبياتاً:

ثُمَّ ابْتَلاهُ اللهُ بِالتَّتَارِ أَتْبَاعِ جِنْكِيزخَان الجَبَّارِ
صُحْبَتُهُ ابْنُ ابْنِهِ هُولاكُو فَلَمْ يَكُنْ مِنْ أَمْرِهِ فَكَاكُ
فَمَزَّقُوا جُنُودَهُ وَشَمْلَهُ وَقَتَلُوهُ نَفْسَهُ وأَهْلَهُ
وَدَمَّرُوا بَغْدَادَ وَالبِلادَا وَقَتَلُوا الأَحْفَادَ وَالأَجْدَادَا
وَانْتَهَبُوا المَالَ مَعَ الحَرِيمِ وَلَمْ يَخَافُوا سَطْوَةَ العَظِيمِ
وَغَرَّهُمْ إِنْظَارُهُ وَحِلْمُهُ وَمَا اقْتَضَاهُ عَدْلُهُ وَحُكْمُهُ
وَشَغَرَتْ مِنْ بَعْدِهِ الخِلافَهْ وَلَمْ يُؤَرِّخْ مِثْلُهَا مِنْ آفَهْ
ثُمَّ أَقَامَ المَلِكُ أَعْنِي الظَّاهِرَا خَلِيفَةً أَعْنِي بِهِ المُسْتَنْصِرَا
ثُمَّ وَلِي مِنْ بَعْدِ ذَاكَ الحَاكِمِ مُسِيمُ بِيبَرْسَ الإِمَامِ العَالِمِ
ثُمَّ ابْنُهُ الخَلِيفَةُ المُسْتَكْفِي وَبَعْضُ هٰذا لِلَّبِيبِ يَكْفِي
ثُمَّ وَلِي مِنْ بَعْدِهِ جَمَاعَهْ مَا عِنْدَهُمْ عِلْمٌ وَلا بِضَاعَهْ
ثُمَّ تَوَلَّى وَقْتَنَا المُعْتَضِدْ وَلاَ يَكَادُ الدَّهْرُ مِثْلَهُ يَجِدْ
فِي حُسْنِ خُلْقٍ وَاعْتِقَادٍ وَحِلَى وَكَيْفَ لا وَهْوَ مِنَ السِّيمِ الأُولَى
سَادُوا البِلادَ وَالعِبَادَ فَضْلاً وَمَلَؤُوا الأَقْطَارَ حِكَماً وَعَدْلا
أَولادُ عَمِّ المُصْطَفَى مُحَمَّدِ وَأَفْضَلُ الخَلْقِ بِلاَ تَرَدُّدِ
صَلَّى عَلَيْهِ اللهُ ذُو الجَلالِ مَا دَامَتِ الأَيَّامُ وَاللَّيَالِي

فصل

وَالفَاطِمِيُّونَ قَلِيلُو العُدَّهْ لٰكِنَّهُمْ مُدَّ لَهُمْ فِي المُدَّهْ
فَمَلَكُوا بِضْعاً وَسِتِّينَ سَنَهْ مِنْ بَعْدِ مِائَتَينِ وَكَانَ كَالسِّنَهْ

وَالـعِـدَّةُ أَرْبَـعَ عَـشْـرَةَ الـمَـهْـدِي وَالـقَـائِـمُ الـمَـنْـصُـورُ الـمُـعْـدِي
أَعْـنِـي بِـهِ الـمُـعِـزَّ بَـانِـي الـقَـاهِـرَهْ ثُـمَّ الـعَـزِيـزُ الـحَـاكِـمُ الـكَـوَافِـرَهْ
وَالـظَّاهِـرُ الـمُـسْتَـنْـصِـرُ الـمُـسْتَـعْـلِي فَـالآمِـرُ الـحَـافِـظُ عَـنْـهُ سُـوءُ الـفِـعْـلِ
وَالـظَّـافِـرُ الـفَـائِـزُ ثُـمَّ الـعَـاضِـدُ آخِـرُهُـمْ وَمَـا لِـهَـٰذا جَـاحِـدُ
أُهْـلِـكَ بَـعْـدَ الـبِـضْـعِ وَالـسِّـتِّـيـنَا مِـنْ قَـبْـلِـهَـا خـمـسـمـائـة سِـنِـيـنَا
وَأَصْـلُـهُـمْ يَـهُـودُ لَـيْـسُـوا شُـرَفَـا بِـذَاكَ أَفْـتَـى الـسَّـادَةُ الأَئِـمَّـهْ
أَنْـصَـارُ دِيـنِ الله مِـنْ ذِي الأُمَّـهْ

فصل :

وَهٰـكَـذَا خُـلَـفَـاءُ بَـنِـي أُمَـيَّـه عِـدَّتُـهُـمْ كَـعِـدَّةِ الـرَّافِـضِـيَّـه
وَلٰـكِـنِ الـمُـدَّةُ كَـانَـتْ نَـاقِـصَـه عَـنْ مِـائَـة مِـنَ الـسِّـنِـيـن خَـالِـصَـه
وَكُـلُّـهُـمْ قَـدْ كَـانَ نَـاصِـبِـيَّـا إلاّ الإِمَـامَ عُـمَـرَ الـتَّـقِـيَّـا
مُـعَـاوِيَـةُ ثُـمَّ ابْـنُـهُ يَـزِيـدُ وَابْـنُ ابْـنِـهِ مُـعَـاوِيَـةُ الـسَّـدِيـدُ
مَـرْوَانُ ثُـمَّ ابْـنٌ لَـهُ عَـبْـدُ الـمَـلِـكْ مُـنَـابِـذٌ لابْـنِ الـزُّبَـيْـرِ حَـتَّـى هَـلَـكْ
ثُـمَّ اسْـتَـقَـلَّ بَـعْـدَهُ بِـالـمُـلْـكِ فِـي سَـائِـرِ الأَرْضِ بِـغَـيْـرِ شَـكِّ
ثُـمَّ الـوَلِـيـدُ الـنَّـجْـلُ بَـانِـي الـجَـامِـعِ وَلَـيْـسَ مِـثْـلُـهُ بِـشَـكْـلِـهِ مِـنْ جَـامِـعِ
ثُـمَّ سُـلَـيْـمَـان الـجَـوَادُ وَعُـمَـرْ ثُـمَّ يَـزِيـدٌ وَهِـشَـامٌ وَغُـدَرْ
أَعْـنِـي الـوَلِـيـدَ بْـنَ يَـزِيـدَ الـفَـاسِـقَـا ثُـمَّ يَـزِيـد بْـن الـوَلِـيـدِ فَـائِـقَـا
يُـلَـقَّـبُ الـنَّـاقِـصَ وَهْـوَ كَـامِـلُ ثُـمَّ إِبْـرَاهِـيـمُ وَهْـوَ عَـاقِـلُ
ثُـمَّ مَـرْوَانُ الـحِـمَـارُ الـجَـعْـدِي آخِـرُهُـمْ فَـاظْـفَـرْ بِـذَا مِـنْ عِـنْـدِي
وَالـحَـمْـدُ لِـلَّـهِ عَـلَـى الـتَّـمَـامِ كَـذَاكَ نَـحْـمَـدُهُ عَـلَـى الإِنْـعَـامِ
ثُـمَّ الـصَّـلاةُ مَـعَ تَـمَـامِ الـعَـدَدِ عَـلَـى الـنَّـبِـيِّ الـمُـصْـطَـفَـى مُـحَـمَّـدِ
وَآلِـهِ وَصَـحْـبِـهِ الأَخْـيَـارِ فِـي سَـائِـرِ الأَوْقَـاتِ وَالأَعْـصَـارِ
وَهٰـذِهِ الأَبْـيَـاتُ نَـظْـمُ الـكَـاتِـبِ ثَـمَـانِـيَـةٌ تَـتِـمَّـةُ الـمَـنَـاقِـبِ

وممن قتل مع الخليفة واقف الجوزية بدمشق أستاذ دار الخلافة الصاحب محيي الدين يوسف ابن الشيخ جمال الدين أبي الفرج بن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن محمد بن علي بن عبيد الله بن حماد بن أحمد بن جعفر بن عبد الله بن القاسم بن النضر بن محمد بن أبي بكر الصديق القرشي التيمي البكري البغدادي الحنبلي المعروف بابن الجوزي، ولد في ذي القعدة سنة ثمانين وخمسمائة، ونشأ شاباً حسناً، وحين توفي أبوه وعظ في موضعه فأحسن وأجاد وأفاد، ثم لم يزل متقدماً في مناصب الدنيا، فولّي حسبة بغداد مع

الوعظ الفائق والأشعار الحسنة، ثم ولي تدريس الحنابلة بالمستنصرية سنة اثنتين وثلاثين وستمائة، وكانت له تداريس أخر، ولي أستاذ دار الخلافة، وكان رسولاً للملوك من بني أيوب وغيرهم من جهة الخلفاء، وانتصب ابنه عبد الرحمن مكانه للحسبة والوعظ، ثم كانت الحسبة تتنقل في بنيه الثلاثة جمال الدين عبد الرحمن وأشرف الدين عبد الله وتاج الدين عبد الكريم، وقد قتلوا معه في هذه السنة رحمهم الله. ولمحيي الدين هذا مصنف في مذهب الإمام أحمد، وقد ذكر له ابن الساعي أشعاراً حسنة يهنىء بها الخليفة في المواسم والأعياد، تدل على فضيلة وفصاحة، وقد وقف الجوزية بدمشق وهي من أحسن المدارس وأوجهها، تقبّل الله منه.

الصرصري المادح

يحيى بن يوسف بن يحيى بن منصور بن المعمر عبد السلام الشيخ الإمام العلامة البارع الفاضل في أنواع من العلوم، جمال الدين أبو زكريا الصرصري، الشاعر المادح الحنبلي الضرير البغدادي، معظم شعره في مدح رسول الله ﷺ، وديوانه في ذلك مشهور معروف غير منكر، ويقال إنه كان يحفظ صحاح الجوهري بتمامه في اللغة. وصحب الشيخ علي بن إدريس تلميذ الشيخ عبد القادر، وكان ذكياً يتوقد نوراً، وكان ينظم على البديهة سريعاً أشياء حسنة فصيحة بليغة، وقد نظم الكافي الذي ألفه موفق الدين بن قدامة، ومختصر الخرقي، وأما مدائحه في رسول الله ﷺ فيقال إنها تبلغ عشرين مجلداً، وما اشتهر عنه أنه مدح أحداً من المخلوقين من بني آدم إلا الأنبياء، ولما دخل التتار إلى بغداد دعي إلى ذارئها كرمون بن هولاكو فأبى أن يجيب إليه، وأعد في داره حجارة فحين دخل عليه التتار رماهم بتلك الأحجار فهشم منهم جماعة، فلما خلصوا إليه قتل بعكازه أحدهم، ثم قتلوه شهيداً رحمه الله تعالى، وله من العمر ثمان وستون سنة. وقد أورد له الشيخ قطب الدين اليونيني من ديوانه قطعة صالحة في ترجمته في الذيل، استوعب حروف المعجم، وذكر غير ذلك قصائد طوالاً كثيرة حسنة.

البهاء زهير صاحب الديوان [المشهور](١)

وهو زهير بن محمد بن علي بن يحيى بن الحسين بن جعفر المهلبي العتكي المصري، ولد بمكة ونشأ بقوص، وأقام بالقاهرة، الشاعر المطبق الجواد في حسن الخط له ديوان مشهور، وقدم على السلطان الصالح نجم الدين أيوب، وكان غزير المروءة حسن التوسط في إيصال الخير إلى الناس، ودفع الشر عنهم، وقد أثنى عليه ابن خلكان وقال أجاز لي رواية ديوانه وهو مشهور، وقد بسط ترجمته قطب الدين اليونيني.

الحافظ زكي الدين المنذري [الشامي المصري](٢)

عبد العظيم بن عبد القوي بن عبد الله بن سلامة بن سعد بن سعيد الإمام العلامة الحافظ أبو محمد زكي الدين المنذري الشافعي المصري، أصله من الشام وولد بمصر، وكان شيخ

---

(١) سقط في ط.
(٢) سقط في ط.

الحديث بها مدة طويلة، إليه الوفادة والرحلة من سنين متطاولة، وقيل إنه ولد بالشام سنة إحدى وثمانين وخمسمائة، وسمع الكثير ورحل وطلب وعني بهذا الشأن، حتى فاق أهل زمانه فيه، وصنف وخرج، واختصر صحيح مسلم، وسنن أبي داود، وهو أحسن اختصاراً من الأول، وله اليد الطولى في اللغة والفقه والتاريخ، وكان ثقة حجة متحرياً زاهداً، توفي يوم السبت رابع ذي القعدة من هذه السنة بدار الحديث الكاملية بمصر، ودفن بالقرافة رحمه الله تعالى.

النور أبو بكر بن محمد بن محمد بن عبد العزيز

ابن عبد الرحيم بن رستم الأشعري الشاعر المشهور الخليع، كان القاضي صدر الدين بن سناء الدولة قد أجلسه مع الشهود تحت الساعات، ثم استدعاه الناصر صاحب البلد فجعله من جلسائه وندمائه، وخلع عليه خلع الأجناد، فانسلخ من هذا الفن إلى غيره، وجمع كتاباً سماه «الزرجون في الخلاعة والمجون» وذكر فيه أشياء كثيرة من النظم والنثر والخلاعة، ومن شعره الذي لا يحمد:

لَذَّةُ العُمْرِ خَمْسَةٌ فَاقْتَنِيهَا ... مِنْ خَلِيعٍ غَدَا أَدِيباً فَقِيهَا

فِي نَدِيمٍ وَقَيْنَةٍ وَحَبِيبٍ ... وَمُدَامٍ وَسَبِّ مَنْ لامَ فِيهَا

الوزير ابن العلقمي الرافضي قبّحه الله

محمد بن أحمد بن محمد بن علي بن أبي طالب، الوزير مؤيد الدين أبو طالب بن العلقمي، وزير المستعصم البغدادي، وخدمه في أيام المستنصر أستاذ دار الخلافة مدة طويلة، ثم صار وزير المستعصم وزير سوء على نفسه وعلى الخليفة وعلى المسلمين، مع أنه من الفضلاء في الإنشاء والأدب، وكان رافضياً خبيثاً رديء الطوية على الإسلام وأهله، وقد حصل له من التعظيم والوجاهة في أيام المستعصم ما لم يحصل لغيره من الوزراء، ثم مالأ على الإسلام وأهله التتار أصحاب هولاكو خان، حتى فعل ما فعل بالإسلام وأهله مما تقدم ذكره، ثم حصل له بعد ذلك من الإهانة والذل على أيدي التتار الذين مالأهم وزال عنه ستر الله، وذاق الخزي في الحياة الدنيا، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى، وقد رأته امرأة وهو في الذل والهوان وهو راكب في أيام التتار برذوناً وهو مرسم عليه، وسائق يسوق به ويضرب فرسه، فوقفت إلى جانبه وقالت له: يا ابن العلقمي هكذا كان بنو العباس يعاملونك؟ فوقعت كلمتها في قلبه وانقطع في داره إلى أن مات كمداً وغبينة وضيقاً، وقلة وذلة، في مستهل جمادى الآخرة من هذه السنة، وله من العمر ثلاث وستون سنة، ودفن في قبور الروافض، وقد سمع بأذنيه، ورأى بعينيه من الإهانة من التتار والمسلمين ما لا يحد ولا يوصف. وتولى بعده ولده الخبيث الوزارة، ثم أخذه الله أخذ القرى وهي ظالمة سريعاً، وقد هجاه بعض الشعراء فقال فيه:

يَا فِرْقَةَ الإِسْلامِ نُوحُوا وَانْدُبُوا ... أَسَفاً عَلَى ما حَلَّ بِالمُسْتَعْصِمِ

دَسْتُ الوَزَارَةِ كَانَ قَبْلَ زَمَانِهِ ... لابْنِ الفُرَاتِ فَصَارَ لابْنِ العَلْقَمِي

محمد بن عبد الصمد بن عبد الله بن حيدرة

فتح الدين أبو عبد الله بن العدل محتسب دمشق، كان مشكوراً حسن الطريقة، وجده العدل نجيب الدين أبو محمد عبد الله بن حيدرة، وهو واقف المدرسة التي بالزبداني في سنة تسعين وخمسمائة تقبل الله تعالى منه وجزاه خيراً.

القرطبي صاحب المفهم في شرح مسلم

أحمد بن عمر بن إبراهيم بن عمر أبو العباس الأنصاري القرطبي المالكي الفقيه المحدث المدرس بالاسكندرية، ولد بقرطبة سنة ثمان وسبعين وخمسمائة، وسمع الكثير هناك، واختصر الصحيحين، وشرح صحيح مسلم بكتابه المسمىٰ بالمفهم، وفيه أشياء حسنة مفيدة محررة رحمه الله.

الكمال إسحاق بن أحمد بن عثمان

أحد مشايخ الشافعية، أخذ عنه الشيخ محيي الدين النووي وغيره، وكان مدرساً بالرواحية، وكانت وفاته في ذي القعدة من هذه السنة.

العماد داود بن عمر بن يحيى بن عمر بن كامل

أبو المعالي وأبو سليمان الزبيدي المقدسي ثم الدمشقي خطيب بيت الابار، وقد خطب بدمشق ست سنين بعد انفصال الشيخ عز الدين بن عبد السلام، ودرس بالغزالية، ثم عاد إلى بيت الابار فمات بها.

علي بن محمد بن الحسين

صدر الدين أبو الحسن بن النيار شيخ الشيوخ ببغداد، وكان أولاً مؤدباً للإمام المستعصم، فلما صارت الخلافة إليه برهة من الدهور رفعه وعظّمه وصارت له وجاهة عنده، وانضمت إليه أزمة الأمور، ثم إنه ذبح بدار الخلافة كما تذبح الشاة على أيدي التتار.

الشيخ علي العابد [الزاهد][1] الخباز

كان له أصحاب وأتباع ببغداد، وله زاوية يزار فيها، قتلته التتار وألقي على مزبلة بباب زاويته ثلاثة أيام حتى أكلت الكلاب من لحمه، ويقال إنه أخبر بذلك عن نفسه في حال حياته رحمه الله تعالى.

محمد بن إسماعيل بن أحمد بن أبي الفرج أبو عبد الله المقدسي

خطيب براد، سمع الكثير، وعاش تسعين سنة، وولد في سنة ثلاث وخمسين فسمع الناس عليه الكثير بدمشق، ثم عاد فمات ببلده براد في هذه السنة، رحمه الله.

---

(١) سقط في ط.

البدر لؤلؤ صاحب الموصل

الملقب بالملك الرحيم، كانت وفاته في شعبان هذه السنة عن مائة سنة[1] وقد ملك الموصل نحواً من خمسين سنة، وكان ذا عقل ودهاء ومكر، لم يزل يعمل على أولاد أستاذه حتى أبادهم، وأزال الدولة الاتابكية عن الموصل، ولما انفصل هولاكو خان عن بغداد بعد الوقعة الفظيعة العظيمة ـ سار إلى خدمته طاعة له، ومعه الهدايا والتحف، فأكرمه واحترمه، ورجع من عنده فمكث بعد مرجعه بالموصل أياماً يسيرة، ثم مات ودفن بمدرسته البدرية، وتأسف الناس عليه لحسن سيرته وجودة معدلته، وقد جمع له الشيخ عز الدين كتابه المسمى بالكامل في التاريخ فأجازه عليه وأحسن إليه، وكان يعطي لبعض الشعراء ألف دينار. وقام في الملك بعده ولده الصالح إسماعيل. وقد كان بدر الدين لؤلؤ هذا أرمنياً اشتراه رجل خياط، ثم صار إلى الملك نور الدين أرسلان شاه بن عز الدين بن مسعود بن مودود بن زنكي بن آقسنقر الأتابكي صاحب الموصل، وكان مليح الصورة، فحظي عنده وتقدم في دولته إلى أن صارت الكلمة دائرة عليه، والوفود من سائر جهات ملكهم إليه. ثم إنه قتل أولاد أستاذه غيلة واحداً بعد واحد إلى أن لم يبق معه أحد منهم، فاستقل هو بالملك، وصفت له الأمور، وكان يبعث في كل سنة إلى مشهد علي قنديلاً ذهباً زنته ألف دينار، وقد بلغ من العمر قريباً من تسعين سنة، وكان شاباً حسن الشباب من نضارة وجهه، وحسن شكله، وكانت العامة تلقبه قضيب الذهب، وكان ذا همة عالية وداهية شديد المكر بعيد الغور، وبعثه إلى مشهد علي بذلك القنديل الذهب في كل سنة دليل على قلة عقله وتشيعه والله أعلم.

الملك الناصر داود المعظم

ترجمه الشيخ قطب الدين اليونيني في تذييله على المرآة في هذه السنة، وبسط ترجمته جداً وما جرى له من مبتدأ أمره إلى آخره. وقد ذكرنا ترجمته في الحوادث، وأنه أودع الخليفة المستعصم في سنة سبع وأربعين وديعة قيمتها مائة ألف دينار فجحدها الخليفة، فتكرر وفوده إليه، وتوسله بالناس في ردها إليه، فلم يفد من ذلك شيئاً، وتقدم أنه قال لذلك الشاعر الذي مدح الخليفة بقوله:

لَـوْ كُـنْـتَ فِـي يَـوْمِ الـسَّقِـيـفَـةِ حَـاضِـراً كُـنْـتَ الـمُـقَـدَّمَ وَالإِمَـامَ الأَوْرَعَـا

فقال له الناصر داود: أخطأت فقد كان جد أمير المؤمنين العباس حاضراً يوم السقيفة ولم يكن المقدم، وهو أفضل من أمير المؤمنين، وإنما كان المقدم أبو بكر الصديق، فقال الخليفة صدق وخلع عليه، ونفى ذلك الشاعر ـ وهو الوجيه الفزاري ـ إلى مصر، وكانت وفاة الناصر داود بقرية البويضا مرسماً عليه وشهد جنازته صاحب دمشق.

---

(١) في النسخة المصرية: عن ثمانين سنة.

ثم دخلت سنة سبع وخمسين وستمائة

استهلت هذه السنة وليس للمسلمين خليفة، وسلطان دمشق وحلب الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز محمد بن أبي الظاهر غازي بن الناصر صلاح الدين فاتح بيت المقدس، وهو واقع بينه وبين المصريين وقد ملكوا نور الدين علي بن المعز أيبك التركماني ولقبوه بالمنصور، وقد أرسل الملك الغاشم هولاكو خان إلى الملك الناصر صاحب دمشق يستدعيه إليه، فأرسل إليه ولده العزيز وهو صغير ومعه هدايا كثيرة وتحف، فلم يحتفل به هولاكو خان بل غضب على أبيه إذ لم يقبل إليه، وأخذ ابنه وقال أنا أسير إلى بلاده بنفسي، فانزعج الناصر لذلك، وبعث بحريمه وأهله إلى الكرك ليحصنهم بها وخاف أهل دمشق خوفاً شديداً، ولا سيما لما بلغهم أن التتار قد قطعوا الفرات، سافر كثير منهم إلى مصر في زمن الشتاء، فمات ناس كثير منهم ونهبوا، فإنا لله وإنا إليه راجعون. وأقبل هولاكوخان فقصد الشام بجنوده وعساكره، وقد امتنعت عليه ميافارقين مدة سنة ونصف، فأرسل إليها ولده أشموط فافتتحها قسراً وأنزل ملكها الكامل بن الشهاب غازي بن العادل فأرسله إلى أبيه وهو محاصر حلب فقتله بين يديه، واستناب عليها بعض مماليك الأشرف، وطيف برأس الكامل في البلاد، ودخلوا برأسه إلى دمشق، فنصب على باب الفراديس البراني، ثم دفن بمسجد الرأس داخل باب الفراديس الجواني، فنظم أبو شامة في ذلك قصيدة يذكر فيها فضله وجهاده، وشبهه بالحسين في قتله مظلوماً، ودفن رأسه عند رأسه.

وفيها عمل الخواجه نصير الدين الطوسي الرصد بمدينة مراغة، ونقل إليه شيئاً كثيراً من كتب الأوقاف التي كانت ببغداد، وعمل دار حكمة ورتب فيها فلاسفة، ورتب لكل واحد في اليوم والليلة ثلاثة دراهم، ودار طب فيها للطبيب في اليوم درهمان، ومدرسة لكل فقيه في اليوم درهم، ودار حديث لكل محدث نصف درهم في اليوم. وفيها قدم القاضي الوزير كمال الدين عمر بن أبي جرادة المعروف بابن العديم إلى الديار المصرية رسولاً من صاحب دمشق الناصر بن العزيز يستنجد المصريين على قتال التتار، وأنهم قد اقترب قدومهم إلى الشام، وقد استولوا على بلاد الجزيرة وغيرها، وقد جاز أشموط بن هولاكو خان الفرات وقرب من حلب، فعند ذلك عقدوا مجلساً بين يدي المنصور بن المعز التركماني، وحضر قاضي مصر بدر الدين السنجاري، والشيخ عز الدين بن عبد السلام، وتفاوضوا الكلام فيما يتعلق بأخذ شيء من أموال العامة لمساعدة الجند، وكانت العمدة على ما يقوله ابن عبد السلام، وكان حاصل كلامه أنه قال إذا لم يبق في بيت المال شيء ثم أنفقتم أموال الحوائض المذهبة وغيرها من الفضة والزينة، وتساويتم أنتم والعامة في الملابس سوى آلات الحرب بحيث لم يبق للجندي سوى فرسه التي يركبها، ساغ للحاكم حينئذٍ أخذ شيء من أموال الناس في دفع الأعداء عنهم، لأنه إذا دهم العدو البلاد، وجب على الناس كافة دفعهم بأموالهم وأنفسهم.

ولاية الملك المظفر قطز

وفيها قبض الأمير سيف الدين قطز على ابن أستاذه نور الدين علي الملقب بالمنصور، وذلك في غيبة أكثر الأمراء من مماليك أبيه وغيرهم في الصيد، فلما مسكه سيره مع أمه وابنيه وإخوته إلى بلاد الأشكري، وتسلطن هو وسمى نفسه بالملك المظفر، وكان هذا من رحمة الله تعالى بالمسلمين، فإن الله جعل على يديه كسر التتار كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى. وبان عذره الذي اعتذر به إلى الفقهاء والقضاة وإلى ابن العديم، فإنه قال لا بد للناس من سلطان قاهر يقاتل عن المسلمين عدوهم، وهذا صبي صغير لا يعرف تدبير المملكة.

وفيها برز الملك الناصر صاحب دمشق إلى وطاء، برز في جحافل كثيرة من الجيش والمتطوعة والأعراب وغيرهم، ولما علم ضعفهم عن مقاومة المغول ارفض ذلك الجمع، ولم يسر لا هو ولا هم، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفيها توفي من الأعيان:

واقف الصدرية صدر الدين أسعد بن المنجاة بن بركات بن مؤمل

التنوخي المغربي ثم الدمشقي الحنبلي أحد المعدلين، ذوي الأموال، والمروءات والصدقات الدارة البارة، وقف مدرسة للحنابلة، وقبره بها إلى جانب تربة القاضي المصري في رأس درب الريحان من ناحية الجامع الأموي، وقد ولي نظر الجامع مدة، واستجد أشياء كثيرة منها سوق النحاسين قبلي الجامع، ونقل الصاغة إلى مكانها الآن، وقد كانت قبل ذلك في الصاغة العتيقة، وجدد الدكاكين التي بين أعمدة الزيارة، وثمر الجامع أموالاً جزيلة، وكانت له صدقات كثيرة، وذكر عنه أنه كان يعرف صنعة الكيميا وأنه صح معه عمل الفضة، وعندي أن هذا لا يصح ولا يصح عنه والله أعلم.

الشيخ يوسف الأقميني

كان يعرف بالأقميني لأنه كان يسكن قمين حمام نور الدين الشهيد، وكان يلبس ثياباً طوالاً تحف على الأرض، ويبول في ثيابه، ورأسه مكشوفة، ويزعمون أن له أحوالاً وكشوفاً كثيرة، وكان كثير من العوام وغيرهم يعتقدون صلاحه وولايته، وذلك لأنهم لا يعلمون شرائط الولاية ولا الصلاح، ولا يعلمون أن الكشوف قد تصدر من البر والفاجر، والمؤمن والكافر، كالرهبان وغيرهم، وكالدجال وابن صياد وغيرهم، فإن الجن تسترق السمع وتلقيه على أذن الأنسي، ولا سيما من يكون مجنوناً أو غير نقي الثياب من النجاسة، فلا بد من اختبار صاحب الحال بالكتاب والسنة، فمن وافق حاله كتاب الله وسنة رسوله فهو رجل صالح سواء كاشف أو لم يكاشف، ومن لم يوافق فليس برجل صالح سواء كاشف أم لا. قال الشافعي: إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء ويطير في الهواء فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة. ولما مات هذا الرجل دفن بتربة بسفح قاسيون وهي مشهورة به شرقي الرواحية، وهي مزخرفة قد اعتنى بها بعض العوام ممن كان يعتقده، فزخرفها وعمل على قبره حجارة منقوشة بالكتابة، وهذا كله من

البدع، وكانت وفاته في سادس شعبان من هذه السنة، وكان الشيخ إبراهيم بن سعيد جيعانة لا يتجاسر فيما يزعم أن يدخل البلد والأقميني حي، فيوم مات الأقميني دخلها، وكانت العوام معه فدخلوا دمشق وهم يصيحون ويصرخون أذن لنا في دخول البلد، وهم أتباع كل ناعق لم يستضيئوا بنور العلم، فقيل لجيعانة: ما منعك من دخولها قبل اليوم؟ فقال: كنت كلما جئت إلى باب من أبواب البلد أجد هذا السبع رابضاً فيه فلا أستطيع الدخول، وقد كان سكن الشاغور، وهذا كذب واحتيال ومكر وشعبذة، وقد دفن جيعانة عنده في تربته بالسفح والله أعلم بأحوال العباد.

الشمس علي بن الشبي المحدّث

ناب في الحسبة عن الصدر البكري في أيامه، وقرأ الكثير بنفسه، وسمع وأسمع، وكتب بخطه كثيراً رحمه الله تعالى.

أبو عبد الله الفاسي شارح الشاطبية

اشتهر بالكنية، وقيل إن اسمه القاسم، وكانت وفاته بحلب، وكان عالماً فاضلاً في العربية والقراءات وغير ذلك، وقد أجاد في شرحه للشاطبية وأفاد، واستحسنه الشيخ شهاب الدين أبو شامة شارحها أيضاً.

النجم أخو البدر مفضل

وكان شيخ الفاضلية بالكلاسة، وكان له إجازة من السلفي خطيب العقبية بدر الدين يحيى ابن الشيخ عز الدين بن عبد السلام، ودفن بباب الصغير على جده، وكانت جنازته حافلة رحمه الله تعالى.

سعد الدين محمد ابن الشيخ محيي الدين بن عربي

ذكره أبو شامة وأثنى عليه في فضيلته وأدبه وشعره، هذا إن لم يكن من أتباع أبيه، وقد ذكر أبو شامة وفاة الناصر داود في هذه السنة.

سيف الدين بن صبرة: متولي شرطة دمشق، ذكر أبو شامة أنه حين مات جاءت حية فنهشت أفخاذه، وقيل: إنها التفت في أكفانه، وأعيى الناس دفعها. قال وقيل: إنه كان نصيرياً رافضياً خبيثاً مدمن خمر، نسأل الله الستر والعافية.

النجيب بن شعيشعة الدمشقي

أحد الشهود بها، له سماع حديث ووقف داره بدرب البانياسي دار حديث، وهي التي كان يسكنها شيخنا الحافظ المزي قبل انتقاله إلى دار الحديث الأشرفية، قال أبو شامة وكان ابن شعيشعة وهو النجيب أبو الفتح نصر الله بن العز بن أبي طالب الشيباني، مشهوراً بالكذب ورقة الدين وغير ذلك، وهو أحد الشهود المقدوح فيهم، ولم يكن بأهل أن يؤخذ عنه، قال وقد

أجلسه أحمد بن يحيى الملقب بالصدر ابن سني الدولة في حال ولايته القضاء بدمشق، فأنشد فيه بعض الشعراء:

جَلَسَ الشُّعَيْشِعَةُ الشَّقِيُّ لِيَشْهَدَا ... تَبًّا لَكُمْ، مَاذا عَدَا فِيمَا بَدَا؟
هَلْ زُلْزِلَ الزِّلْزالُ؟ أَمْ قَدْ خَرَجَ الدَّ ... جَّالُ أَمْ عُدِمَ الرِّجَالُ ذَوُو الهُدَى؟
عَجَباً لِمَحْلُولِ العَقِيدَةِ جَاهِلٍ ... بِالشَّرْعِ قَدْ أَذِنُوا لَهُ أَنْ يَقْعُدَا

قال أبو شامة: في سنة سبع وخمسين وستمائة توفي شخص زنديق يتعاطى الفلسفة والنظر في علم الأوائل، وكان يسكن مدارس المسلمين، وقد أفسد عقائد جماعة من الشبان المشتغلين فيما بلغني، وكان أبوه يزعم أنه من تلامذة ابن خطيب الري الرازي صاحب المصنفات حية ولد حية.

ثم دخلت سنة ثمان وخمسين وستمائة

استهلت هذه السنة بيوم الخميس وليس للناس خليفة، وملك العراقين وخراسان وغيرها من بلاد المشرق للسلطان هولاكو خان ملك التتار، وسلطان ديار مصر الملك المظفر سيف الدين قطز مملوك المعز أيبك التركماني، وسلطان دمشق وحلب الملك الناصر بن العزيز بن الظاهر، وبلاد الكرك والشوبك للملك المغيث بن العادل بن الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب، وهو حرب مع الناصر صاحب دمشق على المصريين، ومعهما الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري، وقد عزموا على قتال المصريين وأخذ مصر منهم. وبينما الناس على هذه الحال وقد تواترت الأخبار بقصد التتار بلاد الشام إذ دخل جيش المغول صحبة ملكهم هولاكوخان وجازوا الفرات على جسور عملوها، ووصلوا إلى حلب في ثاني صفر من هذه السنة، فحاصروها سبعة أيام ثم افتتحوها بالأمان، ثم غدروا بأهلها وقتلوا منهم خلقاً لا يعلمهم إلا الله عز وجل، ونهبوا الأموال، ، وسبوا النساء والأطفال، وجرى عليهم قريب مما جرى على أهل بغداد، فجاسوا خلال الديار وجعلوا أعزة أهلها أذلة، فإنا لله وإنا إليه راجعون. وامتنعت عليهم القلعة شهراً ثم استلموها بالأمان، وخرب أسوار البلد وأسوار القلعة وبقيت حلب كأنها حمار أجرب، وكان نائبها الملك المعظم توران شاه بن صلاح الدين وكان عاقلاً حازماً، لكنه لم يوافقه الجيش على القتال، وكان أمر الله قدراً مقدوراً. وقد كان أرسل هولاكو يقول لأهل حلب: نحن إنما جئنا لقتال الملك الناصر بدمشق، فاجعلوا لنا عندكم شحنة، فإن كانت النصرة لنا فالبلاد كلها في حكمنا، وإن كانت علينا فإن شئتم قبلتم الشحنة وإن شئتم أطلقتموه، فأجابوه ما لك عندنا إلا السيف، فتعجب من ضعفهم وجوابهم، فزحف حينئذٍ إليهم وأحاط بالبلد، وكان ما كان بقدر الله سبحانه. ولما فتحت حلب أرسل صاحب حماه بمفاتيحها إلى هولاكو، فاستناب عليها رجلاً من العجم يدعي أنه من ذرية خالد بن الوليد يقال له خسروشاه، فخرب أسوارها كمدينة حلب.

صفة أخذهم دمشق وزوال ملكهم عنها سريعاً

أرسل هولاكو وهو نازل على حلب جيشاً مع أمير من كبار دولته يقال له كتبغانوين، فوردوا دمشق في آخر صفر فأخذوها سريعاً من غير ممانعة ولا مدافع، بل تلقاهم كبارها بالرحب والسعة، وقد كتب السلطان هولاكو أماناً لأهل البلد، فقرىء بالميدان الأخضر ونودي به في البلد، فأمن الناس على وجل من الغدر، كما فعل بأهل حلب هذا والقلعة ممتنعة مستورة، وفي أعاليها المجانيق منصوبة والحال شديدة، فأحضرت التتار منجنيقاً يحمل على عجل والخيول تجرها، وهم راكبون على الخيل وأسلحتهم على أبقار كثيرة فنصب المنجانيق على القلعة من غربيها وخربوا حيطاناً كثيرة وأخذوا حجارتها ورموا بها القلعة رمياً متواتراً كالمطر المتدارك، فهدموا كثيراً من أعاليها وشرافاتها وتداعت للسقوط فأجابهم متوليها في آخر ذلك النهار للمصالحة، ففتحوها وخربوا كل بدنة فيها، وأعالي بروجها، وذلك في نصف جمادى الأولى من هذه السنة، وقتلوا المتولي بها بدر الدين بن قراجا، ونقيبها جمال الدين بن الصيرفي الحلبي، وسلموا البلد والقلعة إلى أمير منهم يقال له ابل سيان، وكان لعنه الله معظماً لدين النصارى، فاجتمع به أساقفتهم وقسوسهم، فعظمهم جداً، وزار كنائسهم، فصارت لهم دولة وصولة بسببه، وذهب طائفة من النصارى إلى هولاكو وأخذوا معهم هدايا وتحفاً، وقدموا من عنده ومعهم أمان فرمان من جهته، ودخلوا من باب توما ومعهم صليب منصوب يحملونه على رؤوس الناس، وهم ينادون بشعارهم ويقولون: ظهر الدين الصحيح دين المسيح. ويذمون دين الإسلام وأهله، ومعهم أواني فيها خمر لا يمرون على باب إلا رشوا عنده خمراً، وقماقم ملآنة خمراً يرشون منها على وجوه الناس وثيابهم، ويأمرون كل من يجتازون به في الأزقة والأسواق أن يقوم لصليبهم، ودخلوا من درب الحجر فوقفوا عند رباط الشيخ أبي البيان، ورشوا عنده خمراً، وكذلك على باب مسجد درب الحجر الصغير والكبير، واجتازوا في السوق حتى وصلوا درب الريحان أو قريب منه، فتكاثر عليهم المسلمون فردوهم إلى سوق كنيسة مريم، فوقف خطيبهم إلى دكة دكان في عطفة السوق فمدح دين النصارى وذم دين الإسلام وأهله، فإنا لله وإنا إليه راجعون. ثم دخلوا بعد ذلك إلى كنيسة مريم وكانت عامرة ولكن كان هذا سبب خرابها ولله الحمد. وحكى الشيخ قطب الدين في ذيله على المرآة أنهم ضربوا بالناقوس في كنيسة مريم فالله أعلم.

قال وذكر أنهم دخلوا إلى الجامع بخمر وكان في نيتهم إن طالت مدة التتار أن يخربوا كثيراً من المساجد وغيرها، ولما وقع هذا في البلد اجتمع قضاة المسلمين والشهود والفقهاء فدخلوا القلعة يشكون هذا الحال إلى متسلمها ابل سيان فأهينوا وطردوا، وقدم كلام رؤساء النصارى عليهم فإنا لله وإنا إليه راجعون. وهذا كان في أول هذه السنة وسلطان الشام الناصر بن العزيز وهو مقيم في وطأة برزه، ومعه جيوش كثيرة من الأمراء وأبناء الملوك ليناجزوا التتار إن قدموا عليهم، وكان في جملة من معه الأمير بيبرس البندقداري في جماعة من البحرية، ولكن الكلمة بين الجيوش مختلفة غير مؤتلفة، لما يريده الله عز وجل. وقد عزمت طائفة من الأمراء

على خلع الناصر وسجنه ومبايعة أخيه شقيقه الملك الظاهر علي، فلما عرف الناصر ذلك هرب إلى القلعة وتفرقت العساكر شذر مذر وساق الأمير ركن الدين بيبرس في أصحابه إلى ناحية غزة، فاستدعاه الملك المظفر قطز إليه واستقدمه عليه، وأقطعه قليوب وأنزله بدار الوزارة وعظم شأنه لديه، وإنما كان حتفه على يديه.

وقعة عين جالوت

اتفق وقوع هذا كله في العشر الأخير من رمضان من هذه السنة، فما مضت سوى ثلاثة أيام حتى جاءت البشارة بنصرة المسلمين على التتار بعين جالوت، وذلك أن الملك المظفر قطز صاحب مصر لما بلغه أن التتار قد فعلوا بالشام ما ذكرنا، وقد نهبوا البلاد كلها حتى وصلوا إلى غزة، وقد عزموا على الدخول إلى مصر، وقد عزم الملك ناصر صاحب دمشق على الرحيل إلى مصر، وليته فعل، وكان في صحبته الملك المنصور صاحب حماه وخلق من الأمراء وأبناء الملوك، وقد وصل إلى قطية وأكرم الملك المظفر قطز صاحب حماه ووعده ببلده ووفاه له، ولم يدخل الملك الناصر مصر بل كرّ راجعاً إلى ناحية تيه بني إسرائيل، ودخل عامة من كان معه إلى مصر، ولو دخل كان أيسر عليه مما صار إليه، ولكنه خاف منهم لأجل العداوة فعدل إلى ناحية الكرك فتحصن بها وليته استمر فيها، ولكنه قلق فركب نحو البرية - وليته ذهب فيها - واستجار ببعض أمراء الأعراب، فقصدته التتار وأتلفوا ما هنالك من الأموال وخربوا الديار وقتلوا الكبار والصغار وهجموا على الأعراب التي بتلك النواحي فقتلوا منهم خلقاً وسبوا من نسلهم ونسائهم، وقد اقتص منهم العرب بعد ذلك، فأغاروا على خيل جشارهم في نصف شعبان فساقوها بأسرها، فساقت وراءهم التتار فلم يدركوا لهم الغبار ولا استردوا منهم فرساً ولا حماراً، وما زال التتار وراء الناصر حتى أخذوه عند بركة زيزي وأرسلوه مع ولده العزيز وهو صغير وأخيه إلى ملكهم هولاكوخان وهو نازل على حلب، فما زالوا في أسره حتى قتلهم في السنة الآتية كما سنذكره. والمقصود أن المظفر قطز لما بلغه ما كان من أمر التتار بالشام المحروسة وأنهم عازمون على الدخول إلى ديار مصر بعد تمهيد ملكهم بالشام، بادرهم قبل أن يبادروه وبرز إليهم وأقدم عليهم قبل أن يقدموا عليه، فخرج في عساكره وقد اجتمعت الكلمة عليه، حتى انتهى إلى الشام واستيقظ له عسكر المغول وعليهم كتبغانوين، وكان إذ ذاك في البقاع فاستشار الأشرف صاحب حمص والمجير ابن الزكي، فأشاروا عليه بأنه لا قبل له بالمظفر حتى يستمد هولاكو فأبى إلا أن يناجزه سريعاً، فساروا إليه وسار المظفر إليهم، فكان اجتماعهم على عين جالوت يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان، فاقتتلوا قتالاً عظيماً، فكانت النصرة ولله الحمد للإسلام وأهله، فهزمهم المسلمون هزيمة هائلة وقتل أمير المغول كتبغانوين وجماعة من بيته، وقد قيل إن الذي قتل كتبغانوين الأمير جمال الدين آقوش الشمسي، واتبعهم الجيش الإسلامي يقتلونهم في كل موضع، وقد قاتل الملك المنصور صاحب حماه مع الملك المظفر قتالاً شديداً، وكذلك الأمير فارس الدين أقطاي المستعرب، وكان أتابك العسكر، وقد

أسر من جماعة كتبغانوين الملك السعيد بن العزيز بن العادل فأمر المظفر بضرب عنقه، واستأمن الأشرف صاحب حمص، وكان مع التتار، وقد جعله هولاكوخان نائباً على الشام كله، فأمنه الملك المظفر ورد إليه حمص، وكذلك رد حماه إلى المنصور وزاده المعرة وغيرها، وأطلق سلمية للأمير شرف الدين عيسى بن مهنا بن مانع أمير العرب، واتبع الأمير بيبرس البندقداري وجماعة من الشجعان التتار يقتلونهم في كل مكان، إلى أن وصلوا خلفهم إلى حلب، وهرب من بدمشق منهم يوم الأحد السابع والعشرين من رمضان. فتبعهم المسلمون من دمشق يقتلون فيهم ويستفكون الأسارى من أيديهم، وجاءت بذلك البشارة ولله الحمد على جبره إياهم بلطفه فجاوبتها دق البشائر من القلعة وفرح المؤمنون بنصر الله فرحاً شديداً، وأيد الله الإسلام وأهله تأييداً وكبت الله النصارى واليهود والمنافقين وظهر دين الله وهم كارهون، فتبادر عند ذلك المسلمون إلى كنيسة النصارى التي خرج منها الصليب فانتهبوا ما فيها وأحرقوها وألقوا النار فيما حولها فاحترق دور كثيرة إلى النصارى، وملأ الله بيوتهم وقبورهم ناراً، وأحرق بعض كنيسة اليعاقبة، وهمت طائفة بنهب اليهود، فقيل لهم إنه لم يكن منهم من الطغيان كما كان من عبدة الصلبان، وقتلت العامة وسط الجامع شيخاً رافضياً كان مصانعاً للتتار على أموال الناس يقال له الفخر محمد بن يوسف بن محمد الكنجي، كان خبيث الطوية مشرقياً ممالئاً لهم على أموال المسلمين قبّحه الله، وقتلوا جماعة مثله من المنافقين فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين، وقد كان هولاكو أرسل تقليداً بولاية القضاء على جميع المدائن: الشام، والجزيرة، والموصل، وماردين، والأكراد وغير ذلك، للقاضي كمال الدين عمر بن بدار التفليسي. وقد كان نائب الحكم بدمشق عن القاضي صدر الدين أحمد بن يحيى بن هبة الله بن سني الدولة من مدة خمس عشرة سنة، فحين وصل التقليد في سادس عشرين ربيع الأول قرىء بالميدان الأخضر فاستقل بالحكم في دمشق وقد كان فاضلاً، فسار القاضيان المعزولان صدر الدين بن سني الدولة ومحيي الدين بن الزكي إلى خدمة هولاكوخان إلى حلب، فخدع ابن الزكي لابن سني الدولة وبذل أموالاً جزيلة، وتولى القضاء بدمشق ورجعا، فمات ابن سني الدولة ببعلبك، وقدم ابن الزكي على القضاء ومعه تقليده وخلعة مذهبة فلبسها وجلس في خدمة ابل سنان تحت قبة النسر عند الباب الكبير، وبينهما الخاتون زوجة ابل سنان حاسرة عن وجهها، وقرىء التقليد هناك والحالة كذلك، وحين ذكر اسم هولاكو نثر الذهب والفضة فوق رؤوس الناس، فإنا لله وإنا إليه راجعون قبح الله ذلك القاضي والأمير والزوجة والسلطان. وذكر أبو شامة أن ابن الزكي استحوذ على مدارس كثيرة في مدته هذه القصيرة، فإنه عزل قبل رأس الحول، فأخذ في هذه المدة العذراوية والسلطانية والفلكية والركنية والقيمرية والعزيزية مع المدرستين اللتين كانتا بيده التقوية والعزيزية وأخذ لولده عيسى تدريس الأمينية ومشيخة الشيوخ، وأخذ أم الصالح لبعض أصحابه وهو العماد المصري، وأخذ الشامية البرانية لصاحب له، واستناب أخاه لأمه شهاب الدين إسماعيل بن أسعد بن حبيش في القضاء وولاّه الرواحية والشامية البرانية. قال أبو شامة: مع أن شرط واقفها ان لا يجمع بينها وبين غيرها. ولما رجعت

دمشق وغيرها إلى المسلمين، سعى في القضاء وبذل أموالاً ليستمر فيه وفيما بيديه من المدارس، فلم يستمر بل عزل بالقاضي نجم الدين أبي بكر بن صدر الدين بن سني الدولة، فقرىء توقيعه بالقضاء يوم الجمعة بعد الصلاة في الحادي والعشرين من ذي القعدة عند الشباك الكمالي من مشهد عثمان من جامع دمشق. ولما كسر الملك المظفر قطز عساكر التتار بعين جالوت ساق وراءهم ودخل دمشق في أبهة عظيمة وفرح به الناس فرحاً شديداً ودعوا له دعاء كثيراً، وأقر صاحب حمص الملك الأشرف عليها، وكذلك المنصور صاحب حماه، واسترد حلب من يد هولاكو، وعاد الحق إلى نصابه ومهد القواعد، وكان قد أرسل بين يديه الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري ليطرد التتار عن حلب ويتسلمها ووعده بنيابتها، فلما طردهم عنها وأخرجهم منها وتسلمها المسلمون استناب عليها غيره وهو علاء الدين ابن صاحب الموصل، وكان ذلك سبب الوحشة التي وقعت بينهما واقتضت قتل الملك المظفر قطز سريعاً، ولله الأمر من قبل ومن بعد، فلما فرغ المظفر من الشام عزم على الرجوع إلى مصر واستناب على دمشق الأمير علم الدين سنجر الحلبي الكبير والأمير مجير الدين بن الحسين بن آقشتمر، وعزل القاضي ابن الزكي عن قضاء دمشق، وولى ابن سني الدولة ثم رجع إلى الديار المصرية والعساكر الإسلامية في خدمته، وعيون الأعيان تنظر إليه شزراً من شدة هيبته.

ذكر سلطنة الملك الظاهر بيبرس البندقداري

وهو الأسد الضاري وذلك أن السلطان الملك المظفر قطز لما عاد قاصداً مصر، وصل إلى ما بين الغزالي والصالحية، عدا عليه الأمراء فقتلوه هنالك، وقد كان رجلاً صالحاً كثير الصلاة في الجماعة، ولا يتعاطى المسكر ولا شيئاً مما يتعاطاه الملوك، وكانت مدة ملكه من حين عزل ابن أستاذه المنصور علي بن المعز التركماني إلى هذه المدة، وهي أواخر ذي القعدة نحواً من سنة، رحمه الله وجزاه عن الإسلام وأهله خيراً. وكان الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري قد اتفق مع جماعة من الأمراء على قتله، فلما وصل إلى هذه المنزلة ضرب دهليزه وساق خلف أرنب، وساق معه أولئك الأمراء فشفع عنده ركن الدين بيبرس البندقداري في شيء فشفعه، فأخذ يده ليقبلها فأمسكها وحمل عليه أولئك الأمراء بالسيوف فضربوه بها، وألقوه عن فرسه ورشقوه بالنشاب حتى قتلوه رحمه الله، ثم كرّوا راجعين إلى المخيم وبأيديهم السيوف مصلتة، فأخبروا من هناك بالخبر، فقال بعضهم من قتله؟ فقالوا: ركن الدين بيبرس، فقالوا أنت قتلته؟ فقال نعم، فقالوا أنت الملك إذاً، وقيل لما قتل حار الأمراء بينهم فيمن يولون الملك، وصار كل واحد منهم يخشى غائلة ذلك، وأن يصيبه ما أصاب غيره سريعاً، فاتفقت كلمتهم على أن بايعوا بيبرس البندقداري، ولم يكن هو من أكابر المقدمين، ولكن أرادوا أن يجربوا فيه، ولقبوه الملك الظاهر، فجلس على سرير المملكة وحكمه، ودقت البشائر وضربت الطبول والبوقات وصفرت الشغابة، وزعقت الشاووشية بين يديه، وكان يوماً مشهوداً وتوكل على الله واستعان به، ثم دخل مصر والعساكر في خدمته، فدخل قلعة الجبل وجلس على كرسيها، فحكم وعدل وقطع ووصل وولّى وعزل، وكان شهماً شجاعاً أقامه الله للناس لشدة احتياجهم

إليه في هذا الوقت الشديد والأمر العسير، وكان أولاً لقب نفسه بالملك القاهر، فقال له الوزير: إن هذا اللقب لا يفلح من يلقب به. تلقب به القاهر بن المعتمد فلم تطل أيامه حتى خلع وسملت عيناه، ولقب به القاهر صاحب الموصل فسم فمات، فعدل عنه حينئذٍ إلى الملك الظاهر، ثم شرع في مسك من يرى في نفسه رئاسة من أكابر الأمراء حتى مهد الملك. وقد كان هولاكوخان لما بلغه ما جرى على جيشه من المسلمين بعين جالوت أرسل جماعة من جيشه الذين معه كثيرين ليستعيدوا الشام من أيدي المسلمين، فحيل بينهم وبين ما يشتهون فرجعوا إليه خائبين خاسرين، وذلك أنه نهض إليهم الهزبر الكاسر والسيف الباتر الملك الظاهر، فقدم دمشق وأرسل العساكر في كل وجه لحفظ الثغور والمعاقل بالأسلحة، فلم يقدر التتار على الدنو إليه، ووجدوا الدولة قد تغيرت، والسواعد قد شمرت، وعناية الله بالشام وأهله قد حصلت، ورحمته بهم قد نزلت، فعند ذلك نكصت شياطينهم على أعقابهم، وكروا راجعين القهقهرى، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات. وقد كان الملك المظفر قطز رحمه الله استناب على دمشق الأمير علم الدين سنجر الحلبي أحد الأتراك، فلما بلغه مقتل المظفر دخل القلعة ودعا لنفسه وتسمى بالملك المجاهد، فلما جاءت البيعة للملك الظاهر خطب له يوم الجمعة السادس من ذي الحجة فدعا الخطيب أولاً للمجاهد ثم للظاهر ثانياً وضربت السكة باسميهما معاً، ثم ارتفع المجاهد هذا من البين كما سيأتي.

وقد اتفق في هذا العام أمور عجيبة، وهي أن أول هذه السنة كانت الشام للسلطان الناصر بن العزيز، ثم في النصف من صفر صارت لهولاكو ملك التتار، ثم في آخر رمضان صارت للمظفر قطز ثم في أواخر القعدة صارت للظاهر بيبرس، وقد شركه في دمشق الملك المجاهد سنجر، وكذلك كان القضاء في أولها بالشام لابن سني الدولة صدر الدين، ثم صار للكمال عمر التفليسي من جهة هولاكو ثم لابن الزكي ثم لنجم الدين بن سني الدولة. وكذلك كان خطيب جامع دمشق عماد الدين بن الحرستاني من سنين متطاولة، فعزل في شوال منها بالعماد الاسعردي، وكان صيناً قارئاً مجيداً. ثم أعيد العماد الحرستاني في أول ذي القعدة منها. فسبحان من بيده الأمور يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد [لا يسأل عما يفعل وهم يسألون والله أعلم][1]. وفيها توفي من الأعيان:

قاضي القضاة صدر الدين أبو العباس ابن سني الدولة

أحمد بن يحيى بن هبة الله بن الحسين بن يحيى بن محمد بن علي يحيى بن صدقة بن الخياط قاضي القضاة صدر الدين أبو العباس ابن سني الدولة التغلبي الدمشقي الشافعي، وسني الدولة الحسين بن يحيى المذكور كان قاضياً لبعض ملوك دمشق في حدود الخمسمائة، وله أوقاف على ذريته. وابن الخياط الشاعر صاحب الديوان وهو أبو عبد الله أحمد بن محمد بن علي بن يحيى بن صدقة التغلبي هو عم سني الدولة. ولد سني الدولة سنة تسع وخمسين

(١) ما بين معقوفين سقط في ط.

وخمسمائة، وسمع الخشوعي وابن طبرزد، والكندي وغيرهم، وحدث ودرس في عدة مدارس وأفتى، وكان عارفاً بالمذاهب مشكور السيرة، ولكن الشيخ شهاب الدين أبو شامة ينال منه ويذمّه فالله أعلم.

وقد ولّي الحكم بدمشق استقلالاً سنة ثلاث وأربعين واستمر إلى مدة السنة وسافر حين عزل بالكمال التفليسي هو والقاضي محيي الدين بن الزكي، وقد سافر هو وابن الزكي إلى هولاكو لما أخذ حلب فولّى ابن الزكي القضاء، واختار ابن سني الدولة بعلبك فقدمها وهو متمرض فمات بها ودفن عند الشيخ عبد الله اليونيني، وقد كان الملك الناصر يثني عليه كما كان الملك الأشرف يثني على والده قاضي القضاة شمس الدين ابن سني الدولة. ولما استقر الملك الظاهر بيبرس ولّى القضاء ولده نجم الدين ابن سني الدولة وهو الذي حدث في زمن المشمش بطالة الدروس لأنه كان له بستان بأرض السهم، فكان يشق عليه مفارقة المشمش، والنزول إلى المدارس، فبطل الناس هذه الأيام واتبعوه في ذلك، والنفوس إنما تؤثر الراحة والبطالة، ولا سيما أصحاب البساتين في أيام الفواكه وكثرة الشهوات في تلك الأيام ولا سيما القضاة.

وفيها توفي:

الملك السعيد صاحب ماردين

نجم الدين بن ايل غازي بن المنصور أرتق بن أرسلان بن ايل غازي بن السني بن تمرتاش بن ايل غازي بن اريثي وكان شجاعاً ملك يوماً، وقد وقع في قلعته توران شاه ابن الملك صلاح الدين كان نائباً للملك الظاهر بن العزيز بن الظاهر بن الناصر صاحب دمشق على حلب، وقد حصن حلب من أيدي المغول مدة شهر، ثم تسلمها بعد محاصرة شديدة صلحاً. كانت وفاته في هذه السنة ودفن بدهليز داره. وفيها قتل:

الملك السعيد حسن بن عبد العزيز

ابن العادل أبي بكر بن أيوب، وكان صاحب الصبيبة وبانياس بعد أبيه، ثم أخذتا منه وحبس بقلعة المنيرة، فلما جاءت التتار كان معهم وردوا عليه بلاده، فلما كانت وقعة عين جالوت أتى به أسيراً إلى بين يدي المظفر قطز فضرب عنقه، لأنه كان قد لبس سرقوج التتار وناصحهم على المسلمين.

عبد الرحمن بن عبد الرحيم بن الحسن بن عبد الرحمن بن طاهر

ابن محمد بن الحسين بن علي بن أبي طالب، شرف الدين بن العجمي الحلبي الشافعي، من بيت العلم والرئاسة بحلب، درس بالظاهرية ووقف مدرسة بها ودفن بها، كانت وفاته حين دخلت التتار حلب في صفر، فعذبوه وصبّوا عليه ماء بارداً في الشتاء فتشنج حتى مات رحمه الله تعالى.

الملك المظفر قطز بن عبدالله

سيف الدين التركي، أخص مماليك المعز عز الدين أيبك التركماني، أحد مماليك الصالح أيوب بن الكامل. لما قتل أستاذه المعز قام في تولية ولده نور الدين المنصور علي، فلما سمع

بأمر التتار خاف أن تختلف الكلمة لصغر ابن أستاذه فعزله ودعا إلى نفسه، فبويع في ذي القعدة سنة سبع وخمسين وستمائة كما تقدّم، ثم سار إلى التتار فجعل الله على يديه نصرة الإسلام كما ذكرنا، وقد كان شجاعاً بطلاً كثير الخير ناصحاً للإسلام وأهله، وكان الناس يحبونه ويدعون له كثيراً. ذكر عنه أنه لما كان يوم المعركة بعين جالوت قتل جواده ولم يجد أحداً في الساعة الراهنة من الوشاقية الذين معهم الجنائب، فترجل وبقي واقفاً على الأرض ثابتاً، والقتال عمال في المعركة، وهو في موضع السلطان من القلب، فلما رآه بعض الأمراء ترجل عن فرسه وحلف على السلطان ليركبنها فامتنع وقال لذلك الأمير: ما كنت لأحرم المسلمين نفعك. ولم يزل كذلك حتى جاءته الوشاقية بالخيل فركب، فلامه بعض الأمراء وقال: ياخوند لم لا ركبت فرس فلان؟ فلو أن بعض الأعداء رآك لقتلك وهلك الإسلام بسببك، فقال: أما أنا فكنت أروح إلى الجنة، وأما الإسلام فله رب لا يضيعه، قد قتل فلان وفلان وفلان حتى عد خلقاً من الملوك؛ فأقام للإسلام من يحفظه غيرهم، ولم يضيع الإسلام، رحمه الله وكان حين سار من مصر في خدمته خلق من كبار الأمراء البحرية وغيرهم، ومعه المنصور صاحب حماه وجماعة من أبناء الملوك. فأرسل إلى صاحب حماه يقول له لا تتعنى في مد سماط في هذه الأيام، وليكن مع الجندي لحمة يأكلها، والعجل العجل، وكان اجتماعه مع عدوه كما ذكرنا في العشر الأخير من رمضان يوم الجمعة، وهذه بشارة عظيمة، فإن وقعة بدر كانت يوم الجمعة في رمضان، وكان فيها نصر الإسلام، ولما قدم دمشق في شوال أقام بها العدل ورتب الأمور، وأرسل بيبرس خلف التتار ليخرجهم ويطردهم عن حلب، ووعده بنيابتها فلم يف له لما رآه من المصلحة، فوقعت الوحشة بينهما بسبب ذلك، فلما عاد إلى مصر تمالأ عليه الأمراء مع بيبرس فقتلوه بين القرابى والصالحية ودفن بالقصر، وكان قبره يزار، فلما تمكن الظاهر من الملك بعث إلى قبره فغيبه عن الناس، وكان لا يعرف بعد ذلك، قتل يوم السبت سادس عشر من ذي القعدة رحمه الله.

وحكى الشيخ قطب الدين اليونيني في الذيل على المرآة عن الشيخ علاء الدين بن غانم عن المولى تاج الدين أحمد بن الأثير كاتب السر في أيام الناصر صاحب دمشق، قال: لما كنا مع الناصر بوطاه برزه جاءت البريدية بخبر أن قطز قد تولى الملك بمصر، فقرأت ذلك على السلطان، فقال: اذهب إلى فلان وفلان فأخبرهم بهذا، قال فلما خرجت عنه لقيني بعض الأجناد فقال لي جاءكم الخبر من مصر بأن قطز قد تملك؟ فقلت: ما عندي من هذا علم وما يدريك أنت بهذا؟ فقال بلى والله سيلي المملكة ويكسر التتار، فقلت من أين تعلم هذا؟ فقال: كنت أخدمه وهو صغير وكان عليه قمل كثير فكنت أفليه وأهينه وأذمه، فقال لي يوماً: ويلك إيش تريد أعطيك إذا ملكت الديار المصرية؟ فقلت له أنت مجنون؟ فقال: لقد رأيت رسول الله ﷺ في المنام وقال لي: أنت تملك الديار المصرية وتكسر التتار، وقول رسول الله ﷺ حق لاشك فيه، فقلت له حينئذٍ ـ وكان صادقاً ـ أريد منك إمرة خمسين فارساً، فقال نعم أبشر. قال ابن الأثير: فلما قال لي هذا قلت له هذه كتب المصريين بأنه قد تولى السلطنة، فقال والله ليكسرن التتار، وكان كذلك، ولما رجع الناصر إلى ناحية الديار المصرية وأراد دخولها ورجع

عنها ودخلها أكثر الجيوش الشامية كان هذا الأمير الحاكي في جملة من دخلها، فأعطاه المظفر إمرة خمسين فارساً، ووفى له بالوعد، وهو الأمير جمال الدين التركماني. قال ابن الأثير: فلقيني بمصر بعد أن تأمر فذكرني بما كان أخبرني عن المظفر، فذكرته ثم كانت وقعة التتار على إثر ذلك فكسرهم وطردهم عن البلاد، وقد روى عنه أنه لما رأى عصائب التتار قال للأمراء والجيوش الذين معه: لا تقاتلوهم حتى تزول الشمس وتفيء الظلال وتهب الرياح، ويدعوا لنا الخطباء والناس في صلاتهم، رحمه الله تعالى.

وفيها هلك كتبغا نوين نائب هولاكو على بلاد الشام لعنه الله، ومعنى نوين يعني أمير عشرة آلاف، وكان هذا الخبيث قد فتح لأستاذه هولاكو من أقصى بلاد العجم إلى الشام، وقد أدرك جنكيزخان جد هولاكو، وكان كتبغا هذا يعتمد في حروبه للمسلمين أشياء لم يسبقه أحد إليها، كان إذا فتح بلداً ساق مقاتلة هذا البلد إلى البلد الآخر الذي يليه، ويطلب من أهل ذلك البلد أن يأووا هؤلاء إليهم، فإن فعلوا حصل مقصوده في تضييق الأطعمة والأشربة عليهم، فتقصر مدة الحصار عليه لما ضاق على أهل البلد من أقواتهم، وإن امتنعوا من إيوائهم عندهم قاتلهم بأولئك المقاتلة الذين هم أهل البلد الذي فتحه قبل ذلك، فإن حصل الفتح وإلا كان قد أضعف أولئك بهؤلاء حتى يفنى تلك المقاتلة، فإن حصل الفتح وإلا قاتلهم بجنده وأصحابه مع راحة أصحابه وتعب أهل البلد وضعفهم حتى يفتحهم سريعاً، وكان يبعث إلى الحصن يقول: إن ماءكم قد قل فنخشى أن نأخذكم عنوة فنقتلكم عن آخركم ونسبي نساءكم وأولادكم فما بقاؤكم بعد ذهاب مائكم، فافتحوا صلحاً قبل أن نأخذكم قسراً فيقولون له: إن الماء عندنا كثير فلا نحتاج إلى ماء. فيقول لا أصدق حتى أبعث من عندي من يشرف عليه فإن كان كثيراً انصرفت عنكم، فيقولون: ابعث من يشرف عليه، فيرسل رجالاً من جيشه معهم رماح مجوفة محشوة سماً، فإذا دخلوا الحصن الذي قد أعياه ساطوا ذلك الماء بتلك الرماح على أنهم يفتشونه ويعرفون قدره، فينفتح ذلك السم ويستقر في ذلك الماء فيكون سبب هلاكهم وهم لا يشعرون لعنه الله لعنة تدخل معه قبره. وكان شيخاً كبيراً قد أسن وكان يميل إلى دين النصارى ولكن لا يمكنه الخروج من حكم جنكيزخان في الياساق.

قال الشيخ قطب الدين اليونيني: وقد رأيته ببعلبك حين حاصر قلعتها، وكان شيخاً حسناً له لحية طويلة مسترسلة قد ضفرها مثل الدبوقة، وتارة يعلقها من خلفه بإذنه، وكان مهيباً شديد السطوة، قال وقد دخل الجامع فصعد المنارة ليتأمل القلعة منها. ثم خرج من الباب الغربي فدخل دكاناً خراباً فقضى حاجته والناس ينظرون إليه وهو مكشوف العورة، فلما فرغ من حاجته مسحه بعض أصحابه بقطن ملبد مسحة واحدة. قال ولما بلغه خروج المظفر بالعساكر من مصر تلوم في أمره وحار ماذا يفعل، ثم حملته نفسه الأبية على لقائه، وظن أنه منصور على جاري عادته، فحمل يومئذٍ على الميسرة، فكسرها ثم أيد الله المسلمين وثبّتهم في المعركة فحملوا حملة صادقة على التتار فهزموهم هزيمة لا تجبر أبداً، وقتل أميرهم كتبغانوين في المعركة وأسر ابنه، وكان شاباً حسناً، فأحضر بين يدي المظفر قطز فقال له أهرب أبوك؟ قال إنه لا يهرب،

فطلبوه فوجدوه بين القتلى، فلما رآه ابنه صرخ وبكى، فلما تحققه المظفر سجد لله تعالى ثم قال: أنام طيباً، كان هذا سعادة التتار وبقتله ذهب سعدهم، وهكذا كان كما قال ولم يفلحوا بعده أبداً، وكان قتله يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان، وكان الذي قتله الأمير آقوش الشمسي رحمه الله.

الشيخ محمد الفقيه اليونيني

الحنبلي البعلبكي الحافظ، هو محمدبن أحمدبن عبداللهبن عيسىبن أبي الرجال أحمدبن عليبن محمدبن محمد بن محمد بن الحسين بن إسحاق بن جعفر الصادق، كذا نقل هذه النسبة الشيخ قطب الدين اليونيني من خط أخيه الأكبر أبي الحسين علي وأخبره أن والده قال له نحن من سلالة جعفر الصادق، قال وإنما قال له هذا عند الموت ليتخرج من قبول الصدقات.

أبو عبد الله بن أبي الحسين اليونيني الحنبلي تقي الدين الفقيه الحنبلي الحافظ المفيد البارع العابد الناسك، ولد سنة ثنتين وسبعين وخمسمائة، وسمع الخشوعي وحنبلاً والكندي والحافظ عبد الغني المقدسي وكان يثني عليه، وتفقه على الموفق، ولزم الشيخ عبد الله اليونيني فانتفع به، وكان الشيخ عبد الله يثني عليه ويقدمه ويقتدي به في الفتاوى، وقد لبس الخرقة من شيخ شيخه عبد الله البطائحي، وبرع في علم الحديث وحفظ الجمع بين الصحيحين بالفاء والواو، وحفظ قطعة صالحة من مسند الإمام أحمد، وكان يعرف العربية أخذها عن التاج الكندي، وكتب مليحاً حسناً، وكان الناس ينتفعون بفنونه الكثيرة، ويأخذون عنه الطرق الحسنة، وقد حصلت له وجاهة عظيمة عند الملوك، توضأ مرة عند الملك الأشرف بالقلعة حال سماع البخاري على الزبيدي، فلما فرغ من الوضوء نفض السلطان تخفيفته وبسطها على الأرض ليطأ عليها، وحلف السلطان له إنها طاهرة ولا بد أن يطأ برجليه عليها ففعل ذلك. وقدم الكامل على أخيه الأشرف دمشق فأنزله القلعة وتحول الأشرف لدار السعادة وجعل يذكر للكامل محاسن الشيخ الفقيه، فقال الكامل: أحب أن أراه، فأرسل إليه إلى بعلبك بطاقة واستحضره فوصل إلى دار السعادة، فنزل الكامل إليه وتحادثا وتذاكرا شيئاً من العلم، فجرت مسألة القتل بالمثقل، وجرى ذكر حديث الجارية التي قتلها اليهودي فرض رأسها بين حجرين فأمر رسول الله ﷺ بقتله، فقال الكامل: إنه لم يعترف. فقال الشيخ الفقيه في صحيح مسلم «فاعترف»، فقال الكامل أنا اختصرت صحيح مسلم ولم أجد هذا فيه، فأرسل الكامل فأحضر خمسة مجلدات اختصاره لمسلم، فأخذ الكامل مجلداً والأشرف آخر وعماد الدين بن موسك آخر وأخذ الشيخ الفقيه مجلداً فأول ما فتحه وجد الحديث كما قال الشيخ الفقيه، فتعجب الكامل من استحضاره وسرعة كشفه، وأراد أن يأخذه معه إلى الديار المصرية فأرسله الأشرف سريعاً إلى بعلبك، وقال للكامل: إنه لا يؤثر ببعلبك شيئاً، فأرسل له الكامل ذهباً كثيراً، قال ولده قطب الدين: كان والدي يقبل بر الملوك ويقول أنا لي في بيت المال أكثر من هذا، ولا يقبل من الأمراء ولا من الوزراء شيئاً إلا أن يكون هدية مأكول ونحوه، ويرسل إليهم من ذلك فيقبلونه على سبيل التبرك والاستشفاء.

وذكر أنه كثر ماله وأثرى، وصار له سعة من المال كثيرة، وذكر له أن الأشرف كتب له كتاباً بقرية يونين وأعطاه لمحيي الدين بن الجوزي ليأخذ عليه خط الخليفة، فلما شعر والدي بذلك أخذ الكتاب ومزقه وقال: أنا في غنية عن ذلك، قال وكان والدي لا يقبل شيئاً من الصدقة ويزعم أنه من ذرية علي بن أبي طالب من جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، قال وقد كان قبل ذلك فقيراً لا شيء له، وكان للشيخ عبد الله زوجة ولها ابنة جميلة، وكان الشيخ يقول لها: زوجيها من الشيخ محمد، فتقول إنه فقير وأنا أحب أن تكون ابنتي سعيدة، فيقول الشيخ عبد الله كأني أنظر إليهما إياه وإياها في دار فيها بركة وله رزق كثير والملوك يترددون إلى زيارته، فزوجتها منه فكان الأمر كذلك، وكانت أولى زوجاته رحمه الله تعالى.

وكانت الملوك كلهم يحترمونه ويعظمونه ويجيئون إلى مدينته، بنو العادل وغيرهم، وكذلك كان مشايخ الفقهاء كابن الصلاح، وابن عبد السلام، وابن الحاجب، والحصري، وشمس الدين بن سني الدولة، وابن الجوزي، وغيرهم يعظمونه ويرجعون إلى قوله لعلمه وعمله وديانته وأمانته. وقد ذكرت له أحوال ومكاشفات وكرامات كثيرة رحمه الله، وزعم بعضهم أنه قطب منذ ثنتي عشرة سنة فالله أعلم. وذكر الشيخ الفقيه قال عزمت مرة على الرحلة إلى حران، وكان قد بلغني أن رجلاً بها يعلم علم الفرائض جيداً، فلما كانت الليلة التي أريد أن أسافر في صبيحتها جاءتني رسالة الشيخ عبد الله اليونيني يعزم علي إلى القدس الشريف، وكأني كرهت ذلك وفتحت المصحف فطلع قوله: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾ [سورة يس: ٢١] فخرجت معه إلى القدس فوجدت ذلك الرجل الحراني بالقدس الشريف، فأخذت عنه علم الفرائض حتى خيل لي أني صرت أبرع فيه منه. وقال الشيخ أبو شامة كان الشيخ الفقيه رجلاً ضخماً، وحصل له قبول من الأمراء وغيرهم، وكان يلبس قبعاً صوفه إلى خارج كما كان شيخه الشيخ عبد الله اليونيني، قال وقد صنف شيئاً في المعراج فرددت عليه في كتاب سميته الواضح الجلي في الرد على الحنبلي، وذكر ولده قطب الدين أنه مات في التاسع عشر من رمضان من هذه السنة عن ثمان وثمانين سنة رحمه الله تعالى.

محمد بن خليل بن عبد الوهاب بن بدر

أبو عبد الله البيطار الأكال، أصله من جبل بني هلال، وولد بقصر حجاج، وكان مقيماً بالشاغور وكان فيه صلاح ودين وإيثار للفقراء والمحاويج والمحابيس، وكانت له حال غريبة لا يأكل لأحد شيئاً إلا بأجرة، وكان أهل البلد يترامون عليه ليأكل لهم الأشياء المفتخرة الطيبة فيمتنع إلا بأجرة جيدة، وكلما امتنع من ذلك حلي عند الناس وأحبوه ومالوا إليه ويأتونه بأشياء كثيرة من الحلاوات والشواء وغير ذلك فيرد عليهم عوض ذلك أجرة جيدة مع ذلك، وهذا غريب جداً، رحمه الله تعالى ورضي عنه بمنّه وكرمه آمين.

ثم دخلت سنة تسع وخمسين وستمائة

استهلت بيوم الاثنين لأيام خلون من كانون الأول، وليس للمسلمين خليفة وصاحب مكة أبو نمى بن أبي سعيد بن علي بن قتادة الحسني، وعمه إدريس بن علي شريكه، وصاحب المدينة الأمير عز الدين جماز بن شيحة الحسيني، وصاحب مصر والشام السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقداري، وشريكه في دمشق وبعلبك والصبيبة وبانياس الأمير علم الدين سنجر الملقب بالملك المجاهد، وشريكه في حلب الأمير حسام الدين لاشين الجوكنداري العزيزي، والكرك والشوبك للملك المغيث فتح الدين عمر بن العادل بن سيف الدين أبي بكر الكامل محمد بن العادل الكبير سيف الدين أبي بكر بن أيوب. وحصن جهيون وبازريا في يد الأمير مظفر الدين عثمان بن ناصر الدين مكورس، وصاحب حماه الملك المنصور بن تقي الدين محمود، وصاحب حمص الأشرف بن المنصور إبراهيم بن أسد الدين الناصر، وصاحب الموصل الملك الصالح بن البدر لؤلؤ، وأخوه الملك المجاهد صاحب جزيرة ابن عمر، وصاحب ماردين الملك السعيد نجم الدين إيل غازي بن أرتق، وصاحب بلاد الروم ركن الدين قلج أرسلان بن كيخسرو السلجوقي، وشريكه في الملك أخوه كيكاوس والبلاد بينهما نصفين، وسائر بلاد المشرق بأيدي التتار أصحاب هولاكو، وبلاد اليمن تملكها غير واحد من الملوك . وكذلك بلاد المغرب في كل قطر منها ملك.

وفي هذه السنة أغارت التتار على حلب فلقيهم صاحبها حسام الدين العزيزي، والمنصور صاحب حماه، والأشرف صاحب حمص، وكانت الوقعة شمالي حمص قريباً من قبر خالد بن الوليد، والتتار في ستة آلاف والمسلمون في ألف وأربعمائة فهزمهم الله عز وجل، وقتل المسلمون أكثرهم فرجع التتار إلى حلب فحصروها أربعة أشهر وضيّقوا عليها الأقوات، وقتلوا من الغرباء خلقاً صبراً، فإنا لله وإنا إليه راجعون، والجيوش الذين كسروهم على حمص مقيمون لم يرجعوا إلى حلب بل ساقوا إلى مصر، فتلقاهم الملك الظاهر في أبهة السلطنة وأحسن إليهم، وبقيت حلب محاصرة لا ناصر لها في هذه المدة ولكن سلم الله سبحانه وتعالى.

وفي يوم الاثنين سابع صفر ركب الظاهر في أبهة الملك ومشى الأمراء والأجناد بين يديه، وكان ذلك أول ركوبه واستمر بعد ذلك يتابع الركوب واللعب بالكرة.

وفي سابع[1] عشر صفر خرج الأمراء بدمشق على ملكها علم الدين سنجر فقاتلوه فهزموه، فدخل القلعة فحاصروه فيها فهرب منها إلى قلعة بعلبك، وتسلم قلعة دمشق الأمير علم الدين أيدكين البندقداري، وكان مملوكاً لجمال الدين يعمور ثم للصالح أيوب بن الكامل وإليه ينسب الملك الظاهر، فأرسله الظاهر ليتسلم دمشق من الحلبي علم الدين سنجر، فأخذها وسكن قلعتها نيابة عن الظاهر، ثم حاصروا الحلبي ببعلبك حتى أخذوه فأرسلوه إلى الظاهر على بغل إلى مصر، فدخل عليه ليلاً فعاتبه ثم أطلق له أشياء وأكرمه.

(١) في ط: الحادي عشر.

وفي يوم الاثنين ثامن ربيع الأول استوزر الظاهر بهاء الدين علي بن محمد المعروف بابن الحنا وفي ربيع الآخر قبض الظاهر على جماعة من الأمراء بلغه عنهم أنهم يريدون الوثوب عليه وفيه أرسل إلى الشوبك فتسلمها من أيدي نواب المغيث صاحب الكرك، وفيها جهز الظاهر جيشاً إلى حلب ليطردوا التتار عنها، فلما وصل الجيش إلى غزة كتب الفرنج إلى التتار ينذرونهم، فرحلوا عنها مسرعين واستولى على حلب جماعة من أهلها، فصادروا ونهبوا وبلغوا أغراضهم، وقدم إليهم الجيش الظاهري فأزالوا ذلك كله، وصادروا أهلها بألف ألف وستمائة ألف، ثم قدم الأمير شمس الدين آقوش التركي من جهة الظاهر فاستلم البلد واستحوذ عليها فقطع ووصل وحكم وعدل.

وفي يوم الثلاثاء عاشر جمادى الأولى باشر القضاء بمصر تاج الدين عبد الوهاب ابن القاضي الأعز أبي القاسم خلف بن رشيد الدين بن أبي الثناء محمود بن بدر العلائي، وذلك بعد شروط ذكرها للظاهر شديدة، فدخل تحتها الملك الظاهر وعزل عن القضاء بدر الدين أبو المحاسن يوسف بن علي السنجاري ورسم عليه أياماً، ثم أفرج عنه.

[ذكر](١) البيعة بالخلافة للمستنصر بالله أبي القاسم أحمد ابن أمير المؤمنين الظاهر [بأمر الله أبي نصر محمد ابن أمير المؤمنين الناصر لدين الله أبي العباس أحمد العباسي وهو عم المستعصم](٢)

وكان معتقلاً ببغداد فأطلق، وكان مع جماعة الأعراب بأرض بالعراق، ثم قصد الظاهر حين بلغه ملكه، فقدم مصر صحبة جماعة من أمراء الأعراب عشرة، منهم الأمير ناصر الدين مهنا في ثامن رجب، فخرج السلطان ومعه الوزير والشهود والمؤذنون فتلقوه وكان يوماً مشهوداً، وخرج أهل التوراة بتوراتهم، والنصارى بأنجيلهم، ودخل من باب النصر في أبهة عظيمة، فلما كان يوم الاثنين ثالث عشر رجب جلس السلطان والخليفة بالإيوان بقلعة الجبل، والوزير والقاضي والأمراء على طبقاتهم، وأثبت نسب الخليفة المذكور على الحاكم تاج الدين بن الأعز، وهذا الخليفة هو أخو المستنصر باني المستنصرية، وعم المستعصم، بويع بالخلافة بمصر بايعه الملك الظاهر والقاضي والوزير والأمراء، وركب في دست الخلافة بديار مصر والأمراء بين يديه والناس حوله، وشق القاهرة في ثالث عشر رجب، وهذا الخليفة هو الثامن والثلاثون من خلفاء بني العباس بينه وبين العباس أربعة وعشرون أباً، وكان أول من بايعه القاضي تاج الدين لما ثبت نسبه، ثم السلطان ثم الشيخ عز الدين بن عبد السلام ثم الأمراء والدولة، وخطب له على المنابر وضرب اسمه على السكة وكان منصب الخلافة قد شغر منذ ثلاث سنين ونصفاً، لأن المستعصم قتل في أول سنة ست وخمسين وستمائة، وبويع هذا في يوم الاثنين في ثالث عشر رجب من هذه السنة ـ أعني سنة تسع وخمسين وستمائة ـ وكان أسمر

(١) سقط في ط.

(٢) ما بين معقوفين سقط في ط.

وسيماً شديد القوى عالي الهمة له شجاعة وإقدام، وقد لقبوه بالمستنصر كما كان أخاه باني المدرسة، وهذا أمر لم يسبق إليه أن خليفتين أخوين يلقب كل منهما بالآخر، ولي الخلافة أخوين كهذين السفاح وأخوه المنصور، وكذا محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، والهادي والرشيد، والمسترشد والمقتفي ولدا المستظهر، وأما ثلاثة فالأمين والمأمون والمعتصم أولاد الرشيد، والمنتصر والمعتز والمطيع أولاد المقتدر، وأما أربعة فأولاد عبد الملك بن مروان الوليد وسليمان ويزيد وهشام. وكانت مدة خلافته إلى أن فقد كما سيأتي خمسة أشهر وعشرين يوماً، أقصر مدة من جميع خلفاء بني العباس، وأما بنو أمية فكانت مدة خلافة معاوية بن يزيد بن معاوية أربعين يوماً، وإبراهيم بن يزيد الناقص سبعين يوماً، وأخوه يزيد بن الوليد خمسة أشهر. وكانت مدة خلافة الحسن بن علي بعد أبيه سبعة أشهر وأحد عشر يوماً. وكانت مدة مروان بن الحكم تسعة أشهر وعشرة أيام، وكان في خلفاء بني العباس من لم يستكمل سنة منهم المنتصر بن المتوكل ستة أشهر، والمهتدي بن الواثق أحد عشر شهراً وأياماً، وقد أنزل الخليفة المستنصر هذا بقلعة الجبل في برج هو وحشمه وخدمه، فلما كان يوم سابع عشر رجب ركب في أبهة السواد وجاء إلى الجامع بالقلعة فصعد المنبر وخطب بالناس خطبة ذكر فيها شرف بني العباس، ثم استفتح فقرأ صدراً من سورة الأنعام ثم صلّى على النبي ﷺ ثم ترضّى عن الصحابة ودعا للسلطان الظاهر، ثم نزل فصلّى بالناس فاستحسنوا ذلك منه، وكان وقتاً حسناً ويوماً مشهوداً.

تولية الخلافة المستنصر بالله للملك الظاهر السلطنة

لما كان يوم الاثنين الرابع من شعبان، ركب الخليفة والسلطان والوزير والقضاة والأمراء وأهل الحل والعقد إلى خيمة عظيمة قد ضربت ظاهر القاهرة فجلسوا فيها، فألبس الخليفة السلطان بيده خلعة سوداء، وطوقاً في عنقه، وقيداً في رجليه وهما من ذهب، وصعد فخر الدين إبراهيم بن لقمان وهو رئيس الكتاب منبراً فقرأ على الناس تقليد السلطان، وهو من إنشائه وبخط نفسه، ثم ركب السلطان بهذه الأبهة والقيد في رجليه، والطوق في عنقه، والوزير بين يديه، وعلى رأسه التقليد والأمراء والدولة في خدمته مشاة سوى الوزير، فشق القاهرة وقد زينت له، وكان يوماً مشهوداً يقصر اللسان عن وصفه، وقد ذكر الشيخ قطب الدين هذا التقليد بتمامه، وهو مطول والله أعلم.

[ذكر تجهيز][1] الخليفة إلى بغداد

ثم إن الخليفة لما طلب من السلطان ذلك أن يجهزه إلى بغداد، فرتب السلطان له جنداً هائلة وأقام له من كل ما ينبغي للخلفاء والملوك من الحشم والخدم والطبلخاه وغير ذلك. ثم سار السلطان صحبته قاصدين دمشق في أبهة عظيمة، وكان سبب خروج السلطان من مصر إلى

(١) في ط: ذهاب.

الشام، أن التركي كما تقدم كان قد استحوذ على حلب، فأرسل إليه الأمير علم الدين سنجر الحلبي الذي كان قد تغلب على دمشق فطرده عن حلب وتسلمها، وأقام بها نائباً عن السلطان، ثم لم يزل التركي حتى استعادها منه وأخرجه منها هارباً واستولى عليها كما كان. فاستناب السلطان في الديار المصرية عز الدين أيدمر الحلبي وجعل تدبير المملكة إلى الوزير بهاء الدين بن الحنا وأخذ ولده فخر الدين معه وزيراً وجعل تدبير العساكر والجيوش إلى الأمير بدر الدين بيليك الخازندار. كان دخول السلطان صحبة الخليفة إلى دمشق. ثم ساروا فدخلوا دمشق يوم الاثنين سابع ذي القعدة، وكان يوماً مشهوداً، وصليا الجمعة بجامع دمشق، وكان دخول الخليفة من باب البريد، ودخل السلطان من باب الزيارة. وكان يوماً مشهوداً أيضاً، ثم جهز السلطان الخليفة إلى بغداد ومعه أولاد صاحب الموصل، وأنفق عليه وعليهم وعلى من استقل معه من الجيش الذين يردون عنه ما لم يقدر الله من الذهب العين ألف ألف دينار، وأطلق له وزاده فجزاه الله خيراً وقدم إليه صاحب حمص الملك الأشرف فخلع عليه وأطلق له وزاده تل باشر، وقدم صاحب حماه المنصور فخلع عليه وأطلق له وكتب له تقليداً ببلاده، ثم جهز جيشاً صحبة الأمير علاء الدين البندقداري إلى حلب لمحاربة التركي المتغلب عليها المفسد فيها. وهذا كل ما بلغنا من وقائع هذه السنة ملخصاً.

ثم دخلت سنة ستين وستمائة [من الهجرة النبوية][1]

في أوائل هذه السنة في ثالث المحرم قتل الخليفة المستنصر بالله الذي بويع له في رجب في السنة الماضية بمصر، وكان قتله بأرض العراق بعد ما هزم من كان معه من الجنود فإنا لله وإنا إليه راجعون، واستقل الملك الظاهر بجميع الشام ومصر وصفت له الأمور، ولم يبق له منازع سوى التركي فإنه ذهب إلى المنيرة فاستحوذ عليها وعصي عليه هنالك. وفي اليوم الثالث من المحرم من هذه السنة خلع السلطان الملك الظاهر ببلاد مصر على جميع الأمراء والحاشية وعلى الوزير وعلى القاضي تاج الدين ابن بنت الأعز وعزل عنها برهان الدين السنجاري، وفي أوائل المحرم أعرس الأمير بدر الدين بيليك الخازندار على بنت بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، واحتفل الظاهر بهذا العرس احتفالاً.

قال ابن خلكان: وفي هذه السنة اصطاد بعض أمراء الظاهر بحدود حماة حمار وحش فطبخوه فلم ينضج ولا أثر فيه كثرة الوقود، ثم افتقدوا جلده فإذا هو مرسوم على أذنه بهرام جور، قال: وقد أحضروه إلي فقرأته كذلك، وهو يقتضي أن لهذا الحمار قريباً من ثمانمائة سنة، فإن بهرام جور كان قبل المبعث بمدة متطاولة، وحمر الوحش تعيش دهراً طويلاً، قلت: يحتمل أن يكون هذا بهرام شاه الملك الأمجد، إذ يبعد بقاء مثل هذا بلا اصطياد هذه المدة الطويلة، ويكون الكاتب قد أخطأ فأراد كتابة بهرام شاه فكتب بهرام جور فحصل اللبس من هذا والله أعلم.

---

(١) سقط في ط.

ذكر بيعة الحاكم بأمر الله العباسي

في السابع والعشرين من ربيع الآخر دخل الخليفة العباسي الحاكم بأمر الله أحمد ابن الأمير أبي علي القُبّي ابن الأمير علي ابن الأمير أبي بكر ابن الإمام المسترشد بالله بن المستظهر بالله أبي العباس أحمد من بلاد الشرق وصحبته جماعة من رؤوس تلك البلاد، وقد كان شهد الوقعة صحبة المستنصر، وهرب هو في جماعة من المعركة فسلم، فلما كان يوم دخوله تلقاه السلطان الملك الظاهر وأظهر السرور له والاحتفال به، وأنزله في البرج الكبير من قلعة الجبل، وأجريت عليه الأرزاق الدارة والإحسان. وفي ربيع الآخر عزل الملك الظاهر الأمير جمال الدين آقوش النجيبي عن استداريته واستبدل به غيره وبعد ذلك أرسله نائباً على الشام كما سيأتي.

وفي يوم الثلاثاء تاسع رجب حضر السلطان الملك الظاهر إلى دار العدل في محاكمة في بئر إلى بيت القاضي تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعز فقام الناس إلا القاضي فإنه أشار عليه أن لا يقوم وتداعيا وكان الحق مع السلطان وله بينة عادلة، فانتزعت البئر من يد الغريم وكان الغريم أحد الأمراء.

وفي شوال استناب السلطان الملك الظاهر على حلب الأمير علاء الدين أيدكين الشهابي وحينئذٍ انحاز عسكر سيس على القلعة من أرض حلب فركب إليهم الشهابي فكسرهم وأسر منهم جماعة فبعثهم إلى مصر فقتلوا. وفيها استناب السلطان على دمشق الأمير جمال الدين آقوش النجيبي، وكان من أكابر الأمراء وعزل عنها علاء الدين طيبرس الوزيري وحمل إلى القاهرة.

وفي ذي القعدة خرج مرسوم السلطان الملك الظاهر إلى القاضي تاج الدين ابن بنت الأعز أن يستنيب من كل مذهب من المذاهب الثلاثة نائباً فاستناب من الحنفية صدر الدين سليمان الحنفي، ومن الحنابلة شمس الدين محمد ابن الشيخ العماد، ومن المالكية شرف الدين عمر السبكي المالكي.

وفي ذي الحجة قدمت وفود كثيرة من التتار على الملك الظاهر مستأمنين فأكرمهم وأحسن إليهم وأقطعهم إقطاعات حسنة، وكذلك فعل بأولاد صاحب الموصل ورتب لهم رواتب كافية.

وفي هذه السنة أرسل هولاكو طائفة من جنده نحو عشرة آلاف فحاصروا الموصل ونصبوا عليها أربعة وعشرين منجنيقاً، وضاقت بها الأقوات.

وفيها أرسل الملك الصالح إسماعيل بن لؤلؤ إلى التركي يستنجده فقدم عليه فهزمت التتار ثم ثبتوا والتقوا معه، وإنما كان معه سبعمائة مقاتل فهزموه وجرحوه وعاد إلى البيرة وفارقه أكثر أصحابه فدخلوا الديار المصرية، ثم دخل هو إلى الملك الظاهر فأنعم عليه وأحسن إليه وأقطعه سبعين فارساً، وأما التتار فإنهم عادوا إلى الموصل ولم يزالوا حتى استنزلوا صاحبها الملك الصالح إليهم ونادوا في البلد بالأمان حتى اطمأن الناس ثم مالوا عليهم فقتلوهم تسعة أيام وقتلوا الملك الصالح إسماعيل وولده علاء الدين وخربوا أسوار البلد وتركوها بلاقع ثم كروا راجعين قبحهم الله.

وفيها وقع الخلف بين هولاكو وبين السلطان بركه خان ابن عمه، وأرسل إليه بركه يطلب منه نصيباً مما فتحه من البلاد وأخذه من الأموال والأسرار، على ما جرت به عادة ملوكهم، فقتل رسله فاشتد غضب بركه، وكاتب الظاهر ليتفقا على هولاكو.

وفيها وقع غلاء شديد بالشام فبيع القمح الغرارة بأربعمائة والشعير بمائتين وخمسين، واللحم الرطل بستة أو سبعة. وحصل في النصف من شعبان خوف شديد من التتار فتجهز كثير من الناس إلى مصر، وبيعت الغلات حتى حواصل القلعة والأمراء، ورسم أولياء الأمور على من له قدرة أن يسافر من دمشق إلى بلاد مصر، ووقعت رجفة عظيمة في الشام وفي بلاد الروم، ويقال إنه حصل لبلاد التتر خوف شديد أيضاً، فسبحان الفعّال لما يريد وبيده الأمر. وكان الآمر لأهل دمشق بالتحول منها إلى الديار المصرية نائبها الأمير علم الدين طيبرس الوزيري، فأرسل السلطان إليه في ذي القعدة فأمسكه وعزله واستناب عليها بهاء الدين النجيبي، واستوزر بدمشق عز الدين بن وداعة.

وفي هذه السنة نزل ابن خلكان عن تدريس الركنية للشيخ شهاب الدين أبي شامة وحضر عنده حين درس وأخذ في أول مختصر المزني.

وفيها توفي من الأعيان:

الخليفة المستنصر بالله بن الظاهر بأمر الله العباسي

الذي بايعه الظاهر بمصر في رجب من هذه السنة كما ذكرنا، وكان قتله في ثالث المحرم من هذه السنة، وكان شهماً شجاعاً بطلاً فاتكاً، وقد أنفق الظاهر عليه حتى أقام له جيشاً بألف ألف دينار وأزيد، وسار في خدمته ومعه خلق من أكابر الأمراء وأولاد صاحب الموصل، وكان الملك الصالح إسماعيل من الوفد الذين قدموا على الظاهر فأرسله صحبة الخليفة، فلما كانت الوقعة فقد المستنصر ورجع الصالح إلى بلاده فجاءته التتار فحاصروه كما ذكرنا، وقتلوه وخربوا بلاده وقتلوا أهلها، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

العز الضرير النحوي اللغوي

واسمه الحسن بن محمد بن أحمد بن نجا من أهل نصيبين ونشأ بأربل فاشتغل بعلوم كثيرة من علوم الأوائل، وكان يشتغل عليه أهل الذمة وغيرهم، ونسب إلى الانحلال وقلة الدين، وترك الصلوات، وكان ذكياً، وليس بذكي، عالم اللسان جاهل القلب، ذكي القول خبيث الفعل، وله شعر رائق أورد منه الشيخ قطب الدين قطعة في ترجمته، وهذا الضرير شبيه بأبي العلاء المعري قبّحهما الله.

ابن عبد السلام

عبد العزيز بن عبد السلام بن القاسم بن الحسن بن محمد المهذب، الشيخ عز الدين بن عبد السلام أبو محمد السلمي الدمشقي الشافعي شيخ المذهب ومفيد أهله، وله مصنفات حسان، منها التفسير، واختصار النهاية، والقواعد الكبرى والصغرى، وكتاب الصلاة والفتاوى

الموصلية وغير ذلك. ولد سنة سبع أو ثمان وسبعين وخمسمائة، وسمع كثيراً واشتغل على فخر الدين بن عساكر وغيره وبرع في المذهب، وجمع علوماً كثيرة، وأفاد الطلبة ودرس بعدة مدارس بدمشق، وولي خطابتها ثم سافر إلى مصر ودرس بها وخطب وحكم، وانتهت إليه رئاسة الشافعية، وقصد بالفتاوى من الآفاق، وكان لطيفاً ظريفاً يستشهد بالأشعار، وكان سبب خروجه من الشام إنكاره على الصالح إسماعيل تسليمه صغد والثقيف إلى الفرنج، ووافقه الشيخ أبو عمرو بن الحاجب المالكي، فأخرجهما من بلده فسار أبو عمرو إلى الناصر داود صاحب الكرك فأكرمه، وسار ابن عبد السلام إلى الملك الصالح أيوب بن الكامل صاحب مصر فأكرمه وولاه قضاء مصر وخطابة الجامع العتيق، ثم انتزعهما منه وأقره على تدريس الصالحية، فلما حضره الموت أوصى بها للقاضي تاج الدين ابن بنت الأعز، وتوفي في عاشر جمادى الأولى وقد نيف على الثمانين، ودفن من الغد بسفح المقطم، وحضر جنازته السلطان الظاهر وخلق كثير رحمه الله تعالى.

كمال الدين بن العديم الحنفي

عمر بن أحمد بن هبة الله بن محمد بن هبة الله بن أحمد بن يحيى بن زهير بن هارون بن موسى بن عيسى بن عبد الله بن محمد بن أبي جرادة عامر بن ربيعة بن خويلد بن عوف بن عامر بن عقيل الحلبي الحنفي كمال الدين أبو القاسم بن العديم، الأمير الوزير الرئيس الكبير، ولد سنة ست وثمانين وخمسمائة، سمع الحديث وحدّث وتفقه وأفتى ودرس وصنّف، وكان إماماً في فنون كثيرة، وقد ترسل إلى الخلفاء والملوك مراراً عديدة، وكان يكتب حسناً طريقة مشهورة، وصنّف لحلب تاريخاً مفيداً قريباً في أربعين مجلداً، وكان جيد المعرفة بالحديث، حسن الظن بالفقراء والصالحين كثير الإحسان إليهم، وقد أقام بدمشق في الدولة الناصرية المتأخرة، توفي بمصر ودفن بسفح المقطم بعد ابن عبد السلام بعشرة أيام، وقد أورد له قطب الدين أشعاراً حسنة.

يوسف بن يوسف بن سلامة

ابن إبراهيم بن الحسن بن إبراهيم بن موسى بن جعفر بن سليمان بن محمد القاقاني الزينبي بن إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب، محيي الدين أبو المعز، ويقال أبو المحاسن الهاشمي العباسي الحوصلي المعروف بابن زبلاق الشاعر، قتلته التتار لما أخذوا الموصل في هذه السنة عن سبع وخمسين سنة، ومن شعره قوله من بعض قصيدة من ديوانه:

بَعَثَتِ لَنَا مِنْ سِحْرِ مُقْلَتِكِ الوَسْنَا[١] سُهَاداً[٢] يَذُودُ الكَرَى[٣] أَنْ يَأْلَفَ الجَفْنَا

---

(١) الوسن: النعاس. (٢) السهاد: الأرق.
(٣) الكرى: النوم.

وَأَبْصَرَ جِسْمِي حُسْنَ خَصْرِكِ نَاحِلاً فَحَاكَاهُ لٰكِنْ زَادَ فِي دِقَّةِ المَعْنَى
وَأَبْرَزْتِ وَجْهاً أَخْجَلَ الصُّبْحَ طَالِعاً وَمِلْتِ بِقَدٍّ عَلَّمَ الهَيفَ[1] الغُصْنَ اللُّدْنَا[2]
حَكَيْتِ أَخَاكِ البَدْرَ لَيْلَةَ تِمِّهِ سَناً[3] وَسَنَاءً إِذْ تَشَابَهْتُمَا سِنَّا

وقال أيضاً وقد دعي إلى موضع، فبعث يعتذر بهذين البيتين:

أَنَا فِي مَنْزِلِي وَقَدْ وَهَبَ الـ ـلَّهُ نَدِيماً وَقَيْنَةً وَعقَارَا
فَابْسُطُوا العُذْرَ فِي التَّأَخُّرِ عَنْكُمْ شُغْلُ الخَلِيِّ أَهْلٌ بِأَنْ يُعَارَا[4]

قال أبو شامة وفيها في ثاني عشر جمادى الآخرة توفي.

البدر المراغي الخلافي

المعروف بالطويل، وكان قليل الدين تاركاً للصلاة مغتبطاً بما كان فيه من معرفة الجدل والخلاف على اصطلاح المتأخرين، راضياً بما لا يفيد.

وفيها توفي.

محمد بن داود بن ياقوت الصارمي

المحدث. كتب كثيراً الطبقات وغيرها، وكان ديناً خيراً يعير كتبه ويداوم على الاشتغال بسماع الحديث رحمه الله تعالى.

ثم دخلت سنة إحدى وستين وستمائة

استهلت وسلطان البلاد الشامية والمصرية الظاهر بيبرس البندقداري، وعلى الشام نائبه جمال الدين آقوش النجيبي، وقاضي دمشق ابن خلكان والوزير بها عز الدين بن وداعة، وليس للناس خليفة، وإنما تضرب السكة باسم المستنصر الذي قتل في السنة الماضية.

ذكر خلافة الحاكم بأمر الله أبي العباس

أحمد ابن الأمير أبي علي القبي ابن الأمير علي ابن الأمير أبي بكر ابن الإمام المسترشد بالله أمير المؤمنين أبي منصور الفضل ابن الإمام المستظهر بالله أحمد العباسي الهاشمي. لما كان يوم الخميس ثامن المحرم، جلس السلطان الظاهر والأمراء في الإيوان الكبير بقلعة الجبل، وجاء الخليفة الحاكم بأمر الله راكباً حتى نزل عند الإيوان، وقد بسط له إلى جانب السلطان وذلك بعد ثبوت نسبه، ثم قرىء نسبه على الناس ثم أقبل عليه الملك الظاهر فبايعه وبايعه الناس بعده، وكان يوماً مشهوداً. فلما كان يوم الجمعة ثانية خطب الخليفة بالناس فقال في خطبته «الحمد لله الذي أقام لآل العباس ركناً ظهيراً، وجعل لهم من لدنه سلطاناً نصيراً، أحمده على

---

(١) الهيف: الضمور.
(٢) اللدن: اللين.
(٣) سنا البرق: ضوء البرق.
(٤) عجز هذا البيت غير مستقيم وزناً ولا معنى.

السراء والضراء، وأستعينه على شكر ما أسبغ من النعماء، وأستنصره على دفع الأعداء، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، صلّى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه نجوم الاهتداء وأئمة الاقتداء، لا سيما الأربعة، وعلى العباس كاشف غمه أبي السادة الخلفاء وعلى بقية الصحابة أجمعين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، أيها الناس اعلموا أن الإمامة فرض من فروض الإسلام، والجهاد محتوم على جميع الأنام، ولا يقوم علم الجهاد إلا باجتماع كلمة العباد، ولا سبيت الحرم إلا بانتهاك المحارم، ولا سفكت الدماء إلا بارتكاب الجرائم، فلو شاهدتم أعداء الإسلام لما دخلوا دار الإسلام، واستباحوا الدماء والأموال وقتلوا الرجال والأطفال، وسبوا الصبيان والبنات، وأيتموهم من الآباء والأمهات، وهتكوا حرم الخلافة والحريم. وعلت الصيحات من هول ذلك اليوم الطويل، فكم من شيخ خضبت شيبته بدمائه، وكم من طفل بكى فلم يرحم لبكائه، فشمّروا عباد الله عن ساق الاجتهاد في إحياء فرض الجهاد واتقوا الله ما استطعتم ﴿وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾﴾ [سورة التغابن: ١٦] فلم يبق معذرة في القعود عن أعداء الدين، والمحاماة عن المسلمين، وهذا السلطان الملك الظاهر السيد الأجل العالم العادل المجاهد المؤيد ركن الدنيا والدين، قد قام بنصر الإمامة عند قلة الأنصار، وشرد جيوش الكفر بعد أن جاسوا خلال الديار، وأصبحت البيعة بهمته منتظمة العقود، والدولة العباسية به متكاثرة الجنود، فبادروا عباد الله إلى شكر هذه النعمة، وأخلصوا نياتكم تنصروا، وقاتلوا أولياء الشيطان تظفروا، ولا يروعكم ما جرى فالحرب سجال والعاقبة للمتقين، والدهر يومان والأجر للمؤمنين، جمع الله على الهدى أمركم، وأعز بالإيمان نصركم، وأستغفر الله لي ولسائر المسلمين، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم. ثم خطب الثانية ونزل فصلّى.

وكتب بيعته إلى الآفاق ليخطب له وضربت السكة باسمه. قال أبو شامة: فخطب له بجامع دمشق وسائر الجوامع يوم الجمعة سادس عشر المحرم من هذه السنة. وهذا الخليفة هو التاسع والثلاثون من خلفاء بني العباس، ولم يل الخلافة من بني العباس من ليس والده وجده خليفة بعد السفاح والمنصور سوى هذا، فأما من ليس والده خليفة فكثير منهم المستعين أحمد بن محمد بن المعتصم، والمعتضد بن طلحة بن المتوكل، والقادر بن إسحاق بن المقتدر، والمقتدي بن الذخيرة بن القائم بأمر الله.

ذكر أخذ الظاهر الكرك وإعدام صاحبها

وفيها ركب الظاهر من مصر في العساكر المنصورة قاصداً ناحية بلاد الكرك، واستدعى صاحبها الملك المغيث عمر بن العادل أبي بكر بن الكامل، فلما قدم عليه بعد جهد أرسله إلى مصر معتقلاً فكان آخر العهد به، وذلك أنه كاتب هولاكو وحثّه على القدوم إلى الشام مرة أخرى، وجاءته كتب التتار بالثبات ونيابة البلاد، وأنهم قادمون عليه عشرون ألفاً لفتح الديار المصرية، وأخرج السلطان فتاوى الفقهاء بقتله وعرض ذلك على ابن خلكان، وكان قد استدعاه من دمشق، وعلى جماعة من الأمراء، ثم سار فتسلم الكرك يوم الجمعة ثالث عشر جمادى

الأولى ودخلها يومئذٍ في أبهة الملك، ثم عاد إلى مصر مؤيداً منصوراً.

وفيها قدمت رسل بركه خان إلى الظاهر يقول له: قد علمت محبتي للإسلام، وعلمت ما فعل هولاكو بالمسلمين، فاركب أنت من ناحية حتى آتيه أنا من ناحية حتى نصطلمه أو نخرجه من البلاد وأعطيك جميع ما كان بيده من البلاد، فاستصوب الظاهر هذا الرأي وشكره وخلع على رسله وأكرمهم.

وفيها زلزلت الموصل زلزلة عظيمة وتهدمت أكثر دورها، وفي رمضان جهز الظاهر صناعاً وأخشاباً وآلات كثيرة لعمارة مسجد رسول الله ﷺ بعد حريقه فطيف بتلك الأخشاب والآلات بمصر فرحة وتعظيماً لشأنها، ثم ساروا بها إلى المدينة النبوية، وفي شوال سار الظاهر إلى الاسكندرية فنظر في أحوالها وأمورها، وعزل قاضيها وخطيبها ناصر الدين أحمد بن المنير وولى غيره.

وفيها التقى بركه خان وهولاكو ومع كل واحد جيوش كثيرة فاقتتلوا فهزم الله هولاكو هزيمة فظيعة وقتل أكثر أصحابه وغرق أكثر من بقي وهرب هو في شرذمة يسيرة ولله الحمد. ولما نظر بركه خان إلى كثرة القتلى قال: يعز عليَّ أن يقتل المغول بعضهم بعضاً ولكن كيف الحيلة فيمن غير سنة جنكيزخان ثم أغار بركه خان على بلاد القسطنطينية فصانعه صاحبها وأرسل الظاهر هدايا عظيمة إلى بركه خان، وقد أقام التركي بحلب خليفة آخر لقبه بالحاكم، فلما اجتاز به المستنصر سار معه إلى العراق واتفقا على المصلحة وإنفاذ الحاكم المستنصر لكونه أكبر منه ولله الحمد، ولكن خرج عليهما طائفة من التتار ففرقوا شملهما وقتلوا خلقاً ممن كان معهما، وعدم المستنصر وهرب الحاكم مع الأعراب. وقد كان المستنصر هذا فتح بلداناً كثيرة في مسيره من الشام إلى العراق، ولما قاتله بهادر على شحنة بغداد كسره المستنصر وقتل أكثر أصحابه، ولكن خرج كمين من التتار نجدة فهرب العربان والأكراد الذين كانوا مع المستنصر وثبت هو في طائفة ممن كان معه من الترك فقتل أكثرهم وفقد هو من بينهم، ونجا الحاكم في طائفة، وكانت الوقعة في أول المحرم من سنة ستين وستمائة، وهذا هو الذي أشبه الحسين بن علي في توغله في أرض العراق مع كثرة جنودها، وكان الأولى له أن يستقر في بلاد الشام حتى تتمهد له الأمور ويصفو الحال، ولكن قدّر الله وما شاء فعل. وجهز السلطان جيشاً آخر من دمشق إلى بلاد الفرنج فأغاروا وقتلوا وسبوا ورجعوا سالمين، وطلبت الفرنج منه المصالحة فصالحهم مدة لاشتغاله بحلب وأعمالها، وكان قد عزل في شوال قاضي مصر تاج الدين ابن بنت الأعز وولي عليها برهان الدين الخضر بن الحسين السنجاري، وعزل قاضي دمشق نجم الدين أبا بكر بن صدر الدين أحمد بن شمس الدين بن هبة الله بن سني الدولة، وولي عليها شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان، وقد ناب في الحكم بالقاهرة مدة طويلة عن بدر الدين السنجاري، وأضاف إليه مع القضاء نظر الأوقاف، والجامع والمارستان، وتدريس سبع مدارس، العادلية والناصرية والغدراوية والفلكية والركنية والاقبالية والبهنسية، وقرىء تقليده يوم الجمعة بعد الصلاة بالشباك الكمالي من جامع دمشق،

وسافر القاضي المعزول مرسماً عليه. وقد تكلم فيه الشيخ أبو شامة وذكر أنه خان في وديعة ذهب جعلها فلوساً فالله أعلم، وكانت مدة ولايته سنة وأشهراً. وفي يوم العيد يوم السبت سافر السلطان إلى مصر، وقد كان رسول الإسماعيلية قدم على السلطان بدمشق يتهددونه ويتوعدونه، ويطلبون منه إقطاعات كثيرة، فلم يزل السلطان يوقع بينهم حتى استأصل شأفتهم واستولى على بلادهم.

وفي السادس والعشرين من ربيع الأول عمل عزاء السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازي بن الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادي فاتح بيت المقدس وكان عمل هذا العزاء بقلعة الجبل بمصر، بأمر السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس، وذلك لما بلغهم أن هولاكو ملك التتار قتله، وقد كان في قبضته منذ مدة، فلما بلغ هولاكو أن أصحابه قد كسروا بعين جالوت طلبه إلى بين يديه وقال له: أنت أرسلت إلى الجيوش بمصر حتى جاؤوا فاقتتلوا مع المغول فكسروهم ثم أمر بقتله، ويقال إنه اعتذر إليه وذكر له أن المصريين كانوا أعداءه وبينه وبينهم شنآن، فأقاله ولكنه انحطت رتبته عنده، وقد كان مكرماً في خدمته، وقد وعده أنه إذا ملك مصر استنابه في الشام فلما كانت وقعة حمص في هذه السنة وقتل فيها أصحاب هولاكو مع مقدمهم بيدرة غضب وقال له أصحابك في العزيزية أمراء أبيك، والناصرية من أصحابك قتلوا أصحابنا، ثم أمر بقتله. وذكروا في كيفية قتله أنه رماه بالنشاب وهو واقف بين يديه يسأله العفو فلم يعف عنه حتى قتله وقتل أخاه شقيقه الظاهر علياً، وأطلق ولديهما العزيز محمد بن الناصر وزبالة بن الظاهر، وكانا صغيرين من أحسن أشكال بني آدم. فأما العزيز فإنه مات هناك في أسر التتار، وأما زبالة فإنه سار إلى مصر وكان أحسن من بها، وكانت أمه أم ولد يقال لها وجه القمر، فتزوجها بعض الأمراء بعد أستاذها، ويقال إن هولاكو لما أراد قتل الناصر أمر بأربع من الشجر متباعدات بعضها عن بعض، فجمعت رؤوسها بحبال ثم ربط الناصر في الأربعة بأربعته ثم أطلقت الحبال فرجعت كل واحدة إلى مركزها بعضو من أعضائه رحمه الله. وقد قيل إن ذلك كان في الخامس والعشرين من شوال في سنة ثمان وخمسين، وكان مولده في سنة سبع وعشرين بحلب. ولما توفي أبوه سنة أربع وثلاثين بويع بالسلطنة بحلب وعمره سبع سنين، وقام بتدبير مملكته جماعة من مماليك أبيه، وكان الأمر كله عن رأي جدته أم خاتون بنت العادل أبي بكر بن أيوب، فلما توفيت في سنة أربعين وستمائة استقل الناصر بالملك، وكان جيد السيرة في الرعية محبباً إليهم، كثير النفقات، ولا سيما لما ملك دمشق مع حلب وأعمالها وبعلبك وحران وطائفة كبيرة من بلاد الجزيرة، فيقال إن سماطه كان كل يوم يشتمل أربعمائة رأس غنم سوى الدجاج والإوز وأنواع الطير، مطبوخاً بأنواع الأطعمة والقلويات غير المشوي والمقلي، وكان مجموع ما يغرم على السماط في كل يوم عشرين ألفاً وعامته يخرج من يديه كما هو كأنه لم يؤكل منه شيء، فيباع على باب القلعة بأرخص الأثمان حتى أن كثيراً من أرباب البيوت كانوا لا يطبخون في بيوتهم شيئاً من الطرف والأطعمة بل يشترون برخص ما لا يقدرون على مثله إلا بكلفة ونفقة كثيرة، فيشتري أحدهم بنصف درهم أو بدرهم ما لا يقدر عليه إلا بخسارة كثيرة، ولعله لا يقدر على مثله، وكانت

الأرزاق كثيرة دارة في زمانه وأيامه، وقد كان خليعاً ظريفاً حسن الشكل أديباً يقول الشعر المتوسط القوي بالنسبة إليه، وقد أورد له الشيخ قطب الدين في الذيل قطعة صالحة من شعره وهي رائقة لائقة. قتل ببلاد المشرق ودفن هناك، وقد كان أعد له تربة برباطه الذي بناه بسفح قاسيون فلم يقدر دفنه بها، والناصرية البرانية بالسفح من أغرب الأبنية وأحسنها بنياناً من المؤكد المحكم قبلي جامع الأفرم، وقد بني بعدها بمدة طويلة، وكذلك الناصرية الجوانية التي بناها داخل باب الفراديس هي من أحسن المدارس، وبني الخان الكبير تجاه الزنجاري وحولت إليه دار الطعم، وقد كانت قبل ذلك غربي القلعة في اصطبل السلطان اليوم رحمه الله.

وفيها توفي من الأعيان:

أحمد بن محمد بن عبد الله

ابن محمد بن يحيى بن سيد الناس أبو بكر اليعمري الأندلسي الحافظ ولد سنة سبع وتسعين وخمسمائة وسمع الكثير، وحصّل كتباً عظيمة، وصنّف أشياء حسنة، وختم به الحفاظ في تلك البلاد، توفي بمدينة تونس في الرابع والعشرين رجب من هذه السنة.

وممن توفي فيها أيضاً:

عبد الرزاق بن عبد الله

ابن أبي بكر بن خلف عز الدين أبو محمد الرسعني المحدث المفسر، سمع الكثير، وحدّث وكان من الفضلاء والأدباء، له مكانة عند البدر لؤلؤ صاحب الموصل، وكان له منزلة أيضاً عند صاحب سنجار، وبها توفي في ليلة الجمعة الثاني عشر من ربيع الآخر وقد جاوز السبعين، ومن شعره:

نَعَبَ الغُرَابُ فَدَلَّنَا بِنَعِيبِهِ ... أَنَّ الحَبِيبَ دَنَا أَوَانُ مَغِيبِهِ
يا سَائِلِي عَنْ طِيبِ عَيْشِيَ بَعْدَهُمْ ... جُدْ لِي بِعَيْشٍ ثُمَّ سَلْ عَنْ طِيبِهِ

محمد بن أحمد بن عنتر السلمي الدمشقي

محتسبها، ومن عدولها وأعيانها. وله بها أملاك وثروة وأوقاف، توفي بالقاهرة ودفن بالمقطم.

علم الدين أبو [محمد][1] القاسم بن أحمد[2]

ابن الموفق بن جعفر المرسي البورقي اللغوي النحوي المقري، شرح الشاطبية شرحاً مختصراً، وشرح المفصل في عدة مجلدات، وشرح الجزولية وقد اجتمع بمصنفها وسأله عن بعض مسائلها، وكان ذا فنون عديدة حسن الشكل مليح الوجه له هيئة حسنة وبزة وجمال، وقد سمع الكندي وغيره.

---

(١) سقط في ط.

(٢) في ط: علم الدين أبو القاسم بن أحمد.

الشيخ أبو بكر الدينوري

وهو باني الزاوية بالصالحية، وكان له فيها جماعة مريدون يذكرون الله بأصوات حسنة طيبة رحمه الله.

مولد الشيخ تقي الدين بن تيمية شيخ الإسلام

قال الشيخ شمس الدين الذهبي: وفي هذه السنة ولد شيخنا تقي الدين أبو العباس أحمد ابن الشيخ شهاب الدين عبد الحليم بن أبي القاسم بن تيمية الحراني بحران يوم الاثنين عاشر ربيع الأول من سنة إحدى وستين وستمائة.

الأمير الكبير مجير الدين

أبو الهيجاء عيسى بن حشير الأزكشي الكردي الأسدي، كان من أعيان الأمراء وشجعانهم، وله يوم عين جالوت اليد البيضاء في كسر التتار، ولما دخل الملك المظفر إلى دمشق بعد الوقعة جعله مع الأمير علم الدين سنجر الحلبي نائباً على دمشق مستشاراً ومشتركاً في الرأي والمراسيم والتدبير، وكان يجلس معه في دار العدل وله الإقطاع الكامل والرزق الواسع، إلى أن توفي في هذه السنة. قال أبو شامة: ووالده الأمير حسام الدين توفي في جيش الملك الأشرف ببلاد الشرق هو والأمير عماد الدين أحمد بن المشطوب.

قلت: وولده الأمير عز الدين تولى هذه المدينة أعني دمشق مدة، وكان مشكور السيرة وإليه ينسب درب ابن سنون بالصاغة العتيقة، فيقال درب ابن أبي الهيجاء لأنه كان يسكنه وكان يعمل الولاية فيه فعرف به، وبعد موته بقليل كان فيه نزولنا حين قدمنا من حوران وأنا صغير فختمت فيه القرآن، ولله الحمد والمنة ونسأله أن يتوفانا على الكتاب والسنة.

ثم دخلت سنة ثنتين وستين وستمائة

استهلت والخليفة الحاكم بأمر الله العباسي، والسلطان الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري، ونائب دمشق الأمير جمال الدين آقوش النجيبي وقاضيه شمس الدين بن خلكان.

وفيها في أولها كملت المدرسة الظاهرية التي بين القصرين، ورتب لتدريس الشافعية بها القاضي تقي الدين محمد بن الحسين بن رزين، ولتدريس الحنفية مجير الدين عبد الرحمن بن كمال الدين عمر بن العديم، ولمشيخة الحديث بها الشيخ شرف الدين عبد المؤمن بن خلف الحافظ الدمياطي.

وفيها عمر الظاهر بالقدس الشريف خاناً ووقف عليه أوقافاً للنازلين به من إصلاح نعالهم وأكلهم وغير ذلك، وبنى به طاحوناً وفرناً.

وفيها قدمت رسل الملك بركه خان إلى الملك الظاهر ومعهم الأشرف ابن الشهاب غازي بن العادل، ومعهم من الكتب والمشافهات ما فيه سرور للإسلام وأهله مما حل بهولاكو وأهله.

وفي جمادى الآخرة منها درس الشيخ شهاب الدين أبو شامة عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي بدار الحديث الأشرفية، بعد وفاة القاضي عماد الدين بن الحرستاني، وحضر عنده القاضي ابن خلكان وجماعة من الفضلاء والأعيان، وذكر خطبة كتابه المبعث. وأورد الحديث بسنده ومتنه وذكر فوائد كثيرة مستحسنة، ويقال إنه لم يراجع شيئاً حتى ولا درسه ومثله لا يستكثر ذلك عليه والله أعلم.

وفيها قدم نصير الدين الطوسي إلى بغداد من جهة السلطان هولاكو، فنظر في الأوقاف وأحوال البلد، وأخذ كتباً كثيرة من سائر المدارس وحولها إلى رصده الذي بناه بمراغة، ثم انحدر إلى واسط والبصرة.

وفيها كانت وفاة:

الملك الأشرف

موسى ابن الملك المنصور إبراهيم ابن الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه الكبير، كانوا ملوك حمص كابراً عن كابر إلى هذا الحين، وقد كان من الكرماء الموصوفين، وكبراء الدماشقة المترفين، معتنياً بالمأكل والمشرب والملابس والمراكب وقضاء الشهوات والمآرب وكثرة التنعم بالمغاني والحبائب، ثم ذهب ذلك كأن لم يكن أو كأضغاث أحلام، أو كظل زائل، وبقيت تبعاته وعقوباته وحسابه وعاره. ولما توفي وجدت له حواصل من الجواهر النفيسة والأموال الكثيرة، وصار ملكه إلى الدولة الظاهرية، وتوفي معه في هذه السنة الأمير حسام الدين الجوكندار نائب حلب.

وفيها كانت كسرة التتار على حمص وقتل مقدمهم بيدرة بقضاء الله وقدره الحسن الجميل.

وفيها توفي:

الرشيد العطار المحدّث بمصر

والذي حضر مسخرة الملك الأشرف موسى بن العادل.

والتاجر المشهور الحاج نصر بن بروس

وكان ملازماً للصلوات بالجامع، وكان من ذوي اليسار والخير.

الخطيب عماد الدين بن الحرستاني

عبد الكريم ابن قاضي القضاة جمال الدين عبد الصمد بن محمد بن الحرستاني، كان خطيباً بدمشق وناب في الحكم عن أبيه في الدولة الأشرفية، بعد ابن الصلاح إلى أن توفي في دار الخطابة في تاسع عشرين جمادى الأولى من هذه السنة، وصلي عليه بالجامع ودفن عند أبيه بسفح قاسيون، وكانت جنازته حافلة رحمه الله تعالى، وقد جاوز الثمانين بخمس سنين، وتولى بعده الخطابة والغزالية ولده مجير الدين، وباشر بعده مشيخة دار الحديث الشيخ شهاب الدين أبو شامة.

محيي الدين محمد بن أحمد بن محمد

ابن إبراهيم بن الحسين بن سراقة الحافظ المحدّث الأنصاري الشاطبي أبو بكر المغربي، عالم فاضل دين أقام بحلب مدة، ثم اجتاز بدمشق قاصداً مصر. وقد تولى دار الحديث الكاملية بعد زكي الدين عبد العظيم المنذري، وقد كان له سماع جيد ببغداد وغيرها من البلاد، وقد جاوز التسعين.

الشيخ الصالح محمد بن منصور بن يحيى الشيخ أبي القاسم القباري الإسكندراني: كان مقيماً بغيط له يقتات منه ويعمل فيه ويبدره، ويتورع جداً ويطعم الناس من ثماره. وكانت وفاته في سادس شعبان من هذه السنة بالإسكندرية وله خمس وسبعون سنة، وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويردع الولاة عن الظلم فيسمعون منه ويطيعونه لزهده، وإذا جاء الناس إلى زيارته إنما يكلمهم من طاقة المنزل وهم راضون منه بذلك، ومن غريب ما حكي عنه أنه باع دابة له من رجل، فلما كان بعد أيام جاء الرجل الذي اشتراها فقال: يا سيدي إن الدابة التي اشتريتها منك لا تأكل عندي شيئاً، فنظر إليه الشيخ فقال له: ماذا تعاني من الأسباب؟ فقال رقاص عند الوالي، فقال له إن دابتنا لا تأكل الحرام، ودخل منزله فأعطاه دراهمه ومعها دراهم كثيرة قد اختلطت بها فلا تميز، فاشترى الناس من الرقاص كل درهم بثلاثة لأجل البركة، وأخذ دابته، ولما توفي ترك من الأساس ما يساوي خمسين ديناراً فبيع بمبلغ عشرين ألفاً. قال أبو شامة: وفي الثامن والعشرين من ربيع الآخر توفي:

محيي الدين عبد الله بن صفي الدين

إبراهيم بن مرزوق بداره بدمشق المجاورة للمدرسة النورية رحمه الله تعالى. قلت داره هذه هي التي جعلت مدرسة للشافعية وقفها الأمير جمال الدين آقوش النجيبي التي يقال لها النجيبية تقبّل الله منه. وبها إقامتنا جعلها الله داراً تعقبها دار القرار في الفوز العظيم. وقد كان أبو جمال الدين النجيبي وهو صفي الدين وزير الملك الأشرف، وملك من الذهب ستمائة ألف دينار خارجاً عن الأملاك والأثاث والبضائع، وكانت وفاة أبيه بمصر سنة تسع وخمسين، ودفن بتربته عند جبل المقطم قال أبو شامة: وجاء الخبر من مصر بوفاة الفخر عثمان المصري المعروف بعين غين.

وفي ثامن عشر ذي الحجة توفي الشمس الوبّار الموصلي، وكان قد حصل شيئاً من علم الأدب، وخطب بجامع المزة مدة. فأنشدني لنفسه في الشيب وخضابه قوله:

وَكُنْتُ وَإِيَّاهَا مُذِ اخْتَطَّ عَارِضِي كَرُوحَيْنِ فِي جِسْمٍ وَمَا نَقَضَتْ عَهْدَا
فَلَمَّا أَتَانِي الشَّيْبُ يَقْطَعُ بَيْنَنَا تَوَهَّمْتُهُ سَيْفاً فَأَلْبَسْتُهُ غِمْدَا

وفيها استحضر الملك هولاكو خان ملك التتار الزين الحافظي وهو سليمان بن المؤيد بن عامر العقرباني المعروف بالزين الحافظي، وقال له قد ثبت عندي خيانتك، وقد كان هذا المغتر لما قدم التتار مع هولاكو دمشق وغيرها مالأ على المسلمين وآذاهم ودل على عوراتهم، حتى

سلّطهم الله عليه بأنواع العقوبات والمثلات ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا﴾ [الأنعام:١٢٩] ومن أعان ظالماً سلط عليه، فإن الله ينتقم من الظالم بالظالم ثم ينتقم من الظالمين جميعاً، نسأل الله العافية من انتقامه وغضبه وعقابه وشر عباده.

ثم دخلت سنة ثلاث وستين وستمائة

فيها جهز السلطان الظاهر عسكراً جماً كثيفاً إلى ناحية الفرات لطرد التتار النازلين بالبيرة، فلما سمعوا بالعساكر الظاهرية قد أقبلت ولّوا مدبرين، فطابت تلك الناحية وأمنت تلك المعاملة، وقد كانت قبل ذلك لا تسكن من كثرة الفساد والخوف، فعمرت وأمنت.

وفيها خرج الملك الظاهر في عساكره فقصد بلاد الساحل لحصار الفرنج ففتح قيسارية في ثلاث ساعات من يوم الخميس ثامن جمادى الأولى يوم نزوله عليها، وتسلم قلعتها في يوم الخميس الآخر خامس عشره فهدمها وانتقل إلى غيرها، ثم جاء الخبر بأنه فتح مدينة أرسوف وقتل من بها من الفرنج وجاءت البريدية بذلك. فدقت البشائر في بلاد المسلمين وفرحوا بذلك فرحاً شديداً. وفيها ورد خبر من بلاد المغرب بأنهم انتصروا على الفرنج وقتلوا منهم خمسة وأربعين ألفاً، وأسروا عشرة آلاف، واسترجعوا منهم ثنتين وثلاثين بلدة منها برنس واشبيلية وقرطبة ومرسية، وكانت النصرة في يوم الخميس رابع عشر رمضان سنة اثنتين وستين.

وفي رمضان من هذه السنة شرع في تبليط باب البريد من باب الجامع إلى القناة التي عند الدرج وعمل في الصف القبلي منها بركة وشاذروان. وكان في مكانها قناة من القنوات ينتفع الناس بها عند انقطاع نهر بانياس فغيرت وعمل الشاذروان، ثم غيرت وعمل مكانها دكاكين.

وفيها استدعى الظاهر نائبه على دمشق الأمير جمال الدين آقوش، فسار إليه سامعاً مطيعاً، وناب عنه الأمير علم الدين الحصني حتى عاد مكرماً معزوزاً.

وفيها ولى الظاهر قضاة من بقية المذاهب في مصر مستقلين بالحكم ويولون من جهتهم في البلدان أيضاً كما يولي الشافعي، فتولى قضاء الشافعية التاج عبد الوهاب ابن بنت الأعز، والحنفية شمس الدين سليمان، وقضاء المالكية شمس الدين السبكي، والحنابلة شمس الدين محمد المقدسي، وكان ذلك يوم الاثنين الثاني والعشرين من ذي الحجة بدار العدل، وكان سبب ذلك كثرة توقف القاضي تاج الدين ابن بنت الأعز في أمور تخالف مذهب الشافعي، وتوافق غيره من المذاهب، فأشار الأمير جمال الدين أيدغدي العزيزي على السلطان بأن يولي من كل مذهب قاضياً مستقلاً يحكم بمقتضى مذهبه، فأجابه إلى ذلك، وكان يحب رأيه ومشورته، وبعث بأخشاب ورصاص وآلات كثيرة لعمارة مسجد رسول الله ﷺ وأرسل منبراً فنصب هنالك.

وفيها وقع حريق عظيم ببلاد مصر واتّهم النصارى فعاقبهم الملك الظاهر عقوبة عظيمة.

وفيها ورد الخبر بأن سلطان التتار هولاكو هلك إلى لعنة الله وغضبه في سابع ربيع الآخر بمرض الصرع بمدينة مراغة، ودفن بقلعة تلا وبنيت عليه قبة واجتمعت التتار على ولده أبغا،

فقصده الملك بركة خان فكسره وفرق جموعه، ففرح الملك الظاهر بذلك فرحاً شديداً، وعزم على جمع العساكر ليأخذ بلاد العراق فلم يتمكن من ذلك لتفرق العساكر في الإقطاعات.

وفيها في ثاني عشر شوال سلطن الملك الظاهر ولده الملك السعيد محمد بركة خان، وأخذ له البيعة من الأمراء وأركبه ومشى الأمراء بين يديه، وحمل والده الظاهر الغاشية بنفسه والأمير بدر الدين بيسري الشمس حامل الخبز، والقاضي تاج الدين ابن بنت المعز والوزير بهاء الدين بن حنا راكبان وبين يديه، وأعيان الأمراء ركبان وبقيتهم مشاة حتى شقوا القاهرة وهم كذلك وكان يوماً مشهوداً.

وفي ذي القعدة ختن الظاهر ولده الملك السعيد المذكور، وختن معه جماعة من أولاد الأمراء وكان يوماً مشهوداً.

وممن توفي فيها:

[الزين](١) خالد بن يوسف بن سعد النابلسي

الشيخ زين الدين ابن الحافظ شيخ دار الحديث النورية بدمشق، كان عالماً بصناعة الحديث حافظاً لأسماء الرجال، وقد اشتغل عليه في ذلك الشيخ محيي الدين النواوي وغيره، وتولى بعده مشيخة دار الحديث النورية الشيخ تاج الدين الفزاري، وكان الشيخ زين الدين حسن الأخلاق فكه النفس كثير المزاح على طريقة المحدثين، رحل إلى بغداد واشتغل بها، وسمع الحديث وكان فيه خير وصلاح وعبادة، وكانت جنازته حافلة ودفن بمقابر باب الصغير رحمه الله.

الشيخ أبو القاسم الحواري

هو أبو القاسم يوسف بن أبي القاسم بن عبد السلام الأموي الشيخ المشهور صاحب الزاوية بحواري، توفي ببلده، وكان خيراً صالحاً له أتباع وأصحاب يحبونه، وله مريدون كثير من قرى حوران في الحل والثنية وهم حنابلة لا يرون الضرب بالدف بل بالكف، وهم أمثل من غيرهم.

القاضي بدر الدين الكردي السنجاري

الذي باشر القضاء بالديار المصرية مراراً توفي بالقاهرة. قال أبو شامة: وكانت سيرته معروفة في أخذ الرشا من قضاة الأطراف والشهود والمتحاكمين إليه، إلا أنه كان جواداً كريماً صودر هو وأهله.

ثم دخلت سنة أربع وستين وستمائة

استهلت والخليفة الحاكم العباسي وسلطان المسلمين الملك الظاهر وقضاةِ مصر أربعة، وفيها جعل بدمشق أربعة قضاة من كل مذهب قاض كما فعل بمصر عام أول، ونائب الشام

---

(١) سقط في ط.

آقوش النجيبي، وكان قاضي قضاة الشافعية ابن خلكان، والحنفية شمس الدين عبد الله بن محمد بن عطا، والحنابلة شمس الدين عبد الرحمن ابن الشيخ أبي عمر، والمالكية عبد السلام بن الزواوي، وقد امتنع من الولاية فألزم بها حتى قبل ثم عزل نفسه، ثم ألزم بها فقبل بشرط أن لا يباشر أوقافاً ولا يأخذ جامكية على أحكامه، وقال: نحن في كفاية فأعفى من ذلك أيضاً رحمهم الله. وقد كان هذا الصنيع الذي لم يسبق إلى مثله قد فعل في العام الأول بمصر كما تقدم، واستقرت الأحوال على هذا المنوال.

وفيها كمل عمارة الحوض الذي شرقي قناة باب البريد وعمل له شاذروان وقبة وأنابيب يجري منها الماء إلى جانب الدرج الشمالية.

وفيها نازل الظاهر صفد واستدعى بالمنجانيق من دمشق وأحاط بها ولم يزل حتى افتتحها، ونزل أهلها على حكمه، فتسلم البلد في يوم الجمعة ثامن عشر شوال، وقتل المقاتلة وسبى الذرية، وقد افتتحها الملك صلاح الدين يوسف بن أيوب في شوال أيضاً في أربع وثمانين وخمسمائة، ثم استعادها الفرنج فانتزعها الظاهر منهم قهراً في هذه السنة ولله الحمد، وكان السلطان الظاهر في نفسه منهم شيء كثير، فلما توجه إلى فتحها طلبوا الأمان، فأجلس على سرير مملكته الأمير سيف الدين كرمون التتري، وجاءت رسلهم فخلعوه وانصرفوا ولا يشعرون أن الذي أعطاهم العهود بالأمان إنما هو الأمير الذي أجلسه على السرير والحرب خدعة، فلما خرجت الإسبتارية والداوية من القلعة وقد فعلوا بالمسلمين الأفاعيل القبيحة، فأمكن الله منهم فأمر السلطان بضرب رقابهم عن آخرهم، وجاءت البريدية إلى البلاد بذلك، فدقت البشائر وزينت البلاد، ثم بث السرايا يميناً وشمالاً في بلاد الفرنج فاستولى المسلمون على حصون كثيرة تقارب عشرين حصناً، وأسروا قريباً من ألف أسير ما بين امرأة وصبي، وغنموا شيئاً كثيراً.

وفيها قدم ولد الخليفة المستعصم بن المستنصر من الأسر واسمه علي، فأكرم وأنزل بالدار الأسدية تجاه العزيزية، وقد كان أسيراً في أيدي التتار، فلما كسرهم بركه خان تخلص من أيديهم وسار إلى دمشق، ولما فتح السلطان صفداً أخبره بعض من مكان فيها من أسرى المسلمين أن سبب أسرهم أن أهل قرية فارا كانوا يأخذونهم فيحملونهم إلى الفرنج فيبيعونهم منهم، فعند ذلك ركب السلطان قاصداً فارا فأوقع بهم بأساً شديداً وقتل منهم خلقاً كثيراً، وأسر من أبنائهم ونسائهم أخذاً بثأر المسلمين جزاه الله خيراً، ثم أرسل السلطان جيشاً هائلاً إلى بلاد سيس، فجاسوا خلال الديار وفتحوا سيس عنوة وأسروا ابن ملكها وقتلوا أخاه ونهبوها، وقتلوا أهلها وأخذوا بثأر الإسلام وأهله منهم، وذلك أنهم كانوا أضر شيء على المسلمين زمن التتار، لما أخذوا مدينة حلب وغيرها أسروا من نساء المسلمين وأطفالهم خلقاً كثيراً، ثم كانوا بعد ذلك يغيرون على بلاد المسلمين في زمن هولاكو فكبته الله وأهانه على يدي أنصار الإسلام، وهو وأميره كتبغا، وكان أخذ سيس يوم الثلاثاء العشرين من ذي القعدة من هذه السنة، وجاءت الأخبار بذلك إلى البلاد وضربت البشائر، وفي الخامس والعشرين من ذي الحجة دخل السلطان

وبين يديه ابن صاحب سيس وجماعة من ملوك الأرمن أسارى أذلاء صغرة، والعساكر صحبته وكان يوماً مشهوداً. ثم سار إلى مصر مؤيداً منصوراً، وطلب صاحب سيس أن يفادي ولده، فقال السلطان لا نفاديه إلا بأسير لنا عند التتار يقال له سنقر الأشقر، فذهب صاحب سيس إلى ملك التتر فتذلل له وتمسكن وخضع له، حتى أطلقه له، فلما وصل سنقر الأشقر إلى السلطان أطلق ابن صاحب سيس.

وفيها عمر الظاهر الجسر المشهور بين قرارا ودامية، تولى عمارته الأمير جمال الدين محمد بن بهادر وبدر الدين محمد بن رحال والي نابلس والأغوار، ولما تم بناؤه اضطرب بعض أركانه فقلق السلطان من ذلك وأمر بتأكيده فلم يستطيعوا من قوة جري الماء حينئذٍ، فاتفق بإذن الله أن انسالت على النهر أكمة من تلك الناحية، فسكن الماء بمقدار أن أصلحوا ما يريدون، ثم عاد الماء كما كان وذلك بتيسير الله وعونه وعنايته العظيمة.

وفيها توفي من الأعيان:

أيدغدي بن عبد الله

الأمير جمال الدين العزيزي، كان من أكابر الأمراء وأحظاهم عند الملك الظاهر، لا يكاد الظاهر يخرج عن رأيه، وهو الذي أشار عليه بولاية القضاة من كل مذهب قاض على سبيل الاستقلال وكان متواضعاً لا يلبس محرماً، كريماً وقوراً رئيساً معظماً في الدولة، أصابته جراحة في حصار صفد فلم يزل مريضاً منها حتى مات ليلة عرفة، ودفن بالرباط الناصري بسفح قاسيون من صلاحية دمشق رحمه الله.

هولاكو خان بن تولي خان بن جنكيز خان

ملك التتار ابن ملك التتار، وهو والد ملوكهم، والعامة يقولون هولاوون مثل قلاوون، وقد كان هولاكو ملكاً جباراً فاجراً كفاراً لعنه الله، قتل من المسلمين شرقاً وغرباً ما لا يعلم عددهم إلا الذي خلقهم وسيجازيه على ذلك شر الجزاء، كان لا يتقيد بدين من الأديان، وإنما كانت زوجته ظفر خاتون قد تنصرت وكانت تفضل النصارى على سائر الخلق، وكان هو يترامى على محبة المعقولات، ولا يتصور منها شيئاً، وكان أهلها من أفراخ الفلاسفة لهم عنده وجاهة ومكانة، وإنما كانت همته في تدبير مملكته وتملك البلاد شيئاً فشيئاً. حتى أباده الله في هذه السنة، وقيل في سنة ثلاث وستين، ودفن في مدينة تلا، لا رحمه الله، وقام في الملك من بعده ولده أبغا خان وكان أبغا أحد إخوة عشرة ذكور، والله سبحانه أعلم وهو حسبنا ونعم الوكيل.

ثم دخلت سنة خمس وستين وستمائة

في يوم الأحد ثاني المحرم توجه الملك الظاهر من دمشق إلى الديار المصرية وصحبته العساكر المنصورة، وقد استولت الدولة الإسلامية على بلاد سيس بكمالها، وعلى كثير من معاقل الفرنج في هذه السنة، وقد أرسل العساكر بين يديه إلى غزة، وعدل هو إلى ناحية الكرك لينظر في أحوالها، فلما كان عند بركة زيزي تصيد هنالك فسقط عن فرسه فانكسرت فخذه،

فأقام هناك أياماً يتداوى حتى أمكنه أن يركب في المحفة، وسار إلى مصر فبرأت رجله في أثناء الطريق فأمكنه الركوب وحده على الفرس. ودخل القاهرة في أبهة عظيمة، وتجمل هائل، وقد زينت البلد، واحتفل الناس له احتفالاً عظيماً، وفرحوا بقدومه وعافيته فرحاً كثيراً، ثم في رجب منها رجع من القاهرة إلى صفد، وحفر خندقاً حول قلعتها وعمل فيه بنفسه وأمرائه وجيشه وأغار على ناحية عكا، فقتل وأسر وغنم وسلم وضربت لذلك البشائر بدمشق. وفي ثاني عشر ربيع الأول صلى الظاهر بالجامع الأزهر الجمعة، ولم يكن تقام به الجمعة من زمن العبيديين إلى هذا الحين، مع أنه أول مسجد بُني بالقاهرة، بناه جوهر القائد وأقام فيه الجمعة، فلما بنى الحاكم جامعه حول الجمعة منه إليه، وترك الأزهر لا جمعة فيه فصار في حكم بقية المساجد وشعث حاله وتغيرت أحواله، فأمر السلطان بعمارته وبياضه وإقامة الجمعة وأمر بعمارة جامع الحسينية وكمل في سنة سبع وستين كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وفيها أمر الظاهر أن لا يبيت أحد من المجاورين بجامع دمشق فيه وأمر بإخراج الخزائن منه، والمقاصير التي كانت فيه، فكانت قريباً من ثلاثمائة، ووجدوا فيها قوارير البول والفرش والسجاجيد الكثيرة، فاستراح الناس والجامع من ذلك واتسع على المصلين.

وفيها أمر السلطان بعمارة أسوار صفد وقلعتها، وأن يكتب عليها ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٥] ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة: ٢٢].

وفيها التقى أبغا ومنكوتمر الذي قام مقام بركة خان فكسره أبغا وغنم منه شيئاً كثيراً.

وحكى ابن خلكان فيما نقل من خط الشيخ قطب الدين اليونيني قال: بلغنا أن رجلاً يدعى أبا سلامة[١] من ناحية بصرى، كان فيه مجون واستهتار، فذكر عنده السواك وما فيه من الفضيلة، فقال: والله لا أستاك إلا في المخرج ـ يعني دبره ـ فأخذ سواكاً فوضعه في مخرجه ثم أخرجه، فمكث بعده تسعة أشهر [وهو يشكو من ألم البطن والمخرج][٢] فوضع ولداً على صفة الجرذان له أربع قوائم، ورأسه كرأس السمكة، [وله أربعة أنياب بارزة، وذنب طويل مثل شبر وأربع أصابع][٣] وله دبر كدبر الأرنب. ولما وضعه صاح ذلك الحيوان ثلاث صيحات، فقامت ابنة ذلك الرجل فرضخت رأسه فمات، وعاش ذلك الرجل بعد وضعه له يومين ومات في الثالث، وكان يقول هذا الحيوان قتلني وقطع أمعائي، وقد شاهد ذلك جماعة من أهل تلك الناحية وخطباء ذلك المكان، ومنهم من رأى ذلك الحيوان حياً قبل أن يموت، ومنهم من رآه بعد موته. وممن توفي فيها من الأعيان:

---

(١) في شذرات الذهب: قرية يقال لها: دير أبي سلامة، وكان بها رجل من العربان فيه استهتار.
(٢) ما بين معقوفين زيادة من شذرات الذهب.
(٣) ما بين معقوفين زيادة من شذرات الذهب.

السلطان بركة خان بن تولي بن جنكيز خان

وهو ابن عمّ هولاكو، وقد أسلم بركة خان هذا، وكان يحب العلماء والصالحين ومن أكبر حسناته كسره لهولاكو وتفريق جنوده، وكان يناصح الملك الظاهر، ويعظمه ويكرم رسله إليه، ويطلق لهم شيئاً كثيراً، وقد قام في الملك بعده بعض أهل بيته وهو منكوتمر بن طغان بن بابو بن تولي بن جنكيز خان، وكان على طريقته ومنواله ولله الحمد.

قاضي القضاة بالديار المصرية

تاج الدين عبد الوهاب بن خلف بن بدر ابن بنت الأعز الشافعي، كان ديناً عفيفاً نزهاً لا تأخذه في الله لومة لائم، ولا يقبل شفاعة أحد، وجمع له قضاء الديار المصرية بكمالها، والخطابة، والحسبة ومشيخة الشيوخ، ونظر الجيش، وتدريس الشافعي والصالحية وإمامة الجامع، وكان بيده خمس عشرة وظيفة، وباشر الوزارة في بعض الأوقات، وكان السلطان يعظمه، والوزير ابن حنا يخاف منه كثيراً، وكان يحب أن ينكبه عند السلطان ويضعه فلا يستطيع ذلك، وكان يشتهي أن يأتي داره ولو عائداً، فمرض في بعض الأحيان فجاء القاضي عائداً، فقام إلى تلقيه لوسط الدار، فقال له القاضي: إنما جئنا لعيادتك فإذا أنت سوى صحيح، سلام عليكم، فرجع ولم يجلس عنده. وكان مولده في سنة أربع وستمائة، وتولى بعده القضاء تقي الدين بن رزين.

واقف القيمرية الأمير الكبير ناصر الدين

أبو المعالي الحسين بن العزيز بن أبي الفوارس القيمري الكردي، كان من أعظم الأمراء مكانة عند الملوك، وهو الذي سلم الشام إلى الملك الناصر صاحب حلب، حين قتل توران شاه بن الصالح أيوب بمصر، وهو واقف المدرسة القيمرية عند مئذنة فيروز، وعمل على بابها الساعات التي لم يسبق إلى مثلها، ولا عمل على شكلها، يقال إنه غرم عليها أربعين ألف درهم.

الشيخ شهاب الدين أبو شامة

عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان بن أبي بكر بن عباس أبو محمد وأبو القاسم المقدسي الشيخ الإمام العلاّمة الحافظ المحدّث الفقيه المؤرخ المعروف بأبي شامة شيخ دار الحديث الأشرفية، ومدرس الركنية، وصاحب المصنفات العديدة المفيدة، له اختصار تاريخ دمشق في مجلدات كثيرة، وله شرح الشاطبية، وله الرد إلى الأمر الأول، وله في المبعث وفي الإسراء، وكتاب الروضتين في الدولتين النورية والصلاحية، وله الذيل على ذلك، وله غير ذلك من الفوائد الحسان والغرائب التي هي كالعقيان. ولد ليلة الجمعة الثالث والعشرين من ربيع الآخر سنة تسع وتسعين وخمسمائة، وذكر لنفسه ترجمة في هذه السنة في الذيل، وذكر مرباه ومنشأه، وطلبه العلم، وسماعه الحديث، وتفقهه على الفخر بن عساكر وابن عبد السلام، والسيف الآمدي، والشيخ موفق الدين بن قدامة، وما رئي له من المنامات الحسنة. وكان ذا

فنون كثيرة، أخبرني الشيخ علم الدين البرزالي الحافظ عن الشيخ تاج الدين الفزاري، أنه كان يقول: بلغ الشيخ شهاب الدين أبو شامة رتبة الاجتهاد، وقد كان ينظم أشعاراً في أوقات، فمنها ما هو مستحلى، ومنها ما لا يستحلى، فالله يغفر لنا وله. وبالجملة فلم يكن في وقته مثله في نفسه وديانته، وعفته وأمانته، وكانت وفاته بسَبب جماعة ألبوا عليه، وأرسلوا إليه من اغتاله وهو بمنزل له بطواحين الأشنان، وقد كان اتهم بأمر، الظاهر براءته منه، وقد قال جماعة من أهل الحديث وغيرهم: إنه كان مظلوماً، ولم يزل يكتب في التاريخ حتى وصل إلى رجب من هذه السنة، فذكر أنه أصيب بمحنة في منزله بطواحين الأشنان، وكان الذين قتلوه جاؤوه قبل فضربوه ليموت فلم يمت، فقيل له: ألا تشتكي عليهم، فلم يفعل وأنشأ يقول:

قُـلْـتُ لِـمَـنْ قَـالَ أَلاَ تَـشْـتَـكِـي ... مَـا قَـدْ جَـرَى فَـهْـوَ عَـظِـيـمٌ جَـلِـيـلْ
يُـقَـيِّـضُ الله تَـعَـالَـى لَـنَـا ... مَـنْ يَـأْخُـذُ الـحَـقَّ وَيَـشْـفِـي الـغَـلِـيـلْ
إذَا تَـوَكَّـلْـنَـا عَـلَـيْـهِ كَـفَـى ... فَـحَـسْـبُـنَـا الله وَنِـعْـمَ الـوَكِـيـلْ

وكأنهم عادوا إليه مرة ثانية وهو في المنزل المذكور فقتلوه بالكلية في ليلة الثلاثاء تاسع عشر رمضان رحمه الله. ودفن من يومه بمقابر دار الفراديس، وباشر بعده مشيخة دار الحديث الأشرفية الشيخ محيي الدين النووي. وفي هذه السنة كان مولد الحافظ علم الدين القاسم بن محمد البرزالي، وقد ذيل على تاريخ أبي شامة لأن مولده في سنة وفاته، فحذا حذوه وسلك نحوه، ورتب ترتيبه وهذب تهذيبه. وهذا أيضاً ممن ينشد في ترجمته.

مَـا زِلْـتَ تَـكْـتُـبُ فِـي الـتَّـارِيـخِ مُـجْـتَـهِـداً ... حَـتَّـى رَأَيْـتُـكَ فِـي الـتَّـارِيـخِ مَـكْـتُـوبَـا

ويناسب أن ينشد هنا قول الشاعر:

إذا سَـيِّـدٌ مِـنَّـا خَـلاَ قَـامَ سَـيِّـدٌ ... قَـؤُولٌ لِـمَـا قَـالَ الـكِـرَامُ فَـعُـولُ

ثم دخلت سنة ست وستين وستمائة

استهلت هذه السنة والحاكم العباسي خليفة، وسلطان البلاد الملك الظاهر، وفي أول جمادى الآخرة خرج السلطان من الديار المصرية بالعساكر المنصورة، فنزل على مدينة يافا بغتة فأخذها عنوة، وسلم إليه أهلها قلعتها صلحاً، فأجلاهم منها إلى عكا وخرب القلعة والمدينة وسار منها في رجب قاصداً حصن الشقيف، وفي أثناء الطريق أخذ من بعض بريدية الفرنج كتاباً من أهل عكا إلى أهل الشقيف يعلمونهم قدوم السلطان عليهم، ويأمرونهم بتحصين البلد، والمبادرة إلى إصلاح أماكن يخشى على البلد منها. ففهم السلطان كيف يأخذ البلد وعرف من أين تؤكل الكتف، واستدعى من فوره رجلاً من الفرنج فأمره أن يكتب بدله كتاباً على ألسنتهم إلى أهل الشقيف، يحذر الملك من الوزير، والوزير من الملك، ويرمي الخلف بين الدولة. فوصل إليهم فأوقع الله الخلف بينهم بحوله وقوته، وجاء السلطان فحاصرهم ورماهم بالمنجنيق فسلموه الحصن في التاسع والعشرين من رجب وأجلاهم إلى صور، وبعث بالأنفال

إلى دمشق، ثم ركب جريدة فيمن نشط من الجيش فشن الغارة على طرابلس وأعمالها، فنهب وقتل وأرعب وكر راجعاً مؤيداً منصوراً، فنزل على حصن الأكراد تحت المرج، فحمل إليه أهله من الفرنج الإقامات فأبى أن يقبلها وقال أنتم قتلتم جندياً من جيشي وأريد ديته مائة ألف دينار، ثم سار فنزل على حمص، ثم منها إلى حماة، ثم إلى فامية ثم سار منزلة أخرى، ثم سار ليلاً وتقدم العسكر فلبسوا العدة وساق حتى أحاط بمدينة أنطاكية.

فتح أنطاكية على يد السلطان الملك الظاهر

وهي مدينة عظيمة كثيرة الخير، يقال إن دور سورها اثنا عشر ميلاً، وعدد بروجها مائة وستة وثلاثون برجاً، وعدد شرافاتها أربعة وعشرون ألف شرافة، كان نزوله عليها في مستهل شهر رمضان، فخرج إليه أهلها يطلبون منه الأمان، وشرطوا شروطاً له عليهم فأبى أن يجيبهم، وردهم خائبين وصمم على حصارها، ففتحها يوم السبت رابع عشر رمضان بحول الله وقوته وتأييده ونصره، وغنم منها شيئاً كثيراً، وأطلق للأمراء أموالاً جزيلة، ووجد من أسارى المسلمين من الحلبيين فيها خلقاً كثيراً، كل هذا في مقدار أربعة أيام. وقد كان الأغريس صاحبها وصاحب طرابلس، من أشد الناس أذية للمسلمين، حين ملك التتار حلب وفر الناس منها، فانتقم الله سبحانه منه بمن أقامه للإسلام ناصراً وللصليب دامغاً كاسراً، ولله الحمد والمنة، وجاءت البشارة بذلك مع البريدية، فجاوبتها البشائر من القلعة المنصورة، وأرسل أهل بغراس حين سمعوا بقصد السلطان إليهم يطلبون منه أن يبعث إليهم من يتسلمها، فأرسل إليهم أستاذ داره الأمير آقسنقر الفارقاني في ثالث عشر رمضان فتسلمها، وتسلموا حصوناً كبيرة وقلاعاً كثيرة، وعاد السلطان مؤيداً منصوراً، فدخل دمشق في السابع والعشرين من رمضان من هذه السنة في أبهة عظيمة وهيبة هائلة، وقد زينت له البلد ودقت له البشائر فرحاً بنصرة الإسلام على الكفرة الطغام، لكنه كان قد عزم على أخذ أراضي كثيرة من القرى والبساتين التي بأيدي ملاكها بزعم أنه قد كانت التتار استحوذوا عليها ثم استنقذها منهم، وقد أفتاه بعض الفقهاء من الحنفية تفريعاً على أن الكفار إذا أخذوا شيئاً من أموال المسلمين ملكوها، فإذا استرجعت لم ترد إلى أصحابها، وهذه المسألة مشهورة وللناس فيها قولان (أصحهما) قول الجمهور أنه يجب ردها إلى أصحابها لحديث العضباء ناقة رسول الله ﷺ، حين استرجعها رسول الله ﷺ، وقد كان أخذها المشركون، استدلوا بهذا وأمثاله على أبي حنيفة، وقال بعض العلماء إذا أخذ الكفار أموال المسلمين وأسلموا وهي في أيديهم استقرت على أملاكهم، واستدل على ذلك بقوله عليه الصلاة والسلام: «وَهَلْ تَرَكَ لَنَا عَقِيلٌ مِنْ رِبَاعٍ»[1] وقد كان استحوذ على أملاك المسلمين الذين هاجروا وأسلم عقيل وهي في يده، فلم تنتزع من يده، وأما إذا انتزعت من أيديهم قبل، فإنها ترد إلى أربابها لحديث العضباء والمقصود أن الظاهر عقد مجلساً اجتمع فيه القضاة والفقهاء من سائر المذاهب وتكلموا في ذلك وصمم السلطان على ذلك اعتماداً على ما بيده من الفتاوى،

---

(١) أخرجه البخاري في الحج باب ٤٤، ومسلم في الحج حديث ٤٣٩، وابن ماجة في الفرائض باب ٦.

وخاف الناس من غائلة ذلك فتوسط الصاحب فخر الدين ابن الوزير بهاء الدين بن حنا، وكان قد درس بالشافعي بعد ابن بنت الأعز، فقال يا خوند أهل البلد يصالحونك عن ذلك كله بألف بألف درهم، تقسط كل سنة مائتي ألف درهم، فأبى إلا أن تكون معجلة بعد أيام، وخرج متوجهاً إلى الديار المصرية، وقد أجاب إلى تقسيطها، وجاءت البشارة بذلك فقرئت على المنبر ففرح الناس بذلك، ورسم أن يعجلوا من ذلك أربعمائة ألف درهم، وأن تعاد إليه الغلات التي كانوا قد احتاطوا عليها في زمن القسم والثمار، وكانت هذه الفعلة مما شعثت خواطر الناس على السلطان.

ولما استقر أمر أبغا على التتار أمر باستمرار وزيره نصير الدين الطوسي، واستناب على بلاد الروم البرواناه وارتفع قدره عنده جداً واستقل بتدبير تلك البلاد وعظم شأنه فيها.

وفيها كتب صاحب اليمن إلى الظاهر بالخضوع والانتماء إلى جانبه وأن يخطب له ببلاد اليمن، وأرسل إليه هدايا وتحفاً كثيرة، فأرسل إليه السلطان هدايا وخلعاً وسنجقاً وتقليداً.

وفيها رافع ضياء الدين بن الفقاعي للصاحب بهاء الدين بن الحنا عند الظاهر واستظهر عليه ابن الحنا، فسلمه الظاهر إليه، فلم يزل يضربه بالمقارع ويستخلص أمواله إلى أن مات، فيقال إنه ضربه قبل أن يموت سبعة عشر ألف مقرعة وسبعمائة فالله أعلم.

وفيها عمل البرواناه(١) على قتل الملك علاء الدين صاحب قونية وأقام ولده غياث الدين مكانه وهو ابن عشر سنين وتمكن البرواناه في البلاد والعباد وأطاعه جيش الروم.

وفيها قتل الصاحب علاء الدين صاحب الديوان ببغداد ابن الخشكري النعماني الشاعر، وذلك أنه اشتهر عنه أشياء عظيمة، منها أنه يعتقد فضل شعره على القرآن المجيد، واتفق أن الصاحب انحدر إلى واسط فلما كان بالنعمانية حضر ابن الخشكري عنده وأنشده قصيدة قد قالها فيه، فبينما هو ينشدها بين يديه إذ أذن المؤذن فاستنصته الصاحب، فقال ابن الخشكري: يا مولانا اسمع شيئاً جديداً، وأعرض عن شيء له سنين، فثبت عند الصاحب ما كان يقال عنده عنه، ثم باسطه وأظهر أنه لا ينكر عليه شيئاً مما قال حتى استعلم ما عنده، فإذا هو زنديق، فلما ركب قال لإنسان معه استفرده في أثناء الطريق واقتله، فسايره ذلك الرجل حتى إذا انقطع عن الناس قال لجماعة معه: أنزلوه عن فرسه كالملاعب له، فأنزلوه وهو يشتمهم ويلعنهم، ثم قال انزعوا عنه ثيابه فسلبوها، وهو يخاصمهم، ويقول إنكم أجلاف، وإن هذا لعب بارد، ثم قال: اضربوا عنقه، فتقدم إليه أحدهم فضربه بسيفه فأبان رأسه.

وفيها توفي:

الشيخ عفيف الدين يوسف بن البقال

شيخ رباط المرزبانية، كان صالحاً ورعاً زاهداً حكى عن نفسه قال: كنت بمصر فبلغني ما وقع من القتل الذريع ببغداد في فتنة التتار، فأنكرت في قلبي وقلت: يا رب كيف هذا وفيهم

(١) كلمة فارسية معناها في الأصل «الحاجب» ثم أطلق في دول الروم السلاجقة بآسيا الصغرى على الوزير الأكبر.

الأطفال ومن لا ذنب له؟ فرأيت في المنام رجلاً وفي يده كتاب فأخذته فقرأته فإذا فيه هذه الأبيات فيها الإنكار عليَّ.

دَعِ الاعْتِرَاضَ فَمَا الأَمْرُ لَكْ ... وَلا الحُكْمُ فِي حَرَكَاتِ الفَلَكْ
وَلا تَسْأَلِ الله عَنْ فِعْلِهِ ... فَمَنْ خَاضَ لُجَّةَ بَحْرٍ هَلَكْ
إِلَيْهِ تَصِيرُ أُمُورُ العِبَادِ ... دَعِ الاعْتِرَاضَ فَمَا أَجْهَلَكْ

وممن توفي فيها من الأعيان:

الحافظ أبو إبراهيم إسحاق بن عبد الله

ابن عمر المعروف بابن قاضي اليمن، عن ثمان وستين سنة، ودفن بالشرف الأعلى، وكان قد تفرد بروايات جيدة وانتفع الناس به. وفيها ولد الشيخ شرف الدين عبد الله بن تيمية أخو الشيخ تقي الدين بن تيمية، والخطيب القزويني.

ثم دخلت سنة سبع وستين وستمائة

في صفر منها جدد السلطان الظاهر البيعة لولده من بعده الملك السعيد محمد بركة خان، وأحضر الأمراء كلهم والقضاة والأعيان وأركبه ومشى بين يديه، وكتب له ابن لقمان تقليداً هائلاً بالملك من بعد أبيه، وأن يحكم عنه أيضاً في حال حياته، ثم ركب السلطان في عساكره في جمادى الآخرة قاصداً الشام، فلما دخل دمشق جاءته رسل من أبغا ملك التتار معهم مكاتبات ومشافهات، فمن جملة المشافهات: أنت مملوك بعت بسيواس فكيف يصلح لك أن تخالف ملوك الأرض؟ واعلم أنك لو صعدت إلى السماء أو هبطت إلى الأرض ما تخلصت مني فاعمل لنفسك على مصالحة السلطان أبغا. فلم يلتفت إلى ذلك ولا عده شيئاً بل أجاب عنه أتم جواب، وقال لرسله: أعلموه أني من ورائه بالمطالبة ولا أزال حتى أنتزع منه جميع البلاد التي استحوذ عليها من بلاد الخليفة، وسائر أقطار الأرض.

وفي جمادى الآخرة رسم السلطان الملك الظاهر بإراقة الخمور وتبطيل المفسدات والخواطىء بالبلاد كلها، فنهبت الخواطىء وسلبن جميع ما كان معهن حتى يتزوجن، وكتب إلى جميع البلاد بذلك، وأسقط المكوس التي كانت مرتبة على ذلك، وعوض من كان محالاً على ذلك بغيرها ولله الحمد والمنة. ثم عاد السلطان بعساكره إلى مصر، فلما كان في أثناء الطريق عند خربة اللصوص تعرضت له امرأة فذكرت له أن ولدها دخل مدينة صور، وأن صاحبها الفرنجي غدر به وقتله وأخذ ماله، فركب السلطان وشنّ الغارة على صور فأخذ منها شيئاً كثيراً، وقتل خلقاً، فأرسل إليه ملكها ما سبب هذا؟ فذكر له غدره ومكره بالتجار ثم قال السلطان لمقدم الجيوش: أوهم الناس أني مريض وأني بالمحفة وأحضر الأطباء واستوصف لي منهم ما يصلح لمريض به كذا وكذا، وإذا وصفوا لك فأحضر الأشربة إلى المحفة وأنتم سائرون. ثم ركب السلطان على البريد وساق مسرعاً حتى دخل الديار المصرية. فكشف أحوال

ولده وكيف الأمر بالديار المصرية بعده، ثم عاد مسرعاً إلى الجيش فجلس في المحفة وأظهروا عافيته وتباشروا بذلك. وهذه جرأة عظيمة، وإقدام هائل.

وفيها حج السلطان الملك الظاهر وفي صحبته الأمير بدر الدين الخزندار، وقاضي القضاة صدر الدين سليمان الحنفي، وفخر الدين بن لقمان، وتاج الدين بن الأثير ونحو من ثلاثمائة مملوك، وأجناد من الخلقة المنصورة، فسار على طريق الكرك ونظر في أحوالها ثم منها على المدينة النبوية، فأحسن إلى أهلها ونظر في أحوالها، ثم منها إلى مكة فتصدق على المجاورين ثم وقف بعرفة وطاف طواف الإفاضة وفتحت له الكعبة فغسلها بماء الورد وطيبها بيده، ثم وقف بباب الكعبة فتناول أيدي الناس ليدخلوا الكعبة وهو بينهم كأحدهم، ثم رجع فرمى الجمرات ثم تعجل النفر فعاد على المدينة النبوية فزار القبر الشريف مرة ثانية على ساكنه أفضل الصلاة وأتم التسليم، وعلى آله وأهل بيته الطيبين الطاهرين وصحابته الكرام أجمعين إلى يوم الدين. ثم سار إلى الكرك فدخلها في التاسع والعشرين من ذي الحجة، وأرسل البشير إلى دمشق بقدومه سالماً، فخرج الأمير جمال الدين آقوش النجيبي نائبها ليتلقى البشير في ثاني المحرم، فإذا هو السلطان نفسه يسير في الميدان الأخضر، وقد سبق الجميع، فتعجب الناس من سرعة سيره وصبره وجلده، ثم ساق من فوره حتى دخل حلب في سادس المحرم ليتفقد أحوالها، ثم عاد إلى حماة ثم رجع إلى دمشق ثم سار إلى مصر فدخلها يوم الثلاثاء ثالث صفر من السنة المقبلة رحمه الله.

وفي أواخر ذي الحجة هبت ريح شديدة أغرقت مائتي مركب في النيل، وهلك فيها خلق كثير، ووقع هناك مطر شديد جداً، وأصاب الشام من ذلك صاعقة أهلكت الثمار، فإنا لله وإنا إليه راجعون. وفيها أوقع الله تعالى الخلف بين التتار من أصحاب أبغا وأصحاب ابن منكوتمر ابن عمه وتفرّقوا واشتغلوا ببعضهم بعضاً، ولله الحمد. وفيها خرج أهل حران منها وقدموا الشام، وكان فيهم شيخنا العلاّمة أبو العباس أحمد بن تيمية صحبة أبيه وعمره ست سنين، وأخوه زين الدين عبد الرحمن وشرف الدين عبد الله، وهما أصغر منه.

وممن توفي فيها من الأعيان:

الأمير عز الدين أيدمر بن عبد الله

الحلبي الصالحي، كان من أكابر الأمراء وأحظاهم عند الملوك، ثم عند الملك الظاهر، كان يستنيبه إذا غاب. فلما كانت هذه السنة أخذه معه وكانت وفاته بقلعة دمشق، ودفن بتربته بالقرب من اليغمورية، وخلف أموالاً جزيلة، وأوصى إلى السلطان في أولاده، وحضر السلطان عزاءه بجامع دمشق.

شرف الدين أبو الظاهر

محمد ابن الحافظ أبي الخطاب عمر بن دحية المصري، ولد سنة عشر وستمائة وسمع أباه وجماعة، وتولى مشيخة دار الحديث الكاملية مدة، وحدّث وكان فاضلاً.

القاضي تاج الدين أبو عبد الله

محمد بن وثاب بن رافع البجيلي الحنفي، درَّس وأفتى عن ابن عطاء بدمشق، ومات بعد خروجه من الحمام على مساطب الحمام فجأة ودفن بقاسيون.

الطبيب الماهر شرف الدين أبو الحسن

علي بن يوسف بن حيدرة الرحبي شيخ الأطباء بدمشق، ومدرس الدخوارية عن وصية واقفها وله التقدمة في الصناعة على أقرانه من أهل زمانه، ومن شعره قوله:

يُسَاقُ بَنُو الدُّنْيَا إلى الحَتْفِ عَنْوَةً ... وَلا يَشْعُرُ البَاقِي بِحَالَةِ مَنْ يَمْضِي
كَأَنَّهُمُ الأَنْعَامُ فِي جَهْلِ بَعْضِهَا ... بِمَا تَمَّ مِنْ سَفْكِ الدِّمَاءِ عَلَى بَعْضِ

الشيخ نصير الدين

ابن المبارك بن يحيى بن أبي الحسن أبي البركات بن الصباغ الشافعي، العلامة في الفقه والحديث، درس وأفتى وصنف وانتفع الناس به، وعمر ثمانين سنة، وكانت وفاته في حادي عشر جمادى الأولى من هذه السنة، رحمه الله تعالى.

الشيخ أبو الحسن

علي بن عبد الله بن إبراهيم الكوفي المقري النحوي الملقب بسيبويه في وقته، وكان فاضلاً بارعاً في صناعة النحو، توفي بمارستان القاهرة في هذه السنة عن سبع وستين سنة رحمه الله. ومن شعره:

عَذَّبْتَ قَلْبِي بِهَجْرٍ مِنْكَ مُتَّصِلِ ... يَا مَنْ هَوَاهُ ضَمِيرٌ غَيْرُ مُنْفَصِلِ
[فَمَا زَادَنِي غَيْرَ تَأْكِيدِ صَدِّكَ لِي ... فَمَا عُدُولُكَ مِنْ عَطْفٍ إِلَى بَدَلِ][1]

وفيها ولد شيخنا العلاّمة كمال الدين محمد بن علي الأنصاري بن الزملكاني شيخ الشافعية.

ثم دخلت سنة ثمان وستين وستمائة

في ثاني المحرم منها دخل السلطان [الملك الظاهر][2] من الحجاز على الهجن فلم يرع الناس إلا وهو في الميدان الأخضر يسير، ففرح الناس بذلك، وأراح الناس من تلقيه بالهدايا والتحف، وهذه كانت عادته، وقد عجب الناس من سرعة مسيره وعلو همّته، ثم سار إلى حلب، ثم سار إلى مصر فدخلها في ثالث الشهر مع الركب المصري، وكانت زوجته أم الملك السعيد في الحجاز هذه السنة، ثم خرج في ثالث عشر صفر هو وولده والأمراء إلى الإسكندرية

(١) ما بين معقوفين زيادة من النسخة المصرية. وعدولك: تغيّرك.
(٢) سقط في ط.

فتصيد هنالك، وأطلق للأمراء الأموال الكثيرة والخلع، ورجع مؤيداً منصوراً.

وفي المحرم منها قتل صاحب مراكش أبو العلاء إدريس بن عبد الله بن محمد بن يوسف الملقب بالواثق، قتله بنو مرين في حرب كانت بينه وبينهم بالقرب من مراكش. وفي ثالث عشر ربيع الآخر منها وصل السلطان إلى دمشق في طائفة من جيشه، وقد لقوا في الطريق مشقة كثيرة من البرد والوحل، فخيم على الزنبقية وبلغه أن ابن أخت ديبون خرج من عكا يقصد جيش المسلمين، فركب إليه سريعاً فوجده قريباً من عكا فدخلها خوفاً منه وفي رجب تسلم نواب السلطان مصياف من الإسماعيلية، وهرب منها أميرهم الصارم مبارك بن الرضا، فتحيل عليه صاحب حماه حتى أسر وأرسله إلى السلطان فحبسه في بعض الأبرجة في القاهرة. وفيها أرسل السلطان الدرابزينات إلى الحجرة النبوية، وأمر أن تقام حول القبر صيانة له، وعمل لها أبواباً تفتح وتغلق من الديار المصرية، فركب ذلك عليها. وفيها استفاضت الأخبار بقصد الفرنج بلاد الشام، فجهز السلطان العساكر لقتالهم، وهو مع ذلك مهتم بالإسكندرية خوفاً عليها، وقد حصّنها وعمل جسورة إليها إن دهمها العدو، وأمر بقتل الكلاب منها. وفيها انقرضت دولة بني عبد المؤمن من بلاد المغرب، وكان آخرهم إدريس بن عبد الله بن يوسف صاحب مراكش، قتله بنو مرّين في هذه السنة.

وممن توفي فيها من الأعيان:

الصاحب زين الدين يعقوب بن عبد الله الرفيع

ابن زيد بن مالك المصري المعروف بابن الزبيري كان فاضلاً رئيساً، وزر للملك المظفر قطز ثم للظاهر بيبرس في أول دولته، ثم عزله وولي بهاء الدين بن الحنا، فلزم منزله حتى أدركته منيته في الرابع عشر من ربيع الآخر من هذه السنة، وله نظم جيد.

الشيخ موفق الدين

أحمد بن القاسم بن خليفة الخزرجي الطبيب، المعروف بابن أبي أُصَيْبعة، له تاريخ الأطباء في عشرة مجلدات لطاف، وهو وقف بمشهد ابن عروة بالأموي، توفي بصرخد وقد جاوز التسعين.

الشيخ زين الدين أحمد بن عبد الدائم

ابن نعمة بن أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أحمد بن بكير، أبو العباس المقدسي النابلسي، تفرد بالرواية عن جماعة من المشايخ، ولد سنة خمس وسبعين وخمسمائة، وقد سمع ورحل إلى بلدان شتى، وكان فاضلاً يكتب سريعاً، حكى الشيخ علم الدين أنه كتب مختصر الخرقي في ليلة واحدة، وخطه حسن قوي، وقد كتب تاريخ ابن عساكر مرتين، واختصره لنفسه أيضاً، وأضر في آخر عمره أربع سنين، وله شعر أورد منه قطب الدين في تذييله، توفي بسفح قاسيون وبه دفن في بكرة الثلاثاء عاشر رجب، وقد جاوز التسعين رحمه الله تعالىٰ.

القاضي محيي الدين بن الزكي

أبو الفضل يحيى ابن قاضي القضاة بهاء الدين أبي المعالي محمد بن علي بن محمد بن يحيى بن علي بن عبد العزيز بن علي بن عبد العزيز بن علي بن الحسين بن محمد بن عبد الرحمن بن القاسم بن الوليد بن عبد الرحمن بن أبان بن عثمان بن عفان القرشي الأموي ابن الزكي، تولى قضاء دمشق غير مرة، وكذلك آباؤه من قبله، كل قد وليها، وقد سمع الحديث من حنبل وابن طبرزد والكندي وابن الحرستاني وجماعة، وحدّث ودرّس في مدارس كثيرة، وقد ولي قضاء الشام في الدولة الهلاوونية[١] فلم يحمد على ما ذكره أبو شامة، توفي بمصر في الرابع عشر من رجب، ودفن بالمقطّم وقد جاوز السبعين. وله شعر جيد قوي، وحكى الشيخ قطب الدين في ذلك بعد ما نسبه كما ذكرنا عن والده القاضي بهاء الدين أنه كان يذهب إلى تفضيل علي على عثمان موافقة لشيخه محيي الدين بن عربي، ولمنام رآه بجامع دمشق معرضاً فيه يعني بسبب ما كان من بني أمية إليه في أيام صفين، فأصبح فنظم في ذلك قصيدة يذكر فيها ميله إلى علي، وإن كان هو أموي:

أَدِينُ بِمَا دَانَ الوَصِيُّ وَلاَ أَرَى ... سِوَاهُ وَإِنْ كَانَتْ أُمَيَّةُ مَحْتِدِي

وَلَوْ شَهِدَتْ صِفِّينَ خَيْلِي لأَعْذَرَتْ ... وَسَاءَ بَنِي حَرْبٍ هُنَالِكَ مَشْهَدِي

لَكُنْتُ أَسُنُّ البِيضَ عَنْهُمْ تَرَاضِياً ... وَأَمْنَعُهُمْ نَيْلَ الخِلافَةِ بِاليَدِ

ومن شعره:

قَالُوا مَا فِي جُلَّقٍ نُزْهَةٌ ... تُسْلِيكَ عَمَّنْ أَنْتَ بِهِ مُغْرى

يَا عَاذِلِي دُونَكَ فِي لحظةٍ ... سَهْماً وَقَدْ عَارَضَهُ سَطْرَا

الصاحب فخر الدين

محمد ابن الصاحب بهاء الدين علي بن محمد بن سليم بن الحنا المصري، كان وزير الصحبة، وقد كان فاضلاً، بنى رباطاً بالقرافة الكبرى، ودرس بمدرسة والده بمصر، وبالشافعي بعد ابن بنت الأعز توفي بشعبان ودفن بسفح المقطم، وفوض السلطان وزارة الصحبة لولده تاج الدين.

الشيخ أبو نصر بن أبي الحسن:

ابن الخراز الصوفي البغدادي الشاعر، له ديوان حسن، وكان جميل المعاشرة حسن المذاكرة، دخل عليه بعض أصحابه فلم يقم له فأنشده قوله:

نَهَضَ القَلْبُ حِينَ أَقْبَلْتَ ... إِجْلالاً لِمَا فِيهِ مِنْ صَحِيحِ الوِدَادِ

---

(١) في شذرات الذهب: ولاه هولاكو قضاء الشام.

وَنُهُوضُ القُلُوبِ بِالوِدِّ أَوْلَى مِنْ نُهُوضِ الأَجْسَادِ لِلأَجْسَادِ

ثم دخلت سنة تسع وستين وستمائة

في مستهل صفر منها ركب السلطان من الديار المصرية في طائفة من العسكر إلى عسقلان فهدم ما بقي من سورها مما كان أهمل في الدولة الصلاحية، ووجد فيما هدم كوزين فيهما ألفا دينار ففرقهما على الأمراء. وجاءته البشارة وهو هنالك بأن منكوتمر كسر جيش أبغا ففرح بذلك، ثم عاد إلى القاهرة. وفي ربيع الأول بلغ السلطان أن أهل عكا ضربوا رقاب من في أيديهم من أسرى المسلمين صبراً بظاهر عكا، فأمر بمن كان في يده من أسرى أهل عكا فضربت رقابهم في صبيحة واحدة، وكانوا قريباً من مائة أسير. وفيها كمل جامع المنشية[1] وأقيمت فيه الجمعة في الثاني والعشرين من ربيع الآخر. وفيها جرت حروب يطول ذكرها بين أهل تونس والفرنج، ثم تصالحوا بعد ذلك على الهدنة ووضع الحرب، بعد ما قتل من الفريقين خلق لا يحصون.

وفي يوم الخميس ثامن رجب دخل الظاهر دمشق وفي صحبته ولده الملك السعيد وابن الحنا الوزير وجمهور الجيش ثم خرجوا متفرقين وتواعدوا أن يلتقوا بالساحل ليشنوا الغارة على جبلة واللاذقية ومرقب وعرقا وما هنالك من البلاد فلما اجتمعوا فتحوا صافيتا والمجدل، ثم ساروا فنزلوا على حصن الأكراد يوم الثلاثاء تاسع عشر رجب، وله ثلاثة أسوار، فنصبوا عليها المنجنيقات ففتحها قسراً يوم نصف شعبان، فدخل الجيش، وكان الذي يحاصره ولد السلطان الملك السعيد، فأطلق السلطان أهله ومنّ عليهم وأجلاهم إلى طرابلس، وتسلم القلعة بعد عشرة أيام من الفتح، فأجلى أهلها أيضاً وجعل كنيسة البلد جامعاً، وأقام فيه الجمعة، وولّى فيها نائباً وقاضياً وأمر بعمارة البلد، وبعث صاحب انطرسوس بمفاتيح بلده يطلب منه الصلح على أن يكون نصف مغل بلاده للسلطان، وأن يكون له بها نائباً فأجابه إلى ذلك، وكذلك فعل صاحب المرقب فصالحه أيضاً على المناصفة ووضعَ الحرب عشر سنين. وبلغ السلطان وهو مخيم على حصن الأكراد أن صاحب جزيرة قبرص قد ركب بجيشه إلى عكا لينصر أهلها خوفاً من السلطان، فأراد السلطان أن يغتنم هذه الفرصة فبعث جيشاً كثيفاً في سبع عشرة شيني ليأخذوا جزيرة قبرص في غيبة صاحبها عنها، فسارت المراكب مسرعة فلما قاربت الجزيرة جاءتها ريح قاصف فصدم بعضها بعضاً فانكسر فيها أربعة عشر مركباً بإذن الله فغرق خلق وأسر الفرنج من الصناع والرجال قريباً من ألف وثمانمائة إنسان، فإنا لله وإنا إليه راجعون. ثم سار السلطان فنصب المجانيق على حصن عكا فسأله أهلها الأمان على أن يخليهم فأجابهم إلى ذلك، ودخل البلد يوم عيد الفطر فتسلمه، وكان الحصن شديد الضرر على المسلمين، وهو واد بين جبلين، ثم سار السلطان نحو طرابلس فأرسل إليه صاحبها يقول: ما مراد السلطان في هذه الأرض؟

---

(١) كذا في المصرية، وفي التركية: «المزة».

فقال جئت لأرعى زروعكم وأخرب بلادكم، ثم أعود إلى حصاركم في العام الآتي. فأرسل يستعطفه ويطلب منه المصالحة ووضع الحرب بينهم عشر سنين فأجابه إلى ذلك، وأرسل إليه الإسماعيلية يستعطفونه على والدهم، وكان مسجوناً بالقاهرة، فقال: سلموا إليّ العليقة وانزلوا فخذوا إقطاعات بالقاهرة، وتسلموا أباكم. فلما نزلوا أمر بحبسهم بالقاهرة واستناب بحصن العليقة.

وفي يوم الأحد الثاني عشر من شوال جاء سيل عظيم إلى دمشق فأتلف شيئاً كثيراً، وغرق بسببه ناس كثير، لا سيما الحجاج من الروم الذين كانوا نزولاً بين النهرين، أخذهم السيل وجمالهم وأحمالهم، فهلكوا وغلقت أبواب البلد، ودخل الماء إلى البلد من مراقي السور، ومن باب الفراديس فغرق خان ابن المقدم وأتلف شيئاً كثيراً، وكان ذلك في زمن الصيف في أيام المشمش، ودخل السلطان إلى دمشق يوم الأربعاء خامس عشر شوال فعزل القاضي ابن خلكان، وكان له في القضاء عشر سنين، وولي القاضي عز الدين بن الصائغ، وخلع عليه، وكان تقليده قد كتب بظاهر طرابلس بسفارة الوزير ابن الحنا، فسار ابن خلكان في ذي القعدة إلى مصر. وفي ثاني عشر شوال دخل حصن الكردي شيخ السلطان الملك الظاهر وأصحابه إلى كنيسة اليهود فصلوا فيها وأزالوا ما فيها من شعائر اليهود، ومدوا فيها سماطاً وعملوا سماعاً، وبقوا على ذلك أياماً، ثم أعيدت إلي اليهود، ثم خرج السلطان إلى السواحل فافتتح بعضها وأشرف على عكا وتأملها ثم سار إلى الديار المصرية، وكان مقدار غرمه في هذه المدة وفي الغزوات قريباً من ثمانمائة ألف دينار، وأخلفها الله عليه، وكان وصوله إلى القاهرة يوم الخميس ثالث عشر ذي الحجة. وفي اليوم السابع عشر من وصوله أمسك على جماعة من الأمراء منهم الحلبي وغيره بلغه أنهم أرادوا مسكه على الشقيف.

وفي اليوم السابع عشر من ذي الحجة أمر بإراقة الخمور من سائر بلاده وتهدد من يعصرها أو يعتصرها بالقتل، وأسقط ضمان ذلك، وكان ذلك بالقاهرة وحدها ضمانه كل شهر ألف دينار، ثم سارت البرد بذلك إلى الآفاق. وفيها قبض السلطان على العزيز بن المغيث صاحب الكرك، وعلى جماعة من أصحابه كانوا عزموا على سلطنته.

وممن توفي فيها من الأعيان:

الملك تقي الدين عباس ابن الملك العادل

أبي بكر بن أيوب [ابن شادي][(١)]، وهو آخر من بقي من أولاد العادل، وقد سمع الحديث من الكندي وابن الحرستاني، وكان محترماً عند الملوك لا يرفع عليه أحد في المجالس والمواكب، وكان لين الأخلاق حسن العشرة، لا تمل مجالسته. توفي يوم الجمعة الثاني والعشرين من جمادى الآخرة بدرب الريحان، ودفن بتربته بسفح قاسيون.

---

(١) سقط في ط.

قاضي القضاة شرف الدين أبو حفص

عمر بن عبد الله بن صالح بن عيسى السبكي المالكي، ولد سنة خمس وثمانين وخمسمائة، وسمع الحديث وتفقه وأفتى بالصلاحية، وولّي حسبة القاهرة ثم ولي القضاء سنة ست وستين، لما ولوا من كل مذهب قاضياً، وقد امتنع أشد الامتناع ثم أجاب بعد إكراه بشرط أن لا يأخذ على القضاء جامكية، وكان مشهوراً بالعلم والدين، روى عنه القاضي بدر الدين بن جماعة وغيره. توفي لخمس بقين من ذي القعدة.

الطواشي شجاع الدين مرشد المظفري الحموي

كان شجاعاً بطلاً من الأبطال الشجعان، وكان له رأي سديد، كان أستاذه لا يخالفه، وكذلك الملك الظاهر، توفي بحماه ودفن بتربته بالقرب من مدرسته بحماه.

ابن سبعين: عبد الحق بن إبراهيم بن محمد

ابن نصر بن محمد بن نصر بن محمد بن قطب الدين أبو محمد المقدسي الرقوطي، نسبة إلى رقوطة بلدة قريبة من مرسية، ولد سنة أربع عشرة وستمائة، واشتغل بعلم الأوائل والفلسفة، فتولد له من ذلك نوع من الاتحاد، وصنّف فيه، وكان يعرف السيميا، وكان يلبس بذلك على الأغبياء من الأمراء والأغنياء، ويزعم أنه حال من أحوال القوم، وله من المصنفات كتاب الند، وكتاب الهو، وقد أقام بمكة واستحوذ على عقل صاحبها ابن سمي، وجاور في بعض الأوقات بغار حراء يرتجى فيما ينقل عنه أن يأتيه فيه وحي كما أتى النبي ﷺ، بناء على ما يعتقده من العقيدة الفاسدة من أن النبوة مكتسبة، وأنها فيض يفيض على العقل إذا صفا، فما حصل له إلا الخزي في الدنيا والآخرة، إن كان مات على ذلك، وقد كان إذا رأى الطائفين حول البيت يقول عنهم: كأنهم الحمير حول المدار، وأنهم لو طافوا به كان أفضل من طوافهم بالبيت، فالله يحكم فيه وفي أمثاله. وقد نقلت عنه عظائم من الأقوال والأفعال، توفي في الثامن والعشرين من شوال بمكة.

ثم دخلت سنة سبعين وستمائة من الهجرة

استهلت وخليفة الوقت الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد العباسي، وسلطان الإسلام الملك الظاهر. وفي يوم الأحد الرابع عشر من المحرم ركب السلطان إلى البحر لالتقاء الشواني التي عملت عوضاً عما غرق بجزيرة قبرص، وهي أربعون شينياً، فركب في شيني منها ومعه الأمير بدر الدين الخزندار، فمالت بهم فسقط الخزندار في البحر فغاص في الماء فألقى إنسان نفسه وراءه. فأخذ بشعره وأنقذه من الغرق، فخلع السلطان على ذلك الرجل وأحسن إليه. وفي أواخر المحرم ركب السلطان في نفر يسير من الخاصكية، والأمراء من الديار المصرية حتى قدم الكرك، واستصحب نائبها معه إلى دمشق، فدخلها في ثاني عشر صفر، ومعه الأمير عز

الدين أيدمر نائب الكرك، فولاَّه نيابة دمشق وعزل عنها جمال الدين آقوش النجيبي في رابع عشر صفر، ثم خرج إلى حماة وعاد بعد عشرة أيام. وفي ربيع الأول وصلت الجفال[١] من حلب وحماة وحمص إلى دمشق بسبب الخوف من التتار، وجفل خلق كثير من أهل دمشق. وفي ربيع الآخر وصلت العساكر المصرية إلى حضرة السلطان إلى دمشق فسار بهم منها في سابع الشهر، فاجتاز بحماة واستصحب ملكها المنصور، ثم سار إلى حلب فخيم بالميدان الأخضر بها، وكان سبب ذلك أن عساكر الروم جمعوا نحواً من عشرة آلاف فارس وبعثوا طائفة منهم فأغاروا على عين تاب، ووصلوا إلى بسطون ووقعوا على طائفة من التركمان بين حارم وأنطاكية فاستأصلوهم فلما سمع التتار بوصول السلطان ومعه العساكر المنصورة ارتدوا على أعقابهم راجعين، وكان بلغه أن الفرنج أغاروا على بلاد قاقون[٢] ونهبوا طائفة من التركمان، فقبض على الأمراء الذين هناك حيث لم يهتموا بحفظ البلاد وعادوا إلى الديار المصرية.

وفي ثالث شعبان أمسك السلطان قاضي الحنابلة بمصر شمس الدين أحمد بن العماد المقدسي، وأخذ ما عنده من الودائع فأخذ زكاتها ورد بعضها إلى أربابها، واعتقله إلى شعبان من سنة ثنتين وسبعين، وكان الذي وشى به رجل من أهل حران يقال له شبيب، ثم تبين للسلطان نزاهة القاضي وبراءته فأعاده إلى منصبه في سنة ثنتين وسبعين، وجاء السلطان في شعبان إلى أراضي عكا فأغار عليها فسأله صاحبها المهادنة فأجابه إلى ذلك فهادنه عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات، وعاد إلى دمشق فقرىء بدار السعادة كتاب الصلح، واستمر الحال على ذلك ثم عاد السلطان إلى بلاد الإسماعيلية فأخذ عامتها. قال قطب الدين: وفي جمادى الآخرة ولدت زرافة بقلعة الجبل، وأرضعت من بقرة. قال وهذا شيء لم يعهد مثله.

وفيها توفي.

الشيخ كمال الدين

سلاّر[٣] بن الحسن بن عمر بن سعيد الأربلي الشافعي، أحد مشايخ المذهب، وقد اشتغل عليه الشيخ محيي الدين النووي، وقد اختصر البحر للروياني في مجلدات عديدة هي عندي بخط يده وكانت الفتيا تدور عليه بدمشق، توفي في عشر السبعين ودفن بباب الصغير، وكان مفيداً بالبادرائية من أيام الواقف، لم يطلب زيادة على ذلك إلى أن توفي في هذه السنة.

وجيه الدين محمد بن علي بن أبي طالب

ابن سويد التكريتي التاجر الكبير بين التجار ابن سويد ذو الأموال الكثيرة، وكان معظماً عند الدولة، ولا سيما عند الملك الظاهر، كان يجله ويكرمه لأنه كان قد أسدى إليه جميلاً في حال إمرته قبل أن يلي السلطنة، ودفن برباطه وتربته بالقرب من الرباط الناصري بقاسيون،

---

(١) الجفال: من جفل بمعنى نفر وشرد، وانجفل القوم: هربوا مسرعين.

(٢) قاقون: حصن بفلسطين قرب الرملة.

(٣) في ط: رسلان.

وكانت كتب الخليفة ترد إليه في كل وقت، وكانت مكاتباته مقبولة عند جميع الملوك، حتى ملوك الفرنج في السواحل. وفي أيام التتار في أيام هلاوون، وكان كثير الصدقات والبر.

نجم الدين يحيى بن محمد بن عبد الواحد بن اللبودي

واقف اللبودية التي عند حمام الفلك المبرز على الأطباء، ولديه فضيلة بمعرفة الطب، وقد ولّي نظر الدواوين بدمشق، ودفن بتربته عند اللبودية.

الشيخ علي البكاء

صاحب الزاوية بالقرب من بلد الخليل عليه السلام، كان مشهوراً بالصلاح والعبادة والإطعام لمن اجتاز به من المارة والزوار، وكان الملك المنصور قلاوون يثني عليه ويذكر أنه اجتمع به ويقول: اجتمعت به وهو أمير وأنه كاشفه في أشياء وقعت جميعها، ومن جملتها أنه سيملك نقل ذلك قطب الدين اليونيني وذكر أن سبب بكائه الكثير أنه صحب رجلاً كانت له أحوال وكرامات، وأنه خرج معه من بغداد فانتهوا في ساعة واحدة إلى بلدة بينها وبين بغداد مسيرة سنة، وأن ذلك الرجل قال له إني سأموت في الوقت الفلاني، فأشهدني في ذلك الوقت في البلد الفلاني قال: فلما كان ذلك الوقت حضرت عنده وهو في السياق، وقد استدار إلى جهة الشرق فحولته إلى القبلة فاستدار إلى الشرق فحولته أيضاً ففتح عينيه وقال: لا تتعب فإني لا أموت إلا على هذه الجهة، وجعل يتكلم بكلام الرهبان حتى مات فحملناه فجئنا به إلى دير هناك فوجدناهم في حزن عظيم، فقلنا لهم: ما شأنكم؟ فقالوا كان عندنا شيخ كبير ابن مائة سنة، فلما كان اليوم مات على الإسلام، فقلنا لهم: خذوا هذا بدله وسلمونا صاحبنا، قال: فوليناه فغسلناه وكفناه وصلينا عليه ودفناه مع المسلمين، وولوا هم ذلك الرجل فدفنوه في مقبرة النصارى، نسأل الله حسن الخاتمة. مات الشيخ علي في رجب من هذه السنة.

ثم دخلت سنة إحدى وسبعين وستمائة

في خامس المحرم دخل الظاهر دمشق من بلاد السواحل التي فتحها وقد مهدها، وركب في أواخر الشهر إلى القاهرة فأقام بها سنة ثم عاد فدخل دمشق في رابع صفر، وفي المحرم منها وصل صاحب النوبة إلى عيذاب فنهب تجارها وقتل خلقاً من أهلها، منهم الوالي والقاضي، فسار إليه الأمير علاء الدين أيدغدي الخزندار فقتل خلقاً من بلاده ونهب وحرق وهدم ودوخ البلاد، وأخذ بالثأر ولله الحمد والمنة.

وفي ربيع الأول توفي الأمير سيف الدين محمد بن مظفر الدين عثمان بن ناصر الدين منكورس صاحب صهيون، ودفن في تربة والده في عشر السبعين، وكان له في ملك صهيون وبزريه إحدى عشرة سنة، وتسلمها بعده ولده سابق الدين، وأرسل إلى الملك الظاهر يستأذنه في الحضور فأذن له، فلما حضر أقطعه خبزاً وبعث إلى البلدين نواباً من جهته.

وفي خامس جمادى الآخرة وصل السلطان بعسكره إلى الفرات لأنه بلغه أن طائفة من

التتار هنالك فخاض إليهم الفرات بنفسه وجنده، وقتل من أولئك مقتلة كبيرة وخلقاً كثيراً، وكان أول من اقتحم الفرات يومئذٍ الأميران سيف الدين قلاوون وبدر الدين بيسري وتبعهما السلطان، ثم فعل بالتتار ما فعل، ثم ساق إلى ناحية البيرة وقد كانت محاصرة بطائفة من التتار أخرى، فلما سمعوا بقدومه هربوا وتركوا أموالهم وأثقالهم، ودخل السلطان إلى البيرة في أبهة عظيمة وفرق في أهلها أموالاً كثيرة، ثم عاد إلى دمشق في ثالث جمادى الآخرة ومعه الأسرى. وخرج منها في سابعه إلى الديار المصرية، وخرج ولده الملك السعيد لتلقيه ودخلا إلى القاهرة، وكان يوماً مشهوداً. ومما قاله القاضي شهاب الدين محمود الكاتب، وأولاده يقال لهم بنو الشهاب محمود، في خوض السلطان الفرات بالجيش:

سِرْ حَيْثُ شِئْتَ لَكَ المُهَيْمِنُ جَارُ ... وَاحْكُمْ فَطَوْعُ مُرَادِكَ الأَقْدَارُ
لَمْ يَبْقَ لِلدِّينِ الَّذِي أَظْهَرْتَهُ ... يَا رُكْنَهُ عِنْدَ الأَعَادِي ثَارُ
لَمَّا تَرَاقَصَتِ الرُّؤوسِ وَحُرِّكَتْ ... مِنْ مُطْرِبَاتِ قِسِيِّكِ الأَوْتَارُ
خُضْتَ الفُرَاتَ بِعَسْكَرٍ أَفْضَى بِهِ ... مَوْجُ الفُرَاتِ كَمَا أَتَى الآثَارُ
حَمَلَتْكَ أَمْوَاجُ الفُرَاتِ وَمَنْ رَأَى ... بَحْراً سِوَاكَ تُقِلُّهُ الأَنْهَارُ
وَتَقَطَّعَتْ فِرَقاً وَلَمْ يَكُ طَوْدُهَا ... إِذْ ذَاكَ إِلاَّ جَيْشُكَ الجَرَّارُ

وقال بعض من شاهد ذلك:

وَلَمَّا تَرَامَيْنَا الفُرَاتَ بِخَيْلِنَا ... سَكَرْنَاهُ مِنَّا بِالقَنَا وَالصَّوَارِمِ
وَلَجْنَا فَأَوقِفَ التَّيَّارُ عَنْ جَرَيَانِهِ ... إِلَى حِينَ عُدْنَا بِالغِنَى وَالغَنَائِمِ

وقال آخر ولا بأس به:

المَلِكُ الظَّاهِرُ سُلْطَانُنَا ... نَفْدِيهِ بِالأَمْوَالِ وَالأَهْلِ
اقْتَحَمَ المَاءَ لِيُطْفِي بِهِ ... حَرَارَةَ القَلْبِ مِنَ المُغْلِ

وفي يوم الثلاثاء ثالث رجب خلع على جميع الأمراء من حاشيته ومقدمي الحلقة وأرباب الدولة وأعطى كل إنسان ما يليق به من الخيل والذهب والحوايص، وكان مبلغ ما أنفق بذلك نحو ثلاثمائة ألف دينار. وفي شعبان أرسل السلطان إلى منكوتمر هدايا عظيمة، وفي يوم الاثنين ثاني عشر شوال استدعى السلطان شيخه الشيخ خضر الكردي إلى بين يديه إلى القلعة وحوقق على أشياء كثيرة ارتكبها، فأمر السلطان عند ذلك باعتقاله وحبسه، ثم أمر باغتياله وكان آخر العهد به. وفي ذي القعدة سلمت الإسماعيلية ما كان بقي بأيديهم من الحصون وهي الكهف والقدموس والمنطقة وعوضوا عن ذلك بإقطاعات، ولم يبق بالشام شيء لهم من القلاع، واستناب السلطان فيها. وفيها أمر السلطان بعمارة جسورة في السواحل، وغرم عليها مالاً كثيراً، حصل للناس بذلك رفق كبير.

وممن توفي فيها من الأعيان:

الشيخ تاج الدين أبو المظفر محمد بن أحمد

ابن حمزة بن علي بن هبة الله بن النحوي، التغلبي الدمشقي، كان من أعيان أهل دمشق، ولِّي نظر الأيتام والحسبة، ثم وكالة بيت المال، وسمع الكثير وخرج له ابن بليان مشيخة قرأها عليه الشيخ شرف الدين الغراري بالجامع، فسمعها جماعة من الأعيان والفضلاء رحمه الله.

الخطيب فخر الدين أبو محمد

عبد القاهر بن عبد الغني بن محمد بن أبي القاسم بن محمد بن تيمية الحراني الخطيب بها، وبيته معروف بالعلم والخطابة والرياسة، ودفن بمقبرة الصوفية وقد قارب الستين رحمه الله. وقد سمع الحديث من جده فخر الدين صاحب ديوان الخطب المشهورة، توفي بخانقاه القصر ظاهر دمشق.

الشيخ خضر بن أبي بكر المهراني العدوي

شيخ الملك الظاهر بيبرس، كان حظياً عنده مكرماً لديه، له عنده المكانة الرفيعة، كان السلطان ينزل بنفسه إلى زاويته التي بناها له في الحسينية، في كل أسبوع مرة أو مرتين، وبنى له عندها جامعاً يخطب فيه للجمعة، وكان يعطيه مالاً كثيراً، ويطلق له ما أراد ووقف على زاويته شيئاً كثيراً جداً، وكان معظماً عند الخاص والعام بسبب حب السلطان وتعظيمه له، وكان يمازحه إذا جلس عنده، وكان فيه خير ودين وصلاح، وقد كاشف السلطان بأشياء كثيرة، وقد دخل مرة كنيسة القيامة بالقدس فذبح قسيسها بيده، ووهب ما فيها لأصحابه، وكذلك فعل بالكنيسة التي بالإسكندرية وهي من أعظم كنائسهم، نهبها وحولها مسجداً ومدرسة أنفق عليها أمولاً كثيرة من بيت المال، وسماها المدرسة الخضراء، وكذلك فعل بكنيسة اليهود بدمشق، دخلها ونهب ما فيها من الآلات والأمتعة، ومد فيها سماطاً، واتخذها مسجداً مدة ثم سعوا إليه في ردها إليهم وإبقائها عليهم، ثم اتفق في هذه السنة أنه وقعت منه أشياء أنكرت عليه وحوقق عليها عند السلطان الملك الظاهر فظهر له منه ما أوجب سجنه، ثم أمر بإعدامه وهلاكه[1] وكانت وفاته في هذه السنة، ودفن بزاويته سامحه الله، وقد كان السلطان يحبه محبة عظيمة حتى أنه سمى بعض أولاده خضراً موافقة لاسمه، وإليه تنسب القبة التي على الجبل غربي الربوة التي يقال لها قبة الشيخ خضر.

مصنف التعجيز

العلاّمة تاج الدين عبد الرحيم بن محمد بن يونس بن محمد بن سعد بن مالك أبو القاسم الموصلي، من بيت الفقه والرياسة والتدريس، ولد سنة ثمان وتسعين وخمسمائة، وسمع

---

(١) في شذرات الذهب: أنه حبسه في القلعة وأجرى عليه المآكل المفتخرة حتى مات في محرم سنة ٦٧٦ هـ، وكذلك في النجوم الزاهرة، وفيها أن حبسه كان في شوال سنة ٦٧١ هـ.

واشتغل وحصّل وصنّف واختصر الوجيز من كتابه التعجيز، واختصر المحصول، وله طريق في الخلاف أخذها عن ركن الدين الطاووسي، وكان جده عماد الدين بن يونس شيخ المذهب في وقته كما تقدم.

ثم دخلت سنة اثنتين وسبعين وستمائة

في صفر منها قدم الملك الظاهر إلى دمشق وقد بلغه أن أبغا وصل إلى بغداد فتصيد بتلك الناحية، فأرسل إلى العساكر المصرية أن يتأهبوا للحضور، واستعد السلطان لذلك. وفي جمادى الآخرة أحضر ملك الكرخ لبين يديه بدمشق، وكان قد جاء متنكراً لزيارة بيت المقدس فظهر عليه فحمل إلى بين يديه فسجنه بالقلعة. وفيها كمل بناء جامع دير الطين ظاهر القاهرة. وصلى فيه الجمعة. وفيها سار السلطان إلى القاهرة فدخلها في سابع رجب. وفي أواخر رمضان دخل الملك السعيد بن الظاهر إلى دمشق في طائفة من الجيش، فأقام بها شهراً ثم عاد. وفي يوم عيد الفطر ختن السلطان ولده خضراً الذي سماه باسم شيخه، وختن معه جماعة من أولاد الأمراء، وكان وقتاً هائلاً. وفيها فوض ملك التتار إلى علاء الدين صاحب الديوان ببغداد النظر في تستر وأعمالها، فسار إليها ليتصفح أحوالها فوجد بها شاباً من أولاد التجار يقال له «لي» قد قرأ القرآن وشيئاً من الفقه والإشارات لابن سينا، ونظر في النجوم، ثم ادعى أنه عيسى ابن مريم، وصدقه على ذلك جماعة من جهلة تلك الناحية، وقد أسقط لهم من الفرائض صلاة العصر وعشاء الآخرة، فاستحضره وسأله عن ذلك فرآه ذكياً، إنما يفعل ذلك عن قصد، فأمر به فقتل بين يديه جزاه الله خيراً، وأمر العوام فنهبوا أمتعته وأمتعة العوام ممن كان اتبعه. وممن توفي فيها من الأعيان.

مؤيد الدين أبو المعالي الصدر الرئيس

أسعد بن غالب المظفري ابن الوزير مؤيد الدين أسعد بن حمزة بن أسعد بن علي بن محمد التميمي بن القلانسي، جاوز التسعين وكان رئيساً كبيراً واسع النعمة، لا يغفل أن يباشر شيئاً من الوظائف وقد ألزموه بعد ابن سويد بمباشرة مصالح السلطان فباشرها بلا جامكية، وكانت وفاته ببستانه، ودفن بسفح قاسيون يوم الثلاثاء ثالث عشر المحرم. والد الصدر عز الدين حمزة رئيس البلدين دمشق والقاهرة، وجدهم مؤيد الدين أسعد بن حمزة الكبير كان وزيراً للملك الأفضل علي بن الناصر فاتح القدس، كان رئيساً فاضلاً له كتاب الوصية في الأخلاق المرضية وغير ذلك، وكانت له يد جيدة في النظم، فمن ذلك قوله:

يـا ربُّ جُـدْ لِـي إذا مـا ضَـمَّـنِـي جَـدَثِـي ... بِـرَحْـمَـةٍ مِـنْـكَ تُـنْـجِـيـنِـي مِـنَ الـنَّـارِ

أَحْـسِـنْ جِـوَارِي إذا أَمْـسَـيْـتُ جَـارَكَ فِـي ... لَـحْـدِي فَـإِنَّـكَ قَـدْ أَوْصَـيْـتَ بِـالْـجَـارِ

وأما والد حمزة بن أسعد بن علي بن محمد التميمي فهو العميد، وكان يكتب جيداً وصنف تاريخاً فيما بعد سنة أربعين وأربعمائة إلى سنة وفاته في خمس وخمسين وخمسمائة.

الأمير الكبير فارس الدين أقطاي

المستعرب أتابك العساكر المصرية، كان أولاً مملوكاً لابن يمن، ثم صار مملوكاً للصالح أيوب فأمَّره، ثم عظم شأنه في دولة المظفر وصار أتابك العساكر، فلما قتل امتدت أطماع الأمراء إلى المملكة فبايع أقطاي الملك الظاهر فتبعه الجيش على ذلك، وكان الظاهر يعرفها له ولا ينساها، ثم قبل وفاته بقليل انهضم عند الظاهر، ومات في هذه السنة بالقاهرة.

الشيخ عبد الله بن غانم

ابن علي بن إبراهيم بن عساكر بن الحسين المقدسي، له زاوية بنابلس، وله أشعار رائقة، وكلام قوي في علم التصوف، وقد طوّل اليونيني ترجمته وأورد من أشعاره شيئاً كثيراً.

قاضي القضاة كمال الدين

ابو الفتح عمر بن بندار بن عمر بن علي التفليسي الشافعي، ولد بتفليس سنة إحدى وستمائة، وكان فاضلاً أصولياً مناظراً، ولي نيابة الحكم مدة ثم استقل بالقضاء في دولة هلاوون ـ هولاكو ـ وكان عفيفاً نزهاً لم يرد منصباً ولا تدريساً مع كثرة عياله وقلة ماله، ولما انقضت أيامهم تغضَّب عليه بعض الناس ثم ألزم بالمسير إلى القاهرة، فأقام بها يفيد الناس إلى أن توفي في ربيع الأول من هذه السنة، ودفن بالقرافة الصغرى.

إسماعيل بن إبراهيم بن شاكر بن عبد الله التنوخي

وتنوخ من قضاعة، كان صدراً كبيراً، وكتب الإنشاء للناصر داود بن المعظم، وتولى نظر المارستان النوري وغيره، وكان مشكور السيرة، وقد أثنى عليه غير واحد، وقد جاوز الثمانين، ومن شعره قوله:

خَابَ رَجَاءُ امْرِىءٍ لَهُ أَمَلٌ ... بِغَيْرِ رَبِّ السَّمَاءِ قَدْ وَصَلَهْ
أَيَبْتَغِي غَيْرَهُ أَخُو ثِقَةٍ ... وَهُوَ بِبَطْنِ الأَحْشَاءِ قَدْ كَفِلَهْ

وله أيضاً:

خَرِسَ اللِّسَانُ وَكَلَّ عَنْ ... أَوْصَافِكُمْ مَاذا يَقُولُ وَأَنْتُمْ مَا أَنْتُمُ
الأَمْرُ أَعْظَمُ مِنْ مَقَالَةِ قَائِلٍ ... قَدْ تَاهَ عَقْلٌ أَنْ يُعَبِّرَ عَنْكُمُ
العَجْزُ وَالتَّقْصِيرُ وَصْفِي دَائِماً ... وَالبِرُّ وَالإِحْسَانُ يُعْرَفُ مِنْكُمُ

ابن مالك صاحب الألفية

الشيخ جمال الدين محمد بن عبد الله بن مالك أبو عبد الله الطائي الجياني النحوي، صاحب التصانيف المشهورة المفيدة، منها الكافية الشافية وشرحها، والتسهيل وشرحه، والألفية التي شرحها ولده بدر الدين شرحاً مفيداً. ولد بحيان سنة ستمائة وأقام بحلب مدة، ثم بدمشق. وكان كثير الاجتماع بابن خلكان وأثنى عليه غير واحد، وروى عنه القاضي بدر الدين بن جماعة، وأجاز لشيخنا علم الدين البرزالي: توفي ابن مالك بدمشق ليلة الأربعاء ثاني عشر

رمضان، ودفن بتربة القاضي عز الدين بن الصائغ بقاسيون.

النصير الطوسي

محمد بن عبد الله الطوسي، كان يقال له المولى نصير الدين، ويقال الخواجا نصير الدين، اشتغل في شبيبته وحصّل علم الأوائل جيداً، وصنّف في ذلك في علم الكلام، وشرح الإشارات لابن سينا، ووزر لأصحاب قلاع الألموت من الإسماعيلية، ثم وزر لهولاكو، وكان معه في واقعة بغداد، ومن الناس من يزعم أنه أشار على هولاكوخان بقتل الخليفة فالله أعلم، وعندي أن هذا لا يصدر من عاقل ولا فاضل. وقد ذكره بعض البغاددة فأثنى عليه، وقال: كان عاقلاً فاضلاً كريم الأخلاق ودفن في مشهد موسى بن جعفر في سرداب كان قد أعد للخليفة الناصر لدين الله، وهو الذي كان قد بنى الرصد بمراغة، ورتب فيه الحكماء من الفلاسفة والمتكلمين والفقهاء والمحدثين والأطباء وغيرهم من أنواع الفضلاء. وبنى له فيه قبة عظيمة، وجعل فيه كتباً كثيرة جداً، توفي في بغداد في ثاني عشر ذي الحجة من هذه السنة، وله خمس وسبعون سنة، وله شعر جيد قوي وأصل اشتغاله على المعين سالم بن بدار بن علي المصري المعتزلي المتشيع، فنزع فيه عروق كثيرة منه، حتى أفسد اعتقاده.

الشيخ سالم البرقي

صاحب الرباط بالقرافة الصغرى، كان صالحاً متعبداً يقصد للزيارة والتبرك بدعائه، وله اليوم أصحاب معروفون على طريقه.

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين وستمائة

فيها اطلع السلطان على ثلاثة عشر أميراً من المصريين منهم قجقار الحموي، وقد كانوا كاتبوا التتر يدعونهم إلى بلاد المسلمين، وأنهم معهم على السلطان، فأخذوا فأقروا بذلك، وجاءت كتبهم مع البريدية وكان آخر العهد بهم. وفيها أقبل السلطان بالعساكر فدخل بلاد سيس يوم الاثنين الحادي والعشرين من رمضان، فقتلوا خلقاً لا يعلمهم إلا الله وغنموا شيئاً كثيراً من الأبقار والأغنام والأثقال والدواب والأنعام، فبيع ذلك بأرخص ثمن، ثم عاد فدخل دمشق مؤيداً منصوراً في شهر ذي الحجة فأقام بها حتى دخلت السنة. وفيها ثار على أهل الموصل رمل حتى عم الأفق وخرجوا من دورهم يبتهلون إلى الله حتى كشف ذلك عنهم، والله تعالى أعلم.

وممن توفي فيها من الأعيان:

ابن عطاء الحنفي

قاضي القضاة شمس الدين أبو محمد عبد الله ابن الشيخ شرف الدين محمد بن عطاء بن حسن بن عطاء بن جبير بن جابر بن وهيب الأذرعي الحنفي، ولد سنة خمس وتسعين وخمسمائة، سمع الحديث وتفقه على مذهب أبي حنيفة، وناب في الحكم عن الشافعي مدة، ثم استقل بقضاء الحنفية أول ما ولي القضاة من المذاهب الأربعة. ولما وقعت الحوطة على

أملاك الناس أراد السلطان منه أن يحكم بها بمقتضى مذهبه، فغضب من ذلك فقال: هذه أملاك بيد أصحابها، وما يحل لمسلم أن يتعرض لها ثم نهض من المجلس فذهب، فغضب السلطان من ذلك غضباً شديداً، ثم سكن غضبه فكان يثني عليه بعد ذلك ويمدحه، ويقول: لا تثبتوا كتباً إلا عنه. كان ابن عطاء من العلماء الأخيار كثير التواضع قليل الرغبة في الدنيا، روى عنه ابن جماعة وأجاز للبرزالي. توفي يوم الجمعة تاسع جمادى الأولى، ودفن بالقرب من المعظمية بسفح قاسيون رحمه الله تعالى.

بيمند بن بيمند بن بيمند

ابرنس طرابلس الفرنجي، كان جده نائباً لبنت صيحل الذي تملك طرابلس من ابن عمار في حدود الخمسمائة، وكانت يتيمة تسكن بعض جزائر البحر، فتغلب هذا على البلد لبعدها عنه، ثم استقل بها ولده ثم حفيده هذا، وكان شكلاً مليحاً. قال قطب الدين اليونيني: رأيته في بعلبك سنة ثمان وخمسين وستمائة حين جاء مسلماً على كتبغا نوين، ورام أن يطلب منه بعلبك، فشق ذلك على المسلمين. ولما توفي دفن في كنيسة طرابلس، ولما فتحها المسلمون في سنة ثمان وثمانين وستمائة نبش الناس قبره وأخرجوه منه وألقوا عظامه على المزابل للكلاب.

ثم دخلت سنة أربع وسبعين وستمائة

لما كان يوم الخميس ثامن جمادى الآخرة نزل التتار على البيرة في ثلاثين ألف مقاتل، خمسة عشر ألفاً من المغول، وخمسة عشر ألفاً من الروم، والمقدم على الجميع البرواناه بأمر أبغا ملك التتار ومعهم جيش الموصل وجيش ماردين والأكراد، ونصبوا عليها ثلاثة وعشرين منجنيقاً، فخرج أهل البيرة في الليل فكبسوا عسكر التتار وأحرقوا المنجنيقات ونهبوا شيئاً كثيراً، ورجعوا إلى بيوتهم سالمين، فأقام عليها الجيش مدة إلى تاسع عشر الشهر المذكور، ثم رجعوا عنها بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال، وكان الله قوياً عزيزاً. ولما بلغ السلطان نزول التتار على البيرة أنفق في الجيش ستمائة ألف دينار، ثم ركب سريعاً وفي صحبته ولده السعيد، فلما كان في أثناء الطريق بلغه رحيل التتار عنها فعاد إلى دمشق، ثم ركب في رجب إلى القاهرة فدخلها في ثامن عشر فوجد بها خمسة وعشرين رسولاً من جهة ملوك الأرض ينتظرونه فتلقوه وحدثوه وقبّلوا الأرض بين يديه ودخل القلعة في أبهة عظيمة. ولما عاد البرواناه إلى بلاد الروم حلف الأمراء الكبار منهم شرف الدين مسعود وضياء الدين محمود ابنا الخطيري، وأمين الدين ميكائيل، وحسام الدين بيجار، وولده بهاء الدين، على أن يكونوا من جهة السلطان الملك الظاهر وينابذوا أبغا، فحلفوا له على ذلك، وكتب إلى الملك الظاهر بذلك، وأن يرسل إليه جيشاً ويحمل له ما كان يحمله إلى التتار، ويكون غياث الدين كنجري على ما هو عليه، يجلس على تخت مملكة الروم.

وفي هذه السنة استسقى أهل بغداد ثلاثة أيام فلم يسقوا. وفيها في رمضان منها وجد رجل وامرأة في نهار رمضان على فاحشة الزنى، فأمر علاء الدين صاحب الديوان برجمهما

فرجما، ولم يرجم ببغداد قبلهما قط أحد منذ بنيت. وهذا غريب جداً. وفيها استسقى أهل دمشق أيضاً مرتين. في أواخر رجب وأوائل شعبان ـ وكان ذلك في آخر كانون الثاني ـ فلم يسقوا أيضاً. وفيها أرسل السلطان جيشاً إلى دنقلة فكسر جيش السودان وقتلوا منهم خلقاً وأسروا شيئاً كثيراً من السودان بحيث بيع الرقيق الرأس منها بثلاثة دراهم، وهرب ملكهم داوداه إلى صاحب النوبة فأرسله إلى الملك الظاهر محتاطاً عليه، وقرر الملك الظاهر على أهل دنقلة جزية تحمل إليه في كل سنة. كل ذلك كان في شعبان من هذه السنة.

وفيها عقد الملك السعيد بن الظاهر على بنت الأمير سيف الدين قلاوون الألفي، في الإيوان بحضرة السلطان والدولة على صداق خمسة آلاف دينار، تعجّل منها ألف دينار، وكان الذي كتبه وقرأه محيي الدين بن عبد الظاهر، فأعطي مائة دينار، وخلع عليه. ثم ركب السلطان مسرعاً فوصل إلى حصن الكرك فجمع القيمرية الذين به فإذا هم ستمائة نفر، فأمر بشنقهم فشفع فيهم عنده فأطلقهم وأجلاهم منه إلى مصر، وكان قد بلغه عنهم أنهم يريدون قتل من فيه ويقيموا ملكاً عليهم، وسلم الحصن إلى الطواشي شمس الدين رضوان السهيلي، ثم عاد في بقية الشهر إلى دمشق فدخلها يوم الجمعة ثامن عشر الشهر. وفيها كانت زلزلة بأخلاط واتصلت ببلاد بكر.

وممن توفي فيها من الأعيان:

الشيخ الإمام الأديب العلّامة

تاج الدين أبو الثناء محمود بن عابد بن الحسين بن محمد بن علي التميمي الصرخدي الحنفي، كان مشهوراً بالفقه والأدب، والعفة والصلاح، ونزاهة النفس ومكارم الأخلاق. ولد سنة ثمان وسبعين وخمسمائة، وسمع الحديث وروى، ودفن بمقابر الصوفية في ربيع الآخر منها، وله ست وتسعون سنة رحمه الله تعالى.

الشيخ الإمام عماد الدين عبد العزيز بن محمد

ابن عبد القادر بن عبد الله بن خليل بن مقلد الأنصاري الدمشقي، المعروف بابن الصائغ، كان مدرساً بالعذراوية وشاهداً بالخزانة بالقلعة يعرف الحساب جيداً، وله سماع ورواية، ودفن بقاسيون.

ابن الساعي المؤرخ

تاج الدين بن المحتسب المعروف بابن الساعي البغدادي، ولد سنة ثلاث وتسعين وسمع الحديث واعتنى بالتاريخ، وجمع وصنّف، ولم يكن بالحافظ ولا الضابط المتقن. وقد أوصى إليه ابن النجار حين توفي، وله تاريخ كبير عندي أكثره، ومصنفات أخر مفيدة، وآخر ما صنّف كتاباً في الزهاد، كتب في حاشيته زكي الدين عبد الله بن حبيب الكاتب:

مَا زَالَ تَاجُ الدِّينِ طُولَ المَدَى ... مِنْ عُمْرِهِ يُعْنِقُ[1] فِي السَّيْرِ

---

(١) يعنق: يسرع.

فِـي طَـلَـبِ الـعِـلْـمِ وَتَـدْوِيـنِـهِ   وَفِـعْـلُـهُ نَـفْـعٌ بِـلا ضَـيْـرِ
عَـلا عَـلَـيّ بِـتَـصَـانِـيـفِـهِ   وَهٰـذِه خَـاتِـمَـةُ الـخَـيْـرِ

ثم دخلت سنة خمس وسبعين وستمائة

في ثالث عشر المحرم منها دخل السلطان إلى دمشق وسبق العساكر إلى بلاد حلب، فلما توافت إليه أرسل بين يديه الأمير بدر الدين الأتابكي بألف فارس إلى البلستين، فصادف بها جماعة ـ من عسكر الروم فركبوا إليه وحملوا إليه الإقامات، وطلب جماعة منهم أن يدخلوا بلاد الإسلام فأذن لهم، فدخل طائفة منهم بيجار وابن الخطير، فرسم لهم أن يدخلوا القاهرة فتلقاهم الملك السعيد، ثم عاد السلطان من حلب إلى القاهرة فدخلها في ثاني عشر ربيع الآخر.

وفي خامس جمادى الأولى عمل السلطان عرس ولده الملك السعيد على بنت قلاوون، واحتفل السلطان به احتفالاً عظيماً، وركب الجيش في الميدان خمسة أيام يلعبون ويتطاردون، ويحمل بعضهم على بعض، ثم خلع على الأمراء وأرباب المناصب، وكان مبلغ ما خلع ألف وثلاثمائة خلعة بمصر، وجاءت مراسيمه إلى الشام بالخلع على أهلها، ومد السلطان سماطاً عظيماً حضره الخاص والعام، والشارد والوارد، وحبس فيه رسل التتار ورسل الفرنج وعليهم كلهم الخلع الهائلة، وكان وقتاً مشهوداً، وحمل صاحب حماه هدايا عظيمة وركب إلى مصر للتهنئة. وفي حادي عشر شوال طيف بالمحمل وبكسوة الكعبة المشرفة بالقاهرة، وكان يوماً مشهوداً.

وقعة البلستين وفتح قيسارية

ركب السلطان من مصر في العساكر فدخل دمشق في سابع عشر شوال، فأقام بها ثلاثة أيام، ثم سار حتى دخل حلب في مستهل ذي القعدة، فأقام بها يوماً ورسم لنائب حلب أن يقيم بعسكر حلب على الفرات لحفظ المعابر، وسار السلطان فقطع الدربند في نصف يوم، ووقع سنقر الأشقر في أثناء الطريق بثلاثة آلاف من المغول فهزمهم يوم الخميس تاسع ذي القعدة وصعد العسكر على الجبال فأشرفوا على وطأة البلستين فرأوا التتار قد رتبوا عسكرهم وكانوا أحد عشر ألف مقاتل، وعزلوا عنهم عسكر الروم خوفاً من مخامرتهم، فلما تراءى الجمعان حملت ميسرة التتار فصدمت صناجق السلطان، ودخلت طائفة منهم بينهم فشقوها، وساقت إلى الميمنة، فلما رأى السلطان ذلك أردف المسلمين بنفسه ومن معه، ثم لاحت منه التفاتة فرأى الميسرة قد كادت أن تتحطم فأمر جماعة من الأمراء بأردافها، ثم حمل العسكر جميعه حملة واحدة على التتار فترجلوا إلى الأرض عن آخرهم، وقاتلوا المسلمين قتالاً شديداً، وصبر المسلمون صبراً عظيماً، فأنزل الله نصره على المسلمين، فأحاطت بالتتار العساكر من كل جانب، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وقتل من المسلمين أيضاً جماعة، وكان في جملة من قتل من سادات المسلمين الأمير الكبير ضياء الدين بن الخطير، وسيف الدين قيماز، وسيف الدين بنجو الجاشنكير، وعز الدين أيبك الثقفي، وأسر جماعة من أمراء المغول، ومن أمراء الروم، وهرب

الرواناه فنجا بنفسه، ودخل قيسارية في بكرة الأحد ثاني عشر ذي القعدة، وأعلم أمراء الروم ملكهم بكسرة التتار على البلستين، وأشار عليهم بالهزيمة فانهزموا منها وأخلوها، فدخلها الملك الظاهر وصلى بها الجمعة سابع ذي القعدة، وخطب له بها، ثم كر راجعاً مؤيداً منصوراً. وسارت بذلك البشائر إلى البلدان ففرح المؤمنون يومئذٍ بنصر الله. ولما بلغ خبر هذه الوقعة أبغا جاء حتى وقف بنفسه وجيشه، وشاهد مكان المعركة ومن فيها من قتلى المغول، فغاظه ذلك وأعظمه وحنق على الرواناه إذ لم يعلمه بجلية الحال، وكان يظن أمر الملك الظاهر دون هذا كله، واشتد غضبه على أهل قيسارية وأهل تلك الناحية، فقتل منهم قريباً من مائتي ألف، وقيل قتل منهم خمسمائة ألف من قيسارية وأرزن الروم، وكان في جملة من قتل القاضي جلال الدين حبيب، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وممن توفي فيها من الأعيان:

الشيخ أبو الفضل ابن الشيخ عبيد بن عبد الخالق الدمشقي

ودفن بالقرب من الشيخ أرسلان. قال الشيخ علم الدين: وكان يذكر أن مولده كان سنة أربع وستين وخمسمائة.

الطواشي يمن الحبشي

شيخ الخدم بالحرم النبويّ الشريف، كان ديناً عاقلاً عدلاً صادق اللهجة، مات في عشر السبعين رحمه الله.

[الشيخ المحدث شمس الدين أبو العباس

أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي بكر الموصلي، ثم الدمشقي الصوفي، سمع الكثير وكتب الكتب الكبار بخط رفيع جيد واضح، جاوز السبعين][1] ودفن بباب الفراديس.

الشاعر شهاب الدين أبو المكارم

محمد بن يوسف بن مسعود بن بركة بن سالم بن عبد الله الشيباني التلعفري، صاحب ديوان الشعر، جاوز الثمانين، توفي بحماة، وكان الشعراء مقرين له معترفين بفضله وتقدمه في هذا الفن. ومن شعره قوله:

لِسَانِي طَرِيٌّ مِنْكِ يا غايةَ المُنَى ... وَمِنْ وَلَهِي أَنِّي خَطِيبٌ وَشَاعِرُ

فَهٰذا لِمَعْنَى حُسْنِ وَجْهِكِ نَاظِمٌ ... وَهٰذا لِدَمْعِي فِي تَجَنِّيكِ نَاثِرُ

القاضي شمس الدين

علي بن محمود بن علي بن عاصم الشهزوري ثم الدمشقي، مدرس القيمرية بشرط

---

(١) ما بين معقوفين زيادة في المصرية.

واقفها له ولذريته من بعده التدريس من تأهل منهم، فدرس بها إلى أن توفي في هذه السنة، ودرس بعده ولده صلاح الدين، ثم ابن ابنه بعد ابن جماعة، وطالت مدة حفيده. وقد ولي شمس الدين على نيابة ابن خلكان في الولاية الأولى، وكان فقيهاً جيداً نقالاً للمذهب، رحمه الله وقد سافر مع ابن العديم لبغداد فسمع بها ودفن بمقابر الصوفية بالقرب من ابن الصلاح.

الشيخ الصالح العالم الزاهد

أبو إسحاق إبراهيم بن سعد الله بن جماعة بن علي بن جماعة بن حازم بن سنجر الكناني الحموي له معرفة بالفقه والحديث، ولد سنة ست وتسعين بحماة، وتوفي بالقدس الشريف ودفن بماملاً، وسمع من الفخر ابن عساكر، وروى عنه ولده قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة.

الشيخ الصالح جندل بن محمد المنيني

كانت له عبادة وزهادة وأعمال صالحة، وكان الناس يترددون إلى زيارته بمنين وكان يتكلم بكلام كثير لا يفهمه أحد من الحاضرين، بألفاظ غريبة، وحكى عنه الشيخ تاج الدين أنه سمعه يقول: ما تقرب أحد إلى الله بمثل الذل له والتضرع إليه، وسمعه يقول: الموله منفي من طريق الله يعتقد أنه واصل ولو علم أنه منفي رجع عما هو فيه، لأن طريق القوم من أهل السلوك لا يثبت عليها إلا ذوو العقول الثابتة. وكان يقول: السماع وظيفة أهل البطالة. قال الشيخ تاج الدين: وكان الشيخ جندل من أهل الطريق وعلماء التحقيق. قال: وأخبرني في سنة إحدى وستين وستمائة أنه قد بلغ من العمر خمساً وتسعين سنة. قلت: على هذا فيكون قد جاوز المائة، لأنه توفي في رمضان من هذه السنة، ودفن في زاويته المشهورة بقرية منين، وتردد الناس لقبره يصلون عليه من دمشق وأعمالها أياماً كثيرة رحمه الله.

محمد بن عبد الرحمن بن محمد

الحافظ بدر الدين أبو عبد الله بن النويرة السلمي الحنفي، اشتغل على الصدر سليمان وابن عطاء وفي النحو على ابن مالك، وحصل وبرع ونظم ونثر، ودرس في الشبلية والقصاعين، وطلب لنيابة القضاء فامتنع، وكتب الكتابة المنسوبة. رآه بعض أصحابه في المنام بعد وفاته فقال: ما فعل الله بك؟ فأنشأ يقول:

مَا كَانَ لِي مِنْ شَافِعٍ عِنْدَهُ غَيْرُ اعْتِقَادِي أَنَّهُ وَاحِدُ

وكانت وفاته في جمادى الآخرة ودفن بظاهر دمشق رحمه الله.

محمد بن عبد الوهاب بن منصور

شمس الدين أبو عبد الله الحراني الحنبلي تلميذ الشيخ مجد الدين بن تيمية، وهو أول من حكم بالديار المصرية من الحنابلة نيابة عن القاضي تاج الدين ابن بنت الأعز، ثم ولّى شمس الدين ابن الشيخ العماد القضاء مستقلاً فاستناب به، ثم ترك ذلك ورجع إلى الشام يشتغل ويفتي إلى أن توفي وقد نيف على الستين رحمه الله.

ثم دخلت سنة ست وسبعين وستمائة

فيها كانت وفاة الملك الظاهر ركن الدين بيبرس، صاحب البلاد المصرية والشامية والحلبية وغير ذلك، وأقام ولده ناصر الدين أبا المعالي محمد بركة خان الملقب السعيد من بعده، ووفاة الشيخ محيي الدين النووي إمام الشافعية فيها في اليوم السابع من المحرم منها، ودخل السلطان الملك الظاهر من بلاد الروم وقد كسر التتار على البلستين، ورجع مؤيداً منصوراً فدخل دمشق وكان يوم دخوله يوماً مشهوداً، فنزل بالقصر الأبلق الذي بناه غربي دمشق بين الميدانين الأخضرين، وتواترت الأخبار إليه بأن أبغا جاء إلى المعركة ونظر إليها وتأسف على من قتل من المغول وأمر بقتل الرواناه وذكروا أنه قد عزم على قصد الشام، فأمر السلطان بجمع الأمراء وضرب مشورة فاتفق مع الأمراء على ملاقاته حيث كان، وتقدم بضرب الدهليز على القصر، ثم جاء الخبر بأن أبغا قد رجع إلى بلاده فرسم برد الدهليز وأقام بالقصر الأبلق يجتمع عنده الأعيان والأمراء والدولة في أسر حال، وأنعم بال. وأما أبغا فإنه أمر بقتل الرواناه ـ وكان نائبه على بلاد الروم ـ وكان اسمه معين الدين سليمان بن علي بن محمد بن حسن، وإنما قتله لأنه اتهمه بممالأته للملك الظاهر، وزعم أنه هو الذي حسَّن له دخول بلاد الروم، وكان الرواناه شجاعاً حازماً كريماً جواداً، وله ميل إلى الملك الظاهر، وكان قد جاوز الخمسين لما قتل.

وفاة القاهر

ثم لما كان يوم السبت خامس عشر المحرم توفي الملك القاهر بهاء الدين عبد الملك ابن السلطان المعظم عيسى بن العادل أبي بكر بن أيوب، عن أربع وستين سنة، وكان رجلاً جيداً سليم الصدر كريم الأخلاق، لين الكلمة كثير التواضع، يعاني ملابس العرب ومراكبهم، وكان معظماً في الدولة شجاعاً مقداماً، وقد روى عن ابن الليثي وأجاز للبرزالي. قال البرزالي ويقال إنه سم، وذكر غيره أن السلطان الملك الظاهر سمه في كأس خمر ناوله إياه فشربه وقام السلطان إلى المرتفق ثم عاد وأخذ الساقي الكأس من يد القاهر فملأه وناوله السلطان الظاهر والساقي لا يشعر بشيء مما جرى، وأنسى الله السلطان ذلك الكأس، أو ظن أنه غيره لأمر يريده الله ويقضيه، وكان قد بقي في الكأس بقية كثيرة من ذلك السم، فشرب الظاهر ما في الكأس ولم يشعر حتى شربه فاشتكى بطنه من ساعته، ووجد الوهج والحر والكرب الشديد من فوره، وأما القاهر فإنه حمل إلى منزله وهو مغلوب فمات من ليلته. وتمرض الظاهر من ذلك أياماً حتى كانت وفاته يوم الخميس بعد الظهر في السابع والعشرين من المحرم بالقصر الأبلق، وكان ذلك يوماً عظيماً على الأمراء، وحضر نائب السلطنة عز الدين أيدمر وكبار الأمراء والدولة، فصلوا عليه سراً وجعلوه في تابوت ورفعوه إلى القلعة من السور وجعلوه في بيت من بيوت البحرية إلى أن نقل إلى تربته التي بناها ولده له بعد موته، وهي دار العقيقي تجاه العادلية الكبيرة، ليلة الجمعة خامس رجب من هذه السنة، وكتم موته فلم يعلم جمهور الناس به حتى إذا كان العشر الأخير من ربيع الأول، وجاءت البيعة لولده السعيد من مصر فحزن الناس عليه حزناً شديداً،

وترحموا عليه ترحماً كثيراً، وجددت البيعة أيضاً بدمشق وجاء تقليد النيابة بالشام مجدداً إلى عز الدين أيدمر نائبها.

وقد كان الملك الظاهر شهماً شجاعاً عالي الهمة بعيد الغور مقداماً جسوراً معتنياً بأمر السلطنة، مشفقاً على الإسلام، متحلياً بالملك، له قصد صالح في نصرة الإسلام وأهله، وإقامة شعار الملك، واستمرت أيامه من يوم الأحد سابع عشر ذي القعدة سنة ثمان وخمسين إلى هذا الحين، ففتح في هذه المدة فتوحات كثيرة قيسارية وأرسون ويافا والشقيف وأنطاكية وبعراض وطبرية والقصير وحصن الأكراد وحصن عكا والغرين وصافيتا وغير ذلك من الحصون المنيعة التي كانت بأيدي الفرنج، ولم يدع مع الإسماعيلية شيئاً من الحصون، وناصف الفرنج على المرقب، وبانياس وبلاد أنطرسوس، وسائر ما بقي بأيديهم من البلاد والحصون، وولي في نصيبه مما ناصفهم عليه النواب والعمال وفتح قيسارية من بلاد الروم، وأوقع بالروم والمغول على البلستين بأساً لم يسمع بمثله من دهور متطاولة، واستعاد من صاحب سيس بلاداً كثيرة، وجاس خلال ديارهم وحصونهم، واسترد من أيدي المتغلبين من المسلمين بعلبك وبصرى وصرخد وحمص وعجلون والصلت وتدمر والرحبة وتل باشر وغيرها، والكرك والشوبك، وفتح بلاد النوبة بكمالها من بلاد السودان، وانتزع بلاداً من التتار كثيرة، منها شيرزور والبيرة، واتسعت مملكته من الفرات إلى أقصى بلاد النوبة، وعمر شيئاً كثيراً من الحصون والمعاقل والجسور على الأنهار الكبار، وبنى دار الذهب بقلعة الجبل، وبنى قبة على اثني عشر عموداً ملونة مذهبة، وصور فيها صور خاصكيته وأشكالهم، وحفر أنهاراً كثيرة وخلجانات ببلاد مصر، منها نهر السرداس، وبنى جوامع كثيرة ومساجد عديدة، وجدد بناء مسجد رسول الله ﷺ حين احترق، ووضع الدرابزينات حول الحجرة الشريفة، وعمل فيه منبراً وسقفه بالذهب، وجدد المارستان بالمدينة، وجدد قبر الخليل عليه السلام، وزاد في زاويته وما يصرف إلى المقيمين، وبنى على المكان المنسوب إلى قبر موسى عليه السلام قبة قبلي أريحا، وجدد بالقدس أشياء حسنة من ذلك قبة السلسلة، ورمم سقف الصخرة وغيرها، وبنى بالقدس خاناً هائلاً بماملاً، ونقل إليه باب قصر الخلفاء الفاطميين من مصر، وعمل فيه طاحوناً وفرناً وبستاناً، وجعل للواردين إليه أشياء تصرف إليهم في نفقة وإصلاح أمتعتهم رحمه الله. وبنى على قبر أبي عبيدة بالقرب من عمتنا مشهداً، ووقف عليه أشياء للواردين إليه، وعمر جسر دامية، وجدد قبر جعفر الطيار بناحية الكرك، ووقف على الزائرين له شيئاً كثيراً، وجدد قلعة صفت وجامعها، وجدد جامع الرملة وغيرها في كثير من البلاد التي كانت الفرنج قد أخذتها وخربت جوامعها ومساجدها، وبنى بحلب داراً هائلة، وبدمشق القصر الأبلق والمدرسة الظاهرية وغيرها، وضرب الدراهم والدنانير الجيدة الخالصة على النصح والمعاملة الجيدة الجارية بين الناس، فرحمه الله.

وله من الآثار الحسنة والأماكن ما لم يبن في زمن الخلفاء وملوك بني أيوب، مع اشتغاله في الجهاد في سبيل الله واستخدم من الجيوش شيئاً كثيراً، ورد إليه نحواً من ثلاثة آلاف من

المغول فأقطعهم وأمّر كثيراً منها، وكان مقتصداً في ملبسه ومطعمه وكذلك جيشه، وهو الذي أنشأ الدولة العباسية بعد دثورها، وبقي الناس بلا خليفة نحواً من ثلاث سنين، وهو الذي أقام من كلٍ مذهب قاضياً مستقلاً قاضي قضاة. وكان رحمه الله متيقظاً شهماً شجاعاً لا يفتر عن الأعداء ليلاً ولا نهاراً، بل هو مناجز لأعداء الإسلام وأهله، ولـمٌ شعثه واجتماع شمله. وبالجملة أقامه الله في هذا الوقت المتأخر عوناً ونصراً للإسلام وأهله، وشجا في حلوق المارقين من الفرنج والتتار، والمشركين. وأبطل الخمور ونفى الفساق من البلاد، وكان لا يرى شيئاً من الفساد والمفاسد إلا سعى في إزالته بجهده وطاقته. وقد ذكرنا في سيرته ما أرشد إلى حسن طويته وسريرته، وقد جمع له كاتبه ابن عبد الظاهر سيرة مطولة، وكذلك ابن شداد أيضاً. وقد ترك من الأولاد عشرة ثلاثة ذكور وسبع إناث ومات وعمره ما بين الخمسين إلى الستين، وله أوقاف وصلات وصدقات، تقبّل الله منه الحسنات، وتجاوز له عن السيئات والله سبحانه أعلم.

وقام في الملك بعده ولده السعيد بمبايعة أبيه له في حال حياته، وكان عمر السعيد يومئذٍ دون العشرين سنة، وهو من أحسن الأشكال وأتم الرجال، وفي صفر وصلت الهدايا من ألفنس مع رسله إلى الديار المصرية فوجدوا السلطان قد مات، وقد أقيم ولده الملك السعيد مقامه والدولة لم تتغير، والمعرفة بعده ما تنكرت، ولكن البلاد قد فقدت أسدها بل أسدّها وأشدها، بل الذي بلغ أشدها، وإذا انفتحت ثغرة من سور الإسلام سدها، وكلما انحلت عقدة من عرى العزائم شدها، وكلما رامت فرقة مارقة من طوائف الطغاة أن تلج إلى حومة الإسلام صدها وردها، فسامحه الله، وبلَّ بالرحمة ثراه، وجعل الجنة متقلبه ومثواه.

وكانت العساكر الشامية قد سارت إلى الديار المصرية ومعهم محفة يظهرون أن السلطان فيها مريض، حتى وصلوا إلى القاهرة فجددوا البيعة للسعيد بعدما أظهروا موت الملك السديد الذي هو إن شاء الله شهيد. وفي يوم الجمعة السابع والعشرين من صفر خطب في جميع الجوامع بالديار المصرية للملك السعيد، وصلى على والده الملك الظاهر واستهلت عيناه بالدموع. وفي منتصف ربيع الأول ركب الملك السعيد بالعصائب على عادته وبين يديه الجيش بكماله المصري والشامي، حتى وصل إلى الجبل الأحمر وفرح الناس به فرحاً شديداً، وعمره يومئذٍ تسع عشرة سنة، وعليه أبهة الملك ورياسة السلطنة. وفي يوم الاثنين رابع جمادى الأولى فتحت مدرسة الأمير شمس الدين آقسنقر الفارقاني بالقاهرة، بحارة الوزيرية على مذهب أبي حنيفة. وعمل فيها مشيخة حديث وقارىء. وبعده بيوم عقد عقدُ ابن الخليفة المستمسك بالله بن الحاكم بأمر الله، على ابنة الخليفة المستنصر بن الظاهر، وحضر والده والسلطان ووجوه الناس. وفي يوم السبت تاسع جمادى الأولى شرع في بناء الدار التي تعرف بدار العقيقي، تجاه العادلية، لتجعل مدرسة وتربة للملك الظاهر، ولم تكن قبل ذلك إلا داراً للعقيقي، وهي المجاورة لحمام العقيقي وأسس أساس التربة في خامس جمادى الآخرة وأسست المدرسة أيضاً.

وفي رمضان طلعت سحابة عظيمة بمدينة صفت لمع منها برق شديد، وسطع منها لسان نار، وسمع منها صوت شديد هائل، ووقع منها على منارة صفت صاعقة شقتها من أعلاها إلى

أسفلها شقاً يدخل الكف فيه.

وممن توفي فيها من الأعيان البرواناه في العشر الأول من المحرم. والملك الظاهر في العشر الأخير منه، وقد تقدم شيء من ترجمتهما.

الأمير الكبير بدر الدين بيلبك بن عبد الله

الخزندار نائب الديار المصرية للملك الظاهر، كان جواداً ممدحاً له إلمام ومعرفة بأيام الناس، والتواريخ، وقد وقف درساً بالجامع الأزهر على الشافعية، ويقال إنه سم فمات، فلما مات انتقض بعده حبل الملك السعيد، واضطربت أموره.

قاضي القضاة شمس الدين الحنبلي

محمد ابن الشيخ العماد أبي إسحاق إبراهيم بن عبد الواحد بن علي بن سرور المقدسي، أول من ولِّي قضاء قضاة الحنابلة بالديار المصرية، سمع الحديث حضوراً على ابن طبرزد وغيره، ورحل إلى بغداد واشتغل بالفقه، وتفنن في علوم كثيرة، وولي مشيخة سعيد السعداء، وكان شيخاً مهيباً حسن الشيبة كثير التواضع والبر والصدقة، وقد اشترط في قبول الولاية أن لا يكون له عليها جامكية ليقوم في الناس بالحق في حكمه، وقد عزله الظاهر عن القضاء سنة سبعين واعتقله بسبب الودائع التي كانت عنده، ثم أطلقه بعد سنتين فلزم منزله واستقر بتدريس الصالحية إلى أن توفي في أواخر المحرم، ودفن عند عمه الحافظ عبد الغني بسفح جبل المقطم، وقد أجاز للبرزالي.

قال الحافظ البرزالي: وفي يوم السبت ثاني عشر ربيع الأول ورد الخبر بموت ستة أمراء من الديار المصرية: سنقر البغدادي، وبسطا البلدي التتري، وبدر الدين الوزيري، وسنقر الرومي، وآق سنقر الفارقاني رحمهم الله.

الشيخ خضر الكردي شيخ الملك الظاهر

خضر بن أبي بكر بن موسى الكردي النهرواني العدوي، ويقال إن أصله من قرية المحمدية من جزيرة ابن عمر. كان ينسب إليه أحوال ومكاشفات، ولكنه لما خالط الناس افتتن ببعض بنات الأمراء، وكان يقول عن الملك الظاهر وهو أمير أنه سيلي الملك، فلهذا كان الملك الظاهر يعتقده ويبالغ في إكرامه بعد أن ولّي المملكة، ويعظمه تعظيماً زائداً، وينزل عنده إلى زاويته في الأسبوع مرة أو مرتين، ويستصحبه معه في كثير من أسفاره، ويكرمه ويحترمه ويستشيره فيشير عليه برأيه ومكاشفات صحيحة مطابقة، إما رحمانية أو شيطانية، أو حال استعادة، لكنه افتتن لما خالط الناس ببعض بنات الأمراء، وكن لا يحتجبن منه، فوقع في الفتنة. وهذا في الغالب واقع في مخالطة الناس فلا يسلم المخالط لهم من الفتنة، ولا سيما مخالطة النساء مع ترك الاحتجاب، فلا يسلم العبد البتة منهن. فلما وقع ما وقع فيه حوقق عند السلطان وتيسرى وقلاوون والفارس أقطاي الأتابك، فاعترف، فهمّ بقتله فقال له: إنما بيني

وبينك أيام قلائل، فأمر بسجنه فسجن سنين عديدة من سنة إحدى وسبعين إلى سنة ست وسبعين، وقد هدم بالقدس كنيسة عظيمة وذبح قسيسها وعملها زاوية وقد قدمنا ترجمته قبل ذلك فيما تقدم، ثم لم يزل مسجوناً حتى مات في يوم الخميس سادس المحرم من هذه السنة، فأخرج من القلعة وسلم إلى قرابته فدفن في تربة أنشأها في زاويته. مات وهو في عشر الستين، وقد كان يكاشف السلطان في أشياء، وإليه تنسب قبة الشيخ خضر التي على الجبل غربي الربوة، وله زاوية بالقدس الشريف.

الشيخ محيي الدين النووي

يحيى بن شرف بن حسن بن حسين بن جمعة بن حزام الحازمي العالم، محيي الدين أبو زكريا النووي ثم الدمشقي الشافعي العلاّمة شيخ المذهب، وكبير الفقهاء في زمانه، ولد بنوى سنة إحدى وثلاثين وستمائة، ونوى قرية من قرى حوران، وقدم دمشق سنة تسع وأربعين، وقد حفظ القرآن فشرع في قراءة التنبيه، فيقال إنه قرأه في أربعة أشهر ونصف، وقرأ ربع العبادات من المهذب في بقية السنة، ثم لزم المشايخ تصحيحاً وشرحاً، فكان يقرأ في كل يوم اثنا عشر درساً على المشايخ، ثم اعتنى بالتصنيف فجمع شيئاً كثيراً، منها ما أكمله ومنها ما لم يكمله، فمما كمل شرح مسلم والروضة والمنهاج والرياض والأذكار والتبيان، وتحرير التنبيه وتصحيحه، وتهذيب الأسماء واللغات، وطبقات الفقهاء وغير ذلك. ومما لم يتممه ولو كمل لم يكن له نظير في بابه: شرح المهذب الذي سماه المجموع، وصل فيه إلى كتاب الربا، فأبدع فيه وأجاد وأفاد، وأحسن الانتقاد، وحرز الفقه فيه في المذهب وغيره، وحرر الحديث على ما ينبغي، والغريب واللغة أشياء مهمة لا توجد إلا فيه، وقد جعله نخبة على ما عنَّ له ولا أعرف في كتب الفقه أحسن منه، على أنه محتاج إلى أشياء كثيرة تزاد فيه وتضاف إليه، وقد كان من الزهادة والعبادة والورع والتحري والانجماح عن الناس على جانب كبير، لا يقدر عليه أحد من الفقهاء غيره، وكان يصوم الدهر ولا يجمع بين إدامين، وكان غالب قوته مما يحمله إليه أبوه من نوى، وقد باشر تدريس الإقبالية نيابة عن ابن خلكان، وكذلك ناب في الفلكية والركنية، ووَلِي مشيخة دار الحديث الأشرفية، وكان لا يضيع شيئاً من أوقاته، وحج في مدة إقامته بدمشق، وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر للملوك وغيرهم. توفي في ليلة أربع وعشرين من رجب من هذه السنة بنوى، ودفن هناك رحمه الله وعفا عنا وعنه.

علي بن علي بن أسفنديار

نجم الدين الواعظ بجامع دمشق أيام السبوت في الأشهر الثلاثة، وكان شيخ الخانقاه المجاهدية وبها توفي في هذه السنة، وكان فاضلاً بارعاً، وكان جده يكتب الإنشاء للخليفة الناصر، وأصلهم من بوشنج. ومن شعر نجم الدين هذا قوله:

إذا زَارَ بِالجُثْمَانِ غَيْرِي فَإِنَّنِي ... أَزُورُ مَعَ السَّاعَاتِ رَبْعَكَ بِالقَلْبِ
وما كلُّ ناءٍ عن ديارٍ بنازحٍ ... ولا كلُّ دانٍ في الحقيقةِ ذو قربِ

ثم دخلت سنة سبع وسبعين وستمائة

كان أولها يوم الأربعاء وكان الخليفة الحاكم بأمر الله العباسي، وسلطان البلاد شاماً ومصراً وحلباً الملك السعيد. وفي أوائل المحرم اشتهر بدمشق ولاية ابن خلكان قضاء دمشق عوداً على بدء في أواخر ذي الحجة، بعد عزل سبع سنين، فامتنع القاضي عز الدين بن الصائغ من الحكم في سادس المحرم وخرج الناس لتلقي ابن خلكان، فمنهم من وصل إلى الرملة وكان دخوله في يوم الخميس الثالث والعشرين من المحرم، فخرج نائب السلطنة عز الدين أيدمر بجميع الأمراء والمواكب لتلقيه، وفرح الناس بذلك، ومدحه الشعراء، وأنشد الفقيه شمس الدين محمد بن جعفر:

لَـمَّـا تَـوَلَّـى قَـضَـاءَ الـشَّـام حَـاكِـمُـهُ قَـاضِـي الـقُـضَـاةِ أَبُـو الـعَـبَّـاسِ ذُو الـكَـرَمِ
مِـنْ بَـعْـدِ سَـبْـعٍ شِـدَادٍ قَـالَ خَـادِمُـهُ ذا الـعَـامُ فِـيـهِ يُـغَـاثُ الـنَّـاسُ بِـالـنِّـعَـمِ

وقال سعد الدين بن مروان الفارقي:

أَذَقْـتَ الـشَّـامَ سَـبْـعَ سِـنِـيـنَ جَـدْبـاً غَـدَاةَ هَـجَـرْتَـهُ هَـجْـراً جَـمِـيـلا
فَـلَـمَّـا زُرْتَـهُ مِـنْ أَرْضِ مِـصْـرٍ مَـدَدْتَ عَـلَـيْـهِ مِـنْ كَـفَّـيْـكَ نِـيـلا

وقال آخر:

رَأَيْـتُ أَهْـلَ الـشَّـامِ طُـرّاً مَـا فِـيـهِـمُ قَـطُّ غَـيْـرُ رَاضٍ
نَـالَـهُـمُ الـخَـيْـرُ بَـعْـدَ شَـرٍّ فَـالـوَقْـتُ بَـسْـطٌ بِـلا انْـقِـبَـاضِ
وَعُـوِّضُـوا فَـرْحَـةً بِـحُـزْنٍ قَـدْ أَنْـصَـفَ الـدَّهْـرُ فِـي الـتَّـقَـاضِـي
وَسَـرَّهُـمْ بَـعْـدَ طُـولِ غَـمٍّ بُـدُور قَـاضٍ وَعَـزْلِ قَـاضِـي
وَكُـلُّـهُـمْ شَـاكِـرٌ وَشَـاكٍ بِـحَـالِ مُـسْـتَـقْـبَـلٍ وَمَـاضِ

قال اليونيني: وفي يوم الأربعاء ثالث عشر صفر ذكر الدرس بالظاهرية وحضر نائب السلطنة أيدمر الظاهري وكان درساً حافلاً حضره القضاة، وكان مدرس الشافعية الشيخ رشيد الدين محمود بن إسماعيل الفارقي، ومدرس الحنفية الشيخ صدر الدين سليمان الحنفي، ولم يكن بناء المدرسة كمل. وفي جمادى الأولى باشر قضاء الحنفية صدر الدين سليمان المذكور عوضاً عن مجد الدين بن العديم، بحكم وفاته، ثم توفي صدر الدين سليمان المذكور في رمضان وتولى بعده القضاء حسام الدين أبو الفضائل الحسن بن أنو شروان الرازي الحنفي، الذي كان قاضياً بملطية قبل ذلك. وفي العشر الأول من ذي القعدة فتحت المدرسة النجيبية وحضر تدريسها ابن خلكان بنفسه، ثم نزل عنها لولده كمال الدين موسى، وفتحت الخانقاه النجيبية، وقد كانتا وأوقافهما تحت الحوطة إلى الآن.

وفي يوم الثلاثاء خامس ذي الحجة دخل السلطان السعيد إلى دمشق وقد زينت له وعملت له قباب ظاهرة وخرج أهل البلد لتلقيه وفرحوا به فرحاً عظيماً لمحبتهم والده، وصلى عيد النحر

بالميدان، وعمل العيد بالقلعة المنصورة، واستوزر بدمشق الصاحب فتح الدين عبد الله بن القيسراني، وبالديار المصرية بعد موت بهاء الدين بن الحنا الصاحب برهان الدين بن الخضر[1] بن الحسن السنجاري، وفي العشر الأخير من ذي الحجة جهز السلطان العساكر إلى بلاد سيس صحبة الأمير سيف الدين قلاوون الصالحي، وأقام السلطان بدمشق في طائفة يسيرة من الأمراء والخاصكية والخواص، وجعل يكثر التردد إلى الزنبقية وفي يوم الثلاثاء السادس والعشرين من ذي الحجة جلس السلطان بدار العدل داخل باب النصر، وأسقط ما كان حدده والده على بساتين أهل دمشق، فتضاعفت له منهم الأدعية وأحبوه لذلك حباً شديداً، فإنه كان قد أجحف بكثير من أصحاب الأملاك، وود كثير منهم لو تخلص من ملكه جملة بسبب ما عليه. وفيها طلب من أهل دمشق خمسين ألف دينار ضربت أجرة على أملاكهم مدة شهرين، وجبيت منهم على القهر والعسف.

وممن توفي فيها من الأعيان.

آقوش بن عبد الله الأمير الكبير جمال الدين النجيبي

أبو سعيد الصالحي، أعتقه الملك الصالح نجم الدين أيوب الكامل، وجعله من أكابر الأمراء، وولاه أستاذ داريته، وكان يثق إليه ويعتمد عليه، وكان مولده في سنة تسع أو عشر وستمائة، وولاه الملك الظاهر أيضاً أستاذ داريته، ثم استنابه بالشام تسع سنين، فاتخذ فيها المدرسة النجيبية ووقف عليها أوقافاً دارة واسعة، لكن لم يقرر للمستحقين قدراً يناسب ما وقفه عليهم، ثم عزله السلطان واستدعاه إلى مصر فأقام بها مدة بطالاً، ثم مرض بالفالج أربع سنين، وقد عاده في بعضها الملك الظاهر ولم يزل به حتى كانت وفاته ليلة الجمعة خامس شهر ربيع الآخر بالقاهرة بداره بدرب الملوخية، ودفن يوم الجمعة قبل الصلاة بتربته التي أنشأها بالقرافة الصغرى، وقد كان بنى لنفسه تربة بالنجيبية، وفتح لها شباكين إلى الطريق، فلم يقدر دفنه بها. وكان كثير الصدقة محباً للعلماء محسناً إليهم، حسن الاعتقاد، شافعي المذهب، متغالياً في السنة ومحبة الصحابة وبغض الروافض، ومن جملة أوقافه الحسان البستان والأراضي التي أوقفها على الجسورة التي قبلي جامع كريم الدين اليوم، وعلى ذلك أوقاف كثيرة، وجعل النظر في أوقافه لابن خلكان.

أيدكين بن عبد الله

الأمير الكبير علاء الدين الشهابي، واقف الخانقاه الشهابية، داخل باب الفرج. كان من كبار الأمراء بدمشق، وقد ولاه الظاهر النيابة بحلب مدة، وكان من خيار الأمراء وشجعانهم، وله حسن ظن بالفقراء والإحسان إليهم، ودفن بتربة الشيخ عمار الرومي بسفح قاسيون، في خامس عشر ربيع الأول، وهو في عشر الخمسين، وخانقاه داخل باب الفرج، وكان لها شباك

(١) في ط: الحضر.

إلى الطريق. والشهابي نسبة إلى الطواشي شهاب الدين رشيد الكبير الصالحي.

قاضي القضاة صدر الدين سليمان بن أبي العز

ابن وهيب أبو الربيع الحنفي شيخ الحَنفية في زمانه، وعالمهم شرقاً وغرباً، أقام بدمشق مدة يفتي ويدرّس، ثم انتقل إلى الديار المصرية يدرس بالصالحية، ثم عاد إلى دمشق فدرس بالظاهرية، وولّي القضاء بعد مجد الدين بن العديم ثلاثة أشهر، ثم كانت وفاته ليلة الجمعة سادس شعبان، ودفن من الغد بعد الصلاة بداره بسفح قاسيون، وله ثلاث وثمانون سنة، ومن لطيف شعره في مملوك تزوج جارية للملك المعظم.

يا صَاحِبَيَّ قِفَا لِي وَانظُرَا عَجَباً ... أَتَى بِهِ الدَّهْرُ فِينَا مِنْ عَجَائِبِهِ
البَدْرُ أَصْبَحَ فَوْقَ الشَّمْسِ مَنْزِلَةً ... وَمَا العُلُوُّ عَلَيْهَا مِنْ مَرَاتِبِهِ
أَضْحَى يُمَاثِلُهَا حُسْناً وَشَارَكَهَا ... كُفْواً وَسَارَ إِلَيْهَا فِي مَوَاكِبِهِ
فَأَشْكَلَ[1] الفَرْقُ لَوْلا وَشْيُ[2] نَمْنَمَةٍ[3] ... بِصُدْغِهِ وَاخْضِرَارٌ فَوْقَ شَارِبِهِ

طه بن إبراهيم بن أبي بكر كمال الدين الهمداني

الإربلي الشافعي، كان أديباً فاضلاً شاعراً، له قدرة في تصنيف دوبيت، وقد أقام بالقاهرة حتى توفي في جمادى الأولى من هذه السنة، وقد اجتمع مرة بالملك الصالح أيوب، فجعل يتكلم في علم النجوم فأنشده على البديهة هذين البيتين:

دَعِ النُّجُومَ لِطُرْقِيٍّ يَعِيشُ بِهَا ... وَبِالعَزِيمَةِ فَانْهَضْ أَيُّهَا المَلِكُ
إِنَّ النَّبِيَّ وَأَصْحَابَ النَّبِيِّ نَهَوْا ... عَنِ النُّجُوم وَقَدْ أَبْصَرْتُ ما مَلَكُوا

وكتب إلى صاحب له اسمه شمس الدين يستزيره بعد رمد أصابه فبرأ منه:

يَقُولُ لِيَ الكَحَّالُ عَيْنُكَ قَدْ هَدَتْ ... فَلا تَشْغَلَنْ قَلْباً وَطِبْ بِهَا نَفْسَا
وَلِي مُدَّةٌ يا شَمْسُ لَمْ أَرَكُمْ بِهَا ... وَآيَةُ بُرْءِ العَيْنِ أَنْ تُبْصِرَ الشَّمْسَا

عبد الرحمن بن عبد الله

ابن محمد بن الحسن بن عبد الله بن الحسن بن عثمان جمال الدين ابن الشيخ نجم الدين البادرائي البغدادي ثم الدمشقي، درس بمدرسة أبيه من بعده حتى حين وفاته يوم الأربعاء سادس رجب، ودفن بسفح قاسيون، وكان رئيساً حسن الأخلاق جاوز خمسين سنة.

قاضي القضاة مجد الدين عبد الرحمن بن جمال الدين

عمر بن أحمد بن العديم، الحلبي، ثم الدمشقي ثم الحنفي، ولّي قضاء الحنفية بعد ابن

---

(١) أشكل: أصبح مشكلاً.
(٢) الوشي: التزيين والتجميل.
(٣) نمنمة: ترقيش وزخرفة.

عطاء بدمشق، وكان رئيساً ابن رئيس، له إحسان وكرم أخلاق، وقد ولّي الخطابة بجامع القاهرة الكبير، وهو أول حنفي وليه، توفي بجوسقه بدمشق في ربيع الآخر من هذه السنة، ودفن بالتربة التي أنشأها عند زاوية الحريري على الشرف القبلي غربي الزيتون.

الوزير ابن الحنا

علي بن محمد بن سليمان بن عبد الله الصاحب بهاء الدين أبو الحسن بن الحنا الوزير المصري، وزير الملك الظاهر وولده السعيد إلى أن توفي في سلخ ذي القعدة، وهو جد جد، وكان ذا رأي وعزم وتدبير ذا تمكن في الدولة الظاهرية، لا تمضي الأمور إلا عن رأيه وأمره، وله مكارم على الأمراء وغيرهم، وقد امتدحه الشعراء، وكان ابنه تاج الدين وزير الصحبة، وقد صودر في الدولة السعيدية.

الشيخ محمد بن الظهير اللغوي

محمد بن أحمد بن عمر بن أحمد بن أبي شاكر مجد الدين أبو عبد الله الإربلي الحنفي المعروف بابن الظهير، ولد بإربل سنة ثنتين وستمائة، ثم أقام بدمشق ودرس بالقايمازية وأقام بها حتى توفي بها ليلة الجمعة ثاني عشر ربيع الآخر. ودفن بمقابر الصوفية، وكان بارعاً في النحو واللغة، وكانت له يد طولى في النظم وله ديوان مشهور، وشعر رائق، فمن شعره قوله:

كُـلُّ حَـيٍّ إِلَـى الـمَـمَـاتِ مَـآبُـهْ ... وَمَـدَى عُـمْـرِهِ سَـرِيـعٌ ذَهَـابُـهْ

يَـخْـرِبُ الـدَّارَ وَهْـيَ دَارُ بَـقَـاءٍ ... ثُـمَّ يَـبْـنِـي لِـمَـا قَـرِيـبٌ خَـرَابُـهْ

عَـجَـبـاً وَهْـوَ فِـي الـتُّـرَابِ غَـرِيـقٌ ... كَـيْـفَ يُـلْـهِـيـهِ طِـيـبُـهُ وَعِـلابُـهْ

كُـلَّ يَـوْمٍ يَـزِيـدُ نَـقْـصـاً وَإِنْ عُـمْـ ... ـرَ خَـلَـتْ أَوْصَـالَـهُ أَوْصَـابُـهْ[1]

وَالـوَرَى فِـي مَـرَاحِـلِ الـدَّهْـرِ رَكْـبٌ ... دَائِـمُ الـسَّـيْـرِ لا يُـرَجَّـى إِيَـابُـهْ

فَـتَـزَوَّدْ إِنَّ الـتُّـقَـى خَـيْـرُ زَادٍ ... وَنَـصِـيـبُ الـلَّـبِـيـبِ مِـنْـهُ لُـبَـابُـهْ

وَأَخُـو الـعَـقْـلِ مَـنْ يـقـضـيْ بِـصِـدْقٍ ... عُـمْـرهُ فِـي صَـلاحِـهِ وَشَـبَـابُـهْ

وَأَخُـوْ الـجَـهْـلِ يَـسْـتَـلِـذُّ هَـوَى الـنَّـفْـ ... ـسِ فَـيَـغْـدُو شَـهْـداً لَـدَيْـهِ مُـصَـابُـهْ

وهي طويلة جداً قريبة من مائة وخمسين بيتاً، وقد أورد الشيخ قطب الدين شيئاً كثيراً من شعره الحسن الفائق الرائق.

ابن إسرائيل الحريري

محمد بن سوار بن إسرائيل بن الخضر بن إسرائيل بن الحسن بن علي بن محمد بن الحسين نجم الدين أبو المعالي الشيباني الدمشقي، ولد في ضحى يوم الاثنين ثاني عشر ربيع

---

(١) أوصابه: أوجاعه وآلامه.

الأول سنة ثلاث وستمائة، وصحب الشيخ علي بن أبي الحسن بن منصور اليسري الحريري، في سنة ثمان عشرة، وكان قد لبس الخرقة قبله من الشيخ شهاب الدين السهروردي، وزعم أنه أجلسه في ثلاث خلوات، وكان ابن إسرائيل يزعم أن أهله قدموا الشام مع خالد بن الوليد فاستوطنوا دمشق، وكان أديباً فاضلاً في صناعة الشعر، بارعاً في النظم، ولكن في كلامه ونظمه ما يشير به إلى نوع من الحلول والاتحاد على طريقة ابن عربي وابن الفارض وشيخه الحريري، والله أعلم بحاله وحقيقة أمره. توفي بدمشق ليلة الأحد الرابع عشر من ربيع الآخر هذه السنة، عن أربع وسبعين سنة، ودفن بتربة الشيخ رسلان معه داخل القبة، وكان الشيخ رسلان شيخ الشيخ علي المغربل الذي تخرج على يديه الشيخ علي الحريري شيخ ابن إسرائيل، فمن شعره قوله:

لَقَدْ عَادَنِي مِنْ لاعِجِ الشَّوْقِ عَائِدُ ... فَهَلْ عَهْدُ ذَاتِ الخَالِ[(١)] بِالسَّفْحِ عَائِدُ؟
وَهَلْ نَارُهَا بِالأَجْرَعِ[(٢)] الفَرْدِ تَعْتَلِي ... لِمُنْفَرِدٍ شَابَ الدُّجَى[(٣)] وَهْوَ شَاهِدُ؟
نَدِيمِيَّ مِنْ سُعْدَى أَدِيرَا حَدِيثَهَا ... فَذِكْرُ هَوَاهَا وَالمُدَامَةُ[(٤)] وَاحِدُ
مُنَعَّمَةُ الأَطْرَافِ رَقَّتْ مَحَاسِناً ... حَلا لِيَ فِي حُبِّهَا مَا أُكَابِدُ[(٥)]
فَلِلْبَدْرِ مَا لاثَتْ عَلَيْهِ خِمَارَهَا ... وَلِلشَّمْسِ مَا جَالَتْ عَلَيْهِ القَلائِدُ

وله:

أَيُّهَا المُعْتَاضُ بِالنَّوْمِ السَّهَرْ ... ذَاهِلاً يَسْبَحُ فِي بَحْرِ الفِكَرْ
سَلِّمِ الأَمْرَ إِلَى مَالِكِهِ ... وَاصْطَبِرْ فَالصَّبْرُ عُقْبَاهُ الظَّفَرْ
لا تَكُونَنْ آيِساً مِنْ فَرَجٍ ... إِنَّمَا الأَيَّامُ تَأْتِي بِالعِبَرْ
كَدَرٌ يَحْدُثُ فِي وَقْتِ الصَّفَا ... وَصَفاً يَحْدُثُ فِي وَقْتِ الكَدَرْ
وَإِذا مَا سَاءَ دَهْرٌ مَرَّةً ... سَرَّ أَهْلِيهِ وَمَهْمَا سَاءَ سَرْ
فَارْضَ عَنْ رَبِّكَ فِي أَقْدَارِهِ ... إِنَّمَا أَنْتَ أَسِيرٌ لِلْقَدَرْ

وله قصيدة في مدح النبي ﷺ طويلة حسنة سمعها الشيخ كمال الدين بن الزملكاني وأصحابه على الشيخ أحمد الأعفف عنه، وأورد له الشيخ قطب الدين اليونيني أشعاراً كثيرة. فمنها قصيدته الدالية المطولة التي أولها:

وَفَى لِيَ مَنْ أَهْوَاهُ جَهْراً لِمَوْعِدِي ... وَأَرْغَمَ عُذَّالِي عَلَيْهِ وَحُسَّدِي
وَزَارَ عَلَى شَطِّ المَزَارِ مُطَوِّلاً ... عَلَى مُغْرَمٍ بِالوَصْلِ لَمْ يَتَعَوَّدِ

---

(١) الخال: الذي يكون في الخد. وذو الخال: أي ذو الكبر.
(٢) الأجرع: من جرع جرعاء بوزن حمراء، وهي رملة مستوية لا تنبت شيئاً.
(٣) الدجى: الظلمة. (٤) المدامة: الخمر.
(٥) أكابد: أعاني.

فَيَا حُسْنَ ما أَهْدَى لِعَيْنِي جَمَالَهُ ... وَيَا بَرْدَ مَا أَهْدَى إِلَى قَلْبِي الصَّدِي[(١)]
وَيا صِدْقَ أَحْلامِي بِبُشْرَى وِصَالِهِ ... وَيَا نَيْلَ آمَالِي وَيا نُجْحَ مَقْصِدِي
تَجَلَّى وُجُودِي إِذْ تَجَلَّى لِبَاطِنِي ... بِجَدٍّ[(٢)] سَعِيدٍ أَوْ بِسَعْدٍ مُجَدَّدِ
لَقَدْ حَقَّ لِي عِشْقُ الوُجُودِ وَأَهْلِهِ ... وَقَدْ عَلِقَتْ كَفَّايَ جَمْعاً بِمَوْجِدِي

ثم تغزل فأطال إلى أن قال:

فَلَمَّا تَجَلَّى لِي عَلَى كُلِّ شَاهِدٍ ... وَسَامَرَنِي بِالرَّمْزِ فِي كُلِّ مَشْهَدِ
تَجَنَّبْتُ تَقْيِيدَ الجَمَالِ تَرَفُّعاً ... وَطَالَعْتُ أَسْرَارَ الجَمَالِ المُبَدَّدِ
وَصَارَ سَمَاعِي مُطْلَقاً مِنْهُ بَدْؤُهُ ... وَحَاشَى لِمِثْلِي مِنْ سَمَاعٍ مُقَيَّدِ
فَفِي كُلِّ مَشْهُودٍ لِقَلْبِيَ شَاهِدٌ ... وَفِي كُلِّ مَسْمُوعٍ لَهُ لَحْنُ مَعْبَدِ

وصل في مشاهد الجمال

ثم قال:

أَرَاهُ بِأَوْصَافِ الجَمَالِ جَمِيعِهَا ... بِغَيْرِ اعْتِقَادٍ لِلْحُلُولِ المُبَعَّدِ
فَفِي كُلِّ هَيْفَاءِ المَعَاطِفِ غَادَةٍ[(٣)] ... وَفِي كُلِّ مَصْقُولِ السَّوَالِفِ أَغْيَدِ
وَفِي كُلِّ بَدْرٍ لاحَ فِي لَيْلِ شَعْرِهِ ... عَلَى كُلِّ غُصْنٍ مَائِسٍ[(٤)] العِطْفِ أَمْلَدِ[(٥)]
وَعِنْدَ اعْتِنَاقِي كُلَّ قَدٍّ مُهَفْهَفٍ[(٦)] ... وَرَشْفِي رِضَاباً[(٧)] كَالرَّحِيقِ[(٨)] المُبَرَّدِ
وَفِي الدُّرِّ وَاليَاقُوتِ وَالطِّيبِ وَالحَلا ... عَلَى كُلِّ سَاجِي[(٩)] الطَّرْفِ لَدْنِ المُقَلَّدِ
وَفِي حُلَلِ الأَثْوَابِ رَاقَتْ لِنَاظِرِي ... بِزِبْرِجِهَا[(١٠)] مِنْ مُذْهَبٍ وَمُوَرَّدِ
وَفِي الرَّاحِ[(١١)] وَالرَّيْحَانِ[(١٢)] وَالسَّمْعِ وَالغِنَا ... وَفِي سَجْعِ تَرْجِيعِ الحَمَامِ المُغَرِّدِ
وَفِي الدَّوْحِ وَالأَنْهَارِ وَالزَّهْرِ وَالنَّدَى ... وَفِي كُلِّ بُسْتَانٍ وَقَصْرٍ مُشَيَّدِ
وَفِي الرَّوْضَةِ الفَيْحَاءِ تَحْتَ سَمَائِهَا ... يُضَاحِكُ نُورَ الشَّمْسِ نُوَّارُهَا النَّدِي
وَفِي صَفْوِ رَقْرَاقِ الغَدِيرِ إِذا حَكَى ... وَقَدْ جَعَّدَتْهُ الرِّيحُ صَفْحَةَ مِبْرَدِ
وَفِي اللَّهْوِ وَالأَفْرَاحِ وَالغَفْلَةِ الَّتِي ... تُمَكِّنُ أَهْلَ الفَرْقِ مِنْ كُلِّ مَقْصِدِ
وَعِنْدَ انْتِشَارِ الشَّرْبِ فِي كُلِّ مَجْلِسٍ ... بَهِيجٍ بِأَنْوَاعِ الثِّمَارِ مُنَضَّدِ

---

(١) الصدي: العطشان.
(٢) الجدّ: الحظ.
(٣) غادة: ناعمة.
(٤) مائس اسم فاعل من ماس: تبختر.
(٥) أملد: ناعم.
(٦) مهفهف: ضامر.
(٧) الرضاب: الريق.
(٨) الرحيق: صفوة الخمر.
(٩) ساجي الطرف: فاتر الطرف.
(١٠) زبرجها: أي زبرجدها: وهو معدن.
(١١) الراح: الخمر.
(١٢) الريحان: العطر والشجر.

وَعِنْدَ اجْتِمَاعِ النَّاسِ فِي كُلِّ جُمْعَةٍ ... وَعِيدٍ وَإِظْهَارِ الرِّيَاشِ المُجَدَّدِ
وَفِي لَمَعَانِ المَشْرَفِيَّاتِ(١) بِالوَغَى ... وَفِي مَيْلِ أَعْطَافِ القَنَا المُتَأَوِّدِ(٢)

المظاهر العلوية

وَفِي الأَعْوَجِيَّاتِ(٣) العِتَاقِ(٤) إذا انْبَرَتْ ... تُسَابِقُ وَفْدَ الرِّيحِ فِي كُلِّ مَطْرَدِ
وَفِي الشَّمْسِ تَحْكِي وَهْيَ فِي بُرْجِ نُورِهَا ... لَدَى الأُفُقِ الشَّرْقِيِّ مِرْآةَ عَسْجَدِ(٥)
وَفِي البَدْرِ بَدْرِ الأُفْقِ لَيْلَةَ تِمِّهِ ... جَلَتْهُ سَمَاءٌ مِثْلُ صَرْحٍ مُمَرَّدِ(٦)
وَفِي أَنْجُمٍ زَانَتْ دُجَاهَا كَأَنَّهَا ... نِثَارُ لآلٍ فِي بِسَاطِ زَبَرْجَدِ
وَفِي الغَيْثِ رَوَّى الأَرْضَ بَعْدَ هُمُودِهَا ... فَنَالَ نَدَاهُ مُتْهِمٌ بَعْدَ مُنْجِدِ
وَفِي البَرْقِ يَبْدُو مَوْهِناً فِي سَحَابِهِ ... كَبَاسِمِ ثَغْرٍ أَوْ حُسَامٍ مُجَرَّدِ
وَفِي حُسْنِ تَنْمِيقِ الخِطَابِ وَسُرْعَةِ الجَـ ... ـوَابِ وَفِي الخَطِّ الأَنِيقِ المُجَوَّدِ

المظاهر المعنوية

ثم قال:

وَفِي رِقَّةِ الأَشْعَارِ رَاقَتْ لِسَامِعٍ ... بَدَائِعُهَا مِنْ مُقْصِرٍ وَمُقَصِّدِ
وَفِي عَوْدِ عِيدِ الوَصْلِ مِنْ بَعْدِ جَفْوَةٍ ... وَفِي أَمْنِ أَحْشَاءِ الطَّرِيدِ المُشَرَّدِ
وَفِي رَحْمَةِ المَعْشُوقِ شَكْوَى مُحِبِّهِ ... وَفِي رِقَّةِ الأَلْفَاظِ عِنْدَ التَّوَدُّدِ
وَفِي أَرْيَحِيَّاتِ الكَرِيمِ إِلَى النَّدَى ... وَفِي عَاطِفَاتِ العَفْوِ مِنْ كُلِّ سَيِّدِ
وَحَالَةِ بَسْطِ العَارِفِينَ وَأُنْسِهِمْ ... وَتَحْرِيكِهِمْ عِنْدَ السَّمَاعِ المُقَيَّدِ
وَفِي لُطْفِ آيَاتِ الكِتَابِ الَّتِي بِهَا ... تَنَسَّمُ رُوحَ الوَعْدِ بَعْدَ التَّوَعُّدِ

المظاهر الجلالية

ثم قال:

كَذٰلِكَ أَوْصَافُ الجَلالِ مَظَاهِرٌ ... أُشَاهِدُهُ فِيهَا بِغَيْرِ تَرَدُّدِ
فَفِي صَوْلَةِ القَاضِي الجَلِيلِ وَسَمْتِهِ(٧) ... وَفِي سَطْوَةِ المَلْكِ الشَّدِيدِ التَّمَرُّدِ
وَفِي حِدَّةِ الغَضْبَانِ حَالَةَ طَيْشِهِ ... وَفِي نَخْوَةِ القَرْمِ(٨) المَهِيبِ المُسَوَّدِ

(١) المشرفيات: جمع مشرفية: سيوف تنسب إلى مشارف وهي قرى من أرض العرب تدنو من الريف.
(٢) المتأود: الأعوج.
(٣) الأعوجيات: نسبة إلى فرس اسمه أعواج.
(٤) العتاق: جمع عتيق وهو الجواد الرائع.
(٥) العسجد: الذهب.
(٦) صرح ممرد: بناء قوي متين.
(٧) السمت: الطريق وهيئة أهل الخير.
(٨) القرم: السيد، الشجاع.

وَفِي صَوْلَةِ الصَّهْبَاءِ جَازَ مُدِيرُهَا وَفِي بُؤْسِ أَخْلاقِ النَّدِيمِ المُعَرْبِدِ
وَفِي الحَرِّ وَالبَرْدِ اللَّذَيْنِ تَقَسَّمَا الـ زَّمَانَ وَفِي إِيلامِ كُلِّ مُحَسَّدِ
وَفِي سِرِّ تَسْلِيطِ النُّفُوسِ بِشَرِّهَا عَلَيَّ وَتَحْسِينِ التَّعَدِّي لِمُعْتَدِي
وَفِي عُسْرِ العَادَاتِ يُشْعِرُ بِالقَضَا وَتَكْحِيلِ عَيْنِ الشَّمْسِ مِنْهُ بِإِثْمِدِ
وَعِنْدَ اصْطِدَامِ الخَيْلِ فِي كُلِّ مَوْقِفٍ يُعَثِّرُ فِيهِ بِالوَشِيجِ المُنَضَّدِ
وَفِي شِدَّةِ اللَّيْثِ[1] الصَّؤُولِ[2] وَبَأْسِهِ وَشِدَّةِ عَيْشٍ بِالسَّقَامِ مُنَكَّدِ
وَفِي جَفْوَةِ المَحْبُوبِ بَعْدَ وِصَالِهِ وَفِي غَدْرِهِ مِنْ بَعْدِ وَعْدٍ مُؤَكَّدِ
وَفِي رَوْعَةِ البَيْنِ المُسِيءِ وَمَوْقِفِ الـ وَدَاعِ لِحَرَّانِ الجَوَانِحِ مُكْمَدِ
وَفِي فُرْقَةِ الأُلَّافِ بَعْدَ اجْتِمَاعِهِمْ وَفِي كُلِّ تَشْتِيتٍ وَشَمْلٍ مُبَدَّدِ
وَفِي كُلِّ دَارٍ أَقْفَرَتْ بَعْدَ أُنْسِهَا وَفِي طَلَلٍ بَالٍ وَدَارِسِ مَعْهَدِ
وَفِي هَوْلِ أَمْوَاجِ البِحَارِ وَوَحْشَةِ الـ قِفَارِ وَسَيْلٍ بِالمَزَايِيبِ مُزْبِدِ
وَعِنْدَ قِيَامِي بِالفَرَائِضِ كُلِّهَا وَحَالَةِ تَسْلِيمٍ لِسِرِّ التَّعَبُّدِ
وَعِنْدَ خُشُوعِي فِي الصَّلاةِ لِعِزَّةِ الـ مُنَاجَى وَفِي الإِطْرَاقِ عِنْدَ التَّهَجُّدِ[3]
وَحَالَةِ إِهْلالِ الحَجِيجِ بِحَجِّهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ لِلْعَيْشِ فِي كُلِّ فَدْفَدِ
وَفِي عُسْرِ تَخْلِيصِ الحَلالِ وَفَتْرَةِ الـ مَلالِ لِقَلْبِ النَّاسِكِ المُتَعَبِّدِ

المظاهر الكمالية

وَفِي ذِكْرَيَاتِ العَذَابِ وَظُلْمَةِ الـ حِجَابِ وَقَبْضِ النَّاسِكِ المُتَزَهِّدِ
وَيَبْدُو بِأَوْصَافِ الكَمَالِ فَلا أَرَى بِرُؤْيَتِهِ شَيْئاً قَبِيحاً وَلا رَدِي
فَكُلُّ مُسِيءٍ لِي إِلَيَّ كَمُحْسِنٍ وَكُلُّ مُضِلٍّ لِي إِلَيَّ كَمُرْشِدِ
فَلاَ فَرْقَ عِنْدِي بَيْنَ أُنْسٍ وَوَحْشَةٍ وَنُورٍ وَإِظْلامٍ وَمُدْنٍ وَمُبْعِدِ
وَسِيَّانِ إِفْطَارِي وَصَوْمِي وَفَتْرَتِي وَجُهْدِي وَنَوْمِي وَادِّعَاءِ تَهَجُّدِي
أَرَى تَارَةً فِي حَانَةِ الخَمْرِ خَالِعاً عِذَارِي وَطَوْراً فِي حَنِيَّةِ مَعْبَدِ
تَجَلَّى لِسِرِّي بِالحَقِيقَةِ مَشْرَبٌ فَوَقْتِيَ مَمْزُوجٌ بِكَشْفٍ مُسَرْمَدِ
تَعَمَّرَتِ الأَوْطَانُ بِي وَتَحَقَّقَتْ مَظَاهِرُهَا عِنْدِي بِعَيْنِي وَمَشْهَدِي
وَقَلْبِي عَلَى الأَشْيَاءِ أَجْمَعَ قُلَّبٌ وَشُرْبِيَ مَقْسُومٌ عَلَى كُلِّ مَوْرِدِ

---

(١) الليث: الأسد.
(٢) الصؤول من صال عليه أي استطال ووثب.
(٣) تهجد: قضى الليل أو بعضه في الصلاة والذكر.

فَهَيْكَلُ أَوْثَانٍ وَدَيْرٌ لِرَاهِبٍ وَبَيْتٌ لِنِيرَانٍ وَقِبْلَةُ مَسْجِدِ
وَمَسْرَحُ غِزْلَانٍ وَحَانَةُ قَهْوَةٍ وَرَوْضَةُ أَزْهَارٍ وَمَطْلَعُ أَسْعُدِ
وَأَسْرَارُ عِرْفَانٍ وَمِفْتَاحُ حِكْمَةٍ وَأَنْفَاسُ وُجْدَانٍ وَفَيْضُ تَبَلُّدِ[1]
وَجَيْشٌ لِضِرْغَامٍ[2] وَخِدْرٌ[3] لِكَاعِبٍ[4] وَظُلْمَةُ حَيْرَانٍ وَنُورٌ لِمُهْتَدِي
تَقَابَلَتِ الأَضْدَادُ عِنْدِي جَمِيعُهَا لِمِحْنَةِ مَجْهُودٍ وَمِنْحَةِ مُجْتَدِي
وَأَحْكَمْتُ تَقْرِيرَ الْمَرَاتِبِ صُورَةً وَمَعْنًى وَمِنْ عَيْنِ التَّفَرُّدِ مَوْرِدِي
فَمَا مَوْطِنٌ إِلاَّ وَلِي فِيهِ مَوْقِفٌ عَلَى قَدَمٍ قَامَتْ بِحَقِّ التَّفَرُّدِ
فَلاَ غَرْوَ إِنْ فُتُّ الأَنَامَ بِهَا وَعَلَّقْتُ حَبْلاً مِنْ حِبَالِ مُحَمَّدِ
عَلَيْهِ صَلاَةُ اللهِ تَشْفَعُ دَائِماً بِرُوحِ تَحِيَّاتِ السَّلاَمِ الْمُرَدَّدِ

ابن العود الرافضي

أبو القاسم الحسين بن العود نجيب الدين الأسدي الحلي، شيخ الشيعة وإمامهم وعالمهم في أنفسهم، كانت له فضيلة ومشاركة في علوم كثيرة، وكان حسن المحاضرة والمعاشرة، لطيف النادرة، وكان كثير التعبد بالليل، وله شعر جيد. ولد سنة إحدى وثمانين وخمسمائة، وتوفي في رمضان من هذه السنة عن ست وتسعين سنة، والله أعلم بأحوال عباده وسرائرهم ونياتهم.

ثم دخلت سنة ثمان وسبعين وستمائة

كان أولها يوم الأحد والخليفة والسلطان هما المذكوران في التي قبلها، وقد اتفق في هذه السنة أمور عجيبة، وذلك أنه وقع الخلف بين الممالك كلها، اختلفت التتار فيما بينهم واقتتلوا فقتل منهم خلق كثير، واختلفت الفرنج في السواحل وصال بعضهم على بعض وقتل بعضهم بعضاً، وكذلك الفرنج الذين في داخل البحور وجزائرها، فاختلفوا واقتتلوا، وقتلت قبائل الأعراب بعضها في بعض قتالاً شديداً، وكذلك وقع الخلف بين العشير من الحوارنة وقامت الحرب بينهم على ساق، وكذلك وقع الخلف بين الأمراء الظاهرية بسبب أن السلطان الملك السعيد بن الظاهر لما بعث الجيش إلى سيس أقام بعده بدمشق وأخذ في اللهو واللعب والانبساط مع الخاصكية، وتمكنوا من الأمور، وبعد عنه الأمراء الكبار، فعصت طائفة منهم ونابذوه وفارقوه وأقاموا بطريق العساكر الذين توجهوا إلى سيس وغيرهم، فرجعت العساكر

(١) التبلُّد: يقال تبلّد الصبح: أي أشرق وأنار.
(٢) الضرغام: الأسد.
(٣) الخدر: الستر.
(٤) يقال: كعبت الجارية: أي بدا ثديها للنهود.

إليهم فلما اجتمعوا شعثوا قلوبهم على الملك السعيد، ووحشوا خواطر الجيش عليه، وقالوا الملك لا ينبغي له أن يلعب ولا أن يلهو، وإنما همة الملوك في العدل ومصالح المسلمين والذب عن حوزتهم، كما كان أبوه. وصدقوا فيما قالوا، فإن لعب الملوك والأمراء وغيرهم دليل على زوال النعم وخراب الملك، وفساد الرعية. ثم راسله الجيش في إبعاد الخاصكية عنه ودنو ذوي الأحلام والنهى إليه كما كان أبوه يفعل، فلم يفعل، وذلك أنه كان لا يمكنه ذلك لقوة شوكة الخاصكية وكثرتهم، فركب الجيش وساروا قاصدين مرج الصفر، ولم يمكنهم العبور على دمشق بل أخذوا من شرقها، فلما اجتمعوا كلهم بمرج الصفر أرسل السلطان أمه إليهم فتلقوها وقبّلوا الأرض بين يديها، فأخذت تتألفهم وتصلح الأمور، فأجابوها واشترطوا شروطاً على ولدها السلطان، فلما رجعت إليه لم يلتزم بها ولم تمكنه الخاصكية من ذلك، فسارت العساكر إلى الديار المصرية، فساق السلطان خلفهم ليتلافى الأمور قبل تفاقمها وانفراطها، فلم يلحقهم وسبقوه إلى القاهرة، وقد كان أرسل أولاده وأهله وثقله إلى الكرك فحصّنهم فيها، وركب في طائفة من الجيش الذين بقوا معه والخاصكية قاصداً الديار المصرية، فلما اقترب منها صدوه عنها وقاتلوه فقتل من الفريقين نفر يسير، فأخذه بعض الأمراء فشق به الصفوف وأدخله قلعة الجبل ليسكن الأمر، فما زادهم ذلك إلا نفوراً، فحاصروا حينئذٍ القلعة وقطعوا عنها الماء، وجرت خطوب طويلة وأحوال صعبة. ثم اتفق الحال بعد ذلك مع الأمير سيف الدين قلاوون الألفي الصالحي ـ وهو المشار إليه حينئذٍ ـ أن يترك الملك السعيد الملك ويتعوض بالكرك والشوبك، ويكون في صحبته أخوه نجم الدين خضر، وتكون المملكة إلى أخيه الصغير بدر الدين سلامش، ويكون الأمير سيف الدين قلاوون أتابكه.

خلع الملك السعيد وتولية أخيه الملك العادل سلامش

لما اتفق الحال على ما ذكرنا نزل السلطان الملك السعيد من القلعة إلى دار العدل في سابع عشر الشهر، وهو ربيع الآخر، وحضر القضاة والدولة من أولي الحل والعقد، فخلع السعيد نفسه من السلطنة وأشهدهم على نفسه بذلك وبايعوا أخاه بدر الدين سلامش ولقب بالملك العادل، وعمره يومئذٍ سبع سنين، وجعلوا أتابكه الأمير سيف الدين قلاوون الألفي الصالحي، وخطب له الخطباء ورسمت السكة باسميهما، وجعل للسعيد الكرك ولأخيه خضر الشوبك، وكتبت بذلك مكاتيب، ووضع القضاة والمفتيون خطوطهم بذلك، وجاءت البريدية إلى الشام بالتحليف لهم على ما حلف عليه المصريون. ومسك الأمير أيدمر نائب الشام الظاهري واعتقل بالقلعة عند نائبها، وكان نائبها إذ ذاك علم الدين سنجر الدواداري، وأحيط على أموال نائب الشام وحواصله، وجاء على نيابة الشام الأمير شمس الدين سنقر الأشقر في أبهة عظيمة، وتحكم مكين، فنزل بدار السعادة وعظمه الناس وعاملوه معاملة الملوك، وعزل السلطان قضاة مصر الثلاثة الشافعي والحنفي والمالكي، وولوا القضاء صدر الدين عمر ابن القاضي تاج الدين ابن بنت الأعز عوضاً عن الشافعي، وهو تقي الدين بن رزين وكأنهم إنما عزلوه لأنه توقف في خلع الملك السعيد والله أعلم.

ذكر بيعة الملك المنصور قلاوون الصالحي

لما كان يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من رجب اجتمع الأمراء بقلعة الجبل من مصر وخلعوا الملك العادل سلامش بن الظاهر، وأخرجوه من البين، وإنما كانوا قد بايعوه صورة ليسكن الشر عند خلع الملك السعيد، ثم اتفقوا على بيعة الملك المنصور قلاوون الصالحي، ولقبوه بالملك المنصور، وجاءت البيعة إلى دمشق فوافق الأمراء، وحلفوا، وذكر أن الأمير شمس الدين سنقر الأشقر لم يحلف مع الناس ولم يرض بما وقع، وكأنه داخله حسد من المنصور، لأنه كان يرى أنه أعظم منه عند الظاهر. وخطب للمنصور على المنابر في الديار المصرية والشامية، وضربت السكة باسمه، وجرت الأمور في البلاد بمقتضى رأيه فعزل وولى ونفذت مراسيمه في سائر البلاد بذلك، فعزل عن الوزارة برهان الدين السنجاري وولى مكانه فخر الدين بن لقمان كاتب السر، وصاحب ديوان الإنشاء بالديار المصرية.

وفي يوم الخميس الحادي عشر من ذي القعدة من هذه السنة توفي الملك السعيد ابن الملك الظاهر بالكرك وسيأتي ذكر ترجمته إن شاء الله تعالى. وفيها حمل الأمير أيدمر الذي كان نائب الشام في محفة لمرض لحقه إلى الديار المصرية، فدخلها في أواخر ذي القعدة، واعتقل بقلعة مصر.

ذكر سلطنة سنقر الأشقر بدمشق

لما كان يوم الجمعة الرابع والعشرين من ذي القعدة ركب الأمير شمس الدين سنقر الأشقر من دار السعادة بعد صلاة العصر وبين يديه جماعة من الأمراء والجند مشاة، وقصد باب القلعة الذي يلي المدينة، فهجم منه ودخل القلعة واستدعى الأمراء فبايعوه على السلطنة، ولقب بالملك الكامل، وأقام بالقلعة ونادت المنادية بدمشق بذلك، فلما أصبح يوم السبت استدعى بالقضاة والعلماء والأعيان ورؤساء البلد إلى مسجد أبي الدرداء بالقلعة، وحلفهم وحلف له بقية الأمراء والعسكر، وأرسل العساكر إلى غزة لحفظ الأطراف وأخذ الغلات، وأرسل الملك المنصور إلى الشوبك فتسلمها نوابه ولم يمانعهم نجم الدين خضر. وفيها جددت أربعة أضلاع في قبة النسر من الناحية الغربية. وفيها عزل فتح الدين بن القيسراني من الوزارة بدمشق ووليها تقي الدين بن توبة التكريتي.

وممن توفي فيها من الأعيان:

عز الدين بن غانم الواعظ

عبد السلام بن أحمد بن غانم بن علي بن إبراهيم بن عساكر بن حسين عز الدين أبو محمد الأنصاري المقدسي، الواعظ المطبق المفلق الشاعر الفصيح، الذي نسج على منوال ابن الجوزي وأمثاله، وقد أورد له قطب الدين أشياء حسنة كثيرة مليحة، وكان له قبول عند الناس، تكلم مرة تجاه الكعبة المعظمة، وكان في الحضرة الشيخ تاج الدين بن الفزاري والشيخ تقي الدين بن دقيق

العيد، وابن العجيل من اليمن وغيرهم من العلماء والعباد، فأجاد وأفاد وخطب فأبلغ وأحسن. نقل هذا المجلس الشيخ تاج الدين بن الفزاري، وأنه كان في سنة خمس وسبعين.

الملك السعيد ابن الملك الظاهر

بركة خان ناصر الدين محمد بن بركة خان أبو المعالي ابن السلطان الملك الظاهر. ركن الدين بيبرس البندقداري، بايع له أبوه الأمراء في حياته، فلما توفي أبوه بويع له بالملك، وله تسع عشرة سنة، ومشيت له الأمور في أول الأمر على السعادة، ثم إنه غلبت عليه الخاصكية فجعل يلعب معهم في الميدان الأخضر فيما قيل أول هوى، فربما جاءت النوبة عليه فينزل لهم، فأنكرت الأمراء الكبار ذلك وأنفوا أن يكون ملكهم يلعب مع الغلمان، ويجعل نفسه كأحدهم، فراسلوه في ذلك ليرجع عما هو عليه فلم يقبل، فخلعوه كما ذكرنا، وولوا السلطان الملك المنصور قلاوون في أواخر رجب كما تقدم. ثم كانت وفاته في هذه السنة بالكرك في يوم الجمعة الحادي عشر من ذي القعدة، يقال إنه سم فالله أعلم، وقد دفن أولاً عند قبر جعفر وأصحابه الذين قتلوا بموته، ثم نقل إلى دمشق فدفن في تربة أبيه سنة ثمانين وستمائة، وتملك الكرك بعده أخوه نجم الدين خضر وتلقب بالملك المسعود، فانتزعها المنصور من يده كما سيأتي إن شاء الله تعالى [بيانه] (١).

ثم دخلت سنة تسع وسبعين وستمائة

كان أولها يوم الخميس ثالث أيار، والخليفة الحاكم بأمر الله أحمد العباسي وملك مصر الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحي، وبعض بلاد الشام أيضاً، وأما دمشق وأعمالها فقد ملكها سنقر الأشقر، وصاحب الكرك الملك السعيد بن الظاهر، وصاحب حماة الملك المنصور ناصر الدين محمد ابن الملك المظفر تقي الدين محمود، والعراق وبلاد الجزيرة وخراسان والموصل وإربل وأذربيجان وبلاد بكر وخلاط وما والاها وغير ذلك من البلاد بأيدي التتار، وكذلك بلاد الروم في أيديهم أيضاً، ولكن فيها غياث الدين بن ركن الدين، ولا حكم له سوى الاسم، وصاحب اليمن الملك المظفر شمس الدين يوسف بن عمر، وصاحب الحرم الشريف نجم الدين بن أبي نمي الحسني، وصاحب المدينة عز الدين جماز بن شيحة الحسيني.

ففي مستهل السنة المذكورة ركب السلطان الملك الكامل سنقر الأشقر من القلعة إلى الميدان وبين يديه الأمراء ومقدمو الحلقة الفاشية، وعليهم الخلع والقضاة والأعيان ركاب معه، فسير في الميدان ساعة ثم رجع إلى القلعة، وجاء إلى خدمته الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا ملك العرب، فقبّل الأرض بين يديه، وجلس إلى جانبه وهو على السماط، وقام له الملك الكامل، وكذلك جاء إلى خدمته ملك الأعراب بالحجاز، وأمر الكامل سنقر أن تضاف البلاد الحلبية إلى ولاية القاضي شمس الدين بن خلكان، وولاّه تدريس الأمينية وانتزعها من ابن سني الدولة.

(١) سقط في ط.

ولما بلغ الملك المنصور بالديار المصرية ما كان من أمر سنقر الأشقر بالشام أرسل إليه جيشاً كثيفاً فهزموا عسكر سنقر الأشقر الذي كان قد أرسله إلى غزة، وساقوهم بين أيديهم حتى وصل جيش المصريين إلى قريب دمشق، فأمر الملك الكامل أن يضرب دهليزه بالجسورة، وذلك في يوم الأربعاء ثاني عشر صفر، ونهض بنفسه وبمن معه فنزل هنالك واستخدم خلقاً كثيراً وأنفق أموالاً جزيلة، وانضاف إليه عرب الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا، وشهاب الدين أحمد بن حجي، وجاءته نجدة حلب ونجدة حماة ورجال كثيرة من رجال بعلبك، فلما كان يوم الأحد السادس عشر من صفر أقبل الجيش المصري صحبة الأمير علم الدين سنجر الحلبي، فلما تراءا الجمعان وتقابل الفريقان تقاتلوا إلى الرابعة في النهار، فقتل نفر كثير وثبت الملك الكامل سنقر الأشقر ثباتاً جيداً، ولكن خامر عليه الجيش فمنهم من صار إلى المصري ومنهم من انهزم في كل وجه، وتفرق عنه أصحابه فلم يسعه إلا الانهزام على طريق المرج في طائفة يسيرة، في صحبة عيسى بن مهنا، فسار بهم إلى برية الرحبة فأنزلهم في بيوت من شعر، وأقام بهم وبدوابهم مدة مقامهم عنده، ثم بعث الأمراء الذين انهزموا عنه فأخذوا لهم أماناً من الأمير سنجر، وقد نزل في ظاهر دمشق وهي مغلوقة، فراسل نائب القلعة ولم يزل به حتى فتح باب الفرج من آخر النهار، وفتحت القلعة من داخل البلد فتسلمها للمنصور وأفرج عن الأمير ركن الدين بيبرس العجمي المعروف بالحالق، والأمير لاجين حسام الدين لاجين المنصوري وغيرهم من الأمراء الذين كان قد اعتقلهم الأمير سنقر الأشقر، وأرسل سنجر البريدية إلى الملك المنصور يعلمونه بصورة الحال، وأرسل سنجر بثلاثة آلاف في طلب سنقر الأشقر.

وفي هذا اليوم جاء ابن خلكان ليسلم على الأمير سنجر الحلبي فاعتقله في علو الخانقاه النجيبية، وعزله في يوم الخميس العشرين من صفر، ورسم للقاضي نجم الدين بن سني الدولة بالقضاء فباشره، ثم جاءت البريدية معهم كتاب من الملك المنصور قلاوون بالعتب على طوائف الناس، والعفو عنهم كلهم، فتضاعفت له الأدعية، وجاء تقليد النيابة بالشام للأمير حسام الدين لاجين السلحداري المنصوري، فدخل معه علم الدين سنجر الحلبي فرتبه في دار السعادة، وأمر سنجر القاضي ابن خلكان أن يتحول من المدرسة العادلية الكبيرة ليسكنها نجم الدين بن سني الدولة، وألح عليه في ذلك، فاستدعى جمالاً لينقل أهله وثقله عليها إلى الصالحية فجاء البريد بكتاب من السلطان فيه تقرير ابن خلكان على القضاء والعفو عنه وشكره والثناء عليه، وذكر خدمته المتقدمة، ومعه خلعة سنية له فلبسها وصلّى بها الجمعة وسلّم على الأمراء فأكرموه وعظّموه، وفرح الناس به وبما وقع من الصفح عنه.

وأما سنقر الأشقر فإنه لما خرجت العساكر في طلبه فارق الأمير عيسى بن مهنا وسار إلى السواحل فاستحوذ منها على حصون كثيرة، منها صهيون، وقد كان بها أولاده وحواصله وحصن بلاطس وبرزية وعكا وجبلة واللاذقية، وشغر بكاس وشيزر واستناب فيها الأمير عز الدين ازدمر الحاج. فأرسل السلطان المنصور لحصار شيزر طائفة من الجيش، فبينما هم كذلك إذ أقبلت التتار لما سمعوا بتفريق كلمة المسلمين، فانجفل الناس من بين أيديهم من سائر البلاد إلى

الشام، ومن الشام إلى مصر، فوصلت التتار إلى حلب فقتلوا خلقاً كثيراً، ونهبوا جيشاً كبيراً، وظنوا أن جيش سنقر الأشقر يكون معهم على المنصور، فوجدوا الأمر بخلاف ذلك، وذلك أن المنصور كتب إلى سنقر الأشقر. إن التتار قد أقبلوا إلى المسلمين، والمصلحة أن نتفق عليهم لئلا يهلك المسلمون بيننا وبينهم، وإذا ملكوا البلاد لم يدعوا منا أحداً. فكتب إليه سنقر بالسمع والطاعة وبرز من حصنه فخيم بجيشه ليكون على أهبة متى طلب أجاب، ونزلت نوابه من حصونهم وبقوا مستعدين لقتال التتار، وخرج الملك المنصور من مصر في أواخر جمادى الآخرة ومعه العساكر. وفي يوم الجمعة الثالث من جمادى الآخرة قرىء على منبر جامع دمشق كتاب من السلطان أنه قد عهد بالملك إلى ولده علي، ولقب بالملك الصالح، فلما فرغ من قراءة الكتاب جاءت البريدية فأخبروا برجوع التتار من حلب إلى بلادهم، وذلك لما بلغهم من اتفاق كلمة المسلمين، ففرح المسلمون بذلك ولله الحمد، وعاد المنصور إلى مصر وكان قد وصل إلى غزة، أراد بذلك تخفيف الوطأة عن الشام فوصل إلى مصر في نصف شعبان.

وفي جمادى الآخرة أعيد برهان الدين السنجاري إلى وزارة مصر ورجع فخر الدين بن لقمان إلى كتابة الإنشاء. وفي أواخر رمضان أعيد إلى القضاء ابن رزين وعزل ابن بنت الأعز، وأعيد القاضي نفيس الدين بن شكر المالكي، ومعين الدين الحنفي، وتولى قضاء الحنابلة عز الدين المقدسي. وفي ذي الحجة جاء تقليد ابن خلكان بإضافة المعاملة الحلبية إليه يستنيب فيها من شاء من نوابه. وفي مستهل ذي الحجة خرج الملك المنصور من بلاد مصر بالعساكر قاصداً الشام، واستناب على مصر ولده الملك الصالح علي بن المنصور إلى حين رجوعه، قال الشيخ قطب الدين. وفي يوم عرفة وقع بمصر برد كبار أتلف شيئاً كثيراً من الغلات، ووقعت صاعقة بالإسكندرية وأخرى في يومها تحت الجبل الأحمر على صخرة فأحرقتها، فأخذ ذلك الحديد فسبك فخرج منه أواقي بالرطل المصري. وجاء السلطان فنزل بعساكره تجاه مدينة عكا، فخافت الفرنج منه خوفاً شديداً وراسلوه في طلب تجديد الهدنة، وجاء الأمير عيسى بن مهنا من بلاد العراق إلى خدمة المنصور، وهو بهذه المنزلة فتلقاه السلطان بجيشه وأكرمه واحترمه وعامله بالصفح والعفو والإحسان.

وممن توفي فيها من الأعيان:

الأمير الكبير جمال الدين آقوش الشمسي

أحد أمراء الإسلام، وهو الذي باشر قتل كتبغا نوين أحد مقدمي التتار، وهو المطاع فيهم يوم عين جالوت، وهو الذي مسك عز الدين أيدمر الظاهري في حلب من السنة الماضية، وكانت وفاته بها.

الشيخ الصالح داود بن حاتم

ابن عمر الحبال، كان حنبلي المذهب له كرامات وأحوال صالحة ومكاشفات صادقة، وأصل آبائه من حرّان، وكانت إقامته ببعلبك، وتوفي فيها رحمه الله عن ست وتسعين سنة، وقد

أثنى عليه الشيخ قطب الدين ابن الشيخ الفقيه اليونيني.

الأمير الكبير

نور الدين علي بن عمر أبو الحسن الطيوري، كان من أكابر الأمراء وقد نيف على تسعين سنة وكانت وفاته بسبب أنه وقع يوم مصاف سنقر الأشقر تحت سنابك الخيل فمكث بعد ذلك متمرضاً إلى أن مات بعد شهرين ودفن بسفح قاسيون.

الجزار الشاعر

يحيى بن عبد العظيم بن يحيى بن محمد بن علي جمال الدين أبو الحسين المصري، الشاعر الماجن، المعروف بالجزار. مدح الملوك والوزراء الكبراء، وكان ماجناً ظريفاً حلو المناظرة، ولد في حدود ستمائة بعدها بسنة أو سنتين، وتوفي يوم الثلاثاء ثاني عشر شوال من هذه السنة. ومن شعره:

أَدْرِكُونِي فَبِي مِنَ البَرْدِ هَمّ ... لَيْسَ يُنْسَى وَفِي حَشَايَ الْتِهَابُ
أَلْبَسَتْنِي الأَطْمَاعُ وَهْماً فَهَا ... جِسْمِيَ عَارٍ وَلِي فِرًى وَثِيَابُ
كُلَّمَا ازْرَقَّ لَوْنُ جِسْمِي مِنَ الـ ... ـبَرْدِ تَخَيَّلْتُ أَنَّهُ سِنْجَابُ

وقال وقد تزوج أبوه بعجوز:

تَزَوَّجَ الشَّيْخُ أَبِي شَيْخَةً ... لَيْسَ لَهَا عَقْلٌ وَلا ذِهْنُ
كَأَنَّهَا فِي فَرْشِهَا رِمَّةٌ ... وَشَعْرُهَا مِنْ حَوْلِهَا قُطْنُ
وَقَالَ لِي كَمْ سِنُّهَا ... قُلْتُ لَيْسَ فِي فَمِهَا سِنُّ
لَوْ أَسْفَرَتْ غُرَّتُهَا فِي الدُّجَى ... مَا جَسَرَتْ تُبْصِرُهَا الجِنُّ

ثم دخلت سنة ثمانين وستمائة من الهجرة

استهلت والخليفة الحاكم وسلطان البلاد الملك المنصور قلاوون. وفي عاشر المحرم انعقدت الهدنة بين أهل عكا والمرقب والسلطان، وكان نازلاً على الروحاء وقد قبض على جماعة من الأمراء ممن كان معه، وهرب آخرون إلى قلعة صهيون إلى خدمة سنقر الأشقر، ودخل المنصور إلى دمشق في التاسع عشر من المحرم فنزل القلعة وقد زينت له البلد، وفي التاسع والعشرين من المحرم أعاد القضاء إلى عز الدين بن الصائغ وعزل ابن خلكان. وفي أول صفر باشر قضاء الحنابلة نجم الدين ابن الشيخ شمس بن أبي عمر، وقد كان المنصب شاغراً منذ عزل والده نفسه عن القضاء، وتولى قضاء حلب في هذا الشهر تاج الدين يحيى بن محمد بن إسماعيل الكردي، وجلس الملك المنصور في دار العدل في هذا الشهر فحكم وأنصف المظلوم من الظالم، وقدم عليه صاحب حماة فتلقاه المنصور بنفسه في موكبه، ونزل بداره بباب الفراديس. وفي ربيع الأول وقع الصلح بين الملك المنصور قلاوون وبين سنقر

الأشقر الملك الكامل على أن يسلم للسلطان شيزر ويعوضه عنها بأنطاكية وكفر طاب وشغر بكاس وغير ذلك، وعلى أن يقيم على ما بيده ستمائة فارس، وتحالفا على ذلك، ودقت البشائر لذلك، وكذلك تصالح صاحب الكرك والملك المنصور خضر بن الظاهر على تقرير ما بيده ونودي بذلك في البلاد. وفي العشر الأول من هذا الشهر ضمن الخمر والزنى بدمشق، وجعل عليه ديوان ومشد، فقام في إبطال ذلك جماعة من العلماء والصلحاء والعباد، فأبطل بعد عشرين يوماً، وأريقت الخمور وأقيمت الحدود ولله الحمد والمنة.

وفي تاسع عشر ربيع الأول وصلت الخاتون بركة خان زوجة الملك الظاهر ومعها ولدها الملك السعيد قد نقلته من قرية المساجد بالقرب من الكرك لتدفنه عند أبيه بالتربة الظاهرية، فرفع بحبال من السور ودفن عند والده الظاهر، ونزلت أمه بدار صاحب حمص، وهيئت لها الإقامات، وعمل عزاء ولدها يوم الحادي والعشرين من ربيع الآخر بالتربة المذكورة، وحضر السلطان المنصور وأرباب الدولة والقراء والوعاظ.

وفي أواخر ربيع الآخر عزل التقي بن توبة التكريتي من الوزارة بدمشق وباشرها بعده تاج الدين السنهوري، وكتب السلطان المنصور إلى مصر وغيرها من البلاد يستدعي الجيوش لأجل اقتراب مجيء التتار، فدخل أحمد بن حجي ومعه بشر كثير من الأعراب، وجاء صاحب الكرك الملك المسعود نجدة للسلطان يوم السبت الثاني عشر من جمادى الآخرة، وقدم الناس عليه ووفدوا إليه من كل مكان، وجاءته التركمان والأعراب وغيرهم، وكثرت الأراجيف بدمشق، وكثرت العساكر بها وجفل الناس من بلاد حلب وتلك النواحي، وتركوا الغلات والأموال خوفاً من أن يدهمهم العدو من التتار، ووصلت التتر صحبة منكوتمر بن هولاكو إلى عنتاب، وسارت العساكر المنصورة إلى نواحي حلب يتبع بعضها بعضاً، ونازلت التتار بالرحبة في أواخر جمادى الآخر طائفة من الاعراب، وكان فيهم ملك التتار أبغا مختفياً ينظر ماذا يفعل أصحابه، وكيف يقاتلون أعداءه، ثم خرج المنصور من دمشق وكان خروجه منها في أواخر جمادى وقنت الخطباء والأئمة بالجوامع والمساجد في الصلوات وغيرها وجاء مرسوم من السلطان باستسلام أهل الذمة من الدواوين والكتبة. ومن لا يسلم يصلب، فأسلموا كرهاً، وكانوا يقولون آمنا وحكم الحاكم بإسلامنا بعد أن عرض من امتنع منهم على الصلب بسوق الخيل، وجعلت الحبال في أعناقهم، فأجابوا والحالة هذه، ولما انتهى السلطان الملك المنصور إلى حمص كتب إلى الملك الكامل سنقر الأشقر يطلبه إليه نجدة فجاء إلى خدمته فأكرمه السلطان واحترمه ورتب له الإقامات، وتكاملت الجيوش كلها في صحبة الملك المنصور عازمين على لقاء العدو لا محالة مخلصين في ذلك، واجتمع الناس بعد خروج الملك في جامع دمشق ووضعوا المصحف العثماني بين أيديهم، وجعلوا يبتهلون إلى الله تعالى في نصرة الإسلام وأهله على الأعداء، وخرجوا كذلك والمصحف على رؤوسهم إلى المصلى يدعون ويبتهلون ويبكون، وأقبلت التتار قليلاً قليلاً فلما وصلوا حماة أحرقوا بستان الملك وقصره وما هنالك من المساكن، والسلطان المنصور مخيم بحمص في عساكر من الأتراك والتركمان وغيرهم في

جحفل كثير جداً، وأقبلت التتار في مائة ألف مقاتل أو يزيدون، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقعة حمص

لما كان يوم الخميس رابع عشر رجب التقى الجمعان وتواجه الخصمان عند طلوع الشمس وعسكر التتر في مائة ألف فارس، وعسكر المسلمين على النصف من ذلك أو يزيد قليلاً، والجميع فيما بين مشهد خالد بن الوليد إلى الرستن، فاقتتلوا قتالاً عظيماً لم يرَ مثله من أعصار متطاولة، فاستظهر التتار أول النهار، وكسروا الميسرة واضطربت الميمنة أيضاً وبالله المستعان. وكسر جناح القلب الأيسر وثبت السلطان ثباتاً عظيماً جداً في جماعة قليلة، وقد انهزم كثير من عسكر المسلمين، والتتار في آثارهم حتى وصلوا وراءهم إلى بحيرة حمص ووصلوا حمص وهي مغلقة الأبواب، فقتلوا خلقاً من العامة وغيرهم، وأشرف المسلمون على خطة عظيمة من الهلاك، ثم إن أعيان الأمراء من الشجعان والفرسان تآمروا فيما بينهم مثل سنقر الأشقر وبيسرى وطيبرس الوزيري وبدر الدين أمير سلاح وأيتمش السعدي وحسام الدين لاجين وحسام الدين طرنطاي والدويداري وأمثالهم، لما رأوا ثبات السلطان ردوا إلى السلطان وحملوا حملات متعددة صادقة، ولم يزالوا يتابعون الحملة بعد الحملة حتى كسر الله بحوله وقوته التتر، وجرح منكوتمر، وجاءهم الأمير عيسى بن مهنا من ناحية العرض فصدم التتر فأضربت الجيوش لصدمته، وتمت الهزيمة ولله الحمد، وقتلوا من التتار مقتلة عظيمة جداً، ورجعت الطائفة من التتار الذين اتبعوا المنهزمين من المسلمين فوجدوا أصحابهم قد كسروا، والعساكر في آثارهم يقتلون ويأسرون، والسلطان ثابت في مكانه تحت السناجق، والكوسات تضرب خلفه وما معه إلا ألف فارس، فطمعوا فيه فقاتلوه فثبت لهم ثباتاً عظيماً فانهزموا من بين يديه فلحقهم فقتل أكثرهم، وكان ذلك تمام النصر، وكان انهزام التتار قبل الغروب، وافترقوا فرقتين أخذت فرقة منهم إلى ناحية سلمية والبرية، والأخرى إلى ناحية حلب والفرات، فأرسل السلطان في آثارهم من يتبعهم وجاءت البطاقة بالبشارة بما وقع من النصر إلى دمشق يوم الجمعة خامس عشر رجب، فدقت البشائر وزينت البلد، وأوقدت الشموع وفرح الناس. فلما أصبح الناس يوم السبت أقبلت طائفة من المنهزمين منهم بيليك الناصري والجالق وغيرهم، فأخبروا الناس بما شاهدوه من الهزيمة في أول الأمر، ولم يكونوا شاهدوا بعد ذلك، فبقي الناس في قلق عظيم، وخوف شديد، وتهيأ ناس كثير للهرب، فبينما الناس في ذلك إذ أقبلت البريدية فأخبروا الناس بصورة ما وقع في أول الأمر وآخره، فتراجع الناس وفرحوا فرحاً شديداً ولله الحمد والمنة.

ثم دخل السلطان إلى دمشق الثاني والعشرين من رجب، وبين يديه الأسارى بأيديهم الرماح عليها شقف رؤوس القتلى منهم، وكان يوماً مشهوداً، ومع السلطان طائفة من أصحاب سنقر الأشقر منهم علم الدين الدويداري، فنزل السلطان بالقلعة مؤيداً منصوراً، وقد كثرت له المحبة والأدعية وكان سنقر الأشقر ودع السلطان من حمص ورجع إلى صهيون، وأما التتر فإنهم

انهزموا في أسوإ حال وأتعسه يتخطفون من كل جانب، ويقتلون من كل فج، حتى وصلوا إلى الفرات فغرق أكثرهم، ونزل إليهم أهل البيرة فقتلوا منهم خلقاً كثيراً وأسروا آخرين، والجيوش في آثارهم يطردونهم عن البلاد حتى أراح الله منهم الناس.

وقد استشهد في هذه الوقعة جماعة من سادات الأمراء منهم الأمير الكبير الحاج عز الدين أزدمر الجمدار(١)، وهو الذي جرح ملك التتار يومئذٍ منكوتمر، فإنه خاطر بنفسه وأوهم أنه مقفز إليه وقلب رمحه حتى وصل إليه فطعنه فجرحه فقتلوه رحمه الله، ودفن بالقرب من مشهد خالد.

وخرج السلطان من دمشق قاصداً الديار المصرية يوم الأحد ثاني شعبان والناس يدعون له، وخرج معه علم الدين الدويداري، ثم عاد من غزة وقد ولاَّه المشد في الشام والنظر في المصالح، ودخل السلطان إلى مصر في ثاني عشر شعبان. وفي سلخ شعبان ولّي قضاء مصر والقاهرة للقاضي وجيه الدين البهنسي الشافعي، وفي يوم الأحد سابع رمضان فتحت المدرسة الجوهرية بدمشق في حياة منشئها وواقفها الشيخ نجم الدين محمد بن عباس بن أبي المكارم التميمي الجوهري، ودرس بها قاضي الحنفية حسام الدين الرازي. وفي بكرة يوم السبت التاسع والعشرين من شعبان وقعت مئذنة مدرسة أبي عمر بقاسيون على المسجد العتيق فمات شخص واحد، وسلَّم الله تعالى بقية الجماعة. وفي عاشر رمضان وقع بدمشق ثلج عظيم وبرد كثير مع هواء شديد، بحيث إنه ارتفع عن الأرض نحواً من ذراع، وفسدت الخضراوات، تعطلت على الناس معايش كثيرة. وفي شوال وصل صاحب سنجار إلى دمشق مقفزاً من التتار داخلاً في طاعة السلطان بأهله وماله، فتلقاه نائب البلد وأكرمه وسيَّره إلى مصر معززاً مكرماً.

وفي شوال عقد مجلس بسبب أهل الذمة من الكتاب الذين كانوا قد أسلموا كرهاً وقد كتب لهم جماعة من المفتيين بأنهم كانوا مكرهين فلهم الرجوع إلى دينهم، وأثبت الإكراه بين يدي القاضي جمال الدين بن أبي يعقوب المالكي، فعاد أكثرهم إلى دينهم وضربت عليهم الجزية كما كانوا، سوَّد الله وجوههم يوم تبيض وجوه وتسود وجوه. وقيل: إنهم غرّموا مالاً جزيلاً جملة مستكثرة على ذلك، قبَّحهم الله.

وفي ذي القعدة قبض السلطان على أيتمش السعدي وسجنه بقلعة الجبل، وقبض نائبه بدمشق على سيف الدين بلبان الهاروني وسجنه بقلعتها. وفي بكرة الخميس التاسع والعشرين من ذي القعدة، وهو العاشر من أذار، استسقى الناس بالمصلى بدمشق فسقوا بعد عشرة أيام. وفي هذه السنة أخرج الملك المنصور جميع آل الملك الظاهر من النساء والولدان والخدام من الديار المصرية إلى الكرك ليكونوا في كنف الملك المسعود خضر بن الظاهر.

وممن توفي فيها من الأعيان:

أبغا ملك التتار بن هولاكو خان

ابن تولي بن جنكيزخان، كان عالي الهمة بعيد الغور له رأي وتدبير، وبلغ من العمر

(١) في ط: الجهدار.

خمسين سنة، ومدة ملكه ثماني عشرة سنة، ولم يكن بعد والده في التدبير والحزم مثله، ولم تكن وقعة حمص هذه برأيه ولا عن مشورته، ولكن أخوه منكوتمر أحب ذلك فلم يخالفه. ورأيت في بعض تاريخ البغاددة أن قدوم منكوتمر إلى الشام إنما كان عن مكاتبة سنقر الأشقر إليه فالله أعلم. وقد جاء أبغا هذا بنفسه فنزل قريباً من الفرات لينظر ماذا يكون من الأمر، فلما جرى عليهم ما جرى ساءه ذلك ومات غماً وحزناً. توفي بين العيدين من هذه السنة، وقام بالملك بعده ولده السلطان أحمد. وفيها توفي.

قاضي القضاة

نجم الدين أبو بكر ابن قاضي القضاة صدر الدين أحمد ابن قاضي القضاة شمس الدين يحيى بن هبة الله بن الحسن بن يحيى بن محمد بن علي الشافعي ابن سني الدولة، ولد سنة ست عشرة وستمائة، وسمع الحديث وبرع في المذهب، وناب عن أبيه فشكرت سيرته، واستقل بالقضاء في الدولة المظفرية فحمد أيضاً، وكان الشيخ شهاب الدين ينال منه ومن أبيه، وقال البرزالي: كان شديداً في الاحكام متحرياً، وقد ألزم بالمقام بمصر فدرس بجامع مصر، ثم عاد إلى دمشق فدرس بالأمينية والركنية، وباشر قضاء حلب، وعاد إلى دمشق، وولاّه سنجر قضاء دمشق، ثم عزل بابن خلكان كما تقدم، ثم كانت وفاته يوم الثلاثاء ثامن من المحرم، ودفن من الغد يوم تاسوعاء بتربة جده بقاسيون. وفي عاشر المحرم توفي.

قاضي القضاة صدر الدين عمر

ابن القاضي تاج الدين عبد الوهاب بن خلف بن أبي القاسم الغلابي ابن بنت الأعز المصري، كان فاضلاً بارعاً عارفاً بالمذهب، متحرياً في الأحكام كأبيه، ودفن بالقرافة.

الشيخ إبراهيم بن سعيد الشاغوري

المولّه المعروف بالجيعانة، كان مشهوراً بدمشق، ويذكر له أحوال ومكاشفات على ألسنة العوام ومن لا يعقل، ولم يكن ممن يحافظ على الصلوات ولا يصومَ مع الناس، ومع هذا كان كثير من العوام وغيرهم يعتقدونه. توفي يوم الأحد سابع جمادى الأولى ودفن بتربة المولهين بسفح قاسيون عند الشيخ يوسف القميني، وقد توفي الشيخ يوسف قبله بمدة، وكان الشيخ يوسف يسكن إقمين حمام نور الدين الشهيد بالبزوريين، وكان يجلس على النجاسات والقذر، وكان يلبس ثياباً بداوية تجحف على النجاسات في الأزقة، وكان له قبول من الناس ومحبة وطاعة، وكان العوام يغالون في محبته واعتقاده، وكان لا يصلي ولا يتقي نجاسة، ومن جاءه زائراً جلس عند باب الأقمين على النجاسة، وكان العوام يذكرون له مكاشفات وكرامات، وكل ذلك خرافات من خرافات العوام وأهل الهذيان كما يعتقدون ذلك في غيره من المجانين والمولهين. ولما مات الشيخ يوسف القميني خرج خلق في جنازته خلق كثير من العوام وغيرهم، وكانت جنازته حافلة بهم، وحمل على أعناق الرجال إلى سفح قاسيون، وبين يديه غوغاء وغوش كثير وتهليل وأمور لا تجوز من فعل العوام، حتى جاؤوا به إلى تربة المولهين

بقاسيون فدفنوه بها، وقد اعتنى بعض العوام بقبره فعمل عليه حجارة منقوشة وعمل على قبره سقفاً مقرنصاً بالدهان وأنواعه، وعمل عليه مقصورة وأبواباً، وغالى فيه مغالاة زائدة، ومكث هو وجماعة مجاورون عند قبره مدة في قراءة وتهليل، ويطبخ لهم الطبيخ فيأكلون ويشربون هناك. والمقصود أن الشيخ إبراهيم الجيعانة لما مات الشيخ يوسف الأقميني جاء من الشاغور إلى باب الصغير في جماعة من أتباعه، وهم في صراخ وضجة وغوش كثير، وهم يقولون: أذن لنا في دخول البلد أذن لنا في دخول البلد، يكررون ذلك، فقيل له في ذلك فقال: لي عشرون سنة ما دخلت داخل سور دمشق، لأني كنت كلما أتيت باباً من أبوابها أجد هذا السبع رابضاً بالباب فلا أستطيع الدخول خوفاً منه، فلما مات أذن لنا في الدخول، وهذا كله ترويج على الطغام والعوام من الهمج الرعاع، الذين هم أتباع كل ناعق. وقيل إن الشيخ يوسف كان يرسل إلى الجيعانة مما يأتيه من الفتوح والله سبحانه أعلم بأحوال العباد، وإليه المنقلب والمآب، وعليه الحساب.

وقد ذكرنا أنه استشهد في وقعة حمص جماعة من الأمراء منهم الأمير عز الدين أزدمر السلحداري عن نحو من ستين سنة، وكان من خيار الأمراء وله همة عالية ينبغي أن ينال بها مكاناً عالياً في الجنة [والله تعالى أعلم][1].

قاضي القضاة

تقي الدين أبو عبد الله محمد بن الحسين بن رزين بن موسى العامري الحموي الشافعي، ولد سنة ثلاث وستمائة، وقد سمع الحديث وانتفع بالشيخ تقي الدين بن الصلاح، وأم بدار الحديث مدة، ودرس بالشامية، وولّي وكالة بيت المال بدمشق، ثم سار إلى مصر فدرس بها بعدة مدارس، وولّي الحكم بها، وكان مشكوراً، توفي ليلة الأحد ثالث رجب منها، ودفن بالمقطم.

وفي يوم السبت الرابع والعشرين من ذي القعدة توفي:

الملك الأشرف

مظفر الدين موسى ابن الملك الزاهر محيي الدين داود المجاهد بن أسد الدين شيركوه بن الناصر ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه بن شاذي ابن صاحب حمص، ودفن بتربتهم بقاسيون.

وفي ذي القعدة توفي:

الشيخ جمال الدين الإسكندري

الحاسب بدمشق، وكان له مكتب تحت منارة كيروز، وقد انتفع به خلق كثير، وكان شيخ الحساب في وقته رحمه الله.

---

(١) سقط في ط.

الشيخ علم الدين أبو الحسن

محمد ابن الإمام أبي علي الحسين بن عيسى بن عبد الله بن رشيق الربعي المالكي المصري، ودفن بالقرافة، وكانت له جنازة حافلة، وقد كان فقيهاً مفتياً، سمع الحديث وبلغ خمساً وثمانين سنة. وفي يوم الاثنين الخامس والعشرين من ذي الحجة توفي.

الصدر الكبير أبو الغنائم المسلم

محمد بن المسلم مكي بن خلف بن غيلان، القيسي الدمشقي، مولده سنة أربع وتسعين، وكان من الرؤساء الكبار، وأهل البيوتات، وقد ولّي نظر الدواوين بدمشق وغير ذلك، ثم ترك ذلك كله وأقبل على العبادة وكتابة الحديث، وكان يكتب سريعاً يكتب في اليوم الواحد ثلاثة كراريس وقد أسمع مسند الإمام أحمد ثلاث مرات، وحدّث بصحيح مسلم وجامع الترمذي وغير ذلك، وسمع منه البرزالي والمزي وابن تيمية، ودفن من يومه بسفح قاسيون عن ست وثمانين سنة رحمهم الله جميعاً.

الشيخ صفي الدين

أبو القاسم بن محمد بن عثمان بن محمد التميمي الحنفي، شيخ الحنفية ببصرى، ومدرس الأمينية بها مدة سنين كثيرة، كان بارعاً فاضلاً عالماً عابداً منقطعاً عن الناس، وهو والد قاضي القضاة صدر الدين علي، وقد عمَّر دهراً طويلاً، فإنه ولد في سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، وتوفي ليلة نصف شعبان من هذه السنة عن تسع وتسعين سنة رحمه الله تعالى.

ثم دخلت سنة إحدى وثمانين وستمائة

استهلت والخليفة الحاكم بأمر الله تعالى والسلطان الملك المنصور قلاوون. وفيها أرسل ملك التتار أحمد إلى الملك المنصور يطلب منه المصالحة وحقن الدماء فيما بينهم، وجاء في الرسلية الشيخ قطب الدين الشيرازي أحد تلامذة النصير الطوسي، فأجاب المنصور إلى ذلك وكتب المكاتبات إلى ملك التتر بذلك. وفي مستهل صفر قبض السلطان على الأمير الكبير بدر الدين بيسري السعدي، وعلى الأمير علاء الدين السعدي الشمسي أيضاً.

وفيها درّس القاضي بدر الدين بن جماعة بالقيمرية، والشيخ شمس الدين بن الصفي الحريري بالسرحانية، وعلاء الدين بن الزملكاني بالأمينية. وفي يوم الاثنين الحادي عشر من رمضان وقع حريق باللبادين عظيم، وحضر نائب السلطنة إذ ذاك الأمير حسام الدين لاجين السلحدار وجماعة كثيرة من الأمراء، وكانت ليلة هائلة جداً وقى الله شرها، واستدرك بعد ذلك أمرها القاضي نجم الدين بن النحاس ناظر الجامع، فأصلح الأمر وسد وأعاد البناء أحسن مما كان ولله الحمد والمنة.

وممن توفي فيها من الأعيان.

الشيخ الصالح بقية السلف

برهان الدين أبو إسحاق ابن الشيخ صفي الدين أبي الفدا إسماعيل بن إبراهيم بن يحيى بن علوي بن الرضى الحنفي إمام المعزية بالكشك. وأسمع من جماعة منهم الكندي بن الحرستاني ولكن لم يظهر سماعه منهما إلا بعد وفاته، وقد أجاز له أبو نصر الصيدلاني وعفيفة الفارقانية وابن المنادي، وكان رجلاً صالحاً محباً لإسماع الحديث، كثير البرّ بالطلبة له، وقد قرأ عليه الحافظ جمال الدين المزي معجم الطبراني الكبير، وسمعه منه بقراءة الحافظ البرزالي وجماعة كثيرون. وكان مولده في سنة تسع وتسعين وخمسمائة وتوفي يوم الأحد سابع صفر، وهو اليوم الذي قدم فيه الحجاج إلى دمشق من الحجاز، وكان هو معهم فمات بعد استقراره بدمشق.

القاضي أمين الدين الأشتري

أبو العباس أحمد بن شمس الدين أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبد الجبار بن طلحة الحلبي المعروف بالأشتري الشافعي، المحدث، سمع الكثير وحصّل ووقف أجزاء بدار الحديث الأشرفية وكان الشيخ محيي الدين النووي يثني عليه ويرسل إليه الصبيان ليقرؤوا عليه في بيته لأمانته عنده، وصيانته وديانته.

الشيخ برهان الدين أبو الثناء

محمود بن عبد الله بن عبد الرحمن المراغي الشافعي، مدرس الفلكية، كان فاضلاً بارعاً، عرض عليه القضاء فلم يقبل، توفي يوم الجمعة الثالث والعشرين من ربيع الآخر عن ست وسبعين سنة، وسمع الحديث وأسمعه، ودرس بعده بالفلكية القاضي بهاء الدين بن الزكي.

القاضي الإمام العلاّمة شيخ القراء زين الدين

أبو محمد بن عبد السلام بن علي بن عمر الزواوي المالكي، قاضي قضاة المالكية بدمشق، وهو أول من باشر القضاء بها، وعزل نفسه عنها تورعاً وزهادة، واستمر بلا ولاية ثمان سنين، ثم كانت وفاته ليلة الثلاثاء ثامن رجب منها عن ثلاث وثمانين سنة، وقد سمع الحديث واشتغل على السنجاري وابن الحاجب.

الشيخ صلاح الدين

محمد ابن القاضي شمس الدين علي بن محمود بن علي الشهرزوري، مدرس القيمرية وابن مدرسها، توفي أواخر رجب، وتوفي أخوه شرف الدين بعده بشهر، ودرس بالقيمرية بعد الصلاح المذكور القاضي بدر الدين بن جماعة.

ابن خلكان قاضي القضاة

شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان الأربلي

الشافعي أحد الأئمة الفضلاء، والسادة العلماء، والصدور الرؤساء، وهو أول من جدد في أيامه قضاء القضاة من سائر المذاهب، فاشتغلوا بالأحكام بعدما كانوا نواباً له، وقد كان المنصب بينه وبين ابن الصائغ دولاً يعزل هذا تارة ويولي هذا، ويعزل هذا ويولي هذا، وقد درس ابن خلكان في عدة مدارس لم تجتمع لغيره، ولم يبق معه في آخر وقت سوى الأمينية، وبيد ابنه كمال الدين موسى النجيبية. توفي ابن خلكان بالمدرسة النجيبية المذكورة بإيوانها يوم السبت آخر النهار، في السادس والعشرين من رجب، ودفن من الغد بسفح قاسيون عن ثلاث وسبعين سنة. وقد كان ينظم نظماً حسناً رائقاً، وقد كانت محاضرته في غاية الحسن، وله التاريخ المفيد الذي رسم بوفيات الأعيان من أبدع المصنفات، والله سبحانه أعلم.

ثم دخلت سنة اثنتين وثمانين وستمائة

فيها قدم الملك المنصور إلى دمشق في يوم الجمعة سابع رجب في أبهة عظيمة، وكان يوماً مشهوداً وفيها ولّي الخطابة بدمشق الشيخ عبد الكافي بن عبد الملك بن عبد الكافي عوضاً عن محيي الدين بن الحرستاني الذي توفي فيها كما سيأتي، وخطب يوم الجمعة الحادي والعشرين من رجب من هذه السنة وفي هذا اليوم قبل الصلاة احتيط على القاضي عز الدين بن الصائغ بالقلعة وأثبت ابن الحصري نائب الحنفي محضراً يتضمن أن عنده وديعة بمقدار ثمانية آلاف دينار، من جهة ابن الإسكاف، وكان الذي أثار ذلك شخص قدم من حلب يقال له تاج الدين بن السنجاري، وولّي القضاء بعده بهاء الدين يوسف بن محيي الدين بن الزكي، وحكم يوم الأحد ثالث وعشرين من رجب ومنع الناس من زيارة ابن الصائغ، وسعى بمحضر آخر أن عنده وديعة بقيمة خمسة وعشرين ألف دينار للصالح إسماعيل بن أسد الدين، وقام في ذلك ابن الشاكري والجمال بن الحموي وآخرون، وتكلموا في قضية ثالثة، ثم عقد له مجلس ناله فيه شدة شديدة، وتعصبوا عليه ثم أعيد إلى اعتقاله، وقام في صفة نائب السلطنة حسام الدين لاجين، وجماعة من الأمراء، فكلموا فيه السلطان فأطلقه وخرج إلى منزله، وجاء الناس إلى تهنئته يوم الاثنين الثالث والعشرين من شعبان، وانتقل من العادلية إلى داره بدرب النقاشة، وكان عامة جلوسه في المسجد تجاه داره.

وفي رجب باشر حسبة دمشق جمال الدين بن صصري. وفي شعبان درس الخطيب جمال الدين بن عبد الكافي بالغزالية عوضاً عن الخطيب ابن الحرستاني، وأخذ منه الدولعية لكمال الدين بن النجار، الذي كان وكيل بيت المال، ثم أخذ شمس الدين الأربلي تدريس الغزالية من ابن عبد الكافي المذكور. وفي آخر شعبان باشر نيابة الحكم عن ابن الزكي شرف الدين أحمد بن نعمة المقدسي أحد أئمة الفضلاء، وسادات العلماء المصنفين. ولما توفي أخوه شمس الدين محمد في شوال ولّي مكانه تدريس الشامية البرانية، وأخذت منه العادلية الصغيرة، فدرس فيها القاضي نجم الدين أحمد بن صصري التغلبي في ذي القعدة، وأخذت من شرف الدين أيضاً الرواحية فدرس فيها نجم الدين البياني نائب الحكم رحمهم الله أجمعين.

ومن توفي فيها من الأعيان:

الصدر الكبير عماد الدين أبو الفضل

محمد ابن القاضي شمس الدين أبي نصر محمد بن هبة الله بن الشيرازي، صاحب الطريقة المنسوبة في الكتابة، سمع الحديث وكان من رؤساء دمشق وأعيانها توفي في صفر منها.

شيخ الجبل الشيخ العلاّمة شيخ الإسلام

شمس الدين أبو محمد عبد الرحمن ابن الشيخ أبي عمر محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة الحنبلي، أول من ولّي قضاء الحنابلة بدمشق، ثم تركه وتولاّه ابنه نجم الدين، وتدريس الأشرفية بالجبل، وقد سمع الحديث الكثير، وكان من علماء الناس وأكثرهم ديانة وأمانة في عصره مع هدى وسمت صالح حسن، وخشوع ووقار. توفي ليلة الثلاثاء سلخ ربيع الآخر من هذه السنة عن خمس وثمانين سنة، ودفن بمقبرة والده رحمهم الله.

ابن أبي جفوان: العلاّمة شمس الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن عباس بن أبي جفوان الأنصاري الدمشقي المحدّث الفقيه الشافعي البارع في النحو واللغة، سمعت شيخنا تقي الدين بن تيمية وشيخنا الحافظ أبا الحجاج المزي يقول كل منهما للآخر: إن هذا الرجل قرأ مسند الإمام أحمد وهما يسمعان فلم يضبط عليه لحنة متفقاً عليها، وناهيك بهذين ثناء على هذا وهما هما.

الخطيب محيي الدين

يحيى بن الخطيب قاضي القضاة عماد الدين عبد الكريم ابن قاضي القضاة جمال الدين بن الحرستاني الشافعي خطيب دمشق مدرس الغزالية، كان فاضلاً بارعاً أفتى ودرس وولي الخطابة والغزالية بعد أبيه، وحضر جنازته نائب السلطنة وخلق كثير، توفي في جمادى الآخرة عن ثمان وستين سنة، ودفن بقاسيون. وفي خامس رجب توفي.

الأمير الكبير ملك عرب آل مثري

أحمد بن حجي بمدينة بصرى، وصلّي عليه بدمشق صلاة الغائب.

الشيخ الإمام العالم شهاب الدين

عبد الحليم ابن الشيخ الإمام العلاّمة مجد الدين عبد الله بن عبد الله بن أبي القاسم بن تيمية الحراني، والد شيخنا العلاّمة العلم تقي الدين بن تيمية، مفتي الفرق، الفارق بين الفرق، كان له فضيلة حسنة، ولديه فضائل كثيرة، وكان له كرسي بجامع دمشق يتكلم عليه عن ظاهر قلبه، وولّي مشيخة دار الحديث السكرية بالقصاعين، وبها كان سكنه، ثم درس ولده الشيخ تقي الدين بها بعده في السنة الآتية كما سيأتي، ودفن بمقابر الصوفية رحمه الله.

ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين وستمائة

في يوم الاثنين ثاني المحرم منها درس الشيخ الإمام العالم العلاّمة تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني بدار الحديث السكرية التي بالقصاعين، وحضر عنده قاضي القضاة بهاء الدين بن الزكي الشافعي، والشيخ تاج الدين الفزاري شيخ الشافعية، والشيخ زين الدين بن المرحل، وزين الدين بن المنجا الحنبلي، وكان درساً حافلاً، وقد كتبه الشيخ تاج الدين الفزاري بخطه لكثرة فوائده، وكثرة ما استحسنه الحاضرون. وقد أطنب الحاضرون في شكره على حداثة سنه وصغره، فإنه كان عمره إذ ذاك عشرين سنة وسنتين، ثم جلس الشيخ تقي الدين المذكور أيضاً يوم الجمعة عاشر صفر بالجامع الأموي بعد صلاة الجمعة على منبر قد هيّء له لتفسير القرآن العزيز، فابتدأ من أوله في تفسيره، وكان يجتمع عنده الخلق الكثير والجم الغفير من كثرة ما كان يورد من العلوم المتنوعة المحررة مع الديانة والزهادة والعبادة سارت بذكره الركبان في سائر الأقاليم والبلدان، واستمر على ذلك مدة سنين متطاولة.

وفيها قدم السلطان إلى دمشق من مصر يوم السبت ثاني عشر جمادى الآخرة فجاء صاحب حماة الملك المنصور إلى خدمته فتلقاه السلطان في موكبه وأكرمه، فلما كان ليلة الأربعاء الرابع والعشرين من شعبان وقع مطر عظيم بدمشق، ورعد برق، وجاء سيل عظيم جداً حتى كسر أقفال باب الفراديس، وارتفع الماء ارتفاعاً كثيراً، بحيث أغرق خلقاً كثيراً، وأخذ جمال الجيش المصري وأثقالهم، فخرج السلطان إلى الديار المصرية بعد ثلاثة أيام، وتولى مشد الدواوين الأمير شمس الدين سنقر عوضاً عن الدويدار علم الدين سنجر. وفيها اختلف التتار فيما بينهم على ملكهم السلطان أحمد فعزلوه عنهم وقتلوه، وملكوا عليهم السلطان أرغون بن أبغا، ونادوا بذلك في جيشهم، وتأطدت أحوالهم، ومشت أمورهم على ذلك، وبادت دولة السلطان أحمد. وقامت دولة أرغون بن أبغا.

وممن توفي فيها من الأعيان.

الشيخ طالب الرفاعي بقصر حجاج

وله زاوية مشهورة به، وكان يزور بعض المريدين فمات.

القاضي الإمام عز الدين أبو المفاخر

محمد بن شرف الدين عبد القادر بن عفيف الدين عبد الخالق بن خليل الأنصاري الدمشقي. ولّي القضاء بدمشق مرتين، عزل بابن خلكان، ثم عزل ابن خلكان به ثانية، ثم عزل وسجن وولّي بعده بهاء الدين بن الزكي، وبقي معزولاً إلى أن توفي ببستانه في تاسع ربيع الأول، وصلّي عليه بسوق الخيل، ودفن بسفح قاسيون وكان مولده سنة ثمان وعشرين وستمائة، وكان مشكور السيرة، له عقل وتدبير واعتقاد كثير في الصالحين، وقد سمع الحديث

له ابن بلبان مشيخة قرأها ابن جفوان عليه، ودرس بعده بالعزروية الشيخ زين الدين عمر بن مكي بن المرحل، وكيل بيت المال، ودرس ابنه محيي الدين أحمد بالعمادية وزاوية الكلاسة من جامع دمشق، ثم توفي ابنه أحمد هذا بعده في يوم الأربعاء ثامن رجب، فدرس بالعمادية والدماغية الشيخ زين الدين بن الفارقي شيخ دار الحديث نيابة عن أولاد القاضي عز الدين بن الصائغ بدر الدين وعلاء الدين. وفيها توفي.

الملك المسعود فتح الدين

عبد الملك ابن الملك الصالح أبي الحسن إسماعيل ابن الملك العادل، وهو والد الملك الكامل ناصر الدين محمد، في ليلة الاثنين ثالث رمضان، ودفن من الغد بتربة أم الصالح، وكان من خيار الأمراء محترماً كبيراً رئيساً، روى الموطأ عن يحيى بن بكير عن مكرم بن أبي الصقر، وسمع ابن الليثي وغيره.

القاضي نجم الدين عمر بن نصر بن منصور

البياني الشافعي، توفي في شوال منها، وكان فاضلاً، ولّي قضاء زرع ثم قضاء حلب، ثم ناب في دمشق ودرس بالرواحية وباشرها بعده شمس الدين عبد الرحمن بن نوح المقدسي، يوم عاشر شوال. وفي هذا اليوم توفي بحماة ملكها:

الملك المنصور ناصر الدين

محمد بن محمود بن عمر بن ملكشاه، بن أيوب، ولد سنة اثنتين وثلاثين وستمائة، وتملك حماة سنة ثنتين وأربعين، وله عشر سنين، فمكث في الملك أزيد من أربعين سنة، وكان له بر وصدقات، وقد أعتق في بعض موته خلقاً من الأرقاء، وقام في الملك بعده ولده الملك المظفر بتقليد الملك المنصور له بذلك.

القاضي جمال الدين أبو يعقوب

يوسف بن عبد الله بن عمر الرازي، قاضي قضاة المالكية، ومدرسهم بعد القاضي زين الزواوي الذي عزل نفسه، وقد كان ينوب عنه فاستقل بعده بالحكم، توفي في الخامس من ذي القعدة وهو في طريق الحجاز، وكان عالماً فاضلاً قليل التكليف والتكلف، وقد شغر المنصب بعده ثلاث سنين ودرس بعده للمالكية الشيخ جمال الدين الشريشي، وبعده أبو إسحاق اللوري، وبعده بدر الدين أبو بكر التونسي، ثم لما وصل القاضي جمال الدين بن سليمان حاكماً درس بالمدارس والله سبحانه أعلم.

ثم دخلت سنة أربع وثمانين وستمائة

في أواخر المحرم قدم الملك المنصور إلى دمشق ومعه الجيوش وجاء إلى خدمته صاحب حماة الملك المظفر فتلقاه بجميع الجيوش، وخلع عليه خلعة الملوك، ثم سافر السلطان بالعساكر المصرية والشامية فنزل المرقب ففتحه الله عليهم في يوم الجمعة ثامن عشر صفر،

وجاءت البشارة بذلك إلى دمشق فدقت البشائر وزينت البلد وفرح المسلمون بذلك، لأن هذا الحصن كان مضرة على المسلمين، ولم يتفق فتحه لأحد من ملوك الإسلام لا للملك صلاح الدين، ولا للملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري، وفتح حوله بلنياس ومرقب وهي بلدة صغيرة إلى جانب البحر عند حصن منيع جداً لا يصل إليهم سهم ولا حجر منجنيق، فأرسل إلى صاحب طرابلس فهدمه تقرباً إلى السلطان الملك المنصور، واستنقذ المنصور خلقاً كثيراً من أسارى المسلمين، الذين كانوا عند الفرنج، ولله الحمد. ثم عاد المنصور إلى دمشق، ثم سافر بالعساكر المصرية إلى القاهرة.

وفي أواخر جمادى الآخرة ولد للمنصور ولده الملك الناصر محمد بن قلاوون، وفيها عزل محيي الدين بن النحاس، عن نظر الجامع ووليه عز الدين بن محيي الدين بن الزكي، وباشر ابن النحاس الوزارة عوضاً عن التقي توبة التكريتي، وطلب التقي توبة إلى الديار المصرية وأحيط على أمواله وأملاكه، وعزل سيف الدين طوغان عن ولاية المدينة، وباشرها عز الدين بن أبي الهيجاء.

وممن توفي فيها من الأعيان:

الشيخ عز الدين محمد بن علي

ابن إبراهيم بن شداد، توفي في صفر، وكان فاضلاً مشهوراً، له كتاب سيرة الملك الظاهر، وكان معتنياً بالتاريخ.

البندقداري الصالحي

أستاذ الملك الظاهر بيبرس، وهو الأمير الكبير علاء الدين أيدكين البندقداري الصالحي، كان من خيار الأمراء سامحه الله. توفي في ربيع الآخر منها، وقد كان الصالح نجم الدين صادر البندقداري هذا، وأخذ منه مملوكه بيبرس فأضافه إليه لشهامته ونهضته، فتقدم عنده على أستاذه وغيره.

الشيخ الصالح العابد الزاهد

شرف الدين أبو عبد الله محمد بن الحسن بن إسماعيل الأخميمي، كانت له جنازة هائلة، ودفن بقاسيون رحمه الله.

ابن عامر المقري

الذي ينسب إليه الميعاد الكبير، الشيخ الصالح المقري شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عامر بن أبي بكر الفسولي الحنبلي، سمع الحديث من الشيخ موفق الدين بن قدامة وغيره، وكان يعمل الميعاد ليلة الأحد، فإذا فرغوا من ذلك دعا بهم ثم وعظهم. توفي يوم الأربعاء حادي عشر جمادى الآخرة ودفن بالقرب من تربة الشيخ عبد الله الأرمني.

القاضي عماد الدين

داود بن يحيى بن كامل القرشي النصروي الحنفي، مدرس العزية بالكشك، وناب في الحكم عن مجد الدين بن العديم، وسمع الحديث وتوفي ليلة النصف من شعبان، وهو والد الشيخ نجم الدين [العماري][(١)] القجقازي، شيخ الحنفية وخطيب جامع تنكر.

الشيخ حسن الرومي

شيخ سعيد السعداء بالقاهرة. وقد وليها بعده شمس الدين الأتابكي. الرشيد سعيد بن علي بن سعيد. الشيخ رشيد الدين الحنفي مدرس الشبلية، وله تصانيف مفيدة كثيرة، ونظم حسن فمن ذلك قوله:

قُـلْ لِـمَـنْ يَـحْـذَرُ أَنْ تُـدْرِكَـهُ ... نَـكَـبَـاتُ الـدَّهْـرِ لا يُـغْـنِـي الـحَـذَرْ
أَذْهَـبَ الـحُـزْنَ اعْـتِـقَـادِي أَنَّ ... كُـلُّ شَـيْءٍ بِـقَـضَـاءٍ وَقَـدَرْ

ومن شعره قوله:

إلٰـهِـي لـكَ الـحَـمْـدُ الَّـذي أَنْـتَ أَهْـلُـهُ ... عَـلَـى نعَـم مِـنْـهَـا الـهِـدَايَـةُ لِـلْـحَـمْـدِ
صَحِيحاً خَلَقْت الجِسْمَ مِنِّي مُسَلَّماً ... وَلُطْفُكَ بِي مازَالَ مُذْ كُنْت فِي المَهْدِ
وَكُـنْـتُ يَـتِـيـمـاً قَـدْ أَحَـاطَ بِـيَ الـرَّدَى ... فَـآوَيـتَ وَاسْـتَـنْـقَـذْتَ مِـنْ كُـلِّ مَـا يُـردِي
وَهَـبْـتَ لِـيَ الـعَـقْـلَ الَّـذِي بِـضِـيَـائـهِ ... إلَـى كُـلِّ خَـيـرٍ يَـهْـتَـدِي طَـالـبُ الـرُّشْـدِ
وَوَفَّـقْـتَ لِـلإسْـلاَمِ قَـلْـبِـي وَمَـنْـطِـقِـي ... فَـيَـا نِـعْـمَـةً قَـدْ حَـلَّ مَـوْقِـعُـهَـا عِـنْـدِي
وَلَـوْ رُمْـتُ جُـهْـدِي أَنْ أُجَـازِي فَـضِـيـلَـةً ... فَـضَـلْـتَ بِـهَـا لَـمْ يَـجْـز أَطْـرَافَـهَـا جُـهْـدِي
أَلَـسْـتَ الَّـذِي أَرْجـو حَـنَـانَـك عِـنْـدَمَـا ... يُـخَـلِّـفُـنِـي الأَهْـلُـونَ وَحْـدِيَ فِـي لَـحْـدِي
فَـجُـدْ لِـي بِـلُـطْـفٍ مِـنْـكَ يَـهْـدِي سَـرِيـرَتِـي ... وَقَـلْـبِـي وَيُـدْنِـيـنِـي إلَـيْـكَ بِـلا بُـعْـدِ

توفي يوم السبت ثالث رمضان، وصلّي عليه العصر بالجامع المظفري، ودفن بالسفح.

أبو القاسم علي بن بلبان بن عبد الله

الناصري المحدّث المفيد الماهر، توفي يوم الخميس مستهل رمضان.

الأمير مجير الدين

محمد بن يعقوب بن علي المعروف بابن تميم الحموي الشاعر، صاحب الديوان في الشعر، فمن شعره قوله:

عَـايَـنْـتُ وَرْدَ الـرَّوْضِ يَـلْـطُـمُ خَـدَّهُ ... وَيَـقُـولُ قَـوْلاً فِـي الـبَـنَـفْـسَـجِ يُـحْـنِـقُ[(٢)]

---

(١) سقط في ط.

(٢) في النجوم الزاهرة: والشذرات: «ويقول وهو على البنفسج محنق».

لا تَـقْــرَبُــوهُ وَإنْ تَـضَــوَّعَ نَـشْــرُهُ   مَـا بَـيْـنَـكُـمْ فَـهْـوَ الـعـدُوُّ الأَزْرَقُ

الشيخ العارف شرف الدين

أبو عبد الله محمد ابن الشيخ عثمان بن علي الرومي ودفن بتربتهم بسفح قاسيون، ومن عندهم خرج الشيخ جمال الدين محمد الساوجي وخلق ودخل في ذي الجوالقية وصار شيخهم ومقدمهم.

ثم دخلت سنة خمس وثمانين وستمائة

استهلت والخليفة الحاكم أبو العباس أحمد، والسلطان الملك المنصور قلاوون، ونائبه بالشام الأمير حسام الدين لاجين السلحداري المنصوري، والأمير بدر الدين الصوابي محاصر مدينة الكرك في أواخر السنة الماضية، وقدم عليه من مصر عسكر صحبة الأمير حسام الدين طرقطاي، فاجتمعوا على حصار الكرك حتى أنزلوا منها صاحبها الملك المسعود خضر ابن الملك الظاهر، في مستهل صفر. وجاءت البشارة بذلك إلى دمشق، فدقت البشائر ثلاثة أيام، وعاد طرقطاي بالملك خضر وأهل بيته إلى الديار المصرية، كما فعل الملك الظاهر أبوه بالملك المغيث عمر بن العادل، كما تقدم ذلك. واستناب في الكرك نائباً عن أمر المنصور، ورتب أمورها وأجلوا منها خلقاً من الكركيين، واستخدموا بقلعة دمشق. ولما اقترب دخول آل الظاهر إلى القاهرة تلقاهم المنصور فأكرم لقياهم وأحسن إلى الأخوين نجم الدين خضر، وبدر الدين سلامش، وجعلهما يركبان مع ابنيه علي والأشرف خليل، وجعل عليهما عيوناً يرصدون ما يفعلان، وأنزلا الدور بالقلعة وأجرى عليهم من الرواتب والنفقات ما يكفيهم وزيادة كثيرة، وكتب الأمير بدر الدين بكتوت العلائي وهو مجرد بحمص إلى نائب دمشق لاجين، أنه قد انعقدت زوبعة في يوم الخميس سابع صفر بأرض حمص ثم ارتفعت في السماء كهيئة العمود والحية العظيمة، وجعلت تختطف الحجارة الكبار، ثم تصعد بها في الجو كأنها سهام النشاب وحملت شيئاً كثيراً من الجمال بأحمالها، والأثاث والخيام والدواب، ففقد الناس من ذلك شيئاً كثيراً، فإنا لله وإنا إليه راجعون. وفي هذا اليوم وقع مطر عظيم في دمشق وجاء سيل كثير ولا سيما في الصالحية.

وفيها أعيدَ علم الدين الدويداري إلى مشد الدواوين بدمشق، والصاحب تقي الدين بن توبة إلى الوزارة بدمشق. وفيها تولى قضاء المالكية بمصر زين الدين بن أبي مخلوف البريدي عوضاً عن القاضي تقي الدين برساس الذي توفي بها. وفيها درس بالغزالية بدر الدين بن جماعة انتزعها من يد شمس الدين إمام الكلاسة، الذي كان ينوب عن شمس الدين الأيكي، والأيكي شيخ سعيد السعدا، باشرها شهراً ثم جاء مرسوم بإعادتها إلى الأيكي، وأنه قد استناب عنه جمال الدين الباجريقي، فباشرها الباجريقي في ثالث رجب.

وممن توفي فيها من الأعيان.

أحمد بن شيبان

ابن تغلب الشيباني أحد مشايخ الحديث المسندين المعمرين بدمشق، توفي بصفر عن ثمان وثمانين سنة، ودفن بقاسيون.

الشيخ الإمام العالم البارع

الشيخ جمال الدين أبو بكر محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن بحمان البكري الشريشي المالكي، ولد بشريش سنة إحدى وستمائة، ورحل إلى العراق فسمع بها الحديث من المشايخ والقطيعي وابن زوربة وابن الليثي وغيرهم، واشتغل وحصل وساد أهل زمانه، ثم عاد إلى مصر فدرس بالفاضلية، ثم أقام بالقدس شيخ الحرم، ثم جاء إلى دمشق فولي مشيخة الحديث بتربة أم الصالح، ومشيخة الرباط الناصري بالسفح، ومشيخة المالكية، وعرض عليه القضاء فلم يقبل. توفي يوم الاثنين الرابع والعشرين من رجب بالرباط الناصري بقاسيون، ودفن بسفح قاسيون تجاه الناصرية وكانت جنازته حافلة جداً.

قاضي القضاة

يوسف ابن قاضي القضاة محيي الدين أبي الفضل يحيى بن محمد بن علي بن محمد بن يحيى بن علي بن عبد العزيز بن علي بن الحسين بن محمد بن عبد الرحمن بن أبان بن عثمان بن عفان القرشي الدمشقي المعروف بابن الزكي الشافعي، كان فاضلاً مبرزاً، وهو آخر من ولي القضاء من بني الزكي إلى يومنا هذا، ولد في سنة أربعين وسمع الحديث، توفي ليلة الاثنين حادي عشر ذي الحجة، ودفن بقاسيون، وتولّى بعده ابن الخوي شهاب الدين.

الشيخ [illegible]

يوسف بن محمد بن محمد بن عبد الله المصري ثم الدمشقي الشافعي الكاتب المعروف بابن المهتار، كان فاضلاً في الحديث والأدب، يكتب كتابة حسنة جداً، وتولّى مشيخة دار الحديث النورية، وقد سمع الكثير وانتفع الناس به وبكتابته، توفي عاشر ذي الحجة دفن بباب الفراديس.

الشاعر الأديب

شهاب الدين أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم بن محمد المعروف بابن الخيمي، كانت له مشاركة في علوم كثيرة، ويد طولى في النظم الرائق، الفائق جاوز الثمانين وقد تنازع هو ونجم الدين بن إسرائيل في قصيدة بائية[1] فتحاكما إلى ابن الفارض فأمرهما بنظم أبيات على وزنها فنظم كل منهما فأحسن، ولكن لابن الخيمي يد طولى عليه، وكذلك فعل ابن خلكان، وامتدحه على وزنها بأبيات حسان، وقد أطال ترجمته الجزري في كتابه، وفيها كانت وفاة.

---

(١) مطلعها:

يا مطلباً ليس لي في غيره أربُ   إليكَ آل التقصّي وانتهى الطلبُ

الحاج شرف الدين[1]

ابن مري، والد الشيخ محيي الدين النووي رحمه الله.

يعقوب بن عبد الحق

أبو يوسف المديني سلطان بلاد المغرب، خرج على الواثق بالله أبي دبوس فسلبه الملك بظاهر مراكش، واستحوذ على بلاد الأندلس والجزيرة الخضراء، في سنة ثمان وستين وستمائة، واستمرت أيامه إلى محرم هذه السنة، وزالت على يديه دولة الموحدين بها.

البيضاوي صاحب التصانيف

هو القاضي الإمام العلاّمة ناصر الدين عبد الله بن عمر الشيرازي، قاضيها وعالمها وعالم أذربيجان وتلك النواحي، مات بتبريز سنة خمس وثمانين وستمائة. ومن مصنفاته المنهاج في أصول الفقه، وهو مشهور، وقد شرحه غير واحد، وله شرح التنبيه في أربعة مجلدات، وله الغاية القصوى في دراية الفتوى، وشرح المنتخب والكافية في المنطق، وله الطوالع وشرح المحصول أيضاً، وله غير ذلك من التصانيف المفيدة، وقد أوصى إلى القطب الشيرازي أن يدفن بجانبه بتبريز والله سبحانه أعلم.

ثم دخلت سنة ست وثمانين وستمائة

في أول المحرم ركبت العساكر صحبة نائب الشام حسام الدين لاجين إلى محاصرة صهيون وحصن برزية، فما نعمهم الأمير سيف الدين سنقر الأشقر، فلم يزالوا به حتى استنزلوه وسلمهم البلاد، وسار إلى خدمة السلطان الملك المنصور، فتلقاه بالإكرام والاحترام، وأعطاه تقدمة ألف فارس، ولم يزل معظماً في الدولة المنصورية إلى آخرها، وانقضت تلك الأحوال. وفي النصف من المحرم حكم القاضي جلال الدين الحنفي نيابة عن أبيه حسام الدين الرازي، وفي الثالث عشر من ربيع الأول قدم القاضي شهاب الدين محمد ابن القاضي شمس الدين بن الخليل الخوي من القاهرة على قضاء قضاة دمشق، وقرىء تقليده يوم الجمعة مستهل ربيع الآخر، واستمر بنيابة شرف الدين المقدسي وفي يوم الأحد ثالث شوال درس بالرواحية الشيخ صفي الدين الهندي، وحضر عنده القضاة والشيخ تاج الدين الفزاري، وعلم الدين الدويداري، وتولى قضاء قضاة القاهرة تقي الدين عبد الرحمن ابن بنت الأعز، عوضاً عن برهان الدين الخضر بن الحسن السنجاري، وقد كان وليها شهراً بعد ابن الخوي فاجتمع حينئذٍ إلى ابن بنت الأعز بين القضاء كله بالديار المصرية، وذلك في أوائل صفر منها.

وفيها استدعي سيف الدين السامري من دمشق إلى الديار المصرية ليشتري منه ربع جزر ماء الذي اشتراه من بنت الملك الأشرف موسى، فذكر لهم أنه وقفه، وكان المتكلم في ذلك

---

(١) كانت وفاته سنة ٦٨٢ هـ.

علم الدين الشجاعي، وكان ظالماً، وكان قد استنابه الملك المنصور بديار مصر، وجعل يتقرب إليه بتحصيل الأموال، ففتق لهم ناصر الدين محمد بن عبد الرحمن المقدسي أن السامري اشترى هذا من بنت الأشرف، وهي غير رشيدة، وأثبت سفهها على زين الدين بن مخلوف الجائر الجاهل، وأبطل البيع من أصله، واسترجع على السامري بمغل مدة عشرين سنة مائتي ألف درهم، وأخذوا منه حصة من الزنبقية قيمتها سبعين ألفاً وعشرة آلاف مكملة، وتركوه فقيراً على برد الديار، ثم أثبتوا رشدها واشتروا منها تلك الحصص بما أرادوه، ثم أرادوا أن يستدعوا بالدماشقة واحداً بعد واحد، ويصادرونهم، وذلك أنه بلغهم أن من ظلم بالشام لا يفلح وأن من ظلم بمصر أفلح وطالت مدته، وكانوا يطلبونهم إلى مصر أرض الفراعنة والظلم، فيفعلون معهم ما أرادوا.

وممن توفي فيها من الأعيان:

الشيخ الإمام العلامة

قطب الدين أبو بكر محمد ابن الشيخ الإمام أبي العباس أحمد بن علي بن محمد بن الحسن بن عبد الله بن أحمد الميموني القيسي النوري المصري، ثم المالكي الشافعي المعروف بالقسطلاني، شيخ دار الحديث الكاملية بالقاهرة، ولد سنة أربع عشرة وستمائة، ورحل إلى بغداد فسمع الكثير وحصل علوماً، وكان يفتي على مذهب الشافعي، وأقام بمكة مدة طويلة ثم صار إلى مصر فولي مشيخة دار الحديث، وكان حسن الأخلاق محبباً إلى الناس، توفي في آخر المحرم ودفن بالقرافة الكبرى، وله شعر حسن أورد منه ابن الجزري قطعة صالحة.

عماد الدين

محمد بن العباس الدنيسري الطبيب الماهر، والحاذق الشاعر، خدم الأكابر والوزراء وعمر ثمانين سنة وتوفي في صفر من هذه السنة بدمشق.

قاضي القضاة

برهان الدين الخضر بن الحسين بن علي السنجاري، تولى الحكم بديار مصر غير مرة، وولّي الوزارة أيضاً، وكان رئيساً وقوراً مهيباً، وقد باشر القضاء بعده تقي الدين ابن بنت الأعز.

شرف الدين سليمان بن عثمان

الشاعر المشهور، له ديوان. مات في صفر منها.

الشيخ الصالح عز الدين

عبد العزيز بن عبد المنعم بن الصقيل الحراني، ولد سنة أربع وتسعين وخمسمائة، وسمع الكثير، ثم استوطن مصر حتى توفي بها رابع عشر رجب، وقد جاوز التسعين، وقد سمع منه الحافظ علم الدين البرزالي لما رحل إلى مصر في سنة أربع وثمانين، وحكي عنه أنه شهد جنازة في بغداد فتبعهم نباش، فلما كان الليل جاء إلى ذلك القبر ففتح عن الميت، وكان الميت

شاباً قد أصابته سكتة، فلما فتح القبر نهض ذلك الشاب الميت جالساً فسقط النباش ميتاً في القبر، وخرج الشاب من قبره، ودفن فيه النباش. وحكي له قال: كنت مرة بقليوب وبين يدي صبرة قمح، فجاء زنبور فأخذ واحدة ثم ذهب بها، ثم جاء فأخذ أخرى ثم ذهب بها، ثم جاء فأخذ أخرى أربع مرات، قال فاتبعته فإذا هوَ يضع الحبة في فم عصفور أعمى بين تلك الأشجار التي هناك. قال: وحكى لي الشيخ عبد الكافي أنه شهد مرة جنازة فإذا عبد أسود معنا، فلما صلّى الناس عليها لم يصلّ، فلما حضرنا الدفن نظر إليّ وقال: أنا عمله، ثم ألقى نفسه في قبر ذلك الميت، قال فنظرت فلم أر شيئاً.

الحافظ أبو اليمن

أمين الدين عبد الصمد بن عبد الوهاب بن الحسن بن محمد بن الحسن بن عساكر الدمشقي ترك الرياسة والأملاك، وجاور بمكة ثلاثين سنة، مقبلاً على العبادة والزهادة، وقد حصل له قبول من الناس شاميهم ومصريهم وغيرهم، توفي بالمدينة النبوية في ثاني رجب منها.

ثم دخلت سنة سبع وثمانين وستمائة

فيها قدم الشجاعي من مصر إلى الشام بنية المصادرة لأرباب الأموال من أهل الشام وفي أواخر ربيع الآخر قدم الشيخ ناصر الدين عبد الرحمن المقدسي من القاهرة، على وكالة بيت المال ونظر الأوقاف، ونظر الخاص، ومعه تقاليد وخلع فتردد الناس إلى بابه وتكلم في الأمور وآذى الناس، وكانت ولايته بسفارة الأمير علم الدين الشجاعي المتكلم في الديار المصرية، توسل إليه بالشيخ شمس الدين الأيكي وبابن الوجيه الكاتب، وكانا عنده لهما صورة، وقد طلب جماعة من أعيان الدماشقة في أول هذه السنة إلى الديار المصرية فطولبوا بأموال كثيرة، فدافع بعضهم بعضاً، وهذا مما يخفف عقوبته من ظلمهم، وإلا فلو صبروا لعوجل الظالم بالعقوبة، ولزال عنهم ما يكرهون سريعاً. ولما قدم ابن المقدسي إلى دمشق كان يحكم بتربة أم الصالح، والناس يترددون إليه ويخافون شره، وقد استجد باشورة بباب الفراديس ومساطب باب الساعات للشهود، وجدد باب الجابية الشمالي ورفعه، وكان متواطئاً، وأصلح الجسر الذي تحته، وكذلك أصلح جسر باب الفراديس تحت السويقة التي جددها عليه من الجانبين. وهذا من أحسن ما عمله ابن المقدسي، وقد كان مع ذلك كثير الأذية للناس ظلوماً غشوماً، ويفتح على الناس أبواباً من الظلم لا حاجة إليها.

وفي عاشر جمادى الأولى قدم من الديار المصرية أيضاً قاضي القضاة حسام الدين الحنفي، والصاحب تقي الدين توبة التكريتي، وقاضي القضاة جمال الدين محمد بن سليمان الزواوي المالكي على قضاء المالكية بعد شغوره عن حاكم بدمشق ثلاث سنين ونصف، فأقام شعار المنصب ودرس ونشر المذهب وكان له سؤدد ورياسة.

وفي ليلة الجمعة رابع شعبان، توفي الملك الصالح علاء الدين ابن الملك المنصور

قلاوون بالسنطارية فوجد عليه[1] أبوه وجداً شديداً، وقد كان عهد إليه بالأمر من بعده وخطب له على المنابر من مدة سنين، فدفنه في تربته وجعل ولاية العهد من بعده إلى ابنه الأشرف خليل من بعد أبيه، وخطب له على المنابر من بعد ذكر أبيه يوم الجمعة، ودقت البشائر وزين البلد سبعة أيام، ولبس الجيش الخلع وركبوا، وأظهر الناس سروراً لشهامته، مع ما في قلوبهم على أبيه لأجل ظلم الشجاعي، وفي رمضان باشر حسبة دمشق شمس الدين بن السلعوسي عوضاً عن شرف الدين بن الشيزري وفيه توجه الشيخ بدر الدين بن جماعة إلى حطابة القدس بعد موت خطيبه قطب الدين، فباشر بعده تدريس القيمرية علاء الدين أحمد ابن القاضي تاج الدين ابن بنت الأعز. وفي شهر رمضان كبس نصراني وعنده مسلمة وهما يشربان الخمر في نهار رمضان، فأمر نائب السلطنة حسام الدين لاجين بتحريق النصراني فبذل في نفسه أموالاً جزيلة فلم يقبل منه، وأحرق بسوق الخيل وعمل الشهاب محمود في ذلك أبياتاً في قصيدة مليحة، وأما المرأة فجلدت الحد.

وممن توفي فيها من الأعيان.

الخطيب الإمام قطب الدين

أبو الزكا عبد المنعم بن يحيى بن إبراهيم بن علي بن جعفر بن عبد الله بن محمد بن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمٰن بن عوف، القرشي، الزهري، خطيب بيت المقدس أربعين سنة، وكان من الصلحاء الكبار محبوباً عند الناس، حسن الهيئة مهيباً عزيز النفس، يفتي الناس ويذكر التفسير من حفظه في المحراب بعد صلاة الصبح، وقد سمع الكثير وكان من الأخيار، ولد سنة ثلاث وستمائة، وتوفي ليلة الثلاثاء سابع رمضان عن أربع وثمانين سنة.

الشيخ الصالح العابد

إبراهيم بن معضاد بن شداد بن ماجد الجعبري: تقي الدين أبو إسحاق، أصله من قلعة جعبر، ثم أقام بالقاهرة، وكان يعظ الناس وكان الناس ينتفعون بكلامه كثيراً. توفي بالقاهرة يوم السبت الرابع والعشرين من المحرم، ودفن في تربته بالحسينية، وله نظم حسن، وكان من الصلحاء المشهورين رحمه الله تعالى.

الشيخ الصالح

ياسين بن عبد الله المقري الحجام: شيخ الشيوخ محيي الدين النواوي، وقد حج عشرين حجة، وكانت له أحوال وكرامات.

الخوندة غازية خاتون

بنت الملك المنصور قلاوون: زوجة الملك السعيد.

---

(١) وجد عليه: حزن عليه.

الحكيم الرئيس

علاء الدين بن أبي الحزم بن نفيس: شرح القانون لابن سينا وصنف الموجز وغيره من الفوائد وكان يكتب من حفظه، وكان اشتغاله على ابن الدخواري، وتوفي بمصر في ذي القعدة.

الشيخ بدر الدين

عبد الله ابن الشيخ جمال الدين بن مالك النحوي، شارح الألفية التي عملها أبوه، وهو من أحسن الشروح وأكثرها فوائد، وكان لطيفاً ظريفاً فاضلاً، توفي في يوم الأحد الثامن من المحرم، ودفن من الغد بباب الصغير. والله أعلم.

ثم دخلت سنة ثمان وثمانين وستمائة

فيها كان فتح مدينة طرابلس: وذلك أن السلطان قلاوون قدم بالجيوش المنصورة المصرية صحبته إلى دمشق، فدخلها في الثالث عشر من صفر، ثم سار بهم وبجيش دمشق وصحبته خلق كثير من المتطوعة، منهم القاضي نجم الدين الحنبلي، قاضي الحنابلة، وخلق من المقادسة وغيرهم، فنازل طرابلس يوم الجمعة مستهل ربيع الأول، وحاصرها بالمجانيق حصاراً شديداً، وضيقوا على أهلها تضيقاً عظيماً، ونصب عليها تسعة عشر منجنيقاً، فلما كان يوم الثلاثاء رابع جمادى الآخرة فتحت طرابلس في الساعة الرابعة من النهار عنوة، وشمل القتل والأسر جميع من فيها، وغرق كثير من أهل الميناء وسبيت النساء والأطفال، وأخذت الذخائر والحواصل، وقد كان لها في أيدي الفرنج من سنة ثلاث وخمسمائة إلى هذا التاريخ، وقد كانت قبل ذلك في أيدي المسلمين من زمان معاوية، فقد فتحها سفيان بن نجيب لمعاوية، فأسكنها معاوية اليهود، ثم كان عبد الملك بن مروان جدد عمارتها وحصّنها وأسكنها المسلمين، وصارت آمنة عامرة مطمئنة، وبها ثمار الشام ومصر، فإن بها الجوز والموز والثلج والقصب، والمياه جارية فيها تصعد إلى أماكن عالية، وقد كانت قبل ذلك ثلاث مدن متقاربة، ثم صارت بلداً واحداً، ثم حولت من موضعها كما سيأتي الآن. ولما وصلت البشارة إلى دمشق دقت البشائر وزينت البلاد وفرح الناس فرحاً شديداً ولله الحمد والمنّة.

ثم أمر السلطان الملك المنصور قلاوون أن تهدم البلد بما فيها من العمائر والدور والأسوار الحصينة التي كانت عليها، وأن يبنى على ميل منها بلدة غيرها أمكن منها وأحسن، ففعل ذلك، فهي هذه البلدة التي يقال لها طرابلس، ثم عاد إلى دمشق مؤيداً منصوراً مسروراً محبوراً، فدخلها يوم النصف من جمادى الآخرة، ولكنه فوض الأمور والكلام في الأموال فيها إلى علم الدين الشجاعي، فصادر جماعة وجمع أموالاً كثيرة، وحصل بسبب ذلك أذى الخلق، وبئس هذا الصنيع فإن ذلك تعجيل لدمار الظالم وهلاكه، فلم يغن عن المنصور ما جمع له الشجاعي من الأموال شيئاً، فإنه لم يعش بعد ذلك إلا اليسير حتى أخذه الله أخذ القرى وهي ظالمة، كما سيأتي. ثم سافر السلطان في ثاني شعبان بجيشه إلى الديار المصرية، فدخلها في

أواخر شعبان. وفيها فتحت قلاع كثيرة بناحية حلب: كركر، وتلك النواحي، وكسرت طائفة من التتر هناك، وقتل ملكهم خربندا نائب التتر على ملطية.

وفيها تولّى الحسبة بدمشق جمال الدين يوسف بن التقي توبة التكريتي ثم أخذها بعد شهور تاج الدين الشيرازي. وفيها وضع منبر عند محراب الصحابة بسبب عمارة كانت في المقصورة، فصلّى برهان الدين الاسكندري نائب الخطيب بالناس هناك مدة شهر، الجماعات والجمعات، ابتدؤوا ذلك من يوم الجمعة الثاني والعشرين من ذي الحجة.

وممن توفي فيها من الأعيان:

الشيخة فاطمة بنت الشيخ إبراهيم الرعيني

زوجة النجم بن إسرائيل، كانت من بيت الفقر، لها سلطنة وإقدام وترجمة وكلام في طريقة الحريرية وغيرهم، وحضر جنازتها خلق كثير، ودفنت عند الشيخ رسلان.

العالم ابن الصاحب

الشيخ الماجن، هو الشيخ الفاضل علم الدين أحمد بن يوسف بن عبد الله بن شكر، كان من بيت علم ورياسة، وقد درس في بعض المدارس، وكانت له وجاهة ورياسة، ثم ترك ذلك كله وأقبل على الحرفشة وصحبة الحرافيش والتشبه بهم في اللباس والطريقة، وأكل الحشيش واستعمله، كان من الفهم في الخلاعة والمجون والزوائد الرائقة الفائقة التي لا يلحق في كثير منها، وقد كان له أولاد فضلاء ينهونه عن ذلك فلم يلتفت إليهم، ولم يزل ذلك دأبه حتى توفي ليلة الجمعة الحادي والعشرين من ربيع الأول. ولما ولّي القضاة الأربعة كان ابن خالته تاج الدين ابن بنت الأعز مستقلاً في القضاء قبل ذلك، فقال له ابن الصاحب المذكور: ما مت حتى رأيتك صاحب ربع، فقال له: تسكت وإلا خليتهم يسقونك السم، فقال له: في قلة دينك تفعل، وفي قلة عقولهم يسمعون منك، وقال يمدح الحشيشة الخسيسة:

فِي خِمَارِ الحَشِيشِ مَعْنَى مَرَامِي ... يَا أُهَيْلَ العُقُولِ وَالأَفْهَامِ
حَرَمُوهَا عَنْ غَيْرِ عَقْلٍ وَنَقْلٍ ... وَحَرَامٌ تَحْرِيمُ غَيْرِ الحَرَامِ

وله أيضاً:

يَا نَفْسُ مِيلِي إِلَى التَّصَابِي ... فَاللَّهْوُ مِنْهُ الفَتَى يَعِيشْ
وَلا تَمَلِّي مِنْ سُكْرِ يَوْمٍ ... إِنْ أَعْوَزَ الخَمْرُ فَالحَشِيشْ

وله أيضاً:

جَمَعْتُ بَيْنَ الحَشِيشِ وَالخَمْرِ ... فَرُحْتُ لا أَهْتَدِي مِنَ السُّكْرِ
يَا مَنْ يُرِينِي لِبَابِ مَدْرَسَتِي ... يَرْبَحُ وَاللهِ غَايَةَ الأَجْرِ

وقال يهجو الصاحب بهاء الدين بن الحنا.

اقْعُدْ بِهَا وَتَهَنَّا ... لا بُدَّ أَنْ تَتَعَنَّى

تَـكْـتُـبُ عَـلِـيُّ بْـنُ مُـحَـمَّـدْ مِـنْ أَيْـنَ لَـكَ يَـا بْـنَ حَـنَّـا

فاستدعاه فضربه ثم أمر به إلى المارستان فمكث فيه سنة ثم أطلق.

شمس الدين الأصبهاني

شارح المحصول: محمد بن محمود بن محمد بن عباد السلماني العلاّمة، قدم دمشق بعد الخمسين وستمائة، وناظر الفقهاء واشتهرت فضائله، وسمع الحديث وشرح المحصول للرازي، وصنف القواعد في أربعة فنون، أصول الفقه، وأصول الدين، والمنطق، والخلاف. وله معرفة جيدة في المنطق والنحو والأدب، وقد رحل إلى مصر فدرس بمشهد الحسين والشافعي وغيرهما، ورحل إليه الطلبة، توفي في العشرين من رجب في القاهرة عن ثنتين وسبعين سنة.

الشمس محمد بن العفيف

سليمان بن علي بن عبد الله بن علي التلمساني، الشاعر المطبق، كانت وفاته في حياة أبيه فتألم له ووجد عليه وجداً شديداً، ورثاه بأشعار كثيرة، توفي يوم الأربعاء الرابع عشر من رجب، وصلّي عليه بالجامع، ودفن بالصوفية. فمن رائق شعره قوله:

وَإِنَّ ثَـنَـايَـاهُ نُـجُـومٌ لِـبَـدْرِهِ وَهُـنَّ لِـعِـقْـدِ الـحُـسْـنِ فِـيـهِ فَـرَائِـدُ
وَكَـمْ يَـتَـجَـافَـى خَـصْـرُهُ وَهْـوَ نَـاحِـلٌ وَكَـمْ يَـتَـحَـلَّـى ثَـغْـرُهُ وَهْـوَ بَـارِدُ

وله يذم الحشيشة:

مَـا لِـلْـحَـشِـيـشَـةِ فَـضْـلٌ عِـنْـدَ آكِـلِـهَـا لٰـكِـنَّـهُ غَـيْـرُ مَـصْـرُوفٍ إِلَـى رَشَـدِهْ
صَـفْـرَاءُ فِـي وَجْـهِـهِ خَـضْـرَاءُ فِـي فَـمِـهِ حَـمْـرَاءُ فِـي عَـيْـنِـهِ سَـوْدَاءُ فِـي كَـبِـدِهْ

ومن شعره أيضاً:

بَـدَا وَجْـهُـهُ مِـنْ فَـوْقِ ذَابِـلِ خَـدِّهِ وَقَـدْ لاحَ مِـنْ سُـودِ الـذَّوَائِـبِ فـي جُـنْـحِ
فَقُلْتُ عَـجِـيبٌ كَـيْفَ لَـمْ يَـذْهَـبِ الدُّجَى وَقَـدْ طَـلَـعَـتْ شَـمْـسُ الـنَّـهَـار عَـلَـى رُمْـحِ

وله من جملة أبيات.

مَـا أَنْـتَ عِـنْـدِي وَالـقَـضِـيـبُ الـلَّـدْنُ فِـي حَـدٍّ سِـوَى
هٰـذَاكَ حَـرَّكَـهُ الـهَـوَاءُ وَأَنْـتَ حَـرَّكْـتَ الـهَـوَى

الملك المنصور شهاب الدين

محمود ابن الملك الصالح إسماعيل بن العادل، توفي يوم الثلاثاء ثامن عشر شعبان، وصلّي عليه بالجامع، ودفن من يومه بتربة جده، وكان ناظرها، وقد سمع الحديث الكثير، وكان يحب أهله، وكان فيه لطف وتواضع.

الشيخ فخر الدين أبو محمد

عبد الرحمٰن بن يوسف البعلبكي الحنبلي، شيخ دار الحديث النورية ومشهد ابن عروة،

وشيخ الصدرية، كان يفتي ويفيد الناس مع ديانة وصلاح وزهادة وعبادة، ولد سنة إحدى عشرة وستمائة، وتوفي في رجب منها. [رحمه الله تعالى والله اعلم](١)

ثم دخلت سنة تسع وثمانين وستمائة

فيها كانت وفاة الملك المنصور قلاوون، وكان الخليفة الحاكم العباسي، ونائب مصر حسام الدين طرقطاي، ونائب الشام حسام الدين لاجين، وقضاة الشام شهاب الدين بن الخوي الشافعي، وحسام الدين الحنفي، ونجم الدين ابن شيخ الجبل الحنبلي، وجمال الدين الزواوي المالكي، وجاء البريد يطلب شمس الدين سنقر الأشقر إلى الديار المصرية، فأكرمه السلطان وقواه وشديده وأمره باستخلاص الأموال، وزاده مشد الجيوش، والكلام على الحصون إلى البيرة وكختا وغير ذلك، فقويت نفسه وزاد تجبره ولكن كان يرجع إلى مروءة وستر وينفع من ينتمي إليه، وذلك مودة في الدنيا في أيام قلائل، وفي جمادى الآخرة جاء البريد بالكشف على ناصر الدين المقدسي وكيل بيت المال، وناظر الخاص والأوقاف، فظهرت عليه مخازي من أكل الأوقاف وغيرها، فرسم عليه بالعذراوية وطولب بتلك الأموال وضيق عليه، وعمل فيه سيف الدين أبو العباس السامري قصيدة يتشفى فيها لما كان أسدى إليه من الظلم والإيذاء، مع أنه راح إليه وتغمم له وتمازحا هنالك، ثم جاء البريد بطلبه إلى الديار المصرية فخاف النواب من ذهابه وفضوله وشره، فأصبح يوم الجمعة ثالث شعبان وهو مشنوق بالمدرسة العذراوية، فطلبت القضاة والشهود فشاهدوه كذلك، ثم جهز وصلّي عليه بعد الجمعة ودفن بمقابر الصوفية عند أبيه، وكان مدرساً بالرواحية وتربة أم الصالح، مع الوكالتين والنظر.

وجاء البريد بعمل مجانيق لحصار عكا فركب الأعسر إلى أراضي بعلبك لما هنالك من الأخشاب العظيمة التي لا يوجد مثلها بدمشق، وهي تصلح لذلك، فكثرت الجنايات والجبايات والسخر، وكلفوا الناس تكليفاً كثيراً، وأخذوا أخشاب الناس، وحملت إلى دمشق بكلفة عظيمة وشدة كثيرة، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفاة الملك المنصور قلاوون

بينما الناس في هذا الهم والمصادرات وأمثال ذلك إذ وردت بريدية فأخبروا بوفاة الملك المنصور يوم السبت سادس ذي القعدة من هذه السنة، بالمخيم ظاهر القاهرة، ثم حمل إلى قلعة الجبل ليلاً وجلس بعده ولده الملك الأشرف خليل بولاية العهد له، وحلف له جميع الأمراء، وخطب له على المنابر، وركب في أبهة الملك، والعساكر كلهم في خدمته مشاة من قلعة الجبل إلى الميدان الأسود الذي هو سوق الخيل، وعلى الأمراء والمقدمين الخلع، وعلى القضاة والأعيان، ولما جاءت الأخبار بذلك حلف له الأمراء بالشام، وقبض على حسام الدين طرقطاي

(١) سقط في ط.

نائب أبيه وأخذ منه أموالاً جزيلة أنفق منها على العساكر.

وفيها ولّي خطابة دمشق زين الدين عمر بن مكي بن المرحل عوضاً عن جمال الدين بن عبد الكافي وكان ذلك بمساعدة الأعسر، وتولى نظر الجامع الرئيس وجيه الدين بن المنجي الحنبلي، عوضاً عن ناصر الدين بن المقدسي، وثمر وقفه وعمره وزاد مائة وخمسين ألفاً. وفيها احترقت دار صاحب حماة، وذلك أنه وقع فيها نار في غيبته فلم يتجاسر أحد يدخلها، فعملت النار فيها يومين فاحترقت واحترق كل ما فيها.

وفي شوال درس بتربة أم الصالح بعد ابن المقدسي القاضي إمام الدين القونوي، وفيها باشر الشرف حسين بن أحمد ابن الشيخ أبي عمر قضاء الحنابلة عوضاً عن ابن عمه نجم الدين ابن شيخ الجبل، عن مرسوم الملك المنصور قبل موته. وحج بالناس في هذه السنة من الشام الأمير بدر الدين بكتوت الدوباسي، وحج قاضي القضاة شهاب الدين بن الخوي، وشمس الدين بن السلعوس ومقدم الركب الأمير عتبة، فتوهم منه أبو نمى، وكان بينهما عداوة، فأغلق أبواب مكة ومنع الناس من دخولها فأحرق الباب وقتل جماعة ونهب بعض الأماكن، وجرت خطوب فظيعة، ثم أرسلوا القاضي ابن الخوي ليصلح بين الفريقين، ولما استقر عند أبي نمى رحل الركوب وبقي هو في الحرم وحده وأرسل معه أبو نمى من ألحقه بهم سالماً معظماً. وجاء الخبر بموت المنصور إلى الناس وهم بعرفات وهذا شيء عجيب. وجاء كتاب يستحث الوزير ابن السلعوس في المسير إلى الديار المصرية، وبين الأسطر بخط الملك الأشرف: يا شقير يا وجه الخير احضر لتستلم الوزارة. فساق إلى القاهرة فوصلها يوم الثلاثاء عاشر المحرم، فتسلم الوزارة كما قال السلطان.

وممن توفي فيها من الأعيان.

السلطان الملك المنصور قلاوون

ابن عبد الله التركي الصالحي الألفي، اشتراه الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب، بألفي دينار، وكان من أكابر الأمراء عنده وبعده، ولما تزوج الملك السعيد بن الظاهر بابنته غازية خاتون، عظم شأنه جداً عند الظاهر، وما زال يترفع في الدولة حتى صار أتابك سلامش بن الظاهر، ثم رفعه من البين واستقل بالملك في سنة أربع وثمانين، وفتح طرابلس سنة ثمان وثمانين، وعزم على فتح عكا وبرز إليها فعاجلته المنية في السادس والعشرين من ذي القعدة، ودفن بتربته بمدرسته الهائلة التي أنشأها بين القصرين، التي ليس بديار مصر ولا بالشام مثلها. وفيها دار حديث ومارستان. وعليها أوقاف دارة كثيرة عظيمة، مات عن قريب من ستين سنة، وكانت مدة ملكه اثنتي عشرة سنة، وكان حسن الصورة مهيباً، عليه أبهة السلطنة ومهابة الملك، تام القامة حسن اللحية عالي الهمة شجاعاً وقوراً سامحه الله.

الأمير حسام الدين طرقطاي

نائب السلطنة المنصورية بمصر، أخذه الأشرف فسجنه في قلعة الجبل، ثم قتله وبقي

ثمانية أيام لا يدرى به، ثم لف في حصير وألقي على مزبلة، وحزن عليه بعض الناس، فكفن كآحاد الفقراء بعد النعيم الكثير، والدنيا المتسعة، والكلمة النافذة، وقد أخذ السلطان من حواصله ستمائة ألف دينار وسبعين قنطاراً بالمصري فضة، ومن الجواهر شيئاً كثيراً، سوى الخيل والبغال والجمال والأمتعة والبسط الجياد، والأسلحة المثمنة. وغير ذلك من الحواصل والأملاك بمصر والشام، وترك ولدين أحدهما أعمى، وقد دخل هذا الأعمى على الأشرف فوضع المنديل على وجهه وقال شيء لله وذكر له أن لهم أياماً لا يجدون شيئاً يأكلونه، فرق له وأطلق لهم الأملاك يأكلون من ريعها، فسبحان الله المتصرف في خلقه بما يشاء، يعز من يشاء ويذل من يشاء.

الشيخ الإمام العلاّمة

رشيد الدين عمر بن إسماعيل بن مسعود الفارقي الشافعي، مدرس الظاهرية، توفي بها وقد جاوز التسعين، وجد مخنوقاً في المحرم، ودفن بالصوفية، وقد سمع الحديث وكان منفرداً في فنون من العلوم كثيرة، منها علم النحو والأدب وحل المترجم والكتابة والإنشاء وعلم الفلك والنجوم وضرب الرمل والحساب وغير ذلك، وله نظم حسن.

الخطيب جمال الدين أبو محمد

عبد الكافي بن عبد الملك بن عبد الكافي الربعي، توفي بدار الخطابة وحضر الناس الصلاة عليه يوم السبت سلخ جمادى الأولى، وحمل إلى السفح فدفن إلى جانب الشيخ يوسف الفقاعي.

فخر الدين أبو الظاهر إسماعيل

ابن عز القضاة أبي الحسن علي بن محمد بن عبد الواحد بن أبي اليمن، الشيخ الزاهد المتقلل من متاع الدنيا، توفي في العشرين من رمضان، وصلّي عليه في الجامع، ودفن بتربة بني الزكي بقاسيون محبة في محيي الدين بن عربي، فإنه كان يكتب من كلامه كل يوم ورقتين، ومن الحديث ورقتين وكان مع هذا يحسن الظن به، وكان يصلّي مع الأئمة كلهم بالجامع، وقد أخبر عنه بعض العلماء أنه رأى بخطه.

وَفِـي كُـلِّ شَـيْءٍ لَـهُ آيَـةٌ تَـدُلُّ عَـلَـى أَنَّـهُ عَـيْـنُـهُ

وقد صحح على «عينه» وإنما الصحيح المروي عمن أنشد هذا الشعر.

* تَـدُلُّ عَـلَـى أَنَّـهُ وَاحِـدُ *

وله شعر فمنه:

وَالنَّهْرُ مُذْ جنَّ فِي الغُصُونِ هَوًى فَرَاحَ فِي قَلْبِهِ يُمَثِّلُهَا

فَغَارَ مِنْهُ النَّسِيمُ عَاشِقُهَا فَجَاءَ عَنْ وَصْلِهِ يُمَيِّلُهَا

وله أيضاً:

لـمَّـا تَـحَـقَّـقَ بِـالإمْـكَـانِ فَـوْقَـكُـمُ وَقَـدْ بَـدَا حُـكْـمُـهُ فِـي عَـالَـمِ الـصُّـوَرِ
فَـمَـيَّـزَ الـجَـمْـعَ عَـنْـهُ وَهْـوَ مُـتَّـحِـدٌ فَـلاحَ فَـرْقُـكُـمْ فِـي عَـالِـمِ الـصُّـوَرِ

وله:

لِـي سَـادَةٌ لا أَرَى سِـوَاهُـمُ هُـمُ عَـيْـنُ مَـعْـنَـايَ وَعَـيْـنُ جَـوْفِـي
لَـقَـدْ أَحَـاطُـوا بِـكُـلِّ جُـزْءٍ مِـنِّـي وَعَـزُّوا عَـنْ دَرْكِ طَـرْفِـي
هُـمْ نَـظَـرُوا فِـي عُـمُـومِ فَـقْـرِي وَطُـولِ ذُلِّـي وَفَـرْطِ ضَـعْـفِـي
فَـعَـامَـلُـونِـي بِـبَـخْـتِ جُـودٍ وَصِـرْفِ بِـرٍّ وَمَـحْـضِ لُـطْـفِ
فَـلا تَـلُـمْ إِنْ جَـرَرْتُ ذَيْـلِـي فَـخْـراً بِـهِـمْ أَوْ ثَـنَـيْـتُ عِـطْـفِـي

وله:

مَـوَاهِـبُ ذِي الـجَـلالِ لَـدَيَّ تَـتْـرَى فَـقَـدْ أَخْـرَسَـتْـنِـي وَنَـطَـقْـنَ شُـكْـرَا
فَـنُـعْـمَـى إِثْـرَ نُـعْـمَـى إِثْـرَ نُـعْـمَـى وَبُـشْـرَى بَـعْـدَ بُـشْـرَى بَـعْـدَ بُـشْـرَى
لَـهَـا بَـدْءٌ وَلَـيْـسَ لَـهَـا انْـتِـهَـاءٌ يَـعُـمُّ مَـزِيـدُهَـا دُنْـيَـا وَأُخْـرَى

الحاج طيبرس بن عبد الله

علاء الدين الوزيري: صهر الملك الظاهر، كان من أكابر الأمراء ذوي الحل والعقد، وكان ديناً كثير الصدقات، له خان بدمشق أوقفه، وله في فكاك الأسرى وغير ذلك، وأوصى عند موته بثلاثمائة ألف تصرف على الجند بالشام ومصر، فحصل لكل جندي خمسون درهماً، وكانت وفاته في ذي الحجة، ودفن بتربته بسفح المقطم.

قاضي القضاة

نجم الدين أبو العباس ابن الشيخ شمس الدين بن أبي عمر المقدسي، توفي ثاني عشر رجب بسوا، وكان فاضلاً بارعاً خطيباً مدرساً بأكثر المدارس، وهو شيخ الحنابلة وابن شيخهم، وتولى بعده القضاء الشيخ شرف الدين حسين بن عبد الله بن أبي عمر، والله أعلم.

ثم دخلت سنة تسعين وستمائة من الهجرة

فيها فتحت عكا وبقية السواحل التي كانت بأيدي الفرنج من مدد متطاولة، ولم يبق لهم فيها حجر واحد ولله الحمد والمنة.

استهلت هذه السنة والخليفة الحاكم بأمر الله أبو العباس العباسي، وسلطان البلاد الملك الأشرف خليل بن المنصور قلاوون، ونائبه بمصر وأعمالها بدر الدين بيدرا، ووزيره ابن السلعوس الصاحب شمس الدين، ونائبه بالشام حسام الدين لاجين السلحداري المنصوري، وقضاة الشام هم المذكورون في التي قبلها، وصاحب اليمن الملك المظفر شمس الدين

يوسف بن المنصور نور الدين عمر بن علي بن رسول، وصاحب مكة نجم الدين أبو نمى محمد بن إدريس بن علي بن قتادة الحسيني، وصاحب المدينة عز الدين جماز بن شيحة الحسيني، وصاحب الروم غياث الدين كنجسر، وهو ابن ركن الدين قلج أرسلان السلجوقي، وصاحب حماة تقي الدين محمود ابن الملك المنصور ناصر الدين محمد ابن الملك المظفر تقي الدين محمد، وسلطان بلاد العراق وخراسان وتلك النواحي أرغون بن أبغا بن هولاكو بن تولي بن جنكيزخان.

وكان أول هذه السنة يوم الخميس وفيه تصدق عن الملك المنصور بأموال كثيرة جداً من الذهب والفضة، وأنزل السلطان إلى تربته في ليلة الجمعة فدفن بها تحت القبة، ونزل في قبره بدر الدين بيدرا، وعلم الدين الشجاعي، وفرقت صدقات كثيرة حينئذٍ، ولما قدم الصاحب شمس الدين بن السلعوس من الحجاز خلع عليه للوزارة، وكتب تقليده بها القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر كاتب الانشا بيده، وركب الوزير في أبهة الوزارة إلى داره، وحكم. ولما كان يوم الجمعة قبض على شمس الدين سنقر الأشقر وسيف الدين بن جرمك الناصري، وأفرج عن الأمير زين الدين كتبغا وكان قد قبض عليه مع طرقطاي، ورد عليه أقطاعه، وأعيد التقي توبة إلى وزارة دمشق مرة أخرى. وفيها أثبت ابن الخوي محضراً يتضمن أن يكون تدريس الناصرية للقاضي الشافعي وانتزعها من زين الدين الفارقي.

ذكر فتح عكا وبقية السواحل

وفيها جاء البريد إلى دمشق في مستهل ربيع الأول لتجهيز آلات الحصار لعكا، ونودي في دمشق الغزاة في سبيل الله إلى عكا، وقد كان أهل عكا في هذا الحين عدواً على من عندهم من تجار المسلمين فقتلوهم وأخذوا أموالهم. فأبرزت المناجيق إلى ناحية الجسورة، وخرجت العامة والمتطوعة يجرون في العجل حتى الفقهاء والمدرسين والصلحاء، وتولى سياقتها الأمير علم الدين الدويداري، وخرجت العساكر بين يدي نائب الشام، وخرج هو في آخرهم، ولحقه صاحب حماة الملك المظفر وخرج الناس من كل صوب، واتصل بهم عسكر طرابلس، وركب الأشرف من الديار المصرية بعساكره قاصداً عكا، فتوافت الجيوش هنالك، فنازلها يوم الخميس رابع ربيع الآخر ونصبت عليها المجانيق من كل ناحية يمكن نصبها عليها، واجتهدوا غاية الاجتهاد في محاربتها والتضييق على أهلها، واجتمع الناس بالجوامع لقراءة صحيح البخاري، فقرأه الشيخ شرف الدين الفزاري، فحضر القضاة والفضلاء والأعيان. وفي أثناء محاصرة عكا وقع تخبيط من نائب الشام حسام الدين لاجين، فتوهم أن السلطان يريد مسكه، وكان قد أخبره بذلك الأمير الذي يقال له أبو خرص، فركب هارباً فرده علم الدين الدويداري بالمسابة وجاء به إلى السلطان فطيب قلبه وخلع عليه ثم أمسكه بعد ثلاثة أيام وبعثه إلى قلعة صفد واحتاط على حواصله، ورسم على أستاذ داره بدر الدين بكداش، وجرى ما لا يليق وقوعه هنالك، إذ الوقت وقت عسر وضيق وحصار. وصمم السلطان على الحصار فرتب الكوسات ثلاثمائة حمل، ثم زحف يوم الجمعة سابع عشر جمادى الأولى ودقت الكوسات جملة واحدة عند طلوع الشمس،

وطلع المسلمون على الأسوار مع طلوع الشمس، ونصبت السناجق الإسلامية فوق أسوار البلد، فولت الفرنج عند ذلك الأدبار، وركبوا هاربين في مراكب التجار، وقتل منهم عدد لا يعلمه إلا الله تعالى، وغنموا من الأمتعة والرقيق والبضائع شيئاً كثيراً جداً، وأمر السلطان بهدمها وتخريبها، بحيث لا ينتفع بها بعد ذلك، فيسّر الله فتحها نهار جمعة كما أخذتها الفرنج من المسلمين في يوم الجمعة، وسلّمت صور وصيدا قيادتهما إلى الأشرف، فاستوثق الساحل للمسلمين، وتنظف من الكافرين، وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين.

وجاءت البطاقة إلى دمشق بذلك ففرح المسلمون، ودقت البشائر في سائر الحصون، وزينت البلاد ليتنزه فيها الناظرون والمتفرجون، وأرسل السلطان إلى صور أميراً فهدم أسوارها وعفا آثارها. وقد كان لها في أيدي الفرنج من سنة ثمان عشرة وخمسمائة. وأما عكا فقد كان الملك الناصر يوسف بن أيوب أخذها من أيدي الفرنج، ثم إن الفرنج جاؤوا فأحاطوا بها بجيوش كثيرة، ثم جاء صلاح الدين ليمانعهم عنها مدة سبعة وثلاثين شهراً، ثم آخر ذلك استملكوها وقتلوا من كان فيها من المسلمين، كما تقدم ذلك.

ثم إن السلطان الملك الأشرف خليل بن المنصور قلاوون سار من عكا قاصداً دمشق في أبهة الملك وحرمة وافرة، وفي صحبته وزيره ابن السلعوس والجيوش المنصورة، وفي هذا اليوم استناب بالشام الأمير علم الدين سنجر الشجاعي، وسكن بدار السعادة، وزيد في إقطاعه حرستا ولم تقطع لغيره، وإنما كانتْ لمصالح حواصل القلعة، وجعل له في كل يوم ثلاثمائة على دار الطعام، وفوض إليه أن يطلق من الخزانة ما يريد من غير مشاورة ولا مراجعة، وأرسله السلطان إلى صيدا لأنه كان قد بقي بها برج عصي، ففتحه ودقت البشائر بسببه، ثم عاد سريعاً إلى السلطان فودعه، وسار السلطان نحو الديار المصرية في أواخر رجب، وبعثه إلى بيروت ليفتحها فسار إليها ففتحها في أقرب وقت، وسلمت عثلية وانطرطوس وجبيل. ولم يبقَ بالسواحل ولله الحمد معقل للفرنج إلا بأيدي المسلمين، وأراح الله منهم البلاد والعباد، ودخل السلطان إلى القاهرة في تاسع شعبان في أبهة عظيمة جداً، وكان يوماً مشهوداً. وأفرج عن بدر الدين بيسري بعد سجن سبع سنين. ورجع علم الدين سنجر الشجاعي نائب دمشق إلى دمشق في سابع عشرين الشهر المذكور، وقد نظف السواحل من الفرنج بالكلية، ولم يبق لهم بها حجر. وفي رابع رمضان أفرج عن حسام الدين لاجين من قلعة صفد ومعه جماعة أمراء، ورد عليهم إقطاعاتهم، وأحسن إليهم وأكرمهم.

وفي أوائل رمضان طلب القاضي بدر الدين بن جماعة من القدس الشريف وهو حاكم به، وخطيب فيه، على البريد إلى الديار المصرية فدخلها في رابع عشره، وأفطر ليلتئذٍ عند الوزير ابن السلعوس وأكرمه جداً واحترمه، وكانت ليلة الجمعة، فصرح الوزير بعزل تقي الدين ابن بنت الأعز وتولية ابن جماعة بالديار المصرية قضاء القضاة، وجاء القضاة إلى تهنئته وأصبح الشهود في خدمته، ومع القضاء خطابة الجامع الأزهر، وتدريس الصالحية، وركب في الخلعة والطرحة ورسم لبقية القضاة أن يستمروا بلبس الطرحات، وذهب فخطب بالجامع الأزهر،

وانتقل إلى المدرسة الصالحية ودرس بها في الجمعة الأخرى وكان درساً حافلاً، ولما كان يوم الجمعة رسم السلطان للحاكم بأمر الله أن يخطب هو بنفسه الناس يومئذٍ وأن يذكر في خطبته أنه قد ولّى السلطنة للأشرف خليل بن المنصور، فلبس خلعة سوداء وخطب الناس بالخطبة التي كان خطب لها في الدولة الظاهرية، وكانت من إنشاء الشيخ شرف الدين المقدسي في سنة ستين وستمائة، فيكون بين الخطبتين أزيد من ثلاثين سنة، وذلك بجامع قلعة الجبل، ثم استمر ابن جماعة يخطب بالقلعة عند السلطان، وكان يستنيب في الجامع الأزهر.

وأما ابن بنت الأعز فناله من الوزير إخراق ومصادرة وإهانة بالغة، ولم يترك له من مناصبه شيئاً، وكان بيده سبعة عشر منصباً، منها القضاء والخطابة ونظر الأحباس ومشيخة الشيوخ، ونظر الخزانة وتداريس كبار، وصادره بنحو من أربعين ألف، غير مراكبه وأشياء كثيرة، ولم يظهر منه استكانة له ولا خضوع، ثم عاد فرضي عنه وولاّه تدريس الشافعي، وعملت ختمة عند قبر الملك المنصور في ليلة الاثنين رابع ذي القعدة وحضرها القضاة والأمراء، ونزل السلطان ومعه الخليفة إليهم وقت السحر، وخطب الخليفة بعد الختمة خطبة بليغة، حرض الناس على غزو بلاد العراق واستنقاذها من أيدي التتر، وقد كان الخليفة قبل ذلك محتجباً فرآه الناس جهرة، وركب في الأسواق بعد ذلك. وعمل أهل دمشق ختمة عظيمة بالميدان الأخضر إلى باب القصر الأبلق، فقرئت ختمات كثيرة ثم خطب الناس بعدها الشيخ عز الدين القاروني، ثم ابن البزوري، ثم تكلم من له عادة بالكلام وجاءت البريدية بالتهيؤ لغزو العراق، ونودي في الناس بذلك، وعملت سلاسل عظام بسبب الجسورة على دجلة بغداد، وحصلت الأجور على المقصود وإن لم يقع المقصود، وحصل لبعض الناس أذى بسبب ذلك.

وفيها نادى نائب الشام الشجاعي أن لا تلبس امرأة عمامة كبيرة، وخرب الأبنية التي على نهر بانياس والجداول كلها والمسالح والسقايات التي على الأنهار كلها، وأخرب جسر الزلابية وما عليه من الدكاكين، ونادى أن لا يمشي أحد بعد العشاء الآخرة، ثم أطلق لهم هذه فقط، وأخرب الحمام الذي كان بناه الملك السعيد ظاهر باب النصر، ولم يكن بدمشق أحسن منه، ووسع الميدان الأخضر من ناحية الشمال مقدار سدسه، ولم يترك بينه وبين النهر إلا مقداراً يسيراً، وعمل هو بنفسه والأمراء بحيطانه.

وفيها حبس جمال الدين آقوش الأفرم المنصوري وأميراً آخر معه في القلعة.

وفيها حمل الأمير علم الدين الدويداري إلى الديار المصرية مقيداً. وقد نظم الشيخ شهاب الدين محمود قصيدة في فتح عكا.

الـحَـمْـدُ لله زَالَـتْ دَوْلَـةُ الـصُّـلُـبِ ... وَعَزَّ بِـالـتُّـرْكِ دِينُ الـمُـصْـطَفَى الـعَـرَبِي

هٰـذا الَّـذِي كَـانَـتِ الآمَـالُ لَـوْ طَـلَـبَـتْ ... رُؤْيَـاهُ فِـي الـنَّـوْمِ لاسْـتَـحْـيَـتْ مِـنَ الـطَّـلَبِ

مـا بَـعْـدَ عَـكَّـا وَقَـدْ هُـدَّتْ قَـوَاعِـدُهَـا ... فِـي الْـبَـحْـرِ لِـلـتُّـرْكِ عِـنْـدَ الـبَـرِّ مِـنْ أَرَبِ

لَـمْ يَـبْـقَ مِـنْ بَـعْـدِهـا لِـلْـكُـفْـرِ إِذْ خَـرِبَـتْ ... فِـي الـبَـحْـرِ وَالـبَـرِّ ما يُـنْـجِـي سِـوَى الـهَـرَبِ

أُمُّ الحُرُوبُ فَكَمْ قَدْ أَنْشَأَتْ فِتَناً شَابَ الوَلِيدُ بِهَا هَوْلاً وَلَمْ تَشِبِ
يا يَوْمَ عَكَّا لَقَدْ أَنْسَيْتَ ما سَبَقَتْ بِهِ الفُتُوحُ وَمَا قَدْ خُطَّ فِي الكُتُبِ
لَمْ يَبْلُغِ النُّطْقُ حَدَّ الشُّكْرِ فِيكَ فَمَا عَسَى يَقُومُ بِهِ ذُو الشِّعْرِ وَالأَدَبِ
أَغْضَبْتَ عُبَّادَ عِيسَى إِذْ أَبَدْتَهُمُ للهِ أَيُّ رِضَى فِي ذَلِكَ الغَضَبِ
وَأَشْرَفَ المُصْطَفَى الهَادِي البَشِيرُ عَلَى مَا أَسْلَفَ الأَشْرَفُ السُّلْطَانُ مِنْ قُرَبِ
فَقَرَّ عَيْناً لِهٰذَا الفَتْحِ وَابْتَهَجَتْ بِبِشْرِهِ الكَعْبَةُ الغَرَّاءُ فِي الحُجُبِ
وَسَارَ فِي الأَرْضِ سَيْراً قَدْ سَمِعْتُ بِهِ فَالبِرُّ فِي طَرَبٍ وَالبَحْرُ فِي حَرَبِ

وهي طويلة جداً، وله ولغيره في فتح عكا أشعار كثيرة. ولما رجع البريد أخبر بأن السلطان لما عاد إلى مصر خلع على وزيره ابن السلعوس جميع ملابسه التي كانت عليه، ومركوبه الذي كان تحته، فركبه ورسم له بثمانية وسبعين ألفاً من خزانة دمشق، ليشتري له بها قرية قرحتا من بيت المال.

وفي هذه السنة انتهت عمارة قلعة حلب بعد الخراب الذي أصابها من هولاكو وأصحابه عام ثمانية وخمسين. وفيها في شوال شرع في عمارة قلعة دمشق وبناء الدور السلطانية والطارمة والقبة الزرقاء، حسب ما رسم به السلطان الأشرف خليل بن قلاوون لنائبه علم الدين سنجر الشجاعي. وفيها في رمضان أعيد إلى نيابة القلعة الأمير أرجواش وأعطى إقطاعات سنية. وفيها أرسل الشيخ الرجيحي من ذرية الشيخ يونس مضيقاً عليه محصوراً إلى القاهرة، وفيها درس عز الدين القاروني بالمدرسة النجيبية عوضاً عن كمال الدين بن خلكان، وفي ذلك اليوم درس نجم الدين بن مكي بالرواحية عوضاً عن ناصر الدين بن المقدسي، وفيه درس كمال الدين الطبيب بالمدرسة الدخوارية الطبية، وفي هذا الشهر درس الشيخ جلال الدين الخناوي بالخاتونية البرانية، وجمال الدين بن الناصر بقي بالفتحية، وبرهان الدين الاسكندري بالقوصية التي بالجامع، والشيخ نجم الدين الدمشقي بالشريفية عند حارة الغرباء. وفيها أعيدت الناصرية إلى الفارقي وفيه درس بالأمينية القاضي نجم الدين بن صصري بعد ابن الزملكاني، وأخذت منه العادلية الصغيرة لكمال الدين بن الزملكاني.

وممن توفي فيها من الأعيان:

أرغون بن أبغا ملك التتار

كان شهماً شجاعاً سفاكاً للدماء، قتل عمه السلطان أحمد بن هولاكو، فعظم في أعين المغول فلما كان في هذه السنة مات من شراب شربه فيه سم، فاتهمت المغول اليهود به ـ وكان وزيره سعد الدولة بن الصفي يهودياً ـ فقتلوا من اليهود خلقاً كثيراً، ونهبوا منهم أموالاً عظيمة جداً في جميع مدائن العراق، ثم اختلفوا فيمن يقيمونه بعده، فمالت طائفة إلى كيختو فأجلسوه على سرير المملكة، فبقي مدة، قيل سنة وقيل أقل من ذلك، ثم قتلوه وملكوا بعده بيدرا. وجاء الخبر بوفاة أرغون إلى الملك الأشرف وهو محاصر عكا ففرح بذلك كثيراً، وكانت مدة ملك

أرغون ثمان سنين، وقد وصفه بعض مؤرخي العراق بالعدل والسياسة الجيدة.

المسند المعمر الرحالة

فخر الدين بن النجار وهو أبو الحسن علي بن أحمد بن عبد الواحد المقدسي الحنبلي المعروف بابن النجار، ولد في سلخ أو مستهل سنة ست وسبعين وخمسمائة، وسمع الكثير ورحل مع أهله، وكان رجلاً صالحاً عابداً زاهداً ورعاً ناسكاً، تفرد بروايات كثيرة لطول عمره، وخرجت له مشيخات وسمع منه الخلق الكثير والجم الغفير، وكان منصوباً لذلك حتى كبر وأسنّ وضعف عن الحركة، وله شعر حسن، منه قوله:

تَـكَـرَّرَتِ الـسُّـنُـونَ عَـلَـيَّ حَـتَّـى ... بُـلِـيـتُ وَصِـرْتُ مِـنْ سَـقَـطِ الـمَـتَـاعِ[1]

وَقَـلَّ الـنَّـفْـعُ عِـنْـدِي غَـيْـرَ أَنِّـي ... أُعَـلَّـلُ بِـالـرِّوَايَـةِ وَالـسَّـمَـاعِ

فَـإِنْ يَـكُ خَـالِـصـاً فَـلَـهُ جَـزَاءٌ ... وَإِنْ يَـكُ مَـالِـقـاً[2] فَـإِلَـى ضَـيَـاعِ

وله أيضاً:

إِلَـيْـكَ اعْـتِـذَارِي مِـنْ صَـلاتِـي قَـاعِـداً ... وَعَـجْـزِيَ عَنْ سَعْـيِـي إِلَى الـجُـمُـعَـاتِ

وَتَـرْكِـي صَلاَةَ الـفَـرْضِ فِي كُلِّ مَسْجِدٍ ... تَـجَـمَّـعَ فِـيـهِ الـنَّـاسُ لِـلـصَّـلَـوَاتِ

فَـيَـا رَبِّ لا تَـمْـقُـتْ صَـلاتِـي وَنَـجِّـنِـي ... مِـنَ الـنَّـارِ وَاصْـفَـحْ لِـي عَـنِ الـهَـفَـوَاتِ

توفي ضحى نهار الأربعاء ثاني ربيع الآخر من هذه السنة، عن خمس وتسعين سنة، وحضر جنازته خلق كثير، ودفن عند والده الشيخ شمس الدين أحمد بن عبد الواحد بسفح قاسيون رحمه الله تعالىٰ.

الشيخ تاج الدين الفزاري

عبد الرحمن بن سباع بن ضياء الدين أبو محمد الفزاري، الإمام العلاّمة العالم، شيخ الشافعية في زمانه، حاز قصب السبق دون أقرانه، وهو والد شيخنا العلامة برهان الدين. كان مولد الشيخ تاج الدين في سنة ثلاثين وستمائة، وتوفي ضحى الاثنين خامس جمادى الآخرة، بالمدرسة البادرائية وصلي عليه بعد الظهر بالأموي، تقدم للصلاة عليه قاضي القضاة شهاب الدين بن الخويي، ثم صلّى عليه عند جامع جراح الشيخ زين الدين الفارقي، ودفن عند والده بباب الصغير، وكان يوماً شديد الزحام. وقد كان ممن اجتمع فيه فنون كثيرة من العلوم النافعة، والأخلاق اللطيفة، وفصاحة المنطق، وحسن التصنيف، وعلو الهمة، وفقه النفس، وكتابه الإقليد الذي جمع على أبواب التنبيه وصل فيه إلى باب الغصب، دليل على فقه نفسه وعلو قدره، وقوة همته ونفوذ نظره، واتصافه بالاجتهاد الصحيح في غالب ما سطره، وقد انتفع به

(١) سقط المتاع: رديء المتاع.

(٢) مالق: من مِلق: وهو يعطي بلسانه ما ليس في قلبه.

الناس، وهو شيخ أكابر مشايخنا هو ومحيي الدين النووي، وله اختصار الموضوعات لابن الجوزي، وهو عندي بخطه، وقد سمع الحديث الكثير وحضر عند ابن الزبيدي صحيح البخاري، وسمع من ابن الليثي وابن الصلاح واشتغل عليه، وعلى ابن عبد السلام وانتفع بهما، وخرج له الحافظ علم الدين البرزالي أحد تلاميذه مشيخة في عشرة أجزاء عن مائة شيخ فسمعها عليه الأعيان: وله شعر جيد فمنه قوله:

لله أَيَّامُ جَمْعِ الشَّمْلِ مَا بَرِحَتْ ... بِهَا الحَوَادِثُ حَتَّى أَصْبَحَتْ سَمَرَا
وَمُبْتَدَا الحُزْنِ مِنْ تَارِيخِ مَسْأَلَتِي ... عَنْكُمْ، فَلَمْ أَلْقَ لا عَيْناً وَلا أَثَرَا
يَا رَاحِلِينَ قَدَرْتُمْ فَالنَّجَاةُ لَكُمْ ... وَنَحْنُ لِلْعَجْزِ لا نَسْتَعْجِزُ القَدَرَا

وقد ولي الدرس بعده بالبادرائية والحلقة والفتيا بالجامع ولده شيخنا برهان الدين، فمشى على طريقة والده وهديه وسمته رحمه الله. وفي ثالث شعبان توفي.

الطبيب الماهر عز الدين إبراهيم بن محمد بن طرخان

السويدي الأنصاري، ودفن بالسفح عن تسعين سنة، وروى شيئاً من الحديث، وفاق أهل زمانه في صناعة الطب، وصنّف كتباً في ذلك، وكان يرمي بقلة الدين وترك الصلوات وانحلال في العقيدة، وإنكار أمور كثيرة مما يتعلق باليوم الآخر، والله يحكم فيه وفي أمثاله بأمره العدل الذي لا يجور ولا يظلم. وفي شعره ما يدل على قلة عقله ودينه وعدم إيمانه، واعتراضه على تحريم الخمر، وأنه قد طال رمضان عليه في تركها وغير ذلك.

الشيخ الإمام العلاّمة

علاء الدين أبو الحسن علي ابن الإمام العلاّمة كمال الدين عبد الواحد بن عبد الكريم بن خلف الأنصاري الزملكاني، وقد درس بعد أبيه المذكور بالأمينية، وكانت وفاة والده هذا ليلة الثلاثاء التاسع والعشرين من ربيع الآخر بالأمينية، ودفن بمقابر الصوفية عند والده الأمير الكبير بدر الدين علي بن عبد الله الناصري، ناظر الرباط بالصالحية، عن وصية أستاذه، وهو الذي ولّى الشيخ شرف الدين الفزاري مشيخة الرباط بعد ابن الشريشي جمال الدين، وقد دفن بالتربة الكبيرة داخل الرباط المذكور.

الشيخ الإمام أبو حفص عمر بن يحيى بن عمر الكرخي

صهر الشيخ تقي الدين بن الصلاح، وأحد تلاميذه، ولد سنة تسع وتسعين وخمسمائة، ومات يوم الأربعاء ثاني ربيع الآخر من هذه السنة، ودفن إلى جانب ابن الصلاح.

الملك العادل بدر الدين سلامش بن الظاهر

الذي كان قد بويع بالملك بعد أخيه الملك السعيد، وجعل الملك المنصور قلاوون أتابكه، ثم استقل قلاوون بالملك، وأرسلهم إلى الكرك ثم أعادهم إلى القاهرة ثم سفرهم

الأشرف خليل في أول دولته إلى بلاد الأشكري من ناحية اصطنبول، فمات سلامش هناك وبقي أخوه نجم الدين خضر وأهلوهم بتلك الناحية، وقد كان سلامش من أحسن الشباب شكلاً وأبهاهم منظراً، وقد افتتن به خلق كثير، واللوطية الذين يحبون المردان، وشبب به الشعراء وكان عاقلاً رئيساً مهيباً وقوراً.

العفيف التلمساني

أبو الربيع سليمان بن علي بن عبد الله بن علي بن ياسين العابدي الكركي ثم التلمساني الشاعر المتقن المتفنن في علوم منها النحو والأدب والفقه والأصول، وله في ذلك مصنفات، وله شرح مواقف النفري وشرح أسماء الله الحسنى، وله ديوان مشهور، ولولده محمد ديوان آخر، وقد نسب هذا الرجل إلى عظائم في الأقوال والاعتقاد في الحلول والاتحاد والزندقة والكفر المحض، وشهرته تغني عن الاطناب في ترجمته، توفي يوم الأربعاء خامس رجب ودفن بالصوفية، ويذكر عنه أنه عمل أربعين خلوة كل خلوة أربعين يوماً متتابعة فالله أعلم.

ثم دخلت سنة إحدى وتسعين وستمائة

فيها فتحت قلعة الروم وسلطان البلاد من دنقلة إلى مصر إلى أقصى بلاد الشام بكماله وسواحله بلاد حلب وغير ذلك الملك الأشرف صلاح الدين خليل ابن الملك المنصور قلاوون، ووزيره شمس الدين بن السلعوس، وقضاته بالشام ومصر هم المذكورون في التي قبلها، ونائب مصر بدر الدين بندار ونائب الشام علم الدين سنجر الشجاعي، وسلطان التتر بيدار بن أرغون بن أبغا، والعمارة الخزائن أتلف شيئاً كثيراً من الذخائر والنفائس والكتب. وفي التاسع والعشرين من ربيع الأول خطب الخليفة الحاكم وحث في خطبته على الجهاد والنفير، وصلّى بهم الجمعة وجهر بالبسملة. وفي ليلة السبت ثالث عشر صفر جيء بهذا الجرز الأحمر الذي بباب البرادة من عكا، فوضع في مكانه وفي ربيع الأول كمل بناء الطارمة وما عندها من الدور والقبة الزرقاء، وجاءت في غاية الحسن والكمال والارتفاع. وفي يوم الاثنين ثاني جمادى الأولى ذكر الدرس بالظاهرية الشيخ صفي الدين محمد بن عبد الرحيم الأرموي، عوضاً عن علاء الدين ابن بنت الأعز. وفي هذا اليوم درس بالدولعية كمال الدين بن الزكي. وفي يوم الاثنين سابع جمادى الآخرة درس بالنجيبية الشيخ ضياء الدين عبد العزيز الطوسي، بمقتضى نزول الفارقي له عنها. والله أعلم بالصواب.

فتح قلعة الروم

وفي ربيع الأول منها توجه السلطان الأشرف بالعساكر نحو الشام فقدم دمشق ومعه وزيره ابن السلعوس فاستعرض الجيوش وأنفق فيهم أموالاً جزيلة، ثم سار بهم نحو بلاد حلب، ثم سار إلى قلعة الروم فافتتحها بالسيف قهراً في يوم السبت حادي عشر رجب، وجاءت البشارة بذلك إلى دمشق، وزينت البلد سبعة أيام وبارك الله لجيش المسلمين في سعيهم، وكان يوم

السبت إلباً على أهل يوم الأحد، وكان الفتح بعد حصار عظيم جداً، مدة ثلاثين يوماً، وكانت المنجنيقات تزيد على ثلاثين منجنيقاً، واستشهد من الأمراء شرف الدين بن الخطير، وقد قتل من أهل البلد خلق كثير وغنم المسلمون منها شيئاً كثيراً، ثم عاد السلطان إلى دمشق وترك الشجاعي بقلعة الروم يعمرون ما وهى[١] من قلعتها بسبب رمي المنجنيقات عليها وقت الحصار، وكان دخوله إلى دمشق بكرة يوم الثلاثاء تاسع عشر شعبان، فاحتفل الناس لدخوله ودعوا له وأحبوه، وكان يوماً مشهوداً بسط له كما يبسط له إذا قدم من الديار المصرية، وإنما كان ذلك بإشارة ابن السلعوس، فهو أول من بسط له، وقد كسر أبوه التتر على حمص ولم يبسط له، وكذلك الملك الظاهر كسر التتر والروم على البلستين، وفي غير موطن ولم يبسط له، وهذه بدعة شنعاء قد أحدثها هذا الوزير للملوك، وفيها إسراف وضياع مال وأشر وبطر[٢] ورياء وتكليف للناس، وأخذ أموال ووضعها في غير مواضعها، والله سبحانه سائله عنها، وقد ذهب وتركها يتوارثها الملوك والناس عنه، وقد حصل للناس بسبب ذلك ظلم عظيم، فليتق العبد ربه ولا يحدث في الإسلام بسبب هواه ومراد نفسه ما يكون سبب مقت الله له، وإعراضه عنه، فإن الدنيا لا تدوم لأحد، ولا يدوم أحد فيها والله سبحانه أعلم.

وكان ملك قلعة الروم مع السلطان أسيراً، وكذلك رؤوس أصحابه، فدخل بهم دمشق وهم يحملون رؤوس أصحابهم على رؤوس الرماح، وجهز السلطان طائفة من الجيش نحو جبل كسروان والجزر بسبب ممالأتهم للفرنج قديماً على المسلمين، وكان مقدم العساكر بندار وفي صحبته سنقر الأشقر، وأقر سنقر المنصوري الذي كان نائب حلب فعزله عنها السلطان وولّى مكانه سيف الدين بلبان البطاحي المنصوري، وجماعة آخرون من الأمراء الكبار، فلما أحاطوا بالجبل ولم يبق إلا دمارُ أهله حملوا في الليل إلى بندار حملاً كثيراً ففتر في قضيتهم، ثم انصرف بالجيوش عنهم وعادوا إلى السلطان، فتلقاهم السلطان وترجل السلطان إلى الأمير بندار وهو نائبه على مصر، ثم ابن السلعوس نبه السلطان على فعل بندار فلامه وعنّفه، فمرض من ذلك مرضاً شديداً أشفى به على الموت حتى قيل إنه مات، ثم عوفي فعمل ختمة عظيمة بجامع دمشق حضرها القضاة والأعيان، وأشغل الجامع نظير ليلة النصف من شعبان، وكان ذلك ليلة العشر الأول من رمضان، وأطلق السلطان أهل الحبوس وترك بقية الضمان عن أرباب الجهات السلطانية، وتصدّق عنه بشيء كثير، ونزل هو عن ضمانات كثيرة كان قد حاف[٣] فيها على أربابها، وقد امتدح الشهاب محمود الملك الأشرف خليل على فتحه قلعة الروم بقصيدة هائلة فاضلة أولها:

لَكَ الرَّايَةُ الصَّفْرَاءُ يَقْدُمُهَا النَّصْرُ ... فَمَنْ كَيْقُبَادَانُ رَآهَا وَكَيْخَسْرُو

---

(١) وهى: ضعف وتهدم.

(٢) أشر وبطر بمعنى واحد، وهو التكبّر عند حدوث النعمة.

(٣) حاف: جار.

إذا خَفَقَتْ فِي الأُفُقِ هَدَّتْ بِنُورِهَا ... هَوَى الشِّرْكُ وَاسْتَعْلَى الهُدَى وَانْجَلَى الثَّغْرُ
وَإِنْ نَشَرَتْ مِثْلَ الأَصَائِيلِ فِي الوَغَى ... جَلاَ النَّقْعَ[1] مِنْ لأَلاءِ طَلْعَتِهَا البَدْرُ
وَإِنْ يَمَّمَتْ زُرْقَ العِدَى سَارَ تَحْتَهَا ... كَتَائِبُ خُضْرٌ دَوْحُهَا البِيضُ وَالسُّمْرُ
كَأَنَّ مُثَارَ النَّقْعِ لَيْلٌ وَخَفْقَهَا ... بُرُوقٌ وَأَنْتَ البَدْرُ وَالفَلَكُ الحَتْرُ[2]
وَفَتْحٌ أَتَى فِي إثْرِ فَتْحٍ كَأَنَّمَا ... سَمَاءٌ بَدَتْ تَتْرَى كَوَاكِبُهَا الزُّهْرُ
فَكَمْ قَطَمَتْ طَوْعاً وَكَرْهاً مَعَاقِلاً ... مَضَى الدَّهْرُ عَنْهَا وَهْيَ عَانِسَةٌ بِكْرُ
بَذَلْتَ لَهَا عَزْماً فَلَوْلا مَهَابَةٌ ... كَسَاهَا الحَيَا جَاءَتْكَ تَسْعَى وَلا مَهْرُ
قَصَدْتَ حِمًى مِنْ قَلْعَةِ الرُّومِ لَمْ يُتَحْ ... لِغَيْرِكَ إذْ غَرَّتْهُمُ المُغْلُ[3] فَاغْتَرُّوا
وَوَالَوْهُمْ سِرّاً لِيُخْفُوا أَذَاهُمُ ... وَفِي آخِرِ الأَمْرِ اسْتَوَى السِّرُّ وَالجَهْرُ
صَرَفْتَ إلَيْهِمْ هِمَّةً لَوْ صَرَفْتَهَا ... إلَى البَحْرِ لاسْتَوْلَى عَلَى مَدِّهِ الجَزْرُ
وَمَا قَلْعَةُ الرُّومِ الَّتِي حُزْتَ فَتْحَهَا ... وَإِنْ عَظُمَتْ إلاّ إلَى غَيْرِهَا جِسْرُ
طَلِيعَةُ مَا يَأْتِي مِنَ الفَتْحِ بَعْدَهَا ... كَمَا لاَحَ قَبْلَ الشَّمْسِ فِي الأُفُقِ الفَجْرُ
فَصَبَّحْتَهَا بِالجَيْشِ كَالرَّوْضِ بَهْجَةً ... صَوَارِمُهُ أَنْهَارُهُ وَالقَنَا الزَّهْرُ
وَأَبْعَدْتَ بَلْ كَالبَحْرِ وَالبِيضُ مَوْجُهُ ... وَجُرْدُ المَذَاكِي[4] السُّفْنُ والخُوَذُ الدُّرُّ
وَأَغْرَبْتَ بَلْ كَاللَّيْلِ عُوجُ سُيُوفِهِ ... أهِلَّتُهُ وَالنَّبْلُ أَنْجُمُهُ الزُّهْرُ
وَلَحَظَاتُ لا بَلْ كَالنَّهَار شُمُوسُهُ ... مُحَيَّاكَ وَالآصَالُ رَايَاتُكَ الصُّفْرُ
لُيُوثٌ مِنَ الأَتْرَاكِ آجَامُهَا القَنَا ... لَهَا كُلَّ يومٍ في ذرى ظَفَرٍ ظُفْرُ
فَلا الرِّيحُ يَجْرِي بَيْنَهُمْ لاشْتِبَاكِهَا ... عَلَيْهِمْ وَلا يَنْهَلُّ مِنْ فَوْقِهِمْ قَطْرُ
عُيُونٌ إذا الحَرْبُ العَوَانُ[5] تَعَرَّضَتْ ... لِخُطَّابِهَا بِالنَّفْسِ لَمْ يَغْلُهَا مَهْرُ
تَرَى المَوْتَ مَعْقُوداً بِهُدْبِ نِبَالِهِمْ ... إذا مَا رَمَاهَا القَوْسُ وَالنَّظَرُ الشَّزْرُ
فَفِيَ كُلِّ سَرْحٍ[6] غُصْنُ بَانٍ[7] مُهَفْهَفٌ[8] ... وَفِي كُلِّ قَوْسٍ مَدَّهُ سَاعِدٌ بَدْرُ
إذَا صَدَمُوا شُمَّ الجِبَالِ[9] تَزَلْزَلَتْ ... وَأَصْبَحَ سَهْلاً تَحْتَ خَيْلِهِمُ الوَعْرُ[10]

---

(١) النقع: الغبار.
(٢) الحتر: المحيط بالأرض والناس.
(٣) المغل: أي المغول.
(٤) جُرْدُ المذاكي: الخيول الجياد السريعة.
(٥) الحرب العوان: الحرب الشديدة المتواصلة.
(٦) سرح: كل شجر طال أو كل شجر لا شوك فيه، وتأتي بمعنى الماشية، وفناء الدار.
(٧) بانٍ: جمع بانة وهي شجرة معتدلة القوام لينة الورق تشبه به الفتاة الناعمة اللينة.
(٨) مهفهف: ضامر.
(٩) شم الجبال: الجبال العالية.
(١٠) الوعر: الأرض الصعبة المسالك.

وَلَوْ وَرَدَتْ مَاءَ الفُرَاتِ خُيُولُهُمْ ... لَقِيلَ هُنَا قَدْ كَانَ فِيمَا مَضَى نَهْرُ
أَدَارُوا بِهَا سُوراً فَأَضْحَتْ كَخَاتِمٍ ... لَدَى خِنْصَرٍ أَوْ تَحْتَ مَنْطِقِهِ خَصْرُ
وَأَرْخَوْا إِلَيْهَا مِنْ أَكُفِّ بِحَارِهِمْ ... سَحَابُ رَدًى[1] لَمْ يَخْلُ مِنْ قَطْرِهِ قَطْرُ
كَأَنَّ المَجَانِيقَ الَّتِي قُمْنَ حَوْلَهَا ... رَوَاعِدُ سُخْطٍ وَبْلُهَا النَّارُ وَالصَّخْرُ
أَقَامَتْ صَلَاةَ الحَرْبِ لَيْلاً صُخُورُهَا ... فَأَكْثَرُهَا شَفْعٌ[2] وَأَكْبَرُهَا وِتْرُ[3]
وَدَارَتْ بِهَا تِلْكَ النُّقُوبُ فَأَسْرَفَتْ ... وَلَيْسَ عَلَيْهَا فِي الَّذِي فَعَلَتْ حِجْرُ
فَأَضْحَتْ بِهَا كَالصَّبِّ يُخْفِي غَرَامَهُ ... حِذَارَ أَعَادِيهِ وَفِي قَلْبِهِ جَمْرُ
وَشَبَّتْ بِهَا النِّيرَانُ حَتَّى تَمَزَّقَتْ ... وَبَاحَتْ بِمَا أَخْفَتْهُ وَانْهَتَكَ السِّتْرُ
فَلَاذُوا بِذَيْلِ العَفْوِ مِنْكَ فَلَمْ تُجِبْ ... رَجَاءَهُمْ لَوْ لَمْ يَشُبْ قَصْدَهُمْ مَكْرُ
وَمَا كَرِهَ المُغْلُ[4] اشْتِغَالَكَ عَنْهُمُ ... بِهَا عِنْدَ مَا فَرُّوا وَلَكِنَّهُمْ سُرُّوا
فَأَحْرَزْتَهَا بِالسَّيْفِ قَهْراً وَهَكَذَا ... فُتُوحُكَ فِيمَا قَدْ مَضَى كُلُّهُ قَسْرُ
وَأَضْحَتْ بِحَمْدِ اللهِ ثَغْراً مُمَنَّعاً ... تَبِيدُ اللَّيَالِي وَالعِدَى وَهْوَ مُفْتَرُّ
فَيَا أَشْرَفَ الأَمْلَاكِ فُزْتَ بِغَزْوَةٍ ... تَحَصَّلَ مِنْهَا الفَتْحُ وَالذِّكْرُ وَالأَجْرُ
لِيَهْنِيكَ عِنْدَ المُصْطَفَى أَنَّ دِينَهُ ... تَوَالَى لَهُ فِي يُمْنِ دَوْلَتِكَ النَّصْرُ
وَبُشْرَاكَ أَرْضَيْتَ المَسِيحَ وَأَحْمَداً ... وَإِنْ غَضِبَ اليَغْفُورُ مِنْ ذَاكَ وَالكُفْرُ
فَسِرْ حَيْثَ ما تَخْتَارُ فَالأَرْضُ كُلُّهَا ... بِحُكْمِكَ وَالأَمْصَارُ أَجْمَعُهَا مِصْرُ
وَدُمْ وَابْقَ لِلدُّنْيَا لِيَحْيَى بِكَ الهُدَى ... وَيَزْهَى عَلَى مَاضِي العُصُورِ بِكَ العَصْرُ

حذفت منها أشياء كثيرة.

وفيها تولى خطابة دمشق الشيخ عز الدين أحمد الفاروثي الواسطي بعد وفاة زين الدين بن المرحل وخطب واستسقى بالناس فلم يسقوا، ثم خطب مرة ثانية بعد ذلك بأيام عند مسجد القدم، فلم يسقوا ثم ابتهل الناس من غير دعاية واستسقاية فسقوا، ثم عزل الفاروثي بعد أيام بالخطيب موفق الدين أبي المعالي محمد بن محمد بن محمد بن عبد المنعم بن حسن المهراني الحموي، كان خطيب حماة ثم انتقل إلى دمشق في هذه السنة، فقام وخطب وتألم الفاروثي لذلك ودخل على السلطان واعتقد أن الوزير عزله من غير علمه، فإذا هو قد شعر لذلك واعتذر بأنه إنما عزله لضعفه، فذكر له أنه يصلي ليلة النصف مائة ركعة بمائة قل هو الله أحد، فلم يقبلوا ذلك منه واستمروا بالحموي. وهذه دناءة وقلة عقل وعدم إخلاص من الفاروثي.

---

(١) ردى: موت.
(٢) شفع: زوج العدد مثل: ٢، ٤، ٦، ٨، ١٠.
(٣) وتر: مفرد من العدد مثل: ١، ٣، ٥، ٧، ٩.
(٤) المغل: أي المغول.

وأصاب السلطان في عزله.

وفي هذا اليوم قبض السلطان على الأمير سنقر الأشقر وغيره فهرب هو والأمير حسام الدين لاجين السلحداري، فنادت عليه المنادية بدمشق من أحضره فله ألف دينار، ومن أخفاه شنق، وركب السلطان ومماليكه في طلبه، وصلّى الخطيب بالناس في الميدان الأخضر، وعلى الناس كآبة بسبب تفرق الكلمة، واضطراب الجيش، واختبط الناس، فلما كان سادس شوال أمسكت العرب سنقر الأشقر فردوه على السلطان فأرسله مقيداً إلى مصر. وفي هذا اليوم ولّى السلطان نيابة دمشق عز الدين أيبك الحموي، عوضاً عن الشجاعي، وقدم الشجاعي من الروم ثاني يوم عزله فتلقاه الفاروثي فقال: قد عزلنا من الخطابة، فقال ونحن من النيابة، فقال الفاروثي: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأعراف: ١٢٩]. فلما بلغ ابن السلعوس تغضب عليه وكان قد عين له القيمرية فترك ذلك، وسافر السلطان عاشر شوال إلى مصر فدخلها في أبهة الملك، وفي يوم دخوله أقطع قراسنقر مائة فارس بمصر عوضاً عن نيابة حلب، وفي هذه السنة اشترى الأمير سيف الدين طغاي الأشقري قيسارية القطن المعروفة بإنشاء الملك المعظم بن العادل من بيت المال، بمرسوم من السلطان، وكان حظياً عنده، ونقل سوق الحريريين تلك المدة إليها، وكان السلطان قد أفرج عن علم الدين الدويداري بعد رجوعه من قلعة الروم واستحضره إلى دمشق وخلع عليه واستصحبه معه إلى القاهرة، وأقطعه مائة فارس، وولاّه مشد الدواوين مكرهاً.

وفي ذي القعدة استحضر السلطان سنقر الأشقر وطقصوا فعاقبهما فاعترفا بأنهما أرادا قتله، فسألهما عن لاجين فقالا: لم يكن معنا ولا علم له بهذا، فخنقهما وأطلقه بعد ما جعل الوتر في حلقه، وكان قد بقي له مدة لا بد أن يبلغها، وقد ملك بعد ذلك كما سنذكره إن شاء الله تعالى.

وفي ذي الحجة عقد الشيخ برهان الدين ابن الشيخ تاج الدين عقده على بنت قاضي القضاة شهاب الدين الخويي بالبادرائية، وكان حافلاً. وفيها دخل الأمير سنقر الأعسر على بنت الوزير شمس الدين بن السلعوس على صداق ألف دينار، وعجل لها خمسمائة، وفيها قفز جماعة من التتر نحواً من ثلاثمائة إلى الديار المصرية فأكرموا.

وممن توفي فيها من الأعيان:

الخطيب زين الدين أبو حفص

عمر بن مكي بن عبد الصمد الشافعي المعروف بابن المرحل، وهو والد الشيخ صدر الدين بن الوكيل، سمع الحديث وبرع في الفقه وفي علوم شتى، منها علم الهيئة وله فيه مصنف، تولى خطابة دمشق ودرس وأفتى، توفي ليلة السبت الثالث والعشرين من ربيع الأول، وصلّي عليه من الغد بباب الخطابة.

الشيخ عز الدين الفاروثي

ولّي الخطابة قليلاً ثم عزل ثم مات ودفن بباب الصغير عفا الله عنا وعنه.

الصاحب فتح الدين أبو عبد الله

محمد بن محيي الدين بن عبد الله بن عبد الظاهر: كاتب الأسرار في الدولة المنصورية بعد ابن لقمان وكان ماهراً في هذه الصناعة، وحظي عند المنصور وكذا عند ابنه الأشرف، وقد طلب منه ابن السلعوس أن يقرأ عليه كل ما يكتبه، فقال: هذا لا يمكن فإن أسرار الملوك لا يطلع عليها غيرهم، وأبصروا لكم غيري يكون معكم بهذه المثابة، فلما بلغ ذلك الأشرف أعجبه منه وازدادت عنده منزلته، توفي يوم السبت نصف رمضان، وأخرجت في تركته قصيدة قد رثا بها تاج الدين بن الأثير وكان قد شوش[1] فاعتقد أنه يموت فعوفي فبقيت بعده، وتولى ابن الأثير بعده ورثاه تاج الدين كما رثاه وتوفي ابن الأثير بعده بشهر وأربعة أيام.

يونس بن علي بن رضوان بن برقش

الأمير عماد الدين، كان أحد الأمراء الطبلخانة في الدولة الناصرية، ثم حمل وبطل الجندية بالكلية في الدولة المظفرية وهلم جراً إلى هذه السنة، وكان الظاهر يكرمه، توفي في شوال ودفن عند والده بتربة الخزيميين رحمهم الله.

جلال الدين الخبازي[2]

عمر بن محمد بن عمر أبو محمد الخجندي أحد مشايخ الحنفية الكبار، أصله من بلاد ما وراء النهر من بلد يقال لها خجندة، واشتغل هناك ودرس بخوارزم، وأعاد ببغداد، ثم قدم دمشق فدرس بالعزية والخاتونية البرانية، وكان فاضلاً بارعاً منصفاً مصنفاً في فنون كثيرة، توفي لخمس بقين من ذي الحجة منها، وله ثنتان وستون سنة، ودفن بالصوفية.

الملك المظفر

قرأ أرسلان الأرتقي، صاحب ماردين، توفي وله ثمانون سنة وقام بعده ولده شمس الدين داود ولقب بالملك السعيد والله سبحانه أعلم.

ثم دخلت سنة ثنتين وتسعين وستمائة

في تاريخ ظهير الدين الكازروني ظهرت نار بأرض المدينة النبوية في هذه السنة نظير ما كان في سنة أربع وخمسين على صفتها، إلا أن هذه النار كان يعلو لهيبها كثيراً، وكانت تحرق الصخر ولا تحرق السعف، واستمرت ثلاثة أيام.

استهلت هذه السنة والخليفة الحاكم العباسي وسلطان البلاد الملك الأشرف بن المنصور ونائبه بمصر بدر الدين بيدرا[3]، وبالشام عز الدين أيبك الحموي، وقضاة مصر والشام هم

---

(١) شوش: خلط الأمر وصيره مضطرباً.
(٢) في ط: الحناوي.
(٣) في شذرات الذهب: بندار.

الذين كانوا في التي قبلها، والوزير شمس الدين بن السلعوس، وفي جمادى الآخرة قدم الأشرف دمشق فنزل في القصر الأبلق والميدان الأخضر، وجهز الجيوش وتهيأ لغزو بلاد سيس، وقدم في غضون ذلك رسل صاحب بلاد سيس يطلبون الصلح، فشفع الأمراء فيهم فسلموا بهسنا وتل حمدون ومرعش، وهي أكبر بلادهم وأحسنها وأحصنها، وهي في فم الدربند، ثم ركب السلطان في ثاني رجب نحو سلمية بأكثر الجيش صورة أنه يريد أن يصيب الأمير حسام الدين لاجين، فأضافه الأمير مهنا بن عيسى، فلما انقضت الضيافة أمسك له حسام الدين لاجين، وكان عنده، فجاء به فسجنه في قلعة دمشق وأمسك مهنا بن عيسى وولى مكانه محمد بن علي بن حذيفة، ثم أرسل السلطان جمهور الجيش بين يديه إلى الديار المصرية صحبة نائبه بيدرا، ووزيره ابن السلعوس، وتأخر هو في خاصكيته ثم لحقهم.

وفي المحرم منها حكم القاضي حسام الدين الرازي الحنفي بالشركة بين العلويين والجعفريين في الدباغة التي كانوا يتنازعونها من مدة مائتي سنة، وكان ذلك يوم الثلاثاء سادس عشرين المحرم، بدار العدل، ولم يوافقه ابن الخويي ولا غيره، وحكم للأعناكيين بصحة نسبهم إلى جعفر الطيار. وفيها رسم الأشرف بتخريب قلعة الشوبك فهدمت، وكانت من أحصن القلاع وأمنعها وأنفعها، وإنما خربها عن رأي عتبة العقبي، ولم ينصح للسلطان فيها ولا للمسلمين، لأنها كانت شجًى في حلوق الأعراب الذين هناك. وفيها أرسل السلطان الأمير علم الدين الدويداري إلى صاحب القسطنطينية وإلى أولاد بركة ومع الرسول تحفاً كثيرة جداً، فلم يتفق خروجه حتى قتل السلطان فعاد إلى دمشق.

وفي عاشر جمادى الأولى درس القاضي إمام الدين القزويني بالظاهرية البرانية. وحضر عنده القضاة والأعيان. وفي الثاني والعشرين من ذي الحجة يوم الاثنين طهر الملك الأشرف أخاه الملك الناصر محمد وابن أخيه الملك المعظم مظفر الدين موسى بن الصالح علي بن المنصور، وعمل مهم عظيم ولعب الأشرف بالقبق وتمت لهم فرحة هائلة، كانت كالوداع لسلطنته من الدنيا. وفي أول المحرم درس الشيخ شمس الدين بن غانم بالعصرونية، وفي مستهل صفر درس الشيخ كمال الدين بن الزملكاني بالرواحية عوضاً عن نجم الدين بن مكي بحكم انتقاله إلى حلب وإعراضه عن المدرسة المذكورة، ودخل الركب الشامي في آخر صفر، وكان ممن حج في هذه السنة الشيخ تقي الدين بن تيمية رحمه الله، وكان أميرهم الباسطي ونالهم في معان ريح شديدة جداً مات بسببها جماعة، وحملت الريح جمالاً عن أماكنها، وطارت العمائم عن الرؤوس، واشتغل كل أحد بنفسه. وفي صفر منها وقع بدمشق برد عظيم أفسد شيئاً كثيراً من المغلات بحيث بيع القمح كل عشرة أواق بدرهم، ومات شيء كثير من الدواب، وفيه زلزلت ناحية الكرك وسقط من تلفيتا أماكن كثيرة.

وممن توفي فيها من الأعيان:

الشيخ الأرموي

الشيخ الصالح القدوة العارف أبو إسحاق إبراهيم ابن الشيخ الصالح أبي محمد

عبد الله بن يوسف بن يونس بن إبراهيم بن سلمان الأرموي، المقيم بزاويته بسفح قاسيون، كان فيه عبادة وانقطاع وله أوراد وأذكار، وكان محبباً إلى الناس، توفي بالمحرم ودفن عند والده بالسفح.

ابن الأعمى صاحب المقامة

الشيخ ظهير الدين محمد بن المبارك بن سالم بن أبي الغنائم الدمشقي المعروف بابن الأعمى، ولد سنة عشر وستمائة، وسمع الحديث وكان فاضلاً بارعاً، له قصائد يمتدح بها رسول الله ﷺ، سماها الشفعية، عدد كل قصيدة اثنان وعشرون بيتاً. قال البرزالي: سمعته وله المقامة البحرية المشهورة، توفي في المحرم ودفن بالصوفية.

الملك الزاهر مجير الدين

أبو سليمان داود ابن الملك المجاهد أسد الدين شيركوه صاحب حمص ابن ناصر الدين محمد ابن الملك المعظم، توفي ببستانه عن ثمانين سنة، وصلّى عليه بالجامع المظفري، ودفن بتربته بالسفح، وكان ديناً كثير الصلاة في الجامع، وله إجازة من المؤيد الطوسي وزينب الشعرية وأبي روح وغيرهم. توفي في جمادى الآخرة.

الشيخ تقي الدين الواسطي

أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن أحمد بن فضل الواسطي ثم الدمشقي الحنبلي، شيخ الحديث بالظاهرية بدمشق، توفي يوم الجمعة آخر النهار رابع عشرين جمادى الآخرة عن تسعين سنة، وكان رجلاً صالحاً عابداً، تفرد بعلو الرواية، ولم يخلف بعده مثله، وقد تفقه ببغداد ثم رحل إلى الشام ودرس بالصالحية مدة عشرين سنة، وبمدرسة أبي عمر، وولي في آخر عمره مشيخة الحديث بالظاهرية بعد سفر الفاروثي، وكان داعية إلى مذهب السلف والصدر الأول، وكان يعود المرضى ويشهد الجنائز ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وكان من خيار عباد الله تعالى رحمه الله. وقد درس بعده بالصالحية الشيخ شمس الدين محمد بن عبد القوي المرداوي، وبدار الحديث الظاهرية شرف الدين عمر بن خواجا إمام الجامع المعروف بالناصح.

ابن صاحب حماة الملك الأفضل

نور الدين علي ابن الملك المظفر تقي الدين محمود ابن الملك المنصور محمد ابن الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، توفي بدمشق وصلّي عليه بجامعها، وخرج به من باب الفراديس محمولاً إلى مدينة أبيه وتربتهم بها، وهو والد الأميرين الكبيرين بدر الدين حسن وعماد الدين إسماعيل الذي تملك حماة بعد مدة.

ابن عبد الظاهر

محيي الدين بن عبد الله بن رشيد الدين عبد الظاهر بن نشوان بن عبد الظاهر بن

علي بن نجدة السعدي، كاتب الإنشاء بالديار المصرية، وآخر من برز في هذا الفن على أهل زمانه، وسبق سائر أقرانه، وهو والد الصاحب فتح الدين النديم، وقد تقدم ذكر وفاته قبل والده، وقد كانت له مصنفات منها سيرة الملك الظاهر، وكان ذا مروءة، وله النظم الفائق والنثر الرائق. توفي يوم الثلاثاء رابع رجب وقد جاوز السبعين، ودفن بتربته التي أنشأها بالقرافة.

الأمير علم الدين سنجر الحلبي

الذي كان نائب قطز على دمشق فلما جاءته بيعة الظاهر دعا لنفسه فبويع وتسمى بالملك المجاهد ثم حوصر وهرب إلى بعلبك فحوصر فأجاب إلى خدمة الظاهر فسجنه مدة وأطلقه وسجنه المنصور مدة وأطلقه الأشرف، واحترمه وأكرمه، بلغ الثمانين سنة، وتوفي في هذه السنة.

ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين وستمائة

في أولها كان مقتل الأشرف، وذلك أنه خرج إلى الصيد في ثالث المحرم، فلما كان بأرض بروجه بالقرب من الاسكندرية ثاني عشر المحرم، حمل عليه جماعة من الأمراء الذين اتفقوا على قتله حين انفرد عن جمهور الجيش، فأول من صوبه نائبه بيدرا، ونمم عليه لاجين المنصوري، ثم اختفى إلى رمضان، ثم ظهر يوم العيد، وكان ممن اشترك في قتل الأشرف بدر الدين بيسري وشمس الدين قراسنقر المنصوري، فلما قتل الأشرف اتفق الأمراء على تمليك بيدرا، وسموه الملك القاهر أو الأوحد، فلم يتم له ذلك، فقتل في اليوم الثاني بأمر كتبغا، ثم اتفق زين الدين كتبغا، وعلم الدين سنجر الشجاعي على أن يملكوا أخاه محمد الملك الناصر بن قلاوون، وكان عمره إذ ذاك ثمان سنين وشهوراً، فأجلسوه على سرير المملكة يوم الرابع عشر من المحرم، وكان الوزير ابن السلعوس بالاسكندرية، وكان قد خرج في صحبة السلطان وتقدم هو إلى الاسكندرية فلم يشعر إلا وقد أحاط به البلاء، وجاءه العذاب من كل ناحية، وذلك أنه كان يعامل الأمراء الكبار معاملة الصغار، فأخذوه وتولى عقوبته من بينهم الشجاعي فضرب ضرباً عظيماً، وقرر على الأموال ولم يزالوا يعاقبونه حتى كانت وفاته في عاشر صفر بعد أن احتيط على حواصله كلها. وأحضر جسد الأشرف فدفن بتربته، وتألم الناس لفقده وأعظموا قتله، وقد كان شهماً شجاعاً عالي الهمة حسن المنظر، كان قد عزم على غزو العراق واسترجاع تلك البلاد من أيدي التتار، واستعد لذلك ونادى به في بلاده، وقد فتح في مدة ملكه - وكانت ثلاث سنين - عكا وسائر السواحل، ولم يترك للفرنج فيها معلماً ولا حجراً، وفتح قلعة الروم وبهسنا وغيرها.

فلما جاءت بيعة الناصر إلى دمشق خطب له بها على المنابر، واستقر الحال على ذلك، وجعل الأمير كتبغا أتابكه، والشجاعي مشاوراً كبيراً، ثم قتل بعد أيام بقلعة الجبل، وحمل رأسه إلى كتبغا فأمر أن يطاف به في البلد، ففرح الناس بذلك وأعطوا الذين حملوا رأسه مالاً، ولم يبق لكتبغا منازع، ومع هذا كان يشاور الأمراء تطييباً لقلوبهم.

وفي صفر بعد موت ابن السلعوس عزل بدر الدين بن جماعة عن القضاء وأعيد تقي الدين ابن بنت الأعز واستمر ابن جماعة مدرساً بمصر في كفاية ورياسة، وتولى الوزارة بمصر الصاحب تاج الدين بن الحنا، وفي ظهر يوم الأربعاء الحادي والعشرين من صفر رتب إمام بمحراب الصحابة، وهو كمال الدين عبد الرحمن ابن القاضي محيي الدين بن الزكي، وصلّى بعدئذٍ بعد الخطيب، ورتب بالمكتب الذي بباب الناطفانيين إمام أيضاً وهو ضياء الدين بن برهان الدين الاسكندري، وباشر نظر الجامع الشريف زين الدين حسين بن محمد بن عدنان، وعاد سوق الحريريين إلى سوقه، وأخلوا قيسارية القطن الذي كان نواب طغجي ألزموهم بسكناها، وولى خطابة دمشق الشيخ العلامة شرف الدين أحمد بن جمال الدين أحمد بن نعمة بن أحمد المقدسي، بعد عزل موفق الدين الحموي دعوه إلى حماة فخطب المقدسي يوم الجمعة نصف رجب، وقرىء تقليده وكانت ولايته بإشارة تاج الدين ابن الحنا الوزير بمصر، وكان فصيحاً بليغاً عالماً بارعاً.

وفي أواخر رجب حلف الأمراء للأمير زين الدين كتبغا مع الملك الناصر محمد بن قلاوون وسارت البيعة بذلك في سائر المدن والمعامل.

واقعة عساف النصراني

كان هذا الرجل من أهل السويداء قد شهد عليه جماعة أنه سب النبي ﷺ، وقد استجار عساف هذا بابن أحمد بن حجي أمير آل علي، فاجتمع الشيخ تقي الدين بن تيمية، والشيخ زين الدين الفارقي شيخ دار الحديث، فدخلا على الأمير عز الدين أيبك الحموي نائب السلطنة فكلماه في أمره فأجابهما إلى ذلك، وأرسل ليحضره فخرجا من عنده ومعهما خلق كثير من الناس، فرأى الناس عسافاً حين قدم ومعه رجل من العرب فسبوه وشتموه، فقال ذلك الرجل البدوي: هو خير منكم - يعني النصراني - فرجمهما الناس بالحجارة، وأصابت عسافاً ووقعت خبطة قوية فأرسل النائب فطلب الشيخين ابن تيمية والفارقي فضربهما بين يديه، ورسم عليهما في العذراوية وقدم النصراني فأسلم وعقد مجلس بسببه، وأثبت بينه وبين الشهود عداوة، فحقن دمه، ثم استدعى بالشيخين فأرضاهما وأطلقهما، ولحق النصراني بعد ذلك ببلاد الحجاز، فاتفق قتله قريباً من مدينة رسول الله ﷺ، قتله ابن أخيه هنالك، وصنف الشيخ تقي الدين بن تيمية في هذه الواقعة كتابه الصارم المسلول على ساب الرسول.

وفي شعبان منها ركب الملك الناصر في أبهة الملك وشق القاهرة، وكان يوماً مشهوداً، وكان هذا أول ركوبه، ودقت البشائر بالشام وجاء المرسوم من جهته، فقرىء على المنبر بالجامع فيه الأمر بنشر العدل وطي الظلم، وإبطال ضمان الأوقاف والأملاك إلا برضى أصحابها. وفي اليوم الثاني والعشرين من شعبان درس بالمسرورية القاضي جلال الدين القزويني، أخو إمام الدين، وحضر أخوه وقاضي القضاة شهاب الدين الخويي، والشيخ تقي الدين بن تيمية، وكان درساً حافلاً. قال البرزالي: وفي شعبان اشتهر أن في الغيطة بجسرين تنيناً عظيماً ابتلع رأساً من المعز كبيراً صحيحاً وفي أواخر رمضان ظهر الأمير حسام الدين لاجين،

وكان مختفياً منذ قتل الأشرف فاعتذر له عند السلطان فقبله وخلع عليه وأكرمه، ولم يكن قتله باختياره.

وفي شوال منها اشتهر أن مهنا بن عيسى خرج عن طاعة السلطان الناصر، وانحاز إلى التتر. وفي يوم الأربعاء ثامن ذي القعدة درس بالغزالية الخطيب شرف الدين المقدسي عوضاً عن قاضي القضاة شهاب الدين بن الخويي، توفي وترك الشامية البرانية، وقدم على قضاء الشام القاضي بدر الدين أحمد بن جماعة يوم الخميس الرابع عشر من ذي الحجة، ونزل العادلية وخرج نائب السلطنة والجيش بكماله لتلقيه، وامتدحه الشعراء، واستناب تاج الدين الجعبري نائب الخطابة وباشر تدريس الشامية البرانية، عوضاً عن شرف الدين المقدسي، الشيخ زين الدين الفاروثي، وانتزعت من يده الناصرية فدرس بها ابن جماعة، وفي العادلية في العشرين من ذي الحجة، وفي هذا الشهر أخرجوا الكلاب من دمشق إلى الفلاة بأمر واليها جمال الدين اقياي، وشدد على الناس والبوابين بذلك.

وممن توفي فيها من الأعيان.

الملك الأشرف خليل بن قلاوون المنصور. وبيدرا الشجاعي. وشمس الدين بن السلعوس.

الشيخ الإمام العلاّمة

تاج الدين موسى بن محمد بن مسعود المراغي، المعروف بأبي الجواب الشافعي، درس بالاقبالية وغيرها وكان من فضلاء الشافعية، له يد في الفقه والأصول والنحو وفهم جيد، توفي فجأة يوم السبت، ودفن بمقابر باب الصغير، وقد جاوز السبعين.

الخاتون مؤنس بنت السلطان العادل أبي بكر بن أيوب

وتعرف بدار القطبية، وبدار إقبال، ولدت سنة ثلاث وستمائة، وروت الإجازة عن عفيفة الفارقانية، وعن عين الشمس بنت أحمد بن أبي الفرج الثقفية، توفيت في ربيع الآخر بالقاهرة، ودفنت بباب زويلة.

الصاحب الوزير فخر الدين

أبو إسحاق إبراهيم بن لقمان بن أحمدَ بنِ محمد البناني المصري رأس الموقعين، وأستاذ الوزراء المشهورين، ولد سنة ثنتي عشرة وستمائة، وروى الحديث، وتوفي في آخر جمادى الآخرة في القاهرة.

الملك الحافظ غياث الدين بن محمد

الملك السعيد معين الدين ابن الملك الأمجد بهرام شاه بن المعز عز الدين فروخ شاه بن شاهنشاه بن أيوب، وكان فاضلاً بارعاً، سمع الحديث وروى البخاري، وكان يحب العلماء والفقراء، توفي يوم الجمعة سادس شعبان، ودفن عند جده لأمه ابن المقدم، ظاهر باب الفراديس.

قاضي القضاة شهاب الدين بن الخويي

أبو عبد الله محمد ابن قاضي القضاة شمس الدين أبي العباس أحمد بن خليل بن سعادة بن جعفر بن عيسى بن محمد الشافعي، أصلهم من خوي، اشتغل وحصل علوماً كثيرة، وصنّف كتباً كثيرة منها كتاب فيه عشرون فناً، وله نظم علوم الحديث وكفاية المتحفظ وغير ذلك، وقد سمع الحديث الكثير، وكان محباً له ولأهله، وقد درس وهو صغير بالدماغية، ثم ولّي قضاء القدس، ثم بهسنا، ثم ولّي قضاء حلب، ثم عاد إلى المحلة، ثم ولّي قضاء القاهرة، ثم قدم على قضاء الشام مع تدريس العادلية والغزالية وغيرهما، وكان من حسنات الزمان وأكابر العلماء الأعلام، عفيفاً نزهاً بارعاً محباً للحديث وعلمه وعلمائه وقد خرج له شيخنا الحافظ المزي أربعين حديثاً متباينة الإسناد، وخرج له تقي الدين بن عتبة الأسودي الأسعردي مشيخة على حروف المعجم، اشتملت على مائتين وستة وثلاثين شيخاً. قال البرزالي: وله نحو ثلاثمائة شيخ لم يذكروا في المعجم، توفي يوم الخميس الخامس والعشرين من رمضان، عن سبع وستين سنة، وصلّي عليه ودفن من يومه بتربة والده بسفح قاسيون، رحمه الله تعالى.

الأمير علاء الدين الأعمى

ناظر القدس وباني كثيراً من معالمه اليوم، وهو الأمير الكبير علاء الدين أيدكين بن عبد الله الصالحي النجمي، كان من أكابر الأمراء، فلما أضر أقام بالقدس الشريف وولّى نظره معمره ومثمره وكان مهيباً لا تخالف مراسيمه، وهو الذي بنى المطهرة قريباً من مسجد النبي ﷺ فانتفع الناس بها بالوضوء وغيره، ووجد بها الناس تيسيراً، وابتنى بالقدس ربطاً[١] كثيرة، وآثاراً حسنة، وكان يباشر الأمور بنفسه، وله حرمة وافرة، توفي في شوال منها.

الوزير شمس الدين محمد بن عثمان

ابن أبي الرجال التنوخي، المعروف بابن السلعوس، وزير الملك الأشرف، مات تحت الضرب الذي جاوز ألف مقرعة، في عاشر صفر من هذه السنة، ودفنَ بالقرافة، وقيل إنه نقل إلى الشام بعد ذلك. وكان ابتداء أمره تاجراً، ثم ولّي الحسبة بدمشق بسفارة تقي الدين بن توبة، ثم كان يعامل الملك الأشرف قبل السلطنة فظهر منه على عدل وصدق، فلما ملك بعد أبيه المنصور استدعاه من الحج فولاّه الوزارة، وكان يتعاظم على أكابر الأمراء ويسميهم بأسمائهم، ولا يقوم لهم، فلما قتل أستاذه الأشرف تسلموه بالضرب والإهانة وأخذ الأموال، حتى أعدموه حياته، وصبروه وأسكنوه الثرى، بعد أن كان عند نفسه قد بلغ الثريا، ولكن حقاً على الله أنه ما رفع شيئاً إلا وضعه نكبة وفضيحة عظيمة على المنجمين وذلك أن يعقوب بن إسحاق الكندي رئيس صناعتهم في زمانه زعم أن انقضاء هذه الأمة في سنة ثلاث وتسعين وستمائة وادعى كما ذكره غيره من الجمال أن مقتضى ما تستحقه الحروف المقطعة المذكورة في أوائل سور القرآن

---

(١) ربط جمع رباط: الحصن والمعهد المبني الموقوف للفقراء والمتصوّفة.

من الجمل الكبير وفيه أربعة عشر حرفاً بعد حذف المقرر فذلك ستمائة وثلاثة وتسعون من العدد وقد وافقه غيره ممن يدعي الحرف فكذبوا وافتروا وفضحوا أنفسهم وصناعتهم وبرهنوا على جهلهم وقلة عقولهم كما زعم هذا وأصحابه من المنجمين أن نجم هذه الأمة بالزهرة وأن نجم النصارى بالمشري وهذا في غاية ما يملكه أن يكون من الجمل البليغ، فإن صناعتهم تقتضي أن من كان نجمه بالزهرة يكون في غاية اللهو واللعب ولا يعرف في الطوائف كلها من سائر أجناس بني آدم أنه أكمل في هذه الأمة من علومها وعبادتها وصحة فهومها وتصانيفها وتحريرها لما تعانيه من سائر العلوم العقلية والنقلية وغير ذلك كما هو مشاهد معروف وأما من نجمه بالمشتري فإنه عندهم يدل على العلم والعمل ولا يعرف أنه أجهل من النصارى وإن كان في بعضهم عبادة ودرب فهم كما قال بعض العقلاء لو اجتمع عشرة ن النصارى لافترقوا على أحد عشرة قولاً وهو إنما يتقلدون من سلف من جهالهم وضلالهم فيما اجتلبوه لهم من التثليث وجعل الواحد ثلاثة والثلاثة واحداً تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ولهذا قال أبو نصر الفارابي في صناعة التنجيم لو جعل السعد نجساً والنجس سعداً وعكست عليهم جميع صناعتهم لمشت صناعتهم على ذلك فدل ذلك على أن صناعتهم إنما هي مبنية على الظن والتخمين أن الكلام في النجوم ينقسم أقساماً فمنهم ما ذكر الله في القرآن أنه تعالى جعلها زينة للسماء ورجوماً للشياطين وعلامات يهتدي بها في ظلمات البر والبحر قال قتادة وغيره فمن زعم فيها غير ذلك فقد تكلف وقال ما لا علم له به ومن ذلك ما يتعلق بعلم التفسير وغالبه صحيح ولكن لا فائدة كثيرة تحته ومن ذلك عملي وهو فيما يزعمون استعمال قوى الأفلاك الفعالة في القوى الأرضية المنفعلة قال: وهو السحر الذي ذمه الله في كتابه ورسوله].

ثم دخلت سنة أربع وتسعين وستمائة

استهلت والخليفة الحاكم بأمر الله وسلطان البلاد الملك الناصر محمد بن قلاوون وعمره إذ ذاك اثنتا عشرة سنة وأشهراً، ومدبر الممالك وأتابك العساكر الأمير زين الدين كتبغا، ونائب الشام الأمير عز الدين أيبك الحموي، والوزير بدمشق تقي الدين توبة التكريتي، وشاد الدواوين شمس الدين الأعسر، وقاضي الشافعية ابن جماعة، والحنفية حسام الدين الرازي، والمالكية جمال الدين الزواوي، والحنابلة شرف الدين حسن، والمحتسب شهاب الدين الحنفي، ونقيب الأشراف زين الدين بن عدنان، ووكيل بيت المال وناظر الجامع تاج الدين الشيرازي، وخطيب البلد شرف الدين المقدسي.

فلما كان يوم عاشوراء نهض جماعة من مماليك الأشرف وخرقوا حرمة السلطان وأرادوا الخروج عليه، وجاؤوا إلى سوق السلاح فأخذوا ما فيه، ثم احتيط عليهم، فمنهم من صلب ومنهم من شنق، وقطع أيدي آخرين منهم وألسنتهم، وجرت خبطة عظيمة جداً، وكانوا قريباً من ثلاثمائة أو يزيدون.

ذكر سلطنة الملك العادل كتبغا

وأصبح الأمير كتبغا في الحادي عشر من المحرم فجلس على سرير المملكة. وخلع الملك الناصر محمد بن المنصور، وألزمه بيت أهله، وأن لا يخرج منه، وبايعه الأمراء على ذلك، وهنؤوه ومد سماطاً[١] حافلاً، وسارت البريدية بذلك إلى الأقاليم، فبويع له وخطب له مستقلاً وضربت السكة باسمه، وتم الأمر وزينت البلاد، ودقت البشائر، ولقب بالملك العادل، وكان عمره إذ ذاك نحواً من خمسين سنة، فإنه من سبي وقعة حمص الأولى التي كانت في أيام الملك الظاهر بعد وقعة عين جالوت، وكان من الغويرانية، وهم طائفة من التتر، واستناب في مصر الأمير حسام الدين لاجين السلحداري المنصوري، وكان بين يديه مدبر المماليك. وقد ذكر الجزري في تاريخه عن بعض الأمراء أنه شهد هولاكو خان قد سأل منجمه أن يستخرج له من هؤلاء المقدمين في عسكره الذي يملك الديار المصرية، فضرب وحسب وقال له: أجد رجلاً يملكها اسمه كتبغا فظنه كتبغانوين، وهو صهر هولاكو، فقدمه على العساكر فلم يكن هو، فقتل في عين جالوت كما ذكرنا، وأن الذي ملك مصر هذا الرجل وهو من خيار الأمراء وأجودهم سيرة ومعدلة، وقصداً في نصرة الإسلام.

وفي يوم الأربعاء مستهل ربيع الأول ركب كتبغا في أبهة الملك، وشق القاهرة ودعا له الناس وعزل الصاحب تاج الدين بن الحنا عن الوزارة وولّى فخر الدين بن الخليلي، واستسقى الناس بدمشق عند مسجد القدم، وخطب بهم تاج الدين صالح الجعبري نيابة عن مستخلفه الشيخ شرف الدين المقدسي، وكان مريضاً فعزل نفسه عن القضاء، وخطب الناس بعد ذلك، وذلك يوم الأربعاء خامس جمادى الأولى، فلم يسقوا ثم استسقوا مرة أخرى يوم السبت سابع جمادى الآخرة بالمكان المذكور، وخطب بهم شرف الدين المقدسي الخطيب، وكان الجمع أكثر من أول، فلم يسقوا. وفي رجب حكم جمال الدين بن الشريشي نيابة عن القاضي بدر الدين بن جماعة، وفيه درس بالمعظمية القاضي شمس الدين بن العز، انتزعها من علاء الدين بن الدقاق. وفيه ولّي القدس والخليل الملك الأوحد ابن الملك الناصر داود بن المعظم. وفي رمضان رسم للحنابلة أن يصلّوا قبل الإمام الكبير وذلك أنهم كانوا يصلّون بعده فلما أحدث لمحراب الصحابة إمام كانوا يصلّون جميعاً في وقت واحد، فحصل تشويش بسبب ذلك، فاستقرت القاعدة على أن يصلّوا قبل الإمام الكبير، في وقت صلاة مشهد علي بالصحن عند محرابهم في الرواق الثالث الغربي.

قلت: وقد تغيرت هذه القاعدة بعد العشرين وسبعمائة كما سيأتي.

وفي أواخر رمضان قدم القاضي نجم الدين بن صصري من الديار المصرية على قضاء العساكر بالشام، وفي ظهر يوم الخميس خامس شوال صلّى القاضي بدر الدين بن جماعة بمحراب الجامع إماماً وخطيباً عوضاً عن الخطيب المدرس شرف الدين المقدسي، ثم خطب

(١) سماط: بساط أو غيره يمدّ ويوضع عليه الطعام.

من الغد وشكرت خطبته وقراءته وذلك مضاف إلى ما بيده من القضاء وغيره.

وفي أواخر شوال قدمت من الديار المصرية تواقيع شتى منها تدريس الغزالية لابن صصري عوضاً عن الخطيب المقدسي، وتوقيع بتدريس الأمينية لإمام الدين القزويني عوضاً عن نجم الدين بن صصري، ورسم لأخيه جلال الدين بتدريس الظاهرية البرانية عوضاً عنه. وفي شوال كملت عمارة الحمام الذي أنشأه عز الدين الحموي بمسجد القصب، وهو من أحسن الحمامات، وباشر مشيخة دار الحديث النورية الشيخ علاء الدين بن العطار عوضاً عن شرف الدين المقدسي. وحج فيها الملك المجاهد أنس بن الملك العادل كتبغا، وتصدقوا بصدقات كثيرة في الحرمين وغيرهما ونودي بدمشق في يوم عرفة أن لا يركب أحد من أهل الذمة خيلاً ولا بغالاً، ومن رأى من المسلمين أحداً من أهل الذمة قد خالف ذلك فله سلبه. وفي أواخر هذه السنة والتي تليها حصل بديار مصر غلاء شديد هلك بسببه خلق كثير، هلك في شهر ذي الحجة نحو من عشرين ألفاً. وفيها ملك التتار قازان بن أرغون بن أبغا بن تولى بن جنكز خان فأسلم وأظهر الإسلام على يد الأمير توزون رحمه الله، ودخلت التتار أو أكثرهم في الإسلام ونثر الذهب والفضة واللؤلؤ على رؤوس الناس يوم إسلامه، وتسمى بمحمود، وشهد الجمعة والخطبة، وخرب كنائس كثيرة، وضرب عليهم الجزية ورد مظالم كثيرة ببغداد وغيرها من البلاد، وظهرت السبح والهياكل مع التتار والحمد لله وحده. وفيها توفي من الأعيان.

الشيخ أبو الرجال المنيني

الشيخ الصالح الزاهد العابد أبو الرجال بن مري من بحتر المنيني، كانت له أحوال ومكاشفات وكان أهل دمشق والبلاد يزورونه في قرية منين، وربما قدم هو بنفسه إلى دمشق فيكرم ويضاف وكانت له زاوية ببلده، وكان بريئاً من هذه السماعات الشيطانية، وكان تلميذ الشيخ جندل، وكان شيخه الشيخ جندل من كبار الصالحين سالكاً طريق السلف أيضاً، وقد بلغ الشيخ أبو الرجال ثمانين سنة، وتوفي بمنين في منزله في عاشر المحرم، وخرج الناس من دمشق إلى جنازته فمنهم من أدركها ومن الناس من لم يدرك فصلى على القبر ودفن بزاويته رحمه الله تعالى.

وفيها في أواخر ربيع الأول جاء الخبر بأن عساف بن أحمد بن حجى الذي كان قد أجاز ذلك النصراني الذي سب الرسول عليه السلام قتل ففرح الناس بذلك.

الشيخ الصالح العابد الزاهد الورع

بقية السلف جمال الدين أبو القاسم عبد الصمد بن الحرستاني ابن قاضي القضاة، وخطيب الخطباء، عماد الدين عبد الكريم بن جمال الدين عبد الصمد، سمع الحديث وناب عن أبيه في الإمامة وتدريس الغزالية، ثم ترك المناصب والدنيا، وأقبل على العبادة، وكان للناس فيه اعتقاد حسن صالح، يقبّلون يده ويسألونه الدعاء، وقد جاوز الثمانين، ودفن بالسفح عند أهله في أواخر ربيع الآخر.

الشيخ محبّ الدين الطبري المكي

[هو الإمام العلامة العالم الفاضل مفتي بلاد الحجاز في زمانه محب الدين أبو العباس أحمد بن عبد الله بن محمد بن أبي بكر بن مَحمد بن ابراهيم الطبري المكي][١] الشافعي سمع الكثير وصنف في فنون كثيرة، من ذلك كتاب الأحكام في مجلدات كثيرة مفيدة، وله كتاب على ترتيب جامع المسانيد أسمعه لصاحب اليمن، وكان مولده يوم الخميس السابع والعشرين من جمادى الآخرة منها، ودفن بمكة، وله شعر جيد فمنه قصيدته في المنازل التي بين مكة والمدينة تزيد على ثلاثمائة بيت، كتبها عنه الحافظ شرف الدين الدمياطي في معجمه.

الملك المظفر صاحب اليمن

يوسف بن المنصور نور الدين عمر بن علي بن رسول: أقام في مملكة اليمن بعد أبيه سبعاً وأربعين سنة، وعمر ثمانين سنة، وكان أبوه قد ولى أزيد من مدة عشرين سنة بعد الملك أقسيس بن الكامل محمد، وكان عمر بن رسول مقدم عساكر أقسيس، فلما مات أقسيس وثب على الملك فتم له الأمر وتسمى بالملك المنصور، واستمر أزيد من عشرين سنة، ثم ابنه المظفر سبعاً وأربعين سنة، ثم قام من بعده في الملك ولده الملك الأشرف ممهد الدين فلم يمكث سنة حتى مات، ثم قام أخوه المؤيد عز الدين داود بن المظفر فاستمر في الملك مدة، وكانت وفاة الملك المظفر المذكور في رجب من هذه السنة، وقد جاوز الثمانين، وكان يحب الحديث وسماعه، وقد جمع لنفسه أربعين حديثاً.

شرف الدين المقدسي

الشيخ الإمام الخطيب المدرس المفتي، شرف الدين أبو العباس أحمد ابن الشيخ كمال الدين أحمد بن نعمة بن أحمد بن جعفر بن حسين بن حماد المقدسي الشافعي. ولد سنة ثنتين وعشرين وستمائة، وسمع الكثير وكتب حسناً وصنف فأجاد وأفاد، وولي القضاء نيابة بدمشق والتدريس والخطابة بدمشق، وكان مدرس الغزالية ودار الحديث النورية مع الخطابة، ودرس في وقت بالشامية البرانية وأذن في الإفتاء لجماعة من الفضلاء منهم الشيخ الإمام العلامة شيخ الإسلام أبو العباس بن تيمية، وكان يفتخر بذلك ويفرح به ويقول: أنا أذنت لابن تيمية بالإفتاء، وكان يتقن فنوناً كثيرة من العلوم، وله شعر حسن، وصنف كتاباً في أصول الفقه جمع فيه شيئاً كثيراً، وهو عندي بخطه الحسن، توفي يوم الأحد سابع عشر رمضان وقد جاوز السبعين، ودفن بمقابر باب كيسان عند والده رحمه الله ورحم أباه. وقد خطب بعده يوم العيد الشيخ شرف الدين الفزاري خطيب جامع جراح ثم جاء المرسوم لابن جماعة بالخطابة. ومن شعر الخطيب شرف الدين بن المقدسي:

اجْنَحْ إلى الزَّهْرِ لِتَسْعَى بِهِ ... وَارْمِ جِمَارَ الهَمِّ مُسْتَنْفِرا

---

(١) ما بين معقوفين في ط.

مَنْ لَمْ يَطُفْ بِالزَّهْرِ فِي وَقْتِهِ   مِنْ قَبْلِ أَنْ يَخْلِقَ قَدْ قَصَّرَا

واقف الجوهرية الصدر [الكبير العدل][1] نجم الدين

أبو بكر محمد بن عياش بن أبي المكارم التميمي الجوهري، واقف الجوهرية على الحنفية بدمشق توفي ليلة الثلاثاء تاسع عشر شوال، ودفن بمدرسته وقد جاوز الثمانين، وكانت له خدم على الملوك، فمن دونهم.

الشيخ الإمام العالم المفتي

الخطيب الطبيب، مجد الدين أبو محمد عبد الوهاب بن أحمد بن أبي الفتح بن سحنون التنوخي الحنفي: خطيب النيرب ومدرس الدماغية للحنفية، وكان طبيباً ماهراً، حاذقاً، توفي بالنيرب وصلّي عليه بجامع الصالحية، وكان فاضلاً وله شعر حسن، وروى شيئاً من الحديث، توفي ليلة السبت خامس ذي القعدة عن خمس وسبعين سنة.

الفاروثي الشيخ الإمام العابد الزاهد

الخطيب عز الدين أبو العباس أحمد ابن الشيخ محيي الدين إبراهيم بن عمر بن الفرج بن سابور بن علي بن غنيمة الفاروثي الواسطي، ولد سنة أربع عشرة وستمائة، وسمع الحديث ورحل فيه، وكانت له فيه يد جيدة، وفي التفسير والفقه والوعظ والبلاغة، وكان ديناً ورعاً زاهداً، قدم إلى دمشق في دولة الظاهر فأعطى تدريس الجاروضية وإمام مسجد ابن هشام، ورتب له فيه شيء على المصالح، وكان فيه إيثار وله أحوال صالحة، ومكاشفات كثيرة، تقدم يوماً في محراب مسجد ابن هشام ليصلي بالناس فقال ـ قبل أن يكبر للإحرام والتفت عن يمينه ـ فقال: اخرج فاغتسل، فلم يخرج أحد، ثم كرر ذلك ثانية وثالثة، فلم يخرج أحد، فقال: يا عثمان اخرج فاغتسل، فخرج رجل من الصف فاغتسل ثم عاد وجاء إلى الشيخ يعتذر إليه، وكان الرجل صالحاً في نفسه، ذكر أنه أصابه فيض من غير أن يرى شخصاً، فاعتقد أنه لا يلزمه غسل، فلما قال الشيخ ما قال اعتقد أنه يخاطب غيره، فلما عينه باسمه علم أنه المراد. ثم قدم الفاروثي مرة أخرى في أواخر أيام المنصور قلاوون فخطب بجامع دمشق مدة شهور، ثم عزل بموفق الدين الحموي، وتقدم ذكر ذلك، وكان قد درس بالنجيبية وبدار الحديث الظاهرية، فترك ذلك كله وسافر إلى وطنه، فمات بكرة يوم الأربعاء مستهل ذي الحجة، وكان يوم موته يوماً مشهوداً بواسط، وصلّي عليه بدمشق وغيرها رحمه الله، وكان قد لبس خرقة التصوف من السهروردي، وقرأ القراءات العشر وخلف ألفي مجلد ومائتي مجلداً، وحدث بالكثير، وسمع منه البرزالي كثيراً صحيح البخاري وجامع الترمذي وسنن ابن ماجه، ومسند الشافعي ومسند عبد بن حميد، ومعجم الطبراني الصغير، ومسند الدارمي وفضائل القرآن لأبي عبيد وثمانين جزء وغير ذلك.

---

(١) سقط في ط.

الجمال المحقق

أحمد بن عبد الله بن الحسين الدمشقي، اشتغل بالفقه على مذهب الشافعي، وبرع فيه وأفتى وأعاد، وكان فاضلاً في الطب، وقد ولّي مشيخة الدخوارية لتقدمه في صناعة الطب على غيره، وعاد المرضى بالمارستان النوري على قاعدة الأطباء، وكان مدرساً للشافعية بالفرخشانية، ومعيداً بعدة مدارس، وكان جيد الذهن مشاركاً في فنون كثيرة سامحه الله.

الست خاتون بنت الملك الأشرف

موسى بن العادل زوجة ابن عمها المنصور بن الصالح إسماعيل بن العادل، وهي التي أثبت سفهها زمن المنصور قلاوون حتى اشترى منها حزرماً وأخذت الزنبقية من زين الدين السامري.

الصدر جمال الدين

يوسف بن علي بن مهاجر التكريتي: أخو الصاحب تقي الدين توبة، ولّي حسبة دمشق في وقت ودفن بتربة أخيه بالسفح، وكانت جنازته حافلة، وكان له عقل وافر وثروة ومروءة، وخلف ثلاثة بنين: شمس الدين محمد، وعلاء الدين علي، وبدر الدين حسن.

ثم دخلت سنة خمس وتسعين وستمائة

استهلت وخليفة الوقت الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد العباسي، وسلطان البلاد الملك العادل زين الدين كتبغا، ونائبة بمصر الأمير حسام الدين لاجين السلحداري المنصوري، ووزيره فخرالدين بن الخليلي، وقضاة مصر والشام هم المذكورون في التي قبلها، ونائب الشام عز الدين الحموي، ووزيره تقي الدين توبة، وشاد الدواوين الأعسر، وخطيب البلد وقاضيها ابن جماعة. وفي المحرم ولّي نظر الأيتام نجم الدين بن هلال عوضاً عن شرف الدين بن الشيرجي.

وفي مستهل هذه السنة كان الغلاء والفناء بديار مصر شديداً جداً، وقد تفانى الناس إلا القليل، وكانوا يحفرون الحفيرة فيدفنون فيها الفئام من الناس، والأسعار في غاية الغلاء، والأقوات في غاية القلة والغلاء، والموت عمال، فمات بها في شهر صفر مائة ألف ونحو من ثلاثين ألفاً، ووقع غلاء بالشام فبلغت الغرارة إلى مائتين، وقدمت طائفة من التتر الغويرانية لما بلغهم سلطنة كتبغا إلى الشام لأنه منهم، فتلقاهم الجيش بالرحب والسعة، ثم سافروا إلى الديار المصرية مع الأمير قراسنقر المنصوري، وجاء الخبر باشتداد الغلاء والفناء بمصر حتى قيل إنه بيع الفروج بالاسكندرية بستة وثلاثين درهماً، وبالقاهرة بتسعة عشر، والبيض كل ثلاث بدرهم، وأفنيت الحمر والخيل والبغال والكلاب من أكل الناس لها، ولم يبق شيء من هذه الحيوانات يلوح إلا أكلوه.

وفي يوم السبت الثاني عشر من جمادى الأولى ولي قضاء القضاة بمصر الشيخ الإمام العلامة تقي الدين بن دقيق العيد عوضاً عن تقي الدين ابن بنت الأعز، ثم وقع الرخص بالديار المصرية وزال الضر والجوع في جمادى الآخرة ولله الحمد.

وفي يوم الأربعاء ثاني شهر رجب درس القاضي إمام الدين بالقيمرية عوضاً عن صدر الدين بن رزين الذي توفي. قال البرزالي: وفيها وقعت صاعقة على قبة زمزم فقتلت الشيخ علي بن محمد بن عبد السلام مؤذن المسجد الحرام، كان يؤذن على سطح القبة المذكورة، وكان قد روى شيئاً من الحديث. وفيها قدمت امرأة الملك الظاهر أم سلامش من بلاد الأشكري إلى دمشق في أواخر رمضان فبعث إليها نائب البلد بالهدايا والتحف ورتبت لها الرواتب والإقامات، وكان قد نفاهم خليل بن المنصور لما ولي السلطنة.

قال الجزري: وفي رجب درس كمال الدين بن القلانسي بالظاهرية البرانية عوضاً عن جلال الدين القزويني. وفي يوم الأربعاء سابع عشر شعبان درس الشيخ الإمام العلامة شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية الحراني بالمدرسة الحنبلية عوضاً عن الشيخ زين الدين بن المنجى توفي إلى رحمة الله، ونزل ابن تيمية عن حلقة العماد بن المنجا لشمس الدين بن الفخر البعلبكي. وفي آخر شوال ناب القاضي جمال الدين الزرعي الذي كان حاكماً بزرع، وهو سليمان بن عمر بن سالم الأذرعي عن ابن جماعة بدمشق، فشكرت سيرته. وفيها خرج السلطان كتبغا من مصر قاصداً الشام في أواخر شوال، ولما جاء البريد بذلك ضربت البشائر بالقلعة، ونزلوا بالقلعة السلطان ونائبه لاجين ووزيره ابن الخليلي. وفي يوم الأحد سادس عشر ذي القعدة ولي قضاء الحنابلة الشيخ تقي الدين سليمان بن حمزة المقدسي عوضاً عن شرف الدين مات رحمه الله تعالى، وخلع عليه وعلى بقية الحكام وأرباب الولايات الكبار وأكابر الأمراء، وولي نجم الدين بن أبي الطيب وكالة بيت المال عوضاً عن ابن الشيرازي وخلع عليه وعلى الجماعة، ورسم على الأعسر وجماعة من أصحابه وخلق من الكتبة والولاة وصودروا بمال كثير، واحتيط على أموالهم وحواصلهم، وعلى بنت ابن السلعوس وابن عدنان وخلق، وجرت خبطة عظيمة، وقدم ابنا الشيخ علي الحريري حسن وشيث من بسر لزيارة السلطان فحصل لهما منه رفد وإسعاف وعادا إلى بلادهما، وضيفت القلندرية السلطان بسفح جبل المزة، فأعطاهم نحواً من عشرة آلاف، وقدم صاحب حماة إلى خدمة السلطان ولعب معه الكرة بالميدان، واشتكت الأشراف من نقيبهم زين الدين بن عدنان، فرفع الصاحب يده عنهم وجعل أمرهم إلى القاضي الشافعي، فلما كان يوم الجمعة الثاني والعشرين من ذي القعدة صلى السلطان الملك العادل كتبغا بمقصورة الخطابة، وعن يمينه صاحب حماة، وتحته بدر الدين أمير سلاح، وعن يساره أولاد الحريري حسن وأخواه، وتحتهم نائب المملكة حسام الدين لاجين، وإلى جانبه نائب الشام عز الدين الحموي، وتحته بدر الدين بيسري، وتحته قرا سنقر وإلى جانبه الحاج بهادر. وخلفهم أمراء كبار، وخلع على الخطيب بدر الدين بن جماعة خلعة سنية. ولما قضيت الصلاة سلّم على السلطان وزار السلطان المصحف العثماني. ثم أصبح يوم السبت

فلعب الكرة بالميدان.

وفي يوم الاثنين ثاني ذي الحجة عزل الأمير عز الدين الحموي عن نيابة الشام وعاتبه السلطان عتاباً كثيراً على أشياء صدرت منه، ثم عفا عنه وأمره بالمسير معه إلى مصر، واستناب بالشام الأمير سيف الدين غرلو العادلي، وخلع على المولى وعلى المعزول، وحضر السلطان دار العدل وحضر عنده الوزير والقضاة والأمراء، وكان عادلاً كما سمي، ثم سافر السلطان في ثاني عشر ذي الحجة نحو بلاد حلب فاجتاز على حرستا، ثم أقام بالبرية أياماً ثم عاد فنزل حمص، وجاء إليه نواب البلاد وجلس الأمير غرلو نائب دمشق بدار العدل فحكم وعدل، وكان محمود السيرة سديد الحكم رحمه الله تعالى.

وممن توفي فيها من الأعيان:

الشيخ زين الدين بن منجى

الإمام العالم العلامة مفتي المسلمين، الصدر الكامل، زين الدين أبو البركات بن المنجى بن الصدر عز الدين أبي عمر عثمان بن أسعد بن المنجى بن بركات بن المؤمل التنوخي، شيخ الحنابلة وعالمهم، ولد سنة إحدى وثلاثين وستمائة، وسمع الحديث وتفقه، فبرع في فنون من العلم كثيرة من الأصول والفروع والعربية والتفسير وغير ذلك، وانتهت إليه رياسة المذهب، وصنف في الأصول، وشرح المقنع، وله تعاليق في التفسير، وكان قد جمع له بين حسن السمت[1] والديانة والعلم والوجاهة وصحة الذهن والعقيدة والمناظرة وكثرة الصدقة، ولم يزل يواظب على الجامع للاشتغال متبرعاً حتى توفي في يوم الخميس رابع شعبان، وتوفيت معه زوجته أم محمد ست البها بنت صدر الدين الخجندي، وصلي عليهما بعد الجمعة بجامع دمشق، وحملا جميعاً إلى سفح قاسيون شمالي الجامع المظفري تحت الروضة فدفنا في تربة واحدة رحمهما الله تعالى. وهو والد قاضي القضاة علاء الدين، وكان شيخ المسمارية ثم وليها بعده ولداه شرف الدين وعلاء الدين، وكان شيخ الحنبلية فدرس بها بعده الشيخ تقي الدين بن تيمية كما ذكرنا ذلك في الحوادث.

المسعودي صاحب الحمام بالمزة

أحد كبار الأمراء، هو الأمير الكبير بدر الدين لؤلؤ بن عبد الله المسعودي، أحد الأمراء المشهورين بخدمة الملوك، توفي ببستانه بالمزة يوم السبت سابع عشرين شعبان، ودفن صبح يوم الأحد بتربته بالمزة، وحضر نائب السلطنة جنازته، وعمل عزاؤه تحت النسر بجامع دمشق.

الشيخ الخالدي

هو الشيخ الصالح إسرائيل بن علي بن حسين الخالدي، له زاوية خارج باب السلامة، كان يقصد فيها للزيارة، وكان مشتملاً على عبادة وزهادة، وكان لا يقوم لأحد، ولو كان من

---

(١) السمت: الطريق والمحجة.

كان، وعنده سكون وخشوع ومعرفة بالطريق، وكان لا يخرج من منزله إلا إلى الجمعة، حتى كانت وفاته بنصف رمضان ودفن بقاسيون رحمه الله تعالى.

الشرف حسين المقدسي[1]

هو قاضي القضاة شرف الدين أبو الفضل الحسين ابن الشيخ الإمام الخطيب شرف الدين أبي بكر عبد الله ابن الشيخ أبي عمر المقدسي، سمع الحديث وتفقه وبرع في الفروع واللغة، وفيه أدب وحسن محاضرة، مليح الشكل، تولى القضاء بعد نجم الدين ابن الشيخ شمس الدين في أواخر سنة سبع وثمانين، ودرس بدار الحديث الأشرفية بالسفح، توفي ليلة الخميس الثاني والعشرين من شوال، وقد قارب الستين، ودفن من الغد بمقبرة جده بالسفح، وحضر نائب السلطنة والقضاة والأعيان جنازته، وعمل من الغد عزاؤه بالجامع المظفري، وباشر القضاء بعده تقي الدين سليمان بن حمزة، وكذا مشيخة دار الحديث الأشرفية بالسفح، وقد وليها شرف الدين الغابر الحنبلي النابلسي مدة شهور، ثم صرف عنها واستقرت بيد التقي سليمان المقدسي.

الشيخ الصالح الإمام البارع الناسك[2]

أبو محمد بن أبي حمزة المغربي المالكي، توفي بالديار المصرية في ذي القعدة، وكان قوالاً بالحق، أماراً بالمعروف ونهاءً عن المنكر.

الصاحب محيي الدين بن النحاس

أبو عبد الله محمد بن بدر الدين يعقوب بن إبراهيم بن عبد الله بن طارق بن سالم بن النحاس الأسدي الحلبي الحنفي، ولد سنة أربع عشرة وستمائة بحلب، واشتغل وبرع وسمع الحديث وأقام بدمشق مدة، ودرس بها بمدارس كبار، منها الظاهرية والزنجانية، وولي القضاء بحلب والوزارة بدمشق، ونظر الخزانة ونظر الدواوين والأوقاف، ولم يزل مكرماً معظماً معروفاً بالفضيلة والإنصاف في المناظرة، محباً للحديث وأهله على طريقة السلف، وكان يحب الشيخ عبد القادر وطائفته، توفي ببستانه بالمزة عشية الاثنين سلخ ذي الحجة، وقد جاوز الثمانين، ودفن يوم الثلاثاء مستهل سنة ست وتسعين بمقبرة له بالمزة، وحضر جنازته نائب السلطنة والقضاة.

قاضي القضاة

تقي الدين أبو القاسم عبد الرحمن ابن قاضي القضاة تاج الدين أبي محمد عبد الوهاب ابن القاضي الأعز أبي القاسم خلف بن بدر العلائي الشافعي، توفي في جمادى الأولى ودفن بالقرافة بتربتهم.

---

(١) في شذرات الذهب: حسن المقدسي.
(٢) في ط: الشيخ الإمام العالم الناسك.

ثم دخلت سنة ست وتسعين وستمائة [من الهجرة النبوية](١)

استهلت والخليفة والسلطان ونائب مصر ونائب الشام والقضاة هم المذكورون في التي قبلها والسلطان الملك العادل كتبغا في نواحي حمص يتصيد، ومعه نائب مصر لاجين وأكابر الأمراء، ونائب الشام بدمشق وهو الأمير سيف الدين غرلو العادلي. فلما كان يوم الأربعاء ثاني المحرم دخل السلطان كتبغا إلى دمشق وصلى الجمعة بالمقصورة وزار قبر هود وصلى عنده، وأخذ من الناس قصصهم بيده، وجلس بدار العدل في يوم السبت ووقع على القصص هو ووزيره فخر الدين الخليلي. وفي هذا الشهر حضر شهاب الدين بن محيي الدين بن النحاس في مدرستي أبيه الزنجانية والظاهرية وحضر الناس عنده، ثم حضر السلطان دار العدل يوم الثلاثاء وجاء يوم الجمعة فصلى الجمعة بالمقصورة ثم صعد في هذا اليوم إلى مغارة الدم لزيارتها، ودعا هنالك وتصدق بجملة من المال، وحضر الوزير الخليلي ليلة الأحد ثالث عشر المحرم إلى الجامع بعد العشاء فجلس عند شباك الكاملية وقرأ القراؤون بين يديه، ورسم بأن يكمل داخل الجامع بالفرش ففعلوا ذلك، واستمر ذلك نحواً من شهرين ثم عاد إلى ما كان عليه.

وفي صبيحة هذا اليوم درس القاضي شمس الدين بن الحريري بالقيمازية عوضاً عن ابن النحاس باتفاق بينهم، وحضر عنده جماعة، ثم صلى السلطان الجمعة الأخرى بالمقصورة ومعه وزيره ابن الخليلي وهو ضعيف من مرض أصابه، وفي سابع عشر المحرم أمر للملك الكامل ابن الملك السعيد بن الصالح إسماعيل بن العادل بطبلخانة ولبس الشربوش، ودخل القلعة ودقت له الكوسات على بابه، ثم خرج السلطان العادل كتبغا بالعساكر من دمشق بكرة الثلاثاء ثاني عشرين المحرم، وخرج بعده الوزير فاجتاز بدار الحديث، وزار الأثر النبوي، وخرج إليه الشيخ زين الدين الفارقي وشافهه بتدريس الناصرية، وترك زين الدين تدريس الشامية البرانية فوليها القاضي كمال الدين بن الشريشي، وذكر أن الوزير أعطى الشيخ شيئاً من حطام الدنيا فقبله، وكذلك أعطى خادم الأثر وهو المعين خطاب. وخرج الأعيان والقضاة مع الوزير لتوديعه. ووقع في هذا اليوم مطر جيد استشفى الناس به وغسل آثار العساكر من الأوساخ وغيرها، وعاد التقي توبة من توديع الوزير وقد فوض إليه نظر الخزانة وعزل عنها شهاب الدين بن النحاس، ودرس الشيخ ناصر الدين بالناصرية الجوانية عوضاً عن القاضي بدر الدين بن جماعة في يوم الأربعاء آخر يوم من المحرم.

وفي هذا اليوم تحدث الناس فيما بينهم بوقوع تخبيط بين العساكر، وخلف وتشويش، فغلق باب القلعة الذي يلي المدينة، ودخل الصاحب شهاب الدين إليها من ناحية الخوخة، وتهيأ النائب والأمراء وركب طائفة من الجيش على باب النصر وقوفاً، فلما كان وقت العصر وصل السلطان الملك العادل كتبغا إلى القلعة في خمسة أنفس أو ستة من مماليكه، فدخل القلعة فجاء إليه الأمراء وأحضر ابن جماعة وحسام الدين الحنفي، وجددوا الحلف للأمراء ثانية فحلفوا،

---

(١) سقط في ط.

وخلع عليهم، وأمر بالاحتياط على نواب الأمير حسام الدين لاجين وحواصله، وأقام العادل بالقلعة هذه الأيام، وكان الخلف الذي وقع بينهم بوادي فحمة يوم الاثنين الثامن والعشرين من المحرم، وذلك أن الأمير حسام الدين لاجين كان قد واطأ جماعة من الأمراء في الباطن على العادل، وتوثق منهم، وأشار على العادل حين خرجوا من دمشق أن يستصحب معه الخزانة، وذلك لئلا يبقى بدمشق شيء من المال يتقوى به العادل إن فاتهم ورجع إلى دمشق، ويكون قوة له هو في الطريق على ما عزم عليه من الغدر، فلما كانوا بالمكان المذكور قتل لاجين الأمير سيف الدين بيحاص[1] وبكتوت الأزرق العادليين، وأخذ الخزانة من بين يديه والعسكر، وقصدوا الديار المصرية، فلما سمع العادل بذلك خرج في الدهليز وساق جريدة إلى دمشق فدخلها كما ذكرنا، وتراجع إليه بعض مماليكه كزين الدين غلبك وغيره، ولزم شهاب الدين الحنفي القلعة لتدبير المملكة، ودرس ابن الشريشي بالشامية البرانية بكرة يوم الخميس مستهل صفر، وتقلبت أمور كثيرة في هذه الأيام، ولزم السلطان القلعة لا يخرج منها، وأطلق كثيراً من المكوس، وكتب بذلك تواقيع وقرئت على الناس، وغلا السعر جداً فبلغت الغرارة مائتين، واشتد الحال وتفاقم الأمر، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

سلطنة الملك منصور لاجين السلحداري

وذلك أنه لما استاق الخزانة وذهب بالجيوش إلى الديار المصرية دخلها في أبهة عظيمة، وقد اتفق معه جمهور الأمراء الكبار وبايعوه وملكوه عليهم، وجلس على سرير الملك يوم الجمعة عاشر صفر، ودقت بمصر البشائر، وزينت البلد، وخطب له على المنابر، وبالقدس والخليل، ولقب بالملك المنصور، وكذلك دقت له البشائر بالكرك ونابلس وصفد، وذهبت إليه طائفة من أمراء دمشق، وقدمت التجريدة من جهة الرحبة صحبة الأمير سيف الدين كجكن فلم يدخلوا البلد بل نزلوا بميدان الحصن، وأظهروا مخالفة العادل وطاعة المنصور لاجين صاحب مصر، وركب إليه الأمراء طائفة بعد طائفة، وفوجاً بعد فوج، فضعف أمر العادل جداً، فلما رأى انحلال أمره قال للأمراء: هو خشداشي وأنا وهو شيء واحد، وأنا سامع له مطيع، وأنا أجلس في أي مكان من القلعة أراد، حتى تكاتبوه وتنظروا ما يقول. وجاءت البريدية بالمكاتبات بالأمر بالاحتياط على القلعة وعلى العادل وبقي الناس في هرج وأقوال ذات ألوان مختلفة، وأبواب القلعة مغلقة، وأبواب البلد سوى باب النصر إلا الخوخة، والعامة حول القلعة قد ازدحموا حتى سقطت طائفة منهم بالخندق فمات بعضهم وأمسى الناس عشية السبت وقد أعلن باسم الملك المنصور لاجين، ودقت البشائر بذلك بعد العصر ودعا له المؤذنون في سحر ليلة الأحد بجامع دمشق، وتلوا قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران: ٢٦].

وأصبح الناس يوم الأحد فاجتمع القضاة والأمراء وفيهم غرلو العادلي بدار السعادة فحلفوا

---

(١) في ط: بتخاص.

للمنصور لاجين، ونودي بذلك في البلد، وأن يفتح الناس دكاكينهم، واختفى الصاحب شهاب الدين وأخوه زين الدين المحتسب، فعمل الوالي ابن النشابي حسبة البلد، ثم ظهر زين الدين فباشرها على عادته. وكذلك ظهر أخوه شهاب الدين، وسافر نائب البلد غرلو والأمير جاعان إلى الديار المصرية يعلمان السلطان بوقوع التحليف على ما رسم به، وجاء كتاب السلطان أنه جلس على السرير يوم الجمعة عاشر صفر، وشق القاهرة في سادس عشره في أبهة المملكة، وعليه الخلعة الخليفية والأمراء بين يديه مشاة، وأنه قد استناب بمصر الأمير سيف الدين سنقر المنصوري، وخطب للمنصور لاجين بدمشق أول يوم ربيع الأول، وحضر المقصورة القضاة وشمس الدين الأعسر وكجكن، واستدمر وجماعة من أمراء دمشق، وتوجه القاضي إمام الدين القزويني وحسام الدين الحنفي وجمال الدين المالكي إلى الديار المصرية مطلوبين، وقدم الأمير حسام الدين أستاذ دار السلطان، وسيف الدين جاعان من جهة السلطان فحلفوا الأمراء ثانية ودخلوا على العادل القلعة ومعهم القاضي بدر الدين بن جماعة وكجكن فحلفوه أيماناً مؤكدة بعدما طال بينهم الكلام بالتركي. وذكروا بالتركي في مبايعته أنه راض من البلدان أي بلد كان، فوقع التعيين بعد اليمين على قلعة صرخد، وجاءت المراسيم بالوزارة لتقي الدين توبة، وعزل شهاب الدين الحنفي، وبالحسبة لأمين الدين يوسف الأرمني الرومي صاحب شمس الدين الأيكي، عوضاً عن زين الدين الحنفي، ودخل الأمير سيف الدين قبجق المنصوري على نيابة الشام إلى دمشق بكرة السبت السادس عشر من ربيع الأول، ونزل دار السعادة عوضاً عن سيف الدين غرلو العادلي، وقد خرج الجيش بكماله لتلقيه، وحضر يوم الجمعة إلى المقصورة فصلى بها وقرأ بعد الجمعة كتاب سلطاني حسامي بإبطال الضمانات من الأوقاف والأملاك بغير رضى أصحابها، قرأه القاضي محيي الدين بن فضل الله صاحب ديوان الإنشاء، ونودي في البلد من له مظلمة فليأت يوم الثلاثاء إلى دار العدل، وخلع على الأمراء والمقدمين وأرباب المناصب من القضاة والكتبة، وخلع على ابن جماعة خلعتين واحدة للقضاء والأخرى للخطابة.

ولما كان في شهر جمادى الآخرة وصل البريد فأخبر بولاية إمام الدين القزويني القضاء بالشام عوضاً عن بدر الدين بن جماعة، وإبقاء ابن جماعة على الخطابة، وتدريس القيمرية التي كانت بيد إمام الدين، وجاء كتاب السلطان بذلك وفيه احترام وإكرام له، فدرس بالقيمرية يوم الخميس ثاني رجب، ودخل إمام الدين إلى دمشق عقيب صلاة الظهر يوم الأربعاء الثامن من رجب فجلس بالعادلية وحكم بين الناس وامتدحه الشعراء بقصائد، منها قصيدة لبعضهم يقول في أولها:

تَبَدَّلَتِ الأَيَّامُ مِنْ بَعْدِ عُسْرِهَا يُسْرَا ... فَأَضْحَتْ ثُغُورُ الشَّامِ تَفْتَرُّ بِالبُشْرَى

وكان حال دخوله عليه خلعة السلطان ومعه القاضي جمال الدين الزواوي، قاضي قضاة المالكية وعليه خلعة أيضاً، وقد شكر سيرة إمام الدين في السفر، وذكر من حسن أخلاقه ورياضته ما هو حسن جميل، ودرس بالعادلية بكرة الأربعاء منتصف رجب، وأشهد عليه بعد الدرس بولاية أخيه جلال الدين نيابة الحكم، وجلس في الديوان الصغير وعليه الخلعة، وجاء

الناس يهنئونه وقرىء تقليده يوم الجمعة بالشباك الكمالي بعد الصلاة بحضرة نائب السلطنة وبقية القضاة، قرأه شرف الدين الفزاري. وفي شعبان وصل الخبر بأن شمس الدين الأعسر تولى بالديار المصرية مشدّ الدواوين والوزارة، وباشر المنصبين جميعاً، وباشر نظر الدواوين بدمشق فخر الدين بن السيرجي عوضاً عن زين الدين بن صصري، ثم عزل بعد قليل بشهر أو أقل بأمين الدين بن هلال، وأعيدت الشامية البرانية إلى الشيخ زين الدين الفارقي مع الناصرية بسبب غيبة كمال الدين بن الشريشي بالقاهرة.

وفي الرابع عشر من ذي القعدة أمسك الأمير شمس الدين قراسنقر المنصوري نائب الديار المصرية لاجين هو وجماعة من الأمراء معه، واحتيط على حواصلهم وأموالهم بمصر والشام، وولّى السلطان نيابة مصر للأمير سيف الدين منكوتمر الحسامي، وهؤلاء الأمراء الذين مسكهم هم الذين كانوا قد أعانوه وبايعوه على العادل كتبغا، وقدم الشيخ كمال الدين الشريشي ومعه توقيع بتدريس الناصرية عوضاً عن الشامية البرانية، وأمسك الأمير شمس الدين سنقر الأعسر وزير مصر وشاد الدواوين يوم السبت الثالث والعشرين من ذي الحجة، واحتيط على أمواله وحواصله بمصر والشام. ونودي بمصر في ذي الحجة أن لا يركب أحد من أهل الذمة فرساً ولا بغلاً، ومن وجد منهم راكباً ذلك أخذ منه. وفيها ملك اليمن السلطان الملك المؤيد هزبر الدين داود ابن الملك المظفر المتقدم ذكره في التي قبلها.

وممن توفي فيها من الأعيان:

قاضي قضاة الحنابلة بمصر

عز الدين عمر بن عبد الله بن عمر بن عوض المقدسي الحنبلي، سمع الحديث وبرع في المذهب وحكم بمصر، وكان مشكوراً في سيرته وحكمه، توفي في صفر ودفن بالمقطم، وتولى بعده شرف الدين عبد الغني بن يحيى بن محمد بن عبد الله بن نصر الحراني بديار مصر.

الشيخ الإمام [العلامة][1] الحافظ القدوة

عفيف الدين أبو محمد عبد السلام بن محمد بن مزروع بن أحمد بن عزاز المصري الحنبلي، توفي بالمدينة النبوية في أواخر صفر، ولد سنة خمس وعشرين وستمائة، وسمع الحديث الكثير، وجاور بالمدينة النبوية خمسين سنة، وحج فيها أربعين حجة متوالية، وصلّي عليه بدمشق صلاة الغائب رحمه الله.

الشيخ شيث ابن الشيخ علي الحريري

توفي بقرية بسر من حوران يوم الجمعة ثالث عشر ربيع الآخر وتوجه أخوه حسن والفقراء من دمشق إلى هناك لتعزية أخيهم حسن الأكبر فيه.

(١) سقط في ط.

الشيخ الصالح المقري

جمال الدين عبد الواحد بن كثير بن ضرغام المصري، ثم الدمشقي، نقيب السبع الكبير والغزالية، كان قد قرأ على السخاوي وسمع الحديث، توفي في أواخر رجب وصلّي عليه بالجامع الأموي ودفن بالقرب من قبة الشيخ رسلان.

واقف السامرية

الصدر الكبير سيف الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن علي بن جعفر البغدادي السامري واقف السامرية التي إلى جانب الكروسية بدمشق، وكان داره التي يسكن بها، ودفن بها ووقفها دار حديث وخانقاه، وكان قد انتقل إلى دمشق وأقام بها بهذه الدار مدة، وكانت قديماً تعرف بدار ابن قوام، بناها من حجارة منحوتة كلها، وكان السامري كثير الأموال حسن الأخلاق معظماً عند الدولة، جميل المعاشرة، له أشعار رائقة ومبتكرات فائقة، توفي يوم الاثنين ثامن عشر شعبان، وقد كان ببغداد له حظوة عند الوزير ابن العلقمي، وامتدح المعتصم وخلع عليه خلعة سوداء سنية، ثم قدم دمشق في أيام الناصر صاحب حلب فحظي عنده أيضاً فسعى فيه أهل الدولة فصنف فيهم أرجوزة فتح عليهم بسببها باباً فصادرهم الملك بعشرين ألف دينار، فعظّموه جداً وتوسلوا به إلى أغراضهم، وله قصيدة في مدح النبي ﷺ، وقد كتب عنه الحافظ الدمياطي شيئاً من شعره.

واقف النفيسية التي بالرصيف

الرئيس نفيس الدين أبو الفداء إسماعيل بن محمد بن عبد الواحد بن إسماعيل بن سلام بن علي بن صدقة الحراني، كان أحد شهود القيمة بدمشق، وولي نظر الأيتام في وقت، وكان ذا ثروة من المال، ولد سنة ثمان وعشرين وستمائة. وسمع الحديث ووقف داره دار حديث، توفي يوم السبت بعد الظهر الرابع من ذي القعدة، ودفن بسفح قاسيون بكرة يوم الأحد بعد ما صلّي عليه بالأموي.

الشيخ أبو الحسن المعروف بالساروب الدمشقي

يلقب بنجم الدين، ترجمه الحريري فأطنب، وذكر له كرامات وأشياء في علم الحروف وغيرها والله أعلم بحاله.

وفيها قتل قازان الأمير نوروز الذي كان إسلامه على يديه، كان نوروز هذا هو الذي استسلمه ودعاه للإسلام فأسلم وأسلم معه أكثر التتر، فإن التتر شوشوا خاطر قازان عليه واستمالوه منه وعنه، فلم يزل به حتى قتله وقتل جميع من ينسب إليه، وكان نوروز هذا من خيار أمراء التتر عند قازان وكان ذا عبادة وصدق في إسلامه وأذكاره وتطوعاته، وقصده الحسن رحمه الله وعفا عنه، ولقد أسلم على يديه منهم خلق كثير لا يعلمهم إلا الله، واتخذوا السبح والهياكل وحضروا الجمع والجماعات وقرؤوا القرآن والله أعلم.

ثم دخلت سنة سبع وتسعين وستمائة

استهلت والخليفة الحاكم والسلطان لاجين ونائب مصر منكوتمر ونائب دمشق قبجق. وفي عاشر صفر تولى جلال الدين بن حسام الدين القضاء مكان أبيه بدمشق، وطلب أبوه إلى مصر فأقام عند السلطان وولاّه قضاء قضاة مصر للحنفية عوضاً عن شمس الدين السروجي، واستقر ولده بدمشق قاضي قضاة الحنفية، ودرس بمدرستي أبيه الخاتونية والمقدمية، وترك مدرسة القصاعين والشبلية وجاء الخبر على يدي البريد بعافية السلطان من الوقعة التي كان وقعها فدقت البشائر وزينت البلد، فإنه سقط عن فرسه وهو يلعب بالكرة، فكان كما قال الشاعر:

حَوَيْتَ بَطْشاً وَإِحْسَاناً وَمَعْرِفَةً وَلَيْسَ يَحْمِلُ هٰذا كُلَّهُ الفَرَسُ

وجاء على يديه تقليد وخلعة لنائب السلطنة، فقرأ التقليد وباس العتبة. وفي ربيع الأول درس بالجوزية عز الدين ابن قاضي القضاة تقي الدين سليمان وحضر عنده إمام الدين الشافعي وأخوه جلال الدين وجماعة من الفضلاء، وبعد التدريس جلس وحكم عن أبيه بإذنه في ذلك.

وفي ربيع الأول غضب قاضي القضاة تقي الدين بن دقيق العيد وترك الحكم بمصر أياماً، ثم استرضى وعاد وشرطوا عليه أن لا يستنيب ولده المحب، وفي يوم الجمعة عاشر ربيع الآخر أقيمت الجمعة بالمدرسة المعظمية وخطب فيها مدرسها القاضي شمس الدين بن المعز الحنفي، واشتهر في هذا الحين القبض على بدر الدين بيسري واحتيط على أمواله بديار مصر، وأرسل السلطان بجريدة صحبة علم الدين الدويداري إلى تل حمدون ففتحه بحمد الله ومنّه، وجاء الخبر بذلك إلى دمشق في الثاني عشر من رمضان. وخربت به الخليلية وأذن بها الظهر، وكان أخذها يوم الأربعاء سابع رمضان، ثم فتحت مرعش بعدها فدقت البشائر، ثم انتقل الجيش إلى قلعة حمص فأصيب جماعة من الجيش منهم الأمير علم الدين سنجر طقصبا أصابه زيار في فخذه، وأصاب الأمير علم الدين الدويداري حجر في رجله.

ولما كان يوم الجمعة سابع عشر شوال عمل الشيخ تقي الدين بن تيمية ميعاداً في الجهاد وحرض فيه وبالغ في أجور المجاهدين، وكان ميعاداً حافلاً جليلاً.

وفي هذا الشهر عاد الملك المسعود بن خضر بن الظاهر من بلاد الأشكري إلى ديار مصر بعد أن مكث هناك من زمن الأشرف بن المنصور، وتلقاه السلطان بالموكب وأكرمه وعظمه. وحج الأمير خضر بن الظاهر في هذه السنة مع المصريين وكان فيهم الخليفة الحاكم بأمر الله العباسي. وفي شهر شوال جلس المدرسون بالمدرسة التي أنشأها نائب السلطنة بمصر وهي المنكوتمرية داخل باب القنطرة. وفيها دقت البشائر لأجل أخذ قلعتي حميمص ونجم من بلاد سيس.

وفيها وصلت الجريدة من بلاد مصر قاصدين بلاد سيس مدداً لأصحابهم، وهي نحو ثلاثة آلاف مقاتل، وفي منتصف ذي الحجة أمسك الأمير عز الدين أيبك الحموي الذي كان نائب الشام هو وجماعة من أهله وأصحابه من الأمراء. وفيها قلّت المياه بدمشق جداً حتى بقي تورا

في بعض الأماكن لا يصل إلى ركبة الإنسان، وأما بردى فإنه لم يبق فيه مسكة ماء ولا يصل إلى جسر حسرين، وغلا سعر الثلج بالبلد. وأما نيل مصر فإنه كان في غاية الزيادة والكثرة.

وممن توفي فيها من الأعيان.

الشيخ حسن ابن الشيخ علي الحريري

في ربيع الأول بقرية بسر، وكان من كبار الطائفة، وللناس إليه ميل لحسن أخلاقه وجودة معاشرته، ولد سنة إحدى وعشرين وستمائة.

الصدر الكبير شهاب الدين

أبو العباس أحمد بن عثمان بن أبي الرجا بن أبي الزهر التنوخي المعروف بابن السلعوس، أخو الوزير، قرأ الحديث وسمع الكثير، وكان من خيار عباد الله [الصالحين] ، كثير الصدقة والبر، توفي بداره في جمادى الأولى، وصلّي عليه بالجامع ودفن بباب الصغير، وعمل عزاؤه بمسجد ابن هشام، وقد ولّي في وقت نظر الجامع وشكرت سيرته، وحصل له وجاهة عظيمة عريضة أيام وزارة أخيه، ثم عاد إلى ما كان عليه قبل ذلك حتى توفي، وشهد جنازته خلق كثير من الناس.

الشيخ شمس الدين الأيكي

محمد بن أبي بكر بن محمد الفارسي، المعروف بالأيكي، أحد الفضلاء الحلالين للمشكلات، الميسرين المعضلات، لا سيما في علم الأصلين والمنطق، وعلم الأوائل، باشر في وقت مشيخة الشيوخ بمصر، وأقام مدرس الغزالية قبل ذلك، توفي بقرية المزة يوم جمعة، ودفن يوم السبت ومشى الناس في جنازته، منهم قاضي القضاة إمام الدين القزويني، وذلك في الرابع من رمضان ودفن بمقابر الصوفية إلى جانب الشيخ شملة وعمل عزاؤه بخانقاه السميساطية، وحضر جنازته خلق كثير، وكان معظماً في نفوس كثير من العلماء وغيرهم.

الصدر ابن عقبة

إبراهيم بن أحمد بن عقبة بن هبة الله بن عطاء البصراوي، درس وأعاد، وولي في وقت قضاء حلب، ثم سافر قبل وفاته إلى مصر فجاء بتوقيع فيه قضاء قضاة حلب، فلما اجتاز بدمشق توفي بها في رمضان من هذه السنة، وله سبع وثمانون سنة. يشيب المرء ويشب معه خصلتان الحرص وطول الأمل.

الشهاب العابد(٢)

أحمد بن عبد الرحمن بن عبد المنعم بن نعمة المقدسي الحنبلي شهاب الدين عابر

---

(١) سقط في ط.

(٢) في ط: العابر.

الرؤيا سمع الكثير وروى الحديث. وكان عجباً في تفسير المنامات، وله فيه اليد الطولى، وله تصنيف فيه ليس كالذي يؤثر عنه من الغرائب والعجائب، ولد سنة ثمان وعشرين وستمائة، توفي في ذي القعدة ودفن بباب الصغير وكانت جنازته حافلة رحمه الله.

فهرس المحتويات

سنة خمس وتسعين وخمسمائة من الهجرة النبوية

سنة ست وتسعين وخمسمائة من الهجرة النبوية

سنة سبع وتسعين وخمسمائة من الهجرة النبوية

سنة ثمان وتسعين وخمسمائة

سنة تسع وتسعين وخمسمائة من الهجرة النبوية

سنة ستمائة من الهجرة

سنة إحدى وستمائة من الهجرة النبوية

سنة ثنتين وستمائة من الهجرة النبوية

سنة ثلاث وستمائة من الهجرة النبوية

سنة أربع وستمائة من الهجرة النبوية

سنة خمس وستمائة من الهجرة النبوية

سنة ست وستمائة من الهجرة النبوية

سنة سبع وستمائة من الهجرة النبوية

سنة ثمان وستمائة من الهجرة النبوية

سنة تسع وستمائة من الهجرة النبوية

سنة عشر وستمائة

سنة إحدى عشرة وستمائة

سنة اثنتي عشرة وستمائة من الهجرة النبوية

سنة ثلاث عشرة وستمائة من الهجرة النبوية

سنة تسع وعشرين وستمائة من الهجرة النبوية

سنة ثلاثين وستمائة من الهجرة النبوية

سنة إحدى وثلاثين وستمائة

سنة اثنتين وثلاثين وستمائة

سنة ثلاث وثلاثين وستمائة من الهجرة النبوية

سنة أربع وثلاثين وستمائة

سنة خمس وثلاثين وستمائة

سنة ست وثلاثين وستمائة

سنة سبع وثلاثين وستمائة

سنة ثمان وثلاثين وستمائة

سنة خمس وأربعين وستمائة

سنة ست وأربعين وستمائة

سنة سبع وأربعين وستمأئة

سنة ثمان وأربعين وستمائة

سنة تسع وأربعين وستمائة من الهجرة النبوية

سنة خمسين وستمائة هجرية

سنة إحدى وخمسين وستمائة من الهجرة النبوية

سنة اثنتين وخمسين وستمائة من الهجرة النبوية

سنة ثلاث وخمسين وستمائة

سنة أربع وخمسين وستمائة

سنة خمس وخمسين وستمائة

سنة ست وخمسين وستمائة

سنة إحدى وستين وستمائة

سنة ثنتين وستين وستمائة

سنة ثلاث وستين وستمائة

سنة أربع وستين وستمائة

سنة خمس وستين وستمائة

سنة ست وستين وستمائة

سنة سبع وستين وستمائة

سنة ثمان وستين وستمائة

سنة تسع وستين وستمائة

سنة سبعين وستمائة من الهجرة

سنة إحدى وسبعين وستمائة

سنة اثنتين وسبعين وستمائة

سنة ثلاث وسبعين وستمائة

سنة أربع وسبعين وستمائة

سنة خمس وسبعين وستمائة

سنة ست وسبعين وستمائة

سنة سبع وسبعين وستمائة

سنة اثنتين وثمانين وستمائة

سنة ثلاث وثمانين وستمائة

سنة أربع وثمانين وستمائة

سنة خمس وثمانين وستمائة

سنة ست وثمانين وستمائة

سنة سبع وثمانين وستمائة

سنة ثمان وثمانين وستمائة

سنة تسع وثمانين وستمائة

سنة تسعين وستمائة من الهجرة

سنة إحدى وتسعين وستمائة

سنة ثنتين وتسعين وستمائة

سنة ثلاث وتسعين وستمائة

سنة أربع وتسعين وستمائة

سنة خمس وتسعين وستمائة

سنة ست وتسعين وستمائة من الهجرة النبوية

سنة سبع وتسعين وستمائة

البداية والنهاية

تأليف

أبي الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي

المتوفى سنة ٧٧٤ هـ

وثقه وقابل مخطوطاته

الشيخ علي محمد معوض — الشيخ عادل أحمد عبد الموجود

وضع حواشيه

دكتور أحمد أبو ملحم — دكتور علي نجيب عطوي

الأستاذ فؤاد السيد — الأستاذ مهدي ناصر الدين

الأستاذ علي عبد الساتر

الجزء الرابع عشر

المحتوى:

السنوات ٦٩٨ - ٧٦٧ من الهجرة النبوية

منشورات

محمد علي بيضون

لنشر كتب السنة والجماعة

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

ثم دخلت سنة ثمان وتسعين وستمائة

استهلت والخليفة الحاكم العباسي وسلطان البلاد المنصور لاجين ونائبه بمصر مملوكه سيف الدين منكوتمر، وقاضي الشافعية الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد، والحنفي حسام الدين الرازي، والمالكي والحنبلي كما تقدم. ونائب الشام سيف الدين قبجق المنصوري، وقضاة الشام هم المذكورون في التي قبلها، والوزير تقي الدين توبة، والخطيب بدر الدين بن جماعة.

ولما كان في أثناء المحرم رجعت طائفة من الجيش من بلاد سيس بسبب المرض الذي أصاب بعضهم، فجاء كتاب السلطان بالعتب الأكيد والوعيد الشديد لهم، وأن الجيش يخرج جميعه صحبة نائب السلطنة قبجق إلى هناك ونصب مشانق لمن تأخر بعذر أو غيره فخرج نائب السلطنة الأمير سيف الدين قبجق وصحبته الجيوش وخرج أهل البلد للفرجة على الأطلاب[1] على ما جرت به العادة، فبرز نائب السلطنة في أبهة عظيمة فدعت له العامة وكانوا يحبونه، واستمر الجيش سائرين قاصدين بلاد سيس، فلما وصلوا إلى حمص بلغ الأمير سيف الدين قبجق وجماعة من الأمراء أن السلطان قد تغلت خاطره بسبب سعي منكوتمر فيهم، وعلموا أن السلطان لا يخالفه لمحبته له، فاتفق جماعة منهم على الدخول إلى بلاد التتر والنجاة بأنفسهم، فساقوا من حمص فيمن أطاعهم، وهم قبجق وبزلى وبكتمر السلحدار والأيلي، واستمروا ذاهبين. فرجع كثير من الجيش إلى دمشق، وتخبطت الأمور وتأسفت العوام على قبجق لحسن سيرته، وذلك في ربيع الآخر من هذه السنة فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ذكر مقتل المنصور لاجين وعود الملك إلى محمد بن قلاوون

لما كان يوم السبت التاسع عشر ربيع الآخر وصل جماعة من البريدية وأخبروا بقتل السلطان الملك المنصور لاجين ونائبه سيف الدين منكوتمر، وأن ذلك كان ليلة الجمعة حادي عشرة، على يد الأمير سيف الدين كرجي الأشرفي ومن وافقه من الأمراء، وذلك بحضور القاضي حسام الدين الحنفي وهو جالس في خدمته يتحدثان، وقيل كانا يلعبان بالشطرنج، فلم يشعرا إلا وقد دخلوا عليهم فبادروا إلى السلطان بسرعة جهرة ليلة الجمعة فقتلوه وقتل نائبه صبراً صبيحة يوم الجمعة وألقي على مزبلة، واتفق الأمراء على إعادة ابن أستاذهم الملك الناصر محمد بن قلاوون، فأرسلوا وراءه، وكان بالكرك ونادوا له بالقاهرة، وخطب له على المنابر قبل قدومه، وجاءت الكتب إلى نائب الشام قبجق فوجدوه قد فرّ خوفاً من غائلة لاجين، فسارت إليه

---

(١) الأطلاب: جمع طالب وطلبة، وهو ما يطلب.

البريدية فلم يدركوه إلا وقد لحق بالمغول عند رأس العين، من أعمال ماردين، وتفارط الحال (١) ولا قوة إلا بالله.

وكان الذي شمّر العزم وراءهم وساق ليردهم الأمير سيف الدين بلبان، وقام بأعباء البلد نائب القلعة علم الدين أرجواش، والأمير سيف الدين جاعان، واحتاطوا على ما كان له اختصاص بتلك الدولة، وكان منهم جمال الدين يوسف الرومي محتسب البلد، وناظر المارستان، ثم أطلق بعد مدة وأعيد إلى وظائفه، واحتيط أيضاً على سيف الدين جاعان وحسام الدين لاجين والي البر، وأدخلا القلعة، وقتل بمصر الأمير سيف الدين طغجي، وكان قد ناب عن الناصر أربعة أيام، وكرجي الذي تولى قتل لاجين فقتلا، وألقيا على المزابل، وجعل الناس من العامة وغيرهم يتأملون صورة طغجي، وكان جميل الصورة، ثم بعد الدلال والمال والملك وارتهم هناك قبور، فدفن السلطان لاجين وعند رجليه نائبه منكوتمر، ودفن الباقون في مضاجعهم هنالك.

وجاءت البشائر بدخول الملك الناصر إلى مصر يوم السبت رابع جمادى الأولى، وكان يوماً مشهوداً، ودقت البشائر ودخل القضاة وأكابر الدولة إلى القلعة، وبويع بحضرة علم الدين أرجواش، وخطب له على المنابر بدمشق وغيرها بحضرة أكابر العلماء والقضاة والأمراء، وجاء الخبر بأنه قد ركب وشق القاهرة وعليه خلعة الخليفة، والجيش معه مشاة، فضربت البشائر أيضاً. وجاءت مراسيمه فقرئت على السدة وفيها الرفق بالرعايا والأمر بالإحسان إليهم، فدعوا له، وقدم الأمير جمال الدين أقوش الأفرم نائباً على دمشق، فدخلها يوم الأربعاء قبل العصر ثاني عشرين جمادى الأولى، فنزل بدار السعادة على العادة، وفرح الناس بقدومه، وأشعلوا له الشموع، وكذلك يوم الجمعة أشعلوا له لما جاء إلى صلاة الجمعة بالمقصورة. وبعد أيام أفرج عن جاعان ولاجين والي البر، وعادا إلى ما كانا عليه، واستقر الأمير حسام الدين الاستادار أتابكاً للعساكر المصرية، والأمير سيف الدين سلار نائباً بمصر، وأخرج الأعسر في رمضان من الحبس وولي الوزارة بمصر، وأخرج قراسنقر المنصوري من الحبس وأعطي نيابة الصبيبة، ثم لما مات صاحب حماة الملك المظفر نقل قراسنقر إليها.

وكان قد وقع في أواخر دولة لاجين بعد خروج قبجق من البلد محنة للشيخ تقي الدين بن تيمية قام عليه جماعة من الفقهاء وأرادوا إحضاره إلى مجلس القاضي جلال الدين الحنفي، فلم يحضر فنودي في البلد في العقيدة التي كان قد سأله عنها عليه أهل حماة المسماة بالحموية، فانتصر له الأمير سيف الدين جاعان، وأرسل يطلب الذين قاموا عليه فاختفى كثير منهم، وضرب جماعة ممن نادى على العقيدة فسكت الباقون. فلما كان يوم الجمعة عمل الشيخ تقي الدين الميعاد بالجامع على عادته، وفسر في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤] ثم اجتمع بالقاضي إمام الدين يوم السبت واجتمع عنده جماعة من الفضلاء وبحثوا في الحموية

(١) تفارط الحال: تساقط وانفرط عقده وتدهور.

وناقشوه في أماكن فيها، فأجاب عنها بما أسكتهم بعد كلام كثير، ثم ذهب الشيخ تقي الدين وقد تمهدت الأمور، وسكنت الأحوال، وكان القاضي إمام الدين معتقده حسناً ومقصده صالحاً.

وفيها وقف علم الدين سنجر الدويدار رواقه داخل باب الفرج مدرسة ودار حديث، وولى مشيخته الشيخ علاء الدين بن العطار وحضر عنده القضاة والأعيان، وعمل لهم ضيافة، وأفرج عن قراسنقر. وفي يوم السبت حادي عشر شوال فتح مشهد عثمان الذي جدده ناصر الدين بن عبد السلام ناظر الجامع، وأضاف إليه مقصورة الخدم من شماليه، وجعل له إماماً راتباً، وحاكى به مشهد علي بن الحسين زين العابدين. وفي العشر الأولى من ذي الحجة عاد القاضي حسام الدين الرازي إلى قضاء الشام، وعزل عن قضاء مصر، وعزل ولده عن قضاء الشام. وفيها في ذي القعدة كثرت الأراجيف بقصد التتر بلاد الشام وبالله المستعان.

وممن توفي فيها من الأعيان:

الشيخ نظام الدين

أحمد ابن الشيخ جمال الدين محمود بن أحمد بن عبد السلام الحصري الحنفي: مدرس النورية ثامن المحرم، ودفن في تاسعه يوم الجمعة في مقابر الصوفية، كان فاضلاً، ناب في الحكم في وقت ودرس بالنورية بعد أبيه، ثم درس بعده بها الشيخ شمس الدين بن الصدر سليمان بن النقيب.

المفسر الشيخ [الإمام](١) العالم الزاهد

جمال الدين عبد الله بن محمد بن سليمان بن حسن بن الحسين البلخي، ثم المقدسي الحنفي: ولد في النصف من شعبان سنة إحدى عشرة وستمائة بالقدس، واشتغل بالقاهرة وأقام مدة بالجامع الأزهر ودرس في بعض المدارس هناك، ثم انتقل إلى القدس فاستوطنه إلى أن مات في المحرم منها، وكان شيخاً فاضلاً في التفسير، وله فيه مصنف حافل كبير جمع فيه خمسين مصنفاً من التفسير، وكان الناس يقصدون زيارته بالقدس الشريف ويتبركون به.

الشيخ أبو يعقوب المغربي المقيم بالقدس

كان الناس يجتمعون به وهو منقطع بالمسجد الأقصى، وكان الشيخ تقي الدين بن تيمية يقول فيه: هو على طريقة ابن عربي وابن سبعين، توفي في المحرم من هذه السنة.

التقي توبة الوزير

تقي الدين توبة بن علي بن مهاجر بن شجاع بن توبة الربعي التكريتي، ولد سنة عشرين وستمائة يوم عرفة بعرفة، وتنقل بالخدم إلى أن صار وزيراً بدمشق مرات عديدة، حتى توفي ليلة الخميس ثاني جمادى الآخرة، وصلي عليه غدوة بالجامع وسوق الخيل، ودفن بتربته تجاه دار

---

(١) سقط في ط.

الحديث الأشرفية بالسفح، وحضر جنازته القضاة والأعيان، وباشر بعده نظر الدواوين فخر الدين بن الشيرجي وأخذ أمين الدين بن الهلال نظر الخزانة.

الأمير الكبير

شمس الدين بيسري: كان من أكابر الأمراء المتقدمين في خدمة الملوك، من زمن قلاوون وهلم جراً، توفي في السجن بقلعة مصر، وعمل له عزاء بالجامع الأموي، وحضره نائب السلطنة الأفرم والقضاة والأعيان.

السلطان الملك المظفر

تقي الدين محمود بن ناصر الدين محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب: صاحب حماة، وابن ملوكها كابراً عن كابر، توفي يوم الخميس الحادي والعشرين من ذي القعدة، ودفن في ليلة الجمعة.

الملك الأوحد

نجم الدين يوسف ابن الملك داود بن المعظم ناظر القدس: توفي به ليلة الثلاثاء رابع ذي القعدة، ودفن برباطه عند باب حطة عن سبعين سنة، وحضر جنازته خلق كثير، وكان من خيار أبناء الملوك ديناً وفضيلة وإحساناً إلى الضعفاء.

القاضي شهاب الدين

يوسف بن الصالح محب الدين بن النحاس: أحد رؤساء الحنفية، ومدرس الزنجانية والظاهرية توفي ببستانه بالمزة ثالث عشر ذي الحجة، ودرس بعده بالزنجانية القاضي جلال الدين بن حسام الدين.

الصاحب نصير الدين أبو الغنائم

سالم بن محمد بن سالم بن هبة الله بن محفوظ بن صصري التغلبي، كان أحسن حالاً من أخيه القاضي نجم الدين، وقد سمع الحديث وأسمعه، كان صدراً معظماً، ولي نظر الدواوين ونظر الخزانة، ثم ترك المناصب وحج وجاور بمكة، ثم قدم دمشق فأقام بها دون السنة ومات، توفي يوم الجمعة ثامن وعشرين ذي الحجة، وصلّي عليه بعد الجمعة بالجامع، ودفن بتربتهم بسفح قاسيون، وعمل عزاؤه بالصاحبية.

ياقوت بن عبد الله

أبو الدر المستعصمي الكاتب، لقبه جمال الدين، وأصله رومي، كان فاضلاً مليح الخط مشهوراً بذلك، كتب ختماً حساناً، وكتب الناس عليه ببغداد، وتوفي بها في هذه السنة، وله شعر رائق، فمنه ما أورده البرزالي في تاريخه عنه:

تُجَدِّدُ الشمسُ شَوْقِي كُلَّمَا طَلَعَتْ ... إِلَى مُحَيَّاكِ يَا سَمْعِي وَيَا بَصَرِي
وَأَسْهَرُ اللَّيْلَ فِي أُنْسٍ بِلا وَنَسٍ ... إذ طِيبُ ذِكْرَاكِ فِي ظلماتِهِ سَمَرِي
وكلُّ يوم مضى لي لا أراكِ به ... فَلَسْتُ مُحْتَسِباً ماضِيهِ مِنْ عُمُرِي
لَيْلِي نَهَارِي إِذَا ما دُرْتِ فِي خَلَدِي[1] ... لأنَّ ذِكْرَكِ نُورُ القَلْبِ وَالبَصَرِ

ثم دخلت سنة تسع وتسعين وستمائة

وفيها كانت وقعة قازان، وذلك أن هذه السنة استهلت والخليفة والسلطان هما المذكوران في التي قبلها، ونائب مصر سلار، ونائب الشام آقوش الأفرم، وسائر الحكام هم المذكورون في التي قبلها، وقد تواترت الأخبار بقصد التتار إلى بلاد الشام، وقد خاف الناس من ذلك خوفاً شديداً، وجفل الناس من بلاد حلب وحماة، وبلغ كرى الخيل[2] من حماة إلى دمشق نحو المائتي درهم، فلما كان يوم الثلاثاء ثاني المحرم ضربت البشائر بسبب خروج السلطان من مصر قاصداً الشام، فلما كان يوم الجمعة ثامن ربيع الأول دخل السلطان إلى دمشق في مطر شديد ووحل كثير، ومع هذا خرج الناس لتلقيه، وكان قد أقام بغزة قريباً من شهرين، وذلك لما بلغه قدوم التتر إلى الشام، فتهيأ لذلك وجاء فدخل دمشق فنزل بالطارمة، وزينت له البلد، وكثرت له الأدعية وكان وقتاً شديداً، وحالاً صعباً، وامتلأ البلد من الجافلين النازحين عن بلادهم، وجلس الأعسر وزير الدولة وطالب العمال واقترضوا أموال الأيتام وأموال الأسرى لأجل تقوية الجيش، وخرج السلطان بالجيش من دمشق يوم الأحد سابع عشر ربيع الأول ولم يتخلف أحد من الجيوش، وخرج معهم خلق كثير من المتطوعة وأخذ الناس في الدعاء والقنوت في الصلوات بالجامع وغيره، وتضرعوا واستغاثوا وابتهلوا إلى الله بالأدعية.

وقعة قازان

لما وصل السلطان إلى وادي الخزندار عند وادي سلمية، التقى التتر هناك يوم الأربعاء السابع والعشرين من ربيع الأول فالتقوا معهم فكسروا المسلمين وولّى السلطان هارباً فإنا لله وإنا إليه راجعون، وقتل جماعة من الأمراء وغيرهم ومن العوام خلق كثير، وفقد في المعركة قاضي قضاة الحنفية، وقد صبروا وأبلوا بلاءً حسناً، ولكن كان أمر الله قدراً مقدوراً، فولّى المسلمون لا يلوي أحد على أحد، ثم كانت العاقبة بعد ذلك للمتقين، غير أنه رجعت العساكر على أعقابها إلى الديار المصرية واجتاز كثير منهم على دمشق، وأهل دمشق في خوف شديد على أنفسهم وأهليهم وأموالهم، ثم إنهم استكانوا واستسلموا للقضاء والقدر، وماذا يجدي الحذر إذا نزل القدر، ورجع السلطان في طائفة من الجيش على ناحية بعلبك والبقاع، وأبواب دمشق مغلقة، والقلعة محصنة والغلاء شديد والحال ضيق وفرج الله قريب، وقد هرب جماعة من أعيان البلد

---

(١) خلدي: بالي وقلبي.
(٢) كرى الخيل: أجرتها عند السفر والانتقال.

وغيرهم إلى مصر، كالقاضي إمام الدين الشافعي، وقاضي المالكية الزواوي، وتاج الدين الشيرازي، وعلم الدين الصوابي والي البر، وجمال الدين بن النحاس والي المدينة، والمحتسب وغيرهم من التجار والعوام، وبقي البلد شاغراً ليس فيهم حاكم سوى نائب القلعة.

وفي ليلة الأحد ثاني ربيع الأول كسر المحبوسون بحبس باب الصغير الحبس وخرجوا منه على حمية، وتفرقوا في البلد، وكانوا قريباً من مائتي رجل، فنهبوا ما قدروا عليه، وجاؤوا إلى باب الجابية فكسروا أقفال الباب البراني وخرجوا منه إلى بر البلد، فتفرقوا حيث شاؤوا لا يقدر أحد على ردهم، وعاثت الحرافشة في ظاهر البلد فكسروا أبواب البساتين وقلعوا من الأبواب والشبابيك شيئاً كثيراً، وباعوا ذلك بأرخص الأثمان، هذا وسلطان التتر قد قصد دمشق بعد الوقعة، فاجتمع أعيان البلد والشيخ تقي الدين بن تيمية في مشهد علي واتفقوا على المسير إلى قازان لتلقيه، وأخذ الأمان منه لأهل دمشق، فتوجهوا يوم الاثنين ثالث ربيع الآخر فاجتمعوا به عند النبك، وكلّمه الشيخ تقي الدين بن تيمية كلاماً قوياً شديداً فيه مصلحة عظيمة عاد نفعها على المسلمين ولله الحمد. ودخل المسلمون ليلتئذٍ من جهة قازان فنزلوا بالبدرانية[1] وغلقت أبواب البلد سوى باب توما، وخطب الخطيب يوم الجمعة بالجامع ولم يذكر سلطاناً في خطبته، وبعد الصلاة قدم الأمير إسماعيل ومعه جماعة من الرسل فنزلوا ببستان الظاهر عند الطرن. وحضر الفرمان بالأمان، وطيف به في البلد، وقرىء يوم السبت ثامن الشهر بمقصورة الخطابة، ونثر شيء من الذهب والفضة. وفي ثاني يوم من المناداة بالأمان طلبت الخيول والسلاح والأموال المخبأة عند الناس من جهة الدولة، وجلس ديوان الاستخلاص إذ ذاك بالمدرسة القيمرية، وفي يوم الاثنين عاشر الشهر قدم سيف الدين قبجق المنصوري فنزل في الميدان واقترب جيش التتر وكثر العيث[2] في ظاهر البلد، وقتل جماعة وغلت الأسعار بالبلد جداً، وأرسل قبجق إلى نائب القلعة ليسلمها إلى التتر فامتنع أرجواش من ذلك أشد الامتناع، فجمع له قبجق أعيان البلد فكلموه، أيضاً فلم يجبهم إلى ذلك، وصمم على ترك تسليمها إليهم وفيها عين تطرف، فإن الشيخ تقي الدين بن تيمية أرسل إلى نائب القلعة يقول له ذلك لو لم يبق فيها إلا حجر واحد فلا تسلمهم ذلك إن استطعت، وكان في ذلك مصلحة عظيمة لأهل الشام فإن الله حفظ لهم هذا الحصن والمعقل الذي جعله الله حرزاً لأهل الشام التي لا تزال دار إيمان وسنة، حتى ينزل بها عيسىٰ ابن مريم. وفي يوم دخول قبجق إلى دمشق دخل السلطان ونائبه سلار إلى مصر كما جاءت البطاقة بذلك إلى القلعة، ودقت البشائر، فقوي جأش الناس بعض قوة، ولكن الأمر كما يقال:

كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى سُعَادَ وَدُونَهَا ... قُلَلُ[3] الجِبَالِ وَدُونَهُنَّ حُتُوفُ

الرِّجْلُ حَافِيَةٌ وَمَا لِي مَرْكَبٌ ... وَالكَفُّ صِفْرٌ وَالطَّرِيقُ مَخُوفُ

---

(١) في ط: بالباذرانية.

(٢) العيث: الفساد.

(٣) قلل: جمع قلة: وهي أعلى الرأس والجبل وكل شيء.

وفي يوم الجمعة رابع عشر ربيع الآخر خطب لقازان على منبر دمشق بحضور المغول بالمقصورة ودعي له على السدة بعد الصلاة وقرىء عليها مرسوم بنيابة قبجق على الشام، وذهب إليه الأعيان فهنؤوه، بذلك فأظهر الكرامة وأنه في تعب عظيم مع التتر، ونزل شيخ المشايخ محمود بن علي الشيباني بالمدرسة العادلية الكبيرة. وفي يوم السبت النصف من ربيع الآخر شرعت التتار وصاحب سيس في نهب الصالحية ومسجد الأسدية ومسجد خاتون ودار الحديث الأشرفية بها واحترق جامع التوبة بالعقيبية، وكان هذا من جهة الكرج والأرمن من النصارى الذين هم مع التتر قبّحهم الله. وسبوا من أهلها خلقاً كثيراً وجماً غفيراً، وجاء أكثر الناس إلى رباط الحنابلة فاحتاطت به التتر فحماه منهم شيخ الشيوخ المذكور، وأعطى في الساكن مال له صورة ثم أقحموا عليه فسبوا منه خلقاً كثيراً من بنات المشايخ وأولادهم فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ولما نكب دير الحنابلة في ثاني جمادى الأولى قتلوا خلقاً من الرجال وأسروا من النساء كثيراً ونال قاضي القضاة تقي الدين أذى كثير، ويقال إنهم قتلوا من أهل الصالحية قريباً من أربعمائة، وأسروا نحواً من أربعة آلاف أسير، ونهبت كتب كثيرة من الرباط الناصري والضيائية، وخزانة ابن البزوري، فكانت تباع وهي مكتوب عليها بالوقفية، وفعلوا بالمزة مثل ما فعلوا بالصالحية، وكذلك بداريا وغيرها، وتحصن الناس منهم في الجامع بداريا ففتحوه قسراً وقتلوا منهم خلقاً وسبوا نساءهم وأولادهم، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وخرج الشيخ ابن تيمية في جماعة من أصحابه يوم الخميس العشرين من ربيع الآخر إلى ملك التتر وعاد بعد يومين ولم يتفق اجتماعه به، حجبه عنه الوزير سعد الدين والرشيد مشير الدولة المسلماني ابن يهودي، والتزما له بقضاء الشغل، وذكرا له أن التتر لم يحصل لكثير منهم شيء إلى الآن، ولا بد لهم من شيء، واشتهر بالبلد أن التتر يريدون دخول دمشق فانزعج الناس لذلك وخافوا خوفاً شديداً، وأرادوا الخروج منها والهرب على وجوههم، وأين الفرار ولات حين مناص، وقد أخذ من البلد فوق العشرة آلاف فرس، ثم فرضت أموال كثيرة على البلد موزعة على أهل الأسواق كل سوق بحسبه من المال، فلا قوة إلا بالله. وشرع التتر في عمل مجانيق بالجامع ليرموا بها القلعة من صحن الجامع، وغلقت أبوابه ونزل التتر في مشاهده يحرسون أخشاب المجانيق، وينهبون ما حوله من الأسواق، وأحرق أرجواش ما حول القلعة من الأبنية، كدار الحديث الأشرفية وغير ذلك، إلى حد العادلية الكبيرة، وأحرق دار السعادة لئلا يتمكنوا من محاصرة القلعة من أعاليها، ولزم الناس منازلهم لئلا يسخروا في طم الخندق، وكانت الطرقات لا يرى بها أحد إلا القليل، والجامع لا يصلي فيه أحد إلا اليسير، ويوم الجمعة لا يتكامل فيه الصف الأول وما بعده إلا بجهد جهيد، ومن خرج من منزله في ضرورة يخرج بثياب زيهم ثم يعود سريعاً، ويظن أنه لا يعود إلى أهله، وأهل البلد قد أذاقهم الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

والمصادرات والتراسيم والعقوبات عمالة في أكابر أهل البلد ليلاً ونهاراً، حتى أخذ منهم

شيء كثير من الأموال والأوقاف، كالجامع وغيره، ثم جاء مرسوم بصيانة الجامع وتوفير أوقافه وصرف ما كان يؤخذ بخزائن السلاح وإلى الحجاز وقرىء ذلك المرسوم يوم الجمعة بعد صلاة الجمعة في تاسع عشر جمادى الأولى، وفي ذلك اليوم توجه السلطان قازان وترك نوابه بالشام في ستين ألف مقاتل نحو بلاد العراق، وجاء كتابه إنا قد تركنا نوابنا بالشام في ستين ألف مقاتل، ومن عزمنا العود إليها في زمن الخريف، والدخول إلى الديار المصرية وفتحها، وقد أعجزتهم القلعة أن يصلوا إلى حجر منها، وخرج سيف الدين قبجق لتوديع قطلو شاه نائب قازان وسار وراءه فضربت البشائر بالقلعة فرحاً لرحيلهم، ولم تفتح القلعة، وأرسل أرجواش ثاني يوم من خروج قبجق القلعة إلى الجامع فكسروا أخشاب المنجنيقات المنصوبة به، وعادوا إلى القلعة سريعاً سالمين، واستصحبوا معهم جماعة ممن كانوا يلوذون بالتتر قهراً إلى القلعة، منهم الشريف القمي، وهو شمس الدين محمد بن محمد بن أحمد بن أبي القاسم المرتضى العلوي، وجاءت الرسل من قبجق إلى دمشق فنادوا بها طيبوا نفوسكم وافتحوا دكاكينكم وتهيؤوا غداً لتلقي سلطان الشام سيف الدين قبجق، فخرج الناس إلى أماكنهم فأشرفوا عليها فرأوا ما بها من الفساد والدمار، وانفك رؤساء البلد من التراسيم بعدما ذاقوا شيئاً كثيراً.

قال الشيخ علم الدين البرزالي: ذكر لي الشيخ وجيه الدين بن المنجا أنه حمل إلى خزانة قازان ثلاثة آلاف ألف وستمائة ألف درهم، سوى ما تمحق من التراسيم والبراطيل وما أخذ غيره من الأمراء والوزراء، وأن شيخ المشايخ حصل له نحو من ستمائة ألف درهم، والأصيل بن النصير الطوسي مائة ألف، والصفي السخاوي[1] ثمانون ألفاً، وعاد سيف الدين قبجق إلى دمشق يوم الخميس بعد الظهر خامس عشرين جمادى الأولى ومعه الأليكي[2] وجماعة، وبين يديه السيوف مسللة وعلى رأسه عصابة فنزل بالقصر ونودي بالبلد نائبكم قبجق قد جاء فافتحوا دكاكينكم واعملوا معاشكم ولا يغرر أحد بنفسه هذا الزمان والأسعار في غاية الغلاء والقلة، قد بلغت الغرارة إلى أربعمائة، واللحم الرطل بنحو العشرة، والخبز كل رطل بدرهمين ونصف، والعشرة الدقيق بنحو الأربعين، والجبن الأوقية بدرهم، والبيض كل خمسة بدرهم، ثم فرج الله تعالى عنهم في أواخر الشهر، ولما كان يوم في أواخر الشهر نادى قبجق بالبلد أن يخرج الناس إلى قراهم وأمر جماعة وانضاف إليه خلق من الأجناد، وكثرت الأراجيف على بابه، وعظم شأنه ودقت البشائر بالقلعة وعلى باب قبجق يوم الجمعة رابع جمادى الآخرة، وركب قبجق بالعصائب في البلد والشاويشية بين يديه، وجهز نحواً من ألف فارس نحو خربة اللصوص، ومشى مشي الملوك في الولايات وتأمير الأمراء والمراسيم العالية النافذة، وصار كما قال الشاعر:

يَـا لَـكِ مِـنْ قُـبَّـرَةٍ بِـمَـعْـمَـرِ خَـلا لَـكِ الـجَـوُّ فَـبِـيضِـي وَاصْـفِـرِي
وَنَـقِّـرِي مَـا شِـئْـتِ أَنْ تُـنَـقِّـرِي لا بُـدَّ مِـنْ صَـيْـدِكَ يَـوْمـاً فَـاصْـبِـرِي

---

(١) في ط: السنجاري.
(٢) في ط: الأيبكي.

ثم إنه ضمن الخمارات ومواضع الزنى من الحانات وغيرها، وجعلت دار ابن جرادة خارج باب توما خمارة وحانة أيضاً، وصار له على ذلك في كل يوم ألف درهم، وهي التي دمرته ومحقت آثاره وأخذ أموالاً أخر من أوقاف المدارس وغيرها، ورجع بولاي من جهة الأغوار وقد عاث في الأرض فساداً، ونهب البلاد وخرب ومعه طائفة من التتر، وقد خربوا قرى كثيرة، وقتلوا من أهلها وسبوا خلقاً من أطفالها، وجبى لبولاي من دمشق أيضاً جباية أخرى، وخرج طائفة من القلعة فقتلوا طائفة من التتر ونهبوهم، وقتل جماعة من المسلمين في غبون ذلك، وأخذوا طائفة ممن كان يلوذ بالتتر ورسم قبجق لخطيب البلد وجماعة من الأعيان أن يدخلوا القلعة فيتكلموا مع نائبها في المصالحة فدخلوا عليه يوم الاثنين ثاني عشر جمادى الآخرة، فكلموه وبالغوا معه فلم يجب إلى ذلك وقد أجاد وأحسن وأرجل في ذلك بيض الله وجهه.

وفي ثامن رجب طلب قبجق القضاة والأعيان فحلفهم على المناصحة للدولة المحمودية يعني قازان - فحلفوا له، وفي هذا اليوم خرج الشيخ تقي الدين بن تيمية إلى مخيم بولاي فاجتمع به في فكاك من كان معه من أسارى المسلمين، فاستنقذ كثيراً منهم من أيديهم، وأقام عنده ثلاثة أيام ثم عاد، ثم راح إليه جماعة من أعيان دمشق ثم عادوا من عنده فشلحوا عند باب شرقي وأخذت ثيابهم وعمائمهم ورجعوا في شر حالة، ثم بعث في طلبهم فاختفى أكثرهم وتغيبوا عنه، ونودي بالجامع بعد الصلاة ثالث رجب من جهة نائب القلعة بأن العساكر المصرية قادمة إلى الشام، وفي عشية يوم السبت رحل بولاي وأصحابه من التتر وانشمروا عن دمشق وقد أراح الله منهم وساروا من على عقبة دمر فعاثوا في تلك النواحي فساداً، ولم يأت سابع الشهر وفي حواشي البلد منهم أحد، وقد أزاح الله عز وجل شرهم عن العباد والبلاد، ونادى قبجق في الناس قد أمنت الطرقات ولم يبق بالشام من التتر أحد، وصلى قبجق يوم الجمعة عاشر رجب بالمقصورة، ومعه جماعة عليهم لأمة الحرب من السيوف والقسي والتراكيش فيها النشاب، وأمنت البلاد، وخرج الناس للفرجة في غيض السفرجل على عادتهم فعاثت عليهم طائفة من التتر، فلما رأوهم رجعوا إلى البلد هاربين مسرعين، ونهب بعض الناس بعضاً ومنهم من ألقى نفسه في النهر، وإنما كانت هذه الطائفة مجتازين ليس لهم قرار، وتقلق قبجق من البلد ثم إنه خرج منها في جماعة من رؤسائها وأعيانها منهم عز الدين بن القلانسي ليتلقوا الجيش المصري وذلك أن جيش مصر خرج إلى الشام في تاسع رجب وجاءت البريدية بذلك، وبقي البلد ليس به أحد، ونادى أرجواش في البلد احفظوا الأسوار وأخرجوا ما كان عندكم من الأسلحة ولا تهملوا الأسوار والأبواب، ولا يبيتن أحد إلا على السور، ومن بات في داره شنق، فاجتمع الناس على الأسوار لحفظ البلاد، وكان الشيخ تقي الدين بن تيمية يدور كل ليلة فوق الأسوار يحرض الناس على الصبر والقتال ويتلو عليهم آيات الجهاد والرباط.

وفي يوم الجمعة سابع عشر رجب أعيدت الخطبة بدمشق لصاحب مصر ففرح الناس بذلك، وكان يخطب لقازان بدمشق وغيرها من بلاد الشام مائة يوم سواء. وفي بكرة يوم الجمعة المذكور دار الشيخ تقي الدين بن تيمية رحمه الله وأصحابه على الخمارات والحانات فكسروا

آنية الخمر وشققوا الظروف وأراقوا الخمور، وعزروا جماعة من أهل الحانات المتخذة لهذه الفواحش، ففرح الناس بذلك، ونودي يوم السبت ثامن عشر رجب بأن تزين البلد لقدوم العساكر المصرية، وفتح باب الفرج مضافاً إلى باب النصر يوم الأحد تاسع عشر رجب، فُفرح الناس بذلك وانفرجوا لأنهم لم يكونوا يدخلون إلا من باب النصر، وقدم الجيش الشامي صحبة نائب دمشق جمال الدين آقوش الأفرم يوم السبت عاشر شعبان، وثاني يوم دخل بقية العساكر وفيهم الأميران شمس الدين قراسنقر المنصوري وسيف الدين قطلبك في تجمل. وفي هذا اليوم فتح باب العريش[١]، وفيه درس القاضي جلال الدين القزويني بالأمينية عوضاً عن أخيه قاضي القضاة إمام الدين توفي بمصر، وفي يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء تكامل دخول العساكر صحبة نائب مصر سيف الدين سلار، وفي خدمته الملك العادل كتبغا، وسيف الدين الطرياخي في تجمل باهر، ونزلوا بالمرج، وكان السلطان قد خرج حازماً على المجيء فوصل إلى الصالحية ثم عاد إلى مصر.

وفي يوم الخميس النصف من شعبان أعيد القاضي بدر الدين بن جماعة إلى قضاء القضاة بدمشق مع الخطابة بعد إمام الدين، ولبس معه في هذا اليوم أمين الدين العجمي خلعة الحسبة، وفي يوم سابع عشرة لبس خلعة نظر الدواوين تاج الدين الشيرازي عوضاً عن فخر الدين بن الشيرجي، ولبس أقبجا شد الدواوين في باب الوزير شمس الدين سنقر الأعسر، وباشر الأمير عز الدين أيبك الدوادار النجيبي ولاية البر، بعدما جعل من أمراء الطبلخانة، ودرس الشيخ كمال الدين بن الزملكاني بأم الصالح عوضاً عن جلال الدين القزويني يوم الأحد الحادي والعشرين من شعبان، وفي هذا اليوم ولي قضاء الحنفية شمس الدين بن الصفي الحريري عوضاً عن حسام الدين الرومي، فقد يوم المعركة في ثاني رمضان، ورفعت الستائر عن القلعة في ثالث رمضان. وفي مستهل رمضان جلس الأمير سيف الدين سلار بدار العدل في الميدان الأخضر وعند القضاة والأمراء يوم السبت، وفي يوم السبت الآخر خلع على عز الدين القلانسي خلعة سنية وجعل ولده عماد الدين عبد العزيز شاهداً في الخزانة. وفي هذا اليوم رجع سلار بالعساكر إلى مصر وانصرفت العساكر الشامية إلى مواضعها وبلدانها. وفي يوم الاثنين عاشر رمضان درس صدر الدين علي بن الصفي بن أبي القاسم البصراوي الحنفي بالمدينة المقدمية.

وفي شوال فيها عرفت جماعة ممن كان يلوذ بالتتر ويؤذي المسلمين، وشنق منهم طائفة وسمر آخرون وكحل بعضهم وقطعت ألسن وجرت أمور كثيرة. وفي منتصف شوال درس بالدولعية قاضي القضاة جمال الدين الزرعي نائب الحكم عوضاً عن جمال الدين بن الباجريقي، وفي يوم الجمعة العشرين منه ركب نائب السلطنة جمال الدين آقوش الأفرم في جيش دمشق إلى جبال الجرد وكسروان، وخرج الشيخ تقي الدين بن تيمية ومعه خلق كثير من المطوّعة والحوارنة لقتال أهل تلك الناحية، بسبب فساد نيتهم وعقائدهم وكفرهم وضلالهم، وما كانوا

(١) في ط: باب الفراديس.

عاملوا به العساكر لما كسرهم التتر وهربوا حين اجتازوا ببلادهم، وثبوا عليهم ونهبوهم وأخذوا أسلحتهم وخيولهم، وقتلوا كثيراً منهم، فلما وصلوا إلى بلادهم جاء رؤساؤهم إلى الشيخ تقي الدين بن تيمية فاستتابهم وبين للكثير منهم الصواب وحصل بذلك خير كثير، وانتصار كبير على أولئك المفسدين، والتزموا برد ما كانوا أخذوه من أموال الجيش، وقرر عليهم أموالاً كثيرة يحملونها إلى بيت المال، وأقطعت أراضيهم وضياعهم، ولم يكونوا قبل ذلك يدخلون في طاعة الجند ولا يلتزمون أحكام الملة، ولا يدينون دين الحق، ولا يحرّمون ما حرّم الله تعالى ورسوله. وعاد نائب السلطنة يوم الأحد ثالث عشر ذي القعدة وتلقاه الناس بالشموع إلى طريق بعلبك وسط النهار. وفي يوم الأربعاء سادس عشرة نودي في البلد أن يعلق الناس الأسلحة بالدكاكين، وأن يتعلم الناس الرمي فعملت الإماجات[1] في أماكن كثيرة من البلد، وعلقت الأسلحة بالأسواق، ورسم قاضي القضاة بعمل الإماجات في المدارس، وأن يتعلم الفقهاء الرمي ويستعدوا لقتال العدو إن حضر، وبالله المستعان.

وفي الحادي والعشرين من ذي القعدة استعرض نائب السلطنة أهل الأسواق بين يديه وجعل على كل سوق مقدماً وحوله أهل سوقه، وفي الخميس رابع عشرينه عرضت الأشراف مع نقيبهم نظام الملك الحسيني بالعدد والتجمل الحسن، وكان يوماً مشهوداً. ومما كان من الحوادث في هذه السنة أن جدد إمام راتب عند رأس قبر زكريا، وهو الفقيه شرف الدين أبو بكر الحموي، وحضر عنده يوم عاشوراء القاضي إمام الدين الشافعي، وحسام الدين الحنفي وجماعة، ولم تطل مدته إلا شهوراً ثم عاد الحموي إلى بلده وبطلت هذه الوظيفة إلى الآن ولله الحمد.

وممن توفي فيها من الأعيان:

القاضي حسام الدين أبو الفضائل

الحسن ابن القاضي تاج الدين أبي المفاخر أحمد بن الحسن أنو شروان[2] الرازي الحنفي، ولي قضاء ملطية مدة عشرين سنة، ثم قدم دمشق فوليها مدة، ثم انتقل إلى مصر فوليها مدة، وولده جلال الدين بالشام ثم صار إلى الشام فعاد إلى الحكم بها، ثم لما خرج الجيش إلى لقاء قازان بوادي الخزندار عند وادي سلمية خرج معهم ففقد من الصف ولم يدر ما خبره، وقد قارب السبعين، وكان فاضلاً بارعاً رئيساً، له نظم حسن، ومولده باقسيس من بلاد الروم في المحرم سنة إحدى وثلاثين وستمائة فقد يوم الأربعاء الرابع والعشرين من ربيع الأول منها، وقد قتل عنده يومئذٍ عدة من سادات الأمراء ثم ولي بعده القضاء شمس الدين الحريري.

القاضي الإمام العالي[3]

إمام الدين أبو المعالي عمر ابن القاضي سعد الدين أبي القاسم عبد الرحمن ابن الشيخ

---

(١) الإماجات: أماكن التدريب.

(٢) في ط: بن شروان.

(٣) في ط: العالم.

إمام الدين أبي حفص عمر بن أحمد بن محمد القزويني الشافعي، قدم دمشق هو وأخوه جلال الدين فقررا في مدارس، ثم انتزع إمام الدين قضاء القضاة بدمشق من بدر الدين بن جماعة كما تقدم في سنة سبع وسبعين، وناب عنه أخوه، وكان جميل الأخلاق كثير الإحسان رئيساً، قليل الأذى، ولما أزف قدوم التتار سافر إلى مصر، فلما وصل إليها لم يقم بها سوى أسبوع وتوفي ودفن بالقرب من قبة الشافعي عن ست وأربعين سنة، وصار المنصب إلى بدر الدين بن جماعة، مضافاً إلى ما بيده من الخطابة وغيرها، ودرس أخوه بعده بالأمينية.

المسند المعمر الرحلة

شرف الدين [أبو الفضل][(١)] أحمد بن هبة الله بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسن بن عساكر الدمشقي، ولد سنة أربع عشرة وستمائة، وسمع الحديث وروى، توفي خامس عشر جمادى الأولى عن خمس وثمانين سنة.

الخطيب الإمام العالم

موفق الدين أبو المعالي محمد بن محمد بن الفضل النهرواني القضاعي الحموي، خطيب حماة، ثم خطب بدمشق عوضاً عن الفاروثي، ودرس بالغزالية ثم عزل بابن جماعة، وعاد إلى بلده، ثم قدم دمشق عام قازان فمات بها.

الصدر شمس الدين

محمد بن سليمان بن حمايل بن علي المقدسي المعروف بابن غانم، وكان من أعيان الناس وأكثرهم مروءة، ودرس بالعصرونية، توفي وقد جاوز الثمانين، كان من الكتاب المشهورين المشكورين، وهو والد الصدر علاء الدين بن غانم.

الشيخ جمال الدين أبو محمد

عبد الرحيم بن عمر بن عثمان الباجريقي الشافعي، أقام مدة بالموصل يشتغل ويفتي، ثم قدم دمشق عام قازان فمات بها، وكان قد أقام بها مدة كذلك، ودرس بالقليجية والدولعية، وناب في الخطابة ودرس بالغزالية نيابة عن الشمس الأيكي، وكان قليل الكلام مجموعاً عن الناس، وهو والد الشمس محمد المنسوب إلى الزندقة والانحلال، وله أتباع ينسبون إلى ما ينسب إليه، ويعكفون على ما كان يعكف عليه، وقد حدث جمال الدين المذكور بجامع الأصول عن بعض أصحاب مصنفات ابن الأثير، وله نظم ونثر حسن، والله سبحانه أعلم.

ثم دخلت سنة سبعمائة من الهجرة النبوية

استهلت والخليفة والسلطان ونواب البلاد والحكام بها هم المذكورون في التي قبلها، غير الشافعي والحنفي، ولما كان ثالث المحرم جلس المستخرج لاستخلاص أجرة أربعة أشهر من

---

(١) سقط في ط.

جميع أملاك الناس وأوقافهم بدمشق، فهرب أكثر الناس من البلد، وجرت خبطة قوية وشق ذلك على الناس جداً.

وفي مستهل صفر وردت الأخبار بقصد التتر بلاد الشام، وأنهم عازمون على دخول مصر، فانزعج الناس لذلك وازدادوا ضعفاً على ضعفهم، وطاشت عقولهم وألبابهم، وشرع الناس في الهرب إلى بلاد مصر والكرك والشوبك والحصون المنيعة، فبلغت الحمارة إلى مصر خمسمائة وبيع الجمل بألف والحمار بخمسمائة، وبيعت الأمتعة والثياب والمغلات بأرخص الأثمان، وجلس الشيخ تقي الدين بن تيمية في ثاني صفر بمجلسه في الجامع وحرض الناس على القتال، وساق لهم الآيات والأحاديث الواردة في ذلك، ونهى عن الإسراع في الفرار، ورغب في إنفاق الأموال في الذب عن المسلمين وبلادهم وأموالهم، وأن ما ينفق[١] في أجرة الهرب إذا أنفق في سبيل الله تعالى كان خيراً، وأوجب جهاد التتر حتماً في هذه الكرة، وتابع المجالس في ذلك، ونودي في البلدان لا يسافر أحد إلا بمرسوم وورقة فتوقف الناس عن المسير وسكن جأشهم، وتحدث الناس بخروج السلطان من القاهرة بالعساكر ودقت البشائر لخروجه، لكن كان قد خرج جماعة من بيوتات دمشق كبيت ابن صصري وبيت ابن فضل الله وابن منجا وابن سويد وابن الزملكاني وابن جماعة.

وفي أول ربيع الآخر قوي الإرجاف بأمر التتر، وجاء الخبر بأنهم قد وصلوا إلى البيرة ونودي في البلدان أن تخرج العامة مع العسكر، وجاء مرسوم النائب من المرج بذلك، فاستعرضوا في أثناء الشهر فعرض نحو خمسة آلاف من العامة بالعدة والأسلحة على قدر طاقتهم، وقنت الخطيب ابن جماعة في الصلوات كلها، واتبعه أئمة المساجد، وأشاع المرجفون[٢] أن التتر قد وصلوا إلى حلب وأن نائب حلب تقهقر إلى حماة، ونودي في البلد بتطييب قلوب الناس وإقبالهم على معايشهم، وأن السلطان والعساكر واصلة، وأبطل ديوان المستخرج وأقيموا، ولكن كانوا قد استخرجوا أكثر مما أمروا به وبقيت بواقي على الناس الذين قد اختفوا فعفى عما بقي، ولم يرد ما سلف، لا جرم أن عواقب هذه الأفعال خسر ونكر، وأن أصحابها لا يفلحون، ثم جاءت الأخبار بأن سلطان مصر رجع عائداً إلى مصر بعد أن خرج منها قاصداً الشام، فكثر الخوف واشتد الحال، وكثرت الأمطار جداً، وصار بالطرقات من الأوحال والسيول ما يحول بين المرء وبين ما يريده من الانتشار في الأرض والذهاب فيها، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وخرج كثير من الناس خفافاً وثقالاً يتحملون بأهليهم وأولادهم، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، وجعلوا يحملون الصغار في الوحل الشديد والمشقة على الدواب والرقاب، وقد ضعفت الدواب من قلة العلف مع كثرة الأمطار والزلق والبرد الشديد والجوع وقلة الشيء فلا حول ولا قوة إلا بالله.

---

(١) في ط: يصرف.

(٢) المرجفون: الذين يخوضون في الأخبار السيئة والفتن لتهييج الناس.

واستهل جمادى الأولى والناس على خطة صعبة من الخوف، وتأخر السلطان واقترب العدو وخرج الشيخ تقي الدين بن تيمية رحمه الله تعالى في مستهل هذا الشهر وكان يوم السبت إلى نائب الشام في المرج فثبّتهم وقوّى جأشهم وطيّب قلوبهم ووعدهم النصر والظفر على الأعداء، وتلا قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الحج: ٦٠] وبات عند العسكر ليلة الأحد ثم عاد إلى دمشق وقد سأله النائب والأمراء أن يركب على البريد إلى مصر يستحث السلطان على المجيء فساق وراء السلطان، وكان السلطان قد وصل إلى الساحل فلم يدركه إلا وقد دخل القاهرة وتفارط الحال، ولكنه استحثهم على تجهيز العساكر إلى الشام إن كان لهم به حاجة، وقال لهم فيما قال: إن كنتم أعرضتم عن الشام وحمايته أقمنا له سلطاناً يحوطه ويحميه ويستغله في زمن الأمن، ولم يزل بهم حتى جردت العساكر إلى الشام، ثم قال لهم: لو قدر أنكم لستم حكام الشام ولا ملوكه واستنصركم أهله وجب عليكم النصر، فكيف وأنتم حكامه وسلاطينه وهم رعايكم وأنتم مسؤولون عنهم، وقوي جأشهم وضمن لهم النصر في هذه الكرة، فخرجوا إلى الشام، فلما تواصلت العساكر إلى الشام فرح الناس فرحاً شديداً بعد أن كانوا قد يئسوا من أنفسهم وأهليهم وأموالهم، ثم قويت الأراجيف بوصول التتر، وتحقق عود السلطان إلى مصر، ونادى ابن النحاس متولي البلد في الناس من قدر على السفر فلا يقعد بدمشق، فتصايح النساء والولدان، ورهق الناس ذلة عظيمة وخمدة، وزلزلوا زلزالاً شديداً، وغلقت الأسواق وتيقنوا أن لا ناصر لهم إلا الله عز وجل، وأن نائب الشام لما كان فيه قوة مع السلطان عام أول لم يقو على التقاء جيش التتر فكيف به الآن وقد عزم على الهرب؟ ويقولون: ما بقي أهل دمشق إلا طعمة للعدو، ودخل كثير من الناس إلى البراري والقفار والمغر[1] بأهاليهم من الكبار والصغار، ونودي في الناس من كانت نيته الجهاد فليلحق بالجيش فقد اقترب وصول التتر، ولم يبق بدمشق من أكابرها إلا القليل، وسافر ابن جماعة والحريري وابن صصري وابن منجا، وقد سبقتهم بيوتهم إلى مصر، وجاءت الأخبار بوصول التتر إلى سرقين وخرج الشيخ زين الدين الفارقي والشيخ إبراهيم الرقي وابن قوام وشرف الدين بن تيمية وابن خبارة إلى نائب السلطنة الأفرم فقووا عزمه على ملاقاة العدو، واجتمعوا بمهنا أمير العرب فحرضوه على قتال العدو فأجابهم بالسمع والطاعة، وقويت نياتهم على ذلك، وخرج طلب سلار من دمشق إلى ناحية المرج، واستعدوا للحرب والقتال بنيات صادقة.

ورجع الشيخ تقي الدين بن تيمية من الديار المصرية في السابع والعشرين من جمادى الأولى على البريد، وأقام بقلعة مصر ثمانية أيام يحثهم على الجهاد والخروج إلى العدو، وقد اجتمع بالسلطان والوزير وأعيان الدولة فأجابوه إلى الخروج، وقد غلت الأسعار بدمشق جداً، حتى أنه بيع خاروفان بخمسمائة درهم، واشتد الحال جداً، ثم جاءت الأخبار بأن ملك التتار قد خاض الفرات راجعاً عامه ذلك لضعف جيشه وقلة عددهم، فطابت النفوس لذلك وسكن

---

(١) المغر: جمع مغارة.

الناس، وعادوا إلى منازلهم منشرحين آمنين مستبشرين. ولما جاءت الأخبار بعدم وصول التتار إلى الشام في جمادى الآخرة تراجعت أنفس الناس إليهم وعاد نائب السلطنة إلى دمشق، وكان مخيماً في المرج من مدة أربعة أشهر متتابعة، وهو من أعظم الرباط، وتراجع الناس إلى أوطانهم: وكان الشيخ زين الدين الفارقي قد درس بالناصرية لغيبة مدرسها كمال الدين بن الشريشي بالكرك هارباً، ثم عاد إليها في رمضان، وفي أواخر الشهر درس ابن الزكي بالدولعية عوضاً عن جمال الدين الزرعي لغيبته. وفي يوم الاثنين قرئت شروط الذمة عليهم وألزموا بها واتفقت الكلمة على عزلهم عن الجهات، وأخذهم بالصغار، ونودي بذلك في البلد وألزم النصارى بالعمائم الزرق، واليهود بالصفر، والسامرة بالحمر، فحصل بسبب ذلك خير كثير وتميزوا عن المسلمين، وفي عاشر رمضان جاء المرسوم بين مشاركة أرجواش والأمير سيف الدين أقبجا في نيابة القلعة، وأن يركب كل واحد منهما يوماً، ويكون الآخر بالقلعة يوماً، فامتنع أرجواش من ذلك.

وفي شوال درس بالإقبالية الشيخ شهاب الدين بن المجد عوضاً عن علاء الدين القزويني بحكم إقامته بالقاهرة، وفي يوم الجمعة ثالث عشرين من ذي القعدة عزل شمس الدين بن الحريري عن قضاء الحنفية بالقاضي جلال الدين بن حسام الدين على قاعدته وقاعدة أبيه، وذلك باتفاق من الوزير الأمير شمس الدين سنقر الأعسر ونائب السلطان الأفرم. وفيها وصلت رسل ملك التتار إلى دمشق في أواخر الشهر فأنزلوا بالقلعة ثم ساروا إلى مصر.

وممن توفي فيها من الأعيان:

الشيخ حسن الكرومي

المقيم بالشاغور في بستان له يأكل من غلته ويطعم من ورد عليه، وكان يزار، فلما احتضر اغتسل وأخذ من شعره واستقبل القبلة وركع ركعتان، ثم توفي رحمه الله تعالى يوم الاثنين الرابع من جمادى الأولى، وقد جاوز المائة سنة.

الطواشي صفي الدين جوهر التفليسي

المحدث، اعتنى بسماع الحديث وتحصيل الأجزاء وكان حسن الخلق صالحاً ليّن الجانب رجلاً جيداً مباركاً صالحاً، ووقف أجزاءه التي ملكها على المحدثين.

الأمير عز الدين

محمد بن أبي الهيجاء بن محمد الهيدباني الإربلي: متولي دمشق، كان لديه فضائل كثيرة في التواريخ والشعر وربما جمع شيئاً في ذلك، وكان يسكن بدرب سقور فعرف به، فيقال درب ابن أبي الهيجاء، وهو أول منزل نزلناه حين قدمنا دمشق في سنة ست وسبعمائة، ختم الله لي بخير في عافية آمين، توفي ابن أبي الهيجاء في طريق مصر وله ثمانون سنة، وكان مشكور السيرة حسن المحاضرة.

الأمير جمال الدين آقوش الشريفي

والي الولاة بالبلاد القبلية، توفي في شوال وكانت له هيبة وسطوة وحرمة.

ثم دخلت سنة إحدى وسبعمائة

استهلت والحكام هم المذكورون في التي قبلها، والأمير سيف الدين سلار بالشام، والأفرم نائب دمشق، وفي أولها عزل الأمير قطلبك عن نيابة البلاد الساحلية وتولاها الأمير سيف الدين استدمر، وعزل عن وزارة مصر شمس الدين الأعسر، وتولى سيف الدين أقبجا المنصوري نيابة غزة، وجعل عوضه بالقلعة الأمير سيف الدين بهادر السنجري، وهو من الرحبة. وفي صفر رجعت رسل ملك التتر من مصر إلى دمشق فتلقاهم نائب السلطنة والجيش والعامة، وفي نصف صفر ولي تدريس النورية الشيخ صدر الدين علي البصراوي الحنفي عوضاً عن الشيخ ولي الدين السمرقندي وإنما كان وليها ستة أيام ودرس بها أربعة دروس بعد بني الصدر سليمان، توفي وكان من كبار الصالحين، يصلي كل يوم مائة ركعة، وفي يوم الأربعاء تاسع عشر ربيع الأول جلس قاضي القضاة وخطيب الخطباء بدر الدين بن جماعة بالخانقاه الشميساطية شيخ الشيوخ بها عن طلب الصوفية له في ذلك، ورغبتهم فيه، وذلك بعد وفاة الشيخ يوسف بن حمويه الحموي، وفرحت الصوفية به وجلسوا حوله، ولم تجتمع هذه المناصب قبله لغيره، ولا بلغنا أنها اجتمعت إلى أحد بعده إلى زماننا هذا: القضاء والخطابة ومشيخة الشيوخ وفي يوم الاثنين الرابع والعشرين من ربيع الأول قتل الفتح أحمد بن الثقفي بالديار المصرية، حكم فيه القاضي زين الدين بن مخلوف المالكي بما ثبت عنده من تنقيصه للشريعة واستهزائه بالآيات المحكمات، ومعارضة المشتبهات بعضها ببعض، يذكر عنه أنه كان يحل المحرمات من اللواط والخمر وغير ذلك، لمن كان يجتمع به من الفسقة من الترك وغيرهم من الجهلة، هذا وقد كان له فضيلة وله اشتغال وهيئة جميلة في الظاهر، وبزته ولبسته جيدة، ولما أوقف عند شباك دار الحديث الكاملية بين القصرين استغاث بالقاضي تقي الدين بن دقيق العيد: فقال: ما تعرف مني؟ فقال: أعرف منك الفضيلة، ولكن حكمك إلى القاضي زين الدين، فأمر القاضي للوالي أن يضرب عنقه، فضرب عنقه وطيف برأسه في البلد، ونودي عليه هذا جزاء من طعن في الله ورسوله.

قال البرزالي في تاريخه: وفي وسط شهر ربيع الأول ورد كتاب من بلاد حماة من جهة قاضيها يخبر فيه أنه وقع في هذه الأيام ببارين من عمل حماة برد كبار على صور حيوانات مختلفة شتى، سباع وحيات وعقارب وطيور ومعز ونساء، ورجال في أوساطهم حوائص، وأن ذلك ثبت بمحضر عند قاضي الناحية، ثم نقل ثبوته إلى قاضي حماة، وفي يوم الثلاثاء عاشر ربيع الآخر شنق الشيخ علي الحويرالي[1] بواب الظاهرية على بابها، وذلك أنه اعترف بقتل

---

(١) في ط: الحوراني.

الشيخ زين الدين السمرقندي. وفي النصف منه حضر القاضي بدر الدين بن جماعة تدريس الناصرية الجوانية عوضاً عن كمال الدين بن الشريشي، وذلك أنه ثبت محضر أنها لقاضي الشافعية بدمشق، فانتزعها من يد ابن الشريشي. وفي يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من جمادى الأولى قدم الصدر علاء الدين بن شرف الدين بن القلانسي على أهله من التتر بعد أسر سنتين وأياماً وقد حبس مدة ثم لطف الله به وتلطف حتى تخلص منهم ورجع إلى أهله، ففرحوا به.

وفاة الخليفة

وفي سادس جمادى الآخرة قدم البريد من القاهرة وأخبر بوفاة أمير المؤمنين الخليفة الحاكم بأمر الله العباسي، وأن ولده وليَ الخلافة من بعده، وهو أبو الربيع سليمان، ولقب بالمستكفي بالله، وأنه حضر جنازته الناس كلهم مشاة، ودفن بالقرب من الست نفيسة، وله أربعون سنة في الخلافة، وقدم مع البريد تقليد بالقضاء لشمس الدين بن الحريري الحنفي، ونظر الدواوين لشرف الدين بن مزهر، واستمرت الخاتونية الجوانية بيد القاضي جلال الدين بن حسام الدين بإذن نائب السلطنة. وفي يوم الجمعة تاسع جمادى الآخرة خطب للخليفة المستكفي بالله وترحم على والده بجامع دمشق، وأعيدت الناصرية إلى ابن الشريشي وعزل عنها ابن جماعة ودرس بها يوم الأربعاء الرابع عشر من جمادى الآخرة، وفي شوال قدم إلى الشام جراد عظيم أكل الزرع والثمار وجرد الأشجار حتى صارت مثل العصي، ولم يعهد مثل هذا، وفي هذا الشهر عقد مجلس لليهود الخيابرة وألزموا بأداء الجزية أسوة أمثالهم من اليهود، فأحضروا كتاباً معهم يزعمون أنه من رسول الله عليه السلام بوضع الجزية عنهم، فلما وقف عليه الفقهاء تبينوا أنه مكذوب مفتعل لما فيه من الألفاظ الركيكة، والتواريخ المحبطة، واللحن الفاحش، وحاققهم عليه شيخ الإسلام ابن تيمية، وبيّن لهم خطأهم وكذبهم، وأنه مزور مكذوب، فأنابوا إلى أداء الجزية، وخافوا من أن تستعاد منهم الشؤون الماضية.

قلت: وقد وقفت أنا على هذا الكتاب فرأيت فيه شهادة سعد بن معاذ عام خيبر، وقد توفي سعد قبل ذلك بنحو من سنتين، وفيه: وكتَب علي بن أبي طالب وهذا لحن لا يصدر عن أمير المؤمنين علي، لأن علم النحو إنما أسند إليه من طريق أبي الأسود الدؤلي عنه، وقد جمعت فيه جزءاً مفرداً، وذكرت ما جرى فيه أيام القاضي الماوردي، وكبار أصحابنا في ذلك العصر، وقد ذكره في الحاوي وصاحب الشامل في كتابه وغير واحد، وبينوا خطأه ولله الحمد والمنة.

وفي هذا الشهر ثار جماعة من الحسدة على الشيخ تقي الدين بن تيمية وشكوا منه أنه يقيم الحدود ويعزر ويحلق رؤوس الصبيان، وتكلم هو أيضاً فيمن يشكو منه ذلك، وبيَّن خطأهم، ثم سكنت الأمور. وفي ذي القعدة ضربت البشائر بقلعة دمشق أياماً بسبب فتح أماكن من بلاد سيس عنوة، ففتحها المسلمون ولله الحمد. وفيه قدم عز الدين بن مبشر على نظر الدواوين عوضاً عن ابن مزهر. وفي يوم الثلاثاء رابع ذي الحجة حضر عند عبد السيد بن المهذب ديان اليهود إلى دار العدل ومعه أولاده فأسلموا كلهم، فأكرمهم نائب السلطنة وأمر أن يركب بخلعة وخلفه

الدبادب تضرب والبوقات إلى داره، وعمل ليلتئذٍ ختمة عظيمة حضرها القضاة والعلماء، وأسلم على يديه جماعة كثيرة من اليهود، وخرجوا يوم العيد كلهم يكبّرون مع المسلميْن، وأكرمهم الناس إكراماً زائداً. وقدمت رسل ملك التتر في سابع عشر ذي الحجة فنزلوا بالقلعة وسافروا إلى القاهرة بعد ثلاثة أيام وبعد مسيرهم بيومين مات أرجواش، وبعد موته بيومين قدم الجيش من بلاد سيس وقد فتحوا جانباً منها، فخرج نائب السلطنة والجيش لتلقيهم، وخرج الناس للفرجة على العادة، وفرحوا بقدومهم ونصرهم.

وممن توفي فيها من الأعيان:

أمير المؤمنين الخليفة الحاكم بأمر الله

أبو العباس أحمد بن المسترشد بالله الهاشمي العباسي البغدادي المصري، بويع بالخلافة في الدولة الظاهرية في أول سنة إحدى وستين وستمائة، فاستكمل أربعين سنة في الخلافة، وتوفي ليلة الجمعة ثامن عشر جمادى الأولى، وَصُلِّيَ عليه وقت صلاة العصر بسوق الخيل بمصر، وحضر جنازته الأعيان والدولة كلهم مشاة. وكان قد عهد بالخلافة إلى ولده المذكور أبي الربيع سليمان.

خلافة المستكفي بالله أمير المؤمنين ابن الحاكم بأمر الله العباسي

لما عهد إليه كتب تقليده بذلك وقرىء بحضرة السلطان والدولة يوم الأحد العشرين من ذي الحجة من هذه السنة، وخطب له على المنابر بالبلاد المصرية والشامية، وسارت بذلك البريدية إلى جميع البلاد الإسلامية.

وتوفي فيها:

الأمير عز الدين

أيبك بن عبد الله النجيبي الدوادار والي دمشق، وأحد أمراء الطبلخانة بها، وكان مشكور السيرة، ولم تطل مدته، ودفن بقاسيون، توفي يوم الثلاثاء سادس عشر ربيع الأول.

الشيخ الإمام العالم شرف الديْن أبو الحسن

علي ابن الشيخ الإمام العالم العلامة الحافظ الفقيه تقي الدين أبي عبد الله محمد ابن الشيخ أبي الحسن أحمد بن عبد الله بن عيسى بن أحمد بن محمد اليونيني البعلبكي وكان أكبر من أخيه الشيخ قطب الدين بن الشيخ الفقيه، ولد شرف الدين سنة إحدى وعشرين وستمائة فأسمعه أبوه الكثير، واشتغل وتفقه، وكان عابداً عاملاً كثير الخشوع، دخل عليه إنسان وهو بخزانة الكتب فجعل يضربه بعصا في رأسه ثم بسكين فبقي متمرضاً أياماً، ثم توفي إلى رحمة الله تعالى يوم الخميس حادي عشر رمضان ببعلبك، ودفن بباب بطحا، وتأسف الناس عليه لعلمه وعمله وحفظه الأحاديث وتردده إلى الناس وتواضعه وحسن سمته ومروءته تغمده الله تعالى برحمته.

الصدر ضياء الدين

أحمد بن الحسين: ابن شيخ السلامية، والد القاضي قطب الدين موسى الذي تولى فيما بعد نظر الجيش بالشام وبمصر أيضاً، توفي يوم الثلاثاء عشرين ذي القعدة ودفن بقاسيون، وعمل عزاؤه بالرواحية.

الأمير الكبير المرابط المجاهد

علم الدين أرجواش بن عبد الله المنصوري، نائب القلعة بالشام، كان ذا هيبة وهمة وشهامة وقصد صالح، قدَّر الله على يديه حفظ معقل المسلمين لما ملكت التتار الشام أيام قازان، وعصت عليهم القلعة ومنعها الله منهم على يدي هذا الرجل، فإنه التزم أن لا يسلمها إليهم ما دام بها عين تطرف واقتدت بها بقية القلاع الشامية، وكانت وفاته بالقلعة ليلة السبت الثاني والعشرين من ذي الحجة وأخرج منها ضحوة يوم السبت فصلّي عليه وحضر نائب السلطنة فمن دونه جنازته، ثم حمل إلى سفح قاسيون ودفن في تربته رحمه الله تعالى.

الأبرقوهي المسند المعمر المصري

هو الشيخ الجليل المسند الرحلة، بقية السلف **شهاب الدين أبو المعالي أحمد بن إسحاق بن محمد بن المؤيد بن علي بن إسماعيل بن أبي طالب، الأبرقوهي الهمداني ثم المصري**، ولد بأبرقوه من بلاد شيراز في رجب أو شعبان سنة خمس عشرة وستمائة، وسمع الكثير من الحديث على المشايخ الكثيرين، وخرجت له مشيخات، وكان شيخاً حسناً لطيفاً مطيقاً، توفي بمكة بعد خروج الحجيج بأربعة أيام رحمه الله تعالى. وفيها توفي:

صاحب مكة

الشريف أبو نمي محمد ابن الأمير أبي سعد حسن بن علي بن قتادة الحسني، صاحب مكة منذ أربعين سنة، وكان حليماً وقوراً ذا رأي وسياسة وعقل ومروءة. وفيها ولد كاتبه إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي المصري[(١)] الشافعي عفا الله عنه، والله سبحانه أعلم.

ثم دخلت سنة اثنتين وسبعمائة من الهجرة

استهلت والحكام هم المذكورون في التي قبلها، وفي يوم الأربعاء ثاني صفر منها فتحت جزيرة أرواد بالقرب من أنطرسوس، وكانت من أضر الأماكن على أهل السواحل، فجاءتها مراكب من الديار المصرية في البحر وأردفها جيوش طرابلس، ففتحت ولله الحمد نصف النهار، وقتلوا من أهلها قريباً من ألفين، وأسروا قريباً من خمسمائة، وكان فتحها من تمام فتح السواحل، وأراح الله المسلمين من شر أهلها. وفي يوم الخميس السابع عشر من شهر صفر

---

(١) في ط: البصروي.

وصل البريد إلى دمشق فأخبر بوفاة قاضي القضاة ابن دقيق العيد، ومعه كتاب من السلطان إلى قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة، فيه تعظيم له واحترام وإكرام يستدعيه إلى قربه ليباشر وظيفة القضاء بمصر على عادته فتهيأ لذلك، ولما خرج خرج معه نائب السلطنة الأفرم وأهل الحل والعقد، وأعيان الناس ليودعوه، وستأتي ترجمة ابن دقيق العيد في الوفيات، ولما وصل ابن جماعة إلى مصر أكرمه السلطان إكراماً زائداً، وخلع عليه خلعة صوف وبغلة تساوي ثلاثة آلاف درهم، وباشر الحكم بمصر يوم السبت رابع ربيع الأول، ووصلت رسل التتار في أواخر ربيع الأول قاصدين بلاد مصر، وباشر الشيخ شرف الدين الفزاري مشيخة دار الحديث الظاهرية يوم الخميس ثامن ربيع الآخر عوضاً عن شرف الدين الناسخ، وهو أبو حفص عمر بن محمد بن عمر بن حسن بن خواجا إمام الفارسي، توفي بها عن سبعين سنة، وكان فيه بر ومعروف وله أخلاق حسنة، رحمه الله تعالى.

وذكر الشيخ شرف الدين المذكور درساً مفيداً وحضر عنده جماعة من الأعيان، وفي يوم الجمعة حادي عشرين جمادى الأولى خلع على قاضي القضاة نجم الدين بن صصري بقضاء الشام عوضاً عن ابن جماعة، وعلى الفارقي بالخطابة، وعلى الأمير ركن الدين بيبرس العلاوي بشد الدواوين وهنأهم الناس، وحضر نائب السلطنة والأعيان المقصورة لسماع الخطبة، وقرىء تقليد ابن صصري بعد الصلاة ثم جلس في الشباك الكمالي وقرىء تقليده مرة ثانية، وفي جمادى الأولى وقع بيد نائب السلطنة كتاب مزور فيه أن الشيخ تقي الدين بن تيمية والقاضي شمس الدين بن الحريري وجماعة من الأمراء والخواص الذين بباب السلطنة يناصحون التتر ويكاتبوهم، ويريدون تولية قبجق على الشام وأن الشيخ كمال الدين بن الزملكاني يعلمهم بأحوال الأمير جمال الدين الأفرم، وكذلك كمال الدين بن العطار، فلما وقف عليه نائب السلطنة عرف أن هذا مفتعل، ففحص عن واضعه فإذا هو فقير كان مجاوراً بالبيت الذي كان مجاور محراب الصحابة، يقال له اليعفوري، وآخر معه يقال له أحمد الغناري، وكانا معروفين بالشر والفضول، ووجد معهما مسودة هذا الكتاب، فتحقق نائب السلطنة ذلك فعزّرا تعزيراً عنيفاً، ثم وسطا بعد ذلك وقطعت يد الكاتب الذي كتب لهما هذا الكتاب، وهو التاج ابن المناديلي. وفي أواخر جمادى الأولى انتقل الأمير سيف الدين بلبان الجوكندار المنصوري إلى نيابة القلعة عوضاً عن أرجواش.

عجيبة من عجائب البحر

قال: الشيخ علم الدين البرزالي في تاريخه: قرأت في بعض الكتب الواردة من القاهرة أنه لما كان بتاريخ يوم الخميس رابع جمادى الآخرة ظهرت دابة من البحر عجيبة الخلقة من بحر النيل إلى أرض المنوفية، بين بلاد منية مسعود واصطباري والراهب، وهذه صفتها: لونها لون الجاموس بلا شعر، وآذانها كآذان الجمل، وعيناها وفرجها مثل الناقة، يغطي فرجها ذنب طوله شبر ونصف كذنب السمكة، ورقبتها مثل غلظ التنين المحشو تبناً، وفمها وشفتاها مثل الكربال، ولها أربعة أنياب اثنان من فوق واثنان من أسفل، طول كل واحد دون الشبر في عرض إصبعين،

وفي فمها ثمانية وأربعون ضرساً وسن مثل بيادق الشطرنج، وطول يديها من باطنها إلى الأرض شبران ونصف ومن ركبتها إلى حافرها مثل بطن الثعبان، أصفر مجعد، ودور حافرها مثل السكرجة بأربعة أظافير مثل أظافير الجمل، وعرض ظهرها مقدار ذراعين ونصف، وطولها من فمها إلى ذنبها خمسة عشر قدماً وفي بطنها ثلاثة كروش، ولحمها أحمر وزفر مثل السمك، وطعمه كلحم الجمل، وغلظ جلدها أربعة أصابع ما تعمل فيه السيوف، وحمل جلدها على خمسة جمال في مقدار ساعة من ثقله على جمل بعد جمل وأحضروه إلى بين يدي السلطان بالقلعة وحشوه تبناً وأقاموه بين يديه والله أعلم.

وفي شهر رجب قويت الأخبار بعزم التتر على دخول بلاد الشام، فانزعج الناس لذلك واشتد خوفهم جداً، وقنت الخطيب في الصلوات وقرىء البخاري ، وشرع الناس في الجفل إلى الديار المصرية والكرك والحصون المنيعة، وتأخر مجيء العساكر المصرية عن أوانها فاشتد لذلك الخوف. وفي شهر رجب باشر نجم الدين بن أبي الطيب نظر الخزانة عوضاً عن أمين الدين سليمان، وفي يوم السبت ثالث شعبان باشر مشيخة الشيوخ بعد ابن جماعة القاضي ناصر الدين عبد السلام، وكان جمال الدين الزرعي يسدّ الوظيفة إلى هذا التاريخ. وفي يوم السبت عاشر شعبان ضربت البشائر بالقلعة وعلى أبواب الأمراء بخروج السلطان بالعساكر من مصر لمناجزة التتر المخذولين، وفي هذا اليوم بعينه كانت وقعة غرض وذلك أنه التقى جماعة من أمراء الإسلام فيهم استدمر وبهادر أخي وكجكن وغرلو العادلي، وكل واحد منهم سيف من سيوف الملّة والدين في ألف وخمسمائة فارس، مع التتر وكان التتر في سبعة آلاف فاقتتلوا وصبر المسلمون صبراً جيداً، فنصرهم الله وخذل التتر، فقتلوا منهم خلقاً وأسروا آخرين، وولوا عند ذلك مدبرين، وغنم المسلمون منهم غنائم، وعادوا سالمين لم يفقد منهم إلا القليل ممن أكرمه الله تعالى بالشهادة، ووقعت البطاقة بذلك، ثم قدمت الأسارى يوم الخميس نصف شعبان، وكان يوم خميس النصارى.

أوائل وقعة شقحب

وفي ثامن عشر قدمت طائفة كبيرة من جيش المصريين فيهم الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير، والأمير حسام الدين لاجين المعروف بالاستادار المنصوري، والأمير سيف الدين كراي المنصوري، ثم قدمت بعدهم طائفة أخرى فيهم بدر الدين أمير سلاح وأيبك الخزندار فقويت القلوب واطمأن كثير من الناس، ولكن الناس في جفل عظيم من بلاد حلب وحماة وحمص وتلك النواحي وتقهقر الجيش الحلبي والحموي إلى حمص، ثم خافوا أن تدهمهم التتر فجاؤوا فنزلوا المرج في يوم الأحد خامس عشرين شعبان، ووصل التتر إلى حمص وبعلبك وعاثوا في تلك الأراضي فساداً، وقلق الناس قلقاً عظيماً، وخافوا خوفاً شديداً، واختبط البلد لتأخر قدوم السلطان ببقية الجيش، وقال الناس لا طاقة لجيش الشام مع هؤلاء المصريين بلقاء التتر لكثرتهم، وإنما سبيلهم أن يتأخروا عنهم مرحلة مرحلة. وتحدث الناس بالأراجيف فاجتمع الأمراء يوم الأحد المذكور بالميدان وتحالفوا على لقاء العدو، وشجعوا أنفسهم، ونودي بالبلد

أن لا يرحل أحد منه، فسكن الناس وجلس القضاة بالجامع وحلفوا جماعة من الفقهاء والعامة على القتال، وتوجه الشيخ تقي الدين بن تيمية إلى العسكر الواصل من حماة فاجتمع بهم في القطيفة فأعلمهم بما تحالف عليه الأمراء والناس من لقاء العدو، فأجابوا إلى ذلك وحلفوا معهم، وكان الشيخ تقي الدين بن تيمية يحلف للأمراء والناس إنكم في هذه الكرة منصورون، فيقول له الأمراء: قل إن شاء الله، فيقول إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً، وكان يتأول في ذلك أشياء من كتاب الله منها قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ [الحج: ٦٠].

وقد تكلم الناس في كيفية قتال هؤلاء التتر من أي قبيل هو، فإنهم يظهرون الإسلام وليسوا بغاة على الإمام، فإنهم لم يكونوا في طاعته في وقت ثم خالفوه. فقال الشيخ تقي الدين: هؤلاء من جنس الخوارج الذين خرجوا على علي ومعاوية، ورأوا أنهم أحق بالأمر منهما، وهؤلاء يزعمون أنهم أحق بإقامة الحق من المسلمين، ويعيبون على المسلمين ما هم متلبسون به من المعاصي والظلم، وهم متلبسون بما هو أعظم منه بأضعاف مضاعفة، فتفطن العلماء والناس لذلك، وكان يقول للناس: إذا رأيتموني من ذلك الجانب وعلى رأسي مصحف فاقتلوني، فتشجع الناس في قتال التتر وقويت قلوبهم ونياتهم ولله الحمد.

ولما كان يوم الأربعاء الرابع والعشرين من شعبان خرجت العساكر الشامية فخيمت على الجسورة من ناحية الكسوة، ومعهم القضاة، فصار الناس فيهم فريقين فريق يقولون إنما ساروا ليختاروا موضعاً للقتال فإن المرج فيه مياه كثيرة فلا يستطيعون معها القتال، وقال فريق: إنما ساروا إلى تلك الجهة ليهربوا وليلحقوا بالسلطان. فلما كانت ليلة الخميس ساروا إلى ناحية الكسوة فقويت ظنون الناس في هربهم، وقد وصلت التتر إلى قارة، وقيل إنهم وصلوا إلى القطيفة، فانزعج الناس لذلك انزعاجاً شديداً ولم يبق حول البلد من القرى والحواضر أحد، وامتلأت القلعة والبلد وازدحمت المنازل والطرقات، واضطرب الناس وخرج الشيخ تقي الدين بن تيمية صبيحة يوم الخميس من الشهر المذكور من باب النصر بمشقة كبيرة، وصحبته جماعة ليشهد القتال بنفسه ومن معه، فظنوا أنه إنما خرج هارباً فحصل اللوم من بعض الناس وقالوا أنت منعتنا من الجفل وها أنت هارب من البلد؟ فلم يرد عليهم وبقي البلد ليس فيه حاكم وجاس اللصوص والحرافيش فيه وفي بساتين الناس يخربون وينتهبون ما قدروا عليه، ويقطعون الثمر قبل أوانه والباقلاء والقمح والشعير وسائر الخضراوات، وحيل بين الناس وبين خبر الجيش، وانقطعت الطرق إلى الكسوة وظهرت الوحشة على البلد والحواضر، وليس للناس شغل غير الصعود إلى المآذن ينظرون يميناً وشمالاً، وإلى ناحية الكسوة فتارة يقولون: رأينا غبرة فيخافون أن تكون من التتر، ويتعجبون من خبر الجيش مع كثرتهم وجودة عدتهم وعددهم وعددهم، أين ذهبوا؟ فلا يدرون ما فعل الله بهم، فانقطعت الآمال وألح الناس في الدعاء والابتهال وفي الصلوات وفي كل حال، وذلك يوم الخميس التاسع والعشرين من شعبان، وكان الناس في خوف ورعب لا يعبر عنه، لكن كان الفرج من ذلك قريباً، ولكن أكثرهم لا يفلحون، كما جاء في حديث أبي رزين: «عَجِبَ رَبُّكَ مِنْ قُنُوطِ عِبَادِهِ وَقُرْبِ غَيْرِهِ مِنْهُمْ يَنْظُرُ إِلَيْكُمْ أَزِلِينَ

قَنِطِينَ فَيَظَلُّ يَضْحَكُ يَعْلَمُ أَنَّ فَرَجَكُمْ قَرِيبٌ»[١].

فلما كان آخر هذا اليوم وصل الأمير فخر الدين إياس المرقبي أحد أمراء دمشق، فبشر الناس بخير، هو أن السلطان قد وصل وقت اجتمعت العساكر المصرية والشامية، وقد أرسلني أكشف هل طرق البلد أحد من التتر، فوجد الأمر كما يحب لم يطرقها أحد منهم، وذلك أن التتر عرجوا عن دمشق إلى ناحية العساكر المصرية، ولم يشتغلوا بالبلد، وقد قالوا إن غَلبنا فإن البلد لنا، وإن غلبنا فلا حاجة لنا به، ونودي بالبلد في تطييب الخواطر، وأن السلطان قد وصل، فاطمأن الناس وسكنت قلوبهم، وأثبت الشهر ليلة الجمعة القاضي تقي الدين الحنبلي، فإن السماء كانت مغيمة فعلقت القناديل وصليت التراويح واستبشر الناس بشهر رمضان وبركته، وأصبح الناس يوم الجمعة في هم شديد وخوف أكيد، لأنهم لا يعلمون ما خبر الناس. فبينما هم كذلك إذ جاء الأمير سيف الدين غرلو العادلي فاجتمع بنائب القلعة ثم عاد سريعاً إلى العسكر، ولم يدر أحد ما أخبر به، ووقع الناس في الأراجيف والخوض.

صفة وقعة شقحب

أصبح الناس يوم السبت على ما كانوا عليه من شدة الخوف وضيق الأمر، فرأوا من المآذن سواداً وغبرة من ناحية العسكر والعدو، فغلب على الظنون أن الوقعة في هذا اليوم، فابتهلوا إلى الله عز وجل بالدعاء في المساجد والبلد، وطلع النساء والصغار على الأسطحة وكشفوا رؤوسهم وضج البلد ضجة عظيمة، ووقع في ذلك الوقت مطر عظيم غزير، ثم سكن الناس، فلما كان بعد الظهر قرئت بطاقة بالجامع تتضمن أن في الساعة الثانية من نهار السبت هذا اجتمعت الجيوش الشامية والمصرية مع السلطان في مرج الصفر، وفيها طلب الدعاء من الناس والأمر بحفظ القلعة. والتحرز على الأسوار فدعا الناس في المآذن والبلد، وانقضى النهار وكان يوماً مزعجاً هائلاً، وأصبح الناس يوم الأحد يتحدثون بكسر التتر، وخرج الناس إلى ناحية الكسوة فرجعوا ومعهم شيء من المكاسب، ومعهم رؤوس من رؤوس التتر، وصارت كسرة التتار تقوى وتتزايد قليلاً قليلاً حتى اتضحت جملة، ولكن الناس لما عندهم من شدة الخوف وكثرة التتر لا يصدقون، فلما كان بعد الظهر قرىء كتاب السلطان إلى متولي القلعة يخبر فيه باجتماع الجيش ظهر يوم السبت بشقحب وبالكسوة، ثم جاءت بطاقة بعد العصر من نائب السلطان جمال الدين آقوش الأفرم إلى نائب القلعة مضمونها أن الوقعة كانت من العصر يوم السبت إلى الساعة الثانية من يوم الأحد، وأن السيف كان يعمل في رقاب التتر ليلاً ونهاراً وأنهم هربوا وفروا واعتصموا بالجبال والتلال، وأنه لم يسلم منهم إلا القليل، فأمسى الناس وقد استقرت خواطرهم وتباشروا لهذا الفتح العظيم والنصر المبارك، ودقت البشائر بالقلعة من أول النهار المذكور، ونودي بعد الظهر بإخراج الجفال[٢] من القلعة لأجل نزول السلطان بها، وشرعوا في الخروج.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في المقدمة باب ١٣، وأحمد في المسند ٤/ ١١، ١٢، ولفظ الحديث عند ابن ماجه: «ضحك ربنا من قنوط عباده...».

(٢) الجفال: هم الهاربون الشاردون النافرون.

وفي يوم الاثنين رابع الشهر رجع الناس من الكسوة إلى دمشق فبشروا الناس بالنصر. وفيه دخل الشيخ تقي الدين بن تيمية البلد ومعه أصحابه من الجهاد، ففرح الناس به ودعوا له وهنّؤوه بما يسّر الله على يديه من الخير، وذلك أنه ندبه العسكر الشامي أن يسير إلى السلطان يستحثه على السير إلى دمشق فسار إليه فحثه على المجيء إلى دمشق بعد أن كاد يرجع إلى مصر، فجاء هو وإياه جميعاً فسأله السلطان أن يقف معه في معركة القتال، فقال له الشيخ: السنة أن يقف الرجل تحت راية قومه، ونحن من جيش الشام لا نقف إلا معهم، وحرض السلطان على القتال وبشّره بالنصر وجعل يحلف له بالله الذي لا إلٰه إلا هو إنكم منصورون عليهم في هذه المرة، فيقول له الأمراء: قل إن شاء الله، فيقول إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً. وأفتى الناس بالفطر مدة قتالهم وأفطر هو أيضاً، وكان يدور على الأجناد والأمراء فيأكل من شيء معه في يده ليعلمهم أن إفطارهم ليتقووا على القتال، وكان يتأول في الشاميين قوله ﷺ: «إِنَّكُمْ مُلاقُو العَدُوّ غَداً، وَالفِطرُ أَقْوَى لَكُمْ» فعزم عليهم في الفطر عام الفتح كما في حديث أبي سعيد الخدري. وكان الخليفة أبو الربيع سليمان في صحبة السلطان، ولما اصطفت العساكر والتحم القتال ثبت السلطان ثباتاً عظيماً، وأمر بجواده فقيد حتى لا يهرب، وبايع الله تعالى في ذلك الموقف، وجرت خطوب عظيمة، وقتل جماعة من سادات الأمراء يومئذٍ، منهم الأمير حسام الدين لاجين الرومي أستاذ دار السلطان، وثمانية من الأمراء المقدمين معه، وصلاح الدين بن الملك الكامل بن السعيد بن الصالح إسماعيل، وخلق من كبار الأمراء، ثم نزل النصر على المسلمين قريب العصر يومئذٍ، واستظهر المسلمون عليهم ولله الحمد والمنة.

فلما جاء الليل لجأ التتر إلى اقتحام التلول والجبال والآكام، فأحاط بهم المسلمون يحرسونهم من الهرب، ويرمونهم عن قوس واحدة إلى وقت الفجر فقتلوا منهم ما لا يعلم عدده إلا الله عز وجل، وجعلوا يجيئون بهم في الحبال فتضرب أعناقهم، ثم اقتحم منهم جماعة الهزيمة فنجا منهم قليل، ثم كانوا يتساقطون في الأودية والمهالك، ثم بعد ذلك غرق منهم جماعة في الفرات بسبب الظلام، وكشف الله بذلك عن المسلمن غمة عظيمة شديدة، ولله الحمد والمنة.

ودخل السلطان إلى دمشق يوم الثلاثاء خامس رمضان وبين يديه الخليفة، وزينت البلد، وفرح كل واحد من أهل الجمعة والسبت والأحد[1]، فنزل السلطان بالقصر الأبلق والميدان، ثم إنه تحول إلى القلعة يوم الخميس وصلّى بها الجمعة وخلع على نواب البلاد وأمرهم بالرجوع إلى بلادهم، واستقرت الخواطر، وذهب اليأس وطابت قلوب الناس، وعزل السلطان ابن النحاس عن ولاية المدينة وجعل مكانه الأمير علاء الدين أيدغدي أمير علم، وعزل صارم الدين إبراهيم والي الخاص عن ولاية البر وجعل مكانه الأمير حسام الدين لاجين الصغير، ثم عاد السلطان إلى الديار المصرية يوم الثلاثاء ثالث شوال بعد أن صام رمضان وعيد بدمشق.

---

(١) يعني أن الفرح عم المسلمين واليهود والنصارى.

وطلب الصوفية من نائب دمشق الأفرم أن يولي عليهم مشيخة الشيوخ للشيخ صفي الدين الهندي، فأذن له في المباشرة يوم الجمعة سادس شوال عوضاً عن ناصر الدين بن عبد السلام، ودخل السلطان القاهرة يوم الثلاثاء ثالث عشرين شوال، وكان يوماً مشهوداً، وزينت القاهرة.

وفيها جاءت زلزلة عظيمة يوم الخميس بكرة الثالث والعشرين من ذي الحجة من هذه السنة، وكان جمهورها بالديار المصرية، تلاطمت بسببها البحار فكسرت المراكب وتهدمت الدور ومات خلق كثير لا يعلمهم إلا الله، وشققت الحيطان ولم ير مثلها في هذه الأعصار، وكان منها بالشام طائفة لكن كان ذلك أخف من سائر البلاد غيرها.

وفي ذي الحجة باشر الشيخ أبو الوليد ابن الحاج الأشبيلي المالكي إمام محراب المالكية بجامع دمشق بعد وفاة الشيخ شمس الدين محمد الصنهاجي.

وممن توفي فيها من الأعيان.

ابن دقيق العيد

الشيخ الإمام العالم العلامة الحافظ قاضي القضاة تقي الدين بن دقيق العيد القشيري المصري، ولد يوم السبت الخامس والعشرين من شعبان سنة خمس وعشرين وستمائة بساحل مدينة ينبع من أرض الحجاز، سمع الكثير ورحل في طلب الحديث وخرج وصنّف فيه إسناداً ومتناً مصنفات عديدة، مفيدة فريدة، وانتهت إليه رياسة العلم في زمانه، وفاق أقرانه، ورحل إليه الطلبة ودرس في أماكن كثيرة، ثم ولي قضاء الديار المصرية في سنة خمس وتسعين وستمائة، ومشيخة دار الحديث الكاملية وقد اجتمع به الشيخ تقي الدين بن تيمية، فقال له تقي الدين بن دقيق العيد لما رأى تلك العلوم منه: ما أظن بقي بخلق مثلك وكان وقوراً قليل الكلام غزير الفوائد كثير العلوم في ديانة ونزاهة، وله شعر رائق، توفي يوم الجمعة حادي عشر شهر صفر، وصلي عليه يوم الجمعة المذكور بسوق الخيل وحضر جنازته نائب السلطنة والأمراء ودفن بالقرافة الصغرى رحمه الله تعالى.

الشيخ برهان الدين الإسكندري

إبراهيم بن فلاح بن محمد بن حاتم، سمع الحديث وكان ديناً فاضلاً، ولد سنة ست وثلاثين وستمائة، وتوفي يوم الثلاثاء رابع وعشرين شوال عن خمس وستين سنة. وبعد شهور بسواء كانت وفاة.

الصدر جمال الدين بن العطار

كاتب الدرج منذ أربعين سنة. أبو العباس أحمد بن أبي الفتح.

محمود بن أبي الوحش

أسد بن سلامة بن فتيان الشيباني، كان من خيار الناس وأحسنهم تقية، ودفن بتربة لهم تحت الكهف بسفح قاسيون، وتأسف الناس عليه لإحسانه إليهم رحمه الله تعالى.

الملك العادل زين الدين كتبغا

توفي بحماة نائباً عليهم بعد صرخد يوم الجمعة يوم عيد الأضحى ونقل إلى تربته بسفح قاسيون غربي الرباط الناصري، يقال لها العادلية وهي تربة مليحة ذات شبابيك وبوابة ومئذنة، وله عليها أوقاف دارة على وظائف من قراءة وأذان وإمامة وغير ذلك، وكان من كبار الأمراء المنصورية، وقد ملك البلاد بعد مقتل الأشرف خليل بن المنصور، ثم انتزع الملك منه لاجين وجلس في قلعة دمشق، ثم تحول إلى صرخد وكان بها إلى أن قتل لاجين وأخذ الملك الناصر بن قلاوون، فاستنابه بحماة حتى كانت وفاته كما ذكرنا، وكان من خيار الملوك وأعدلهم وأكثرهم براً، وكان من خيار الأمراء والنواب رحمه الله تعالى.

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعمائة

استهلت والحكام هم المذكورون في التي قبلها. وفي صفر تولى الشيخ كمال الدين بن الشريشي نظارة الجامع الأموي وخلع عليه فباشره مباشرة مشكورة وساوى بين الناس وعزل نفسه في رجب منها. وفي شهر صفر تولى الشيخ شمس الدين الذهبي خطابة كفر بطنا وأقام بها. ولما توفي الشيخ زين الدين الفارقي في هذه السنة كان نائب السلطنة في نواحي البلقاء يكشف بعض الأمور، فلما قدم تكلموا معه في وظائف الفارقي فعين الخطابة لشرف الدين الفزاري، وعين الشامية البرانية ودار الحديث للشيخ كمال الدين بن الشريشي، وذلك بإشارة الشيخ تقي الدين بن تيمية، وأخذ منه الناصرية للشيخ كمال الدين بن الزملكاني ورسم بكتابة التواقيع بذلك، وباشر الشيخ شرف الدين الإمامة والخطابة. وفرح الناس به لحسن قراءته وطيب صوته وجودة سيرته، فلما كان بكرة يوم الاثنين ثاني عشر ربيع الأول وصل البريد من مصر صحبة الشيخ صدر الدين بن الوكيل، وقد سبقه مرسوم السلطان له بجميع جهات الفارقي مضافاً إلى ما بيده من التدريس، فاجتمع بنائب السلطنة بالقصر، وخرج من عنده إلى الجامع ففتح له باب دار الخطابة فنزلها وجاءه الناس يهنئونه، وحضر عنده القراء والمؤذنون، وصلّى بالناس العصر وباشر الإمامة يومين فأظهر الناس التألم من صلاته وخطابته، وسعوا فيه إلى نائب السلطنة فمنعه من الخطابة وأقره على التداريس ودار الحديث، وجاء توقيع سلطاني للشيخ شرف الدين الفزاري بالخطابة، فخطب يوم الجمعة سابع عشر جمادى الأولى، وخلع عليه بطرحة، وفرح الناس به، وأخذ الشيخ كمال الدين بن الزملكاني تدريس الشامية البرانية من يد ابن الوكيل، وباشرها في مستهل جمادى الأولى واستقرت دار الحديث بيد ابن الوكيل مع مدرستيه الأوليتين، وأظنهما العذراوية والشامية الجوانية.

ووصل البريد في ثاني عشر جمادى الأولى بإعادة السنجري إلى نيابة القلعة وتولية نائبها الأمير سيف الدين الجوكندار نيابة حمص عوضاً عن عز الدين الحموي، توفي. وفي يوم السبت ثاني عشر رمضان قدمت ثلاثة آلاف فارس من مصر وأضيف إليها ألفان من دمشق وساروا وأخذوا معهم نائب حمص الجوكندار ووصلوا إلى حماة فصحبهم نائبها الأمير سيف الدين

قبجق، وجاء إليهم استدمر نائب طرابلس، وانضاف إليهم قراسنقر نائب حلب وانفصلوا كلهم فانفرقوا فرقتين فرقة سارت صحبة قبجق إلى ناحية ملطية، وقلعة الروم، والفرقة الأخرى صحبة قراسنقر حتى دخلوا الدربندات وحاصروا تل حمدون فتسلموه عنوة في ثالث ذي القعدة بعد حصار طويل، فدقت البشائر بدمشق لذلك، ووقع مع صاحب سيس على أن يكون للمسلمين من نهر جيهان إلى حلب وبلاد ما وراء النهر إلى ناحيتهم لهم، وأن يعجلوا حمل سنتين، ووقعت الهدنة على ذلك، بعد أن قتل خلق من الأمراء الأرمن ورؤسائهم، وعادت العساكر إلى دمشق مؤيدين منصورين، ثم توجهت العساكر المصرية صحبة مقدمهم أمير سلاح إلى مصر.

وفي أواخر السنة كان موت قازان وتولية أخيه خربندا. وهو ملك التتار قازان واسمه محمود بن أرغون بن أبغا، وذلك في رابع عشر شوال أو حادي عشره أو ثالث عشره، بالقرب من همدان ونقل إلى تربته بيبرين بمكان يسمى الشام، ويقال إنه مات مسموماً، وقام في الملك بعده أخوه خربندا محمد بن أرغون، ولقبوه الملك غياث الدين، وخطب له على منابر العراق وخراسان وتلك النواحي والبلاد.

وحج في هذه السنة الأمير سيف الدين سلار نائب مصر وفي صحبته أربعون أميراً، وجميع أولاد الأمراء، وحج معهم وزير مصر الأمير عز الدين البغدادي، وتولى مكانه بالبركة ناصر الدين محمد الشيخي، وخرج سلار في أبهة عظيمة جداً، وأمير ركب المصريين الحاج إياق الحسامي[1] وترك الشيخ صفي الدين مشيخة الشيوخ فوليها القاضي عبد الكريم ابن قاضي القضاة محيي الدين بن الزكي، وحضر الخانقاه يوم الجمعة الحادي عشر[2] من ذي القعدة وحضر عنده ابن صصري وعز الدين القلانسي، والصاحب ابن ميسر[3]، والمحتسب وجماعة.

وفي ذي القعدة وصل من التتر مقدم كبير قد هرب منهم إلى بلاد الإسلام وهو الأمير بدر الدين جنكي بن البابا، وفي صحبته نحو من عشرة، فحضروا الجمعة في الجامع، وتوجهوا إلى مصر، فأكرم وأعطى آمرية ألف، وكان مقامه ببلاد آمد، وكان يناصح السلطان ويكاتبه ويطلعه على عورات التتر، فلهذا عظم شأنه في الدولة الناصرية.

وممن توفي فيها من الأعيان: ملك التتر قازان.

الشيخ القدوة العابد [الزاهد الورع][4]

أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن محمد بن معالي بن محمد بن عبد الكريم الرقي الحنبلي، كان أصله من بلاد الشرق، ومولده بالرقة في سنة سبع وأربعين وستمائة، واشتغل وحصل وسمع شيئاً من الحديث، وقدم دمشق فسكن بالمئذنة الشرقية في أسفلها بأهله إلى جانب الطهارة بالجامع، وكان معظماً عند الخاص والعام، فصيح العبارة كثير العبادة، خشن العيش حسن المجالسة لطيف الكلام كثير التلاوة، قوي التوجه من أفراد العالم، عارفاً بالتفسير

---

(١) في ط: الحسام.
(٢) في ط: حادي عشرين.
(٣) في ط: ابن المبشر.
(٤) سقط في ط.

والحديث والفقه والأصلين، وله مصنفات وخطب، وله شعر حسن، توفي بمنزله ليلة الجمعة خامس عشر المحرم وصلّي عليه عقيب الجمعة ونقل إلى تربة الشيخ أبي عمر بالسفح، وكانت جنازته حافلة رحمه الله وأكرم مثواه.

وفي هذا الشهر توفي: الأمير زين الدين قراجا أستاذ دار الأفرم ودفن بتربته بميدان الحصا عند النهر.

والشيخ شمس الدين محمد بن إبراهيم بن عبد السلام

عرف بابن الحبلى، كان من خيار الناس يتردد إلى عكا أياماً حين ما كانت في أيدي الفرنج، في فكاك أسارى المسلمين، جزاه الله خيراً وعتقه من النار وأدخله الجنة برحمته.

الخطيب ضياء الدين

أبو محمد عبد الرحمن ابن الخطيب جمال الدين أبي الفرج عبد الوهاب بن علي بن أحمد بن عقيل السلمي خطيب بعلبك نحواً من ستين سنة، هو ووالده ولد سنة أربع عشرة وستمائة وسمع الكثير وتفرد عن القزويني، وكان رجلاً جيداً حسن القراءة من كبار العدول[١]، توفي ليلة الاثنين ثالث صفر، ودفن بباب سطحا[٢].

الشيخ زين الدين الفارقي

عبد الله بن مروان بن عبد الله بن فهر[٣] بن الحسن، أبو محمد الفارقي شيخ الشافعية، ولد سنة ثلاث وثلاثين وستمائة، وسمع الحديث الكثير، واشتغل ودرس بعدة مدارس، وأفتى مدة طويلة، وكانت له همة وشهامة وصرامة، وكان يباشر الأوقاف جيداً، وهو الذي عمر دار الحديث بعد خرابها بيد قازان، وقد باشرها سبعاً وعشرين سنة من بعد النواوي إلى حين وفاته، وكانت معه الشامية البرانية وخطابة الجامع الأموي تسعة أشهر، باشر به الخطابة قبل وفاته، وقد انتقل إلى دار الخطابة وتوفي بها يوم الجمعة بعد العصر، وصلّي عليه ضحوة السبت، صلّى عليه ابن صصري عند باب الخطابة وبسوق الخيل قاضي الحنفية شمس الدين بن الحريري، وعند جامع الصالحية قاضي الحنابلة تقي الدين سليمان، ودفن بتربة أهله شمالي تربة الشيخ أبي عمر رحمه الله، وباشر بعده الخطابة شرف الدين الفزاري ومشيخة دار الحديث ابن الوكيل، والشامية البرانية ابن الزملكاني وقد تقدم ذلك.

الأمير الكبير عز الدين أيبك الحموي

ناب بدمشق مدة ثم عزل عنها إلى صرخد، ثم نقل قبل موته بشهر إلى نيابة حمص، وتوفي بها يوم العشرين من ربيع الآخر، ونقل إلى تربته بالسفح غربي زاوية ابن قوام، وإليه

---

(١) العدول: هو الثقة المصنف.
(٢) في ط: بباب سطى.
(٣) في شذرات الذهب: فيروز.

ينسب الحمام بمسجد القصب الذي يقال له حمام الحموي، عمره في أيام نيابته.

الوزير فتح الدين

أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد بن خالد بن محمد بن نصر بن صقر القرشي المخزومي بن القيسراني، كان شيخاً جليلاً أديباً شاعراً مجوداً من بيت رياسة، ووزارة، ولي وزارة دمشق مدة ثم أقام بمصر موقعاً مدة، وكان له اعتناء بعلوم الحديث وسماعه، وله مصنف في أسماء الصحابة الذين خرج لهم في الصحيحين، وأورد شيئاً من أحاديثهم في مجلدين كبيرين موقوفين بالمدرسة الناصرية بدمشق، وكان له مذاكرة جيدة محررة باللفظ والمعنى، وقد خرج عنه الحافظ الدمياطي، وهو آخر من توفي من شيوخه، توفي بالقاهرة في يوم الجمعة الحادي والعشرين من ربيع الآخر، وأصلهم من قيسارية الشام. وكان جده موفق الدين أبو البقاء خالد وزيراً لنور الدين الشهيد، وكان من الكتاب المجيدين المتقنين، له كتابة جيدة محررة جداً، توفي في أيام صلاح الدين سنة ثمان وثمانين وخمسمائة، وأبوه محمد بن نصر بن صقر ولد بعكا قبل أخذ الفرنج لها سنة ثمان وسبعين وأربعمائة، فلما أخذت بعد السبعين وأربعمائة انتقل أهلهم إلى حلب فكانوا بها، وكان شاعراً مطيقاً له ديوان مشهور، وكان له معرفة جيدة بالنجوم وعلم الهيئة وغير ذلك.

ترجمة والد ابن كثير مؤلف هذا التاريخ

وفيها توفي الوالد وهو الخطيب شهاب الدين أبو حفص عمر بن كثير بن ضو بن كثير بن ضو بن درع القرشي من بني حصلة، وهم ينتسبون إلى الشرف وبأيديهم نسب، وقف على بعضها شيخنا المزي فأعجبه ذلك وابتهج به، فصار يكتب في نسبي بسبب ذلك: القرشي، من قرية يقال لها الشركوين غربي بصرى، بينها وبين أذرعات، وولد بها في حدود سنة أربعين وستمائة، واشتغل بالعلم عند أخواله بني عقبة ببصرى، فقرأ البداية في مذهب أبي حنيفة، وحفظ جمل الزجاجي، وعني بالنحو والعربية واللغة، وحفظ أشعار العرب حتى كان يقول الشعر الجيد الفائق الرائق في المديح والمراثي وقليل من الهجاء، وقرر في مدارس بصرى بمنزل الناقة شمالي البلد حيث يزار، وهو المبرك المشهور عند الناس والله أعلم بصحة ذلك: ثم انتقل إلى خطابة القرية شرقي بصرى وتمذهب للشافعي، وأخذ عن النواوي والشيخ تقي الدين الفزاري، وكان يكرمه ويحترمه فيما أخبرني شيخنا العلامة ابن الزملكاني، فأقام بها نحواً من اثنتي عشرة سنة، ثم تحول إلى خطابة مجيدل القرية التي منها الوالدة، فأقام بها مدة طويلة في خير وكفاية وتلاوة كثيرة، وكان يخطب جيداً، وله مقول[1] عند الناس، ولكلامه موقع لديانته وفصاحته وحلاوته، وكان يؤثر الإقامة في البلاد لما يرى فيها من الرفق ووجود الحلال له ولعياله، وقد ولد له عدة أولاد من الوالدة ومن أخرى قبلها، أكبرهم إسماعيل ثم يونس

(١) في ط: قبول.

وإدريس، ثم من الوالدة عبد الوهاب وعبد العزيز ومحمد وأخوات عدة، ثم أنا أصغرهم، وسميت باسم الأخ إسماعيل لأنه كان قد قدم دمشق فاشتغل بها بعد أن حفظ القرآن على والده وقرأ مقدمة في النحو، وحفظ التنبيه وشرحه على العلامة تاج الدين الفزاري وحصل المنتخب في أصول الفقه، قاله لي شيخنا ابن الزملكاني، ثم إنه سقط من سطح الشامية البرانية فمكث أياماً ومات، ووجد الوالد عليه وجداً كثيراً ورثاه بأبيات كثيرة، فلما ولدت أنا له بعد ذلك سمّاني باسمه، فأكبر أولاده إسماعيل وآخرهم وأصغرهم إسماعيل، فرحم الله من سلف وختم بخير لمن بقي، توفي والدي في شهر جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعمائة، بقرية مجيدل القرية، ودفن بمقبرتها الشمالية عند الزيتون وكنت إذ ذاك صغيراً ابن ثلاث سنين أو نحوها لا أدركه إلا كالحلم، ثم تحولنا من بعده في سنة سبع وسبعمائة إلى دمشق صحبة الأخ كمال الدين عبد الوهاب، وقد كان لنا شقيقاً، وبنا رفيقاً شفوقاً، وقد تأخرت وفاته إلى سنة خمسين، فاشتغلت على يديه في العلم فيسر الله تعالى منه ما يسر، وسهل منه ما تعسر والله أعلم.

وقد قال شيخنا الحافظ علم الدين البرزالي في معجمه فيما أخبرني عنه شمس الدين محمد بن سعد المقدسي مخرجه له، ومن خط المحدث شمس الدين بن سعد هذا نقلت، وكذلك وقفت على خط الحافظ البرزالي مثله في السفينة الثانية من السفن الكبار: **قال** عمر بن كثير القرشي خطيب القرية وهي قرية من أعمال بصرى رجل فاضل له نظم جيد ويحفظ كثيراً من اللغز وله همة وقوة. كتبت عنه من شعره بحضور شيخنا تاج الدين الفزاري، وتوفي في جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعمائة بمجيدل القرية من عمل بصرى، أنشدنا الخطيب شهاب الدين أبو حفص عمر بن كثير القرشي خطيب القرية بها لنفسه في منتصف شعبان من سنة سبع وثمانين وستمائة: [الطويل]

نَأى النَّوْمُ عَنْ جَفْنِي فَبِتُّ مُسَهَّدا ... أَخَا كَلَفٍ حِلْفَ الصَّبَابَةِ مُوجدا[1]
سَمِيرَ الثُّرَيَّا وَالنُّجُوم مُدَلَّهاً ... فَمِنْ وَلَهِي خِلْتُ الكَوَاكِبَ رُكَّدا[2]
طَرِيحاً عَلَى فرشِ الصَّبَابَةِ وَالأَسَى ... فَمَا ضَرَّكُمْ لَوْ كُنْتُمْ لِيَ عُوَّدا[3]
تُقَلِّبُنِي أَيْدِي الغَرَام بِلَوْعَةٍ ... أَرَى النَّارَ مِنْ تِلْقَائِهَا لِيَ أَبْرَدَا
وَمَزَّقَ صَبْرِي بَعْدَ جِيرَانِ حَاجِرٍ ... سَعِيرُ غَرَامٍ بَاتَ فِي القَلْبِ مُوقَدَا
فَأَمْطَرْتُهُ دَمْعِي لَعَلَّ زَفِيرَهُ ... يَقِلُّ فَزَادَتْهُ الدُّمُوعُ تَوَقُّدَا
فَبِتُّ بِلَيْلٍ نَابِغِيٍّ وَلاَ أَرَى ... عَلَى النَّأْيِ مِنْ بَعْدِ الأَحِبَّةِ مُسْعِدَا
فَيَا لَكَ مِنْ لَيْلٍ تَبَاعَدَ فَجْرُهُ ... عَلَيَّ إِلَى أَنْ خِلْتُهُ قَدْ تَخَلَّدَا

---

(١) نأى: بعد. ومسهداً: مؤرقاً. والكلف: العشق. والصبابة: الشوق، ورقة الهوى. وموجداً: أصابه الوجد وأضناه الحب.

(٢) السمير: المسامر. والمدله: الذاهب العقل من عشق وغيره.

(٣) عوّداً: زواراً. وعاد المريض: زاره.

غَـرَامـاً وَوَجْـداً لا يُـحَـدُّ أَقَـلُّـهُ ... بِـأَهْـيَـفَ مَـعْـسُـولِ الـمَـرَاشِـفِ أَغْـيَـدَا
لَـهُ طَـلْـعَـةٌ كَـالـبَـدْرِ زَانَ جَـمَـالَـهـا ... بِـطُـرَّةِ[١] شَـعْـرٍ حَـالِـكِ الـلَّـوْنِ أَسْـوَدَا
يَـهُـزُّ مِـنَ الـقَـدِّ الـرَّشِـيـقِ مُـثَـقَّـفـاً ... وَيَـشْـهَـرُ مِـنْ جَـفْـنَـيْـهِ سَـيْـفـاً مُـهَـنَّـداً[٢]
وَفِـي وَرْدِ خَـدَّيْـهِ وَآسِ عِـذَارِهِ[٣] ... وَضَـوْءِ ثَـنَـايَـاهُ فَـنِـيـتُ تَـجَـلُّـدَا
غَـدَا كُـلُّ حُـسْـنٍ دُونَـهُ مُـتَـقَـاصِـراً ... وَأَضْـحَـى لَـهُ رَبُّ الـجَـمَـالِ مُـوَحِّـدَا
إذا مـا رَنَـا[٤] وَاهْـتَـزَّ عِـنْـدَ لِـقَـائِـهِ ... سَـبَـاكَ، فَـلَـمْ تَـمْـلِـكْ لِـسَـانـاً وَلا يَـدَا
وَتَـسْـجُـدُ إجْـلالاً لَـهُ وَكَـرَامَـةً ... وَتُـقْـسِـمُ قَـدْ أَمْـسَـيْـتَ فِـي الـحُـسْـنِ أَوْحَـدَا
وَرُبَّ أَخِـي كُـفْـرٍ تَـأَمَّـلَ حُـسْـنَـهُ ... فَـأَسْـلَـمَ مِـنْ إجْـلالِـهِ وَتَـشَـهَّـدَا
وَأَنْـكَـرَ عِـيـسَـى وَالـصَّـلِـيـبَ وَمَـرْيَـمـاً ... وَأَصْـبَـحَ يَـهْـوَى بَـعْـدَ بُـغْـضٍ مُـحَـمَّـدَا
أَيَـا كَـعْـبَـةَ الـحُـسْـنِ الَّـتِـي طَـافَ حَـوْلَـهَـا ... فُـؤَادِي، أَمَـا لِـلـصَّـدِّ عِـنْـدَكَ مِـنْ فِـدَا؟
قَـنِـعْـتُ بِـطَـيْـفٍ مِـنْ خَـيَـالِـكَ طَـارِقٍ ... وَقَـدْ كُـنْـتُ لا أَرْضَـى بِـوَصْـلِـكَ سَـرْمَـدَا
فَـقَـدْ شَـقَّـنِـي شَـوْقٌ تَـجَـاوَزَ حَـدَّهُ ... وَحَـسْـبُـكَ مِـنْ شَـوْقٍ تَـجَـاوَزَ وَاعْـتَـدَا
سَـأَلْـتُـكَ إلاَّ مَـا مَـرَرْتَ بِـحَـيِّـنَـا ... بِـفَـضْـلِـكَ يَـا رَبَّ الـمَـلاحَـةِ وَالـنَّـدا
لَـعَـلَّ جُـفُـونِـي أَنْ تَـغِـيـضَ دُمُـوعُـهَـا ... وَيَـسْـكُـنَ قَـلْـبٌ مُـذْ هَـجَـرْتَ فَـمَـا هَـدَا
غَـلِـطْـتَ بِـهِـجْـرانِـي وَلَـوْ كُـنْـتَ صَـابِـيـاً ... لَـمَـا صَـدَّكَ الـوَاشُـونَ عَـنِّـي وَلاَ الـعِـدَا

وعدّتها ثلاثة وعشرون بيتاً والله يغفر له ما وضع من الشعر.

ثم دخلت سنة أربع وسبعمائة

استهلت والخليفة والسلطان والحكام والمباشرون هم المذكورون في التي قبلها، وفي يوم الأحد ثالث ربيع الأول حضرت[٥] الدروس والوظائف التي أنشأها الأمير بيبرس الجاشنكير المنصوري بجامع الحاكم بعد أن جدده من خرابه بالزلزلة التي طرأت على ديار مصر في آخر سنة ثنتين وسبعمائة، وجعل القضاة الأربعة هم المدرسين للمذاهب، وشيخ الحديث سعد الدين الحارثي، وشيخ النحو أثير الدين أبو حيان، وشيخ القراءات السبع الشيخ نور الدين الشطنوفي، وشيخ إفادة العلوم الشيخ علاء الدين القونوي. وفي جمادى الآخرة باشر الأمير ركن الدين بيبرس الحجوبية مع الأمير سيف الدين بكتمر، وصارا حاجبين كبيرين في دمشق. وفي رجب منها أحضر إلى الشيخ تقي الدين بن تيمية شيخ كان يلبس دلقاً كبيراً متسعاً جداً يسمى المجاهد

(١) الطرة: الناصية.
(٢) المثقف: الرمح. والمهند: السيف.
(٣) العذار: الشعر الذي يحاذي الأذنين.
(٤) رنا: أدام النظر مع سكون الطرف.
(٥) في ط: دارت.

إبراهيم القطان، فأمر الشيخ بتقطيع ذلك الدلق، فتناهبه الناس من كل جانب، وقطعوه حتى لم يدعوا فيه شيئاً، وأمر بحلق رأسه، وكان ذا شعر، وقلّم أظفاره وكانوا طوالاً جداً، وحفّ شاربه المسبل على فمه المخالف للسنة، واستتابه من كلام الفحش وأكل ما لا يجوز أكله من المحرمات ومما يغير العقل من الحشيشة وغيرها وبعده استحضر الشيخ محمد الخباز البلاسي فاستتابه أيضاً عن أكل المحرمات ومخالطة أهل الذمة، وكتب عليه مكتوباً أن لا يتكلم في تعبير المنامات ولا في غيرها بما لا علم له به. وفي هذا الشهر بعينه راح الشيخ تقي الدين بن تيمية إلى مسجد التاريخ وأمر أصحابه ومعهم حجارون بقطع صخرة كانت هناك بنهر قلوط تزار وينذر لها، فقطعها وأراح المسلمين منها ومن الشرك بها، فأزاح عن المسلمين شبهة كان شرها عظيماً، [وبهذا وأمثاله حسدوه وأبرزوا له العداوة، وكذلك بكلامه في ابن عربي وأتباعه، فحسد على ذلك وعودي، ومع هذا لم تأخذه في الله لومة لائم، ولا بالى، ولم يصلوا إليه بمكروه، وأكثر ما نالوا منه الحبس مع أنه لم ينقطع في بحث لا بمصر ولا بالشام، ولم يتوجه لهم عليه ما يشين، وإنما أخذوه وحبسوه بالجاه كما سيأتي، وإلى الله إياب الخلق وعليه حسابهم][1]. وفي رجب جلس قاضي القضاة نجم الدين بن صصري بالمدرسة العادلية الكبيرة وعملت التخوت بعدما جددت عمارة المدرسة، ولم يكن أحد يحكم بها بعد وقعة قازان بسبب خرابها، وجاء المرسوم للشيخ برهان الدين الفزاري بوكالة بيت المال فلم يقبل، وللشيخ كمال الدين بن الزملكاني بنظر الخزانة فقبل وخلع عليه بطرحة، وحضر بها يوم الجمعة، وهاتان الوظيفتان كانتا مع نجم الدين بن أبي الطيب توفي إلى رحمة الله. وفي شعبان سعى جماعة في تبطيل الوقيد ليلة النصف وأخذوا خطوط العلماء في ذلك، وتكلموا مع نائب السلطنة فلم يتفق ذلك، بل أشعلوا وصليت صلاة ليلة النصف أيضاً. وفي خامس رمضان وصل الشيخ كمال الدين بن الشريشي من مصر بوكالة بيت المال، ولبس الخلعة سابع رمضان، وحضر عنده ابن صصري بالشباك الكمالي. وفي سابع شوال عزل وزير مصر ناصر الدين بن الشيخي وقطع إقطاعه ورسم عليه وعوقب إلى أن مات في ذي القعدة، وتولى الوزارة سعد الدين محمد بن محمد بن عطاء وخلع عليه. وفي يوم الخميس الثاني والعشرين من ذي القعدة حكم قاضي القضاة جمال الدين الزواوي بقتل الشمس محمد بن جمال الدين بن عبد الرحمن[2] الباجريقي، وإراقة دمه وإن تاب وإن أسلم، بعد إثبات محضر عليه يتضمن كفر الباجريقي المذكور، وكان ممن شهد عليه فيه الشيخ مجد الدين التونسي النحوي الشافعي، فهرب الباجريقي إلى بلاد الشرق فمكث بها مدة سنين ثم جاء بعد موت الحاكم المذكور كما سيأتي.

وفي ذي القعدة كان نائب السلطنة في الصيد فقصدهم في الليل طائفة من الأعراب فقاتلهم الأمراء فقتلوا من العرب نحو النصف، وتوغل في العرب أمير يقال له سيف الدين بهادر تمراز احتقاراً بالعرب، فضربه واحد منهم برمح فقتله، فكرت الأمراء عليهم فقتلوا منهم خلقاً أيضاً،

(١) ما بين معقوفين سقط من النسخة المصرية.
(٢) في ط: عبد الرحيم.

وأخذوا واحداً منهم زعموا أنه هو الذي قتله فصلب تحت القلعة، ودفن الأمير المذكور بقبر الست. وفي ذي القعدة تكلم الشيخ شمس الدين بن النقيب وجماعة من العلماء في الفتاوى الصادرة من الشيخ علاء الدين بن العطار شيخ دار الحديث النورية والقوصية، وأنها مخالفة لمذهب الشافعي، وفيها تخبيط كثير، فتوهم من ذلك وراح إلى الحنفي فحقن دمه وأبقاه على وظائفه، ثم بلغ ذلك نائب السلطنة فأنكر على المنكرين عليه، ورسم عليهم ثم اصطلحوا، ورسم نائب السلطنة أن لا تثار الفتن بين الفقهاء. وفي مستهل ذي الحجة ركب الشيخ تقي الدين بن تيمية وجماعة من أصحابه إلى جبل الجرد والكسروانين ومعه نقيب الأشراف زين الدين بن عدنان فاستتابوا خلقاً منهم وألزموهم بشرائع الإسلام ورجع مؤيداً منصوراً.

وممن توفي فيها من الأعيان:

الشيخ تاج الدين بن شمس الدين بن الرفاعي

شيخ الأحمدية بأم عبيدة من مدة مديدة، وعنه تكتب إجازات الفقراء، ودفن هناك عند سلفه بالبطائح.

الصدر [الشهيد][(١)] نجم الدين بن عمر

ابن أبي القاسم بن عبد المنعم بن محمد بن الحسن بن أبي الكتائب بن محمد بن أبي الطيب، وكيل بيت المال وناظر الخزانة، وقد ولّي في وقت نظر المارستان النوري وغير ذلك، وكان مشكور السيرة رجلاً جيداً، وقد سمع الحديث وروى أيضاً، وتوفي ليلة الثلاثاء الخامس عشر من جمادى الآخرة، ودفن بتربتهم بباب الصغير.

ثم دخلت سنة خمس وسبعمائة

استهلت والخليفة المستكفي والسلطان الملك الناصر والمباشرون هم المذكورون فيما مضى، وجاء الخبر أن جماعة من التتر كمنوا لجيش حلب وقتلوا منهم خلقاً من الأعيان وغيرهم، وكثر النوح ببلاد حلب بسبب ذلك. وفي مستهل المحرم حكم جلال الدين القزويني أخو قاضي القضاة إمام الدين نيابة عن ابن صصري، وفي ثانيه خرج نائب السلطنة بمن بقي من الجيوش الشامية، وقد كان تقدم بين يديه طائفة منهم بعد خروج ابن تيمية في ثاني المحرم، فساروا إلى بلاد الجرد والرفض والتيامنة فخرج نائب السلطنة الأفرم بنفسه بعد خروج الشيخ لغزوهم، فنصرهم الله عليهم وأبادوا خلقاً كثيراً منهم ومن فرقتهم الضالة، ووطئوا أراضٍ كثيرة من صنع بلادهم، وعاد نائب السلطنة إلى دمشق في صحبة الشيخ تقي الدين بن تيمية والجيش، وقد حصل بسبب شهود الشيخ هذه الغزوة خير كثير، وأبان الشيخ علماً وشجاعة في هذه الغزوة، وقد امتلأت قلوب أعدائه حسداً له وغماً. وفي مستهل جمادى الأولى قدم القاضي

---

(١) سقط في ط.

أمين الدين أبو بكر ابن القاضي وجيه الدين بن عبد العظيم بن الرفاقي المصري من القاهرة على نظر الدواوين بدمشق، عوضاً عن عز الدين بن مبشر.

ما جرى للشيخ تقي الدين بن تيمية مع الأحمدية وكيف عقدت له المجالس الثلاثة

وفي يوم السبت تاسع جمادى الأولى حضر جماعة كثيرة من الفقراء الأحمدية إلى نائب السلطنة بالقصر الأبلق وحضر الشيخ تقي الدين بن تيمية فسألوا من نائب السلطنة بحضرة الأمراء أن يكف الشيخ تقي الدين إمارته عنهم، وأن يسلم لهم حالهم، فقال لهم الشيخ: هذا ما يمكن. ولا بد لكل أحد أن يدخل تحت الكتاب والسنة، قولاً وفعلاً، ومن خرج عنهما وجب الإنكار عليه. فأرادوا أن يفعلوا شيئاً من أحوالهم الشيطانية التي يتعاطونها في سماعاتهم، فقال الشيخ تلك أحوال شيطانية باطلة، وأكثر أحوالهم من باب الحيل والبهتان، ومن أراد منهم أن يدخل النار فليدخل أولاً إلى الحمام وليغسل جسده غسلاً جيداً ويدلكه بالخل والأشنان ثم يدخل بعد ذلك إلى النار إن كان صادقاً، ولو فرض أن أحداً من أهل البدع دخل النار بعد أن يغتسل فإن ذلك لا يدل على صلاحه ولا على كرامته، بل حاله من أحوال الدجاجلة المخالفة للشريعة إذا كان صاحبها على السنة، فما الظن بخلاف ذلك، فابتدر شيخ المنيبع الشيخ صالح وقال: نحن أحوالنا إنما تنفق عند التتر ليست تنفق عند الشرع، فضبط الحاضرون عليه هذه الكلمة، وكثر الإنكار عليهم من كل أحد، ثم اتفق الحال على أنهم يخلعون الأطواق الحديد من رقابهم، وأن من خرج على الكتاب والسنة ضربت عنقه وصنف الشيخ جزءاً في طريقة الأحمدية، وبيّنَ فيه فساد أحوالهم ومسالكهم وتخيلاتهم، وما في طريقتهم من مقبول ومردود بالكتاب والسنة، وأظهر الله السنة على يديه وأخمد بدعتهم ولله الحمد والمنة.

وفي العشر الأوسط من هذا الشهر خلع على جلال الدين بن معبد وعز الدين خطاب، وسيف الدين بكتمر مملوك بكتاش الحسامي بالإمرة ولبسوا التشاريف، وركبوا بها وسلموا إليهم جبل الجرد والكسروان والبقاع. وفي يوم الخميس ثالث رجب خرج الناس للاستسقاء إلى سطح المزة ونصبوا هناك منبراً وخرج نائب السلطنة وجميع الناس من القضاة والعلماء والفقراء، وكان مشهداً هائلاً وخطبة عظيمة فصيحة، فاستسقوا فلم يسقوا يومهم ذلك.

أول المجالس الثلاثة لشيخ الإسلام ابن تيمية

وفي يوم الاثنين ثامن رجب حضر القضاة والعلماء وفيهم الشيخ تقي الدين بن تيمية عند نائب السلطنة بالقصر وقرئت عقيدة الشيخ تقي الدين الواسطية، وحصل بحث في أماكن منها، وأخرت مواضع إلى المجلس الثاني، فاجتمعوا يوم الجمعة بعد الصلاة ثاني عشر الشهر المذكور وحضر الشيخ صفي الدين الهندي، وتكلم مع الشيخ تقي الدين كلاماً كثيراً، ولكن ساقيته لاطمت بحراً، ثم اصطلحوا على أن يكون الشيخ كمال الدين بن الزملكاني هو الذي

يحاققه من غير مسامحة، فتناظرا في ذلك، وشكر الناس من فضائل الشيخ كمال الدين بن الزملكاني وجودة ذهنه وحسن بحثه حيث قاوم ابن تيمية في البحث، وتكلم معه، ثم انفصل الحال على قبول العقيدة، وعاد الشيخ إلى منزله معظماً مكرماً، وبلغني أن العامة حملوا له الشمع من باب النصر إلى القصاعين على جاري عادتهم في أمثال هذه الأشياء، وكان الحامل على هذه الاجتماعات كتاب ورد من السلطان في ذلك، كان الباعث على إرساله قاضي المالكية ابن مخلوف، والشيخ نصر المنبجي شيخ الجاشنكير وغيرهما من أعدائه، وذلك أن الشيخ تقي الدين بن تيمية كان يتكلم في المنبجي وينسبه إلى اعتقاد ابن عربي وكان للشيخ تقي الدين من الفقهاء جماعة يحسدونه لتقدمه عند الدولة، وانفراده بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وطاعة الناس له، ومحبتهم له وكثرة أتباعه وقيامه في الحق، وعلمه وعمله، ثم وقع بدمشق خبط كثير وتشويش بسبب غيبة نائب السلطنة، وطلب القاضي جماعة من أصحاب الشيخ وعزّر بعضهم ثم اتفق أن الشيخ جمال الدين المزي الحافظ قرأ فصلاً في الرد على الجهمية من كتاب أفعال العباد للبخاري تحت قبة النسر بعد قراءة ميعاد البخاري بسبب الاستسقاء، فغضب بعض الفقهاء الحاضرين وشكاه إلى القاضي الشافعي ابن صصري، وكان عدو الشيخ فسجن المزي، فبلغ ذلك الشيخ تقي الدين فتألم لذلك وذهب إلى السجن فأخرجه منه بنفسه، وراح إلى القصر فوجد القاضي هناك، فتقاولا بسبب الشيخ جمال الدين المزي، فحلف ابن صصري لا بد أن يعيده إلى السجن وإلا عزل نفسه فأمر النائب بإعادته تطييباً لقلب القاضي فحبسه عنده في القوصية أياماً ثم أطلقه. ولما قدم نائب السلطنة ذكر له الشيخ تقي الدين ما جرى في حقه وحق أصحابه في غيبته، فتألم النائب لذلك ونادى في البلد أن لا يتكلم أحد في العقائد، ومن عاد إلى تلك حل ماله ودمه ورتبت داره وحانوته. فسكنت الأمور. وقد رأيت فصلاً من كلام الشيخ تقي الدين في كيفية ما وقع في هذه المجالس الثلاثة من المناظرات.

ثم عقد المجلس الثالث في يوم سابع شعبان بالقصر واجتمع الجماعة على الرضى بالعقيدة المذكورة وفي هذا اليوم عزل ابن صصري نفسه عن الحكم بسبب كلام سمعه من بعض الحاضرين في المجلس المذكور، وهو الشيخ كمال الدين بن الزملكاني، ثم جاء كتاب السلطان في السادس والعشرين من شعبان فيه إعادة ابن صصري إلى القضاء، وذلك بإشارة المنبجي، وفي الكتاب إنا كنا سمعنا بعقد مجلس للشيخ تقي الدين بن تيمية، وقد بلغنا ما عقد له من المجالس، وأنه على مذهب السلف وإنما أردنا بذلك براءة ساحته مما نسب إليه، ثم جاء كتاب آخر في خامس رمضان يوم الاثنين وفيه الكشف عما وقع للشيخ تقي الدين بن تيمية في أيام جاغان، والقاضي إمام الدين القزويني وأن يحمل هو والقاضي ابن صصري إلى مصر، فتوجها على البريد نحو مصر، وخرج مع الشيخ خلق من أصحابه وبكوا وخافوا عليه من أعدائه، وأشار عليه نائب السلطنة الأفرم بترك الذهاب إلى مصر، وقال له أنا أكاتب السلطان في ذلك وأصلح القضايا، فامتنع الشيخ تقي الدين من ذلك، وذكر له أن في توجهه لمصر مصلحة كبيرة، ومصالح كثيرة، فلما توجه لمصر ازدحم الناس لوداعه ورؤيته حتى انتشروا من باب داره إلى

قرب الجسورة، فيما بين دمشق والكسوة، وهم ما بين باك وحزين ومتفرج ومتنزه ومزاحم متغال فيه. فلما كان يوم السبت دخل الشيخ تقي الدين غزة فعمل في جامعها مجلساً عظيماً، ثم دخلا معاً إلى القاهرة والقلوب معه وبه متعلقة، فدخلا مصر يوم الاثنين الثاني والعشرين من رمضان، وقيل إنهما دخلاها يوم الخميس، فلما كان يوم الجمعة بعد الصلاة عقد للشيخ مجلس بالقلعة اجتمع فيه القضاة وأكابر الدولة وأراد أن يتكلم على عادته فلم يتمكن من البحث والكلام، وانتدب له الشمس ابن عدنان خصماً احتساباً، وادّعى عليه عند ابن مخلوف المالكي أنه يقول إن الله فوق العرش حقيقة، وأن الله يتكلم بحرف وصوت، فسأله القاضي جوابه فأخذ الشيخ في حمد الله والثناء عليه، فقيل له أجب ما جئنا بك لتخطب، فقال: ومن الحاكم فيَّ؟ فقيل له القاضي المالكي. فقال له الشيخ كيف تحكم فيَّ وأنت خصمي، فغضب غضباً شديداً وانزعج وأقيم مرسماً عليه وحبس في برج أياماً ثم نقل منه ليلة العيد إلى الحبس المعروف بالجب، هو وأخوه شرف الدين عبد الله وزين الدين عبد الرحمن.

وأما ابن صصري فإنه جدد له توقيع بالقضاء بإشارة المنبجي شيخ الجاشنكير حاكم مصر، وعاد إلى دمشق يوم الجمعة سادس ذي القعدة والقلوب له ماقتة، والنفوس منه نافرة، وقرىء تقليده بالجامع وبعده قرىء كتاب فيه الحط على الشيخ تقي الدين ومخالفته في العقيدة، وأن ينادي بذلك في البلاد الشامية، وألزم أهل مذهبه بمخالفته، وكذلك وقع بمصر، قام عليه جاشنكير وشيخه نصر المنبجي، وساعدهم جماعة من الفقهاء كثيرة والفقراء، وجرت فتن كثيرة منتشرة نعوذ بالله من الفتن، وحصل للحنابلة بالديار المصرية إهانة عظيمة كثيرة، وذلك أن قاضيهم كان قليل العلم مزجي[1] البضاعة، وهو شرف الدين الحراني، فلذلك نال أصحابهم ما نالهم، وصارت حالهم حالهم، وفي شهر رمضان جاء كتاب من مقدم الخدام بالحرم النبوي يستأذن السلطان في بيع طائفة من قناديل الحرم النبوي لينفق ذلك ببناء مئذنة عند باب السلام الذي عند المطهرة، فرسم له بذلك، وكان في جملة القناديل قنديلان من ذهب زنتهما ألف دينار، فباع ذلك وشرع في بنائها وولّى سراج الدين عمر قضاءها مع الخطابة فشق ذلك على الروافض.

وفي يوم الخميس ثاني عشر ذي القعدة وصل البريد من مصر بتولية القضاء لشمس الدين محمد بن إبراهيم بن داود الأذرعي الحنفي قضاء الحنفية عوضاً عن [شمس الدين بن الحسيني معزولاً وبتولية الشيخ برهان الدين ابن الشيخ تاج الدين الفزاري خطابة دمشق عوضاً][2] عن عمه الشيخ شرف الدين توفي إلى رحمة الله، وخلع عليهما بذلك وباشرا في يوم الجمعة ثالث عشر الشهر وخطب الشيخ برهان الدين خطبة حسنة حضرها الناس والأعيان، ثم بعد خمسة أيام عزل نفسه عن الخطابة وآثر بقاءه على تدريس البادرائية حين بلغه أنها طلبت لتؤخذ منه، فبقي منصب الخطابة شاغراً ونائب الخطيب يصلي بالناس ويخطب، ودخل عيد الأضحى وليس

(١) مزجي البضاعة: رديئها.

(٢) ما بين معقوفين سقط في المصرية.

للناس خطيب، وقد كاتب نائب السلطنة في ذلك فجاء المرسوم بإلزامه بذلك، وفيه: لعلمنا بأهليته وكفايته واستمراره على ما بيده من تدريس البادرائية، فباشرها القيسي جمال الدين بن الرحبي، سعى في البادرائية فأخذها وباشرها في صفر من السنة المذكورة الآتية بتوقيع سلطاني، فعزل الفزاري نفسه عن الخطابة ولزم بيته، فراسله نائب السلطان في ذلك، فصمم على العزل وأنه لا يعود إليها أبداً، وذكر أنه عجز عنها، فلما تحقق نائب السلطنة ذلك أعاد إليه مدرسته وكتب له بها توقيعاً في العشر الأول من ذي الحجة وخلع على شمس الدين بن الخطيري بنظر الخزانة عوضاً عن ابن الزملكاني. وحج بالناس الأمير شرف الدين حسن بن حيدر.

وممن توفي فيها من الأعيان:

الشيخ عيسى ابن الشيخ سيف الدين الرحبي بن سابق ابن الشيخ يونس القيسي ودفن بزاويتهم التي بالشرق الشمالي بدمشق غربي الوراقة والعزية يوم الثلاثاء سابع المحرم.

الملك الأوحد

ابن الملك تقي الدين شادي ابن الملك الزاهر مجير الدين داود ابن الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه بن شادي، توفي بجبل بالجرد في آخر نهار الأربعاء ثاني صفر، وله من العمر سبع وخمسون سنة فنقل إلى تربتهم بالسفح، وكان من خيار الدولة، معظماً عند الملوك والأمراء، وكان يحفظ القرآن وله معرفة بعلوم، ولديه فضائل.

الصدر علاء الدين

علي بن معالي الأنصاري الحاسب، يعرف بابن الزريز، وكان فاضلاً بارعاً في صناعة الحساب انتفع به جماعة، توفي في أواخر صفر من هذه السنة فجأة ودفن بقاسيون، وقد أخذت الحساب عن الحاضري عن علاء الدين الطيوري عنه.

الخطيب شرف الدين أبو العباس

أحمد بن إبراهيم بن سباع بن ضياء الفزاري، الشيخ الإمام العلامة أخو العلامة شيخ الشافعية تاج الدين عبد الرحمن، ولد سنة ثلاثين وسمع الحديث الكثير، وانتفع على المشايخ في ذلك العصر كابن الصلاح وابن السخاوي وغيرهما، وتفقه وأفتى وناظر وبرع وساد أقرانه، وكان أستاذاً في العربية واللغة والقراءات وإيراد الأحاديث النبوية، والتردد إلى المشايخ للقراءة عليهم، وكان فصيح العبارة حلو المحاضرة، لا تمل مجالسته، وقد درس بالطبية، وبالرباط الناصري مدة، ثم تحول عنه إلى خطابة جامع جراح، ثم انتقل إلى خطابة جامع دمشق بعد الفارقي في سنة ثلاث ولم يزل به حتى توفي يوم الأربعاء عشية التاسع من شوال، عن خمس وسبعين سنة، وصلّي عليه صبيحة يوم الخميس على باب الخطابة، ودفن عند أبيه وأخيه بباب الصغير رحمهم الله، وولي الخطابة ابن أخيه.

شيخنا العلامة برهان الدين الحافظ الكبير الدمياطي

وهو الشيخ الإمام العالم الحافظ شيخ المحدثين شرف الدين أبو محمد عبد المؤمن بن خلف بن أبي الحسن بن شرف بن الخضر بن موسى الدمياطي، حامل لواء هذا الفن ـ أعني صناعة الحديث وعلم اللغة ـ في زمانه مع كبر السن والقدر، وعلو الإسناد وكثرة الرواية، وجودة الدراية وحسن التآليف وانتشار التصانيف ، وتردد الطلبة إليه من سائر الآفاق، مولده في آخر سنة ثلاث عشرة وستمائة، وقد كان أول سماعه في سنة ثنتين وثلاثين بالاسكندرية، سمع الكثير على المشايخ ورحل وطاف وحصَّل وجمع فأوعى، ولكن ما منع ولا بخل، بل بذل وصنف ونشر العلم، وولِّي المناصب بالديار المصرية، وانتفع الناس به كثيراً، وجمع معجماً لمشايخه الذين لقيهم بالحجاز والشام والجزيرة والعراق وديار مصر يزيدون على ألف وثلاثمائة شيخ، وهو مجلدان، وله الأربعون المتباينة الإسناد وغيرها وله كتاب في الصلاة الوسطى مفيد جداً، ومصنف في صيام ستة أيام من شوال أجاد فيه وأفاد، وجمع ما لم يسبق إليه، وله كتاب الذكر والتسبيح عقيب الصلوات، وكتاب التسلّي في الاغتباط بثواب من يقدم من الإفراط، وغير ذلك من الفوائد الحسان، ولم يزل في إسماع الحديث إلى أن أدركته وفاته وهو صائم في مجلس الأمراء غشي عليه فحمل إلى منزله فمات من ساعته يوم الأحد عاشر ذي القعدة بالقاهرة، ودفن من الغد بمقابر باب النصر وكانت جنازته حافلة جداً رحمه الله تعالى.

ثم دخلت سنة ست وسبعمائة

استهلت والحكام هم المذكورون في التي قبلها والشيخ تقي الدين بن تيمية مسجون بالجب من قلعة الجبل، وفي يوم الأربعاء جاء البريد بتولية الخطابة للشيخ شمس الدين إمام الكلاسة وذلك في ربيع الأول، وهنىء بذلك فأظهر التكره لذلك والضعف عنه، ولم يحصل له مباشرة لغيبة نائب السلطنة في الصيد، فلما حضر أذن له فباشر يوم الجمعة العشرين من الشهر، فأول صلاة صلاها الصبح يوم الجمعة، ثم خلع عليه وخطب يومئذ، في يوم الأربعاء ثامن عشر ربيع الأول باشر نيابة الحكم عن القاضي الشافعي نجم الدين أحمد بن عبد المحسن بن حسن المعروف بالدمشقي عوضاً عن تاج الدين بن صالح بن ثامر بن حامد الجعبري، وكان معمراً قديم الهجرة كثير الفضائل، ديناً ورعاً جيد المباشرة، وكان قد ولّي الحكم في سنة سبع وخمسين وستمائة، فلما تولى ابن صصري كره نيابته. وفي يوم الأحد العشرين من ربيع الآخر قدم البريد من القاهرة ومعه تجديد توقيع للقاضي شمس الدين الأذرعي الحنفي، فظن الناس أنه بولاية القضاء لابن الحريري فذهبوا ليهنئوه مع البريدي إلى الظاهرية، واجتمع الناس لقراءة التقليد على العادة فشرع الشيخ علم الدين البرزالي في قراءته فلما وصل إلى الاسم تبين له أنه ليس له وأنه للأذرعي، فبطل القارىء وقام الناس مع البريدي إلى الأذرعي، وحصلت كسرة وخمدة على الحريري والحاضرين. ووصل مع البريدي أيضاً كتاب فيه طلب الشيخ كمال الدين بن الزملكاني إلى القاهرة، فتوهم من ذلك وخاف أصحابه عليه بسبب انتسابه إلى الشيخ

تقي الدين بن تيمية، فتلطف له نائب السلطنة، وداري عنه حتى أعفي من الحضور إلى مصر، ولله الحمد.

وفي يوم الخميس تاسع جمادى الأولى دخل الشيخ ابن براق إلى دمشق وفي صحبته مائة فقير كلهم محلقي ذقونهم موفري شواربهم عكس ما وردت به السنة، وعلى رؤوسهم قرون لبابيد. وعليهم أجراس وكعاب وجواكين خشب، فنزلوا بالمنيبع وحضروا الجمعة برواق الحنابلة، ثم توجهوا نحو القدس فزاروا، ثم استأذنوا في الدخول إلى الديار المصرية فلم يؤذن لهم، فعادوا إلى دمشق فصاموا بها رمضان ثم انشمروا راجعين إلى بلاد الشرق، إذ لم يجدوا بدمشق قبولاً، وقد كان شيخهم براق رومياً من بعض قرى درقات من أبناء الأربعين، وقد كانت له منزلة عند قازان ومكانة، وذلك أنه سلط عليه نمراً فزجره فهرب منه وتركه، فحظي عنده وأعطاه في يوم واحد ثلاثين ألفاً ففرّقها كلها فأحبه، ومن طريقة أصحابه أنهم لا يقطعون لهم صلاة، ومن ترك صلاة ضربوه أربعين جلدة، وكان يزعم أن طريقه الذي سلكه إنما سلكه ليحزن به على نفسه، ويرى أنه زي المسخرة، وأن هذا هو الذي يليق بالدنيا، والمقصود إنما هو الباطن والقلب وعمارة ذلك، ونحن إنما نحكم بالظاهر، والله أعلم بالسرائر.

وفي يوم الأربعاء سادس جمادى الآخرة حضر مدرس النجيبية بهاء الدين يوسف بن كمال الدين أحمد بن عبد العزيز العجمي الحلبي، عوضاً عن الشيخ ضياء الدين الطوسي توفي، وحضر عنده ابن صصري وجماعة من الفضلاء، وفي هذه السنة صليت صلاة في النصف بجامع دمشق بعد أن كانت قد أبطلها ابن تيمية منذ أربع سنين، ولما كانت ليلة النصف حضر الحاجب ركن الدين بيبرس العلائي ومنع الناس من الوصول إلى الجامع ليلتئذٍ، وغلقت أبوابه فبات كثير من الناس في الطرقات وحصل للناس أذى كثير، وإنما أراد صيانة الجامع من اللغو والرفث والتخليط. وفي سابع عشر رمضان حكم القاضي تقي الدين الحنبلي بحقن دم محمد بن الباجريقي، واثبت عنده محضراً بعداوة ما بينه وبين الشهود الستة الذين شهدوا عليه عند المالكي، حين حكم بإراقة دمه، وممن شهد بهذه العداوة ناصر الدين بن عبد السلام وزين الدين بن الشريف عدنان، وقطب الدين ابن شيخ السلامية وغيرهم. وفيها باشر كمال الدين بن الزملكاني نظر ديوان ملك الأمراء عوضاً عن شهاب الدين الحنفي، وذلك في آخر رمضان، وخلع عليه بطيلسان وخلعة، وحضر بها دار العدل. وفي ليلة عيد الفطر أحضر الأمير سيف الدين سلار نائب مصر القضاة الثلاثة وجماعة من الفقهاء فالقضاة الشافعي والمالكي والحنفي، والفقهاء الباجي والجزري والنمراوي، وتكلموا في إخراج الشيخ تقي الدين بن تيمية من الحبس، فاشترط بعض الحاضرين عليه شروطاً بذلك منها أنه يلتزم بالرجوع عن بعض العقيدة وأرسلوا إليه ليحضر ليتكلموا معه في ذلك، فامتنع من الحضور وصمم، وتكررت الرسل إليه ست مرات، فصمم على عدم الحضور، ولم يلتفت إليهم ولم يعدهم شيئاً، فطال عليهم المجلس فتفرقوا وانصرفوا غير مأجورين.

وفي يوم الأربعاء ثاني شوال أذن نائب السلطنة الأفرم للقاضي جلال الدين القزويني أن

يصلي بالناس ويخطب بجامع دمشق عوضاً عن الشيخ شمس الدين إمام الكلاسة توفي، فصلّى الظهر يومئذٍ وخطب الجمعة واستمر بالإمامة والخطابة حتى وصل توقيعه بذلك من القاهرة، وفي مستهل ذي القعدة حضر نائب السلطنة والقضاة والأمراء والأعيان وشكرت خطبته. وفي مستهل ذي القعدة كمل بناء الجامع الذي أبتناه وعمره وعمره الأمير جمال الدين نائب السلطنة الأفرم عند الرباط الناصري بالصالحية ورتب فيه خطيباً يخطب به يوم الجمعة وهو القاضي شمس الدين محمد بن العز الحنفي، وحضر نائب السلطنة والقضاة وشكرت خطبة الخطيب به، ومد الصاحب شهاب الدين الحنفي سماطاً بعد الصلاة بالجامع المذكور وهو الذي كان الساعي في عمارته، والمستحث عليها، فجاء في غاية الإتقان والحسن، تقبّل الله منهم.

وفي ثالث ذي القعدة استناب ابن صصري القاضي صدر الدين سليمان بن هلال بن شبل الجعبري خطيب داريا في الحكم عوضاً عن جلال الدين القزويني، بسبب اشتغاله بالخطابة عن الحكم، وفي يوم الجمعة التاسع والعشرين من ذي القعدة قدم قاضي القضاة صدر الدين أبو الحسن علي ابن الشيخ صفي الدين الحنفي البصراوي إلى دمشق من القاهرة متولياً قضاء الحنفية عوضاً عن الأذرعي، مع ما بيده من تدريس النورية والمقدمية وخرج الناس لتلقيه وهنؤوه، وحكم بالنورية وقرىء تقليده بالمقصورة الكندية بالزاوية الشرقية، من جامع بني أمية. وفي ذي الحجة ولي الأمير عز الدين بن صبرة على البلاد القبلية والي الولاة، عوضاً عن الأمير جمال الدين آقوش الرستمي، بحكم ولايته شد الدواوين بدمشق، وجاء كتاب من السلطان بولاية وكالته للرئيس عز الدين بن حمزة القلانسي عوضاً عن ابن عمه شرف الدين، فكره ذلك.

وفي اليوم الثامن والعشرين من ذي الحجة أخبر نائب السلطنة بوصول كتاب من الشيخ تقي الدين من الحبس الذي يقال له الجب فأرسل في طلبه فجيء به فقرىء على الناس وجعل يشكر الشيخ ويثني عليه وعلى علمه وديانته وشجاعته وزهده، وقال ما رأيت مثله، وإذا هو كتاب مشتمل على ما هو عليه في السجن ومن التوجه إلى الله، وأنه لم يقبل من أحد شيئاً لا من النفقات السلطانية ولا من الكسوة ولا من الإدرارات ولا غيرها، ولا تدنس بشيء من ذلك.

وفي هذا الشهر يوم الخميس السابع والعشرين منه طلب أخوا الشيخ تقي الدين شرف الدين وزين الدين من الحبس إلى مجلس نائب السلطان سلار، وحضر نائب السلطنة ابن مخلوف المالكي وطال بينهم كلام كثير فظهر شرف الدين بالحجة على القاضي المالكي بالنقل والدليل والمعرفة، وخطأه في مواضع ادّعى فيها دعاوى باطلة، وكان الكلام في مسألة العرش ومسألة الكلام، وفي مسألة النزول.

وفي يوم الجمعة ثاني عشرين ذي الحجة وصل على البريد من مصر نجم الدين محمد ابن الشيخ فخر الدين ابن أخي قاضي القضاة البصراوي، وزوّج ابنته على الحسبة بدمشق عوضاً عن جمال الدين يوسف العجمي وخلع عليه بطيلسان ولبس الخلعة ودار بها في البلد في مستهل سنة سبع وسبعمائة، وفي هذه السنة عمر في حرم مكة بنحو من مائة ألف. وحج بالناس من الشام الأمير ركن الدين بيبرس المجنون.

ومن توفي فيها من الأعيان.

القاضي تاج الدين

صالح بن [ثامر بن] بن حامد بن علي الجعبري الشافعي نائب الحكم بدمشق ومعيد الناصرية، كان ثقة ديناً عدلاً مرضياً زاهداً، حكم من سنة سبع وخمسين وستمائة، له فضائل وعلوم، وكان حسن الشكل والهيئة، توفي في ربيع الأول عن ست وسبعين سنة، ودفن بالسفح وناب في الحكم بعده نجم الدين الدمشقي.

الشيخ ضياء الدين الطوسي

أبو محمد عبد العزيز بن محمد بن علي الشافعي مدرس النجيبية شارح الحاوي، ومختصر ابن الحاجب كان شيخاً فاضلاً بارعاً، وأعاد في الناصرية أيضاً، توفي يوم الأربعاء بعد مرجعه من الحمام تاسع عشرين من جمادى الأولى، وصلّي عليه يوم الخميس ظاهر باب النصر، وحضر نائب السلطنة وجماعة من الأمراء والأعيان، ودفن بالصوفية، ودرس بعده بالمدرسة بهاء الدين بن العجمي.

الشيخ جمال الدين إبراهيم بن محمد بن سعد الطيبي

المعروف بابن السوابلي، والسوابل الطاسات. كان معظماً ببلاد الشرق جداً، كان تاجراً كبيراً توفي في هذا الشهر المذكور.

الشيخ الجليل سيف الدين الرجيحي

ابن سابق هلال بن يونس شيخ اليونسية بمقامهم، صلّي عليه سادس رجب بالجامع ثم أعيد إلى داره التي سكنها داخل باب توما، وتعرف بدار أمين الدولة فدفن بها، وحضر جنازته خلق كثير من الأعيان والقضاة والأمراء، وكانت له حرمة كبيرة عند الدولة وعند طائفته، وكان ضخم الهامة جداً محلوق الشعر، وخلف أموالاً وأولاداً.

الأمير فارس الدين الردادي: توفي في العشر الأخير من رمضان، وكان قد رأى النبي ﷺ قبل وفاته بأيام وهو يقول له: أنت مغفور لك، ونحو هذا، وهو من أمراء حسام الدين لاجين.

الشيخ العابد خطيب دمشق شمس الدين

محمد ابن الشيخ أحمد بن عثمان الخلاطي إمام الكلاسة، كان شيخاً حسناً بهي المنظر كثير العبادة، عليه سكون ووقار، باشر إمامة الكلاسة قريباً من أربعين سنة ثم طلب إلى أن يكون خطيباً بدمشق بالجامع من غير سؤال منه ولا طلب، فباشرها ستة أشهر ونصف أحسن مباشرة، وكان حسن الصوت طيب النغمة عارفاً بصناعة الموسيقى، مع ديانة وعبادة، وقد سمع الحديث توفي فجأة بدار الخطابة يوم الأربعاء ثامن شوال عن ثنتين وستين سنة، وصلّي عليه بالجامع وقد امتلأ بالناس، ثم صلّي عليه بسوق الخيل وحضر نائب السلطنة والأمراء والعامة، وقد غلقت الأسواق ثم حمل إلى سفح قاسيون رحمه الله.

ثم دخلت سنة سبع وسبعمائة

استهلت والحكام هم المذكورون في التي قبلها، والشيخ تقي الدين بن تيمية معتقل في قلعة الجبل بمصر، وفي أوائل المحرم منها أظهر السلطان الملك الناصر الغضب على الأمير ابن سلار والجاشنكير وامتنع من العلامة وأغلق القلعة وتحصَّن فيها، ولزم الأميران بيوتهما، واجتمع عليهما جماعة من الأمراء وحوصرت القلعة وجرت خبطة عظيمة، وغلقت الأسواق، ثم راسلوا السلطان فتوطدت الأمور وسكنت الشرور على دخن، وتنافر قلوب. وقوي الأميران أكثر مما كانا قبل ذلك وركب السلطان ووقع الصلح على دخن. وفي المحرم وقعت الحرب بين التتر وبين أهل كيلان، وذلك أن ملك التتر طلب منهم أن يجعلوا ببلادهم طريقاً لعسكره فامتنعوا من ذلك، فأرسل إليهم ملك التتر خربندا جيشاً كثيفاً ستين ألفاً من المقاتلة، أربعين ألفاً مع قطلوشاه وعشرين ألفاً مع جوبان، فأمهلهم أهل كيلان حتى توسطوا بلادهم، ثم أرسلوا عليهم خليجاً من البحر ورموهم بالنفط فغرق كثير منهم واحترق آخرون، وقتلوا بأيديهم طائفة كثيرة، فلم يفلت منهم إلا القليل، وكان فيمن قتل أمير التتر الكبير قطلوشاه فاشتد غضب خربندا على أهل كيلان، ولكنه فرح بقتل قطلوشاه فإنه كان يريد قتل خربندا فكفي أمره عنهم، ثم قتل بعده بولاي. ثم إن ملك التتر أرسل الشيخ براق الذي قدم الشام فيما تقدم إلى أهل كيلان يبلغهم عنه رسالة فقتلوه وأراحوا الناس منه، وبلادهم من أحصن البلاد وأطيبها لا تستطاع، وهم أهل سنة وأكثرهم حنابلة لا يستطيع مبتدع أن يسكن بين أظهرهم.

وفي يوم الجمعة رابع عشر صفر اجتمع قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة بالشيخ تقي الدين بن تيمية في دار الأوحدي من قلعة الجبل، وطال بينهما الكلام ثم تفرقا قبل الصلاة، والشيخ تقي الدين بن تيمية مصمم على عدم الخروج من السجن، فلما كان يوم الجمعة الثالث والعشرين من ربيع الأول جاء الأمير حسام الدين مهنا بن عيسى ملك العرب إلى السجن بنفسه وأقسم على الشيخ تقي الدين ليخرجن إليه، فلما خرج أقسم عليه ليأتين معه إلى دار سلار، فاجتمع به بعض الفقهاء بدار سلار وجرت بينهم بحوث كثيرة. ثم فرقت بينهم الصلاة، ثم اجتمعوا إلى المغرب وبات الشيخ تقي الدين عند سلار، ثم اجتمعوا يوم الأحد بمرسوم السلطان جميع النهار، ولم يحضر أحد من القضاة بل اجتمع من الفقهاء خلق كثير، أكثر من كل يوم، منهم الفقيه نجم الدين بن رفع[1] وعلاء الدين التاجي، وفخر الدين ابن بنت أبي سعد، وعز الدين النمراوي، وشمس الدين بن عدنان وجماعة من الفقهاء وطلبوا القضاة فاعتذروا بأعذار، بعضهم بالمرض، وبعضهم بغيره، لمعرفتهم بما ابن تيمية منطوٍ عليه من العلوم والأدلة، وأن أحداً من الحاضرين لا يطيقه، فقبل عذرهم نائب السلطنة ولم يكلفهم الحضور بعد أن رسم السلطان بحضورهم أو بفصل المجلس على خير، وبات الشيخ عند نائب السلطنة وجاء الأمير حسام الدين مهنا يريد أن يستصحب الشيخ تقي الدين معه إلى دمشق، فأشار سلار

---

(١) في ط: رفعة.

بإقامة الشيخ بمصر عنده ليرى الناس فضله وعلمه، وينتفع الناس به ويشتغلوا عليه. وكتب الشيخ كتاباً إلى الشام يتضمن ما وقع له من الأمور قال البرزالي: وفي شوال منها شكا الصوفية بالقاهرة على الشيخ تقي الدين وكلموه في ابن عربي وغيره إلى الدولة، فردوا الأمر في ذلك إلى القاضي الشافعي، فعقد له مجلس وادّعى عليه ابن عطاء بأشياء فلم يثبت عليه منها شيء، لكنه قال إنه لا يستغاث إلا بالله، ولا يستغاث بالنبيّ استغاثة بمعنى العبارة، ولكن يتوسل به ويتشفع به إلى الله فبعض الحاضرين قال: ليس عليه في هذا شيء، ورأى القاضي بدر الدين بن جماعة أن هذا فيه قلة أدب، فحضرت رسالة إلى القاضي أن يعمل معه ما تقتضيه الشريعة، فقال القاضي قد قلت له ما يقال لمثله، ثم إن الدولة خيروه بين أشياء إما أن يسير إلى دمشق أو الإسكندرية بشروط أو الحبس، فاختار الحبس فدخل عليه جماعة في السفر إلى دمشق ملتزماً ما شرط، فأجاب أصحابه إلى ما اختاروا جبراً لخواطرهم، فركب خيل البريد ليلة الثامن عشر من شوال ثم أرسلوا خلفه من الغد بريداً آخر، فردوه وحضر عند قاضي القضاة ابن جماعة وعنده جماعة من الفقهاء، فقال له بعضهم: إن الدولة ما ترضى إلا بالحبس، فقال القاضي وفيه مصلحة له، واستناب شمس الدين التونسي المالكي وأذن له أن يحكم عليه بالحبس فامتنع وقال: ما ثبت عليه شيء، فأذن لنور الدين الزواوي المالكي فتحير، فلما رأى الشيخ توقفهم في حبسه قال أنا أمضي إلى الحبس وأتبع ما تقتضيه المصلحة، فقال نورالدين الزواوي: يكون في موضع يصلح لمثله فقيل له: الدولة ما ترضى إلا بمسمى الحبس، فأرسل إلى حبس القضاة في المكان الذي كان فيه القاضي تقي[1] الدين ابن بنت الأعز حين سجن، وأذن له أن يكون عنده من يخدمه، وكان ذلك كله بإشارة نصر المنبجي ووجاهته في الدولة، فإنه كان قد استحوذ على عقل الجاشنكير الذي تسلطن فيما بعد، وغيره من الدولة، والسلطان مقهور معه، واستمر الشيخ في الحبس يستفتي ويقصده الناس ويزورونه، وتأتيه الفتاوى المشكلة التي لا يستطيعها الفقهاء من الأمراء وأعيان الناس، ويكتب عليها بما يحير العقول من الكتاب والسنة. ثم عقد للشيخ مجلس بالصالحية بعد ذلك كله، ونزل الشيخ بالقاهرة بدار ابن شقير، وأكب الناس على الاجتماع به ليلاً ونهاراً، وفي سادس رجب باشر الشيخ كمال الدين بن الزملكاني نظر ديوان المارستان عوضاً عن يوسف العجمي توفي، وكان محتسباً بدمشق مدة فأخذها منه نجم الدين بن البصراوي قبل هذا بستة أشهر، وكان العجمي موصوفاً بالأمانة. وفي ليلة النصف من شعبان أبطلت صلاة ليلة النصف لكونها بدعة وصين الجامع من الغوغاء والرعاع، وحصل بذلك خير كثير ولله الحمد والمنة.

وفي رمضان قدم الصدر نجم الدين البصراوي ومعه توقيع بنظر الخزانة عوضاً عن شمس الدين الخطيري مضافاً إلى ما بيده من الحسبة، ووقع في أواخر رمضان مطر قوي شديد، وكان الناس لهم مدة لم يمطروا، فاستبشروا بذلك، ورخصت الأسعار، ولم يمكن الناس الخروج إلى المصلى من كثرة المطر، فصلوا بالجامع، وحضر نائب السلطنة فصلّى بالمقصورة، وخرج

---

(١) في ط: زين.

المحمل، وأمير الحج عامئذٍ سيف الدين بلبان البدري التتري. وفيها حج القاضي شرف الدين البارزي من حماة. وفي ذي الحجة وقع حريق عظيم بالقرب من الظاهرية مبدؤه من الفرن[١] تجاهها الذي يقال له فرن العوتية[٢]، ثم لطف الله وكف شرها وشررها.

قلت: وفي هذه السنة كان قدومنا من بصرى إلى دمشق بعد وفاة الوالد، وكان أول ما سكنّا بدرب سعور[٣] الذي يقال له درب ابن أبي الهيجاء بالصاغة العتيقة عند الطوريين، ونسأل الله حسن العاقبة والخاتمة آمين.

وممن توفي فيها من الأعيان.

الأمير ركن الدين بيبرس

العجمي الصالحي، المعروف بالجالق، كان رأس الجمدارية في أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب وأمره الملك الظاهر. كان من أكابر الدولة كثير الأموال، توفي بالرملة لأنه كان في قسم إقطاعه في نصف جمادى الأولى، ونقل إلى القدس فدفن به.

الشيخ صالح الأحمدي الرفاعي

شيخ المينبع، كان التتر يكرمونه لما قدموا دمشق، ولما جاء قطلوشاه نائب التتر نزل عنده، وهو الذي قال للشيخ تقي الدين بن تيمية بالقصر: نحن ما ينفق حالنا إلا عند التتر، وأما عند الشرع فلا.

ثم دخلت سنة ثمان وسبعمائة

استهلت والحكام هم المذكورون في التي قبلها، والشيخ تقي الدين قد أخرج من الحبس، والناس قد عكفوا عليه زيارة وتعلماً واستفتاء وغير ذلك. وفي مستهل ربيع الأول أفرج عن الأمير نجم الدين خضر ابن السلطان الملك الظاهر، فأخرج من البرج وسكن دار الأفرم بالقاهرة، ثم كانت وفاته في خامس رجب من هذه السنة. وفي أواخر جمادى الأولى تولى نظر ديوان ملك الأمراء زين الدين الشريف بن عدنان عوضاً عن ابن الزملكاني، ثم أضيف إليه نظر الجامع أيضاً عوضاً عن ابن الخطيري، وتولى نجم الدين بن الدمشقي نظر الأيتام عوضاً عن نجم الدين بن هلال. وفي رمضان عزل الصاحب أمين الدين الرفاقي[٤] عن نظر الدواوين بدمشق وسافر إلى مصر. وفيها عزل كمال الدين بن الشريشي نفسه عن وكالة بيت المال وصمم على الاستمرار على العزل وعرض عليه العود فلم يقبل، وحملت إليه الخلعة لما خلع على المباشرين فلم يلبسها، واستمر معزولاً إلى يوم عاشوراء من السنة الآتية، فجدد له تقليده وخلع عليه في الدولة الجديدة.

(١) في ط: القرن.
(٢) في ط: قرن الصوفية.
(٣) في ط: سقون.
(٤) في ط: الدقاقي.

وفيها خرج السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون من الديار المصرية قاصداً الحج، وذلك في السادس والعشرين من رمضان وخرج معه جماعة من الأمراء لتوديعه فردهم، ولما اجتاز بالكرك عدل إليها فنصب له الجسر، فلما توسطه كسر به فسلم من كان أمامه وقفز به الفرس فسلم، وسقط من كان وراءه وكانوا خمسين فمات منهم أربعة وتهشم أكثرهم في الوادي الذي تحت الجسر، وبقي نائب الكرك الأمير جمال الدين آقوش خجلاً يتوهم أن يكون هذا يظنه السلطان عن قصد، وكان قد عمل للسلطان ضيافة غرم عليها أربعة عشر ألفاً فلم يقع الموقع لاشتغال السلطان بهم وما جرى له ولأصحابه ثم خلع على النائب وأذن له في الانصراف إلى مصر فسافر، واشتغل السلطان بتدبير المملكة في الكرك وحدها، وكان يحضر دار العدل ويباشر الأمور بنفسه، وقدمت عليه زوجته من مصر، فذكرت له ما كانوا فيه من ضيق الحال وقلة النفقات.

ذكر سلطنة الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير بشيخ(١) المنبجي عدو ابن تيمية

لما استقر الملك الناصر بالكرك وعزم على الإقامة بها كتب كتاباً إلى الديار المصرية يتضمن عزل نفسه عن المملكة، فأثبت ذلك على القضاة بمصر، ثم نفذ على قضاة الشام وبويع الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير في السلطنة في الثالث والعشرين من شوال يوم السبت بعد العصر، بدار الأمير سيف الدين سلار، اجتمع بها أعيان الدولة من الأمراء وغيرهم وبايعوه وخاطبوه بالملك المظفر، وركب إلى القلعة ومشوا بين يديه، وجلس على سرير المملكة بالقلعة، ودقت البشائر وسارت البريدية بذلك إلى سائر البلدان. وفي مستهل ذي القعدة وصل الأمير عز الدين البغدادي إلى دمشق فاجتمع بنائب السلطنة والقضاة والأمراء والأعيان بالقصر الأبلق فقرأ عليهم كتاب الناصر إلى أهل مصر، وأنه قد نزل عن الملك وأعرض عنه، فأثبته القضاة وامتنع الحنبلي من إثباته وقال: ليس أحد يترك الملك مختاراً، ولولا أنه مضطهد ما تركه، فعزل وأقيم غيره، ثم استحلفهم للسلطان الملك المظفر، وكتبت العلامة على القلعة، وألقابه على محالّ المملكة، ودقت البشائر وزين البلد، ولما قرىء كتاب السلطان الملك الناصر على الأمراء بالقصر، وفيه: إني قد صحبت الناس عشر سنين ثم اخترت المقام بالكرك، تباكى جماعة من الأمراء وبايعوا كالمكرهين، وتولى مكان الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير الأمير سيف الدين بن علي(٢)، ومكان ترعكي سيف الدين بنخاص ومكان بنخاص الأمير جمال الدين آقوش الذي كان نائب الكرك، وخطب للمظفر يوم الجمعة على المنابر بدمشق وغيرها، وحضر نائب السلطنة الأفرم والقضاة، وجاءت الخلع وتقليد نائب السلطنة في تاسع عشر ذي القعدة، وقرأ تقليد النائب كاتب السر القاضي محيي الدين بن فضل الله بالقصر بحضرة الأمراء، وعليهم

(١) كذا في الأصل، ولعلها: «بسعي» أي بتدبير.
(٢) في ط: توغلي.

الخلع كلهم. وركب الملك المظفر بالخلعة السوداء الخليفية، والعمامة المدورة والدولة بين يديه عليهم الخلع يوم السبت سابع ذي القعدة، والصاحب ضياء الدين النسائي حامل تقليد السلطان من جهة الخليفة في كيس أطلس أسود، وأوله: إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمٰن الرحيم، ويقال إنه خلع في القاهرة قريب ألف خلعة ومائتي خلعة، وكان يوماً مشهوداً، وفرح بنفسه أياماً يسيرة، وكذا شيخه المنبجي، ثم أزال الله عنهما نعمته سريعاً.

وفيها خطب ابن جماعة بالقلعة وباشر الشيخ علاء الدين القونوي تدريس الشريفية.

وممن توفي فيها من الأعيان.

الشيخ الصالح عثمان الحلبوني

أصله من صعيد مصر، فأقام مدة بقرية حلبون وغيرها من تلك الناحية، ومكث مدة لا يأكل الخبز، واجتمع عليه جماعة من المريدين وتوفي بقرية برارة[1] في أواخر المحرم، ودفن بها وحضر جنازته نائب الشام والقضاة وجماعة من الأعيان.

الشيخ الصالح

أبو الحسن علي بن محمد بن كثير الحراني الحنبلي: إمام مسجد عطية، ويعرف بابن المقري وروى الحديث وكان فقيهاً بمدارس الحنابلة. ولد بحران سنة أربع وثلاثين وستمائة، وتوفي بدمشق في العشر الأخير من رمضان، ودفن بسفح قاسيون، وتوفي قبله الشيخ زين الدين الحراني بغزة، وعمل عزاؤه بدمشق رحمهما الله.

السيد الشريف زين الدين

أبو علي الحسن بن محمد بن عدنان الحسيني نقيب الأشراف: كان فاضلاً بارعاً فصيحاً متكلماً، يعرف طريقة الاعتزال ويباحث الإمامية، ويناظر على ذلك بحضرة القضاة وغيرهم، وقد باشر قبل وفاته بقليل نظر الجامع ونظر ديوان الأفرم، توفي يوم الخامس من ذي القعدة عن خمس وخمسين سنة، ودفن بتربتهم بباب الصغير.

الشيخ الجليل ظهير الدين

أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي الفضل بن منعة البغدادي، شيخ الحرم الشريف بمكة بعد عمه عفيف الدين منصور بن منعة، وقد سمع الحديث وأقام ببغداد مدة طويلة، ثم سار إلى مكة، بعد وفاة عمه، فتولى مشيخة الحرم إلى أن توفي بها.

ثم دخلت سنة تسع وسبعمائة

استهلت وخليفة الوقت المستكفي أمير المؤمنين ابن الحاكم بأمر الله العباسي، وسلطان البلاد الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير، ونائبه بمصر الأمير سيف الدين سلار،

---

(١) في ط: برزة.

وبالشام آقوش الأفرم، وقضاة مصر والشام هم المذكورون في التي قبلها. وفي ليلة سلخ صفر توجه الشيخ تقي الدين بن تيمية من القاهرة إلى الإسكندرية صحبة أمير مقدم، فأدخله دار السلطان وأنزله في برج منها فسيح متسع الأكناف، فكان الناس يدخلون عليه ويشتغلون في سائر العلوم، ثم كان بعد ذلك يحضر الجمعات ويعمل المواعيد على عادته في الجامع، وكان دخوله إلى الإسكندرية يوم الأحد، وبعد عشرة أيام وصل خبره إلى دمشق فحصل للناس عليه تألم وخافوا عليه غائلة الجاشنكير وشيخه المنبجي، فتضاعف له الدعاء، وذلك أنهم لم يمكنوا أحداً من أصحابه أن يخرج معه إلى الإسكندرية، فضاقت له الصدور، وذلك أنه تمكن منه عدوه نصر المنبجي. وكان سبب عداوته له أن الشيخ تقي الدين كان ينال من الجاشنكير ومن شيخه نصر المنبجي، ويقول: زالت أيامه وانتهت رياسته، وقرب انقضاء أجله، ويتكلم فيهما وفي ابن عربي وأتباعه، فأرادو أن يسيروه إلى الإسكندرية كهيئة المنفي لعل أحداً من أهلها يتجاسر عليه فيقتله غيلة، فما زاد ذلك الناس إلا محبة فيه وقرباً منه وانتفاعاً به واشتغالاً عليه، وحنواً وكرامة له. وجاء كتاب من أخيه يقول فيه: إن الأخ الكريم قد نزل بالثغر المحروس على نية الرباط، فإن أعداء الله قصدوا بذلك أموراً يكيدونه بها ويكيدون الإسلام وأهله، وكانت تلك كرامة في حقنا، وظنوا أن ذلك يؤدي إلى هلاك الشيخ فانقلبت عليهم مقاصدهم الخبيثة وانعكست من كل الوجوه، وأصبحوا وأمسوا وما زالوا عند الله وعند الناس العارفين سود الوجوه يتقطعون حسرات وندماً على ما فعلوا، وانقلب أهل الثغر أجمعين إلى الأخ مقبلين عليه مكرمين له وفي كل وقت ينشر من كتاب الله وسنة رسوله ما تقر به أعين المؤمنين، وذلك شجي في حلوق الأعداء، واتفق أنه وجد بالإسكندرية إبليس قد باض بها وفرخ وأضل بها فرق السبعينية والعربية فمزق الله بقدومه عليهم شملهم، وشتت جموعهم شذر مذر، وهتك أستارهم وفضحهم، واستتاب جماعة كثيرة منهم، وتَوَّب رئيساً من رؤسائهم واستقر عند عامة المؤمنين وخواصهم من أمير وقاض وفقيه، ومفتي وشيخ وجماعة المجاهدين، إلا من شذ من الأعمار الجهال، مع الذلة والصغار ـ محبة الشيخ وتعظيمه وقبول كلامه والرجوع إلى أمره ونهيه، فعلت كلمته بها على أعداء الله ورسوله، ولعنوا سراً وجهراً وباطناً وظاهراً، في مجامع الناس بأسمائهم الخاصة بهم، وصار بذلك عند نصر المنبجي المقيم المقعد، ونزل به من الخوف والذل ما لا يعبر عنه، وذكر كلاماً كثيراً.

والمقصود أن الشيخ تقي الدين أقام بثغر الإسكندرية ثمانية أشهر مقيماً ببرج متسع مليح نظيف له شباكان أحدهما إلى جهة البحر والآخر إلى جهة المدينة، فكان يدخل عليه من شاء ويتردد إليه الأعيان والأكابر والفقهاء، يقرؤون عليه ويستفيدون منه، وهو في أطيب عيش وأشرح صدر.

وفي آخر ربيع الأول عزل الشيخ كمال الدين بن الزملكاني عن نظر المارستان بسبب انتمائه إلى ابن تيمية بإشارة المنبجي، وباشره شمس الدين عبد القادر بن الخطيري. وفي يوم الثلاثاء ثالث ربيع الآخر ولي قضاء الحنابلة بمصر الشيخ الإمام الحافظ سعد الدين أبو محمود

مسعود بن أحمد بن مسعود بن زين الدين الحارثي، شيخ الحديث بمصر، بعد وفاة القاضي شرف الدين أبي محمد عبد الغني بن يحيى بن محمد بن عبد الله بن نصر بن أبي بكر الحراني. وفي جمادى الأولى برزت المراسيم السلطانية المظفرية إلى البلاد السواحلية بإبطال الخمور وتخريب الحانات ونفي أهلها، ففعل ذلك وفرح المسلمون بذلك فرحاً شديداً. وفي مستهل جمادى الآخرة وصل بريدي بتولية قضاء الحنابلة بدمشق للشيخ شهاب الدين أحمد بن شريف[1] الدين حسن ابن الحافظ جمال الدين أبي موسى عبد الله ابن الحافظ عبد الغني المقدسي، عوضاً عن التقي سليمان بن حمزة بسبب تكلمه في نزول الملك الناصر عن الملك، وأنه إنما نزل عنه مضطهداً في ذلك، ليس بمختار، وقد صدق فيما قال. وفي العشرين من جمادى الآخرة وصل البريد بولاية شد الدواوين للأمير سيف الدين بكتمر الحاجب، عوضاً عن الرستمي فلم يقبل، وبنظر الخزانة للأمير عز الدين أحمد بن زين الدين محمد بن أحمد بن محمود المعروف بابن القلانسي، فباشرها وعزل عنها البصراوي محتسب البلد. وفي هذا الشهر باشر قاضي القضاة ابن جماعة مشيخة سعيد السعداء بالقاهرة بطلب الصوفية له، ورضوا منه بالحضور عندهم في الجمعة مرة واحدة، وعزل عنها الشيخ كريم الدين الأيكي، لأنه عزل منها الشهود، فثاروا عليه وكتبوا في حقه محاضر بأشياء قادحة في الدين، فرسم بصرفه عنهم، وعومل بنظير ما كان يعامل به الناس، ومن جملة ذلك قيامه على شيخ الإسلام ابن تيمية وافتراؤه عليه الكذب، مع جهله وقلة ورعه، فعجل الله له هذا الخزي على يدي أصحابه وأصدقائه جزاء وفاقاً.

وفي شهر رجب كثر الخوف بدمشق وانتقل الناس من ظاهرها إلى داخلها، وسبب ذلك أن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ركب من الكرك قاصداً دمشق يطلب عوده إلى الملك، وقد مالأه جماعة من الأمراء وكاتبوه في الباطن وناصحوه، وقفز إليه جماعة من أمراء المصريين، وتحدث الناس بسفر نائب دمشق الأفرم إلى القاهرة، وأن يكون مع الجم الغفير، فاضطرب الناس ولم تفتح أبواب البلد إلى ارتفاع النهار، وتخبطت الأمور، فاجتمع القضاة وكثير من الأمراء بالقصر وجددوا البيعة للملك المظفر، وفي آخر نهار السبت غلقت أبواب البلد بعد العصر وازدحم الناس بباب النصر وحصل لهم تعب عظيم، وازدحم البلد بأهل القرى وكثر الناس بالبلد، وجاء البريد بوصول الملك الناصر إلى الخمان، فانزعج نائب الشام لذلك وأظهر أنه يريد قتاله ومنعه من دخول البلد، وقفز إليه الأميران ركن الدين بيبرس المجنون، وبيبرس العلمي، وركب إليه الأمير سيف الدين بكتمر حاجب الحجاب يشير عليه بالرجوع، ويخبره بأنه لا طاقة له بقتال المصريين، ولحقه الأمير سيف الدين بهادر يشير عليه بمثل ذلك، ثم عاد إلى دمشق الشام يوم الثلاثاء خامس رجب وأخبر أن السلطان الملك الناصر قد عاد إلى الكرك، فسكن الناس ورجع نائب السلطان إلى القصر وتراجع بعض الناس إلى مساكنهم، واستقروا بها.

---

(١) في ط: شرف.

صفة عود الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاوون إلى الملك وزوال دولة الملك المظفر الجاشنكير بيبرس وخذلانه وخذلان شيخه نصر المنبجي الاتحادي الحلولي

لما كان ثالث عشر شعبان جاء الخبر بقدوم الملك الناصر إلى دمشق، فساق إليه الأميران سيف الدين قطلبك والحاج بهادر إلى الكرك، وحرضاه على المجيء إليها، واضطرب نائب دمشق وركب في جماعة من أتباعه على الهجن في سادس عشر شعبان ومعه ابن صبح صاحب شقيف أرنون، وهيئت بدمشق أبهة السلطنة والإقامات اللائقة به، والعصائب والكوسات، وركب من الكرك في أبهة عظيمة، وأرسل الأمان إلى الأفرم، ودعا له المؤذنون في المأذنة ليلة الاثنين سابع عشر شعبان، وصبح بالدعاء له والسرور بذكره، ونودي في الناس بالأمان، وأن يفتحوا دكاكينهم ويأمنوا في أوطانهم، وشرع الناس في الزينة ودقت البشائر ونام الناس في الأسطحة ليلة الثلاثاء ليتفرجوا على السلطان حين يدخل البلد، وخرج القضاة، والأمراء والأعيان لتلقيه.

قال كاتبه ابن كثير: وكنت ممن شاهد دخوله يوم الثلاثاء وسط النهار في أبهة عظيمة وبسط له من عند المصلى وعليه أبهة الملك وبسطت له الشقاق الحرير تحت أقدام فرسه، كلما جاوز شقة طويت من ورائه، والجد على رأسه والأمراء السلحدارية عن يمينه وشماله، وبين يديه، والناس يدعون له ويضجون بذلك ضجيجاً عالياً، وكان يوماً مشهوداً. قال الشيخ علم الدين البرزالي: وكان على السلطان يومئذٍ عمامة بيضاء، وكاوثة حمراء، وكان الذي حمل الغاشية على رأس السلطان الحاج بهادر وعليه خلعة معظمة مذهبة بفرو فاخم. ولما وصل إلى القلعة نصب له الجسر ونزل إليه نائبها الأمير سيف الدين السنجري، فقبّل الأرض بين يديه، فأشار إليه أني الآن لا أنزل ههنا، وسار بفرسه إلى جهة القصر الأبلق والأمراء بين يديه، فنزل بالقصر وخطب له يوم الجمعة.

وفي بكرة يوم السبت الثاني والعشرين من الشهر وصل الأمير جمال الدين الأفرم آقوش نائب دمشق مطيعاً للسلطان، فقبّل الأرض بين يديه، فترجل له السلطان وأكرمه وأذن له في مباشرة النيابة على عادته، وفرح الناس بطاعة الأفرم له، ووصل إليه أيضاً الأمير سيف الدين قبجق نائب حماة، والأمير سيف الدين استدمر نائب طرابلس يوم الاثنين الرابع والعشرين من شعبان، وخرج الناس لتلقيهما، وتلقاهما السلطان كما تلقى الأفرم. وفي هذا اليوم رسم السلطان بتقليد قضاء الحنابلة وعوده إلى تقي الدين سليمان، وهنأه الناس وجاء إلى السلطان إلى القصر فسلّم عليه ومضى إلى الجوزية فحكم بها ثلاثة أشهر، وأقيمت الجمعة الثانية بالميدان وحضر السلطان والقضاة إلى جانبه، وأكابر الأمراء والدولة، وكثير من العامة. وفي هذا اليوم وصل إلى السلطان الأمير قراسنقر المنصوري نائب حلب وخرج دهليز السلطان يوم الخميس رابع رمضان ومعه القضاة والقرّاء وقت العصر، وأقيمت الجمعة خامس رمضان بالميدان أيضاً، ثم خرج السلطان من دمشق يوم الثلاثاء تاسع رمضان، وفي صحبته ابن صصري وصدر الدين

الحنفي قاضي العساكر والخطيب جلال الدين، والشيخ كمال الدين بن الزملكاني، والموقعون وديوان الجيش وجيش الشام بكماله قد اجتمعوا عليه من سائر مدنه وأقاليمه بنوا به وأمرائه، فلما انتهى السلطان إلى غزة دخلها في أبهة عظيمة، وتلقاه الأمير سيف الدين بهادر هو وجماعة المملكة من أمراء المصريين، فأخبروه أن الملك المظفر قد خلع نفسه من المملكة، ثم تواتر قدوم الأمراء من مصر إلى السلطان وأخبروه بذلك، فطابت قلوب الشاميين واستبشروا بذلك ودقت البشائر وتأخر مجيء البريد بصورة الناصري.

واتفق في يوم هذا العيد أنه خرج نائب الخطيب الشيخ تقي الدين الجزري المعروف بالمقضاي[1] في السناجق إلى المصلى على العادة، واستناب في البلد الشيخ مجد الدين التونسي، فلما وصلوا إلى المصلى وجدوا خطيب المصلي قد شرع في الصلاة فنصبت السناجق في صحن المصلى وصلى بينهما تقي الدين المقضاي[2] ثم خطب، وكذلك فعل ابن حسان داخل المصلى، فعقد فيه صلاتان وخطبتان يومئذٍ، ولم يتفق مثل هذا فيما نعلم.

وكان دخول السلطان الملك الناصر إلى قلعة الجبل آخر يوم عيد الفطر من هذه السنة، ورسم لسلار أن يسافر إلى الشوبك، واستناب بمصر الأمير سيف الدين بكتمر الجوكندار الذي كان نائب صفد، وبالشام الأمير قراسنقر المنصوري، وذلك في العشرين من شوال، واستوزر الصاحب فخر الدين الخليلي بعدها بيومين، وباشر القاضي فخر الدين كاتب المماليك نظر الجيوش بمصر بعد بهاء الدين عبد الله بن أحمد بن علي بن المظفر الحلي، توفي ليلة الجمعة عاشر شوال، وكان من صدور المصريين وأعيان الكبار، وقد روى شيئاً من الحديث، وصرف الأمير جمال الدين آقوش الأفرم إلى نيابة صرخد وقدم إلى دمشق الأمير زين الدين كتبغا رأس نوبة الجمدارية شد الدواوين، وأستاذ دار الاستادارية عوضاً عن سيف الدين أقجبا، وتغيرت الدولة وانقلبت قلبة عظيمة.

قال الشيخ علم الدين البرزالي: ولما دخل السلطان إلى مصر يوم عيد الفطر لم يكن له دأب إلا طلب الشيخ تقي الدين بن تيمية من الإسكندرية معززاً مكرماً مبجلاً، فوجه إليه في ثاني يوم من شوال بعد وصوله بيوم أو يومين، فقدم الشيخ تقي الدين على السلطان في يوم ثامن الشهر وخرج مع الشيخ خلق من أهل الإسكندرية يودعونه، واجتمع بالسلطان يوم الجمعة فأكرمه وتلقاه ومشى إليه في مجلس حافل، فيه قضاة المصريين والشاميين، وأصلح بينه وبينهم ثم نزل الشيخ إلى القاهرة، وسكن بالقرب من مشهد الحسين، والناس يترددون إليه، والأمراء والجند وجماعة كثيرة من الفقهاء والقضاة منهم من يعتذر إليه ويتنصل مما وقع منه، فقال أنا قد حللت لكل من آذاني.

قلت: وقد أخبرني القاضي جمال الدين بن القلانسي بتفاصيل هذا المجلس وما وقع فيه من تعظيمه وإكرامه مما حصل له من الشكر والمدح من السلطان والحاضرين من الأمراء،

(١) في ط: بالمقصاني. (٢) في ط: المقصاني.

وكذلك أخبرني بذلك قاضي القضاة منصور[1] الدين الحنفي، ولكن أخبار ابن القلانسي أكثر تفصيلاً، وذلك أنه كان إذ ذاك قاضي العساكر، وكلاهما كان حاضراً هذا المجلس، ذكر لي أن السلطان لما قدم عليه الشيخ تقي الدين بن تيمية نهض قائماً للشيخ أول ما رآه، ومشى له إلى طرف الأيوان واعتنقا هناك هنيهة، ثم أخذ معه ساعة إلى طبقة فيها شباك إلى بستان فجلسا ساعة يتحدثان، ثم جاء ويد الشيخ في يد السلطان، فجلس السلطان وعن يمينه ابن جماعة قاضي مصر، وعن يساره ابن الخليلي الوزير، وتحته ابن صصري، ثم صدر الدين علي الحنفي، وجلس الشيخ تقي الدين بين يدي السلطان على طرف طراحته، وتكلم الوزير في إعادة أهل الذمة إلى لبس العمائم البيض بالعلائم، وأنهم قد التزموا الديوان بسبعمائة ألف في كل سنة، زيادة على الحالية، فسكت الناس وكان فيهم قضاة مصر والشام وكبار العلماء من أهل مصر والشام من جملتهم ابن الزملكاني. قال ابن القلانسي: وأنا في مجلس السلطان إلى جنب ابن الزملكاني، فلم يتكلم أحد من العلماء ولا من القضاة، فقال لهم السلطان: ما تقولون؟ يستفتيهم في ذلك، فلم يتكلم أحد، فجثا الشيخ تقي الدين على ركبتيه وتكلم مع السلطان في ذلك بكلام غليظ ورد على الوزير ما قاله رداً عنيفاً، وجعل يرفع صوته والسلطان يتلافاه ويسكته بترفق وتؤدة وتوقير. وبالغ الشيخ في الكلام وقال ما لا يستطيع أحد أن يقوم بمثله، ولا بقريب منه، وبالغ في التشنيع على من يوافق في ذلك. وقال للسلطان: حاشاك أن يكون أول مجلس جلسته في أبهة الملك تنصر فيه أهل الذمة لأجل حطام الدنيا الفانية، فاذكر نعمة الله عليك إذ رد ملكك إليك، وكبت عدوك ونصرك على أعدائك فذكر أن الجاشنكير هو الذي جدد عليهم ذلك، فقال: والذي فعله الجاشنكير كان من مراسيمك لأنه إنما كان نائباً لك، فأعجب السلطان ذلك واستمر بهم على ذلك، وجرت فصول يطول ذكرها. وقد كان السلطان أعلم بالشيخ من جميع الحاضرين، ودينه [وزينته][2] وقيامه بالحق وشجاعته، وسمعت الشيخ تقي الدين يذكر ما كان بينه وبين السلطان من الكلام لما انفردا في ذلك الشباك الذي جلسا فيه، وأن السلطان استفتى الشيخ في قتل بعض القضاة بسبب ما كانوا تكلموا فيه، وأخرج له فتاوى بعضهم بعزله من الملك ومبايعة الجاشنكير، وأنهم قاموا عليك وآذوك أنت أيضاً، وأخذ يحثه بذلك على أن يفتيه في قتل بعضهم وإنما كان حنقه عليهم بسبب ما كانوا سعوا فيه من عزله ومبايعة الجاشنكير، ففهم الشيخ مراد السلطان فأخذ في تعظيم القضاة والعلماء، وينكر أن ينال أحداً منهم بسوء وقال له: إذا قتلت هؤلاء لا تجد بعدهم مثلهم، فقال له إنهم قد آذوك وأرادوا قتلك مراراً، فقال الشيخ من آذاني فهو في حل، ومن آذى الله ورسوله فالله ينتقم منه، وأنا لا أنتصر لنفسي، وما زال به حتى حلم عنهم السلطان وصفح.

قال فكان قاضي المالكية ابن مخلوف يقول: ما رأينا مثل ابن تيمية حرضنا عليه فلم نقدر عليه وقدر علينا فصفح عنا وحاجج عنا، ثم إن الشيخ بعد اجتماعه بالسلطان نزل إلى القاهرة وعاد إلى بث العلم ونشره، وأقبلت الخلق عليه ورحلوا إليه يشتغلون عليه ويستفتونه ويجيبهم

(١) في ط: صدر.

(٢) سقط في ط.

بالكتابة وبالقول، وجاء الفقهاء يعتذرون مما وقع منهم في حقه فقال: لقد جعلت الكل في حل، وبعث الشيخ كتاباً إلى أهله يذكر ما هو فيه من نعم الله وخيره الكثير، ويطلب منهم جملة من كتب العلم التي له ويستعينوا على ذلك بجمال الدين المزي، فإنه يدري كيف يستخرج له ما يريده من الكتب التي أشار إليها، وقال في هذا الكتاب: والحق كل ما له في علو وازدياد وانتصار، والباطل في انخفاض وسفول واضمحلال، وقد أذل الله رقاب الخصوم، وطلب أكيادهم من السلم ما يطول وصفه، وقد اشترطنا عليهم من الشروط ما فيه عز الإسلام والسنة، وما فيه قمع الباطل والبدعة، وقد دخلوا تحت ذلك كله وامتنعنا من قبول ذلك منهم، حتى يظهر، إلى الفعل، فلم نثق لهم بقول ولا عهد، ولم نجيبهم إلى مطلوبهم حتى يصير المشروط معمولاً، والمذكور مفعولاً، ويظهر من عز الإسلام والسنة للخاصة والعامة ما يكون من الحسنات التي تمحو سيئاتهم، وذكر كلاماً طويلاً يتضمن ما جرى له مع السلطان في قمع اليهود والنصارى وذلهم، وتركهم على ما هم عليه من الذلة والصغار والله سبحانه أعلم.

وفي شوال أمسك السلطان جماعة من الأمراء قريباً من عشرين أميراً، وفي سادس عشر شوال وقع بين أهل حوران من قيس ويمن فقتل منهم مقتلة عظيمة جداً، قتل من الفريقين نحو من ألف نفس بالقرب من السوداء، وهم يسمونها السويداء، ووقعة السويداء، وكانت الكسرة على يمن فهربوا من قيس حتى دخل كثير منهم إلى دمشق في أسوأ حال وأضعفه، وهربت قيس خوفاً من الدولة، وبقيت القرى خالية والزروع سائبة. فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفي يوم الأربعاء سادس ذي القعدة قدم الأمير سيف الدين قبجق المنصوري نائباً على حلب فنزل القصر ومعه جماعة من أمراء المصريين، ثم سافر إلى حلب بمن معه من الأمراء والأجناد واجتاز الأمير سيف الدين بهادر بدمشق ذاهباً إلى نيابة طرابلس والفتوحات السواحلية عوضاً عن الأمير سيف الدين استدمر، ووصل جماعة ممن كان قد سافر مع السلطان إلى مصر في ذي القعدة منهم قاضي قضاة الحنفية صدر الدين، ومحيي الدين بن فضل الله وغيرهما، قلت: وجلست يوماً إلى القاضي صدر الدين الحنفي بعد مجيئه من مصر فقال لي أتحب ابن تيمية؟ قلت: نعم، فقال لي وهو يضحك: والله لقد أحببت شيئاً مليحاً، وذكر قريباً مما ذكر ابن القلانسي، لكن سياق ابن القلانسي أتم.

مقتل الجاشنكيري

كان قد فر الخبيث في جماعة من أصحابه، فلما خرج الأمير سيف الدين قراسنقر المنصوري من مصر متوجهاً إلى نيابة الشام عوضاً عن الأفرم، فلما كان بغزة في سابع ذي القعدة ضرب حلقة لأجل الصيد، فوقع في وسطها الجاشنكير في ثلاثمائة من أصحابه فأحيط بهم وتفرق عنه أصحابه فأمسكوه ورجع معه قراسنقر وسيف الدين بهادر على الهجن، فلما كان بالخطارة تلقاهم استدمر فتسلمه منهم ورجعا إلى عسكرهم، ودخل به استدمر على السلطان فعاتبه ولامه، وكان آخر العهد به، قتل ودفن بالقرافة ولم ينفعه شيخه المنبجي ولا أمواله، بل قتل شر قتلة ودخل قراسنقر دمشق يوم الاثنين الخامس والعشرين من ذي القعدة فنزل بالقصر،

وكان في صحبته ابن صصري وابن الزملكاني وابن القلانسي وعلاء الدين بن غانم وخلق من الأمراء المصريين والشاميين، وكان الخطيب جلال الدين القزويني قد وصل قبلهم يوم الخميس الثاني والعشرين من الشهر، وخطب يوم الجمعة على عادته، فلما كان يوم الجمعة الأخرى وهو التاسع والعشرون من الشهر خطب بجامع دمشق القاضي بدر الدين محمد بن عثمان بن يوسف بن حداد الحنبلي عن أمر نائب السلطنة، وقرىء تقليده على المنبر بعد الصلاة بحضرة القضاة والأكابر والأعيان، وخلع عليه عقيب ذلك خلعة سنية، واستمر يباشر الإمامة والخطابة اثنين وأربعين يوماً، ثم أعيد الخطيب جلال الدين بمرسوم سلطاني وباشر يوم الخميس ثاني عشر المحرم من السنة الآتية.

وفي ذي الحجة درس كمال الدين بن الشيرازي بالمدرسة الشامية البرانية، انتزعها من يد الشيخ كمال الدين بن الزملكاني، وذلك أن استدمر ساعده على ذلك. وفيها أظهر ملك التتر خربندا الرفض في بلاده، وأمر الخطباء أولاً أن لا يذكروا في خطبتهم إلا علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأهل بيته، ولما وصل خطيب بلاد الأزج إلى هذا الموضع من خطبته بكى بكاءً شديداً وبكى الناس معه ونزل ولم يتمكن من إتمام الخطبة، فأقيم من أتمها عنه وصلى بالناس وظهر على الناس بتلك البلاد من أهل السنة أهل البدعة فإنا لله وإنا إليه راجعون. ولم يحج فيها أحد من أهل الشام بسبب تخبيط الدولة وكثرة الاختلاف.

وممن توفي فيها من الأعيان:

الخطيب ناصر الدين أبو الهدى

أحمد ابن الخطيب بدر الدين يحيى ابن الشيخ عز الدين بن عبد السلام خطيب العقيبة بداره بها وقد باشر نظر الجامع الأموي وغير ذلك، توفي يوم الأربعاء النصف من المحرم، وصلّي عليه بجامع العقيبة، ودفن عند والده بباب الصغير، وقد روى الحديث وباشر الخطابة بعده والده بدر الدين وحضر عنده نائب السلطنة والقضاة والأعيان.

قاضي الحنابلة بمصر

شرف الدين أبو محمد عبد الغني بن يحيى بن محمد بن عبد الله بن نصر بن أبي بكر الحراني ولد بحران سنة خمس وأربعين وستمائة، وسمع الحديث وقدم مصر فباشر نظر الخزانة وتدريس الصالحية ثم أضيف إليه القضاء، وكان مشكور السيرة كثير المكارم توفي ليلة الجمعة رابع عشر ربيع الأول دفن بالقرافة، ووّلي بعده سعد الدين الحارثي كما تقدم.

الشيخ نجم الدين

أيوب بن سليمان بن مظفر المصري المعروف بمؤذن النجيبي، كان رئيس المؤذنين بجامع دمشق ونقيب الخطباء، وكان حسن الشكل رفيع الصوت، واستمر بذلك نحواً من خمسين سنة إلى أن توفي مستهل جمادى الأولى.

وفي هذا الشهر توفي:

الأمير شمس الدين سنقر الأعسر المنصوري

تولى الوزارة بمصر مع شد الدواوين معاً، وباشر شد الدواوين بالشام مرات، وله دار وبستان بدمشق، مشهوران به، وكان فيه نهضة وله همة عالية وأموال كثيرة، توفي بمصر.

الأمير جمال الدين آقوش بن عبد الله الرسيمي[١]

شاد الدواوين بدمشق، وكان قبل ذلك والي الولاة بالجهة القبلية بعد الشريفي، وكانت له سطوة توفي يوم الأحد تاسع عشر[٢] جمادى الأولى ودفن ضحوة بالقبة التي بناها تجاه قبة الشيخ رسلان، وكان فيه كفاية وخبرة. وباشر بعده شد الدواوين أقبجا. وفي شعبان أو في رجب توفي.

التاج ابن سعيد الدولة

وكان مسلمانياً وكان سفير الدولة، وكانت له مكانة عند الجاشنكير بسبب صحبته لنصر المنبجي شيخ الجاشنكير، وقد عرضت عليه الوزارة فلم يقبل، ولما توفي تولّى وظيفته ابن أخته كريم الدين الكبير.

الشيخ شهاب الدين

أحمد بن محمد بن أبي المكارم بن نصر الأصبهاني رئيس المؤذنين بالجامع الأموي، ولد سنة ثنتين وستمائة، وسمع الحديث وباشر وظيفة الأذان من سنة خمس وأربعين إلى أن توفي ليلة الثلاثاء خامس ذي القعدة وكان رجلاً جيداً والله سبحانه أعلم.

ثم دخلت سنة عشر وسبعمائة

استهلت وخليفة الوقت المستكفي بالله أبو الربيع سليمان العباسي، وسلطان البلاد الملك الناصر محمد بن المنصور قلاوون، والشيخ تقي الدين بن تيمية مقيم بمصر معظماً مكرماً ونائب مصر الأمير سيف الدين بكتمر أمير خزندار، وقضاته هم المذكورون في التي قبلها، سوى الحنبلي فإنه سعد الدين[٣] الحارثي، والوزير بمصر فخر الدين الخليلي، وناظر الجيوش فخر الدين كاتب المماليك، ونائب الشام قراسنقر المنصوري، وقضاة دمشق هم هم، ونائب حلب قبجق، ونائب طرابلس الحاج بهادر والأفرم بصرخد.

وفي محرم منها باشر الشيخ أمين الدين سالم بن أبي الدرين وكيل بيت المال إمام مسجد ابن هشام تدريس الشامية الجوانية، والشيخ صدر الدين سليمان بن موسى الكردي تدريس

---

(١) في ط: الرستمي.
(٢) في ط: ثاني عشرين.
(٣) في ط: مسعود.

العذراوية، كلاهما انتزعها من ابن الوكيل بسبب إقامته بمصر، وكان قد وفد إلى المظفر فألزمه رواتب لانتمائه إلى نصر المنبجي، ثم عاد بتوقيع سلطاني إلى مدرستيه، فأقام بهما شهراً أو سبعة وعشرين يوماً، ثم استعادهما منه ورجعتا إلى المدرسين الأولين: الأمين سالم، والصدر الكردي، ورجع الخطيب جلال الدين إلى الخطابة في ثامن عشر المحرم وعزل عنها البدر بن الحداد، وباشر الصاحب شمس الدين نظر الجامع والأسرى والأوقاف قاطبة يوم الاثنين، وخلع عليه ثم أضيف إليه شرف الدين بن صصري في نظر الجامع، وكان ناظره مستقلاً به قبلهما. وفي يوم عاشوراء قدم استدمر إلى دمشق متولياً نيابة حماة، وسافر إليها بعد سبعة أيام.

وفي المحرم باشر بدر الدين بن الحداد نظر المارستان عوضاً عن شمس الدين بن الخطيري ووقعت منازعة بين صدر الدين بن المرحل وبين الصدر سليمان الكردي بسبب العذراوية، وكتبوا إلى الوكيل محضراً يتضمن أشياء من القبائح والفضائح والكفريات على ابن الوكيل، فبادر ابن الوكيل إلى القاضي تقي الدين بن سليمان الحنبلي، فحكم بإسلامه وحقن دمه، وحكم بإسقاط التعزير عنه والحكم بعدالته واستحقاقه إلى المناصب وكانت هذه هفوة من الحنبلي ولكن خرجت عنه المدرستان العذراوية لسليمان الكردي، والشامية الجوانية للأمين سالم، ولم يبق معه سوى دار الحديث الأشرفية. وفي ليلة الاثنين السابع من صفر وصل النجم محمد بن عثمان البصراوي من مصر متولياً الوزارة بالشام، ومعه توقيع بالحسبة لأخيه فخر الدين سليمان، فباشرا المنصبين بالجامع، ونزلا بدرب سفون[1] الذي يقال له درب ابن أبي الهيجاء، ثم انتقل الوزير إلى دار الأعسر عند باب البريد، واستمر نظر الخزانة لعز الدين أحمد بن القلانسي أخي الشيخ جلال الدين.

وفي مستهل ربيع الأول باشر القاضي جمال الدين الزرعي قضاء القضاة بمصر عوضاً عن ابن جماعة، وكان قد أخذ منه قبل ذلك مشيخة الشيوخ في ذي الحجة، وأعيدت إلى الكريم الأيكي، وأخذت منه الخطابة أيضاً. وجاء البريد إلى الشام بطلب القاضي شمس الدين بن الحريري لقضاء الديار المصرية، فسار في العشرين من ربيع الأول وخرج معه جماعة لتوديعه، فلما قدم على السلطان أكرمه وعظّمه وولاّه قضاء الحنفية وتدريس الناصرية والصالحية، وجامع الحاكم، وعزل عن ذلك القاضي شمس الدين السروجي فمكث أياماً ثم مات.

وفي نصف هذا الشهر مسك من دمشق سبعة أمراء ومن القاهرة أربعة عشر أميراً. وفي ربيع الآخر اهتم السلطان بطلب الأمير سيف الدين سلار فحضر هو بنفسه إليه فعاتبه ثم استخلص منه أمواله وحواصله في مدة شهر، ثم قتل بعد ذلك فوجد معه من الأموال والحيوان والأملاك والأسلحة والمماليك والبغال والحمير أيضاً والرباع شيئاً كثيراً، وأما الجواهر والذهب والفضة فشيء لا يحدّ ولا يوصف في كثرته، وحاصل الأمر أنه قد استأثر لنفسه طائفة كبيرة من بيت المال وأموال المسلمين تجري إليه، ويقال إنه كان مع هذا كثير العطاء كريماً محبباً إلى

(١) في ط: بدرب سقوت.

الدولة والرعية والله أعلم.

وقد باشر نيابة السلطنة بمصر من سنة ثمان وتسعين إلى أن قتل يوم الأربعاء رابع عشرين هذا الشهر، ودفن بتربته ليلة الخميس بالقرافة، سامحه الله. وفي ربيع الآخر درس القاضي شمس الدين محمد بن المعز الحنفي بالظاهرية عوضاً عن شمس الدين الحريري، وحضر عنده خاله الصدر على قاضي قضاة الحنفية وبقية القضاة والأعيان. وفي هذا الشهر كان الأمير سيف الدين استدمر قد قدم دمشق لبعض أشغاله، وكان له حنو على الشيخ صدر الدين بن الوكيل، فاستنجز له مرسوماً بنظر دار الحديث وتدريس العذراوية، فلم يباشر ذلك حتى سافر استدمر، فاتفق أنه وقعت له بعد يومين كائنة بدار ابن درباس بالصالحية، وذكر أنه وجد عنده شيء من المنكرات واجتمع عليه جماعة من أهل الصالحية مع الحنابلة وغيرهم، وبلغ ذلك نائب السلطنة فكاتب فيه، فورد الجواب بعزله عن المناصب الدينية، فخرجت عنه دار الحديث الأشرفية وبقي بدمشق وليس بيده وظيفة لذلك، فلما كان في آخر رمضان سافر إلى حلب فقرر له نائبها استدمر شيئاً على الجامع، ثم ولاه تدريساً هناك وأحسن إليه، وكان الأمير استدمر قد انتقل إلى نيابة حلب في جمادى الآخرة عوضاً عن سيف الدين قبجق توفي، وباشر مملكة حماة بعده الأمير عماد الدين إسماعيل بن الأفضل علي بن محمود بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، وانتقل جمال الدين آقوش الأفرم من صرخد إلى نيابة طرابلس عوضاً عن الحاج بهادر. وفي يوم الخميس سادس عشر شعبان باشر الشيخ كمال الدين بن الزملكاني مشيخة دار الحديث الأشرفية عوضاً عن ابن الوكيل، وأخذ في التفسير والحديث والفقه، فذكر من ذلك دروساً حسنة، ثم لم يستمر بها سوى خمسة عشر يوماً حتى انتزعها منه كمال الدين بن الشريشي فباشرها يوم الأحد ثالث شهر رمضان. وفي شعبان رسم قراسنقر نائب الشام بتوسعة المقصورة، فأخرت سدة المؤذنين إلى الركنين المؤخرين تحت قبة النسر، ومنعت الجنائز من دخول الجامع أياماً ثم أذن في دخولهم.

وفي خامس رمضان قدم فخر الدين إياس الذي كان نائباً بقلعة الروم إلى دمشق شاد الدواوين عوضاً عن زين الدين كتبغا المنصوري، وفي شوال باشر الشيخ علاء الدين علي بن إسماعيل القونوي مشيخة الشيوخ بالديار المصرية عوضاً عن الشيخ كريم الدين عبد الكريم بن الحسين الأيكي توفي، وكان له تحرير وهمة، وخلع على القونوي خلعة سنية، وحضر سعيد السعداء بها. وفي يوم الخميس ثالث ذي القعدة خلع على الصاحب عز الدين القلانسي خلعة الوزراء بالشام عوضاً عن النجم البصراوي بحكم إقطاعه إمرة عشرة وإعراضه عن الوزارة. وفي يوم الأربعاء سادس عشر ذي القعدة عاد الشيخ كمال الدين بن الزملكاني إلى تدريس الشامية البرانية. وفي هذا اليوم لبس تقي الدين ابن الصاحب شمس الدين بن السلعوس خلعة النظر على الجامع الأموي، ومسك الأمير سيف الدين استدمر نائب حلب في ثاني ذي الحجة[1]

(١) في ط: في ثاني عشر ذي الحجة.

ودخل إلى مصر، وكذلك مسك نائب البيرة سيف الدين ضرغام[١] بعده بليال.

وممن توفي فيها من الأعيان:

قاضي القضاة [العلامة][٢] شمس الدين أبو العباس

أحمد بن إبراهيم بن عبد الغني السروجي الحنفي، شارح الهداية، كان بارعاً في علوم شتى، وولّي الحكم بمصر مدة وعزل قبل موته بأيام، توفي يوم الخميس ثاني عشر[٣] ربيع الآخر ودفن بقرب الشافعي وله اعتراضات على الشيخ تقي الدين بن تيمية في علم الكلام، أضحك فيها على نفسه، وقد رد عليه الشيخ تقي الدين في مجلدات، وأبطل حجته. وفيها توفي سلار مقتولاً كما تقدم.

الصاحب أمين الدولة[٤]

أبو بكر ابن الوجيه عبد العظيم بن يوسف[٥] المعروف بابن الرقاقي.

والحاج بهادر نائب طرابلس مات بها.

والأمير سيف الدين قبجق

نائب حلب مات بها ودفن بتربته بحماه، في ثاني جمادى الآخرة وكان شهماً شجاعاً، وقد ولي نيابة دمشق في أيام لاجين، ثم قفز إلى التتر خوفاً من لاجين، ثم جاء مع التتر. وكان على يديه فرج المسلمين كما ذكرنا عام قازان، ثم تنقلت به الأحوال إلى أن مات بحلب، ثم وليها بعده استدمر ومات أيضاً في آخر السنة.

وفيها توفي:

الشيخ كريم الدين بن الحسين الأيكي

شيخ الشيوخ بمصر، كان له صلة بالأمراء، وقد عزل مرة عن المشيخة بابن جماعة، توفي ليلة السبت سابع شوال بخانقاه سعيد السعداء، وتولاها بعده الشيخ علاء الدين القونوي كما تقدم.

الفقيه عز الدين عبد الجليل

النمراوي الشافعي، كان فاضلاً بارعاً، وقد صحب سلار نائب مصر وارتفع في الدنيا بسببه.

ابن الرفعة

هو الإمام العلامة نجم الدين أحمد بن محمد شارح التنبيه، وله غير ذلك، وكان فقيهاً فاضلاً وإماماً في علوم كثيرة رحمهم الله تعالى.

---

(١) في ط: طوغان.
(٢) سقط في ط.
(٣) في ط: ثاني عشرين.
(٤) في ط: أمين الدين.
(٥) في ط: يونس.

ثم دخلت سنة إحدى عشرة وسبعمائة

استهلت والحكام هم المذكورون في التي قبلها غير الوزير بمصر فإنه عزل وتولى سيف الدين بكتمر وزيراً، والنجم البصراوي عزل أيضاً بعز الدين القلانسي، وقد انتقل الأفرم إلى نيابة طرابلس بإشارة ابن تيمية على السلطان بذلك، ونائب حماة الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل على قاعدة أسلافه فيها، وقد مات نائب حلب استدمر وهي شاغرة عن نائب فيها، وأرغون الدوادار الناصري قد وصل إلى دمشق لتسفير قراسنقر إلى حلب وإحضار الأمير سيف الدين كراي إلى نيابة دمشق، وغالب العساكر بحلب والأعراب محدقة بأطراف البلاد، فخرج قراسنقر المنصوري من دمشق في ثالث المحرم بجميع حواصله وحاشيته وأتباعه: وخرج الجيش لتوديعه، وسار معه أرغون لتقريره بحلب وجاء المرسوم إلى نائب القلعة الأمير سيف الدين بهادر السنجري أن يتكلم في أمور دمشق إلى أن يأتيها نائب، فحضر عنده الوزير والموقعون وباشر النيابة، وقويت شوكته وقويت شوكة الوزير إلى أن ولى ولايات عديدة منها لابن أخيه عماد الدين نظر الأسرار، واستمر في يده، وقدم نائب السلطنة الأمير سيف الدين كراي المنصوري إلى دمشق نائباً عليها. وفي يوم الخميس الحادي عشرين من المحرم خرج الناس لتلقيه وأوقدوا الشموع، وأعيدت المقصورة إلى مكانها يوم الأحد رابع عشرين المحرم، وانفرج الناس ولبس النجم البصراوي خلعة الإمرة يوم الخميس ثالث عشر صفر على قاعدة الوزراء بالطرحة، وركب مع المقدمين الكبار وهو أمير عشرة بإقطاع يضاهي إقطاع كبار الطبلخانات.

وفي يوم الأربعاء سابع عشر ربيع الأول جلس القضاة الأربعة بالجامع لإنفاذ أمر الشهود بسبب تزوير وقع من بعضهم، فاطلع عليه نائب السلطنة فغضب وأمر بذلك، فلم يكن منه كبير شيء، ولم يتغير حال. وفي هذا اليوم ولي الشريف نقيب الأشراف أمين الدين جعفر بن محمد بن محيي الدين عدنان نظر الدواوين عوضاً عن شهاب الدين الواسطي، وأعيد تقي الدين بن الزكي إلى مشيخة الشيوخ. وفيه ولّي ابن جماعة تدريس الناصرية بالقاهرة، وضياء الدين النسائي تدريس الشافعي، والميعاد العام بجامع طولون، ونظر الأحباس أيضاً. وولي الوزارة بمصر أمين الملك أبو سعيد عوضاً عن الأمير سيف الدين بكتمر الحاجب في ربيع الآخر. وفي هذا الشهر احتيط على الوزير عز الدين بن القلانسي بدمشق. ورسم عليه مدة شهرين، وكان نائب السلطنة كثير الحنق عليه، ثم أفرج عنه وأعيد بدر الدين بن جماعة إلى الحكم بديار مصر في حادي عشر[1] ربيع الآخر، مع تدريس دار الحديث الكاملية، وجامع طولون والصالحية والناصرية، وجعل له إقبال كثير من السلطان، واستقر جمال الدين الزرعي على قضاء العسكر وتدريس جامع الحاكم، ورسم له أن يجلس مع القضاة بين الحنفي والحنبلي بدار العدل عند السلطان.

---

(١) في ط: عشرين.

وفي مستهل جمادى الأولى أشهد القاضي نجم الدين الدمشقي نائب ابن صصري على نفسه بالحكم ببطلان البيع في الملك الذي اشتراه عز الدين بن القلانسي من تركة المنصوري في الرمثا والثوجة والفضالية لكونه بدون ثمن المثل، ونفذه بقية الحكام، وأحضر ابن القلانسي إلى دار السعادة وادَّعى عليه بريع ذلك، ورسم عليه بها، ثم حكم قاضي القضاة تقي الدين الحنبلي بصحة هذا البيع وبنقض ما حكم به الدمشقي، ثم نفذ بقية الحكام ما حكم به الحنبلي. وفي هذا الشهر قرر على أهل دمشق ألف وخمسمائة فارس لكل فارس خمسمائة درهم، وضربت على الأملاك والأوقاف، فتألم الناس من ذلك تألماً عظيماً وسعى إلى الخطيب جلال الدين فسعى إلى القضاة واجتمع الناس بكرة يوم الاثنين ثالث عشر الشهر واحتفلوا بالاجتماع وأخرجوا معهم المصحف العثماني والأثر النبوي والسناجق الخليفية، ووقفوا في الموكب فلما رآهم كراي تغيظ عليهم وشتم القاضي والخطيب، وضرب مجد الدين التونسي ورسم عليهم ثم أطلقهم بضمان وكفالة، فتألم الناس من ذلك كثيراً، فلم يمهله الله إلا عشرة أيام فجاءه الأمر فجأة فعزل وحبس، ففرح الناس بذلك فرحاً شديداً، ويقال إن الشيخ تقي الدين لما بلغه ذلك الخبر عن أهل الشام فأخبر السلطان بذلك فبعث من فوره فمسكه شر مسكة، وصفة مسكه أنه قدم الأمير سيف الدين أرغون الدوادار فنزل في القصر، فلما كان يوم الخميس الثالث والعشرين من جمادى الأولى خلع على الأمير سيف الدين كراي خلعة سنية، فلبسها وقبل العتبة، وحضر الموكب ومد السماط، فقيد بحضرة الأمراء وحمل على البريد إلى الكرك صحبة غرلو العادلي، وبيبرس المجنون. وخرج عز الدين بن القلانسي من الترسيم من دار السعادة، فصلى في الجامع الظهر ثم عاد إلى داره وقد أوقدت له الشموع ودعا له الناس، ثم رجع إلى دار الحديث الأشرفية فجلس فيها نحواً من عشرين يوماً، حتى قدم الأمير جمال الدين نائب الكرك.

وفي هذا الشهر مسك نائب صفت الأمير سيف الدين قطلوبك وقيد وحمل إلى الكرك أيضاً ومسك نائب مصر سيف بكتمر أمير خزندار، وعوض عنه بالأمير بيبرس الدوادار المنصوري، ومسك نائب غزة، وعوض عنه بالجاولي، فاجتمع في حبس الكرك استدمر نائب حلب، وبكتمر نائب مصر، وكراي نائب دمشق، وقطلوبك نائب صفت، وقلطتمز نائب غزة وبنحاص. وقدم جمال الدين آقوش المنصوري الذي كان نائب الكرك على نيابة دمشق إليها في يوم الأربعاء رابع عشر ربيع الآخر، وتلقاه الناس وأشعلت له الشموع، وفي صحبته الخطيري لتقريره في النيابة، وقد باشر نيابة الكرك من سنة تسعين وستمائة إلى سنة تسع وسبعمائة وله بها آثار حسنة، وخرج عز الدين بن القلانسي لتلقي النائب. وقرىء يوم الجمعة كتاب السلطان على السدة بحضرة النائب والقضاة والأعيان، وفيه الأمر بالإحسان إلى الرعية وإطلاق البواقي التي كانت قد فرضت عليهم أيام كراي، فكثرت الأدعية للسلطان وفرح الناس. وفي يوم الاثنين التاسع عشر خلع على الأمير سيف الدين بهادر أص بنيابة صفت فقبّل العتبة وسار إليها يوم الثلاثاء، وفيه لبس الصدر بدر الدين بن أبي الفوارس خلعة نظر الدواوين بدمشق، مشاركاً للشريف بن عدنان وبعد ذلك بيومين قدم تقليد عز الدين بن القلانسي بوكالة

السلطان على ما كان عليه، وأنه أُعفي عن الوزارة لكراهته لذلك.

وفي رجب باشر ابن السلعوس نظر الأوقاف عوضاً عن شمس الدين عدنان[١]. وفي شعبان ركب نائب السلطنة بنفسه إلى أبواب السجون فأطلق المحبوسين بنفسه، فتضاعفت له الأدعية في الأسواق وغيرها. وفي هذا اليوم قدم الصاحب عز الدين بن القلانسي من مصر فاجتمع بالنائب وخلع عليه ومعه كتاب يتضمن احترامه وإكرامه واستمراره على وكالة السلطان، ونظر الخاص والإنكار لما ثبت عليه بدمشق، وأن السلطان لم يعلم بذلك ولا وكل فيه، وكان المساعد له على ذلك كريم الدين ناظر الخاص السلطاني، والأمير سيف الدين أرغون الدوادار. وفي شعبان منع ابن صصري الشهود والعقاد من جهته، وامتنع غيرهم أيضاً وردهم المالكي. وفي رمضان جاء البريد بتوليه زين الدين كتبغا المنصوري حجوبية الحجاب، والأمير بدر الدين ملتوبات[٢] القرماني شد الدواوين عوضاً عن طوغان، وخلع عليهما معاً، وفيها ركب بهادر السنجري نائب قلعة دمشق على البريد إلى مصر وتولاها سيف الدين بلبان البدري، ثم عاد السنجري في آخر النهار[٣] على نيابة البيرة فسار إليها وجاء الخبر في آخر رمضان أنه قد احتيط على جماعة من قصاد المسلمين ببغداد، فقتل منهم ابن العقاب وابن البدري، وخلص عبيدة وجاء سالماً، وخرج المحمل في شوال وأمير الحاج الأمير علاء الدين طيبغا أخو بهادر أص.

وفي آخر ذي القعدة جاء الخبر بأن الأمير قراسنقر رجع من طريق الحجاز بعد أن وصل إلى بركة زيرا، وأنه لحق بمهنا بن عيسى فاستجار به خائفاً على نفسه ومعه جماعة من خواصه، ثم سار من هناك إلى التتر بعد ذلك كله، وصحبه الأفرم والزردكاش. وفي العشرين من ذي القعدة وصل الأمير سيف الدين أرغون في خمسة آلاف إلى دمشق وتوجهوا إلى ناحية حمص، وتلك النواحي. وفي سابع ذي الحجة وصل الشيخ كمال الدين بن الشريشي من مصر مستمراً على وكالته ومعه توقيع بقضاء العسكر الشامي، وخلع عليه في يوم عرفة. وفي هذا اليوم وصلت ثلاثة آلاف عليهم سيف الدين ملي من الديار المصرية فتوجهوا وراء أصحابهم إلى البلاد الشمالية. وفي آخر الشهر وصل شهاب الدين الكاشنغري الشريف من القاهرة ومعه توقيع بمشيخة الشيوخ، فنزل في الخانقاه وباشرها بحضرة القضاة والأعيان، وانفصل ابن الزكي عنها. وفيه باشر الصدر علاء الدين بن تاج الدين بن الأثير كتابة السر بمصر، وعزل عنها شرف الدين بن فضل الله، إلى كتابة السر بدمشق عوضاً عن أخيه محيي الدين، واستمر محيي الدين على كتابة الدست بمعلوم أيضاً والله أعلم.

وممن توفي فيها من الأعيان.

الشيخ الرئيس بدر الدين

محمد ابن رئيس الأطباء أبي إسحاق إبراهيم بن محمد بن طرخان الأنصاري، من سلالة

---

(١) في ط: غربال.

(٢) في ط: بكتوت.

(٣) في ط: الشهر.

سعد بن معاذ السويدي، من سويداء حوران، سمع الحديث وبرع في الطب، توفي في ربيع الأول ببستانه بقرب الشبلية، ودفن في تربة له في قبة فيها عن سبعين سنة.

الشيخ شعبان بن أبي بكر بن عمر الإربلي

شيخ الحلبية بجامع بني أمية، كان صالحاً مباركاً فيه خير كثير، كان كثير العبادة وإيجاد الراحة للفقراء، وكانت جنازته حافلة جداً، صلّي عليه بالجامع بعد ظهر يوم السبت تاسع عشرين رجب ودفن بالصوفية وله سبع وثمانون سنة، وروى شيئاً من الحديث وخرجت له مشيخة حضرها الأكابر رحمه الله.

الشيخ ناصر الدين يحيى بن إبراهيم

ابن محمد بن عبد العزيز العثماني، خادم المصحف العثماني نحواً من ثلاثين سنة، وصلّي عليه بعد الجمعة سابع رمضان ودفن بالصوفية، وكان لنائب السلطنة الأفرم فيه اعتقاد ووصله منه افتقاد، وبلغ خمساً وستين سنة.

الشيخ الصالح الجليل القدوة

أبو عبد الله محمد ابن الشيخ القدوة إبراهيم ابن الشيخ عبد الله الأموي[1]، توفي في العشرين من رمضان بسفح قاسيون، وحضر الأمراء والقضاة والصدور جنازته وصلّي عليه بالجامع المظفري، ثم دفن عند والده وغلق يومئذٍ سوق الصالحية له، وكانت له وجاهة عند الناس وشفاعة مقبولة، وكان عنده فضيلة وفيه تودد، وجمع أجزاء في أخبار جيدة، وسمع الحديث وقارب السبعين رحمه الله.

ابن الوحيد الكاتب

هو الصدر شرف الدين أبو عبد الله محمد بن شريف بن يوسف الزرعي المعروف بابن الوحيد، كان موقعاً بالقاهرة وله معرفة بالإنشاء وبلغ الغاية في الكتابة في زمانه، وانتفع الناس به، وكان فاضلاً مقداماً شجاعاً، توفي بالمارستان المنصوري بمصر يوم الثلاثاء سادس عشر شوال.

الأمير ناصر الدين

محمد بن عماد الدين حسن بن النسائي أحد أمراء الطبلخانات، وهو حاكم البندق، ولي ذلك بعد سيف الدين بلبان، توفي في العشر الأواخر من رمضان.

التميمي الداري

توفي يوم عيد الفطر ودفن بالقرافة الصغرى، وقد ولّي الوزارة بمصر، وكان خبيراً كافياً، مات معزولاً، وقد سمع الحديث وسمع عليه بعض الطلبة.

---

(١) في ط: الأرموي.

وفي ذي القعدة جاء الخبر إلى دمشق بوفاة الأمير الكبير استدمر وبنخاص في السجن بقلعة الكرك.

القاضي الإمام العلامة الحافظ

سعد الدين مسعود الحارثي الحنبلي الحاكم بمصر، سمع الحديث، وجمع وخرج وصنّف، وكانت له يد طولى في هذه الصناعة والأسانيد والمتون، وشرح قطعة من سنن أبي داود فأجاد وأفاد، وحسّن الإسناد، رحمه الله تعالى، والله أعلم.

ثم دخلت سنة اثنتي عشرة وسبعمائة

استهلت والحكام هم المذكورون في التي قبلها، وفي خامس المحرم توجه الأمير عز الدين ازدمر الزردكاش وأميران معه إلى الأفرم، وساروا بأجمعهم حتى لحقوا بقراسنقر وهو عند مهنا، وكاتبوا السلطان ثم ساروا نحو التتار فكانوا كالمستجير من الرمضاء بالنار، وجاء البريد في صفر بالاحتياط على حواصل الأفرم وقراسنقر والزردكاش وجميع ما يتعلق بهم، وقطع خبز مهنا وجعل مكانه في الإمرة أخاه محمداً، وعادت العساكر صحبة أرغون من البلاد الشمالية، وقد حصل عند الناس من قراسنقر وأصحابه هم وغم وحزن، وقدم سودي من مصر على نيابة حلب فاجتاز بدمشق فخرج الناس والجيش لتلقيه، وحضر السماط وقرىء مرسوم السلطان بطلب جمال الدين نائب دمشق إلى مصر، فركب من ساعته على البريد إلى مصر وتكلم في نيابته لغيبة لاجين. وطلب في هذا اليوم قطب الدين موسى ابن شيخ السلامية ناظر الجيش إلى مصر، فركب في آخر النهار إليها فتولى بها نظر الجيش عوضاً عن فخر الدين الكاتب كاتب المماليك بحكم عزله ومصادرته وأخذ أمواله الكثيرة منه، في عاشر ربيع الأول. وفي الحادي عشر منه باشر الحكم للحنابلة بمصر القاضي تقي الدين أحمد بن المعز عمر بن عبد الله بن عمر بن عوض المقدسي، وهو ابن بنت الشيخ شمس الدين بن العماد أول قضاة الحنابلة، وقدم الأمير سيف الدين تمر على نيابة طرابلس عوضاً عن الأفرم بحكم هربه إلى التتر. وفي ربيع الآخر مسك بيبرس العلائي نائب حمص وبيبرس المجنون وطوغان وجماعة آخرون من الأمراء ستة في نهار واحد وسيروا إلى الكرك معتقلين بها. وفيه مسك نائب مصر الأمير ركن الدين بيبرس الدوادار المنصوري، وولي بعده أرغون الدوادار، ومسك فيه نائب الشام وجمال الدين نائب الكرك وشمس الدين سنقر الكمالي حاجب الحجاب بمصر، وخمسة أمراء آخرون وحبسوا كلهم بقلعة الكرك، في برج هناك. وفيه وقع حريق داخل باب السّلامة احترق فيه دور كثيرة منها دار ابن أبي الفوارس، ودار الشريف القباني.

نيابة تنكز على الشام

في يوم الخميس العشرين من ربيع الآخر دخل الأمير سيف الدين تنكز بن عبد الله المالكي الناصري نائباً على دمشق بعد مسك نائب الكرك ومعه جماعة من مماليك السلطان منهم

الحاج ارقطاي على حيز بيبرس العلائي، وخرج الناس لتلقيه وفرحوا به كثيراً، ونزل بدار السعادة ووقع عند قدومه مطر عظيم، وكان ذلك اليوم يوم الرابع والعشرين من آب، وحضر يوم الجمعة الخطبة بالمقصورة وأشعلت له الشموع في طريقه، وجاء توقيع لابن صصري بإعادة قضاء العسكر إليه، وأن ينظر في الأوقاف ولا يشاركه أحد في الاستنابة في البلاد الشامية على عادة من تقدمه من قضاة الشافعية، وجاء مرسوم لشمس الدين أبي طالب بن حميد بنظر الجيش عوضاً عن ابن شيخ السلامية بحكم إقامته بمصر، ثم بعد أيام وصل الصدر شمس الدين هبة الله بن خشيش ناظر الجيش وجعل ابن حميد في وظيفة ابن البدر، وسافر ابن البدر على نظر جيش طرابلس، وتولى أرغون نيابة مصر وعاد فخر الدين كاتب المماليك في وظيفته مع استمرار قطب الدين ابن شيخ السلامية أيضاً مباشراً معه.

وفي هذا الشهر قام الشيخ محمد بن قوام ومعه جماعة من الصالحين على ابن زهرة المغربي الذي كان يتكلم بالكلاسة وكتبوا عليه محضراً يتضمن استهانته بالمصحف، وأنه يتكلم في أهل العلم، فأحضر إلى دار العدل فاستسلم وحقن دمه وعزر تعزيراً بليغاً عنيفاً وطيف به في البلد باطنه وظاهره، وهو مكشوف الرأس ووجهه مقلوب وظهره مضروب، ينادى عليه هذا جزاء من يتكلم في العلم بغير معرفة، ثم حبس وأطلق فهرب إلى القاهرة، ثم عاد على البريد في شعبان ورجع إلى ما كان عليه. وفيه قدم بهادر أص من نيابة صفد إلى دمشق وهنأه الناس، وفيه قدم كتاب من السلطان إلى دمشق أن لا يولّى أحد بمال ولا برشوة فإن ذلك يفضي إلى ولاية من لا يستحق الولاية، وإلى ولاية غير الأهل، فقرأه ابن الزملكاني على السدة وبلغه عنه ابن حبيب المؤذن وكان سبب ذلك الشيخ تقي الدين بن تيمية رحمه الله.

وفي رجب وشعبان حصل للناس خوف بدمشق بسبب أن التتر قد تحركوا للمجيء إلى الشام، فانزعج الناس من ذلك وخافوا، وتحول كثير منهم إلى البلد، وازدحموا في الأبواب، وذلك في شهر رمضان وكثرت الأراجيف بأنهم قد وصلوا إلى الرحبة، وكذلك جرى واشتهر بأن ذلك بإشارة قراسنقر وذويه فالله أعلم. وفي رمضان جاء كتاب السلطان أن من قتل لا يجني أحد عليه، بل يتبع القاتل حتى يقتص منه بمقتضى حكم الشرع الشريف فقرأه ابن الزملكاني على السدة بحضرة نائب السلطنة ابن تنكز وسببه ابن تيمية، هو أمر بذلك وبالكتاب الأول قبله وفي أول رمضان وصل التتر إلى الرحبة فحاصروها عشرين يوماً وقاتلهم نائبها الأمير بدر الدين موسى الأزدكشي[1] خمسة أيام قتالاً عظيماً، ومنعهم منها فأشار رشيد الدولة بأن ينزلوا إلى خدمة السلطان خربندا ويهدوا له هدية ويطلبوا منه العفو، فنزل القاضي نجم الدين إسحاق وأهدوا له خمسة رؤوس خيل، وعشرة أباليج سكر، فقبل ذلك ورجع إلى بلاده، وكانت بلاد حلب وحماة وحمص قد أجلوا منها وخرب أكثرها ثم تراجعوا إليها لما تحققوا رجوع التتر عن الرحبة، وطابت الأخبار وسكنت النفوس ودقت البشائر وتركت الأئمة القنوت، وخطب

(١) في ط: الأركشي.

الخطيب يوم العيد وذكر الناس بهذه النعمة. وكان سبب رجوع التتر قلة العلف وغلاء الأسعار وموت كثير منهم، وأشار على سلطانهم بالرجوع الرشيد وجوبان.

وفي ثامن شوال دقت البشائر بدمشق بسبب خروج السلطان من مصر لأجل ملاقاة التتر، وخرج الركب في نصف شوال وأميرهم حسام الدين لاجين الصغير، الذي كان والي البر، وقدمت العساكر المصرية أرسالاً[1]، وكان قدوم السلطان ودخوله دمشق يوم الثلاثاء ثالث عشرين شوال، واحتفل الناس لدخوله فنزل بالقلعة وقد زين البلد وضربت البشائر، ثم انتقل بعد ليلتئذٍ إلى القصر وصلّى الجمعة بالجامع بالمقصورة وخلع على الخطيب، وجلس في دار العدل يوم الاثنين، وقدم وزيره أمين الملك يوم الثلاثاء عشرين الشهر، وقدم صحبة السلطان الشيخ الإمام العالم العلامة تقي الدين أبو العباس أحمد بن تيمية إلى دمشق يوم الأربعاء مستهل ذي القعدة وكانت غيبته عنها سبع سنين كوامل، ومعه أخواه وجماعة من أصحابه، وخرج خلق كثير لتلقيه وسروا بقدومه وعافيته ورؤيته، واستبشروا به حتى خرج خلق من النساء أيضاً لرؤيته، وقد كان السلطان صحبه معه من مصر فخرج معه بنية الغزاة، فلما تحقق عدم الغزاة وأن التتر قد رجعوا إلى بلادهم فارق الجيش من غزة وزار القدس وأقام به أياماً، ثم سافر على عجلون وبلاد السواد وزرع، ووصل إلى دمشق في أول يوم من ذي القعدة، فدخلها فوجد السلطان قد توجه إلى الحجاز الشريف في أربعين أميراً من خواصه وجماعته يوم الخميس ثاني ذي القعدة، ثم إن الشيخ بعد وصوله إلى دمشق واستقراره بها لم يزل ملازماً لاشتغال الناس في سائر العلوم ونشر العلم وتصنيف الكتب وإفتاء الناس بالكلام والكتابة المطولة والاجتهاد في الأحكام الشرعية ففي بعض الأحكام يفتي بما أدى إليه اجتهاده من موافقة أئمة المذاهب الأربعة، وفي بعضها يفتي بخلافهم وبخلاف المشهور في مذاهبهم، وله اختيارات كثيرة مجلدات عديدة أفتى فيها بما أدى إليه اجتهاده، واستدل على ذلك بالكتاب والسنة وأقوال الصحابة والسلف.

فلما سار السلطان إلى الحج فرق العساكر والجيوش بالشام وترك أرغون بدمشق وفي يوم الجمعة لبس الشيخ كمال الدين بن الزملكاني خلعة وكالة بيت المال عوضاً عن ابن الشريشي، وحضر بها الشباك وتكلم وزير السلطان في البلد، وطلب من الناس أموالاً كثيرة وصادر وضرب بالمقارع وأهان جماعة من الرؤساء منهم ابن فضل الله محيي الدين. وفيه عين شهاب الدين بن جهبل لتدريس الصلاحية بالقدس عوضاً عن نجم الدين داود الكردي توفي، وقد كان مدرساً بها من نحو ثلاثين سنة، فسافر ابن جهبل إلى القدس بعد عيد الأضحى.

وفيها مات ملك القفجاق المسمى طغطاي خان، وكان له في الملك ثلاث وعشرون سنة، وكان عمره يوم مات ثلاثين سنة، وكان شهماً شجاعاً على دين التتر في عبادة الأصنام والكواكب، يعظم المجسمة والحكماء والأطباء ويكرم المسلمين أكثر من جميع الطوائف، كان جيشه هائلاً لا يجسر أحد على قتاله لكثرة جيشه وقوتهم وعددهم وعددهم، ويقال إنه جرد مرة

(١) أرسالاً: جماعات. والرسل: القطيع من كل شيء.

تجريدة من كل عشرة من جيشه واحداً فبلغت التجريدة مائتي ألف وخمسين ألفاً، توفي في رمضان منها وقام في الملك من بعده ابن أخته أزبك خان، وكان مسلماً فأظهر دين الإسلام ببلاده، وقتل خلقاً من أمراء الكفر وعلت الشرائع المحمدية على سائر الشرائع هناك ولله الحمد والمنة على الإسلام والسنة.

وممن توفي فيها من الأعيان:

الملك المنصور صاحب ماردين

وهو نجم الدين أبو الفتح غازي ابن الملك المظفر قرا رسلان ابن الملك السعيد نجم الدين غازي ابن الملك المنصور ناصر الدين أرتق بن غازي بن المنى بن تمرتاش بن غازي بن أرتق الأرتقي صاحب ماردين من عدة سنين، كان شيخاً حسناً مهيباً كامل الخلقة بديناً سميناً إذا ركب يكون خلفه محفة. خوفاً من أن يمسه لغوب فيركب فيها، توفي في تاسع ربيع الآخر ودفن بمدرسته تحت القلعة، وقد بلغ من العمر فوق السبعين، ومكث في الملك قريباً من عشرين سنة، وقام من بعده في الملك ولده العادل فمكث سبعة عشر يوماً، ثم ملك أخوه المنصور. وفيها مات.

الأمير سيف الدين قطلوبك الشيخي

كان من أمراء دمشق الكبار.

الشيخ الصالح

نور الدين أبو الحسن علي بن محمد بن هارون بن محمد بن هارون بن علي بن حميد الثعلبي الدمشقي، قارىء الحديث بالقاهرة ومسندها، روى عن ابن الزبير وابن الليثي وجعفر الهمداني وابن الشيرازي وخلق، وقد خرج له الإمام العلامة تقي الدين السبكي مشيخة، وكان رجلاً صالحاً توفي بكرة الثلاثاء تاسع عشر ربيع الآخر، وكانت جنازته حافلة.

الأمير الكبير الملك المظفر

شهاب الدين غازي ابن الملك الناصر داود بن المعظم، سمع الحديث وكان رجلاً متواضعاً توفي بمصر ثاني عشر رجب، ودفن بالقاهرة.

قاضي القضاة

شمس الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن داود بن خازم الأزرعي الحنفي، كان فاضلاً درس وأفتى وولي قضاء الحنفية بدمشق سنة ثم عزل واستمر على تدريس الشبلية مدة ثم سافر إلى مصر فأقام بسعيد السعداء خمسة أيام وتوفي يوم الأربعاء ثاني عشرين رجب فالله أعلم.

ثم دخلت سنة ثلاث عشرة وسبعمائة

استهلت والحكام هم المذكورون، والسلطان في الحجاز لم يقدم بعد، وقد قدم الأمير سيف الدين قجليس[١] يوم السبت مستهل المحرم من الحجاز وأخبر بسلامة السلطان وأنه فارقه من المدينة النبوية، أنه قد قارب البلاد، فدقت البشائر فرحاً بسلامة السلطان، ثم جاء البريد فأخبر بدخوله إلى الكرك ثاني المحرم يوم الأحد، فلما كان يوم الثلاثاء حادي عشر المحرم دخل دمشق وقد خرج الناس لتلقيه على العادة، وقد رأيته في مرجعه من هذه الحجة وعلى شفته ورقة قد ألصقها عليها، فنزل بالقصر وصلّى الجمعة رابع عشر المحرم، بمقصورة الخطابة، وكذلك الجمعة التي تليها، ولعب في الميدان بالأكرة يوم السبت النصف من المحرم، وولي نظر الدواوين للصاحب شمس الدين غبريال[٢] يوم الأحد حادي عشر المحرم وشد الدواوين لفخر الدين إياس الأعسري عوضاً عن القرماني، وسافر القرماني إلى نيابة الرحبة وخلع عليهما وعلى وزيره، وخلع على ابن صصري وعلى الفخر كاتب المماليك، وكان مع السلطان في الحج، وولي شرف الدين بن صصري حجابة الديوان وباشر فخر الدين ابن شيخ السلامية نظر الجامع، وباشر بهاء الدين بن عليم نظر الأوقاف، والمنكورسي شد الأوقاف. وتوجه السلطان راجعاً إلى الديار المصرية بكرة يوم الخميس السابع والعشرين من المحرم، وتقدمت الجيوش بين يديه ومعه. وفي أواخر صفر اجتاز على البريد في الرسلية إلى مهنا الشيخ صدر الدين ابن الوكيل وموسى بن مهنا والأمير علاء الدين الطنبغا فاجتمعوا به في تدمر ثم عاد الطنبغا وابن الوكيل إلى القاهرة.

وفي أواخر جمادى الآخرة مسك أمين الملك وجماعة من الكتاب معه وصودروا بأموال كثيرة، وأقيم عوضه بدر الدين بن التركماني الذي كان والي الخزانة. وفي رجب كملت أربعة مناجيق واحد لقلعة دمشق وثلاثة تحمل إلى الكرك، ورمي بائنين على باب الميدان وحضر نائب السلطنة تنكز والعامة وفي شعبان تكامل حفر النهر الذي عمله سودي نائب حلب بها، كان طوله من نهر الساجور إلى نهر القويق أربعين ألف ذراع في عرض ذراعين وعمق ذراعين، وغرم عليه ثلاثمائة ألف درهم، وعمل بالعدل ولم يظلم فيه أحداً. وفي يوم السبت ثامن شوال خرج الركب من دمشق وأميره سيف الدين بلبان التتري، وحج صاحب حماة في هذه السنة وخلق من الروم والغرباء. وفي يوم السبت السادس والعشرين من ذي الحجة وصل القاضي قطب الدين موسى ابن شيخ السلامية من مصر على نظر الجيوش الشامية كما كان قبل ذلك، وراح معين الدين بن الخشيش إلى مصر في رمضان صحبة الصاحب شمس الدين بن غبريال وبعد وصول ناظر الجيوش بيومين وصلت البشائر بمقتضى إزالة الإقطاعات الشامية بما رآه السلطان بعد نظره في ذلك أربعة أشهر.

---

(١) في ط: تجليس. (٢) في ط: غربال.

ومن توفي فيها من الأعيان:

الشيخ الإمام المحدث

فخر الدين أبو عمرو عفان بن محمد بن عثمان بن أبي بكر بن محمد بن داود التوزي بمكة يوم الأحد حادي عشر ربيع الآخر، وقد سمع الكثير، وأجازه خلق يزيدون على ألف شيخ، وقرأ الكتب الكبار وغيرها، وقرأ صحيح البخاري أكثر من ثلاثين مرة رحمه الله.

[الصدر][1] عز الدين محمد بن العدل

شهاب الدين أحمد بن عمر بن إلياس الرهاوي، كان يباشر استيفاء الأوقاف وغير ذلك، وكان من أخصاء أمين الملك، فلما مسك بمصر أرسل إلى هذا وهو معتقل بالعذراوية ليحضر على البريد فمرض فمات بالمدرسة العذراوية ليلة الخميس التاسع عشر من جمادى الآخرة، وله من العمر خمس وثلاثون سنة، وكان قد سمع من ابن طبرزد الكندي، ودفن من الغد بباب الصغير، وترك من بعده ولدين ذكرين جمال الدين محمد، وعز الدين.

الشيخ الكبير المقرىء

شمس الدين المقصاي[2]، هو أبو بكر بن عمر بن السبع الجزري المعروف بالمقصاي[3] نائب الخطيب وكان يقرىء الناس بالقراءات السبع وغيرها من الشواذ، وله إلمام بالنحو، وفيه ورع واجتهاد، توفي ليلة السبت حادي عشرين جمادى الآخرة ودفن من الغد بسفح قاسيون تجاه الرباط الناصري، وقد جاوز الثمانين رحمه الله.

ثم دخلت سنة أربع عشرة وسبعمائة

استهلت والحكام هم هم في التي قبلها إلا الوزير أمين الملك فمكانه بدر الدين التركماني. وفي رابع المحرم عاد الصاحب شمس الدين غبريال من مصر على نظر الدواوين وتلقاه أصحابه. وفي عاشر المحرم يوم الجمعة قرىء كتاب السلطان على السدة بحضرة نائب السلطنة والقضاة والأمراء يتضمن بإطلاق البواقي من سنة ثمان وتسعين وستمائة إلى آخر سنة ثلاث عشرة وسبعمائة، فتضاعفت الأدعية للسلطان وكان القارىء جمال الدين بن القلانسي ومبلغه صدر الدين بن صبيح المؤذن، ثم قرىء في الجمعة الأخرى مرسوم آخر فيه الإفراج عن المسجونين وأن لا يؤخذ من كل واحد سوى نصف درهم، ومرسوم آخر فيه إطلاق السخر في القصب وغيره عن الفلاحين، قرأه ابن الزملكاني وبلغه عنه أمين الدين محمد بن مؤذن النجيبي. وفي المحرم استحضر السلطان إلى بين يديه الفقيه نور الدين علي البكري وهمَّ بقتله وشفع فيه الأمراء فنفاه ومنعه من الكلام في الفتوى والعلم، وكان قد هرب لما طلب من جهة

---

(١) سقط في ط.

(٢) في ط: المقصاتي.

(٣) في ط: بالمقصاتي.

الشيخ تقي الدين بن تيمية فهرب واختفى، وشفع فيه أيضاً، ثم لما ظفر بِه السلطان الآن وأراد قتله شفع فيه الأمراء فنفاه ومنعه من الكلام والفتوى، وذلك لاجترائه وتسرعه على التكفير والقتل والجهل الحامل له على هذا وغيره. وفي يوم الجمعة مستهل صفر قرأ ابن الزملكاني كتاباً سلطانياً على السدة بحضرة نائب السلطان والقاضي وفيه الأمر بإطلاق القواسين وضمان النبيذ وغير ذلك، فدعا الناس للسلطان. وفي أواخر ربيع الأول اجتمع القضاة بالجامع للنظر في أمر الشهود ونهوهم عن الجلوس في المساجد، وأن لا يكون أحد منهم في مركزين، وأن لا يتولوا ثبات الكتب ولا يأخذوا أجراً على أداء الشهادة وأن لا يغتابوا أحداً وأن يتناصفوا في المعيشة ثم جلسوا مرة ثانية لذلك وتواعدوا ثالثة فلم يتفق اجتماعهم، ولم يقطع أحد من مركزه.

وفي يوم الأربعاء الخامس والعشرين منه عقد المجلس في دار ابن صصري لبدر الدين بن بضيان وأنكر عليه شيء من القراءات فالتزم بترك الأقراء بالكلية ثم استأذن بعد أيام في الإقراء فأذن له فجلس بين الظهر والعصر بالجامع وصارت له حلقة على العادة. وفي منتصف رجب توفي نائب حلب الأمير سيف الدين سودي ودفن بتربته وتولّى مكانه علاء الدين الطنبغا الصالحي الحاجب بمصر، قبل هذه النيابة. وفي تاسع شعبان خلع على الشريف شرف الدين عدنان بنقابة الأشراف بعد والده أمين الدين جعفر توفي في الشهر الماضي.

وفي خامس شوال دفن الملك شمس الدين دوباج بن ملكشاه بن رستم صاحب كيلان بتربته المشهورة بسفح قاسيون، وكان قد قصد الحج في هذا العام، فلما كان بغباغب أدركته منيته يوم السبت سادس عشرين رمضان فحمل إلى دمشق وصلّي عليه ودفن في هذه التربة، اشتريت له وتممت وجاءت حسنة وهي مشهورة عند المكارية شرقي الجامع المظفري، وكان له في مملكة كيلان خمساً وعشرون سنة، وعمّر أربعاً وخمسين سنة، وأوصى أن يحج عنه جماعة ففعل ذلك وخرج الركب في ثالث شوال وأميره سيف الدين سنقر الإبراهيمي وقاضيه محيي الدين قاضي الزبداني. وفي يوم الخميس سابع ذي القعدة قدم القاضي بدر الدين بن الحداد من القاهرة متولياً حسبة دمشق فخلع عليه عوضاً عن فخر الدين سليمان البصراوي، عزل فسافر سريعاً إلى البرية ليشتري خيلاً للسلطان يقدمها رشوة على المنصب المذكور، فاتفق موته في البرية في سابع عشر الشهر المذكور، وحمل إلى بصرى فدفن بها عند أجداده في ذي القعدة ثامنة، وكان شاباً حسناً كريم الأخلاق حسن الشكل. وفي أواخره مسك نائب صفت بلبان طوباي المنصوري وسجن وتولى مكانه سيف الدين بلبان البدري. وفي سادس ذي الحجة باشر ولاية البر الأمير علاء الدين علي بن محمود بن معبد البعلبكي عوضاً عن شرف الدين عيسى بن البرطاسي، وفي يوم عيد الأضحى وصل الأمير علاء الدين بن صبح من مصر وقد أفرج عنه فسلّم عليه الأمراء. وفي هذا الشهر أعيد أمين الملك إلى نظر النظارة بمصر وخلع على الصاحب بهاء الدين النسائي بنظر الخزانة عوضاً عن سعد الدين حسن بن الأقفاصي. وفيه وردت البريدية بأمر السلطان للجيوش الشامية بالمسير إلى حلب وأن يكون مقدم العساكر كلها تنكز نائب الشام، وقدم من مصر ستة آلاف مقاتل عليهم الأمير سيف الدين بكتمر الأبو بكري،

وفيهم تجليس وبدر الدين الوزيري، وكشلي وابن طيبرس وشاطي وابن سلار وغيرهم، فتقدموا إلى البلاد الحلبية بين يدي نائب الشام تنكز.

وممن توفي فيها من الأعيان:

سودي نائب حلب

في رجب ودفن بتربته، وهو الذي كان سبباً في إجراء النهر إليها، غرم عليه ثلاثمائة ألف درهم، وكان مشكور السيرة حميد الطريقة رحمه الله. وفي شعبان توفي.

الصاحب شرف الدين

يعقوب بن مزهر وكان باراً بأهله وقرابته رحمه الله.

والشيخ رشيد الدين أبو الفداء إسماعيل

ابن محمد القرشي الحنفي المعروف بابن المعلم، كان من أعيان الفقهاء والمفتين، ولديه علوم شتى وفوائد وفرائد، وعنده زهد وانقطاع عن الناس، وقد درس بالبلخية مدة ثم تركها لولده وسار إلى مصر فأقام بها، وقد عرض عليه قضاء دمشق فلم يقبل، وقد جاوز السبعين من العمر، توفي سحر يوم الأربعاء خامس رجب ودفن بالقرافة رحمه الله تعالى. وفي شوال توفي..

الشيخ سليمان التركماني

الموله الذي كان يجلس على مصطبته بالعلبيين، وكان قبل ذلك مقيماً بطهارة باب البريد، وكان لا يتحاشى من النجاسات ولا يتقيها، ولا يصلي الصلوات ولا يأتيها، وكان بعض الناس من الهمج له فيه عقيدة وهذه قاعدة الهمج الرعاع الذين هم أتباع كل ناعق من المولهين والمجانين، ويزعمون أنه يكاشف وأنه رجل صالح، ودفن بباب الصغير في يوم كثير الثلج.

وفي يوم عرفة توفيت:

الشيخة الصالحة العابدة الناسكة

أم زينب فاطمة بنت عباس بن أبي الفتح بن محمد البغدادية بظاهر القاهرة، وشهدها خلق كثير، وكانت من العالمات الفاضلات، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتقوم على الأحمدية في مواخاتهم النساء والمردان، وتنكر أحوالهم وأحوال أهل البدع وغيرهم، وتفعل من ذلك ما لا يقدر عليه الرجال، وقد كانت تحضر مجلس الشيخ تقي الدين بن تيمية فاستفادت منه ذلك وغيره وقد سمعت الشيخ تقي الدين يثني عليها ويصفها بالفضيلة والعلم، ويذكر عنها أنها كانت تستحضر كثيراً من المغنى أو أكثره، وأنه كان يستعد لها من كثرة مسائلها وحسن سؤالاتها وسرعة فهمها، وهي التي ختّمت نساء كثيراً القرآن، منهن أم زوجتي عائشة بنت صديق، زوجة الشيخ جمال الدين المزي، وهي التي أقرأت ابنتها زوجتي أمة الرحيم زينب رحمهن الله وأكرمهن برحمته وجنته آمين.

ثم دخلت سنة خمس عشرة وسبعمائة

استهلت والحكام في البلاد هم المذكورون في التي قبلها.

فتح ملطية

في يوم الاثنين مستهل المحرم خرج سيف الدين تنكز بالجيوش قاصداً ملطية وخرجت الأطلاب على راياتها وأبرزوا ما عندهم من العدد وآلات الحرب، وكان يوماً مشهوداً، وخرج مع الجيش ابن صصري لأنه قاضي العساكر وقاضي القضاة الشامية، فساروا حتى دخلوا حلب في الحادي عشر من الشهر، ومنها وصلوا في السادس عشر إلى بلاد الروم إلى ملطية، فشرعوا في محاصرتها يوم الحادي والعشرين من المحرم، وقد حصنت ومنعت وغلقت أبوابها، فلما رأوا كثرة الجيش نزل متوليها وقاضيها وطلبوا الأمان فأمنوا المسلمين ودخلوها، فقتلوا من الأرمن خلقاً كثيراً ومن النصارى وأسروا ذرية كثيرة، وتعدى ذلك إلى بعض المسلمين وغنموا شيئاً كثيراً، وأخذت أموال كثير من المسلمين ورجعوا عنها بعد ثلاثة أيام يوم الأربعاء رابع عشرين المحرم إلى عين تاب إلى مرج دابق، وزينت دمشق ودقت البشائر. وفي أول صفر دخل نائب ملطية متوجهاً إلى السلطان. وفي نصف الشهر وصل قاضيها الشريف شمس الدين ومعه خلق من المسلمين من أهلها، وفي بكرة نهار الجمعة سادس عشر ربيع الأول دخل تنكز دمشق وفي خدمته الجيوش الشامية والمصرية، وخرج الناس للفرجة عليهم على العادة، وأقام المصريون قليلاً ثم ترحلوا إلى القاهرة. وقد كانت ملطية إقطاعاً للجوبان أطلقها له ملك التتر فاستناب بها رجلاً كردياً فتعدى وأساء وظلم، وكاتب أهلها السلطان الملك الناصر وأحبوا أن يكونوا من رعيته، فلما ساروا إليها وأخذوها وفعلوا ما فعلوا فيها جاءها بعد ذلك الجوبان فعمرها وورد إليها خلقاً كثيراً من الأرمن وغيرهم.

وفي التاسع عشر من هذا الشهر وصل إلينا الخبر بمسك بكتمر الحاجب وأيدغدي شقير وغيرهما وكان ذلك يوم الخميس مستهل هذا الشهر، وذلك أنهم اتفقوا على السلطان فبلغه الخبر فمسكهم واحتيط على أموالهم وحواصلهم، وظهر لبكتمر أموال كثيرة وأمتعة وأخشاب وحواصل كثيرة وقد قدم قجليس من القاهرة فاجتاز بدمشق إلى ناحية طرابلس ثم قدم سريعاً ومعه الأمير سيف الدين تمر نائب طرابلس تحت الحوطة، ومسك بدمشق الأمير سيف الدين بهادر آص المنصوري فحمل الأول إلى القاهرة، وجعل مكانه في نيابة طرابلس كستاي، وحمل الثاني إلى الكرك وحزن الناس عليه ودعوا له. وفي يوم الخميس الحادي والعشرين من ربيع الآخر قدم عز الدين بن مبشر دمشق محتسباً وناظر الأوقاف وانصرف ابن الحداد عن الحسبة، وبهاء الدين عن نظر الأوقاف. وفي ليلة الاثنين ثالث عشر جمادى الأولى وقع حريق قبالة مسجد الشنباشي داخل باب الصغير، احترق فيه دكاكين ودور وأموال وأمتعة. وفي يوم الأربعاء سادس عشر جمادى الآخرة درس قاضي ملطية الشريف شمس الدين بالمدرسة الخاتونية البرانية عوضاً عن قاضي القضاة الحنفي البصروي، وحضر عنده الأعيان، وهو رجل له فضيلة وخلق

حسن، كان قاضياً بملطية وخطيباً بها نحواً من عشرين سنة.

وفي يوم الخميس رابع جمادى الآخرة أعيد ابن الحداد إلى الحسبة واستمر ابن مبشر ناظر الأوقاف. وفي يوم الأربعاء تاسع جمادى الآخرة درس ابن صصري بالأتابكية عوضاً عن الشيخ صفي الدين الهندي. وفي يوم الأربعاء الآخر حضر ابن الزملكاني درس الظاهرية الجوانية عوضاً عن الهندي أيضاً بحكم وفاته كما سنأتي ترجمته. وفي أواخر رجب أخرج الأمير جمال الدين آقوش نائب الكرك من سجن القاهرة وأعيد إلى الإمرة. وفي شعبان توجه خمسة آلاف من بلاد حلب فأغاروا على بلاد آمد، وفتحوا بلداناً كثيرة، وقتلوا وسبوا وعادوا سالمين، وخمسوا ما سبوا فبلغ سهم الخمس أربعة آلاف رأس وكسور. وفي أواخر رمضان وصل قراسنقر المنصوري إلى بغداد ومعه زوجته الخاتون بنت أبغا ملك التتر، وجاء في خدمته خربندا واستأذنه في الغارة على أطراف بلاد المسلمين فلم يأذن له، ووثب عليه رجل فداوي من جهة صاحب مصر فلم يقدر عليه وقتل الفداوي. وفي يوم الأربعاء سادس عشرين رمضان درس بالعادلية الصغيرة الفقيه الإمام فخر الدين محمد بن علي المصري المعروف بابن كاتب قطلوبك، بمقتضى نزول مدرسها كمال الدين بن الزملكاني له عنها، وحضر عنده القضاة والأعيان والخطيب وابن الزملكاني أيضاً. وفي هذا الشهر كملت عمارة القيسارية المعروفة بالدهشة عند الوراقين واللبادين وسكنها التجار، فتميزت بذلك أوقاف الجامع، وذلك بمباشرة الصاحب شمس الدين. وفي ثامن شوال قتل أحمد الدوسي شهد عليه بالعظائم من ترك الواجبات واستحلال المحرمات واستهانته وتنقيصه بالكتاب والسنة، فحكم المالكي بإراقة دمه وإن أسلم، فاعتقل ثم قتل. وفي هذا اليوم كان خروج الركب الشامي وأميره سيف الدين طقتمر الموساوي وقاضيه قاضي ملطية. وحج فيه قاضي حماة وحلب وماردين ومحيي الدين كاتب ملك الأمراء تنكز وصهره فخر الدين المصري وتقي الدين الفاضلي. وفي ثامن ذي الحجّة ولد للسلطان ولد ذكر فزينت البلاد له.

وممن توفي فيها من الأعيان:

شرف الدين أبو عبد الله

محمد بن العدل عماد الدين محمد بن أبي الفضل محمد بن أبي الفتح نصر الله بن المظفر بن أسعد بن حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي الدمشقي ابن القلانسي، ولد سنة ست وأربعين وستمائة وباشر نظر الخاص. وقد شهد قبل ذلك في القيمة ثم تركها، وقد ترك أولاداً وأموالاً جمة، توفي ليلة السبت ثاني عشر صفر ودفن بقاسيون.

الشيخ صفي الدين الهندي

أبو عبد الله محمد بن عبد الرحيم بن محمد الأرموي الشافعي المتكلم، ولد بالهند سنة أربع وأربعين وستمائة، واشتغل على جده لأمه، وكان فاضلاً، وخرج من دهلي في رجب سنة سبع وستين فحج وجاور بمكة أشهراً ثم دخل اليمن فأعطاه ملكها المظفر أربعمائة دينار، ثم

دخل مصر فأقام بها أربع سنين، ثم سافر إلى الروم على طريق أنطاكية فأقام إحدى عشرة سنة بقونية خمساً وبسيواس خمساً وبقيسارية سنة، واجتمع بالقاضي سراج الدين فأكرمه، ثم قدم إلى دمشق في سنة خمس وثمانين فأقام بها واستوطنها ودرس بالرواحية والدولعية والظاهرية والأتابكية وصنّف في الأصول والكلام، وتصدى للاشتغال والإفتاء، ووقف كتبه بدار الحديث الأشرفية، وكان فيه بر وصلة، توفي ليلة الثلاثاء تاسع عشرين صفر ودفن بمقابر الصوفية، ولم يكن معه وقت موته سوى الظاهرية وبها مات، فدرس بعده فيها ابن الزملكاني، وأخذ ابن صصري الأتابكية.

القاضي المسند المعمر الرحلة

تقي الدين سليمان بن حمزة بن أحمد بن عمر ابن الشيخ أبي عمر المقدسي الحنبلي الحاكم بدمشق ولد في نصف رجب سنة ثمان وعشرين وستمائة، وسمع الحديث الكثير وقرأ بنفسه وتفقه وبرع، وولّي الحكم وحدّث، وكان من خيار الناس وأحسنهم خلقاً وأكثرهم مروءة، توفي فجأة بعد مرجعه من البلد وحكمه بالجوزية، فلما صار إلى منزله بالدير تغيّرت حاله ومات عقيب صلاة المغرب ليلة الاثنين حادي عشرين ذي القعدة، ودفن من الغد بتربة جده، وحضر جنازته خلق كثير وجم غفير رحمه الله.

الشيخ علي ابن الشيخ علي الحريري

كان مقدماً في طائفته، مات أبوه وعمره سنتان، توفي في قرية نسر في جمادى الأولى.

الحكيم الفاضل البارع

بهاء الدين عبد السيد بن المهذب إسحاق بن يحيى الطبيب الكحال المتشرف بالإسلام، ثم قرأ القرآن جميعه لأنه أسلم على بصيرة، وأسلم على يديه خلق كثير من قومه وغيرهم، وكان مباركاً على نفسه وعليهم، وكان قبل ذلك ديان اليهود، فهداه الله تعالى، وتوفي يوم الأحد سادس جمادى الآخرة ودفن من يومه بسفح قاسيون، أسلم على يدي شيخ الإسلام ابن تيمية لما بيّن له بطلان دينهم وما هم عليه وما بدّلوه من كتابهم وحرّفوه من الكلم عن مواضعه رحمه الله.

ثم دخلت سنة ست عشرة وسبعمائة

استهلت وحكام البلاد هم المذكورون في التي قبلها غير الحنبلي بدمشق فإنه توفي في السنة الماضية. وفي المحرم تكملت تفرقة المثالات السلطانية بمصر بمقتضى إزالة الأجناد، وعرض الجيش على السلطان، وأبطل السلطان المكس بسائر البلاد القبلية والشامية. وفيه وقعت فتنة بين الحنابلة والشافعية ببعلبك بسبب العقائد، وترافعوا إلى دمشق فحضروا بدار السعادة عند نائب السلطنة تنكز فأصلح بينهم، وانفصل الحال على خير من غير محاققة ولا تشويش على أحد من الفريقين، وذلك يوم الثلاثاء سادس عشر المحرم. وفي يوم الأحد سادس

عشر صفر قرىء تقليد قاضي القضاة شمس الدين أبو عبد الله محمد بن مسلم بن مالك بن مزروع الحنبلي، بقضاء الحنابلة والنظر بأوقافهم عوضاً عن تقي الدين سليمان بحكم وفاته رحمه الله، وتاريخ التقليد من سادس ذي الحجة، وقرىء بالجامع الأموي بحضور القضاة والصاحب والأعيان، ثم مشوا معه وعليه الخلعة إلى دار السعادة فسلم على النائب وراح إلى الصالحية، ثم نزل من الغد إلى الجوزية فحكم بها على عادة من تقدمه، واستناب بعد أيام الشيخ شرف الدين ابن الحافظ. وفي يوم الاثنين سابع صفر وصل الشيخ كمال الدين بن الشريشي من مصر على البريد ومعه توقيع بعود الوكالة إليه، فخلع عليه وسلم على النائب والخلعة عليه. وفي هذا الشهر مسك الوزير عز الدين بن القلانسي واعتقل بالعذراوية وصودر بخمسين ألفاً ثم أطلق له ما كان أخذ منه وانفصل من ديوان نظر الخاص. وفي ربيع الآخر وصل من مصر الأمير فضل بن عيسى، وأجرى له ولابن أخيه موسى بن مهنا إقطاعات جيدة، وذلك بسبب دخول مهنا إلى بلاد التتر واجتماعهم بملكهم خربندا.

وفي يوم الاثنين سادس عشر جمادى الأولى باشر ابن صصري مشيخة الشيوخ بالسميساطية بسؤال الصوفية وطلبهم له من نائب السلطنة، فحضرها وحضرة عنده الأعيان في هذا اليوم عوضاً عن الشريف شهاب الدين أبي القاسم محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحيم بن عبد الكريم بن محمد بن علي بن الحسن بن الحسين بن يحيى بن موسى بن جعفر الصادق، وهو الكاشغري، توفي عن ثلاث وستين سنة ودفن بالصوفية. وفي جمادى الآخرة باشر بهاء الدين إبراهيم بن جمال الدين يحيى الحنفي المعروف بابن عليمة الحنفي وهو ناظر ديوان النائب بالشام نظر الدواوين عوضاً عن شمس الدين محمد بن عبد القادر الخطيري الحاسب الكاسب توفي، وقد كان مباشراً عدة من الجهات الكبار، مثل نظر الخزانة ونظر الجامع ونظر المارستان وغير ذلك، واستمر نظر المارستان من يومئذٍ بأيدي ديوان نائب السلطنة من كان، وصارت عادة مستمرة. وفي رجب نقل نائب حمص الأمير شهاب الدين قرطاي إلى نيابة طرابلس عوضاً عن الأمير سيف الدين التركستاني بحكم وفاته، وولّى الأمير سيف الدين إرقطاي إلى نيابة حمص، وتولى نيابة الكرك سيف الدين طقطاي الناصري عوضاً عن سيف الدين تيبغا.

وفي يوم الأربعاء عاشر رجب درس بالنجيبية القاضي شمس الدين الدمشقي عوضاً عن بهاء الدين يوسف بن جمال الدين أحمد بن الظاهر العجمي الحلبي، سبط الصاحب كمال الدين بن العديم، توفي ودفن عند خاله ووالده بتربة العديم. وفي أواخر شعبان وصل القاضي شمس الدين بن عز الدين يحيى الحراني أخو قاضي قضاة الحنابلة بمصر شرف الدين عبد الغني، إلى دمشق متولياً نظر الأوقاف بها عوضاً عن الصاحب عز الدين أحمد بن محمد بن أحمد بن مبشر، توفي في مستهل رجب بدمشق، وقد باشر نظر الدواوين بها وبمصر، والحسبة وبالإسكندرية وغير ذلك، ولم يكن بقي معه في آخر وقت سوى نظر الأوقاف بدمشق، وقد قارب الثمانين ودفن بقاسيون.

وفي آخر[١] شوال خرج الركب الشامي وأميرهم سيف الدين أرغون السلحدار الناصري الساكن عند دار الطراز بدمشق، وحج من مصر سيف الدين أرغون الدوادار وقاضي القضاة ابن جماعة، وقد زار القدس الشريف في هذه السنة بعد وفاة ولده الخطيب جمال الدين عبد الله، وكان قد رأس وعظم شأنه. وفي ذي القعدة سار الأمير سيف الدين تنكز إلى زيارة القدس فغاب عشرين يوماً، وفيه وصل الأمير سيف الدين بكتمر الحاجب إلى دمشق من مصر وقد كان معتقلاً في السجن فأطلق وأكرم وولّي نيابة صفت فسار إليها بعد ما قضى أشغاله بدمشق، ونقل القاضي حسام الدين القزويني من قضاء صفت إلى قضاء طرابلس، وأعيدت ولاية قضاء صفت إلى قاضي دمشق فولى فيها ابن صصري شرف الدين الهاوندي، وكان متولياً طرابلس قبل ذلك، ووصل مع بكتمر الحاجب الطواشي ظهير الدين مختار المعروف بالزرعي، متولياً الخزانة بالقلعة عوضاً عن الطواشي ظهير الدين مختار البلستين[٢] توفي.

وفي هذا الشهر أعني ذا القعدة وصلت الأخبار بموت ملك التتر خربندا محمد بن أرغون بن أبغا بن هولاكوقان ملك العراق وخراسان وعراق العجم والروم وأذربيجان والبلاد الأرمنية وديار بكر. توفي في السابع والعشرين من رمضان ودفن بتربته بالمدينة التي أنشأها، التي يقال لها السلطانية وقد جاوز الثلاثين من العمر، وكان موصوفاً بالكرم ومحباً للهو واللعب والعمائر، وأظهر الرفض في بلاده، أقام سنة على السنة ثم تحول إلى الرفض أقام شعائره في بلاده وحظي عنده الشيخ جمال الدين بن مطهر الحلي، تلميذ نصير الدين الطوسي، وأقطعه عدة بلاد، ولم يزل على هذا المذهب الفاسد إلى أن مات في هذه السنة، وقد جرت في أيامه فتن كبار ومصائب عظام، فأراح الله منه العباد والبلاد، وقام في الملك بعده ولده أبو سعيد وله إحدى عشرة سنة، ومدبر الجيوش والممالك له الأمير جوبان، واستمر في الوزارة علي شاه التبريزي، وأخذ أهل دولته بالمصادرة وقتل الأعيان ممن اتهمهم بقتل أبيه مسموماً، ولعب كثير من الناس به في أول دولته ثم عدل إلى العدل وإقامة السنة، فأمر بإعادة الخطبة بالترضي عن الشيخين أولاً ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم، ففرح الناس بذلك وسكنت بذلك الفتن والشرور والقتال الذي كان بين أهل تلك البلاد وبهراة وأصبهان وبغداد وإربل وساوه وغير ذلك، وكان صاحب مكة الأمير خميصة بن أبي نمي الحسني، قد قصد ملك التتر خربندا لينصره على أهل مكة فساعده الروافض هناك وجهزوا معه جيشاً كثيفاً من خراسان فلما مات خربندا بطل ذلك بالكلية، وعاد خميصة خائباً خاسئاً. وفي صحبته أمير من كبار الروافض من التتر يقال له الدلقندي، وقد جمع لخميصة أموالاً كثيرة ليقيم بها الرفض بذلك في بلاد الحجاز، فوقع بهما الأمير محمد بن عيسى أخو مهنا، وقد كان مهنا في بلاد التتر أيضاً ومعه جماعة من العرب، فقهرهما ومن كان معهما، ونهب ما كان معهما من الأموال وتفرق الرجال، وبلغت أخبار ذلك إلى الدولة الإسلامية فرضي عنه السلطان الملك الناصر وأهل دولته، وغسل ذلك ذنبه عنده، فاستدعى به السلطان إلى حضرته فحضر سامعاً مطيعاً، فأكرمه نائب الشام، فلما

---

(١) في ط: تاسع.

(٢) في ط: البلستيني.

وصل إلى السلطان أكرمه أيضاً، ثم إنه استفتى الشيخ تقي الدين بن تيمية، وكذلك أرسل إليه السلطان يسأله عن الأموال التي أخذت من الدلقندي، فأفتاهم بأنها تصرف في المصالح التي يعود نفعها على المسلمين، لأنها كانت معدة لعناد الحق ونصرة أهل البدعة على السنة.

وممن توفي فيها من الأعيان:

[خربندا ملك التتار][١] عز الدين والشهاب الكاشفوري[٢] شيخ الشيوخ [وشمس الدين][٣] بن الخطيري والبهاء العجمي مدرس النجيبية

وفيها قتل خطيب المزة قتله رجل جبلي ضربه بفأس اللحام في رأسه في السوق فبقي أياماً ومات، وأخذ القاتل فشنق في السوق الذي قتل فيه، وذلك يوم الأحد ثالث عشر ربيع الآخر، ودفن هناك وقد جاوز الستين.

الشرف صالح بن محمد بن عربشاه

ابن أبي بكر الهمداني، مات في جمادى الآخرة ودفن بمقابر النيرب، وكان مشهوراً بطيب القراءة وحسن السيرة، وقد سمع الحديث وروى جزءاً.

ابن عرفة صاحب التذكرة الكندية

الشيخ الإمام المقرىء المحدث النحوي الأديب علاء الدين علي بن المظفر بن إبراهيم بن عمر بن يزيد بن هبة الله الكندي الإسكندراني، ثم الدمشقي، سمع الحديث على أزيد من مائتي شيخ وقرأ القراءات السبع، وحصّل علوماً جيدة، ونظم الشعر الحسن الرائق الفائق، وجمع كتاباً في نحو من خمسين مجلداً، فيه علوم جمة أكثرها أدبيات سماها التذكرة الكندية، وقفها بالسميساطية وكتب حسناً وحسب جيداً، وخدم في عدة خدم وولّي مشيخة دار الحديث النفيسية في مدة عشر سنين وقرأ صحيح البخاري مرات عديدة، وأسمع الحديث، وكان يلوذ بشيخ الإسلام ابن تيمية، وتوفي ببستان عند قبة المسجد ليلة الأربعاء سابع عشر رجب، ودفن بالمزة عن ست وسبعين سنة.

الطواشي ظهير الدين مختار

البكنسي[٤] الخزندار بالقلعة وأحد أمراء الطبلخانات بدمشق، كان ذكياً خيراً فاضلاً، يحفظ القرآن ويؤديه بصوت طيب، ووقف مكتباً للأيتام على باب قلعة دمشق، ورتب لهم الكسوة والجامكية، وكان يمتحنهم بنفسه ويفرح بهم، وعمل له تربة خارج باب الجابية ووقف عليها القريتين وبنى عندها مسجداً حسناً ووقفه بإمام وهي من أوائل ما عمل من الترب بذلك الخط، ودفن بها في يوم الخميس عاشر شعبان رحمه الله، وقد كان حسن الشكل والأخلاق،

---

(١) سقط في ط.
(٢) في ط: الكاشنغري.
(٣) سقط في ط.
(٤) في ط: البلستيني.

عليه سكينة ووقار وهيبة وله وجاهة في الدولة سامحه الله، وولى بعده الخزانة سميه ظهير الدين مختار الزرعي.

الأمير بدر الدين

محمد بن الوزيري، كان من الأمراء المقدمين، ولديه فضيلة ومعرفة وخبرة، وقد ناب عن السلطان بدار العدل مرة بمصر، وكان حاجب الميسرة، وتكلم في الأوقاف وفيما يتعلق بالقضاة والمدرسين، ثم نقل إلى دمشق فمات بها في سادس عشر شعبان، ودفن بميدان الحصى فوق خان النجيبي، وخلف تركة عظيمة.

الشيخة الصالحة

ست الوزراء بنت عمر بن أسعد بن المنجا، راوية صحيح البخاري وغيره، جاوزت التسعين سنة، وكانت من الصالحات، توفيت ليلة الخميس ثامن عشر شعبان ودفنت بتربتهم فوق جامع المظفري بقاسيون.

القاضي محب الدين

أبو الحسن علي ابن قاضي القضاة تقي الدين بن دقيق العيد، استنابه أبوه في أيامه وزوجه بابنة الحاكم بأمر الله، ودرس باللهارية ورأس بعد أبيه، وكانت وفاته يوم الاثنين تاسع عشر رمضان، وقد قارب الستين، ودفن عند أبيه بالقرافة.

الشيخة الصالحة

ست النعم بنت عبد الرحمن بن علي بن عبدوس الحرانية، والدة الشيخ تقي الدين بن تيمية عمرت فوق السبعين سنة، ولم ترزق بنتاً قط، توفيت يوم الأربعاء العشرين من شوال، ودفنت بالصوفية، وحضر جنازتها خلق كثير وجم غفير رحمها الله.

الشيخ نجم الدين موسى بن علي بن محمد

الجيلي ثم الدمشقي، الكاتب الفاضل المعروف بابن البصيص، شيخ صناعة الكتابة في زمانه لا سيما في المزوج والمثلث، وقد أقام يكتب الناس خمسين سنة، وأنا ممن كتب عليه أثابه الله الجنة. وكان شيخاً حسناً بهي المنظر يشعر جيداً، توفي يوم الثلاثاء عاشر ذي القعدة ودفن بمقابر الباب الصغير وله خمس وستون سنة.

الشيخ تقي الدين الموصلي

أبو بكر بن محمد بن أبي بكر بن أبي الكرم شيخ القراءات عند محراب الصحابة، وشيخ ميعاد بن عامر مدة طويلة وقد انتفع الناس به نحواً من خمسين سنة في التلقين والقراءات، وختم خلقاً كثيراً، وكان يقصد لذلك ويجمع تصديقات يقولها الصبيان ليالي ختمهم، وقد سمع الحديث وكان خيراً ديناً، توفي ليلة الثلاثاء سابع عشر ذي القعدة، ودفن بباب الصغير رحمه الله.

الشيخ الصالح الزاهد المقري

أبو عبد الله محمد ابن الخطيب سلامة بن سالم بن الحسن بن ينبوب الماليني، أحد الصلحاء المشهورين بجامع دمشق، سمع الحديث وأقرأ الناس نحواً من خمسين سنة، وكان ينصح الأولاد في الحروف الصعبة، وكان مبتلًى في فمه يحمل طاسة تحت فمه من كثرة ما يسيل منه من الريال وغيره وقد جاوز الثمانين بأربع سنين، توفي بالمدرسة الصارمية يوم الأحد ثاني عشرين ذي القعدة، ودفن بباب الصغير بالقرب من القندلاوي، وحضر جنازته خلق كثيراً جداً نحواً من عشرة آلاف رحمه الله تعالى.

الشيخ صدر الدين(١) بن الوكيل

هو العلامة أبو عبد الله محمد ابن الشيخ الإمام مفتي المسلمين زين الدين عمر بن مكي بن عبد الصمد المعروف بابن المرحل وبابن الوكيل شيخ الشافعية في زمانه، وأشهرهم في وقته بالفضيلة وكثرة الاشتغال والمطالعة والتحصيل والافتنان بالعلوم العديدة، وقد أجاد معرفة المذهب والأصلين، ولم يكن بالنحو بذاك القويّ، يقع منه اللحن الكثير، مع أنه قرأ فيه المفصل للزمخشري، وكانت له محفوظات كثيرة، ولد في شوال سنة خمس وستين وستمائة، وسمع الحديث على المشايخ من ذلك مسند أحمد على ابن علان، والكتب الستة، وقرىء عليه قطعة كبيرة من صحيح مسلم بدار الحديث عن الأمير الإربلي والعامري والمزي، وكان يتكلم على الحديث بكلام مجموع من علوم كثيرة، من الطب والفلسفة وعلم الكلام، وليس ذلك بعلم، وعلوم الأوائل، وكان يكثر من ذلك، وكان يقول الشعر جيداً، وله ديوان مجموع مشتمل على أشياء لطيفة، وكان له أصحاب يحسدونه ويحبونه، وآخرون يحسدونه ويبغضونه، وكانوا يتكلمون فيه بأشياء ويرمونه بالعظائم، وقد كان مسرفاً على نفسه قد ألقى جلباب الحياء فيما يتعاطاه من القاذورات والفواحش، وكان ينصب العداوة للشيخ تقيّ الدين بن تيمية ويناظره في كثير من المحافل والمجالس، وكان يعترف للشيخ تقي الدين بالعلوم الباهرة ويثني عليه، ولكنه كان يجاحف عن مذهبه وناحيته وهواه، وينافح عن طائفته. وقد كان شيخ الإسلام ابن تيمية يثني عليه وعلى علومه وفضائله ويشهد له بالإسلام إذا قيل له عن أفعاله وأعماله القبيحة، وكان يقول: كان مخلطاً على نفسه متبعاً مراد الشيطان منه، يميل إلى الشهوة والمحاضرة، ولم يكن كما يقول فيه بعض أصحابه ممن يحسده ويتكلم فيه هذا أو ما هو في معناه. وقد درس بعدة مدارس بمصر والشام، ودرس بدمشق بالشاميتين والعذراوية ودار الحديث الأشرفية وولي في وقت الخطابة أياماً يسيرة كما تقدم، ثم قام الخلق عليه وأخرجوها من يده، ولم يرق منبرها، ثم خالط نائب السلطنة الأفرم فجرت له أمور لا يمكن ذكرها ولا يحسن، ثم آل به الحال على أن عزم على الانتقال من دمشق إلى حلب لاستحوازه على قلب نائبها، فأقام بها ودرس، ثم تردد في الرسلية بين السطان ومهنا صحبة أرغون والطنبغا، ثم استقر به المنزل بمصر ودرس فيها

(١) في ط: الصدر.

بمشهد الحسين إلى أن توفي بها بكرة نهار الأربعاء رابع عشرين ذي الحجة بداره قريباً من جامع الحاكم، ودفن من يومه قريباً من الشيخ محمد بن أبي حمزة بتربة القاضي ناظر الجيش بالقرافة، ولما بلغت وفاته دمشق صلّي عليه بجامعها صلاه الغائب بعد الجمعة ثالث المحرم من السنة الآتية، ورثاه جماعة منهم ابن غانم علاء الدين، والقفجاري والصفدي لأنهم كانوا من عشرائه وفي يوم عرفة توفي:

الشيخ عماد الدين إسماعيل الفوعي

وكيل قجليس، وهو الذي بنى له الباشورة على باب الصغير بالبرانية الغربية، وكانت فيه نهضة وكفاية، وكان من بيت الرفض، اتفق أنه استحضره نائب السلطنة فضربه بين يديه، وقام النائب إليه بنفسه فجعل يضربه بالمهاميز في وجهه، فرفع من بين يديه وهو تالف فمات في يوم عرفة، ودفن من يومه بسفح قاسيون، وله دار ظاهر باب الفراديس.

ثم دخلت سنة سبع عشرة وسبعمائة

استهلت والحكام هم المذكورون في التي قبلها. وفي صفر منها شرع في عمارة الجامع الذي أنشأه ملك الأمراء تنكز نائب الشام ظاهر باب النصر تجاه حكر السماق، على نهر بانياس بدمشق، وتردد القضاة والعلماء في تحرير قبلته، فاستقر الحال في أمرها على ما قاله الشيخ تقي الدين بن تيمية في يوم الأحد الخامس والعشرين منه، وشرعوا في بنائه بأمر السلطان، ومساعدته لنائبه في ذلك. وفي صفر هذا جاء سيل عظيم بمدينة بعلبك أهلك خلقاً كثيراً من الناس، وخرب دوراً وعمائر كثيرة، وذلك في يوم الثلاثاء سابع وعشرين صفر.

وملخص ذلك أنه قبل ذلك جاءهم رعد وبرق عظيم معهما مطر وبرد، فسالت الأودية، ثم جاءهم بعده سيل هائل خسف من سور البلد من جهة الشمال بشرق مقدار أربعين ذراعاً، مع أن سمك الحائط خمسة أذرع، وحمل برجاً صحيحاً ومعه من جانبيه، بدنتين فحمله كما هو حتى مر وحفر في الأرض نحو خمسمائة ذراع سعة ثلاثين ذراعاً، وحمل السيل ذلك إلى غربي البلد، لا يمر على شيء إلا أتلفه، ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فأتلف ما يزيد على ثلثها، ودخل الجامع فارتفع فيه على قامة ونصف، ثم قوي على حائطه الغربي فأخربه وأتلف جميع ما فيه من الحواصل والكتب والمصاحف وأتلف شيئاً كثيراً من رباع الجامع، وهلك تحت الهدم خلق كثير من الرجال والنساء والأطفال، فإنا لله وإنا إليه راجعون. وغرق في الجامع الشيخ علي بن محمد ابن الشيخ علي الحريري هو وجماعة معه من الفقهاء، ويقال كان من جملة من هلك بالغرق في هذه الكائنة من أهل بعلبك مائة وأربعة وأربعون نفساً سوى الغرباء، وجملة الدور التي خربها والحوانيت التي أتلفها نحو من ستمائة دار وحانوت، وجملة البساتين التي جرف أشجارها عشرون بستاناً، ومن الطواحين ثمانية وسوى الجامع والأبنية وأما الأماكن التي دخلها وأتلف ما فيها ولم تخرب فكثير جداً.

وفي هذه السنة زاد النيل زيادة عظيمة لم يسمع بمثلها من مدد، وغرق بلاداً كثيراً، وهلك فيها ناس كثيرا أيضاً، وغرق منية السيرج فهلك للناس فيها شيء كثير، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفي مستهل ربيع الآخر منها أغار جيش حلب على مدينة آمد فنهبوا وسبوا وعادوا سالمين. وفي يوم السبت تاسع وعشرين منه قدم قاضي المالكية إلى الشام من مصر وهو الإمام العلامة فخر الدين أبو العباس أحمد بن سلامة بن أحمد بن أحمد بن سلامة الإسكندري المالكي، على قضاء دمشق عوضاً عن قاضي القضاة جمال الدين الزواوي لضعفه واشتداد مرضه، فالتقاه القضاة والأعيان، وقرىء تقليده بالجامع ثاني يوم وصوله، وهو مؤرخ بثاني عشر الشهر، وقدم نائبه الفقيه نور الدين السنجاري درس بالجامع في مستهل جمادى الأولى، وحضر عنده الأعيان، وشكرت فضائله وعلومه ونزاهته وصرامته وديانته، وبعد ذلك بتسعة أيام توفي الزواوي المعزول، وقد باشر القضاء بدمشق ثلاثين سنة. وفيها أفرج عن الأمير سيف الدين بهادر آص من سجن الكرك وحمل إلى القاهرة وأكرمه السلطان، وكان سجنه بها مطاوعة لإشارة نائب الشام بسبب ما كان وقع بينهما بملطية. وخرج المحمل في يوم الخميس تاسع شوال، وأمير الحج سيف الدين كجكن المنصوري. وممن حج قاضي القضاة نجم الدين بن صصري وابن أخيه شرف الدين وكمال الدين بن الشيرازي والقاضي جلال الدين الحنفي والشيخ شرف الدين بن تيمية وخلق. وفي سادس هذا الشهر درس بالجاروخية القاضي جمال الدين محمد ابن الشيخ كمال الدين الشريشي بعد وفاة الشيخ شرف الدين بن أبي سلام، وحضر عنده الأعيان. وفي التاسع عشر منه درس ابن الزملكاني بالعذراوية عوضاً عن ابن سلام، وفيها درس الشيخ شرف الدين بن تيمية بالحنبلية عن إذن أخيه له في ذلك بعد وفاة أخيهما لأمهما بدر الدين قاسم بن محمد بن خالد، ثم سافر الشيخ شرف الدين إلى الحج، وحضر الشيخ تقي الدين الدرس بنفسه، وحضر عنده خلق كثير من الأعيان وغيرهم حتى عاد أخوه. وبعد عوده أيضاً وجاءت الأخبار بأنه قد أبطلت الخمور والفواحش كلها من بلاد السواحل وطرابلس وغيرها، ووضعت مكوس كثيرة عن الناس هنالك، وبنيت بقرى النصيرية في كل قرية مسجد ولله الحمد والمنة.

وفي بكرة نهار الثلاثاء الثامن والعشرين من شوال وصل الشيخ الإمام العلامة شيخ الكتاب شهاب الدين محمود بن سليمان الحلبي على البريد من مصر إلى دمشق متولياً كتابة السر بها، عوضاً عن شرف الدين عبد الوهاب بن فضل الله توفي إلى رحمة الله. وفي ذي القعدة يوم الأحد درس بالصمصامية التي جددت للمالكية وقد وقف عليها الصاحب شمس الدين غبريال درساً ودرس بها فقهاء، وعين تدريسها لنائب الحكم الفقيه نور الدين علي بن عبد البصير المالكي، وحضر عنده القضاة والأعيان، وممن حضر عنده الشيخ تقي الدين بن تيمية، وكان يعرفه من اسكندرية، وفيه درس بالدخوارية الشيخ جمال الدين محمد ابن الشيخ شهاب الدين أحمد الكحال، ورتب في رياسة الطب عوضاً عن أمين الدين سليمان الطبيب، بمرسوم نائب السلطنة تنكز، واختاره لذلك. واتفق أنه في هذا الشهر تجمع جماعة من التجار بماردين

وانضاف إليهم خلق من الجفال من الغلاة قاصدين بلاد الشام، حتى إذا كانوا بمرحلتين من رأس العين لحقهم ستون فارساً من التتار فمالوا عليهم بالنشاب وقتلوهم عن آخرهم، ولم يبق منهم سوى صبيانهم نحو سبعين صبياً، فقالوا من يقتل هؤلاء؟ فقال واحد منهم: أنا بشرط أن تنفلوني بمال من الغنيمة، فقتلهم كلهم عن آخرهم، وكان جملة من قتل من التجار ستمائة، ومن الجفلان ثلاثمائة من المسلمين، فإنا لله وإنا إليه راجعون. وردموا بهم خمس صهاريج هناك حتى امتلأت بهم رحمهم الله، ولم يسلم من الجميع سوى رجل واحد تركماني، هرب وجاء إلى رأس العين فأخبر الناس بما رأى وشاهد من هذا الأمر الفظيع المؤلم الوجيع، فاجتهد متسلم ديار بكر سوياي في طلب أولئك التتر حتى أهلكهم عن آخرهم، ولم يبق منهم سوى رجلين، لا جمع الله بهم شملاً ولا بهم مرحباً ولا أهلاً، آمين يا رب العالمين.

صفة خروج المهدي الضالّ بأرض جبلة

وفي هذه السنة خرجت النصيرية عن الطاعة وكان من بينهم رجل سموه محمد بن الحسن المهدي القائم بأمر الله، وتارة يدّعي علي بن أبي طالب فاطر السماوات والأرض، تعالى الله عمّا يقولون علوّاً كبيراً وتارة يدّعي أنه محمد بن عبد الله صاحب البلاد، وخرج يكفّر المسلمين، وأن النصيرية على الحق، واحتوى هذا الرجل على عقول كثير من كبار النصيرية الضلال، وعين لكل إنسان منهم تقدمة ألف، وبلاداً كثيرة ونيابات، وحملوا على مدينة جبلة فدخلوها وقتلوا خلقاً كثيراً من أهلها، وخرجوا منها يقولون لا إلٰه إلا علي، ولا حجاب إلا محمد، ولا باب إلا سلمان، وسبوا الشيخين، فصاح أهل البلد وا إسلاماه، واسلطاناه، وا أميراه، فلم يكن لهم يومئذٍ ناصر ولا منجد، وجعلوا يبكون ويتضرعون إلى الله عز وجل، فجمع هذا الضال تلك الأموال فقسمها على أصحابه وأتباعه قبحهم الله أجمعين. وقال لهم لم يبق للمسلمين ذكر ولا دولة، ولو لم يبق معي سوى عشرة أنفس لملكنا البلاد كلها. ونادى في تلك البلاد أن المقاسمة بالعشر لا غير ليرغب الفلاحين فيه، وأمر أصحابه بخراب المساجد واتخاذها خمارات، وكانوا يقولون لمن أسروه من المسلمين. قل لا إلٰه إلا علي، واسجد لإلٰهك المهدي، الذي يحيي ويميت حتى تحقن دمك، ويكتب لك فرمان وتجهزوا وعملوا أمراً عظيماً جداً، فجردت إليهم العساكر فهزموهم وقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وجمّاً غفيراً، وقتل المهدي الذي أضلهم وهو يكون يوم القيامة مقدمهم إلى عذاب السعير، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ۝٣ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤ ـ إلى قوله ـ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ﴾ [الحج: ٣ ـ ٧] الآية.

وفيها حج الأمير حسام الدين مهنا وولده سليمان في ستة آلاف، وأخوه محمد بن عيسى في أربعة آلاف، ولم يجتمع مهنا بأحد من المصريين ولا الشاميين، وقد كان في المصريين قجليس وغيره والله أعلم.

وممن توفي فيها من الأعيان.

الشيخ الصالح

أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الله الحسني، كان فاضلاً، وكتب حسناً، نسخ التنبيه والعمدة وغير ذلك، وكان الناس ينتفعون به ويقابلون عليه ذلك ويصححون عليه، ويجلسون إليه عند صندوق كان له في الجامع، توفي ليلة الاثنين سادس المحرم ودفن بالصوفية، وقد صححت عليه في العمدة وغيرها.

الشيخ شهاب الدين الرومي

أحمد بن محمد بن إبراهيم بن المراغي، درس بالمعينية، وأم بمحراب الحنفية بمقصورتهم الغربية إذ كان محرابهم هناك، وتولى مشيخة الخاتونية، وكان يؤم بنائب السلطان الأفرم، وكان يقرأ حسناً بصوت مليح، وكانت له مكانة عنده، وربما راح إليه الأفرم ماشياً حتى يدخل عليه زاويته التي أنشأها بالشرق الشمالي على الميدان الكبير، ولما توفي بالمحرم ودفن بالصوفية قام ولداه عماد الدين وشرف الدين بوظائفه.

الشيخ الصالح العدل

فخر الدين عثمان بن أبي الوفا بن نعمة الله الإعزازي، كان ذا ثروة من المال كثير المروءة والتلاوة أدى الأمانة في ستين ألف دينار وجواهر لا يعلم بها إلا الله عز وجل. بعد ما مات صاحبها مجرداً في الغزاة وهو عز الدين الجراحي نائب غزة، أودعه إياها فأداها إلى أهلها أثابه الله. ولهذا لما مات يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من ربيع الآخر حضر جنازته خلق لا يعلمهم إلا الله تعالى، حتى قيل إنهم لم يجتمعوا في مثلها قبل ذلك ودفن بباب الصغير رحمه الله.

قاضي القضاة

جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سليمان بن يوسف الزواوي قاضي المالكية بدمشق، من سنة سبع وثمانين وستمائة، قدم مصر من المغرب واشتغل بها وأخذ عن مشايخها من الشيخ عز الدين بن عبد السلام، ثم قدم دمشق قاضياً في سنة سبع وثمانين وستمائة، وكان مولده تقريباً في سنة تسع وعشرين وستمائة. وأقام شعار مذهب مالك وعمر الصمصامية في أيامه وجدده عمارة النورية، وحدث بصحيح مسلم وموطأ مالك عن يحيى بن يحيى عن مالك، وكتاب الشفا للقاضي عياض، وعزل قبل وفاته بعشرين يوماً عن القضاء، وهذا من خيره حيث لم يمت قاضياً، توفي بالمدرسة الصمصامية يوم الخميس التاسع من جمادى الآخرة. وصلّي عليه بعد الجمعة ودفن بمقابر باب الصغير تجاه مسجد التاريخ، وحضر جنازته خلق كثير وأثنوا عليه خيراً، وقد جاوز الثمانين رحمه الله كمالك. ولم يبلغ إلى سبعة عشر من عمره على مقتضى مذهبه أيضاً.

القاضي الصدر الرئيس

رئيس الكتاب شرف الدين أبو محمد عبد الوهاب بن جمال الدين فضل الله بن الحلي

القرشي العدوي العمري، ولد سنة تسع وعشرين وستمائة وسمع الحديث وخدم وارتفعت منزلته حتى كتب الإنشاء بمصر، ثم نقل إلى كتابة سر الشام إلى أن توفي في ثاني رمضان، ودفن بقاسيون، وقد قارب التسعين، وهو متمتع بحواسه وقواه، وكانت له عقيدة حسنة في العلماء ولا سيما في ابن تيمية وفي الصلحاء رحمه الله. وقد رثاه الشهاب محمود كاتب السر بعده بدمشق، وعلاء الدين بن غانم وجمال الدين بن نباتة.

الفقيه الإمام العالم المناظر

شرف الدين أبو عبد الله الحسين ابن الإمام كمال الدين علي بن إسحاق بن سلام الدمشقي الشافعي. ولد سنة ثلاث وسبعين وستمائة، واشتغل وبرع وحصل ودرس بالجاروخية والعذراوية، وأعاد بالظاهرية وأفتى بدار العدل، وكان واسع الصدر كثير الهمة كريم النفس مشكوراً في فهمه وخطه وحفظه وفصاحته ومناظرته، توفي في رابع عشرين من رمضان وترك أولاداً وديناً كثيراً، فوفته عنه زوجته بنت زويزان تقبّل الله منها وأحسن إليها.

الصاحب أنيس الملوك

بدر الدين عبد الرحمن بن إبراهيم الإربلي، ولد سنة ثمان وثلاثين وستمائة، واشتغل بالأدب فحصل على جانب جيد منه وارتزق عند الملوك به فمن رقيق شعره ما أورده الشيخ علم الدين في ترجمته قوله:

وَمُدَامَةُ خَمْرٍ تُشْبِهُ خَدَّ مَنْ ... أَهْوَى وَدَمْعِي يَسْقِي بِهَا قَمَرَا
أَعَزَّ عَلَيَّ مِنْ سَمْعِي وَمِن بَصَرِي ... . (1)

وقوله في مغنية:

وَعَزِيزَةٍ هَيْفَاءَ نَاعِمَةِ الصِّبَا ... طَوْعِ العِنَاقِ مَرِيضَةِ الأَجْفَانِ
غَنَّتْ وَمَاسَ قِوَامُهَا فَكَأَنَّهَا الـ ... وَرْقَاءُ تَسْجَعُ فَوْقَ غُصْنِ البَانِ

الصدر الرئيس شرف الدين محمود بن جمال الدين إبراهيم

ابن شرف الدين عبد الرحمن بن أمين الدين سالم ابن الحافظ بهاء الدين الحسن بن هبة الله بن محفوظ بن صصري ذهب إلى الحجاز الشريف فلما كانوا ببدر اعتراه مرض ولم يزل به حتى مات، توفي بمكة وهو محرم ملبّ، فشهد الناس جنازته وغبطوه بهذه الموتة، توفي يوم الجمعة آخر النهار سابع ذي الحجة ودفن ضحى يوم السبت بمقبرة بباب الحجون رحمه الله تعالى وأكرم مثواه.

---

(1) بياض في الأصول.

ثم دخلت سنة ثمان عشرة وسبعمائة

الخليفة والسلطان هما هما، وكذلك النواب والقضاة سوى المالكي بدمشق فإنه العلامة فخر الدين بن سلامة بعد القاضي جمال الدين الزواوي رحمه الله فيها وصلت الأخبار في المحرم من بلاد الجزيرة وبلاد الشرق وسنجار والموصل وماردين وتلك النواحي بغلاء عظيم وفناء شديد، وقلة الأمطار، وجور التتار، وعدم الأقوات وغلاء الأسعار، وقلة النفقات، وزوال النعم، وحلول النقم، بحيث إنهم أكلوا ما وجدوه من الجمادات والحيوانات والميتات (١)، وباعوا حتى أولادهم وأهاليهم، فبيع الولد بخمسين درهماً وأقل من ذلك، حتى أن كثيراً من الناس كانوا لا يشترون من أولاد المسلمين تأثماً فكانت المرأة تصرخ بأنها نصرانية ليشتري منها ولدها لتنتفع بثمنه ويحصل له من يطعمه فيعيش، وتأمن عليه من الهلاك، فإنا لله وإنا إليه راجعون. ووقعت أحوال صعبة يطول ذكرها، وتنبو الأسماع عن وصفها، وقد ترحلت منهم فرقة قريب الأربعمائة إلى ناحية مراغة فسقط عليهم ثلج أهلكهم عن آخرهم، وصحبت طائفة منهم فرقة من التتار، فلما انتهوا إلى عقبة صعدها التتار ثم منعوهم أن يصعدوها لئلا يتكلفوا بهم فماتوا عن آخرهم، فلا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم.

وفي بكرة الاثنين السابع من صفر قدم القاضي كريم الدين عبد الكريم بن العلم هبة الله وكيل الخاص السلطاني بالبلاد جميعها، قدم إلى دمشق فنزل بدار السعادة وأقام بها أربعة أيام وأمر ببناء جامع القبيبات، الذي يقال له جامع كريم الدين، وراح لزيارة بيت المقدس، وتصدق بصدقات كثيرة وافرة، وشرع ببناء جامع بعد سفره. وفي ثاني صفر جاءت ريح شديدة ببلاد طرابلس على ذوق تركمان فأهلكت لهم كثيراً من الأمتعة، وقتلت أميراً منهم يقال له طرالي وزوجته وابنيه وابني ابنيه وجاريته وأحد عشر نفساً، وقتلت جمالاً كثيرة وغيرها، وكسرت الأمتعة والأثاث وكانت ترفع البعير في الهواء مقدار عشرة أرماح ثم تلقيه مقطعاً، ثم سقط بعد ذلك مطر شديد وبرد عظيم بحيث أتلف زروعاً كثيرة في قرى عديدة نحو من أربع وعشرين قرية، حتى أنها لا ترد بدارها. وفي صفر أخرج الأمير سيف الدين طغاي الحاصلي إلى نيابة صفت فأقيم بها شهرين ثم مسك، والصاحب أمين الدين إلى نظر الاوقاف (٢) بطرابلس على معلوم وافر. قال الشيخ علم الدين وفي يوم الخميس منتصف ربيع الأول اجتمع قاضي القضاة شمس الدين بن مسلم بالشيخ الإمام العلامة تقي الدين بن تيمية وأشار عليه بترك الإفتاء في مسألة الحلف بالطلاق، فقبل الشيخ نصيحته وأجاب إلى ما أشار به، رعاية لخاطره وخواطر الجماعة المفتيين، ثم ورد البريد في مستهل جمادى الأولى بكتاب من السلطان فيه منع الشيخ تقي الدين من الإفتاء في مسألة الحلف بالطلاق وعقد في ذلك مجلس وانفصل الحال على ما رسم به السلطان، ونودي به في البلد، وكان قبل قدوم المرسوم قد اجتمع بالقاضي ابن مسلم الحنبلي جماعة من المفتيين الكبار، وقالوا له أن ينصح الشيخ في ترك الإفتاء في مسألة الطلاق،

---

(١) في ط: والنبات.

(٢) في ط: الدواوين.

فعلم الشيخ نصيحته، وأنه إنما قصد بذلك ترك ثوران فتنة وشر. وفي عاشره جاء البريد إلى صفت بمسك سيف الدين طغاي، وتولية بدر الدين القرماني نيابة حمص.

وفي هذا الشهر كان مقتل رشيد الدولة فضل الله بن أبي الخير بن علي الهمداني، كان أصله يهودياً عطاراً، فتقدم بالطب وشملته السعادة حتى كان عند خربندا الجزء الذي لا يتجزأ، وعلت رتبته وكلمته، وتولى مناصب الوزراء، وحصل له من الأموال والأملاك والسعادة ما لا يحد ولا يوصف وكان قد أظهر الإسلام، وكانت لديه فضائل جمة، وقد فسر القرآن وصنّف كتباً كثيرة، وكان له أولاد وثروة عظيمة، وبلغ الثمانين من العمر، وكانت له يد جيدة يوم الرحبة، فإنه صانع عن المسلمين وأتقن القضية في رجوع ملك التتار عن البلاد الشامية، سنة ثنتي عشرة كما تقدم، وكان يناصح الإسلام، ولكن قد نال منه خلق كثير من الناس واتهموه على الدين وتكلموا في تفسيره هذا، ولا شك أنه كان مخبطاً مخلطاً، وليس لديه علم نافع، ولا عمل صالح. ولما تولى أبو سعيد المملكة عزله وبقي مدة خاملاً ثم استدعاه جوبان وقال له أنت سقيت السلطان خربندا سمّاً؟ فقال لهم: أنا كنت في غاية الحقارة والذلة، فصرت في أيامه وأيام أبيه في غاية العظمة والعزة، فكيف أعمد إلى سقيه والحالة هذه؟ فأحضرت الأطباء فذكروا صورة مرض خربندا وصفته، وأن الرشيد أشار بإسهاله لما عنده في باطنه من الحواصل، فانطلق باطنه نحواً من سبعين مجلساً، فمات بذلك على وجه أنه أخطأ في الطلب. فقال: فأنت إذاً قتلته، فقتله وولده إبراهيم واحتيط على حواصله وأمواله، فبلغت شيئاً كثيراً، وقطعت أعضاؤه وحمل كل جزء منها إلى بلدة، ونودي على رأسه بتبريز هذا رأس اليهودي الذي بدل كلام الله لعنه الله، ثم أحرقت جثته، وكان القائم عليه علي شاه.

وفي هذا الشهر ـ أعني جمادى الأولى ـ تولى قضاء المالكية بمصر تقي الدين الاخنائي عوضاً عن زين الدين بن مخلوف توفي عن أربع وثمانين سنة، وله في الحكم ثلاث وثلاثون سنة. وفي يوم الخميس عاشر رجب لبس صلاح الدين يوسف ابن الملك الأوحد خلعة الإمرة بمرسوم السلطان، وفي آخر رجب جاء سيل عظيم بظاهر حمص خرب شيئاً كثيراً. وجاء إلى البلد ليدخلها فمنعه الخندق. وفي شعبان تكامل بناء الجامع الذي عمره تنكز ظاهر باب النصر، وأقيمت الجمعة فيه عاشر شعبان، وخطب فيه الشيخ نجم الدين علي بن داود بن يحيى الحنفي المعروف بالقفجازي، من مشاهير الفضلاء ذوي الفنون المتعددة، وحضر نائب السلطنة والقضاة والأعيان والقراء والمنشدون وكان يوماً مشهوداً. وفي يوم الجمعة التي يليها خطب بجامع القبيبات الذي أنشأه كريم الدين وكيل السلطان، وحضر فيه القضاة والأعيان، وخطب فيه الشيخ شمس الدين محمد بن عبد الواحد بن يوسف بن الرزين الحراني الأسدي الحنبلي، وهو من الصالحين الكبار، ذوي الزهادة والعبادة والنسك والتوجه وطيب الصوت وحسن السمت. وفي حادي عشر رمضان خرج الشيخ شمس الدين بن النقيب إلى حمص حاكماً بها مطلوباً مرغوباً فيه، وخرج الناس لتوديعه.

وفي هذا الشهر حصل سيل عظيم بسلمية ومثله بالشوبك، وخرج المحمل في تاسع شوال

وأمير الركب الأمير علاء الدين بن معبد والي البر، وقاضيه زين الدين ابن قاضي الخليل الحاكم بحلب وممن حج في هذه السنة من الأعيان: الشيخ برهان الدين الفزاري وكمال الدين بن الشريشي وولده وبدر الدين بن العطار. وفي الحادي والعشرين من ذي الحجة انتقل الأمير فخر الدين إياس الأعسري من شد الدواوين بدمشق إلى طرابلس أميراً. وفي يوم الجمعة السابع عشر ذي الحجة أقيمت الجمعة في الجامع الذي أنشأه الصاحب شمس الدين غبريال ناظر الدواوين بدمشق خارج باب شرقي، إلى جانب ضرار بن الأزور بالقرب من محلة القعاطلة، وخطب فيه الشيخ شمس الدين محمد بن التدمري المعروف بالنيرباني، وهو من كبار الصالحين ذوي العبادة والزهادة، وهو من أصحاب شيخ الإسلام ابن تيمية، وحضره الصاحب المذكور وجماعة من القضاة والأعيان.

وفي يوم الاثنين العشرين من ذي الحجة باشر الشيخ شمس الدين محمد بن عثمان الذهبي المحدث الحافظ بتربة أم الصالح عوضاً عن كمال الدين بن الشريشي توفي بطريق الحج في شوال، وقد كان له في مشيختها ثلاث وثلاثون سنة، وحضر عند الذهبي جماعة من القضاة. وفي يوم الثلاثاء صبيحة هذا الدرس أحضر الفقيه زين الدين بن عبيدان الحنبلي من بعلبك وحوقق على منام رآه زعم أنه رآه بين النائم واليقظان، وفيه تخليط وتخبيط وكلام كثير لا يصدر عن مستقيم المزاج، كان كتبه بخطه وبعثه لي بعض أصحابه، فاستسلمه القاضي الشافعي وحقن دمه وعزره، ونودي عليه في البلد ومنع من الفتوى وعقود الأنكحة، ثم أطلق. وفي يوم الأربعاء بكرة باشر بدر الدين محمد بن بضحان مشيخة الإقراء بتربة أم الصالح عوضاً عن الشيخ مجد الدين التونسي توفي، وحضر عنده الأعيان والفضلاء، وقد حضرته يومئذٍ، وقبل ذلك باشر مشيخة الإقراء بالأشرفية عوضاً عنه أيضاً الشيخ محمد بن خروف الموصلي. وفي يوم الخميس ثالث عشرين ذي الحجة باشر الشيخ الإمام العلامة الحافظ الحجة شيخنا ومفيدنا أبو الحجاج يوسف بن الزكي عبد الرحمن بن يوسف المزي مشيخة دار الحديث الأشرفية عوضاً عن كمال الدين بن الشريشي، ولم يحضر عنده كبير أحد، لما في نفوس بعض الناس من ولايته لذلك، مع أنه لم يتولها أحد قبله أحق بها منه، ولا أحفظ منه، وما عليه منهم؟ إذا لم يحضروا عنده فإنه لا يوحشه إلا حضورهم عنده، وبعدهم عنه أنس والله أعلم.

وممن توفي فيها من الأعيان:

الشيخ الصالح العابد الناسك

الورع الزاهد القدوة بقية السلف وقدوة الخلف أبو عبد الله محمد ابن الشيخ الصالح عمر ابن السيد القدوة الناسك الكبير العارف أبي بكر بن قوام بن علي بن قوام البالسي، ولد سنة خمسين وستمائة ببالس، وسمع من أصحاب ابن طبرزد، وكان شيخاً جليلاً بشوش الوجه حسن السمت مقصداً لكل أحد كثير، الوقار عليه سيما العبادة والخير، وكان يوم قازان في جملة من كان مع الشيخ تقي الدين بن تيمية لما تكلم مع قازان، فحكى عن كلام شيخ الإسلام تقي الدين لقازان وشجاعته وجرأته عليه، وأنه قال لترجمانه قل للقان: أنت تزعم أنك مسلم ومعك

مؤذنون وقاضٍ وإمام وشيخ على ما بلغنا فغزوتنا وبلغت بلادنا على ماذا؟ وأبوك وجدك هولاكو كانا كافرين وما غزوا بلاد الإسلام، بل عاهدا فوفيا، وأنت عاهدت فغدرت وقلت فما وفيت. قال وجرت له مع قازان وقطلوشاه وبولادي أمور ونوب، قام ابن تيمية فيها كلها لله، وقال الحق ولم يخش إلا الله عز وجل. قال وقرب إلى الجماعة طعاماً فأكلوا منه إلا ابن تيمية فقيل له ألا تأكل؟ فقال: كيف آكل من طعامكم وكله مما نهبتم من أغنام الناس وطبختموه بما قطعتم من أشجار الناس، قال ثم إن قازان طلب منه الدعاء فقال في دعائه «اللهم إن كان هذا عبدك محمود إنما يقاتل لتكون كلمتك هي العليا وليكون الدين كله لك فانصره وأيده وملكه البلاد والعباد، وإن كان إنما قام رياء وسمعة وطلباً للدنيا ولتكون كلمته هي العليا وليذل الإسلام وأهله فأخذله وزلزله ودمره واقطع دابره» قال وقازان يؤمن على دعائه، ويرفع يديه. قال فجعلنا نجمع ثيابنا خوفاً من أن تتلوث بدمه إذا أمر بقتله. قال فلما خرجنا من عنده قال له قاضي القضاة نجم الدين بن صصري وغيره: كدت أن تهلكنا وتهلك نفسك، والله لا نصحبك من هنا، فقال: وأنا والله لا أصحبكم. قال فانطلقنا عصبة وتأخر هو في خاصة نفسه ومعه جماعة من أصحابه، فتسامعت به الخواقين والأمراء من أصحاب قازان فأتوه يتبركون بدعائه، وهو سائر إلى دمشق، وينظرون إليه، قال والله ما وصل إلى دمشق إلا في نحو ثلاثمائة فارس في ركابه، وكنت أنا من جملة من كان معه، وأما أولئك الذين أبوا أن يصحبوه فخرج عليهم جماعة من التتر فشلحوهم عن آخرهم، هذا الكلام أو نحوه، وقد سمعت هذه الحكاية من جماعة غيره، وقد تقدم ذلك.

توفي الشيخ محمد بن قوام ليلة الاثنين الثاني والعشرين من صفر بالزاوية المعروفة بهم غربي الصالحية والناصرية والعادلية، وصلّي عليه بها ودفن فيها وحضر جنازته ودفنه خلق كثير وجم غفير، وكان في جملة الجمع الشيخ تقي الدين بن تيمية، لأنه كان يحبه كثيراً، ولم يكن للشيخ محمد مرتب على الدولة ولا غيرهم، ولا لزاويته مرتب ولا وقف، وقد عرض عليه ذلك غير مرة فلم يقبل، وكان يزار، وكان لديه علم وفضائل جمة، وكان فهمه صحيحاً، وكانت له معرفة تامة، وكان حسن العقيدة وطويته صحيحة وكان محباً للحديث وآثار السلف، كثير التلاوة والجمعية على الله عز وجل، وقد صنف جزءاً فيه أخبار جيدة، رحمه الله وبلّ ثراه بوابل الرحمة آمين.

الشيخ الصالح الأديب البارع الشاعر المجيد

تقي الدين أبو محمد عبد الله ابن الشيخ أحمد بن تمام بن حسان البلي ثم الصالحي الحنبلي، أخو الشيخ محمد بن تمام، ولد سنة خمس وثمانين وستمائة وسمع الحديث، وصحب الفضلاء، وكان حسن الشكل والخلق، طيب النفس مليح المجاورة والمجالسة، كثير المفاكهة، أقام مدة بالحجاز واجتمع بابن سبعين وبالتقي الحوراني، وأخذ النحو عن ابن مالك وابنه بدر الدين وصحبه مدة، وقد صحبه الشهاب محمود مدة خمسين سنة، وكان يثني عليه بالزهد والفراغ من الدنيا، توفي ليلة السبت الثالث من ربيع الآخر ودفن بالسفح، وقد أورد الشيخ علم الدين البرزالي في ترجمته قطعة من شعره: فمن ذلك قوله: [الوافر]

أَسُكَّانَ المَعَاهِدِ[١] مِنْ فُؤَادِي ... لَكُمْ فِي خَافِقٍ مِنْهُ سُكُونُ
أُكَرِّرُ فِيكُم أَبَداً حَدِيثي ... فَيَحْلُو والحَدِيثُ لهُ شُجُونُ[٢]
وَأَنْظِمُهُ عُقُوداً[٣] مِنْ دُمُوعِي ... فَتَنْثُرُهُ المَحَاجِرُ وَالجُفُونُ
وَأَبْتَكِرُ المَعَانِي في هَوَاكُمْ ... وَفِيكُمْ كُلُّ قَافِيةٍ تَهُونُ
وَأَسْأَلُ عنكُمُ البُكَّاءَ سِرّاً ... وَسِرُّ هَوَاكُمُ سِرٌّ مَصُونُ
وَأَغْتَبِقُ[٤] النَّسِيمَ لأَنَّ فِيهِ ... شَمَائِلَ مِنْ مَعَاطِفِكُمْ تَبِينُ
فَكَمْ لِي فِي مَحَبَّتِكُمْ غَرَامٌ ... وَكَمْ لِي فِي الغَرَامِ بِكُمْ فُنُونُ؟

قاضي القضاة زين الدين

علي بن مخلوف بن ناهض بن مسلم بن منعم بن خلف النويري المالكي، الحاكم بالديار المصرية، ولد سنة أربع وثلاثين وستمائة، وسمع الحديث واشتغل وحصل، وولي الحكم بعد ابن شاس سنة خمس وثمانين، وطالت أيامه إلى هذا العام، وكان غزير المروءة والاحتمال والإحسان إلى الفقهاء والشهود، ومن يقصده، توفي ليلة الأربعاء حادي عشر جمادى الآخرة ودفن بسفح المقطم بمصر، وتولّى بعده الحكم بمصر تقي الدين الأخنائي المالكي.

الشيخ إبراهيم بن أبي العلاء

المقري الصيت المشهور المعروف بابن شعلان، وكان رجلاً جيداً في شهود المسمارية، ويقصد الختمات لطيب صوته، توفي يوم الجمعة وهو كهل ثالث عشر جمادى الآخرة، ودفن بسفح قاسيون.

الشيخ الإمام العالم الزاهد

أبو الوليد محمد بن أبي القاسم أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي جعفر أحمد بن خلف بن إبراهيم بن أبي عيسى ابن الحاج التجيبي القرطبي ثم الإشبيلي، ولد بإشبيلية سنة ثمان وثلاثين وستمائة، وقد كان أهله بيت العلم والخطابة والقضاء بمدينة قرطبة، فلما أخذها الفرنج انتقلوا إلى إشبيلية وتمحقت أموالهم وكتبهم، وصادر ابن الأحمر جده القاضي بعشرين ألف دينار، ومات أبوه وجده في سنة إحدى وأربعين وستمائة، ونشأ يتيماً ثم حج وأقبل إلى الشام فأقام بدمشق من سنة أربع وثمانين، وسمع من ابن البخاري وغيره، وكتب بيده نحواً من مائة

---

(١) المعاهد: جمع معهد: المكان المعهود فيه الشيء، أي المكان الذي لا يزال القوم يرجعون إليه.

(٢) شجون جمع شَجَن: الهم والحزن وهوى النفس والشعبة من كل شيء وهي هنا بمعنى أن للحديث فنوناً متشعبة تأخذ منه في طرف فلا تلبث حتى تكون في آخر ويعرض لك منه ما لم تقصده.

(٣) عقيق: خرز أحمر، الوادي وكل مسيل ماء شقه السيل قديماً فوسعه. وشعر كل مولود، واسم عدة مواضع في بلاد العرب.

(٤) اغتبق: شرب الغبوق، والغبوق ما يشرب في العشي وهو خلاف الصبوح.

مجلد، إعانة لولديه أبي عمرو وأبي عبد الله على الاشتغال، ثم كانت وفاته بالمدرسة الصلاحية يوم الجمعة وقت الأذان ثامن عشر رجب، وصلّي عليه بعد العصر ودفن عند القندلاوي، بباب الصغير بدمشق، وحضر جنازته خلق كثير.

الشيخ كمال الدين بن الشريشي

أحمد ابن الإمام العلامة جمال الدين بن أبي بكر بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن سحمان البكري الوائلي الشريشي، كان أبوه مالكياً كما تقدم، واشتغل هو في مذهب الشافعي فبرع وحصل علوماً كثيراً، وكان خبيراً بالكتابة مع ذلك، وسمع الحديث وكتب الطباق بنفسه، وأفتى ودرس وناظر وباشر بعدة مدارس ومناصب كبار، أول ما باشر مشيخة دار الحديث بتربة أم الصالح بعد والده من سنة خمس وثمانين وستمائة إلى أن توفي، وناب في الحكم عن ابن جماعة. ثم ترك ذلك وولي وكالة بيت المال وقضاء العسكر ونظر الجامع مرات، ودرس بالشامية البرانية ودرس بالناصرية عشرين سنة، ثم انتزعها من يده ابن جماعة وزين الدين الفارقي، فاستعادها منهما وباشر مشيخة الرباط الناصري بقاسيون مدة، ومشيخة دار الحديث الأشرفية ثمان سنين، وكان مشكور السيرة فيما تولاه من الجهات كلها، وقد عزم في هذه السنة على الحج فخرج بأهله فأدركته منيته بالحسا في سلخ شوال من هذه السنة، ودفن هناك رحمه الله، وتولى بعده الوكالة جمال الدين بن القلانسي، ودرس بالناصرية كمال الدين بن الشيرازي، وبدار الحديث الأشرفية الحافظ جمال الدين المزي، وبأم الصالح الشيخ شمس الدين الذهبي، وبالرباط الناصري ولده جمال الدين.

الشهاب المقري

أحمد بن أبي بكر بن أحمد البغدادي نقيب الأشراف المتعممين، كان عنده فضائل جمة مما يناسب الوقائع وما يحضر فيه من التهاني والتعازي، ويعرف الموسيقى والشعبذة، وضرب الرمل، ويحضر المجالس المشتملة على اللهو والمسكر واللعب والبسط، ثم انقطع عن ذلك كله لكبر سنه وهو مما يقال فيه وفي أمثاله:

ذَهَبْتُ عَنْ تَوْبَتِهِ سَائِلاً وَجَدْتُهَا تَوْبَةَ إِفْلاسِ

وكان مولده بدمشق سنة ثلاث وثلاثين وستمائة، وتوفي ليلة السبت خامس ذي القعدة ودفن بمقابر باب الصغير في قبر أعده لنفسه عن خمس وثمانين سنة، سامحه الله.

قاضي القضاة فخر الدين

أبو العباس أحمد بن تاج الدين أبي الخير سلامة بن زين الدين أبي العباس أحمد بن سلام الإسكندري المالكي: ولد سنة إحدى وسبعين وستمائة، وبرع في علوم كثيرة، وولي نيابة الحكم في الإسكندرية فحمدت سيرته وديانته وصرامته، ثم قدم على قضاء الشام للمالكية في السنة الماضية فباشرها أحسن مباشرة سنة ونصفاً، إلى أن توفي بالصمصامية بكرة الأربعاء

مستهل ذي الحجة، ودفن إلى جانب القندلاوي بباب الصغير، وحضر جنازته خلق كثير، وشكره الناس وأثنوا عليه رحمه الله تعالى.

ثم دخلت سنة تسع عشرة وسبعمائة

استهلت والحكام هم المذكورون في التي قبلها، وفي ليلة مستهل محرم هبت ريح شديدة بدمشق سقط بسببها شيء كثير من الجدران، واقتلعت أشجاراً كثيرة. وفي يوم الثلاثاء سادس عشرين المحرم خلع على جمال الدين بن القلانسي بوكالة بيت المال عوضاً عن ابن الشريشي، وفي يوم الأربعاء الخامس من صفر درس بالناصرية الجوانية ابن صصري عوضاً عن ابن الشريشي أيضاً، وحضر عنده الناس على العادة. وفي عاشره باشر شد الدواوين جمال الدين بن أقوش الرحبي عوضاً عن فخر الدين إياس، وكان أقوش متولي دمشق من سنة سبع وسبعمائة، وولي مكانه الأمير علم الدين طرقش[1] الساكن بالعقيبة، وفي هذا اليوم نودي بالبلد أن يصوم الناس لأجل الخروج إلى الاستسقاء، وشرع في قراءة البخاري وتهيأ الناس لذلك ودعوا عقيب الصلوات وبعد الخطب، وابتهلوا إلى الله في الاستسقاء، فلما كان يوم السبت منتصف صفر، وكان سابع نيسان، خرج أهل البلد برمتهم إلى عند مسجد القدم، وخرج نائب السلطنة والأمراء مشاة يبكون ويتضرعون، واجتمع الناس هنالك وكان مشهداً عظيماً، وخطب بالناس القاضي صدر الدين سليمان الجعفري وأمن الناس على دعائه، ورجعوا فلما أصبح الناس من اليوم الثاني جاءهم الغيث بإذن الله ورحمته ورأفته لا بحولهم ولا بقوتهم، ففرح الناس فرحاً شديداً وعم البلاد كلها ولله الحمد والمنة، وحده لا شريك له. وفي أواخر الشهر شرعوا بإصلاح رخام الجامع وترميمه وجلي أبوابه وتحسين ما فيه. وفي رابع عشر ربيع الآخر درس بالناصرية الجوانية ابن الشيرازي بتوقيع سلطاني، وأخذها من ابن صصري وباشرها إلى أن مات. وفي يوم الخميس سادس عشر جمادى الأولى باشر ابن شيخ السلامية فخر الدين أخو ناظر الجيش الحسبة بدمشق عوضاً عن ابن الحداد، وباشر ابن الحداد نظر الجامع بدلاً عن ابن شيخ السلامية، وخلع على كل منهما.

وفي بكرة الثلاثاء خامس جمادى الآخرة قدم من مصر إلى دمشق قاضي القضاة شرف الدين أبو عبد الله محمد ابن قاضي القضاة معين الدين أبي بكر ابن الشيخ زكي الدين ظافر الهمداني المالكي، على قضاء المالكية بالشام، عوضاً عن ابن سلامة توفي، فكان بينهما ستة أشهر، ولكن تقليد هذا مؤرخ بآخر ربيع الأول، ولبس الخلعة وقرىء تقليده بالجامع. وفي هذا الشهر درس بالخاتونية البرانية القاضي بدر الدين بن نويرة الحنفي، وعمره خمس وعشرون سنة، عوضاً عن القاضي شمس الدين محمد قاضي ملطية توفي. وفي يوم السبت خامس رمضان وصل إلى دمشق سيل عظيم أتلف شيئاً كثيراً، وارتفع حتى دخل من باب الفرج، ووصل

---

(١) في ط: طوقش.

إلى العقيبة، وانزعج الناس له، وانتقلوا من أماكنهم، ولم تطل مدته لأن أصله كان مطراً وقع بأرض وابل السوق والحسينية. وفي هذا اليوم باشر طرقشي شد الدواوين بعد موت جمال الدين الرحبي، وباشر ولاية المدينة صارم الدين الجوكندار، وخلع عليهما.

ولما كان يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من رمضان اجتمع القضاة وأعيان الفقهاء عند نائب السلطنة بدار السعادة وقرىء عليهم كتاب من السلطان يتضمن منع الشيخ تقي الدين بن تيمية من الفتيا في مسألة الطلاق، وانفصل المجلس على تأكيد المنع من ذلك. وفي يوم الجمعة تاسع شوال خطب القاضي صدر الدين الداراني عوضاً عن بدر الدين بن ناصر الدين بن عبد السلام، بجامع جراح، وكان فيه خطيباً قبله فتولاه بدر الدين حسن العقرباني واستمر ولده في خطابة داريا التي كانت بيد أبيه من بعده. وفي يوم السبت عاشره خرج الركب وأميرهم عز الدين أيبك المنصوري أمير علم، وحج فيها صدر الدين قاضي القضاة الحنفي، وبرهان الدين بن عبد الحق، وشرف الدين بن تيمية، ونجم الدين الدمشقي وهو قاضي الركب، ورضي الدين المنطيقي، وشمس الدين ابن الوزير خطيب جامع القبيبات، وأبو عبد الله بن رشيق المالكي وغيرهم. وفيها حج سلطان الإسلام الملك الناصر محمد بن قلاوون ومعه جمع كثير من الأمراء، ووكيله كريم الدين وفخر الدين كاتب المماليك، وكاتب السر ابن الأثير، وقاضي القضاة بدر الدين بن جماعة، وصاحب حماة الملك عماد الدين، والصاحب شمس الدين غبريال، في خدمة السلطان وكان في خدمته خلق كثير من الأعيان.

وفيها كانت وقعة عظيمة بين التتر بسبب أن سلطانهم أبا سعيد كان قد ضاق ذرعاً بجوبان وعجز عن مسكه، فانتدب له جماعة من الأمراء عن أمره، منهم أبو يحيى خال أبيه، ودقماق وقرشي وغيرهم من أكابر الدولة، وأرادوا كبس جوبان فهرب وجاء إلى السلطان فأنهى إليه ما كان منهم، وفي صحبته الوزير علي شاه، ولم يزل بالسلطان حتى رضي عن جوبان وأمده بجيش كثيف وركب السلطان معه أيضاً والتقوا مع أولئك فكسروهم وأسروهم، وتحكم فيهم جوبان فقتل منهم إلى آخر هذه السنة نحواً من أربعين أميراً.

وممن توفي فيها من الأعيان.

الشيخ المقرئ شهاب الدين

أبو عبد الله الحسن بن سليمان بن فزارة[1] **بن بدر الكفري الحنفي**: ولد تقريباً في سنة سبع وثلاثين وستمائة، وسمع الحدث وقرأ بنفسه كتاب الترمذي، وقرأ القراءات وتفرد بها مدة يشتغل الناس عليه، وجمع عليه السبع أكثر من عشرين طالباً، وكان يعرف النحو والأدب وفنوناً كثيرة وكانت مجالسته حسنة، وله فوائد كثيرة ودرس بالطرخانية أكثر من أربعين سنة، وناب في الحكم عن الأذرعي مدة ولايته، وكان خيراً مباركاً أضر في آخر عمره، وانقطع في بيته، مواظباً على التلاوة والذكر وإقراء القرآن إلى أن توفي يوم الاثنين ثالث عشر جمادى الأولى، وصلِّيَ

(١) في ط: قرارة.

عليه بعد الظهر يومئذٍ بجامع دمشق، ودفن بقاسيون رحمه الله.

وفي هذا الشهر جاء الخبر بموت.

الشيخ الإمام تاج الدين

عبد الرحمن بن محمد بن أبي حامد التبريزي الشافعي المعروف بالأفضلي: بعد رجوعه من الحج ببغداد في العشر الأول من صفر، وكان صالحاً فقيهاً مباركاً وكان ينكر على رشيد الدولة ويحط عليه، ولما قتل قال كان قتله أنفع من قتل مائة ألف نصراني وكان رشيد الدولة يريد أن يترضاه فلم يقبل، وكان لا يقبل من أحد شيئاً، ولما توفي دفن بتربة الشونيزي، وكان قد قارب الستين رحمه الله.

محيي الدين محمد بن مفضل بن فضل الله المصري

كاتب ملك الأمراء، ومستوفي الأوقاف، كان مشكور السيرة محبباً للعلماء والصلحاء، فيه كرم وخدمة كثيرة للناس، توفي رابع عشرين من جمادى الأولى ودفن بتربة ابن هلال بسفح قاسيون وله ست وأربعون سنة، وباشر بعده في وظيفته أمين الدين بن النحاس.

الأمير الكبير غرلو بن عبد الله العادلي

كان من أكابر الدولة ومن الأمراء المقدمين الألوف، وقد ناب بدمشق عن أستاذه الملك العادل كتبغا نحواً من ثلاثة أشهر في سنة خمس وسبعين وستمائة، وأول سنة ست وتسعين، واستمر أميراً كبيراً إلى أن توفي سلخ جمادى الأولى يوم الخميس ودفن بتربته بشمالي جامع المظفري بقاسيون، وكان شهماً شجاعاً ناصحاً للإسلام وأهله، مات في عشر الستين.

الأمير جمال الدين أقوش

الرحبي المنصوري، والي دمشق مدة طويلة، كان أصله من قرى إربل، وكان نصرانياً فسبي وبيع من نائب الرحبة، ثم انتقل إلى الملك المنصور فأعتقه وأمره، وتولى الولاية بدمشق نحواً من إحدى عشرة سنة ثم انتقل إلى شد الدواوين مدة أربعة أشهر، وكان محبوباً إلى العامة مدة ولايته.

الخطيب صلاح الدين

يوسف بن محمد بن عبد اللطيف بن المعتزل[1] الحموي له تصانيف وفوائد، وكان خطيب جامع السوق الأسفل بحماة، وسمع من ابن طبرزد، توفي في جمادى الآخرة.

العلامة فخر الدين أبو عمرو

عثمان بن علي بن يحيى بن هبة الله بن إبراهيم بن المسلم بن علي الأنصاري الشافعي

---

(١) في ط: المغيزل.

المعروف بابن بنت أبي سعد المصري: سمع الحديث وكان من بقايا العلماء، وناب في الحكم بالقاهرة، وولي مكانه في ميعاد جامع طولون الشيخ علاء الدين القونوي شيخ الشيوخ، وفي ميعاد الجامع الأزهر شمس الدين بن علان، كانت وفاته ليلة الأحد الرابع والعشرين من جمادى الآخرة، ودفن بمصر وله من العمر سبعون[١] سنة.

الشيخ الصالح العابد

أبو الفتح نصر بن سليمان بن عمر المنبجي[٢]: له زاوية بالحسينية يزار فيها ولا يخرج منها إلا إلى الجمعة، سمع الحديث، توفي يوم الثلاثاء بعد العصر السادس والعشرين من جمادى الآخرة ودفن من الغد بزاويته المذكورة رحمه الله.

الشيخ الصالح المعمر الرحلة

عيسىٰ بن عبد الرحمن بن معالي بن أحمد بن إسماعيل بن عطاف بن مبارك بن علي بن أبي الجيش المقدسي الصالحي المطعم: راوي صحيح البخاري وغيره، وقد سمع الكثير من مشايخ عدة وترجمه الشيخ علم الدين البرزالي في تاريخه توفي ليلة السبت رابع عشر ذي الحجة، وصلّي عليه بعد الظهر من اليوم المذكور بالجامع المظفري، ودفن بالساحة بالقرب من تربة المولهين، وله أربع وسبعون[٣] سنة رحمه الله تعالى.

ثم دخلت سنة عشرين وسبعمائة

استهلت وحكام البلاد هم المذكورون في التي قبلها، وكان السلطان في هذه السنة في الحج، وعاد إلى القاهرة يوم السبت ثاني عشر المحرم، ودقت البشائر، ورجع الصاحب شمس الدين على طريق الشام وصحبته الأمير ناصر الدين الخازندار، وعاد صاحب حماة مع السلطان إلى القاهرة، وأنعم عليه السلطان ولقب بالملك المؤيد، ورسم أن يخطب له على منابر حماة وأعمالها، وأن يخطب بالمقام العالي المولوي السلطاني الملكي المؤيدي، على ما كان عليه عمه المنصور.

وفيها عمر ابن المرجاني شهابِ الدين مسجد الخيف وأنفق عليه نحواً من عشرين ألفاً. وفي المحرم استقال أمين الدين من نظر طرابلس وأقام بالقدس. وفي آخر صفر باشر نيابة الحكم المالكي القاضي شمس الدين محمد بن أحمد القفصي، وكان قد قدم مع قاضي القضاة شرف الدين من مصر. وفي يوم الاثنين الخامس والعشرين من ربيع الأول ضربت عنق شخص يقال له عبد الله الرومي وكان غلاماً لبعض التجار، وكان قد لزم الجامع، ثم ادّعى النبوة واستتيب فلم يرجع فضربت عنقه وكان أشقر أزرق العينين جاهلاً، وكان قد خالطه شيطان حسن له ذلك، واضطرب عقله في نفس الأمر وهو في نفسه شيطان إنسي. وفي يوم الاثنين ثاني ربيع الآخر

---

(١) في ط: تسعون.
(٢) في ط: الكبجي.
(٣) في ط: وستون.

عقد عقد السلطان على المرأة التي قدمت من بلاد القبجاق، وهي من بنات الملوك، وخلع على القاضي بدر الدين بن جماعة وكاتب السر وكريم الدين وجماعة الأمراء، ووصلت العساكر في هذا الشهر إلى بلاد سيس وغرق في بحر جاهان من عساكر طرابلس نحو من ألف فارس، وجاءت مراسيم السلطان في هذا الشهر إلى الشام في الاحتياط على أخبار آل مهنا وإخراجهم من بلاد الإسلام، وذلك لغضب السلطان عليهم لعدم قدوم والدهم مهنا على السلطان. وفي يوم الأربعاء رابع عشرين جمادى الأولى درس بالركنية الشيخ محيي الدين الأسمر الحنفي وأخذت منه الجوهرية لشمس الدين البرقي الأعرج، وتدريس جامع القلعة لعماد الدين بن محيي الدين الطرسوسي، الذي ولي قضاء الحنفية بعد هذا، وأخذ من البرقي إمامة مسجد نورالدين له بحارة اليهود، ولعماد الدين بن الكيال، وإمامة الربوة للشيخ محمد الصبيبي. وفي جمادى الآخرة اجتمعت الجيوش الإسلامية بأرض حلب نحواً من عشرين ألفاً، عليهم كلهم نائب حلب الطنبغا وفيهم نائب طرابلس شهاب الدين قرطبة، فدخلوا بلاد الأرمن من اسكندرونة ففتحوا الثغر ثم تل حمدان ثم خاضوا جاهان فغرق منهم جماعة ثم سلم الله من وصلوا إلى سيس فحاصروها وضيقوا على أهلها وأحرقوا دار الملك التي في البلد، وقطعوا أشجار البساتين وساقوا الأبقار والجواميس والأغنام وكذلك فعلوا بطرسوس، وخربوا الضياع والأماكن وأحرقوا الزروع ثم رجعوا فخاضوا النهر المذكور فلم يغرق منهم أحد، وأخرجوا بعد رجوعهم مهنا وأولاده من بلادهم وساقوا خلفه إلى غانة وحديثة ثم بلغ الجيوش موت صاحب سيس وقيام ولده من بعده، فشنوا الغارات على بلاده وتابعوها وغنموا وأسروا وسلموا إلا في المرة الرابعة فإنه قتل منهم جماعة.

وفي هذه السنة كانت وقعة عظيمة ببلاد المغرب بين المسلمين والفرنج فنصر الله المسلمين على أعدائهم فقتلوا منهم خمسين ألفاً وأسروا خمسة آلاف، وكان في جملة القتلى خمسة وعشرين ملكاً من ملوك الإفرنج، وغنموا شيئاً كثيراً من الأموال، يقال كان من جملة ما غنموا سبعون قنطاراً من الذهب والفضة، وإنما كان جيش الإسلام يومئذٍ ألفين وخمسمائة فارس غير الرماة، ولم يقتل منهم سوى أَحَدَ عشر قتيلاً، وهذا من غريب ما وقع وعجيب ما سمع. وفي يوم الخميس ثاني عشرين رجب عقد مجلس بدار السعادة للشيخ تقي الدين بن تيمية بحضرة نائب السلطنة، واجتمع فيه القضاة والمفتون من المذاهب، وحضر الشيخ وعاتبوه على العود إلى الإفتاء بمسألة الطلاق ثم حبس في القلعة فبقي فيها خمسة أشهر وثمانية عشر يوماً، ثم ورد مرسوم من السلطان بإخراجه يوم الاثنين يوم عاشوراء من سنة إحدى وعشرين كما سيأتي إن شاء الله تعالى. وبعد ذلك بأربعة أيام أضيف شد الأوقاف إلى الأمير علاء الدين بن معبد إلى ما بيده من ولاية البر وعزل بدر الدين المنكورسي عن الشام.

وفي أواخر شعبان مسك الأمير علم الدين الجاولي نائب غزة وحمل إلى الإسكندرية لأنه اتهم أنه يريد الدخول إلى بلاد اليمن، واحتيط على حواصله وأمواله، وكان له بر وإحسان ومعروف وأوقاف، وقد بنى بغزة جامعاً حسناً مليحاً. وفي هذا الشهر أراق ملك التتر أبو سعيد

الخمور وأبطل الحانات، وأظهر العدل والإحسان إلى الرعايا، وذلك أنه أصابهم برد عظيم وجاءهم سيل هائل فلجؤوا إلى الله عز وجل، وابتهلوا إليه فسلّموا[1] فتابوا وأنابوا وعملوا الخير عقيب ذلك. وفي العشر الأول من شوال جرى الماء بالنهر الكريمي الذي اشتراه كريم الدين بخمسة وأربعين ألفاً وأجراه في جدول إلى جامعه بالقبيبات فعاش به الناس، وحصل به أنس إلى أهل تلك الناحية، ونصبت عليه الأشجار والبساتين، وعمل حوض كبير تجاه الجامع من الغرب يشرب منه الناس والدواب، وهو حوض كبير وعمل مطهرة، وحصل بذلك نفع كثير، ورفق زائد أثابه الله. وخرج الركب في حادي عشر شوال وأميره الملك صلاح الدين بن الأوحد، وفيه زين الدين كتبغا الحاجب، وكمال الدين الزملكاني والقاضي شمس الدين بن المعز، وقاضي حماة شرف الدين البارزي، وقطب الدين ابن شيخ السلامية وبدر الدين بن العطار، وعلاء الدين بن غانم، ونورالدين السنجاري، وهو قاضي الركب. ومن المصريين قاضي الحنفية ابن الحريري، وقاضي الحنابلة ومجد الدين حرمي والشرف عيسى المالكي، وهو قاضي الركب. وفيه كملت عمارة الحمام الذي عمره الجيبغا غربي دار الطعم ودخله الناس.

وفي أواخر ذي الحجة وصل إلى دمشق من عند ملك التتر الخواجه مجد الدين إسماعيل بن محمد بن ياقوت السلامي، وفي صحبته هدايا وتحف لصاحب مصر من ملك التتر، واشتهر أنه إنما جاء ليصلح بين المسلمين والتتر، فتلقاه الجند والدولة، ونزل بدار السعادة يوماً واحداً، ثم سار إلى مصر. وفيه وقف الناس بعرفات موقفاً عظيماً لم يعهد مثله، أتوه من جميع أقطار الأرض، وكان مع العراقيين محامل كثيرة منها محمل قوم ما عليه من الذهب واللآلىء بألف ألف دينار مصرية، وهذا أمر عجيب.

وممن توفي فيها من الأعيان.

الشيخ إبراهيم الدهستاني

وكان قد أسن وعمر، وكان يذكر أن عمره حين أخذت التتر بغداد أربعين سنة، وكان يحضر الجمعة هو وأصحابه تحت قبة النسر، إلى أن توفي ليلة الجمعة السابع والعشرين من ربيع الآخر بزاويته التي عند سوق الخيل بدمشق، ودفن بها وله من العمر مائة وأربع سنين، كما قال، والله أعلم.

الشيخ محمد بن محمود بن علي

الشحام المقرىء شيخ ميعاد ابن عامر، كان شيخاً حسناً بهياً مواظباً على تلاوة القرآن إلى أن توفي في ليلة توفي الدهستاني المذكور أو قبله بليلة رحمهما الله تعالى.

الشيخ شمس الدين بن الصائغ اللغوي

هو أبو عبد الله محمد بن حسن بن سباع بن أبي بكر الجذامي المصري الأصل، ثم

(١) في ط: فسلَوا.

انتقل إلى دمشق، ولد تقريباً سنة خمس وأربعين وستمائة بمصر، وسمع الحديث وكان أديباً فاضلاً بارعاً في النظم والنثر، وعلم العروض والبديع والنحو واللغة، وقد اختصر صحاح الجوهري، وشرح مقصورة ابن دريد، وله قصيدة تائية تشتمل على ألفي بيت فأكثر، ذكر فيها العلوم والصنائع، وكان حسن الأخلاق لطيف المحاورة والمحاضرة، وكان يسكن بين درب الحبالين والفراش عند بستان القط توفي بداره يوم الاثنين ثالث شعبان ودفن بباب الصغير.

ثم دخلت سنة إحدى وعشرين وسبعمائة

استهلت وحكام البلاد هم المذكورون في التي قبلها. وفي أول يوم منها فتح حمام الزيت الذي في رأس درب الحجر، جدد عمارته رجل سامري بعد ما كان قد درس ودثر من زمان الخوارزمية من نحو ثمانين سنة، وهو حمام جيد متسع. وفي سادس المحرم وصلت هدية من ملك التتار أبي سعيد إلى السلطان صناديق وتحف ودقيق. وفي يوم عاشوراء خرج الشيخ تقي الدين بن تيمية من القلعة بمرسوم السلطان وتوجه إلى داره، وكانت مدة إقامته خمسة أشهر وثمانية عشر يوماً رحمه الله. وفي رابع ربيع الآخر وصل إلى دمشق القاضي كريم الدين وكيل السلطان فنزل بدار السعادة وقدم قاضي القضاة تقي الدين بن عوض الحنبلي الحاكم بمصر وهو ناظر الخزانة أيضاً، فنزل بالعادلية الكبيرة التي للشافعية، فأقام بها أياماً، ثم توجه إلى مصر: جاء في بعض أشغال السلطان وزار القدس.

وفي هذا الشهر كان السلطان قد حفر بركة قريباً من الميدان وكان في جوارها كنيسة فأمر الوالي بهدمها، فلما هدمت تسلط الحرافيش وغيرهم على الكنائس بمصر يهدمون ما قدروا عليه، فانزعج السلطان لذلك وسأل القضاة ماذا يجب على من تعاطى ذلك منهم؟ فقالوا يعزر، فأخرج جماعة من السجون ممن وجب عليه قتله فقطع وصلب وحرم وجزم وعاقب، موهماً أنه إنما عاقب من تعاطى تخريب ذلك، فسكن الناس وأمنت النصارى وظهروا بعد ما كانوا قد اختفوا أياماً. وفيه ثارت الحرامية ببغداد ونهبوا سوق الثلاثاء وقت الظهر، فثار الناس وراءهم وقتلوا منهم قريباً من مائة وأسروا آخرين.

قال الشيخ علم الدين البرزالي ومن خطه نقلت: وفي يوم الأربعاء السادس من جمادى الأولى خرج القضاة والأعيان والمفتيون إلى القابون ووقفوا على قبلة الجامع الذي أمر ببنائه القاضي كريم الدين وكيل السلطان بالمكان المذكور، وحرروا قبلته واتفقوا على أن تكون مثل قبلة جامع دمشق. وفيه وقعت مراجعة من الأمير جوبان أحد المقدمين الكبار بدمشق، وبين نائب السلطنة تنكز، فمسك جوبان ورفع إلى القلعة ليلتين ثم حول إلى القاهرة فعوتب في ذلك، ثم أعطى خبزاً يليق به. وذكر علم الدين أن في هذا اليوم وقع حريق عظيم في القاهرة في الدور الحسنة والأماكن المليحة المرتفعة، وبعض المساجد، وحصل للناس مشقة عظيمة من ذلك، وقنتوا في الصلوات ثم كشفوا عن القضية فإذا هو من قبل النصارى بسبب ما كان أحرق من كنائسهم وهدم، فقتل السلطان بعضهم وألزم النصارى أن يلبسوا الزرقة على رؤوسهم وثيابهم

كلها، وأن يحملوا الأجراس في الحمامات، وأن لا يستخدموا في شيء من الجهات، فسكن الأمر وبطل الحريق.

وفي جمادى الآخرة خرب ملك التتار أبو سعيد البازارات وزوج الخواطىء وأراق الخمور وعاقب في ذلك أشد العقوبة، وفرح المسلمون بذلك ودعوا له رحمه الله وسامحه. وفي الثالث عشر من جمادى الآخرة أقيمت الجمعة بمسجد القصب وخطب به الشيخ علي المناخلي. وفي يوم الخميس تاسع عشر جمادى الآخرة فتح الحمام الذي أنشأه تنكز تجاه جامعه، وأكرى في كل يوم بأربعين درهماً لحسنه وكثرة ضوئه ورخامه. وفي يوم السبت تاسع عشر رجب خربت كنيسة القرائيين التي تجاه حارة اليهود بعد إثبات كونها محدثة وجاءت المراسيم السلطانية بذلك. وفي أواخر رجب نفذت الهدايا من السلطان إلى أبي سعيد ملك التتار، صحبة الخواجا مجد الدين السلامي، وفيها خمسون جملاً وخيول وحمار عتابي. وفي منتصف رمضان أقيمت الجمعة بالجامع الكريمي بالقابون وشهدها يومئذٍ القضاة والصاحب وجماعة من الأعيان. قال الشيخ علم الدين: وقدم دمشق الإمام قوام الدين أمير كاتب ابن الأمير العميد عمر الأكفاني القازاني، مدرس مشهد الإمام أبي حنيفة ببغداد، في أول رمضان، وقد حج في هذه السنة وتوجه إلى مصر وأقام بها أشهراً ثم مر بدمشق متوجهاً إلى بغداد فنزل بالخاتونية الحنفية، وهو ذو فنون وبحث وأدب وفقه، وخرج الركب الشامي يوم الاثنين عاشر شوال وأميره شمس الدين حمزة التركماني، وقاضيه نجم الدين الدمشقي. وفيها حج تنكز نائب الشام وفي صحبته جماعة من أهله، وقدم من مصر الأمير ركن الدين بيبرس الحاجب لينوب عنه إلى أن يرجع، فنزل بالنجيبية البرانية.

وممن حج فيها الخطيب جلال الدين القزويني وعز الدين حمزة بن القلانسي، وابن العز شمس الدين الحنفي، وجلال الدين بن حسام الدين الحنفي، وبهاء الدين بن علية، وعلم الدين البرزالي ودرس ابن جماعة بزاوية الشافعي يوم الأربعاء ثامن عشر شوال عوضاً عن شهاب الدين أحمد بن محمد الأنصاري لسوء تصرفه، وخلع على ابن جماعة، وحضر عنده من الأعيان والعامة ما نشأ به جمعية الجمعة وأشعلت له شموع كثيرة فرحاً بزوال المعزول.

قال البرزالي ومن خطه نقلت: وفي يوم الأحد سادس عشر شوال ذكر الدرس الإمام العلامة تقي الدين السبكي المحدث بالمدرسة الهكارية عوضاً عن ابن الأنصاري أيضاً، وحضر عنده جماعة منهم القونوي، وروى في الدرس حديث المتبايعين بالخيار، عن قاضي القضاة ابن جماعة وفي شوال عزل علاء الدين بن معبد عن ولاية البر وشد الأوقاف، وتولّى ولاية الولاة بالبلاد القبلية بحوران عوضاً عن بكتمر لسفره إلى الحجاز، وباشر أخوه بدر الدين شد الأوقاف، والأمير علم الدين الطرقشي ولاية البر مع شد الدواوين وتوجه ابن الأنصاري إلى حلب متولياً وكالة بيت المال عوضاً عن تاج الدين أخي شرف الدين يعقوب ناظر حلب، بحكم ولاية التاج المذكور ونظر الكرك.

وفي يوم عيد الفطر ركب الأمير تمرتاش بن جوبان نائب أبي سعيد على بلاد الروم في

قيسارية في جيش كثيف من التتار والتركمان والقرمان، ودخل بلاد سيس فقتل وسبى وحرق وخرب، وكان قد أرسل لنائب حلب الطنبغا ليجهز له جيوشاً ليكونون عوناً له على ذلك، فلم يمكنه ذلك بغير مرسوم السلطان.

وممن توفي فيها من الأعيان:

الشيخ الصالح المقري

بقية السلف عفيف الدين أبو محمد عبد الله بن عبد الحق بن عبد الله بن عبد الواحد بن علي القرشي المخزومي الدلاصي، شيخ الحرم بمكة، أقام فيه أزيد من ستين سنة، يقرىء الناس القرآن احتساباً، وكانت وفاته ليلة الجمعة الرابع عشر من المحرم بمكة، وله أزيد من تسعين سنة رحمه الله.

الشيخ الفاضل شمس الدين أبو عبد الله

محمد بن أبي بكر بن أبي القاسم الهمداني، أبوه الصالحي المعروف بالسكاكيني، ولد سنة خمس وثلاثين وستمائة بالصالحية، وقرأ بالروايات، واشتغل في مقدمة في النحو، ونظم قوياً وسمع الحديث، وخرج له ابن الفخر البعلبكي جزءاً عن شيوخه، ثم دخل في التشيع فقرأ على أبي صالح الحلي شيخ الشيعة، وصحب عدنان وقرأ عليه أولاده، وطلبه أمير المدينة النبوية الأمير منصور بن حماد فأقام عنده نحواً من سبع سنين، ثم عاد إلى دمشق وقد ضعف وثقل سمعه، وله سؤال في الخبر أجابه به الشيخ تقي الدين بن تيمية، وكّل فيه عنه غيره، وظهر له بعد موته كتاب فيه انتصار لليهود وأهل الأديان الفاسدة فغسله تقي الدين السبكي لما قدم دمشق قاضياً، وكان بخطه، ولما مات لم يشهد جنازته القاضي شمس الدين بن مسلم. توفي يوم الجمعة سادس عشرين صفر، ودفن بسفح قاسيون، وقتل ابنه قيماز على قذفه أمهات المؤمنين عائشة وغيرها رضي الله عنهن وقبّح قاذفهن.

وفي يوم الجمعة مستهل رمضان صلّي بدمشق على غائبين وهم: **الشيخ نجم الدين عبد الله بن محمد الأصفهاني**، توفي بمكة، وعلى جماعة توفوا بالمدينة النبوية منهم: **عبد الله بن أبي القاسم بن فرحون** مدرس المالكية بها، **والشيخ يحيى الكردي**، **والشيخ حسين المغربي السقا**.

الشيخ الإمام العالم علاء الدين

ابن علي بن سعيد بن سالم الأنصاري، إمام مشهد علي من جامع دمشق، كان بشوش الوجه متواضعاً حسن الصوت بالقراءة ملازماً لإقراء الكتاب العزيز بالجامع، وكان يؤم نائب السلطنة ولده العلامة، بهاء الدين محمد بن علي مدرس الأمينية، ومحتسب دمشق. توفي ليلة الاثنين رابع رمضان ودفن من الغد بسفح قاسيون.

الأمير حاجب الحجاب

زين الدين كتبغا المنصوري، حاجب دمشق، كان من خيار الأمراء وأكثرهم براً للفقراء

يحب الختم والمواعيد والموالد، وسماع الحديث، ويلزم أهله ويحسن إليهم كثيراً، وكان ملازماً لشيخنا أبي العباس بن تيمية كثيراً، وكان يحج ويتصدق، توفي يوم الجمعة آخر النهار ثامن عشرين شوال، ودفن من الغد بتربته قبلي القبيبات، وشهده خلق كثير وأثنوا عليه رحمه الله.

والشيخ بهاء الدين بن المقدسي والشيخ سعد الدين أبي زكريا يحيى المقدسي، والد الشيخ شمس الدين محمد بن سعد المحدث المشهور. وسيف الدين الناسخ المنادي على الكتب. والشيخ أحمد الحزام المقرىء على الجنائز، وكان يكرر على التنبيه، ويسأل عن أشياء منها ما هو حسن ومنها ما ليس بحسن.

ثم دخلت سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة [من الهجرة النبوية](١)

استهلت وأرباب الولايات هم المذكورون في التي قبلها، سوى والي البر بدمشق فإنه علم الدين طرقشي، وقد صرف ابن معبد إلى ولاية حوران لشهامته وصرامته وديانته وأمانته. وفي المحرم حصلت زلزلة شديدة بدمشق، وقى الله شرها، وقدم تنكز من الحجاز ليلة الثلاثاء حادي عشر المحرم، وكانت مدة غيبته ثلاثة أشهر، وقدم ليلاً لئلا يتكلف أحد لقدومه، وسافر نائب الغيبة عنه قبل وصوله بيومين لئلا يكلفه بهدية ولا غيرها، وقدم مغلطاي عبد الواحد الجحدار أحد الأمراء بمصر بخلعة سنية من السلطان لتنكز فلبسها وقبّل العتبة على العادة، وفي يوم الأربعاء سادس صفر درس الشيخ نجم الدين القفجازي بالظاهرية للحنفية، وهو خطيب جامع تنكز، وحضر عنده القضاة والأعيان، ودرس في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [النساء:٥٨] وذلك بعد وفاة القاضي شمس الدين بن العز الحنفي، توفي مرجعه من الحجاز، وباشر بعده نيابة القضاء عماد الدين الطرسوسي، وهو زوج ابنته، وكان ينوب عنه في حال غيبته، فاستمر بعده، ثم وُلّي الحكم بعده، مستنيبه فيها. وفيه قدم الخوارزمي حاجباً عوضاً عن كتبغا، وفي ربيع الأول قدم إلى دمشق الشيخ قوام الدين مسعود بن الشيخ برهان الدين محمد ابن الشيخ شرف الدين محمد الكرماني الحنفي، فنزل بالقصاعين وتردد إليه الطلبة ودخل إلى نائب السلطنة واجتمع به وهو شاب مولده سنة إحدى وسبعمائة وقد اجتمعت به، وكان عنده مشاركة في الفروع والأصول ودعواه أوسع من محصوله، وكانت لأبيه وجده مصنفات، ثم صار بعد مدة إلى مصر ومات بها كما سيأتي.

وفي ربيع الآخر تكامل فتح إياس ومعاملتها وانتزاعها من أيدي الأرمن، وأخذ البرج الأطلس وبينه وبينها في البحر رمية ونصف. فأخذه المسلمون بإذن الله وخربوه، وكانت أبوابه مطلية بالحديد والرصاص، وعرض سوره ثلاثة عشر ذراعاً بالنجار، وغنم المسلمون غنائم كثيرة جداً، وحاصروا كواره فقوي عليهم الحر والذباب، فرسم السلطان بعودهم، فحرقوا ما كان

---

(١) سقط في ط.

معهم من المجانيق وأخذوا حديدها وأقبلوا سالمين غانمين، وكان معهم خلق كثير من المتطوعين. وفي يوم الخميس الثالث والعشرين من جمادى الأولى كمل بسط داخل الجامع فاتسع على الناس، ولكن حصل حرج بحمل الأمتعة على خلاف العادة، فإن الناس كانوا يمرون وسط الرواق ويخرجون من باب البرادة، ومن شاء استمر يمشي إلى الباب الآخر بنعليه، ولم يكن ممنوعاً سوى المقصورة لا يمكن أحد الدخول إليها بالمداسات، بخلاف باقي الرواقات، فأمر نائب السلطنة بتكميل بسطه بإشارة ناظره ابن مراحل. وفي جمادى الآخرة رجعت العساكر من بلاد سيس ومقدمهم أقوش نائب الكرك. وفي أواخر رجب باشر القاضي محيي الدين إسماعيل بن جهبل نيابة الحكم عن ابن صصري عوضاً عن الداراني الجعفري، واستغنى الداراني بخطبة جامع العقيبة عنها. وفي ثالث رجب ركب نائب السلطنة إلى خدمة السلطان فأكرمه وخلع عليه، وعاد في أول شعبان ففرح به الناس. وفي رجب كملت عمارة الحمام الذي بناه الأمير علاء الدين بن صبيح جوار داره شمالي الشامية البرانية. وفي يوم الاثنين تاسع شعبان عقد الأمير سيف الدين أبو بكر بن أرغون نائب السلطنة عقده على ابنة السلطان الملك الناصر، وختن في هذا اليوم جماعة من أولاد الأمراء بين يديه، ومد سماطاً عظيماً، ونثرت الفضة على رؤوس المطهرين، وكان يوماً مشهوداً، ورسم السلطان في هذا اليوم بوضع المكس عن المأكولات بمكة، وعوض صاحبها عن ذلك بإقطاع في بلاد الصعيد.

وفي أواخر رمضان كملت عمارة الحمام الذي بناه بهاء الدين بن عليم[1] بزقاق الماجية من قاسيون بالقرب من سكنه، وانتفع به أهل تلك الناحية ومن جاورهم. وخرج الركب الشامي يوم الخميس ثامن شوال وأميره سيف الدين بلبطي نائب الرحبة، وكان سكنه داخل باب الجابية بدرب ابن صبرة، وقاضيه شمس الدين بن النقيب قاضي حمص.

وممن توفي فيها من الأعيان:

القاضي [الإمام][2] شمس الدين بن العز الحنفي

أبو عبد الله محمد ابن الشيخ شرف الدين أبي البركات محمد ابن الشيخ عز الدين أبي العز صالح بن أبي العز بن وهيب بن عطاء بن جبير بن كابن بن وهيب الأذرعي الحنفي، أحد مشايخ الحنفية وأئمتهم وفضلائهم في فنون من العلوم متعددة، حكم نيابة نحواً من عشرين سنة، وكان سديد الأحكام محمود السيرة جيد الطريقة كريم الأخلاق، كثير البر والصلة والإحسان إلى أصحابه وغيرهم، وخطب في جامع الأفرم مدة، وهو أول من خطب به، ودرس بالمعظمية واليغمورية والقليجية والظاهرية، وكان ناظر أوقافها، وأذن للناس بالإفتاء، وكان كبيراً معظماً مهيباً، توفي بعد مرجعه من الحج بأيام قلائل، يوم الخميس سلخ المحرم، وصلّي عليه يومئذٍ بعد الظهر بجامع الأفرم ودفن عند المعظمية عند أقاربه، وكانت جنازته حافلة، وشهد له الناس بالخير وغبطوه لهذه الموتة رحمه الله. ودرس بعده في الظاهرية نجم الدين

---

(١) في ط: عليمة. (٢) سقط في ط.

القفجازي، وفي المعظمية والقليجية والخطابة بجامع الأفرم ابنه علاء الدين، وباشر بعده نيابة الحكم القاضي عماد الدين الطرسوسي، مدرس القلعة.

الشيخ الإمام العالم أبو إسحاق

بقية السلف رضي الدين **أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن محمد بن إبراهيم الطبري المكي الشافعي**، إمام المقام أكثر من خمسين سنة، سمع الحديث من شيوخ بلده والواردين إليها ولم يكن له رحلة، وكان يفتي الناس من مدة طويلة، ويذكر أنه اختصر شرح السنة للبغوي. توفي يوم السبت بعد الظهر ثامن ربيع الأول بمكة، ودفن من الغد، وكان من أئمة المشايخ.

شيخنا العلامة الزاهد ركن الدين

بقية السلف **ركن الدين أبو يحيى زكريا بن يوسف بن سليمان بن حماد البجلي الشافعي**، نائب الخطابة، ومدرس الطيبية والأسدية، وله خلقة للاشتغال بالجامع، يحضر بها عنده الطلبة، كان يشتغل في الفرائض وغيرها، مواظباً على ذلك، توفي يوم الخميس الثالث والعشرين من جمادى الأولى عن سبعين[١] سنة، ودفن قريباً من شيخه العلامة تاج الدين الفزاري رحمهما الله.

نصير الدين

أبو محمد عبد الله بن وجيه الدين أبي عبد الله محمد بن علي بن أبي طالب بن سويد بن معالي بن محمد بن أبي بكر الربعي التغلبي التكريتي، أحد صدور دمشق، قدم أبوه قبله إليها وعظم في أيام الظاهر وقبله، وكان مولده في حدود خمسين وستمائة، ولهم الأموال الكثيرة والنعمة الباذخة، توفي يوم الخميس عشرين رجب، ودفن بتربتهم بسفح قاسيون رحمه الله.
وفي يوم الأحد حادي عشر شوال توفي.

شمس الدين محمد بن المغربي

التاجر السفار، باني خان الصنمين الذي على جادة الطريق للسبيل رحمه الله وتقبّل منه، وهو في أحسن الأماكن وأنفعها.

الشيخ الجليل [الزاهد][٢] نجم الدين

أبو عبد الله الحسين بن محمد بن إسماعيل القرشي، المعروف بابن عنقود[٣] المصري، كانت له وجاهة وإقدام على الدولة، توفي بكرة الجمعة ثالث عشرين شوال، ودفن بزاويته، وقام بعده فيها ابن أخيه.

---

(١) في ط: سبع وستين.
(٢) سقط في ط.
(٣) في ط: عبود.

شمس الدين محمد بن الحسن

ابن الشيخ الفقيه محيي الدين أبو الهدى أحمد ابن الشيخ شهاب الدين أبي شامة، ولد سنة ثلاث وخمسين وستمائة فأسمعه أبوه على المشايخ وقرأ القرآن واشتغل بالفقه وكان ينسخ ويكثر التلاوة ويحضر المدارس والسبع الكبير، توفي في سابع عشرين شوال، ودفن عند والده بمقابر باب الفراديس.

الشيخ العابد جلال الدين

أبو إسحاق إبراهيم بن زين الدين محمد بن أحمد بن محمود بن محمد العقيلي المعروف بابن القلانسي، ولد سنة أربع وخمسين وستمائة، وسمع على ابن عبد الدائم جزء ابن عرفة، ورواه غير مرة، وسمع على غيره أيضاً، واشتغل بصناعة الكتابة والإنشاء ثم انقطع وترك ذلك كله وأقبل على العبادة والزهادة، وبنى له الأمراء بمصر زاوية وترددوا إليه، وكان فيه بشاشة وفصاحة، وكان ثقيل السمع، ثم انتقل إلى القدس وقدم دمشق مرة فاجتمع به الناس وأكرموه، وحدث بها ثم عاد إلى القدس، وتوفي بها ليلة الأحد ثالث ذي القعدة، ودفن بمقابر ماملي رحمه الله، وهو خال المحتسب عز الدين القلانسي، وهذا خال الصاحب تقي الدين بن مراحل.

الشيخ الإمام قطب الدين

محمد بن عبد الصمد بن عبد القادر السنباطي المصري، اختصر الروضة وصنف كتاب التعجيز، ودرس بالفاضلية، وناب في الحكم بمصر، وكان من أعيان الفقهاء، توفي يوم الجمعة رابع عشر ذي الحجة عن سبعين سنة، وحضر بعده تدريس الفاضلية ضياء الدين المنادي، نائب الحكم بالقاهرة وحضر عنده ابن جماعة، والأعيان والله أعلم.

ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة [من الهجرة النبوية][(1)]

استهلت بيوم الأحد في كانون الأصم، والحكام هم المذكورون في التي قبلها، غير أن والي البر بدمشق هو الأمير علاء الدين علي بن الحسن المرواني، باشرها في صفر من السنة الماضية. وفي صفر من هذه السنة باشر ولاية المدينة الأمير شهاب الدين بن برق[(2)] عوضاً عن صارم الدين الجوكندار وفي صفر عوفي القاضي كريم الدين وكيل السلطان من مرض كان قد أصابه، فزينت القاهرة وأشعلت له الشموع وجمع الفقراء بالمارستان المنصوري ليأخذوا من صدقته، فمات بعضهم من الزحام في سلخ ربيع الأول، ودرس الإمام العلامة المحدث تقي الدين السبكي الشافعي بالمنصورية بالقاهرة عوضاً عن القاضي جمال الدين الزرعي، بمقتضى انتقاله إلى دمشق، وحضر عنده علاء الدين شيخ الشيوخ القونوي الشافعي عوضاً عن النجم بن صصري، في يوم الجمعة رابع جمادى الأولى، فنزل العادلية وقد قدم على القضاة ومشيخة الشيوخ وقضاء العساكر وتدريس العادلية والغزالية والأتابكية.

---

(١) سقط في ط.

(٢) في ط: برق.

وفي يوم الأحد مسك القاضي كريم الدين بن عبد الكريم بن هبة الله بن الشديد وكيل السلطان وكان قد بلغ من المنزلة والمكانة عند السلطان ما لم يصل إليه غيره من الوزراء الكبار، واحتيط على أمواله وحواصله، ورسم عليه عند نائب السلطنة، ثم رسم له أن يكون بتربته التي بالقرافة، ثم نفي إلى الشوبك وأنعم عليه بشيء من المال، ثم أذن له بالإقامة بالقدس الشريف برباطه. ومسك ابن أخيه كريم الدين الصغير ناظر الدواوين، وأخذت أمواله وحبس في البرج وفرح العامة بذلك ودعوا للسلطان بسبب مسكهما، ثم أخرج إلى صفت. وطلب من القدس أمين الملك عبد الله فولي الوزارة بمصر، وخلع عليه عوداً على بدء، وفرح العامة بذلك وأشعلوا له الشموع، وطلب الصاحب بدر الدين غبريال من دمشق فركب ومعه أموال كثيرة، ثم خول أموال كريم الدين الكبير، وعاد إلى دمشق مكرماً، وقدم القاضي معين الدين بن الحشيشي على نظر الجيوش الشامية عوضاً عن القطب ابن شيخ السلامية عزل عنها، ورسم عليه في العذراوية نحواً من عشرين يوماً ثم أذن له في الانصراف إلى منزله مصروفاً عنها.

وفي جمادى الأولى عزل طرقشي عن شد الدواوين وتولاها الأمير بكتمر. وفي ثاني جمادى الآخرة باشر ابن جهبل نيابة الحكم عن الزرعي، وكان قد باشر قبلها بأيام نظر الأيتام عوضاً عن ابن هلال. وفي شعبان أعيد الطرقشي إلى الشد وسافر بكتمر إلى نيابة الاسكندرية، فكان بها إلى أن توفي. وفي رمضان قدم جماعة من حجاج الشرق وفيهم بنت الملك أبغا بن هولاكو، وأخت أرغون وعمة قازان وخربندا، فأكرمت وأنزلت بالقصر الأبلق، وأجريت عليها الإقامات والنفقات إلى أوان الحج، وخرج الركب يوم الاثنين ثامن شوال وأميره قطلجا الأبو بكري، الذي بالقصاعين وقاضي الركب شمس الدين قاضي القضاة ابن مسلم الحنبلي، وحج معهم جمال الدين المزي، وعماد الدين بن السيرجي، وأمين الدين الوافي، وفخر الدين البعلبكي، وجماعة، وفوض الكلام في ذلك إلى شرف الدين بن سعد الدين بن نجيح، كذا أخبرني شهاب الدين الظاهري. ومن المصريين قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة وولده عز الدين وفخر الدين كاتب المماليك، وشمس الدين الحارثي، وشهاب الدين الأذرعي، وعلاء الدين الفارسي.

وفي شوال باشر تقي الدين السبكي مشيخة دار الحديث الظاهرية بالقاهرة بعد وفاة زكي الدين المنادي ويقال له عبد العظيم ابن الحافظ شرف الدين الدمياطي، ثم انتزعت من السبكي لفتح الدين ابن سيد الناس اليعمري، باشرها في ذي القعدة. وفي يوم الخميس مستهل ذي الحجة خلع على قطب الدين ابن شيخ السلامية وأعيد إلى نظر الجيش مصاحباً لمعين الدين بن الحشيشي، ثم بعد مدة مديدة استقل قطب الدين بالنظر وحده وعزل ابن حشيش.

ومن توفي فيها من الأعيان:

الإمام المؤرخ كمال الدين الفوطي[1]

أبو الفضل عبد الرزاق بن أحمد بن محمد بن أحمد بن الفوطي[1]، عمر بن أبي

---

(١) في ط: الغوطي.

المعالي الشيباني البغدادي، المعروف بابن الفوطي[١]، وهو جده لأمه، ولد سنة اثنتين وأربعين وستمائة ببغداد، وأسر في واقعة التتر ثم تخلص من الأسر، فكان مشارفاً على الكتب بالمستنصرية، وقد صنّف تاريخاً في خمسة وخمسين مجلداً، وآخر في نحو عشرين، وله مصنفات كثيرة، وشعر حسن، وقد سمع الحسن من محيي الدين بن الجوزي، وتوفي ثالث المحرم ودفن بالشونيزية.

قاضي القضاة نجم الدين بن صصري

أبو العباس أحمد ابن العدل عماد الدين بن محمد ابن العدل أمين الدين سالم ابن الحافظ المحدث بهاء الدين أبي المواهب بن هبة الله بن محفوظ بن الحسن بن الحسن بن محمد بن الحسن بن أحمد بن محمد بن صصري التغلبي الربعي الشافعي قاضي القضاة بالشام، ولد في ذي القعدة سنة خمس وخمسين وستمائة، وسمع الحديث واشتغل وحصل وكتب عن القاضي شمس الدين بن خلكان وفيات الأعيان، وسمعها عليه، وتفقه بالشيخ تاج الدين الفزاري، وعلى أخيه شرف الدين في النحو، وكان له يد في الإنشاء وحسن العبارة، ودرس بالعادلية الصغيرة سنة ثنتين وثمانين، وبالأمينية سنة تسعين، وبالغزالية سنة أربع وتسعين، وتولى قضاء العساكر في دولة العادل كتبغا، ثم تولى قضاء الشام سنة ثنتين وسبعمائة، بعد ابن جماعة حين طلب لقضاء مصر، بعد ابن دقيق العيد. ثم أضيف إليه مشيخة الشيوخ مع تدريس العادلية والغزالية والأتابكية، وكلها مناصب دنيوية انسلخ منها وانسلخت منه، ومضى عنها وتركها لغيره، وأكبر أمنيته بعد وفاته أنه لم يكن تولاّها وهي متاع قليل من حبيب مفارق، وقد كان رئيساً محتشماً وقوراً كريماً جميل الأخلاق، معظماً عند السلطان والدولة، توفي فجأة ببستانه بالسهم ليلة الخميس سادس عشر ربيع الأول وصلّي عليه بالجامع المظفري، وحضر جنازته نائب السلطنة والقضاة والأمراء والأعيان، وكانت جنازته حافلة ودفن بتربتهم عند الركنية.

[الصدر الكبير][٢] علاء الدين علي بن محمد

ابن عثمان بن أحمد بن أبي المنى بن محمد بن نحلة الدمشقي الشافعي، ولد سنة ثمان وخمسين وستمائة وقرأ المحرر، ولازم الشيخ زين الدين الفارقي ودرس بالدولعية والركنية، وكان ناظر بيت المال، وابتنى داراً حسنة إلى جانب الركنية، ومات وتركها في ربيع الأول، ودرس بعده بالدولعية القاضي جمال الدين بن جملة، وبالركنية القاضي ركن الدين الخراساني.

وفي ربيع الأول قتل:

الشيخ ضياء الدين

عبد الله الزربندي النحوي، كان قد اضطرب عقله فسافر من دمشق إلى القاهرة فأشار شيخ الشيوخ القونوي فأودع بالمارستان فلم يوافق ثم دخل إلى القلعة وبيده سيف مسلول فقتل

(١) في ط: الغوطي.

(٢) سقط في ط.

نصرانياً، فحمل إلى السلطان وظنوه جاسوساً فأمر بشنقه فشنق، وكنت ممن اشتغل عليه في النحو.

الشيخ الصالح المقري الفاضل

شهاب الدين أحمد بن الطبيب بن عبد الله الحلي العزيزي الفوارسي المعروف بابن الحلبية، سمع من خطيب مرداد ابن عبد الدائم، واشتغل وحصل وأقرأ الناس، وكانت وفاته في ربيع الأول عن ثمان وسبعين سنة، ودفن بالسفح.

[الصدر][1] شهاب الدين أحمد بن محمد

ابن قطنية الذرعي التاجر المشهور بكثرة الأموال والبضائع والمتاجر، قيل بلغت زكاة ماله في سنة قازان خمسة وعشرين ألف دينار، وتوفي في ربيع الآخر من هذه السنة، ودفن بتربته التي بباب بستانه المسمى بالمرفع عند ثورا، في طريق القابون، وهي تربة هائلة، وكانت له أملاك.

القاضي الإمام جمال الدين

أبو بكر بن عباس بن عبد الله الخابوري، قاضي بعلبك، وأكبر أصحاب الشيخ تاج الدين الفزاري، قدم من بعلبك ليلتقي بالقاضي الذرعي فمات بالمدرسة البادرانية ليلة السبت سابع جمادى الأولى ودفن بقاسيون، وله من العمر سبعون سنة أضغاث حلم.

الشيخ المعمر المسن جمال الدين

عمر بن الياس بن الرشيد البعلبكي التاجر، ولد سنة ثنتين وستمائة وتوفي في ثاني عشر جمادى الأولى عن مائة وعشرين سنة، ودفن بمطحا رحمه الله.

الشيخ الإمام المحدث

صفي الدين أبو الثناء محمود بن أبي بكر بن محمد الحسني بن يحيى بن الحسين الأرموي، الصوفي، ولد سنة ست وأربعين وستمائة، وسمع الكثير ورحل وطلب وكتب الكثير، وذيل على النهاية لابن الأثير، وكان قد قرأ التنبيه واشتغل في اللغة فحصّل منها طرفاً جيداً، ثم اضطرب عقله في سنة سبع وتسعين وغلبت عليه السوداء، وكان يفيق منها في بعض الأحيان فيذاكر صحيحاً ثم يعترضه المرض المذكور، ولم يزل كذلك حتى توفي في جمادى الآخرة من هذه السنة في المارستان النوري، ودفن بباب الصغير.

الخاتون المصونة

خاتون بنت الملك الصالح إسماعيل، بن العادل بن أبي بكر بن أيوب بن شادي بدارها. وتعرف بدار كافور، كانت رئيسة محترمة، ولم تتزوج قط، وليس في طبقتها من بني أيوب

---

(١) سقط في ط.

غيرها في هذا الحين، توفيت يوم الخميس الحادي والعشرين من شعبان، ودفنت بتربة أم الصالح رحمهما الله.

شيخنا الجليل المعمر الرحلة بهاء الدين

أبو القاسم ابن الشيخ بدر الدين أبي غالب المظفر بن نجم الدين بن أبي الثناء محمود ابن الإمام تاج الأمناء أبي الفضل أحمد بن محمد بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين بن عساكر الدمشقي الطبيب المعمر، ولد سنة تسع وعشرين وستمائة، سمع حضوراً وسماعاً على الكثير من المشايخ الكثيرين، وقد خرج له الحافظ علم الدين البرزالي مشيخة سمعناها عليه في سنة وفاته، وكذلك خرج له الحافظ صلاح الدين العلائي عوالي من حديثه، وكتب له المحدث المفيد ناصر الدين بن طغريل مشيخة في سبعة مجلدات تشتمل على خمسمائة وسبعين شيخاً، سماعاً وإجازة، وقرئت عليه فسمعها الحفاظ وغيرهم. **قال** البرزالي: وقد قرأت عليه ثلاثة وعشرين مجلداً بحذف المكررات. ومن الأجزاء خمسمائة وخمسين جزء بالمكررات، قال: وكان قد اشتغل بالطب، وكان يعالج الناس بغير أجرة، وكان يحفظ كثيراً من الأحاديث والحكايات والأشعار، وله نظم، وخدم من عدة جهات الكتابة، ثم ترك ذلك ولزم بيته وإسماع الحديث، وتفرد في آخر عمره بأشياء كثيرة، وكان سهلاً في التسميع؛ ووقف آخر عمره داره دار حديث، وخص الحافظ البرزالي والمزي بشيء من بره، وكانت وفاته يوم الاثنين وقت الظهر خامس وعشرين شعبان، ودفن بقاسيون رحمه الله.

[الصدر الكبير](١) الوزير ثم الأمير نجم الدين

محمد ابن الشيخ فخر الدين بن عثمان بن أبي القاسم البصراوي الحنفي، درس ببصرى بعد عمه القاضي صدر الدين الحنفي، ثم ولي الحسبة بدمشق ونظر الخزانة، ثم ولي الوزارة، ثم سأل الإقالة منها فعوض بأمرية عشرة عنها بإقطاع هائل، وعومل في ذلك معاملة الوزراء في حرمته ولبسته، حتى كانت وفاته ببصرى يوم الخميس ثاني عشرين شعبان، ودفن هناك، وكان كريماً ممدحاً وهاباً نهاباً كثير الصدقة والإحسان إلى الناس، ترك أموالاً وأولاداً ثم تفانوا كلهم بعده وتفرقت أمواله، ونكحت نساؤه وسكنت منازله.

الأمير صارم الدين إبراهيم بن قراسنقر الجوكندار

مشد الخاص، ثم ولي دمشق ولاية ثم عزل عنها قبل موته بستة أشهر، توفي تاسع رمضان ودفن بتربته المشرقة البيضاء شرقي مسجد التاريخ كان قد أعدها لنفسه.

الشيخ أحمد الأعقف الحريري

شهاب الدين أحمد بن حامد بن سعيد التنوخي الحريري، ولد سنة أربع وأربعين

---

(١) سقط في ط.

وستمائة، واشتغل في صباه على الشيخ تاج الدين الفزاري في التنبيه، ثم صحب الحريرية وخدمهم ولزم مصاحبة الشيخ نجم الدين بن إسرائيل، وسمع الحديث، وحج غير مرة، وكان مليح الشكل كثير التودد إلى الناس، حسن الأخلاق، توفي يوم الأحد الثالث والعشرين من رمضان بزاويته بالمزة، ودفن بمقبرته بالمزة، وكانت جنازته حافلة.

وفي يوم الجمعة ثامن عشرين رمضان صلّى بدمشق على غائب وهو الشيخ هارون المقدسي توفي ببعلبك في العشر الأخير من رمضان، وكان صالحاً مشهوراً عند الفقراء، وفي يوم الخميس ثالث ذي القعدة توفي.

الشيخ المقري أبو عبد الله

محمد بن إبراهيم بن يوسف بن عصر الأنصاري القصري ثم السبتي بالقدس، ودفن بماملى، وكانت له جنازة حافلة حضرها كريم الدين والناس مشاة، ولد سنة ثلاث وخمسين وستمائة، وكان شيخاً مهيباً أحمر اللحية من الحناء، اجتمعت به وبحثت معه في هذه السنة حين زرت القدس الشريف، وهي أول زيارة زرته، وكان مالكي المذهب، وقد قرأ الموطأ في ثمانية أشهر، وأخذ النحو عن الأستاذ أبي الربيع شارح الجمل للزجاجي من طريق شريح.

شيخنا الأصيل شمس الدين

أبو النصر بن محمد بن عماد الدين أبي الفضل محمد بن شمس الدين أبي نصر محمد بن هبة الله بن محمد بن يحيى بن بندار بن مميل[1] **الشيرازي**، مولده في شوال سنة تسع وعشرين وستمائة، وسمع الكثير وأسمع وأفاد في علية شيخنا المزي تغمده الله برحمته، قرأ عليه عدة أجزاء بنفسه أثابه الله، وكان شيخاً حسناً خيّراً مباركاً متواضعاً، يذهب الربعات والمصاحف، له في ذلك يد طولى، ولم يتدنس بشيء من الولايات، ولا تدنس بشيء من وظائف المدارس ولا الشهادات، إلى أن توفي في يوم عرفة ببستانه من المزة، وصلّي عليه بجامعها ودفن بتربتها رحمه الله.

الشيخ الصالح العابد الناسك

أبو بكر بن أيوب بن سعد الذرعي الحنبلي، قيم الجوزية، كان رجلاً صالحاً متعبداً قليل التكلف، وكان فاضلاً، وقد سمع شيئاً من دلائل النبوة عن الرشيدي العامري، توفي فجأة ليلة الأحد تاسع عشر ذي الحجة بالمدرسة الجوزية، وصلّي عليه بعد الظهر بالجامع، ودفن بباب الصغير وكانت جنازته حافلة، وأثنى عليه الناس خيراً رحمه الله، وهو والد العلامة شمس الدين محمد بن قيم الجوزية صاحب المصنفات الكثيرة النافعة الكافية.

الأمير علاء الدين بن شرف الدين

محمود بن إسماعيل بن معبد البعلبكي، أحد أمراء الطبلخانات، كان والده تاجراً ببعلبك

---

(١) في ط: ممل.

فنشأ ولده هذا واتصل بالدولة، وعلت منزلته، حتى أُعطي طبلخانة وباشر ولاية البريد بدمشق مع شد الأوقاف ثم صرف إلى ولاية الولاة بحوران، فاعتراه مرض، وكان سبط البدن عبله، فسأل أن يقال فأجيب فأقام ببستانه بالمزة إلى أن توفي في خامس عشرين ذي الحجة، وصلّي عليه هناك، ودفن بمقبرة المزة، وكان من خيار الأمراء وأحسنهم، مع ديانة وخير سامحه الله. وفي هذا اليوم توفي.

الفقيه العابد [الزاهد](١) الناسك شرف الدين الحراني

أبو عبد الله محمد بن محمد بن سعد الله بن عبد الأحد بن سعد الله بن عبد القاهر بن عبد الواحد بن عمر الحراني، المعروف بابن النجيح، توفي في وادي بني سالم، فحمل إلى المدينة فغسل وصلّي عليه في الروضة ودفن بالبقيع شرقي قبر عقيل، فغبطه الناس بهذه الموتة وهذا القبر، رحمه الله، وكان ممن غبطه الشيخ شمس الدين بن مسلم قاضي الحنابلة، فمات بعده ودفن عنده وذلك بعده بثلاث سنين رحمهما الله. وجاء يوم حضر جنازة الشيخ شرف الدين محمد المذكور شرف الدين بن أبي العز الحنفي قبل ذلك بجمعة. مرجعه من الحج بعد انفصاله عن مكة بمرحلتين فغبط الميت المذكور بتلك الموتة فرزق مثلها بالمدينة، وقد كان شرف الدين بن نجيح هذا قد صحب شيخنا العلامة تقي الدين بن تيمية، وكان معه في مواطن كبار صعبة لا يستطيع الإقدام عليها إلا الأبطال الخلص الخواص، وسجن معه، وكان من أكابر خدّامه وخواص أصحابه، ينال فيه الأذى وأوذي بسببه مرات، وكلما مرّ يوم كان يزداد حباً له فيه وصبراً على أذى أعدائه، وقد كان هذا الرجل في نفسه وعند الناس جيداً مشكور السيرة جيد العقل والفهم، عظيم الديانة والزهد، ولهذا كانت عاقبته هذه الموتة عقيب الحج، وصلّي عليه بروضة مسجد رسول الله ﷺ؛ ودفن بالبقيع بقيع الغرقد(٢) بالمدينة النبوية، فختم له بصالح عمله، وقد كان كثير من السلف يتمنى أن يموت عقيب عمل صالح يعمله، وكانت له جنازة حافلة رحمه الله تعالى، والله سبحانه أعلم.

ثم دخلت سنة أربع وعشرين وسبعمائة

استهلت والحكام هم المذكورون في التي قبلها: الخليفة المستكفي بالله أبو الربيع سليمان بن الحاكم بأمر الله العباسي، وسلطان البلاد الملك الناصر، ونائبه بمصر سيف الدين أرغون ووزيره أمين الملك، وقضاته بمصر هم المذكورون في التي قبلها، ونائبه بالشام تنكز، وقضاة الشام الشافعي جمال الدين الذرعي، والحنفي الصدر علي البصراوي، والمالكي شرف الدين الهمداني، والحنبلي شمس الدين بن مسلم، وخطيب الجامع الأموي جلال الدين القزويني، ووكيل بيت المال جمال الدين بن القلانسي، ومحتسب البلد فخر الدين بن شيخ

(١) سقط في ط.

(٢) في الأصل: الفرقد.

السلامية، وناظر الدواوين شمس الدين غبريال ومشد الدواوين علم الدين طرقشي، وناظر الجيش قطب الدين ابن شيخ السلامية، ومعين الدين بن الحشيش، وكاتب السر شهاب الدين محمود، ونقيب الأشراف شرف الدين بن عدنان، وناظر الجامع بدر الدين بن الحداد، وناظر الخزانة عز الدين بن القلانسي، ووالي البر علاء الدين بن المرواني، ووالي دمشق شهاب الدين بن برق.

وفي خامس عشرين ربيع الأول باشر عز الدين بن القلانسي الحسبة عوضاً عن ابن شيخ السلامية مع نظر الخزانة، وفي هذا الشهر حمل كريم الدين وكيل السلطان من القدس إلى الديار المصرية فاعتقل ثم أخذت منه أموال وذخائر كثيرة، ثم نفي إلى الصعيد وأجري عليه نفقات سلطانية له ولمن معه من عياله، وطلب كريم الدين الصغير وصودر بأموال جمة. وفي يوم الجمعة الحادي عشر من ربيع الآخر قرىء كتاب السلطان بالمقصورة من الجامع الأموي بحضرة نائب السلطنة والقضاة، يتضمن إطلاق مكس الغلة بالشام المحروس جميعه، فكثرت الأدعية للسلطان، وقدم البريد إلى نائب الشام يوم الجمعة عشرين ربيع الآخر بعزل قاضي الشافعية الذرعي، فبلغه ذلك فامتنع بنفسه من الحكم، وأقام بالعادلية بعد العزل خمسة عشر يوماً ثم انتقل منها إلى الأتابكية، واستمرت بيده مشيخة الشيوخ وتدريس الأتابكية، واستدعى نائب السلطنة شيخنا الإمام الزاهد برهان الدين الفزاري، فعرض عليه القضاء فامتنع، فألح عليه بكل ممكن وخرج من عنده فأرسل في أثره أعيان الناس إلى مدرسته فدخلوا عليه بكل حيلة فامتنع من قبول الولاية. وصمم أشد التصميم، جزاه الله خيراً عن مروءته فلما كان يوم الجمعة قدم البريد فأخبر بتوليته قضاء الشام، وفي هذا اليوم خلع على تقي الدين سليمان بن مراجل بنظر الجامع عوضاً عن بدر الدين بن الحداد توفي، وأخذ من ابن مراجل نظر المارستان الصغير لبدر الدين بن العطار، وخسف القمر ليلة الخميس للنصف من جمادى الآخرة بعد العشاء، فصلى الخطيب صلاة الكسوف بأربع سور: ق، واقتربت، والواقعة، والقيامة، ثم صلى العشاء ثم خطب بعدها ثم أصبح فصلى بالناس الصبح ثم ركب على البريد إلى مصر فرزق من السلطان فتولاّه وولاّه بعد أيام القضاء ثم كر راجعاً إلى الشام فدخل دمشق في خامس رجب على القضاء مع الخطابة وتدريس العادلية والغزالية، فباشر ذلك كله، وأخذت منه الأمينية فدرس فيها جمال الدين بن القلانسي، مع وكالة بيت المال، وأضيف إليه قضاء العساكر وخوطب بقاضي القضاة جلال الدين القزويني.

وفيها قدم ملك التكرور إلى القاهرة بسبب الحج في خامس عشرين رجب، فنزل بالقرافة ومعه من المغاربة والخدم نحو من عشرين ألفاً، ومعهم ذهب كثير بحيث إنه نزل سعر الذهب درهمين في كل مثقال، ويقال له الملك الأشرف موسى بن أبي بكر، وهو شاب جميل الصورة، له مملكة متسعة مسيرة ثلاث سنين، ويذكر أن تحت يده أربعة وعشرين ملكاً، كل ملك تحت يده خلق وعساكر، ولما دخل قلعة الجبل ليسلم على السلطان أمر بتقبيل الأرض فامتنع من ذلك، فأكرمه السلطان، ولم يمكن من الجلوس أيضاً حتى خرج من بين يدي

السلطان فأحضر له حصان أشهب بزناري أطلس أصفر، وهيئت له هجن وآلات كثيرة تليق بمثله، وأرسل هو إلى السلطان أيضاً بهدايا كثيرة من جملتها أربعون ألف دينار، إلى النائب بنحو عشرة آلاف دينار، وتحف كثيرة.

وفي شعبان ورمضان زاد النيل بمصر زيادة عظيمة، لم ير مثلها من نحو مائة سنة أو أزيد منها ومكث على الأراضي نحو ثلاثة أشهر ونصف، وغرق أقصاباً كثيرة، ولكن كان نفعه أعظم من ضره. وفي يوم الخميس ثاني عشر شعبان استناب القاضي جلال الدين القزويني نائبين في الحكم، وهما يوسف بن إبراهيم بن جملة المحجي الصالحي، وقد ولي القضاء فيما بعد ذلك كما سيأتي، ومحمد بن علي بن إبراهيم المصري، وحكما يومئذٍ بالعادلية ومن الغد جاء بريدي ومعه تقليد قضاء حلب للشيخ كمال الدين بن الزملكاني، فاستدعاه نائب السلطنة وفاوضه في ذلك فامتنع، فراجعه النائب ثم راجع السلطان فجاء البريد في ثاني عشر رمضان بإمضاء الولاية فشرع للتأهب لبلاد حلب، وتمادى في ذلك حتى كان خروجه إليها في بكرة يوم الخميس رابع عشر شوال، ودخل حلب يوم الثلاثاء سادس عشرين شوال فأكرم إكراماً زائداً، ودرس بها وألقى علوماً أكبر من تلك البلاد، وحصل لهم الشرف بفنونه وفوائده، وحصل لأهل الشام الأسف على دروسه الأنيقة الفائقة، وما أحسن ما قال الشاعر وهو شمس الدين محمد الحناط[1] في قصيدة له مطولة أولها قوله:

أَسِفَتْ لِفَقْدِكَ جُلَّقُ الْفَيْحَاءُ وَتَبَاشَرَتْ بِقُدُومِكَ الشَّهْبَاءُ

وفي ثاني عشر رمضان عزل أمين الملك عن وزارة مصر وأضيفت الوزارة إلى الأمير علاء الدين مغلطاي الجمالي، أستاذ دار السلطان. وفي أواخر رمضان طلب الصاحب شمس الدين غبريال إلى القاهرة وتولى بها نظر الدواوين عوضاً عن كريم الدين الصغير، وقدم كريم الدين المذكور إلى دمشق في شوال، فنزل بدار العدل من القصاعين. وولّي سيف الدين قديدار ولاية مصر، وهو شهم سفاك للدماء، فأراق الخمور وأحرق الحشيشة وأمسك الشطار، واستقامت به أحوال القاهرة ومصر، وكان هذا الرجل ملازماً لابن تيمية مدة مقامه بمصر.

وفي رمضان قدم إلى دمشق الشيخ نجم الدين عبد الرحيم بن الشحام الموصلي من بلاد السلطان أزبك، وعنده فنون من علم الطب وغيره، ومعه كتاب بالوصية به فأُعطي تدريس الظاهرية البرانية نزل له عنها جمال الدين بن القلانسي، فباشرها في مستهل ذي الحجة، ثم درس بالجاروخية. وخرج الركب في تاسع شوال وأميره كوكنجيار المحمدي، وقاضيه شهاب الدين الظاهري. وممن خرج إلى الحج برهان الدين الفزاري، وشهاب الدين قرطاي الناصري نائب طرابلس، وصاروجا وشهري وغيرهم. وفي نصف شوال زاد السلطان في عدة الفقهاء بمدرسته الناصرية، كان فيها من كل مذهب ثلاثون ثلاثون، فزادهم إلى أربعة وخمسين من كل مذهب، وزادهم في الجوامك أيضاً. وفي الثالث والعشرين منه وجد كريم الدين الكبير وكيل

---

(١) في ط: الخياط.

السلطان قد شنق نفسه داخل خَزانة له قد أغلقها عليه من داخل، وربط حلقه في حبل وكان تحت رجليه قفص فدفع القفص برجليه فمات في مدينة أسوان، وستأتي ترجمته.

وفي سابع عشر ذي القعدة زُيِّنت دمشق بسبب عافية السلطان من مرض كان قد أشرف(١) منه على الموت، وفي ذي القعدة درس جمال الدين بن القلانسي بالظاهرية الجوانية عوضاً عن ابن الزملكاني، سافر على قضاء حلب، وحضر عنده القاضي القزويني، وجاء كتاب صادق من بغداد إلى المولى شمس بن حسان يذكر فيه أن الأمير جوبان أعطى الأمير محمد حسيناه قدحاً فيه خمر ليشربه، فامتنع من ذلك أشد الامتناع، فألح عليه وأقسم فأبى أشد الإباء، فقال له إن لم تشربها كُلِّفْتَ أن تحمل ثلاثين توماناً، فقال نعم أحمل ولا أشربها، فكتب عليه حجة بذلك، وخرج من عنده إلى أمير آخر يقال له بكتي، فاستقرض منه ذلك المال ثلاثين توماناً فأبى أن يقرضه إلا بربح عشرة توامين، فاتفقا على ذلك، فبعث بكتي إلى جوبان يقول له: المال الذي طلبته من حسيناه عندي فإن رسمت حملته إلى الخزانة الشريفة، وإن رسمت تفرقه على الجيش. فأرسل جوبان إلى محمد حسيناه فأحضره عنده فقال له: تزن أربعين توماناً ولا تشرب قدحاً من خمر؟ قال نعم، فأعجبه ذلك منه ومزق الحجة المكتوبة عليه، وحظي عنده وحكَّمه في أموره كلها، وولاَّه ولايات كبار، وحصل لجوبان إقلاع وأنابه ورجوع عن كثير مما كان يتعاطاه، رحم الله حسيناً.

وفي هذه السنة كانت فتنة بأصبهان قتل بسببها ألوف من أهلها، واستمرت الحرب بينهم شهوراً. وفيها كان غلاء مفرط بدمشق، بلغت الغرارة مائتين وعشرين، وقلَّت الأقوات. ولولا أن الله أقام للناس من يحمل لهم الغلة من مصر لاشتد الغلاء وزاد أضعاف ذلك، وكان مات أكثر الناس، واستمر ذلك مدة شهور من هذه السنة، وإلى أثناء سنة خمس وعشرين، حتى قدمت الغلات ورخصت الأسعار ولله الحمد والمنة.

ومن توفي فيها من الأعيان: توفي في مستهل المحرم.

بدر الدين محمد بن ممدوح(٢) بن أحمد الحنفي

قاضي قلعة الروم بالحجاز الشريف، وقد كان عبداً صالحاً، حج مرات عديدة، وربما أحرم من قلعة الروم أو حرم بيت المقدس، وصلِّي عليه بدمشق صلاة الغائب، وعلى شرف الدين بن العز وعلى شرف الدين بن نجيح توفوا في أقل من نصف شهر كلهم بطريق الحجاز بعد فراغهم من الحج وذلك أنهم غبطوا ابن نجيح صاحب الشيخ تقي الدين بن تيمية بتلك الموتة كما تقدم، فرزقوها فماتوا عقيب عملهم الصالح بعد الحج.

الحجة الكبيرة خوندا بنت نكية

زوجة السلطان الملك الناصر، وقد كانت زوجة أخيه الملك الأشرف ثم هجرها الناصر

---

(١) في ط: أشفى. (٢) في ط: ممدود.

وأخرجها من القلعة، وكانت جنازتها حافلة، ودفنت بتربتها التي أنشأتها.

الشيخ محمد بن جعفر بن فرعوش

ويقال له اللباد ويعرف بالمؤله، كان يقرىء الناس بالجامع نحواً من أربعين سنة، وقد قرأت عليه شيئاً من القراءات، وكان يعلم الصغار عقد الراء والحروف المتقنة كالراء ونحوها، وكان متقللاً من الدنيا لا يقتني شيئاً، وليس له بيت ولا خزانة، إنما كان يأكل في السوق وينام في الجامع، توفي في مستهل صفر وقد جاوز السبعين، ودفن بباب الفراديس رحمه الله. وفي هذا اليوم توفي بمصر.

الشيخ أيوب السعودي

وقد قارب المائة، أدرك الشيخ أبا السعود وكانت جنازته مشهودة. ودفن بتربة شيخه بالقرافة وكتب عنه قاضي القضاة تقي الدين السبكي في حياته، وذكر الشيخ أبو بكر الرحبي أنه لم ير مثل جنازته بالقاهرة منذ سكنها رحمه الله.

الشيخ الإمام الزاهد نور الدين: أبو الحسن علي بن يعقوب بن جبريل البكري المصري الشافعي، له تصانيف، وقرأ مسند الشافعي على وزيرة بنت المنجا، ثم إنه أقام بمصر، وقد كان في جملة من ينكر على شيخ الإسلام ابن تيمية، أراد بعض الدولة قتله فهرب واختفى عنده كما تقدم لما كان ابن تيمية مقيماً بمصر، وما مثاله إلا مثال ساقية ضعيفة كدرة لاطمت بحراً عظيماً صافياً، أو رملة أرادت زوال جبل، وقد أضحك العقلاء عليه، وقد أراد السلطان قتله فشفع فيه بعض الأمراء، ثم أنكر مرة شيئاً على الدولة فنفي من القاهرة إلى بلدة يقال لها ديروط[1]، فكان بها حتى توفي يوم الاثنين سابع ربيع الآخر، ودفن بالقرافة، وكانت جنازته مشهورة، وكان شيخه ينكر عليه إنكاره على ابن تيمية، ويقول له أنت لا تحسن أن تتكلم.

الشمس محمد الباجريقي: الذي تنسب إليه الفرقة الضالة الباجريقية، والمشهور عنهم إنكار الصانع جلّ جلاله، وتقدست أسماؤه، وقد كان والده جمال الدين بن عبد الرحيم بن عمر الموصلي رجلاً صالحاً من علماء الشافعية ودرس في أماكن بدمشق، ونشأ ولده هذا بين الفقهاء واشتغل بعض شيء ثم أقبل على السلوك ولازمه ولازم جماعة يعتقدونه ويزورونه ويروقونه ممن هو على طريقته، وآخرون لا يفهمونه، ثم حكم القاضي المالكي بإراقة دمه فهرب إلى الشرق، ثم إنه أثبت عداوة بينه وبين الشهود فحكم الحنبلي بحقن دمه فأقام بالقابون مدة سنين حتى كانت وفاته ليلة الأربعاء سادس عشر ربيع الآخر، ودفن بالقرب من مغارة الدم بسفح قاسيون في قبة في أعلى ذيل الجبل تحت المغارة، وله من العمر ستون سنة.

شيخنا القاضي

محيي الدين أبو زكريا يحيى بن الفاضل جمال الدين إسحاق بن خليل بن فارس

---

(١) في ط: دهروط.

الشيباني، الشافعي، اشتغل على النواوي ولازم ابن المقدسي، وولي الحكم بزرع وغيرها، ثم قام بدمشق يشتغل في الجامع، ودرس في الصارمية وأعاد في مدارس عدة إلى أن توفي في سلخ ربيع الآخر ودفن بقاسيون وقد قارب الثمانين رحمه الله، وسمع كثيراً وخرج له الذهبي شيئاً وسمعنا عليه الدارقطني وغيره.

الفقيه الكبير الصدر الإمام العالم الخطيب بالجامع

بدر الدين أبو محمد عبد الله بن عثمان بن يوسف بن محمد بن الحداد الآمدي الحنبلي، سمع الحديث واشتغل وحفظ المحرر في مذهب أحمد وبرع على ابن حمدان وشرحه عليه في مدة سنين وقد كان ابن حمدان يثني عليه كثيراً وعلى ذهنه وذكائه، ثم اشتغل بالكتابة ولزم خدمة الأمير قراسنقر بحلب، فولاّه نظر الأوقاف وخطابة حلب بجامعها الأعظم، ثم لما صار إلى دمشق ولاّه خطابة الأموي فاستمر خطيباً فيها اثنين وأربعين يوماً، ثم أعيد إليها جلال الدين القزويني، ثم ولي نظر المارستان والحسبة ونظر الجامع الأموي، وعين لقضاء الحنابلة في وقت، ثم توفي ليلة الأربعاء سابع جمادى الآخرة، ودفن بباب الصغير رحمه الله.

الكاتب المفيد قطب الدين

أحمد بن مفضل بن فضل الله المصري، أخو محيي الدين كاتب تنكز، والد الصاحب علم الدين كان خبيراً بالكتابة وقد ولي استيفاء الأوقاف بعد أخيه، وكان أسن من أخيه، وهو الذي علمه صناعة الكتابة وغيرها، توفي ليلة الاثنين ثاني رجب وعمل عزاؤه بالسميساطية، وكان مباشر أوقافها.

الأمير الكبير ملك العرب

محمد بن عيسى بن مهنا أخو مهنا، توفي بسلمية يوم السبت سابع رجب، وقد جاوز الستين كان مليح الشكل حسن السيرة عاملاً عارفاً رحمه الله.

وفي هذا الشهر وصل الخبر إلى دمشق بموت.

الوزير الكبير علي شاه بن أبي بكر التبريزي

وزير أبي سعيد بعد قتل سعد الدين الساوي، وكان شيخاً جليلاً فيه دين وخير، وحمل إلى تبريز فدفن بها في الشهر الماضي رحمه الله.

الأمير سيف الدين بكتمر

والي الولاة صاحب الأوقاف في بلدان شتى: من ذلك مدرسته بالصلت، وله درس بمدرسة أبي عمر وغير ذلك، توفي بالإسكندرية، وهو نائبها خامس رمضان رحمه الله.

[الصدر الكبير العالم الزاهد][(١)] شرف الدين أبو عبد الله

محمد ابن الشيخ الإمام العلامة زين الدين بن المنجا بن عثمان بن أسعد بن المنجا

---

(١) سقط في ط.

التنوخي الحنبلي، أخو قاضي القضاة علاء الدين، سمع الحديث ودرس وأفتى، وصحب الشيخ تقي الدين بن تيمية، وكان فيه دين ومودة وكرم وقضاء حقوق كثيرة، توفي ليلة الاثنين رابع شوال، وكان مولده في سنة خمس وسبعين وستمائة، ودفن بتربتهم بالصالحية.

الشيخ حسن الكردي الموله

كان يخالط النجاسات والقاذورات، ويمشي حافياً، وربما تكلم بشيء من الهذيانات التي تشبه علم المغيبات، ولبعض الناس فيه اعتقادات كما هو المعروف من أهل العمى والضلالات، مات في شوال.

كريم الدين الذي كان وكيل السلطان

عبد الكريم بن العلم هبة الله المسلماني، حصل له من الأموال والتقدم والمكانة والخطوة عند السلطان ما لم يحصل لغيره في دولة الأتراك، وقد وقف الجامعين بدمشق أحدهما جامع القبيبات والحوض الكبير الذي تجاه باب الجامع، واشترى له نهر ماء بخمسين ألفاً، فانتفع به الناس انتفاعاً كثيراً، ووجدوا رفقاً. والثاني الجامع الذي بالقابون. وله صدقات كثيرة وافرة تقبّل الله منه وعفا عنه، وقد مسك في آخر أمره فصودر ونفي إلى الشوبك، ثم إلى القدس، ثم إلى الصعيد فخنق نفسه كما قيل بعمامته بمدينة أسوان، وذلك في الثالث والعشرين من شوال، وقد كان حسن الشكل تام القامة، ووجد له بعد موته ذخائر كثيرة سامحه الله.

الشيخ الإمام العالم علاء الدين

علي بن إبراهيم بن داود بن سليمان بن العطار، شيخ دار الحديث النورية، ومدرس القوصية بالجامع، ولد يوم عيد الفطر سنة أربع وخمسين وستمائة، وسمع الحديث واشتغل على الشيخ محيي الدين النواوي ولازمه حتى كان يقال له مختصر النواوي، وله مصنفات وفوائد ومجاميع وتخاريج، وباشر مشيخة النورية من سنة أربع وتسعين إلى هذه السنة، مدة ثلاثين سنة، توفي يوم الاثنين منها مستهل ذي الحجة فولي بعده النورية علم الدين البرزالي، وتولى الغوصية شهاب الدين بن حرز الله وصلّي عليه بالجامع ودفن بقاسيون رحمه الله، والله سبحانه أعلم.

ثم دخلت سنة خمس وعشرين وسبعمائة

استهلت وحكام البلاد هم المذكورون في التي قبلها، وأولها يوم الأربعاء. وفي خامس صفر منها قدم إلى دمشق الشيخ شمس الدين محمود الأصبهاني بعد مرجعه من الحج وزيارة القدس الشريف وهو رجل فاضل له مصنفات منها شرح مختصر ابن الحاجب، وشرح التجويد وغير ذلك، ثم إنه شرح الحاجبية أيضاً وجمع له تفسيراً بعد صيرورته إلى مصر، ولما قدم إلى دمشق أكرم واشتغل عليه الطلبة، وكان حظياً عند القاضي جلال الدين القزويني، ثم إنه ترك

الكل وصار يتردد إلى الشيخ تقي الدين بن تيمية وسمع عليه من مصنفاته ورده على أهل الكلام، ولازمه مدة فلما مات الشيخ تقي الدين تحول إلى مصر وجمع التفسير.

وفي ربيع الأول جرّد السلطان تجريدة نحو خمسة آلاف إلى اليمن لخروج عمه عليه، وصحبتهم خلق كثير من الحجاج، منهم الشيخ فخر الدين النويري. وفيها منع شهاب الدين بن مري البعلبكي من الكلام على الناس بمصر، على طريقة الشيخ تقي الدين بن تيمية، وعزره القاضي المالكي بسبب مسألة الاستغاثة، وحضر المذكور بين يدي السلطان وأثنى عليه جماعة من الأمراء، ثم سافر إلى الشام بأهله فنزل ببلاد الخليل، ثم انتزح إلى بلاد الشرق وأقام بسنجار وماردين ومعاملتهما يتكلم ويعظ الناس إلى أن مات رحمه الله كما سنذكره.

وفي ربيع الآخر عاد نائب الشام من مصر وقد أكرمه السلطان والأمراء. وفي جمادى الأولى وقع بمصر مطر لم يسمع بمثله بحيث زاد النيل بسببه أربعة أصابع، وتغير أياماً. وفيه زادت دجلة ببغداد حتى غرقت ما حول بغداد وانحصر الناس بها ستة أيام لم تفتح أبوابها، وبقيت مثل السفينة في وسط البحر، وغرق خلق كثير من الفلاحين وغيرهم، وتلف للناس ما لا يعلم قيمته إلا الله عز وجل، وودع أهل البلد بعضهم بعضاً، ولجؤوا إلى الله تعالى وحملوا المصاحف على رؤوسهم في شدة الشوق بأنفسهم حتى القضاة والأعيان، وكان وقتاً عجيباً، ثم لطف الله بهم فغيض الماء وتناقص، وتراجع الناس إلى ما كانوا عليه من أمورهم الجائرة وغير الجائزة، وذكر بعضهم أنه غرق بالجانب الغربي نحو من ستة آلاف وستمائة بيت، وإلى عشر سنين لا يرجع ما غرق.

وفي أوائل جمادى الآخرة فتح السلطان خانقاه سرياقوس التي أنشأها وساق إليها خليجاً وبنى عندها محلة، وحضر السلطان بها ومعه القضاة والأعيان والأمراء وغيرهم، ووليها مجد الدين الأقصرائي، وعمل السلطان بها وليمة كبيرة، وسمع على قاضي القضاة ابن جماعة عشرين حديثاً بقراءة ولده عز الدين بحضرة الدولة منهم أرغون النائب، وشيخ الشيوخ القونوي وغيرهم، وخلع على القارىء عز الدين وأثنوا عليه ثناء زائداً، وأجلس مكرماً، وخلع أيضاً على والده ابن جماعة وعلى المالكي وشيخ الشيوخ، وعلى مجد الدين الأقصرائي شيخ الخانقاه المذكورة وغيرهم. وفي يوم الأربعاء رابع عشر رجب درس بقبة المنصورية في الحديث الشيخ زين الدين الكافي الدمشقي، بإشارة نائب الكرك وأرغون، وحضر عنده الناس، وكان فقيهاً جيداً، وأما الحديث فليس من فنه ولا من شغله.

وفي أواخر رجب قدم الشيخ زين الدين محمد بن عبد الله بن المرحل من مصر على تدريس الشامية البرانية، وكانت بيد ابن الزملكاني فانتقل إلى قضاء حلب، فدرس بها في خامس شعبان وحضر القاضي الشافعي وجماعة. وفي سلخ رجب قدم القاضي عز الدين بن بدر الدين بن جماعة من مصر ومعه ولده، وفي صحبته الشيخ جمال الدين الدمياطي وجماعة من الطلبة بسبب سماع الحديث، فقرأ بنفسه وقرأ الناس له واعتنوا بأمره، وسمعنا معهم وبقراءته شيئاً كثيراً، نفعهم الله بما قرؤوا وبما سمعوا، ونفع بهم. وفي يوم الأربعاء ثاني عشر شوال

درس الشيخ شمس الدين بن الأصبهاني، بالرواحية بعد ذهاب ابن الزملكاني إلى حلب، وحضر عنده القضاة والأعيان، وكان فيهم شيخ الإسلام ابن تيمية، وجرى يومئذٍ بحث في العام إذا خص، وفي الاستثناء بعد النفي ووقع انتشار وطال الكلام في ذلك المجلس، وتكلم الشيخ تقي الدين كلاماً أبهت الحاضرين، وتأخر ثبوت عيد الفطر إلى قريب الظهر يوم العيد، فلما ثبت دقت البشائر وصلى الخطيب العيد من الغد بالجامع، ولم يخرج الناس إلى المصلّى، وتغضب الناس على المؤذنين وسجن بعضهم. وخرج الركب في عاشره وأميره صلاح الدين بن أيبك الطويل، وفي الركب صلاح الدين بن أوحد، والمنكورسي، وقاضيه شهاب الدين الظاهري. وفي سابع عشره درس بالرباط الناصري بقاسيون حسام الدين القزويني الذي كان قاضي طرابلس، قايضه بها جمال الدين بن الشريشي إلى تدريس المسرورية، وكان قد جاء توقيعه بالعذراوية والظاهرية فوقف في طريقه قاضي القضاة جلال الدين ونائباه ابن جملة والفخر المصري، وعقد له ولكمال الدين بن الشيرازي مجلساً، ومعه توقيع بالشامية البرانية، فعطل الأمر عليهما لأنهما لم يظهرا استحقاقهما في ذلك المجلس، فصارت المدرستان العذراوية والشامية لابن المرحل كما ذكرنا، وعظم القزويني بالمسرورية فقايض منها لابن الشريشي إلى الرباط الناصري، فدرس به في هذا اليوم وحضر عنده القاضي جلال الدين، ودرس بعده ابن الشريشي بالمسرورية وحضر عنده الناس أيضاً. وفيه عادت التجريدة اليمنية وقد فقد منهم خلق كثير من الغلمان وغيرهم، فحبس مقدمهم الكبير ركن الدين بيبرس لسوء سيرته فيهم.

وممن توفي فيها من الأعيان:

الشيخ إبراهيم الصباح

وهو إبراهيم بن منير البعلبكي، كان مشهوراً بالصلاح مقيماً بالمئذنة الشرقية، توفي ليلة الأربعاء مستهل المحرم ودفن بالباب الصغير، وكانت جنازته حافلة، وحمله الناس على رؤوس الأصابع، وكان ملازماً لمجلس الشيخ تقي الدين بن تيمية.

إبراهيم المولّه

الذي يقال له القميني لإقامته بالقمامين خارج[1] باب شرقي، وربما كاشف بعض العوام، ومع هذا لم يكن من أهل الصلاة، وقد استتابه الشيخ تقي الدين بن تيمية وضربه على ترك الصلوات ومخالطة القاذورات، وجمع الرجال والنساء حوله في الأماكن النجسة. توفي كهلاً في هذا الشهر.

الشيخ عفيف الدين

محمد بن عمر بن عثمان بن عمر الصقلي ثم الدمشقي، إمام مسجد الرأس، آخر من

(١) في ط: برّا.

حدث عن ابن الصلاح ببعض سنن البيهقي، سمعنا عليه شيئاً منها، **توفي في صفر.**

الشيخ الصالح العابد الزاهد الناسك

عبد الله بن موسى بن أحمد الجزري، الذي كان مقيماً[١] أبي بكر من جامع دمشق، كان من الصالحين الكبار مباركاً خيراً، عليه سكينة ووقار، وكانت له مطالعة كثيرة، وله فهم جيد وعقل جيد، وكان من الملازمين لمجالس الشيخ تقي الدين بن تيمية، وكان ينقل من كلامه أشياء كثيرة ويفهمها يعجز عنها كبار الفقهاء. توفي يوم الاثنين سادس عشرين صفر، وصلّي عليه بالجامع ودفن بباب الصغير وكانت جنازته حافلة محمودة.

الشيخ الصالح الكبير المعمر

الرجل الصالح تقي الدين بن الصائغ المقري المصري، الشافعي، آخر من بقي من مشايخ القراء وهو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الخالق بن علي بن سالم بن مكي، توفي في صفر ودفن بالقرافة وكانت جنازته حافلة، قارب التسعين ولم يبق له منها سوى سنة واحدة، وقد قرأ عليه غير واحد.

وهو ممن طال عمره وحسن عمله.

الشيخ الإمام [صدر الدين][٢]

أبو زكريا يحيى بن علي بن تمام بن موسى الأنصاري السبكي الشافعي، سمع الحديث وبرع في الأصول والفقه، ودرس بالسيفية وباشرها بعده ابن أخيه تقي الدين السبكي الذي تولى قضاء الشام فيما بعد.

الشهاب محمود

هو الصدر الكبير الشيخ الإمام العالم العلامة شيخ صناعة الإنشاء الذي لم يكن بعد القاضي الفاضل مثله في صنعة الإنشاء، وله خصائص ليست للفاضل من كثرة النظم والقصائد المطولة الحسنة البليغة، فهو شهاب الدين أبو الثنا محمود بن سلمان بن فهد الحلبي ثم الدمشقي، ولد سنة أربع وأربعين وستمائة بحلب، وسمع الحديث وعُني باللغة والأدب والشعر وكان كثير الفضائل بارعاً في علم الإنشاء نظماً ونثراً، وله في ذلك كتب ومصنفات حسنة فائقة، وقد مكث في ديوان الإنشاء نحواً من خمسين سنة، ثم ولي كتابة السر بدمشق نحواً من ثمان سنين إلى أن توفي ليلة السبت ثاني عشرين شعبان في منزله قرب باب الناطفانيين وهي دار القاضي الفاضل وصلّي عليه بالجامع ودفن بتربة له أنشأها بالقرب من اليغمورية وقد جاوز الثمانين سنة.

---

(١) بياض في الأصل ولعله بمحراب، أو بخلوة أو نحو ذلك.

(٢) سقط في ط.

[شيخنا الجليل المسند المعمر الرحلة عفيف الدين الآمدي](١)

عفيف الدين إسحاق بن يحيى بن إسحاق بن إبراهيم بن إسماعيل الآمدي ثم الدمشقي الحنفي شيخ دار الحديث الظاهرية، ولد في حدود الأربعين وستمائة، وسمع الحديث على جماعة كثيرين، منهم يوسف بن خليل ومجد الدين بن تيمية، وكان شيخاً حسناً بهيّ المنظر سهل الاستماع يحب الرواية ولديه فضيلة، توفي ليلة الاثنين ثاني عشرين رمضان، ودفن بقاسيون، وهو والد فخر الدين ناظر الجيوش والجامع. وقبله بيوم توفي الصدر معين الدين يوسف بن زغيب الرحبي أحد كبار التجار الأمناء. وفي رمضان توفي. . .

البدر العوام

وهو محمد بن علي البابا الحلبي، وكان فرداً في العوم، وطيب الأخلاق، انتفع به جماعة من التجار في بحر اليمن كان معهم فغرق بهم المركب، فلجؤوا إلى صخرة في البحر فكانوا عليها فخلصهم الله عز وجل على يديه واحداً واحداً إلى الساحل. وكانوا ثلاثة عشر، ثم إنه غطس فاستخرج لهم أموالاً من قرار البحر بعد أن أفلسوا وكادوا أن يهلكوا، وكان فيه ديانة وصيانة، وقد قرأ القرآن وحج عشر مرات، وعاش ثمانياً وثمانين سنة رحمه الله، وكان يسمع الشيخ تقي الدين بن تيمية كثيراً. وفيه توفي.

الشهاب أحمد بن عثمان الأمشاطي

الأديب في الأزجال والموشحات والمواليا والدوبيت والبلاليق، وكان أستاذ أهل هذه الصناعة مات في عشر الستين.

القاضي الإمام العالم الزاهد

صدر الدين سليمان بن هلال بن شبل بن فلاح بن خصيب الجعفري الشافعي المعروف بخطيب داريا، ولد سنة ثنتين وأربعين وستمائة، بقرية بسرا من عمل السواد، وقدم مع والده فقرأ بالصالحية القرآن على الشيخ نصر بن عبيد، وسمع الحديث وتفقه على الشيخ محيي الدين النووي، والشيخ تاج الدين الفزاري، وتولى خطابة داريا وأعاد بالناصرية، وتولى نيابة القضاء لابن صصري مدة، وكان متزهداً لا يتنعم بحمام ولا كتان ولا غيره، ولم يغير ما اعتاده في البر، وكان متواضعاً، وهو الذي استسقى بالناس في سنة تسع عشرة فسقوا كما ذكرنا، وكان يذكر له نسباً إلى جعفر الطيار، بينه وبينه عشرة آباء، ثم ولي خطابة العقيبة فترك نيابة الحكم وقال هذه تكفي إلى أن توفي ليلة الخميس ثامن ذي القعدة، ودفن باب الصغير، وكانت جنازته مشهودة رحمه الله، وتولى بعده الخطابة ولده شهاب الدين.

أحمد بن صبيح المؤذن

الرئيس بالعروس بجامع دمشق مع البرهان بدر الدين أبو عبد الله محمد بن صبيح بن

---

(١) في ط: شيخنا عفيف الدين الآمدي.

عبد الله التفليسي مولاهم المقري المؤذن، كان من أحسن الناس صوتاً في زمانه، وأطيبهم نغمة، ولد سنة اثنتين وخمسين وستمائة تقريباً، وسمع الحديث في سنة سبع وخمسين، وممن سمع عليه ابن عبد الدائم وغيره من المشايخ، وحدث وكان رجلاً حسناً، أبوه مولى لامرأة اسمها شامة بنت كامل الدين التفليسي، امرأة فخر الدين الكرخي، وباشر مشارفة الجامع وقراءة المصحف، وأذن عند نائب السلطنة مدة، وتوفي في ذي الحجة بالطواويس، وصلّي عليه بجامع العقيبة، ودفن بمقابر باب الفراديس.

خطاب باني خان خطاب

الذي بين الكسوة وغباغب. الأمير الكبير عز الدين خطاب ابن محمود بن رتقش العراقي، كان شيخاً كبيراً له ثروة من المال كبيرة، وأملاك وأموال، وله حمام بحكر السماق، وقد عمر الخان المشهور به بعد موته إلى ناحية الكتف المصري، مما يلي غباغب، وهو برج الصفر، وقد حصل الكثير من المسافرين به رفق، توفي ليلة سبع عشرة ربيع الآخر ودفن بتربته بسفح قاسيون، رحمه الله تعالى. وفي ذي القعدة منها توفي رجل آخر اسمه:

ركن الدين خطاب ابن الصاحب كمال الدين

أحمد ابن أخت ابن خطاب الرومي السيواسي، له خانقاه ببلده سيواس، عليها أوقاف كثيرة وبر وصدقة، توفي وهو ذاهب إلى الحجاز الشريف بالكرك، ودفن بالقرب من جعفر وأصحابه بمؤتة رحمه الله. وفي العشر الأخير من ذي القعدة توفي.

بدر الدين أبو عبد الله

محمد بن كمال الدين أحمد بن أبي الفتح بن أبي الوحش أسد بن سلامة بن سلمان بن فتيان الشيباني المعروف بابن العطار، ولد سنة سبعين وستمائة، وسمع الحديث الكثير، وكتب الخط المنسوب واشتغل بالتنبيه ونظم الشعر، وولي كتابة الدرج، ثم نظر الجيش ونظر الأشراف، وكانت له حظوة في أيام الأفرم، ثم حصل له خمول قليل، وكان مترفاً منعماً له ثروة ورياسة وتواضع وحسن سيرة، ودفن بسفح قاسيون بتربتهم رحمه الله.

القاضي محيي الدين

أبو محمد بن الحسن بن محمد بن عماد بن فتوح الحارثي، قاضي الزبداني مدة طويلة، ثم ولي قضاء الكرك وبها مات في العشرين من ذي الحجة، وكان مولده سنة خمس وأربعين وستمائة، وقد سمع الحديث واشتغل، وكان حسن الأخلاق متواضعاً، وهو والد الشيخ جمال الدين ابن قاضي الزبداني مدرس الظاهرية رحمه الله.

ثم دخلت سنة ست وعشرين وسبعمائة

استهلت والحكام هم المذكورون في التي قبلها، سوى كاتب سر دمشق شهاب الدين محمود فإنه توفي، وولّي المنصب من بعده ولده الصدر شمس الدين. وفيها تحول التجار في

قماش النساء المخيط من الدهشة التي للجامع إلى دهشة سوق علي. وفي يوم الأربعاء[1] ثامن المحرم باشر مشيخة الحديث الظاهرية الشيخ شهاب الدين بن جهبل بعد وفاة العفيف إسحاق وترك تدريس الصلاحية بالقدس الشريف، واختار دمشق، وحضر عنده القضاة والأعيان. وفي أولها فتح الحمام الذي بناه الأمير سيف الدين جوبان بجوار داره بالقرب من دار الجالق، وله بابان أحدهما إلى ناحية مسجد الوزير، وحصل به نفع. وفي يوم الاثنين ثاني صفر قدم الصاحب غبريال من مصر على البريد متولياً نظر الدواوين بدمشق على عادته، وانفصل عنها الكريم الصغير، وفرح الناس به. وفي يوم الثلاثاء حادي عشر ربيع الأول بكرة النهار ضربت عنق ناصر بن الشرف أبي الفضل بن إسماعيل بن الهيتي بسوق الخيل على كفره واستهانته واستهتاره بآيات الله، وصحبته الزنادقة كالنجم بن خلكان، والشمس محمد الباجريقي، وابن المعمار البغدادي، وكل منهم فيه انحلال وزندقة مشهور بها بين الناس.

قال الشيخ علم الدين البرزالي: وربما زاد هذا المذكور المضروب العنق عليهم بالكفر والتلاعب بدين الإسلام، والاستهانة بالنبوة والقرآن. قال وحضر قتله العلماء والأكابر وأعيان الدولة. قال: وكان هذا الرجل في أول أمره قد حفظ التنبيه، وكان يقرأ في الختم بصوت حسن. وعنده نباهة وفهم، وكان منزلاً في المدارس والترب، ثم إنه انسلخ من ذلك جميعه، وكان قتله عزاً للإسلام وذلاً للزنادقة وأهل البدع.

قلت: وقد شهدت قتله، وكان شيخنا العلامة أبو العباس بن تيمية حاضراً يومئذٍ، وقد أتاه وقرعه على ما كان يصدر منه قبل قتله، ثم ضربت عنقه وأنا شاهد ذلك.

وفي شهر ربيع الأول رسم في إخراج الكلاب من مدينة دمشق فجعلوا في الخندق من جهة باب الصغير من ناحية باب شرقي، الذكور على حدة والإناث على حدة، وألزم أصحاب الدكاكين بذلك، وشددوا في أمرهم أياماً. وفي ربيع الأول ولي الشيخ علاء الدين المقدسي معيد البادرانية مشيخة الصلاحية بالقدس الشريف، وسافر إليها. وفي جمادى الآخرة عزل قرطاي عن نيابة طرابلس ووليها طينال وأقر قرطاي على خبز القرماني بدمشق بحكم سجن القرماني بقلعة دمشق.

قال البرزالي: وفي يوم الاثنين عند العصر سادس عشر شعبان اعتقل الشيخ الإمام العالم العلامة تقي الدين بن تيمية بقلعة دمشق، حضر إليه من جهة نائب السلطنة تنكز مشد الأوقاف وابن الخطيري أحد الحجاب بدمشق، وأخبراه أن مرسوم السلطان ورد بذلك، وأحضرا معهما مركوباً ليركبه، فأظهر السرور والفرح بذلك، وقال أنا كنت منتظراً لذلك، وقال: هذا فيه خير كثير ومصلحة كبيرة، وركبوا جميعاً من داره إلى باب القلعة، وأخليت له قاعة وأجرى إليها الماء ورسم له بالإقامة فيها، وأقام معه أخوه زين الدين يخدمه بإذن السلطان، ورسم له ما يقوم بكفايته، قال البرزالي: وفي يوم الجمعة عاشر الشهر المذكور قرىء بجامع دمشق الكتاب

---

(١) في ط: الأحد.

السلطاني الوارد باعتقاله ومنعه من الفتيا، وهذه الواقعة سببها فتيا وجدت بخطه في المنع من السفر وإعمال المطي إلى زيارة قبور الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقبور الصالحين. قال: وفي يوم الأربعاء منتصف شعبان أمر قاضي القضاة الشافعي بحبس جماعة من أصحاب الشيخ تقي الدين في سجن الحكم، وذلك بمرسوم نائب السلطنة وإذنه له فيه، فيما تقتضيه الشريعة في أمرهم، وعزر جماعة منهم على دواب ونودي عليهم ثم أطلقوا، سوى شمس الدين محمد بن قيم الجوزية فإنه حبس بالقلعة، وسكتت القضية. قال: وفي أول رمضان وصلت الأخبار إلى دمشق أنه أجريت عين ماء إلى مكة شرّفها الله وانتفع الناس بها انتفاعاً عظيماً، وهذه العين تعرف قديماً بعين باذان، أجراها جوبان من بلاد بعيدة حتى دخلت إلى نفس مكة، ووصلت إلى عند الصفا وباب إبراهيم، واستقى الناس منها فقيرهم وغنيهم وضعيفهم وشريفهم، كلهم فيها سواء، وارتفق أهل مكة بذلك رفقاً كثيراً ولله الحمد والمنة. وكانوا قد شرعوا في حفرها وتجديدها في أول هذه السنة إلى العشر الأخر من جمادى الأولى، واتفق أن في هذه السنة كانت الآبار التي بمكة قد يبست وقل ماؤها، وقل ماء زمزم أيضاً، ولولا أن الله تعالى لطف بالناس بإجراء هذه القناة لنزح عن مكة أهلها، أو هلك كثير ممن يقيم بها. وأما الحجيج في أيام الموسم فحصل لهم بها رفق عظيم زائد عن الوصف، كما شاهدنا ذلك في سنة إحدى وثلاثين عام حججنا. وجاء كتاب السلطان إلى نائبه بمكة بإخراج الزيديين من المسجد الحرام، وأن لا يكون لهم فيه إمام ولا مجتمع، ففعل ذلك.

وفي يوم الثلاثاء رابع شعبان درس بالشامية الجوانية شهاب الدين أحمد بن جهبل، وحضر عنده القاضي القزويني الشافعي وجماعة عوضاً عن الشيخ أمين الدين سالم بن أبي الدر إمام مسجد ابن هشام توفي، ثم بعد أيام جاء توقيع بولاية القاضي الشافعي فباشرها في عشرين رمضان. وفي عاشر شوال خرج الركب الشامي وأميره سيف الدين جوبان، وحج عامئذٍ القاضي شمس الدين بن مسلم قاضي قضاة الحنابلة، وبدر الدين ابن قاضي القضاة جلال الدين القزويني، ومعه تحف وهدايا وأمور تتعلق بالأمير سيف الدين أرغون نائب مصر، فإنه حج في هذه السنة ومعه أولاده وزوجته بنت السلطان، وحج فخر الدين ابن شيخ السلامية، وصدر الدين المالكي، وفخر الدين البعلبكي وغيرهم.

وفي يوم الأربعاء عاشر ذي القعدة درس بالحنبلية برهان الدين أحمد بن هلال الزرعي الحنبلي، بدلاً عن شيخ الإسلام ابن تيمية، وحضر عنده القاضي الشافعي وجماعة من الفقهاء وشق ذلك على كثير من أصحاب الشيخ تقي الدين، وكان ابن الخطيري الحاجب قد دخل إلى الشيخ تقي الدين قبل هذا بيوم فاجتمع به وسأله عن أشياء بأمر نائب السلطنة، ثم يوم الخميس دخل القاضي جلال الدين بن جملة وناصر الدين مشد الأوقاف، وسألاه عن مضمون قوله في مسألة الزيارة، فكتب ذلك في درج وكتب تحته قاضي الشافعية بدمشق: قابلت الجواب عن هذا السؤال المكتوب على خط ابن تيمية إلى أن قال: وإنما المجز جعله زيارة قبر النبي ﷺ، وقبور الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم معصية بالإجماع مقطوعاً بها، فانظر الآن هذا التحريف على

شيخ الإسلام، فإن جوابه على هذه المسألة ليس فيه منع زيارة قبور الأنبياء والصالحين، وإنما فيه ذكر قولين في شد الرحال والسفر إلى مجرد زيارة القبور، وزيارة القبور من غير شد رحل إليها مسألة، وشد الرحل لمجرد الزيارة مسألة أخرى، والشيخ لم يمنع الزيارة الخالية عن شد رحل، بل يستحبها ويندب إليها، وكتبه ومناسكه تشهد بذلك، ولم يتعرض إلى هذه الزيارة على هذا الوجه في الفتيا، ولا قال إنها معصية، ولا حكى الإجماع على المنع منها، ولا هو جاهل بقول الرسول: «زُورُوا القُبُورَ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُكُمُ الآخِرَةَ»[1] والله سبحانه لا يخفى عليه شيء، ولا يخفى عليه خافية، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [سورة الشعراء: ٢٢٧].

وفي يوم الأحد رابع عشر ذي القعدة فتحت المدرسة الحمصية تجاه الشامية الجوانية، ودرس بها محيي الدين الطرابلسي قاضي هكار[2]، وتقلب بأبي رباح، وحضر عنده القاضي الشافعي. وفي ذي القعدة سافر القاضي جمال الدين الزرعي من الأتابكية إلى مصر، ونزل عن تدريسها لمحيي الدين بن جهبل. وفي ثاني عشر ذي الحجة درس بالنجيبية ابن قاضي الزبداني عوضاً عن الدمشقي نائب الحكم مات بالمدرسة المذكورة.

وممن توفي فيها من الأعيان:

ابن المطهر الشيعي جمال الدين

أبو منصور حسن بن يوسف بن مطهر الحلبي العراقي الشيعي، شيخ الروافض بتلك النواحي، وله التصانيف الكثيرة، يقال إنها تزيد على مائة وعشرين مجلداً، وعدتها خمسة وخمسون مصنفاً، في الفقه والنحو والأصول والفلسفة والرفض وغير ذلك من كبار وصغار، وأشهرها بين الطلبة شرح ابن الحاجب في أصول الفقه، وليس بذاك الفائق، ورأيت له مجلدين في أصول الفقه على طريقة المحصول والأحكام، فلا بأس بها فإنها مشتملة على نقل كثير وتوجيه جيد، وله كتاب منهاج الاستقامة في إثبات الإمامة، خبط فيه في المعقول والمنقول، ولم يدر كيف يتوجه، إذ خرج عن الاستقامة. وقد انتدب للرد عليه الشيخ الإمام العلامة شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس بن تيمية في مجلدات أتى فيها بما يبهر العقول من الأشياء المليحة الحسنة، وهو كتاب حافل. ولد ابن المطهر الذي لم تطهر خلائقه ولم يتطهر من دنس الرفض ليلة الجمعة سابع عشرين رمضان سنة ثمان وأربعين وستمائة، وتوفي ليلة الجمعة عشرين محرم من هذه السنة، وكان اشتغاله ببغداد وغيرها من البلاد، واشتغل على نصير الطوسي، وعلى غيره، ولما ترفض الملك خربندا حظي عنده ابن المطهر وساد جداً وأقطعه بلاداً كثيرة.

الشمس الكاتب

محمد بن أسد الحراني المعروف بالنجار، كان يجلس ليكتب الناس عليه بالمدرسة

---

(١) روي الحديث بلفظ: «زوروا القبور فإنها تذكركم الموت»، أخرجه مسلم في الجنائز حديث ١٠٨، والترمذي في الجنائز باب ٦٠، والنسائي في الجنائز باب ١٠١، وابن ماجه في الجنائز باب ٤٧، ٤٨.

(٢) في ط: حصن عكار.

القليجية، توفي في ربيع الآخر ودفن بباب الصغير.

العزّ حسن بن أحمد بن زفر

الإربلي ثم الدمشقي، كان يعرف طرفاً صالحاً من النحو والحديث والتاريخ، وكان مقيماً بدويرة حمد صوفياً بها، وكان حسن المجالسة أثنى عليه البرزالي في نقله وحسن معرفته، مات بالمارستان الصغير في جمادى الآخرة ودفن بباب الصغير عن ثلاث وستين سنة.

الشيخ الإمام أمين الدين سالم بن أبي الدر

عبد الرحمن بن عبد الله الدمشقي الشافعي مدرس الشامية الجوانية، أخذها من ابن الوكيل قهراً وهو إمام مسجد ابن هشام، ومحدث الكرسي به، كان مولده في سنة خمس وأربعين وستمائة، اشتغل وحصل وأثنى عليه النووي وغيره، وأعاد وأفتى ودرس، وكان خبيراً بالمحاكمات، وكان فيه مروءة وعصبية لمن يقصده، توفي في شعبان ودفن بباب الصغير.

الشيخ حماد

وهو الشيخ الصالح العابد الزاهد **حماد الحلبي القطان**، كان كثير التلاوة والصلوات، مواظباً على الإقامة بجامع التوبة بالعقبية بالزاوية الغربية الشمالية، يقرىء القرآن ويكثر الصيام ويتردد الناس إلى زيارته، مات وقد جاوز السبعين سنة على هذ القدم، توفي ليلة الاثنين عشرين شعبان ودفن بباب الصغير، وكانت جنازته حافلة رحمه الله.

الشيخ قطب الدين اليونيني

وهو الشيخ الإمام العالم بقية السلف، قطب الدين أبو الفتح موسى ابن الشيخ الفقيه الحافظ الكبير شيخ الإسلام أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الله بن عيسى بن أحمد بن محمد البعلبكي اليونيني الحنبلي، ولد سنة أربعين وستمائة بدار الفضل بدمشق، وسمع الكثير وأحضره والده المشايخ واستجاز له وبحث واختصر مرآة الزمان للسبط، وذيل عليها ذيلاً حسناً مرتباً أفاد فيه وأجاد بعبارة حسنة سهلة، بإنصاف وستر، وأتى فيه بأشياء حسنة وأشياء فائقة رائقة، وكان كثيرة التلاوة حسن الهيئة متقللاً في ملبسه ومأكله، توفي ليلة الخميس ثالث عشر شوال ودفن بباب سطحا عند أخيه الشيخ شرف الدين رحمهما الله.

قاضي القضاة ابن مسلم

شمس الدين أبو عبد الله محمد بن مسلم بن مالك بن مزروع بن جعفر الصالحي الحنبلي، ولد سنة ستين وستمائة، ومات أبوه ـ وكان من الصالحين ـ سنة ثمان وستين، فنشأ يتيماً فقيراً لا مال له، ثم اشتغل وحصل وسمع الكثير وانتصب للإفادة والاشتغال، فطار ذكره، فلما مات التقي سليمان سنة خمس عشرة ولّي قضاء الحنابلة، فباشره أتم مباشرة، وخرجت له تخاريج كثيرة، فلما كانت هذه السنة خرج للحج فمرض في الطريق فورد المدينة النبوية على ساكنها رسول الله ﷺ أفضل الصلاة والسلام، يوم الاثنين الثالث والعشرين من ذي القعدة فزار

قبر رسول الله ﷺ وصلى في مسجده وكان بالأشواق إلى ذلك، وكان قد تمنى ذلك لما مات ابن نجيح، فمات في عشية ذلك اليوم يوم الثلاثاء وصلّي عليه في مسجد رسول الله ﷺ بالروضة، ودفن بالبقيع إلى جانب قبر شرف الدين بن نجيح، الذي كان قد غبطه بموته هناك سنة حج هو وهو قبل هذه الحجة شرقي قبر عقيل رحمهم الله، ووليّ بعده القضاء عز الدين بن التقي سليمان.

القاضي نجم الدين

أحمد بن عبد المحسن بن حسن بن معالي الدمشقي الشافعي، ولد سنة تسع وأربعين واشتغل على تاج الدين الفزاري وحصل وبرع وولى الإعادة ثم الحكم بالقدس الشريف، ثم عاد إلى دمشق فدرس بالنجيبية، وناب في الحكم عن ابن صصري مدة، توفي بالنجيبية المذكورة يوم الأحد ثامن عشرين ذي القعدة، وصلّي عليه العصر بالجامع، ودفن بباب الصغير.

ابن قاضي شهبة

الشيخ الإمام العالم شيخ الطلبة ومفيدهم كمال الدين أبو محمد عبد الوهاب ابن القاضي شرف الدين محمد بن عبد الوهاب بن ذؤيب الأسدي الشهبي الشافعي، ولد بحوران في سنة ثلاث وخمسين وستمائة، وقدم دمشق واشتغل على الشيخ تاج الدين الفزاري، ولازمه وانتفع به، وأعاد بحلقته، وتخرج به، وكذلك لازم أخاه الشيخ شرف الدين، وأخذ عنه النحو واللغة، وكان بارعاً في الفقه والنحو، له حلقة يشتغل فيها تجاه محراب الحنابلة، وكان يعتكف جميع شهر رمضان، لم يتزوج قط، وكان حسن الهيئة والشيبة، حسن العيش والملبس متقللاً من الدنيا، له معلوم يقوم بكفايته من إعادات وفقاهات وتصدير بالجامع، ولم بدرس قط ولا أفتى، مع أنه كان ممن يصلح أن يأذن في الإفتاء، ولكنه كان يتورع عن ذلك، وقد سمع الكثير: سمع المسند للإمام أحمد وغيره ذلك، توفي بالمدرسة المجاهدية ـ وبها كانت إقامته ـ ليلة الثلاثاء حادي عشرين ذي الحجة، وصلّي عليه بعد صلاة الظهر، ودفن بمقابر باب الصغير رحمه الله تعالى. وفيها كانت وفاة:

الشرف يعقوب بن فارس الجعبري

التاجر بفرجة ابن عمود، وكان يحفظ القرآن ويؤم بمسجد القصب، ويصحب الشيخ تقي الدين بن تيمية والقاضي نجم الدين الدمشقي، وقد حصل أموالاً وأملاكاً وثروة، وهو والد صاحبنا الشيخ الفقيه المفضل المحصل الزكي بدر الدين محمد، خال الولد عمر إن شاء الله. وفيها توفي:

الحاج أبو بكر بن تيمراز الصيرفي

كانت له أموال كثيرة ودائرة ومكارم وبرّ وصدقات، ولكنه انكسر في آخر عمره، وكاد أن ينكشف فجبره الله بالوفاة رحمه الله.

ثم دخلت سنة سبع وعشرين وسبعمائة

استهلت بيوم الجمعة والحكام والخليفة والسلطان والنواب والقضاة والمباشرون هم المذكورون في التي قبلها سوى الحنبلي كما تقدم، وفي العشر من المحرم دخل مصر أرغون نائب مصر فمسك في حادي عشر وحبس، ثم أطلق أياماً وبعثه السلطان إلى نائب حلب فاجتاز بدمشق بكرة الجمعة ثاني عشرين المحرم، فأنزله نائب السلطنة بداره المجاورة لجامعه، فبات بها ليلة ثم سافر إلى حلب، وقد كان قبله بيوم قد سافر من دمشق الجاي الدوادار إلى مصر، وصحبته نائب حلب علاء الدين الطنبغا معزولاً عنها إلى حجوبة الحجاب بمصر. وفي يوم الجمعة تاسع عشر ربيع الأول قرىء تقليد قاضي قضاة الحنابلة عز الدين محمد بن التقي سليمان بن حمزة المقدسي، عوضاً عن ابن مسلم بمقصورة الخطابة بحضرة القضاة والأعيان، وحكم وقرىء قبل ذلك بالصالحية. وفي أواخر هذا الشهر وصل البريد بتولية ابن النقيب الحاكم بحمص قضاء القضاة بطرابلس، ونقل الذي بها إلى حمص نائباً عن قاضي دمشق، وهو ناصر بن محمود الزرعي.

وفي سادس عشرين ربيع الآخر عاد تنكز من مصر إلى الشام، وقد حصل له تكريم من السلطان. وفي ربيع الأول حصلت زلزلة بالشام وقى الله شرها. وفي يوم الخميس مستهل جمادى الأولى باشر نيابة الحنبلي القاضي برهان الدين الزرعي، وحضر عنده جماعة من القضاة. وفي يوم الجمعة منتصف جمادى الآخرة جاء البريد بطلب القاضي القزويني الشافعي الخطيب إلى مصر، فدخلها في مستهل رجب، فخلع عليه بقضاء قضاة مصر مع تدريس الناصرية والصالحية ودار الحديث الكاملية، عوضاً عن بدر الدين بن جماعة لأجل كبر سنه، وضعف نفسه، وضرر عينيه، فجبروا خاطره فرتب له ألف درهم وعشرة أرادب قمح في الشهر، مع تدريس زاوية الشافعي، وأرسل ولده بدر الدين بن القزويني إلى دمشق خطيباً بالأموي، وعلى تدريس الشامية البرانية[1]، على قاعدة والده جلال الدين القزويني في ذلك، فخلع عليه في أواخر رجب ثامن عشرينه وحضر عنده الأعيان.

وفي رجب كان عرس الأمير سيف الدين قوصون الساقي الناصري، على بنت السلطان، وقد كان وقتاً مشهوداً، خلع على الأمراء والأكابر. وفي صبيحة هذه الليلة عقد عقد الأمير شهاب الدين أحمد ابن الأمير سيف الدين بكتمر الساقي، على بنت تنكز نائب الشام، وكان السلطان وكيل أبيها تنكز والعاقد ابن الحريري. وخلع عليه وأدخلت في ذي الحجة من هذه السنة في كلفة كثيرة.

وفي رجب جرت فتنة كبيرة بالإسكندرية وذلك في سابع رجب، وذلك أن رجلاً من المسلمين قد تخاصم هو ورجل من الفرنج، على باب البحر، فضرب أحدهما الآخر بنعل،

---

(١) في ط: الجوانية.

فرفع الأمر إلى الوالي فأمر بغلق باب البلد بعد العصر، فقال له الناس: إن لنا أموالاً وعبيداً ظاهر البلد وقد أغلقت الباب قبل وقته. ففتحه فخرج الناس في زحمة عظيمة، فقتل منهم نحو عشرة ونهبت عمائم وثياب وغير ذلك، وكان ذلك ليلة الجمعة، فلما أصبح الناس ذهبوا إلى دار الوالي فأحرقوها وثلاث دور لبعض الظلمة، وجرت أحوال صعبة، ونهبت أموال، وكسرت العامة باب سجن الوالي فخرج منه من فيه، فبلغ نائب السلطنة فاعتقد النائب أنه السجن الذي فيه الأمراء، فأمر بوضع السيف في البلد وتخريبه، ثم إن الخبر بلغ السلطان فأرسل الوزير طيبغا الجمالي سريعاً فوصل بعد يومين فضرب وصادر، وضرب القاضي ونائبه وعزلهم، وأهان خلقاً من الأكابر وصادرهم بأموال كثيرة جداً، وعزل المتولي ثم أعيد، ثم تولى القضاء بهاء الدين علم الدين الأخنائي الشافعي الذي تولى دمشق فيما بعد، وعزل قاضي الإسكندرية المالكي ونائباه، ووضعت السلاسل في أعناقهم وأهينوا، وضرب ابن السني غير مرة.

وفي يوم السبت عشرين شعبان وصل إلى دمشق قاضي قضاة حلب كمال الدين بن الزملكاني على البريد فأقام بدمشق أربعة أيام ثم سار إلى مصر ليتولى قضاء قضاة الشام بحضرة السلطان، فاتفق موته قبل وصوله إلى القاهرة ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾﴾ [سورة سبأ: ٥٤]. وفي يوم الجمعة سادس عشرين شعبان باشر صدر الدين المالكي مشيخة الشيوخ مضافاً إلى قضاء قضاة المالكية، وحضر الناس عنده، وقرىء تقليده بذلك بعد انفصال الزرعي عنها إلى مصر. وفي نصف رمضان وصل قاضي الحنفية بدمشق قاضي القضاة عماد الدين أبي الحسن علي بن أحمد بن عبد الواحد الطرسوسي، الذي كان نائباً لقاضي القضاة صدر الدين علي البصروي، فخلفه بعده في المنصب، وقرىء تقليده بالجامع، وخلع عليه وباشر الحكم، واستناب القاضي عماد الدين بن العز، ودرس بالنورية مع القضاء، وشكرت سيرته.

وفي رمضان قدم جماعة من الأسارى مع تجار الفرنج فأنزلوا بالمدرسة العادلية الكبيرة واستفكوا من ديوان الأسرى بنحو من ستين ألفاً، وكثرت الأدعية لمن كان السبب في ذلك. وفي ثامن شوال خرج الركب الشامي إلى الحجاز وأميره سيف الدين بالبان المحمدي، وقاضيه بدر الدين محمد بن محمد قاضي حرّان. وفي شوال وصل تقليد قضاء الشافعية بدمشق لبدر الدين ابن قاضي القضاة ابن عز الدين بن الصائغ والخلعة معه، فامتنع من قبول ذلك أشد الامتناع، وصمم وألح عليه الدولة فلم يقبل وكثر بكاؤه وتغير مزاجه واغتاظ، فلما أصر على ذلك راجع تنكز السلطان في ذلك، فلما كان شهر ذي القعدة اشتهر تولية علاء الدين بن إسماعيل القونوي قضاء الشام، فسار إليها من مصر وزار القدس ودخل دمشق بكرة يوم الاثنين سابع عشرين ذي القعدة، فاجتمع بنائب السلطنة ولبس الخلعة وركب معه الحجاب والدولة إلى العادلية، فقرىء تقليده بها وحكم بها على العادة، وفرح الناس به وبحسن سمته وطيب لفظه وملاحة شمائله وتودده، وولّي بعده مشيخة الشيوخ بمصر مجد الدين الأقصرائي الصوفي شيخ سرياقوس.

وفي يوم السبت ثالث عشرين ذي القعدة لبس القاضي محيي الدين بن فضل الله الخلعة بكتابة السر عوضاً عن شمس الدين بن الشهاب محمود، واستمر ولده شرف الدين في كتابه الدست[١]. وفي هذه السنة تولى قضاء حلب عوضاً عن ابن الزملكاني القاضي فخر الدين البارزي. وفي العشر الأول من ذي الحجة كمل ترخيم الجامع الأموي أعني حائطه الشمالي وجاء تنكز حتى نظر إليه فأعجبه ذلك، وشكر ناظره تقي الدين بن مراجل. وفي يوم عيد الأضحى جاء سيل عظيم إلى مدينة بلبيس فهرب أهلها منها وتعطلت الصلاة والأضاحي فيها، ولم ير مثله من سنين متطاولة، وخرب شيئاً كثيراً من حواضرها وبساتينها فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وممن توفي فيها من الأعيان:

الأمير أبو يحيى

زكريا بن أحمد بن محمد بن عبد الواحد أبي حفص الهنتاني الجياني[٢] **المغربي**، أمير بلاد المغرب. ولد بتونس قبل سنة خمسين وستمائة، وقرأ الفقه والعربية، وكان ملوك تونس تعظمه وتكرمه، لأنه من بيت الملك والإمرة والوزارة. ثم بايعه أهل تونس على الملك في سنة إحدى عشرة وسبعمائة، وكان شجاعاً مقداماً، وهو أول من أبطل ذكر ابن التومرت من الخطبة، مع أن جده أبا حفص الهنتاني كان من أخص أصحاب ابن التومرت. توفي في المحرم من هذه السنة بمدينة الإسكندرية، رحمه الله.

الشيخ الصالح ضياء الدين

أبو الفدا إسماعيل بن رضي الدين أبي الفضل المسلم بن الحسن بن نصر الدمشقي، المعروف بابن الحموي، كان هو وأبوه وجده من الكتاب المشهورين المشكورين، وكان هو كثير التلاوة والصلاة والصيام والبر والصدقة والإحسان إلى الفقراء والأغنياء. ولد سنة خمس وثلاثين وستمائة وسمع الحديث الكثير وخرج له البرزالي مشيخة سمعناها عليه، وكان من صدور أهل دمشق، توفي يوم الجمعة رابع عشر صفر، وصلّي عليه ضحوة يوم السبت، ودفن بباب الصغير، وحج وجاور وأقام بالقدس مدة، مات وله ثنتان وسبعون سنة رحمه الله، وقد ذكر أن والده حين ولد له فتح المصحف يتفاءل فإذا قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [إبراهيم: ٣٩] فسمّاه إسماعيل. ثم ولد له آخر فسمّاه إسحاق، وهذا من الاتفاق الحسن رحمهم الله تعالى.

الشيخ علي المحارفي

علي بن أحمد بن هوس الهلالي، أصل جده من قرية إيل البسوق، وأقام والده

---

(١) الدست: هو المجلس، أو مجلس الكاتب في دار العدل، وكاتب الدست هو كاتب ديوان الإنشاء.
(٢) في شذرات الذهب: اللحياني.

بالقدس، وحج هو مرة وجاور بمكة سنة ثم حج، وكان رجلاً صالحاً مشهوراً، ويعرف بالمحارفي، لأنه كان يحرف الأزقة ويصلح الرصفان لله تعالى، وكان يكثر التهليل والذكر جهرة، وكان عليه هيبة ووقار، ويتكلم كلاماً فيه تخويف وتحذير من النار، وعواقب الردى، وكان ملازماً لمجالس ابن تيمية، وكانت وفاته يوم الثلاثاء ثالث عشرين ربيع الأول، ودفن بتربة الشيخ موفق الدين بالسفح، وكانت جنازته حافلة جداً رحمه الله تعالى.

الملك الكامل ناصر الدين: أبو المعالي محمد ابن الملك السعيد فتح الدين عبد الملك ابن السلطان الملك الصالح إسماعيل أبي الجيش ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب أحد أكابر الأمراء وأبناء الملوك، كان من محاسن البلد ذكاء وفطنة وحسن عشرة ولطافة كلام، بحيث يسرد كثيراً من الكلام بمنزلة الأمثال من قوة ذهنه وحذاقة فهمه، وكان رئيساً من أجود الناس، توفي عشية الأربعاء عشرين جمادى الأولى وصلّي عليه ظهر الخميس بصحن الجامع تحت النسر، ثم أرادوا دفنه عند جده لأمه الملك الكامل فلم يتيسر ذلك فدفن بتربة أم الصالح سامحه الله، وكان له سماع كثير سمعنا عليه منه، وكان يحفظ تاريخاً جيداً، وقام ولده الأمير صلاح الدين مكانه في إمرة الطبلخانة، وجعل أخوه في عشرته ولبسا الخلع السلطانية بذلك.

الشيخ الإمام نجم الدين

أحمد بن محمد بن أبي الحزم القرشي المخزومي التمولي، كان من أعيان الشافعية، وشرح الوسيط وشرح الحاجبية في مجلدين، ودرس وحكم بمصر، وكان محتسباً بها أيضاً، وكان مشكور السيرة فيها، وقد ولي بعده الحكم نجم الدين بن عقيل، والحسبة ناصر الدين بن قار السبقوق توفي في رجب وقد جاوز الثمانين، ودفن بالقرافة رحمه الله.

الشيخ الصالح أبو القاسم

عبد الرحمن بن موسى بن خلف الحزامي، أحد مشاهير الصالحين بمصر، توفي بالروضة وحمل إلى شاطىء النيل، وصلّي عليه وحمل على الرؤوس والأصابع، ودفن عند ابن أبي حمزة، وقد قارب الثمانين، وكان ممن يقصد للزيارة رحمه الله.

القاضي عز الدين

عبد العزيز بن أحمد بن عثمان بن عيسى بن عمر بن الخضر الهكاري الشافعي، قاضي المحلة، كان من خيار القضاة، وله تصنيف على حديث المجامع في رمضان، يقال إنه استنبط فيه ألف حكم. توفي في رمضان، وقد كان حصل كتباً كثيرة جيدة منها التهذيب لشيخنا المزي.

الشيخ كمال الدين بن الزملكاني

شيخ الشافعية بالشام وغيرها، انتهت إليه رياسة المذهب تدريساً وإفتاء ومناظرة، ويقال في نسبه السماكي نسبة إلى أبي دجانة سماك بن خرشة والله أعلم. ولد ليلة الاثنين ثامن شوال سنة ست وستين وستمائة، وسمع الكثير واشتغل على الشيخ تاج الدين الفزاري، وفي الأصول

على القاضي بهاء الدين بن الزكي، وفي النحو على بدر الدين بن ملك وغيرهم، وبرع وحصل وساد أقرانه من أهل مذهبه، وحاز قصب السبق عليهم بذهنه الوقاد في تحصيل العلم الذي أسهره ومنعه الرقاد وعبارته التي هي أشهى من كل شيء معتاد، وخطه الذي هو أنضر من أزاهير الوهاد، وقد درس بعدة مدارس بدمشق، وباشر عدة جهات كبار، كنظر الخزانة ونظر المارستان النوري وديوان الملك السعيد، ووكالة بيت المال. وله تعاليق مفيدة واختيارات حميدة سديدة، ومناظرات سعيدة. ومما علقه قطعة كبيرة من شرح المنهاج للنووي، ومجلد في الرد على الشيخ تقي الدين بن تيمية في مسألة الطلاق وغير ذلك، وأما دروسه في المحافل فلم أسمع أحداً من الناس درس أحسن منها ولا أحلى من عبارته، وحسن تقريره، وجودة احترازاته؛ وصحة ذهنه وقوة قريحته وحسن نظمه، وقد درس بالشامية البرانية والعذراوية والظاهرية الجوانية والرواحية والمسرورية، فكان يعطي كل واحدة منهن حقها بحيث كان يكاد ينسخ بكل واحد من تلك الدروس ما قبله من حسنه وفصاحته، ولا يهيله [١] تعداد الدروس وكثرة الفقهاء والفضلاء، بل كلما كان الجمع كثيراً والفضلاء أكثر كان الدرس أنضر وأبهر وأحلى وأنصح وأفصح. ثم لما انتقل إلى قضاء حلب وما معه من المدارس العديدة عامله معاملة مثلها، وأوسع بالفضيلة جميع أهلها، وسمعوا من العلوم ما لم يسمعوا هم ولا آباؤهم. ثم طلب إلى الديار المصرية ليولي البلاد الشامية دار السنة النبوية فعاجلته المنية قبل وصوله إليها، فمرض وهو سائر على البريد تسعة أيام، ثم عقب المرض بحراق الحمام فقبضه هاذم اللذات، وحال بينه وبين سائر الشهوات والإرادات، والأعمال بالنيات. ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه، وكان من نيته الخبيثة إذا رجع إلى الشام متولياً أن يؤذي شيخ الإسلام ابن تيمية فدعا عليه فلم يبلغ أمله ومراده، فتوفي في سحر يوم الأربعاء سادس عشر شهر رمضان بمدينة بلبيس، وحمل إلى القاهرة ودفن بالقرافة ليلة الخميس جوار قبة الشافعي تغمدهما الله برحمته.

الحاج علي المؤذن المشهور بالجامع الأموي

الحاج علي بن فرج بن أبي الفضل الكتاني، كان أبوه من خيار المؤذنين، فيه صلاح ودين وله قبول عند الناس، وكان حسن الصوت جهوره [٢]، وفيه تودد وخدم وكرم، وحج غير مرة وسمع من أبي عمر وغيره، توفي ليلة الأربعاء [٣] ثالث ذي القعدة وصلّي عليه غدوة، ودفن بباب الصغير. وفي ذي القعدة توفي.

الشيخ فضل ابن الشيخ الرجيحي التونسي

وأجلس أخوه يوسف مكانه بالزاوية.

---

(١) يهيله: يفزعه.
(٢) في ط: جهيرة.
(٣) في ط: الاثنين.

ثم دخلت سنة ثمان وعشرين وسبعمائة

في ذي القعدة منها كانت وفاة شيخ الإسلام أبي العباس أحمد بن تيمية قدس الله روحه كما ستأتي ترجمة وفاته في الوفيات إن شاء الله تعالى.

استهلت هذه السنة وحكام البلاد هم المذكورون في التي قبلها سوى نائب مصر وقاضي حلب. وفي يوم الأربعاء ثاني المحرم درس بحلقة صاحب حمص الشيخ الحافظ صلاح الدين العلائي، نزل له عنها شيخنا الحافظ المزي، وحضر عنده الفقهاء والأعيان، وذكر درساً حسناً مفيداً. وفي يوم الجمعة رابع المحرم حضر قاضي القضاة علاء الدين القونوي مشيخة الشيوخ بالسميساطية عوضاً عن القاضي المالكي شرف الدين، وحضر عنده الفقهاء والصوفية على العادة. وفي يوم الأحد ثامن عشر صفر بالمسرورية تقي الدين عبد الرحمن ابن الشيخ كمال الدين بن الزملكاني عوضاً عن جمال الدين بن الشريشني بحكم انتقاله إلى قضاء حمص، وحضر الناس عنده وترحموا على والده.

وفي يوم الأحد خامس عشرين صفر وصل إلى دمشق الأمير الكبير صاحب بلاد الروم تمرتاش بن جوبان، قاصداً إلى مصر، فخرج نائب السلطنة والجيش لتلقيه، وهو شاب حسن الصورة تام الشكل مليح الوجه. ولما انتهى إلى السلطان بمصر أكرمه وأعطاه تقدمة ألف، وفرق أصحابه على الأمراء وأكرموا إكراماً زائداً. وكان سبب قدومه إلى مصر أن صاحب العراق الملك أبا سعيد كان قد قتل أخاه جواجا رمشتق في شوال من السنة الماضية، فهم والده جوبان بمحاربة السلطان أبي سعيد فلم يتمكن من ذلك، وكان جوبان إذ ذاك مدبر الممالك، فخاف تمرتاش هذا عند ذلك من السلطان ففر هارباً بدمه إلى السلطان الناصر بمصر.

وفي ربيع الأول توجه نائب الشام سيف الدين تنكز إلى الديار المصرية لزيارة السلطان فأكرمه واحترمه واشترى في هذه السفرة دار الفلوس التي بالقرب من البزوريين والجوزية، وهي شرقيها، وقد كان سوق البزورية اليوم يسمى سوق القمح، فاشترى هذه الدار وعمّرها داراً هائلة ليس بدمشق دار أحسن منها، وسمّاها دار الذهب، وهدم حمام سويد تلقاءها وجعله دار قرآن وحديث في غاية الحسن أيضاً، ووقف عليها أماكن ورتب فيها المشايخ والطلبة كما سيأتي تفصيله في موضعه، واجتاز في رجوعه من مصر بالقدس الشريف وزاره وأمر ببناء حمام به، وبناء دار حديث أيضاً به، وخانقاه كما سيأتي بيانه. وفي أواخر ربيع الأول وصلت القناة إلى القدس التي أمر بعمارتها وتجديدها سيف الدين تنكز قطلبك، فقام بعمارتها مع ولاة تلك النواحي، وفرح المسلمون بها ودخلت حتى وسط المسجد الأقصى، وعمل به بركة هائلة، وهي مرخمة ما بين الصخرة والأقصى، وكان ابتداء عملها من شوال من السنة الماضية. وفي هذه المدة عمر سقوف شرافات[1] المسجد الحرام وإيوانه، وعمرت بمكة طهارة مما يلي باب بني شيبة.

---

(١) في ط: رواقات.

قال البرزالي: وفي هذا الشهر كملت عمارة الحمام الذي بسوق باب توما، وله بابان.
وفي ربيع الآخر نقض الترخيم الذي بحائط جامع دمشق القبلي من جهة الغرب مما يلي باب الزيادة، فوجدوا الحائط متجافياً فخيف من أمره، وحضر تنكز بنفسه ومعه القضاة وأرباب الخبرة، فاتفق رأيهم على نقضه وإصلاحه، وذلك يوم الجمعة بعد الصلاة سابع عشرين ربيع الآخر وكتب نائب السلطنة إلى السلطان يعلمه بذلك ويستأذنه في عمارته، فجاء المرسوم بالإذن بذلك، فشرع في نقضه يوم الجمعة سابع عشرين جمادى الأولى، وشرعوا في عمارته يوم الأحد تاسع جمادى الآخرة، وعمل محراب فيما بين الزيادة ومقصورة الخطابة يضاهي محراب الصحابة، ثم جدوا ولازموا في عمارته، وتبرع كثير من الناس بالعمل فيه من سائر الناس، فكان يعمل فيه كل يوم أزيد من مائة رجل، حتى كملت عمارة الجدار وأعيدت طاقاته وسقوفه في العشرين من رجب وذلك بهمة تقي الدين بن مراجل وهذا من العجب فإنه نقض الجدار وما يسامته من السقف، وأعيد في مدة لا يتخيل إلى أحد أن عمله يفرغ فيما يقارب هذه المدة جزماً، وساعدهم على سرعة الإعادة حجارة وجدوها في أساس الصومعة الغربية التي عند الغزالية، وقد كان في كل زاوية من هذا المعبد صومعة كما في الغربية والشرقية والقبلتين منه فأبيدت الشماليتين قديماً ولم يبق منهما من مدة ألوف من السنين سوى أس هذه المئذنة الغربية الشمالية، فكانت من أكبر العون على إعادة هذا الجدار سريعاً. ومن العجب أن ناظر الجامع ابن مراجل لم ينقص أحداً من أرباب المرتبات على الجامع شيئاً مع هذه العمارة.

وفي ليلة السبت خامس جمادى الأولى وقع حريق عظيم بالقرايين واتصل بالرماحين، واحترقت القيسارية والمسجد الذي هناك، وهلك للناس شيء كثير من الفرا والجوخ والأقمشة، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفي يوم الجمعة عاشره بعد الصلاة صلّي على القاضي شمس الدين بن الحريري قاضي قضاة الحنفية بمصر، وصلّي عليه صلاة الغائب بدمشق. وفي هذا اليوم قدم البريد يطلب برهان الدين بن عبد الحق الحنفي إلى مصر ليلي القضاء بها بعد ابن الحريري، فخرج مسافراً إليها، ودخل مصر في خامس عشرين جمادى الأولى، واجتمع بالسلطان فولاّه القضاء وأكرمه وخلع عليه وأعطاه بلغة بزناري، وحكم بالمدرسة الصالحية بحضرة القضاة والحجاب، ورسم له بجميع جهات ابن الحريري.

وفي يوم الاثنين تاسع جمادى الآخرة أخرج ما كان عند الشيخ تقي الدين بن تيمية من الكتب والأوراق والدواة والقلم، ومنع من الكتب والمطالعة، وحملت كتبه في مستهل رجب إلى خزانة الكتب بالعادلية الكبيرة. قال البرزالي: وكانت نحو ستين مجلداً، وأربع عشرة ربطة كراريس، فنظر القضاة والفقهاء فيها وتفرقوها بينهم، وكان سبب ذلك أنه أجاب لما كان رد عليه التقي بن الأخنائي المالكي في مسألة الزيارة فرد عليه الشيخ تقي الدين واستجهله وأعلمه أنه قليل البضاعة في العلم فطلع الأخنائي إلى السلطان وشكاه، فرسم السلطان عند ذلك بإخراج ما عنده من ذلك وكان ما كان، كما ذكرنا. وفي أواخره رسم لعلاء الدين بن القلانسي في

الدست[١]، مكان أخيه جمال الدين توقيراً لخاطره عن المباشرة، وأن يكون معلومه على قضاء العساكر والوكالة، وخلع عليهما بذلك.

وفي يوم الثلاثاء ثالث عشرين رجب رسم للأئمة الثلاثة الحنفي والمالكي والحنبلي بالصلاة في الحائط القبلي من الأموي، فعين المحراب الجديد الذي بين الزيادة والمقصورة للإمام الحنفي، وعين محراب الصحابة للمالكي، وعين محراب مقصورة الخضر الذي كان يصلي فيه المالكي للحنبلي، وعوض إمام محراب الصحابة بالكلاسة، وكان قبل ذلك في حال العمارة قد بلغ محراب الحنفية من المقصورة المعروفة بهم، ومحراب الحنابلة من خلفهم في الرواق الثالث الغربي وكانا بين الأعمدة، فنقلت[٢] تلك المحاريب، وعوضوا بالمحاريب المستقرة في الحائط القبلي واستقر الأمر كذلك.

وفي العشرين من شعبان مسك الأمير تمرتاش بن جوبان الذي أتى هارباً إلى السلطان الناصر بمصر وجماعة من أصحابه، وحبسوا بقلعة مصر، فلما كان ثاني شوال أظهر موته، ويقال إنه قتله السلطان وأرسل رأسه إلى أبي سعيد صاحب العراق ابن خربندا ملك التتار.

وفي يوم الاثنين ثاني شوال خرج الركب الشامي وأميره فخر الدين عثمان ابن الأمير شمس الدين لؤلؤ الحلبي أحد أمراء دمشق، وقاضيه قاضي قضاة الحنابلة عز الدين بن التقي سليمان. وممن حج الأمير حسام الدين الشبمقدار، والأمير قبجق والأمير حسام الدين بن النجيبي وتقي الدين بن السلعوس وبدر الدين بن الصائغ وابنا جهبل والفخر المصري، والشيخ علم الدين البرزالي، وشهاب الدين الظاهري. وقبل ذلك بيوم حكم القاضي المنفلوطي الذي كان حاكماً ببعلبك بدمشق نيابة عن شيخه قاضي القضاة علاء الدين القونوي، وكان مشكور السيرة، تألم أهل بعلبك لفقده، فحكم بدمشق عوضاً عن القونوي بسبب عزمه على الحج، ثم لما رجع الفخر من الحج عاد إلى الحكم واستمر المنفلوطي يحكم أيضاً، فصاروا ثلاثة نواب: ابن جملة والفخر المصري والمنفلوطي، وسافر ابن الحشيشي في ثاني عشرين شوال إلى القاهرة لينوب عن القاضي فخر الدين كاتب المماليك بالديار المصرية إلى حين رجوعه من الحجاز، فلما وصل ولّي حجابة ديوان الجيش، واستمر هناك، واستقل قطب الدين ابن شيخ السلامية بنظر الجيش بدمشق على عادته.

وفي شوال خلع على أمين الملك بالديار المصرية، وولّي نظر الدواوين فباشره شهراً ويومين وعزل عنه.

وفاة شيخ الإسلام أبي العباس تقي الدين أحمد بن تيمية

قال الشيخ علم الدين البرزالي في تاريخه: وفي ليلة الاثنين العشرين من ذي القعدة توفي الشيخ الإمام العالم العلم العلامة الفقيه الحافظ الزاهد العابد المجاهد القدوة شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد ابن شيخنا الإمام العلامة المفتي شهاب الدين أبي المحاسن عبد الحليم

---

(١) الدست: المجلس.

(٢) في ط: فقلعت.

ابن الشيخ الإمام شيخ الإسلام مجد الدين أبي البركات عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم محمد بن الخضر بن محمد بن الخضر بن علي بن عبد الله بن تيمية الحرّاني ثم الدمشقي، بقلعة دمشق بالقاعة التي كان محبوساً فيها، وحضر جمع كثير إلى القلعة، وأذن لهم في الدخول عليه، وجلس جماعة عنده قبل الغسل وقرؤوا القرآن وتبركوا برؤيته وتقبيله، ثم انصرفوا، ثم حضر جماعة من النساء ففعلن مثل ذلك ثم انصرفن واقتصروا على من يغسله، فلما فرغ من غسله أخرج ثم اجتمع الخلق بالقلعة والطريق إلى الجامع وامتلأ الجامع أيضاً وصحنه والكلاسة وباب البريد وباب الساعات إلى باب اللبادين والغوارة، وحضرت الجنازة في الساعة الرابعة من النهار أو نحو ذلك ووضعت في الجامع، والجند قد احتاطوا بها يحفظونها من الناس من شدة الزحام، وصلّي عليه أولاً بالقلعة، تقدم في الصلاة عليه أولاً الشيخ محمد بن تمام، ثم صلّي عليه بالجامع الأموي عقيب صلاة الظهر، وقد تضاعف اجتماع الناس على ما تقدم ذكره، ثم تزايد الجمع إلى أن ضاقت الرحاب والأزقة والأسواق بأهلها ومن فيها، ثم حمل بعد أن صلّي عليه على الرؤوس والأصابع وخرج النعش به من باب البريد واشتد الزحام وعلت الأصوات بالبكاء والنحيب والترحم عليه والثناء والدعاء له وألقى الناس على نعشه مناديلهم وعمائمهم وثيابهم، وذهبت النعال من أرجل الناس وقباقيبهم ومناديل وعمائم لا يلتفتون إليها لشغلهم بالنظر إلى الجنازة وصار النعش على الرؤوس تارة يتقدم وتارة يتأخر، وتارة يقف حتى تمر الناس، وخرج الناس من الجامع من أبوابه كلها وهي شديدة الزحام، كل باب أشد زحمة من الآخر، ثم خرج الناس من أبواب البلد جميعها من شدة الزحام فيها، لكن كان معظم الزحام من الأبواب الأربعة: باب الفرج الذي أخرجت منه الجنازة، وباب الفراديس، وباب النصر، وباب الجابية. وعظم الأمر بسوق الخيل وتضاعف الخلق وكثر الناس، ووضعت الجنازة هناك وتقدم للصلاة عليه هناك أخوه زين الدين عبد الرحمن، فلما قضيت الصلاة حمل إلى مقبرة الصوفية فدفن إلى جانب أخيه شرف الدين عبد الله رحمهما الله، وكان دفنه وقت العصر أو قبلها بيسير، وذلك من كثرة من يأتي ويصلي عليه من أهل البساتين وأهل الغوطة وأهل القرى وغيرهم وأغلق الناس حوانيتهم ولم يتخلف عن الحضور إلاّ إلا من هو عاجز عن الحضور، مع الترحم والدعاء له، وأنه لو قدر ما تخلف، وحضر نساء كثيرات بحيث حزرن[1] بخمسة عشر ألف امرأة، غير اللاتي كن على الأسطحة وغيرهن، الجميع يترحمن ويبكين عليه فيما قيل، وأما الرجال فحزروا بستين ألفاً إلى مائة ألف إلى أكثر من ذلك إلى مائتي ألف وشرب جماعة الماء الذي فضل من غسله. واقتسم جماعة بقية السدر الذي غسل به ودفع في الخيط الذي كان فيه الزئبق الذي كان في عنقه بسبب القمل مائة وخمسون درهماً، وقيل إن الطاقية التي كانت على رأسه دفع فيها خمسمائة درهماً. وحصل في الجنازة ضجيج وبكاء كثير، وتضرع وختمت له ختمات كثيرة بالصالحية وبالبلد، وتردد الناس إلى قبره أياماً كثيرة ليلاً ونهاراً يبيتون عنده ويصبحون، ورئيت له منامات صالحة كثيرة، ورثاه جماعة بقصائد جمة.

---

(١) حَزَر: قدر بالحرس وخمّن.

وكان مولده يوم الاثنين عاشر ربيع الأول بحران سنة إحدى وستين وستمائة، وقدم مع والده وأهله إلى دمشق وهو صغير، فسمع الحديث من ابن عبد الدائم وابن أبي الخير وابن عبدان والشيخ شمس الدين الحنبلي، والقاضي شمس الدين بن عطاء الحنفي، والشيخ جمال الدين بن الصيرفي، ومجد الدين بن عساكر والشيخ جمال الدين البغدادي، والنجيب بن المقداد، وابن أبي الخير، وابن علان وابن أبي بكر الهروي والكمال عبد الرحيم والفخر علي وابن شيبان والشرف بن القواس، وزينب بنت مكي، وخلق كثير سمع منهم الحديث، وقرأ بنفسه الكثير وطلب الحديث وكتب الطباق والإثبات ولازم السماع بنفسه مدة سنين، وقل أن سمع شيئاً إلا حفظه ثم اشتغل بالعلوم، وكان ذكياً كثير المحفوظ فصار إماماً في التفسير وما يتعلق به عارفاً بالفقه، فيقال إنه كان أعرف بفقه المذاهب من أهلها الذين كانوا في زمانه وغيره، وكان عالماً باختلاف العلماء، عالماً في الأصول والفروع والنحو واللغة، وغير ذلك من العلوم النقلية والعقلية، وما قطع في مجلس ولا تكلم معه فاضل في فن من الفنون إلا ظن أن ذلك الفن فنه، ورآه عارفاً به متقناً له، وأما الحديث فكان حامل رايته حافظاً له مميزاً بين صحيحه وسقيمه، عارفاً برجاله متضلعاً من ذلك، وله تصانيف كثيرة وتعاليق مفيدة في الأصول والفروع، كمل منها جملة وبيضت وكتبت عنه وقرئت عليه أو بعضها، وجملة كبيرة لم يكملها، وجملة كملها ولم تبيض إلى الآن. وأثنى عليه وعلى علومه وفضائله جماعة من فضلاء عصره، مثل القاضي الخويي[1]، وابن دقيق العيد، وابن النحاس، والقاضي الحنفي قاضي مصر ابن الحريري وابن الزملكاني وغيرهم، ووجدت بخط ابن الزملكاني أنه قال: اجتمعت فيه شروط الاجتهاد على وجهها، وأن له اليد الطولى في حسن التصنيف وجودة العبارة والترتيب والفهم والتبيين، وكتب على مصنف له هذه الأبيات الثلاثة:

مَـاذَا يَـقُـولُ الـوَاصِـفُـونَ لَـهُ ... وَصِـفَـاتُـهُ جَـلَّـتْ عَـنِ الـحَـصْـرِ
هُـوَ حُـجَّـةٌ لله قَـاهِـرَةٌ ... هُـوَ بَـيْـنَـنَـا أُعْـجُـوبَـةُ الـدَّهْـرِ
هُـوَ آيَـةٌ فِـي الـخَـلْـقِ ظَـاهِـرَةٌ ... أَنْـوَارُهَـا أَرْبَـتْ عَـلَـى الـفَـجْـرِ[2]

وهذا الثناء عليه، وكان عمره يومئذٍ نحو الثلاثين سنة، وكان بيني وبينه مودة وصحبة من الصغر، وسماع الحديث والطلب من نحو خمسين سنة، وله فضائل كثيرة، وأسماء مصنفاته وسيرته وما جرى بينه وبين الفقهاء والدولة وحبسه مرات وأحواله لا يحتمل ذكر جميعها هذا الموضع، وهذا الكتاب.

ولما مات كنت غائباً عن دمشق بطريق الحجاز ثم بلغنا خبر موته بعد وفاته بأكثر من خمسين يوماً لما وصلنا إلى تبوك، وحصل التأسف لفقده رحمه الله تعالى. هذا لفظه في هذا الموضع من تاريخه.

---

(١) في ط: الخوبي.
(٢) أربت على الفجر: فاقته ضياء ونوراً وبهاء.

ثم ذكر الشيخ علم الدين بعد إيراد هذه الترجمة جنازة أبي بكر بن أبي داود وعظمها، وجنازة الإمام أحمد ببغداد وشهرتها، وقال الإمام أبو عثمان الصابوني: سمعت أبا عبد الرحمن السيوفي يقول: حضرت جنازة أبي الفتح القواس الزاهد مع الشيخ أبي الحسن الدراقطني فلما بلغ إلى ذلك الجمع العظيم أقبل علينا وَقال سمعت أبا سهل بن زياد القطان يقول سمعت عبد الله بن أحمد بن حنبل يقول سمعت أبي يقول: قولوا لأهل البدع بيننا وبينكم الجنائز، قال ولا شك أن جنازة الإمام أحمد بن حنبل كانت هائلة عظيمة، بسبب كثرة أهل بلده واجتماعهم لذلك، وتعظيمهم له، وأن الدولة كانت تحبه، والشيخ تقي الدين بن تيمية رحمه الله توفي ببلدة دمشق، وأهلها لا يعشرون[1] أهل بغداد حينئذٍ كثرة، ولكنهم اجتمعوا لجنازته اجتماعاً لو جمعهم سلطان قاهر، وديوان حاصر لما بلغوا هذه الكثرة التي اجتمعوها في جنازته، وانتهوا إليها. هذا مع أن الرجل مات بالقلعة محبوساً من جهة السلطان، وكثير من الفقهاء والفقراء يذكرون عنه للناس أشياء كثيرة، مما ينفر منها طباع أهل الأديان، فضلاً عن أهل الإسلام. وهذه كانت جنازته.

قال: وقد اتفق موته في سحر ليلة الاثنين المذكور، فذكر ذلك مؤذن القلعة على المنارة بها وتكلم به الحراس على الأبرجة، فما أصبح الناس إلا وقد تسامعوا بهذا الخطب العظيم والأمر الجسيم، فبادر الناس على الفور إلى الاجتماع حول القلعة من كل مكان أمكنهم المجيء منه، حتى من الغوطة والمرج، ولم يطبخ أهل الأسواق شيئاً، ولا فتحوا كثيراً من الدكاكين التي من شأنها أن تفتح أوائل النهار على العادة، وكان نائب السلطنة تنكز قد ذهب يتصيد في بعض الأمكنة، فحارت الدولة ماذا يصنعون، وجاء الصاحب شمس الدين غبريال نائب القلعة فعزاه فيه، وجلس عنده، وفتح باب القلعة لمن يدخل من الخواص والأصحاب والأحباب، فاجتمع عند الشيخ في قاعته خلق من أخصاء أصحابه من الدولة وغيرهم من أهل البلد والصالحية، وجلسوا حوله وهم يبكون ويثنُون «على مثل ليلى يقتل المرء نفسه وكنت فيمن حضر هناك مع شيخنا الحافظ أبي الحجاج المزي رحمه الله، وكشفت عن وجه الشيخ ونظرت إليه وقبلته، وعلى رأسه عمامة بعذب مغروزة وقد علاه الشيب أكثر مما فارقناه. وأخبر الحاضرين أخوه زين الدين عبد الرحمن أنه قرأ هو والشيخ منذ دخل القلعة ثمانين ختمة وشرعا في الحادية والثمانين، فانتهينا فيها إلى آخر اقتربت الساعة ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر: ٥٤ ـ ٥٥] فشرع عند ذلك الشيخان الصالحان الخيران عبد الله بن المحب وعبد الله الزرعي الضرير ـ وكان الشيخ رحمه الله يحب قراءتهما ـ فابتدآ من أول سورة الرحمٰن حتى ختموا القرآن وأنا حاضر أسمع وأرى.

ثم شرعوا في غسل الشيخ وخرجت إلى مسجد هناك ولم يمكث عنده إلا من ساعد في غسله منهم شيخنا الحافظ المزي وجماعة من كبار الصالحين الأخيار، أهل العلم والإيمان، فما

[1] لا يعشرون: أي لا يصيرون عشرهم عدداً.

فرغ منه حتى امتلأت القلعة وضج الناس بالبكاء والثناء والدعاء والترحم، ثم ساروا به إلى الجامع فسلكوا طريق العمادية على العادلية الكبيرة، ثم عطفوا على ثلث الناطفانيين، وذلك أن سويقة باب البريد كانت قد هدمت لتصلح، ودخلوا بالجنازة إلى الجامع الأموي، والخلائق فيه بين يدي الجنازة وخلفها وعن يمينها وشمالها ما لا يحصى عدتهم إلا الله تعالى، فصرخ صارخ وصاح صائح وهكذا تكون جنائز أئمة السنة فتباكى الناس وضجوا عند سماع هذا الصارخ ووضع الشيخ في موضع الجنائز مما يلي المقصورة، وجلس الناس من كثرتهم وزحمتهم على غير صفوف، بل مرصوصين رصاً لا يتمكن أحد من السجود إلا بكلفة جو الجامع وبري الأزقة والأسواق، وذلك قبل أذان الظهر بقليل، وجاء الناس من كل مكان، ينوي خلق الصيام لأنهم لا يتفرغون في هذا اليوم لأكل ولا لشرب، وكثر الناس كثرة لا تحد ولا توصف، فلما فرغ من أذان الظهر أقيمت الصلاة عقبه على السدة خلاف العادة، فلما فرغوا من الصلاة خرج نائب الخطيب لغيبة الخطيب بمصر فصلّي عليه إماماً، وهو الشيخ علاء الدين الخراط ثم خرج الناس من كل مكان من أبواب الجامع والبلد كما ذكرنا، واجتمعوا بسوق الخيل، ومن الناس من تعجل بعد أن صلّى في الجامع إلى مقابر الصوفية، والناس في بكاء وتهليل في مخافتة كل واحد بنفسه، وفي ثناء وتأسف، والنساء فوق الأسطحة من هناك إلى المقبرة يبكين ويدعين ويقلن: هذا العالم.

وبالجملة كان يوماً مشهوداً لم يعهد مثله بدمشق اللهم إلا أن يكون في زمن بني أمية حين كان الناس كثيرين، وكانت دار الخلافة، ثم دفن عند أخيه قريباً من أذان العصر على التحديد، ولا يمكنْ أحد حصر من حضر الجنازة، وتقريب ذلك أنه عبارة عمن أمكنه الحضور من أهل البلد وحواضره ولم يتخلف من الناس إلا القليل من الصغار والمخدرات، وما علمت أحداً من أهل العلم إلا النفر اليسير تخلف عن الحضور في جنازته، وهم ثلاثة أنفس: وهم ابن جملة، والصدر، والقفجاري، وهؤلاء كانوا قد اشتهروا بمعاداته فاختفوا من الناس خوفاً على أنفسهم، بحيث إنهم علموا متى خرجوا قتلوا وأهلكهم الناس وتردد شيخنا الإمام العلامة برهان الدين الفزاري إلى قبره في الأيام الثلاثة وكذلك جماعة من علماء الشافعية، وكان برهان الدين الفزاري يأتي راكباً على حماره وعليه الجلالة والوقار رحمه الله.

وعملت له ختمات كثيرة ورئيت له منامات صالحة عجيبة، ورثي بأشعار كثيرة وقصائد مطولة جداً. وقد أفردت له تراجم كثيرة، وصنف في ذلك جماعة من الفضلاء وغيرهم، وسنحصر من مجموع ذلك ترجمة وجيزة في ذكر مناقبه وفضائله وشجاعته وكرمه ونصحه وزهادته وعبادته وعلومه المتنوعة الكثيرة المحررة ومصنفاته الكبار والصغار، التي احتوت على غالب العلوم ومفرداته في الاختيارات التي نصرها بالكتاب والسنة وأفتى بها.

وبالجملة كان رحمه الله من كبار العلماء وممن يخطىء ويصيب ولكن خطؤه بالنسبة إلى صوابه كنقطة في بحر لجيّ[1]، وخطؤه أيضاً مغفور له كما في صحيح البخاري: «إذا اجْتَهَدَ

(١) بحر لجيّ: واسع اللج، واللج معظم الماء، والجماعة الكثيرة.

الحاكِمُ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ وَإِذَا اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ»[١] فهو مأجور. وقال الإمام مالك بن أنس: كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا صاحب هذا القبر.

وفي سادس عشرين من ذي القعدة نقل نائب السلطنة سيف الدين تنكز حواصله وأمواله من دار الذهب داخل باب الفراديس إلى الدار التي أنشأها وكانت تعرف بدار فلوس، فسميت دار الذهب، وعزل خزنداره ناصر الدين محمد بن عيسى، وولي مكانه مملوكه أباجي. وفي ثاني عشرين القعدة جاء إلى مدينة عجلون سيل عظيم من أول النهار إلى وقت العصر، فهدم من جامعها وأسواقها ورباعها ودورها شيئاً كثيراً، وغرق سبعة نفر، وهلك للناس شيء كثير من الأموال والغلات والأمتعة والمواشي ما يقارب قيمته ألف ألف درهم والله أعلم، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفي يوم الأحد ثامن عشر ذي الحجة ألزم القاضي الشافعي الشيخ علاء الدين القونوي جماعة الشهود بسائر المراكز أن يرسلوا في عمائمهم العذبات[٢] ليتميّزوا بذلك عن عوام الناس، ففعلوا ذلك أياماً ثم تضرروا من ذلك فأرخص لهم في تركها، ومنهم من استمر بها. وفي يوم الثلاثاء عشرين ذي الحجة أفرج عن الشيخ الإمام العالم العلامة أبي عبد الله محمد بن قيم الجوزية، وكان معتقلاً بالقلعة أيضاً، من بعد اعتقال الشيخ تقي الدين بأيام من شعبان سنة ست وعشرين إلى هذا الحين، وجاء الخبر بأن السلطان أفرج عن الجاولي والأمير فرج بن قراسنقر، ولاجين المنصوري، وأحضروا بعد العيد بين يديه، وخلع عليهم. وفيه وصل الخبر بموت الأمير الكبير جوبان نائب السلطان أبي سعيد على تلك البلاد، ووفاة شمس الدين قراسنقر المنصوري أيضاً كلاهما في ذي القعدة من هذه السنة.

وجوبان هذا هو الذي ساق القناة الواصلة إلى المسجد الحرام، وقد غرم عليها أموالاً جزيلة كثيرة، وله تربة بالمدينة النبوية، ومدرسة مشهورة، وله آثار حسنة، وكان جيد الإسلام له همة عالية وقد دبر الممالك في أيام أبي سعيد مدة طويلة على السداد، ثم أراد أبو سعيد مسكه فتخلص من ذلك كما ذكرنا، ثم إن أبا سعيد قتل ابنه خواجا دمشق في السنة الماضية ففر ابنه الآخر تمرتاش هارباً إلى سلطان مصر، فآواه شهراً ثم ترددت الرسل بين الملكين في قتله فقتله صاحب مصر فيما قيل وأرسل برأسه إليه، ثم توفي أبوه بعده بقليل، والله أعلم بالسرائر.

وأما قراسنقر المنصوري فهو من جملة كبار أمراء مصر والشام، وكان من جملة من قتل الأشرف خليل بن المنصور كما تقدم، ثم ولي نيابة مصر مدة، ثم صار إلى نيابة دمشق ثم إلى نيابة حلب، ثم فر إلى التتر هو والأفرم والزردكاش فآواهم ملك التتار خربندا وأكرمهم وأقطعهم بلاداً كثيرة، وتزوج قراسنقر بنت هولاكو ثم كانت وفاته بمراغة بلده التي كان حاكماً بها في هذه

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام باب ٢٠، ٢١، ومسلم في الأقضية حديث ١٥، وأبو داود في الأقضية باب ٢، والنسائي في الأحكام باب ٢، والقضاة باب ٣، وابن ماجه في الأحكام باب ٣، وأحمد في المسند ١٩٨/٤، ٢٠٤، ٢٠٥.

(٢) العذبات: جمع عذبة وهي ما تدلى بين الكتفين من العمامة.

السنة، وله نحو تسعين سنة والله أعلم.

وممن توفي فيها من الأعيان شيخ الإسلام العلامة تقي الدين بن تيمية كما تقدم ذكر ذلك في الحوادث وسنفرد له ترجمة على حدة إن شاء الله تعالى.

الشريف العالم [الزاهد المحدث][1]: عز الدين

أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن عبد المحسن العلوي الحسيني العراقي الإسكندري الشافعي، سمع الكثير وحفظ الوجيز في الفقه، والإيضاح في النحو، وكان زاهداً متقللاً من الدنيا وبلغ تسعين سنة وعقله وعلمه وذهنه ثابت متيقظ، ولد سنة ثمان وثلاثين وستمائة، وتوفي يوم الجمعة خامس المحرم، ودفن بالإسكندرية بين الماوين رحمه الله.

الشمس محمد بن عيسى التكريدي[2]

كان فيه شهامة وصرامة، وكان يكون بين يدي الشيخ تقي الدين بن تيمية كالمنفذ لما يؤمر به وينهى عنه. ويرسله إلى الأمراء وغيرهم في الأمور المهمة، وله معرفة وفهم بتبليغ رسالته على أتم الوجوه توفي في الخامس من صفر بالقبيبات ودفن عند الجامع الكريمي رحمه الله تعالى.

الشيخ أبو بكر الصالحي

أبو بكر بن شرف بن محسن بن معن بن عثمان الصالحي، ولد سنة ثلاث وخمسين وستمائة، وسمع الكثير صحبة الشيخ تقي الدين بن تيمية والمزي، وكان ممن يحب الشيخ تقي الدين، وكان معهما كالخادم لهما، وكان فقيراً ذا عيال يتناول من الزكاة والصدقات ما يقوم بأوده، وأقام في آخر عمره بحمص، وكان فصيحاً مفوهاً، له تعاليق وتصانيف في الأصول وغيرها، وكان له عبادة وفيه خير وصلاح، وكان يتكلم على الناس بعد صلاة الجمعة إلى العصر من حفظه، وقد اجتمعت به مرة صحبة شيخنا المزي حين قدم من حمص فكان قويّ العبارة فصيحها متوسطاً في العلم، له ميل إلى التصوف والكلام في الأحوال والأعمال والقلوب وغير ذلك، وكان يكثر ذكر الشيخ تقي الدين بن تيمية. توفي بحمص في الثاني والعشرين من صفر من هذه السنة، وقد كان الشيخ يحض الناس على الإحسان إليه، وكان يعطيه ويرفده.

ابن الدواليبي البغدادي

الشيخ الصالح العالم العابد الرحلة المسند المعمر عفيف الدين أبو عبد الله محمد بن عبد المحسن بن أبي الحسين بن عبد الغفار البغدادي الأرجي الحنبلي المعروف بابن الدواليبي، شيخ دار الحديث المستنصرية، ولد في ربيع الأول سنة ثمان وثلاثين وستمائة، وسمع الكثير، وله إجازات عالية، واشتغل بحفظ الخرقي، وكان فاضلاً في النحو وغيره، وله شعر حسن

---

(١) سقط في ط.

(٢) في ط: البكري.

وكان رجلاً صالحاً جاوز التسعين وصار رحلة العراق، وتوفي يوم الخميس رابع جمادى الأولى[١] ودفن بمقبرة الإمام أحمد في مقابر الشهداء رضي الله عنهم رحمه الله، وقد أجازني فيمن أجاز من مشايخ بغداد ولله الحمد.

قاضي القضاة شمس الدين ابن الحريري

أبو عبد الله محمد بن صفي الدين أبي عمرو عثمان بن أبي الحسن عبد الوهاب الأنصاري الحنفي، ولد سنة ثلاث وخمسين، وسمع الحديث واشتغل وقرأ الهداية، وكان فقيهاً جيداً، ودرس بأماكن كثيرة بدمشق، ثم ولي القضاء بها، ثم خطب إلى قضاء الديار المصرية فاستمر بها مدة طويلة محفوظ العرض، لا يقبل من أحد هدية ولا تأخذه في الحكم لومة لائم، وكان يقول إن لم يكن ابن تيمية شيخ الإسلام فمن؟ وقال لبعض أصحابه: أتحب الشيخ تقي الدين؟ قال: نعم، قال: والله لقد أحببت شيئاً مليحاً. توفي رحمه الله يوم السبت رابع جمادى الآخرة ودفن بالقرافة. وكان قد عين لمنصبه القاضي برهان الدين بن عبد الحق فنفذت وصيته بذلك، وأرسل إليه إلى دمشق فأحضر فباشر الحكم بعده وجمع جهاته.

الشيخ الإمام العالم المقري

شهاب الدين أبو العباس أحمد ابن الشيخ الإمام تقي الدين محمد بن جبارة بن عبد الولي بن جبارة المقدسي المرداوي الحنبلي، شارح الشاطبية، ولد سنة تسع وأربعين وستمائة، وسمع الكثير وعني بفن القراءات فبرز فيه، وانتفع الناس به، وقد أقام بمصر مدة واشتغل بها على الفزاري[٢] في أصول الفقه، وتوفي بالقدس رابع رجب رحمه الله، وكان يعد من الصلحاء الأخيار، سمع عن خطيب مردا وغيره.

ابن العاقولي البغدادي

الشيخ الإمام العلامة جمال الدين أبو محمد عبد الله بن محمد بن علي بن حماد بن ثابت الواسطي العاقولي ثم البغدادي الشافعي، مدرس المستنصرية مدة طويلة نحواً من أربعين سنة، وباشر نظر الأوقاف وعين لقضاء القضاة في وقت. ولد ليلة الأحد عاشر رجب سنة ثمان وثلاثين وستمائة، وسمع الحديث وبرع واشتغل وأفتى من سنة سبع وخمسين إلى أن مات، وذلك مدة إحدى وسبعين سنة، وهذا شيء غريب جداً، وكان قوي النفس له وجاهة في الدولة، فكم كشف كربة عن الناس بسعيه وقصده، توفي ليلة الأربعاء رابع عشرين شوال، وقد جاوز التسعين سنة، ودفن بداره، وكان قد وقفها على شيخ وعشرة صبيان يسمعون القرآن ويحفظونه، ووقف عليها أملاكه كلها. تقبّل الله منه ورحمه، ودرس بعده بالمستنصرية قاضي القضاة قطب الدين.

الشيخ الصالح شمس الدين السلامي

شمس الدين محمد بن داود بن محمد بن ساب، السلامي البغدادي، أحد ذوي اليسار،

---

(١) في ط: رابع عشرين جمادى الأولى.
(٢) في ط: القرافي.

وله برٌ تام بأهل العلم، ولا سيما أصحاب الشيخ تقي الدين، وقد وقف كتباً كثيرة، وحج مرات، وتوفي ليلة الأحد رابع عشرين ذي القعدة بعد وفاة الشيخ تقي الدين بأربعة أيام. وصلّي عليه بعد صلاة الجمعة ودفن بباب الصغير رحمه الله وأكرم مثواه. وفي هذه الليلة توفيت الوالدة مريم بنت مفرج بن علي من قرية كان الوالدَ خطيبها، وهي مجيدل القرية سنة ثلاث وسبعين وستمائة، وصلّي عليها بعد الجمعة ودفنت بالصوفية شرقي قبر الشيخ تقي الدين بن تيمية رحمهما الله تعالى.

ثم دخلت سنة تسع وعشرين وسبعمائة

استهلت والخليفة والسلطان والحكام هم المباشرون في التي قبلها، غير أن قطب الدين ابن شيخ السلامية اشتغل بنظر الجيش. وفي المحرم طلب القاضي محيي الدين بن فضل الله كاتب سر دمشق وولده الصدر شهاب الدين، وشرف الدين بن شمس الدين بن الشهاب محمود إلى مصر على البريد، فباشر القاضي الصدر الكبير محيي الدين المذكور كتابة السر بها عوضاً عن علاء الدين بن الأثير لمرض اعتراه، وأقام عنده ولده شهاب الدين، وأقبل شرف الدين بن الشهاب محمود إلى دمشق على كتابة السر عوضاً عن ابن فضل الله. وفيه ذهب ناصر الدين مشد الأوقاف ناظراً على القدس والخليل، فعمر هنالك عمارات كثيرة لملك الأمراء تنكز، وفتح في الأقصى شباكين عن يمين المحراب وشماله وجاء الأمير نجم الدين داود بن محمد بن أبي بكر بن محمد بن يوسف بن الزيبق عوض شد الدواوين بحمص إلى شدها بدمشق. وفي الحادي والعشرين من صفر كمل ترخيم الحائط القبلي من جامع دمشق وبسط الجامع جميعه، وصلى الناس الجمعة به من الغد، وفتح باب الزيادة، وكان له أياماً مغلقاً وذلك في مباشرة تقي الدين بن مراجل.

وفي ربيع الآخر قدم من مصر أولاد الأمير شمس الدين قراسنقر إلى دمشق فسكنوا في دار أبيهم داخل باب الفراديس، في دهليز المقدمية، وأعيدت عليهم أملاكهم المخلفة عن أبيهم، وكانت تحت الحوطة، فلما مات في تلك البلاد أفرج عنها أو أكثرها. وفي يوم الجمعة آخر شهر ربيع الآخر أنزل الأمير جوبان وولده من قلعة المدينة النبوية وهما ميتان مصبران في توابيتهما، فصلّي عليهما بالمسجد النبوي، ثم دفنا بالبقيع عن مرسوم السلطان، وكان مراد جوبان أن يدفن في مدرسته فلم يمكن من ذلك.

وفي هذا اليوم صلّي بالمدينة النبوية على الشيخ تقي الدين بن تيمية رحمه الله، وعلى القاضي نجم الدين البالسي المصري صلاة الغائب. وفي يوم الاثنين منتصف جمادى الآخرة درس القاضي شهاب الدين أحمد بن جهبل بالمدرسة البادرانية عوضاً عن شيخنا برهان الدين الفزاري توفي إلى رحمة الله تعالى، وأخذ مشيخة دار الحديث منه الحافظ شمس الدين الذهبي، وحضرها في يوم الأربعاء سابع عشره، ونزل عن خطابة كفر بطنا للشيخ جمال الدين المسلاتي المالكي، فخطب بها يوم الجمعة تاسع عشره. وفي أواخر هذا الشهر قدم نائب حلب الأمير

سيف الدين أرغون إلى دمشق قاصداً باب السلطان، فتلقاه نائب دمشق وأنزله بداره التي عند جامعه، ثم سار نحو مصر فغاب نحواً من أربعين يوماً، ثم عاد راجعاً إلى نيابة حلب. وفي عاشر رجب طلب الصاحب تقي الدين بن عمر ابن الوزير شمس الدين بن السلعوس إلى مصر فولي نظر الدواوين بها حتى مات عن قريب.

وخرج الركب يوم السبت تاسع شوال وأميره سيف الدين بلطي، وقاضيه شهاب الدين القيمري وفي الحجاج زوجة ملك الأمراء تنكز، وفي خدمتها الطواشي شبل الدولة كافور وصدر الدين المالكي، وصلاح الدين ابن أخي الصاحب تقي الدين توبة، وأخوه شرف الدين، والشيخ علي المغربي، والشيخ عبد الله الضرير وجماعة.

وفي بكرة الأربعاء ثالث شوال جلس القاضي ضياء الدين علي بن سليم بن ربيعة للحكم بالعادلية الكبيرة نيابة عن قاضي القضاة القونوي، وعوضاً عن الفخر المصري بحكم نزوله عن ذلك وإعراضه عنه تاسع عشر رمضان من هذه السنة. وفي يوم الجمعة سادس ذي القعدة بعد أذان الجمعة صعد إلى منبر جامع الحاكم بمصر شخص من مماليك الجاولي يقال له أرضى[1]، فادّعى أنه المهدي وسجع سجعات يسيرة على رأي الكهّان، فأنزل في شر خيبة، وذلك قبل حضور الخطيب بالجامع المذكور. وفي ذي القعدة وما قبله وما بعده من أواخر هذه السنة وأوائل الأخرى وسعت الطرقات والأسواق داخل دمشق وخارجها، مثل سوق السلاح والرصيف والسوق الكبير وباب البريد ومسجد القصب إلى الزنجبيلية، وخارج باب الجابية إلى مسجد الدبان، وغير ذلك من الأماكن التي كانت تضيق عن سلوك الناس، وذلك بأمر تنكز، وأمر بإصلاح القنوات، واستراح الناس من ترشيش الماء عليهم بالنجاسات. ثم في العشر الأخير من ذي الحجة رسم بقتل الكلاب فقتل منهم شيء كثير جداً، ثم جمعوا خارج باب الصغير مما يلي باب كيسان في الخندق، وفرق بين الذكور والإناث منهم ليموتوا سريعاً، ولا يتوالدوا، وكانت الجيف والميتات تنقل إليهم فاستراح الناس من النجاسة من الماء والكلاب، وتوسعت لهم الطرقات.

وفي يوم الجمعة ثاني عشر ذي الحجة حضر مشيخة الشيوخ بالسميساطية قاضي القضاة شرف الدين المالكي بعد وفاة قاضي القضاة القونوي الشافعي، وقرىء تقليده بالمشيخة بها وحضره الأعيان وأعيد إلى ما كان عليه.

وممن توفي فيها من الأعيان:

[الشيخ][2] الإمام العالم [الزاهد مفتي المسلمين][3] نجم الدين

أبو عبد الله محمد بن عقيل بن أبي الحسن بن عقيل البالسي الشافعي، شارح التنبيه، ولد سنة ستين وستمائة، وسمع الحديث واشتغل بالفقه وغيره من فنون العلم، فبرع فيها ولازم ابن

---

(١) في ط: أرضى.
(٢) سقط في ط.
(٣) سقط في ط.

دقيق العيد وناب عنه في الحكم، ودرس بالمغربية(١) والطيبرسية وجامع مصر، وكان مشهوراً بالفضيلة والديانة وملازمة الاشتغال. توفي ليلة الخميس رابع عشر المحرم ودفن بالقرافة، وكانت جنازته حافلة، رحمه الله.

الأمير سيف الدين قطلوبك التشنكير الرومي

كان من أكابر الأمراء وولي الحجوبية في وقت، وهو الذي عمر القناة بالقدس، توفي يوم الاثنين سابع ربيع الأولى ودفن بتربته شمال باب الفراديس، وهي حسنة مشهورة، وحضر جنازته بسوق الخيل النائب والأمراء.

محدث اليمن

شرف الدين أحمد بن فقيه زبيد أبي الحسين بن منصور الشماخي المذحجي، روى عن المكيين وغيرهم، وبلغت شيوخه خمسمائة أو أزيد، وكان رحلة تلك البلاد ومفيدها الخير، وكان فاضلاً في صناعة الحديث والفقه وغير ذلك، توفي في ربيع الأول من هذه السنة.

نجم الدين أبو الحسن

علي بن محمد بن عمر بن عبد الرحمن بن عبد الواحد أبو محمد بن المسلم أحد رؤساء دمشق المشهورين، له بيت كبير ونسب عريق، ورياسة باذخة وكرم زائد، باشر نظر الأيتام مدة، وسمع الكثير وحدث، وكانت له فضائل وفوائد، وله الثروة الكثيرة، ولد سنة تسع وأربعين وستمائة، ومات يوم الاثنين ضحوة خامس ربيع الآخر، وصلّي عليه بعد الظهر بالأموي، ودفن بسفح قاسيون بتربة أعدها لنفسه، وقبران عنده، وكتب على قبره ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ [الزمر: ٥٣] الآية، وسمعنا عليه الموطأ وغيره.

الأمير بكتمر الحاجب

صاحب الحمام المشهور خارج باب النصر في طريق مقابر الصوفية من ناحية الميدان، كانت وفاته بالقاهرة في عشرين ربيع الآخر، ودفن بمدرسته التي أنشأها إلى جانب داره هناك.

الشيخ الصالح شرف الدين عيسى بن محمد بن قراجا بن سليمان

السهروردي الصوفي الواعظ، له شعر ومعرفة بالألحان والأنغام، ومن شعره قوله:

بُشْرَاكَ يا سَعْدُ هٰذا الحَيُّ قَدْ بَانَا ... فَحُلَّهَا سيبطل الابل وَالبَانَا(٢)

مَنَازِلٌ مَا وَرَدْنَا طِيبَ مَوْرِدِهَا ... حَتَّى شَرِبْنَا كُؤوسَ المَوْتِ أَلْوَانَا

---

(١) في ط: بالمعرية.

(٢) كذا في الأصل، وعجز البيت غير مستقيم الوزن.

مِـنَّـا غَـراماً وَشَـوْقـاً فِـي الـمَـسِـيـرِ لـهـا ... فَـمُـذْ وافـى نَـسِـيـمُ الـقُـرْبِ أَحْـيَـانـا

شيخنا العلامة برهان الدين الفزاري

هو الشيخ الإمام العالم العلامة شيخ المذهب وعلمه ومفيد أهله، شيخ الإسلام مفتي الفرق بقية السلف برهان الدين أبو إسحاق إبراهيم ابن الشيخ الإمام العلامة تاج الدين أبي محمد عبد الرحمن ابن الشيخ الإمام المقري المفتي برهان الدين أبي إسحاق إبراهيم بن سباع بن ضياء الفزاري البدري الشافعي، ولد في ربيع الأول سنة ستين وستمائة، وسمع الحديث واشتغل على أبيه وأعاد في حلقته وبرع وساد أقرانه، وسائر أهل زمانه من أهل مذهبه في دراية المذهب ونقله وتحريره، ثم كان في منصب أبيه في التدريس بالبادرائية، وأشغل الطلبة بالجامع الأموي فانتفع به المسلمون، وقد عرضت عليه المناصب الكبار فأباها، فمن ذلك أنه باشر الخطابة بعد عمه العلامة شرف الدين مدة ثم تركها وعاد إلى البادرائية، وعرض عليه قضاء قضاة الشام بعد ابن صصري وألح عليه نائب الشام بنفسه وأعوانه من الدولة فلم يقبل، وصمم وامتنع أشد الامتناع، وكان مقبلاً على شأنه عارفاً بزمانه مستغرقاً أوقاته في الاشتغال والعبادة ليلاً ونهاراً، كثير المطالعة وإسماع الحديث، وقد سمعنا عليه صحيح مسلم وغيره، وكان يدرس بالمدرسة المذكورة، وله تعليق كثير على التنبيه، فيه من الفوائد ما ليس يوجد في غيره، وله تعليق على مختصر ابن الحاجب في أصول الفقه، وله مصنفات في غير ذلك كبار. وبالجملة فلم أر شافعياً من مشايخنا مثله، وكان حسن الشكل عليه البهاء والجلالة والوقار، حسن الأخلاق، فيه حدة ثم يعود قريباً، وكرمه زائد وإحسانه إلى الطلبة كثير، وكان لا يقتني شيئاً ويصرف مرتبه وجامكية مدرسته في مصالحه، وقد درس بالبادرائية من سنة سبعين وستمائة إلى عامه هذا، توفي بكرة يوم الجمعة سابع جمادى الأولى بالمدرسة المذكورة وصلّي عليه عقب الجمعة بالجامع وحملت جنازته على الرؤوس وأطراف الأنامل، وكانت حافلة، ودفن عند أبيه وعمه وذويه بباب الصغير رحمه الله تعالى.

الشيخ الإمام العالم الزاهد الورع

مجد الدين إسماعيل الحرّاني الحنبلي، ولد سنة ثمان وأربعين وستمائة، وقرأ القراءات وسمع الحديث في دمشق حين انتقلوا معهم إليها، واشتغل على الشيخ شمس الدين بن أبي عمر، ولازمه وانتفع به، وبرع في الفقه وصحة النقل وكثرة الصمت عما لا يعنيه، ولم يزل مواظباً على جهاته ووظائفه لا ينقطع عنها إلا من عذر شرعي، إلى أن توفي ليلة الأحد تاسع جمادى الأولى ودفن بباب الصغير رحمه الله تعالى. وفي هذا الحين توفي.

الصاحب شرف الدين يعقوب بن عبد الله[١]

الذي كان ناظر الدواوين بحلب، ثم انتقل إلى نظرها بطرابلس. توفي بحماة، وكان محبّاً

---

(١) في ط: عبد الكريم.

للعلماء وأهل الخير، وفيه كرم وإحسان، وهو والد القاضي ناصر الدين كاتب السر بدمشق، وقاضي العساكر الحلبية ومشيخة الشيوخ بالسميساطية، ومدرس الأسدية بحلب، والناصرية والشامية الجوانية بدمشق.

القاضي معين الدين

هبة الله بن علم الدين مسعود بن أبي المعالي عبد الله بن أبي الفضل بن الخشيشي الكاتب وناظر الجيش بمصر في بعض الأحيان، ثم بدمشق مدة طويلة مستقلاً ومشاركاً لقطب الدين ابن شيخ السلامية، وكان خبيراً بذلك يحفظه على ذهنه، وكانت له يد جيدة في العربية والأدب والحساب وله نظم جيد، وفيه تودد وتواضع. توفي بمصر في نصف جمادى الآخرة ودفن بتربة الفخر كاتب المماليك.

قاضي القضاة علاء الدين القونوي

أبو الحسن عليّ بن إسماعيل بن يوسف القونوي التبريزي الشافعي، ولد بمدينة قونية في سنة ثمان وستين وستمائة تقريباً واشتغل هناك، وقدم دمشق سنة ثلاث وتسعين، وهو معدود من الفضلاء فازداد بها اشتغالاً، وسمع الحديث وتصدر للاشتغال بجامعها ودرس بالإقبالية ثم سافر إلى مصر فدرس بها في عدة مدارس كبار، وولي مشيخة الشيوخ بها وبدمشق، ولم يزل يشتغل بها وينفع الطلبة إلى أن قدم دمشق قاضياً عليها في سنة سبع وعشرين، وله تصانيف في الفقه وغيره، وكان يحرز علوماً كثيرة منها النحو والتصريف والأصلان والفقه، وله معرفة جيدة بكشاف الزمخشري، وفهم في الحديث، وفيه إنصاف كثير وأوصاف حسنة، وتعظيم لأهل العلم، وخرجت له مشيخة سمعناها عليه، وكان يتواضع لشيخنا المزي كثيراً، توفي ببستانه بالسهم يوم سبت بعد العصر رابع عشر ذي القعدة، وصلّي عليه من الغد، ودفن بسفح قاسيون سامحه الله تعالى.

الأمير حسام الدين لاجين المنصوري الحسامي

ويعرف بلاجين الصغير، ولي البر بدمشق مدة، ثم نيابة غزة ثم نيابة البيرة، وبها مات في ذي القعدة، ودفن هناك، وكان ابتنى تربة لزوجته ظاهر باب شرقي فلم يتفق دفنه بها ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤].

الصاحب عز الدين أبو يعلى

حمزة بن مؤيد الدين أبي المعالي أسعد بن عز الدين بن غالب المظفر ابن الوزير مؤيد الدين أبي المعالي بن أسعد بن العميد أبي يعلى بن حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي الدمشقي ابن القلانسي، أحد رؤساء دمشق الكبار، ولد سنة تسع وأربعين وستمائة، وسمع الحديث من جماعة، ورواه وسمعنا عليه، وله رياسة باذخة[1] وأصالة كثيرة وأملاك هائلة كافية

---

(١) باذخة: من بذخ: ارتفع، وتكبر، وعظم شأنه.

لما يحتاج إليه من أمور الدنيا ولم يزل معه صناعة للوظائف إلى أن ألزم بوكالة بيت السلطان ثم بالوزارة في سنة عشر كما تقدم ثم عزل، وقد صودر في بعض الأحيان، وكانت له مكارم على الخواص والكبار، وله إحسان إلى الفقراء والمحتاجين. ولم يزل معظماً وجيهاً عند الدولة من النواب والملوك والأمراء وغيرهم إلى أن توفي ببستانه ليلة السبت سادس الحجة، وصلّي عليه من الغد ودفن بتربته بسفح قاسيون، وله في الصالحية رباط حسن بمئذنة، وفيه دار حديث وبر وصدقة رحمه الله.

ثم دخلت سنة ثلاثين وسبعمائة

استهلت بالأربعاء والحكام بالبلاد هم المذكورون بالتي قبلها بالبلاد سوء الشافعي فإنه توفي وولّي مكانه في رابع المحرم منها علم الدين محمد بن أبي بكر بن عيسى بن بدران السبكي الاخنائي الشافعي وقدم دمشق في الرابع والعشرين منه صحبة نائب السلطنة تنكز، وقد زار القدس وحضر معه تدريس التنكزية التي أنشأها بها. ولما قدم دمشق نزل بالعادلية الكبيرة على العادة، ودرس بها وبالغزالية، واستمر بنيابة المنفلوطي، ثم استناب زين الدين بن المرحل، وفي صفر باشر شرف الدين محمود بن الخطير شد الأوقاف[١] وانفصل عنها نجم الدين بن الزيبق إلى ولاية نابلس. وفي ربيع الآخر شرع بترخيم الجانب الشرقي من الأموي نسبة الجانب الغربي، وشاور ابن مراجل النائب والقاضي على جمع الفصوص من سائر الجامع في الحائط القبلي، فرسما له بذلك. وفي يوم الجمعة أقيمت الجمعة في إيوان الشافعية بالمدرسة الصالحية بمصر، وكان الذي أنشأ ذلك الأمير جمال الدين نائب الكرك، بعد أن استفتى العلماء في ذلك. وفي ربيع الآخر تولى القضاء بحلب شمس الدين بن النقيب عوضاً عن فخر الدين بن البازري، توفي، وولي شمس الدين بن المجد البعلبكي قضاء طرابلس عوضاً عن ابن النقيب. وفي آخر جمادى الأولى باشر نيابة الحكم عن الأخنائي محيي الدين بن جهبل عوضاً عن المنفلوطي توفي.

وفي هذا الشهر وقف الأمير الوزير علاء الدين مغلطاي الناصري مدرسته على الحنفية وفيها صوفية أيضاً، ودرس بها القاضي علاء الدين بن التركماني، وسكنها الفقهاء. وفي جمادى الآخرة زينت البلاد المصرية والشامية ودقت البشائر بسبب عافية السلطان من وقعة انصدعت منها يده، وخلع على الأمراء والأطباء بمصر، وأطلقت الجيوش. وفي جمادى الآخرة قدم على السلطان رسلاً من الفرنج يطلبون منه بعض البلاد الساحلية فقال لهم: لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم، ثم سيرهم إلى بلادهم خاسئين.

وفي يوم الأحد سادس رجب حضر الدرس الذي أنشأه القاضي فخر الدين كاتب المماليك على الحنفية بمحرابهم بجامع دمشق، ودرس به الشيخ شهاب الدين ابن قاضي الحصين، أخو

(١) شد الأوقاف: وموضوعها التحدث على أوقاف المسلمين بدمشق (انظر صبح الأعشى ٤/١٩٣).

قاضي القضاة برهان الدين بن عبد الحق بالديار المصرية، وحضر عنده القضاة والأعيان، وانصرفوا من عنده إلى عند ابن أخيه صلاح الدين بالجوهرية، درس بها عوضاً عن حموه شمس الدين بن الزكي نزل له عنها وفي آخر رجب خطب بالجامع الذي أنشأه الأمير سيف الدين الماشي الحاجب ظاهر القاهرة بالشارع، وخطب بالجامع الذي أنشأه قوصون بين جامع طولون والصالحية، يوم الجمعة حادي عشر رمضان وحضر السلطان وأعيان الأمراء الخطبة، خطب به يومئذٍ قاضي القضاة جلال الدين القزويني الشافعي، وخلع عليه خلعة سنية، واستقل في خطابته فخر الدين بن شكر.

وخرج الركب الشامي يوم السبت حادي عشر شوال وأميره سيف الدين الموساوي صهر بلبان البيري، وقاضيه شهاب الدين بن المجد عبد الله مدرس الإقبالية، ثم تولى قضاء القضاة كما سيأتي، وممن حج في هذه السنة رضي الدين بن المنطيقي، والشمس الأردبيلي شيخ الجاروخية وصفي الدين بن الحريري، وشمس الدين خطيب يبرود، والشيخ محمد النيرباني وغيرهم، فلما قضوا مناسكهم رجعوا إلى مكة لطواف الوداع، فبينما هم في وقت سماع الخطبة إذ سمعوا جلبة الخيل من بني حسن وعبيدهم، قد حطموا على الناس [1] في المسجد الحرام، فثار إلى قتالهم الأتراك فاقتتلوا فقتل أمير من الطبلخانات بمصر، يقال له سيف الدين جخدار وابنه خليل، ومملوك له، وأمير عشيرة يقال له الباجي، وجماعة من الرجال والنساء ونهبت أموال كثيرة، ووقعت خبطة عظيمة في المسجد، وتهارب الناس إلى منازلهم بأبيار الزاهر، وما كادوا يصلون إليها وما أكملت الجمعة إلا بعد جهد، فإنا لله وإنا إليه راجعون واجتمعت الأمراء كلهم على الرجعة إلى مكة للأخذ بالثأر منهم، ثم كروا راجعين وتبعهم العبيد حتى وصلوا إلى مخيم الحجيج، وكادوا ينهبون الناس عامة جهرة، وصار أهل البيت في آخر الزمان يصدون الناس عن المسجد الحرام، وبنو الأتراك هم الذين ينصرون الإسلام وأهله ويكفون الأذية عنهم بأنفسهم وأموالهم، كما قال تعالى: ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤].

وممن توفي فيها من الأعيان:

علاء الدين بن الأثير

كاتب السر بمصر، علي بن أحمد بن سعيد بن محمد بن الأثير الحلبي الأصل، ثم المصري، كانت له حرمة ووجاهة وأموال وثروة ومكانة عند السلطان، حتى ضربه الفالج في آخر عمره فانعزل عن الوظيفة وباشرها ابن فضل الله في حياته.

الوزير العالم أبو القاسم

محمد بن محمد بن سهل بن محمد بن سهل الأزدي الغرناطي الأندلسي، من بيت الرياسة والحشمة ببلاد المغرب، قدم علينا إلى دمشق في جمادى الأولى سنة أربع وعشرين،

---

(١) حطموا على الناس: تزاحموا على الناس، وتأتي حطم بمعنى كسر وتقدم في السن، وهنا بمعنى تزاحم.

وهو بعزم الحج، فسمعت بقراءته صحيح مسلم في تسعة مجالس على الشيخ نجم الدين بن العسقلاني قراءة صحيحة، ثم كانت وفاته في القاهرة في ثاني عشرين المحرم، وكانت له فضائل كثيرة في الفقه والنحو والتاريخ والأصول، وكان عالي الهمة شريف النفس محترماً ببلاده جداً، بحيث إنه يولي الملوك ويعزلهم، ولم يل هو مباشرة شيء ولا أهل بيته، وإنما كان يلقب بالوزير مجازاً.

شيخنا الصالح العابد الناسك الخاشع

شمس الدين أبو عبد الله محمد ابن الشيخ الصالح العابد شرف الدين أبي الحسن بن حسين بن غيلان البعلبكي الحنبلي، إمام مسجد السلالين بدار البطيخ العتيقة، سمع الحديث وأسمعه، وكان يقرىء القرآن طرفي النهار، وعليه ختمت القرآن في سنة إحدى عشرة وسبعمائة، وكان من الصالحين الكبار، والعباد الأخيار، توفي يوم السبت سادس صفر وصلّي عليه بالجامع ودفن بباب الصغير، وكانت جنازته حافلة.

وفي هذا الشهر ـ أعني صفر ـ كانت وفاة والي القاهرة القديدار وله آثار غريبة ومشهورة.

بهادر آص الأمير الكبير

رأس ميمنة الشام، سيف الدين بهادر آص المنصوري أكبر أمراء دمشق، وممن طال عمره في الحشمة والثروة، وهو ممن اجتمعت فيه الآية الكريمة ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ﴾ [آل عمران: ١٤] الآية، وقد كان محبباً إلى العامة، وله بر وصدقة وإحسان، توفي ليلة الثلاثاء ودفن بتربته خارج باب الجابية، وهي مشهورة أيضاً.

الحجار ابن الشحنة

الشيخ الكبير المسند المعمر الرحلة شهاب الدين أبو العباس أحمد بن أبي طالب بن نعمة بن حسن بن علي بن بيان الديرمقرني[1] ثم الصالحي الحجار المعروف بابن الشحنة، سمع البخاري على الزبيدي سنة ثلاثين وستمائة بقاسيون، وإنما ظهر سماعه سنة ست وسبعمائة ففرح بذلك المحدثون وأكثروا السماع عليه، فقرأ البخاري عليه نحواً من ستين مرة وغيره، وسمعنا عليه بدار الحديث الأشرفية في أيام الشتويات نحواً من خمسمائة جزء بالإجازات والسماع، وسماعه من الزبيدي وابن اللتي، وله إجازة من بغداد فيها مائة وثمانية وثلاثون شيخاً من العوالي المسندين، وقد مكث مدة مقدم الحجارين نحواً من خمس وعشرين سنة، ثم كان يخبط في آخر عمره، واستقرت عليه جامكيته لما اشتغل بإسماع الحديث، وقد سمع عليه السلطان الملك الناصر، وخلع عليه وألبسه الخلعة بيده، وسمع عليه من أهل الديار المصرية والشامية أمم لا يحصون كثرة، وانتفع الناس بذلك، وكان شيخاً حسناً بهي المنظر سليم الصدر ممتعاً بحواسه وقواه، فإنه عاش مائة سنة محققاً، وزاد عليها، لأنه سمع البخاري من الزبيدي

---

(١) في ط: الدير مقني.

في سنة ثلاثين وستمائة وأسمعه هو في سنة ثلاثين وسبعمائة في تاسع صفر بجامع دمشق، وسمعنا عليه يومئذٍ ولله الحمد، ويقال إنه أدرك موت المعظم عيسىٰ بن العادل لما توفي، والناس يسمعهم يقولون مات المعظم، وقد كانت وفاة المعظم في سنة أربع وعشرين وستمائة، وتوفي الحجار يوم الاثنين خامس عشرين صفر من هذه السنة، وصلّي عليه بالمظفري يوم الثلاثاء ودفن بتربة له عند زاوية الدومي، بجوار جامع الأفرم. وكانت جنازته حافلة رحمه الله.

الشيخ نجم الدين بن عبد الرحيم بن عبد الرحمن

ابن نصر الموصلي المعروف بابن الشحام، اشتغل ببلده ثم سافر وأقام بمدينة سراي من مملكة إربل، ثم قدم دمشق في سنة أربع وعشرين فدرس بالظاهرية البرانية ثم بالجاروخية، وأضيف إليه مشيخة رباط القصر، ثم نزل عن ذلك لزوج ابنته نور الدين الأردبيلي، توفي في ربيع الأول وكان يعرف طرفاً من الفقه والطب.

الشيخ إبراهيم الهدمة: أصله كردي من بلاد الشرق، فقدم الشام، وأقام بين القدس والخليل، في أرض كانت مواتاً فأحياها وغرسها وزرع فيها أنواعاً، وكان يقصد للزيارة، ويحكي الناس عنه كرامات صالحة، وقد بلغ مائة سنة، وتزوج في آخر عمره ورزق أولاداً صالحين توفي في جمادى الآخرة رحمه الله

الست صاحبة التربة بباب الخواصين الخوندة المعظمة المحجبة المحترمة:

ستيتة بنت الأمير سيف الدين

كركاي المنصوري، زوجة نائب الشام تنكز، توفيت بدار الذهب وصلّي عليها بالجامع ثالث رجب، ودفنت بالتربة التي أمرت بإنشائها عند باب الخواصين، وفيها مسجد وإلى جانبها رباط للنساء ومكتب للأيتام. وفيها صدقات وبر وصلات وقراء عليها، كل ذلك أمرت به، وكانت قد حجّت في العام الماضي رحمها الله.

قاضي قضاة طرابلس

شمس الدين محمد بن عيسى بن محمود البعلبكي المعروف بابن المجد الشافعي، اشتغل ببلده وبرع في فنون كثيرة، وأقام بدمشق مدة يدرس بالقوصية وبالجامع، ويؤم في مدرسة أم الصالح، ثم انتقل إلى قضاء طرابلس فأقام بها أربعة أشهر، ثم توفي في سادس رمضان وتولاها بعده ولده تقي الدين وهو أحد الفضلاء المشهورين، ولم تطل مدته حتى عزل عنها وأخرج منها.

الشيخ الصالح

عبد الله بن أبي القاسم بن يوسف بن أبي القاسم الحوراني، شيخ طائفتهم وإليه مرجع زاويتهم بحوران، كان عنده تفقه بعض شيء، وزهادة ويزار، وله أصحاب يخدمونه، وبلغ السبعين سنة، وخرج لتوديع بعض أهله إلى ناحية الكرك من ناحية الحجاز فأدركه الموت هناك، فمات في أول ذي القعدة.

الشيخ حسن بن علي

ابن أحمد الأنصاري الضرير كان بفرد عين أولاً، ثم عمي جملة، وكان يقرأ القرآن ويكثر التلاوة ثم انقطع إلى المنارة الشرقية. وكان يحضر السماعات ويستمع ويتواجد، ولكثير من الناس فيه اعتقاد على ذلك، ولمجاورته في الجامع وكثرة تلاوته وصلاته والله يسامحه، توفي يوم السبت في العشر الأول من ذي الحجة بالمئذنة وصلّي عليه بالجامع، ودفن بباب الصغير.

محيي الدين أبو الثناء محمود

ابن الصدر شرف الدين القلانسي، توفي في ذي الحجة ببستانه، ودفن بتربتهم بسفح قاسيون وهو جد الصدر جلال الدين بن القلانسي، وأخيه علاء الدين، وهم ثلاثتهم رؤساء.

الشاب الرئيس

صلاح الدين يوسف ابن القاضي قطب الدين موسى ابن شيخ السلامية، ناظر الجيش أبوه، نشأ هذا الشاب في نعمة وحشمة وترفه وعشرة واجتماع بالأصحاب، توفي يوم السبت تاسع عشرين ذي الحجة فاستراح من حشمته وعشرته إن لم تكن وبالاً عليه، ودفن بتربتهم تجاه الناصرية بالسفح، وتأسف عليه أبواه ومعارفه وأصحابه سامحه الله.

ثم دخلت سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة

استهلت والحكام هم المذكورون في التي قبلها، وقد ذكرنا ما كان من عبيد مكة إلى الحجاج، وأنه قتل من المصريين أميران، فلما بلغ الخبر السلطان عظم عليه ذلك، وامتنع من الأكل على السماط فيما يقال أياماً، ثم جرد ستمائة فارس وقيل ألفاً، والأول أصح، وأرسل إلى الشام أن يجرد مقدماً آخر، فجرد الأمير سيف الدين الجيبغا العادلي. وخرج من دمشق يوم دخلها الركب في سادس عشرين المحرم، وأمر أن يسير إلى أيلة ليجتمع مع المصريين، وأن يسيروا جميعاً إلى الحجاز.

وفي يوم الأربعاء تاسع صفر وصل نهر الساجور إلى مدينة حلب، وخرج نائب حلب أرغون ومعه الأمراء مشاة إليه في تهليل وتكبير وتحميد، يتلقون هذا النهر، ولم يكن أحد من المعالي ولا غيرهم أن يتكلم بغير ذكر الله تعالى، وفرح الناس بوصوله إليهم فرحاً شديداً، وكانوا قد سعوا في تحصيله[1] من أماكن بعيدة احتاجوا فيها إلى نقب بعض الجبال، وفيها صخور ضخام صمّ وعقدوا له قناطر على الأودية، وما وصل إلا بعد جهد جهيد، وأمر شديد، فلِلّه الحمد وحده لا شريك له. وحين رجع نائب حلب أرغون مرض مرضاً شديداً ومات رحمه الله.

وفي سابع صفر وسع تنكز الطرقات بالشام ظاهر باب الجابية، وخرب كل ما يضيق

(١) في ط: تخليصه.

الطرقات. وفي ثاني ربيع الأول لبس علاء الدين بن القلانسي خلعة سنية لمباشرة نظر الدواوين ديوان ملك الأمراء، وديوان نظر المارستان، عوضاً عن ابن العادل، ورجع ابن العادل إلى حجابة الديوان الكبير. وفي يوم الخميس ثاني ربيع الأول لبس عماد الدين بن الشيرازي خلعة نظر الأموي عوضاً عن ابن مراجل عزل عنه لا إلى بدل عنه، وباشر جمال الدين بن القويرة نظر الأسرى عوضاً عن ابن الشيرازي. وفي يوم الخميس آخر ربيع الأول لبس القاضي شرف الدين بن عبد الله بن شرف الدين حسن ابن الحافظ أبي موسى عبد الله ابن الحافظ عبد الغني المقدسي خلعة قضاء الحنابلة عوضاً عن عز الدين بن التقي سليمان، توفي رحمه الله، وركب من دار السعادة إلى الجامع، فقرىء تقليده تحت النسر بحضرة القضاة والأعيان، ثم ذهب إلى الجوزية فحكم بها، ثم إلى الصالحية وهو لابس الخلعة، واستناب يومئذٍ ابن أخيه التقي عبد الله بن شهاب الدين أحمد. وفي سلخ ربيع الآخر اجتاز الأمير علاء الدين الطنبغا بدمشق وهو ذاهب إلى بلاد حلب نائباً عليها، عوضاً عن أرغون توفي إلى رحمة الله، وقد تلقاه الناس والجيش. وفي مستهل جمادى الأولى حضر الأمير الشريف رميثة بن أبي نمي إلى مكة، فقرىء تقليده بإمرة مكة من جهة السلطان، صحبة التجريدة، وخلع عليه وبايعه الأمراء المجردون من مصر والشام داخل الكعبة، وقد كان وصول التجاريد إلى مكة في سابع ربيع الأول، فأقاموا بباب المعلى، وحصل لهم خير كثير من الصلاة والطواف وكانت الأسعار رخيصة معهم.

وفي يوم السبت سادس ربيع الآخر خلع على القاضي عز الدين بن بدر الدين بن جماعة بوكالة السلطان ونظر جامع طولون ونظر الناصرية، وهنأه الناس عوضاً عن التاج أبي إسحاق عبد الوهاب توفي.ودفن بالقرافة. وفي هذا الشهر تولى عماد الدين ابن قاضي القضاة الأخنائي تدريس الصارمية وهو صغير بعد وفاة النجم هاشم بن عبد الله البعلبكي الشافعي، وحضرها في رجب وحضر عنده الناس خدمة لأبيه، وفي حادي عشر جمادى الآخرة رجعت التجريدة من الحجاز صحبة الأمير سيف الدين الحي بغا، وكانت غيبتهم خمسة أشهر وأياماً وأقاموا بمكة شهراً واحداً ويوماً واحداً وحصل للعرب منهم رعب عظيم شديد، وخوف أكيد، وعزلوا عن مكة عطية وولوا أخاه رميثة وصلوا وطافوا واعتمروا، ومنهم من أقام هناك ليحج. وفي ثاني رجب خلع على ابن أبي الطيب بنظر ديوان بيت المال عوضاً عن ابن الصاين توفي.

وفي أوائل شعبان حصل بدمشق هواء شديد مزعج كسر كثيراً من الأشجار والأغصان، وألقى بعض الحيطان والجدران، وسكن بعد ساعة بإذن الله، فلما كان يوم تاسعه سقط برد كبار مقدار بيض الحمام، وكسر بعض جامات الحمام[1]. وفي شهر شعبان هذا خطب بالمدرسة المعزية على شاطىء النيل أنشأها الأمير سيف الدين طغزدمر، أمير مجلس الناصري، وكان الخطيب بها عز الدين عبد الرحيم بن الفرات الحنفي. وفي نصف رمضان قدم الشيخ تاج الدين عمر بن علي بن سالم الملحي[2] ابن الفاكهاني المالكي، فنزل عند القاضي الشافعي، وسمع

---

(١) الجامات: جمع جام، وهو الكأس.
(٢) في ط: البلخي.

عليه شيئاً من مصنفاته، وخرج إلى الحج عامئذٍ مع الشاميين، وزار القدس قبل وصوله إلى دمشق. وفي هذا الشهر وطىء سوق الخيل وركبت فيه حصبات كثيرة، وعمل فيه نحو من أربعمائة نفس في أربعة أيام حتى ساووه وأصلحوه، وقد كان قبل ذلك يكون فيه مياه كثيرة، وملقات[١]. وفيه أصلح سوق الدقيق ظاهر باب الجابية إلى الثابتية وسقف عليه السقوف.

وخرج الركب الشامي يوم الاثنين ثامن شوال وأميره عز الدين أيبك، أمير علم، وقاضيه شهاب الدين الظاهري، وممن حج فيه شهاب الدين بن جهبل وأبو النسر وابن جملة والفخر المصري والصدر المالكي وشرف الدين الكفوي[٢] الحنفي، والبهاء ابن إمام المشهد وجلال الدين الأعيالي ناظر الأيتام، وشمس الدين الكردي، وفخر الدين البعلبكي، ومجد الدين بن أبي المجد، وشمس الدين بن قيم الجوزية، وشمس الدين ابن خطيب بيرة[٣]، وشرف الدين قاسم العجلوني، وتاج الدين ابن الفاكهاني والشيخ عمر السلاوي، وكاتبه إسماعيل بن كثير، وآخرون من سائر المذاهب، حتى كان الشيخ بدر الدين يقول: اجتمع في ركبنا هذا أربعمائة فقيه وأربع مدارس وخانقاه، ودار حديث، وقد كان معنا من المفتيين ثلاثة عشر نفساً، وكان في المصريين جماعة من الفقهاء منهم قاضي المالكية تقي الدين الأخنائي، وفخر الدين النويري، وشمس الدين بن الحارثي، ومجد الدين الأقصرائي، وشيخ الشيوخ الشيخ محمد المرشدي. وفي ركب العراق الشيخ أحمد السروجي، وكان من المشاهير. وفي الشاميين الشيخ علي الواسطي صحبة ابن المرجاني، وأمير المصريين مغلطاي الجمالي الذي كان وزيراً في وقت، وكان إذ ذاك مريضاً، ومررنا بعين تبوك وقد أصلحت في هذه السنة، وصينت من دوس الجمال والجمالين، وصار ماؤها في غاية الحسن والصفاء والطيب، وكانت وقفة الجمعة ومطرنا في الطواف، وكانت سنة مرخصة آمنة.

وفي نصف ذي الحجة رجع تنكز من ناحية قلعة جعبر، وكان في خدمته أكثر الجيش الشامي، وأظهر أبهة عظيمة في تلك النواحي. وفي سادس عشر ذي الحجة وصل توقيع القاضي علاء الدين بن القلانسي بجميع جهات أخيه جمال الدين بحكم وفاته مضافة إلى جهاته، فاجتمع له من المناصب الكبار ما لم يجتمع لغيره من الرؤساء في هذه الأعصار، فمن ذلك: وكالة بيت المال، وقضاء العسكر وكتابة الدست، ووكالة ملك الأمراء، ونظر البيمارستان[٤]، ونظر الحرمين، ونظر ديوان السعيد، وتدريس الأمينية والظاهرية والعصرونية وغير ذلك من الوظائف.

ومن توفي فيها من الأعيان:

قاضي القضاة عز الدين المقدسي

أبو عبد الله بن محمد ابن قاضي القضاة تقي الدين سليمان بن حمزة بن أحمد بن عمر

---

(١) ملقات: جمع ملقه، وهي الحجرة الملساء. (٢) في ط: الكفري.
(٣) في ط: بيرود. (٤) البيمارستان: المستشفى.

ابن الشيخ أبي عمر المقدسي الحنبلي، ولد سنة خمس وستين وستمائة، وسمع الحديث واشتغل على والده واستنابه في أيام ولايته، فلما ولّي ابن مسلم لزم بيته يحضر درس الجوزية ودار الحديث الأشرفية بالجبل ويأوي إلى بيته، فلما توفي ابن مسلم ولّي قضاء الحنابلة[١] بعده نحواً من أربع سنين، وكان فيه تواضع وبرّ وقضاء لحوائج المسلمين، توفي يوم الأربعاء تاسع صفر، وكان يوماً مطيراً، ومع هذا شهد الناس جنازته، ودفن بتربتهم رحمهم الله، وتولى المنصب بعده نائبه شرف الدين ابن الحافظ، وقد قارب الثمانين. وفي نصف صفر توفي.

الأمير سيف الدين قجليس

سيف النعمة، وقد كان سمع على الحجار ووزيره بالقدس الشريف.

وفي منتصف صفر توفي

الأمير الكبير سيف الدين أرغون بن عبد الله الدوادار

الناصري، وقد عمل على نيابة مصر مدة طويلة، ثم غضب عليه السلطان فأرسله إلى نيابة حلب، فمكث بها مدة ثم توفي بها في سابع عشر ربيع الأول، ودفن بتربة اشتراها بحلب، وقد كان عنده فهم عظيم وفقه، وفيه ديانة واتباع للشريعة، وقد سمع البخاري بالحجاز وكتبه جميعه بخطه، وأذن له بعض العلماء في الإفتاء، وكان يميل إلى الشيخ تقي الدين بن تيمية وهو بمصر، توفي ولم يكمل الخمسين سنة، وكان يكره اللهو رحمه الله. ولما خرج يلتقي نهر الساجور خرج في ذل ومسكنة، وخرج معه الأمراء كذلك مشاة في تكبير وتهليل وتحميد، ومنع المغاني من اللهو واللعب في ذلك رحمه الله.

القاضي ضياء الدين

أبو الحسن علي بن سليم بن ربيع بن سليمان الأذرعي الشافعي، تنقل في ولاية الأقضية بمدارس كثيرة، مدة ستين سنة، وحكم بطرابلس وعجلون وزرع وغيرها، وحكم بدمشق نيابة عن القونوي نحواً من شهر، وكان عنده فضيلة وله نظم كثير، نظم التنبيه في نحو ستة عشر ألف بيت، وتصحيحها في ألف وثلاثمائة بيت، وله مدائح وموالياً وأزجال وغير ذلك، ثم كانت وفاته بالرملة يوم الجمعة ثالث عشرين ربيع الأول عن خمس وثمانين سنة رحمه الله، وله عدة أولاد منهم عبد الرزاق أحد الفضلاء، وهو ممن جمع بين علمي الشريعة والطبيعة.

أبو دبوس[٢] عثمان بن معيد المغربي

تملك في وقت بلاد قابس ثم تغلب عليه جماعة فانتزعوها منه فقصد مصر فأقام بها وأقطع إقطاعاً، وكان يركب مع الجند في زي المغاربة متقلداً سيفاً، وكان حسن الهيئة يواظب على الخدمة إلى أن توفي في جمادى الأولى.

---

(١) في ط: القضاة.

(٢) في ط: رويس.

الإمام العالم ضياء الدين أبو العباس

أحمد بن قطب الدين محمد بن عبد الصمد بن عبد القادر السنباطي الشافعي، مدرس الحسامية ونائب الحكم بمصر، وأعاد في أماكن كثيرة، وتفقه على والده، توفي في جمادى الآخرة وتولى الحسامية بعد ناصر الدين التبريزي[١].

الصدر الكبير تاج الدين الكارمي

المعروف بابن الرهايلي، كان من أكابر تجار دمشق الكارمية وبمصر، توفي في جمادى الآخرة، يقال إنه خلف مائة ألف دينار غير البضائع والأثاث والأملاك.

الإمام العلامة فخر الدين

عثمان بن إبراهيم بن مصطفى بن سليمان المارداني التركماني، الحنفي شرح فخر الدين هذا الجامع وألقاه دروساً في مائة كراس، توفي في رجب وله إحدى وسبعون سنة، كان شجاعاً[٢] عالماً فاضلاً، وقوراً فصيحاً حسن المفاكهة، وله نظم حسن. وولّي بعده المنصورية ولده تاج الدين.

تقي الدين عمر ابن الوزير شمس الدين

محمد بن عثمان بن السلعوس، كان صغيراً لما مات أبوه تحت العقوبة، ثم نشأ في الخدم ثم طلبه السلطان في آخر وقت فولاّه نظر الدواوين بمصر، فباشره يوماً واحداً وحضر بين يدي السلطان يوم الخميس، ثم خرج من عنده وقد اضطرب حاله فما وصل إلى منزله إلا في محفة[٣]، ومات بكرة يوم السبت سادس عشرين ذي القعدة، وصلّي عليه بجامع عمرو بن العاص، ودفن عند والده بالقراقة. وكانت جنازته حافلة.

جمال الدين أبو العباس

أحمد بن شرف الدين بن جمال الدين محمد بن أبي الفتح نصر الله بن المظفر بن أسد بن حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي الدمشقي ابن القلانسي، قاضي العساكر ووكيل بيت المال ومدرس الأمينية وغيرها حفظ التنبيه ثم المحرر للرافعي، وكان يستحضره، واشتغل على الشيخ تاج الدين الفزاري، وتقدم لطلب العلم والرئاسة، وباشر جهات كباراً، ودرس في أماكن وتفرد في وقته بالرياسة والبيت والمناصب الدينية والدنيوية، وكان فيه تواضع وحسن سمت[٤] وتودد وإحسان وبر بأهل العلم والفقراء والصالحين وهو ممن أذن له في الإفتاء وكتب إنشاء ذلك وأنا حاضر على البديهة فأفاد وأجاد، وأحسن التعبير وعظم في عيني. توفي

---

(١) في ط: البريدي. (٢) في ط: شيخاً.
(٣) المحفة: مركب كالهودج يحمل عليه المريض أو المسافر.
(٤) السمت: الطرق، والمحجة وهيئة أهل الخير.

يوم الاثنين ثامن عشرين ذي القعدة، ودفن بتربتهم بالسفح، وقد سمع الحديث على جماعة من المشايخ وخرج له فخر الدين البعلبكي مشيخة سمعناها عليه رحمه الله.

ثم دخلت سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة

استهلت وحكام البلاد هم هم، وفي أولها فتحت القيسارية التي كانت مسبك الفولاذ جواباب الصغير حولها تنكز قيسارية ببركة. وفي يوم الأربعاء ذكر الدرس بالأمينية والظاهرية علاء الدين بن القلانسي عوضاً عن أخيه جمال الدين، وذكر ابن أخيه أمين الدين محمد بن جمال الدين الدرس في العصرونية، تركها له عمه، وحضر عندهما جماعة من الأعيان. وفي تاسع المحرم جاء إلى حمص سيل عظيم غرق بسببه خلق كثير وجم غفير، وهلك للناس أشياء كثيرة. وممن مات فيه نحو مائتي امرأة بحمام النائب، كن مجتمعات على عروس أو عروسين فهلكن جميعاً.

وفي صفر أمر تنكز ببياض الجدران المقابلة لسوق الخيل إلى باب الفراديس، وأمر بتجديد خان الظاهر، فغرم عليه نحواً من سبعين ألفاً. وفي هذا الشهر وصل تابوت لاجين الصغير من البيرة فدفن بتربته خارج باب شرقي. وفي تاسع ربيع الآخر حضر الدرس بالقيمازية عماد الدين الطرسوسي الحنفي عوضاً عن الشيخ رضى الدين المنطيقي، توفي، وحضر عنده القضاة والأعيان. وفي أول ربيع الآخر خلع على الملك الأفضل علي ابن الملك المؤيد صاحب حماة وولاّه السلطان الملك الناصر مكان أبيه بحكم وفاته، وركب بمصر بالعصائب والسبابة والفاشية أمامه. وفي نصف هذا الشهر سافر الشيخ شمس الدين الأصفهاني شارح المختصر ومدرس الرواحية إلى الديار المصرية على خيل البريد وفارق دمشق وأهلها واستوطن القاهرة.

وفي يوم الجمعة تاسع جمادى الأولى خطب بالجامع الذي أنشأه الأمير سيف الدين آل ملك واستقر فيه خطيباً نورالدين علي بن شبيب الحنبلي. وفيه أرسل السلطان جماعة من الأمراء إلى الصعيد فأحاطوا على نحو من خمسمائة رجل ممن كان يقطع الطريق فأتلف بعضهم. وفي جمادى الآخرة تولى شد الدواوين بدمشق نورالدين بن الخشاب عوضاً عن الطرقشي. وفي يوم الأربعاء حادي عشر رجب خلع على قاضي القضاة علاء الدين ابن الشيخ زين الدين بن المنجا بقضاء الحنابلة عوضاً عن شرف الدين ابن الحافظ، وقرىء تقليده بالجامع، وحضر القضاة والأعيان. وفي اليوم الثاني استناب برهان الدين الزرعي. وفي رجب باشر شمس الدين موسى بن التاج إسحاق نظر الجيوش بمصر عوضاً عن فخر الدين كاتب المماليك توفي، وباشر النشو مكانه في نظر الخاص، وخلع عليه بطرحة، فلما كان في شعبان عزل هو وأخوه العلم ناظر الدواوين وصودروا وضربوا ضرباً عظيماً، وتولى نظر الجيش المكين بن قروينة، ونظر الدواوين أخوه شمس الدين بن قروينة.

وفي شعبان كان عرس أنوك، ويقال كان اسمه محمد ابن السلطان الملك الناصر، على بنت الأمير سيف الدين بكتمر الساقي، وكان جهازها بألف ألف دينار، وذبح في هذا العرس من

الأغنام والدجاج والأوز والخيل والبقر نحو من عشرين ألفاً، وعملت حلوى بنحو ثمانية عشر ألف قنطار، وحمل له من الشمع ثلاثة آلاف قنطار، قاله الشيخ أبو بكر الرحبي وكان هذا العرس ليلة الجمعة حادي عشر شعبان وفي شعبان هذا حول القاضي محيي الدين بن فضل الله من كتابة السر بمصر إلى كتابة السر بدمشق، ونقل شرف الدين بن شمس الدين بن الشهاب محمود إلى كتابة السر بمصر، وأقيمت الجمعة بالشامية البرانية في خامس عشرين شعبان، وحضرها القضاة والأمراء، وخطب بها الشيخ زين الدين عبد النور المغربي وذلك بإشارة الأمير حسام الدين البشمقدار الحاجب بالشام، ثم خطب عنه كمال الدين بن الزكي، وفيه أمر نائب السلطنة بتبييض البيوت من سوق الخيل إلى ميدان الحصا، ففعل ذلك. وفيه زادت الفرات زيادة عظيمة لم يسمع بمثلها، واستمرت نحواً من اثني عشر يوماً فأتلفت بالرحبة أموالاً كثيرة، وكسرت الجسر الذي عند دير بشر، وغلت الأسعار هناك فشرعوا في إصلاح الجسر، ثم انكسر مرة ثانية.

وفي يوم السبت تاسع شوال خرج الركب الشامي وأميره سيف الدين أوزان، وقاضيه جمال الدين بن الشريشي، وهو قاضي حمص الآن، وحج السلطان في هذه السنة وصحبته قاضي القضاة القزويني وعز الدين بن جماعة، وموفق الدين الحنبلي، وسبعون أميراً. وفي ليلة الخميس حادي عشرين شوال رسم على الصاحب عز الدين غبريال بالمدرسة النجيبية الجوانية، وصودر وأخذت منه أموال كثيرة، وأفرج عنه في المحرم من السنة الآتية.

ومن توفي فيها من الأعيان:

الشيخ عبد الرحمن بن أبي محمد بن محمد

ابن سلطان القرامزي، أحد المشاهير بالعبادة والزهادة وملازمة الجامع الأموي، وكثرة التلاوة والذكر، وله أصحاب يجلسون إليه، وله مع هذا ثروة وأملاك، توفي في مستهل المحرم عن خمس أو ست وثمانين سنة، ودفن بباب الصغير، وكان قد سمع الحديث واشتغل بالعلم ثم ترك ذلك واشتغل بالعبادة إلى أن مات.

الملك المؤيد صاحب حماة

عماد الدين إسماعيل ابن الملك الأفضل نورالدين علي ابن الملك المظفر تقي الدينمحمود ابن الملك المنصور ناصر الدين محمد ابن الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، كانت له فضائل كثيرة في علوم متعددة من الفقه والهيئة والطب وغير ذلك، وله مصنفات عديدة، منها تاريخ حافل حسن مختصر في مجلدين كبيرين وله نظم الحاوي وغير ذلك، وكان يحب العلماء ويشاكلهم، ويشاركهم في فنون كثيرة، وكان من فضلاء بني أيوب، ولّي ملك حماة من سنة إحدى وعشرين إلى هذا الحين، وكان الملك الناصر يكرمه ويعظمه، وولّي بعده ولده الأفضل عليّ، توفي في سحر يوم الخميس ثامن عشرين المحرم، ودفن ضحوة عند والديه بظاهر حماة.

القاضي الإمام تاج الدين السعدي

تاج الدين أبو القاسم عبد الغفار بن محمد بن عبد الكافي بن عوض بن سنان بن عبد الله السعدي الفقيه الشافعي، سمع الكثير وخرج لنفسه معجماً في ثلاثة مجلدات، وقرأ بنفسه الكثير، وكتب الخط الجيد، وكان متقناً عارفاً بهذا الشأن، يقال إنه كتب بخطه نحواً من خمسمائة مجلد، وقد كان شافعياً مفتياً، ومع هذا ناب في وقت عن القاضي الحنبلي، وولّي مشيخة الحديث بالمدرسة الصاحبية، وتوفي بمصر في مستهل ربيع الأول عن ثنتين وثمانين سنة، رحمه الله.

الشيخ [الإمام العالم][١] رضي الدين إبراهيم بن سليمان

المنطيقي الحنفي، أصله من أب كرم، من بلاد قونية، وأقام بحماة ثم بدمشق. ودرس بالقيمازية، وكان فاضلاً في المنطق والجدل، واشتغل عليه جماعة في ذلك، وبلغ من العمر ستاً وثمانين سنة، وحج سبع مرات، توفي ليلة الجمعة سادس عشرين ربيع الأول، وصلّي عليه بعد الصلاة ودفن بالصوفية وفي ربيع الأول توفي.

الأمير علاء الدين طيبغا

ودفن بتربته بالصالحية.

وكذلك الأمير سيف الدين زولاق، ودفن بتربته بالصالحية أيضاً.

قاضي القضاة شرف الدين أبو محمد

عبد الله بن الحسن بن عبد الله ابن الحافظ عبد الغني المقدسي الحنبلي، ولد سنة ست وأربعين وستمائة، وباشر نيابة ابن مسلم مدة، ثم ولّي القضاء في السنة الماضية، ثم كانت وفاته فجأة في مستهل جمادى الأولى ليلة الخميس، ودفن من الغد بتربة الشيخ أبي عمر.

الشيخ ياقوت الحبشي

الشاذلي الإسكندراني، بلغ الثمانين، وكان له أتباع، وأصحاب منهم شمس الدين بن اللبان الفقيه الشافعي، وكان يعظمه ويطريه وينسب إليه مبالغات الله أعلم بصحتها وكذبها، توفي في جمادى وكانت جنازته حافلة جداً.

النقيب ناصح الدين

محمد بن عبد الرحيم بن قاسم بن إسماعيل الدمشقي، نقيب المتعممين، تتلمذ أولاً للشهاب المقري ثم كان بعده في المحافل للعزاء والهناء، وكان يعرف هذا الفن جيداً، وكان كثير الطلب من الناس، ويطلبه الناس لذلك، ومع هذا مات وعليه ديون كثيرة، توفي في أواخر رجب.

---

(١) سقط في ط.

القاضي فخر الدين كاتب المماليك

وهو محمد بن فضل الله ناظر الجيوش بمصر، أصله قبطي فأسلم وحسن إسلامه، وكانت له أوقاف كثيرة، وبر وإحسان إلى أهل العلم، وكان صدراً معظماً، حصل له من السلطان حظ وافر، وقد جاوز السبعين وإليه تنسب الفخرية بالقدس الشريف، توفي في نصف رجب واحتيط على أمواله وأملاكه بعد وفاته رحمه الله.

الأمير سيف الدين الجابي الدوادار الملكي الناصري

كان فقيهاً حنفياً فاضلاً، كتب بخطه ربعة وحصل كتباً كثيرة معتبرة، وكان كثير الإحسان إلى أهل العلم، توفي في سلخ رجب رحمه الله.

الطبيب الماهر الحاذق الفاضل

أمين الدين سليمان بن داود بن سليمان، كان رئيس الأطباء بدمشق ومدرسهم مدة، ثم عزل بجمال الدين بن الشهاب الكحال مدة قبل موته لأمر تغضب عليه فيه نائب السلطنة، [وكان مشهوراً بالمداواة وحسن التأتي من ذلك وسرعة المعالجة والسعادة في ذلك وقد جمع ثروة كثيرة][1] توفي يوم السبت سادس عشرين شوال ودفن بالقبيبات.

الشيخ الإمام العالم المقري شيخ القراء

برهان الدين أبو إسحاق إبراهيم بن عمر بن إبراهيم بن خليل الجعبري، ثم الخليلي الشافعي، صاحب المصنفات الكثيرة في القراءات وغيرها، ولد سنة أربعين وستمائة بقلعة جعبر، واشتغل ببغداد، ثم قدم دمشق وأقام ببلد الخليل نحو أربعين سنة يقرىء الناس، وشرح الشاطبية وسمع الحديث، وكانت له إجازة من يوسف بن خليل الحافظ، وصنّف [في][2] العربية والعروض والقراءات نظماً ونثراً، وكان من المشايخ المشهورين بالفضائل والرياسة والخير والديانة والعفة والصيانة، توفي يوم الأحد خامس شهر رمضان، ودفن ببلد الخليل تحت الزيتونة، وله ثنتان وتسعون سنة رحمه الله.

قاضي القضاة علم الدين

أبو عبد الله بن محمد ابن القاضي شمس الدين أبي بكر بن عيسىٰ بن بدران بن رحمة الأخنائي السعدي، المصري الشافعي الحاكم بدمشق وأعمالها، كان عفيفاً نزهاً ذكياً سارّ العبارة محباً للفضائل، معظماً لأهلها كثيراً لإسماع الحديث في العادلية الكبيرة، توفي يوم الجمعة ثالث عشر ذي القعدة ودفن بسفح قاسيون عند زوجته تجاه تربة العادل كتبغا من ناحية الجبل.

---

(١) ما بين معقوفين سقط في ط.

(٢) سقط في ط.

[الصدر الرئيس العالم الفاضل](١) قطب الدين موسى

ابن أحمد بن الحسين ابن شيخ السلامية، ناظر الجيوش الشامية، كانت له ثروة وأموال كثيرة، وله فضائل وإفضال وكرم وإحسان إلى أهل الخير، وكان مقصداً في المهمات، توفي يوم الثلاثاء ثاني الحجة وقد جاوز السبعين، ودفن بتربته تجاه الناصرية بقاسيون، وهو والد الشيخ الإمام العلامة عز الدين حمزة مدرس الحنبلية.

ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة [من الهجرة النبوية](٢)

استهلت يوم الأربعاء والحكام هم المذكورون في التي قبلها، وليس للشافعية قاض، وقاضي الحنفية عماد الدين الطرسوسي، وقاضي المالكية شرف الدين الهمداني، وقاضي الحنابلة علاء الدين بن المنجا، وكاتب السر محيي الدين بن فضل الله [ولا ناظر للديوان السلطاني والصاحب شمس الدين غربال تحت الحوطة وقد توفي ناظر الجيش قطب الدين بن شيخ السلامية والخطيب بدر الدين بن جلال المحتسب عز الدين بن القلانسي وهو قاضي العساكر. ومتولي البر والبلد هما المذكوران في التي قبلها](٣)، وناظر الجامع عماد الدين بن الشيرازي [وناظر الأوقاف شمس الدين الحراني ونقيب الأشراف شرف الدولة عدنان الحسيني](٤).

وفي ثاني المحرم قدم البشير بسلامة السلطان من الحجاز وباقتراب وصوله إلى البلاد، فدقت البشائر وزينت البلدان. وأخبر البشير بوفاة الأمير سيف الدين بكتمر الساقي وولده شهاب الدين أحمد وهما راجعان في الطريق، بعد أن حجّا قريباً من مصر: الولد أولاً، ثم من بعده أبوه بثلاثة أيام بعيون القصب، ثم نقلا إلى تربتهما بالقرافة، ووجد لبكتمر من الأموال والجواهر واللآليء والقماش والأمتعة والحواصل شيء كثير، لا يكاد ينحصر ولا ينضبط، وأفرج عن الصاحب شمس الدين غبريال في المحرم، وطلب في صفر إلى مصر فتوجه على خيل البريد، واحتيط على أهله بعد مسيره وأخذت منهم أموال كثيرة لبيت المال.

وفي أواخر صفر قدم الصاحب أمين الملك على نظر الدواوين بدمشق عوضاً عن غبريال وبعده بأربعة أيام قدم القاضي فخر الدين بن الحبلي على نظر الجيش بعد وفاة قطب الدين ابن شيخ السلامية. وفي نصف ربيع الأول لبس ابن جملة خلعة القضاء للشافعية بدمشق بدار السعادة، ثم جاء إلى الجامع وهي عليه، وذهب إلى العادلية وقرىء تقليده بها بحضرة الأعيان، ودرس في العادلية والغزالية يوم الأربعاء ثاني عشر الشهر المذكور. وفي يوم الاثنين رابع عشرينه حضر ابن أخيه جمال الدين محمود إعادة القيمرية نزل له عنها، ثم استنابه بعد ذلك في المجلس، وخرج إلى العادلية فحكم بها، ثم لم يستمر بعد ذلك، عزل عن النيابة بيومه، واستناب بعده جمال الدين إبراهيم بن شمس الدين محمد بن يوسف الحسباني، وله همة

(١) سقط في ط.
(٢) سقط في ط.
(٣) ما بين معقوفين سقط في ط.
(٤) ما بين معقوفين سقط في ط.

وعنده نزاهة وخبرة بالأحكام.

وفي ربيع الأول ولّي الأمير شهاب الدين قرطاي نيابة طرابلس وعزل عنها طبلان[١] إلى نيابة غزة وتولى نائب غزة [سيف الدين السخلي نيابه][٢] حمص، وحصل للذي جاء بتقاليدهم مائة ألف درهم منهم، وفي ربيع الآخر أعيد القاضي محيي الدين بن فضل الله وولده [القاضي شهاب الدين][٣] إلى كتابة سر مصر، ورجع شرف الدين بن الشهاب محمود إلى كتابة سر الشام كما كان. وفي منتصف هذا الشهر ولي نقابة الأشراف عماد الدين موسى الحسيني عوضاً عن أخيه شرف الدين عدنان توفي في الشهر الماضي ودفن بتربتهم عند مسجد الديان[٤]. وفيه درس الفخر المصري بالدولعية[٥] عوضاً عن ابن جملة بحكم ولايته القضاء. وفي [يوم الأحد][٦] خامس عشرين رجب درس بالبادرائية القاضي علاء الدين علي بن شريف ويعرف بابن الوحيد، عوضاً عن ابن جهبل توفي في الشهر الماضي، وحضر عنده القضاة والأعيان، وكنت إذ ذاك بالقدس أنا والشيخ شمس الدين بن عبد الهادي وآخرون، وفيه رسم السلطان الملك الناصر بالمنع من رمي البندق، وأن لاتباع قسيها ولا تعمل، وذلك لإفساد رماة البندق أولاد الناس، وأن الغالب على من تعاناه اللواط والفسق وقلة الدين، ونودي بذلك في البلاد المصرية والشامية.

قال [الشيخ علم الدين][٧] البرزالي: وفي نصف شعبان أمر السلطان بتسليم المنجمين إلى والي القاهرة فضربوا وحبسوا لإفسادهم حال النساء، فمات منهم أربعة تحت العقوبة، ثلاثة من المسلمين ونصراني، وكتب إليّ بذلك الشيخ أبو بكر الرحبي. وفي أول رمضان وصل البريد بتولية الأمير فخر الدين بن الشمس لؤلؤ ولاية البر بدمشق بعد وفاة شهاب الدين بن المرواني [الذي تولى بعد ذهاب أخيه علاء الدين إلى الديار المصرية][٨]، ووصل كتاب من مكة إلى دمشق في رمضان يذكر فيه أنها وقعت صواعق ببلاد الحجاز فقتلت جماعة متفرقين في أماكن شتى، وأمطار كثيرة جداً، وجاء البريد في رابع رمضان بتولية القاضي محيي الدين بن جميل[٩] قضاء طرابلس فذهب إليها، ودرس ابن المجد عبد الله بالرواحية عوضاً عن [الشيخ شمس الدين][١٠] الأصبهاني بحكم إقامته بمصر. وفي آخر رمضان أفرج عن الصاحب علم الدين وأخيه شمس الدين موسى بن التاج إسحاق بعد سجنهما سنة ونصفاً.

وخرج الركب الشامي يوم الخميس عاشر شوال وأميره بدرالدين بن معبد وقاضيه علاء الدين بن منصور مدرس الحنفية بالقدس بمدرسة تنكز، وفي الحجاج صدر الدين المالكي، وشهاب الدين الظهيري، ومحيي الدين بن الأعقف وآخرون وفي يوم الأحد ثالث عشرة درس

---

(١) في ط: طينال.
(٢) سقط في ط.
(٣) سقط في ط.
(٤) في ط: الذبان.
(٥) في ط: بالرواحية.
(٦) سقط في ط.
(٧) سقط في ط.
(٨) ما بين معقوفين سقط في ط.
(٩) في ط: جهبل.
(١٠) سقط في ط.

بالأتابكية ابن جملة عوضاً عن ابن جميل[1] تولى قضاء طرابلس، وفي يوم الأحد عشرينه حكم القاضي شمس الدين محمد بن كامل التدمري، الذي كان في خطابة الخليل بدمشق نيابة عن ابن جملة، وفرح الناس بدينه وفضيلته.

وفي ذي القعدة مسك تنكز داوداره ناصر الدين محمد، وكان عنده بمكانة عظيمة جداً، فضربه[2] بين يديه ضرباً مبرحاً، واستخلص منه أموالاً كثيرة، ثم حبسه بالقلعة ثم نفاه إلى القدس، وضرب جماعة من أصحابه منهم علاء الدين بن مقلد حاجب العرب، وقطع لسانه مرتين، ومات وتغيرت الدولة وجاءت دولة أخرى مقدمها عنده حمزة الذي كان سميره وعشيره في هذه المدة المتأخرة، وانزاحت النعمة عن الدوادار ناصر الدين وذويه ومن يليه.

وفي يوم الثلاثاء ثامن عشرين ذي القعدة ركب على الكعبة باب حديد أرسله السلطان مرصعاً من السبط[3] الأحمر كأنه آبنوس، مركب عليه صفائح من فضة زنتها خمسة وثلاثون ألفاً وثلاثمائة وكسر، وقلع الباب العتيق، وهو من خشب الساج، وعليه صفائح تسلمها بنو شيبة، وكان زنتها ستين رطلاً فباعوها كل درهم بدرهمين، لأجل التبرك. وهذا خطأ وهو ربا ـ وكان ينبغي أن يبيعوها بالذهب لئلا يحصل ربا بذلك ـ وترك خشب الباب العتيق داخل الكعبة، وعليه اسم صاحب اليمن في الفردتين، واحدة عليها: اللهم يا ولي يا علي اغفر ليوسف بن عمر بن علي.

وممن توفي فيها من الأعيان:

الشيخ العالم تقي الدين محمود بن علي

ابن محمود بن مقبل الدقوقي أبو الثناء البغدادي، محدث بغداد منذ خمسين سنة، يقرأ لهم الحديث وقد ولي مشيخة الحديث المستنصرية، وكان ضابطاً محصلاً بارعاً، وكان يعظ ويتكلم في الأعزية والأهنية، وكان فرداً في زمانه وبلاده رحمه الله، توفي في المحرم وله قريب السبعين سنة، وشهد جنازته خلق كثير، ودفن بتربة الإمام أحمد، ولم يخلف درهماً واحداً، وله قصيدتان رثا بهما الشيخ تقي الدين بن تيمية كتب بهما إلى الشيخ الحافظ البرزالي رحمه الله تعالى.

الشيخ الإمام العالم عز القضاة

فخر الدين أبو محمد عبد الواحد بن منصور بن محمد بن المنير المالكي الإسكندري، أحد الفضلاء المشهورين، له تفسير في ستة مجلدات، وقصائد في رسول الله ﷺ حسنة، وله في كان وكان، وقد سمع الكثير وروى، توفي في جمادى الأولى عن ثنتين وثمانين سنة، ودفن بالإسكندرية رحمه الله.

ابن جماعة قاضي القضاة

العالم شيخ الإسلام بدر الدين أبو عبد الله محمد ابن الشيخ الإمام الزاهد أبي إسحاق

---

(١) في ط: جهبل.

(٢) في ط: وضربه.

(٣) في ط: السنط.

إبراهيم بن سعد الله بن جماعة بن حازم بن صخر الكناني الحموي الأصل، ولد ليلة السبت رابع ربيع الآخر سنة تسع وثلاثين وستمائة بحماة، وسمع الحديث واشتغل بالعلم، فحصل فنوناً متعددة، وتقدم وساد أقرانه، وباشر تدريس القيمرية، ثم ولي الحكم والخطابة بالقدس الشريف، ثم نقل منه إلى قضاء مصر في الأيام الأشرفية، ثم باشر تداريس كبار بها في ذلك الوقت، ثم ولي قضاء الشام وجمع له معه الخطابة ومشيخة الشيوخ وتدريس العادلية وغيرها مدة طويلة، كل هذا مع الرياسة والديانة والصيانة والورع، وكف الأذى، وله التصانيف الفائقة النافعة، وجمع له خطباً كان يخطب بها بطيب صوت فيها وفي قراءته في المحراب وغيره، ثم نقل إلى قضاء الديار المصرية بعد وفاة الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد، فلم يزل حاكماً بها إلى أن أضر وكبر وضعفت أحواله، فاستقال فأقيل وتولى مكانه القزويني، وبقيت معه بعض الجهات ورتبت له الرواتب الكثيرة الدارة إلى أن توفي ليلة الاثنين بعد عشاء الآخرة حادي عشرين جمادى الأولى، وقد أكمل أربعاً وتسعين سنة وشهراً وأياماً، وصلّي عليه من الغد قبل الظهر بالجامع الناصري بمصر، ودفن بالقرافة، وكانت جنازته حافلة هائلة رحمه الله.

الشيخ الإمام الفاضل مفتي المسلمين

شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محيي الدين يحيى بن تاج الدين بن إسماعيل بن طاهر بن نصر الله بن جهبل الحلبي الأصل ثم الدمشقي الشافعي، كان من أعيان الفقهاء، ولد سنة سبعين وستمائة واشتغل بالعلم ولزم المشايخ ولازم الشيخ الصدر بن الوكيل، ودرس بالصلاحية بالقدس، ثم تركها وتحول إلى دمشق فباشر مشيخة دار الحديث الظاهرية مدة، ثم ولي مشيخة البادرائية فترك الظاهرية وأقام بتدريس البادرائية إلى أن مات ولم يأخذ معلوماً من واحدة منهما، توفي يوم الخميس بعد العصر تاسع جمادى الآخرة وصلّي عليه بعد الصلاة ودفن بالصوفية، وكانت جنازته حافلة.

تاج الدين عبد الرحمن بن أيوب

مغسل الموتى في سنة ستين وستمائة، يقال إنه غسل ستين ألفَ ميت، وتوفي في رجب وقد جاوز الثمانين.

الشيخ فخر الدين أبو محمد

عبد الله بن محمد بن عبد العظيم بن السقطي الشافعي، كان مباشراً شهادة الخزانة، وناب في الحكم عند باب النصر بمصر ودفن بالقرافة.

الإمام الفاضل مجموع الفضائل

شهاب الدين أبو العباس أحمد بن عبد الوهاب البكري، نسبة إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، كان لطيف المعاني ناسخاً مطيقاً يكتب في اليوم ثلاث كراريس، وكتب البخاري ثمان مرات ويقابله ويجلده ويبيع النسخة من ذلك بألف ونحوه، وقد جمع تاريخاً في ثلاثين مجلداً،

وكان ينسخه ويبيعه أيضاً بأزيد من ألف، وذكر أن له كتاباً سمّاه منتهى الأرب في علم الأدب في ثلاثين مجلداً أيضاً، وبالجملة كان نادراً في وقته، توفي يوم الجمعة عشرين رمضان رحمه الله.

الشيخ الصالح الزاهد الناسك

الكثير الحج علي بن الحسن بن أحمد الواسطي المشهور بالخير والصلاح، وكثرة العبادة والتلاوة والحج، يقال إنه حج أزيد من أربعين حجة، وكانت عليه مهابة ولديه فضيلة، توفي وهو محرم يوم الثلاثاء ثامن عشرين ذي القعدة، وقد قارب الثمانين رحمه الله.

الأمير عز الدين إبراهيم بن عبد الرحمن

ابن محمد ابن أحمد بن القواس، كان مباشراً الشد في بعض الجهات السلطانية، وله دار حسنة بالعقيبة الصغيرة، فلما حضرته الوفاة أوصى أن تجعل مدرسة، وأوقف عليها أوقافاً، وجعل تدريسها للشيخ عماد الدين الكردي الشافعي، توفي يوم الأربعاء عشرين ذي الحجة.

ثم دخلت سنة أربع وثلاثين وسبعمائة

استهلت بيوم الأحد وحكام البلاد هم المذكورون في التي قبلها. وفي يوم الجمعة ثاني ربيع الأول أقيمت الجمعة بالخاتونية البرانية، وخطب بها شمس الدين النجار المؤذن المؤقت بالأموي، وترك خطابة جامع القابون. وفي مستهل هذا الشهر سافر الأمير شمس الدين محمد التدمري إلى القدس حاكماً به، وعزل عن نيابة الحكم بدمشق. وفي ثالثه قدم من مصر زين الدين عبد الرحيم ابن قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة بخطابة القدس، فخلع عليه من دمشق ثم سافر إليها. وفي آخر ربيع الأول باشر الأمير ناصر الدين بن بكتاش الحسامي شد الأوقاف عوضاً عن شرف الدين محمود بن الخطيري، سافر بأهله إلى مصر أميراً نيابة بها عن أخيه بدر الدين مسعود، وعزل القاضي علاء الدين بن القلانسي، وسائر الدواوين والمباشرين الذين في باب ملك الأمراء تنكز وصودروا بمائتي ألف درهم، واستدعي من غزة ناظرها جمال الدين يوسف صهر السني المستوفي، فباشر نظر ديوان النائب ونظر المارستان النوري أيضاً على العادة.

وفي شهر ربيع الأول أمر تنكز بإصلاح باب توما فشرع فيه فرفع بابه عشرة أذرع، وجددت حجارته وحديده في أسرع وقت، وفي هذا الوقت حصل بدمشق سيل خرب بعض الجدران ثم تناقص، وفي أوائل ربيع الآخر قدم من مصر جمال الدين آقوش نائب الكرك مجتازاً إلى طرابلس نائبها عوضاً عن قرطاي، توفي. وفي جمادى الأولى طلب القاضي شهاب الدين بن المجد عبد الله إلى دار السعادة فولي وكالة بيت المال عوضاً عن ابن القلانسي، ووصل تقليده من مصر بذلك، وهنأه الناس. وفيه طلب الأمير نجم الدين بن الزيبق من ولاية نابلس فولي شد الدواوين بدمشق، وقد شغر منصبه شهوراً بعد ابن الخشاب. وفي رمضان خطب الشيخ بدر الدين أبو اليسر بن الصائغ بالقدس عوضاً عن زين الدين بن جماعة لإعراضه عنها واختياره العود إلى بلده.

قضية[1] القاضي ابن جملة

لما كان في العشر الأخير من رمضان وقع بين القاضي ابن جملة وبين الشيخ الظهير شيخ ملك الأمراء ـ وكان هو السفير في تولية ابن جملة القضاء ـ فوقع بينهما منافسة ومحاققة في أمور كانت بينه وبين الدوادار المقدم ذكره ناصر الدين، فحلف كل واحد منهما على خلاف ما حلف به الآخر عليه، وتفاصلا من دار السعادة في المسجد، فلما رجع القاضي إلى منزله بالعادلية أرسل إلى الشيخ الظهير ليحكم فيه بما فيه المصلحة، وذلك عن مرسوم النائب، وكأنه كان خديعة في الباطن وإظهار نصرة القاضي عليه في الظاهر، فبدر به القاضي بادي الرأي فعزره بين يديه، ثم خرج من عنده فتسلمه أعوان ابن جملة فطافوا به البلد على حمار يوم الأربعاء سابع عشرين رمضان، وضربوه ضرباً عنيفاً، ونادوا عليه: هذا جزاء من يكذب ويفتات على الشرع، فتألم الناس له لكونه في الصيام. وفي العشر الأخير من رمضان، ويوم سبعة وعشرين، وهو شيخ كبير صائم، فيقال: إنه ضرب يومئذٍ ألفين ومائة وإحدى وسبعين درة والله أعلم، فما أمسى حتى استفتى على القاضي المذكور وداروا على المشايخ بسبب ذلك عن مرسوم النائب، فلما كان يوم تاسع عشرين رمضان عقد نائب السلطنة بين يديه بدار السعادة مجلساً حافلاً بالقضاة وأعيان المفتيين من سائر المذاهب، وأحضر ابن جملة قاضي الشافعية والمجلس قد احتفل بأهله، ولم يأذنوا لابن جملة في الجلوس، بل قام قائماً ثم أجلس بعد ساعة جيدة في طرف الحلقة، إلى جانب المحفة التي فيها الشيخ الظهير، وادّعى عليه عند بقية القضاة أنه حكم فيه لنفسه، واعتدى عليه في العقوبة، وأفاض الحاضرون في ذلك، وانتشر الكلام وفهموا من نفس النائب الحط على ابن جملة، والميل عنه بعد أن كان إليه، فما انفصل المجلس حتى حكم القاضي شرف الدين المالكي بفسقه وعزله وسجنه، فانفض المجلس على ذلك، ورسم على ابن جملة بالعذراوية ثم نقل إلى القلعة جزاء وفاقاً والحمد لله وحده، وكان له في القضاء سنة ونصف إلا أياماً، وكان يباشر الأحكام جيداً، وكذا الأوقاف المتعلقة به، وفيه نزاهة وتمييز الأوقاف بين الفقهاء والفقراء، وفيه صرامة وشهامة وإقدام، لكنه أخطأ في هذه الواقعة، وتعدى فيها فآل أمره إلى هذا.

وخرج الركب يوم الاثنين عاشر شوال وأميره الجي بغا وقاضيه مجد الدين بن حيان المصري.

وفي يوم الاثنين رابع عشرينه درس بالإقبالية الحنفية نجم الدين ابن قاضي القضاة عماد الدين الطرسوسي الحنفي عوضاً عن شمس الدين محمد بن عثمان بن محمد الأصبهاني بن العجمي الحبطي، ويعرف بابن الحنبلي، وكان فاضلاً ديناً متقشفاً كثير الوسوسة في الماء جداً، وأما المدرس مكانه وهو نجم الدين بن الحنفي فإنه ابن خمس عشرة سنة، وهو في النباهة والفهم، وحسن الاشتغال والشكل والوقار، بحيث غبط الحاضرون كلهم أباه على

---

(١) في ط: قصة.

ذلك، ولهذا آل أمره أن تولى قضاء القضاة في حياة أبيه، نزل له عنه وحمدت سيرته وأحكامه.

وفي هذا الشهر أثبت محضر في حق الصاحب شمس الدين غبريال المتوفى في هذه السنة أنه كان يشتري أملاكاً من بيت المال ويوقفها ويتصرف فيها تصرف الملاك لنفسه، وشهد بذلك كمال الدين بن الشيرازي وابن أخيه عماد الدين وعلاء الدين بن القلانسي وابن خاله عماد الدين بن عز الدين بن القلانسي، وعز الدين بن المنجا، وتقي الدين بن مراجل، وكمال الدين بن الغويرة، وأثبت على القاضي برهان الدين الزرعي الحنبلي ونفذه بقية القضاة، وامتنع المحتسب عز الدين بن القلانسي من الشهادة فرسم عليه بالعذراوية قريباً من شهر، ثم أفرج عنه وعزل عن الحسبة، واستمر على نظر الخزانة.

وفي يوم الأحد ثامن عشرين ذي القعدة حملت خلعة القضاء إلى الشيخ شهاب الدين ابن المجد وكيل بيت المال يومئذٍ، فلبسها وركب إلى دار السعادة وقرىء تقليده بحضرة نائب السلطنة والقضاة ثم رجع إلى مدرسته الإقبالية فقرىء بها أيضاً وحكم بين خصمين، وكتب على أوراق السائلين، ودرس بالعادلية والغزالية والأتابكيتين مع تدريس الإقبالية عوضاً عن ابن جملة. وفي يوم الجمعة رابع الحجة حضر الأمير حسام الدين مهنا بن عيسىٰ وفي صحبته صاحب حماة الأفضل، فتلقاهما تنكز وأكرمهما، وصليا الجمعة عند النائب ثم توجها إلى مصر، فتلقاهما أعيان الأمراء وأكرم السلطان مهنا بن عيسى وأطلق له أموالاً جزيلة كثيرة، من الذهب والفضة والقماش، وأقطعه عدة قرى ورسم له بالعود إلى أهله، ففرح الناس بذلك، قالوا وكان جميع ما أنعم به عليه السلطان قيمة مائة ألف دينار، وخلع عليه وعلى أصحابه مائة وسبعين خلعة.

وفي يوم الأحد سادس ذي الحجة حضر درس الرواحية الفخر المصري عوضاً عن قاضي القضاة ابن المجد وحضر عنده القضاة الأربعة وأعيان الفضلاء. وفي يوم عرفة خلع على نجم الدين بن أبي الطيب بوكالة بيت المال، عوضاً عن ابن المجد، وعلى عماد الدين بن الشيرازي بالحسبة عوضاً عن عز الدين بن القلانسي وخرج الثلاثة من دار السعادة بالطرحات.

وممن توفي فيها من الأعيان:

الشيخ الأجل التاجر بدر الدين

لؤلؤ بن عبد الله عتيق النقيب شجاع الدين إدريس، وكان رجلاً حسناً يتجر في الجوخ، مات فجأة عصر يوم الخميس خامس محرم، وخلف أولاداً وثروة، ودفن بباب الصغير، وله بر وصدقة ومعروف، وسبع بمسجد ابن هشام.

الصدر أمين الدين

محمد بن فخر الدين أحمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن محمد بن يوسف بن أبي العيش الأنصاري الدمشقي باني المسجد المشهور به بالربوة، على حافة بردى، والطهارة الحجارة إلى جانبه، والسوق الذي هناك، وله بجامع النيرب ميعاد. ولد سنة ثمان وخمسين وستمائة، وسمع البخاري وحدث به، وكان من أكابر التجار ذوي اليسار، توفي بكرة الجمعة

سادس المحرم ودفن بتربته بقاسيون رحمه الله.

الخطيب الإمام العالم

عماد الدين أبو حفص عمر الخطيب، ظهير الدين عبد الرحيم بن يحيى بن إبراهيم بن علي بن جعفر بن عبد الله بن الحسن القرشي الزهري النابلسي، خطيب القدس، وقاضي نابلس مدة طويلة، ثم جمع له بين خطابة القدس وقضائها، وله اشتغال وفيه فضيلة، وشرح صحيح مسلم في مجلدات، وكان سريع الحفظ سريع الكتابة، توفي ليلة الثلاثاء عاشر المحرم ودفن بماملا رحمه الله.

الصدر شمس الدين

محمد بن إسماعيل بن حماد التاجر بقيسارية الشرب، كتب المنسوب وانتفع به الناس، وولي التجار لأمانته وديانته، وكانت له معرفة ومطالعة في الكتب، توفي في تاسع صفر عن نحو ستين سنة. ودفن بقاسيون رحمه الله.

جمال الدين قاضي القضاة الزرعي

هو أبو الربيع سليمان ابن الخطيب مجد الدين عمر بن سالم[1] بن عمر بن عثمان الأذرعي الشافعي ولد سنة خمس وأربعين وستمائة بأذرعات، واشتغل بدمشق فحصل، وناب في الحكم بزرع مدة فعرف بالزرعي لذلك، وإنما هو من أذرعات وأصله من بلاد المغرب، ثم ناب بدمشق ثم انتقل إلى مصر فناب في الحكم بها، ثم استقل بولاية القضاء بها نحواً من سنة، ثم ولي قضاء الشام مدة مع مشيخة الشيوخ نحواً من سنة، ثم عزل وبقي على مشيخة الشيوخ نحواً من سنة مع تدريس الأتابكية، ثم تحول إلى مصر فولي بها التدريس وقضاء العسكر، ثم توفي بها يوم الأحد سادس صفر وقد قارب السبعين رحمه الله، وقد خرج له البرزالي مشيخة سمعناها عليه وهو بدمشق عن اثنين وعشرين شيخاً.

الشيخ الإمام العالم الزاهد

زين الدين أبو محمد عبد الرحمن بن محمود بن عبيدان البعلبكي الحنبلي، أحد فضلاء الحنابلة، ومن صنف في الحديث والفقه والتصوف وأعمال القلوب وغير ذلك، كان فاضلاً له أعمال كثيرة، وقد وقعت له كائنة في أيام الظاهر أنه أصيب في عقله أو زوال فكره، أو قد عمل على الرياضة فاحترق باطنه من الجوع، فرأى خيالات لا حقيقة لها فاعتقد أنها أمر خارجي، وإنما هي خيال فكري فاسد. وكانت وفاته في نصف صفر ببعلبك، ودفن بباب سطحا ولم يكمل الستين، وصلّي عليه بدمشق صلاة الغائب، وعلى القاضي الزرعي معاً.

الأمير شهاب الدين

نائب طرابلس له أوقاف وصدقات، وبر وصلات، توفي بطرابلس يوم الجمعة ثامن عشر

---

(١) في ط: سليمان.

صفر ودفن هناك رحمه الله.

الشيخ عبد الله بن يوسف بن أبي بكر الأسعردي الموقت

كان فاضلاً في صناعة الميقات وعلم الاصطرلاب وما جرى مجراه، بارعاً في ذلك غير أنه لا ينتفع به لسوء أخلاقه وشراستها، ثم إنه ضعف بصره فسقط من قيسارية بحسى فمات عشية السبت عاشر ربيع الأول، ودفن بباب الصغير.

الأمير سيف الدين بلبان

طرفا بن عبد الله الناصري، كان من المقدمين بدمشق، وجرت له فصول يطول ذكرها، ثم توفي بداره عند مئذنة فيروز ليلة الأربعاء حادي عشرين ربيع الأول، ودفن بتربة اتخذها إلى جانب داره، ووقف عليها مقرئين، ورتب عندها مسجداً بإمام ومؤذن.

شمس الدين محمد بن يحيى بن محمد ابن قاضي حران

ناظر الأوقاف بدمشق، مات الليلة التي مات فيها الذي قبله، ودفن بقاسيون، وتولى مكانه عماد الدين الشيرازي.

الشيخ الإمام ذو الفنون

تاج الدين أبو حفص عمر بن علي بن سالم بن عبد الله اللخمي الإسكندراني، المعروف بابن الفاكهاني، ولد سنة أربع وخمسين وستمائة، وسمع الحديث واشتغل بالفقه على مذهب مالك، وبرع وتقدم بمعرفة النحو وغيره، وله مصنفات في أشياء متفرقة، قدم دمشق في سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة في أيام الأخنائي، فأنزله في دار السعادة(١) وسمعنا عليه ومعه، وحج من دمشق عامئذٍ وسمع عليه في الطريق، ورجع إلى بلاده، توفي ليلة الجمعة سابع جمادى الأولى، وصلّي عليه بدمشق حين بلغهم خبر موته.

الشيخ الصالح العابد الناسك

أمين الدين أيمن بن محمد، وكان يذكر أن اسمه محمد بن محمد بن محمد إلى سبعة عشر نفساً كلهم اسمه محمد، وقد جاور بالمدينة مدة سنين إلى أن توفي ليلة الخميس ثامن ربيع الأول بالمدينة، ودفن بالبقيع وصلّي عليه بدمشق صلاة الغائب.

الشيخ نجم الدين القباني الحموي

عبد الرحمن بن الحسن بن يحيى اللخمي القباني، قرية من قرى أشمون الرمان، أقام بحماة في زاوية يزار ويلتمس دعاؤه، وكان عابداً زاهداً ورعاً آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، حسن الطريقة إلى أن توفي بها آخر نهار الاثنين رابع عشر رجب، عن ست وستين سنة، وكانت جنازته حافلة هائلة جداً، ودفن شمالي حماة، وكان عنده فضيلة، واشتغل على مذهب الإمام

---

(١) في ط: بالعادلية.

أحمد بن حنبل وله كلام حسن يؤثر عنه رحمه الله.

الشيخ فتح الدين ابن سيد الناس

الحافظ العلامة البارع، فتح الدين بن أبي الفتح محمد ابن الإمام أبي عمر محمد ابن الإمام الحافظ الخطيب أبي بكر بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن يحيى بن سيد الناس الربعي اليعمري الأندلسي الإشبيلي ثم المصري، ولد في العشر الأول من ذي الحجة سنة إحدى وسبعين وستمائة بالقاهرة، وسمع الكثير وأجاز له الرواية عنهم جماعات من المشايخ، ودخل دمشق سنة تسعين فسمع من الكندي وغيره، واشتغل بالعلم فبرع وساد أقرانه في علوم شتى من الحديث والفقه والنحو من العربية، وعلم السير والتواريخ وغير ذلك من الفنون، وقد جمع سيرة حسنة في مجلدين، وشرح قطعة حسنة في أول جامع الترمذي، رأيت منها مجلداً بخطه الحسن، وقد حرر وحبر وأفاد وأجاد، ولم يسلم من بعض الانتقاد، وله الشعر الرائق الفائق، والنثر الموافق، والبلاغة التامة، وحسن الترصيف والتصنيف، وجودة البديهة، وحسن الطوية، وله العقيدة السلفية الموضوعة على الآي والأخبار والآثار والاقتفاء بالآثار النبوية، ويذكر عنه سوء أدب في أشياء أخر سامحه الله فيها، وله مدائح في رسول الله ﷺ حسان، وكان شيخ الحديث بالظاهرية بمصر، وخطب بجامع الخندق، ولم يكن في مصر في مجموعه مثله في حفظ الأسانيد والمتون والعلل والفقه والملح والأشعار والحكايات، توفي فجأة يوم السبت حادي عشر شعبان، وصلّي عليه من الغد، وكانت جنازته حافلة، ودفن عند ابن أبي حمزة رحمه الله.

القاضي مجد الدين بن حرمي

ابن قاسم بن يوسف العامري الفاقوسي الشافعي، وكيل بيت المال، ومدرس الشافعي وغيره، كان له همة ونهضة، وعلت سنه وهو مع ذلك يحفظ ويشغل ويشتغل، ويلقي الدروس من حفظه إلى أن توفي ثاني ذي الحجة، وولي تدريس الشافعي بعده شمس الدين بن القماح، والقطبية بهاء الدين بن عقيل، والوكالة نجم الدين الاسعردي المحتسب، وهو كان وكيل بيت الظاهر.

ثم دخلت سنة خمس وثلاثين وسبعمائة [من الهجرة النبوية][١]

استهلت وحكام البلاد هم المذكورون في التي قبلها، وناظر الجامع عز الدين بن المنجا، والمحتسب عماد الدين بن الشيرازي وغيرهم. وفي مستهل المحرم يوم الخميس درس بأم الصالح الشيخ خطيب يبرود عوضاً عن قاضي القضاة شهاب الدين بن المجد، وحضر عنده القضاة والأعيان. وفي سادس المحرم رجع مهنا بن عيسى من عند السلطان فتلقاه النائب والجيش، وعاد إلى أهله في عز وعافية. وفيه أمر السلطان بعمارة جامع القلعة وتوسيعه،

---

(١) سقط في ط.

وعمارة جامع مصر العتيق. وقدم إلى دمشق القاضي جمال الدين محمد بن عماد الدين بن الأثير كاتب سر بها عوضاً عن ابن الشهاب محمود. ووقع في هذا الشهر والذي بعده موت كثير في الناس بالخانوق.

وفي ربيع الأول مسك الأمير نجم الدين بن الزيبق مشد الدواوين، وصودر وبيعت خيوله وحواصله، وتولاها بعده سيف الدين تمر مملوك بكتمر الحاجب، وهو مشد الزكاة. وفيه كملت عمارة حمام الأمير شمس الدين حمزة الذي تمكن عند تنكز بعد ناصر الدين الدوادار، ثم وقعت الشناعة عليه بسبب ظلمه في عمارة هذا الحمام فقابله النائب على ذلك وانتصف للناس منه، وضربه بين يديه ورماه بالبندق بيده في وجهه، وسائر جسده، ثم أودعه القلعة ثم نقله إلى بحيرة طبرية فغرقه فيها، وعزل الأمير جمال الدين نائب الكرك عن نيابة طرابلس حسب سؤاله في ذلك، وراح إليها طيغال وقدم نائب الكرك إلى دمشق وقد رسم له بالإقامة في صرخد، فلما تلقاه نائب السلطنة والجيش نزل في دار السعادة وأخذ سيفه بها ونقل إلى القلعة، ثم نقل إلى صفت ثم إلى الإسكندرية، ثم كان آخر العهد به.

وفي جمادى الأولى احتيط على دار الأمير بكتمر الحاجب الحسامي بالقاهرة، ونبشت وأخذ منها شيء كثير جداً، وكان جد أولاد نائب الكرك المذكور. وفي يوم السبت تاسع جمادى الآخرة باشر حسام الدين أبو بكر ابن الأمير عز الدين أيبك النجيبي مشد الأوقاف عوضاً عن ابن بكتاش، اعتقل، وخلع على المتولي وهنأه الناس. وفي منتصف هذا الشهر علق الستر الجديد على خزانة المصحف العثماني، وهو من خز طوله ثمانية أذرع وعرضه أربعة أذرع ونصف، غرم عليه أربعة آلاف وخمسمائة، وعمل في مدة سنة ونصف.

وخرج الركب الشامي يوم الخميس تاسع شوال وأميره علاء الدين المرسي، وقاضيه شهاب الدين الظاهري. وفيه رجع جيش حلب إليها وكانوا عشرة آلاف سوى من تبعهم من التركمان، وكانوا في بلاد أذنة وطرسوس وإياس، وقد خربوا وقتلوا خلقاً كثيراً، ولم يعدم منهم سوى رجل واحد غرق بنهر جاهان، ولكن كان قتل الكفار من كان عندهم من المسلمين نحواً من ألفي رجل، يوم عيد الفطر فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفيه وقع حريق عظيم بحماة فاحترق منه أسواق كثيرة، وأملاك وأوقاف، وهلكت أموال لا تحصر، وكذلك احترق أكثر مدينة أنطاكية، فتألم المسلمون لذلك. وفي ذي الحجة خرب المسجد الذي كان في وسط الطريق بين باب النصر وبين باب الجابية، عن حكم القضاة بأمر نائب السلطنة، وبنى غربيه مسجد حسن أحسن وأنفع من الأول.

وممن توفي فيها من الأعيان:

الشيخ الصالح المعمر رئيس المؤذنين بجامع دمشق

برهان الدين إبراهيم بن محمد بن أحمد بن محمد الواني، ولد سنة ثلاث وأربعين وستمائة، وجمع الحديث، وروى، وكان حسن الصوت والشكل، محبباً إلى العوام، توفي يوم الخميس سادس صفر ودفن بباب الصغير، وقام من بعده في الرياسة ولده أمين الدين محمد

الواني المحدث المفيد، وتوفي بعده ببضعة وأربعين يوماً رحمهما الله.

الكاتب المطبق المجود المحرر

بهاء الدين محمود ابن خطيب بعلبك محيي الدين محمد بن عبد الرحيم بن عبد الوهاب السلمي، ولد سنة ثمان وثمانين وستمائة، واعتنى بهذه الصناعة فبرع فيها، وتقدم على أهل زمانه قاطبة في النسخ وبقية الأقلام، وكان حسن الشكل طيب الأخلاق، طيب الصوت حسن التودد، توفي في سلخ ربيع الأول ودفن بتربة الشيخ أبي عمر رحمه الله.

علاء الدين السنجاري

واقف دار القرآن عند باب الناطفانيين شمالي الأموي بدمشق، علي بن إسماعيل بن محمود كان أحد التجار الصدق الأخيار، ذوي اليسار المسارعين إلى الخيرات، توفي بالقاهرة ليلة الخميس ثالث عشر جمادى الآخرة، ودفن عند قبر القاضي شمس الدين الحريري.

العدل نجم الدين التاجر

عبد الرحيم بن أبي القاسم عبد الرحمن الرحبي باني التربة المشهورة بالمزة، وقد جعل لها مسجداً ووقف عليها أوقافاً دارة، وصدقات هناك، وكان من أخيار أبناء جنسه، عدل مرضي عند جميع الحكام، وترك أولاداً جمة، وداراً هائلة، وبساتين بالمزة، وكانت وفاته يوم الأربعاء سابع عشرين جمادى الآخرة ودفن بتربته المذكورة بالمزة رحمه الله.

الشيخ الإمام الحافظ قطب الدين

أبو محمد عبد الكريم بن عبد النور بن منير بن عبد الكريم بن علي بن عبد الحق بن عبد الصمد بن عبد النور الحلبي الأصل ثم المصري، أحد مشاهير المحدثين بها، والقائمين بحفظ الحديث وروايته وتدوينه وشرحه والكلام عليه، ولد سنة أربع وستين وستمائة بحلب، وقرأ القرآن بالروايات، وسمع الحديث وقرأ الشاطبية والألفية، وبرع في فن الحديث، وكان حنفي المذهب وكتب كثيراً وصنف شرحاً لأكثر البخاري، وجمع تاريخاً لمصر ولم يكملهما، وتكلم على السيرة التي جمعها الحافظ عبد الغني وخرج لنفسه أربعين حديثاً متباينة الإسناد، وكان حسن الأخلاق مطرحاً للكلفة طاهر اللسان كثير المطالعة والاشتغال، إلى أن توفي يوم الأحد سلخ رجب، ودفن من الغد مستهل شعبان عند خاله نصر المنبجي، وخلف تسعة أولاد رحمه الله.

القاضي الإمام زين الدين أبو محمد

عبد الكافي بن علي بن تمام بن يوسف السبكي، قاضي المحلة، ووالده العلامة قاضي القضاة تقي الدين السبكي الشافعي، سمع من ابن الأنماطي وابن خطيب المزة، وحدث وتوفي تاسع شعبان، وتبعته زوجته ناصرية بنت القاضي جمال الدين إبراهيم بن الحسين السبكي، ودفنت بالقرافة، وقد سمعت من ابن الصابوني شيئاً من سنن النسائي، وكذلك ابنتها محمدية،

وقد توفيت قبلها.

تاج الدين علي بن إبراهيم

ابن عبد الكريم المصري، ويعرف بكاتب قطلبك، وهو والد العلامة فخر الدين شيخ الشافعية ومدرسهم في عدة مدارس، ووالده هذا لم يزل في الخدمة والكتابة إلى أن توفي عنده بالعادلية الصغيرة ليلة الثلاثاء ثالث عشرين شعبان، وصلّي عليه من الغد بالجامع، ودفن بباب الصغير.

الشيخ الصالح عبد الكافي

ويعرف بعبيد بن أبي الرجال بن حسين بن سلطان بن خليفة المنيني، ويعرف بابن أبي الأزرق، مولده في سنة أربع وأربعين وستمائة بقريته من بلاد بعلبك، ثم أقام بقرية منين، وكان مشهوراً بالصلاح وقرىء عليه شيء من الحديث وجاوز التسعين.

الشيخ محمد بن عبد الحق

ابن شعبان بن علي الأنصاري، المعروف بالسياح، له زاوية بسفح قاسيون بالوادي الشمالي مشهورة به، وكان قد بلغ التسعين، وسمع الحديث وأسمعه، وكانت له معرفة بالأمور وعنده بعض مكاشفة، وهو رجل جسن، توفي أواخر شوال من هذه السنة.

الأمير سلطان العرب

حسام الدين مهنا بن عيسى بن مهنا، أمير العرب بالشام، وهم يزعمون أنهم من سلالة جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي، من ذرية الولد الذي جاء من العباسة أخت الرشيد فالله أعلم.

وقد كان كبير القدر محترماً عند الملوك كلهم، بالشام ومصر والعراق، وكان ديناً خيراً متحيزاً[1] للحق، وخلف أولاداً وورثة وأموالاً كثيرة، وقد بلغ سناً عالية، وكان يحب الشيخ تقي الدين بن تيمية حباً زائداً، هو وذريته وعربه، وله عندهم منزلة وحرمة وإكرام، يسمعون قوله ويمتثلونه وهو الذي نهاهم أن يغير بعضهم على بعض، وعرفهم أن ذلك حرام، وله في ذلك مصنف جليل، وكانت وفاة مهنا هذا ببلاد سلمية في ثامن عشر ذي القعدة، ودفن هناك رحمه الله.

الشيخ الزاهد فضل العجلوني

فضل بن عيسى بن قنديل العجلوني الحنبلي المقيم بالمسمارية، أصله من بلاد حبراحي[2] كان متقللاً من الدنيا يلبس ثياباً طوالاً وعمامة هائلة، وهي بأرخص الأثمان، وكان يعرف تعبير الرؤيا ويقصد لذلك، وكان لا يقبل من أحد شيئاً، وقد عرضت عليه وظائف

(١) في ط: متحرياً. (٢) في ط: حبراص.

بجوامك كثيرة فلم يقبلها، بل رضي بالرغيد الهني من العيش الخشن إلى أن توفي في ذي الحجة، وله نحو تسعين سنة، ودفن بالقرب من قبر الشيخ تقي الدين بن تيمية رحمهما الله، وكانت جنازته حافلة جداً.

ثم دخلت سنة ست وثلاثين وسبعمائة

استهلت بيوم الجمعة والحكام هم المذكورون في التي قبلها. وفي أول يوم منها ركب تنكز إلى قلعة جعبر ومعه الجيش والمناجنيق فغابوا شهراً وخمسة أيام وعادوا سالمين. وفي ثامن صفر فتحت الخانقاه التي أنشأها سيف الدين قوصون الناصري خارج باب القرافة، وتولى مشيختها الشيخ شمس الدين الأصبهاني المتكلم. وفي عاشر صفر خرج ابن جملة من السجن بالقلعة وجاءت الأخبار بموت ملك التتار أبي سعيد بن خربندا بن أرغون بن أبغا بن هولاكو بن تولي بن جنكزخان، في يوم الخميس ثاني عشر ربيع الآخر بدار السلطنة بقراباغ، وهي منزلهم في الشتاء، ثم نقل إلى تربته بمدينته التي أنشأها قريباً من السلطانية مدينة أبيه، وقد كان من خيار ملوك التتر وأحسنهم طريقة وأثبتهم على السنة وأقومهم بها، وقد عز أهل السنة في زمانه وذلت الرافضة، بخلاف دولة أبيه، ثم من بعده لم يقم للتتار قائمة، بل اختلفوا فتفرقوا شذر مذر[1] إلى زماننا هذا، وقد كان القائم من بعده بالأمر ارتكاوون من ذرية أبغا، ولم يستمر له الأمر إلا قليلاً.

وفي يوم الأربعاء عاشر جمادى الأولى درس بالناصرية الجوانية بدر الدين الأردبيلي عوضاً عن كمال الدين بن الشيرازي توفي، وحضر عنده القضاة. وفيه درس بالظاهرية البرانية الشيخ الإمام المقري سيف الدين أبو بكر الحريري عوضاً عن بدر الدين الأردبيلي، تركها لما حصلت له الناصرية الجوانية، وبعد بيوم درس بالنجيبية الشيخ الإمام العلامة عماد الدين إسماعيل بن كثير عوضاً عن الشيخ جمال الدين ابن قاضي الزبداني تركها حين تعين له تدريس الظاهرية الجوانية، وحضر عنده القضاة والأعيان وكان درساً حافلاً أثنى عليه الحاضرون وتعجبوا من جمعه وترتيبه، وكان ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨] وانساق الكلام إلى مسألة ربا الفضل. وفي يوم الأحد رابع عشره ذكر الدرس بالظاهرية المذكورة ابن قاضي الزبداني عوضاً عن علاء الدين بن القلانسي توفي، وحضره عنده القضاة والأعيان، وكان يوماً مطيراً.

وفي أول جمادى الآخرة وقع غلاء شديد بديار مصر واشتد ذلك إلى شهر رمضان، وتوجه خلق كثير في رجب إلى مكة نحواً من ألفين وخمسمائة، منهم عز الدين بن جماعة، وفخر الدين النويري وحسن السلامي، وأبو الفتح السلامي، وخلق وفي رجب كملت عمارة جسر باب الفرج وعمل عليه باسورة[2] ورسم باستمرار فتحه إلى بعد عشاء الآخرة كبقية سائر

---

(١) شذر مذر: أي ذهبوا في كل وجه.

(٢) باسورة: كلمة أعجمية لعل معناها: مدخلاً أو ممراً.

الأبواب، وكان قبل ذلك يغلق من المغرب. وفي سلخ رجب أقيمت الجمعة بالجامع الذي أنشأه نجم الدين بن خيلخان تجاه باب كيسان من القبلة، وخطب فيه الشيخ الإمام العلامة شمس الدين بن قيم الجوزية. وفي ثاني شعبان باشر كتابة السر بدمشق القاضي علم الدين محمد بن قطب الدين أحمد بن مفضل، عوضاً عن كمال الدين بن الأثير، عزل وراح إلى مصر. وفي يوم الأربعاء رابع رمضان ذكر الدرس بالأمينية الشيخ بهاء الدين إمام المشهد عوضاً عن علاء الدين بن القلانسي. وفي العشرين منه خلع على الصدر نجم الدين بن أبي الطيب بنظر الخزانة مضافاً إلى ما بيده من وكالة بيت المال، بعد وفاة ابن القلانسي بشهور.

وخرج الركب الشامي يوم الاثنين ثامن شوال وأميره قطلودمر الخليلي. وممن حج فيه قاضي طرابلس محيي الدين بن جهبل، والفخر المصري، وابن قاضي الزبداني، وابن العز الحنفي، وابن غانم السخاوي وابن قيم الجوزية، وناصر الدين بن الربوة الحنفي، وجاءت الأخبار بوقعة جرت بين التتار في نصف رمضان قتل فيها خلق كثير منهم، وانتصر علي باشا وسلطانه الذي كان قد أقامه، وهو موسى كاوون على أربا كاوون وأصحابه، فقتل هو ووزيره ابن رشيد الدولة، وجرت خطوب كثيرة طويلة، وضربت البشائر بدمشق.

وفي ذي القعدة خلع على ناظر الجامع الشيخ عز الدين بن المنجا بسبب إكماله البطائن في الرواق الشمالي والغربي والشرقي، ولم يكن له قبل ذلك بطائن. وفي يوم الأربعاء سابع ذي الحجة ذكر الدرس بالشبلية القاضي نجم الدين ابن قاضي القضاة عماد الدين الطرسوسي الحنفي، وهو ابن سبع عشرة سنة، وحضر عنده القضاة والأعيان، وشكروا من فضله ونباهته، وفرحوا لأبيه به. وفيها عزل ابن النقيب عن قضاء حلب ووليها فخر الدين ابن خطيب جسرين، وولي الحسبة بالقاهرة ضياء الدين يوسف بن أبي بكر بن محمد خطيب بيت الأبار، خلع عليه السلطان. وفي ذي القعدة رسم السلطان باعتقال الخليفة المستكفي بالله وأهله، وأن يمنعوا من الاجتماع، فآل أمرهم كما كان أيام الظاهر والمنصور.

وممن توفي فيها من الأعيان:

السلطان أبو سعيد بن خربندا

وكان آخر من اجتمع شمل التتار عليه، ثم تفرقوا من بعده.

الشيخ البندنيجي

شمس الدين علي بن محمد بن ممدود بن عيسى البندنيجي الصوفي قدم علينا من بغداد شيخاً كبيراً راوياً لأشياء كثيرة، فيها صحيح مسلم والترمذي وغير ذلك، وعنده فوائد، ولد سنة أربع وأربعين وستمائة، وكان والده محدثاً فأسمعه أشياء كثيرة على مشايخ عدة، وكان موته بدمشق رابع[1] المحرم.

(١) في ط: سابع.

قاضي قضاة بغداد

قطب الدين أبو الفضائل محمد بن عمر بن الفضل التبريزي الشافعي المعروف بالأحوص، سمع شيئاً من الحديث واشتغل بالفقه والأصول والمنطق والعربية والمعاني والبيان، وكان بارعاً في فنون كثيرة ودرس بالمستنصرية بعد العاقولي. وفي مدارس كبار، وكان حسن الخلق كثير الخير على الفقراء والضعفاء، متواضعاً يكتب حسناً أيضاً، توفي في آخر المحرم ودفن بتربة له عند داره ببغداد رحمه الله.

الأمير صارم الدين

إبراهيم بن محمد بن أبي القاسم بن أبي الزهر، المعروف بالغزال، كانت له مطالعة وعنده شيء من التاريخ، ويحاضر جيداً، ولما توفي يوم الجمعة وقت الصلاة السادس والعشرين من المحرم دفن بتربة له عند حمام العديم.

الأمير علاء الدين مغلطاي الخازن

نائب القلعة وصاحب التربة تجاه الجامع المظفري من الغرب، كان رجلاً جيداً، له أوقاف وبر وصدقات، توفي يوم الجمعة بكرة عاشر صفر، ودفن بتربته المذكورة.

القاضي كمال الدين

أحمد بن محمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن هبة الله بن الشيرازي الدمشقي، ولد سنة سبعين، وسمع الحديث وتفقه على الشيخ تاج الدين الفزاري، والشيخ زين الدين الفارقي، وحفظ مختصر المزني ودرس في وقت بالبادرائية، وفي وقت بالشامية البرانية، ثم ولّي تدريس الناصرية الجوانية مدة سنين إلى حين وفاته، وكان صدراً كبيراً، ذكر لقضاء قضاة دمشق غير مرة، وكان حسن المباشرة والشكل، توفي في ثالث صفر ودفن بتربتهم بسفح قاسيون رحمه الله.

الأمير ناصر الدين

محمد ابن الملك المسعود جلال الدين بن عبد الله ابن الملك الصالح إسماعيل بن العادل، كان شيخاً مسناً قد اعتنى بصحيح البخاري يختصره، وله فهم جيد ولديه فضيلة وكان يسكن المزة وبها توفي ليلة السبت خامس عشرين صفر، له أربع وسبعون سنة، ودفن بتربتهم بالمزة رحمه الله.

علاء الدين

علي بن شرف الدين محمد بن القلانسي قاضي العسكر ووكيل بيت المال، وموقع الدست، ومدرس الأمينية والظاهرية وغير ذلك من المناصب، ثم سلبها كلها سوى التدريس، وبقي معزولاً إلى حين أن توفي بكرة السبت خامس عشرين صفر، ودفن بتربتهم.

عز الدين أحمد ابن الشيخ زين الدين

محمد بن أحمد بن محمود العقيلي، ويعرف بابن القلانسي، محتسب دمشق وناظر

الخزانة، كان محمود المباشرة، ثم عزل عن الحسبة واستمر بالخزانة إلى أن توفي يوم الاثنين تاسع عشر جمادى الأولى ودفن بقاسيون.

الشيخ علي بن أبي المجد بن شرف بن أحمد الحمصي

ثم الدمشقي مؤذن الربوة خمساً وأربعين سنة، وله ديوان شعر وتعاليق وأشياء كثيرة مما ينكر أمرها، وكان محلولاً في دينه، توفي في جمادى الأولى أيضاً.

الأمير شهاب الدين بن برق

متولي دمشق، شهد جنازته خلق كثير، توفي ثاني شعبان ودفن بالصالحية وأثنى عليه الناس.

الأمير فخر الدين بن الشمس لؤلؤ

متولي البر، كان مشكوراً أيضاً، توفي رابع شعبان، وكان شيخاً كبيراً، توفي ببستانه ببيت لهيا ودفن بتربته هناك وترك ذرية كثيرة رحمه الله.

عماد الدين إسماعيل

ابن شرف الدين محمد ابن الوزير فتح الدين عبد الله بن محمد بن أحمد بن خالد بن صغير بن القيسراني، أحد كتاب الدست، وكان من خيار الناس، محبباً إلى الفقراء والصالحين، وفيه مروءة كثيرة، وكتب بمصر ثم صار إلى حلب كاتب سرها، ثم انتقل إلى دمشق فأقام بها إلى أن توفي ليلة الأحد ثالث عشر ذي القعدة، وصلّي عليه من الغد بجامع دمشق، ودفن بالصوفية عن خمس وستين سنة، وقد سمع شيئاً من الحديث على الأبرقوهي وغيره.

وفي ذي القعدة توفي شهاب الدين ابن القديسة المحدث بطريق الحجاز الشريف.

وفي ذي الحجة توفي الشمس محمد المؤذن المعروف بالنجار ويعرف بالبتي، وكان يتكلم وينشد في المحافل والله سبحانه أعلم.

ثم دخلت سنة سبع وثلاثين وسبعمائة

استهلت بيوم الجمعة والخليفة المستكفي بالله قد اعتقله السلطان الملك الناصر، ومنعه من الاجتماع بالناس، ونائب الشام تنكز بن عبد الله الناصري، والقضاة والمباشرون هم المذكورون في التي قبلها، سوى كاتب السر فإنه علم الدين بن القطب، ووالي البر الأمير بدر الدين بن قطلوبك بن شنشنكير، ووالي المدينة حسام الدين طرقطاي الجوكنداري.

وفي أول يوم منها يوم الجمعة وصلت الأخبار بأن علي باشاه كسر جيشه، وقيل إنه قتل، ووصلت كتب الحجاج في الثاني والعشرين من المحرم تصف مشقة كثيرة حصلت للحجاج من موت الجمال وإلقاء الأحمال ومشى كثير من النساء والرجال، فإنا لله وإنا إليه راجعون، والحمد لله على كل حال.

وفي آخر المحرم قدم إلى دمشق القاضي حسام الدين حسن بن محمد الغوري قاضي بغداد، وكان والوزير نجم الدين محمود بن علي بن شروان الكردي، وشرف الدين عثمان بن حسن البلدي فأقاموا ثلاثة أيام ثم توجهوا إلى مصر فحصل لهم قبول تام من السلطان، فاستقضى الأول على الحنفية كما سيأتي، واستوزر الثاني وأمّر الثالث. وفي يوم عاشوراء أحضر شمس الدين محمد ابن الشيخ شهاب الدين أحمد بن اللبان الفقيه الشافعي إلى مجلس الحكم الجلالي، وحضر معه شهاب الدين بن فضل الله ومجد الدين الأقصرائي شيخ الشيوخ، وشهاب الدين الأصبهاني، فادَّعى عليه بأشياء منكرة من الحلول والاتحاد والغلو في القرمطة وغير ذلك، فأقر ببعضها فحكم عليه بحقن دمه ثم توسط في أمره وأبقيت عليه جهاته، ومنع من الكلام على الناس، وقام في صفه جماعة من الأمراء والأعيان. وفي صفر احترق بقصر حجاج حريق عظيم أتلف دوراً ودكاكين عديدة.

وفي ربيع الأول ولد للسلطان ولد فدقت البشائر بدمشق وزينت البلد أياماً. وفي منتصف ربيع الآخر أمر الأمير صارم الدين إبراهيم الحاجب الساكن تجاه جامع كريم الدين طبلخاناه، وهو من كبار أصحاب الشيخ تقي الدين بن تيمية رحمه الله، وله مقاصد حسنة صالحة، وهو في نفسه رجل جيد. وفيه أفرج عن الخليفة المستكفي وأطلق من البرج في حادي عشرين ربيع الآخر ولزم بيته. وفي يوم الجمعة عشرين جمادى الآخرة أقيمت الجمعة في جامعين بمصر، أحدهما أنشأه الأمير عز الدين أيدمر بن عبد الله الخطيري، ومات بعد ذلك باثني عشر يوماً رحمه الله، والآخر أنشأته امرأة يقال لها الست حدق داية السلطان الناصر عند قنطرة السباع. وفي شعبان سافر القاضي شهاب الدين أحمد بن شرف بن منصور النائب في الحكم بدمشق إلى قضاء طرابلس، وناب بعده الشيخ شهاب الدين أحمد البعلبكي النقيب. وفيه خلع على عز الدين بن جماعة بوكالة بيت المال بمصر، وعلى ضياء الدين ابن خطيب بيت الأبار بالحسبة بالقاهرة، مع ما بيده من نظر الأوقاف وغيره. وفيه أمر الأمير ناظر القدس بطبلخاناه ثم عاد إلى القدس.

وفي عاشر رمضان قدمت من مصر مقدمتان ألفان إلى دمشق سائرة إلى بلاد سيس، وفيهم علاء الدين فاجتمع به أهل العلم وهو من أفاضل الحنفية، وله مصنفات في الحديث وغيره.

وخرج الركب الشامي يوم الاثنين عاشر شوال وأميره بهادر قبجق، وقاضيه محيي الدين الطرابلسي مدرس الحمصية، وفي الركب تقي الدين شيخ الشيوخ وعماد الدين بن الشيرازي، ونجم الدين الطرسوسي، وجمال الدين المرداوي، وصاحبه شمس الدين بن مفلح، والصدر المالكي والشرف بن القيسراني، والشيخ خالد المقيم عند دار الطعم، وجمال الدين بن الشهاب محمود.

وفي ذي القعدة وصلت الأخبار بأن الجيش تسلموا من بلاد سيس سبع قلاع، وحصل لهم خير كثير ولله الحمد، وفرح المسلمون بذلك. وفيه كانت وقعة هائلة بين التتار انتصر فيها الشيخ وذووه. وفيها نفي السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون الخليفة وأهله وذويه، وكانوا قريباً

من مائة نفس إلى بلاد قوص، ورتب لهم هناك ما يقوم بمصالحهم، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وممن توفي فيها من الأعيان:

الشيخ علاء الدين بن غانم

أبو الحسن علي بن محمد بن سليمان بن حمائل بن علي المقدسي أحد الكبار المشهورين بالفضائل وحسن الترسل، وكثرة الأدب والأشعار والمروءة التامة، مولده سنة إحدى وخمسين وستمائة، وسمع الحديث الكثير، وحفظ القرآن والتنبيه، وباشر الجهات، وقصده الناس في الأمور المهمات وكان كثير الإحسان إلى الخاص والعام. توفي مرجعه من الحج في منزلة تبوك يوم الخميس ثالث عشر المحرم، ودفن هناك رحمه الله، ثم تبعه أخوه شهاب الدين أحمد في شهر رمضان، وكان أصغر منه سناً بسنة، وكان فاضلاً أيضاً بارعاً كثير الدعابة.

الشرف محمود الحريري

المؤذن بالجامع الأموي، بنى حماماً بالنيرب، ومات في آخر المحرم.

الشيخ الصالح العابد

ناصر الدين محمد ابن الشيخ إبراهيم بن معضاد بن شداد بن ماجد بن مالك الجبري[1] ثم المصري، ولد سنة خمسين وستمائة بقلعة جعبر، وسمع صحيح مسلم وغيره، وكان يتكلم على الناس ويعظهم ويستحضر أشياء كثيرة من التفسير وغيره، وكان فيه صلاح وعبادة، توفي في الرابع والعشرين من المحرم، ودفن بزاويتهم عند والده خارج باب النصر.

الشيخ شهاب الدين بن عبد الحق الحنفي

أحمد بن علي بن أحمد بن علي بن يوسف ابن قاضي الحنفيين ويعرف بابن عبد الحق الحنفي، شيخ المذهب ومدرس الحنفية وغيرها، وكان بارعاً فاضلاً ديناً، توفي في ربيع الأول.

الشيخ عماد الدين

إبراهيم بن علي بن عبد الرحمن بن عبد المنعم بن نعمة المقدسي النابلسي الحنبلي الإمام العالم العابد شيخ الحنابلة بها ومفتيهم من مدة طويلة، توفي في ربيع الأول.

الشيخ الإمام العابد الناسك

محب الدين عبد الله بن أحمد بن المحب عبد الله بن أحمد بن أبي بكر بن محمد بن إبراهيم بن أحمد بن عبد الرحمن بن إسماعيل بن منصور المقدسي الحنبلي، سمع الكثير وقرأ بنفسه، وكتب الطباق وانتفع الناس به، وكانت له مجالس وعظ من الكتاب والسنة في الجامع الأموي وغيره، وله صوت طيب بالقراءة جداً، وعليه روح وسكينة ووقار، وكانت مواعيده

---

(١) في ط: الجعبري.

مفيدة ينتفع بها الناس، وكان شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية يحبه ويحب قراءته، توفي يوم الاثنين سابع ربيع الأول، وكانت جنازته حافلة، ودفن بقاسيون وشهد الناس له بالخير، رحمه الله تعالى، وبلغ خمساً وخمسين سنة.

المحدث البارع المحصل المفيد المخرج المجيد

ناصر الدين محمد بن طغربل[1] **بن عبد الله الصيرفي**، الخوارزمي الأصل، سمع الكثير وقرأ بنفسه، وكان سريع القراءة، وقرأ الكتب الكبار والصغار، وجمع وخرج شيئاً كثيراً، وكان بارعاً في هذا الشأن، رحل فأدركته منيته بحماة يوم السبت ثاني عشر ربيع الأول، ودفن من الغد بمقابر طيبة رحمه الله.

شيخنا الإمام العالم العابد

شمس الدين أبو محمد عبد الله بن العفيف محمد ابن الشيخ تقي الدين يوسف بن عبد المنعم بن نعمة المقدسي النابلسي الحنبلي، إمام مسجد الحنابلة بها، ولد سنة تسع وأربعين وستمائة، وسمع الكثير وكان كثير العبادة حسن الصوت، عليه البهاء والوقار وحسن الشكل والسمت، قرأت عليه عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة مرجعنا من القدس كثيراً من الأجزاء والفوائد، وهو والد صاحبنا الشيخ جمال الدين يوسف أحد مفتية الحنابلة وغيرهم، والمشهورين بالخير والصلاح، توفي يوم الخميس ثاني عشرين ربيع الآخر ودفن هناك رحمه الله.

الشيخ محمد بن عبد الله بن المجد

إبراهيم المرشدي المقيم بمنية مرشد، يقصده الناس للزيارة، ويضيف الناس على حسب مراتبهم وينفق نفقات كثيرة جداً، ولم يكن يأخذ من أحد شيئاً فيما يبدو للناس، والله أعلم بحاله، وأصله من قرية دهروط، وأقام بالقاهرة مدة واشتغل بها، ويقال إنه قرأ التنبيه في الفقه، ثم انقطع بمنية مرشد واشتهر أمره في الناس وحج مرات، وكان إذا دخل القاهرة يزدحم عليه الناس، ثم كانت وفاته يوم الخميس ثامن رمضان ودفن بزاويته، وصلّي عليه بالقاهرة ودمشق وغيرهما.

الأمير أسد الدين

عبد القادر بن المغيث عبد العزيز ابن الملك المعظم عيسى بن العادل، ولد سنة اثنتين وأربعين وستمائة، وسمع الكثير وأسمع، وكان يأتي كل سنة من مصر إلى دمشق، ويكرم أهل الحديث، ولم يبق من بعده من بني أيوب أعلا سناً منه، توفي بالرملة في سلخ رمضان رحمه الله.

الشيخ الصالح الفاضل

حسن بن إبراهيم بن حسن الحاكي الحكري، إمام مسجد هناك، ومذكر الناس في كل جمعة، ولديه فضائل، وفي كلامه نفع كثير إلى أن توفي في العشرين من شوال، ولم ير الناس

---

(١) في ط: طغربك.

مثل جنازته بديار مصر رحمه الله تعالى.

ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة

استهلت بيوم الأربعاء والخليفة المستكفي منفي ببلاد قوص، ومعه أهله وذووه، ومن يلوذ به، وسلطان البلاد الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور، ولا نائب بديار مصر ولا وزير، ونائبه بدمشق تنكز، وقضاة البلاد ونوابها ومباشروها هم المذكورون في التي قبلها. وفي ثالث ربيع الأول رسم السلطان بتسفير علي ومحمد ابني داود بن سليمان بن داود بن العاضد آخر خلفاء الفاطميين إلى الفيوم ويقيمون به. وفي يوم الجمعة ثاني عشر ربيع الآخر عزل القاضي علم الدين بن القطب عن كتابة السر وضرب وصودر، ونكب بسببه القاضي فخر الدين المصري، وعزل عن مدرسته الدولعية وأخذها ابن جملة، والعادلية الصغيرة باشرها ابن النقيب، ورسم[1] عليه بالعذراوية مائة يوم، وأخذ شيء من ماله.

وفي ليلة الأحد ثالث عشرين ربيع الأول بعد المغرب هبت ريح شديدة بمصر وأعقبها رعد وبرق وبرد بقدر الجوز، وهذا شيء لم يشاهدوا مثله من أعصار متطاولة بتلك البلاد. وفي عاشر جمادى الأولى استهل الغيث بمكة من أول الليل، فلما انتصف الليل جاء سيل عظيم هائل لم ير مثله من دهر طويل، فخرب دوراً كثيرة نحواً من ثلاثين أو أكثر، وغرق جماعة وكسر أبواب المسجد، ودخل الكعبة وارتفع فيها نحواً من ذراع أو أكثر، وجرى أمر عظيم حكاه الشيخ عفيف الدين الطبري. وفي سابع عشرين من جمادى الأولى عزل القاضي جلال الدين عن قضاء مصر، واتفق وصول خبر موت قاضي الشام ابن المجد بعد أن عزل بيسير، فولاه السلطان قضاء الشام فسار إليها راجعاً عوداً على بدء، ثم عزل السلطان برهان الدين بن عبد الحق قاضي الحنفية، وعزل قاضي الحنابلة تقي الدين، ورسم على ولده صدر الدين بأداء ديون الناس إليهم، وكانت قريباً من ثلاثمائة ألف، فلما كان يوم الاثنين تاسع عشر جمادى الآخرة بعد سفر جلال الدين بخمسة أيام طلب السلطان أعيان الفقهاء إلى بين يديه فسألهم عن من يصلح للقضاء بمصر فوقع الاختيار على القاضي عز الدين بن جماعة، فولاه في الساعة الراهنة، وولى قضاء الحنفية لحسام الدين حسن بن محمد بن الغوري البغدادي قاضي بغداد، وخرجا من بين يديه إلى المدرسة الصالحية، وعليهما الخلع، ونزل عز الدين بن جماعة عن دار الحديث الكاملية لصاحبه الشيخ كمال الدين الدمياطي، فدرس فيها وأورد حديث: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ»[2].

---

(١) رسم: أمر وكتب.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الوحي باب ١، والإيمان باب ٤١، والإكراه، في الترجمة، والنكاح باب ٥، والطلاق باب ١١، ومناقب الأنصار باب ٤٥، والعتق باب ٦، والأيمان باب ٢٣، والحيل باب ١، ومسلم في الإمارة حديث ١٥٥، وأبو داود في الطلاق باب ١١، والترمذي في فضائل الجهاد باب ١٦، والنسائي في الطهارة باب ٥٩، والطلاق باب ٢٤، والأيمان باب ١٩، وابن ماجه في الزهد باب ٢٦، وأحمد في المسند ١/ ٢٥، ٤٣.

بسنده، وتكلم عليه. وعزل أكثر نواب الحكم واستمر بعضهم واستمر بالمنادي الذي أشار بتوليته. ولما كان يوم خامس عشرين منه ولي قضاء الحنابلة الإمام العالم موفق الدين أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الملك المقدسي عوضاً عن المعزول، ولم يبق من القضاة سوى الأخنائي المالكي.

وفي رمضان فتحت الصبابية التي أنشأها شمس الدين بن تقي الدين بن الصباب التاجر دار قرآن ودار حديث، وقد كانت خربة شنيعة قبل ذلك. وفي رمضان باشر علاء الدين علي ابن القاضي محيي الدين بن فضل الله كتابة السر بمصر بعد وفاة أبيه كما سيأتي ترجمته، وخلع عليه وعلى أخيه بدر الدين، ورسم لهما أن يحضرا مجلس السلطان، وذهب أخوه شهاب الدين إلى الحج.

وفي هذا الشهر سقط بالجانب الغربي من مصر برد كالبيض وكالرمان، فأتلف شيئاً كثيراً، ذكر ذلك البرزالي ونقله من كتاب الشهاب الدمياطي. وفي ثالث عشرين رمضان درس بالقبة المنصورية بمشيخة الحديث شهاب الدين العسجدي عوضاً عن زين الدين الكناني توفي، فأورد حديثاً من مسند الشافعي بروايته عن الجاولي بسنده، ثم صرف عنها في الحجة بالشيخ أثير الدين أبي حيان، فساق حديثاً عن شيخه ابن الزبير ودعا للسلطان وحضر عنده القضاة والأعيان، وكان مجلساً حافلاً. وفي ذي القعدة حضر تدريس الشامية البرانية قاضي القضاة شمس الدين بن النقيب عوضاً عن القاضي جمال الدين بن جملة توفي، وحضر خلق كثير من الفقهاء والأعيان، وكان مجلساً حافلاً. وفي ثاني ذي الحجة درس بالعادلية الصغيرة تاج الدين عبد الرحيم ابن قاضي القضاة جلال الدين القزويني عوضاً عن الشيخ شمس الدين بن النقيب بحكم ولايته الشامية البرانية، وحضر عنده القضاة والأعيان. وفي هذا الشهر درس القاضي صدر الدين ابن القاضي جلال الدين بالأتابكية، وأخوه الخطيب بدر الدين بالغزالية والعادلية نيابة عن أبيه. انتهى والله أعلم.

وممن توفي فيها من الأعيان:

الأمير الكبير بدر الدين محمد بن فخر الدين عيسى بن التركماني

باني جامع المقياس بديار مصر في أيام وزارته بها، ثم عزل أميراً إلى الشام، ثم رجع إلى مصر فتوفي بها في خامس ربيع الآخر، وتوفي بالحسينية، وكان مشكوراً رحمه الله، انتهى.

قاضي القضاة شهاب الدين

محمد بن المجد بن عبد الله بن الحسين بن علي الرازي الإربلي الأصل، ثم الدمشقي الشافعي، قاضي قضاة الشافعية بدمشق، ولد سنة اثنتين وستين وستمائة، واشتغل وبرع وحصل وأفتى سنة ثلاث وتسعين، ودرس بالإقبالية ثم الرواحية وتربة أم الصالح، وولّي وكالة بيت المال، ثم صار قاضي قضاة الشام إلى أن توفي بمستهل جمادى الأولى[1] بالمدرسة العادلية،

(١) في ط: الآخرة.

ودفن بمقابر باب الصغير رحمه الله.

الشيخ الإمام العالم ابن المرحل

زين الدين محمد بن عبد الله ابن الشيخ زين الدين عمر بن مكي بن عبد الصمد بن المرحل مدرس الشامية البرانية والعذراوية ولد بدمشق، وكان قبل ذلك بمشهد الحسين، وكان فاضلاً بارعاً فقيهاً أصولياً مناظراً، حسن الشكل طيب الأخلاق حسن التدريس ديناً صيناً، وناب في وقت بدمشق عن علم الدين الأخنائي في الحكم فحمدت سيرته، وكانت وفاته ليلة الأربعاء تاسع عشرين رجب، ودفن من الغد عند مسجد الديان في تربة لهم هناك، وحضر جنازته خلق كثير والقاضي جلال الدين، وكان قد قدم من الديار المصرية له يومان فقط، وقدم بعده القاضي برهان الدين عبد الحق بخمسة أيام، هو وأهله وأولاده أيضاً، وباشر بعده تدريس الشامية البرانية قاضي القضاة جمال الدين بن جملة، ثم كانت وفاته بعده بشهور، وذلك يوم الخميس رابع عشر ذي القعدة. وهذه ترجمته في تاريخ الشيخ علم الدين البرزالي:

قاضي القضاة قاضي القضاة جمال الدين الصالحي

جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن إبراهيم بن جملة بن مسلم بن همام بن حسين بن يوسف الصالحي الشافعي المحجي والده، بالمدرسة السرورية وصلّي عليه عقيب الظهر يوم الخميس رابع عشر ذي القعدة، ودفن بسفح قاسيون، ومولده في أوائل سنة اثنتين وثمانين وستمائة، وسمع من ابن البخاري وغيره، وحدث وكان رجلاً فاضلاً في فنون، اشتغل وحصَّل وأفتى وأعاد ودرس، وله فضائل جمة ومباحث وفوائد وهمة عالية وحرمة وافرة، وفيه تودد وإحسان وقضاء للحقوق، وولّي القضاء بدمشق نيابة واستقلالاً، ودرس بمدارس كبار، ومات وهو مدرس الشامية البرانية، وحضر جنازته خلق كثير من الأعيان رحمه الله.

الشيخ الإمام شيخ الإسلام قاضي القضاة ابن البارزي

شرف الدين أبو القاسم هبة الله ابن قاضي القضاة نجم الدين عبد الرحيم ابن قاضي القضاة شمس الدين أبي الطاهر إبراهيم بن هبة الله بن مسلم بن هبة الله الجهيني الحموي، المعروف بابن البارزي قاضي القضاة بحماة، صاحب التصانيف الكثيرة المفيدة في الفنون العديدة، ولد في خامس رمضان سنة خمس وأربعين وستمائة، وسمع الكثير وحصَّل فنوناً كثيرة، وصنَّف كتباً كثيرة جمة، وكان حسن الأخلاق كريم المحاضرة حسن الاعتقاد في الصالحين، وكان معظماً عند الناس، وقد أذن لجماعة من الطلبة في الإفتاء، وعمي في آخر عمره وهو يحكم مع ذلك مدة، ثم نزل عن المنصب لحفيده نجم الدين عبد الرحيم بن إبراهيم، وهو مع ذلك لا يقطع نظره عن المنصب، وكانت وفاته ليلة الأربعاء عشرين ذي القعدة بعد أن صلى العشاء والوتر، فلم تفته فريضة ولا نافلة، وصلّي عليه من الغد ودفن بعقبة نقيرين، وله من العمر ثلاث وتسعون سنة رحمه الله.

الشيخ الإمام العالم

شهاب الدين أحمد بن البرهان شيخ الحنفية بحلب، شارح الجامع الكبير، وكان رجلاً صالحاً منقطعاً عن الناس، وانتفع الناس به، وكانت وفاته ليلة الجمعة ثامن عشرين رجب، وكانت له معرفة بالقرآن والقراءات والعربية ومشاركات في علوم أخر رحمه الله، والله أعلم.

القاضي محيي الدين بن فضل الله كاتب السر

هو أبو المعالي يحيى بن فضل الله بن المحلي بن دعجان بن خلف العدوي العمري، ولد في حادي عشر شوال سنة خمس وأربعين وستمائة بالكرك، وسمع الحديث وأسمعه، وكان صدراً كبيراً معظماً في الدولة في حياة أخيه شرف الدين وبعده، وكتب السر بالشام وبالديار المصرية، وكانت وفاته ليلة الأربعاء تاسع رمضان بديار مصر، ودفن من الغد بالقرافة وتولى المنصب بعده ولده القاضي علاء الدين، وهو أصغر أولاده الثلاثة المعينين بهذا المنصب.

الشيخ الإمام العلامة

زين الدين ابن الكتاني، شيخ الشافعية بديار مصر، وهو أبو حفص عمر بن أبي الحزم بن عبد الرحمن بن يونس الدمشقي الأصل، ولد بالقاهرة في حدود سنة ثلاث وخمسين وستمائة، واشتغل بدمشق ثم رحل إلى مصر واستوطنها وتولى بها بعض الأقضية بالبرّ، ثم ناب عن الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد فحمدت سيرته، ودرس في مدارس كبار، وولي مشيخة دار الحديث بالقبة المنصورية، وكان بارعاً فاضلاً، عنده فوائد جمة كثيرة جداً، غير أنه كان سيىء الأخلاق منقبضاً عن الناس، لم يتزوج قط، وكان حسن الشكل بهي المنظر، يأكل الطيبات ويلبس اللين من الثياب، وله فوائد وفرائد وزوائد على الروضة وغيرها، وكان فيه استهتار ببعض العلماء فالله يسامحه، وكانت وفاته يوم الثلاثاء المنتصف من رمضان، ودفن بالقرافة رحمه الله انتهى.

الشيخ الإمام العلامة ابن القويع

ركن الدين بن القويع، أبو عبد الله محمد عبد الرحمن بن يوسف بن عبد الرحمن بن عبد الجليل القرشي الهاشمي الجعفري التونسي المالكي، المعروف بابن القويع، كان من أعيان الفضلاء وسادة الأذكياء، ممن جمع الفنون الكثيرة والعلوم الغزيرة الدينية الشرعية والطبية، وكان مدرساً بالمنكوتمرية، وله وظيفة في المارستان المنصوري، وبها توفي في بكرة السابع عشر من ذي الحجة عن أربع وسبعين سنة وقد ترك مالاً وأثاثاً كثيراً ورثه بيت المال والله سبحانه وتعالى أعلم والحمد لله وأستغفر الله ولا حول ولا قوة إلا بالله وحسبنا الله ونعم الوكيل قلت:

وهذا آخر ما أرخ شيخنا الحافظ علم الدين البرزالي في كتابه الذي ذيل به على تاريخ الشيخ شهاب الدين أبي شامة المقدسي، وقد ذيلت على تاريخه إلى زماننا هذا، وكان فراغي من الانتقاء من تاريخه في يوم الأربعاء العشرين من جمادى الآخرة من سنة إحدى وخمسين وسبعمائة، أحسن الله خاتمتها آمين. وإلى هنا انتهى ما كتبته من لدن خلق آدم إلى زماننا هذا

ولله الحمد والمنة. وما أحسن ما قال الحريري:

وَإنْ تَـجِـدْ عَـيْـبـاً فَـسُـدَّ الـخَـلَـلاَ فَـجَـلَّ مَـنْ لا عَـيْـبَ فِـيـهِ وعَـلاَ

كتبه إسماعيل بن كثير بن صنو القرشي الشافعي عفا الله تعالى عنه آمين[1].

ثم دخلت سنة تسع وثلاثين وسبعمائة

استهلت وسلطان الإسلام والمسلمين بالديار المصرية وما والاها والديار الشاميّة وما والاها والحرمين الشريفين الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاوون، ولا نائب له ولا وزير أيضاً بمصر، وقضاة مصر، أما الشافعي فقاضي القضاة عز الدين ابن قاضي القضاة صدر الدين محمد بن إبراهيم بن جماعة، وأما الحنفي فقاضي القضاة حسام الدين الغوري، حسن بن محمد، وأما المالكي فتقي الدين الأخنائي، وأما الحنبلي فموفق الدين بن نجا المقدسي، ونائب الشام الأمير سيف الدين تنكز وقضاته جلال الدين القزويني الشافعي المعزول عن الديار المصرية، والحنفي عماد الدين الطرسوسي، والمالكي شرف الدين الهمداني، والحنبلي علاء الدين بن المنجا التنوخي.

ومما حدث في هذه السنة إكمال دار الحديث السكرية وباشر مشيخة الحديث بها الشيخ الإمام الحافظ مؤرخ الإسلام محمد بن شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، وقرر فيها ثلاثون محدثاً لكل منهم جراية وجامكية كل شهر سبعة دراهم ونصف رطل خبز، وقرر للشيخ ثلاثون ورطل خبز، وقرر فيها ثلاثون نفراً يقرؤون القرآن لكل عشرة شيخ، ولكل واحد من القراء نظير ما للمحدثين، ورتب لها إمام وقارىء حديث ونواب، ولقارىء الحديث عشرون درهماً وثمان أواق خبز، وجاءت في غاية الحسن في شكالاتها وبنائها، وهي تجاه دار الذهب التي أنشأها الواقف الأمير تنكز، ووقف عليها عدة أماكن: منها سوق القشاشيين بباب الفرج، طوله عشرون ذراعاً شرقاً وغرباً، سماه في كتاب الوقف، وبندر زيدين، وحمام بحمص وهو الحمام القديم، ووقف عليها حصصاً في قرايا أخر، ولكنه تغلب على ما عدا القشاشيين وبندر زيدين، وحمام حمص.

وفيها قدم القاضي تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي الشافعي من الديار المصرية حاكماً على دمشق وأعمالها، وفرح الناس به، ودخل الناس يسلمون عليه لعلمه وديانته وأمانته، ونزل بالعادلية الكبيرة على عادة من تقدمه، ودرس بالغزالية والأتابكية، واستناب ابن عمه القاضي بهاء الدين أبو البقاء، ثم استناب ابن عمه أبا الفتح، وكانت ولايته الشام بعد وفاة قاضي القضاة جلال الدين محمد بن عبد الرحيم القزويني الشافعي، على ما سيأتي بيانه في الوفيات من هذه السنة. وممن توفي فيها من الأعيان في المحرم سنة تسع وثلاثين وستمائة.

(١) كذا بسائر الأصول.

العلامة قاضي القضاة فخر الدين

عثمان بن الزين علي بن عثمان الحلبي، ابن خطيب جسرين الشافعي، ولي قضاء حلب وكان إماماً صنف شرح مختصر ابن الحاجب في الفقه، وشرح البديع لابن الساعاتي، وله فوائد غزيرة ومصنفات جليلة، تولى حلب بعد عزل الشيخ ابن النقيب، ثم طلبه السلطان فمات هو وولده الكمال وله بضع وسبعون سنة. وممن توفي فيها.

قاضي القضاة جلال الدين محمد بن عبد الرحمن

القزويني الشافعي: قدم هو وأخوه أيام التتر من بلادهم إلى دمشق، وهما فاضلان، بعد التسعين وستمائة فدرس إمام الدين في تربة أم الصالح وأعاد جلال الدين بالبادرائية عند الشيخ برهان الدين ابن الشيخ تاج الدين شيخ الشافعية، ثم تقلبت بهم الأحوال إلى أن ولي إمام الدين قضاء الشافعية بدمشق، انتزع له من يد القاضي بدر الدين بن جماعة، ثم هرب سنة قازان إلى الديار المصرية مع الناس فمات هنالك، وأعيد ابن جماعة إلى القضاء، وخلت خطابة البلد سنة ثلاث وسبعمائة، فوليها جلال الدين المذكور، ثم ولى القضاء بدمشق سنة خمس وعشرين مع الخطابة، ثم انتقل إلى الديار المصرية سنة سبع وعشرين بعد أن عجز قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة بسبب الضرر في عينيه فلما كان في سنة ثمان وثلاثين تعصب عليه السلطان الملك الناصر بسبب أمور يطول شرحها، ونفاه إلى الشام، واتفق موت قاضي القضاة شهاب الدين بن المجد عبد الله كما تقدم، فولاه السلطان قضاء الشام عوداً على بدء، فاستناب ولده بدر الدين على نيابة القضاء الذي هو خطيب دمشق، كانت وفاته في أواخر هذه السنة، ودفن بالصوفية، وكانت له يد طولى في المعاني والبيان، ويفتي كثيراً، وله مصنفات في المعاني مصنف مشهور (اسمه التلخيص في علوم البلاغة) اختصر فيه المفتاح للسكاكي، وكان مجموع الفضائل، مات وكان عمره قريباً من السبعين أو جاوزها.

وممن توفي فيها رابع الحجة يوم الأحد:

الشيخ الإمام الحافظ ابن البرزالي

علم الدين أبو محمد القاسم بن محمد بن البرزالي، مؤرخ الشام الشافعي، ولد سنة وفاة الشيخ ابن أبي شامة سنة خمس وستين وستمائة، وقد كتب تاريخاً ذيل به على الشيخ شهاب الدين، من حين وفاته ومولد البرزالي إلى أن توفي في هذه السنة، وهو محرم، فغسل وكفن ولم يستر رأسه، وحمله الناس على نعشه وهم يبكون حوله، وكان يوماً مشهوداً، وسمع الكثير أزيد من ألف شيخ، وخرج له المحدث شمس الدين بن سعد مشيخة لم يكملها، وقرأ شيئاً كثيراً، وأسمع شيئاً كثيراً، وكان له خط حسن، وخلق حسن، وهو مشكور عند القضاء ومشايخه أهل العلم، سمعت العلامة ابن تيمية يقول: نقل البرزالي نقر في حجر. وكان أصحابه من كل الطوائف يحبونه ويكرمونه، وكان له أولاد ماتوا قبله، وكتبت ابنته فاطمة البخاري في ثلاثة عشر مجلداً فقابله لها، وكان يقرأ فيه على الحافظ المزي تحت القبة، حتى صارت نسختها أصلاً

معتمداً يكتب منها الناس، وكان شيخ حديث بالنورية وفيها وقف كتبه بدار الحديث السنية، وبدار الحديث القوصية وفي الجامع وغيره وعلى كراسي الحديث، وكان متواضعاً محبباً إلى الناس، متودّداً إليهم، توفي عن أربع وسبعين سنة رحمه الله.

المؤرخ شمس الدين

محمد بن إبراهيم الجوزي، جمع تاريخاً حافلاً، كتب فيه أشياء يستفيد منها الحافظ كالمزي والذهبي والبرزالي يكتبون عنه ويعتمدون على نقله، وكان شيخاً قد جاوز الثمانين، وثقل سمعه وضعف خطه، وهو والد الشيخ ناصر الدين محمد وأخوه مجد الدين.

ثم دخلت سنة أربعين وسبعمائة

استهلت هذه السنة وسلطان المسلمين الملك الناصر، وولاته وقضاته المذكورون في التي قبلها إلا الشافعي بالشام فتوفي القزويني وتولى العلامة السبكي. ومما وقع من الحوادث العظيمة الهائلة أن جماعة من رؤوس النصارى اجتمعوا في كنيستهم وجمعوا من بينهم مالاً جزيلاً فدفعوه إلى راهبين قدما عليها من بلاد الروم، يحسنان صنعة النفط، اسم أحدهما ملاني والآخر عازر، فعملا كحطاً من نفط، وتلطفا حتى عملاه لا يظهر تأثيره إلا بعد أربع ساعات وأكثر من ذلك، فوضعا في شقوق دكاكين التجار في سوق الرجال عند الدهشة في عدة دكاكين من آخر النهار، بحيث لا يشعر أحد بهما، وهما في زي المسلمين، فلما كان في أثناء الليل لم يشعر الناس إلا والنار قد عملت في تلك الدكاكين حتى تعلقت في درابزينات المئذنة الشرقية المتجهة للسوق المذكور، وأحرقت الدرابزينات، وجاء نائب السلطنة تنكز والأمراء أمراء الألوف، وصعدوا المنارة وهي تشعل ناراً، واحترسوا عن الجامع فلم ينله شيء من الحريق ولله الحمد والمنة، وأما المئذنة فإنها تفجرت أحجارها واحترقت السقالات التي تدل السلالم فهدمت وأعيد بناؤها بحجارة جدد، وهي المنارة الشرقية التي جاء في الحديث أنه ينزل عليها عيسى ابن مريم كما سيأتي الكلام عليه في نزول عيسى عليه السلام والبلد محاصر بالدجال.

والمقصود أن النصارى بعد ليالٍ عمدوا إلى ناحية الجامع من المغرب إلى القيسارية بكمالها، وبما فيها من الأقواس والعدد، فإنا لله وإنا إليه راجعون، وتطاير شرر النار إلى ما حول القيسارية من الدور والمساكن والمدارس، واحترق جانب من المدرسة الأمينية إلى جانب المدرسة المذكورة، وما كان مقصودهم إلا وصول النار إلى معبد المسلمين، فحال الله بينهم وبين ما يرومون، وجاء نائب السلطنة والأمراء وحالوا بين الحريق والمسجد. جزاهم الله خيراً. ولما تحقق نائب السلطنة أن هذا من فعلهم أمر بمسك رؤوس النصارى فأمسك منهم نحواً من ستين رجلاً، فأخذوا بالمصادرات والضرب والعقوبات وأنواع المثلات، ثم بعد ذلك صلب منهم أزيد من عشرة على الجمال، وطاف بهم في أرجاء البلاد وجعلوا يتماوتون واحداً بعد واحد، ثم أحرقوا بالنار حتى صاروا رماداً لعنهم الله، انتهى. والله أعلم.

سبب مسك تنكز

لما كان يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من ذي الحجة جاء الأمير طشتمر من صغد مسرعاً وركب جيش دمشق ملبساً، ودخل نائب السلطنة من قصره مسرعاً إلى دار السعادة، وجاء الجيش فوقفوا على باب النصر، وكان أراد أن يلبس ويقابل فعذلوه في ذلك، وقالوا: المصلحة الخروج إلى السلطان سامعاً مطيعاً، فخرج بلا سلاح، فلما برز إلى ظاهر البلد التف عليه الفخري وغيره، وأخذوه وذهبوا به إلى ناحية الكسوة، فلما كان عند قبة يلبغا نزلوا وقيدوه وخصاياه من قصره، ثم ركب البريد وهو مقيد وساروا به إلى السلطان، فلما وصل أمر بمسيره إلى الإسكندرية، وسألوا عن ودائعه فأقر ببعض، ثم عوقب حتى أقر بالباقي، ثم قتلوه ودفنوه بالإسكندرية، ثم نقلوه إلى تربته بدمشق رحمه الله، وقد جاوز الستين، وكان عادلاً مهيباً، عفيف الفرج واليد، والناس في أيامه في غاية الرخص والأمن والصيانة فرحمه الله، وبلّ بالرحمة ثراه.

وله أوقاف كثيرة من ذلك مرستان بصغد، وجامع بنابلس وعجلون، وجامع بدمشق، ودار حديث بالقدس ودمشق، ومدرسة وخانقاه بالقدس، ورباط وسوق موقوف على المسجد الأقصى، وفتح شباكاً في المسجد انتهى والله تعالى أعلم.

وممن توفي فيها من الأعيان:

أمير المؤمنين المستكفي بالله

أبو الربيع سليمان بن الحاكم بأمر الله بن العباس أحمد بن أبي علي الحسن بن أبي بكر بن علي بن أمير المؤمنين المسترشد بالله الهاشمي العباسي، البغدادي الأصل والمولد، مولده سنة ثلاث وثمانين وستمائة أو في التي قبلها، وقرأ واشتغل قليلاً، وعهد إليه أبوه بالأمر وخطب له عند وفاة والده سنة إحدى وسبعمائة، وفوض جميع ما يتعلق به من الحل والعقد إلى السلطان الملك الناصر، وسار إلى غزو التتر فشهد مصاف شقحب، ودخل دمشق في شعبان سنة اثنتين وسبعمائة وهو راكب مع السلطان، وجميع كبراء الجيش مشاة، ولما أعرض السلطان عن الأمر وانعزل بالكرك التمس الأمراء من المستكفي أن يسلطن من ينهض بالملك، فقلد الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير وعقد له اللواء وألبسه خلعة السلطنة، ثم عاد الناصر إلى مصر وعذر الخليفة في فعله، ثم غضب عليه وسيَّره إلى قوص فتوفي في هذه السنة في قوص في مستهل شعبان.

ثم دخلت سنة إحدى وأربعين وسبعمائة

استهلت يوم الأربعاء وسلطان المسلمين الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاوون، وقضاته بمصر هم المذكورون في التي قبلها، وليس في دمشق نائب سلطنة، وإنما الذي يسد الأمور الأمير سيف الدين طشتمر الملقب بالحمص الأخضر، الذي جاء بالقبض على

الأمير سيف الدين تنكز، ثم جاء المرسوم بالرجوع إلى صغد فركب من آخر النهار وتوجه إلى بلده، وحواصل الأمير تنكز تحت الحوطة كما هي.

وفي صبيحة يوم السبت رابع المحرم من السنة المذكورة قدم من الديار المصرية خمسة أمراء الأمير سيف الدين بشتك الناصري ومعه برصبغا الحاجب، وطاشار الدويدار وبنعرا وبطا، فنزل بشتك بالقصر الأبلق والميادين، وليس معه من مماليكه إلا القليل، وإنما جاء لتجديد البيعة إلى السلطان لما توهموا من ممالأة بعض الأمراء لنائب الشام المنفصل، وللحوطة على حواصل الأمير سيف الدين تنكز المنفصل عن نيابة الشام وتجهيزها للديار المصرية. وفي صبيحة يوم الاثنين سادسه دخل الأمير علاء الدين الطنبغا إلى دمشق نائباً، وتلقاه الناس وبشتك والأمراء المصريون، ونزلوا إلى عتبته فقبلوا العتبة الشريفة، ورجعوا معه إلى دار السعادة، وقرىء تقليده. وفي يوم الاثنين ثالث عشره مسك من الأمراء المقدمين أميران كبيران الجي بغا العادلي، وطنبغا الحجي، ورفعا إلى القلعة المنصورة واحتيط على حواصلهما. وفي يوم الثلاثاء تحملوا بيت ملك الأمراء سيف الدين تنكز وأهله وأولاده إلى الديار المصرية. وفي يوم الأربعاء خامس عشره ركب نائب السلطنة الأمير علاء الدين طنبغا ومعه الأمير سيف الدين بشتك الناصري والحاجة رقطية وسيف الدين قطلوبغا الفخري وجماعة من الأمراء المقدمين واجتمعوا بسوق الخيل واستدعوا بمملوكي الأمير سيف الدين تنكز وهما جغاي وطغاي. فأمر بتوسيطهما فوسطا وعلقا على الخشب ونودي عليهما: هذا جزاء من تجاسر على السلطان الناصر.

«وفاة تنكز»

وفي يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من هذا الشهر كانت وفاة الأمير سيف الدين تنكز نائب الشام بقلعة اسكندرية، قيل مخنوقاً وقيل مسموماً وهو الأصح، وقيل غير ذلك، وتأسف الناس عليه كثيراً، وطال حزنهم عليه، وفي كل وقت يتذكرون ما كان منه من الهيبة والصيانة والغيرة على حريم المسلمين ومحارم الإسلام، ومن إقامته على ذوي الحاجات وغيرهم، ويشتد تأسفهم عليه رحمه الله. وقد أخبر القاضي أمين الدين بن القلانسي رحمه الله شيخنا الحافظ العلامة عماد الدين بن كثير رحمه الله أن الأمير سيف الدين تنكز مسك يوم الثلاثاء ودخل مصر يوم الثلاثاء ودخل الإسكندرية يوم الثلاثاء وتوفي يوم الثلاثاء وصلّي عليه بالإسكندرية ودفن بمقبرتها في الثالث والعشرين من المحرم بالقرب من قبر القباري، وكانت له جنازة جيدة.

طشتمر نائب حلب

وفي يوم الخميس سابع شهر صفر قدم الأمير سيف الدين طشتمر الذي مسك تنكز إلى دمشق فنزل بوطأة برزة بجيشه ومن معه ثم توجه إلى حلب المحروسة نائباً بها عوضاً عن الطنبغا المنفصل عنها.

وفاة محمد بن تمام

وفي صبيحة يوم الخميس ثالث عشر ربيع الأول نودي في البلدة بجنازة الشيخ الصالح

العابد الناسك القدوة الشيخ محمد بن تمام توفي بالصالحية، فذهب الناس إلى جنازته إلى الجامع المظفري، واجتمع الناس على صلاة الظهر فضاق الجامع المذكور عن أن يسعهم، وصلى الناس في الطرقات وأرجاء الصالحية، وكان الجمع كثيراً لم يشهد الناس جنازة بعد جنازة الشيخ تقي الدين بن تيمية مثلها، لكثرة من حضرها من الناس رجالاً ونساء، وفيهم القضاة والأعيان والأمراء وجمهور الناس يقاربون عشرين ألفاً، وانتظر الناس نائب السلطنة فاشتغل بكتاب ورد عليه من الديار المصرية، فصلّى عليه الشيخ بعد صلاة الظهر بالجامع المظفري، ودفن عند أخيه في تربة بين تربة الموفق وبين تربة الشيخ أبي عمر رحمهم الله وإيانا.

وفاة عائشة زوجة الشيخ المزي

وفي أول شهر جمادى الأولى توفيت الشيخة العابدة الصالحة العالمة قارئة القرآن أم فاطمة عائشة بنت إبراهيم بن صديق زوجة شيخنا الحافظ جمال الدين المزي عشية يوم الثلاثاء مستهل هذا الشهر وصلّي عليها بالجامع صبيحة يوم الأربعاء ودفنت بمقابر الصوفية غربي قبر الشيخ تقي الدين بن تيمية رحمهم الله. كانت عديمة النظير في نساء زمانها لكثرة عبادتها وتلاوتها وإقرائها القرآن العظيم بفصاحة وبلاغة وأداء صحيح، يعجز كثير من الرجال عن تجويده، وختمت نساء كثيراً، وقرأ عليها من النساء خلق وانتفعن بها وبصلاحها ودينها وزهدها في الدنيا، وتقللها منها، مع طول العمر بلغت ثمانين سنة أنفقتها في طاعة الله صلاة وتلاوة، وكان الشيخ محسناً إليها مطيعاً، لا يكاد يخالفها لحبه لها طبعاً وشرعاً فرحمها الله وقدّس روحها، ونوّر مضجعها بالرحمة آمين.

وفي يوم الأربعاء الحادي والعشرين منه درس بمدرسة الشيخ أبي عمر بسفح قاسيون الشيخ الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عبد الهادي المقدسي الحنبلي، في التدريس البكتمري عوضاً عن القاضي برهان الدين الزرعي، وحضر عنده المقادسة وكبار الحنابلة، ولم يتمكن أهل المدينة من الحضور لكثرة المطر والوحل يومئذٍ. وتكامل عمارة المنارة الشرقية في الجامع الأموي في العشر الأخير من رمضان، واستحسن الناس بناءها وإتقانها، وذكر بعضهم أنه لم يبن في الإسلام منارة مثلها ولله الحمد. ووقع لكثير من الناس في غالب ظنونهم أنها المنارة البيضاء الشرقية التي ذكرت في حديث النواس بن سمعان في نزول عيسى ابن مريم على المنارة البيضاء في شرقي دمشق، فلعل لفظ الحديث انقلب على بعض الرواة، وإنما كان على المنارة الشرقية بدمشق، وهذه المنارة مشهورة بالشرقية لمقابلتها أختها الغربية، والله سبحانه وتعالى أعلم.

إعدام الدكاكي

وفي يوم الثلاثاء سلخ شهر شوال عقد مجلس في دار العدل بدار السعادة وحضرته يومئذٍ واجتمع القضاة والأعيان على العادة وأحضر يومئذٍ عثمان الدكاكي قبّحه الله تعالى، وادّعى عليه بعظائم من القول لم يؤثر مثلها عن الحلاج ولا عن ابن أبي الغدافر السلقماني، وقامت عليه

البينة بدعوى الإلهية لعنه الله، وأشياء أخر من التنقيص بالأنبياء ومخالطته أرباب الريب من الباجريقية وغيرهم من الاتحادية عليهم لعائن الله، ووقع منه في المجلس من إساءة الأدب على القاضي الحنبلي وتضمن ذلك تكفيره من المالكية أيضاً، وادّعى أن له دوافع وقوادح في بعض الشهود، فرد إلى السجن مقيداً مغلولاً مقبوحاً، أمكن الله منه بقوته وتأييده، ثم لما كان يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من ذي القعدة أحضر عثمان الدكاكي المذكور إلى دار السعادة، وأقيم إلى بين يدي الأمراء والقضاة، وسئل عن القوادح في الشهود فعجز فلم يقدر، وعجز عن ذلك فتوجه عليه الحكم، فسئل القاضي المالكي الحكم عليه فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله ثم حكم بإراقة دمه وإن تاب، فأخذ المذكور فضربت رقبته بدمشق بسوق الخيل، ونودي عليه: هذا جزاء من يكون على مذهب الاتحادية، وكان يوماً مشهوداً بدار السعادة، حضر خلق من الأعيان والمشايخ، وحضر شيخنا جمال الدين المزي الحافظ، وشيخنا الحافظ شمس الدين الذهبي، وتكلما وحرضا في القضية جداً، وشهدا بزندقة المذكور بالاستفاضة، وكذا الشيخ زين الدين أخو الشيخ تقي الدين بن تيمية، وخرج القضاة الثلاثة المالكي والحنفي والحنبلي، وهم نفذوا حكمه في المجلس فحضروا قتل المذكور وكنت مباشراً لجميع ذلك من أوله إلى آخره.

وفي يوم الجمعة الثامن والعشرين من ذي القعدة أفرج عن الأميرين العقيلين بالقلعة وهما طنبغا حجا والجي بغا، وكذلك أفرج عن خزاندارية تنكز الذين تأخروا بالقلعة، وفرح الناس بذلك.

ذكر وفاة الملك الناصر محمد بن قلاوون

في صبيحة يوم الأربعاء السابع والعشرين من ذي الحجة قدم إلى دمشق الأمير سيف الدين قطلوبغا الفخري فخرج نائب السلطنة وعامة الأمراء لتلقيه، وكان قدومه على خيل البريد، فأخبر بوفاة السلطان الملك الناصر، كانت وفاته يوم الأربعاء آخره. وأنه صلّي عليه ليلة الجمعة بعد العشاء ودفن مع أبيه الملك المنصور على ولده أنوك، وكان قبل موته أخذ العهد لابنه سيف الدين أبي بكر ولقبه بالملك المنصور، فلما دفن السلطان ليلة الجمعة حضره من الأمراء قليل، وكان قد ولى عليه الأمير علم الدين الجاولي، ورجل آخر منسوب إلى الصلاح يقال له الشيخ عمر بن محمد بن إبراهيم الجعبري، وشخص آخر من الجبابرية، ودفن كما ذكرنا، ولم يحضر ولده ولي عهده دفنه، ولم يخرج من القلعة ليلتئذٍ عن مشورة الأمراء لئلا يتخبط الناس، وصلى عليه القاضي عز الدين بن جماعة إماماً، والجاولي وايدغمش وأمير آخر والقاضي بهاء الدين بن حامد ابن قاضي دمشق السبكي، وجلس الملك المنصور سيف الدنيا والدين أبو المعالي أبو بكر على سرير المملكة.

وفي صبيحة يوم الخميس الحادي والعشرين من ذي الحجة سنة إحدى وأربعين وسبعمائة، بايعه الجيش المصري، وقدم الفخري لأخذ البيعة من الشاميين، ونزل بالقصر الأبلق وبايع الناس للملك المنصور بن الناصر بن المنصور، ودقت البشائر بالقلعة المنصورة بدمشق صبيحة يوم الخميس الثامن والعشرين منه، وفرح الناس بالملك الجديد، وترحموا على الملك وعوا له وتأسفوا عليه رحمه الله.

ثم دخلت سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة

استهلت بيوم الأحد وسلطان الإسلام بالديار المصرية والبلاد الشامية وما والاها الملك المنصور سيف الدين أبو بكر ابن الملك السلطان الناصر ناصر الدين محمد ابن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحي، ونائب الشام الأمير علاء الدين طنبغا وقضاة الشام ومصرهم المذكورون في التي قبلها، وكذا المباشرون سوى الولاة شهر الله المحرم، ولاية الخليفة الحاكم بأمر الله.

وفي هذا اليوم بويع بالخلافة أمير المؤمنين أبو القاسم أحمد بن المستكفي بالله أبي الربيع سليمان العباسي ولبس السواد وجلس مع الملك المنصور على سرير المملكة، وألبسه خلعة سوداء أيضاً، فجلسا وعليهما السواد، وخطب الخليفة يومئذٍ خطبة بليغة فصيحة مشتملة على أشياء من المواعظ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وخلع يومئذٍ على جماعة من الأمراء والأعيان، وكان يوماً مشهوداً، وكان أبو القاسم هذا قد عهد إليه أبوه بالخلافة، ولكن لم يمكنه الناصر من ذلك، وولى أبا إسحاق إبراهيم ابن أخي أبي الربيع، ولقبه الواثق بالله، وخطب له بالقاهرة جمعة واحدة فعزله المنصور وقرر أبا القاسم هذا، وأمضى العهد ولقبه المستنصر بالله كما ذكرنا.

وفي يوم الأحد ثامن المحرم مسك الأمير سيف الدين بشتك الناصري آخر النهار، وكان قد كتب تقليده بنيابة الشام وخلع عليه بذلك وبرز ثقله ثم دخل على الملك المنصور ليودعه فرحب به وأجلسه وأحضر طعاماً وأكلا، وتأسف الملك على فراقه، وقال: تذهب وتتركني وحدي، ثم قام لتوديعه وذهب بشتك من بين يديه ثماني خطوات أو نحوها، ثم تقدم إليه ثلاثة نفر فقطع أحدهم سيفه من وسطه بسكين، ووضع الآخر يده على فمه وكتفه الآخر، وقيدوه وذلك كله بحضرة السلطان، ثم غيب ولم يدر أحد إلى أين صار، ثم قالوا لمماليكه: اذهبوا أنتم فائتوا بمركوب الأمير غداً، فهو بائت عند السلطان. وأصبح السلطان وجلس على سرير المملكة وأمر بمسك جماعة من الأمراء وتسعة من الكبار، واحتاطوا على حواصله وأمواله وأملاكه، فيقال إنه وجد عنده من الذهب ألف ألف دينار، وسبعمائة ألف دينار.

وفاة شيخنا الحافظ أبي الحجاج المزي

تمرض أياماً يسيرة مرضاً لا يشغله عن شهود الجماعة، وحضور الدروس، وإسماع الحديث، فلما كان يوم الجمعة حادي عشر صفر أسمع الحديث، إلى قريب وقت الصلاة، ثم دخل منزله ليتوضأ ويذهب للصلاة فاعترضه في باطنه مغص عظيم، ظن أنه قولنج، وما كان إلا طاعون، فلم يقدر على حضور الصلاة، فلما فرغنا من الصلاة أخبرت بأنه منقطع، فذهبت إليه فدخلت عليه فإذا هو يرتعد رعدة شديدة من قوة الألم الذي هو فيه، فسألته عن حاله فجعل يكرر الحمد لله، ثم أخبرني بما حصل له من المرض الشديد، وصلّى الظهر بنفسه، ودخل إلى الطهارة وتوضأ على البركة، وهو في قوة الوجع ثم اتصل به هذا الحال إلى الغد من يوم

السبت، فلما كان وقت الظهر لم أكن حاضره إذ ذاك، لكن أخبرتنا بنته زينب زوجتي أنه لما أذن الظهر تغير ذهنه قليلاً، فقالت: يا أبة أذن الظهر، فذكر الله وقال: أريد أن أصلي فتيمم وصلى ثم اضطجع فجعل يقرأ آية الكرسي حتى جعل لا يفيض بها لسانه ثم قبضت روحه بين الصلاتين، رحمه الله يوم السبت ثاني عشر صفر، فلم يمكن تجهيزه تلك الليلة، فلما كان من الغد يوم الأحد ثالث عشر صفر صبيحة ذلك اليوم، غسل وكفّن وصلّي عليه بالجامع الأموي، وحضر القضاة والأعيان وخلائق لا يحصون كثرة، وخرج بجنازته من باب النصر، وخرج نائب السلطنة الأمير علاء الدين طنبغا ومعه ديوان السلطان، والصاحب وكاتب السر وغيرهم من الأمراء، فصلوا عليه خارج باب النصر، أمهم عليه القاضي تقي الدين السبكي الشافعي، وهو الذي صلى عليه بالجامع الأموي، ثم ذهب به إلى مقابر الصوفية فدفن هناك إلى جانب زوجته المرأة الصالحة الحافظة لكتاب الله، عائشة بنت إبراهيم بن صديق، غربي قبر الشيخ تقي الدين بن تيمية رحمهم الله أجمعين.

كائنة غريبة جداً

قدم يوم الأربعاء الثلاثين من صفر أمير من الديار المصرية ومعه البيعة للملك الأشرف علاء الدين كجك ابن الملك الناصر، وذلك بعد أخيه المنصور، لما صدر عنه من الأفعال التي ذكر أنه تعاطاها من شرب المسكر وغشيان المنكرات، وتعاطي ما لا يليق به، ومعاشرة الخاصكية من المردان وغيرهم، فتمالأ على خلعه كبار الأمراء لما رأوا الأمر تفاقم إلى الفساد العريض فأحضروا الخليفة الحاكم بأمر الله أبي الربيع سليمان فأثبت بين يديه ما نسب إلى الملك المنصور المذكور من الأمور فحينئذٍ خلعه الأمراء الكبار وغيرهم، واستبدلوا مكانه أخاه هذا المذكور، وسيروه إذ ذاك إلى قوص مضيقاً عليه ومعه إخوة له ثلاثة، وقيل أكثر، وأجلسوا الملك الأشرف هذا على السرير وناب له الأمير سيف الدين قوصون الناصري، واستمرت الأمور على السداد وجاءت إلى الشام فبايعه الأمراء يوم الأربعاء، وضربت البشائر عشية الخميس مستهل ربيع الأول وخطب له بدمشق يوم الجمعة بحضرة نائب السلطنة والقضاة والأمراء.

وفي يوم الأربعاء سابع عشر ربيع الأول حضر بدار الحديث الأشرفية قاضي القضاة تقي الدين السبكي عوضاً عن شيخنا الحافظ جمال الدين المزي، ومشيخة دار الحديث النورية عوضاً عن ابنه رحمه الله. وفي شهر جمادى الأولى اشتهر أن نائب حلب الأمير سيف الدين طشتمر الملقب بالحمص الأخضر قائم في نصرة ابن السلطان الأمير أحمد الذي بالكرك، وأنه يستخدم لذلك ويجمع الجموع فالله أعلم. وفي العشر الثاني منه وصلت الجيوش صحبة الأمير سيف الدين قطلوبغا الفخري إلى الكرك في طلب ابن السلطان الأمير أحمد. وفي هذا الشهر كثر الكلام في أمر الأمير أحمد بن الناصر الذي بالكرك، بسبب محاصرة الجيش الذي صحبه الفخري له، واشتهر أن نائب حلب الأمير سيف الدين طشتمر الملقب بالحمص الأخضر قائم بجنب أولاد السلطان الذين أخرجوا من الديار المصرية إلى الصعيد، وفي القيام بالمدافعة عن

الأمير أحمد، ليصرف عنه الجيش، وترك حصاره وعزم بالذهاب إلى الكرك لنصرة أحمد ابن أستاذه، وتهيأ له نائب الشام بدمشق، ونادى في الجيش لملتقاه ومدافعته عما يريد من إقامة الفتنة وشق العصا، واهتم الجند لذلك، وتأهبوا واستعدوا، ولحقهم في ذلك كلفة كثيرة، وانزعج الناس بسبب ذلك وتخوفوا أن تكون فتنة، وحسبوا إن وقع قتال بينهم أن تقوم العشيرات في الجبال وحوران، وتتعطل مصالح الزراعات وغير ذلك، ثم قدم من حلب صاحب السلطان في الرسلية إلى نائب دمشق الأمير علاء الدين الطنبغا ومعه مشافهة، فاستمع لها فبعث معه صاحب الميسرة أمان الساقي، فذهبا إلى حلب ثم رجعا في أواخر جمادى الآخرة وتوجها إلى الديار المصرية، واشتهر أن الأمر على ما هو عليه حتى توافق على ما ذكر من رجوع أولاد الملك الناصر إلى مصر، ما عدا المنصور، وأن يخلي عن محاصرة الكرك.

وفي العشر الأخير من جمادى الأولى توفي مظفر الدين موسى بن مهنا ملك العرب ودفن بتدمر وفي صبيحة يوم الثلاثاء ثاني جمادى الآخرة عند طلوع الشمس توفي الخطيب بدر الدين محمد ابن القاضي جلال الدين القزويني بدار الخطابة بعد رجوعه من الديار المصرية كما قدمنا، فخطب جمعة واحدة وصلى بالناس إلى ليلة الجمعة الأخرى ثم مرض فخطب عنه أخوه تاج الدين عبد الرحيم على العادة ثلاث جمع، وهو مريض إلى أن توفي يومئذٍ، وتأسف الناس عليه لحسن شكله وصباحة وجهه وحسن ملتقاه وتواضعه، واجتمع الناس للصلاة عليه للظهر فتأخر تجهيزه إلى العصر فصلى عليه بالجامع قاضي القضاة تقي الدين السبكي، وخرج به الناس إلى الصوفية، وكانت جنازته حافلة جداً، فدفن عند أبيه بالتربة التي أنشأها الخطيب بدر الدين هناك رحمه الله.

وفي يوم الجمعة خامس الشهر بعد الصلاة خرج نائب السلطنة الأمير علاء الدين الطنبغا وجميع الجيش قاصدين للبلاد الحلبية للقبض على نائب حلب الأمير سيف الدين طشتمر، لأجل ما أظهر من القيام مع ابن السلطان الأمير أحمد الذي في الكرك، وخرج الناس في يوم شديد المطر كثير الوحل، وكان يوماً مشهوداً عصيباً، أحسن الله العاقبة. وأمر القاضي تقي الدين السبكي الخطيب المؤذنين بزيادة أذكار على الذي كان سنّه فيهم الخطيب بدر الدين من التسبيح والتحميد والتهليل الكثير ثلاثة وثلاثين، فزادهم السبكي قبل ذلك، استغفر الله العظيم ثلاثاً، اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام، ثم أثبت ما في صحيح مسلم بعد صلاتي الصبح والمغرب: اللهم أجرنا من النار سبعاً، أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق ثلاثاً، وكانوا قبل تلك السنوات قد زادوا بعد التأذين الآية ليلة الجمعة والتسليم على رسول الله ﷺ، يبتدىء الرئيس منفرداً ثم يعيد عليه الجماعة بطريقة حسنة، وصار ذلك سبباً لاجتماع الناس في صحن الجامع لاستماع ذلك، وكلما كان المبتدىء حسن الصوت كانت الجماعة أكثر اجتماعاً، ولكن طال بسبب ذلك الفصل، وتأخرت الصلاة عن أول وقتها. انتهى.

كائنة غريبة جداً

وفي ليلة الأحد عشية السبت نزل الأمير سيف الدين قطلوبغا الفخري بظاهر دمشق بين

الجسورة وميدان الحصى بالاطلاب الذين جاؤوا معه من البلاد المصرية لمحاصرة الكرك للقبض على ابن السلطان الأمير أحمد بن الناصر، فمكثوا على الثنية محاصرين مضيقين عليه إلى أن توجه نائب الشام إلى حلب، ومضت هذه الأيام المذكورة، فما درى الناس إلا وقد جاء الفخري وجموعه، وقد بايعوا الأمير أحمد وسموه الناصر بن الناصر، وخلعوا بيعة أخيه الملك الأشرف علاء الدين كجك واعتلوا بصغره، وذكروا أن أتابكة الأمير سيف الدين قوصون الناصري قد عدى على ابني السلطان فقتلهما خنقاً ببلاد الصعيد: جهز إليهما من تولى ذلك، وهما الملك المنصور أبو بكر ورمضان، فتنكر الأمير بسبب ذلك، وقالوا هذا يريد أن يجتاح هذا البيت ليتمكن هو من أخذ المملكة، فحموا لذلك وبايعوا ابن أستاذهم وجاؤوا في الذهاب خلف الجيش ليكونوا عوناً للأمير سيف الدين طشتمر نائب حلب ومن معه، وقد كتبوا إلى الأمراء يستميلونهم إلى هذا، ولما نزلوا بظاهر دمشق خرج إليهم من بدمشق من الأكابر والقضاة والمباشرين، مثل والي البر ووالي المدينة وابن سمندار وغيرهم، فلما كان الصباح خرج أهالي دمشق عن بكرة أبيهم، على عادتهم في قدوم السلاطين، ودخول الحجاج، بل أكثر من ذلك من بعض الوجوه، وخرج القضاة والصاحب والأعيان والولاة وغيرهم، ودخل الأمير سيف الدين قطلوبغا في دست نيابة السلطنة التي فوضها إليه الملك الناصر الجديد وعن يمينه الشافعي، وعن شماله الحنفي على العادة، والجيش كله محدق به في الحديد، والعقارات والبوقات والنشابة السلطانية والسناجق الخليفية والسلطانية تخفق، والناس في الدعاء والثناء للفخري، وهم في غاية الاستبشار والفرح، وربما نال بعض جهلة الناس من النائب الآخر الذي ذهب إلى حلب، ودخلت الأطلاب بعده على ترتيبهم، وكان يوماً مشهوداً، فنزل شرقي دمشق قريباً من خان لاجين، وبعث في هذا اليوم فرسم على القضاة والصاحب، وأخذ من أموال الأيتام وغيرها خمسمائة ألف، وعوضهم عن ذلك بقرية من بيت المال، وكتب بذلك سجلات، واستخدم جيداً، وانضاف إليه من الأمراء الذين كانوا قد تخلفوا بدمشق جماعة منهم تمر الساقي مقدم، وابن قراسنقر وابن الكامل وابن المعظم وابن البلدي وغيرهم، وبايع هؤلاء كلهم مع مباشري دمشق للملك الناصر بن الناصر، وأقام الفخري على خان لاجين، وخرج المتعيشون بالصنائع إلى عندهم وضربت البشائر بالقلعة صبيحة يوم الثلاثاء سادس عشر الشهر، ونودي بالبلد أن سلطانكم الملك الناصر أحمد بن الناصر محمد بن قلاوون، ونائبكم سيف الدين قطلوبغا الفخري، وفرح كثير من الناس بذلك، وانضاف إليه نائب صغد وبايعه نائب بعلبك، واستخدموا له رجالاً وجنداً، ورجع إليه الأمير سيف الدين سنجر الجمقدار رأس الميمنة بدمشق، وكان قد تأخر في السفر عن نائب دمشق علاء الدين الطنبغا، بسبب مرض عرض له، فلما قدم الفخري رجع إليه وبايع الناصر بن الناصر، ثم كاتب نائب حماة تغردمر الذي ناب بمصر للملك المنصور، فأجابه إلى ذلك وقدم على العسكر يوم السبت السابع والعشرين من الشهر المذكور، في تجمل عظيم وخزائن كثيرة، وثقل هائل.

وفي صبيحة يوم الأحد الثامن والعشرين من الشهر المذكور كسفت الشمس قبل الظهر، وفي صبيحة يوم الاثنين التاسع والعشرين من جمادى الآخرة، قدم نائب غزة الأمير آق سنقر في

جيش غزة، وهو قريب من ألفين، فدخلوا دمشق وقت الفجر وغدوا إلى معسكر الفخري، فانضافوا إليهم ففرحوا بهم كثيراً، وصار في قريب من خمسة آلاف مقاتل أو يزيدون.

استهل شهر رجب الفرد والجماعة من أكابر التجار مطلوبون بسبب أموال طلبها منهم الفخري، يقوي بها جيشه الذي معه، ومبلغ ذلك الذي أراده منهم ألف ألف درهم، ومعه مرسوم الناصر بن الناصر ببيع أملاك الأمير سيف الدين قوصون، أتابك الملك الأشرف علاء الدين كجك، ابن الناصر التي بالشام، بسبب إبائه عن مبايعة أحمد بن الناصر، فأشار على الفخري من أشار بأن يباع للتجار من أملاك الخاص، ويجعل مال قوصون من الخاص، فرسم بذلك، وأن يباع للتجار قرية دويه قومت بألف ألف وخمسمائة ألف، ثم لطف الله وأفرج عنهم بعد ليلتين أو ثلاث، وتعوضوا عن ذلك بحواصل قوصون، واستمر الفخري بمن معه ومن أضيف إليه من الأمراء والأجناد مقيمين بثنية العقاب، واستخدم من رجال البقاع جماعة كثيرة أكثر من ألف رام، وأميرهم يحفظ أفواه الطرق، وأزف قدوم الأمير علاء الدين طنبغا بمن معه من عساكر دمشق، وجمهور الحلبيين وطائفة الطرابلسيين، وتأهب هؤلاء لهم، فلما كان الحادي من الشهر اشتهر أن الطنبغا وصل إلى القسطل وبعث طلائعه فالتقت بطلائع الفخري، ولم يكن بينهم قتال ولله الحمد والمنة، وأرسل الفخري إلى القضاة ونوابهم وجماعة من الفقهاء فخرجوا ورجع الشافعي من أثناء الطريق، فلما وصلوا أمرهم بالسعي بينه وبين الطنبغا في الصلح، وأن يوافق الفخري في أمره، وأن يبايع الناصر بن الناصر، فأبى فردهم إليه غير مرة، وكل ذلك يمتنع عليهم، فلما كان يوم الاثنين رابع عشره عند العصر جاء بريد إلى متولي البلد عند العصر من جهة الفخري يأمره بغلق أبواب البلد، فغلقت الأبواب، وذلك لأن العساكر توجهوا وتواقفوا للقتال، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وذلك أن الطنبغا لما علم أن جماعة قطلوبغا على ثنية العقاب دار الذروة من ناحية المعيصرة وجاء بالجيوش من هناك، فاستدار له الأمير سيف الدين قطلوبغا الفخري بجماعته إلى ناحيته، ووقف له في طريقه، وحال بينه وبين الوصول إلى البلد، وانزعج الناس انزعاجاً عظيماً، وغلقت القياسر والأسواق وخاف الناس بعضهم من بعض أن يكون نهب، فركب متولي البلد الأمير ناصر الدين بن بكباشي ومعه أولاده ونوابه والرجالة، فسار في البلد وسكن الناس ودعوا له، فلما كان قريب المغرب فتح لهم باب الجابية ليدخل من هو من أهل البلد، فجرت في الباب على ما قيل زحمة عظيمة، وتسخط الجند على الناس في هذه الليلة، واتفق أنها ليلة الميلاد، وبات المسلمون مهمومون بسبب العسكر واختلافهم فأصبحت أبواب البلد مغلقة في يوم الثلاثاء سوى باب الجابية، والأمر على ما هو عليه، فلما كان عشية هذا اليوم تقارب الجيشان واجتمع الطنبغا وأمراؤه، واتفق أمراء دمشق وجمهورهم الذين هم معه على أن لا يقاتلوا مسلماً ولا يسلّوا في وجه الفخري وأصحابه سيفاً، وكان قضاة الشام قد ذهبوا إليه مراراً للصلح، فيأبى عليهم إلا الاستمرار على ما هو عليه، وقويت نفسه عليه انتهى. والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

عجيبة من عجائب الدهر

فبات الناس متقابلين في هذه الليلة وليس بين الجيشين إلا مقدار ميلين أو ثلاثة، وكانت ليلة مطيرة، فما أصبح الصبح إلا وقد ذهب من جماعة الطنبغا إلى الفخري خلق كثير من أجناد الحلفاء ومن الأمراء والأعيان، وطلعت الشمس وارتفعت قليلاً فنفذ الطنبغا القضاة وبعض الأمراء إلى الفخري يتهدده ويتوعده ويقوي نفسه عليه. فما ساروا عنه قليلاً إلا ساقت العساكر من الميمنة والميسرة ومن القلب، ومن كل جانب مقفرين إلى الفخري، وذلك لما هم فيه من ضيق العيش وقلة ما بأيديهم من الأطعمة وعلف الدواب، وكثرة ما معهم من الكلف، فرأوا أن هذا حال يطول عليهم، ومقتوا أمرهم غاية المقت، وتطايبت قلوبهم وقلوب أولئك مع أهل البلد على كراهته لقوة نفسه فيما لا يجدي عليه ولا عليهم شيئاً، فبايعوا على المخامرة[1] عليه، فلم يبق معه سوى حاشيته في أقل من ساعة واحدة، فلما رأى الحال على هذه الصفة كر راجعاً هارباً من حيث جاء وصحبته الأمير سيف الدين رقطبة نائب طرابلس، وأميران آخران، والتقت العساكر والأمراء، وجاءت البشارة إلى دمشق قبل الظهر ففرح الناس فرحاً شديداً جداً، الرجال والنساء والولدان، حتى من لا نوبة له، ودقت البشائر بالقلعة المنصورة، فأرسلوا في طلب من هرب، وجلس الفخري هنالك بقية اليوم يحلف الأمراء على أمره الذي جاء له، فحلفوا له، ودخل دمشق عشية يوم الخميس في أبهة عظيمة، وحرمة وافرة، فنزل القصر الأبلق ونزل الأمير تغردمر بالميدان الكبير، ونزل عماري بدار السعادة وأخرجوا الموساوي الذي كان معتقلاً بالقلعة، وجعلوه مشداً على حوطات حواصل الطنبغا وكان قد تغضب الفخري على جماعة من الأمراء منهم الأمير حسام الدين السمقدار، أمير حاجب بسبب أنه صاحب لعلاء الدين الطنبغا، فلما وقع ما وقع هرب فيمن هرب، ولكن لم يأتِ الفخري، بل دخل البلد فتوسط في الأمر: لم يذهب مع ذاك ولا جاء مع هذا، ثم إنه استدرك ما فاته فرجع من البار إلى الفخري، وقيل بل رسم عليه حين جاء وهو مهموم جداً، ثم إنه أعطى منديل الأمان، وكان معهم كاتب السر القاضي شهاب الدين بن فضل الله، ثم أفرج عنهم، ومنهم الأمير سيف الدين حفطية وكان شديد الحنق عليه، فأطلقه من يومه وأعاده إلى الحجوبية، وأظهر مكارم أخلاق عظيمة، ورياسة كبيرة، وكان للقاضي علاء الدين بن المنجا قاضي قضاة الحنابلة في هذه الكائنة سعي مشكور، ومراجعة كبيرة للأمير علاء الدين الطنبغا، حتى خيف عليه منه، وخاطر بنفسه معه، فأنجح الله مقصده وسلمه منه، وكبت عدوه ولله الحمد والمنة.

وفي يوم السبت السادس والعشرين منه قلد قضاء العساكر المنصورة الشيخ فخر الدين بن الصائغ عوضاً عن القاضي الحنفي، الذي كان مع النائب المنفصل، وذلك أنهم نقموا عليه إفتاءه الطنبغا بقتال الفخري، وفرح بولايته أصحاب الشيخ تقي الدين بن تيمية رحمه الله، وذلك لأنه من أخص من صحبه قديماً، وأخذ عنه فوائد كثيرة وعلوماً.

---

(١) المخامرة: الخروج عن طاعته.

وفي يوم الأربعاء سلخ رجب آخر النهار قدم الأمير قماري من عند الملك الناصر بن الناصر من الكرك وأخبره بما جرى من أمرهم وأمر الطنبغا، ففرح بذلك وأخبر قماري بقدوم السلطان ففرح الناس بذلك واستعدوا له بآلات المملكة وكثرت مطالبته أرباب الأموال والذمة بالجزية.

وفي مستهل رجب من هذه السنة ركب الفخري في دست النيابة بالموكب المنصور، وهو أول ركوبه فيه، وإلى جانبه قماري وعلى قماري خلعة هائلة، وكثر دعاء الناس للفخري يومئذٍ، وكان يوماً مشهوداً. وفي هذا اليوم خرج جماعة من المقدمين الألوف إلى الكرك بأخبار ابن السلطان بما جرى: منهم تغردمر وأقبغا عبد الواحد وهو الساقي، وميكلي بغا وغيرهم. وفي يوم السبت ثالثه استدعى الفخري القاضي الشافعي وألح عليه في إحضار الكتب في سلة الحكم التي كانت أخذت من عند الشيخ تقي الدين بن تيمية رحمه الله من القلعة المنصورة في أيام جلال الدين القزويني، فأحضرها القاضي بعد جهد ومدافعة، وخاف على نفسه منه، فقبضها منه الفخري بالقصر وأذن له في الانصراف من عنده، وهو متغضب عليه، وربما همَّ بعزله لممانعته إياها، وربما قال قائل هذه فيها كلام يتعلق بمسألة الزيارة، فقال الفخري: كان الشيخ أعلم بالله وبرسوله منكم. واستبشر الفخري بإحضارها إليه واستدعى بأخي الشيخ زين الدين عبد الرحمن، وبالشيخ شمس الدين عبد الرحمن بن قيم الجوزية وكان له سعي مشكور فيها، فهنأهما بإحضاره الكتب، وبيت الكتب تلك الليلة في خزانته للتبرك وصلّى به الشيخ زين الدين أخو الشيخ صلاة المغرب بالقصر، وأكرمه الفخري إكراماً زائداً لمحبته الشيخ رحمه الله.

وفي يوم الأحد رابعه دقت البشائر بالقلعة وفي باب الميدان لقدوم بشير بالقبض على قوصون بالديار المصرية، واجتمع الناس لذلك واستبشر كثير منهم بذلك، وأقبل جماعة من الأمراء إلى الكرك لطاعة الناصر بن الناصر، واجتمعوا مع الأمراء الشاميين عند الكرك، وطلبوا منه أن ينزل إليهم فأبى وتوهم أن هذه الأمور كلها مكيدة ليقبضوه ويسلموه إلى قوصون، وطلب منهم أن ينظر في أمره وردهم إلى دمشق. وفي هذه الأيام وما قبلها وما بعدها أخذ الفخري من جماعة التجار بالأسواق وغيرها زكاة أموالهم سنة، فتحصل من ذلك زيادة على مائة ألف وسبعة آلاف، وصودر أهل الذمة بقريب من ذلك زيادة على الجزية التي أخذت منهم عن ثلاث سنين سلفاً وتعجيلاً، ثم نودي في البلد يوم الاثنين الحادي والعشرين من الشهر مناداة صادرة من الفخري برفع الظلامات والطلبات وإسقاط ما تبقى من الزكاة والمصادرة، غير أنهم احتاطوا على جماعة من المشاة المكثرين ليشتروا منهم بعض أملاك الخاص، والبرهان بن بشارة الحنفي تحت المصادرة والعقوبة على طلب المال الذي وجده في طميرة وجدها فيما ذكر عنه والله أعلم.

وفي يوم الجمعة الرابع والعشرين منه بعد الصلاة دخل الأمراء الستة الذين توجهوا نحو الكرك لطلب السلطان أن يقدم إلى دمشق فأبى عليهم في هذا الشهر، ووعدهم وقتاً آخر فرجعوا، وخرج الفخري لتلقيهم، فاجتمعوا قبلي جامع القبيبات الكريمي، ودخلوا كلهم إلى

دمشق في جمع كثير من الأتراك الأمراء والجند، وعليهم خمدة لعدم قدوم السلطان أيده الله. وفي يوم الأحد قدم البريد خلف قماري وغيره من الأمراء يطلبهم إلى الكرك، واشتهر أن السلطان رأى النبي ﷺ في المنام وهو يأمره بالنزول من الكرك وقبول المملكة، فانشرح الناس لذلك.

وتوفي الشيخ **عمر بن أبي بكر بن اليثمي البسطي** يوم الأربعاء التاسع والعشرين، وكان رجلاً صالحاً كثير التلاوة والصلاة والصدقة، وحضور مجالس الذكر والحديث، له همة وصولة على الفقراء المتشبهين بالصالحين وليسوا منهم، سمع الحديث من الشيخ فخر الدين بن البخاري وغيره وقرأت عليه عن ابن البخاري مختصر المشيخة، ولازم مجالس الشيخ تقي الدين بن تيمية رحمه الله، وانتفع به، ودفن بمقابر باب الصغير.

وفي شهر رمضان المعظم أوله يوم الجمعة، كان قد نودي في الجيش: آن الرحيل لملتقى السلطان في سابع الشهر، ثم تأخر ذلك إلى بعد العشر، ثم جاء كتاب من السلطان بتأخر ذلك إلى بعد العيد وقدم في عاشر الشهر علاء الدين بن تقي الدين الحنفي، ومعه ولاية من السلطان الناصر بنظر البيمارستان النوري، ومشيخة الربوة ومرتب على الجهات السلطانية، وكان قد قدم قبله القاضي شهاب الدين بن البارزي بقضاء حمص من السلطان أيده الله تعالى، ففرح الناس بذلك حيث تكلم السلطان في المملكة وباشر وأمر وولّى ووقّع ولله الحمد. وفي يوم الأربعاء ثالث عشره دخل الأمير سيف الدين طشتمر الملقب بالحمص الأخضر من البلاد الحلبية إلى دمشق المحروسة، وتلقاه الفخري والأمراء والجيش بكماله، ودخل في أبهة حسنة ودعا له الناس وفرحوا بقدومه بعد شتاته في البلاد وهربه من بين يدي الطنبغا حين قصده إلى حلب كما تقدم ذكره.

وفي يوم الخميس رابع عشره خرجت الجيوش من دمشق قاصدين إلى غزة لنظرة السلطان حين يخرج من الكرك السعيد، فخرج يومئذٍ مقدمان: تغردمر واقبغا عبد الواحد فبرزا إلى الكسوة، فلما كان يوم السبت خرج الفخري ومعه طشتمر وجمهور الأمراء، ولم يقم بعده بدمشق إلا من احتيج لمقامهم لمهمات المملكة، وخرج معه القضاة الأربعة، وقاضي العساكر والموقعين والمصاحب وكاتب الجيش وخلق كثير.

وتوفي الشيخ الصالح العابد الناسك **أحمد الملقب بالقصيدة** ليلة الأحد الرابع والعشرين من رمضان، وصلّي عليه بجامع شكر، ودفن بالصوفية قريباً من قبر الشيخ جمال الدين المزي، تغمدهما الله برحمته، وكان فيه صلاح كثير، ومواظبة على الصلاة في جماعة، وأمر بمعروف ونهى عن منكر مشكوراً عند الناس بالخير، وكان يكثر من خدمة المرضى بالمارستان وغيره، وفيه إيثار وقناعة وتزهد كثير، وله أحوال مشهورة رحمه الله وإيانا.

واشتهر في أواخر الشهر المذكور أن السلطان الملك الناصر شهاب الدين أحمد خرج من الكرك المحروس صحبة جماعة من العرب والأتراك قاصداً إلى الديار المصرية، ثم تحرر خروجه منها في يوم الاثنين ثامن عشر الشهر المذكور فدخل الديار المصرية بعد أيام. هذا

والجيش صامدون إليه، فلما تحقق دخوله مصر حثّوا في السير إلى الديار المصرية، وبعث يستحثهم أيضاً، واشتهر أنه لم يجلس على سرير الملك حتى يقدم الأمراء الشاميون صحبة نائبه الأمير سيف الدين قطلوبغا الفخري، ولهذا لم تدق البشائر بالقلاع الشامية ولا غيرها فيما بلغنا. وجاءت الكتب والأخبار من الديار المصرية بأن يوم الاثنين عاشر شوال كان إجلاس السلطان الملك الناصر شهاب الدين أحمد على سرير المملكة، صعد هو والخليفة الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد بن المستكفي فوق المنبر، وهما لابسان السواد، والقضاة تحتهما على درج المنبر بحسب منازلهم، فخطب الخليفة، وخلع الأشرف كجك وولى هذا الناصر، وكان يوماً مشهوداً، وأظهر ولايته لطشتمر نيابة مصر، والفخري دمشق، وأيدغمش حلب فالله أعلم، ودقت البشائر بدمشق ليلة الجمعة الحادي والعشرين من الشهر المذكور، واستمرت إلى يوم الاثنين مستهل ذي القعدة، وزينت البلد يوم الأحد ثالث عشرين منه، واحتفل الناس بالزينة.

وفي يوم الخميس المذكور دخل الأمير سيف الدين الملك أحد الرؤوس المشهورة بمصر إلى دمشق في طلب نيابة حماة حرسها الله تعالى، فلما كان يوم الجمعة بعد الصلاة ورد البريد من الديار المصرية فأخبر أن طشتمر الحمص الأخضر مسك، فتعجب الناس من هذه الكائنة كثيراً، فخرج من بدمشق من أعيان الأمراء أمير الحج وغيره وخيم بوطأة برزة وخرج إلى الحج أمير فأخبره بذلك وأمروه عن مرسوم السلطان أن ينوب بدمشق حتى يأتي المرسوم بما يعتمد أمير الحج فأجاب إلى ذلك، وركب في الموكب يوم السبت السادس منه، وأما الفخري فإنه لما تنسم هذا الخبر وتحققه وهو بالزعقة فر في طائفة من مماليكه قريب من ستين أو أكثر فاحترق وساق سوقاً حثيثاً وجاءه الطلب من ورائه من الديار المصرية في نحو من ألف فارس، صحبة الأميرين: الطنبغا المارداني، ويبلغا التحناوي، ففاتهما وسبق واعترض له نائب غزة في جنده فلم يقدر عليه، فسلطوا عليه العشيرات ينهبوه فلم يقدروا عليه إلا في شيء يسير، وقتل منهم خلقاً، وقصد نحو صاحبه فيما يزعم الأمير سيف الدين أيدغمش نائب حلب راجياً منه أن ينصره وأن يوافقه على ما قام بنفسه، فلما وصل أكرمه وأنزله، وبات عنده، فلما أصبح قبض عليه وقيده ورده على البريد إلى الديار المصرية، ومعه التراسيم من الأمراء وغيرهم.

ولما كان يوم الاثنين سلخ ذي القعدة خرج السلطان الملك الناصر شهاب الدين أحمد بن الناصر محمد بن المنصور من الديار المصرية في طائفة من الجيش قاصداً إلى الكرك المحروس، ومعه أموال جزيلة، وحواصل وأشياء كثيرة، فدخلها يوم الثلاثاء من ذي الحجة وصحبته طشتمر في محفة ممرضاً، والفخري مقيداً، فاعتقلا بالكرك المحروس، وطلب السلطان آلات من أخشاب ونحوها وحدادين وصناع ونحوها لإصلاح مهمات بالكرك، وطلب أشياء كثيرة من دمشق، فحملت إليه، ولما كان يوم الأحد السابع والعشرين من ذي الحجة ورد الخبر بأن الأمير ركن الدين بيبرس الأحمدي النائب بصفد ركب في مماليكه وخدمه ومن أطاعه، وخرج منها فاراً بنفسه من القبض عليه، وذكر أن نائب غزة قصده ليقبض عليه بمرسوم السلطان ورد عليه من الكرك، فهرب الأحمدي بسبب ذلك، ولما وصل الخبر إلى دمشق وليس

بها نائب انزعج الأمراء لذلك، واجتمعوا بدار السعادة، وضربوا في ذلك مشورة ثم جردوا إلى ناحية بعلبك أميراً ليصدوه عن الذهاب إلى البرية. فلما أصبح الصباح من يوم الاثنين جاء الخبر بأنه في نواحي الكسوة، ولا مانع من خلاصه، فركبوا كلهم ونادى المنادي: من تأخر من الجند عن هذا النفير شنق، واستوثقوا في الخروج وقصدوا ناحية الكسوة وبعثوا الرسل إليه، فذكر اعتذاراً في خروجه وتخلص منهم، وذهب يوم ذلك، ورجعوا وقد كانوا ملبسين في يوم حار، وليس معهم من الأزواد ما يكفيهم سوى يومهم ذلك، فلما كانت ليلة الثلاثاء ركب الأمراء في طلبه من ناحية ثنية العقاب، فرجعوا في اليوم الثاني وهو في صحبتهم، ونزل في القصور التي بناها تنكز رحمه الله، في طريق داريا، فأقام بها، وأجروا عليه مرتباً كاملاً من الشعير والغنم وما يحتاج إليه مثله، ومعه مماليكه وخدمه، فلما كان يوم الثلاثاء سادس المحرم ورد كتاب من جهة السلطان فقرىء على الأمراء بدار السعادة يتضمن إكرامه واحترامه والصفح عنه لتقدم خدمه على السلطان الملك الناصر وابنه الملك المنصور. ولما كان يوم الأربعاء سابع المحرم (جاء كتاب) إلى الأمير ركن الدين بيبرس نائب الغيبة ابن الحاجب ألْمَش بالقبض على الأحمدي، فركب الجيش ملبسين يوم الخميس وأوكبوا بسوق الخيل وراسلوه - وقد ركب في مماليكه بالعدد وأظهر الامتناع - فكان جوابه أن لا أسمع ولا أطيع إلا لمن هو ملك الديار المصرية، فأما من هو مقيم بالكرك ويصدر عنه ما يقال عنه من الأفاعيل التي قد سارت بها الركبان، فلا. فلما بلغ الأمراء هذا توقفوا في أمره وسكنوا ورجعوا إلى منازلهم، ورجع هو إلى قصره.

ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة

استهلت هذه السنة المباركة وسلطان المسلمين الملك الناصر ناصر الدين محمد ابن الملك المنصور قلاوون، وهو مقيم بالكرك، قد حاز الحواصل السلطانية من قلعة الجبل إلى قلعة الكرك، ونائبه في الديار المصرية الأمير سيف الدين آقنسقر السلاري، الذي كان نائباً بغزة، وقضاة الديار المصرية هم المذكورون في السنة الماضية، سوى القاضي الحنفي. وأما دمشق فليس لها نائب إلى حينئذٍ غير أن الأمير ركن الدين بيبرس الحاجب كان استنابه الفخري بدمشق نائب غيبته، فهو الذي يسد الأمور مع الحاجب ألمش، وتمر المهمندار، والأمير سيف الدين الملقب بحلاوة، والي البر، والأمير ناصر الدين بن ركباس متولي البلد، هؤلاء الذين يسدون الأشغال والأمور السلطانية، والقضاة هم الذين ذكرناهم في السنة الخالية، وخطيب البلد تاج الدين عبد الرحيم ابن القاضي جلال الدين القزويني، وكاتب السر القاضي شهاب الدين بن فضل الله.

واستهلت هذه السنة والأمير ركن الدين بيبرس الأحمدي نازل بقصر تنكز بطريق داريّا، وكتب السلطان واردة في كل وقت بالاحتياط عليه والقبض، وأن يمسك ويرسل إلى الكرك، هذا والأمراء يتوانون في أمره ويسوفون المراسيم، وقتاً بعد وقت، وحيناً بعد حين، ويحملهم على ذلك أن الأحمدي لا ذنب له، ومتى مسكه تطرف إلى غيره، مع أن السلطان يبلغهم عنه أحوال لا ترضيهم من اللعب والاجتماع مع الأراذل والأطراف ببلد الكرك، مع قتله الفخري

وطشتمر قتلاً فظيعاً، وسلبه أهلهما وسلبه لما على الحريم من الثياب والحلي، وإخراجهم في أسوإ حال من الكرك، وتقريبه النصارى وحضورهم عنده. فحمل الأمراء هذه الصفات على أن بعثوا أحدهم يكشف أمره، فلم يصل إليه، ورجع هارباً خائفاً، فلما رجع وأخبر الأمراء انزعجوا وتشوشوا كثيراً، واجتمعوا بسوق الخيل مراراً وضربوا مشورة بينهم، فاتفقوا على أن يخلعوه، فكتبوا إلى المصريين بذلك، وأعلموا نائب حلب أيدغمش ونواب البلاد، وبقوا متوهمين من هذا الحال كثيراً ومترددين، ومنهم من يصانع في الظاهر وليس معهم في الباطن، وقالوا لا سمع له ولا طاعة حتى يرجع إلى الديار المصرية، ويجلس على سرير المملكة، وجاء كتابه إليهم يعيبهم ويعنفهم في ذلك، فلم يفد، وركب الأحمدي في الموكب وركبوا عن يمينه وشماله وراحوا إليه إلى القصر، فسلموا عليه وخدموه، وتفاقم الأمر وعظم الخطب، وحملوا هموماً عظيمة خوفاً من أن يذهب إلى الديار المصرية فيلف عليه المصريون فيتلف الشاميين، فحمل الناس همهم فالله هو المسؤول أن يحسن العاقبة. فلما كان يوم الأحد السادس والعشرين من المحرم ورد مقدم البريدية ومعه كتب المصريين بأنه لما بلغهم خبر الشاميين كان عندهم من أمر السلطان أضعاف ما حصل عند الشاميين، فبادروا إلى ما كانوا عزموا عليه، ولكن ترددوا خوفاً من الشاميين أن يخالفوهم فيه ويتقدموا في صحبة السلطان لقتالهم، فلما اطمأنوا من جهة الشاميين صمموا على عزمهم فخلعوا الناصر أحمد وملّكوا عليهم أخاه الملك الصالح إسماعيل بن الناصر محمد بن المنصور، جعله الله مباركاً على المسلمين، وأجلسوه على السرير يوم الثلاثاء العشرين من المحرم المذكور، وجاء كتابه مسلماً على أمراء الشام ومقدميه، وجاءت كتب الأمراء على الأمراء بالسلام والأخبار بذلك ففرح المسلمون وأمراء الشام والخاصة والعامة بذلك فرحاً شديداً، ودقت البشائر بالقلعة المنصورة يومئذٍ، ورسم بتزيين البلد فزين الناس صبيحة الثلاثاء السابع والعشرين منه، ولما كان يوم الجمعة سلخ المحرم خطب بدمشق للملك الصالح عماد الدنيا والدين إسماعيل بن الناصر بن المنصور.

وفي يوم الخميس سادس صفر درس بالصدرية صاحبنا الإمام العلاّمة شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الذرعي إمام الجوزية، وحضر عنده الشيخ عز الدين بن المنجا الذي نزل له عنها، وجماعة من الفضلاء. وفي يوم الاثنين سادس عشر صفر دخل الأمير سيف الدين تغردمر من الديار المصرية، إلى دمشق ذاهباً إلى نيابة حلب المحروسة، فنزل بالقابون.

وفي يوم الثلاثاء ثامن عشر صفر توفي الشيخ الإمام العالم العامل الزاهد **عبد الله بن أبي الوليد المقري المالكي**، إمام المالكية، هو وأخوه أبو عمرو، بالجامع الأموي بمحراب الصحابة. توفي ببستان بقية السحف، وصلّي عليه بالمصلّى ودفن عند أبيه رحمهما الله بمقابر باب الصغير، وحضر جنازته الأعيان والفقهاء والقضاة، وكان رجلاً صالحاً مجمعاً على ديانته وجلالته رحمه الله.

وفي يوم الخميس العشرين من صفر دخل الأمير ايدغمش نائب السلطنة بدمشق ودخل إليها من ناحية القابون قادماً من حلب، وتلقاه الجيش بكماله، وعليه خلعة النيابة، واحتفل

الناس له وأشعلوا الشموع، وخرج أهل الذمة من اليهود والنصارى يدعون له ومعهم الشموع، وكان يوماً مشهوداً، وصلّي يوم الجمعة بالمقصورة، من الجامع الأموي، ومعه الأمراء والقضاة، وقرىء تقليده هناك على السدة وعليه خلعته، ومعه الأمير سيف الدين ملكتم الرحولي، وعليه خلعة أيضاً.

وفي يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من صفر دخل الأمير علم الدين الجاولي دمشق المحروسة، ذاهباً إلى نيابة حماة المحروسة وتلقاه نائب السلطنة والأمراء إلى مسجد القدم، وراح فنزل بالقابون، وخرج القضاة والأعيان إليه، وسمع عليه من مسند الشافعي فإنه يرويه، وله فيه عمل، ورتبه ترتيباً حسناً ورأيته، وشرحه أيضاً، وله أوقاف على الشافعية وغيرهم.

وفي يوم الجمعة الثامن والعشرين منه عقد مجلس بعد الصلاة بالشباك الكمالي من مشهد عثمان بسبب القاضي فخر الدين المصري، وصدر الدين عبد الكريم ابن القاضي جلال الدين القزويني، بسبب العادلية الصغيرة، فاتفق الحال على أن نزل صدر الدين عن تدريسها، ونزل فخر الدين عن مائة وخمسين على الجامع. وفي يوم الأحد سلخ الشهر المذكور حضر القاضي فخر الدين المصري ودرس بالعادلية الصغيرة وحضر الناس عنده على العادة، وأخذ في قوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ [يوسف: ٦٥] وفي آخر شهر ربيع الأول جاء المرسوم من الديار المصرية بأن يخرج تجريدة من دمشق بصحبة الأمير حسام الدين السمقدار لحصار الكرك الذي تحصن فيه ابن السلطان أحمد، واستحوذ على ما عنده من الأموال التي أخذها من الخزائن من ديار مصر، وبرز المنجنيق من القلعة إلى قبل جامع القبيبات، فنصب هناك وخرج الناس للتفرج عليه ورمى به ومن نيتهم أن يستصحبوه معهم للحصار.

وفي يوم الأربعاء ثاني ربيع الآخر قدم الأمير علاء الدين الطنبغا المارداني من الديار المصرية على قاعدته وعادته. وفي يوم الخميس عاشره دخل إلى دمشق الأميران الكبيران ركن الدين بيبرس الأحمدي من طرابلس، وعلم الدين الجاولي من حماة سحراً، وحضرا الموكب ووقفا مكتفين لنائب السلطنة: الأحمدي عن يمينه والجاولي عن يساره، ونزلا ظاهر البلد، ثم بعد أيام يسيرة توجه الأحمدي إلى الديار المصرية على عادته وقاعدته رأس مشورة، وتوجه الجاولي إلى غزة المحروسة نائباً عليها، وكان الأمير بدر الدين مسعود بن الخطير على إمرة الطبلخانات بدمشق. وفي يوم الخميس رابع عشره خرجت التجريدة من دمشق سحراً إلى مدينة الكرك، والأمير شهاب الدين بن صبح والي الولاة بحوران مشد المجانيق، وخرج الأمير سيف الدين بهادر الشمس الملقب بحلاوة والي البر بدمشق إلى ولاية الولاة بحوران. وفي يوم الجمعة ثامن عشره وقع بين النائب والقاضي الشافعي بسبب كتاب ورد من الديار المصرية فيه الوصاة بالقاضي السبكي المذكور ومعه التوقيع بالخطابة له مضافاً إلى القضاء وخلعة من الديار المصرية، فتغبط عليه النائب لأجل أولاد الجلال، لأنهم عندهم عائلة كثيرة وهم فقراء، وقد نهاه عن السعي في ذلك، فتقدم إليه يومئذٍ أن لا يصلي عنده في الشباك الكمالي، فنهض من هناك وصلى في الغزالية.

وفي يوم الأحد العشرين منه دخل دمشق الأمير سيف الدين أريغا زوج ابنة السلطان الملك الناصري مجتازاً ذاهباً إلى طرابلس نائباً بها، في تجمل وأبهة ونجائب وجنائب، وعدة وسرك كامل. وفي يوم الخميس الرابع والعشرين منه دخل الأمير بدر الدين بن الخطيري معزولاً عن نيابة غزة المحروسة فأصبح يوم الخميس فركب في الموكب وسير مع نائب السلطنة، ونزل في داره وراح الناس للسلام عليه. وفي يوم الثلاثاء ثالث عشر صفر زينت البلد لعافية السلطان الملك الصالح لمرض أصابه، ثم شفي منه. وفي يوم الجمعة السادس عشرينه قبل العصر ورد البريد من الديار المصرية بطلب قاضي القضاة تقي الدين السبكي إليها حاكمها بها، فذهب الناس للسلام عليه ولتوديعه، وذلك بعدما أرجف الناس به كثيراً، واشتهر أنه سينعقد له مجلس للدعوى عليه بما دفعه من مال الأيتام إلى الطنبغا وإلى الفخري، وكتبت فتوى عليه بذلك في تغريمه، وداروا بها على المفتيين فلم يكتب لهم أحد فيها غير القاضي جلال الدين بن حسام الدين الحنفي، رأيت خطه عليها وحده بعد الصلاة، وسئلت في الإفتاء عليها فامتنعت، لما فيها من التشويش على الحكام، وفي أول مرسوم نائب السلطان أن يتأمل المفتيون هذا السؤال ويفتوا بما يقتضيه حكم الشرع الشريف، وكانوا له في نية عجيبة ففرج الله عنه بطلبه إلى الديار المصرية، فسار إليها صحبة البريد ليلة الأحد، وخرج الكبراء والأعيان لتوديعه، وفي خدمته.

استهل جمادى الآخرة والتجريدة عمالة إلى الكرك والجيش المجردون من الحلقة قريب من ألف ويزيدون، ولمّا كان يوم الثلاثاء رابعه بعد الظهر مات الأمير علاء الدين أيدغمش نائب السلطنة بالشام المحروس في دار وحده في دار السعادة، فدخلوا عليه وكشفوا أمره وأحصروا وخشوا أن يكون اعتراه سكتة، ويقال إنه شفي فالله أعلم، فانتظروا به إلى الغد احتياطاً، فلما أصبح الناس اجتمعوا للصلاة عليه فصلّي عليه خارج باب النصر حيث يصلّى على الجنائز، وذهبوا به إلى نحو القبلة، ورام بعض أهله أن يدفن في تربة غبريال إلى جانب جامع القبيبات، فلم يمكن ذلك، فدفن قبلي الجامع على حافة الطريق، ولم يتهيأ دفنه إلا إلى بعد الظهر من يومئذٍ، وعملوا عنده ختمة ليلة الجمعة رحمه الله وسامحه.

واشتهر في أوائل هذا الشهر أن الحصار عمال على الكرك، وأن أهل الكرك خرجت طائفة منهم فقتل منهم خلق كثير، وقتل من الجيش واحد في الحصار، فنزل القاضي وجماعة ومعهم شيء من الجوهر، وتراضوا على أن يسلموا البلد، فلما أصبح أهل الحصن تحصنوا ونصبوا المجانيق واستعدوا فلما كان بعد أيام رموا منجنيق الجيش فكسروا السهم الذي له، وعجزوا عن نقله فحرقوه برأي أمراء المقدمين، وجرت أمور فظيعة، فالله يحسن العاقبة.

ثم وقعت في أواخر هذا الشهر بين الجيش وأهل الكرك وقعة أخرى، وذلك أن جماعة من رجال الكرك خرجوا إلى الجيش ورموهم بالنشاب فخرج الجيش لهم من الخيام ورجعوا مشاة ملبسين بالسلاح فقتلوا من أهل الكرك جماعة من النصارى وغيرهم، وجرح من العسكر خلق، وقتل واحد أو اثنان وأسر الأمير سيف الدين أبو بكر بن بهادر آص، وقتل أمير العرب، وأسر آخرون فاعتقلوا بالكرك، وجرت أمور منكرة، ثم بعدها تعرض العسكر راجعين إلى

بلادهم لم ينالوا مرادهم منها، وذلك أنهم رهقهم البرد الشديد وقلة الزاد، وحاصروا أولئك شديداً بلا فائدة فإن البلد بريد متطاولة ومجانيق، ويشق على الجيش الإقامة هناك في كوانين، والمنجنيق الذي حملوه معهم كسر، فرجعوا ليتأهبوا لذلك.

ولما كان في يوم الأربعاء الخامس والعشرين منه قدم من الديار المصرية على البريد القاضي بدر الدين بن فضل الله كاتباً على السر عوضاً عن أخيه القاضي شهاب الدين، ومعه كتاب الاحتياط على حواصل أخيه شهاب الدين، وعلى حواصل القاضي عماد الدين بن الشيرازي المحتسب، فاحتيط على أموالهما وأخرج من في ديارهما من الحرم، وضربت الأخشاب على الأبواب، ورسم على المحتسب بالعذراوية، فسأل أن يحول إلى دار الحديث الأشرفية فحول إليها. وأما القاضي شهاب الدين، فكان قد خرج ليلتقي الأمير سيف الدين تغردمر الحموي، الذي جاء تقليده بنيابة الشام بدمشق وكان بحلب، وجاء هذا الأمر وهو في أثناء الطريق، فرسم برجعته ليصادر هو والمحتسب، ولم يدر الناس ما ذنبهما.

وفي يوم الأحد ثامن شهر رجب آخر النهار رجع قاضي القضاة تقي الدين السبكي إلى دمشق على القضاء، ومعه تقليد بالخطابة أيضاً، وذهب الناس إليه للسلام عليه، ودخل نائب السلطنة الأمير سيف الدين تغردمر الحموي بعد العصر الخامس عشرينه من حلب، فتلقاه الأمراء إلى طريق القابون، ودعا له الناس دعاء كثيراً، وأحبوه لبغضهم النائب الذي كان قبله، وهو علاء الدين أيدغمش سامحه الله تعالى، فنزل بدار السعادة وحضر الموكب صبيحة يوم الاثنين، واجتمع طائفة من العامة وسألوه أن لا يغير عليهم خطيبهم تاج الدين عبد الرحيم بن جلال الدين، فلم يلتفت إليهم، بل عمل على تقليد القاضي تقي الدين السبكي الخطابة ولبس الخلعة، وأكثر العوام لما سمعوا بذلك الغوغاء، وصاروا يجتمعون حلقاً حلقاً بعد الصلوات ويكثرون الفرجة في ذلك، لما منع ابن الجلال، ولكن بقي هذا لم يباشر السبكي في المحراب، واشتهر عن العوام كلام كثير، وتوعدوا السبكي بالسفاهة عليه إن خطب، وضاق بذلك ذرعاً، ونهوا عن ذلك فلم ينتهوا، وقيل لهم ولكثير منهم: الواجب عليكم السمع والطاعة لأولي الأمر، ولو أمر عليكم عبد حبشي. فلم يرعووا، فلما كان يوم الجمعة العشرين منه اشتهر بين العامة بأن القاضي نزل عن الخطابة لابن الجلال، ففرح العوام بذلك وحشدوا في الجامع، وجاء نائب السلطنة إلى المقصورة والأمراء معه، وخطب ابن الجلال على العادة، وفرح الناس بذلك وأكثروا من الكلام والهرج، ولما سلم عليهم الخطيب حين صعد ردوا عليه رداً بليغاً، وتكلفوا في ذلك وأظهروا بغضة القاضي السبكي، وتجاهروا بذلك، وأسمعوه كلاماً كثيراً، ولما قضيت الصلاة قرىء تقليد النيابة على السدة، وخرج الناس فرحين بخطيبهم، لكونه استمر عليهم، واجتمعوا عليه يسلمون ويدعون له.

وفي يوم الأربعاء ثالث شعبان درس القاضي برهان الدين بن عبد الحق بالمدرسة العذراوية بمرسوم سلطاني بتوليته وعزل القفجاري، وعقد لهما مجلس يوم الثلاثاء بدار العدل، فرجح جانب القاضي برهان الدين لحاجته وكونه لا وظيفة له.

وفي يوم الجمعة خامسه توفي الشيخ الصالح شهاب الدين أحمد بن الجزري أحد المسندين المكثرين الصالحين، مات عن خمس وتسعين سنة رحمه الله، وصلّي عليه يوم الجمعة بالجامع المظفري ودفن بالرواحية. وفي يوم الأربعاء السابع عشر منه توفي الشيخ الإمام العالم العباد الناسك الصالح الشيخ شمس الدين محمد بن الزرير خطيب الجامع الكريمي بالقبيبات، وصلّي عليه بعد الظهر يومئذٍ بالجامع المذكور، ودفن قبلي الجامع المذكور، إلى جانب الطريق من الشرق رحمه الله.

واشتهر في أوائل رمضان أن مولوداً ولد له رأسان وأربع أيد، وأحضر إلى بين يدي نائب السلطنة، وذهب الناس للنظر إليه في محلة ظاهر باب الفراديس، يقال لها حكي الوزير، وكنت فيمن ذهب إليه في جماعة من الفقهاء يوم الخميس ثالث الشهر المذكور بعد العصر، فأحضره أبوه ـ واسم أبيه سعادة ـ وهو رجل من أهل الجبل، فنظرت إليه فإذا هما ولدان مستقلان، فكل قد اشتبكت أفخاذهما بعضهما ببعض، وركب كل واحد منهما ودخل في الآخر والتحمت فصارت جثة واحدة وهما ميتان، فقالوا أحدهما ذكر والآخر أنثى، وهما ميتان حال رؤيتي إليهما. وقالوا إنه تأخر موت أحدهما عن الآخر بيومين أو نحوهما، وكتب بذلك محضر جماعة من الشهود.

وفي هذا اليوم احتيط على أربعة من الأمراء وهم أبناء الكامل صلاح الدين محمد، أمير طبلخانات، وغياث الدين محمد أمير عشرة، وعلاء الدين علي، وابن أيبك الطويل طبلخانات أيضاً، وصلاح الدين خليل بن بلبان طرنا طبلخانات أيضاً. وذلك بسبب أنهم اتهموا على ممالأة الملك أحمد بن الناصر الذي في الكرك، ومكاتبته، والله أعلم بحالهم، فقيدوا وحملوا إلى القلعة المنصورة من باب اليسر مقابل باب دار السعادة الثلاث الطبلخانات والغياث من بابها الكبير وفرق بينهم في الأماكن. وخرج المحمل يوم الخميس خامس عشره ولبس الخطيب ابن الجلال خلعة استقرار الخطابة في هذا اليوم، وركب بها مع القضاة على عادة الخطباء.

وفي هذا الشهر نصب المنجنيق الكبير على باب الميدان الأخضر وطول أكتافه ثمانية عشر ذراعاً، وطول سهمه سبعة وعشرون ذراعاً، وخرج الناس للفرجة عليه، ورمي به في يوم السبت حجراً زنته ستين رطلاً، فبلغ إلى مقابلة القصر من الميدان الكبير، وذكر معلم المجانيق أنه ليس في حصون الإسلام مثله، وأنه عمله الحاج محمد الصالحي ليكون بالكرك، فقدر الله أنه خرج ليحاصر به الكرك، فالله يحسن العاقبة. وفي أواخره أيضاً مسك أربعة أمراء، وهم أقبغا عبد الواحد الذي كان مباشراً الاستدارية للملك الناصر الكبير، فصودر في أيام ابنه المنصور، وأخرج إلى الشام فناب بحمص فسار سيرة غير مرضية، وذمه الناس وعزل عنها وأعطي تقدمة ألف بدمشق، وجعل رأس الميمنة، فلما كان في هذه الأيام اتهم بممالأة السلطان أحمد بن الناصر الذي بالكرك، فمسك وحمل إلى القلعة ومعه الأمير سيف الدين بلو، والأمير سيف الدين سلامش، وكلهم بطبلخانات فرفعوا إلى القلعة المنصورة، فالله يحسن العاقبة.

وفي هذا الشهر خرج قضاء حمص عن نيابة دمشق بمرسوم سلطاني مجدد للقاضي شهاب

الدين البارزي، وذلك بعد مناقشة كثيرة وقعت بينه وبين قاضي القضاة تقي الدين السبكي، وانتصر له بعض الدولة، واستخرج له المرسوم المذكور. وفيه أيضاً أفرد قضاء القدس الشريف أيضاً باسم القاضي شمس الدين بن سالم الذي كان مباشرها مدة طويلة قبل ذلك نيابة، ثم عزل عنها وبقي مقيماً ببلده غزة، ثم أعيد إليها مستقلاً بها في هذا الوقت. وفي هذا الشهر رجع القاضي شهاب الدين بن فضل الله من الديار المصرية ومعه توقيع بالمرتب الذي كان له أولاً كل شهر ألف درهم، وأقام بعمارته التي أنشأها بسفح قاسيون شرقي الصالحية بقرب حمام النحاس.

وفي صبيحة مستهل ذي القعدة خرج المنجنيق قاصداً إلى الكرك على الجمال والعجل، وصحبته الأمير صارم الدين إبراهيم المسبقي، أمير حاجب، كان في الدولة السكرية، وهو المقدم عليه يحوطه ويحفظه ويتولى تسييره بطلبه وأصحابه، وتجهز الجيش للذهاب إلى الكرك، وتأهبوا أتم الجهاز، وبرزت أثقالهم إلى ظاهر البلد وضربت الخيام فالله يحسن العاقبة.

وفي يوم الاثنين رابعه توفي **الطواشي شبل الدولة كافور السكري**، ودفن صبيحة يوم الثلاثاء خامسه في تربته التي أنشأها قديماً ظاهر باب الجابية تجاه تربة الطواشي ظهير الدين الخازن بالقلعة، كان قبيل مسجد الدبان رحمه الله، وكان قديماً للصاحب تقي الدين توبة التكريتي، ثم اشتراه تنكز بعد مدة طويلة من ابني أخيه صلاح الدين وشرف الدين بمبلغ جيد وعوضهما إقطاعاً بزيادة على ما كان بأيديهما، وذلك رغبة في أمواله التي حصلها من أبواب السلطنة، وقد تعصب عليه أستاذه تنكز رحمه الله في وقت وصودر وجرت عليه فصول، ثم سلم بعد ذلك، ولما مات ترك أموالاً جزيلة وأوقافاً رحمه الله. وخرجت التجريدة يوم الأربعاء سادسه والمقدم عليها الأمير بدر الدين بن الخطير ومعه مقدم آخر وهو الأمير علاء الدين بن قراسنقر.

وفي يوم السبت سلخ هذا الشهر توفي الشاب الحسن **شهاب الدين أحمد بن فرج المؤذن** بمأذنة العروس، وكان شهيراً بحسن الصوت ذا حظوة عظيمة عند أهل البلد، وكان رحمه الله كما في النفس وزيادة في حسن الصوت الرخيم المطرب، وليس في القراء ولا في المؤذنين قريب منه ولا من يدانيه في وقته، وكان في آخر وقته على طريقة حسنة، وعمل صالح، وانقطاع عن الناس، وإقبال على شأن نفسه فرحمه الله، وأكرم مثواه، وصلّي عليه بعد الظهر يومئذٍ ودفن عند أخيه بمقبرة الصوفية.

وفي يوم الخميس خامس ذي الحجة توفي **الشيخ بدر الدين بن نصحان** شيخ القراء السبعة في البلد الشهير بذلك، وصلّي عليه بالجامع بعد الظهر يومئذٍ، ودفن بباب الفراديس رحمه الله.

وفي يوم الأحد تاسعه وهو يوم عرفة حضر الإقراء بتربة أم الصالح عوضاً عن الشيخ بدر الدين بن نصحان القاضي شهاب الدين أحمد ابن النقيب البعلبكي، وحضر عنده جماعة من الفضلاء، وبعض القضاة، وكان حضوره بغتة، وكان متمرضاً، فألقى شيئاً من القراءات والإعراب عند قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٧٨]

وفي أواخر هذا الشهر غلا السعر جداً وقل الخبز وازدحم الناس على الأفران زحمة عظيمة، وبيع خبز الشعير المخلوط بالزيوان والنقارة، وبلغت الغرارة بمائة وستة وثمانين درهماً، وتقلص السعر جداً -حتى بيع الخبز كل رطل بدرهم، وفوق ذلك بيسير، ودونه بحسب طيبه ورداءته، فإنا لله وإنا إليه راجعون. وكثر السؤال وجاع العيال، وضعف كثير من الأسباب والأحوال، ولكن لطف الله عظيم فإن الناس مترقبون مغلاً هائلاً لم يسمع بمثله من مدة سنين عديدة، وقد اقترب أوانه، وشرع كثير من البلاد في حصاد الشعير وبعض القمح مع كثرة الفول وبوادر التوت، فلولا ذلك لكان غير ذلك، ولكن لطف الله بعباده، وهو الحاكم المتصرف الفعال لما يريد لا إله إلا هو.

ثم دخلت سنة أربع وأربعين وسبعمائة

استهلت هذه السنة وسلطان المسلمين الملك الناصر عماد الدنيا والدين إسماعيل ابن الملك الناصر ناصر الدين محمد ابن الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحي، ونائبه بالديار المصرية الأمير سيف الدين آقسنقر السلاري، وقضاته هم المتقدم ذكرهم في العام الماضي، ونائبه بدمشق الأمير سيف الدين تغردمر الحموي، وقضاته هم المتقدم ذكرهم، وكذلك الصاحب والخطيب وناظر الجامع والخزانة. ومشد الأوقاف وولاية المدينة.

استهلت والجيوش المصرية والشامية محيطة بحصن الكرك محاصرون ويبالغون في أمره، والمنجنيق منصوب وأنواع آلات الحصار كثيرة، وقد رسم بتجريدة من مصر والشام أيضاً تخرج إليها. وفي يوم الخميس عاشر صفر دخلت التجريدة من الكرك إلى دمشق واستمرت التجريدة الجديدة على الكرك ألفان من مصر وألفان من الشام، والمنجنيق منقوض موضوع عند الجيش خارج الكرك، والأمور متوقفة وبرد الحصار[1] بعد رجوع الأحمدي إلى مصر.

وفي يوم السبت ثاني ربيع الأول توفي السيد الشريف **عماد الدين الخشاب** بالكوشك في درب السيرجي جوار المدرسة العزية، وصلّي عليه ضحى بالجامع الأموي، ودفن بمقابر باب الصغير، وكان رجلاً شهماً كثير العبادة والمحبة للسنة وأهلها، ممن واظب الشيخ تقي الدين بن تيمية رحمه الله وانتفع به، وكان من جملة أنصاره وأعوانه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو الذي بعثه إلى صيدنايا مع بعض القسيسين فلوّث يده بالعذرة وضرب اللحمة التي يعظمونها هنالك، وأهانها غاية الإهانة لقوة إيمانه وشجاعته رحمه الله وإيانا.

وفي يوم الخميس سابعه اجتمع الصاحب ومشد الدواوين ووكيل بيت المال، ومشد الأوقاف ومباشرو الجامع ومعهم العمالين بالقول والمعاول، يحفرون إلى جانب السارية عند باب مشهد علي تحت تلك الصخرة التي كانت هناك، وذلك عن قول رجل جاهل، زعم أن هناك مالاً مدفوناً فشاوروا نائب السلطنة فأمرهم بالحفر، واجتمع الناس والعامة فأمرهم

(١) برد الحصار: فتر.

فأخرجوا وأغلقت أبواب الجامع كلها ليتمكنوا من الحفر، ثم حفروا ثانياً وثالثاً فلم يجدوا شيئاً إلا التراب المحض، واشتهر هذا الحفير في البلد وقصده الناس للنظر إليه والتعجب من أمره، وانفصل الحال على أن حبس هذا الزاعم لهذا المحال، وطم الحفير كما كان.

وفي يوم الاثنين ثامن عشر ربيع الأول قدم قاضي حلب ناصر الدين بن الخشاب على البريد مجتازاً إلى دمشق فنزل بالعادلية الكبيرة، وأخبر أنه صلى على المحدث البارع الفاضل الحافظ **شمس الدين محمد بن علي بن أيبك السروجي المضري** يوم الجمعة ثامن هذا الشهر بحلب رحمه الله ومولده سنة خمس عشرة وسبعمائة، وكان قد أتقن طرفاً جيداً في علم الحديث، وحفظ أسماء الرجال، وجمع وخرج.

وفي مستهل ربيع الآخر وقع حريق عظيم بسفح قاسيون احترق به سوق الصالحية الذي بالقرب من جامع المظفري، وكانت جملة الدكاكين التي احترقت قريباً من مائة وعشرين دكاناً، ولم يرَ حريق من زمان أكبر منه ولا أعظم، فإنا لله وإنا إليه راجعون. وفي يوم الجمعة سادسه رسم بأن يذكر بالصلاة يوم الجمعة في سائر مآذن البلد كما يذكر في مواذن الجامع، ففعل ذلك.
وفي يوم الثلاثاء عاشره طلب من القاضي تقي الدين السبكي قاضي قضاة الشافعية أن يقرض ديوان السلطان شيئاً من أموال الغياب التي تحت يده، فامتنع من ذلك امتناعاً كثيراً، فجاء شاد الدواوين وبعض حاشية نائب السلطنة ففتحوا مخزن الأيتام وأخذوا منه خمسين ألف درهم قهراً، ودفعوها إلى بعض العرب عما كان تأخر له في الديوان السلطاني، ووقع أمر كثير لم يعهد مثله.

وفي يوم الأربعاء عاشر جمادى الأولى توفي صاحبنا الشيخ الإمام العالم العلّامة الناقد البارع في فنون العلوم **شمس الدين محمد ابن الشيخ عماد الدين أحمد بن عبد الهادي المقدسي الحنبلي**، تغمده الله برحمته، وأسكنه بحبوحة جنته، مرض قريباً من ثلاثة أشهر بقرحة وحمى سل، ثم تفاقم أمره وأفرط به إسهال، وتزايد ضعفه إلى أن توفي يومئذٍ قبل أذان العصر، فأخبرني والده أن آخر كلامه أن قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، اللهمَّ اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين. فصلّي عليه يوم الخميس بالجامع المظفري وحضر جنازته قضاة البلد وأعيان الناس من العلماء والأمراء والتجار والعامة، وكانت جنازته حافلة مليحة، عليها ضوء ونور، ودفن بالروضة إلى جانب قبر السيف ابن المجد رحمهما الله تعالى، وكان مولده في رجب سنة خمس وسبعمائة فلم يبلغ الأربعين، وحصل من العلوم ما لا يبلغه الشيوخ الكبار، وتفنن في الحديث والنحو والتصريف والفقه والتفسير والأصلين والتاريخ والقراءات وله مجاميع وتعاليق مفيدة كثيرة، وكان حافظاً جيداً لأسماء الرجال، وطرق الحديث، عارفاً بالجرح والتعديل، بصيراً بعلل الحديث، حسن الفهم له، جيد المذاكرة صحيح الذهن مستقيماً على طريقة السلف، واتباع الكتاب والسنة، مثابراً على فعل الخيرات.

وفي يوم الثلاثاء سلخه درس بمحراب الحنابلة صاحبنا الشيخ الإمام العلّامة شرف الدين ابن القاضي شرف الدين الحنبلي في حلقة الثلثاء عوضاً عن القاضي تقي الدين ابن الحافظ رحمه

الله، وحضر عنده القضاة والفضلاء، وكان درساً حسناً أخذ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠] وخرج إلى مسألة تفضيل بعض الأولاد. وفي يوم الخميس ثاني شهر جمادى الأولى خرجت التجريدة إلى الكرك مقدمان من الأمراء، وهما الأمير شهاب الدين بن صبح، والأمير سيف الدين قلاوون، في أبهة عظيمة وتجمل وجيوش وبقارات، وإزعاج كثيرة.

وفي صبيحة يوم الاثنين الحادي والعشرين منه قتل بسوق الخيل **حسن ابن الشيخ السكاكيني** على ما ظهر منه من الرفض الدال على الكفر المحض، شهد عليه عند القاضي شرف الدين المالكي بشهادات كثيرة تدل على كفره، وأنه رافضي جلد، فمن ذلك تكفير الشيخين رضي الله عنهما، وقذفه أمي المؤمنين عائشة وحفصة رضي الله عنهما، وزعم أن جبريل غلط فأوحى إلى محمد، وإنما كان مرسلاً إلى علي، وغير ذلك من الأقوال الباطلة القبيحة قبحه الله، وقد فعل. وكان والده الشيخ محمد السكاكيني يعرف مذهب الرافضة والشيعة جيداً، وكانت له أسئلة على مذهب أهل الخير، ونظم في ذلك قصيدة أجابه فيها شيخنا الإمام العلّامة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وذكر غير واحد من أصحاب الشيخ أن السكاكيني ما مات حتى رجع عن مذهبه، وصار إلى قول أهل السنة فالله أعلم. وأخبرت أن ولده حسناً هذا القبيح كان قد أراد قتل أبيه لما أظهر السنة.

وفي ليلة الاثنين خامس شهر رجب وصل بدن الأمير سيف الدين تنكز نائب الشام كان إلى تربته التي إلى جانب جامعه الذي أنشأه ظاهر باب النصر بدمشق، نقل من الاسكندرية بعد ثلاث سنين ونصف أو أكثر، بشفاعة ابنته زوجة الناصر عند ولده السلطان الملك الصالح، فأذن في ذلك وأرادوا أن يدفن بمدرسته بالقدس الشريف، فلم يمكن، فجيء به إلى تربته بدمشق وعملت له الختم وحضر القضاة والأعيان رحمه الله.

وفي يوم الثلاثاء حادي عشر شعبان المبارك توفي صاحبنا **الأمير صلاح الدين يوسف التكريتي** ابن أخي الصاحب تقي الدين بن توبة الوزير، بمنزله بالقصاعين، وكان شاباً من أبناء الأربعين، ذا ذكاء وفطنة وكلام وبصيرة جيدة، وكان كثير المحبة إلى الشيخ تقي الدين بن تيمية رحمه الله، ولأصحابه خصوصاً، ولكل من يراه من أهل العلم عموماً، وكان فيه إيثار وإحسان ومحبة الفقراء والصالحين، ودفن بتربتهم بسفح قاسيون رحمه الله، وفي يوم السبت الخامس عشر منه جاءت زلزلة بدمشق لم يشعر بها كثير من الناس لخفتها ولله الحمد والمنة، ثم تواترت الأخبار بأنها شعثت في بلاد حلب شيئاً كثيراً من العمران حتى سقط بعض الأبراج بقلعة حلب، وكثير من دورها ومساجدها ومشاهدها وجدرانها، وأما في القلاع حولها فكثير جداً، وذكروا أن مدينة منبج لم يبقَ منها إلا القليل، وأن عامة الساكنين بها هلكوا تحت الردم رحمهم الله:

وفي أواخر شهر شوال خرجت التجاريد إلى الكرك وهما أميران مقدمان الأمير علاء الدين قراسنقر، والأمير الحاج بيدمر، واشتهر في هذه الأيام أن أمر الكرك قد ضعف وتفاقم عليهم الأمر وضاقت الأرزاق عندهم جداً، ونزل منها جماعات من رؤسائها وخاصكية الأمير أحمد بن الناصر مخامرين عليه، فسيروا من الصبح إلى قلاوون وصحبتهم مقدمون من الحلقة إلى الديار

المصرية، وأخبروا أن الحواصل عند أحمد قد قلت جداً فالله المسؤول أن يحسن العاقبة.

وفي ليلة الأربعاء الثامن والعشرين من شهر ذي الحجة توفي القاضي الإمام العلاّمة **برهان الدين بن عبد الحق شيخ الحنفية** وقاضي القضاة بالديار المصرية مدة طويلة، بعد ابن الحريري، ثم عزل وأقام بدمشق ودرس في أيام تغردمر بالعذراوية لولده القاضي أمين الدين، فذكر بها الدرس يوم الأحد قبل وفاة والده بثلاثة أيام، وكان موت **برهان الدين** رحمه الله ببستانه من أراضي الأرزة بطريق الصالحية، ودفن من الغد بسفح قاسيون بمقبرة الشيخ أبي عمر رحمه الله، وصلّي عليه بالجامع المظفري، وحضر جنازته القضاة والأعيان والأكابر رحمه الله.

ثم دخلت سنة خمس وأربعين وسبعمائة

استهلت هذه السنة وسلطان الديار المصرية والديار الشامية وما يتعلق بذلك الملك الصالح بن إسماعيل ابن السلطان الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاوون، وقضاته بالديار المصرية والشامية هم المذكورون في السنة المتقدمة، ونائبه بمصر الحاج سيف الدين ووزيره المتقدم ذكره، وناظر الخاص القاضي مكين الدين، وناظر الجيوش القاضي علم الدين بن القطب، والمحتسب المتقدم، وشاد الدواوين علم الدين الناصري، وشاد الأوقاف الأمير حسام الدين النجيبي، ووكيل بيت المال القاضي علاء الدين شرنوخ، وناظر الخزانة القاضي تقي الدين بن أبي الطيب، وبقية المباشرين والنظار هم المتقدم ذكرهم، وكاتب الدست القاضي بدر الدين بن فضل الله كاتب السر، والقاضي أمين الدين بن القلانسي والقاضي شهاب الدين بن القيسراني، والقاضي شرف الدين بن شمس الدين بن الشهاب محمود، والقاضي علاء الدين شرنوخ.

شهر المحرم أوله السبت استهل والحصار واقع بقلعة الكرك، وأما البلد فأخذ واستنيب فيه الأمير سيف الدين قبليه، قدم إليها من الديار المصرية، والتجاريد من الديار المصرية ومن دمشق محيطون بالقلعة، والناصر أحمد بن الناصر ممتنع من التسليم، ومن الإجابة إلى الإنابة. ومن الدخول في طاعة أخيه، وقد تفاقمت الأمور وطالت الحروب، وقتل خلق كثير بسبب ذلك، من الجيوش ومن أهل الكرك، وقد توجهت القضية إلى خير إن شاء الله. وقبل ذلك بأيام يسيرة هرب من قلعة الكرك الأمير سيف الدين أبو بكر بن بهادر آص الذي كان أسر في أوائل حصار الكرك، وجماعة من مماليك الناصر أحمد، كان اتهمهم بقتل الشهيب أحمد، الذي كان يعتني به ويحبه، واستبشر الجيوش بنزول أبي بكر من عنده وسلامته من يده، وجهز إلى الديار المصرية معظماً، وهذا والمجانيق الثلاثة سلطة على القلعة من البلد تضرب عليها ليلاً ونهاراً، وتدمر في بنائها من داخل، فإن سورها لا يؤثر فيه شيء بالكلية، ثم ذكر أن الحصار فتر ولكن مع الاحتياط على أن لا يدخل إلى القلعة ميرة ولا شيء مما يستعينون به على المقام فيها، فالله المسؤول أن يحسن العاقبة. وفي يوم الأربعاء الخامس والعشرين من صفر قدم البريد مسرعاً من الكرك فأخبر بفتح القلعة، وأن بابها أحرق، وأن جماعة الأمير أحمد بن الناصر استغاثوا

بالأمان، وخرج أحمد مقيداً وسير على البريد إلى الديار المصرية، وذلك يوم الاثنين بعد الظهر الثالث والعشرين من هذا الشهر، ولله عاقبة الأمور وفي صبيحة يوم الجمعة رابع ربيع الأول دقت البشائر بالقلعة، وزينت البلد عن مرسوم السلطان الملك الصالح سروراً بفتح البلد، واجتماع الكلمة عليه، واستمرت الزينة إلى يوم الاثنين سابعه، فرسم برفعها بعد الظهر فتشوش كثير من العوام، وأرجف بعض الناس بأن أحمد قد ظهر أمره وبايعه الأمراء الذين هم عنده، وليس لذلك حقيقة، ودخلت الأطلاب من الكرك صبيحة يوم الأحد ثالث عشر ربيع الأول بالطبلخانات والجيوش، واشتهر إعدام أحمد بن الناصر.

وفي يوم الجمعة حادي عشر ربيع الأول صلّي بالجامع الأموي على الشيخ **أمين الدين أبي حيان النحوي**، شيخ البلاد المصرية من مدة طويلة، وكانت وفاته بمصر عن تسعين سنة وخمسة أشهر. ثم اشتهر في ربيع الآخر قتل السلطان أحمد وحز رأسه وقطع يديه، ودفن جثته بالكرك، وحمل رأسه إلى أخيه الملك الصالح إسماعيل، وحضر بين يديه في الرابع والعشرين من هذا الشهر، ففرح الناس بذلك، ودخل الشيخ أحمد الزرعي على السلطان الملك الصالح فطلب منه أشياء كثيرة من تبطيل المظالم ومكوسات وإطلاق طبلخانات للأمير ناصر الدين بن بكتاش، وإطلاق أمراء محبوسين بقلعة دمشق وغير ذلك، فأجابه إلى جميع ذلك، وكان جملة المراسيم التي أجيب فيها بضعة وثلاثين مرسوماً، فلما كان آخر شهر ربيع الآخر قدمت المراسيم التي سألها الشيخ أحمد من الملك الصالح، فأمضيت كلها، أو كثير منها، وأفرج عن صلاح الدين ابن الملك الكامل، والأمير سيف الدين بلو، في يوم الخميس سلخ هذا الشهر، ثم روجع في كثير منها وتوقف حالها.

وفي هذا الشهر عملت منارة خارج باب الفرج وفتحت مدرسة كانت داراً قديمة فجعلت مدرسة للحنفية ومسجداً، وعملت طهارة عامة، ومصلّى للناس، وكل ذلك منسوب إلى الأمير سيف الدين تقطم الخليلي أمير حاجب كان، وهو الذي جدد الدار المعروفة به اليوم بالقصاعين.

وفي ليلة الاثنين عاشر جمادى الآخرة توفي صاحبنا المحدّث **تقي الدين محمد بن صدر الدين سليمان الجعبري** زوج بنت الشيخ جمال الدين المزي، والد شرف الدين عبد الله، وجمال الدين إبراهيم وغيرهم، وكان فقيهاً بالمدارس، وشاهداً تحت الساعات وغيرها، وعنده فضيلة جيدة في قراءة الحديث وشيء من العربية، وله نظم مستحسن، انقطع يومين وبعض الثالث وتوفي في الليلة المذكورة في وسط الليل، وكنت عنده وقت العشاء الآخرة ليلتئذٍ، وحدثني وضاحكني، وكان خفيف الروح رحمه الله، ثم توفي في بقية ليلته رحمه الله، وكان أشهدني عليه بالتوبة من جميع ما يسخط الله عز وجل، وأنه عازم على ترك الشهود أيضاً رحمه الله، صلّي عليه ظهر يوم الاثنين، ودفن بمقابر باب الصغير عند أبويه رحمهم الله.

وفي يوم الجمعة ثاني عشرين شهر رجب خطب القاضي عماد الدين بن العز الحنفي بجامع تنكز خارج باب النصر عن نزول الشيخ نجم الدين علي بن داود القفجاري له عن ذلك،

وأيضاً نائب السلطنة الأمير سيف الدين تغردمر وحضوره عنده في الجامع المذكور يومئذٍ.

وفي يوم الجمعة تاسع عشرين رجب توفي القاضي الإمام العالم **جلال الدين أبو العباس أحمد ابن قاضي القضاة حسام الدين الرومي الحنفي**، وصلي عليه بعد صلاة الجمعة بمسجد دمشق، وحضره القضاة والأعيان ودفن بالمدرسة التي أنشأها إلى جانب الزردكاش قريباً من الخاتونية الجوانية، وكان قد ولّي قضاء قضاة الحنفية في أيام ولاية أبيه الديار المصرية، وكان مولده سنة إحدى وخمسين وستمائة، وقدم الشام مع أبيه فأقاموا بها، ثم ولما ولّى الملك المنصور لاجين ولّى أباه قضاء الديار المصرية، وولده هذا قضاء الشام، ثم إنه عزل بعد ذلك واستمر على ثلاث مدارس من خيار مدارس الحنفية ثم حصل له صمم في آخر عمره، وكان ممتعاً بحواسه سواه وقواه، وكان يذاكر في العلم وغير ذلك.

وفي يوم الأربعاء الرابع والعشرين من شعبان توفي الشيخ **نجم الدين علي بن داود القفجاري** خطيب جامع تنكز، ومدرس الظاهرية، وقد نزل عنها قبل وفاته بقليل للقاضي عماد الدين بن العز الحنفي، وصلّي عليه بالجامع المذكور بعد صلاة الظهر يومئذٍ، وعند باب النصر وعند جامع جراح ودفن بمقبرة ابن الشيرجي عند والده، وحضره القضاة والأعيان، وكان أستاذاً في النحو وله علوم أخر، لكن كان نهاية في النحو والتصريف.

وفي هذا اليوم توفي الشيخ الصالح العابد الناسك **الشيخ عبد الله الضرير الزرعي**، وصلّي عليه بعد الظهر بالجامع الأموي وبباب النصر وعند مقابر الصوفية، ودفن بها قريباً من الشيخ تقي الدين بن تيمية رحمه الله، وكان كثير التلاوة حسنها وصحيحها، كثير العبادة، يقرىء الناس من دهر طويل ويقوم بهم العشر الأخير من رمضان، في محراب الحنابلة بالجامع الأموي رحمه الله.

وفي يوم الجمعة ثاني شهر رمضان المعظم توفي الشيخ الإمام العالم العامل العابد الزاهد الورع **أبو عمر بن أبي الوليد المالكي** إمام محراب الصحابة الذي للمالكية، وصلّي عليه بعد الصلاة، وحضر جنازته خلق كثير وجم غفير، وتأسف الناس عليه وعلى صلاحه وفتاويه النافعة الكثيرة، ودفن إلى جانب قبر أبيه وأخيه، إلى جانب قبر أبي الغندلاوي المالكي قريباً من مسجد التاريخ رحمه الله، وولي مكانه في المحراب ولده، وهو طفل صغير، فاستنيب له إلى حين صلاحيته، جبره الله ورحم أباه.

وفي صبيحة ليلة الثلاثاء سادس رمضان وقع ثلج عظيم لم يرَ مثله بدمشق من مدة طويلة وكان الناس محتاجين إلى مطر، فلله الحمد والمنة، وتكاثف الثلج على الأسطحة، وتراكم حتى أعيى الناس أمره ونقلوه عن الأسطحة إلى الأزقة يحمل، ثم نودي بالأمر بإزالته من الطرقات فإنه سدها وتعطلت معايش كثير من الناس، فعوض الله الضعفاء بعملهم في الثلج، ولحق الناس كلفة كبيرة وغرامة كثيرة، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفي يوم الجمعة الثالث والعشرين من رمضان صلّي بالجامع الأموي على نائب وهو الأمير علاء الدين الجاولي، وقد تقدم شيء من ترجمته رحمه الله.

وفي أول شوال يوم عيد الفطر وقع فيه ثلج عظيم بحيث لم يمكن الخطيب من الوصول إلى المصلّى، ولا خرج نائب السلطنة، بل اجتمع الأمراء والقضاة بدار السعادة، وحضر الخطيب فصلى بهم العيد بها، وكثير من الناس صلوا العيد في البيوت.

وفي يوم الأحد الحادي والعشرين من ذي الحجة درس قاضي القضاة تقي الدين السبكي الشافعي بالشامية البرانية عن الشيخ شمس الدين بن النقيب رحمه الله، وحضر عنده القضاة والأعيان والأمراء وخلق من الفضلاء، وأخذ في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾ [ص: ٣٥] وما بعدها. وفي ذي الحجة استفتي في قتل كلاب البلد فكتب جماعة من أهل البلد في ذلك، فرسم بإخراجهم يوم الجمعة من البلد الخامس والعشرين منه، لكن إلى الخندق ظاهر باب الصغير، وكان الأولى قتلهم بالكلية وإحراقهم لئلا تنتن الناس بريحهم على ما أفتى به الإمام مالك بن أنس من جواز قتل الكلاب ببلدة معينة للمصلحة، إذا رأى الإمام ذلك، ولا يعارض ذلك النهي عن قتل الكلاب، ولهذا كان عثمان بن عفان يأمر في خطبته بقتل الكلاب وذبح الحمام.

ثم دخلت سنة ست وأربعين وسبعمائة

استهلت هذه السنة وسلطان المسلمين بالديار المصرية والشامية والحرمين والبلاد الحلبية وأعمال ذلك الملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن الناصر بن المنصور، وقضاته بالديار المصرية والشامية هم المذكورون أيضاً. وفي يوم الجمعة سادس عشر محرم كملت عمارة الجامع الذي بالمزة الفوقانية الذي جدده وأنشأه الأمير بهاء الدين المرجاني، الذي بنى والده مسجد الخيف بمنى وهو جامع حسن متسع فيه روح وانشراح تقبّل الله من بانيه، وعقدت فيه الجمعة بجمع كثير وجم غفير من أهل المزة، ومن حضر من أهل البلد، وكنت أنا الخطيب ـ يعني الشيخ عماد الدين المصنف تغمده الله برحمته ـ ولله الحمد والمنة. ووقع كلام وبحث في اشتراط المحلل في المسابقة، وكان سببه أن الشيخ شمس الدين بن قيم الجوزية صنف فيه مصنفاً من قبل ذلك، ونصر فيه ما ذهب إليه الشيخ تقي الدين بن تيمية في ذلك، ثم صار يفتي به جماعة من الترك ولا يعزوه إلى الشيخ تقي الدين بن تيمية، فاعتقد من اعتقد أنه قوله وهو مخالف للأئمة الأربعة، فحصل عليه إنكار في ذلك، وطلبه القاضي الشافعي، وحصل كلام في ذلك، وانفصل الحال على أن أظهر الشيخ شمس الدين بن قيم الجوزية الموافقة للجمهور.

وفاة الملك الصالح إسماعيل

في يوم الأربعاء ثالث شهر ربيع الآخر من هذه السنة أظهر موت السلطان **الملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن الناصر بن المنصور** آخر النهار، وكان قد عهد بالأمر إلى أخيه لأبويه الملك الكامل سيف الدين أبي الفتوح شعبان، فجلس على سرير المملكة يوم الخميس رابعه، وكان يوماً مشهوداً، ثم قدم الخبر إلى دمشق عشية الخميس ليلة الجمعة الثاني عشر منه، وكان

البريد قد انقطع عن الشام نحو عشرين يوماً للشغل بمرض السلطان، فقدم الأمير سيف الدين معزاً للبيعة للملك الكامل، فركب عليه الجيش لتلقيه، فلما كان صبيحة الجمعة أخذت البيعة من النائب والمقدمين وبقية الأمراء والجند للسلطان الملك الكامل بدار السعادة، ودقت البشائر وزين البلد وخطب الخطباء يومئذٍ للملك الكامل، جعله الله وجهاً مباركاً على المسلمين.

وفي صبيحة يوم الاثنين الثاني والعشرين من ربيع الآخر درس القاضي جمال الدين حسين ابن قاضي القضاة تقي الدين السبكي الشافعي بالمدرسة الشامية البرانية، نزل له أبوه عنها، واستخرج له مرسوماً سلطانياً بذلك، فحضر عنده القضاة والأعيان وجماعة من الأمراء والفقهاء وجلس بين أبيه والقاضي الحنفي، وأخذ في الدرس في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾ [النمل: ١٥]. وتكلم الشريف مجد الدين المتكلم في الدرس بكلام فيه نكارة وبشاعة، فشنع عليه الحاضرون، فاستتب بعد انقضاء الدرس وحكم بإسلامه، وقد طلب إلى الديار المصرية نائب دمشق الأمير سيف الدين تغردمر وهو متمرض، انقطع عن الجمعة بسبب المرض مرات، والبريد يذهب إلى حلب لمجيء نائبها الأمير سيف الدين يلبغا لنيابة دمشق، وذكر أن الحاج أرقطية تعين لنيابة حلب. وفي يوم الجمعة رابع جمادى الأولى خرجت أثقال الأمير سيف الدين تغردمر النائب وخيوله وهجنه ومواليه وحواصله وطبلخاناته وأولاده في تجمل عظيم، وأبهة هائلة جداً، وخرجت المحافل والكحارات والمحفات لنسائه وبناته وأهله في هيبة عجيبة، هذا كله وهو بدار السعادة، فلما كان من وقت السحر في يوم السبت خامسه خرج الأمير سيف الدين تغردمر بنفسه إلى الكسوة في محفة لمرضه مصحوباً بالسلامة، فلما طلعت الشمس من يومئذٍ قدم من حلب أستاذ دار الأمير سيف الدين يلبغا البحناوي فتسلم دار السعادة، وفرح الناس بهم، وذهب الناس للتهنئة والتودد إليهم.

ولما كان يوم السبت الثاني عشر من جمادى الأولى خرج الجيش بكماله لتلقي نائب السلطنة الأمير سيف الدين يلبغا فدخل في تجمل عظيم، ثم جاء فنزل عند باب السر، وقبَّل العتبة على العادة ثم مشى إلى دار السعادة.

وفي عشية يوم الاثنين رابع عشره قطع نائب السلطنة ممن وجب قطعه في الحبس ثلاثة عشر رجلاً وأضاف إلى قطع اليد قطع الرجل من كل منهم، لما بلغه أنه تكرر من جناياتهم، وصلب ثلاثة بالمسامير ممن وجب قتله، ففرح الناس بذلك لقمعه المفسدين وأهل الشرور، والعيث والفساد.

واشتهر في العشر الأوسط من جمادى الآخرة وفاة الأمير سيف الدين تغردمر بعد وصوله إلى الديار المصرية بأيام، وكان ذلك ليلة الخميس مستهل هذا الشهر، وذكر أنه رسم على ولده وأستاذ داره، وطلب منهم مال جزيل، فالله أعلم.

وفي يوم الاثنين ثاني عشره توفي القاضي علاء الدين بن العز الحنفي نائب الحكم ببستانه بالصالحية ودفن بها، وذلك بعد عود المدرسة الظاهرية إليه، وأخذه إياها من عمه القاضي عماد

الدين إسماعيل، كما قدمنا، ولم يدرس فيها إلا يوماً واحداً، وهو متمرض، ثم عاد إلى الصالحية فتمادى به مرضه إلى أن مات رحمه الله.

وخرج الركب إلى الحجاز الشريف يوم السبت حادي عشر شوال، وخرج ناس كثير من البلد، ووقع مطر عظيم جداً، ففرح الناس به من جهة أن المطر كان قليلاً جداً في شهر رمضان، وهو كانون الأصم، فلما وقع هذا استبشروا به وخافوا على الحجاج ضرره، ثم تداول[1] المطر وتتابع ولله الحمد والمنة، لكن ترحل الحجاج في أوحال كثيرة وزلق كثير، والله المسلم والمعين والحامي. ولما استقل الحجيج ذاهبين وقع عليهم مطر شديد بين الصمين فعوقهم أياماً بها، ثم تحاملوا إلى زرع فلم يصلوها إلا بعد جهد جهيد وأمر شديد، ورجع كثير منهم وأكثرهم، وذكروا أشياء عظيمة حصلت لهم من الشدة وقوة الأمطار وكثرة الأوحال، ومنهم من كان تقدم إلى أرض بصرى، فحصل لهم رفق بذلك والله المستعان. وقيل إن نساء كثيرة من المخدرات[2] مشين حفاة فيما بين زرع والصنمين وبعد ذلك، وكان أمير الحاج سيف الدين ملك آص وقاضيه شهاب الدين بن الشجرة الحاكم بمدينة بعلبك يومئذٍ والله المستعان، انتهى.

ثم دخلت سنة سبع وأربعين وسبعمائة

استهلت هذه السنة وسلطان البلاد بالديار المصرية والشامية والحرمين وغير ذلك الملك الكامل سيف الدين شعبان ابن الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاوون، وليس له بمصر نائب، وقضاة مصرهم المذكورون في التي قبلها، ونائب دمشق الأمير سيف الدين يلبغا البحناوي، وقضاة دمشق هم المذكورون في التي قبلها، إلا أن قاضي القضاة عماد الدين بن إسماعيل الحنفي نزل عن القضاء لولده قاضي القضاة نجم الدين، واستقل بالولاية وتدريس النورية، وبقي والده على تدريس الريحانية.

وفي يوم الجمعة السادس عشر من المحرم من هذه السنة توفي **الشيخ تقي الدين الشيخ الصالح محمد ابن الشيخ محمد بن قوام** بزاويتهم بالسفح، وصلِّي عليه الجمعة بجامع الأفرم، ثم دفن بالزاوية وحضره القضاة والأعيان وخلق كثير، وكان بينه وبين أخيه ستة أشهر وعشرون يوماً، وهذا أشد من ذلك.

وفتحت في أول السنة القيسارية التي أنشأها الأمير سيف الدين يلبغا نائب السلطنة ظاهر باب الفرج وضمنت ضماناً باهراً بنحو من سبعة آلاف كل شهر، وداخلها قيسارية تجارة في وسطها بركة ومسجد، وظاهرها دكاكين وأعاليها بيوت للسكن.

وفي صبيحة يوم الاثنين ثاني عشر ربيع الأول عقد مجلس بمشهد عثمان للنور الخراساني، وكان يقرأ القرآن في جامع تنكز، ويعلم الناس أشياء من فرائض الوضوء والصلاة،

---

(١) تداول المطر: تعاقب وتتابع.

(٢) المخدرات: من الخدر، وهو ستر يمد للجارية في ناحية البيت.

ادّعى عليه فيه أنه تكلم في بعض الأئمة الأربعة وأنه تكلم في شيء من العقائد ويطلق عبارات زائدة على ما ورد به الحديث، وشهد عليه ببعض أشياء متعددة، فاقتضى الحال أن عزر في هذا اليوم، وطيف به في البلد، ثم رد إلى السجن معتقلاً. فلما كان يوم الخميس الثاني عشرين منه شفع فيه الأمير أحمد بن مهنا ملك العرب عند نائب السلطنة فاستحضره بين يديه وأطلقه إلى أهله وعياله، ولما كان تاريخ يوم الجمعة ثالث عشر جمادى الأولى صلى نائب السلطنة الأمير سيف الدين يلبغا البحناوي الناصري بجامع تنكز ظاهر دمشق براً باب النصر، وصلى عنده القاضي الشافعي والمالكي وكبار الأمراء، ولما أقيمت الصلاة صلى وقعد بعض مماليكه عن الصلاة ومعه السلاح حراسة له، ثم لما انصرف من الصلاة اجتمع بالأمراء المذكورين وتشاوروا طويلاً، ثم نهض النائب إلى دار السعادة فلما كان آخر النهار برز بخدمه ومماليكه وحشمه ووطاقه وسلاحه وحواصله، ونزل قبلي مسجد القدم وخرج الجند والأمراء في آخر النهار وانزعج الناس واتفق طلوع القمر خاسفاً، ثم خرج الجيش ملبساً تحت الثياب وعليه التراكيس بالنشاب والخيول والجنابات، ولا يدري الناس ما الخبر، وكان سبب ذلك أن نائب السلطنة بلغه أن نائب صفد قد ركب إليه ليقبض عليه، فانزعج لذلك وقال: لا أموت إلا على ظهر أفراسي، لا على فراشي، وخرج الجند والأمراء خوفاً من أن يفوتهم بالفرار، فنزلوا يمنة ويسرة، فلم يذهب من تلك المنزلة بل استمر بها يعمل النيابة ويجتمع بالأمراء جماعة وفرادى، ويستميلهم إلى ما هو فيه من الرأي، وهو خلع الملك الكامل شعبان لأنه يكثر من مسك الأمراء بغير سبب، ويفعل أفعالاً لا تليق بمثله، وذكروا أموراً كثيرة، وأن يولوا أخاه أمير حاجي بن الناصر لحسن شكالته وجميل فعله، ولم يزل يفتلهم في الذروة والغارب[1] حتى أجابوه إلى ذلك، ووافقوه عليه، وسلموا ما يدعيه، وتابعوا على ما أشار إليه وبايعوه، ثم شرع في البعث إلى نواب البلاد يستميلهم إلى ما مالأ عليه الدمشقيون وكثير من المصريين، وشرع أيضاً في التصرف في الأمور العامة الكلية، وأخرج بعض من كان الملك الكامل اعتقله بالقلعة المنصورة، ورد إليه إقطاعه بعد ما بعث الملك الكامل إلى من أقلعه منشوره، وعزل وولّى وأخذ وأعطى، وطلب التجار يوم الأربعاء ثامن عشره ليباع عليهم غلال الحواصل السلطانية فيدفعوا أثمانها في الحال، ثم يذهبوا فيتسلموها من البلاد البرانية، وحضر عنده القضاة على العادة والأمراء والسادة، وهذا كله وهو مخيم بالمكان المذكور، لا يحصره بلد ولا يحويه سور.

وفي يوم الخميس رابع جمادى الآخرة خرجت تجريدة نحو عشرة طليعة لتلقي من يقدم من الديار المصرية من الأمراء وغيرهم، ببقاء الأمر على ما كان عليه، فلم يصدقهم النائب، وربما عاقب بعضهم، ثم رفعهم إلى القلعة، وأهل دمشق ما بين مصدق باختلاف المصريين وما بين قائل السلطان الكامل قائم الصورة مستمر على ما كان عليه، والتجاريد المصرية واصلة قريباً، ولا بد من وقوع خبطة عظيمة. وتشوشت أذهان الناس وأحوالهم بسبب ذلك، والله المسؤول أن يحسن العاقبة.

---

(١) يفتل في الذروة والغارب: أي يدور من وراء خديعته.

وحاصل القضية أن العامة ما بين تصديق وتكذيب، ونائب السلطنة وخواصه من كبار الأمراء على ثقة من أنفسهم، وأن الأمراء على خلف شديد في الديار المصرية بين السلطان الكامل شعبان وبين أخيه أمير حاجي، والجمهور مع أخيه أمير حاجي، ثم جاءت الأخبار إلى النائب بأن التجاريد المصرية خرجت تقصد الشام ومن فيه من الجند لتوطد الأمر، ثم إنه تراجعت رؤوس الأمراء في الليل إلى مصر واجتمعوا إلى إخوانهم ممن هو ممالىء لهم على السلطان، فاجتمعوا ودعوا إلى سلطنة أمير حاجي وضربت الطبلخانات وصارت باقي النفوس متجاهرة على نية تأييده، ونابذوا السلطان الكامل، وعدوا عليه مساويه، وقتل بعض الأمراء، وفر الكامل وأنصاره فاحتيط عليه، وخرج أرغون العلائي زوج ابنته واستظهر أيضاً أمير حاجي فأجلسوه على السرير ولقبوه بالملك المظفر، وجاءت الأخبار إلى النائب بذلك، فضربت البشائر عنده، وبعث إلى نائب القلعة فامتنع من ضربها، وكان قد طلب إلى الوطاق[1] فامتنع من الحضور، وأغلق باب القلعة فانزعج الناس واختبط البلد، وتقلص وجود الخير، وحصنت القلعة ودعوا للكامل بكرة وعشية على العادة، وأرجف[2] العامة بالجيش على عادتهم في كثرة فصولهم، فحصل لبعضهم أذية. فلما كان يوم الاثنين ثامن الشهر قدم نائب حماة إلى دمشق مطيعاً لنائب السلطنة في تجمل وأبهة، ثم أجريت له عادة أمثاله.

وفي هذا اليوم وقعت بطاقة بقدوم الأمير سيف الدين بيغرا حاجب الحجاب بالديار المصرية لأجل البيعة للسلطان الملك المظفر، فدقت البشائر بالوطاق، وأمر بتزيين البلد، فزين الناس وليسوا منشرحين، وأكثرهم يظن أن هذا مكر وخديعة، وأن التجاريد المصرية واصلة قريباً. وامتنع نائب القلعة من دق البشائر وبالغ في تحصين القلعة، وغلق بابها، فلا يفتح إلا الخوخة[3] البرانية والجوانية، وهذا الصنيع هو الذي يشوش خواطر العامة، يقولون: لو كان ثم شيء له صحة كان نائب القلعة يطلع على هذا قبل الوطاق. فلما كان يوم الثلاثاء بعد الزوال قدم الأمير سيف الدين بيغرا إلى الوطاق، وقد تلقوه وعظموه، ومعه تقليد النيابة من المظفر إلى الأمير سيف الدين يلبغا نائب السلطنة، وكتاب إلى الأمراء بالسلام. ففرحوا بذلك وبايعوه وانضمت الكلمة ولله الحمد. وركب بيغرا إلى القلعة فترجل وسل سيفه ودخل إلى نائب القلعة فبايعه سريعاً ودقت البشائر في القلعة بعد المغرب، حين بلغه الخبر، وطابت أنفس الناس ثم أصبحت القلعة في الزينة وزادت الزينة في البلد وفرح الناس، فلما كان يوم الخميس حادي عشر الشهر دخل نائب السلطنة من الوطاق إلى البلد والأطلاب بين يديه في تجمل وطبلخانات على عادة العرض، وقد خرج أهل البلد إلى الفرجة، وخرج أهل الذمة بالتوراة، وأشعلت الشموع، وكان يوماً مشهوداً.

وقد صلى في شهر رمضان من هذه السنة بالشامية البرانية صبي عمره ست سنين، وقد

(١) الوطاق: خيمة، وجمعها وطاقات.

(٢) أرجف: خاض في الأخبار السيئة والفتن قصد أن يهيج الناس.

(٣) خوخة: باب صغير في باب كبير.

رأيته وامتحنته فإذا هو يجيد الحفظ والأداء، وهذا من أغرب ما يكون. وفي العشر الأول من هذا الشهر فرغ من بناء الحمامين الذي بناهما نائب السلطنة بالقرب من الثابتية في خان السلطان العتيق، وما حولها من الرباع والقرب وغير ذلك. وفي يوم الأحد حادي عشره اجتمع نائب السلطنة والقضاة الأربعة ووكيل بيت المال والدولة عند تل المستقين، من أجل أن نائب السلطنة قد عزم على بناء هذه البقعة جامعاً بقدر جامع تنكز. فاشتوروا[1] هنالك، ثم انفصل الحال على أن يعمل، والله ولي التوفيق.

وفي يوم الخميس ثالث ذي القعدة صلي على **الشيخ زين الدين عبد الرحمن بن تيمية**، أخو الشيخ تقي الدين رحمهما الله تعالى. وفي يوم السبت ثاني عشره توفي الشيخ **علي القطناني** بقطنا، وكان قد اشتهر أمره في هذه السنين. واتبعه جماعة من الفلاحين والشباب المنتمين إلى طريقة أحمد بن الرفاعي، وعظم أمره وسار ذكره، وقصده الأكابر للزيارة مرات، وكان يقيم السماعات على عادة أمثاله، وله أصحاب يظهرون إشارة باطلة، وأحوالاً مفتعلة، وهذا مما كان ينقم عليه بسببه، فإنه إن لم يكن يعلم بحالهم فجاهل، وإن كان يقرهم على ذلك فهو مثلهم، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وفي أواخر هذا الشهر ـ أعني ذي الحجة من العيد وما بعده ـ اهتم ملك الأمراء في بناء الجامع الذي بناه تحت القلعة وكان تل المستقين، وهدم ما كان هناك من أبنية، وعملت العجل وأخذت أحجار كثيرة من أرجاء البلد، وأكثر ما أخذت الأحجار من الرحبة التي للمصريين، من تحت المئذنة التي في رأس عقبة الكتاب، وتيسر منها أحجار كثيرة، والأحجار أيضاً من جبل قاسيون وحمل على الجمال وغيرها، وكان سلخ هذه السنة ـ أعني سنة سبع وأربعين وسبعمائة ـ قد بلغت غرارة القمح إلى مائتين فما دونها، وربما بيعت بأكثر من ذلك، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ثم دخلت سنة ثمان وأربعين وسبعمائة

استهلت هذه السنة وسلطان البلاد المصرية والشامية والحرمين وغير ذلك الملك المظفر أمير حاجي ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون، ونائبه بالديار المصرية الأمير سيف الدين أرقطيه، وقضاة مصر هم الذين كانوا في الماضية بأعيانهم، ونائبه بالشام المحروسة سيف الدين يلبغا الناصري، وقضاة الشام هم المذكورون في التي قبلها بأعيانهم، غير أن القاضي عماد الدين الحنفي نزل لولده قاضي القضاة نجم الدين، فباشر في حياة أبيه، وحاجب الحجاب فخر الدين إياس.

واستهلت هذه السنة ونائب السلطنة في همة عالية في عمارة الجامع الذي قد شرع في بنائه غربي سوق الخيل، بالمكان الذي كان يعرف بتل المستقين.

---

(١) اشتوروا: تشاوروا.

وفي ثالث المحرم توفي قاضي القضاة **شرف الدين محمد بن أبي بكر الهمداني المالكي**، وصلّي عليه بالجامع، ودفن بتربته بميدان الحصا، وتأسف الناس عليه لرياسته وديانته وأخلاقه وإحسانه إلى كثير من الناس رحمه الله.

وفي يوم الأحد الرابع والعشرين من المحرم وصل تقليد قضاء المالكية للقاضي جمال الدين المسلاتي الذي كان نائباً للقاضي شرف الدين قبله، وخلع عليه من آخر النهار. وفي شهر ربيع الأول أخذوا لبناء الجامع المجدد بسوق الخيل، أعمدة كثيرة من البلد، فظاهر البلد يعلقون ما فوقه من البناء ثم يأخذونه ويقيمون بدله دعامة وأخذوا من درب الصيقل وأخذوا العمود الذي كان بسوق العلبيين الذي في تلك الدخلة على رأسه مثل الكرة فيها حديد، وقد ذكر الحافظ ابن عساكر أنه كان فيه طلسم لعسر بول الحيوان إذا داروا بالدابة ينحل أراقيها(١)، فلما كان يوم الأحد السابع والعشرين من ربيع الأول من هذه السنة قلعوه من موضعه بعد ما كان له في هذا الموضع نحواً من أربعة آلاف سنة والله أعلم. وقد رأيته في هذا اليوم وهو ممدود في سوق العلبيين على الأخشاب ليجروه إلى الجامع المذكور من السوق الكبير، ويخرجوا به من باب الجابية الكبير فلا إلٰه إلا الله. وفي أواخر شهر ربيع الآخر ارتفع بناء الجامع الذي أنشأه النائب وجفت العين التي كانت تحت جداره حين أسسوه ولله الحمد.

وفي سلخ ربيع الآخر وردت الأخبار من الديار المصرية بمسك جماعة من أعيان الأمراء كالحجازي وآقسنقر الناصري، ومن لف لفهما، فتحرك الجند بالشام ووقعت خبطة، ثم استهل شهر جمادى الأولى والجند في حركة شديدة، ونائب السلطنة يستدعي الأمراء إلى دار السعادة بسبب ما وقع بالديار المصرية، وتعاهد هؤلاء على أن لا يؤذى أحد، وأن يكونوا يداً واحدة، وفي هذا اليوم تحول ملك الأمراء من دار السعادة إلى القصر الأبلق واحترز لنفسه، وكذلك حاشيته، وفي يوم الأربعاء الرابع عشر منه قدم أمير من الديار المصرية على البريد ومعه كتاب من السلطان فيه التصريح بعزل ملك الأمراء يلبغا نائب الشام، فقرىء عليه بحضرة الأمراء بالقصر الأبلق، فتغمم لذلك وساءه، وفيه طلبه إلى الديار المصرية على البريد ليولى نيابة الديار المصرية، والظاهر أن ذلك خديعة له، أظهر الامتناع، وأنه لا يذهب إلى الديار المصرية أبداً، وقال: إن كان السلطان قد استكثر على ولاية دمشق فيولّيني أي البلاد شاء، فأنا راض بها. ورد الجواب بذلك، ولما أصبح من الغد وهو يوم الخميس وهو خامس عشره، ركب فخيم قريباً من الجسورة في الموضع الذي خيم فيه عام أول، وفي الشهر أيضاً كما تقدم، فبات ليلة الجمعة وأمر الأمراء بنصب الخيام هنالك على عادتهم عام أول.

فلما كان يوم الجمعة سادس عشره بعد الصلاة ما شعر الناس إلاّ والأمراء قد اجتمعوا تحت القلعة وأحضروا من القلعة سنجقين سلطانيين أصفرين، وضربوا الطبول حربياً، فاجتمعوا كلهم تحت السنجق السلطاني، ولم يتأخر منهم سوى النائب وذويه كابنيه وإخوته وحاشيته،

(١) ينحل أراقيها: أي ينزل بولها.

والأمير سيف الدين قلاوون أحد مقدمي الألوف وخبره أكبر أخبار الأمراء بعد النيابة، فبعث إليه الأمراء أن هلم إلى السمع والطاعة للسلطان، فامتنع من ذلك وتكررت الرسل بينهم وبينه فلم يقبل، فساروا إليه في الطبلخانات والبوقات ملبسين لأمة الحرب، فلما انتهوا إليه وجدوه قد ركب خيوله ملبساً واستعد للهرب، فلما واجههم هرب هو ومن معه وفروا فرار رجل واحد، وساق الجند وراءه فلم يكتنفوا له غباراً، وأقبل العامة وتركمان القبيبات، فانتهبوا ما بقي في معسكره من الشعير والأغنام والخيام، حتى جعلوا يقطعون الخيام والأطناب قطعاً قطعاً، فعدم له ولأصحابه من الأمتعة ما يساوي ألف ألف درهم، وانتدب لطلبه والمسير وراءه الحاجب الكبير الذي قدم من الديار المصرية قريباً شهاب الدين بن صبح، أحد مقدمي الألوف، فسار على طريق الأشرفية ثم عدل إلى ناحية القريتين.

ولما كان يوم الأحد قدم الأمير فخر الدين إياس نائب صغد فيها فتلقاه الأمراء والمقدمون، ثم جاء فنزل القصر وركب من آخر النهار في الجحافل، ولم يترك أحداً من الجند بدمشق إلا ركب معه وساق وراء يلبغا فانبرا نحو البرية، فجعلت الأعراب يعترضونه من كل جانب، وما زالوا يكفونه حتى سار نحو حماة، فخرج نائبها وقد ضعف أمره جداً، وكل هو ومن معه من كثرة السوق ومصاولة الأعداء من كل جانب، فألقى بيده وأخذ سيفه وسيوف من معه واعتقلوا بحماة، وبعث بالسيوف إلى الديار المصرية، وجاء الخبر إلى دمشق صبيحة يوم الأربعاء رابع عشر هذا الشهر، فضربت البشائر بالقلعة وعلى باب الميادين على العادة، وأحدقت العساكر بحماة من كل جانب ينتظرون ما رسم به السلطان من شأنه، وقام إياس بجيش دمشق على حمص، وكذلك جيش طرابلس، ثم دخلت العساكر راجعة إلى دمشق يوم الخميس التاسع والعشرين من الشهر، وقدم يلبغا وهو مقيد على كديش هو وأبوه وحوله الأمراء الموكلون به ومن معه من الجنود، فدخلوا به بعد عشاء الآخرة فاجتازوا به فم السبعة بعدما غلقت الأسواق، وطفئت السرج، وغلقت الطاقات، ثم مروا على الشيخ رسلان والباب الشرقي على باب الصغير، ثم من عند مسجد الديان على المصلّى، واستمروا ذاهبين نحو الديار المصرية، وتواترت البريدية من السلطان بما رسم به في أمره وأصحابه الذين خرجوا معه من الاحتياط على حواصلهم وأموالهم وأملاكهم وغير ذلك، وقدم البريد من الديار المصرية يوم الأربعاء ثالث جمادى الآخرة فأخبر بقتل يلبغا فيما بين قاقون وغبرة، وأخذت رؤوسهما إلى السلطان وكذلك قتل بغبرة الأمراء الثلاثة الذين خرجوا من مصر وحاكم الوزير ابن سرد بن البغدادي، والدوادار طغيتمر وبيدمر البدري، أحد المقدمين، كان قد نقم عليه السلطان ممالأة يلبغا، فأخرجهم من مصر مسلوبين جميع أموالهم وسيرهم إلى الشام، فلما كانوا بغزة لحقهم البريد بقتلهم حيث وجدهم وكذلك رسم بقتل يلبغا حيث التقاه من الطريق، فلما انفصل البريد من غزة التقى يلبغا في طريق وادي فحمة فخنقه ثم احتز رأسه وذهب به إلى السلطان، وقدم أميران من الديار المصرية بالحوطة على حواصل يلبغا وطواشي من بيت المملكة، فتسلم مصاغاً وجواهر نفيسة جداً، ورسم ببيع أملاكه وما كان وقفه على الجامع الذي كان قد شرع بعمارته بسوق الخيل،

وكان قد اشتهر أنه وقف عليه القيسارية التي كان أنشأها ظاهر باب الفرج، والحمامين المتجاورين ظاهر باب الجابية غربي خان السلطان العتيق، وخصصا في قرايا أخرى كان قد استشهد على نفسه بذلك قبل ذلك فالله أعلم. ثم طلب بقية أصحابه من حماة فحملوا إلى الديار المصرية وعدم خبرهم، فلا يدرى على أي صفة هلكوا.

وفي صبيحة يوم الثلاثاء الثامن عشر من جمادى الآخرة من هذه السنة دخل الأمير سيف الدين أرغون شاه دمشق المحروسة نائباً عليها، وكان قدومه من حلب، انفصل عنها وتوجه إليها الأمير فخر الدين إياس الحاجب، فدخلها أرغون شاه في أبهة وعليه خلعة وعمامة بطرفين، وهو قريب الشكل من تنكز رحمه الله فنزل دار السعادة وحكم بها، وفيه صرامة وشهامة.

وفي يوم الخميس الثالث والعشرين منه صلِّي على الأمير قراسنقر بالجامع الأموي وظاهر باب النصر، وحضر القضاة والأعيان والأمراء، ودفن بتربته بميدان الحصا بالقرب من جامع الكريمي وعملت ليلة النصف على العادة من إشعال القناديل ولم يشعل الناس لما هم فيه من الغلاء وتأخر المطر وقلة الغلة، كل رطل إلا أوقية بدرهم، وهو متغير، وسائر الأشياء غالية، والزيت كل رطل بأربعة ونصف، ومثله الشيرج والصابون والأرز والعنبريس كل رطل بثلاثة، وسائر الأطعمات على هذا النحو، وليس شيء قريب الحال سوى اللحم بدرهمين وربع، ونحو ذلك، وغالب أهل حوران يردون من الأماكن البعيدة ويجلبون القمح للمؤنة والبدار من دمشق، وبيع عندهم القمح المغربل كل مد بأربعة دراهم، وهم في جهد شديد، والله هو المأمول المسؤول وإذا سافر أحد يشق عليه تحصيل الماء لنفسه ولفرسه ودابته، لأن المياه التي في الدرب كلها نفذت، وأما القدس فأشد حالاً وأبلغ في ذلك.

ولما كان العشر الأخير من شعبان من هذه السنة منَّ الله سبحانه وتعالى وله الحمد والمنة على عباده بإرسال الغيث المتدارك الذي أحيى العباد والبلاد، وتراجع الناس إلى أوطانهم لوجود الماء في الأودية والغدران، وامتلأت بركة زرع بعد أن لم يكن فيها قطرة وجاءت بذلك البشائر إلى نائب السلطنة، وذكر أن الماء عم البلاد كلها، وأن الثلج على جبل بني هلال كثير، وأما الجبال التي حول دمشق فعليها ثلوج كثيرة جداً، واطمأنت القلوب وحصل فرج شديد ولله الحمد والمنة، وذلك في آخر يوم بقي من تشرين الثاني.

وفي يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من رمضان توفي **الشيخ عز الدين محمد الحنبلي** بالصالحية وهو خطيب الجامع المظفري، وكان من الصالحين المشهورين رحمه الله، وكان كثيراً ما يلقن الأموات بعد دفنهم، فلقّنه الله حجّته وثبَّته بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

مقتل المظفر وتولية الناصر حسن بن الناصر

وفي العشرالأخير من رمضان جاء البريد من نائب غزة إلى نائب دمشق بقتل **السلطان الملك المظفر حاجي بن الناصر محمد**، وقع بينه وبين الأمراء فتحيزوا عنه إلى قبة النصر فخرج إليهم في طائفة قليلة فقتل في الحال وسحب إلى مقبرة هناك، ويقال قطع قطعاً، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ولما كان يوم الجمعة آخر النهار ورد من الديار المصرية أمير للبيعة لأخيه السلطان الناصر حسن ابن السلطان الناصر محمد بن قلاوون، فدقت البشائر في القلعة المنصورة، وزين البلد بكماله ولله الحمد في الساعة الراهنة من أمكن من الناس، وما أصبح صباح يوم السبت إلا زين البلد بكماله ولله الحمد على انتظام الكلمة، واجتماع الألفة. وفي يوم الثلاثاء العشرين من شوال قدم الأمير فخر الدين إياس نائب حلب محتاطاً عليه، فاجتمع بالنائب في دار السعادة، ثم أدخل القلعة مضيقاً عليه، ويقال إنه قد فوّض أمره إلى نائب دمشق، فمهما فعل فيه فقد أمضى له فأقام بالقلعة المنصورة نحواً من جمعة، ثم أركب على البريد ليسار به إلى الديار المصرية، فلم يدر ما فعل به.

وفي ليلة الاثنين ثالث شهر ذي القعدة توفي الشيخ الحافظ الكبير مؤرخ الإسلام وشيخ المحدثين شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عثمان الذهبي بتربة أم الصالح وصلّي عليه يوم الاثنين صلاة الظهر في جامع دمشق ودفن بباب الصغير، وقد ختم به شيوخ الحديث وحفّاظه رحمه الله.

وفي يوم الأحد سادس عشر ذي القعدة حضرت تربة أم الصالح رحم الله واقفها عوضاً عن الشيخ شمس الدين الذهبي، وحضر جماعة من أعيان الفقهاء وبعض القضاة، وكان درساً مشهوداً ولله الحمد والمنة، أوردت فيه حديث أحمد عن الشافعي عن مالك عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّمَا نَسَمَةُ المُؤْمِنِ طَائِرٌ مُعَلَّقٌ فِي شَجَرِ الجَنَّةِ حَتَّى يُرْجِعَهُ إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ»[(١)] وفي يوم الأربعاء تاسع عشره أمر نائب السلطنة بجماعة انتهبوا شيئاً من الباعة فقطعوا أحد عشر منهم، وسمر عشرة تسميراً تعزيراً وتأديباً، انتهى والله أعلم.

ثم دخلت سنة تسع وأربعين وسبعمائة

استهلت وسلطان البلاد المصرية والشامية الملك الناصر ناصر الدين حسن ابن الملك المنصور ونائبه بالديار المصرية الأمير سيف الدين يلبغا، ووزيره منجك، وقضاته عز الدين بن جماعة الشافعي وتقي الدين الأخنائي المالكي، وعلاء الدين بن التركماني الحنفي، وموفق الدين المقدسي الحنبلي، وكاتب سره القاضي علاء الدين بن محيي الدين بن فضل الله العمري، ونائب الشام المحروس بدمشق الأمير سيف الدين أرغون شاه الناصري، وحاجب الحجاب الأمير طيردمر الإسماعيلي، والقضاة بدمشق قاضي القضاة تقي الدين السبكي الشافعي، وقاضي القضاة نجم الدين الحنفي، وقاضي القضاة جلال الدين المسلاتي المالكي، وقاضي القضاة علاء الدين بن منجا الحنبلي، وكاتب سره القاضي ناصر الدين الحلبي الشافعي،

(١) أخرجه النسائي في الجنائز باب ١١٧، وابن ماجه في الزهد باب ٣٢، ومالك في الجنائز حديث ٤٩، وأحمد في المسند ٣/ ٤٥٥، ٤٥٦، ٤٦٠.

وهو قاضي العساكر بحلب، ومدرس الأسدية بها أيضاً، مع إقامته بدمشق المحروسة، وتواترت الأخبار بوقوع البلاء في أطراف البلاد، فذكر عن بلاد القرم أمر هائل وموتان فيهم كثير، ثم ذكر أنه انتقل إلى بلاد الفرنج حتى قيل إن أهل قبرص مات أكثرهم أو يقارب ذلك، وكذلك وقع بغزة أمر عظيم، وقد جاءت مطالعة نائب غزة إلى نائب دمشق أنه مات من يوم عاشوراء إلى مثله من شهر صفر نحو من بضعة عشر ألفاً، وقرىء البخاري في يوم الجمعة بعد الصلاة سابع ربيع الأول في هذه السنة، وحضر القضاة وجماعة من الناس، وقرأ ربعة بعد ذلك المقرئون، ودعا الناس برفع الوباء عن البلاد، وذلك أن الناس لما بلغهم من حلول هذا المرض في السواحل وغيرها من أرجاء البلاد يتوهمون ويخافون وقوعه بمدينة دمشق، حماها الله وسلمها مع أنه قد مات جماعة من أهلها بهذا الداء. وفي صبيحة يوم تاسعه اجتمع الناس بمحراب الصحابة وقرؤوا متوزعين سورة نوح ثلاثة آلاف مرة وثلاثمائة وثلاث وستين مرة، عن رؤيا رجل أنه رأى رسول الله ﷺ أرشده إلى قراءة ذلك كذلك. وفي هذا الشهر أيضاً كثر الموت في الناس بأمراض الطواعين وزاد الأموات كل يوم على المائة، فإنا لله وإنا إليه راجعون، وإذا وقع في أهل بيت لا يكاد يخرج منه حتى يموت أكثرهم، ولكنه بالنظر إلى كثرة أهل البلد قليل، وقد توفي في هذه الأيام من هذا الشهر خلق كثير وجم غفير، ولا سيما من النساء، فإن الموت فيهن أكثر من الرجال بكثير كثير، وشرع الخطيب في القنوت بسائر الصلوات والدعاء برفع الوباء من المغرب ليلة الجمعة سادس شهر ربيع الآخر من هذه السنة، وحصل للناس بذلك خضوع وخشوع وتضرع وإنابة، وكثرت الأموات في هذا الشهر جداً، وزادوا على المائتين في كل يوم، فإنا لله وإنا إليه راجعون، وتضاعف عدد الموتى منهم، وتعطلت مصالح الناس، وتأخرت الموتى عن إخراجهم، وزاد ضمان الموتى جداً فتضرر الناس ولا سيما الصعاليك، فإنه يؤخذ على الميت شيء كثير جداً، فرسم نائب السلطنة بإبطال ضمان النعوش والمغسلين والحمالين، ونودي بإبطال ذلك في يوم الاثنين سادس عشر ربيع الآخر، ووقع نعوش كثيرة في أرجاء البلد واتسع الناس بذلك، ولكن كثرت الموتى فالله المستعان.

وفي يوم الاثنين الثالث والعشرين منه نودي في البلد أن يَصوم الناس ثلاثة أيام وأن يخرجوا في اليوم الرابع وهو يوم الجمعة إلى عند مسجد القدم يتضرعون إلى الله ويسألونه في رفع الوباء عنهم، فصام أكثر الناس ونام الناس في الجامع وأحيوا الليل كما يفعلون في شهر رمضان، فلما أصبح الناس يوم الجمعة السابع والعشرين منه خرج الناس يوم الجمعة من كل فج عميق، واليهود والنصارى والسامرة، والشيوخ والعجائز والصبيان، والفقراء والأمراء والكبراء والقضاة من بعد صلاة الصبح فما زالوا هنالك يدعون الله تعالى حتى تعالى النهار جداً، وكان يوماً مشهوداً.

وفي يوم الخميس عاشر جمادى الأولى صلّى الخطيب بعد صلاة الظهر على ستة عشر ميتاً جملة واحدة، فتهول الناس من ذلك وانذعروا، وكان الوباء يومئذٍ كثيراً ربما يقارب الثلاثمائة بالبلد وحواضره فإنا لله وإنا إليه راجعون، وصلّى بعد صلاة على خمسة عشر ميتاً

بجامع دمشق، وصلّي على أحد عشر نفساً رحمهم الله.

وفي يوم الاثنين الحادي والعشرين منه رسم نائب السلطنة بقتل الكلاب من البلد، وقد كانت كثيرة بأرجاء البلد وربما ضرت الناس وقطعت عليهم الطرقات في أثناء الليل أما تنجيسها الأماكن فكثير قد عم الابتلاء به وشق الاحتراز منه، وقد جمعت جزءاً في الأحاديث الواردة في قتلهم، واختلاف الأئمة في نسخ ذلك، وقد كان عمر رضي الله عنه يأمر في خطبته بذبح الحمام وقتل الكلاب ونص مالك في رواية ابن وهب على جواز قتل كلاب بلدة بعينها، إذا أذن الإمام في ذلك للمصلحة.

وفي يوم الاثنين الثامن والعشرين منه توفي **زين الدين عبد الرحمن ابن شيخنا الحافظ المزي**، بدار الحديث النورية وهو شيخها، ودفن بمقابر الصوفية على والده. وفي منتصف شهر جمادى الآخرة قوي الموت وتزايد وبالله المستعان، ومات خلائق من الخاصة والعامة ممن نعرفهم وغيرهم رحمهم الله وأدخلهم جنته، وبالله المستعان. وكان يصلّى في أكثر الأيام في الجامع على أزيد من مائة ميت فإنا لله وإنا إليه راجعون، وبعض الموتى لا يؤتى بهم إلى الجامع، وأما حول البلد وأرجائها فلا يعلم عدد من يموت بها إلا الله عز وجل رحمهم الله آمين.

وفي يوم الاثنين السابع والعشرين منه توفي الصدر **شمس الدين بن الصباب** التاجر السفار باني المدرسة الصبابية، التي هي دار قرآن بالقرب من الظاهرية، وهي قبلي العادلية الكبيرة، وكانت هذه البقعة برهة من الزمان خربة شنيعة، فعمرها هذا الرجل وجعلها دار قرآن ودار حديث للحنابلة ووقف هو وغيره عليها أوقافاً جيدة رحمه الله تعالى.

وفي يوم الجمعة ثامن شهر رجب صلّي بعد الجمعة بالجامع الأموي على غائب: على القاضي **علاء الدين ابن قاضي شهبة**، ثم صلّي على إحدى وأربعين نفساً جملة واحدة، فلم يتسع داخل الجامع لصفهم بل خرجوا ببعض الموتى إلى ظاهر باب السر، وخرج الخطيب والنقيب فصلّى عليهم كلهم هناك، وكان وقتاً مشهوداً، وعبرة عظيمة، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفي هذا اليوم توفي التاجر المسمى **بأفريدون** الذي بنى المدرسة التي بظاهر باب الجابية تجاه تربة بهادر آص، حائطها من حجارة ملونة، وجعلها داراً للقرآن العظيم ووقف عليها أوقافاً جيدة، وكان مشهوراً مشكوراً رحمه الله وأكرم مثواه.

وفي يوم السبت ثالث رجب صلّي على الشيخ **علي المغربي** أحد أصحاب الشيخ تقي الدين بن تيمية بالجامع الأفرمي بسفح قاسيون، ودفن بالسفح رحمه الله، وكانت له عبادة وزهادة وتقشف وورع ولم يتول في هذه الدنيا وظيفة بالكلية، ولم يكن له مال بل كان يأتي بشيء من الفتوح يستنفقه قليلاً قليلاً، وكان يعاني التصوف، وترك زوجة وثلاثة أولاد رحمه الله.

وفي صبيحة يوم الأربعاء سابع رجب صلّي على القاضي **زين الدين بن النجيح** نائب القاضي الحنبلي، بالجامع المظفري، ودفن بسفح قاسيون، وكان مشكوراً في القضاء، لديه

فضائل كثيرة، وديانة وعبادة، وكان من أصحاب الشيخ تقي الدين بن تيمية، وكان قد وقع بينه وبين القاضي الشافعي مشاجرات بسبب أمور، ثم اصطلحا فيما بعد ذلك.

وفي يوم الاثنين ثاني عشره بعد آذان الظهر حصل بدمشق وما حولها ريح شديدة أثارت غباراً شديداً اصفرّ الجو منه ثم اسودّ حتى أظلمت الدنيا، وبقي الناس في ذلك نحواً من ربع ساعة يستجيرون الله ويستغفرون ويبكون، مع ما هم فيه من شدة الموت الذريع، ورجا الناس أن هذا الحال يكون ختام ما هم فيه من الطاعون، فلم يزدد الأمر إلا شدة، وبالله المستعان. وبلغ المصلى عليهم في الجامع الأموي إلى نحو المائة وخمسين، وأكثر من ذلك، خارجاً عمن لا يؤتى بهم إليه من أرجاء البلد وممن يموت من أهل الذمة، وأما حواضر البلد وما حولها فأمر كثير، يقال إنه بلغ ألفاً في كثير من الأيام، فإنا لله وإنا إليه راجعون. وصلّي بعد الظهر من هذا اليوم بالجامع المظفري على الشيخ إبراهيم بن المحب، الذي كان يحدث في الجامع الأموي وجامع تنكز، وكان مجلسه كثير الجمع لصلاحه وحسن ما كان يؤديه من المواعيد النافعة، ودفن بسفح قاسيون، وكانت جنازته حافلة رحمه الله. وعملت المواعيد بالجامع الأموي ليلة سبع وعشرين من رجب، يقولون ليلة المعراج، ولم يجتمع الناس فيه على العادة لكثرة من مات منهم، ولشغل كثير من الناس بمرضاهم وموتاهم. واتفق في هذه الليلة أنه تأخر جماعة من الناس في الخيم ظاهر البلد، فجاؤوا ليدخلوا من باب النصر على عادتهم في ذلك، فكأنه اجتمع خلق منهم بين البابين فهلك كثير منهم كنحو ما يهلك الناس في هذا الحين على الجنائز، فانزعج نائب السلطنة فخرج فوجدهم فأمر بجمعهم، فلما أصبح الناس أمر بتسميرهم ثم عفا عنهم وضرب متولي البلد ضرباً شديداً، وسمر نائبه في الليل، وسمر البواب بباب النصر، وأمر أن لا يمشي أحد بعد عشاء الآخرة، ثم تسمح لهم في ذلك.

واستهل شهر شعبان والفناء في الناس كثير جداً، وربما أنتنت البلد، فإنا لله وإنا إليه راجعون. وتوفي الشيخ **شمس الدين بن الصلاح** مدرس القيمرية الكبيرة بالمطرزيين، يوم الخميس ثالث عشر شعبان وفي يوم الجمعة رابع عشر شعبان صلّي بعد الصلاة على جماعة كثيرة، منهم القاضي **عماد الدين بن الشيرازي**، محتسب البلد، وكان من أكابر رؤساء دمشق، وولي نظر الجامع مدة، وفي بعض الأوقات نظر الأوقاف، وجمع له في وقت بينهما ودفن بسفح قاسيون.

وفي العشر الأخير من شهر شوال توفي **الأميرَ قرابغا دويدار النائب**، بداره غربي حكر السماق، وقد أنشأ له إلى جانبها تربة ومسجداً، وهو الذي أنشأ السويقة المجددة عند داره، وعمل لها بابين شرقياً وغربياً، وضمنت بقيمة كثيرة بسبب جاهه، ثم بارت وهجرت لقلة الحاجة إليها، وحضر الأمراء والقضاة والأكابر جنازته، ودفن بتربته هناك، وترك أموالاً جزيلة وحواصل كثيرة جداً، أخذه مخدومه نائب السلطنة.

وفي يوم الثلاثاء سابع شهر ذي القعدة توفي خطيب الجامع، **الخطيب تاج الدين عبد الرحيم ابن القاضي جلال الدين محمد بن عبد الرحيم القزويني**، بدار الخطابة، مرض

يومين وأصابه ما أصاب الناس من الطاعون، وكذلك عامة أهل بيته من جواريه وأولاده، وتبعه أخوه بعد يومين **صدر الدين عبد الكريم**، وصلّي على الخطيب تاج الدين بعد الظهر يومئذٍ عند باب الخطابة ودفن بتربتهم بالصوفية عند أبيه وأخويه بدر الدين محمد، وجمال الدين عبد الله رحمهم الله.

وفي يوم الخميس تاسعه اجتمع القضاة وكثير من الفقهاء المفتيين عند نائب السلطنة بسبب الخطابة، فطلب إلى المجلس الشيخ جمال الدين بن محمود بن جملة فولاّه إياها نائب السلطنة، وانتزعت من يده وظائف كان يباشرها، ففرقت على الناس، فولي القاضي بهاء الدين أبو البقاء تدريس الظاهرية البرانية، وتوزع الناس بقية جهاته، ولم يبق بيده سوى الخطابة، وصلّى بالناس يومئذٍ الظهر، ثم خلع عليه في بكرة نهار الجمعة، وصلّى بالناس يومئذٍ وخطبهم على قاعدة الخطباء.

وفي يوم عرفة، وكان يوم السبت، توفي القاضي **شهاب الدين بن فضل الله** كاتب الأسرار الشريفة بالديار المصرية، والبلاد الشامية، ثم عزل عن ذلك ومات وليس يباشر شيئاً من ذلك من رياسة وسعادة وأموال جزيلة، وأملاك ومرتبات كثيرة، وعمر داراً هائلة بسفح قاسيون بالقرب من الركنية شرقيها ليس بالسفح مثلها، وقد انتهت إليه رياسة الإنشاء، وكان يشبه بالقاضي الفاضل في زمانه، وله مصنفات عديدة بعبارات سعيدة، وكان حسن المذاكرة سريع الاستحضار جيد الحفظ فصيح اللسان جميل الأخلاق، يحب العلماء والفقراء، ولم يجاوز الخمسين، توفي بدارهم داخل باب الفراديس، وصلّي عليه بالجامع الأموي، ودفن بالسفح مع أبيه وأخيه بالقرب من اليغمورية سامحه الله وغفر له.

وفي هذا اليوم توفي **الشيخ عبد الله بن رشيق المغربي**، كاتب مصنفات شيخنا العلاّمة ابن تيمية، كان أبصر بخط الشيخ منه، إذا عزب شيء منه على الشيخ استخرجه أبو عبد الله هذا، وكان سريع الكتابة لا بأس به، ديناً عابداً كثير التلاوة حسن الصلاة، له عيال وعليه ديون رحمه الله وغفر له آمين.

ثم دخلت سنة خمسين وسبعمائة

استهلت هذه السنة وسلطان البلاد المصرية والشامية والحرمين وغير ذلك من البلاد الملك الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاوون، ونائب الديار المصرية ومدير ممالكه والأتابك سيف الدين يلبغا، وقضاة الديار المصرية هم المذكورون في التي قبلها، ونائب الشام الأمير سيف الدين أرغون شاه الناصري، وقضاة دمشق هم المذكورون في التي قبلها، وكذلك أرباب الوظائف سوى الخطيب وسوى المحتسب.

وفي هذه السنة ولله الحمد تقاصر أمر الطاعون جداً ونزل ديوان المواريث إلى العشرين وما حولها بعد أن بلغ الخمسمائة في أثناء سنة تسع وأربعين، ثم تقدم ولكن لم يرتفع بالكلية، فإن في يوم الأربعاء رابع شهر المحرم توفي الفقيه شهاب الدين أحمد بن الثقة هو وابنه وأخوه

في ساعة واحدة بهذا المرض، وصلّي عليهم جميعاً، ودفنوا في قبر واحد رحمهم الله تعالى.

وفي يوم الأربعاء الخامس والعشرين من المحرم توفي صاحبنا الشيخ الإمام العالم العابد الزاهد الناسك الخاشع **ناصر الدين محمد بن محمد بن محمد بن عبد القادر بن الصائغ الشافعي**، مدرس العمادية كان رحمه الله لديه فضائل كثيرة على طريقة السلف الصالح، وفيه عبادة كثيرة وتلاوة وقيام ليل وسكون حسن، وخلق حسن، جاوز الأربعين بنحو من ثلاث سنين، رحمه الله وأكرم مثواه.

وفي يوم الأربعاء ثالث صفر باشر تقي الدين بن رافع المحدث مشيخة دار الحديث النورية، وحضر عنده جماعة من الفضلاء والقضاة والأعيان، انتهى والله تعالى أعلم.

مسك نائب السلطنة أرغون شاه

وفي ليلة الخميس الثالث والعشرين من ربيع الأول مسك نائب السلطنة بدمشق الأمير سيف الدين أرغون شاه، وكان قد انتقل إلى القصر الأبلق بأهله، فما شعر بوسط الليل إلا ونائب طرابلس الأمير سيف الدين ألجي بغا المظفري الناصري، ركب إليه في طائفة من الأمراء الألوف وغيرهم، فأحاطوا به ودخل عليه من دخل وهو مع جواريه نائم، فخرج إليهم فقبضوا عليه وقيدوه ورسموا عليه، وأصبح الناس أكثرهم لا يشعر بشيء مما وقع، فتحدث الناس بذلك واجتمعت الأتراك إلى الأمير سيف الدين ألجي بغا المذكور، ونزل بظاهر البلد، واحتيط على حواصل أرغون شاه، فبات عزيزاً وأصبح ذليلاً، وأمسى علينا نائب السلطنة فأصبح وقد أحاط به الفقر والمسكنة فسبحان من بيده الأمر مالك الملك: ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٢٦] وهذا كما قال الله تعالى: ﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف: ٩٧، ٩٩] ثم لما كان ليلة الجمعة الرابع والعشرين من ربيع الأول أصبح مذبوحاً فأثبت محضر بأنه ذبح نفسه فالله تعالى أعلم.

كائنة عجيبة غريبة جداً

ثم لما كان يوم الثلاثاء الثامن والعشرين من ربيع الأول سنة خمسين وسبعمائة وقع اختلاف بين جيش دمشق وبين الأمير سيف الدين ألجي بغا، نائب طرابلس، الذي جاء فأمسك نائب دمشق الأمير سيف الدين أرغون شاه الناصري، ليلة الخميس وقتله ليلة الجمعة كما تقدم، وأقام بالميدان الأخضر يستخلص أمواله وحواصله، ويجمعها عنده، فأنكر عليه الأمراء الكبار، وأمروه أن يحمل الأموال إلى قلعة السلطان فلم يقبل منهم، فاتهموه في أمره، وشكوا في الكتاب على يده من الأمر بمسكه وقتله، وركبوا ملبسين تحت القلعة وأبواب الميادين، وركب هو في أصحابه وهم في دون المائة، وقائل يقول هم ما بين السبعين إلى الثمانين والتسعين، جعلوا يحملون على الجيش حمل المستقتلين، إنما يدافعهم مدافعة المتبرئين، وليس معهم

مرسوم بقتلهم ولا قتالهم، فلهذا ولّى أكثرهم منهزمين، فخرج جماعة من الجيش حتى بعض الأمراء المقدمين، وهو الأمير الكبير سيف الدين ألجي بغا العادلي، فقطعت يده اليمنى، وقد قارب التسعين، وقتل آخرون من أجناد الحلقة والمستخدمين، ثم انفصل الحال على أن أخذ ألجي بغا المظفري من خيول أرغون شاه المرتبطة في أسطبله ما أراد، ثم انصرف من ناحية المزة صاغراً على عقبيه، ومعه الأموال التي جمعها من حواصل أرغون شاه، واستمر ذاهباً، ولم يتبعه أحد من الجيش، وصحبته الأمير فخر الدين إياس، الذي كان حاجباً، وناب في حلب في العام الماضي، فذهبا بمن معهما إلى طرابلس، وكتب أمراء الشام إلى السلطان يعلمونه بما وقع، فجاء البريد بأنه ليس عند السلطان علم بما وقع بالكلية، وأن الكتاب الذي جاء على يديه مفتعل، وجاء الأمر لأربعة آلاف من الجيش الشامي أن يسيروا وراءه ليمسكوه ثم أضيف نائب صغد مقدماً على الجميع، فخرجوا في العشر الأول من ربيع الآخر. وفي يوم الأربعاء سادس ربيع الآخر خرجت العساكر في طلب سيف الدين ألجي بغا العادلي في المعركة وهو أحد أمراء الألوف المقدمين، ولما كانت ليلة الخميس سابعه نودي بالبلد على من يقر بها من الأجناد أن لا يتأخر أحد عن الخروج بالغد، فأصبحوا في سرعة عظيمة واستنيب في البلد نيابة عن النائب الراتب الأمير بدر الدين الخطير، فحكم بدار السعادة على عادة النواب. وفي ليلة السبت بين العشاءين سادس عشره دخل الجيش الذين خرجوا في طلب ألجي بغا المظفري، وهو معهم أسير ذليل حقير، وكذلك الفخر إياس الحاجب مأسور معهم، فأودعا في القلعة مهانين من جسر باب النصر الذي تجاه دار السعادة، وذلك بحضور الأمير بدر الدين الخطير نائب الغيبة، ففرح الناس بذلك فرحاً شديداً، ولله الحمد والمنة فلما كان يوم الاثنين الثامن عشر منه خرجا من القلعة إلى سوق الخيل فوسطا بحضرة الجيش، وعلقت جثتيهما على الخشب ليراهما الناس، فمكثا أياماً ثم أنزلا فدفنا بمقابر المسلمين.

وفي أوائل شهر جمادى الآخرة جاء الخبر بموت نائب حلب **سيف الدين قطلبشاه** ففرح كثير من الناس بموته وذلك لسوء أعماله في مدينة حماة في زمن الطاعون، وذكر أنه كان يحتاط على التركة وإن كان فيها ولد ذكر أو غيره، ويأخذ من أموال الناس جهرة، حتى حصل له منها شيء كثير، ثم نقل إلى حلب بعد نائبها الأمير سيف الدين أرقطيه الذي كان عين لنيابة دمشق بعد موت أرغون شاه، وخرج الناس لتلقيه فما هو إلا أن برز منزلة واحدة من حلب فمات بتلك المنزلة، فلما صار قطلبشاه إلى حلب لم يقم بها إلا يسيراً حتى مات، ولم ينتفع بتلك الأموال التي جمعها لا في دنياه ولا في أخراه.

ولما كان يوم الخميس الحادي عشر من جمادى الآخرة دخل الأمير سيف الدين أيتمش الناصري من الديار المصرية إلى دمشق نائباً عليها، وبين يديه الجيش على العادة، فقبّل العتبة ولبس الحياصة[1] والسيف، وأعطي تقليده ومنشوره هنالك، ثم وقف في الموكب على عادة النواب، ورجع إلى دار السعادة وحكم، وفرح الناس به، وهو حسن الشكل تام الخلقة، وكان

(١) الحياصة: حزام.

الشام بلا نائب مستقل قريباً من شهرين ونصف. وفي يوم دخوله حبس أربعة أمراء من الطبلخانات، وهم القاسمي وأولاد آل أبو بكر اعتقلهم في القلعة لممالأتهم ألجي بغا المظفري، على أرغون شاه نائب الشام.

وفي يوم الاثنين خامس عشر جمادى الآخرة حكم القاضي نجم الدين ابن القاضي عماد الدين الطرسوسي الحنفي، وذلك بتوقيع سلطاني وخلعة من الديار المصرية. وفي يوم الثلاثاء سادس عشر جمادى الآخرة حصل الصلح بين قاضي القضاة تقي الدين السبكي وبين الشيخ شمس الدين بن قيم الجوزية، على يدي الأمير سيف الدين بن فضل ملك العرب، في بستان قاضي القضاة، وكان قد نقم عليه إكثاره من الفتيا بمسألة الطلاق.

وفي يوم الجمعة السادس والعشرين منه نقلت جثة الأمير سيف الدين أرغون شاه من مقابر الصوفية إلى تربته التي أنشأها تحت الطارمة، وشرع في تكميل التربة والمسجد الذي قبلها، وذلك أنه عاجلته المنية على يد ألجي بغا المظفري قبل إتمامهما، وحين قتلوه ذبحاً ودفنوه ليلاً في مقابر الصوفية، قريباً من قبر الشيخ تقي الدين بن الصلاح، ثم حول إلى تربته في الليلة المذكورة، وفي يوم السبت تاسع عشر رجب أذن المؤذنون للفجر قبل الوقت بقريب من ساعة، فصلّى الناس في الجامع الأموي على عادتهم في ترتيب الأئمة، ثم رأوا الوقت باقياً فأعاد الخطيب الفجر بعد صلاة الأئمة كلهم، وأقيمت الصلاة ثانياً، وهذا شيء لم يتفق مثله.

وفي يوم الخميس ثامن شهر شعبان توفي قاضي القضاة **علاء الدين بن منجا** الحنبلي بالمسمارية، وصلّي عليه الظهر بالجامع الأموي، ثم بظاهر باب النصر، ودفن بسفح قاسيون رحمه الله.

وفي يوم الاثنين رمضان بكرة النهار استدعي الشيخ جمال الدين المرداوي من الصالحية إلى دار السعادة، وكان تقليد القضاء لمذهبه قد وصل إليه قبل ذلك بأيام، فأحضرت الخلعة بين يدي النائب والقضاة الباقين، وأريد على لبسها وقبول الولاية فامتنع، فألحوا عليه فصمم وبالغ في الامتناع وخرج وهو مغضب، فراح إلى الصالحية فبالغ الناس في تعظيمه، وبقي القضاة يوم ذلك في دار السعادة، ثم بعثوا إليه بعد الظهر فحضر من الصالحية فلم يزالوا به حتى قبل ولبس الخلعة وخرج إلى الجامع، فقرىء تقليده بعد العصر، واجتمع معه القضاة وهنأه الناس، وفرحوا به لديانته وصيانته وفضيلته وأمانته. وبعد هذا اليوم بأيام حكم الفقيه شمس الدين محمد بن مفلح الحنبلي نيابة عن قاضي القضاة جمال الدين المرداوي المقدسي، وابن مفلح زوج ابنته. وفي العشر الأخير من ذي القعدة حضر الفقيه الإمام المحدث المفيد أمين الدين الأيجي المالكي مشيخة دار الحديث بالمدرسة الناصرية الجوانية، نزل له عنها الصدر أمين الدين بن القلانسي، وكيل بيت المال، وحضر عنده الأكابر والأعيان. وفي أواخر هذه السنة تكامل بناء التربة التي تحت الطارمة المنسوبة إلى الأمير سيف الدين أرغون شاه، الذي كان نائب السلطنة بدمشق، وكذلك القبلي منها، وصلى فيها الناس، وكان قبل ذلك مسجداً صغيراً فعمره وكبره، وجاء كأنه جامع تقبل الله منه انتهى.

ثم دخلت سنة إحدى وخمسين وسبعمائة

استهلت وسلطان الشام ومصر الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاوون، ونائبه بمصر الأمير سيف الدين يلبغا وأخوه سيف الدين منجك الوزير، والمشارون جماعة من المقدمين بديار مصر، وقضاة مصر وكاتب السر هم الذين كانوا في السنة الماضية، ونائب الشام الأمير سيف الدين ارتيمش الناصري، والقضاة هم القضاة سوى الحنبلي فإنه الشيخ جمال الدين يوسف المرداوي، وكاتب السر، وشيخ الشيوخ تاج الدين، وكاتب الدست هم المتقدمون، وأضيف إليهم شرف الدين عبد الوهاب ابن القاضي علاء الدين بن شمرنوخ، والمحتسب القاضي عماد الدين بن العزفور، وشاد الأوقاف الشريف، وناظر الجامع فخر الدين بن العفيف، وخطيب البلد جمال الدين محمود بن جملة رحمه الله.

وفي يوم السبت عاشر المحرم نودي بالبلد من جهة نائب السلطان عن كتاب جاءه من الديار المصرية أن لا تلبس النساء الأكمام الطوال العرض، ولا البرد الحرير، ولا شيئاً من اللباسات والثياب الثمينة، ولا الأقمشة القصار، وبلغنا أنهم بالديار المصرية شددوا في ذلك جداً، حتى قيل إنهم غرقوا بعض النساء بسبب ذلك، فالله أعلم.

وجددت وأكملت في أول هذه السنة دار قرآن قبلي تربة امرأة تنكز، بمحلة باب الخواصين حولها، وكانت قاعة صورة مدرسة الطواشي صفي الدين عنبر، مولى ابن حمزة، وهو أحد الكبار الأجواد، تقبّل الله منه. وفي يوم الأحد خامس شهر جمادى الأولى فتحت المدرسة الطيبانية التي كانت داراً للأمير سيف الدين طيبان بالقرب من الشامية الجوانية، بينها وبين أم الصالح، اشتريت من ثلثه الذي وصى به، وفتحت مدرسة وحول لها شباك إلى الطريق في ضفتها القبلية منها، وحضر الدرس بها في هذا اليوم الشيخ عماد الدين بن شرف الدين ابن عم الشيخ كمال الدين بن الزملكاني بوصية الواقف له بذلك، وحضر عنده قاضي القضاة السبكي والمالكي وجماعة من الأعيان، وأخذ في قوله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ [فاطر: ٣٥] الآية. واتفق في ليلة الأحد السادس والعشرين من جمادى الأولى أنه لم يحضر أحد من المؤذنين على السدة في جامع دمشق وقت إقامة الصلاة للمغرب سوى مؤذن واحد، فانتظر من يقيم معه الصلاة فلم يجيء أحد غيره مقدار درجة أو أزيد منها، فأقام هو الصلاة وحده، فلما أحرم الإمام بالصلاة تلاحق المؤذنون في أثناء الصلاة حتى بلغوا دون العشرة، وهذا أمر غريب من عدة ثلاثين مؤذن أو أكثر، لم يحضر سوى مؤذن واحد، وقد أخبر خلق من المشايخ أنهم لم يروا نظير هذه الكائنة.

وفي يوم الاثنين سابع عشر جمادى الآخرة اجتمع القضاة بمشهد عثمان، وكان الفاضل الحنبلي، قد حكم في دار المعتمد الملاصقة لمدرسة الشيخ أبي عمر يلبغا، وكانت وقفاً، لتضاف إلى دار القرآن، ووقف عليها أوقاف للفقراء، فمنعه الشافعي من ذلك، من أجل أنه يؤول أمرها أن تكون دار حديث ثم فتحوا باباً آخر وقالوا: هذه الدار لم يستهدم جميعها، وما

صادف الحكم محلاً، لأن مذهب الإمام أحمد أن الوقف يباع إذا استهدم بالكلية، ولم يبق ما ينتفع به، فحكم القاضي الحنفي بإثباتها وقفاً كما كانت، ونفذه الشافعي والمالكي، وانفصل الحال على ذلك، وجرت أمور طويلة، وأشياء عجيبة.

وفي يوم الأربعاء السابع والعشرين من جمادى الآخرة أصبح بواب المدرسة المستجدة التي يقال لها الطيبانية إلى جانب أم الصالح مقتولاً مذبوحاً، وقد أخذت من عنده أموال من المدرسة المذكورة ولم يطلع على فاعل ذلك، وكان البواب رجلاً صالحاً مشكوراً رحمه الله.

ترجمة الشيخ شمس الدين بن قيم الجوزية

وفي ليلة الخميس ثالث عشر رجب وقت أذان العشاء توفي صاحبنا الشيخ الإمام العلّامة **شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي، إمام الجوزية**، وابن قيّمها، وصلّي عليه بعد صلاة الظهر من الغد بالجامع الأموي، ودفن عند والدته بمقابر الباب الصغير رحمه الله. ولد في سنة إحدى وتسعين وستمائة وسمع الحديث واشتغل بالعلم، وبرع في علوم متعددة، لا سيما علم التفسير والحديث والأصلين، ولما عاد الشيخ تقي الدين بن تيمية من الديار المصرية في سنة ثنتي عشرة وسبعمائة لازمه إلى أن مات الشيخ فأخذ عنه علماً جمّاً، مع ما سلف له من الاشتغال، فصار فريداً في بابه في فنون كثيرة، مع كثرة الطلب ليلاً ونهاراً، وكثرة الابتهال. وكان حسن القراءة والخلق، كثير التودد لا يحسد أحداً ولا يؤذيه، ولا يستعيبه ولا يحقد على أحد، وكنت من أصحب الناس له وأحب الناس إليه، ولا أعرف في هذا العالم في زماننا أكثر عبادة منه، وكانت له طريقة في الصلاة يطيلها جداً ويمد ركوعها وسجودها، ويلومه كثير من أصحابه في بعض الأحيان، فلا يرجع ولا ينزع عن ذلك رحمه الله، وله من التصانيف الكبار والصغار شيء كثير، وكتب بخطه الحسن شيئاً كثيراً، واقتنى من الكتب ما لا يتهيأ لغيره تحصيل عشره من كتب السلف والخلف، وبالجملة كان قليل النضير في مجموعه وأموره وأحواله، والغالب عليه الخير والأخلاق الصالحة، سامحه الله ورحمه، وقد كان متصدياً للإفتاء بمسألة الطلاق التي اختارها الشيخ تقي الدين بن تيمية، وجرت بسببها فصول يطول بسطها مع قاضي القضاة تقي الدين السبكي وغيره، وقد كانت جنازته حافلة رحمه الله، شهدها القضاة والأعيان والصالحون من الخاصة والعامة، وتزاحم الناس على حمل نعشه، وكمل له من العمر ستون سنة رحمه الله.

وفي يوم الاثنين ثاني عشر شهر شعبان ذكر الدرس بالصدرية شرف الدين عبد الله ابن الشيخ الإمام العلّامة شمس الدين بن قيم الجوزية عوضاً عن أبيه رحمه الله فأفاد وأجاد، وسرد طرفاً صالحاً في فضل العلم وأهله، انتهى والله تعالى أعلم.

ومن العجائب والغرائب التي لم يتفق مثلها ولم يقع من نحو مائتي سنة وأكثر، أنه بطل الوقيد بجامع دمشق في ليلة النصف من شعبان، فلم يزد في وقيده قنديل واحد على عادة لياليه في سائر السنة ولله الحمد والمنة. وفرح أهل العلم بذلك، وأهل الديانة، وشكروا الله تعالى على تبطيل هذه البدعة الشنعاء، التي كان يتولد بسببها شرور كثيرة بالبلد، والاستيجار بالجامع

الأموي، وكان ذلك بمرسوم السلطان الملك الناصر حسن ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون خلد الله ملكه، وشيد أركانه وكان الساعي لذلك بالديار المصرية الأمير حسام الدين أبو بكر بن النجيبي بيّض الله وجهه، وقد كان مقيماً في هذا الحين بالديار المصرية، وقد كنت رأيت عنده فتيا عليها خط الشيخ تقي الدين بن تيمية، والشيخ كمال الدين بن الزملكاني، وغيرهما في إبطال هذه البدعة، فأنفذ الله ذلك ولله الحمد والمنة. وقد كانت هذه البدعة قد استقرت بين أظهر الناس من نحو سنة خمسين وأربعمائة وإلى زماننا هذا، وكم سعى فيها من فقيه وقاضٍ ومفت وعالم وعابد وأمير وزاهد ونائب سلطنة وغيرهم ولم ييسر الله ذلك إلا في عامنا هذا، والمسؤول من الله إطالة عمر هذا السلطان، ليعلم الجهلة الذين استقر في أذهانهم إذا أبطل هذا الوقيد في عام يموت سلطان الوقت، وكان هذا لا حقيقة له ولا دليل عليه إلا مجرد الوهم والخيال.

وفي مستهل شهر رمضان اتفق أمر غريب لم يتفق مثله من مدة متطاولة، فيما يتعلق بالفقهاء والمدارس، وهو أنه كان قد توفي **ابن الناصح الحنبلي** بالصالحية، وكان بيده نصف تدريس الضاحية التي للحنابلة بالصالحية، والنصف الآخر للشيخ شرف الدين ابن القاضي شرف الدين الحنبلي شيخ الحنابلة بدمشق، فاستنجز مرسوماً بالنصف الآخر، وكانت بيده ولاية متقدمة من القاضي علاء الدين بن المنجا الحنبلي، فعارضه في ذلك قاضي القضاة جمال الدين المرداوي الحنبلي، وولى فيها نائبه شمس الدين بن مفلح، ودرس بها قاضي القضاة في صدر هذا اليوم، فدخل القضاة الثلاثة الباقون ومعهم الشيخ شرف الدين المذكور إلى نائب السلطنة، وأنهوا إليه صورة الحال، فرسم له بالتدريس، فركب القضاة المذكورون وبعض الحجاب في خدمته إلى المدرسة المذكورة، واجتمع الفضلاء والأعيان، ودرس الشيخ شرف الدين المذكور، وبث فضائل كثيرة، وفرح الناس.

وفي شوال كان في جملة من توجه إلى الحج في هذا العام نائب الديار المصرية ومدبر ممالكها الأمير سيف الدين يلبغا الناصري، ومعه جماعة من الأمراء، فلما استقل الناس ذاهبين نهض جماعة من الأمراء على أخيه الأمير سيف الدين منجك، وهو وزير المملكة، وأستاذ دار الاستادارية، وهو باب الحوائج في دولتهم، وإليه يرحل ذوو الحاجات بالذهب والهدايا، فأمسكوه وجاءت البريدية إلى الشام في أواخر هذا الشهر بذلك، وبعد أيام يسيرة وصل الأمير سيف الدين شيخون، وهو من أكابر الدولة المصرية تحت الترسيم، فأدخل إلى قلعة دمشق، ثم أخذ منها بعد ليلةٍ فذهب به إلى الإسكندرية فالله أعلم. وجاء البريد بالاحتياط على ديوانه وديوان منجك بالشام وأيس من سلامتهما، وكذلك وردت الأخبار بمسك يلبغا في أثناء الطريق، وأرسل سيفه إلى السلطان، وقدم أمير من الديار المصرية فحلف الأمراء بالطاعة إلى السلطان، وكذلك سار إلى حلب فحلف من بها من الأمراء ثم عاد إلى دمشق ثم عاد راجعاً إلى الديار المصرية، وحصل له من الأموال شيء كثير من النواب والأمراء.

وفي يوم الخميس العشرين من ذي القعدة مسك الأميران الكبيران الشاميان المقدمان

شهاب الدين أحمد بن صبح، وملك آص، من دار السعادة بحضرة نائب السلطنة والأمراء ورفعا إلى القلعة المنصورة، سير بهما ماشيين من دار السعادة إلى باب القلعة من ناحية دار الحديث، وقيدا وسجنا بها، وجاء الخبر بأن السلطان استوزر بالديار المصرية القاضي علم الدين زينور، وخلع عليه خلعة سنية، لم يسمع بمثلها من أعصار متقادمة، وباشر وخلع على الأمراء والمقدمين، وكذلك خلع على الأمير سيف الدين طسبغا وأعيد إلى مباشرة الدويدارية بالديار المصرية، وجعل مقدماً.

وفي أوائل شهر ذي الحجة اشتهر أن نائب صغد شهاب الدين أحمد بن مشد الشربخانات طلب إلى الديار المصرية فامتنع من إجابة الداعي، ونقض العهد، وحصن قلعتها، وحصل فيها عدداً ومدداً وادّخر أشياء كثيرة بسبب الإقامة بها والامتناع فيها، فجاءت البريدية إلى نائب دمشق بأن يركب هو وجميع جيش دمشق إليه، فتجهز الجيش لذلك وتأهبوا، ثم خرجت الأطلاب على راياتها، فلما برز منها بعض بدا لنائب السلطنة فردهم وكان له خبرة عظيمة، ثم استقر الحال على تجريد أربعة مقدمين بأربعة آلاف إليه.

وفي يوم الخميس ثاني عشره وقعت كائنة غريبة بمنى وذلك أنه اختلف الأمراء المصريون والشاميون مع صاحب اليمن الملك المجاهد، فاقتتلوا قتالاً قريباً من وادي محسر، ثم انجلت الوقعة عن أسر صاحب اليمن الملك المجاهد فحمل مقيداً إلى مصر، كذلك جاءت بها كتب الحجاج وهم أخبروا بذلك. واشتهر في أواخر ذي الحجة أن نائب حلب الأمير سيف الدين أرغون الكاملي قد خرج عنها بمماليكه وأصحابه فرام الجيش الحلبي رده فلم يستطيعوا ذلك، وجرح منهم جراحات كثيرة، وقتل جماعة فإنا لله وإنا إليه راجعون، واستمر ذاهباً وكان في أمله فيما ذكر أن يتلقى سيف الدين يلبغا في أثناء طريق الحجاز فيتقدم معه إلى دمشق، وإن كان نائب دمشق قد اشتغل في حصار صغد أن يهجم عليها بغتة فيأخذها، فلما سار بمن معه وأخذته القطاع من كل جانب ونهبت حواصله وبقي تجريدة في نفر يسير من مماليكه، فاجتاز بحماة ليهربه نائبها فأبى عليه، فلما اجتاز بحمص وطن نفسه على المسير إلى السلطان بنفسه، فقدم به نائب حمص وتلقاه بعض الحجاب وبعض مقدمين الألوف ودخل يوم الجمعة بعد الصلاة سابع عشرين الشهر، وهو في أبهة، فنزل بدار السعادة في بعض قاعات الدويدارية انتهى.

ثم دخلت سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة

استهلت هذه السنة وسلطان البلاد الشامية والديار المصرية والحرمين الشريفين وما يلحق بذلك من الأقاليم والبلدان، الملك الناصر حسن ابن السلطان الملك محمد ابن السلطان الملك المنصور قلاوون الصالحي، ونائبه بالديار المصرية الأمير سيف الدين يلبغا الملقب بحارس الطير، وهو عوضاً عن الأمير سيف الدين يلبغا أروش الذي راح إلى بلاد الحجاز، ومعه جماعة من الأمراء بقصد الحج الشريف، فعزله السلطان في غيبته وأمسك على شيخون واعتقله، وأخذ منجك الوزير، وهو أستاذ دار ومقدم ألف، اصطفى أمواله، واعتاض عنه وولى مكانه في

الوزارة القاضي علم الدين بن زينور، واسترجع إلى وظيفة الدويدارية الأمير سيف الدين طسبغا الناصري، وكان أميراً بالشام مقيماً منذ عزل إلى أن أعيد في أواخر السنة كما تقدم. وأما كاتب السر بمصر وقضاتها فهم المذكورون في التي قبلها.

واستهلت هذه السنة ونائب صغد قد حصن القلعة وأعد فيها عدتها وما ينبغي لها من الأطعمات والذخائر والعدد والرجال، وقد نابذ المملكة وحارب، وقد قصدته العساكر من كل جانب من الديار المصرية ودمشق وطرابلس وغيرها، والأخبار قد ضمنت عن يلبغا ومن معه ببلاد الحجاز ما يكون من أمره، ونائب دمشق في احتراز وخوف من أن يأتي إلى بلاد الشام فيدهمها بمن معه، والقلوب وجلة من ذلك، فإنا لله وإنا إليه راجعون. وفيها ورد الخبر أن صاحب اليمن حج في هذه السنة فوقع بينه وبين صاحب مكة عجلان بسبب أنه أراد أن يولي عليها أخاه بعيثة، فاشتكى عجلان ذلك إلى أمراء المصريين وكبيرهم إذ ذاك الأمير سيف الدين بزلار ومعهم طائفة كثيرة، وقد أمسكوا أخاهم يلبغا وقيدوه، فقوي رأسه عليهم واستخف بهم، فصبروا حتى قضي الحج وفرغ الناس من المناسك، فلما كان يوم النفر الأول يوم الخميس تواقفوا هم وهو فقتل من الفريقين خلق كثير، والأكثر من اليمنيين، وكانت الوقعة قريبة من وادي محسر، وبقي الحجيج خائفين أن تكون الدائرة على الأتراك فتنهب الأعراب أموالهم وربما قتلوهم، ففرج الله ونصر الأتراك على أهل اليمن ولجأ الملك المجاهد إلى جبل فلم يعصمه من الأتراك، بل أسروه ذليلاً حقيراً، وأخذوه مقيداً أسيراً، وجاءت عوام الناس إلى اليمنيين فنهبوا شيئاً كثيراً، ولم يتركوا لهم جليلاً ولا حقيراً، ولا قليلاً ولا كثيراً، واحتاط الأمراء على حواصل الملك وأمواله وأمتعته وأثقاله، وساروا بخيله وجماله، وأدلوا على صنديد[1] من رحله ورجاله، واستحضروا معهم طفيلاً الذي كان حاصر المدينة النبوية في العام الماضي وقيدوه أيضاً، وجعلوا الغل في عنقه، واستاقوه كما يستاق الأسير في وثاقه مصحوباً بهمه وحتفه، وانشمروا عن تلك البلاد إلى ديارهم راجعين، وقد فعلوا فعلة تذكر بعدهم إلى حين.

ودخل الركب الشامي إلى دمشق يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من المحرم على العادة المستمرة والقاعدة المستقرة. وفي هذا اليوم قدمت البريدية من تلقاء مدينة صغد مخبرة بأن الأمير شهاب الدين أحمد بن مشد الشرنجاتاه، الذي كان قد تمرد بها وطغى وبغى حتى استحوز عليها وقطع سبيها وقتل الفرسان والرجالة، وملأها أطعمة وأسلحة، ومماليكه ورجاله، فعندما تحقق مسك يلبغا أروش خضعت تلك النفوس، وخمدت ناره وسكن شراره وحار بثاره، ووضح قراره، وأناب إلى التوبة والإقلاع، ورغب إلى السلامة والخلاص، وخشع ولات حين مناص[2]، وأرسل سيفه إلى السلطان، ثم توجه بنفسه على البريد إلى حضرة الملك الناصر والله المسؤول أن يحسن عليه وأن يقبل بقلبه إليه.

---

(١) الصنديد: الشيء العظيم.

(٢) مناص: ملجأ ومفر، يقال: ما لك من مناص: أي من مفر ومنجى.

وفي يوم الأحد خامس صفر قدم من الديار المصرية الأمير سيف الدين أرغون الكاملي معاداً إلى نيابة حلب، وفي صحبته الأمير سيف الدين طشبغا الدوادار بالديار المصرية، وهو زوج ابنة نائب الشام، فتلقاه نائب الشام وأعيان الأمراء، ونزل طشبغا الدوادار عند زوجته بدار منجي في محلة مسجد القصب التي كانت تعرف بدار حنين بن حنذر، وقد جددت في السنة الماضية، وتوجها في الليلة الثانية من قدومهما إلى حلب. وفي يوم الأربعاء رابع عشر ربيع الأول اجتمع القضاة الثلاثة وطلبوا الحنبلي ليتكلموا معه فيما يتعلق بدار المعتمد التي بجوار مدرسة الشيخ أبي عمر، التي حكم بنقض وقفها وهدم بابها وإضافتها إلى دار القرآن المذكورة، وجاء مرسوم السلطان يوفق ذلك، وكان القاضي الشافعي قد أراد منعه من ذلك، فلما جاء مرسوم السلطان اجتمعوا لذلك، فلم يحضر القاضي الحنبلي، قال حتى يجيء نائب السلطنة.

ولما كان يوم الخميس خامس عشر ربيع الأول حضر القاضي حسين ولد قاضي القضاة تقي الدين السبكي عن أبيه مشيخة دار الحديث الأشرفية وقرىء عليه شيء كان قد خرجه له بعض المحدثين، وشاع في البلد أنه نزل له عنها، وتكلموا في ذلك كلاماً كثيراً، وانتشر القول في ذلك، وذكر بعضهم أنه نزل له عن الغزالية والعادلية، واستخلفه في ذلك فالله أعلم.

وفي سحر ليلة الخميس خامس شهر جمادى الآخرة وقع حريق عظيم بالجوانيين في السوق الكبير واحترقت دكاكين الفواخرة والمناجليين وفرجة الغرابيل، وإلى درب القلى، ثم إلى قريب درب العميد، وصارت تلك الناحية دكّاً بلقعاً[1]، فإنا لله وإنا إليه راجعون. وجاء نائب السلطنة بعد الآذان إلى هناك ورسم بطفي النار، وجاء المتولي والقاضي الشافعي والحجاب، وشرع الناس في طفي النار، ولو تركوها لأحرقت شيئاً كثيراً، ولم يفقد فيما بلغنا أحد من الناس، ولكن هلك للناس شيء كثير من المتاع والأثاث والأملاك وغير ذلك، واحترق للجامع من الرباع في هذا الحريق ما يساوي مائة ألف درهم. انتهى والله أعلم.

كائنة غريبة جداً: وفي يوم الأحد خامس عشر جمادى الأولى استسلم القاضي الحنبلي جماعة من اليهود كان قد صدر منهم نوع استهزاء بالإسلام وأهله، فإنهم حملوا رجلاً منهم صفة ميت على نعش ويهللون كتهليل المسلمين أمام الميت ويقرؤون ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤] فسمع بهم من بحارتهم من المسلمين، فأخذوهم إلى ولي الأمر نائب السلطنة فدفعهم إلى الحنبلي، فاقتضى الحال استسلامهم فأسلم يومئذٍ منهم ثلاثة وتبع أحدهم ثلاثة أطفال، وأسلم في اليوم الثاني ثمانية آخرون فأخذهم المسلمون وطافوا بهم في الأسواق يهللون ويكبرون، وأعطاهم أهل الأسواق شيئاً كثيراً وراحوا بهم إلى الجامع فصلوا ثم أخذوهم إلى دار السعادة فاستطلقوا لهم شيئاً، ورجعوا وهم في ضجيج وتهليل وتقديس، وكان يوماً مشهوداً ولله الحمد والمنّة. انتهى والله أعلم.

---

(١) البلقع: الأرض القفر.

مملكة السلطان الملك الصالح: صلاح الدين ابن الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاوون الصالحي

في العشر الأوسط من شهر رجب الفرد وردت البريدية من الديار المصرية بعزل السلطان الملك الناصر حسن بن الناصر بن قلاوون لاختلاف الأمراء عليه، واجتماعهم على أخيه الملك الصالح، وأمه صالحة بنت ملك الأمراء تنكز الذي كان نائب الشام مدة طويلة، وهو ابن أربع عشرة سنة، وجاءت الأمراء للحلف، فدقت البشائر وزين البلد على العادة، وقيل إن الملك الناصر حسن خنق ورجعت الأمراء الذين كانوا بإسكندرية مثل شيخون ومنجك وغيرهما، وأرسلوا إلى يلبغا فجيء به من الكرك، وكان مسجوناً بها من مرجعه من الحج، فلما عاد إلى الديار المصرية شفع في صاحب اليمن الملك المجاهد الذي كان مسجوناً في الكرك فأخرج وعاد إلى الديار الحجازية. وأما الأمراء الذين كانوا من ناحية السلطان حين مسك معارضة أمير أخور وميكلي بغا الفخري وغيرهما، فاحتيط عليهم وأرسلوا إلى الإسكندرية، وخطب للملك الصالح بجامع دمشق يوم الجمعة السابع عشر من شهر رجب وحضر نائب السلطنة والأمراء والقضاة للدعاء له بالمقصورة على العادة.

وفي أثناء العشر الأخير من رجب عزل نائب السلطنة سيف الدين أيتمش عن دمشق مطلوباً إلى الديار المصرية فسار إليهم يوم الخميس. وفي يوم الاثنين حادي عشر شعبان قدم الأمير سيف الدين أرغون الكاملي الذي كان نائباً على الديار الحلبية من هناك، فدخل دمشق في هذا اليوم في أبهة عظيمة، وخرج الأمراء والمقدمون وأرباب الوظائف لتلقيه إلى أثناء الطريق، منهم من وصل إلى حلب وحماة وحمص، وجرى في هذا اليوم عجائب لم تُرَ من دهور، واستبشر الناس به لصرامته وشهامته وحدته، وما كان من لين الذي قبله ورخاوته، فنزل دار السعادة على العادة. وفي يوم السبت وقف في موكب هائل قيل إنه لم ير مثله من مدة طويلة، ولما سير إلى ناحية باب الفرج اشتكى إليه ثلاث نسوة على أمير كبير يقال له الطرخاين، فأمر بإنزاله عن فرسه فأنزل وأوقف معهن في الحكومة، واستمر بطلان الوقيد في الجامع الأموي في هذا العام أيضاً كالذي قبله، حسب مرسوم السلطان الناصر حسن رحمه الله، ففرح أهل الخير بذلك فرحاً شديداً، وهذا شيء لم يعهد مثله من نحو ثلاثمائة سنة ولله الحمد والمنة، ونودي في البلد في هذا اليوم والذي بعده عن النائب: من وجد جندياً سكراناً فلينزله عن فرسه وليأخذ ثيابه، ومن أحضر من الجند إلى دار السعادة فله خبزه، ففرح الناس بذلك واحتجر [1] على الخمّارين والعصّارين، ورخصت الأعشاب وجادت الأخباز واللحم بعد أن كان بلغ كل رطل أربعة ونصفاً، فصار بدرهمين ونصف، وأقل، وأصلحت المعايش من هيبة النائب، وصار له صيت حسن، وذكر جميل في الناس بالعدل وجودة القصد وصحة الفهم وقوة العدل والإدراك.

وفي يوم الاثنين ثامن عشر شعبان وصل الأمير أحمد بن شاد الشريخاناه الذي كان قد

---

(١) احتجر: حجر.

عصى في صفد، وكان من أمره ما كان، فاعتقل بالإسكندرية ثم أخرج في هذه الدولة وأعطى نيابة حماة فدخل دمشق في هذا اليوم سائراً إلى حماة، فركب مع النائب مع الموكب وسير عن يمينه ونزل في خدمته إلى دار السعادة، ورحل بين يديه، وفي يوم الخميس الحادي والعشرين منه دخل الأمير سيف الدين يلبغا الذي كان نائباً بالديار المصرية، ثم مسك بالحجاز وأودع الكرك، ثم أخرج في هذه الدولة وأعطى نيابة حلب، فتلقاه نائب السلطنة، وأنزل دار السعادة حين أضافه. ونزل وطاقه بوطأة برزة وضربت له خيمة بالميدان الأخضر.

ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة

استهلت هذه السنة وسلطان الديار المصرية والبلاد الشامية والحرمين الشريفين وما يتبع ذلك الملك الصالح صلاح الدين، صالح ابن السلطان الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاوون، والخليفة الذي يدعى له المعتضد بأمر الله ونائب الديار المصرية الأمير سيف الدين قبلاي، وقضاة مصرهم المذكورون في التي قبلها، والوزير القاضي ابن زنبور، وأولو الأمر الذين يدبرون المملكة فلا تصدر الأمور إلا عن آرائهم لصغر السلطان المذكور جماعة من أعيانهم ثلاثة سيف الدين شيخون، وطار وحر عيمش، ونائب دمشق الأمير سيف الدين أرغون الكاملي، وقضاتها هم المذكورون في التي قبلها، ونائب البلاد الحلبية الأمير سيف الدين يلبغا أروش، ونائب طرابلس الأمير سيف الدين بكلمش، ونائب حماة الأمير شهاب الدين أحمد بن مشد الشريخانة، ووصل بعض الحجاج إلى دمشق في تاسع الشهر - وهذا نادر - وأخبروا بموت المؤذن شمس الدين بن سعيد بعد منزلة العلاء في المدابغ.

وفي ليلة الاثنين سادس عشر صفر في هذه السنة وقع حريق عظيم عند باب جيرون شرقيه فاحترق به دكان القفاعي الكبيرة المزخرفة وما حولها، واتسع اتساعاً فظيعاً، واتصل الحريق بالباب الأصفر من النحاس، فبادر ديوان الجامع إليه فكشطوا ما عليه من النحاس ونقلوه من يومه إلى خزانة الحاصل، بمقصورة الحلبية، بمشهد علي، ثم عدوا عليه يكسرون خشبه بالفؤوس الحداد، والسواعد الشداد، وإذا هو من خشب الصنوبر الذي في غاية ما يكون من القوة والثبات، وتأسف الناس عليه لكونه كان من محاسن البلد ومعالمه. وله في الوجود ما ينيف عن أربعة آلاف سنة. انتهى والله أعلم.

ترجمة باب جيرون المشهور بدمشق

الذي كان هلاكه وذهابه وكسره في هذه السنة، وهو باب سر في جامع دمشق لم ير باب أوسع ولا أعلى منه، فيما يعرف من الأبنية في الدنيا، وله علمان من نحاس أصفر بمسامير نحاس أصفر أيضاً بارزة، من عجائب الدنيا، ومحاسن دمشق ومعالمها، وقد تم بناؤها. وقد ذكرته العرب في أشعارها والناس وهو منسوب إلى ملك يقال له جيرون بن سعد بن عاد بن عوص بن آدم بن سام بن نوح، وهو الذي بناه، وكان بناؤه له قبل الخليل عليه السلام، بل قبل

ثمود وهود أيضاً، على ما ذكره الحافظ ابن عساكر في تاريخه وغيره، وكان فوقه حسن عظيم، وقصر منيف، ويقال بل هو منسوب إلى اسم المارد الذي بناه لسليمان عليه السلام، وكان اسم ذلك المارد جيرون، والأول أظهر وأشهر، فعلى الأول يكون لهذا الباب من المدد المتطاولة ما يقارب خمسة آلاف سنة، ثم كان انجعاف[١] هذا الباب لا من تلقاء نفسه بل بالأيدي العادية عليه، بسبب ما ناله من شوط حريق اتصل إليه حريق وقع من جانبه في صبيحة ليلة الاثنين السادس عشر من صفر، سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة فتبادر ديوان الجامعية ففرّقوا شمله [وقضعوا[٢] ثمله[٣]][٤]، وعروا جلده النحاس عن بدنه الذي هو من خشب الصنوبر، الذي كأن الصانع قد فرغ منه يومئذٍ، وقد شاهدت الفؤوس تعمل فيه ولا تكاد تحيل فيه إلا بمشقة، فسبحان الذي خلق الذين بنوه أولاً، ثم قدر أهل هذا الزمان على أن هدموه بعد هذه المدد المتطاولة، والأمم المتداولة، ولكن لكل أجل كتاب، ولا إله إلا ربّ العباد.

بيان تقدم مدة هذا الباب وزيادتها على مدة أربعة آلاف سنة بل يقارب الخمسة

ذكر الحافظ ابن عساكر في أول تاريخه باب بناء دمشق بسنده عن القاضي يحيى بن حمزة التبلهي الحاكم بها في الزمن المتقدم، وقد كان هذا القاضي من تلاميذ ابن عمر والأوزاعي، قال. لما فتح عبد الله بن علي دمشق بعد حصارها ـ يعني وانتزعها من أيدي بني أمية وسلبهم ملكهم ـ هدموا سور دمشق فوجدوا حجراً مكتوباً عليه باليونانية، فجاء راهب فقرأه لهم، فإذا هو مكتوب عليه: ويك أرم الجبابرة من راسك بسوء قصمه الله، إذا وهى منك جيرون الغربي من باب البريد وتلك من خمسة أعين ينقض سورك على يديه، بعد أربعة آلاف سنة تعيشين رغداً، فإذا وهى منك جيرون الشرقي أؤمل لك ممن يعوض لك، قال: فوجدنا الخمسة أعين عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب، عين بن عين بن عين بن عين بن عين، فهذا يقتضي أنه كان بسورها سنيناً إلى حين إخرابه على يد عبد الله بن علي أربعة آلاف سنة، وقد كان إخرابه له في سنة ثنتين وثلاثين ومائة كما ذكرنا في التاريخ الكبير، فعلى هذا يكون لهذا الباب إلى يوم خرب من هذه السنة ـ أعني سنة ثنتين وثلاثين ومائة ـ أربعة آلاف وستمائة وإحدى وعشرين سنة، والله أعلم.

وقد ذكر ابن عساكر عن بعضهم أن نوحاً عليه السلام هو الذي أسس دمشق بعد حران وذلك بعد مضي الطوفان، وقيل بناها دمسغس غلام ذي القرنين عن إشارته، وقيل عاد الملقب بدمشيق وهو غلام الخليل، وقيل غير ذلك من الأقوال، وأظهرها أنها من بناء اليونان، لأن محاريب معابدها كانت موجهة إلى القطب الشمالي، ثم كان بعدهم النصارى فصلّوا فيها إلى

---

(١) الانجعاف: الانقلاب.
(٢) قضعوا: من قضع: أي قهر، تقضع: تفرق وتقطع.
(٣) ثمله: ما بقي في الإناء أو الحوض من ماء وغير ذلك.
(٤) في ط: وقطعوا شمله.

الشرق، ثم كان فيها بعدهم أجمعين أمة المسلمين فصلّوا إلى الكعبة المشرفة. وذكر ابن عساكر وغيره أن أبوابها كانت سبعة كل منها يتخذ عنده عيد لهيكل من الهياكل السبعة، فباب القمر باب السلامة، وكانوا يسمونه باب الفراديس الصغير، ولعطارد باب الفراديس الكبير، وللزهرة باب توما، وللشمس الباب الشرقي، وللمريخ باب الجابية، وللمشتري باب الجابية الصغير، ولزحل باب كيسان.

وفي أوائل شهر رجب الفرد اشتهر أن نائب حلب يلبغا أروش اتفق مع نائب طرابلس بكلمش، ونائب حلب أمير أحمد بن مشد الشريخانة على الخروج عن طاعة السلطان حتى يمسك شيخون وطار، وهما عضدا الدولة بالديار المصرية، وبعثوا إلى نائب دمشق وهو الأمير سيف الدين أرغون الكاملي فأبى عليهم ذلك، وكاتب إلى الديار المصرية بما وقع من الأمر، وانزعج الناس لذلك، وخافوا من غائلة هذا الأمر وبالله المستعان. ولما كان يوم الاثنين ثامن الشهر جمع نائب السلطنة الأمراء عنده بالقصر الأبلق واستحلفهم بيعة أخرى لنائب السلطنة الملك الصالح، فحلفوا واتفقوا على السمع والطاعة والاستمرار على ذلك. وفي ليلة الأربعاء سابع عشر رجب جاءت الجبلية الذين جمعوهم من البقاع لأجل حفظ ثنية العقاب من قدوم العساكر الحلبية، ومن معهم من أهل طرابلس وحماة، وكان هؤلاء الجبلية قريباً من أربعة آلاف، فحصل بسببهم ضرر كثير على أهل برزة وما جاورهم من الثمار وغيرها.

وفي يوم السبت العشرين منه ركب نائب السلطنة سيف الدين أرغون ومعه الجيوش الدمشقية قاصدين ناحية الكسوة ليلاً يقاتلون المسلمين ولم يبقَ في البلد من الجند أحد، وأصبح الناس وليس لهم نائب ولا عسكر، وخلت الديار منهم، ونائب الغيبة الأمير سيف الدين الجي بغا العادلي، وانتقل الناس من البساتين ومن طرف العقبية وغيرها إلى المدينة، وأكثر الأمراء نقلت حواصلهم وأهاليهم إلى القلعة المنصورة، فإنا لله وإنا إليه راجعون. ولما اقترب دخول الأمير يلبغا بمن معه انزعج الناس وانتقل أهل القرى الذين في طريقه، وسرى ذلك إلى أطراف الصالحية والبساتين وحواضر البلد، وغلقت أبواب البلد إلى ما يلي القلعة، كباب النصر وباب الفرج، وكذا باب الفراديس، وخلت أكثر المحال من أهاليهم، ونقلوا حوائجهم وحواصلهم وأنعامهم إلى البلد على الدواب والحمالين، وبلغهم أن أطراف الجيش انتهبوا ما في القرايا في طريقهم من الشعير والتبن وبعض الأنعام للأكل. وبما وقع فساد غير هذا من بعض الجهلة، فخاف الناس كثيراً وتشوشت خواطرهم انتهى.

دخول يلبغا أروش إلى دمشق

ولما كان يوم الأربعاء الرابع والعشرين من رجب دخل الأمير سيف الدين يلبغا أروش نائب حلب إلى دمشق المحروسة بمن معه من العساكر الحلبية وغيرهم وفي صحبته نائب طرابلس الأمير سيف الدين بكلمش، ونائب حماة الأمير شهاب الدين أحمد، ونائب صفد الأمير علاء الدين طيبغا، ملقب برتاق، وكان قد توجه قبله، قيل بيوم، ومعه نواب قلاع كثيرة من بلاد حلب وغيرها، في عدد كثير من الأتراك والتركمان، فوقف في سوق الخيل مكان نواب

السلطان تحت القلعة، واستعرض الجيوش الذين وفدوا معه هنالك، فدخلوا في تجمل كثير، ملبسين، وكان عدة من كان معه من أمراء الطبلخانات قريباً من ستين أمير أو يزيدون أو ينقصون، على ما استفاض عن غير واحد ممن شاهد ذلك، ثم سار قريباً من الزوال للمخيم الذي ضرب له قبل مسجد القدم عند قبة يلبغا، عند الجدول الذي هنالك، وكان يوماً مشهوداً هائلاً، لما عاين الناس من كثرة الجيوش والعدد، وعذر كثير من الناس صاحب دمشق في ذهابه بمن معه لئلا يقابل هؤلاء. فنسأل الله أن يجمع قلوبهم على ما فيه صلاح المسلمين. وقد أرسل إلى نائب القلعة وهو الأمير سيف الدين إياجي يطلب منه حواصل أرغون التي عنده، فامتنع عليه أيضاً، وقد حصن القلعة وسترها وأرصد فيها الرجال والرماة والعدد، وهيأبها بعض المجانيق ليبعد بها فوق الأبرجة، وأمر أهل البلد أن لا يفتحوا الدكاكين ويغلقوا الأسواق، وجعل يغلق أبواب البلد إلا باباً أو بابين منها، واشتد حنق العسكر عليه، وهموا بأشياء كثيرة من الشر، ثم يرعوون عن الناس والله المسلم، غير أن إقبال العسكر وأطرافه قد عاثوا فيما جاوروه من القرايا والبساتين والكروم والزروع فيأخذون ما يأكلون وتأكل دوابهم، وأكثر من ذلك فإنا لله وإنا إليه راجعون. ونهبت قرايا كثيرة وفجروا بنساء وبنات، وعظم الخطب، وأما التجار ومن يذكر بكثرة مال فأكثرهم مختف لا يظهر لما يخشى من المصادرة، نسأل الله أن يحسن عاقبتهم.

واستهل شهر شعبان وأهل البلد في خوف شديد، وأهل القرايا والحواضر في نقلة أثاثهم وأبقارهم ودوابهم وأبنائهم ونسائهم، وأكثر أبواب البلد مغلقة سوى بابي الفراديس والجابية، وفي كل يوم نسمع بأمور كثيرة من النهب للقرايا والحواضر، حتى انتقل كثير من أهل الصالحية أو أكثرهم، وكذلك من أهل العقيبة وسائر حواضر البلد، فنزلوا عند معارفهم وأصحابهم، ومنهم من نزل على قارعة الطريق بنسائهم وأولادهم، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وقال كثير من المشايخ الذين أدركوا زمن قازان: إن هذا الوقت كان أصعب من ذلك لما ترك الناس من ورائهم من الغلات والثمار التي هي عمدة قوتهم في سنتهم، وأما أهل البلد ففي قلق شديد أيضاً لما يبلغهم عنهم من الفجور بالنساء، ويجعلون يدعون عقيب الصلوات عليهم يصرحون بأسمائهم ويعنون بأسماء أمرائهم وأتباعهم ونائب القلعة الأمير سيف الدين إياجي في كل وقت يسكن جأش الناس ويقوي عزمهم ويبشرهم بخروج العساكر المنصورة من الديار المصرية صحبة السلطان إلى بلاد غزة حيث الجيش الدمشقي، ليجيئوا كلهم في خدمته وبين يديه، وتدق البشائر فيفرح الناس ثم تسكن الأخبار وتبطل الروايات فتقلق ويخرجون في كل يوم وساعة في تجمل عظيم ووعد وهيئات حسنة، ثم جاء السلطان أيده الله تعالى وقد ترجل الأمراء بين يديه من حين بسط له عند مسجد الدبان إلى داخل القلعة المنصورة، وهو لابس قباء أحمر له قيمته على فرس أصيلة مؤدبة معلمة المشي على القوس لا تحيد عنه، وهو حسن الصورة مقبول الطلعة، عليه بهاء المملكة والرياسة، والخز فوق رأسه يحمله بعض الأمراء الأكابر، وكلما عاينه من عاينه من الناس يبتهلون بالدعاء بأصوات عالية، والنساء بالزغرطة، وفرح الناس فرحاً شديداً، وكان يوماً مشهوداً، وأمراً حميداً، جعله الله مباركاً على المسلمين. فنزل بالقلعة المنصورة، وقد قدم معه الخليفة المعتضد أبو الفتح بن أبي بكر المستكفي بالله أبي الربيع

سليمان بن الحاكم بأمر الله أبي العباس أحمد، وكان راكباً إلى جانبه من ناحية اليسار، ونزل بالمدرسة الدماغية في أواخر هذا اليوم سائر الأمراء مع نائب الشام، ومقدمهم طار وشيخون في طلب يلبغا ومن معه من البغاة المفسدين.

وفي يوم الجمعة ثانيه حضر السلطان أيده الله إلى الجامع الأموي وصلّى فيه الجمعة بالمشهد الذي يصلي فيه نواب السلطان أيده الله، فكثر الدعاء والمحبة له ذاهباً وآيباً تقبّل الله منه، وكذلك فعل الجمعة الأخرى وهي تاسع الشهر. وفي يوم السبت عاشره اجتمعنا ـ يقول الشيخ عماد الدين بن كثير المصنف رحمه الله ـ بالخليفة المعتضد بالله أبي الفتح بن أبي بكر بن المستكفي بالله أبي الربيع سليمان بن الحاكم بأمر الله أبي العباس أحمد، وسلمنا عليه وهو نازل بالمدرسة الدماغية، داخل باب الفرج وقرأت عنده جزءاً فيه ما رواه أحمد بن حنبل عن محمد بن إدريس الشافعي في مسنده، وذلك عن الشيخ عز الدين بن الضيا الحموي بسماعه من ابن البخاري، وزينب بنت مكي عن أحمد بن الحصين عن ابن المذهب عن أبي بكر بن مالك عن عبد الله بن أحمد عن أبيه فذكرهما، والمقصود أنه شاب حسن الشكل مليح الكلام متواضع جيد الفهم حلو العبارة رحم الله سلفه.

وفي رابع عشره قدم البريد من بلاد حلب بسيوف الأمراء الممسوكين من أصحاب يلبغا. وفي يوم الخميس خامس عشره نزل السلطان الملك الصالح من الطارمة إلى القصر الأبلق في أبهة المملكة، ولم يحضر يوم الجمعة إلى الصلاة، بل اقتصر على الصلاة بالقصر المذكور. وفي يوم الجمعة باكر النهار دخل الأمير سيف الدين شيخون وطار بمن معهما من العساكر من بلاد حلب، وقد فات تدارك يلبغا وأصحابه لدخولهم بلاد زلغادر التركماني بمن بقي معهم، وهم القليل، وقد أسر جماعة من الأمراء الذين كانوا معه، وهم في القيود والسلاسل صحبة الأميرين المذكورين، فدخلا على السلطان وهو بالقصر الأبلق فسلّما عليه وقبّلا الأرض وهنآه بالعيد، ونزل طار بدار أيتمش بالشرق الشمالي، ونزل شيخون بدار إياس الحاجب بالقرب من الظاهرية البرانية، ونزل بقية الجيش في أرجاء البلد، وأما الأمير سيف الدين أرغون فأقام بحلب نائباً عن سؤاله إلى ما ذكر، وخوطب في تقليده بألقاب هائلة، ولبس خلعة سنية، وعظم تعظيماً زائداً، ليكون هناك إلباً على يلبغا وأصحابه لشدة ما بينهما من العداوة. ثم صلّى السلطان بمن معه من المصريين ومن انضاف إليهم من الشاميين صلاة عيد الفطر بالميدان الأخضر، وخطب بهم القاضي تاج الدين المناوي المصري، قاضي العسكر المصري بمرسوم السلطان وذويه، وخلع عليه. انتهى والله سبحانه وتعالى أعلم.

قتل الأمراء السبعة من أصحاب يلبغا

وفي يوم الاثنين ثالث شوال قبل العصر ركب السلطان من القصر إلى الطارمة وعلى رأسه القبة والطبر[1] يحملهما الأمير بدر الدين بن الخطير، فجلس في الطارمة ووقف الجيش بين

(١) الطبر: نوع من السلاح يشبه الفأس.

يديه تحت القلعة وأحضروا الأمراء الذين قدموا بهم من بلاد حلب، فجعلوا يوقفون الأمير منهم ثم يشاورون عليه فمنهم من يشفع فيه ومنهم من يؤمر بتوسيطه، فوسط سبعة: خمس طبلخانات ومقدما ألف، منهم نائب صغد برناق وشفع في الباقين فردوا إلى السجن، وكانوا خمسة آخرين وفي يوم الأربعاء خامسه مسك جماعة من أمراء دمشق سبعة وتحولت دول كثيرة، وتأمر جماعة من الأجناد وغيرهم انتهى.

خروج السلطان من دمشق متوجهاً إلى بلاد مصر

وفي يوم الجمعة سابع شوال ركب السلطان في جيشه من القصر الأبلق قاصداً لصلاة الجمعة بالجامع الأموي، فلما انتهى إلى باب النصر ترجل الجيش بكماله بين يديه مشاة، وذلك في يوم شاتٍ كثير الوحل فصلى بالمقصورة إلى جانب المصحف العثماني، وليس معه في الصف الأول أحد، بل بقية الأمراء خلفه صفوف، فسمع خطبة الخطيب، ولما فرغ من الصلاة قرىء كتاب بإطلاق أعشار الأوقاف، وخرج السلطان بمن معه من باب النصر، فركب الجيش واستقل ذاهباً نحو الكسوة بمن معه من العساكر المنصورة، مصحوبين بالسلامة والعافية المستمرة، وخرج السلطان وليس بدمشق نائب سلطنة، وبها الأمير بدر الدين بن الخطير هو الذي يتكلم في الأمور نائب غيبة، حتى يقدم إليها نائبها ويتعين لها، وجاءت الأخبار بوصول السلطان إلى الديار المصرية سالماً، ودخلها في أبهة عظيمة في أواخر ذي القعدة، وكان يوماً مشهوداً، وخلع على الأمراء كلهم ولبس خلعة نيابة الشام الأمير علاء الدين المارداني، ومسك الأمير علم الدين بن زنبور وتولية الوزارة الصاحب موفق الدين. وفي صبيحة يوم السبت خامس الحجة دخل الأمير علاء الدين على الجمدار من الديار المصرية إلى دمشق المحروسة في أبهة هائلة، وموكب حافل مستولياً نيابة بها، وبين يديه الأمراء على العادة، فوقف عند تربة بهادر آص حتى استعرض عليه الجيش فلحقهم، فدخل دار السعادة فنزلها على عادة النواب قبله، جعله الله وجهاً مباركاً على المسلمين. وفي يوم السبت ثالث عشره قدم دوادار السلطان الأمير عز الدين مغلطاي من الديار المصرية فنزل القصر الأبلق، ومن عزمه الذهاب إلى البلاد الحلبية ليجهز الجيوش نحو يلبغا وأصحابه انتهى والله تعالى أعلم.

ثم دخلت سنة أربع وخمسين وسبعمائة

استهلت هذه السنة وسلطان الإسلام بالديار المصرية والبلاد الشامية والمملكة الحلبية وما والاها والحرمين الشريفين الملك الصالح صلاح الدين صالح ابن الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاوون الصالحي، ونائبه بالديار المصرية الأمير سيف الدين قبلاي، والمشار إليهم في تدبير المملكة الأمراء سيف الدين شيخون، وسيف الدين طار، وسيف الدين صرغتمش الناصري، وقضاة القضاة وكاتب السر هناك هم المذكورون في السنة الماضية، ونائب حلب الأمير سيف الدين أرغون الكاملي، لأجل مقاتلة أولئك الأمراء الثلاثة يلبغا وأمير أحمد

وبكلمش الذين فعلوا ما ذكرنا في رجب من السنة الماضية، ثم لجؤوا إلى بلاد البلبيسين في خفارة زلغادر التركماني، ثم إنه احتال عليهم من خوفه من صاحب مصر وأسلمهم إلى قبضة نائب حلب المذكور، ففرح المسلمون بذلك فرحاً شديداً، ولله الحمد والمنّة، ونائب طرابلس الأمير سيف الدين أيتمش للذي كان نائب دمشق كما ذكرنا، تقلبت به الأحوال حتى استنيب في طرابلس حين كان السلطان بدمشق كما تقدم.

واستهلت هذه السنة وقد تواترت الأخبار بأن الأمراء الثلاثة يلبغا وبكلمش وأمير أحمد قد حصلوا في قبضة نائب حلب الأمير سيف الدين أرغون، وهم مسجونون بالقلعة بها، ينتظر ما يرسم به فيهم، وقد فرح المسلمون بذلك فرحاً شديداً. وفي يوم السبت سابع عشر المحرم وصل إلى دمشق الأمير عز الدين مغلطاي الدويدار عائداً من البلاد الحلبية، وفي صحبته رأس يلبغا الباغي أمكن الله منه بعد وصول صاحبيه بكلمش الذي كان نائباً بطرابلس، وأمير أحمد الذي كان نائب حماة فقطعت رؤوسهما بحلب بين يدي نائبها سيف الدين أرغون الكاملي، وسيرت إلى مصر، ولما وصل يلبغا بعدهما فعل به كفعلهما جهرة بعد العصر بسوق الخيل بين يدي نائب السلطنة والجيش برمته والعامة على الأحاجير يتفرجون ويفرحون بمصرعه، وسر المسلمون كلهم ولله الحمد والمنّة.

وفي يوم الجمعة الثامن والعشرين من شهر ربيع الأول أقيمت جمعة جديدة بمحلة الشاغور بمسجد هناك يقال له مسجد المزار، وخطب فيه جمال الدين عبد الله ابن الشيخ شمس الدين بن قيم الجوزية، ثم وقع في ذلك كلام فأفضى الحال أن أهل المحلة ذهبوا إلى سوق الخيل يوم موكبه، وحملوا سناجق خليفتين من جامعهم ومصاحف واشتملوا إلى نائب السلطنة وسألوا منه أن تستمر الخطبة عندهم، فأجابهم إلى ذلك في الساعة الراهنة، ثم وقع نزاع في جواز ذلك، ثم حكم القاضي الحنبلي لهم بالاستمرار، وجرت خطوب طويلة بعد ذلك.

وفي يوم الأحد سابع ربيع الآخر توفي الأمير الكبير سيف الدين ألجي بغا العادلي، ودفن بتربته التي كان أنشأها قديماً ظاهر باب الجابية، وهي مشهورة تعرف به، وكان له في الإمرة قريباً من ستين سنة، وقد كان أصابه في نوبة أرغون شاه وقضيته ضربة أصابت يده اليمنى، واستمر مع ذلك على إمرته وتقدمته محترماً معظماً إلى أن توفي رحمة الله تعالى عليه.

ذكر أمر غريب جداً

لما ذهبت لتهنئة الأمير ناصر الدين بن الأقوس بنيابة بعلبك وجدت هنالك شاباً فذكر لي من حضر أن هذا هو الذي كان أنثى ثم ظهر له ذكر، وقد كان أمره اشتهر ببلاد طرابلس، وشاع بين الناس بدمشق وغير ذلك، وتحدث الناس به، فلما رأيته وعليه قبعة تركية استدعيته إليّ وسألته بحضرة من حضر، فقلت له: كيف كان أمرك؟ فاستحيى وعلاه خجل يشبه النساء، فقال: كنت امرأة مدة خمس عشرة سنة، وزوجوني بثلاثة أزواج لا يقدرون علي، وكلهم يطلق ثم اعترضني حال غريب فغارت ثدياي وصغرت، وجعل النوم يعتريني ليلاً ونهاراً، ثم جعل يخرج من محل الفرج شيء قليل قليلاً، ويتزايد حتى برز شبه ذكر وأنثيان، فسألته أهو كبير أم

صغير؟ فاستحيى ثم ذكر أنه صغير بقدر الأصبع، فسألته هل احتلم؟ فقال احتلم مرتين منذ حصل له ذلك، وكان له قريباً من ستة أشهر إلى حين أخبرني، وذكر أنه يحسن صنعة النساء كلها من الغزل والتطريز والزركاش وغير ذلك، فقلت له ما كان اسمك وأنت على صفة النساء؟ فقال: نفيسة، فقلت: واليوم؟ فقال عبد الله، وذكر أنه لما حصل له هذا الحال كتمه عن أهله حتى عن أبيه، ثم عزموا على تزويجه على رابع فقال لأمه إن الأمر ما صفته كيت وكيت، فلما اطلع أهله على ذلك أعلموا به نائب السلطنة هناك، وكتب بذلك محضراً واشتهر أمره، فقدم دمشق ووقف بين يدي نائب السلطنة بدمشق، فسأله فأخبره كما أخبرني، فأخذه الحاجب سيف الدين كحلن بن الأقوس عنده وألبسه ثياب الأجناد، وهو شاب حسن، على وجهه وسمته ومشيته وحديثه أنوثة النساء، فسبحان الفعال لما يشاء، فهذا أمر لم يقع مثله في العالم إلا قليلاً جداً، وعندي أن ذكره كان غائراً في جوزة طير فافرخ ثم لمّا بلغ ظهر قليلاً قليلاً، حتى تكامل ظهوره فتبينوا أنه كان ذكراً، وذكر لي أن ذكره برز مختوناً فسمي ختان القمر، فهذا يوجد كثيراً والله أعلم.

وفي يوم الثلاثاء خامس شهر رجب قدم الأمير عز الدين بقطية الدويدار من الديار الحلبية وخبر عما اتفق عليه العساكر الحلبية من ذهابهم مع نائبهم ونواب تلك الحصون وعساكر خلف بن زلغادر التركماني، الذي كان أعان يلبغا وذويه على خروجه على السلطان، وقدم معه إلى دمشق وكان من أمره ما تقدم بسطه في السنة الماضية، وأنهم نهبوا أمواله وحواصله، وأسروا خلقاً من بنيه وذويه وحريمه، وأن الجيش أخذ شيئاً كثيراً من الأغنام والأبقار والرقيق والدواب والأمتعة وغير ذلك، وأنه لجأ إلى ابن أرطنا فاحتاط عليه واعتقله عنده، وراسل السلطان بأمره ففرح الناس براحة الجيش الحلبي وسلامته بعدما قاسوا شديداً وتعباً كثيراً. وفي يوم الأربعاء ثالث عشره كان قدوم الأمراء الذين كانوا مسجونين بالاسكندرية من لدن عود السلطان إلى الديار المصرية، ممن كان اتهم بممالأة يلبغا أو خدمته، كالأمير سيف الدين ملك أجي، وعلاء الدين علي السيمقدار، وساطلمس الجلالي ومن معهم.

وفي أول شهر رمضان اتفق أن جماعة من المفتين أفتوا بأحد قولي العلماء، وهما وجهان لأصحابنا الشافعية وهو جواز استعادة ما استهدم من الكنائس، فتعصب عليهم قاضي القضاة تقي الدين السبكي فقرعهم في ذلك ومنعهم من الإفتاء، وصنف في ذلك مصنفاً يتضمن المنع من ذلك سمّاه «الدسائس في الكنائس» وفي خامس شهر رمضان قدم بالأمير أبو الغادر التركماني الذي كان مؤازراً ليلبغا في العام الماضي على تلك الأفاعيل القبيحة، وهو مضيق عليه، فأحضر بين يدي النائب ثم أودع القلعة المنصورة في هذا اليوم.

ثم دخلت سنة خمس وخمسين وسبعمائة

استهلت هذه السنة وسلطان الديار المصرية والبلاد الشامية وما يتبع ذلك والحرمين الشريفين وما والاهما من بلاد الحجاز وغيرها الملك الصالح صلاح الدين ابن الملك الناصر

محمد ابن الملك المنصور قلاوون الصالحي، وهو ابن بنت تنكز نائب الشام، وكان في الدولة الناصرية، ونائبه بالديار المصرية الأمير سيف الدين قبلاي الناصري، ووزيره القاضي موفق الدين، وقضاة مصرهم المذكورون في العام الماضي، ومنهم قاضي القضاة عز الدين بن جماعة الشافعي، وقد جاور في هذه السنة في الحجاز الشريف، والقاضي تاج الدين المناوي يسد المنصب عنه، وكاتب السر القاضي علاء الدين بن فضل الله العدوي، ومدبرو المملكة الأمراء الثلاثة سيف الدين شيخون، وصرغتمش الناصري والأمير الكبير الدوادار عز الدين مغلطاي الناصري. ودخلت هذه السنة والأمير سيف الدين شيخون في الأحداث من مدة شهر أو قريب ونائب دمشق الأمير علاء الدين أمير على المارداني، وقضاة دمشق هم المذكورون في التي قبلها، وناظر الدواوين الصاحب شمس الدين موسى بن التاج إسحاق وكاتب السر القاضي ناصر الدين بن الشرف يعقوب، وخطيب البلد جمال الدين محمود بن جملة، ومحتسبه الشيخ علاء الدين الأنصاري، قريب الشيخ بهاء الدين ابن إمام المشهد، وهو مدرس الأمينية مكانه أيضاً.

وفي شهر ربيع الآخر قدم الأمير علاء الدين مغلطاي الذي كان مسجوناً بالإسكندرية ثم أفرج عنه، وقد كان قبل ذلك هو الدولة، وأمر بالمسير إلى الشام ليكون عند حمزة أيتمش نائب طرابلس، وأما منجك الذي كان وزيره بالديار المصرية وكان معتقلاً بالإسكندرية مع مغلطاي، فإنه صار إلى صغد مقيماً بها بطالاً، كما أن مغلطاي أمر بالمقام بطرابلس بطالاً إلى حين يحكم الله عز وجل انتهى والله أعلم.

نادرة من الغرائب

في يوم الاثنين السادس عشر من جمادى الأولى اجتاز رجل من الروافض من أهل الحلة بجامع دمشق وهو يسب أول من ظلم آل محمد، ويكرر ذلك لا يفتر، ولم يصلِّ مع الناس ولا صلَّى على الجنازة الحاضرة، على أن الناس في الصلاة، وهو يكرر ذلك ويرفع صوته به، فلما فرغنا من الصلاة نبهت عليه الناس فأخذوه وإذا قاضي القضاة الشافعي في تلك الجنازة حاضر مع الناس. فجئت إليه واستنطقته من الذي ظلم آل محمد؟ فقال: أبو بكر الصديق، ثم قال جهرة والناس يسمعون: لعن الله أبا بكر وعمر وعثمان ومعاوية ويزيد، فأعاد ذلك مرتين، فأمر به الحاكم إلى السجن، ثم استحضره المالكي وجلده بالسياط، وهو مع ذلك يصرخ بالسب واللعن والكلام الذي لا يصدر إلا عن شقي، واسم هذا اللعين علي بن أبي الفضل بن محمد بن حسين بن كثير قبحه الله وأخزاه، ثم لما كان يوم الخميس سابع عشره عقد له مجلس بدار السعادة وحضر القضاة الأربعة وطلب إلى هنالك فقدر الله أن حكم نائب المالكي بقتله، فأخذ سريعاً فضرب عنقه تحت القلعة وحرقه العامة وطافوا برأسه البلد ونادوا عليه هذا جزاء من سب أصحاب رسول الله ﷺ، وقد ناظرت هذا الجاهل بدار القاضي المالكي وإذا عنده شيء مما يقوله الرافضة الغلاة، وقد تلقى عن أصحاب ابن مطهر أشياء في الكفر والزندقة، قبّحه الله وإياهم. وورد الكتاب بإلزام أهل الذمة بالشروط العمرية.

وفي يوم الجمعة ثامن عشر رجب الفرد قرىء بجامع دمشق بالمقصورة بحضرة نائب السلطنة وأمراء الأعراب، وكبار الأمراء، وأهل الحل والعقد والعامة كتاب السلطان بإلزام أهل الذمة بالشروط العمرية وزيادات أخر: منها أن لا يستخدموا في شيء من الدواوين السلطانية والأمراء ولا في شيء من الأشياء، وأن لا تزيد عمامة أحدهم عن عشرة أذرع ولا يركبوا الخيل ولا البغال ولكن الحمير بالأكف عرضاً، وأن لا يدخلوا إلا بالعلامات من جرس أو بخاتم نحاس أصفر، أو رصاص، ولا تدخل نساؤهم مع المسلمات الحمامات، وليكن لهن حمامات تختص بهن، وأن يكون إزار النصرانية من كتان أزرق، واليهودية من كتان أصفر، وأن يكون أحد خفيها أسود والآخر أبيض، وأن يحكم حكم مواريثهم على الأحكام الشرعية.

واحترقت باسورة باب الجابية في ليلة الأحد العشرين من جمادى الآخرة، وعدم المسلمون تلك الأطعمات والحواصل النافعة من الباب الجواني إلى الباب البراني. وفي مستهل شهر رمضان عمل الشيخ الإمام العالم البارع شمس الدين ـ بن النقاش المصري الشافعي ـ ورد دمشق بالجامع الأموي تجاه محراب الصحابة، ميعاداً للوعظ واجتمع عنده خلق من الأعيان والفضلاء والعامة، وشكروا كلامه وطلاقة عبارته، من غير تلعثم ولا تخليط ولا توقف، وطال ذلك إلى قريب العصر.

وفي صبيحة يوم الأحد ثالثه صلّي بجامع دمشق بالصحن تحت النسر على القاضي **كمال الدين حسين ابن قاضي القضاة تقي الدين السبكي الشافعي**، ونائبه، وحضر نائب السلطنة الأمير علاء الدين علي، وقضاة البلد والأعيان والدولة وكثير من العامة، وكانت جنازته محسودة، وحضر والده قاضي القضاة وهو يهادي بين رجلين، فظهر عليه الحزن والكآبة، فصلى عليه إماماً، وتأسف الناس عليه لسماحة أخلاقه وانجماعه على نفسه لا يتعدى شره إلى غيره، وكان يحكم جيداً نظيف العرض في ذلك، وكان قد درس في عدّة مدارس، منها الشامية البرانية والعذراوية، وأفتى وتصدر، وكانت لديه فضيلة جيدة بالنحو والفقه والفرائض وغير ذلك، ودفن بسفح قاسيون في تربة معروفة لهم رحمهم الله.

عودة الملك الناصر حسن ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون

وذلك يوم الاثنين ثاني شهر شوال اتفق جمهور الأمراء مع الأمير شيخون وصرغتمش في غيبة طاز في الصيد على خلع الملك الصالح صالح بن الناصر، وأمه بنت تنكز، وإعادة أخيه الملك الناصر حسن، وكان ذلك يومئذٍ وألزم الصالح بيته مضيقاً عليه، وسلم إلى أمه خوندة بنت الأمير سيف الدين تنكز نائب الشام كان، وقطلبوطار، وأمسك أخوه سنتم وأخو السلطان الصالح لأمه عمر بن أحمد بن بكتمر الساقي، ووقعت خبطة عظيمة بالديار المصرية، ومع هذا فلم يقبل البريد إلى الشام وخبر البيعة إلا يوم الخميس الثالث عشر من هذا الشهر، قدم بسببها الأمير عز الدين أيدمر الشمسي وبايع النائب بعد ما خلع عليه خلعة سنية، والأمراء بدار السعادة على العادة، ودقت البشائر وزين البلد وخطب له الخطيب يوم الجمعة على المنبر بحضرة نائب السلطنة والقضاة والدولة وفي صبيحة يوم الخميس تاسع عشر شوال دخل دمشق الأمير سيف

الدين منجك على نيابة طرابلس ونزل القصر الأبلق مع الأمير عز الدين أيدمر فأقام أياماً عديدة ثم سار إلى بلده بعد أيام. وفي صبيحة يوم الخميس السادس والعشرين منه دخل الأمير سيف الدين طار من الديار المصرية في جماعة من أصحابه مجتازاً إلى نيابة حلب المحروسة، فتلقاه نائب السلطنة إلى قريب من جامع كريم الدين بالقبيبات، وشيعه إلى قريب من باب الفراديس فسار ونزل بوطأة برزة فبات هنالك، ثم أصبح غادياً وقد كان نظير الأمير شيخون ولكن قوي عليه فسيّره إلى بلاد حلب، وهو محبب إلى العامة لما له من السعي المشكور في أمور كبار كما تقدم.

ثم دخلت سنة ست وخمسين وسبعمائة

استهلت هذه السنة وسلطان الإسلام والمسلمين السلطان الملك الناصر حسن ابن الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاوون الصالحي، وليس بالديار المصرية نائب ولا وزير، وقضاتها هم المذكورون في التي قبلها، ونائب دمشق الأمير علي المارداني، والقضاة والحاجب والخطيب وكاتب السر هم المذكورون في التي قبلها، ونائب حلب الأمير سيف الدين طاز، ونائب طرابلس منجك، ونائب حماة استدمر العمري، ونائب صفد الأمير شهاب الدين بن صبح، ونائب حمص الأمير ناصر الدين بن الأقوس، ونائب بعلبك الحاج كامل.

وفي يوم الاثنين تاسع صفر مسك الأمير أرغون الكاملي الذي ناب بدمشق مدة ثم بعدها بحلب ثم طلب إلى الديار المصرية حين وليها طاز، فقبض عليه وأرسل إلى الإسكندرية معتقلاً. وفي يوم السبت من شهر صفر قدم تقليد قضاء الشافعية بدمشق وأعمالها لقاضي القضاة تاج الدين عبد الوهاب ابن قاضي القضاة تقي الدين السبكي، على قاعدة والده، وذلك في حياة أبيه، وذهبت الناس للسلام عليه.

وفي صبيحة يوم الأحد السادس والعشرين من ربيع الآخر توجه قاضي القضاة تقي الدين السبكي بعد استقلال ولده تاج الدين عبد الوهاب في قضاء القضاة ومشيخة دار الحديث الأشرفية مسافراً نحو الديار المصرية في محفة، ومعه جماعة من أهله وذويه، منهم سبطه القاضي بدر الدين بن أبي الفتح وآخرون، وقد كان الناس ودعوه قبل ذلك وعنده ضعف، ومن الناس من يخاف عليه وعثاء السفر مع الكبر والضعف.

ولما كان يوم الجمعة سادس شهر جمادى الآخرة صلّي بعد الظهر على قاضي القضاة **تقي الدين بن علي بن عبد الكافي بن تمام السبكي** المصري الشافعي، توفي بمصر ليلة الاثنين ودفن من صبيحة ذلك اليوم وقد أكمل ثلاثاً وتسعين سنة، ودخل في الرابعة أشهراً، وولّي الحكم بدمشق نحواً من سبع عشرة سنة، ثم نزل عن ذلك لولده قاضي القضاة تاج الدين عبد الوهاب، ثم رحل في محفة إلى الديار المصرية كما ذكرنا، ولما وصل مصر أقام دون الشهر ثم توفي كما ذكرنا، وجاءت التعزية ومرسوم باستقرار ولده في مدرسته اليعقوبية والقيمرية، وبتشريف تطييباً لقلبه، وذهب الناس إلى تعزيته على العادة، وقد سمع قاضي القضاة السبكي الحديث في شبيبته

بديار مصر، ورحل إلى الشام وقرأ بنفسه وكتب وخرج، وله تصانيف كثيرة منتشرة كثيرة الفائدة، وما زال في مدة القضاء يصنف ويكتب إلى حين وفاته، وكان كثير التلاوة، وذكر لي أنه كان يقوم من الليل رحمه الله.

وفي شهر جمادى الأولى من هذه السنة اشتهر أخذ الفرنج المخذولين لمدينة طرابلس المغرب. وقرأت من كتاب لقاضي قضاة المالكية أن أخذهم إياها كان ليلة الجمعة مستهل ربيع الأول من هذه السنة، ثم بعد خمسة عشر يوماً استعادها المسلمون وقتلوا منهم أضعاف ما قتلوا أولاً من المسلمين ولله الحمد والمنة. وأرسل الدولة[1] إلى الشام يطلبون من أموال أوقاف الأسارى ما يستنقذون به من بقي في أيديهم من المسلمين. وفي يوم الأربعاء حادي عشر رجب الفرد من هذه السنة حكم القاضي المالكي وهو قاضي القضاة جمال الدين المسلاتي بقتل نصراني من قرية الرأس من معاملة بعلبك، اسمه داود بن سالم، ثبت عليه بمجلس الحكم في بعلبك أنه اعترف بما شهد عليه أحمد بن نور الدين علي بن غازي من قرية اللبوة من الكلام السيىء الذي نال به من رسول الله ﷺ، وسبه وقذفه بكلام لا يليق ذكره، فقتل لعنه الله يومئذٍ بعد أذان العصر بسوق الخيل وحرقه الناس وشفى الله صدور قوم مؤمنين ولله الحمد والمنة.

وفي صبيحة يوم الأحد رابع عشر شعبان درس القاضي بهاء الدين أبو البقاء السبكي بالمدرسة القيمرية نزل له عنها ابن عمه قاضي القضاة تاج الدين عبد الوهاب ابن قاضي القضاة تقي الدين السبكي وحضر عنده القضاة والأعيان، وأخذ في قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩] وصلّي في هذا اليوم بعد الظهر على الشيخ الشاب الفاضل المحصل **جمال الدين عبد الله ابن العلامة شمس الدين بن قيم الجوزية الحنبلي**، ودفن عند أبيه بمقابر باب الصغير، وكانت جنازته حافلة، وكانت لديه علوم جيدة، وذهنه حاضر خارق، أفتى ودرس وأعاد وناظر وحج مرات عديدة رحمه الله وبلّ بالرحمة ثراه.

وفي يوم الاثنين تاسع عشر شوال وقع حريق هائل في سوق القطانين بالنهار، وذهب إليه نائب السلطنة والحجبة والقضاة حتى اجتهد الفعول والمتبرعون في إخماده وطفيه، حتى سكن شره وذهب بسببه دكاكين ودور كثيرة جداً، فإنا لله وإنا إليه راجعون. وقد رأيته من الغد والنار كما هي عمالة والدخان صاعد والناس يطفونه بالماء الكثير الغمر والنار لا تخمد، لكن هدمت الجدران وخربت المساكن وانتقل السكان انتهى والله أعلم.

ثم دخلت سنة سبع وخمسين وسبعمائة

استهلت هذه السنة وسلطان البلاد بالديار المصرية والشامية والحرمين وغير ذلك الملك الناصر حسن ابن الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاوون الصالحي، ولا نائب ولا وزير بمصر، وإنما يرجع تدبير المملكة إلى الأمير سيف الدين شيخون، ثم الأمير سيف الدين

(١) أرسل الدولة: أي أرسل الملك والوزراء.

صرغتمش، ثم الأمير عز الدين مغلطاي الدوايدار، وقضاة مصرهم المذكورون في التي قبلها سوى الشافعي فإنه ابن المتوفى قاضي القضاة تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي، ونائب حلب الأمير سيف الدين طاز، وطرابلس الأمير سيف الدين منجك، وبصفد الأمير شهاب الدين بن صبح، وبحماة استدمر العمري، وبحمص علاء الدين بن المعظم، وببعلبك الأمير ناصر الدين الأقوس.

وفي العشر الأول من ربيع الأول تكامل إصلاح بلاط الجامع الأموي وغسل فصوص المقصورة والقبة، وبسط بسطاً حسناً، وبيضت أطباق القناديل، وأضاء حاله جداً، وكان المستحث على ذلك الأمير علاء الدين أيدغمش أحد أمراء الطبلخانات، بمرسوم نائب السلطنة له في ذلك.

وفي يوم الجمعة الثامن والعشرين من ربيع الآخر من هذه السنة صلّي على الأمير سيف الدين براق أمير أرجو بجامع تنكز، ودفن بمقابر الصوفية، وكان مشكور السيرة كثير الصلاة والصدقة محباً للخير وأهله، من أكبر أصحاب الشيخ تقي الدين بن تيمية، رحمه الله تعالى. وقد رسم لولديه ناصر الدين محمد وسيف الدين أبي بكر كل منهما بعشرة أرماح، والناصر الدين بمكان أبيه في الوظيفة باصطبل السلطان. وفي يوم الخميس رابع شهر جمادى الأولى خلع على الأميرين الأخوين ناصر الدين محمد وسيف الدين أبي بكر ولدي الأمير سيف الدين براق رحمه الله تعالى، بأميرين عشرتين.

ووقع في هذا الشهر نزاع بين الحنابلة في مسألة المناقلة، وكان ابن قاضي الجبل الحنبلي يحكم بالمناقلة في قرار دار الأمير سيف الدين طيدمر الإسماعيلي حاجب الحجاب إلى أرض أخرى يجعلها وقفاً على ما كانت قرار داره عليه، ففعل ذلك بطريقه ونفذه القضاة الثلاثة الشافعي والحنفي والمالكي، فغضب القاضي الحنبلي وهو قاضي القضاة جمال الدين المرداوي المقدسي من ذلك، وعقد بسبب ذلك مجالس، وتطاول الكلام فيه، وادعى كثير منهم أن مذهب الإمام أحمد في المناقلة إنما هو في حال الضرورة، وحيث لا يمكن الانتفاع بالموقوف، فأما المناقلة لمجرد المصلحة والمنفعة الراجحة فلا، وامتنعوا من قبول ما قرره الشيخ تقي الدين بن تيمية في ذلك، ونقله عن الإمام أحمد من وجوه كثيرة من طريق ابنيه صالح وحرب وأبي داود وغيرهم، أنها تجوز للمصلحة الراجحة، وصنف في ذلك مسألة مفردة وقفت عليها - يعني الشيخ عماد الدين بن كثير - فرأيتها في غاية الحسن والإفادة، بحيث لا يتخالج من اطلع عليها ممن يذوق طعم الفقه أنها مذهب الإمام أحمد رحمه الله، فقد احتج أحمد في ذلك في رواية ابنه صالح بما رواه عن يزيد بن عوف عن المسعودي عن القاسم بن محمد أن عمر كتب إلى ابن مسعود أن يحول المسجد الجامع بالكوفة إلى موضع سوق التمارين، ويجعل السوق في مكان المسجد الجامع العتيق، ففعل ذلك، فهذا فيه أوضح دلالة على ما استدل به فيها من النقل بمجرد المصلحة فإنه لا ضرورة إلى جعل المسجد العتيق سوقاً، على أن الإسناد فيه انقطاع بين القاسم وبين عمر وبين القاسم وابن مسعود، ولكن قد جزم به صاحب المذهب، واحتج به،

وهو ظاهر واضح في ذلك، فعقد المجلس في يوم الاثنين الثامن والعشرين من الشهر.

وفي ليلة الأربعاء الرابع والعشرين من جمادى الأولى وقع حريق عظيم ظاهر باب الفرج احترق فيه بسببه قياسير كثيرة لطاز ويلبغا، وقيسرية الطواشي لبنت تنكز، وأخر كثيرة ودور ودكاكين وذهب للناس شيء كثير من الأمتعة والنحاس والبضائع وغير ذلك، مما يقاوم ألف ألف وأكثر خارجاً عن الأموال، فإنا لله وإنا إليه راجعون. وقد ذكر كثير من الناس أنه كان في هذه القياسير شر كثير من الفسق والربا والزغل وغير ذلك.

وفي السابع والعشرين من جمادى الأولى ورد الخبر بأن الفرنج لعنهم الله استحوذوا على مدينة صغد: قدموا في سبعة مراكب وقتلوا طائفة من أهلها ونهبوا شيئاً كثيراً وأسروا أيضاً، وهجموا على الناس وقت الفجر يوم الجمعة، وقد قتل منهم المسلمون خلقاً كثيراً وكسروا مركباً من مراكبهم، وجاء الفرنج في عشية السبت قبل العصر وقدم الوالي وهو جريح مثقل، وأمر نائب السلطنة عند ذلك بتجهيز الجيش إلى تلك الناحية فساروا تلك الليلة ولله الحمد، وتقدمهم حاجب الحجاب وتحدر إليهم نائب صفد الأمير شهاب الدين بن صبح، فسبق الجيش الدمشقي، ووجد الفرنج قد برزوا بما غنموا من الأمتعة والأسارى إلى جزيرة تلقاء صيدا في البحر، وقد أسر المسلمون منهم في المعركة شيخاً وشاباً من أبناء أشرافهم، وهو الذي عاقهم عن الذهاب، فراسلهم الجيش في انفكاك الأسارى من أيديهم فبادرهم عن كل رأس بخمسمائة فأخذوا من ديوان الأسارى مبلغ ثلاثين ألفاً، ولم يبق معهم ولله الحمد أحد. واستمر الصبي من الفرنج مع المسلمين، وأسلم ودفع إليهم الشيخ الجريح، وعطش الفرنج عطشاً شديداً، وأرادوا أن يرووا من نهر هناك فبادرهم الجيش إليه فمنعوهم أن ينالوا منه قطرة واحدة، فرحلوا ليلة الثلاثاء منشمرين بما معهم من الغنائم، وبعثت رؤوس جماعة من الفرنج ممن قتل في المعركة فنصبت على القلعة بدمشق، وجاء الخبر في هذا الوقت بأن إيناس قد أحاط بها الفرنج، وقد أخذوا الربيض[1] وهم محاصرون القلعة، وفيها نائب البلد، وذكروا أنهم قتلوا خلقاً كثيراً من أهلها فإنا لله وإنا إليه راجعون، وذهب صاحب حلب في جيش كثيف نحوهم والله المسؤول أن يظفرهم بهم بحوله وقوته، وشاع بين العامة أيضاً أن الإسكندرية محاصرة ولم يتحقق ذلك إلى الآن، وبالله المستعان. وفي يوم السبت رابع جمادى الآخرة قدم رؤوس من قتلى الفرنج على صيدا، وهي بضعة وثلاثون رأساً، فنصبت على شرافات القلعة ففرح المسلمون بذلك ولله الحمد.

وفي ليلة الأربعاء الثاني والعشرين من جمادى الآخرة وقع حريق عظيم داخل باب الصغير من مطبخ السكر الذي عند السويقة الملاصقة لمسجد الشناشين، فاحترق المطبخ وما حوله إلى حمام أبي نصر، واتصل بالسويقة المذكورة وما هنالك من الأماكن، فكان قريباً أو أكثر من الحريق ظاهر باب الفرج فإنا لله وإنا إليه راجعون، وحضر نائب السلطنة، وذلك أنه كان وقت

---

(١) الربيض: الغنم برعاتها المجتمعة في مرابضها.

صلاة العشاء، ولكن كان الريح قوياً، وذلك بتقدير العزيز العليم.

وتوفي الشيخ **عز الدين محمد بن إسماعيل بن عمر الحموي** أحد مشايخ الرواة في ليلة الثلاثاء الثامن والعشرين من جمادى الآخرة، وصلي عليه من الغد بالجامع الأموي بعد الظهر، ودفن بمقابر باب الصغير. وكان مولده في ثاني ربيع الأول سنة ثمانين وستمائة، فجمع الكثير وتفرد بالرواية عن جماعة في آخر عمره، وانقطع بموته سماع السنن الكبير للبيهقي، رحمه الله.

ووقع حريق عظيم ليلة الجمعة خامس عشر رجب بمحلة الصالحية من سفح قاسيون، فاحترق السوق القبلي من جامع الحنابلة بكماله شرقاً وغرباً، وجنوباً وشمالاً. فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفي يوم الجمعة خامس شهر رمضان خطب بالجامع الذي أنشأه سيف الدين يلبغا الناصري غربي سوق الخيل وفتح في هذا اليوم وجاء في غاية الحسن والبهاء، وخطب الشيخ ناصر الدين بن الربوة الحنفي، وكان قد نازعه فيه الشيخ شمس الدين الشافعي الموصلي، وأظهر ولاية من واقفه يلبغا المذكور، ومراسيم شريفة سلطانية، ولكن قد قوي عليه ابن الربوة بسبب أنه نائب عن الشيخ قوام الدين الاتقاني الحنفي، وهو مقيم بمصر، ومعه ولاية من السلطان متأخرة عن ولاية الموصلي، فرسم لابن الربوة، فلبس يومئذٍ الخلعة السوداء من دار السعادة وجاؤوا بين يديه بالسناجق السود الخليفية، والمؤذنون يكبرون على العادة، وخطب يومئذٍ خطبة حسنة أكثرها في فضائل القرآن، وقرأ في المحراب بأول سورة طه، وحضر كثير من الأمراء والعامة والخاصة، وبعض القضاة، وكان يوماً مشهوداً، وكنت ممن حضر قريباً منه. والعجب أني وقفت في شهر ذي القعدة على كتاب أرسله بعض الناس إلى صاحب له من بلاد طرابلس وفيه: والمخدوم يعرف الشيخ عماد الدين بما جرى في بلاد السواحل من الحريق من بلاد طرابلس إلى آخر معاملة بيروت إلى جميع كسروان، أحرق الجبال كلها ومات الوحوش كلها مثل النمور والدب والثعلب والخنزير من الحريق، ما بقي للوحوش موضع يهربون فيه، وبقي الحريق عليه أياماً وهرب الناس إلى جانب البحر من خوف النار واحترق زيتون كثير، فلما نزل المطر أطفأه بإذن الله تعالى - يعني الذي وقع في تشرين وذلك في ذي القعدة من هذه السنة - قال ومن العجب أن ورقة من شجرة وقعت في بيت من مدخنته فأحرقت جميع ما فيه من الأثاث والثياب وغير ذلك ومن حلية حرير كثير، وغالب هذه البلاد للدرزية والرافضة. نقلته من خط كاتبه محمد بن يلبان إلى صاحبه، وهما عندي بقبان فيالله العجب.

وفي هذا الشهر - يعني ذي القعدة - وقع بين الشيخ إسماعيل بن العز الحنفي وبين أصحابه من الحنفية مناقشة بسبب اعتدائه على بعض الناس في محاكمة فاقتضى ذلك إحضاره إلى مجلس الحكم ثلاثة أيام كمثل المتمرد عندهم، فلما لم يحضر فيها حكم عليه القاضي شهاب الدين الكفري نائب الحنفي بإسقاط عدالته، ثم ظهر خبره بأنه قصد بلاد مصر، فأرسل النائب في أثره من يرده فعنفه، ثم أطلقه إلى منزله، وشفع فيه قاضي القضاة الحنفي فاستحسن ذلك ولله الحمد والمنة.

ثم دخلت سنة ثمان وخمسين وسبعمائة

استهلت هذه السنة والخليفة أمير المؤمنين المعتضد بالله أبو بكر بن المستكفي بالله أبي الربيع سليمان العباسي، وسلطان الإسلام بالديار المصرية وما يتبعها وبالبلاد الشامية وما والاها والحرمين الشريفين وغير ذلك الملك الناصر حسن ابن الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاوون الصالحي وليس له بمصر نائب ولا وزير، وإنما ترجع الأمور إصداراً وإيراداً إلى الأميرين الكبيرين سيف الدين شيخون وصرغتمش الناصريين، وقضاة مصرهم المذكورون في التي قبلها، ونائب الشام بدمشق الأمير علاء الدين أمير علي المارداني، وقضاة دمشق هم المذكورون في التي قبلها انتهى.

كائنة غريبة جداً

لما كان يوم الأربعاء الرابع والعشرين من رجب من هذه السنة نهدت جماعة من مجاوري الجامع بدمشق من مشهد علي وغيره، واتبعهم جماعة من الفقراء والمغاربة، وجاؤوا إلى أماكن متهمة بالخمر وبيع الحشيش فكسروا أشياء كثيرة من أواني الخمر، وأراقوا ما فيها وأتلفوا شيئاً كثيراً من الحشيش وغيره، ثم انتقلوا إلى حكر السماق وغيرهم فثار عليهم من البارذارية والكلابرية وغيرهم من الرعاع فتناوشوا، وضربت عليهم ضربات بالأيدي وغيرهم، وربما سل بعض الفساق السيوف عليهم كما ذكر، وقد رسم ملك الأمراء لوالي المدينة ووالي البر أن يكونوا عضداً لهم وعوناً على الخمارين والحشاشة، فنصروهم عليهم، غير أنه كثر معهم الضجيج ونصبوا راية واجتمع عليهم خلق كثير، ولما كان في أواخر النهار تقدم جماعة من النقباء والخزاندارية ومعهم جنازير فأخذوا جماعة من مجاوري الجامع وضربوا بالمقارع وطيف بهم في البلد ونادوا عليهم: هذا جزاء من يتعرض لما لا يعنيه تحت علم السلطان، فتعجب الناس من ذلك وأنكروه حتى أنه أنكر اثنان من العامة على المنادية فضرب بعض الجند أحدهم بدبوس فقتله، وضرب الآخر فيقال إنه مات أيضاً فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفي شعبان من هذه السنة حكي عن جارية من عتيقات الأمير سيف الدين تمر المهمندار أنها حملت قريباً من سبعين يوماً، ثم شرعت تطرح ما في بطنها فوضعت في قرب من أربعين يوماً في أيام متتالية ومتفرقة أربع عشرة بنتاً وصبياً بعدهن قل من يعرف شكل الذكر من الأنثى.

وجاء الخبر بأن الأمير سيف الدين شيخون مدبر الممالك بالديار المصرية والشامية ظفر عليه مملوك من مماليك السلطان فضربه بالسيف ضربات فجرحه في أماكن في جسده، منها ما هو في وجهه ومنها ما هو في يده، فحمل إلى منزله صريعاً طريحاً جريحاً، وغضب لذلك طوائف من الأمراء حتى قيل إنهم ركبوا ودعوا إلى المبارزة فلم يجىء إليهم وعظم الخطب بذلك جداً واتهموا به الأمير سيف الدين صرغتمش وغيره، وأن هذا إنما فعل عن ممالأة منهم فالله أعلم.

وفاة أرغون الكاملي باني البيمارستان بحلب

كانت وفاته بالقدس الشريف في يوم الخميس السادس والعشرين من شوال من هذه السنة، ودفن بتربة أنشأها غربي المسجد بشماله، وقد ناب بدمشق مدة بعد حلب، ثم جرت الكائنة التي أصلها يلبغا قبحه الله في أيامه، ثم صار إلى نيابة حلب ثم سجن بالإسكندرية مدة، ثم أفرج عنه فأقام بالقدس الشريف إلى أن كانت وفاته كما ذكرنا في التاريخ المذكور عزره الشريف ابن زريك والله أعلم.

وفاة الأمير شيخون

ورد الخبر من الديار المصرية بوفاة الأمير شيخون ليلة الجمعة السادس والعشرين من ذي القعدة ودفن من الغد بتربته، وقد ابتنى مدرسة هائلة وجعل فيها المذاهب الأربعة ودار للحديث وخانقاه للصوفية، ووقف عليها شيئاً كثيراً، وقرر فيها معاليم وقراءة دارة، وترك أموالاً جزيلة وحواصل كثيرة ودواوين في سائر البلاد المصرية والشامية، وخلف بنات وزوجة، وورث البقية أولاد السلطان المذكور بالولاء، ومسك بعد وفاته أمراء كثيرون بمصر كانوا من حزبه، من أشهرهم عز الدين بقطاي والدوادار وابن قوصون وأمه أخت السلطان خلف عليها شيخون بعد قوصون انتهى والله أعلم.

ثم دخلت سنة تسع وخمسين وسبعمائة

استهلت هذه السنة وسلطان الإسلام بالبلاد المصرية والشامية والحرمين الشريفين وما يتبع ذلك الملك الناصر حسن ابن الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاوون بن عبد الله الصالحي، وقد قوي جانبه وحاشيته بموت الأمير شيخون كما ذكرنا في سادس عشرين ذي القعدة من السنة الماضية، وصار إليه من ميراثه من زهرة الحياة شيء كثير من القناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة[1] والأنعام والحرث، وكذلك من المماليك والأسلحة والعدة والبرك والمتاجر ما يشق حصره ويتعذر إحصاؤه هٰهنا، وليس في الديار المصرية فيما بلغنا إلى الآن نائب ولا وزير، والقضاة هم المذكورون في التي قبلها، وأما دمشق فنائبها وقضاتها هم المذكورون في التي قبلها سوى الحنفي فإنه قاضي القضاة شرف الدين الكفري، عوضاً عن نجم الدين الطوسي. توفي في شعبان من السنة الماضية، ونائب حلب سيف الدين طاز، وطرابلس منجك، وحماة استدمر العمري، وصفد شهاب الدين بن صبح، وبحمص صلاح الدين خليل بن خاض برك وببعلبك ناصر الدين الأقوس.

وفي صبيحة يوم الاثنين رابع عشر المحرم خرجت أربعة آلاف مع أربعة مقدمين إلى ناحية حلب نصرة لجيش حلب على مسك طاز إن امتنع من السلطنة كما أمر، ولما كان يوم الحادي

---

(١) المسومة: المعلمة.

والعشرين من المحرم نادى المنادي من جهة نائب السلطنة أن يركب من بقي من الجند في الحديد ويوافوه إلى سوق الخيل، فركب معهم قاصداً ناحية ثنية العقاب ليمنع الأمير طاز من دخول البلد، لما تحقق مجيئه في جيشه قاصداً إلى الديار المصرية، فانزعج الناس لذلك وأخليت دار السعادة من الحواصل والحريم إلى القلعة، وتحصن كثير من الأمراء بدورهم داخل البلد، وأغلق باب النصر، فاستوحش الناس من ذلك بعض الشيء، ثم غلقت أبواب البلد كلها إلا باب الفراديس والفرج، وباب الجابية أيضاً لأجل دخول الحجاج ودخل المحمل صبيحة يوم الجمعة الثالث والعشرين من المحرم ولم يشعر به كثير من الناس لشغلهم بما هم فيه من أمر طاز، وأمر العشير بحوران، وجاء الخبر بمسك الأمير سيف الدين طيدمر الحاجب الكبير بأرض حوران وسجنه بقلعة صرخد، وجاء سيفه صحبة الأمير جمال الدين الحاجب، فذهب به إلى الوطاق عند الثنية، وقد وصل طاز بجنوده إلى باب القطيفة وتلاقى شاليشه بشاليش نائب الشام، ولم يكن منهم قتال ولله الحمد، ثم تراسل هو والنائب في الصلح على أن يسلم طاز نفسه ويركب في عشرة سروج إلى السلطان وينسلخ مما هو فيه، ويكاتب فيه النائب وتلطفوا بأمره عند السلطان وبكل ما يقدر عليه، فأجاب إلى ذلك وأرسل يطلب من يشهده على وصيته، فأرسل إليه نائب السلطنة القاضي شهاب الدين قاضي العسكر، فذهب إليه فأوصى لولده وأم ولده ولوالده نفسه، وجعل الناظر على وصيته الأمير علاء الدين أمير علي المارداني نائب السلطنة، وللأمير صرغتمش، ورجع النائب من الثنية عشية يوم السبت بين العشاءين الرابع والعشرين منه وتضاعفت الأدعية له وفرح الناس بذلك فرحاً شديداً، ودعوا إلى الأمير طاز بسبب إجابته إلى السمع والطاعة، وعدم مقاتلته مع كثرة من كان معه من الجيوش، وقوة من كان يحرضه على ذلك من أخويه وذويه، وقد اجتمعت بنائب السلطنة الأمير علاء الدين أمير علي المارداني فأخبرني بملخص ما وقع منذ خرج إلى أن رجع، ومضمون كلامه أن الله لطف بالمسلمين لطفاً عظيماً، إذ لم يقع بينهم قتال، فإنه قال: لما وصل طاز إلى القطيفة وقد نزلنا نحن بالقرب من خان لاجين أرسلت إليه مملوكاً من مماليكي أقول له. إن المرسوم الشريف قد ورد بذهابك إلى الديار المصرية في عشرة سروج فقط، فإذا جئت هكذا فأهلاً وسهلاً، وإن لم تفعل فأنت أصل الفتنة. وركبت ليلة الجمعة طول الليل في الجيش وهو ملبس، فرجع مملوكي ومعه مملوكه سريعاً يقول: إنه يسأل أن يدخل بطلبه كما خرج بطلبه من مصر، فقلت لا سبيل إلى ذلك إلا في عشرة سروج كما رسم السلطان، فرجع وجاءني الأمير الذي جاء من مصر بطلبه فقال: إنه يطلب منك أن يدخل في مماليكه فإذا جاوز دمشق إلى الكسوة نزل جيشه هناك وركب هو في عشرة سروج كما رسم. فقلت: لا سبيل إلى أن يدخل دمشق ويتجاوز بطلبه أصلاً، وإن كان عنده خيل ورجال وعدة فعندي أضعاف ذلك، فقال لي الأمير: يا خوند لا يكون تنسى قيمته، فقلت لا يقع إلا ما تسمع، فرجع فما هو إلا أن ساق مقدار رمية سهم وجاء بعض الجواسيس الذين لنا عندهم فقال يا خوند ها قد وصل جيش حماة وطرابلس، ومن معهم من جيش دمشق الذين كانوا قد خرجوا بسببه، وقد اتفقوا هم وهو. قال فحينئذٍ ركبت في الجيش وأرسلت

طليعتين أمامي وقلت تراؤوا للجيوش الذين جاؤوا حتى يروكم فيعلموا أنا قد أحطنا بهم من كل جانب. فحينئذٍ جاء البرد من جهته بطلب الأمان ويجهرون بالإجابة إلى أن يركب في عشرة سروج، ويترك طلبه بالقطيفة، وذلك يوم الجمعة، فلما كان الليل ركبت أنا والجيش في السلاح طول الليل وخشيت أن تكون مكيدة وخديعة، فجاءتنا الجواسيس فأخبرونا أنهم قد أوقدوا نشابهم ورماحهم وكثيراً من سلاحهم، فتحققنا عند ذلك طاعته وإجابته، لكل ما رسم به، فلما أصبح يوم السبت وصى وركب في عشرة سروج وسار نحو الديار المصرية ولله الحمد والمنة.

وفي يوم الاثنين الرابع والعشرين من صفر دخل حاجب الحجاب الذي كان سجن في قلعة صرخد مع البريدي الذي قدم بسببه من الديار المصرية، وتلقاه جماعة من الأمراء والكبراء، وتصدق بصدقات كثيرة في داره، وفرحوا به فرحاً شديداً، وهو والناس يقولون إنه ذاهب إلى الديار المصرية معظماً مكرماً على تقدمة ألف ووظائف هناك، فلما كان يوم الخميس السابع والعشرين منه لم يفجأ الناس إلا وقد دخل القلعة المنصورة معتقلاً بها مضيقاً عليه، فتعجب الناس من هذه الترحة من تلك الفرحة فما شاء الله كان.

وفي يوم الأربعاء رابع ربيع الأول عقد مجلس بسبب الحاجب بالمشهد من الجامع. وفي يوم الخميس أحضر الحاجب من القلعة إلى دار الحديث، واجتمع القضاة هناك بسبب دعاوى يطلبون منه حق بعضهم، ثم لما كان يوم الاثنين تاسعه قدم من الديار المصرية مقدم البريدية بطلب الحاجب المذكور، فأخرج من القلعة السلطانية وجاء إلى نائب السلطنة فقبّل قدمه، ثم خرج إلى منزله وركب من يومه قاصداً إلى الديار المصرية مكرماً، وخرج بين يديه خلق من العوام والحرافيش يدعون له، وهذا أغرب ما أرخ، فهذا الرجل نالته شدة عظيمة بسبب سجنه بصرخد، ثم أفرج عنه، ثم حبس في قلعة دمشق ثم أفرج عنه، وذلك كله في نحو شهر.

ثم جاءت الأخبار في يوم الأحد ثاني عشر جمادى الأولى بعزل نائب السلطنة عن دمشق فلم يركب في الموكب يوم الاثنين، ولا حضر في دار العدل، ثم تحققت الأخبار بذلك وبذهابه إلى نيابة حلب، ومجيء نائب حلب إلى دمشق، فتأسف كثير من الناس عليه لديانته وجوده وحسن معاملته لأهل العلم، ولكن حاشيته لا ينفذون أوامره، فتولد بسبب ذلك فساد عريض وحموا كثيراً من البلاد، فوقعت الحروب بين أهلها بسبب ذلك، وهاجت العشيرات فإنا لله وإنا إليه راجعون. وفي صبيحة يوم السبت الخامس والعشرين خرج الأمير علي المارداني من دمشق في طلبه مستعجلاً في أبهة النيابة، قاصداً إلى حلب المحروسة، وقد ضرب وطاقه بوطأة برزة، فخرج الناس للتفرج على طلبه. وفي هذا اليوم بعد خروج النائب بقليل دخل الأمير سيف الدين طيدمر الحاجب من الديار المصرية عائداً إلى وظيفة الحجوبية في أبهة عظيمة، وتلقاه الناس بالشموع، ودعوا له، ثم ركب من يومه إلى خدمة ملك الأمراء إلى وطأة برزة، فقبل يده وخلع عليه الأمراء، واصطلحا، انتهى والله أعلم.

دخول نائب السلطنة منجك إلى دمشق

كان ذلك في صبيحة يوم الخميس الرابع والعشرين من جمادى الآخرة من ناحية حلب

وبين يديه الأمراء والجيش على العادة، وأوقدت الشموع وخرج الناس ومنهم من بات على الأسطحة وكان يوماً هائلاً.

وفي أواخر شهر رجب برز نائب السلطنة إلى الربوة وأحضر القضاة وولاة الأمور ورسم بإحضار المفتيين ـ وكنت فيمن طلب يومئذٍ إلى الربوة فركبت إليها ـ وكان نائب السلطنة عزم يومئذٍ على تخريب المنازل المبنية بالربوة وغلق الحمام من أجل هذه فيما ذكر أنها بنيت ليقضي فيها، وهذا الحمام أوساخه صائرة إلى النهر الذي يشرب منه الناس، فاتفق الحال في آخر الأمر على إبقاء المساكن ورد المرتفقات المسلطة على نوره وناس، ويترك ما هو مسلط على بردى، فانكف الناس عن الذهاب إلى الربوة بالكلية، ورسم يومئذٍ بتضييق أكمام النساء وأن تزال الأجراس والركب عن الحمير التي للمكارية.

وفي أوائل شهر شعبان ركب نائب السلطنة يوم الجمعة بعد العصر ليقف على الحائط الرومي الذي بالرحبية، فخاف أهل الأسواق وغلقوا دكاكينهم عن آخرهم. واعتقدوا أن نائب السلطنة أمر بذلك، فغضب من ذلك وتنصل منه، ثم إنه أمر بهدم الحائط المذكور، وأن ينقل إلى العمارة التي استجدها خارج باب النصر في دار الصناعة التي إلى جانب دار العدل، أمر ببنائها خاناً ونقلت تلك الأحجار إليها، انتهى والله أعلم.

عزل القضاة الثلاثة بدمشق

ولما كان يوم الثلاثاء تاسع شعبان قدم من الديار المصرية بريدي ومعه تذكرة ـ ورقة ـ فيها السلام على القضاة المستجدين، وأخبر بعزل القاضي الشافعي والحنفي والمالكي، وأنه ولي قضاة الشافعية القاضي بهاء الدين أبو البقا السبكي، وقضاء الحنفية الشيخ جمال الدين بن السراج الحنفي وذهب الناس إلى السلام عليهم والتهنئة لهم واحتفلوا بذلك، وأخبروا أن القاضي المالكي سيقدم من الديار المصرية، ولما كان يوم السبت السابع والعشرين من شعبان وصل البريد من الديار المصرية ومعه تقليدان وخلعتان للقاضي الشافعي والقاضي الحنفي، فلبسا الخلعتين وجاءا من دار السعادة إلى الجامع الأموي، وجلسا في محراب المقصورة، وقرأ تقليد قاضي القضاة بهاء الدين أبي البقاء الشافعي، الشيخ نورالدين بن الصارم المحدث على السدة تجاه المحراب، وقرأ تقليد قاضي القضاة جمال الدين بن السراج الحنفي الشيخ عماد الدين بن السراج المحدث أيضاً على السدة، ثم حكما هنالك، ثم جاء أيضاً إلى الغزالية فدرس بها قاضي القضاة بهاء الدين أبو البقاء، وجلس الحنفي إلى جانبه عن يمينه، وحضرت عنده فأخذ في صيام يوم الشك، ثم جاء معه إلى المدرسة النورية فدرس بها قاضي القضاة جمال الدين المذكور، وحضر عنده قاضي القضاة بهاء الدين، وذكروا أنه أخذ في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [النساء: ١٣٥] الآية. ثم انصرف بهاء الدين إلى المدرسة العادلية الكبيرة فدرس بها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨] الآية. وفي صبيحة يوم الأربعاء ثامن شهر رمضان دخل القاضي المالكي من الديار المصرية فلبس الخلعة يومئذٍ ودخل المقصورة من الجامع الأموي وقرىء تقليده هنالك بحضرة

القضاة والأعيان، قرأه الشيخ نور الدين بن الصارم المحدث، وهو قاضي القضاة شرف الدين أحمد ابن الشيخ شهاب الدين عبد الرحمن ابن الشيخ شمس الدين محمد بن عسكر العراقي البغدادي، قدم الشام مراراً ثم استوطن الديار المصرية بعد ما حكم ببغداد نيابة عن قطب الدين الأخوي، ودرس بالمستنصرية بعد أبيه، وحكم بدمياط أيضاً ثم نقل إلى قضاء المالكية بدمشق وهو شيخ حسن كثير التودد ومسدد العبارة حسن البشر عند اللقاء، مشكور في مباشرته عفة ونزاهة وكرم، الله يوفقه ويسدده.

مسك الأمير طرغتمش أتابك الأمراء بالديار المصرية

ورد الخبر إلينا بمسكه يوم السبت الخامس والعشرين من رمضان هذا، وأنه قبض عليه بحضرة السلطان يوم الاثنين العشرين منه، ثم اختلفت الرواية عن قتله غير أنه احتيط على حواصله وأمواله، وصودر أصحابه وأتباعه، فكان فيمن ضرب وعصر تحت المصادرة القاضي ضياء الدين ابن خطيب بيت الأبار، واشتهر أنه مات تحت العقوبة، وقد كان مقصداً للواردين إلى الديار المصرية، لا سيما أهل بلدة دمشق، وقد باشر عدة وظائف، وكان في آخر عمره قد فوض إليه نظر جميع الأوقاف ببلاد السلطان، وتكلم في أمر الجامع الأموي وغيره، فحصل بسبب ذلك قطع أرزاق جماعات من الكتبة وغيرهم، ومالأ الأمير صرغتمش في أمور كثيرة خاصة وعامة، فهلك بسببه، وقد قارب الثمانين، انتهى.

إعادة القضاة

وقد كان صرغتمش عزل القضاة الثلاثة بدمشق، وهم الشافعي والحنفي والمالكي كما تقدم، وعزل قبلهم ابن جماعة وولّى ابن عقيل، فلما مسك صرغتمش رسم السلطان بإعادة القضاة على ما كانوا عليه، ولما ورد الخبر بذلك إلى دمشق امتنع القضاة الثلاثة من الحكم، غير أنهم حضروا ليلة العيد لرؤية الهلال بالجامع الأموي، وركبوا مع النائب صبيحة العيد إلى المصلى على عادة القضاة، وهم على وجل، وقد انتقلوا من مدارس الحكم فرجع قاضي القضاة أبو البقاء الشافعي إلى بستانه بالزعيفرية، ورجع قاضي القضاة ابن السراج إلى داره بالتعديل، وارتحل قاضي القضاة شرف الدين المالكي إلى الصالحية داخل الصمصامية، وتألم كثير من الناس بسببه، لأنه قد قدم غريباً من الديار المصرية وهو فقير ومتدين، وقد باشر الحكم جيداً، ثم تبين بآخرة أنه لم يعزل وأنه مستمر كما سنذكره، ففرح أصحابه وأحبابه، وكثير من الناس بذلك، فلما كان يوم الأحد رابع شوال قدم البريد وصحبته تقليد الشافعي قاضي القضاة تاج الدين بن السبكي، وتقليد الحنفي قاضي القضاة شرف الدين الكفري واستمر قاضي القضاة شرف الدين المالكي العراقي على قضاء المالكية، لأن السلطان تذكر أنه كان شافهه بولاية القضاء بالشام، وسيّره بين يديه إلى دمشق، فحمدت سيرته كما حسنت سريرته. إن شاء الله، وفرح الناس له بذلك.

وفي ذي القعدة توفي المحدث شمس الدين محمد بن سعد الحنبلي يوم الاثنين ثالثه،

ودفن من الغد بالسفح، وقد قارب الستين، وكتب كثيراً وخرج، وكانت له معرفة جيدة بأسماء الأحرار ورواتها من الشيوخ المتأخرين، وقد كتب للحافظ البرزالي قطعة كبيرة من مشايخه، وخرج له عن كل حديثاً أو أكثر، وأثبت له ما سمعه عن كل منهم، ولم يتم حتى توفي البرزالي رحمه الله.

وتوفي **بهاء الدين بن المرجاني** باني جامع الفوقاني، وكان مسجداً في الأصل فبناه جامعاً، وجعل فيه خطبة، وكنت أول من خطب فيه سنة ثمان وأربعين وسبعمائة، وسمع شيئاً من الحديث. وبلغنا مقتل الأمير سيف الدين بن فضل بن عيسى بن مهنا أحد أمراء الأعراب الأجواد الأنجاد وقد ولي إمرة آل مهنا غير مرة كما وليها أبوه من قبله: عدا عليه بعض بني عمه فقتله عن غير قصد بقتله، كما ذكر، لكن لما حمل عليه السيف أراد أن يدفع عن نفسه وبنفسه فضربه بالسيف برأسه ففلقه فلم يعش بعده إلا أياماً قلائل ومات رحمه الله انتهى.

[illegible] عن دمشق

ولما كان يوم الأحد ثاني ذي الحجة قدم أمير من الديار المصرية ومعه تقليد نائب دمشق، وهو الأمير سيف الدين منجك بنيابة صفد المحروسة، فأصبح من الغد ـ وهو يوم عرفة ـ وقد انتقل من دار السعادة إلى سطح المزة قاصداً إلى صفد المحروسة فعمل العيد بسطح المزة، ثم ترحل نحو صفد، وطمع كثير من المفسدين والخمارين وغيرهم وفرحوا بزواله عنهم. وفي يوم العيد قرىء كتاب السلطان بدار السعادة على الأمراء وفيه التصريح باستنابة أميره علي المارداني عليهم، وعوده إليهم والأمر بطاعته وتعظيمه واحترامه والشكر له والثناء عليه، وقدم الأمير شهاب الدين بن صبح من نيابة صفد ونزل بداره بظاهر البلد بالقرب من الشامية البرانية. ووصل البريد يوم السبت الحادي والعشرين من ذي الحجة بنفي صاحب الحجاب طيدمر الإسماعيلي إلى مدينة حماة بطالاً في سرجين لا غير والله أعلم.

ثم دخلت سنة ستين وسبعمائة

استهلت هذه السنة وملك الديار المصرية والشامية وما يتبع ذلك من الممالك الإسلامية الملك الناصر حسن ابن السلطان الملك الناصر محمد ابن السلطان الملك المنصور قلاوون الصالحي، وقضاته بمصرهم المذكورون في السنة التي قبلها، ونائبه بدمشق الأمير علاء الدين أمير علي المارداني، وقضاة الشام هم المذكورون في التي قبلها غير المالكي، فإنه عزل جمال الدين المسلاتي بشرف الدين العراقي، وحاجب الحجاب الأمير شهاب الدين بن صبح، وخطباء البلد كانت أكثرها المذكورون. وفي صبيحة يوم الأربعاء ثالث المحرم دخل الأمير علاء الدين أمير على نائب السلطنة إلى دمشق من نيابة حلب، ففرح الناس به وتلقوه إلى أثناء الطريق، وحملت له العامة الشموع في طرقات البلد، ولبس الأمير شهاب الدين بن صبح خلعة الحجابة الكبيرة بدمشق عوضاً عن نيابة صفد.

ووردت كتب الحجاج يوم السبت الثالث عشر منه مؤرخة سابع عشرين ذي الحجة من العلا وذكروا أن صاحب المدينة النبوية عدا عليه فداويان عند لبسه خلعة السلطان، وقت دخول المحمل إلى المدينة الشريفة فقتلاه، فعدت عبيده على الحجيج الذين هم داخل المدينة فنهبوا من أموالهم وقتلوا بعضهم وخرجوا، وكانوا قد أغلقوا أبواب المدينة دون الجيش فأحرق بعضها. ودخل الجيش السلطاني فاستنقذوا الناس من أيدي الظالمين. ودخل المحمل السلطاني إلى دمشق يوم السبت العشرين من هذا الشهر على عادته، وبين يدي المحمل الفداويان اللذان قتلا صاحب المدينة، وقد ذكرت عنه أمور شنيعة بشعة من غلوه في الرفض المفرط، ومن قوله إنه لو تمكن لأخرج الشيخين من الحجرة، وغير ذلك من عبارات مؤدية لعدم إيمانه إن صح عنه والله أعلم.

وفي صبيحة يوم الثلاثاء سادس صفر مسك الأمير شهاب الدين بن صبح حاجب الحجاب وولداه الأميران وحبسوا في القلعة المنصورة، ثم سافر به الأمير ناصر الدين بن خاربك بعد أيام إلى الديار المصرية، وفي رجل ابن صبح قيد، وذكر أنه فك من رجله في أثناء الطريق. وفي يوم الاثنين ثالث عشر صفر قدم نائب طرابلس الأمير سيف الدين عبد الغني فأدخل القلعة ثم سافر به الأمير علاء الدين بن أبي بكر إلى الديار المصرية محتفظاً به مضيقاً عليه، وجاء الخبر بأن منجك سافر من صغد على البريد مطلوباً إلى السلطان، فلما كان بينه وبين غزة بريد واحد دخل بمن معه من خدمه التيه فاراً من السلطان، وحين وصل الخبر إلى نائب غزة اجتهد في طلبه فأعجزه وتفارط الأمر، انتهى والله أعلم.

مسك الأمير علي المارداني نائب الشام

وأصل ذلك أنه في صبيحة يوم الأربعاء الثاني والعشرين من رجب، ركب الجيش إلى تحت القلعة ملبسين وضربت البشائر في القلعة في ناحية الطارمة، وجاء الأمراء بالطبلخانات من كل جانب والقائم بأعباء الأمر الأمير سيف الدين بيدمر الحاجب، ونائب السلطنة داخل دار السعادة والرسل مرددة بينه وبين الجيش، ثم خرج فحمل على سروج يسيرة محتاطاً عليه إلى ناحية الديار المصرية، واستوحش من أهل الشام عند باب النصر، فتباكى الناس رحمة له وأسفة عليه، لديانته وقلة أذيته وأذية الرعية وإحسانه إلى العلماء والفقراء والقضاة.

ثم في صبيحة يوم الخميس الثالث والعشرين منه احتيط على الأمراء الثلاثة، وهم الأمير سيف الدين طيبغا حجي أحد مقدمي الألوف، والأمير سيف الدين فطليخا الدوادار أحد المقدمين أيضاً والأمير علاء الدين أيدغمش المارداني أحد أمراء الطبلخانات، وكان هؤلاء ممن حضر نائب السلطنة المذكور وهم جلساؤه وسماره، والذين بسفارته أعطوا الأجناد والطبلخانات والتقادم، فرفعوا إلى القلعة المنصورة معتقلين بها مع من بها من الأمراء، ثم ورد الخبر بأن الأمير علي رد من الطريق بعد مجاوزته غزة وأرسل إليه بتقليد نيابة صغد المحروسة، فتماثل الحال وفرح بذلك أصحابه وأحبابه، وقدم متسلم دمشق الذي خلع عليه بنيابتها بالديار المصرية في يوم الخميس سادس عشر شهر رجب بعد أن استعفى من ذلك مراراً، وباس الأرض مراراً

فلم يعفه السلطان، وهو الأمير سيف الدين استدمر أخو يلبغا البحناوي، الذي كان نائب الشام، وبنته اليوم زوجة السلطان، قدم متسلمه إلى دمشق يوم الخميس سلخ الشهر فنزل في دار السعادة، وراح القضاة والأعيان للسلام عليه والتودد إليه، وحملت إليه الضيافات والتقادم، انتهى والله أعلم.

كائنة وقعت بقرية حوران فأوقع الله بهم بأساً شديداً في هذا الشهر الشريف

وذلك أنهم أشهر أهل قرية بحوران وهي خاص لنائب الشام وهم حلبية يمن ويقال لهم بنو لبسة وبني ناشي وهي حصينة منيعة يضوي إليها كل مفسد وقاطع ومارق ولجأ إليهم أحد شياطين رويمن العشير وهو عمر المعروف بالدنيط، فأعدوا عدداً كثيرة ونهبوا ليغنموا العشير، وفي هذا الحين بدرهم والي الولاة المعروف بشنكل منكل، فجاء إليهم ليردهم ويهديهم؛ وطلب منهم عمر الدنيط فأبوا عليه وراموا مقاتلته، وهم جمع كثير وجم غفير، فتأخر عنهم وكتب إلى نائب السلطنة ليمده بجيش عوناً له عليهم وعلى أمثالهم، فجهز له جماعة من أمراء الطبلخانات والعشراوات ومائة من جند الحلقة الرماة، فلما بغتهم في بلدهم تجمعوا لقتال العسكر ورموه بالحجارة والمقاليع، وحجزوا بينهم وبين البلد، فعند ذلك رمتهم الأتراك بالنبال من كل جانب، فقتلوا منهم فوق المائة، ففروا على أعقابهم، وأسر منهم والي الولاة نحواً من ستين رجلاً، وأمر بقطع رؤوس القتلى وتعليقها في أعناق هؤلاء الأسرى، ونهبت بيوت الفلاحين كلهم، وسلمت إلى مماليك نائب السلطنة لم يفقد منها ما يساوي ثلاثمائة درهم، وكر راجعاً إلى بصرى وشيوخ العشيرات معه، فأخبر ابن الأمير صلاح الدين بن خاص ترك، وكان من جملة أمراء الطبلخانات الذين قاتلوهم بمبسوط ما يخصه وأنه كان إذا أعيا بعض تلك الأسرى من الجرحى أمر المشاعلي بذبحه وتعليق رأسه على بقية الأسرى، وفعل هذا بهم غير مرة حتى أنه قطع رأس شاب منهم وعلق رأسه على أبيه، شيخ كبير، فإنا لله وإنا إليه راجعون، حتى قدم بهم بصرى فشنكل طائفة من أولئك المأسورين وشنكل آخرين ووسط الآخرين وحبس بعضهم في القلعة، وعلق الرؤوس على أخشاب نصبها حول قلعة بصرى، فحصل بذلك تنكيل شديد لم يقع مثله في هذا الأوان بأهل حوران، وهذا كله سلط عليهم بما كسبت أيديهم وما ربك بظلام للعبيد، وكذلك تولى بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون، فإنا لله وإنا إليه راجعون. انتهى.

دخول نائب السلطنة الأمير سيف الدين استدمر البحناوي

في صبيحة يوم الاثنين حادي عشر شعبان من هذه السنة كان دخول الأمير سيف الدين استدمر البحناوي نائباً على دمشق من جهة الديار المصرية، وتلقاه الناس واحتفلوا له احتفالاً زائداً وشاهدته حين ترجل لتقبيل العتبة، وبعضده الأمير سيف الدين بيدمر الذي كان حاجب الحجاب وعين لنيابة حلب المحروسة، فاستقبل القبلة وسجد عند القبلة، وقد بسط له عندها مفارش وصمدة هائلة، ثم إنه ركب فتعضده بيدمر أيضاً وسار نحو الموكب فأركب ثم عاد إلى

دار السعادة على عادة من تقدمه من النواب. وجاء تقليد الأمير سيف الدين بيدمر من آخر النهار لنيابة حلب المحروسة. وفي آخر نهار الثلاثاء بعد العصر ورد البريد البشيري وعلى يده مرسوم شريف بنفي القاضي بهاء الدين أبو البقاء وأولاده وأهله إلى طرابلس بلا وظيفة، فشق ذلك عليه وعلى أهليه ومن يليه، وتغمم له كثير من الناس، وسافر ليلة الجمعة وقد أذن له في الاستنابة في جهاته، فاستناب ولده الكبير عز الدين، واشتهر في شوال أن الأمير سيف الدين منجك الذي كان نائب السلطنة بالشام وهرب ولم يطلع له خبر، فلما كان في هذا الوقت ذكر أنه مسك ببلد بحران من مقاطعة ماردين في زي فقير، وأنه احتفظ عليه وأرسل السلطان قراره، وعجب كثير من الناس من ذلك، ثم لم يظهر لذلك حقيقة وكان الذين رأوه ظنو أنه هو، فإذا هو فقير من جملة الفقراء يشبهه من بعض الوجوه. واشتهر في ذي القعدة أن الأمير عز الدين فياض بن مهنا ملك العرب، خرج عن طاعة السلطان وتوجه نحو العراق فوردت المراسيم السلطانية لمن بأرض الرحبة من العساكر الدمشقية وهم أربعة مقدمين في أربعة آلاف، وكذلك جيش حلب وغيره بتطلبه وإحضاره إلى بين يدي السلطان فسعوا في ذلك بكل ما يقدرون عليه فعجزوا عن لحاقه والدخول وراءه إلى البراري، وتفارط الحال وخلص إلى أرض العراق فضاق النطاق وتعذر اللحاق.

ثم دخلت سنة إحدى وستين وسبعمائة

استهلت وسلطان المسلمين الملك الناصر حسن ابن الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاوون وقضاة مصر والشام هم المذكورون في التي قبلها، ونائب الشام الأمير سيف الدين استدمر أخو يلبغا البحناوي، وكاتب السر القاضي أمين الدين بن القلانسي.

وفي مستهل المحرم جاء الخبر بموت الشيخ صلاح الدين العلائي بالقدس الشريف ليلة الاثنين ثالث المحرم، وصلِّي عليه من الغد بالمسجد الأقصى بعد صلاة الظهر، ودفن بمقبرة نائب الرحبة، وله من العمر ست وستون سنة، وكان مدة مقامه بالقدس مدرساً بالمدرسة الصلاحية وشيخاً بدار الحديث السكرية ثلاثين سنة، وقد صنف وألَّف وجمع وخرج، وكانت له يد طولى بمعرفة العالي والنازل، وتخريج الأجزاء والفوائد، وله مشاركة قوية في الفقه واللغة والعربية والأدب وفي كتابته ضعف لكن مع صحة وضبط لما يشكل، وله عدة مصنفات، وبلغني أنه وقفها على الخانقاه السمساطية بدمشق، وقد ولى بعده التدريس بالصرخصية الخطيب برهان الدين بن جماعة والنظر بها، وكان معه تفويض منه متقدم التاريخ.

وفي يوم الخميس السادس من محرم احتيط على متولي البر ابن بهادر الشيرجي ورسم عليه بالعذراوية بسبب أنه اتهم بأخذ مطلب من نعمان البلقاء هو وكحلن الحاجب، وقاضي حسان، والظاهر أن هذه مرافعة من خصم عدو لهم، وأنه لم يكن من هذا شيء والله أعلم. ثم ظهر على رجل يزور المراسيم الشريفة وأخذ بسببه مدرس الصارمية لأنه كان عنده في المدرسة المذكورة، وضرب بين يدي ملك الأمراء، وكذلك على الشيخ زين الدين زيد المغربي

الشافعي، وذكر عنه أنه يطلب مرسوماً لمدرسة الأكرية، وضرب أيضاً ورسم عليه في حبس السد، وكذلك حبس الأمير شهاب الدين الذي كان متولي البلد، لأن كان قد كتب له مرسوماً شريفاً بالولاية، فلما فهم ذلك كاتب السر أطلع عليه نائب السلطنة فانفتح عليه الباب وحبسوا كلهم بالسد، وجاءت كتب الحجاج ليلة السبت الخامس عشر من المحرم وأخبرت بالخصب والرخص والأمن ولله الحمد والمنة. ودخل المحمل بعد المغرب ليلة السبت الحادي والعشرين منه، ثم دخل الحجيج بعده في الطين والرمض[1] وقد لقوا من ذلك من بلاد حوران عناء وشدة، ووقعت جمالات[2] كثيرة وسبيت نساء كثيرة، فإنا لله وإنا إليه راجعون، وحصل للناس تعب شديد. ولما كان يوم الاثنين الرابع والعشرين قطعت يد الذي زوّر المراسيم واسمه السراج عمر القفطي المصري، وهو شاب كاتب مطيق[3] على ما ذكر، وحمل في قفص على جمل وهو مقطوع اليد، ولم يحسم بعد والدم ينصب منها، وأركب معه الشيخ زين الدين زيد على جمل وهو منكوس وجهه إلى ناحية دبر الجمل، وهو عريان مكشوف الرأس، وكذلك البدر الحمصي على جمل آخر، وأركب الوالي شهاب الدين على جمل آخر وعليه تخفيفة صغيرة، وخف وقباء، وطيف بهم في محال البلد، ونودي عليهم: هذا جزاء من يزور على السلطان، ثم أودعوا حبس الباب الصغير وكانوا قبل هذا التعزير في حبس السد، ومنه أخذوا وأشهروا، فإنا لله وإنا إليه راجعون. انتهى.

مسك منجك وصفة الظهور عليه وكان مختفياً بدمشق حوالي سنة

لما كان يوم الخميس السابع والعشرين من المحرم جاء ناصح إلى نائب السلطنة الأمير سيف الدين استدمر فأخبره بأن منجك في دار الشرف الأعلى، فأرسل من فوره إلى ذلك المنزل الذي هو فيه بعض الحجبة ومن عنده من خواصه، فأحضر إلى بين يديه محتفظاً عليه جداً، بحيث إن بعضهم رزقه من ورائه واحتضنه، فلما واجهه نائب السلطنة أكرمه وتلقاه وأجلسه معه على مقعدته، وتلطف به وسقاه وأضافه، وقد قيل إنه كان صائماً فأفطر عنده، وأعطاه من ملابسه وقيّده وأرسله إلى السلطان في ليلته - ليلة الجمعة - مع جماعة من الجند وبعض الأمراء، منهم حسام الدين أمير حاجب، وقد كان أرسل نائب السلطنة ولده بسيف منجك من أوائل النهار، وتعجب الناس من هذه القضية جداً، وما كان يظن كثير من الناس إلا أنه قد عدم باعتبار أنه في بعض البلاد النائية، ولم يشعر الناس أنه في وسط دمشق وأنه يمشي بينهم متنكراً، وقد ذكر أنه كان يحضر الجمعات بجامع دمشق ويمشي بين الناس متنكراً في لبسه وهيئته، ومع هذا لن يغني حذر من قدر، ولكل أجل كتاب، وأرسل ملك الأمراء بالسيف وبملابسه التي كان يتنكر بها، وبعث هو مع جماعة من الأمراء الحجبة وغيرهم وجيش كثيف إلى الديار المصرية

---

(١) الرمض: حرقة القيظ، وأتت هنا بمعنى المطر، يأتي قبل الخريف فيجد الأرض حارة محترقة.
(٢) جمالات: جمع جمل.
(٣) مطيق: قادر.

مقيداً محتفظاً عليه، ورجع ابن ملك الأمراء بالتحف والهدايا والخلع والأنعام لوالده، ولحاجب الحجاب، ولبس ذلك الأمراء يوم الجمعة واحتفل الناس بالشموع وغيرها، ثم تواترت الأخبار بدخول منجك إلى السلطان وعفوه عنه وخلعته الكاملة عليه وإطلاقه له الحسام والخيول المسومة والألبسة المفتخرة، والأموال والأمان، وتقديم الأمراء والأكابر له من سائر صنوف التحف، وقدوم الأمير علي من صغد قاصداً إلى حماة لنيابتها، فنزل القصر الأبلق ليلة الخميس رابع صفر وتوجه ليلة الأحد سابعه.

وفي يوم الخميس الثامن عشر من صفر قدم القاضي بهاء الدين أبو البقاء من طرابلس بمرسوم شريف أن يعود إلى دمشق على وظائفه المبقاة عليه، وقد كان ولده وليّ الدين ينوب عنه فيها، فتلقاه كثير من الناس إلى أثناء الطريق، وبرز إليه قاضي القضاة تاج الدين إلى حرستا، وراح الناس إلى تهنئته إلى داره، وفرحوا برجوعه إلى وطنه. ووقع مطر عظيم في أول هذا الشهر، وهو أثناء شهر شباط، وثلج عظيم، فرويت البساتين التي كانت لها عن الماء عدة شهور، ولا يحصل لأحد من الناس سقي إلا بكلفة عظيمة ومشقة، ومبلغ كثير، حتى كاد الناس يقتتلون عليه بالأيدي والدبابيس وغير ذلك من البذل الكثير، وذلك في شهور كانون الأول والثاني، وأول شباط وذلك لقلة مياه الأنهار وضعفها، وكذلك بلاد حوران أكثرهم يروون من أماكن بعيدة في هذه الشهور، ثم منّ الله تعالى فجرت الأودية وكثرت الأمطار والثلوج، وغزرت الأنهار ولله الحمد والمنة. وتوالت الأمطار، فكأنه حصل السيل في هذه السنة من كانون إلى شباط فكأن شباط هو كانون وكانون لم يسل فيه ميزاب واحد. ووصل في هذا الشهر الأمير سيف الدين منجك إلى القدس الشريف ليبتني للسلطان مدرسة وخانقاه غربي المسجد الشريف، وأحضر الفرمان الذي كتب له بماء الذهب إلى دمشق وشاهده الناس ووقعت على نسخته وفيها تعظيم زائد ومدح وثناء له، وشكر على متقدم خدمه لهذه الدولة، والعفو عما مضى من زلاته، وذكر سيرته بعبارة حسنة.

وفي أوائل شهر ربيع الآخر رسم على المعلم سنجر مملوك ابن هلال صاحب الأموال الجزيلة بمرسوم شريف قدم مع البريد وطلب منه ستمائة ألف درهم، واحتيط على العمارة التي أنشأها عند باب النطافيين ليجعلها مدرسة، ورسم بأن يعمر مكانها مكتب للأيتام، وأن يوقف عليهم كتابتهم جارية عليهم، وكذلك رسم بأن يجعل في كل مدرسة من مدارس المملكة الكبار، وهذا مقصد جيد. وسلم المعلم سنجر إلي شاد الدواوين يستخلص منه المبلغ المذكور سريعاً فعاجل بحمل مائتي ألف، وسيرت مع أمير عشرة إلى الديار المصرية.

الاحتياط على الكتبة والدواوين

وفي يوم الأربعاء خامس عشر ربيع الآخر ورد من الديار المصرية أمير معه مرسوم بالاحتياط على دواوين السلطان، بسبب ما أكلوا من الأموال المرتبة للناس من الصدقات السلطانية وغير ذلك فرسم عليهم بدار العدل البرانية وألزموا بأموال جزيلة كثيرة، بحيث احتاجوا إلى بيع أثاثهم وأقمشتهم وفرشهم وأمتعتهم وغيرها، حتى ذكر أن منهم من لم يكن له شيء

يعطيه فأحضر بناته إلى الدكة ليبيعهن فتباكى الناس وانتحبوا رحمة ورقة لأبيهن، ثم أطلق بعضهم وهم الضعفاء منهم والفقراء الذين لا شيء معهم، وبقيت الغرامة على الكبراء منهم، كالصاحب والمستوفين، ثم شددت عليهم المطالبة وضربوا ضرباً مبرحاً، وألزموا الصاحب بمال كثير بحيث إنه احتاج إلى أن سأل من الأمراء والأكابر والتجار بنفسه وبأوراقه، فأسعفوه بمبلغ كثير يقارب ما ألزم به، بعد أن عرى ليضرب، ولكن ترك واشتهر أنه قد عين عوضه من الديار المصرية، انتهى.

موت فياض بن مهنا

ورد الخبر بذلك يوم السبت الثامن عشر منه، فاستبشر بذلك كثير من الناس، وأرسل إلى السلطان مبشرين بذلك، لأنه كان قد خرج عن الطاعة وفارق الجماعة، فمات موتة جاهلية بأرض الشقاق والنفاق، وقد ذكرت عن هذا أشياء صدرت عنه من ظلم الناس، والإفطار في شهر رمضان بلا عذر وأمره أصحابه وذويه بذلك في هذا الشهر الماضي، فإنا لله وإنا إليه راجعون، جاوز السبعين انتهى والله أعلم.

كائنة عجيبة جداً هي المعلم سنجر مملوك ابن هلال

في اليوم الرابع والعشرين من ربيع الآخر أطلق المعلم الهلالي بعد أن استوفوا منه تكميل ستمائة ألف درهم، فبات في منزله عند باب النطافيين سروراً بالخلاص، ولما أصبح ذهب إلى الحمام وقد ورد البريد من جهة السلطان من الديار المصرية بالاحتياط على أمواله وحواصله، فأقبلت الحجبة ونقباء النقبة والأعوان من كل مكان، فقصدوا داره فاحتاطوا بها وعليها بما فيها، ورسم عليه وعلى ولديه، وأخرجت نساؤه من المنزل في حالة صعبة، وفتشوا النساء وانتزعوا عنهن الحلى والجواهر والنفائس، واجتمعت العامة والغوغاء، وحضر بعض القضاة ومعه الشهود بضبط الأموال والحجج والرهون، وأحضروا المعلم ليستعلموا منه جلية ذلك، فوجدوا من حاصل الفضة أول يوم ثلاثمائة ألف وسبعين ألفاً، ثم صناديق أخرى لم تفتح، وحواصل لم يصلوا إليها لضيق الوقت ثم أصبحوا يوم الأحد في مثل ذلك، وقد بات الحرس على الأبواب والأسطحة لئلا يعدى عليها في الليل وبات هو وأولاده بالقلعة المنصورة محتفظاً عليهم، وقد رق له كثير من الناس لما أصابه من المصيبة العظيمة بعد التي قبلها سريعاً.

وفي أواخر هذا الشهر توفي الأمير **ناصر الدين محمد بن الدوادار السكري**، كان ذا مكانة عند أستاذه، ومنزلة عالية، ونال من السعادة في وظيفته أقصاها، ثم قلب الله قلب أستاذه عليه فضربه وصادره وعزله وسجنه، ونزل قدره عند الناس، وآل به الحال إلى أن كان يقف على أتباعه بفرسه ويشتري منهم ويحاككهم، ويحمل حاجته معه في سرجه، وصار مثلة بين الناس، بعد أن كان في غاية ما يكون فيه الدويدارية من العز والجاه والمال والرفعة في الدنيا، وحق على الله تعالى أن لا يرفع شيئاً من أمر الدنيا إلا وضعه.

وفي صبيحة يوم الأحد سابع عشره أفرج عن المعلم الهلالي وعن ولديه، وكانوا معتقلين

بالقلعة المنصورة، وسلمت إليهم دورهم وحواصلهم، ولكن أخذ ما كان حاصلاً في داره، وهو ثلاثمائة ألف وعشرون ألفاً، وختم على حججه ليعقد لذلك مجلس ليرجع رأس ماله منها عملاً بقوله تعالى: ﴿ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ ﴾ [سورة البقرة: ٢٧٩] ونودي عليه في البلد إنما فعل به ذلك لأنه لا يؤدي الزكاة ويعامل الربا، ، وحاجب السلطان ومتولي البلد، وبقية المتعممين والمشاعلية تنادي عليه في أسواق البلد وأرجائها.

وفي اليوم الثامن والعشرين منه ورد المرسوم السلطاني الشريف بإطلاق الدواوين إلى ديارهم وأهاليهم، ففرح الناس بسبب ذلك لخلاصهم مما كانوا فيه من العقوبة والمصادرة البليغة، ولكن لم يستمر بهم في مباشراتهم.

وفي أواخر الشهر تكلم الشيخ شهاب الدين المقدسي الواعظ، قدم من الديار المصرية تجاه محراب الصحابة. واجتمع الناس إليه وحضر من قضاة القضاة الشافعي والمالكي، فتكلم على تفسير آيات من القرآن، وأشار إلى أشياء من إشارات الصوفية بعبارات طلقة معربة حلوة صادعة للقلوب(١) فأفاد وأجاد، وودع الناس بعوده إلى بلده، ولما دعا استنهض الناس للقيام، فقاموا في حال الدعاء، وقد اجتمعت به بالمجلس فرأيته حسن الهيئة والكلام والتأدب، فالله يصلحه وإيانا آمين.

وفي مستهل جمادى الآخرة ركب الأمير سيف الدين بيدمر نائب حلب لقصد غزو بلاد سيس في جيش، لقاه الله النصر والتأييد. وفي مستهل هذا الشهر أصبح أهل القلعة وقد نزل جماعة من أمراء الأعراب من أعالي مجلسهم في عمائم وحبال إلى الخندق وخاضوه وخرجوا من عند جسر الزلامية فانطلق اثنان وأمسك الثالث الذي تبقى في السجن، وكأنه كان يمسك لهم الحبال حتى تدلوا فيها، فاشتد نكير نائب السلطنة على نائب القلعة ، وضرب ابنيه النقيب وأخاه وسجنهما، وكاتب في هذه الكائنة إلى السلطان، فورد المرسوم بعزل نائب القلعة وإخراجه منها، وطلبه لمحاسبة ما قبض من الأموال السلطانية في مدة ست سني مباشرته، وعزل ابنه عن النقابة وابنه الآخر عن استاذ دارية السلطان، فنزلوا من عزهم إلى عزلهم.

وفي يوم الاثنين سابع عشره جاء الأمير تاج الدين جبريل من عند الأمير سيف الدين بيدمر نائب حلب، وقد فتح بلدين من بلاد سيس، وهما طرسوس وأذنة، وأرسل مفاتيحهما صحبة جبريل المذكور إلى السلطان أيده الله، ثم افتتح حصوناً أخر كثيرة في أسرع مدة، وأيسر كلفة، وخطب القاضي ناصر الدين كاتب السر خطبة بليغة حسنة، وبلغني في كتاب أن أبواب كنيسة أذنة حملت إلى الديار المصرية في المراكب. **قلت**: وهذه هي أبواب الناصرية التي بالسفح، أخذها سيس عام قازان، وذلك في سنة تسع وتسعين وستمائة، فاستنقذت ولله الحمد في هذه السنة.

وفي أواخر هذا الشهر بلغنا أن الشيخ قطب الدين هرماس الذي كان شيخ السلطان طرد

---

(١) صادعة للقلوب: أي تستطيع الدخول إليها.

عن جناب مخدومه، وضرب وصودر، وخربت داره إلى الأساس، ونفي إلى مصياف، فاجتاز بدمشق ونزل بالمدرسة الجليلة ظاهر باب الفرج، وزرته فيمن سلم عليه، فإذا هو شيخ حسن عنده ما يقال ويتلفظ معرباً جيداً، ولديه فضيلة، وعنده تواضع وتصوف فالله يحسن عاقبته. ثم تحول إلى العذراوية.

وفي صبيحة يوم السبت سابع شهر رجب توجه الشيخ شرف الدين أحمد بن الحسن ابن قاضي الجبل الحنبلي إلى الديار المصرية مطلوباً على البريد إلى السلطان لتدريس الطائفة الحنبلية بالمدرسة التي أنشأها السلطان بالقاهرة المعزية، وخرج لتوديعه القضاة والأعيان إلى أثناء الطريق كتب الله سلامته. انتهى والله تعالى أعلم.

مسك نائب السلطنة استدمر البحناوي

وفي صبيحة يوم الأربعاء الخامس والعشرين من رجب قبض على نائب السلطنة الأمير سيف الدين استدمر، أخي يلبغا البحناوي، عن كتاب ورد من السلطان صحبة الدوادار الصغير، وكان يومئذٍ راكباً بناحية ميدان ابن بابك، فلما رجع إلى عند مقابر اليهود والنصارى احتاط عليه الحاجب الكبير ومن معه من الجيش وألزموه بالذهاب إلى ناحية طرابلس، فذهب من على طريق الشيخ رسلان، ولم يمكن من المسير، إلى دار السعادة، ورسم عليه من الجند من أوصله إلى طرابلس مقيماً بها بطالاً، فسبحان من بيده ملكوت كل شيء، يفعل ما يشاء وبقي البلد بلا نائب يحكم فيه الحاجب الكبير عن مرسوم السلطان، وعين للنيابة الأمير سيف الدين بيدمر النائب بحلب.

وفي شعبان وصل تقليد الأمير سيف الدين بيدمر بنيابة دمشق، ورسم له أن يركب في طائفة من جيش حلب ويقصد الأمير خيار بن مهنا ليحضره إلى خدمة السلطان، وكذلك رسم لنائب حماة وحمص أن يكونا عوناً للأمير سيف الدين بيدمر في ذلك، فلما كان يوم الجمعة رابعه التقوا مع خيار عند سلمية، فكانت بينهم مناوشات، فأخبرني الأمير تاج الدين الدودار ـ وكان مشاهد الوقعة ـ أن الأعراب أحاطوا بهم من كل جانب، وذلك لكثرة العرب وكانوا نحو الثمانمائة، وكانت الترك من حماة وحمص وحلب مائة وخمسين، فرموا الأعراب بالنشاب فقتلوا منهم طائفة كثيرة، ولم يقتل من الترك سوى رجل واحد، رماه بعض الترك ظاناً أنه من العرب بناشج فقتله، ثم حجز بينهم الليل، وخرجت الترك من الدائرة ونهبت أموال من الترك ومن العرب، وجرت فتنة وجردت أمراء عدة من دمشق لتدارك الحال، وأقام نائب السلطنة هناك ينتظر ورودهم، وقدم الأمير عمر الملقب بمصمع ابن موسى بن مهنا من الديار المصرية أميراً على الأعراب وفي صحبته الأمير بدر الدين بن جماز أميران على الأعراب، فنزل مصمع بالقصر الأبلق، ونزل الأمير رملة بالتوزية على عادته ثم توجها إلى ناحية خيار بمن معهما من عرب الطاعة ممن أضيف إليهم من تجريدة دمشق ومن يكون معهم من جيش حماة وحمص لتحصيل الأمير خيار، وإحضاره إلى الخدمة الشريفة فالله تعالى يحسن العاقبة.

دخول نائب السلطنة الأمير سيف الدين بيدمر إلى دمشق

وذلك صبيحة يوم السبت التاسع عشر من شعبان، أقبل بجيشه من ناحية حلب وقد بات بوطأة برزة ليلة السبت، وتلقاه الناس إلى حماة ودونها، وجرت له وقعة مع العرب كما ذكرنا، فلما كان هذا اليوم دخل في أبهة عظيمة، وتجمل حافل، فقبّل العتبة على العادة، ومشى إلى دار السعادة، ثم أقبلت جنائبه في لبوس هائلة باهرة، وعدد كثير وعدد ثمينة، وفرح المسلمون به لشهامته وصرامته وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، والله تعالى يؤيده ويسدده.

وفي يوم الجمعة ثاني شهر رمضان خطبت الحنابلة بجامع القبيبات وعزل عنه القاضي شهاب الدين قاضي العسكر الحنبلي، بمرسوم نائب السلطان لأنه كان يعرف أنه كان مختصراً بالحنابلة منذ عين إلى هذا الحين.

وفي يوم الجمعة السادس عشر منه قتل عثمان بن محمد المعروف بابن دبادب الدقاق بالحديد على ما شهد عليه به جماعة لا يمكن تواطؤهم على الكذب، أنه كان يكثر من شتم الرسول ﷺ، فرفع إلى الحاكم المالكي وادّعى عليه فأظهر التجابن، ثم استقر أمره على أن قتل قبّحه الله وأبعده ولا رحمه.

وفي يوم الاثنين السادس والعشرين منه قتل محمد المدعو زبالة الذي بهتار لابن معبد على ما صدر منه من سب النبي ﷺ ودعواه أشياء كفرية، وذكر عنه أنه كان يكثر الصلاة والصيام، ومع هذا يصدر منه أحوال بشعة في حق أبي بكر وعمر وعائشة أم المؤمنين، وفي حق النبي ﷺ، فضربت عنقه أيضاً في هذا اليوم في سوق الخيل ولله الحمد والمنة.

وفي ثالث عشر شوال خرج المحمل السلطاني وأميره الأمير ناصر الدين بن قراسنقر وقاضي الحجيج الشيخ شمس الدين محمد بن سند المحدث، أحد المفتيين.

وفي أواخر شهر شوال أخذ رجل يقال له حسن، كان خياطاً بمحلة الشاغور، ومن شأنه أن ينتصر لفرعون لعنه الله، ويزعم أنه مات على الإسلام ويحتج بأنه في سورة يونس حين أدركه الغرق قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝٩٠﴾ [يونس: ٩٠] ولا يفهم معنى قوله: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٩١﴾ [يونس: ٩١] ولا معنى قوله: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ ۝٢٥﴾ [النازعات: ٢٥] ولا معنى قوله: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا ۝١٦﴾ [المزمل: ١٦] إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث الكثيرة الدالة على أن فرعون أكفر الكافرين كما هو مجمع عليه بين اليهود والنصارى والمسلمين.

وفي صبيحة يوم الجمعة سادس ذي القعدة قدم البريد بطلب نائب السلطنة إلى الديار المصرية في تكريم وتعظيم، على عادة تنكز، فتوجه النائب إلى الديار المصرية وقد استصحب معه تحفاً سنية وهدايا معظمة تصلح للأيوان الشريف، في صبيحة السبت رابع عشره، خرج ومعه القضاة والأعيان من الحجبة والأمراء لتوديعه. وفي أوائل ذي الحجة ورد كتاب من نائب السلطنة بخطه إلى قاضي القضاة تاج الدين الشافعي يستدعيه إلى القدس الشريف، وزيارة قبر الخليل، ويذكر فيه ما عامله به السلطان من الإحسان والإكرام والاحترام والإطلاق والإنعام من الخيل

والتحف والمال والغلات فتوجه نحوه قاضي القضاة يوم الجمعة بعد الصلاة رابعه على ستة من خيل البريد، ومعه تحف وما يناسب من الهدايا، وعاد عشية يوم الجمعة ثامن عشره إلى بستانه.

ووقع في هذا الشهر والذي قبله سيول كثيرة جداً في أماكن متعددة، من ذلك ما شاهدنا آثاره في مدينة بعلبك، أتلف شيئاً كثيراً من الأشجار، واخترق أماكن كثيرة متعددة عندهم، وبقي آثار سيحه على أماكن كثيرة، ومن ذلك سيل وقع بأرض جعلوص أتلف شيئاً كثيراً جداً، وغرق فيه قاضي تلك الناحية، ومعه بعض الأخيار، كانوا وقوفاً على أكمة فدهمهم أمر عظيم، ولم يستطيعوا دفعه ولا منعه، فهلكوا. ومن ذلك سيل وقع بناحية حسة جمال فهلك به شيء كثير من الأشجار والأغنام والأعناب وغيرها. ومن ذلك سيل بأرض حلب هلك به خلق كثير من التركمان وغيرهم. رجالاً وأطفالاً وغنماً وإبلاً. قرأته من كتاب من شاهد ذلك عياناً، وذكر أنه سقط عليهم برد وزنت الواحدة منه فبلغت زنتها سبعمائة درهم وفيه ما هو أكبر من ذلك وأصغر، انتهى.

الأمر بإلزام القلندرية بترك حلق لحاهم وحواجبهم وشواربهم و[illegible] حرم بالإجماع حسب ما حكاه ابن حازم وإنما ذكره بعض الفقهاء [illegible]ية

ورد كتاب من السلطان أيده الله إلى دمشق في يوم الثلاثاء خامس عشر ذي الحجة، بإلزامهم بزي المسلمين وترك زي الأعاجم والمجوس، فلا يمكن أحد منهم من الدخول إلى بلاد السلطان حتى يترك هذا الزي المبتدع، واللباس المستشنع، ومن لا يلتزم بذلك يعزر شرعاً، ويقلع من قراره قلعاً، وكان اللائق أن يؤمروا بترك أكل الحشيشة الخسيسة، وإقامة الحد عليهم بأكلها وسكرها، كما أفتى بذلك بعض الفقهاء. والمقصود أنهم نودي عليهم بذلك في جميع أرجاء البلد ونواحيه في صبيحة يوم الأربعاء ولله الحمد والمنّة.

وبلغنا في هذا الشهر وفاة الشيخ الصالح الشيخ أحمد بن موسى الزرعي بمدينة جبراص يوم الثلاثاء خامس ذي الحجة، وكان من المبتلين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقيام في مصالح الناس عند السلطان والدولة، وله وجاهة عند الخاص والعام، رحمه الله. والأمير سيف الدين كحلن بن الأقوس، الذي كان حاجباً بدمشق وأميراً، ثم عزل عن ذلك كله، ونفاه السلطان إلى طرابلس فمات هناك.

وقدم نائب السلطنة الأمير سيف الدين بيدمر عائداً من الديار المصرية، وقد لقي من السلطان إكراماً وإحساناً زائداً فاجتاز في طريقه بالقدس الشريف فأقام به يوم عرفة والنحر، ثم سلك على طريق غابة أرصوف يصطاد بها فأصابه وعك منعه عن ذلك، فأسرع السير فدخل دمشق من صبيحة يوم الاثنين الحادي والعشرين منه في أبهة هائلة، ورياسة طائلة، وتزايد وخرج العامة للتفرج عليه والنظر إليه في مجيئه هذا، فدخل وعليه قباء معظم ومطرز، وبين يديه ما جرت به العادة من الحوفية والشاليشية وغيرهم، ومن نيته الإحسان إلى الرعية والنظر في أحوال الأوقاف وإصلاحها على طريقة تنكز رحمه الله انتهى والله أعلم.

ثم دخلت سنة اثنتين وستين وسبعمائة

استهلت هذه السنة المباركة وسلطان الإسلام بالديار المصرية والشامية والحرمين الشريفين وما يتبع ذلك ويلتحق به الملك الناصر حسن ابن الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاوون الصالحي، ولا نائب له بالديار المصرية، وقضاته بها هم المذكورون في العام الماضي، ووزيره القاضي ابن الخطيب ونائب الشام بدمشق الأمير سيف الدين بيدمر الخوارزمي، والقضاة والخطيب وبقية الأشراف وناظر الجيش والمحتسب هم المذكورون في العام الماضي، والوزير ابن قزوينة، وكاتب السر القاضي أمين الدين بن القلانسي، ووكيل بيت المال القاضي صلاح الدين الصفدي وهو أحد موقعي الدست الأربعة، وشاد الأوقاف الأمير ناصر الدين بن فضل الله، وحاجب الحجاب اليوسفي، وقد توجه إلى الديار المصرية ليكون بها أمير جنهار، ومتولي البلد ناصر الدين، ونقيب النقباء ابن الشجاعي. وفي صبيحة يوم الاثنين سادس المحرم قدم الأمير علي نائب حماة منها فدخل دمشق مجتازاً إلى الديار المصرية فنزل في القصر الأبلق ثم تحول إلى دار دويداره يلبغا الذي جدد فيها مساكن كثيرة بالقصاعين. وتردد الناس إليه للسلام عليه، فأقام بها إلى صبيحة يوم الخميس تاسعه، فسار إلى الديار المصرية.

وفي يوم الأحد تاسع عشر المحرم أحضر حسن بن الخياط من محلة الشاغور إلى مجلس الحكم المالكي من السجن، وناظر في إيمان فرعون وادّعى عليه بدعاوى لانتصاره لفرعون لعنه الله، وصدق ذلك باعترافه أولاً ثم بمناظرته في ذلك ثانياً وثالثاً، وهو شيخ كبير جاهل عامي ذا نص لا يقيم دليلاً ولا يحسنه، وإنما قام في مخيلته شبهة يحتج عليها بقوله إخباراً عن فرعون حين أدركه الغرق، وأحيط به ورأى بأس الله، وعاين عذابه الأليم، فقال حين الغرق إذاً ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يونس:٩٠] قال الله تعالى: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ [يونس:٩١] فاعتقد هذا العامي أن هذا الإيمان الذي صدر من فرعون والحالة هذه ينفعه، وقد قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [غافر:٨٤، ٨٥] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس:٩٦ ٩٧] الآية. قَالَ أُجِيبَتْ دَّعْوَتُكُمَا ثم حضر في يوم آخر وهو مصمم على ضلاله فضرب بالسياط، فأظهر التوبة ثم أعيد إلى السجن في زنجير، ثم أحضر يوماً ثالثاً وهو يستهل بالتوبة فيما يظهر، فنودي عليه في البلد ثم أطلق.

وفي ليلة الثلاثاء الرابع عشر طلع القمر خاسفاً كله ولكن كان تحت السحاب، فلما ظهر وقت العشاء وقد أخذ في الجلاء صلّى الخطيب صلاة الكسوف قبل العشاء، وقرأ في الأولى بسورة العنكبوت وفي الأخرى بسورة يسٓ، ثم صعد المنبر فخطب ثم نزل بعد العشاء. وقدمت كتب الحجاج يخبرون بالرخص والأمن، واستمرت زيادة الماء من أول ذي الحجة وقبلها إلى

هذه الأيام من آخر هذا الشهر والأمر على حاله، وهذا شيء لم يعهد كما أخبر به عامة الشيوخ، وسببه أنه جاء ماء من بعض الجبال انهال في طريق النهر.

ودخل المحمل السلطاني يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من المحرم قبل الظهر، ومسك أمير الحاج شركتمر المارداني الذي كان مقيماً بمكة شرَّفها الله تعالى، وحماها من الأوغاد، فلما عادت التجريدة مع الحجاج إلى دمشق صحبه القراسنقر من ساعة وصوله إلى دمشق، فقيّد وسيّر إلى الديار المصرية على البريد، وبلغنا أن الأمير سند أمير مكة غرر بجند السلطان الذين ساروا صحبة ابن قراسنقر وكبسهم وقتل من حواشيهم وأخذ خيولهم، وأنهم ساروا جرائد بغير شيء مسلوبين إلى الديار المصرية، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفي أول شوال اشتهر فيه وتواتر (١) خبر الفناء الذي بالديار المصرية بسبب كثرة المستنقعات من فيض النيل عندهم، على خلاف المعتاد، فبلغنا أنه يموت من أهلها كل يوم فوق الألفين، فأما المرض فكثير جداً. وغلت الأسعار لقلة من يتعاطى الأشغال، وغلا السكر والأمياه والفاكهة جداً، وتبرز السلطان إلى ظاهر البلد وحصل له تشويش أيضاً، ثم عوفي بحمد الله.

وفي ثالث ربيع الآخر قدم من الديار المصرية ابن الحجاف رسول صاحب العراق لخطبه بنت السلطان، فأجابهم إلى ذلك بشرط أن يصدقها مملكة بغداد، وأعطاهم مستحقاً سلطانياً، وأطلق لهم من التحف والخلع والأموال شيئاً كثيراً، ورسم الرسول بمشترى قرية من بيت المال لتوقف على الخانقاه التي يريد أن يتخذها بدمشق قريباً من الطواويس، وقد خرج لتلقيه نائب الغيبة وهو حاجب الحجاب، والدولة والأعيان. وقرأت في يوم الأحد سابع شهر ربيع الآخر كتاباً ورد من حلب بخط الفقيه العدل شمس الدين العراقي من أهلها، ذكر فيه أنه كان في حضرة نائب السلطنة في دار العدل يوم الاثنين السابع عشر من ربيع الأول وأنه أحضر رجل قد ولد له ولد عاش ساعة ومات، وأحضره معه وشاهده الحاضرون، وشاهده كاتب الكتاب، فإذا هو شكل سوي له على كل كتف رأس بوجه مستدير، والوجهان إلى ناحية واحدة فسبحان الخلاّق العليم.

وبلغنا أنه في هذا الشهر سقطت المنارة التي بنيت للمدرسة السلطانية بمصر، وكانت مستجدة على صفة غريبة، وذلك أنها منارتان على أصل واحد فوق قبو الباب الذي للمدرسة المذكورة، فلما سقطت أهلكت خلقاً كثيراً من الصناع بالمدرسة والمارة والصبيان الذين في مكتب المدرسة، ولم ينج من الصبيان فيما ذكر شيء سوى ستة، وكان جملة من هلك بسببها نحو ثلاثمائة نفس، وقيل أكثر وقيل أقل، فإنا لله وإنا إليه راجعون. وخرج نائب السلطنة الأمير سيف الدين بيدمر إلى الغيضة لإصلاحها وإزالة ما فيها من الأشجار المؤذية والدغل يوم الاثنين التاسع والعشرين من الشهر، وكان سلخه، وخرج معه جميع الجيش من الأمراء وأصحابه،

---

(١) تواتر الخبر: أي كثر رواته.

وأجناد الحلقة برمتهم لم يتأخر منهم أحد، وكلهم يعملون فيها بأنفسهم وغلمانهم، وأحضر إليهم خلق من فلاحي المرج والغوطة وغير ذلك، ورجع يوم السبت خامس الشهر الداخل وقد نظفوها من الغل والدغل والغش.

واتفقت كائنة غريبة لبعض السؤال، وهو أنه اجتمع جماعة منهم قبل الفجر ليأخذوا خبزاً من صدقة تربة امرأة ملك الأمراء تنكز عند باب الخواصين، فتضاربوا فيما بينهم فعمدوا إلى رجل منهم فخنقوه خنقاً شديداً، وأخذوا منه جراباً فيه نحو من أربعة آلاف درهم. وشيء من الذهب وذهبوا على حمية، وأفاق هو من الغشي فلم يجدهم، واشتكى أمره إلى متولي البلد فلم يظفر بهم إلى الآن، وقد أخبرني الذي أخذوا منه أنهم أخذوا منه ثلاثة آلاف درهم معاملة، وألف درهم بندقية وديناربن وزنهما ثلاثة دنانير. كذا قال لي إن كان صادقاً.

وفي صبيحة يوم السبت خامس جمادى الأولى طلب قاضي القضاة شرف الدين الحنفي للشيخ علي بن البنا، وقد كان يتكلم في الجامع الأموي على العوام؛ وهو جالس على الأرض شيء من الوعظيات وما أشبهها من صدره، فكأنه تعرض في غضون كلامه لأبي حنيفة رحمه الله، فأحضر فاستتيب من ذلك، ومنعه قاضي القضاة شرف الدين الكفري من الكلام على الناس وسجنه، وبلغني أنه حكم بإسلامه وأطلقه من يومه، وهذا المذكور ابن البنا عنده زهادة وتعفف، وهو مصري يسمع الحديث ويقرؤه، ويتكلم بشيء من الوعظيات والرقائق، وضرب أمثال، وقد مال إليه كثير من العوام واستحلوه، وكلامه قريب إلى مفهومهم، وربما أضحك في كلامه، وحاضرته وهو مطبوع قريب إلى الفهم، ولكنه أشار فيما ذكر عنه في شطحته إلى بعض الأشياء التي لا تنبغي أن تذكر، والله الموفق، ثم إنه جلس للناس في يوم الثلاثاء ثامنه فتكلم على عادته فتطلبه القاضي المذكور فيقال إن المذكور تعنت. انتهى والله أعلم.

سلطنة الملك المنصور صلاح الدين محمد

ابن الملك المظفر حاجي ابن الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاوون بن عبد الله الصالحي وزوال دولة عمه الملك الناصر حسن ابن الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاوون.

لما كثر طمعه وتزايد شرهه، وساءت سيرته إلى رعيته، وضيق عليهم في معايشهم وأكسابهم، وبنى البنايات الجبارة التي لا يحتاج إلى كثير منها، واستحوذ على كثير من أملاك بيت المال وأمواله، واشترى منه قرايا كثيرة ومدناً أيضاً ورساتيق، وشق ذلك على الناس جداً، ولم يتجاسر أحد من القضاة ولا الولاة ولا العلماء ولا الصلحاء على الإنكار عليه، ولا الهجوم عليه، ولا النصيحة له بما هو المصلحة له وللمسلمين، انتقم الله منه فسلّط عليه جنده وقلب قلوب رعيته من الخاصة والعامة عليه، لما قطع من أرزاقهم ومعاليمهم وجوامكهم وأخبازهم، وأضاف ذلك جميعه إلى خاصته، فقلت الأمراء والأجناد والمقدمون والكتاب والموقعون، ومس الناس الضرر وتعدى على جوامكهم وأولادهم ومن يلوذ بهم، فعند ذلك قدّر الله هلاكه على يد أحد خواصه وهو الأمير الكبير سيف الدين يلبغا الخاصكي. وذلك أنه أراد السلطان

مسكه فاعتد لذلك، وركب السلطان لمسكه فركب هو في جيش، وتلاقيا في ظاهر القاهرة حيث كانوا نزولاً في الوطاقات، فهزم السلطان بعد كل حساب، وقد قتل من الفريقين طائفة، ولجأ السلطان إلى قلعة الجبل، كلا لاوزر ولن ينجي حذر من قدر، فبات الجيش بكماله محدقاً بالقلعة، فهمَّ بالهرب في الليل على هجن كان قد اعتدها ليهرب إلى الكرك، فلما برز مسك واعتقل ودخل به إلى دار يلبغا الخاصكي المذكور، وكان آخر العهد به، وذلك في يوم الأربعاء تاسع جمادى الأولى من هذه السنة، وصارت الدولة والمشورة متناهية إلى الأمير سيف الدين يلبغا الخاصكي، فاتفقت الآراء واجتمعت الكلمة وانعقدت البيعة للملك المنصور صلاح الدين محمد بن المظفر حاجي، وخطب الخطباء، وضربت السكة، وسارت البريدية للبيعة باسمه الشريف، هذا وهو ابن ثنتي عشرة، وقيل أربع عشرة، ومن الناس من قال ست عشرة، ورسم في عود الأمور إلى ما كانت عليه في أيام والده الناصر محمد بن قلاوون، وأن يبطل جميع ما كان أخذه الملك الناصر حسن، وأن تعاد المرتبات والجوامك التي كان قطعها، وأمر بإحضار طار وطاشتمر القاسمي من سجن اسكندرية إلى بين يديه ليكونا أتابكاً، وجاء الخبر إلى دمشق صحبة الأمير سيف الدين بزلار شاد التربخاناة أحد أمراء الطبلخانات بمصر صبيحة يوم الأربعاء سادس عشر الشهر، فضربت البشائر بالقلعة وطبلخانات الأمراء على أبوابهم، وزين البلد بكماله، وأخذت البيعة له صبيحة يومه بدار السعادة وخلع عن نائب السلطنة تشريف هائل، وفرح أكثر الأمراء والجند والعامة ولله الأمر، وله الحكم. قال تعالى: ﴿ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٢٦] الآية. ووجد على حجر بالحميرية فقرئت للمأمون فإذا مكتوب:

مـا اخْـتَـلَـفَ الـلَّـيْـلُ وَالـنَّـهَـارُ وَلا ... دَارَتْ نُـجُـومُ الـسَّـمَـاءِ فِـي الـفَـلَـكِ
إلاَّ لِـنَـقْـلِ الـنَّـعِـيـمِ مِـنْ مَـلِـكٍ ... قَـدْ زَالَ سُـلْـطَـانُـهُ إلَـى مَـلِـكِ
وَمُـلْـكُ ذِي الـعَـرْشِ دَائِـمٌ أَبَـداً ... لَـيْـسَ بِـفَـانٍ وَلا بِـمُـشْـتَـرِكِ

وروي عن سليمان بن عبد الملك بن مروان أنه خرج يوماً لصلاة الجمعة، وكان سوي الخلق حسنه، وقد لبس حلة خضراء، وهو شاب ممتلىء شباباً، وينظر في أعطافه ولباسه[1]، فأعجبه ذلك من نفسه، فلما بلغ إلى صرحة الدار تلقته جنية في صورة جارية من حظاياه وأنشدته:

أَنْـتَ نِـعْـمَـةٌ لَـوْ كُـنْـتَ تَـبْـقَـى ... غَـيْـرَ أَنْ لا حَـيَـاةَ لِـلإِنْـسَـانِ
لَـيْـسَ فِـيـمَـا عَـلِـمْـتُ فِـيـكَ عَـيْـبـاً يُـذْكَـرُ غَـيْـرَ أَنَّـكَ فَـانِ

فصعد المنبر الذي في جامع دمشق وخطب الناس، وكان جهوري الصوت يسمع أهل الجامع وهو قائم على المنبر، فضعف صوته قليلاً قليلاً حتى لم يسمعه أهل المقصورة، فلما فرغ من الصلاة حمل إلى منزله فاستحضر تلك الجارية التي تبدت تلك الجنية على صورتها.

(١) ينظر في أعطافه ولباسه: معجباً بنفسه، والعطف: الإبط والجنب.

وقال: كيف أنشدتيني تينك البيتين؟ فقالت: ما أنشدتك شيئاً. فقال: الله أكبر نعيت والله إلى نفسي. فأوصى أن يكون الخليفة من بعده ابن عمه عمر بن عبد العزيز رحمه الله.

وقدم نائب طرابلس المعزول عليلاً والأمير سيف الدين استدمر الذي كان نائب دمشق وكانا مقيمان بطرابلس جميعاً، في صبيحة يوم السبت السادس والعشرين منه، فدخلا دار السعادة فلم يحتفل بهما نائب السلطنة.

وتكامل في هذا الشهر تجديد الرواق غربي باب الناطفانيين إصلاحاً بدرابزيناته وتبييضاً لجدرانه ومحراب فيه، وجعل له شبابيك في الدرابزينات، ووقف فيه قراءة بعد قرآن المغرب، وذكروا أن شخصاً رأى مناماً فقصه على نائب السلطنة فأمر بإصلاحه. وفيه نهض بناء المدرسة التي إلى جانب هذا المكان من الشباك، وقد كان أسسها أولاً علم الدين بن هلال، فلما صودر أخذت منه وجعلت مضافة إلى السلطان، فبنوا فوق الأساسات وجعلوا لها خمسة شبابيك من شرقها، وباباً قبلياً ومحراباً، وبركة عراقية، وجعلوا حائطها بالحجارة البيض والسود، وكملوا عاليها بالآجر، وجاءت في غاية الحسن، وقد كان السلطان الناصر حسن قد رسم بأن تجعل مكتباً للأيتام فلم يتم أمرها حتى قتل كما ذكرنا.

واشتهر في هذا الشهر أن بقرة كانت تجيء من ناحية باب الجابية تقصد جراء الكلبة قد ماتت أمهم، وهي في ناحية كنيسة مريم في خرابة، فتجيء إليهم فتنسطح على شقها فترضع أولئك الجراء منها، تكرر هذا منها مراراً، وأخبرني المحدث المفيد التقي نورالدين أحمد بن المقصوص بمشاهدته ذلك.

وفي العشر الأوسط من جمادى الآخرة نادى منادٍ من جهة نائب السلطنة حرسه الله تعالى في البلد أن النساء يمشين في تستر ويلبسن أزرهن إلى أسفل من سائر ثيابهن، ولا يظهرن زينة ولا يداً، فامتثلن ذلك ولله الحمد والمنّة. وقدم أمير العرب جبار بن مهنا في أبهة هائلة، وتلقاه نائب السلطنة إلى أثناء الطريق، وهو قاصد إلى الأبواب الشريفة. وفي أواخر رجب قدم الأمير سيف الدين تمر المهمندار من نيابة غزة حاجب الحجاب بدمشق، وعلى مقدمة رأس الميمنة، وأطلق نائب السلطنة مكوسات كثيرة، مثل مكس الحداية والخزل المرددن الحلب والطبابي، وأبطل ما كان يؤخذ من المحتسبين زيادة على نصف درهم، وما يؤخذ من أجرة عدة الموتى كل ميت بثلاثة ونصف، وجعل العدة التي في القيسارية للحاجة مسبلة لا تنحجر على أحد في تغسيل ميت، وهذا حسن جداً، وكذلك منع التحجر في بيع البلح المختص به، وبيع مثل بقية الناس من غير طرحان فرخص على الناس في هذه السنة جداً، حتى قيل إنه بيع القنطار بعشرة، وما حولها.

وفي شهر شعبان قدم الأمير جبار بن مهنا من الديار المصرية فنزل القصر الأبلق وتلقاه نائب السلطنة وأكرم كل منهما الآخر، ثم ترحل بعد أيام قلائل، وقدم الأمراء الذين كانوا بحبس الإسكندرية في صبيحة يوم الجمعة سابعه، وفيهم الأمير شهاب الدين بن صبح وسيف الدين طيدمر الحاجب، وطيبرق ومقدم ألف، وعمرشاه، وهذا ونائب السلطنة الأمير سيف الدين

بيدمر أعزه الله يبطل المكوسات شيئاً بعد شيء مما فيه مضرة بالمسلمين، وبلغني عنه أن من عزمه أن يبطل جميع ذلك إن أمكنه الله من ذلك، أمين انتهى.

تنبيه على واقعة غريبة واتفاقٍ عجيب

نائب السلطنة الأمير سيف الدين بيدمر فيما بلغنا في نفسه عتب على أتابك الديار المصرية الأمير سيف الدين يلبغا الخاصكي مدبر الدولة بها، وقد توسم وتوهم منه أنه يسعى في صرفه عن الشام، وفي نفس نائبنا قوة وصرامة شديدة، فتنسم منه ببعض الإباء عن طاعة يلبغا، مع استمراره على طاعة السلطان، وأنه إن أتفق عزل من قبل يلبغا أنه لا يسمع ولا يطيع، فعمل أعمالاً واتفق في غضون هذا الحال موت نائب القلعة المنصورة بدمشق وهو الأمير سيف الدين برناق الناصري فأرسل نائب السلطنة من أصحابه وحاشيته من يتسلم القلعة برمتها، ودخل هو بنفسه إليها، وطلب الأمير زين الدين زبالة الذي كان فقيهاً ثم نائبها وهو من أخبر الناس بها وبخطاتها وحواصلها، فدار معه فيها وأراه حصونها وبروجها ومفاتحها وأغلاقها ودورها وقصورها وعددها وبركتها، وما هو معد فيها ولها، وتعجب الناس من هذا الاتفاق في هذا الحال، حيث لم يتفق ذلك لأحد من النواب قبله قط، وفتح الباب الذي هو تجاه دار السعادة وجعل نائب السلطنة يدخل منه إلى القلعة ويخرج بخدمه وحشمه وأبهته يكشف أمرها وينظر في مصالحها أيده الله.

ولما كان يوم السبت خامس عشر شعبان ركب في الموكب على العادة واستدعى الأمير سيف الدين استدمر الذي كان نائب الشام، وهو في منزله كالمعتقل فيه، لا يركب ولا يراه أحد، فأحضره إليه وركب معه، وكذلك الأمراء الذين قدموا من الديار المصرية: طيبرق، وهو أحد أمراء الألوف وطيدمر الحاجب، كان، وأما ابن صبح وعمر شاه فإنهما كانا قد سافرا يوم الجمعة عشية النهار، والمقصود أنه سيرهم وجميع الأمراء بسوق الخيل، ونزل بهم كلهم إلى دار السعادة فتعاهدوا وتعاقدوا واتفقوا على أن يكونوا كلهم كتفاً واحداً، وعصبة واحدة على مخالفة من أرادهم بسوء وأنهم يد على من سواهم ممن أراد عزل أحد منهم أو قتله، وأن من قاتلهم قاتلوه، وأن السلطان هو ابن استاذهم الملك المنصور بن حاجي بن الناصر بن المنصور قلاوون، فطاوعوا كلهم لنائب السلطنة على ما أراد من ذلك، وحلفوا له وخرجوا من عنده على هذا الحلف، وقام نائب السلطنة على عادته في عظمة هائلة، وأبهة كثيرة، والمسؤول من الله حسن العاقبة.

وفي صبيحة يوم الأحد سادس عشر شعبان أبطل ملك الأمراء المكس الذي يؤخذ من الملح وأبطل مكس الأفراح، وأبطل أن لا تغني امرأة لرجال، ولا رجل لنساء، وهذا في غاية ما يكون من المصلحة العظيمة الشامل نفعها. وفي يوم الثلاثاء ثامن عشره شرع نائب السلطنة سيف الدين بيدمر في نصب مجانيق على أعالي بروج القلعة، فنصبت أربعة مجانيق من جهاتها الأربع، وبلغني أنه نصب آخر في أرضها عند البحرة، ثم نصب آخر وآخر حتى شاهد الناس ستة مجانيق على ظهور الأبرجة، وأخرج منها القلعية وأسكنها خلقاً من الأكراد والتركمان وغيرهم

من الرجال الأنجاد، ونقل إليها من الغلات والأطعمة والأمتعة وآلات الحرب شيئاً كثيراً، واستعد للحصار إن حوصر فيها بما يحتاج إليه من جميع ما يرصد من القلاع، بما يفوت الحصر. ولما شاهد أهل البساتين المجانيق قد نصبت في القلعة انزعجوا وانتقل أكثرهم من البساتين إلى البلد، ومنهم من أودع عند أهل البلد نفائس أموالهم وأمتعتهم، والعاقبة إلى خير إن شاء الله تعالى.

وجاءتني فتيا صورتها: ما تقول السادة العلماء في ملك اشترى غلاماً فأحسن إليه وأعطاه وقدمه، ثم إنه وثب على سيده فقتله وأخذ ماله ومنع ورثته منه، وتصرف في المملكة، وأرسل إلى بعض نواب البلاد ليقدم عليه ليقتله، فهل له الامتناع منه؟ وهل إذا قاتل دون نفسه وماله حتى يقتل يكون شهيداً أم لا؟ وهل يثاب الساعي في خلاص حق ورثة الملك المقتول من القصاص والمال؟ أفتونا مأجورين..

فقلت للذي جاءني بها من جهة الأمير: إن كان مراده خلاص ذمته فيما بينه وبين الله تعالى فهو أعلم بنيته في الذي يقصده، ولا يسعى في تحصيل حق معين إذا ترتب على ذلك مفسدة راجحة على ذلك، فيؤخر الطلب إلى وقت إمكانه بطريقه، وإن كان مراده بهذا الاستفتاء أن يتقوى بها في جمع الدولة والأمراء عليه، فلا بد أن يكتب عليها كبار القضاة والمشايخ أولاً، ثم بعد ذلك بقية المفتيين بطريقه والله الموفق للصواب.

هذا وقد اجتمع على الأمير نائب السلطنة جميع أمراء الشام، حتى قيل إن فيهم من نواب السلطنة سبعة عشر أميراً، وكلهم يحضر معه المواكب الهائلة، وينزلون معه إلى دار السعادة، ويمد لهم الأسمطة ويأكل معهم، وجاء الخبر بأن الأمير منجك الطرجاقسي المقيم ببيت المقدس قد أظهر الموافقة لنائب السلطنة، فأرسل له جبريل ثم عاد فأخبر بالموافقة، وأنه قد استحوذ على غزة ونائبه، وقد جمع وحشد واستخدم طوائف، ومسك على الجادة فلا يدع أحداً يمر إلا أن يفتش ما معه، لاحتمال إيصال كتب من هناهنا إلى هاهنا، ومع هذا كله فالمعدلة ثابتة جداً، والأمن حاصل هناك، فلا يخاف أحد وكذلك بدمشق وضواحيها، لا يهاج أحد ولا يتعدى أحد على أحد، ولا ينهب أحد لأحد شيئاً ولله الحمد، غير أن بعض أهل البساتين توهموا وركبوا إلى المدينة وتحولوا، وأودع بعضهم نفائس ما عندهم، وأقاموا بها على وجل، ذلك لما رأوا المجانيق الستة منصوبة على رؤوس قلال الأبراج التي للقلعة، ثم أحضر نائب السلطنة القضاة الأربعة والأمراء كلهم وكتبوا مكتوباً سطره بينهم كاتب السر، أنهم راضون بالسلطان كارهون ليلبغا، وأنهم لا يريدونه ولا يوافقون على تصرفه في المملكة، وشهد عليهم القضاة بذلك، وأرسلوا المكتوب مع مملوك للأمير طيبغا الطويل، نظير يلبغا بالديار المصرية، وأرسل منجك إلى نائب السلطنة يستحثه في الحضور إليه في الجيش ليناجزوا المصريين، فعين نائب الشام من الجيش طائفة يبرزون بين يديه، وخرجت التجريدة ليلة السبت التاسع والعشرين من شعبان صحبة استدمر الذي كان نائب الشام مدداً للأمير منجك في ألفين، ويذكر الناس أن نائب السلطنة بمن بقي من الجيش يذهبون على إثرهم، ثم خرجت أخرى بعدها ثلاثة آلاف،

ليلة الثلاثاء الثامن من رمضان كما سيأتي.

وتوفي الشيخ الحافظ **علاء الدين مغلطاي** المصري بها في يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من شعبان من هذه السنة، ودفن من الغد بالزيدانية، وقد كتب الكثير وصنّف وجمع، وكانت عنده كتب كثيرة رحمه الله.

وفي مستهل رمضان أحضر جماعة من التجار إلى دار العدل ظاهر باب النصر ليباع شيء عليهم من القند والفولاذ والزجاج مما هو حواصل يلبغا، فامتنعوا من ذلك خوفاً من استعادته منهم على تقدير، فضرب بعضهم منهم شهاب الدين بن الصواف بين يدي الحاجب، وشاد الدواوين، ثم أفرج عنهم في اليوم الثاني ففرج الله بذلك.

وخرجت التجريدة ليلة الثلاثاء بعد العشاء صحبة ثلاثة مقدمين منهم عراق ثم ابن صبح ثم ابن طرغية، ودخل نائب طرابلس الأمير سيف الدين تومان إلى دمشق صبيحة يوم الأربعاء، عاشر رمضان، فتلقاه ملك الأمراء سيف الدين بيدمر إلى الأقصر، ودخلا معاً في أبهة عظيمة، فنزل تومان في القصر الأبلق، وبرز من معه من الجيوش إلى عند قبة يلبغا، هذا والقلعة منصوب عليها المجانيق، وقد ملئت حرساً شديداً، ونائب السلطنة في غاية التحفظ. ولما أصبح يوم الخميس صمم تومان تمر على ملك الأمراء في الرحيل إلى غزة ليتوافى هو وبقية من تقدمه من الجيش الشامي، ومنجك ومن معه هنالك، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، فأجابه إلى ذلك وأمر بتقدم السبق بين يديه في هذا اليوم، فخرج السبق وأغلقت القلعة بابها المسلوك الذي عند دار الحديث، فاستوحش الناس من ذلك، والله يحسن العاقبة.

خروج ملك الأمراء بيدمر من دمشق إلى غزة

صلى الجمعة بالمقصورة الثاني عشر من رمضان نائب السلطنة، ونائب طرابلس، ثم اجتمعا بالخطبة في مقصورة الخطابة، ثم راح لدار السعادة ثم خرج طلبه في تجمل هائل على ما ذكر بعد العصر، وخرج معهم فاستعرضهم ثم عاد إلى دار السعادة فبات إلى أن صلّى الصبح، ثم ركب خلف الجيش هو ونائب طرابلس، وخرج عامة من بقي من الجيش من الأمراء وبقية الحلقة، وسلّمهم الله، وكذلك خرج القضاة، وكذا كاتب السر ووكيل بيت المال وغيرهم من كتاب الدست، وأصبح الناس يوم السبت وليس أحد من الجند بدمشق، سوى نائب الغيبة الأمير سيف الدين بن حمزة التركماني، وقريبه والي البر، ومتولي البلد الأمير بدر الدين صدقة بن أوحد، ومحتسب البلد ونواب القضاة والقلعة على حالها، والمجانيق منصوبة كما هي. ولما كان صبح يوم الأحد رجع القضاة بكرة ثم رجع ملك الأمراء في أثناء النهار هو وتومان تمر، وهم كلهم في لبس وأسلحة تامة، وكل منهما خائف من الآخر أن يمسكه، فدخل هذا دار السعادة وراح الآخر إلى القصر الأبلق، ولما كان بعد العصر قدم منجك واستدمر كان نائب السلطنة بدمشق، وهما مغلولان قد كسرهما من كان قدم على منجك من العساكر التي جهزها بيدمر إلى منجك قوة له على المصريين، وكان ذلك على يدي الأمير سيف الدين تمر حاجب الحجاب ويعرف بالمهمندار، قال لمنجك كلنا في خدمة من بمصر، ونحن لا نطيعك على

نصرة بيدمر، فتقاولا ثم تقاتلا فهزم منجك وذهب تمر ومنجك ومن كان معهما كابن صبح وطيدمر. ولما أصبح الصباح من يوم الاثنين خامس عشر لم يوجد لتومان تمر وطبترق ولا أحد من أمراء دمشق عين ولا أثر، قد ذهبوا كلهم إلى طاعة صاحب مصر، ولم يبق بدمشق من أمرائها سوى ابن قراسنقر من الأمراء المتقدمين، وسوى بيدمر ومنجك واستدمر، والقلعة قد هيئت والمجانيق منصوبة على حالها، والناس في خوف شديد من دخول بيدمر إلى القلعة، فيحصل بعد ذلك عند قدوم الجيش المصري حصار وتعب ومشقة على الناس، والله يحسن العاقبة.

ولما كان في أثناء نهار الاثنين سادس عشره دقت البشائر في القلعة وأظهر أن يلبغا الخاصكي قد نفاه السلطان إلى الشام، ثم ضربت وقت المغرب ثم بعد العشاء في صبيحة يوم الثلاثاء أيضاً، وفي كل ذلك يركب الأمراء الثلاثة منجك وبيدمر واستدمر ملبسين، ويخرجون إلى خارج البلد، ثم يعودون، والناس فيما يقال ما بين مصدق ومكذب، ولكن قد شرع إلى تستير القلعة وتهييء الحصار فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ثم تبين أن هذه البشائر لا حقيقة لها، فاهتم في عمل ستائر القلعة وحمل الزلط والأحجار إليها، الأغنام والحواصل، وقد وردت الأخبار بأن الركاب الشريف السلطاني وصحبته يلبغا في جميع جيش مصر قد عدا غزة، فعند ذلك خرج الصاحب وكاتب السر والقاضي الشافعي وناظر الجيش ونقباؤه ومتولي البلد وتوجهوا تلقاء حماة لتلقي الأمير علي الذي قد جاءه تقليد دمشق، وبقي البلد شاغراً عن حاكم فيها سوى المحتسب وبعض القضاة، والناس كغنم لا راعي لهم، ومع هذا الأحوال صالحة والأمور ساكنة، لا يعدو أحد على أحد فيما بلغنا، هذا وبيدمر ومنجك واستدمر في تحصين القلعة وتحصيل العدد والأقوات فيها، والله غالب على أمره، ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨] الستائر تعمل فوق الأبرجة، وصلى الأمير بيدمر صلاة الجمعة تاسع عشر الشهر في الشباك الكمالي، في مشهد عثمان، وصلى عنده منجك إلى جانبه داخل موضع القضاة، وليس هناك أحد من الحجبة ولا النقباء، وليس في البلد أحد من المباشرين بالكلية، ولا من الجند إلا القليل، وكلهم قد سافروا إلى ناحية السلطان، والمباشرون إلى ناحية حماة لتلقي الأمير على نائب الشام المحروس، ثم عاد إلى القلعة ولم يحضر الصلاة استدمر، لأنه قيل كان منقطعاً أو قد صلّى في القلعة.

وفي يوم السبت العشرين من الشهر وصل البريد من جهة السلطان من أبناء الرسول إلى نائب دمشق يستعلم طاعته أو مخالفته، وبعث عليه فيما اعتمده من استحوذ على القلعة ويخطب فيها، وادخار الآلات والأطعمات فيها، وعدم المجانيق والستائر عليها، وكيف تصرف في الأموال السلطانية تصرف الملك والملوك، فتنصل ملك الأمراء من ذلك، وذكر أنه إنما أرصد في القلعة جنادتها وأنه لم يدخلها، وأن أبوابها مفتوحة، وهي قلعة السلطان، وإنما له غريم بينه وبينه الشرع والقضاة الأربعة ـ يعني بذلك يلبغا ـ وكتب بالجواب وأرسله صحبة البريدي وهو كتكلدي مملوك بقطبه الدويدار، وأرسل في صحبته الأمير صارم الدين أحد أمراء العشرات من يوم ذلك.

وفي يوم الاثنين الثاني والعشرين من رمضان تصبح أبواب البلد مغلقة إلى قريب الظهر، وليس ثم مفتوح سوى باب النصر والفرج، والناس في حصر شديد وانزعاج، فإنا لله وإنا إليه راجعون. ولكن قد اقترب وصول السلطان والعساكر المنصورة. وفي صبيحة الأربعاء أصبح الحال كما كان وأزيد، ونزل الأمير سيف الدين يلبغا الخاصكي بقبة يلبغا، وامتد طلبه من سيف داريا إلى القبة المذكورة في أبهة عظيمة، وهيئة حسنة، وتأخر الركاب الشريف بتأخره عن الصميين بعد، ودخل بيدمر في هذا اليوم إلى القلعة وتحصن بها. وفي يوم الخميس الخامس والعشرين منه استمرت الأبواب كلها مغلقة سوى باب النصر والفرج، وضاق النطاق وانحصر الناس جداً، وقطع المصريون نهر بانياس والفرع الداخل إليها وإلى دار السعادة من القنوات، واحتاجوا لذلك أن يقطعوا القنوات ليسدوا الفرع المذكور، فانزعج أهل البلد لذلك وملؤوا ما في بيوتهم من برك المدارس، وبيعت القربة بدرهم، والحق[1] بنصف، ثم أرسلت القنوات وقت العصر من يومئذٍ ولله الحمد والمنة، فانشرح الناس لذلك، وأصبح الصباح يوم الجمعة والأبواب مغلقة ولم يفتح باب النصر والفرج إلى بعد طلوع الشمس بزمان، فأرسل يلبغا من جهته أربعة أمراء وهم الأمير زين الدين زبالة الذي كان نائب القلعة، والملك صلاح الدين بن الكامل، والشيخ علي الذي كان نائب الرحبة من جهة بيدمر، وأمير آخر، فدخلوا البلد وكسروا أقفال أبواب البلد، وفتحوا الأبواب، فلما رأى بيدمر ذلك أرسل مفاتيح البلد إليهم انتهى.

وصول السلطان الملك المنصور إلى المصطبة غربي عقبة سجورا

كان ذلك يوم الجمعة السادس والعشرين من شهر رمضان في جحافل عظيمة كالجبال، فنزل عند المصطبة المنسوبة إلى عم ابنته الملك الأشرف خليل بن المنصور قلاوون، وجاءت الأمراء ونواب البلاد لتقبيل يده والأرض بين يديه، كنائب حلب، ونائب حماة، وهو الأمير علاء الدين المارداني، وقد عين لنيابة دمشق، وكتب بتقليده بذلك، وأرسل إليه وهو بحماة. فلما كان يوم السبت السابع والعشرين منه خلع على الأمير علاء الدين علي المارداني بنيابة دمشق، وأعيد إليها عوداً على بدء ثم هذه الكرة الثالثة، وقبّل يد السلطان وركب عن يمينه، وخرج أهل البلد لتهنئته، هذا والقلعة محصنة بيد بيدمر، وقد دخلها ليلة الجمعة واحتمى بها، هو ومنجك واستدمر ومن معه من الأعوان بها، ولسان حال القدر يقول: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

ولما كان يوم الأحد طلب قضاة القضاة وأرسلوا إلى بيدمر وذويه بالقلعة ليصالحوه على شيء ميسور يشترطونه، وكان ما سنذكره انتهى والله تعالى أعلم.

سبب خروج بيدمر من القلعة وصفة ذلك

لما كان يوم الأحد الثامن والعشرين منه أرسل قضاة القضاة ومعهم الشيخ شرف الدين ابن

---

(١) الحق: وعاء من جلد يوضع فيه الماء.

قاضي الجبل الحنبلي، والشيخ سراج الدين الهندي الحنفي، قاضي العسكر المصري للحنفية، إلى بيدمر ومن معه ليتكلموا معهم في الصلح لينزلوا على ما يشترطون قبل أن يشرعوا في الحصار والمجانيق التي قد استدعى بها من صغد وبعلبك، وأحضر من رجال النقاعين نحو من ستة آلاف رام فلما اجتمع به القضاة ومن معهم وأخبروه عن السلطان وأعيان الأمراء بأنهم قد كتبوا له أماناً إن أناب إلى المصالحة، فطلب أن يكون بأهله ببيت المقدس، وطلب أن يعطي منجك كذا بناحية بلاد سيس ليسترزق هنالك، وطلب استدمر أن يكون بشمقداراً للأمير سيف الدين يلبغا الخاصكي. فرجع القضاة إلى السلطان ومعهم الأمير زين الدين جبريل الحاجب كان، فأخبروا السلطان والأمراء بذلك، فأجيبوا إليه، وخلع السلطان والأمراء على جبريل خلعاً، فرجع في خدمة القضاة ومعهم الأمير استبغا بن الأبو بكري، فدخلوا القلعة وباتوا هنالك كلهم، وانتقل الأمير بيدمر بأهله وأثاثه إلى داره بالمطرزين، فلما أصبح يوم الاثنين التاسع والعشرين منه خرج الأمراء الثلاثة من القلعة ومعهم جبريل، فدخل القضاة وسلموا القلعة بما فيها من الحواصل إلى الأمير استبغا بن الأبو بكري انتهى.

دخول السلطان محمد ابن الملك أمير حاج ابن الملك محمد ابن الملك قلاوون إلى دمشق في جيشه وأمرائه

لما كان صبيحة يوم الاثنين التاسع والعشرين من رمضان من هذه السنة رجع القضاة إلى الوطاق[1] الشريف، وفي صحبتهم الأمراء الذين كانوا بالقلعة، وقد أعطوا الأمان من جهة السلطان ومن معهم وذويهم، فدخل القضاة وحجب الأمراء المذكورون، فخلع على القضاة الأربعة وانصرفوا راجعين مجبورين، وأما الأمراء المذكورون فإنهم أركبوا على خيل ضعيفة، وخلف كل واحد منهم وساقي[2] أخذ بوسطه قبل، وفي يد كل واحد من الوساقية خنجر كبير مسلول لئلا يستنقذه منه أحد فيقتله بها، فدخل جهرة بين الناس ليروهم ذلتهم التي قد لبستهم، وقد أحدق الناس بالطريق من كل جانب، فقام كثير من الناس، الله أعلم بعدتهم، إلا أنهم قد يقاربون المائة ألف أو يزيدون عليها، فرأى الناس منظراً فظيعاً، فدخل بهم الوساقية إلى الميدان الأخضر الذي فيه القصر، فأجلسوا هنالك وهم ستة نفر: الثلاثة النواب وجبريل وابن استدمر، وسادس، وظن كل منهم أن يفعل بهم فاقرة[3]، فإنا لله وإنا إليه راجعون، وأرسلت الجيوش داخلة إلى دمشق أطلاباً[4] في تجمل عظيم، ولبس الحرب بنهر النصر وخيول وأسلحة ورماح، ثم دخل السلطان في آخر ذلك كله بعد العصر بزمن، وعليه من أنواع الملابس قباز بخاري، والقبة والطير يحملهما على رأسه الأمير سيف الدين تومان تمر الذي كان نائب طرابلس، والأمراء مشاة بين يديه، والبسط تحت قدمي فرسه، والبشائر تضرب خلفه فدخل القلعة

---

(١) الوطاق: الخيمة.

(٢) الوساقي: الحمّال.

(٣) الفاقرة: الداهية.

(٤) أطلاباً: جماعات وأرتالاً.

المنصورة المنصورية لا البدرية. ورأى ما قد أرصد بها من المجانيق والأسلحة، فاشتد حنقه على بيدمر وأصحابه كثيراً، ونزل الطارمة، وجلس على سرير المملكة ووقف الأمراء والنواب بين يديه، ورجع الحق إلى نصابه، وقد كان بين دخوله ودخول عمه الصالح صالح في أول يوم من رمضان، وهذا في التاسع والعشرين منه، وقد قيل إنه سلخه والله أعلم. وشرع الناس في الزينة.

وفي صبيحة يوم الثلاثاء سلخ الشهر نقل الأمراء المغضوب عليهم الذين ضلّ سعيهم فيما كانوا أبرموه من ضمير سوء للمسلمين إلى القلعة فأنزلوا في أبراجها مهانين، مفرقاً بينهم، بعدما كانوا بها آمنين حاكمين، أصبحوا معتقلين مهانين خائفين، فجاروا بعدما كانوا رؤساء، وأصبحوا بعد عزهم أذلاء، ونقبت أصحاب هؤلاء ونودي عليهم في البلد، ووعد من دل على أحد منهم بمال جزيل، وولاية إمرة بحسب ذلك، ورسم في هذا اليوم على الرئيس أمين الدين بن القلانسي كاتب السر، وطلب منه ألف ألف درهم، وسلم إلى الأمير زين الدين زبالة نائب القلعة، وقد أعيد إليها وأعطى تقدمة ابن قراسنقر، وأمره أن يعاقبه إلى أن يزن هذا المبلغ، وصلى السلطان وأمراؤه بالميدان الأخضر صلاة العيد، ضرب له خام عظيم وصلى به خطيباً القاضي تاج الدين الساوي الشافعي، قاضي العسكر المنصورة للشافعية، ودخل الأمراء مع السلطان للقلعة من باب المدرسة، ومد لهم سماطاً هائلاً أكلوا منه ثم رجعوا إلى دورهم وقصورهم، وحمل الطير في هذا اليوم على رأس السلطان الأمير علي نائب دمشق، وخلع عليه خلعة هائلة.

وفي هذا اليوم مسك الأمير تومان تمر الذي كان نائب طرابلس، ثم قدم على بيدمر، فكان معه، ثم قفل إلى المصريين واعتذر إليهم فعذروه فيما يبدو للناس، ودخل وهو حامل الخبز على رأس السلطان يوم الدخول، ثم ولّوه نيابة حمص، فصغّروه وحقّروه، ثم لما استمر ذاهباً إليها فكان عند القابون أرسلوا إليه فأمسكوه وردوه، وطلب منه المائة ألف التي كان قبضها من بيدمر، ثم ردوه إلى نيابة حمص.

وفي يوم الخميس اشتهر الخبر بأن طائفة من الجيش بمصر من طواشية وخاصكية ملكوا عليهم حسين الناصر ثم اختلفوا فيما بينهم واقتتلوا، وأن الأمر قد انفصل ورد حسين للمحل الذي كان معتقلاً فيه، وأطفأ الله شر هذه الطائفة ولله الحمد.

وفي آخر هذا اليوم لبس القاضي ناصر الدين بن يعقوب خلعة كتابة السر الشريفية، والمدرستين، ومشيخة الشيوخ عوضاً عن الرئيس علاء الدين بن القلانسي، عزل وصودر، وراح الناس لتهنئته بالعود إلى وظيفته كما كان.

وفي صبيحة يوم الجمعة ثالث شوال مسك جماعة من الأمراء الشاميين منهم الحاجبان صلاح الدين وحسام الدين والمهمندار ابن أخي الحاجب الكبير، تمر، وناصر الدين ابن الملك صلاح الدين بن الكامل، وابن حمزة والطرخاني واثنان أخوان وهما طيبغا زفر وبلجات، كلهم طبلخانات، وأخرجوا خير وتمر حاجب الحجاب، وكذلك الحجوبية أيضاً لقاربي أحد أمراء مصر.

وفي يوم الثلاثاء سابع شوال مسك ستة عشر أميراً من أمراء العرب بالقلعة المنصورة،

منهم عمر بن موسى بن مهنا الملقب بالمصمع، الذي كان أمير العرب في وقت، ومعيقل بن فضل بن مهنا وآخرون، وذكروا أن سبب ذلك أن طائفة من آل فضل عرضوا للأمير سيف الدين الأحمدي الذي استاقوه على حلب، وأخذوا منه شيئاً من بعض الأمتعة، وكادت الحرب تقع بينهم. وفي ليلة الخميس بعد المغرب حمل تسعة عشر أميراً من الأتراك والعرب على البريد مقيدين في الأغلال أيضاً إلى الديار المصرية، منهم بيدمر ومنجك واستدمر وجبريل وصلاح الدين الحاجب وحسام الدين أيضاً وبلجك وغيرهم، ومعهم نحو من مائتي فارس ملبسين بالسلاح متوكلين بحفظهم، وساروا بهم نحو الديار المصرية، وأمروا جماعة من البطالين منهم أولاد لاقوش، وأطلق الرئيس أمين الدين بن القلانسي من المصادرة والترسيم بالقلعة، بعد ما وزن بعض ما طلب منه، وصار إلى منزله، وهنأه الناس.

خروج السلطان من دمشق قاصداً مصر

ولما كان يوم الجمعة عاشر شهر شوال خرج طلب يلبغا الخاصكي صبيحته في تجمل عظيم لم يرَ الناس في هذه المدد مثله، من نجائب[١] وجنائب[٢] ومماليك وعظمة هائلة، وكانت عامة الأطلاب قد تقدمت قبله بيوم، وحضر السلطان إلى الجامع الأموي قبل أذان الظهر، فصلى في مشهد عثمان هو ومن معه من أمراء المصريين، ونائب الشام، وخرج من فوره من باب النصر ذاهباً نحو الكسوة والناس في الطرقات والأسطحة على العادة، وكانت الزينة قد بقي أكثرها في الصاغة والخواصين وباب البريد إلى هذا اليوم، فاستمرت نحو العشرة أيام.

وفي يوم السبت حادي عشر شوال خلع على الشيخ علاء الدين الأنصاري بإعادة الحسبة إليه وعزل عماد الدين بن السيرجي، وخرج المحمل يوم الخميس سادس عشر شوال على العادة، والأمير مصطفى البيري. وتوفي يوم الخميس ويوم الجمعة أربعة أمراء بدمشق، وهم طشتمر وفر وطيبغا الفبل، ونوروز أحد مقدمي الألوف، وتمر المهمندار، وقد كان مقدم ألف، وحاجب الحجاب وعمل نيابة غزة في وقت، ثم تعصب عليه المصريون فعزلوه عن الإمرة، وكان مريضاً فاستمر مريضاً إلى أن توفي يوم الجمعة، ودفن يوم السبت بتربته التي أنشأها بالصوفية، لكنه لم يدفن فيها بل على بابها كأنه مودع أو ندم على بنائها فوق قبور المسلمين رحمه الله.

وتوفي الأمير ناصر الدين بن لاقوش يوم الاثنين العشرين من شوال ودفن بالقبيبات، وقد ناب ببعلبك وبحمص، ثم قطع خبره هو وأخوه كحلن ونفوا عن البلد إلى بلدان شتى، ثم رضي عنهم الأمير يلبغا وأعاد عليهم أخباراً بطبلخانات، فما لبث ناصر الدين إلا يسيراً حتى توفي إلى رحمة الله تعالى، وقد أثر آثاراً حسنة كثيرة منها عند عقبة الرمانة خان مليح نافع، وله ببعلبك

(١) نجائب: جمع نجيبة، ونجيب، وهو لباب الشيء الذي ليس عليه نجب أي قشر، والفاضل النفيس في نوعه.

(٢) جنائب: جمع جنيبة، يقال: فرس جنيب وخيل جنيبة، وهي التي تقاد إلى جنب.

جامع وحمام وخان وغير ذلك، وله من العمر ست وخمسون سنة.

وفي يوم الأحد السادس والعشرين منه درس القاضي نور الدين محمد ابن قاضي القضاة بهاء الدين بن أبي البقاء الشافعي بالمدرسة الأتابكية، نزل له عنها والده بتوقيع سلطاني، وحضر عنده القضاة والأعيان، وأخذ في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ [البقرة:١٩٧] وفي هذا اليوم درس القاضي نجم الدين أحمد بن عثمان النابلسي الشافعي المعروف بابن الجابي بالمدرسة العصرونية استنزل له عنها القاضي أمين الدين بن القلانسي في مصادراته. وفي صبيحة يوم الاثنين التاسع والعشرين من شوال درس القاضي ولي الدين عبد الله ابن القاضي بهاء الدين أبي البقاء بالمدرستين الرواحية ثم القيمرية، نزل له عنهما والده المذكور بتوقيع سلطاني، وحضر عنده فيهما القضاة والأعيان.

وفي صبيحة يوم الخميس سلخ شوال شهر الشيخ أسد ابن الشيخ الكردي على جمل وطيف به في حواضر البلد ونودي عليه: هذا جزاء من يخامر[1] على السلطان ويفسد نواب السلطان، ثم أنزل عن الجمل وحمل على حمار وطيف به في البلد ونودي عليه بذلك، ثم ألزم السجن وطلب منه مال جزيل وقد كان المذكور من أعوان بيدمر المتقدم ذكره وأنصاره، وكان هو المتسلم للقلعة في أيامه.

وفي صبيحة يوم الاثنين حادي عشر ذي القعدة خلع على قاضي القضاة بدر الدين بن أبي الفتح بقضاء العسكر الذي كان متوفراً عن علاء الدين بن شمرنوخ، وهنأه الناس بذلك وركب البغلة بالزناري مضافاً إلى ما بيده من نيابة الحكم والتدريس. وفي يوم الاثنين ثامن عشره أعيد تدريس الركنية بالصالحية إلى قاضي القضاة شرف الدين الكفري الحنفي، استرجعها بمرسوم شريف سلطاني، من يد القاضي عماد الدين بن العز، وخلع على الكفري، وذهب الناس إليه للتهنئة بالمدرسة المذكورة.

وفي شهر ذي الحجة اشتهر وقوع فتن بين الفلاحين بناحية عجلون، وأنهم اقتتلوا فقتل من الفريقين اليمني والقيسي طائفة، وأن عين حيتا التي هي شرقي عجلون دمرت وخربت، وقطع أشجارها ودمرت بالكلية. وفي صبيحة يوم السبت الثاني والعشرين من ذي الحجة لم تفتح أبواب دمشق إلى ما بعد طلوع الشمس، فأنكر الناس ذلك، وكان سببه الاحتياط على أمير يقال له كسبغا، كان يريد الهرب إلى بلاد الشرق، فاحتيط عليه حتى أمسكوه.

وفي ليلة الأربعاء السادس والعشرين من ذي الحجة قدم الأمير سيف الدين طاز من القدس فنزل بالقصر الأبلق، وقد عمي من الكحل حين كان مسجوناً بالاسكندرية، فأطلق كما ذكرنا، ونزل ببيت المقدس مدة، ثم جاءه تقليد بأنه يكون طرخاناً ينزل حيث شاء من بلاد السلطان، غير أنه لا يدخل ديار مصر، فجاء فنزل بالقصر الأبلق، وجاء الناس إليه على طبقاتهم ـ نائب السلطنة فمن دونه ـ يسلمون عليه وهو لا يبصر شيئاً، وهو على عزم أن يشتري أو

(١) يخامر: يخاتل، أي داخل وخالط واستتر.

يستكري له داراً بدمشق يسكنها. انتهى والله سبحانه وتعالى أعلم.

ثم دخلت سنة ثلاث وستين وسبعمائة

استهلت هذه السنة وسلطان الديار المصرية والشامية والحرمين الشريفين وما والاهما من الممالك الإسلامية السلطان الملك المنصور صلاح الدين محمد ابن الملك المظفر أمير حاج ابن الملك المنصور قلاوون، وهو شاب دون العشرين، ومدبر الممالك بين يديه الأمير يلبغا، ونائب الديار المصرية طشتمر، وقضاتها هم المذكورون في التي قبلها، والوزير سيف الدين قزوينة، وهو مريض مدنف[١] ونائب الشام بدمشق الأمير علاء الدين المارداني، وقضاته هم المذكورون في التي قبلها، وكذلك الخطيب ووكيل بيت المال والمحتسب علاء الدين الأنصاري، عاد إليها في السنة المنفصلة، وحاجب الحجاب قماري، والذي يليه السليماني وآخر من مصر أيضاً، وكاتب السر القاضي ناصر الدين محمد بن يعقوب الحلبي، وناظر الجامع القاضي تقي الدين بن مراجل، وأخبرني قاضي القضاة تاج الدين الشافعي أنه جدد في أول هذه السنة قاضي حنفي بمدينة صغد المحروسة مع الشافعي، فصار في كل من حماة وطرابلس وصغد قاضيان شافعي وحنفي.

وفي ثاني المحرم قدم نائب السلطنة بعد غيبة نحو من خمسة عشر يوماً، وقد أوطأ بلاد فرير بالرعب، وأخذ من مقدميهم طائفة فأودعهم الحبس، وكان قد اشتهر أنه قصد العشيرات المواسين ببلاد عجلون، فسألته عن ذلك حين سلمت عليه فأخبرني أنه لم يتعد ناحية فرير، وأن العشيرات قد اصطلحوا واتفقوا، وأن التجريدة عندهم هناك. قال: وقد كبس الأعراب من حرم الترك فهزمهم الترك وقتلوا منهم خلقاً كثيراً، ثم ظهر للعرب كمين فلجأ الترك إلى وادي صرح فحصروهم هنالك، ثم ولت الأعراب فراراً ولم يقتل من الترك أحد، وإنما جرح منهم أمير واحد فقط، وقتل من الأعراب فوق الخمسين نفساً.

وقدم الحجاج يوم الأحد الثاني والعشرين من المحرم، ودخل المحمل السلطاني ليلة الاثنين بعد العشاء، ولم يحتفل لدخوله كما جرت به العادة، وذلك لشدة ما نال الركب في الرجعة من فرير إلى هنا من البرد الشديد، بحيث إنه قد قيل إنه مات منهم بسبب ذلك نحو المائة، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ولكن أخبروا برخص كثير وأمن، وبموت نفسة أخي عجلان صاحب مكة، وقد استبشر بموته أهل تلك البلاد لبغيه على أخيه عجلان العادل فيهم. انتهى والله أعلم.

منام غريب جداً

ورأيت - يعني المصنف - في ليلة الاثنين الثاني والعشرين من المحرم سنة ثلاث وستين وسبعمائة الشيخ محيي الدين النواوي رحمه الله فقلت له: يا سيدي الشيخ لم لا أدخلت في

(١) مدنف من دَنِف المريض ثقل مرضه ودنا من الموت.

شرحك المهذب شيئاً من مصنفات ابن حزم؟ فقال ما معناه: إنه لا يحبه، فقلت له: أنت معذور فيه فإنه جمع بين طرفي النقيضين في أصوله وفروعه، أما هو في الفروع فظاهري جامد يابس، وفي الأصول تول مائع قرمطة القرامطة وهرس الهرائسة، ورفعت بها صوتي حتى سمعت وأنا نائم، ثم أشرت له إلى أرض خضراء تشبه النخيل بل هي أردأ شكلاً منه، لا ينتفع بها في استغلال ولا رعي، فقلت له: هذه أرض ابن حزم التي زرعها [قال:] انظر هل ترى فيها شجراً مثمراً أو شيئاً ينتفع به، فقلت إنما تصلح للجلوس عليها في وضوء القمر. فهذا حاصل ما رأيته، ووقع في خلدي أن ابن حزم كان حاضراً عند ما أشرت للشيخ محيي الدين إلى الأرض المنسوبة لابن حزم، وهو ساكت لا يتكلم.

وفي يوم الخميس الثالث والعشرين من صفر خلع على القاضي عماد الدين بن الشيرجي بعود الحسبة إليه بسبب ضعف علاء الدين الأنصاري عن القيام بها لشغله بالمرض المدنف، وهنأه الناس على العادة، وفي يوم السبت السادس والعشرين من صفر توفي الشيخ علاء الدين الأنصاري المذكور بالمدرسة الأمينية، وصلّي عليه الظهر بالجامع الأموي، ودفن بمقابر باب الصغير خلف محراب جامع جراح، في تربة هنالك، وقد جاوز الأربعين سنة، ودرس في الأمينية وفي الحسبة مرتين وترك أولاداً صغاراً وأموالاً جزيلة سامحه الله ورحمه، وولي المدرسة بعده قاضي القضاة تاج الدين بن السبكي بمرسوم كريم شريف.

وفي العشر الأخير من صفر بلغنا وفاة قاضي قضاة المالكية الأخنائي بمصر وتولية أخيه برهان الدين ابن قاضي القضاة علم الدين الأخنائي الشافعي أبوه قاضياً مكان أخيه، وقد كان على الحسبة بمصر مشكور السيرة فيها، وأضيف إليه نظر الخزانة كما كان أخوه. وفي صبيحة يوم الأحد رابع شهر ربيع الأول كان ابتداء حضور قاضي القضاة تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب ابن قاضي القضاة تقي الدين بن الحسن بن عبد الكافي السبكي الشافعي تدريس الأمينية عوضاً عن الشيخ علاء الدين المحتسب، بحكم وفاته رحمه الله كما ذكرنا، وحضر عنده خلق من العلماء والأمراء والفقهاء والعامة، وكان درساً حافلاً، أخذ في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [سورة النساء: ٥٤] الآية وما بعدها، فاستنبط أشياء حسنة، وذكر ضرباً من العلوم بعبارة طلقة جارية معسولة، أخذ ذلك من غير تلعثم ولا تلجلج ولا تكلف فأجاد وأفاد، وشكره الخاصة والعامة من الحاضرين وغيرهم حتى قال بعض الأكابر: إنه لم يسمع درساً مثله.

وفي يوم الاثنين الخامس والعشرين منه توفي **الصدر برهان الدين بن لؤلؤ الحوضي**، في داره بالقصاعين ولم يمرض إلا يوماً واحداً، وصلّي عليه من الغد بجامع دمشق بعد صلاة الظهر، وخرجوا به من باب النصر، فخرج نائب السلطنة الأمير علي فصلّى عليه إماماً خارج باب النصر، ثم ذهبوا به فدفنوه بمقابرهم بباب الصغير، فدفن عند أبيه رحمه الله، وكان رحمه الله فيه مروءة وقيام مع الناس، وله وجاهة عند الدولة وقبول عند نواب السلطنة وغيرهم، ويحب العلماء وأهل الخير، ويواظب على سماع مواعيد الحديث والخير، وكان له مال وثروة ومعروف، قارب الثمانين رحمه الله.

وجاء البريد من الديار المصرية فأخبر بموت الشيخ **شمس الدين محمد بن النقاش المصري بها**، وكان واعظاً باهراً، وفصيحاً ماهراً، ونحوياً شاعراً، له يد طولى في فنون متعددة، وقدرة على نسج الكلام، ودخول على الدولة وتحصيل الأموال، وهو من أبناء الأربعين رحمه الله.

وأخبر البريد بولاية قاضي القضاة شرف الدين المالكي البغدادي، الذي كان قاضياً بالشام للمالكية، ثم عزل بنظر الخزانة بمصر، فإنه رتب له معلوم وافر يكفيه ويفضل عنه، ففرح بذلك من يحبه.

وفي يوم الأحد السابع عشر من ربيع الآخر توفي الرئيس أمين الدين **محمد بن الصدر جمال الدين أحمد ابن الرئيس شرف الدين محمد بن القلانسي**، أحد من بقي من رؤساء البلد وكبرائها، وقد كان باشر مباشرات كبار كأبيه وعمه علاء الدين، ولكن فاق هذا على أسلافه فإنه باشر وكالة المال مدة، وولي قضاء العساكر أيضاً، ثم ولي كتابة السر مع مشيخة الشيوخ وتدريس الناصرية والشامية الجوانية، وكان قد درس في العصرونية من قبل سنة ست وثلاثين، ثم لما قدم السلطان في السنة الماضية عزل عن مناصبه الكبار، وصودر بمبلغ كثير يقارب مائتي ألف، فباع كثيراً من أملاكه وما بقي بيده من وظائفه شيء، وبقي خاملاً مدة إلى يومه هذا، فتوفي بغتة، وكان قد تشوش قليلاً لم يشعر به أحد، وصلّي عليه العصر بجامع دمشق، وخرجوا به من باب الناطفانيين إلى تربتهم التي بسفح قاسيون رحمه الله.

وفي صبيحة يوم الاثنين ثامن عشره، خلع على القاضي جمال الدين ابن قاضي القضاة شرف الدين الكفري الحنفي، وجعل مع أبيه شريكاً في القضاء ولقب في التوقيع الوارد صحبة البريد من جهة السلطان «قاضي القضاة» فلبس الخلعة بدار السعادة وجاء ومعه قاضي القضاة تاج الدين السبكي إلى النورية فقعد في المسجد ووضعت الربعة فقرئت وقرىء القرآن ولم يكن درساً، وجاءت الناس للتهنئة بما حصل من الولاية له مع أبيه.

وفي صبيحة يوم الثلاثاء توفي الشيخ الصالح العابد الناسك الجامع **فتح الدين ابن الشيخ زين الدين الفارقي**، إمام دار الحديث الأشرفية، وخازن الأثر بها، ومؤذن في الجامع، وقد أتت عليه تسعون سنة في خير وصيانة وتلاوة وصلاة كثيرة وانجماع عن الناس، صلّي عليه صبيحة يومئذٍ، وخرج به من باب النصر إلى نحو الصالحية رحمه الله.

وفي صبيحة يوم الاثنين عاشر جمادى الأولى ورد البريد وهو قرابغا دوادار نائب الشام الصغير ومعه تقليد بقضاء قضاة الحنفية للشيخ جمال الدين يوسف ابن قاضي القضاة شرف الدين الكفري، بمقتضى نزول أبيه له عن ذلك، ولبس الخلعة بدار السعادة وأجلس تحت المالكي، ثم جاؤوا إلى المقصورة من الجامع وقرىء تقليده هنالك، قرأه شمس الدين بن السبكي نائب الحسبة، واستناب اثنين من أصحابهم وهما شمس الدين بن منصور، وبدر الدين بن الخراش، ثم جاء معه إلى النورية فدرس بها ولم يحضره والده بشيء من ذلك انتهى والله أعلم.

موت الخليفة المعتضد بالله

كان ذلك في العشر الأوسط من جمادى الأولى بالقاهرة، وصلّي عليه يوم الخميس، أخبرني بذلك قاضي القضاة تاج الدين الشافعي، عن كتاب أخيه الشيخ بهاء الدين رحمهما الله.

خلافة المتوكل على الله

ثم بويع بعده ولده المتوكل على الله علي أبو عبد الله محمد بن المعتضد أبي بكر أبي الفتح بن المستكفي بالله أبي الربيع سليمان بن الحاكم بأمر الله أبي العباس أحمد رحم الله أسلافه.

وفي جمادى الأولى توجه الرسول من الديار المصرية ومعه صناجق خليفية وسلطانية وتقاليد وخلع وتحف لصاحبي الموصل وسنجار من جهة صاحب مصر ليخطب له فيهما، وولي قاضي القضاة تاج الدين الشافعي السبكي الحاكم بدمشق لقاضيهما من جهته تقليدين، حسب ما أخبرني بذلك، وأرسلا مع ما أرسل به السلطان إلى البلدين، وهذا أمر غريب لم يقع مثله فيما تقدم فيما أعلم والله أعلم.

وفي جمادى الآخرة خرج نائب السطنة إلى مرج الفسولة ومعه حجبته ونقباء النقباء، وكاتب السر وذووه، ومن عزمهم الإقامة مدة، فقدم من الديار المصرية أمير على البريد فأسرعوا الأوبة[1] فدخلوا في صبيحة الأحد الحادي والعشرين منه، وأصبح نائب السلطنة فحضر الموكب على العادة، وخلع على الأمير سيف الدين يلبغا الصالحي، وجاء النص من الديار المصرية بخلعة دوادار عوضاً عن سيف الدين كحلن، وخلع في هذا اليوم على الصدر شمس الدين بن مرقي بتوقيع الدست، وجهات أخر، قدم بها من الديار المصرية، فانتشر الخبر في هذا اليوم بإجلاس قاضي القضاة شمس الدين الكفري الحنفي، فوق قاضي القضاة المالكية، لكن لم يحضر في هذا اليوم، وذلك بعد ما قد أمر بإجلاس المالكي فوقه.

وفي ثاني رجب توفي القاضي الإمام العالم **شمس الدين بن مفلح المقدسي الحنبلي**، نائب مشيخة قاضي القضاة جمال الدين يوسف بن محمد المقدسي الحنبلي، وزوج ابنته، وله منها سبعة أولاد ذكور وإناث، وكان بارعاً فاضلاً متفنناً في علوم كثيرة، ولا سيما علم الفروع، كان غاية في نقل مذهب الإمام أحمد، وجمع مصنفات كثيرة منها كتاب المقنع نحواً من ثلاثين مجلداً كما أخبرني بذلك عنه قاضي القضاة جمال الدين، وعلق على محفوظة أحكام الشيخ مجد الدين بن تيمية مجلدين، وله غير ذلك من الفوائد والتعليقات رحمه الله، توفي عن نحو خمسين سنة، وصلّي عليه بعد الظهر من يوم الخميس ثاني الشهر بالجامع المظفري، ودفن بمقبرة الشيخ الموفق، وكانت له جنازة حافلة حضرها القضاة كلهم، وخلق من الأعيان رحمه الله وأكرم مثواه.

وفي صبيحة يوم السبت رابع رجب ضرب نائب السلطنة جماعة من أهل قبر عاتكة أساؤوا

---

(١) الأوبة: الرجوع، العودة.

الأدب على النائب ومماليكه، بسبب جامع للخطبة جدد بناحيتهم، فأراد بعض الفقراء أن يأخذ ذلك الجامع ويجعله زاوية للرقاصين، فحكم القاضي الحنبلي بجعله جامعاً قد نصب فيه منبر، وقد قدم شيخ الفقراء على يديه مرسوم شريف بتسليمه إليه، فأنفت أنفس أهل تلك الناحية من عوده زاوية بعد ما كان جامعاً، وأعظموا ذلك، فتكلم بعضهم بكلام سيء، فاستحضر نائب السلطنة طائفة منهم وضربهم بالمقارع بين يديه، ونودي عليهم في البلد، فأراد بعض العامة إنكاراً لذلك، وحدد ميعاد حديث يقرأ بعد المغرب تحت قبة النسر على الكرسي الذي يقرأ عليه المصحف، رتَّبه أحد أولاد القاضي عماد الدين بن الشيرازي، وحدّث فيه الشيخ عماد الدين بن السراج، واجتمع عنده خلق كثير وجم غفير، وقرأ في السيرة النبوية من خطى، وذلك في العشر الأول من هذا الشهر.

أعجوبة من العجائب

وحضر شاب عجمي من بلاد تبريز وخراسان يزعم أنه يحفظ البخاري ومسلماً وجامع المسانيد والكشاف للزمخشري وغير ذلك من محاضيرها، في فنون أخر، فلما كان يوم الأربعاء سلخ شهر رجب قرأ في الجامع الأموي بالحائط الشمالي منه، عند باب الكلاسة من أول صحيح البخاري إلى أثناء كتاب العلم منه، من حفظه وأنا أقابل عليه من نسخة بيدي، فأدى جيداً، غير أنه يصحف بعضاً من الكلمات لعجم فيه، وربما لحن أيضاً في بعض الأحيان، واجتمع خلق كثير من العامة والخاصة وجماعة من المحدثين، فأعجب ذلك جماعة كثيرين، وقال آخرون منهم إن سرد بقية الكتاب على هذا المنوال لعظيم جداً، فاجتمعنا في اليوم الثاني وهو مستهل شعبان في المكان المذكور، وحضر قاضي القضاة الشافعي وجماعة من الفضلاء، واجتمع العامة محدقين فقرأ على العادة غير أنه لم يطول كأول يوم، وسقط عليه بعض الأحاديث، وصحف ولحن في بعض الألفاظ، ثم جاء القاضيان الحنفي والمالكي فقرأ بحضرتهما أيضاً بعض الشيء، هذا والعامة محتفون به متعجبون من أمره، ومنهم من يتقرّب بتقبيل يديه، وفرح بكتابتي له بالسماع على الإجازة، وقال: أنا ما خرجت من بلادي إلا إلى القصد إليك، وأن تجيزني، وذكرك في بلادنا مشهور، ثم رجع إلى مصر ليلة الجمعة وقد كارمه القضاة والأعيان بشيء من الدراهم يقارب الألف.

عزل الأمير علي عن نيابة دمشق

في يوم الأحد حادي عشر شعبان ورد البريد من الديار المصرية وعلى يديه مرسوم شريف بعزل الأمير علي عن نيابة دمشق، فأحضر الأمراء إلى دار السعادة وقرىء المرسوم الشريف عليهم بحضوره، وخلع عليه خلعة وردت مع البريد، ورسم له بقرية دومة وأخرى في بلاد طرابلس على سبيل الراتب، وأن يكون في أي البلاد شاء من دمشق أو القدس أو الحجاز، فانتقل من يومه من دار السعادة وبباقي أصحابه ومماليكه، واستقر نزوله في دار الخليلي بالقصاعين التي جددها وزاد فيها دويداره يلبغا، وهي دار هائلة، وراح الناس للتأسف عليه والحزن له انتهى.

طلب قاضي القضاة تاج الدين عبد الوهاب بن السبكي الشافعي إلى الديار المصرية

ورد البريد بطلبه من آخر نهار الأحد بعد العصر الحادي عشر من شعبان سنة ثلاث وستين وسبعمائة، فأرسل إليه حاجب الحجاب قماري وهو نائب الغيبة أن يسافر من يومه، فاستنظرهم إلى الغد فأمهل، وقد ورد الخبر بولاية أخيه الشيخ بهاء الدين بن السبكي بقضاء الشام عوضاً عن أخيه تاج الدين، وأرسل يستنيب ابن أختهما قاضي القضاة تاج الدين في التأهب والسير، وجاء الناس إليه ليودعوه ويستوحشون له، وركب من بستانه بعد العصر يوم الاثنين ثاني عشر شعبان، متوجهاً على البريد إلى الديار المصرية، وبين يديه قضاة القضاة والأعيان، حتى قاضي القضاة بهاء الدين أبو البقاء السبكي، حتى ردهم قريباً من الجسورة ومنهم من جاوزها والله المسؤول في حسن الخاتمة في الدنيا والآخرة، انتهى والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

أعجوبة أخرى غريبة

لما كان يوم الثلاثاء العشرين من شعبان دعيت إلى بستان الشيخ العلامة كمال الدين بن الشريشي شيخ الشافعية وحضر جماعة من الأعيان منهم الشيخ العلامة شمس الدين بن الموصلي الشافعي، والشيخ الإمام العلامة صلاح الدين الصفدي، وكيل بيت المال، والشيخ الإمام العلامة شمس الدين الموصلي الشافعي، والشيخ الإمام العلامة مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي من ذرية الشيخ أبي إسحاق الفيروزابادي، من أئمة اللغويين، والخطيب الإمام العلامة صدر الدين بن العز الحنفي أحد البلغاء الفضلاء، والشيخ الإمام العلامة نور الدين علي بن الصارم أحد القراء المحدثين البلغاء، وأحضروا نيفاً وأربعين مجلداً من كتاب المنتهى في اللغة للتميمي البرمكي، وقف الناصرية وحضر ولد الشيخ كمال الدين بن الشريشني، وهو العلامة بدر الدين محمد، واجتمعنا كلنا عليه، وأخذ كل منا مجلداً بيده من تلك المجلدات، ثم أخذنا نسأله عن بيوت الشعر المستشهد عليها بها، فينثر كلاً منها ويتكلم عليه بكلام مبين مفيد، فجزم الحاضرون والسامعون أنه يحفظ جميع شواهد اللغة ولا يشذ عنه منها إلا القليل الشاذ، وهذا من أعجب العجائب، وأبلغ الأعراب.

دخول نائب السلطنة سيف الدين تشتمر

وذلك في أوائل رمضان يوم السبت ضحى والحجبة بين يديه والجيش بكماله، فتقدم إلى سوق الخيل فأركب فيه ثم جاء ونزل عند باب السر، وقبل العتبة ثم مشى إلى دار السعادة والناس بين يديه، وكان أول شيء حكم فيه أن أمر بصلب الذي كان قتل بالأمس والي الصالحية، وهو ذاهب إلى صلاة الجمعة، ثم هرب فتبعه الناس فقتل منهم آخر وجرح آخرين ثم تكاثروا عليه فمسك، ولما صلب طافوا به على حمل إلى الصالحية فمات هناك بعد أيام، وقاسى أمراً شديداً من العقوبات، وقد ظهر بعد ذلك على أنه قتل خلقاً كثيراً من الناس قبّحه الله.

قدوم قاضي القضاة بهاء الدين أحمد بن تقي الدين عوضاً عن أخيه قاضي القضاة تاج الدين بن عبد الوهاب

قدم يوم الثلاثاء قبل العصر فبدأ بملك الأمراء فسلم عليه، ثم مشى إلى دار الحديث فصلّى هناك ثم مشى إلى المدرسة الركنية فنزل بها عند ابن أخيه قاضي القضاة بدر الدين بن أبي الفتح، قاضي العساكر، وذهب الناس للسلام عليه وهو يكره من يلقبه بقاضي القضاة، وعليه تواضع وتقشف، ويظهر عليه تأسف على مفارقة بلده ووطنه وولده وأهله، والله المسؤول المأمول أن يحسن العاقبة.

وخرج المحمل السلطاني يوم الخميس ثامن عشر شوال، وأمير الحاج الملك صلاح الدين ابن الملك الكامل بن السعيد العادل الكبير، وقاضيه الشيخ بهاء الدين بن سبع مدرس الأمينية ببعلبك وفي هذا الشهر وقع الحكم بما يخص المجاهدين من وقف المدرسة التقوية إليهم، وأذن القضاة الأربعة إليهم بحضرة ملك الأمراء في ذلك.

وفي ليلة الأحد ثالث شهر ذي القعدة توفي القاضي **ناصر الدين محمد بن يعقوب** كاتب السر، وشيخ الشيوخ ومدرس الناصرية الجوانية والشامية الجوانية بدمشق، ومدرس الأسدية بحلب، وقد باشر كتابة السر بحلب أيضاً، وقضاء العساكر وأفتى بزمان ولاية الشيخ كمال الدين الزملكاني قضاء حلب، أذن له هنالك في حدود سنة سبع وعشرين وسبعمائة، ومولده سنة سبع وسبعمائة، وقد قرأ التنبيه ومختصر ابن الحاجب في الأصول، وفي العربية، وكان عنده نباهة وممارسة للعلم، وفيه جودة طباع وإحسان بحسب ما يقدر عليه، وليس يتوسم منه سوء، وفيه ديانة وعفة، حلف لي في وقت بالأيمان المغلظة أنه لم يمكن قط منه فاحشة اللواط ولا خطر له ذلك، ولم يزن ولم يشرب مسكراً ولا أكل حشيشة، فرحمه الله وأكرم مثواه، صلّي عليه بعد الظهر يومئذٍ وخرج بالجنازة من باب النصر فخرج نائب السلطنة من دار السعادة فحضر الصلاة عليه هنالك، ودفن بمقبرة لهم بالصوفية وتأسفوا عليه وترحموا، وتزاحم جماعة من الفقهاء بطلب مدارسه انتهى.

ثم دخلت سنة أربع وستين وسبعمائة

استهلت هذه السنة وسلطان الإسلام بالديار المصرية والشامية والحجازية وما يتبعهما من الأقاليم والرساتيق الملك المنصور صلاح الدين محمد ابن الملك المنصور المظفري حاجي ابن الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاوون الصالحي، ومدبر الممالك بين يديه، وأتابك العساكر سيف الدين يلبغا، وقضاة مصرهم المذكورون في التي قبلها، غير أن ابن جماعة قاضي الشافعية وموفق الدين قاضي الحنابلة في الحجاز الشريف، ونائب دمشق الأمير سيف الدين قشتمر المنصوري، وقاضي قضاة الشافعية الشيخ بهاء الدين ابن قاضي القضاة تقي الدين السبكي، وأخوه قاضي القضاة تاج الدين مقيم بمصر، وقاضي قضاة الحنفية الشيخ جمال الدين

ابن قاضي القضاة شرف الدين الكفري، آثره والده بالمنصب وأقام على تدريس الركنية يتعبد ويتلو ويجمع على العبادة، وقاضي قضاة المالكية جمال الدين المسلاتي، وقاضي قضاة الحنابلة الشيخ جمال الدين المرداوي محمود بن جملة، ومحتسب البلد الشيخ عماد الدين بن الشيرجي، وكاتب السر جمال الدين عبد الله بن الأثير، قدم من الديار المصرية عوضاً عن ناصر الدين بن يعقوب، وكان قدومه يوم سلخ السنة الماضية، وناظر الدواوين بدر الدين حسن بن النابلسي، وناظر الخزانة القاضي تقي الدين بن مراجل. ودخل المحمل السلطاني يوم الجمعة الثاني والعشرين من المحرم بعد العصر خوفاً من المطر، وكان وقع مطر شديد قبل أيام، فتلف منه غلات كثيرة بحوران وغيرها، ومشاطيخ وغير ذلك، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفي ليلة الأربعاء السابع والعشرين منه بعد عشاء الآخرة قبل دقة القلعة دخل فارس من ناحية باب الفرج إلى ناحية باب القلعة الجوانية، ومن ناحية الباب المذكور سلسلة، ومن ناحية باب النصر أخرى جددتا لئلا يمر راكب على باب القلعة المنصورة، فساق هذا الفارس المذكور على السلسلة الواحدة فقطعها، ثم مر على الأخرى فقطعها وخرج من باب النصر ولم يعرف لأنه ملثم. وفي حادي عشر صفر وقبله بيوم قدم البريد من الديار المصرية بطلب الأمير سيف الدين زبالة أحد أمراء الألوف إلى الديار المصرية مكرماً، وقد كان عزل عن نيابة القلعة بسبب ما تقدم، وجاء البريد أيضاً ومعه التواقيع التي كانت بأيدي ناس كثير، زيادات على الجامع، ردت إليهم وأقروا على ما بأيديهم من ذلك، وكان ناظر الجامع الصاحب تقي الدين بن مراجل قد سعى برفع ما زيد بعد التذكرة التي كانت في أيام صرغتمش، فلم يف ذلك، وتوجه الشيخ بهاء الدين بن السبكي قاضي قضاة الشام الشافعي من دمشق إلى الديار المصرية يوم الأحد سادس عشر صفر من هذه السنة، وخرج القضاة والأعيان لتوديعه، وقد كان أخبرنا عند توديعه بأن أخاه قاضي القضاة تاج الدين قد لبس خلعة القضاء بالديار المصرية، وهو متوجه إلى الشام عند وصوله إلى ديار مصر، وذكر لنا أن أخاه كاره للشام. وأنشدني القاضي صلاح الدين الصفدي ليلة الجمعة رابع عشره لنفسه فيما عكس عن المتنبي في يديه من قصيدته وهو قوله:

إذا اعْـتَـادَ الـفَـتَـى خَـوْضَ الـمَـنَـايَـا ... فَـأَيْـسَـرُ مَـا يَـمُـرُّ بِـهِ الـوُصُـولُ

وقال:

دُخُـولُ دِمَـشْـقَ يُـكْـسِـبُـنَـا نُـحُـولاً ... كَـأَنَّ لَـهَـا دُخُـولاً فِـي الـبَـرَايَـا

إذا اعْـتَـادَ الـغَـرِيـبُ الـخَـوْضَ فِـيـهَـا ... فَـأَيْـسَـرُ مَـا يَـمُـرُّ بِـهِ الـمَـنَـايَـا

وهذا شعر قوي، وعكس جليّ، لفظاً ومعنى.

وفي ليلة الجمعة الحادي والعشرين من صفر عملت خيمة حافلة بالمارستان الدقاقي جوار الجامع، بسبب تكامل تجديده قريب السقف مبنياً باللبن، حتى قناطره الأربع بالحجارة البلق، وجعل في أعاليه قمريات كبار مضيئة، وفتق في قبلته إيواناً حسناً زاد في أعماقه أضعاف ما كان، وبيضه جميعه بالجص الحسن المليح، وجددت فيه خزائن ومصالح، وفرش ولحف جدد، وأشياء حسنة، فأثابه الله وأحسن جزاءه آمين، وحضر الخيمة جماعات من الناس من

الخواص والعوام، ولما كانت الجمعة الأخرى دخله نائب السلطنة بعد الصلاة فأعجبه ما شاهده من العمارات، وأخبره بما كانت عليه حاله قبل هذه العمارة، فاستجاد ذلك من صنيع الناظر.

وفي أول ربيع الآخر قدم قاضي القضاة تاج الدين السبكي من الديار المصرية على قضاء الشام عوداً على بدء يوم الثلاثاء رابع عشره فبدأ بالسلام على نائب السلطنة بدار السعادة ثم ذهب إلى دار الأمير علي بالقصاعين فسلم عليه، ثم جاء إلى العادلية قبل الزوال، ثم جاءه الناس من الخاص والعام يسلمون عليه ويهنونه بالعود، وهو يتودد ويترحب بهم. ثم لما كان صبح يوم الخميس سادس عشره لبس الخلعة بدار السعادة ثم جاء في أبهة هائلة لابسها إلى العادلية فقرىء تقليده بها بحضرة القضاة والأعيان وهنأه الناس والشعراء والمداح.

وأخبر قاضي القضاة تاج الدين بموت **حسين ابن الملك الناصر**، ولم يكن بقي من بنيه لصلبه سواه، ففرح بذلك كثير من الأمراء وكبار الدولة، لما كان فيه من حدة وارتكاب أمور منكرة. وأخبر بموت القاضي **فخر الدين سليمان ابن القاضي عماد الدين بن الشيرجي**، وقد كان اتفق له من الأمر أنه قلد حسبة دمشق عوضاً عن أبيه، نزل له عنها باختياره لكبره وضعفه، وخلع عليه بالديار المصرية، ولم يبق إلا أن يركب على البريد فتمرض يوماً وثانياً وتوفي إلى رحمة الله تعالى، فتألم والده بسبب ذلك تألماً عظيماً، وعزّاه الناس فيه، ووجدته صابراً محتسباً باكياً مسترجعاً موجعاً انتهى.

بشارة عظيمة بوضع الشطر من مكس الغنم

مع ولاية سعد الدين ماجد بن التاج إسحاق من الديار المصرية على نظر الدواوين قبله، ففرح الناس بولاية هذا وقدومه ـ وبعزل الأول وانصرافه عن البلد فرحاً شديداً، ومعه مرسوم شريف بوضع نصف مكس الغنم، وكان عبرته أربعة دراهم ونصف، فصار إلى درهمين وربع درهم، وقد نودي بذلك في البلد يوم الاثنين العشرين من شهر ربيع الآخر، ففرح الناس بذلك فرحاً شديداً، ولله الحمد والمنة، وتضاعفت أدعيتهم لمن كان السبب في ذلك، وذلك أنه يكثر الجلب برخص اللحم على الناس، ويأخذ الديوان نظير ما كان يأخذ قبل ذلك، وقدّر الله تعالى قدوم وفود وقفول بتجائر متعددة، وأخذ منها الديوان السلطاني في الزكاة والوكالة، وقدم مراكب كثيرة فأخذ منها في العشر أضعاف ما أطلق من المكس، ولله الحمد والمنة. ثم قرىء على الناس في يوم الجمعة بعد صلاة الجمعة قبل العصر.

وفي يوم الاثنين العشرين منه ضرب الفقيه شمس الدين بن الصفدي بدار السعادة بسبب خانقاه الطواويس، فإنه جاء في جماعة منهم يتظلمون من كاتب السر الذي هو شيخ الشيوخ، وقد تكلم معهم فيما يتعلق بشرط الواقف مما فيه مشقة عليهم، فتكلم الصفدي المذكور بكلام فيه غلظ، فبطح ليضرب فشفع فيه، ثم تكلم فشفع فيه، ثم بطح الثالثة فضرب ثم أمر به إلى السجن، ثم أخرج بعد ليلتين أو ثلاث.

وفي صبيحة يوم الأحد السادس والعشرين منه درس قاضي القضاة الشافعي بمدارسه،

وحضر درس الناصرية الجوانية بمقتضى شرط الواقف الذي أثبته أخوه بعد موت القاضي ناصر الدين كاتب السر، وحضر عنده جماعة من الأعيان وبعض القضاة، وأخذ في سورة الفتح، قرىء عليه من تفسير والده في قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ①﴾ [سورة الفتح: ١].

وفي مستهل جمادى الأولى يوم الجمعة بعد صلاة الفجر مع الإمام الكبير صلّي على القاضي **قطب الدين محمد بن الحسن** الحاكم بحمص، جاء إلى دمشق لتلقي أخي زوجته قاضي القضاة تاج الدين السبكي الشافعي، فتمرَّض من مدة ثم كانت وفاته بدمشق، فصلّي عليه بالجامع كما ذكرنا، وخارج باب الفرج، ثم صعدوا به إلى سفح جبل قاسيون، وقد جاوز الثمانين بسنتين، وقد حدث وروى شيئاً يسيراً رحمه الله.

وفي يوم الأحد ثالثه قدم قاضيا الحنفية والحنابلة بحلب والخطيب بها والشيخ شهاب الدين الأذرعي، والشيخ زين الدين الباريني وآخرون معهم، فنزلوا بالمدرسة الإقبالية وهم وقاضي قضاتهم الشافعي، وهو كمال الدين المصري مطلوبون إلى الديار المصرية، فتحرر ما ذكروه عن قاضيهم وما نقموه عليه من السيرة السيئة فيما يذكرون في المواقف الشريفة بمصر، وتوجهوا إلى الديار المصرية يوم السبت عاشره.

وفي يوم الخميس قدم الأمير زين الدين زبالة نائب القلعة من الديار المصرية على البريد في تجمل عظيم هائل، وتلقاه الناس بالشموع في أثناء الطريق، ونزل بدار الذهب، وراح الناس للسلام عليه وتهنئته بالعود إلى نيابة القلعة، على عادته، وهذه ثالث مرة وليها لأنه مشكور السيرة فيها، وله فيها سعي محمود في أوقات متعددة.

وفي يوم الخميس الحادي والعشرين صلى نائب السلطنة والقاضيان الشافعي والحنفي وكاتب السر وجماعة من الأمراء والأعيان بالمقصورة وقرىء كتاب السلطان على السدة بوضع مكس الغنم إلى كل رأس بدرهمين، فتضاعفت الأدعية لولي الأمر، ولمن كان السبب في ذلك.

غريبة من الغرائب وعجيبة من العجائب

وقد كثرت المياه في هذا الشهر وزادت الأنهار زيادة كثيرة جداً، بحيث إنه فاض الماء في سوق الخيل من نهر بردى حتى عم جميع العرصة[1] المعروفة بموقف الموكب، بحيث إنه أجريت فيه المراكب بالسكك، وركبت فيه المارة من جانب إلى جانب، واستمر ذلك جمعاً متعددة وامتنع نائب السلطنة والجيش من الوقوف هناك، وربما وقف نائب السلطنة بعض الأيام تحت الطارمة تجاه باب الاسطبل السلطاني، وهذا أمر لم يعهد مثله ولا رأيته قط في مدة عمري، وقد سقطت بسبب ذلك بنايات ودور كثيرة، وتعطلت طواحين كثيرة غمرها الماء.

وفي ليلة الثلاثاء العشرين من جمادى الأولى توفي **الصدر شمس الدين عبد الرحمن ابن الشيخ عز الدين بن منجى التنوخي** بعد العشاء الآخرة، وصلّي عليه بجامع دمشق بعد صلاة الظهر، ودفن بالسفح. وفي صبيحة هذا اليوم توفي الشيخ ناصر الدين محمد بن أحمد القونوي

(١) العرصة: ساحة الدار، وكل بقعة ليس فيها بناء.

الحنفي، خطيب جامع يلبغا، وصلّي عليه عقيب صلاة الظهر أيضاً، ودفن بالصوفية، وقد باشر عوضه الخطابة والإمامة قاضي القضاة كمال الدين الكفري الحنفي. وفي عصر هذا اليوم توفي القاضي علاء الدين ابن القاضي شرف الدين ابن القاضي شمس الدين بن الشهاب محمود الحلبي، أحد موقعي الدست بدمشق، وصلّي عليه يوم الأربعاء ودفن بالسفح.

وفي يوم الجمعة الثالث والعشرين منه خطب قاضي القضاة جمال الدين الكفري الحنفي بجامع يلبغا عوضاً عن الشيخ ناصر الدين بن القونوي رحمه الله تعالى، وحضر عنده نائب السلطنة الأمير سيف الدين قشتمر، وصلى معه قاضي القضاة تاج الدين الشافعي بالشباك الغربي القبلي منه، وحضر خلق من الأمراء والأعيان، وكان يوماً مشهوداً، وخطب ابن نباتة بأداء حسن وفصاحة بليغة، هذا مع علم أن كل مركب صعب. وفي يوم السبت خامس عشر جمادى الآخرة توجه الشيخ شرف الدين القاضي الحنبلي إلى الديار المصرية بطلب الأمير سيف الدين يلبغا في كتاب كتبه إليه يستدعيه ويستحثه في القدوم عليه.

وفي يوم الثلاثاء ثاني شهر رجب سقط اثنان سكارى من سطح بحارة اليهود، أحدهما مسلم والآخر يهودي، فمات المسلم من ساعته وانقلعت عين اليهودي وانكسرت يده لعنه الله، وحمل إلى نائب السلطنة فلم يحر جواباً.

ورجع الشيخ شرف الدين ابن قاضي الجبل بعد ما قارب غزة لما بلغه من الوباء بالديار المصرية فعاد إلى القدس الشريف، ثم رجع إلى وطنه فأصاب السنة، وقد وردت كتب كثيرة تخبر بشدة الوباء والطاعون بمصر، وأنه يضبط من أهلها في النهار نحو الألف، وأنه مات جماعة ممن يعرفون كولدي قاضي القضاة تاج الدين المناوي، وكاتب الحكم ابن الفرات، وأهل بيته أجمعين، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وجاء الخبر في أواخر شهر رجب بموت جماعة بمصر منهم **أبو حاتم ابن الشيخ بهاء الدين السبكي المصري** بمصر، وهو شاب لم يستكمل العشرين. وقد درس بعدّة جهات بمصر وخطب، ففقده والده وتأسف الناس عليه وعزوا فيه عمه قاضي القضاة تاج الدين السبكي قاضي الشافعية بدمشق، وجاء الخبر بموت قاضي القضاة **شهاب الدين أحمد الرياحي**[1] **المالكي**، كان بحلب وليها مرتين ثم عزل فقصد مصر واستوطنها مدة ليتمكن من السعي في العودة فأدركته منيته في هذه السنة من الفناء وولدان له معه أيضاً. وفي يوم السبت سادس شعبان توجه نائب السلطنة في صحبة جمهور الأمراء إلى ناحية تدمر لأجل الأعراب من أصحاب خيار بن مهنا، ومن التف عليه منهم، وقد دمر بعضهم بلد تدمر وحرقوا كثيراً من أشجارها، ورعوها وانتهبوا شيئاً كثيراً، وخرجوا من الطاعة، وذلك بسبب قطع إقطاعاتهم وتملك أملاكهم والحيلولة عليهم، فركب نائب السلطنة بمن معه كما ذكرنا، لطردهم عن تلك الناحية، وفي صحبتهم الأمير حمزة بن الخياط، أحد أمراء الطبلخانات، وقد كان حاجباً لخيار قبل ذلك، فرجع عنه

---

(١) في ط: الرباجي.

وألب عليه عند الأمير الكبير يلبغا الخاصكي، ووعده إن هو أمّره وكبّره أن يظفره بخيار وأن يأتيه برأسه، ففعل معه ذلك، فقدم إلى دمشق ومعه مرسوم بركوب الجيش معه إلى خيار وأصحابه، فساروا كما ذكرنا، فوصلوا إلى تدمر، وهربت الأعراب من بين يدي نائب الشام يميناً وشمالاً، ولم يواجهوه هيبة له، ولكنهم يتحرفون على حمزة بن الخياط، ثم بلغنا أنهم بيتوا الجيش فقتلوا منه طائفة وجرحوا آخرين وأسروا آخرين، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

سلطنة الملك الأشرف ناصر الدين

شعبان بن حسن ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون في يوم الثلاثاء خامس عشر شعبان: لما كان عشية السبت تاسع عشر شعبان من هذه السنة ـ أعني سنة أربع وستين وسبعمائة ـ قدم أمير من الديار المصرية فنزل بالقصر الأبلق، وأخبر بزوال مملكة الملك المنصور بن المظفر حاجي ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون، ومسك واعتقل. وبويع للملك الأشرف شعبان بن حسين الناصر بن المنصور قلاوون، وله من العمر قريب العشرين، فدقت البشائر بالقلعة المنصورة، وأصبح الناس يوم الأحد في الزينة. وأخبرني قاضي القضاة تاج الدين والصاحب سعد الدين ماجد ناظر الدواوين، أنه لما كان يوم الثلاثاء الخامس عشر من شعبان عزل الملك المنصور وأودع منزله وأجلس الملك الأشرف ناصر الدين شعبان على سرير الملك، وبويع لذلك، وقد وقع رعد في هذا اليوم ومطر كثير، وجرت المزاريب، فصار غدراناً في الطرقات، وذلك في خامس حزيران، فتعجب الناس من ذلك، هذا وقد وقع وباء في مصر في أول شعبان، فتزايد وجمهوره في اليهود، وقد وصلوا إلى الخمسين في كل يوم وبالله المستعان.

وفي يوم الاثنين سابعه اشتهر الخبر عن الجيش بأن الأعراب اعترضوا التجريدة القاصدين إلى الرحبة وواقفوهم وقتلوا منهم ونهبوا وجرحوا، وقد سار البريد خلف النائب والأمراء ليقدموا إلى البلد لأجل البيعة للسلطان الجديد جعله الله مباركاً على المسلمين، ثم قدم جماعة من الأمراء المنهزمين من الأعراب في أسوإ حال وذلة، ثم جاء البريد من الديار المصرية بردهم إلى العسكر الذي مع نائب السلطنة على تدمر، متوعدين بأنواع العقوبات، وقطع الإقطاعات. وفي شهر رمضان تفاقم الحال بسبب الطاعون فإنا لله وإنا إليه راجعون، وجمهوره في اليهود لعله قد فقد منهم من مستهل شعبان إلى مستهل رمضان نحو الألف نسمة خبيثة، كما أخبرني بذلك القاضي صلاح الدين الصفدي وكيل بيت المال، ثم كثر ذلك فيهم في شهر رمضان جداً، وعدة العدة من المسلمين والذمة بالثمانين.

وفي يوم السبت حادي عشره صلينا بعد الظهر على الشيخ المعمر الصدر بدر الدين محمد بن الرقاق المعروف بابن الجوخي (1)، وعلى الشيخ صلاح الدين محمد بن شاكر الليثي، تفرد في صناعته وجمع تاريخاً مفيداً نحواً من عشرة مجلدات، وكان يحفظ ويذاكر ويفيد رحمه الله وسامحه، انتهى.

---

(1) في ط: الجوجي

وفاة الخطيب جمال الدين محمود بن جملة ومباشرة تاج الدين بعده

كانت وفاته يوم الاثنين بعد الظهر قريباً من العصر، فصلى بالناس بالمحراب صلاة العصر قاضي القضاة تاج الدين السبكي الشافعي عوضاً عنه، وصلى بالناس الصبح أيضاً، وقرأ بآخر المائدة من قوله ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ﴾ [المائدة: ١٠٩] ثم لما طلعت الشمس، وزال وقت الكراهة صلّي على الخطيب جمال الدين عند باب الخطابة، وكان الجمع في الجامع كثيراً، وخرج بجنازته من باب البريد، وخرج معه طائفة من العوام وغيرهم، وقد حضر جنازته بالصالحية على ما ذكر جم غفير وخلق كثير، ونال قاضي القضاة الشافعي من بعض الجهلة إساءة أدب، فأخذ منهم جماعة وأدبوا، وحضر هو بنفسه صلاة الظهر يومئذٍ، وكذا باشر الظهر والعصر في بقية الأيام، يأتي للجامع في محفل من الفقهاء والأعيان وغيرهم، ذهاباً وإياباً، وخطب عنه يوم الجمعة الشيخ جمال الدين ابن قاضي القضاة، ومنع تاج الدين من المباشرة، حتى يأتي التشريف.

وفي يوم الاثنين بعد العصر صلّي على الشيخ **شهاب الدين أحمد بن عبد الله البعلبكي، المعروف بابن النقيب**، ودفن بالصوفية وقد قارب السبعين وجاورها. وكان بارعاً في القراءات والنحو والتصريف والعربية، وله يد في الفقه وغير ذلك، وولّي مكانه مشيخة الإقراء بأم الصالح شمس الدين محمد بن اللبان، وبالتربة الأشرفية الشيخ أمين الدين عبد الوهاب بن السلار، وقدم نائب السلطنة من ناحية الرحبة وتدمر وفي صحبته الجيش الذين كانوا معه بسبب محاربته إلى أولاد مهنا وذويهم من الأعراب في يوم الأربعاء سادس شوال.

وفي ليلة الأحد عاشره توفي الشيخ **صلاح الدين خليل بن أيبك**، وكيل بيت المال، وموقع الدست، وصلّي عليه صبيحة الأحد بالجامع، ودفن بالصوفية، وقد كتب الكثير من التاريخ واللغة والأدب، وله الأشعار الفائقة، والفنون المتنوعة، وجمع وصنّف وألف، وكتب ما يقارب مائتين من المجلدات.

وفي يوم السبت عاشره جمع القضاة والأعيان بدار السعادة وكتبوا خطوطهم بالرضى بخطابة قاضي القضاة تاج الدين السبكي بالجامع الأموي، وكاتب نائب السلطنة في ذلك.

وفي يوم الأحد حادي عشره استقر عزل نائب السلطنة سيف الدين قشتمر عن نيابة دمشق وأمر بالمسير إلى نيابة صفد فأنزل أهله بدار طيبغا حجي من الشرق الأعلى، وبرز هو إلى سطح المزة ذاهباً إلى ناحية صفد. وخرج المحمل صحبة الحجيج وهم جم غفير وخلق كثير يوم الخميس رابع عشر شوال.

وفي يوم الخميس الحادي والعشرين من شوال توفي القاضي **أمين الدين أبو حيان ابن أخي قاضي القضاة تاج الدين المسلاتي** المالكي وزوج ابنته ونائبه في الحكم مطلقاً وفي القضاء والتدريس في غيبته، فعاجلته المنية.

ومن غريب ما وقع في أواخر هذا الشهر أنه اشتهر بين النساء وكثير من العوام أن رجلاً رأى مناماً فيه أنه رأى النبي ﷺ عند شجرة توتة عند مسجد ضرار خارج باب شرقي فتبادر النساء إلى تخليق[1] تلك التوتة، وأخذوا أوراقها للاستشفاء من الوباء، ولكن لم يظهر صدق ذلك المنام، ولا يصح عمن يرويه.

وفي يوم الجمعة سابع شهر ذي القعدة خطب بجامع دمشق قاضي القضاة تاج الدين السبكي خطبة بليغة فصيحة أداها أداء حسناً، وقد كان يحس من طائفة من العوام أن يشوشوا فلم يتكلم أحد منهم بل ضجوا عند الموعظة وغيرها، وأعجبهم الخطيب وخطبته وأداؤه وتبليغه ومهابته، واستمر يخطب هو بنفسه.

وفي يوم الثلاثاء ثامن عشره توفي **الصاحب تقي الدين سليمان بن مراجل** ناظر الجامع الأموي وغيره، وقد باشر نظر الجامع في أيام تنكز، وعمر الجانب الغربي من الحائط القبلي، وكمل رخامه كله، وفتق محراباً للحنفية في الحائط القبلي، ومحراباً للحنابلة فيه أيضاً في غربيه، وأثر أشياء كثيرة فيه، وكانت له همة وينسب إلى أمانة وصرامة ومباشرة مشكورة مشهورة، ودفن بتربة أنشأها تجاه داره بالقبيبات رحمه الله، وقد جاوز الثمانين.

وفي يوم الأربعاء تاسع عشره توفي **الشيخ بهاء الدين عبد الوهاب الإخميمي المصري**، إمام مسجد درب الحجر، وصلّي عليه بعد العصر بالجامع الأموي، ودفن بقصر ابن الحلاج عند الطيوريين بزاوية لبعض الفقراء الخزنة هناك، وقد كان له يد في أصول الفقه، وصنف في الكلام كتاباً مشتملاً على أشياء مقبولة وغير مقبولة انتهى.

دخول نائب السلطنة منكلي بغا

في يوم الخميس السابع والعشرين من ذي القعدة دخل نائب السلطنة منكلي بغا من حلب إلى دمشق نائباً عليها في تجمل هائل، ولكنه مستمرض في بدنه بسبب ما كان ناله من التعب في مصابرة الأعراب، فنزل دار السعادة على العادة. وفي يوم الاثنين مستهل ذي الحجة خلع على قاضي القضاة تاج الدين السبكي الشافعي للخطابة بجامع دمشق، واستمر على ما كان عليه يخطب بنفسه كل جمعة وفي يوم الثلاثاء ثانيه قدم القاضي فتح الدين بن الشهيد ولبس الخلعة وراح الناس لتهنئته وفي يوم الخميس حضر القاضي فتح الدين بن الشهيد كاتب السر مشيخة السميساطية، وحضر عنده القضاة والأعيان بعد الظهر، وخلع عليه لذلك أيضاً، وحضر فيها من الغد على العادة، وخلع في هذا اليوم على وكيل بيت المال الشيخ جمال الدين بن الرهاوي وعلى الشيخ شهاب الدين الزهري بفتيا دار العدل، انتهى.

---

(١) التخليق: التطيب بالخلوق.

ثم دخلت سنة خمس وستين وسبعمائة

استهلت هذه السنة وسلطان الديار المصرية والشامية والحرمين وما يتبع ذلك الملك الأشرف ناصر الدين شعبان بن سيدي حسين ابن السلطان الملك الناصر محمد بن المنصور قلاوون الصالحي، وهو في عمر عشر سنين، ومدبر الممالك بين يديه الأمير الكبير نظام الملك سيف الدين يلبغا الخاصكي، وقضاة مصرهم المذكورون في السنة التي قبلها، ووزيرها فخر الدين بن قزوينة، ونائب دمشق الأمير سيف الدين منكلي بغا الشمسي، وهو مشكور السيرة، وقضاتها هم المذكورون في السنة التي قبلها، وناظر الدواوين بها الصاحب سعد الدين ماجد، وناظر الجيش علم الدين داود، وكاتب السر القاضي فتح الدين بن الشهيد، ووكيل بيت المال القاضي جمال الدين بن الرهاوي.

استهلت هذه السنة وداء الفناء موجود في الناس، إلا أنه خفّ وقلّ ولله الحمد وفي يوم السبت توجه قاضي القضاة ـ وكان بهاء الدين أبو البقاء السبكي إلى الديار المصرية مطلوباً من جهة الأمير يلبغا وفي الكتاب إجابته له إلى مسائل، وتوجه بعده قاضي القضاة تاج الدين الحاكم بدمشق وخطيبها يوم الاثنين الرابع عشر من المحرم، على خيل البريد، وتوجه بعدهما الشيخ شرف الدين ابن قاضي الجبل الحنبلي، مطلوباً إلى الديار المصرية، وكذلك توجه الشيخ زين الدين المنفلوطي مطلوباً.

وتوفي في العشر الأوسط من المحرم صاحبنا الشيخ شمس الدين بن العطار الشافعي، كان لديه فضيلة واشتغال، وله فهم، وعلق بخطه فوائد جيدة، وكان إماماً بالسجن من مشهد علي بن الحسين بجامع دمشق، ومصدراً بالجامع، وفقيهاً بالمدارس، وله مدرسة الحديث الوادعية، وجاوز الخمسين بسنوات، ولم يتزوج قط. وقدم الركب الشامي إلى دمشق في اليوم الرابع والعشرين من المحرم، وهم شاكرون مثنون في كل خير بهذه السنة أمناً ورخصاً ولله الحمد.

وفي يوم الأحد حادي عشر صفر درس بالمدرسة الفتحية صاحبنا الشيخ عماد الدين إسماعيل بن خليفة الشافعي، وحضر عنده جماعة من الأعيان والفضلاء، وأخذ في قوله تعالى ﴿إِنَّ عِـدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ التوبة: ٣٦] .

وفي يوم الخميس خامس عشره نودي في البلد على أهل الذمة بإلزامهم بالصغار وتصغير العمائم، وأن لا يستخدموا في شيء من الأعمال، وأن لا يركبوا الخيل ولا البغال، ويركبون الحمير بالأكف بالعرض، وأن يكون في رقابهم ورقاب نسائهم في الحمامات أجراس، وأن يكون أحد النعلين أسود مخالفاً للون الأخرى، ففرح بذلك المسلمون ودعوا للآمر بذلك.

وفي يوم الأحد ثالث ربيع الأول قدم قاضي القضاة تاج الدين من الديار المصرية مستمراً على القضاء والخطابة، فتلقاه الناس وهنؤوه بالعود والسلامة، وفي يوم الخميس سابعه لبس القاضي الصاحب البهنسي الخلعة لنظر الدواوين بدمشق، وهنأه الناس، وباشر بصرامته

واستعمل في غالب الجهات من أبناء السبيل.

وفي يوم الاثنين حادي عشره ركب قاضي القضاة بدر الدين بن الفتح على خيل البريد إلى الديار المصرية لتوليه قضاء قضاة الشافعية بدمشق، عن رضا من خاله قاضي القضاة تاج الدين، ونزوله عن ذلك.

وفي يوم الخميس خامس ربيع الأول احترقت الباشورة التي ظاهر باب الفرج على الجسر، ونال حجارة الباب شيء من حريقها فاتسعت، وقد حضر طفيها نائب السلطنة والحاجب الكبير، ونائب القلعة والولاة وغيرهم. وفي صبيحة هذا اليوم زاد النهر زيادة عظيمة بسبب كثرة الأمطار وذلك في أوائل كانون الثاني، وركب الماء سوق الخيل بكماله، ووصل إلى ظاهر باب الفراديس، وتلك النواحي، وكسر جسر الخشب الذي عند جامع يلبغا، وجاء فصدم به جسر الزلابية فكسره أيضاً.

وفي يوم الخميس ثاني عشره صرف حاجب الحجاب قماري عن المباشرة بدار السعادة، وأخذت القضاة من يده وانصرف إلى داره في أقل من الناس، واستبشر بذلك كثير من الناس، لكثرة ما كان يفتات على الأحكام الشرعية.

وفي أواخره اشتهر موت القاضي تاج الدين المناوي بديار مصر وولاية قاضي القضاة بهاء الدين بن أبي البقاء السبكي مكانه بقضاء العساكر بها، ووكالة السلطان أيضاً، ورتب له مع ذلك كفايته. وتولى في هذه الأيام الشيخ سراج الدين البلقيني إفتاء دار العدل مع الشيخ بهاء الدين أحمد ابن قاضي القضاة السبكي بالشام، وقد ولي هو أيضاً القضاء بالشام كما تقدم، ثم عاد إلى مصر موفراً مكرماً وعاد أخوه تاج الدين إلى الشام، وكذلك ولوا مع البلقيني إفتاء دار العدل الحنفي (شيخاً) يقال له الشيخ شمس الدين بن الصائغ، وهو مفتي حنفي أيضاً.

وفي يوم الاثنين سابع ربيع الأول توفي الشيخ نور الدين محمد ابن الشيخ أبي بكر قوام بزاويتهم بسفح جبل قاسيون، وغدا الناس إلى جنازته، وقد كان من العلماء الفضلاء الفقهاء بمذهب الشافعي، درس بالناصرية البرانية مدة سنين بعد أبيه، وبالرباط الدويداري داخل باب الفرج، وكان يحضر المدارس، ونزل عندنا بالمدرسة النجيبية، وكان يحب السنة ويفهمها جيداً رحمه الله.

وفي مستهل جمادى الأولى ولي قاضي القضاة تاج الدين الشافعي مشيخة دار الحديث بالمدرسة التي فتحت بدرب القبلي، وكانت داراً لواقفها جمال الدين عبد الله بن محمد بن عيسى التدمري، الذي كان أستاذاً للأمير طاز، وجعل فيها درس للحنابلة، وجعل المدرس لهم الشيخ برهان الدين إبراهيم بن قيم الجوزية، وحضر الدرس وحضر عنده بعض الحنابلة الدرس، ثم جرت أمور يطول بسطها. واستحضر نائب السلطنة شهود الحنابلة بالدرس واستفرد كلاً منهم وسأله كيف شهد في أصل الكتاب ـ المحضر ـ الذي أثبتوا عليهم، فاضطربوا في الشهادات فضبط ذلك عليهم، وفيه مخالفة كبيرة لما شهدوا به في أصل المحضر، وشنع عليهم كثير من الناس، ثم ظهرت ديون كثيرة لبيت طاز على جمال الدين التدمري الواقف، وطلب من

القاضي المالكي أن يحكم بإبطال ما حكم به الحنبلي، فتوقف في ذلك: وفي يوم الاثنين الحادي والعشرين منه، قرىء كتاب السلطان بصرف الوكلاء من أبواب القضاة الأربعة فصرفوا.

وفي شهر جمادى الآخرة توفي الشيخ **شمس الدين شيخ الحنابلة بالصالحية ويعرف بالبيري** يوم الخميس ثامنه، صلّي عليه بالجامع المظفري بعد العصر ودفن بالسفح وقد قارب الثمانين.

وفي الرابع عشر منه عقد بدار السعادة مجلس حافل اجتمع فيه القضاة الأربعة وجماعة من المفتيين، وطلبت فحضرت معهم بسبب المدرسة التدمرية، وقرابة الواقف ودعواهم، أنه وقف عليهم الثلث، فوقف الحنبلي في أمرهم عن ذلك أشد الدفاع.

وفي العشر الأول من رجب وجد جراد كثير منتشر، ثم تزايد وتراكم وتضاعف وتفاقم الأمر بسببه، وسد الأرض كثرة وعاث يميناً وشمالاً، وأفسد شيئاً كثيراً من الكروم والمقاني والزروعات النفيسة، وأتلف للناس شيئاً كثيراً، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفي يوم الاثنين ثالث شعبان توجه القضاة ووكيل بيت المال إلى باب كيسان فوقفوا عليه وعلى هيئته ومن نية نائب السلطنة فتحه ليتفرج الناس به. وعدم للناس غلات كثيرة وأشياء من أنواع الزروع بسبب كثرة الجراد، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

فتح باب كيسان بعد غلقه نحواً من مائتي سنة

وفي يوم الأربعاء السادس والعشرين من شعبان اجتمع نائب السلطنة والقضاة عند باب كيسان، وشرع الصناع في فتحه عن مرسوم السلطان الوارد من الديار المصرية، وأمر نائب السلطنة وأذن القضاة في ذلك واستهل رمضان وهم في العمل فيه.

وفي العشر الأخير من شعبان توفي الشريف **شمس الدين محمد بن علي بن الحسن بن حمزة الحسني** المحدث المحصل، المؤلف لأشياء مهمة، وفي الحديث قرأ وسمع وجمع وكتب أسماء رجال بمسند الإمام أحمد، واختصر كتاباً في أسماء الرجال مفيداً، وولي مشيخة الحديث التي وقفها في داره بهاء الدين القاسم بن عساكر، داخل باب توما، وختمت البخاريات في آخر شهر رمضان.

ووقع بين الشيخ عماد الدين بن السراج قارىء البخاري عند محراب الصحابة، وبين الشيخ بدر الدين ابن الشيخ جمال الدين الشريشي، وتهاترا على رؤوس الأشهاد بسبب لفظة «يبتز» بمعنى يدخر، وفي نسخة يتير، فحكى ابن السراج عن الحافظ المزي أن الصواب «يبتز» من قول العرب عزيز، وصدق في ذلك، فكأن منازعه خطأ ابن المزي، فانتصر الآخر للحافظ المزي، فقاد منه بالقول ثم قام والده الشيخ جمال الدين المشار إليه فكشف رأسه على طريقة الصوفية، فكأن ابن السراج لم يلتفت إليه، وتدافعوا إلى القاضي الشافعي فانتصر للحافظ المزي، وجرت أمور ثم اصطلحوا غير مرة وعزم أولئك على كتب محضر علي بن السراج، ثم انطفأت تلك الشرور.

وكثر الموت في أثناء شهر رمضان وقاربت العدة مائة، وربما جاوزت المائة، وربما كانت أقل منها وهو الغالب، ومات جماعة من الأصحاب والمعارف، فإنا لله وإنا إليه راجعون. وكثر الجراد في البساتين وعظم الخطب بسببه، وأتلف شيئاً كثيراً من الغلات والثمار والخضراوات، وغلت الأسعار وقلت الثمار، وارتفعت قيم الأشياء فبيع الدبس بما فوق المائتين القنطار، والرز بأزيد من ذلك وتكامل فتح باب كيسان وسموه الباب القبلي، ووضع الجسر منه إلى الطريق السالكة، وعرضه أزيد من عشرة أذرع بالنجاري لأجل عمل الباسورة جنبتيه، ودخلت المارة عليه من المشاة والركبان، وجاء في غاية الحسن، وسلك الناس في حارات اليهود، وانكشف دخلهم وأمن الناس من دخنهم وغشهم ومكرهم وخبثهم، وانفرج الناس بهذا الباب المبارك.

واستهل شوال والجراد قد أتلف شيئاً كثيراً من البلاد، ورعى الخضروات والأشجار، وأوسع أهل الشام في الفساد، وغلت الأسعار، واستمر الفناء وكثر الضجيج والبكاء، وفقدنا كثيراً من الأصحاب والأصدقاء، فلان مات. وقد تناقص الفناء في هذه المدة وقل الوقع وتناقص للخمسين. وفي شهر ذي القعدة تقاصر الفناء ولله الحمد، ونزل العدد إلى العشرين فما حولها، وفي رابعه دخل بالفيل والزرافة إلى مدينة دمشق من القاهرة، فأنزل في الميدان الأخضر قريباً من القصر الأبلق، وذهب الناس للنظر إليهما على العادة.

وفي يوم الجمعة تاسعه صلِّي على الشيخ **جمال الدين عبد الصمد بن خليل البغدادي، المعروف بابن الخضري**، محدِّث بغداد وواعضها، كان من أهل السنة والجماعة رحمه الله انتهى.

تجديد خطبة ثانية داخل سور دمشق منذ فتوح الشام

اتفق ذلك في يوم الجمعة الثالث، ثم تبين أنه الرابع والعشرين من ذي القعدة من هذه السنة بالجامع الذي جدد بناءه نائب الشام سيف الدين منكلي بغا، بدرب البلاغة قبلي مسجد درب الحجر، داخل باب كيسان المجدد فتحه في هذا الحين كما تقدم، وهو معروف عند العامة بمسجد الشاذوري، وإنما هو في تاريخ ابن عساكر مسجد الشهرزوري، وكان المسجد رث الهيئة قد تقادم عهده مدة دهر، وهجر فلا يدخله أحد من الناس إلا قليل، فوسعه من قبليه وسقفه جديداً، وجعل له صرحة شمالية مبلطة، ورواقات على هيئة الجوامع، والداخل بأبوابه على العادة، وداخل ذلك رواق كبير له جناحان شرقي وغربي، بأعمدة وقناطر، وقد كان قديماً كنيسة فأخذت منهم قبل الخمسمائة، وعملت مسجداً، فلم يزل كذلك إلى هذا الحين، فلما كمل ذكرنا وسيق إليه الماء من القنوات، ووضع فيه منبر مستعمل كذلك، فيومئذٍ ركب نائب السلطنة ودخل البلد من باب كيسان وانعطف على حارة اليهود حتى انتهى إلى الجامع المذكور، وقد استكف الناس عنده من قضاة وأعيان وخاصة وعامة، وقد عين لخطابته الشيخ صدر الدين بن منصور الحنفي، مدرس الناجية وإمام الحنفية بالجامع الأموي، فلما أذن الأذان الأول تعذر عليه الخروج من بيت الخطابة، قيل لمرض عرض له، وقيل لغير ذلك من حصر أو نحوه، فخطب الناس يومئذٍ قاضي القضاة جمال الدين الحنفي الكفري، خدمة لنائب السلطنة.

واستهل شهر ذي الحجة وقد رفع الله الوباء عن دمشق وله الحمد والمنة. وأهل البلد يموتون على العادة ولا يمرض أحد بتلك العلة، ولكن المرض المعتاد، انتهى.

ثم دخلت سنة ست وستين وسبعمائة

استهلت هذه السنة والسلطان الملك الأشرف ناصر الدين شعبان، والدولة بمصر والشام هم هم، ودخل المحمل السلطاني صبيحة يوم الاثنين الرابع والعشرين منه، وذكروا أنهم نالهم في الرجعة شدة شديدة من الغلاء وموت الجمال وهرب الجمالين، وقدم مع الركب ممن خرج من الديار المصرية قاضي القضاة بدر الدين بن أبي الفتح، وقد سبقه التقليد بقضاء القضاة مع خالد تاج الدين بحكم فيما يحكم فيه مستقلاً معه ومنفرداً بعده.

وفي شهر الله المحرم رسم نائب السلطنة بتخريب قريتين من وادي التيم وهما مشغرا وتلبتاثا، وسبب ذلك أنهما عاصيتان وأهلهما مفسدون في الأرض، والبلدان والأرض حصينة لا يصل إليهما إلا بكلفة كثيرة لا يرتقي إليهما إلا فارس فارس، فخربتا وعمر بدلهما في أسفل الوادي، بحيث يصل إليهما حكم الحاكم والطلب بسهولة، فأخبرني الملك صلاح الدين بن الكامل أن بلدة تلبتاثا عمل فيها ألف فارس، ونقل نقضها إلى أسفل الوادي خمسمائة حمار عدّة أيام.

وفي يوم الجمعة سادس صفر بعد الصلاة صلّي على قاضي القضاة **جمال الدين يوسف ابن قاضي القضاة شرف الدين أحمد ابن أقضى القضاة ابن الحسين المزي الحنفي**، وكانت وفاته ليلة الجمعة المذكورة بعد مرض قريب من شهر، وقد جاوز الأربعين بثلاث من السنين، ولّي قضاء قضاة الحنفية، وخطب بجامع يلبغا، وأحضر مشيخة النفيسية، ودرس بأماكن من مدارس الحنفية، وهو أول من خطب بالجامع المستجد داخل باب كيسان بحضرة نائب السلطنة.

وفي صفر كانت وفاة الشيخ جمال الدين عمر ابن القاضي عبد الحي بن إدريس الحنبلي محتسب بغداد، وقاضي الحنابلة بها، فتعصبت عليه الروافض حتى ضرب بين يدي الوزارة ضرباً مبرحاً، كان سبب موته سريعاً رحمه الله، وكان من القائمين بالحق الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، من أكبر المنكرين على الروافض وغيرهم من أهل البدع رحمه الله، وبلّ بالرحمة ثراه.

وفي يوم الأربعاء تاسع صفر حضر مشيخة النفيسية الشيخ شمس الدين بن سند، وحضر عند قاضي القضاة تاج الدين وجماعة من الأعيان، وأورد حديث عبادة بن الصامت «لا صلاة لمن لم يقر بفاتحة الكتاب»[1] أسنده عن قاضي القضاة المشار إليه.

وجاء البريد من الديار المصرية بطلب قاضي القضاة تاج الدين إلى هناك؛ فسير أهله قبله على الجمال، وخرجوا يوم الجمعة حادي عشر ربيع الأول جماعة من أهل بيتهم لزيارة أهاليهم

---

(١) أخرجه الترمذي في المواقيت باب ٦٩، ١١٥، وابن ماجه في الإقامة باب ١١.

هناك، فأقام هو بعدهم إلى أن قدم نائب السلطنة من الرحبة وركب على البريد. وفي يوم الاثنين خامس عشر جمادى الآخرة رجع قاضي القضاة تاج الدين السبكي من الديار المصرية على البريد وتلقاه الناس إلى أثناء الطريق، واحتفلوا للسلام عليه وتهنئته بالسلامة انتهى. والله أعلم.

قتل الرافضي الخبيث

وفي يوم الخميس سابع عشره أول النهار وجد رجل بالجامع الأموي اسمه محمود بن إبراهيم الشيرازي، وهو يسب الشيخين ويصرح بلعنتهما، فرفع إلى القاضي المالكي قاضي القضاة جمال الدين المسلاتي فاستتابه عن ذلك وأحضر الضراب فأول ضربة قال لا إله إلا الله علي ولي الله، ولما ضرب الثانية لعن أبو بكر وعمر، فالتهمه العامة فأوسعوه ضرباً مبرحاً بحيث كاد يهلك، فجعل القاضي يستكفهم عنه فلم يستطع ذلك، فجعل الرافضي يسب ويلعن الصحابة، وقال: كانوا على الضلال؛ فعند ذلك حمل إلى نائب السلطنة وشهد عليه قوله بأنهم كانوا على الضلالة، فعند ذلك حكم عليه القاضي بإراقة دمه، فأخذ إلى ظاهر البلد فضربت عنقه وأحرقته العامة قبّحه الله، وكان ممن يقرأ بمدرسة أبي عمر، ثم ظهر عليه الرفض فسجنه الحنبلي أربعين يوماً، فلم ينفع ذلك، وما زال يصرح في كل موطن يأمر فيه بالسب حتى كان يومه هذا أظهر مذهبه في الجامع، وكان سبب قتله قبّحه الله كما قبّح من كان قبله، وقتل بقتله في سنة خمس وخمسين.

استنابة ولي الدين ابن أبي البقاء السبكي

وفي آخر هذا اليوم - أعني يوم الخميس ثامن عشره - حكم أقضى القضاة ولي الدين ابن قاضي القضاة بهاء الدين بن أبي البقاء بالمدرسة العادلية الكبيرة نيابة عن قاضي القضاة تاج الدين مع استنابة أقضى القضاة شمس الدين العزي، وأقضى القضاة بدر الدين بن وهيبة، وأما قاضي القضاة بدر الدين بن أبي الفتح فهو نائب أيضاً، ولكنه بتوقيع شريف أنه يحكم مستقلاً مع قاضي القضاة تاج الدين.

وفي يوم الاثنين الثاني والعشرين منه استحضر نائب السلطنة الأمير ناصر الدين بن العلوي[1] متولي البلد ونقم عليه أشياء، وأمر بضربه فضرب بين يديه على أكتافه ضرباً ليس بمبرح، ثم عزله واستدعي بالأمير علم الدين سليمان أحد الأمراء العشراوات ابن الأمير صفي الدين بن أبي القاسم البصراوي، أحد أمراء الطبلخانات، كان قد ولي شد الدواوين ونظر القدس والخليل وغير ذلك من الولايات الكبار، وهو ابن الشيخ فخر الدين عثمان ابن الشيخ صفي الدين أبي القاسم التميمي الحنفي. وبأيديهم تدريس الأمينية التي ببصرى والحكيمية أزيد من مائة سنة، فولاه البلد على تكره منه، فألزمه بها وخلع عليه، وقد كان وليها قبل ذلك فأحسن السيرة وشكر سعيه لديانته وأمانته وعفته، وفرح الناس ولله الحمد.

---

(١) في ط: العاوي.

ولاية قاضي القضاة بهاء الدين السبكي قضاء مصر بعد عزل عز الدين بن جماعة نفسه

ورد الخبر مع البريد من الديار المصرية بأن قاضي القضاة عز الدين عبد العزيز ابن قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة عزل نفسه عن القضاء يوم الاثنين السادس عشر من هذا الشهر، وصمم على ذلك، فبعث الأمير الكبير يلبغا إليه الأمراء يسترضونه فلم يقبل، فركب إليه بنفسه ومعه القضاة والأعيان فتلطفوا به فلم يقبل وصمم على الانعزال، فقال له الأمير الكبير: فعين لنا من يصلح بعدك. قال ولا أقول لكم شيئاً غير أنه لا يتولى رجل واحد، ثم ولوا من شئتم، فأخبرني قاضي القضاة تاج الدين السبكي أنه قال لا تولوا ابن عقيل، فعين الأمير الكبير قاضي القضاة بهاء الدين أبا البقاء فقيل إنه أظهر الامتناع، ثم قبل ولبس الخلعة وباشر يوم الاثنين الثالث والعشرين من جمادى الآخرة، قاضي القضاة الشيخ بهاء الدين ابن قاضي القضاة تقي الدين السبكي قضاء العساكر الذي كان بيد أبي البقاء.

وفي يوم الاثنين سابع رجب توفي **الشيخ علي المراوحي** خادم الشيخ أسد المراوحي البغدادي، وكان فيه مروءة كثيرة ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويدخل على النواب ويرسل إلى الولاة فتقبل رسالته، وله قبول عند الناس، وفيه بر وصدقة وإحسان إلى المحاويج[1]، وبيده مال جيد يتجر له فيه تعلل مدة طويلة ثم كانت وفاته في هذا اليوم فصلّي عليه الظهر بالجامع، ثم حمل إلى سفح قاسيون رحمه الله.

وفي صبيحة يوم الثلاثاء السابع والعشرين من شعبان قدم الأمير سيف الدين بيدمر الذي كان نائب الشام فنزل بداره عند مئذنة فيروز، وذهب الناس للسلام عليه بعد ما سلم على نائب السلطنة بدار السعادة، وقد رسم له بطبلخانتين وتقدمة ألف وولاية الولاة من غزة إلى أقصى بلاد الشام، وأكرمه ملك الأمراء إكراماً زائداً، وفرحت العامة بذلك فرحاً شديداً بعوده إلى الولاية. وختمت البخاريات بالجامع الأموي وغيره في عدة أماكن من ذلك ستة مواعيد تقرأ على الشيخ عماد الدين بن كثير في اليوم، أولها بمسجد ابن هشام بكرة قبل طلوع الشمس، ثم تحت النسر، ثم بالمدرسة النورية، وبعد الظهر بجامع تنكز، ثم بالمدرسة العزية، ثم بالكوشك لأم الزوجة الست أسماء بنت الوزير ابن السلعوس، إلى أذان العصر، ثم من بعد العصر بدار ملك الأمراء أمير علي بمحلة القصاعين إلى قريب الغروب، ويقرأ صحيح مسلم بمحراب الحنابلة داخل باب الزيارة بعد قبة النسر وقبل النورية، والله المسؤول وهو المعين الميسِّر المسهِّل. وقد قرىء في هذه الهيئة في عدّة أماكن أخر من دور الأمراء وغيرهم، ولم يعهد مثل هذا في السنين الماضية، فللّه الحمد والمنة.

وفي يوم الثلاثاء عاشر شوال توفي **الشيخ نورالدين علي بن أبي الهيجاء الكركي الشوبكي، ثم الدمشقي الشافعي**، كان معنا في المقري والكتاب، وختمت أنا وهو في سنة إحدى عشرة ونشأ في صيانة، وعفاف، وقرأ على الشيخ بدر الدين بن سيحان للسبع، ولم

(١) المحاويج: المحتاجون.

يكمل عليه ختمه، واشتغل في المنهاج للنواوي فقرأ كثيراً منه أو أكثره، وكان ينقل منه ويستحضر، وكان خفيف الروح تحبه الناس لذلك ويرغبون في عشرته لذلك رحمه الله، وكان يستحضر المتشابه في القرآن استحضاراً حسناً متقناً كثير التلاوة له، حسن الصلاة يقوم الليل، وقرأ على صحيح البخاري بمشهد ابن هشام عدّة سنين، ومهر فيه، وكان صوته جهورياً فصيح العبارة، ثم ولّي مشيخة الحلبية بالجامع وقرأ في عدة كراسي بالحائط الشمالي، وكان مقبولاً عند الخاصة والعامة، وكان يداوم على قيام العشر الأخير في محراب الصحابة مع عدة قراء يبيتون فيه ويحيون الليل، ولما كان في هذه السنة أحيا ليلة العيد وحده بالمحراب المذكور ثم مرض خمسة أيام، ثم مات بعد الظهر يوم الثلاثاء عاشر شوال بدرب العميد، وصلّي عليه العصر بالجامع الأموي ودفن بمقابر الباب الصغير عند والده في تربة لهم، وكانت جنازته حافلة وتأسف الناس عليه، رحمه الله وبلّ بالرحمة ثراه، وقد قارب خمساً وستين سنة، وترك بنتاً سباعية اسمها عائشة، وقد أقرأها شيئاً من القرآن إلى تبارك، وحفظها الأربعين النواوية[١] جبرها ربها ورحم أباها آمين.

وخرج المحمل الشامي والحجيج يوم الخميس ثاني عشره، وأميرهم الأمير علاء الدين علي بن علم الدين الهلالي، أحد أمراء الطبلخانات.

وتوفي **الشيخ عبد الله الملطي** يوم السبت رابع عشره، وكان مشهوراً بالمجاورة بالكلاسة في الجامع الأموي، له أشياء كثيرة من الطراريح والآلات الفقرية، ويلبس على طريقة الحريرية وشكله مزعج، ومن الناس من كان يعتقد فيه الصلاح، وكنت ممن يكرهه طبعاً وشرعاً أيضاً.

وفي يوم الخميس الخامس والعشرين من ذي القعدة قدم البريد من ناحية المشرق ومعهم قماقم ماء من عين هناك من خاصيته أنه يتبعه طير يسمى السمرمر أصفر الريش قريب من شكل الخطاف من شأنه إذا قدم الجراد إلى البلد الذي هو فيه أنه يفنيه ويأكله أكلاً سريعاً، فلا يلبث الجراد إلا قليلاً حتى يرحل أو يؤكل على ما ذكر، ولم أشاهد ذلك.

وفي المنتصف من ذي الحجة كمل بناء القيسارية التي كانت معملاً بالقرب من دار الحجارة، قبلي سوق الدهشة الذي للرجال، وفتحت وأكريت دهشة لقماش النساء، وذلك كله بمرسوم ملك الأمراء ناظر الجامع المعمور رحمه الله، وأخبرني الصدر عز الدين الصيرفي المشارف بالجامع أنه غرم عليها من مال الجامع قريب ثلاثين ألف درهم انتهى.

طرح مكس القطن المغزول البلدي والمجلوب

وفي أواخر هذا الشهر جاء المرسوم الشريف بطرح مكس القطن المغزول البلدي والجلب أيضاً، ونودي بذلك في البلد، فكثرت الدعوات لمن أمر بذلك، وفرح المسلمون بذلك فرحاً شديداً ولله الحمد والمنة.

---

(١) النواوية: نسبة إلى النواوي.

ثم دخلت سنة سبع وستين وسبعمائة

استهلت وسلطان البلاد المصرية والشامية والحرمين الشريفين وما يتبع ذلك من الأقاليم الملك الأشرف بن الحسين ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون، وعمره عشر سنين فما فوقها، وأتابك العساكر ومدبر ممالكه الأمير سيف الدين يلبغا الخاصكي، وقاضي قضاة الشافعية بمصر بهاء الدين أبو البقاء السبكي، وبقية القضاة هم المذكورون في السنة الماضية، ونائب دمشق الأمير سيف الدين منكلي بغا، وقضاة دمشق هم المذكورون في التي قبلها سوى الحنفي فإنه الشيخ جمال الدين بن السراج شيخ الحنفية، والخطابة بيد قاضي القضاة تاج الدين الشافعي، وكاتب السر وشيخ الشيوخ القاضي فتح الدين بن الشهيد، ووكيل بيت المال الشيخ جمال الدين بن الرهاوي. ودخل المحمل السلطاني يوم الجمعة بعد العصر قريب الغروب، ولم يشعر بذلك أكثر أهل البلد. وذلك لغيبة النائب في السرحة مما يلي ناحية الفرات، ليكون كالرد للتجريدة التي تعينت لتخريب الكبيسات التي هي إقطاع خيار بن مهنا من زمن السلطان أويس ملك العراق انتهى.

استيلاء الفرنج لعنهم الله على الإسكندرية

وفي العشر الأخير من شهر المحرم احتيط على الفرنج بمدينة دمشق وأودعوا في الحبوس في القلعة المنصورة، واشتهر أن سبب ذلك أن مدينة الإسكندرية محاصرة بعدة شواين، وذكر أن صاحب قبرص معهم، وأن الجيش المصري صمدوا إلى حراسة مدينة الإسكندرية حرسها الله تعالى وصانها وحماها، وسيأتي تفصيل أمرها في الشهر الآتي، فإنه وضح لنا فيه، ومكث القوم بعد الإسكندرية بأيام فيما بلغنا، بعد ذلك حاصرها أمير من التتار يقال له ماميه، واستعان بطائفة من الفرنج ففتحوها قسراً، وقتلوا من أهلها خلقاً وغنموا شيئاً كثيراً واستقرت عليها يد ماميه ملكاً عليها.

وفي يوم الجمعة سلخ هذا الشهر توفي الشيخ برهان الدين إبراهيم ابن الشيخ شمس الدين بن قيم الجوزية ببستانه بالمزة، ونقل إلى عند والده بمقابر باب الصغير، فصلّي عليه بعد صلاة العصر بجامع جراح، وحضر جنازته القضاة والأعيان وخلق من التجار والعامة، وكانت جنازته حافلة، وقد بلغ من العمر ثمانياً وأربعين سنة، وكان بارعاً فاضلاً في النحو والفقه وفنون أخر على طريقة والده رحمهما الله تعالى، وكان مدرساً بالصدرية والتدمرية، وله تصدير بالجامع، وخطابة بجامع ابن صلحان، وترك مالاً جزيلاً يقارب المائة ألف درهم، انتهى.

ثم دخل شهر صفر وأوله الجمعة، أخبرني بعض علماء السير أنه اجتمع في هذا اليوم - يوم الجمعة مستهل هذا الشهر - الكواكب السبعة سوى المريخ في برج العقرب، ولم يتفق مثل هذا من سنين متطاولة، فأما المريخ فإنه كان قد سبق إلى برج القوس فيه ووردت الأخبار بما وقع من الأمر الفظيع بمدينة الإسكندرية من الفرنج لعنهم الله، وذلك أنهم وصلوا إليها في يوم الأربعاء الثاني والعشرين من شهر الله المحرم، فلم يجدوا بها نائباً ولا جيشاً، ولا حافظاً للبحر

ولا ناصراً، فدخلوها يوم الجمعة بكرة النهار بعدما حرقوا أبواباً كبيرة منها، وعاثوا في أهلها فساداً، يقتلون الرجال ويأخذون الأموال ويأسرون النساء والأطفال، فالحكم لله العلي الكبير المتعال. وأقاموا بها يوم الجمعة والسبت والأحد والاثنين والثلاثاء، فلما كان صبيحة يوم الأربعاء قدم الشاليش المصري، فأقلعت الفرنج لعنهم الله عنها، وقد أسروا خلقاً كثيراً يقاومون الأربعة آلاف، وأخذوا من الأموال ذهباً وحريراً وبهاراً وغير ذلك ما لا يحد ولا يوصف. وقدم السلطان والأمير الكبير يلبغا ظهر يومئذٍ، وقد تفارط الحال وتحولت الغنائم كلها إلى الشوائن بالبحر، فسمع للأسارى من العويل والبكاء والشكوى والجأر إلى الله والاستغاثة به وبالمسلمين ما قطع الأكباد، وذرفت له العيون وأصم الأسماع، فإنا لله وإنا إليه راجعون ولما بلغت الأخبار إلى أهل دمشق شق عليهم ذلك جداً، وذكر ذلك الخطيب يوم الجمعة على المنبر فتباكى الناس كثيراً، فإنا لله وإنا إليه راجعون، وجاء المرسوم الشريف من الديار المصرية إلى نائب السلطنة بمسك النصارى من الشام جملة واحدة، وأن يأخذ منهم ربع أموالهم لعمارة ما خرب من الإسكندرية، ولعمارة مراكب تغزو الفرنج، فأهانوا النصارى وطلبوا من بيوتهم بعنف وخافوا أن يقتلوا، ولم يفهموا ما يراد بهم، فهربوا كل مهرب، ولم تكن هذه الحركة شرعية، ولا يجوز اعتمادها شرعاً، وقد طلبت يوم السبت السادس عشر من صفر إلى الميدان الأخضر للاجتماع بنائب السلطنة، وكان اجتماعنا بعد العصر يومئذٍ بعد الفراغ من لعب الكرة، فرأيت منه أنساً كثيراً، ورأيته كامل الرأي والفهم، حسن العبارة كريم المجالسة، فذكرت له أن هذا لا يجوز اعتماده في النصارى، فقال إن بعض فقهاء مصر أفتى للأمير الكبير بذلك، فقلت له: هذا مما لا يسوغ شرعاً، ولا يجوز لأحد أن يفتي بهذا، ومتى كانوا باقين على الذمة يؤدون إلينا الجزية ملتزمين بالذلة والصغار، وأحكام الملة قائمة، لا يجوز أن يؤخذ منهم الدرهم الواحد ـ الفرد ـ فوق ما يبذلونه من الجزية، ومثل هذا لا يخفى على الأمير فقال: كيف أصنع وقد ورد المرسوم بذلك ولا يمكنني أن أخالفه؟ وذكرت له أشياء كثيرة مما ينبغي اعتماده في حق أهل قبرص من الإرهاب ووعيد العقاب، وأنه يجوز ذلك وإن لم يفعل ما يتوعدهم به، كما قال سليمان بن داود عليهما السلام: «ائتوني بالسكين أشقه نصفين»[1] كما هو الحديث مبسوط في الصحيحين، فجعل يعجبه هذا جداً، وذكر أن هذا كان في قلبه وأني كاشفته بهذا، وأنه كتب به مطالعة إلى الديار المصرية، وسيأتي جوابها بعد عشرة أيام، فتجيء حتى تقف على الجواب، وظهر منه إحسان وقبول وإكرام زائد، رحمه الله. ثم اجتمعت به في دار السعادة في أوائل شهر ربيع الأول فبشرني أنه قد رسم بعمل الشواني والمراكب لغزو الفرنج ولله الحمد والمنة. ثم في صبيحة يوم الأحد طلب النصارى الذين اجتمعوا في كنيستهم إلى بين يديه وهم قريب من أربعمائة فحلفهم كم أموالهم وألزمهم بأداء الربع من أموالهم، فإنا لله وإنا إليه راجعون. وقد أمروا إلى الولاة بإحضار من في معاملتهم، ووالي البر قد خرج إلى القرايا بسبب ذلك، وجردت أمراء إلى

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٤٠، والفرائض باب ٣٠، ومسلم في الأقضية باب ٢٠، والنسائي في القضاة باب ١٤، ١٥، وأحمد في المسند ٢/٣٢٢، ٣٤٠.

النواحي لاستخلاص الأموال من النصارى في القدس وغير ذلك.

وفي أول شهر ربيع الأول كان سفر قاضي القضاة تقي الدين السبكي الشافعي إلى القاهرة. وفي يوم الأربعاء خامس ربيع الأول اجتمعت بنائب السلطنة بدار السعادة وسألته عن جواب المطالعة، فذكر لي أنه جاء المرسوم الشريف السلطاني بعمل الشواني والمراكب لغزو قبرص، وقتال الفرنج ولله الحمد والمنة. وأمر نائب السلطنة بتجهيز القطاعين والنشارين من دمشق إلى الغابة التي بالقرب من بيروت، وأن يشرع في عمل الشواني في آخر يوم من هذا الشهر، وهو يوم الجمعة. وفتحت دار القرآن التي وقفها الشريف التعاداني إلى جانب حمام الكاس، شمالي المدرسة البادرائية، وعمل فيها وظيفة حديث وحضر واقفها يومية قاضي القضاة تاج الدين السبكي انتهى والله أعلم.

عقد مجلس بسبب قاضي القضاة تاج الدين السبكي

ولما كان يوم الاثنين والعشرين من ربيع الأول عقد مجلس حافل بدار السعادة بسبب ما رمى به قاضي القضاة تاج الدين الشافعي ابن قاضي القضاة تقي الدين السبكي، وكنت ممن طلب إليه، فحضرته فيمن حضر، وقد اجتمع فيه القضاة الثلاثة، وخلق من المذاهب الأربعة، وآخرون من غيرهم، بحضرة نائب الشام سيف الدين منكلي بغا، وكان قد سافر هو إلى الديار المصرية إلى الأبواب الشريفة، واستنجز كتاباً إلى نائب السلطنة لجمع هذا المجلس ليسأل عنه الناس، وكان قد كتب فيه محضران متعاكسان أحدهما له والآخر عليه، وفي الذي عليه خط القاضيين المالكي والحنبلي، وجماعة آخرين، وفيه عظائم وأشياء منكرة جداً ينبو السمع عن استماعه. وفي الآخر خطوط جماعات من المذاهب بالثناء عليه، وفيه خطي بأني ما رأيت فيه إلا خيراً. ولما اجتمعوا أمر نائب السلطنة بأن يمتاز هؤلاء عن هؤلاء في المجالس، فصارت كل طائفة وحدها، وتحاذوا فيما بينهم، وتأصل عنه نائبه القاضي شمس الدين الغزي، والنائب الآخر بدر الدين بن وهبة وغيرهما، وصرح قاضي القضاة جمال الدين الحنبلي بأنه قد ثبت عنده ما كتب به خطه فيه، وأجابه بعض الحاضرين منهم بدائم النفوذ، فبادر القاضي الغزي فقال للحنبلي: أنت قد ثبتت عداوتك لقاضي القضاة تاج الدين، فكثر القول وارتفعت الأصوات وكثر الجدال والمقال، وتكلم قاضي القضاة جمال الدين المالكي أيضاً بنحو ما قال الحنبلي، فأجيب بمثل ذلك أيضاً، وطال المجلس فانفصلوا على مثل ذلك، ولما بلغت الباب أمر نائب السلطنة برجوعي إليه، فإذا بقية الناس من الطرفين والقضاة الثلاثة جلوس، فأشار نائب السلطنة بالصلح بينهم وبين قاضي القضاة تاج الدين ـ يعني وأن يرجع القاضيان عما قالا ـ فأشار الشيخ شرف الدين ابن قاضي الجبل وأشرت أنا أيضاً بذلك فلان المالكي وامتنع الحنبلي، فقمنا والأمر باق على ما تقدم، ثم اجتمعنا يوم الجمعة بعد العصر عند نائب السلطنة عن طلبه فتراضوا كيف يكون جواب الكتابات مع مطالعة نائب السلطنة، ففعل ذلك وسار البريد بذلك إلى الديار المصرية، ثم اجتمعنا أيضاً يوم الجمعة بعد الصلاة التاسع عشر من ربيع الآخر بدار السعادة، وحضر القضاة الثلاثة وجماعة آخرون، واجتهد نائب السلطنة على الصلح بين القضاة وقاضي

الشافعية وهو بمصر، فحصل خلف وكلام طويل، ثم كان الأمر أن سكنت أنفس جماعة منهم إلى ذلك على ما سنذكره في الشهر الآتي.

وفي مستهل ربيع الآخر كانت وفاة المعلم داود الذي كان مباشراً لنظارة الجيش، وأضيف إليه نظر الدواوين إلى آخر وقت، فاجتمع له هاتان الوظيفتان ولم يجتمعا لأحد قبله كما في علمي، وكان من أخبر الناس بنظر الجيش وأعلمهم بأسماء رجاله، ومواضع الإقطاعات، وقد كان والده نائباً لنظار الجيوش، وكان يهوذياً قرائياً، فأسلم ولده هذا قبل وفاة نفسه بسنوات عشر أو نحوها، وقد كان ظاهره جيداً والله أعلم بسره وسريرته، وقد تمرض قبل وفاته بشهر أو نحوه، حتى كانت وفاته في هذا اليوم فصلّي عليه بالجامع الأموي تجاه النسر بعد العصر، ثم حمل إلى تربة له أعدها في بستانه بحوش، وله من العمر قريب الخمسين.

وفي أوائل هذا الشهر ورد المرسوم الشريف السلطاني بالردّ على نساء النصارى ما كان أخذ منهن مع الجباية التي كان تقدم أخذها منهن، وإن كان الجميع ظلماً، ولكن الأخذ من النساء أفحش وأبلغ في الظلم، والله أعلم. وفي يوم الاثنين الخامس عشر منه أمر نائب السلطنة أعزه الله بكبس بساتين أهل الذمة فوجد فيها من الخمر المعتصر من الخوابي والحباب فأريقت عن آخرها ولله الحمد والمنة، بحيث جرت في الأزقة والطرقات، وفاض نهر توزا من ذلك، وأمر بمصادرة أهل الذمة الذين وجد عندهم ذلك بمال جزيل، وهم تحت الجباية، وبعد أيام نودي في البلد بأن نساء أهل الذمة لا تدخل الحمامات مع المسلمات، بل تدخل حمامات تختص بهن، ومن دخل من أهل الذمة الرجال مع الرجال المسلمين يكون في رقاب الكفار علامات يعرفون بها من أجراس وخواتيم ونحو ذلك. وأمر نساء أهل الذمة بأن تلبس المرأة خفيها مخالفين في اللون بأن يكون أحدهما أبيض والآخر أصفر أو نحو ذلك.

ولما كان يوم الجمعة التاسع عشر من الشهر ـ أعني ربيع الآخر ـ طلب القضاة الثلاثة وجماعة من المفتيين: فمن ناحية الشافعي نائباه، وهما القاضي شمس الدين الغزي والقاضي بدر الدين بن وهبة، والشيخ جمال الدين ابن قاضي الزبداني، والمصنف الشيخ عماد الدين بن كثير والشيخ بدر الدين حسن الزرعي، والشيخ تقي الدين الفارقي. ومن الجانب الآخر قاضيا القضاة جمال الدين المالكي والحنبلي، والشيخ شرف الدين ابن قاضي الجبل الحنبلي، والشيخ جمال الدين بن الشريشي، والشيخ عز الدين بن حمزة ابن شيخ السلامية الحنبلي، وعماد الدين الحنائي، فاجتمعت مع نائب السلطنة بالقاعة التي في صدر إيوان دار السعادة، وجلس نائب السلطنة في صدر المكان، وجلسنا حوله، فكان أول ما قال: كنا نحن الترك وغيرنا إذا اختلفنا واختصمنا نجيء بالعلماء فيصلحون بيننا، فصرنا نحن إذا اختلفت العلماء واختصموا فمن يصلح بينهم؟ وشرع في تأنيب من شنع على الشافعي بما تقدم ذكره من تلك الأقوال والأفاعيل التي كتبت في تلك الأوراق وغيرها، وأن هذا يشفي الأعداء بنا، وأشار بالصلح بين القضاة بعضهم من بعض فصمم بعضهم وامتنع، وجرت مناقشات من بعض الحاضرين فيما بينهم، ثم حصل بحث في مسائل ثم قال نائب السلطنة أخيراً: أما سمعتم قول الله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾

[المائدة: ٩٥] فلانت القلوب عند ذلك وأمر كاتب السرّ أن يكتب مضمون ذلك في مطالعة إلى الديار المصرية، ثم خرجنا على ذلك انتهى والله أعلم.

عودة قاضي القضاة السبكي إلى دمشق

في يوم الأربعاء التاسع والعشرين من جمادى الأولى قدم من ناحية الكسوة وقد تلقاه جماعة من الأعيان إلى الصمين وما فوقها، فلما وصل إلى الكسوة كثر الناس جداً وقاربها قاضي قضاة الحنفية الشيخ جمال الدين بن السراج، فلما أشرف من عقبة شحورا تلقاه خلائق لا يحصون كثرة وأشعلت الشموع حتى مع النساء، والناس في سرور عظيم، فلما كان قريباً من الجسورة تلقته الخلائق الخليفيين مع الجوامع والمؤذنون يكبرون، والناس في سرور عظيم، ولما قارب باب النصر وقع مطر عظيم والناس معه لا تسعهم الطرقات، يدعون له ويفرحون بقدومه، فدخل دار السعادة وسلم على نائب السلطنة، ثم دخل الجامع بعد العصر ومعه شموع كثيرة، والرؤساء أكثر من العامة. ولما كان يوم الجمعة ثاني شهر جمادى الآخرة ركب قاضي القضاة السبكي إلى دار السعادة وقد استدعى نائب السلطنة بالقاضيين المالكي والحنبلي، فأصلح بينهم، وخرج من عنده ثلاثتهم يتماشون إلى الجامع، فدخلوا دار الخطابة فاجتمعوا هناك، وضيفهما الشافعي، ثم حضرا خطبته الحافلة البليغة الفصيحة، ثم خرجوا ثلاثتهم من جوا إلى دار المالكي، فاجتمعوا هنالك وضيفهم المالكي هنالك ما تيسر. والله الموفق للصواب.

وفي أوائل هذا الشهر وردت المراسيم الشريفة السلطانية من الديار المصرية بأن يجعل للأمير من إقطاعه النصف خاصاً له، وفي النصف الآخر يكون لأجناده، فحصل بهذا رفق عظيم بالجند، وعدل كثير ولله الحمد، وأن يتجهز الأجناد ويحرصوا على السبق والرمي بالنشاب، وأن يكونوا مستعدين متى استنفروا نفروا، فاستعدوا لذلك وتأهبوا لقتال الفرنج، كما قال الله تعـــالـــى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]. وثبت في الحديث أن رسول الله ﷺ قال على المنبر: «ألا إنّ القوّة الرّمي»(١). وفي الحديث الآخر «ارمُوا وارْكَبُوا وأنْ تَرْمُوا أحَبُّ إليّ»(٢).

وفي يوم الاثنين بعد الظهر عقد مجلس بدار السعادة للكشف على قاضي القضاة جمال الدين المرداوي الحنبلي بمقتضى مرسوم شريف ورد من الديار المصرية بذلك، وذلك بسبب ما يعتمده كثير من شهود مجلسه من بيع أوقاف لم يستوف فيها شرائط المذهب، وإثبات إعسارات أيضاً كذلك وغير ذلك انتهى.

الوقعة بين الأمراء بالديار المصرية

وفي العشر الأخير من جمادى الآخرة ورد الخبر بأن الأمير الكبير يلبغا الخاصكي خرج

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة حديث ١٦٧، وأبو داود في الجهاد باب ٢٣، والترمذي في تفسير سورة ٨، باب ٥، وابن ماجه في الجهاد باب ١٩، والدارمي في الجهاد باب ١٤، وأحمد في المسند ٤/١٥٧.

(٢) أخرجه أبو داود في الجهاد باب ٢٣، والنسائي في الخيل باب ٨، وابن ماجه في الجهاد باب ١٩، والدارمي في الجهاد باب ١٤.

عليه جماعة من الأمراء مع الأمير سيف الدين طيبغا الطويل، فبرز إليهم إلى قبة القصر فالتقوا معه هنالك، فقتل جماعة وجرح آخرين، وانفصل الحال على مسك طيبغا الطويل وهو جريح، ومسك أرغون السعردي الدويدار، وخلق من أمراء الألوف والطبلخانات، وجرت خبطة عظيمة استمر فيها الأمير الكبير يلبغا على عزه وتأييده ونصره ولله الحمد والمنة. وفي ثاني رجب يوم السبت توجه الأمير سيف الدين بيدمر الذي كان نائب دمشق إلى الديار المصرية بطلب الأمير يلبغا ليؤكد أمره في دخول البحر لقتال الفرنج وفتح قبرص إن شاء الله، انتهى والله تعالى أعلم.

مما يتعلق بأمر بغداد

أخبرني الشيخ عبد الرحمن البغدادي أحد رؤساء بغداد وأصحاب التجارات، والشيخ شهاب الدين العطار ـ السمسار في الشرب بغدادي أيضاً ـ أن بغداد بعد أن استعادها أويس ملك العراق وخراسان من يد الطواشي مرجان، واستحضره فأكرمه وأطلق له، فاتفقا أن أصل الفتنة من الأمير أحمد أخو الوزير، فأحضره السلطان إلى بين يديه وضربه بسكين في كرشه فشقه، وأمر بعض الأمراء فقتله، فانتصر أهل السنة لذلك نصرة عظيمة، وأخذ خشبته أهل باب الأزج فأحرقوه وسكنت الأمور وتشفوا بمقتل الشيخ جمال الدين الأنباري الذي قتله الوزير الرافضي فأهلكه الله بعده سريعاً انتهى.

وفاة قاضي القضاة عز الدين عبد العزيز بن حاتم الشافعي

وفي العشر الأول من شهر شعبان قدم كتاب من الديار المصرية بوفاة قاضي القضاة بدر الدين محمد بن جماعة بمكة شرّفها الله، في العاشر من جمادى الآخرة ودفن في الحادي عشر في باب المعلى وذكروا أنه توفي وهو يقرأ القرآن، وأخبرني صاحب الشيخ محيي الدين الرحبي حفظه الله تعالى أنه كان يقول كثيراً: أشتهي أن أموت وأنا معزول، وأن تكون وفاتي بأحد الحرمين. فأعطاه الله ما تمناه: عزل نفسه في السنة الماضية، وهاجر إلى مكة، ثم قدم المدينة لزيارة رسول الله ﷺ، ثم عاد إلى مكة، وكانت وفاته بها في الوقت المذكور، فرحمه الله وبلّ بالرحمة ثراه. وقد كان مولده في سنة أربع وتسعين، فتوفي عن ثلاث وسبعين سنة، وقد نال العز عزاً في الدنيا ورفعة هائلة، ومناصب وتداريس كبار، ثم عزل نفسه وتفرغ للعبادة والمجاورة بالحرمين الشريفين، فيقال له ما قلته في بعض المراثي.

فَكَأَنَّكَ قَدْ أُعْلِمْتَ بِالْمَوْتِ حَتَّى تَزَوَّدْتَ لَهُ مِنْ خِيَارِ الزَّادِ

وحضر عندي في يوم الثلاثاء تاسع شوال البترك بشارة الملقب بميخائيل، وأخبرني أن المطارنة بالشام بايعوه على أن جعلوه بتركاً بدمشق عوضاً عن البترك بأنطاكية، فذكرت له أن هذا أمر مبتدع في دينهم، فإنه لا تكون البتاركة إلا أربعة بالإسكندرية وبالقدس وبأنطاكية وبرومية، فنقل بترك رومية إلى اسطنبول وهي القسطنطينية، وقد أنكر عليهم كثير منهم إذ ذاك، فهذا الذي ابتدعوه في هذا الوقت أعظم من ذلك. لكن اعتذر بأنه في الحقيقة هو عن أنطاكية، وإنما أذن له في المقام بالشام الشريف لأجل أنه أمره نائب السلطنة أن يكتب عنه وعن أهل ملتهم إلى

صاحب قبرص، يذكر له ما حل بهم من الخزي والنكال والجناية بسبب عدوان صاحب قبرص على مدينة الاسكندرية، وأحضر لي الكتب إليه وإلى ملك اسطنبول وقرأها على من لفظه لعنه الله ولعن المكتوب إليهم أيضاً. وقد تكلمت معه في دينهم ونصوص ما يعتقده كل من الطوائف الثلاث، وهم الملكية واليعقوبية ومنهم الإفرنج والقبط، والنسطورية، فإذا هو يفهم بعض الشيء، ولكن حاصله أنه حمار من أكفر الكفار لعنه الله.

وفي هذا الشهر بلغنا استعادة السلطان أويس ابن الشيخ حسن ملك العراق وخراسان لبغداد من يد الطواشي مرجان الذي كان نائبه عليهما، وامتنع من طاعة أويس، فجاء إليه في جحافل كثيرة فهرب مرجان ودخل أويس إلى بغداد دخولاً هائلاً، وكان يوماً مشهوداً.

وفي يوم السبت السابع والعشرين من شعبان قدم الأمير سيف الدين بيدمر من الديار المصرية على البريد أمير مائة مقدم ألف، وعلى نيابة يلبغا في جميع دواوينه بدمشق وغيرها، وعلى إمارة البحر وعمل المراكب، فلما قدم أمر بجمع جميع النشارين والنجارين والحدادين وتجهيزهم لبيروت لقطع الأخشاب، فسيروا يوم الأربعاء ثاني رمضان وهو عازم على اللحاق بهم إلى هنالك وبالله المستعان. ثم أتبعوا بآخرين من نجارين وحدادين وعتالين وغير ذلك، وجعلوا كل من وجدوه من ركاب الحمير ينزلونه ويركبوا إلى ناحية البقاع، وسخروا لهم من الصناع وغيرهم، وجرت خبطة عظيمة وتباكى عوائلهم وأطفالهم، ولم يسلفوا شيئاً من أجورهم، وكان من اللائق أن يسلفوه حتى يتركوه إلى أولادهم.

وخطب برهان الدين المقدسي الحنفي بجامع يلبغا عن تقي الدين ابن قاضي القضاة شرف الدين الكفري، بمرسوم شريف ومرسوم نائب صفد استدمر أخي يلبغا، وشق ذلك عليه وعلى جده وجماعتهم، وذلك يوم الجمعة الرابع من رمضان، هذا وحضر عنده خلق كثير.

وفي يوم الخميس الرابع والعشرين منه قرىء تقليد قاضي القضاة شرف الدين ابن قاضي الجبل لقضاء الحنابلة، عوضاً عن قاضي القضاة جمال الدين المرداوي، عزل هو والمالكي معه أيضاً، بسبب أمور تقدم نسبتها لهما وقرىء التقليد بمحراب الحنابلة، وحضر عنده الشافعي والحنفي، وكان المالكي معتكفاً بالقاعة من المنارة الغربية، فلم يخرج إليهم لأنه معزول أيضاً برأي قاضي حماة، وقد وقعت شرور وتخبيط بالصالحية وغيرها.

وفي صبيحة يَوم الأربعاء الثلاثين من شهر رمضان خلع على قاضي القضاة سريّ الدين إسماعيل المالكي، قدم من حماة على قضاء المالكية، عوضاً عن قاضي القضاة جمال الدين المسلاتي، عزل عن المنصب، وقرىء تقليده بمقصورة المالكية من الجامع، وحضر عند القضاة والأعيان.

وفي صبيحة يوم الأربعاء سابع شوال قدم الأمير خيار بن مهنا إلى دمشق سامعاً مطيعاً، بعد أن جرت بينه وبين الجيوش حروب متطاولة، كل ذلك ليطأ البساط، فأبى خوفاً من المسك والحبس أو القتل، فبعد ذلك كله قدم هذا اليوم قاصداً الديار المصرية ليصطلح مع الأمير الكبير يلبغا، فتلقاه الحجبة والمهمندارية والخلق، وخرج الناس للفرجة، فنزل القصر الأبلق، وقدم

معه نائب حماة عمر شاه فنزلَ معه. وخرج معه ثاني يوم إلى الديار المصرية. وأقرأني القاضي ولي الدين عبد الله وكيل بيت المال كتاب والده قاضي القضاة بهاء الدين بن أبي البقاء قاضي قضاة الشافعية بالديار المصرية، أن الأمير الكبير جدد درساً بجامع ابن طولون فيه سبعة مدرسين للحنفية، وجعل لكل فقيه منهم في الشهر أربعين درهماً، وأردب قمح، وذكر فيه أن جماعة من غير الحنفية انتقلوا إلى مذهب أبي حنيفة لينزلوا في هذا الدرس.

درس التفسير بالجامع الأموي

وفي صبيحة يوم الأربعاء الثامن والعشرين من شوال سنة سبع وستين وسبعمائة حضر الشيخ العلّامة الشيخ عماد الدين بن كثير درس التفسير الذي أنشأه ملك الأمراء نائب السلطنة الأمير سيف الدين منكلي بغا رحمه الله تعالى من أوقاف الجامع الذي جددها في حال نظره عليه أثابه الله، وجعل من الطلبة من سائر المذاهب خمسة عشر طالباً لكل طالب في الشهر عشرة دراهم، وللمعيد عشرون ولكاتب الغيبة عشرون، وللمدرس ثمانون، وتصدق حين دعوته لحضور الدرس، فحضر واجتمع القضاة والأعيان، وأخذ في أول تفسير الفاتحة، وكان يوماً مشهوداً ولله الحمد والمنة، وبه التوفيق والعفة انتهى[1]. قضاة الحنابلة الشيخ شرف الدين أحمد بن الحسن ابن قاضي الجبل المقدسي، وناظر الدواوين سعد الدين بن التاج إسحق؛ وكاتب السر فتح الدين بن الشهيد، وهو شيخ الشيوخ أيضاً، وناظر الجيوش الشامية برهان الدين بن الحلي، ووكيل بيت المال القاضي ولي الدين ابن قاضي القضاة بهاء الدين أبي البقاء. انتهى.

سفر نائب السلطنة إلى الديار المصرية

لما كانت ليلة الحادي والعشرين قدم طشتمر دويدار يلبغا على البريد، فنزل بدار السعادة، ثم ركب هو ونائب السلطنة بعد العشاء الأخيرة في المشاعل، والحجبة بين أيديهما والخلائق يدعون لنائبهم، واستمروا كذلك ذاهبين إلى الديار المصرية، فأكرمه يلبغا وأنعم عليه وسأله أن يكون ببلاد حلب، فأجابه إلى ذلك وعاد فنزل بدار سنجر الإسماعيلي، وارتحل منها إلى حلب، وقد اجتمعت به هنالك وتأسف الناس عليه، وناب في الغيبة الأمير سيف الدين زبالة، إلى أن قدم النائب المعز السيفي قشتمر عبد الغني على ما سيأتي. وتوفي القاضي شمس الدين بن منصور الحنفي الذي كان نائب الحكم رحمه الله يوم السبت السادس والعشرين من المحرم، ودفن بالباب الصغير، وقد قارب الثمانين.

وفي هذا اليوم أو الذي بعده توفي القاضي شهاب الدين أحمد ابن الوزوازة ناظر الأوقاف بالصالحية. وفي صبيحة يوم الجمعة ثالث صفر نودي في البلد أن لا يتخلف أحد من أجناد

---

(١) كذا بنسخ الأستانة، وفي المصرية بياض نصف صفحة في الأصل، وهذا يدل على أن هذا الكلام من تأليف تلميذ ابن كثير، وسقط كلام فيه أول السنة.

الحلقة عن السفر إلى بيروت، فاجتمع الناس لذلك فبادر الناس والجيش ملبسين إلى سطح المزة، وخرج ملك الأمراء أمير علي كان نائب الشام من داره داخل باب الجابية في جماعته ملبسين في هيئة حسنة وتجمل هائل، وولده الأمير ناصر الدين محمد وطلبه معه، وقد جاء نائب الغيبة والحجبة إلى بين يديه إلى وطاقه وشاوروه في الأمر، فقال: ليس لي هاهنا أمر، ولكن إذا حضر الحرب والقتال فلي هناك أمر، وخرج خلق من الناس متبرعين، وخطب قاضي القضاة تاج الدين الشافعي بالناس يوم الجمعة على العادة، وحرض الناس على الجهاد، وقد ألبس جماعة من غلمانه اللأمة والخوذ وهو على عزم المسير مع الناس إلى بيروت ولله الحمد والمنة. ولما كان من آخر النهار رجع الناس إلى منازلهم وقد ورد الخبر بأن المراكب التي رئيت في البحر إنما هي مراكب تجار لا مراكب قتال، فطابت قلوب الناس، ولكن ظهر منهم استعداد عظيم ولله الحمد.

وفي ليلة الأحد خامس صفر قدم بالأمير سيف الدين شرشي الذي كان إلى آخر وقت نائب حلب محتاطاً عليه بعد العشاء الآخرة إلى دار السعادة بدمشق، فسير معزولاً عن حلب إلى طرابلس بطالاً، وبعث في سرجين صحبة الأمير علاء الدين بن صبح.

وبلغنا وفاة الشيخ جمال الدين بن نباتة حامل لواء شعراء زمانه بديار مصر بمرستان الملك المنصور قلاوون، وذلك يوم الثلاثاء سابع صفر من هذه السنة رحمه الله تعالى. وفي ليلة ثامنه هرب أهل حبس السد من سجنهم وخرج أكثرهم فأرسل الولاة صبيحة يومئذٍ في أثرهم فمسك كثير ممن هرب فضربوهم أشد الضرب، وردوهم إلى شر المنقلب.

وفي يوم الأربعاء خامس عشره نودي بالبلدان أن لا يعامل الفرنج البنادقة والحبوبة والكيتلان واجتمعت في آخر هذا اليوم بالأمير زين الدين زبالة نائب الغيبة النازل بدار الذهب فأخبرني أن البريدي أخبره أن صاحب قبرص رأى في النجوم أن قبرص مأخوذة، فجهز مركبين من الأسرى الذين عنده من المسلمين إلى يلبغا؛ ونادى في بلاده أن من كتم مسلماً صغيراً أو كبيراً قتل، وكان من عزمه أن لا يبقى أحداً من الأسارى إلا أرسله.

وفي آخر نهار الأربعاء خامس عشره قدم من الديار المصرية قاضي القضاة جمال الدين المسلاتي المالكي الذي كان قاضي المالكية فعزل في أواخر رمضان من العام الماضي، فحج ثم قصد الديار المصرية فدخلها لعله يستغيث فلم يصادفه قبول، فادّعى عليه بعض الحجاب وحصل له ما يسوءه، ثم خرج إلى الشام فجاء فنزل في التربة الكاملية شمالي الجامع، ثم انتقل إلى منزل ابنته متموضاً[1]، والطلابات والدعاوى والمصالحات عنه كثيرة جداً، فأحسن الله عاقبته.

وفي يوم الأحد بعد العصر دخل الأمير سيف الدين طيبغا الطويل من القدس الشريف إلى دمشق فنزل بالقصر الأبلق، ورحل بعد يومين أو ثلاثة إلى نيابة حماة حرسها الله بتقليد من الديار

(١) كذا بالأصول، ولعلها متمرضاً.

المصرية، وجاءت الأخبار بتولية الأمير سيف الدين منكلي بغا نيابة حلب عوضاً عن نيابة دمشق وأنه حصل له من التشريف والتكريم والتشاريف بديار مصر شيء كثير ومال جزيل وخيول وأقمشة وتحف يشق حصرها، وأنه قد استقر بدمشق الأمير سيف الدين اقشتمر عبد الغني، الذي كان حاجب الحجاب بمصر، وعوض عنه في الحجوبية الأمير علاء الدين طيبغا أستاذ دار يلبغا وخلع على الثلاثة في يوم واحد.

وفي يوم الأحد حادي عشر ربيع الأول اشتهر في البلد قضية الفرنج أيضاً بمدينة الاسكندرية وقدم بريدي من الديار المصرية بذلك، واحتيط على من كان بدمشق من الفرنج وسجنوا بالقلعة وأخذت حواصلهم، وأخبرني قاضي القضاة تاج الدين الشافعي يومئذٍ أن أصل ذلك أن سبعة مراكب من التجار من البنادقة[1] من الفرنج قدموا إلى الاسكندرية فباعوا بها واشتروا، وبلغ الخبر إلى الأمير الكبير يلبغا أن مركباً من هذه السبعة إلى صاحب قبرص، فأرسل إلى الفرنج يقول لهم: أن يسلموا هذه المركب فامتنعوا من ذلك وبادروا إلى مراكبهم، فأرسل في آثارهم ست شواني[2] مشحونة بالمقاتلة، فالتقوا هم والفرنج في البحر فقتل من الفريقين خلق ولكن من الفرنج أكثر وهربوا فارين بما معهم من البضائع فجاء الأمير علي الذي كان نائب دمشق أيضاً في جيش مبارك ومعه ولده ومماليكه في تجمل هائل، فرجع الأمير علي واستمر نائب السلطة حتى وقف على بيروت ونظر في أمرها، وعاد سريعاً. وقد بلغني أن الفرنج جاؤوا طرابلس غزاة وأخذوا مركباً للمسلمين من الميناء وحرقوه، والناس ينظرون ولا يستطيعون دفعهم ولا منعهم؛ وأن الفرنج كروا راجعين، وقد أسروا ثلاثة من المسلمين، فإنا لله وإنا إليه راجعون. انتهى والله أعلم.

مقتل يلبغا الأمير الكبير

جاء الخبر بقتله إلينا بدمشق في ليلة الاثنين السابع عشر من ربيع الآخر مع أسيرين جاءا على البريد من الديار المصرية، فأخبرا بمقتله في يوم الأربعاء ثاني عشر هذا الشهر: تمالأ عليه مماليكه حتى قتلوه يومئذٍ، وتغيرت الدولة ومسك من أمراء الألوف والطبلخانات جماعة كثيرة، واختبطت الأمور جداً، وجرت أحوال صعبة، وقام بأعباء القضية الأمير سيف الدين طيتمر النظامي وقوي جانب السلطان ورشد، وفرح أكثر الأمراء بمصر بما وقع، وقدم نائب السلطنة إلى دمشق من بيروت فأمر بدق البشائر، وزينت البلد ففعل ذلك، وأطلقت الفرنج الذين كانوا بالقلعة المنصورة فلم يهن ذلك على الناس.

وهذا آخر ما وجد من التاريخ والحمد لله وحده، وصلواته على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

---

(١) البنادقة: نسبة إلى البندقيّة.

(٢) الشواني: نوع من السفن.

فهرس المحتويات

سنة ثمان وتسعين وستمائة

سنة تسع وتسعين وستمائة

سنة سبعمائة من الهجرة النبوية

سنة أربع وسبعمائة

سنة خمس وسبعمائة

سنة ست وسبعمائة

سنة سبع وسبعمائة

سنة ثمان وسبعمائة

سنة تسع وسبعمائة

سنة عشر وسبعمائة

سنة إحدى عشرة وسبعمائة

سنة اثنتي عشرة وسبعمائة

سنة سبع عشرة وسبعمائة

سنة ثمان عشرة وسبعمائة

سنة تسع عشرة وسبعمائة

سنة عشرين وسبعمائة

سنة إحدى وعشرين وسبعمائة

سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة [من الهجرة النبوية]

سنة خمس وعشرين وسبعمائة

سنة ست وعشرين وسبعمائة

سنة تسع وعشرين وسبعمائة

سنة ثلاثين وسبعمائة

سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة

سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة

سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة [من الهجرة النبوية]

سنة خمس وعشرين وسبعمائة

سنة ست وعشرين وسبعمائة

سنة خمس وستين وسبعمائة

سنة ست وستين وسبعمائة

سنة سبع وستين وسبعمائة